

# الثقافة و الإمبريالية



مكتبة بغداد

أدوار سعيدة

ترجمة  
كمال أبودي

دار الآداب

الثقافة والإمبريالية  
إدوارد سعيد / مفكر فلسطيني  
الطبعة الرابعة عام 2014  
جميع الحقوق محفوظة  
ISBN: 978-9953-89-304-4

All rights in Arabic language reserved to Dar al Adab. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق باللغة العربية محفوظة لدار الآداب. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير - بناية بيهم

ص.ب. 11-4123

بيروت - لبنان

هاتف: 861632 (03) - 861633 (01) - 795135 (01)

فاكس: 009611861633

e-mail: rana@daraladab.com

info@daraladab.com



/Dar.Al.Adaab



@DarAlAdab



daraladab.com

<https://telegram.me/maktabatbaghdad>

إهداء المؤلف

إلى إقبال أحمد

# إهداء المترجم

إلى بسام أبو ديب

أخاً، وصديقاً، وجرحاً  
مشبوهاً بالاستعمار، غربياً، وإسرائيلياً، وصهيونياً،  
وماخوذاً بأدوارد سعيد  
لعله يبرهن أن ثمة، أيضاً، روحاً للمقاومة والكفاح لا تموت  
ونبع يقين لا ينضب،  
فتلتئم بعض الجراح.

وإلى أدوارد سعيد

المضىء،  
الذي سبقني مضيئاً،  
أيّاً أطبقت الظلمات،  
دليل محبة شخصية  
كرهى لوغبتها أن يبرهن هذا الكتابُ النور،  
بالعربية، لغته الثكلي،  
نقية، لا هجينة ولا مستهجنة،  
قبل أن تعصف بهجاننا اللغات  
وتلغغ أصواتنا الرياح.



# المحتويات

مقدمة المؤلف للطبعة العربية

مقدمة المترجم

مقدمة المؤلف للطبعة الأصلية باللغة الإنكليزية

**الفصل الأول: أقاليم متقاطعة، تواريخ متواشجة**

١- الامبراطورية، والجغرافيا، والثقافة

٢- صور الماضي، نقيّة ومشوية

٣- رؤيان في قلب الظلام

٤- تجارب متفاوتة

٥- ربط الامبراطورية بالتاويل الديني

**الفصل الثاني: رؤيا معرّزة**

١- السرد <الروائي> والفضاء الاجتماعي

٢- جين أوستن والامبراطورية

٣- الاكتمالية الثقافية للامبراطورية

٤- الامبراطورية في حالة الفعل :

مُنّاة <أويرا> عايدة لـ فيردى

٥- ملذّات الامبريالية

٦- المواطن الأصلي تحت السيطرة

٧- كامو والتجربة الاستعمارية الفرنسية

٨- إشارة حول الحداثة

**الفصل الثالث: المقاومة والمعارضة**

١- ثمة طرفان

٢- موضوعات ثقافة المقاومة

٣- بيتس وفكفكة الاستعمار

٤- الرحلة إلى <الداخل> ويزوغ المعارضة

٥- التعاون، والاستقلال، والتحرر

**الفصل الرابع: التحرّر من السيطرة في المستقبل**

١- الارتقاء الأميركي : الفضاء العمومي في حالة حرب

٢- تحدي السنّينة والسلطة

٣- حركات وهجرات

كشاف مصطلحي

الإشارات بالعربية

الإشارات بالإنكليزية



# مقدمة المؤلف للترجمة العربية

إدوارد سعيد

تضع ترجمة البرفسور كمال أبو ديب الشاقفة لـ الثقافة والامبريالية بين يدي القارئ الدورة المكتملة لكتابين (كان الاستشراق أولهما) تفصل بينهما زمنياً خمس عشرة سنة، لكنهما على مستوى التصور والتخطيط جزءان متصلان من مسارٍ فكري واحد.

لقد أثار الاستشراق، حين صدر في صيغته الأصلية الانكليزية عام ١٩٧٨، قدراً لافتاً من الاهتمام في العالمين العربي والاسلامي، إضافةً إلى اهتمام القراء والدارسين المتخصصين بالشرق الأوسط. وفي عام ١٩٨١ صدر الاستشراق في ترجمة عربية لافتة قام بها الدكتور أبو ديب، ليتعزّزَ مقامُ هذا الكتاب بوصفه إما دفاعاً عن الإسلام أو هجوماً مقذعاً عنيفاً ضد الغرب؛ وكلا الأمرين لا يمتُ بصلةٍ إلى ما كنتُ قد انتويته أصلاً من تأليف الكتاب. ومع مرور الزمن، اكتسبت كلمة «الاستشراق» شهرةً واسعةً باعتبارها لفظةً تجريح وتشهير (ومن المفارقات اللاذعة أنني شخصياً هوجمتُ من قِبَلِ إذاعة ياسر عرفات الرسمية، أثناء زيارةٍ قمتُ بها لفلسطين عام ١٩٩٦، بتهمة أنني مستشرق) وذهبت أذراج الرياح التحديات المعرفية والمنهجية الأساسية التي جسدها الكتاب. لقد كانت ثمة محاولات جزئية قامَ بها بعضُ القراء والنقاد العرب، لمعالجة تنقيدي لماركس، أو للمؤسسة الأميركية؛ غير أن الاستشراق جوهرياً، أفرد في العالم العربي وأُسندَ إليه دورٌ يقع في نقطةٍ ما بين صرخة الحربِ ولاثحةٍ من الاستنكارات وإعلانات الشجب.

إنَّ الأمر في نظري ليقع على مشارف اللغز أو السرِّ: لماذا ساعد الاستشراق في باكستان، والهند، وأفريقيا، واليابان، وأميركا اللاتينية، وأوروبا، والولايات المتحدة، على إطلاق العديد من أنهار الإنشاء الجديدة، وأساليب التحليل الجديدة، وإعادةات تأويلٍ للتاريخ والثقافة، فيما ظلَّ تأثيره في العالم العربي محدوداً؟<sup>١</sup> لكن على أية حال، ينبغي الآن — الثقافة والامبريالية، الذي يقوم فعلياً بموضعة المشكلات التي عالجها الاستشراق في سياقٍ أوسع — إذا كان لتقاولي ما يسوغه — أن يعيد إحياء المناظرة حول

١ - أودُّ أن أعبر عن وجهة نظر مخالفة تماماً لوجهة نظر مؤلف الاستشراق حول تأثيره في العالم العربي. فلقد كان هذا التأثير، في المجالات التي اعرفها، عميقاً وجذرياً إلى درجة يستحيل وصفها هنا. ولقد جاء هذا التأثير في مفصل تاريخي حاسم تماماً (الترجم).

السيطرة والمقاومة، وحول التاريخ والجغرافيا، وحول استخدامات الثقافة ومحاولات التفكير بالتحريير، وجميع هذه الأمور كانت متمركزة في اللباب من الاستشراق. وإنه لذو أهمية خاصة بالنسبة لي، كعربيٍّ وغربيٍّ، <أن ينجلي> أن فكرة التعددية الثقافية أو الهُجْنَة - التي تشكّل الأساس الحقيقي للهوية اليوم - لا تؤدّي بالضرورة دائماً إلى السيطرة والعداوة، بل تؤدّي إلى للمشاركة، وتجاوز الحدود، وإلى التواريخ المشتركة والمتقاطعة. وإنه لعلّى قدر كبير من الأهمية أن نتذكر ذلك في وقتٍ يحاول فيه متطرفون مثل صامويل هنتنغتون أن يُقنعوا العالم بأن "صدام الحضارات" أمر محتوم لا مفرّ منه. كذلك أطرّح في هذا الكتاب أن فكفكة الاستعمار decolonization ومناهضة الامبريالية تظلّان إلى حدٍّ مأساوي غير مُتَجَرَّبَيْن حين تصبح رموزُ الاستقلال القومي أهدافاً قائمة بذاتها. إنَّ جُماع التاريخ الحديث للعالم الذي كان خاضعاً في ما مضى للاستعمار - من شبه القارة الهندية، واندونيسيا، والعالم العربي، إلى معظم أفريقيا - هو التاريخ المؤسسي لهذا التقديس الأصمّي الضالّ للدولة - الأمة، بديكتاتوريتها المتغطرسين، ومجتمعاتها المستكبرة المعادية للديمقراطية، وباستجوابيتها، وبمشهدياتها الطبيعية التي يسودها القحط الثقافي. وعلاوةً، فلقد حاولتُ هنا أن أظهر أنه ضمن المقاومة الوطنية للامبريالية نفسها، في كل مكان تقريباً، كان ثمة دائماً تيارٌ نقديٌّ أبصر المخاطر <الأشراك> الكامنة في القومية، وأنه - كما قال <فرانتز> فانون بكل تلك النبوية ويكل ذلك الإيجاز المُلفِز أيضاً - سيكون ضرورياً ضرورةً مطلقة أن يتحوّل الوعي القومي إلى وعي اجتماعي؛ ذلك أن التحرير، كما قال فانون أيضاً، هو صناعةٌ أرواحٍ جديدة، لا مجرد استبدالٍ شرطيٍّ أبيض بأخر أصلائي.

ما حاولتُ أن أفعله في هذا الكتاب، إذن، هو تقديم أجوبة على أسئلةٍ أثارها الاستشراق، واستكمالُ تلك الأسئلة. غير أنني حاولتُ أيضاً أن أكون أكثر تحديداً فيما يخصُّ مقولاتٍ منهجيةً متعددة. وبين أبرز هذه المقولات ما أسمّيه: القراءة الطباقية، وأولوية الجغرافيا، والتحليل الدقيق للاستخطاطيات <الاستراتيجيات> الامبريالية، كما للمعارضة والمقاومة ضد الامبريالية. لقد كنتُ دائماً وما أزال أوّمن بأنَّ حدقَ الابتكار والسفسطة النظريين قد يبلغان حدّاً من الإفراط، ويخلفان وراءهما عالمَ التجربة التاريخية (وهو العالم الذي يشكّل في عُرْفِي وحدةَ التحليل المركزية)، ويشجّعان بشكل عام الميل إلى إنتاج مصطلحات متعاطلة متخصصة تثير لدى القارئ الحسّ بالاغتراب والنفور، بدلاً من أن تؤدّي إلى اجتذابه وانخراطه. إنَّ المنتجات العظيمة للثقافة هي منتجات محسوسة واستثنائية؛ وبالإشارة إلى الأعمال الجمالية، فإنه يمكن لهذه النتاجات أن تكون أعمالاً عظيمة من إبداع الخيال وأن تضمّ - في الوقت نفسه - وجهات نظر سياسية ظاهرة البشاعة والقبح؛ وجهات نظر تسلخ الإنسانية عن غير الأوروبيين، وتبرز شعوباً وأصقاعاً بأسرها خاضعةً ودونيةً، جاعلةً إيّاهم مقتضيةً حكمَ الأوروبيين. والمثال على أعمال كهذه رواية كيم لكينج، وهي رواية عظيمة، وعمل إمبريالي بعمق. إنَّ قراءة مفككة للاستعمار، كالقراءة التي أقدمتها في هذا الكتاب، تحفظ لكينج إنجازَه الجمالي دونما مساس؛ غير أنها تقوم أيضاً بموضعة تصوير روايته للتاريخ الهندي ولشعب الهند في منظورٍ يجلو أن

كبلنغ يُنكر على الهنود إمكانية التغيير والتطور السياسي. وإنني لأحاول أن أفعل الأمر نفسه في قرأتي لجين أوستن، مع أن كتابي حين صدر في بريطانيا أثار نقمة معظم مراجعي لما اعتبروه هجوماً على روائية لا صلة لها بالامبراطورية. وإنني لأطرح أن أوستن هي أكثر إشاقةً وقيمةً - لا أقلهما - كروائية عظيمة لأنها استطاعت أن تعالج الرقّ ومُسْتَنْبِتات قصب السنّ الكاريبية جنباً إلى جنب مع معالجتها للمهارة أداب السلوك لدى فئة السادة المزارعين الانكليز الذين يعيشون في بيت ريفي فخم.

ولقد حاولتُ أيضاً أن أظهر أن أدباً ونقداً جديدين قد بزغاً منذ المرحلة العظيمة لفكفكة الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية. فللمرة الأولى يصبح الأفارقة والآسيويون، عرباً وغير عرب - الذين كانوا دائماً موضوعاً لعلم الإنسان <الانثروبولوجيا> الغربي، وللسرديات الغربية، والنظريات التاريخية والتكهنات اللغوية الغربية، وكانوا في النصوص الثقافية الدليل السلبى على شتى أنواع الأفكار حول الشعوب غير الأوروبية الأقل تطوراً التي ظلتُ "جواهرها" ثابتةً رغم التاريخ - خلأقين لأدابهم وتواريخهم الخاصة، كما يصبحون أيضاً قراءً ناقدين لسجل المحفوظات الغربي. ولقد انفتحت إمكانات جديدة للتاريخ نتيجة لذلك، واكتشفتُ أشياء جديدة عن الأعمال العريقة <الكلاسيكية> للمكثون الشرائعي الغربي، الذي كان يُفترض عادةً أن علاقته بالامبريالية معدومة تماماً. لكن رغم أن هذا الأدب والنقد الجديد - الذي أنتج روائيين وشعراء مثل تشنوا أتشيبى، وسلمان رشدي، وديك وولكت، وول شوينكا، وأنيثا ديساي، وكثيرين غيرهم - هو ما بعد امبريالي، فإنه يظل متعالقاً بالامبريالية ذاتها. إن أهمية روائي عظيم للامبراطورية مثل جوزيف كونراد لا تكمن في كونه أثار أتشيبى ودفعه للكتابة ضده فحسب، بل في أن هذين الكاتبين وشائج في الأسلوب والمخيلة تواصل الوجود رغم الفوارق السياسية الهائلة بينهما. وإن إحدى المنظومات الرئيسية في الثقافة والامبريالية هي رفض الكتاب للفصل المطلق بين الأبيض وغير الأبيض بوصف هذا الفصل أسطورةً من الأساطير الأثمة للامبريالية ذاتها؛ فالحق أن عالمنا هو عالمٌ من المشاركة، والثقافات المتقاطعة التي تمتلك علاقاتها ونزاعاتها من الثراء الفئان ما يمتلكه التاريخ الإنساني عينه. وكذلك، فإنني أود أن أطرح على القارئ العربي أن في اكتناه الروابط العميقة والحيوية بيننا وبين الغرب، وإفريقيا، واليابان، والصين وأماكن غيرها، ما يفوق في عائدته وخصوبته تشييء خطّ متخيل يفصل ما يُفترض أنه "نقي صافي" من الأعراق والحضارات بعضها عن بعض.

وإنه لمن الملائم، أخيراً، أن أقول لقرائي العرب إن فلسطين، رغم أنها لا تُذكر هنا مراراً، تؤدّي دوراً تأسيسياً هاماً في تفكيرى بالعلاقة بين الثقافة والامبريالية. ولقد تحقق لدي اقتناع بهذا قبل عقدين من الزمن في كتابي مسألة فلسطين، حيث اقترحت للمرة الأولى أهمية المشروع الصهيوني لإعادة نخب فلسطين وأهلها تمهيداً لاحتلال الأرض. إن الأفكار المتعلقة بالفتوحات الماورابحارية، في الثقافة والامبريالية، وبالمساقطة، وبالاستكشافات الجغرافية، وبالسرديات المخترعة، ليوضحها أتم توضيح تاريخ الصهيونية. ويكمن الفرق الرئيسي بين الصهيونية والامبريالية الغربية التقليدية <الكلاسيكية> في أنه فيما غدت الأخيرة ممارسةً تاريخيةً للقوم شائعةً مستهجنةً ومنهزمة، فإن الأولى (ولاسيما امتداداتها المعلوماتية والإعلامية الضخمة التي لا يملك الفلسطينيون والعرب الآخرون حتى الآن إجابات وردوداً عليها إطلاقاً)، ما تزال قائمة

الآن، وإلى جانبها تقف بقوة المصادقة الغربية واليديع الغربي وإنني لأؤمن أيضاً إيماناً قوياً بأنه لا يمكن إلا لاستخطاطية للمقاومة منسقة متناغمة (بدلاً من الاستسلام الجبان والانطراح المملق الجاهل اللذين تمارسهما القيادة الفلسطينية الراهنة) أن تُنتج سردية حقيقية لاستنهاض شعبنا من جديد واستنفاره وتجميع قواه، وبأن استخطاطية جديدة كهذه قادرة على تحقيق التقرير الذاتي للمصير الفلسطيني. إن تاريخ الامبريالية ليعلمنا أنه ليس في وسع شيء سوى فكرة حقيقية للتحرير والمساواة أن يقاوم قوة الامبريالية ويصدّها. وإنها لمأساة بحق أن جهلنا للتاريخ وللقوة الاستعمارية يبدو أنه علم مهندسي "أوسلو" الفلسطينيين أن الاستسلام الخانع المتذلل، مصحوباً بصرخات "النصر" الكاذبة، قد يحقق النتيجة ذاتها التي تحققها حملة حقيقية من الاستنهاض والاستنفار والمقاومة: بلى إنها لمأساة وإهدارٌ وضياح. بيد أن أجيالاً مقبلة من الفلسطينيين قد تستيقظ وتعي هذا الواقع. وإنني لأمل أن يكون هذا الكتابُ مصدرَ عونٍ ومنبع أمل لها.

إ.و.س.

نيويورك

١٦ كانون الثاني ١٩٩٧

## مقدمة المترجم

-١-

قليلة هي الكتب التي تستحق أن توصف بأنها عظيمة؛ وبين هذه الكتب، دون ريب، كتاب إدوارد سعيد الثقافة والامبريالية. فهو عظيم أولاً في مداه ورحابة آفاقه وعلمه. وهو عظيم ثانياً في منظوره. فبالمقارنة مع جلال المنظور والقضايا التي يناقشها سعيد في فكره عامة، يبدو بضعة المفكرين الكبار في العالم اليوم، الذين يقترن اسمه بأسمائهم كأعلام معاصرين، من جاك دريدا إلى يورغن هابرماس، محدودي الأفق والمكان والمنظور، ضامري الإحساس بعظمة الإنسان والانشغال بقضايا وهمومه، وبيدنيوية العالم وحميمية انخراطنا الشبقي فيه كل لحظة وأن... وقد يكون ذلك بين ما يفسر الإقبال الهائل على قراءة سعيد، وتأثير عمله، وازدحام محاضراته العامة، حيثما ذهب، وفي أي بلد تحدث. ففي محاضرتين دَعَوْتُهُ لإلقائهما في جامعة لندن وكان لي شرف تقديمه فيهما، في تشرين الثاني <نوفمبر> عام ١٩٩٣، بعد صدور الثقافة والامبريالية في انكلترا بأشهر قليلة، غصت القاعة الكبيرة حتى كان عدو من انتظروا خارجها - مع أنهم مدعوون رسمياً - أكثر من الذين وجدوا لهم أماكن للجلوس أو الوقوف المتراص داخلها، رغم أن المحاضرتين كانتا في أمسترتين متعاقبتين وعن موضوعين متباعدين: أحدهما تخصصي، هو «التجربة التاريخية ودراسة الأدب»، والثاني سياسي خالص هو «اتفاق اوسلو واحتمالات السلام». وكان ذلك كله بعد محاضرة مختلفة تماماً كان قد القاها قبلها بليلة، قدمه فيها رئيس جامعة لندن، غصت بالمستمعين في أكبر قاعة للمحاضرات في الجامعة.

ثم إن هذا الكتاب عظيم في طبيعة الموقف الأخلاقي والفكري الذي ينطلق منه إدوارد سعيد فيه: إيمانه بالإنسان، والحرية، وضرورة التواصل، والتفاعل، والإثراء المتبادل بين الثقافات والمجتمعات، والصراع ضد الاستعلائية والاستعمار والامبريالية والهيمنة والتسلط والتمركزية الغربية وضد نقائضها من قوميات ضيقة، وهويات متشرفة، وتمركزيات: إسلامية أو عربية أو هندية أو أفريقية. وهو عظيم في اللغة الجليلة التي بها يكتب إدوارد سعيد، وفي قوة فكره، والشبوب العاطفي الذي يتوهج من جملة وعباراته، متجاوزاً حدود الجامعة الجامدة، لكن محتفظاً بصرامتها المعرفية وشروط تكوينها. وهو عظيم أيضاً في تأويلاته الجديدة ونظرياته المتعلقة بالعالم، وحركة المجتمعات الإنسانية، وحركة التاريخ، والثقافة، والأدب، والروائي منه خاصة. في تأويلاته الجديدة في هذا الكتاب يطرح سعيد، مثلاً، نظرية ثالثة تضاف إلى اثنتين مشهورتين في نشأة الرواية وتاريخها؛ ويفسر انتشار الرواية الملازم لانتشار الامبريالية وفكرة الإمبراطورية بطريقة تجل عن أن تقارن بنظرة باختين أو إيان واط مع أنها تتمثلها. فهو يربط بين تجاوز الفضاء الجغرافي وبين الرواية، وبين حركة التوسع الإمبراطوري وبين ازدهار الرواية، لا ربطاً ألياً جامداً، بل ربطاً حيويّاً خلاقاً، يجلو كيف تتجسد الوشائج في بنية الرواية ذاتها وآليات تشكيلها، مما لا يفعله واط أو باختين. وهو يعيد قراءة إنتاج الفكر الغربي عبر مائتي عام بانكبي ما عرفت من تحليل وسفسطة فكرية ونفاذ بصيرة والمعية. إن قراءته لكامو لمهي أخطر ما عرفته من قراءات تسلخ عن كامو سريته وسحر ما لفعه به القارئ الغربي من ولع بالشرط الإنساني؛ بل إن سعيد يحيل هذا التعبير إلى مصدر للسخرية اللاذعة إذ يكشف أن في ألجوه من عمل كامو الدفاع عن الامبريالية الفرنسية، وإلغاء التاريخ الجزائري السابق على استعمار فرنسا؛ وهو يفسر المكونات الأساسية لعمل كامو في إطار إشكاليات معرفية مرتبطة بمنظوره الامبريالي. وفي قراءته لغيردي، وجين



أوستن وغيرهما، يسلخ عن عمالقة الفكر الغربي الإهابَ المقتعل الذي تلغفوا به ويكشف منظورهم الحاقد، المتعالي، اللإنساني، المشبَع بروح العنصرية والتفوقية والاستغلال الاقتصادي والعرقى. ولا عجب بعد كل ذلك أن يثير عملُ سعيد زوايغ في الفكر الغربي لا تهدأ، ويتدفق مريدوه وتلامذة فكره الشبابُ عبر جامعات العالم يقوِّضون بأسلحته تراثَ الامبريالية الغربية وعمالقتها من ميدعين إلى تريبويين وسياسيين وعساكر. إن في كل شيء يمسّه ادوارد سعيد بفكره لفوحاً من عظمة الإنسان، وشيئاً من روح إبائه ووعيه النقدي الضدي المتفجر اللامهادن.

غير أن عظمته لا تقف عند حد القراءة والتأويل على مستوى المضمون، بل إنها لتتجلى في أخطر أشكالها وأذكاهها وأكثرها تفرداً وأصاله (رغم موقف سعيد المعروف نقدياً من مشكلة الأصالة) في طريقة قراءته التي تكشف تجليات العمليات والهواجس التي يناقشها في إبداعات الفكر الغربي على مستوى تشكيلها النصي، كما سافصل بعد قليل. ولعل قراءته لقلب الظلام لجوزيف كونراد ومغناة عائدة لفيردي وروضة مانسفيلد لجين أوستن وكيم لرديارد كبلنغ أن تكون بين أبرع ما أنتجه الفكر النقدي الضدي، المشبَع بمنطلقات فكرية ناضجة، من تأويلات للعمل الفني في أيّ من أشكاله وأنواعه وأجناسه، في علاقاته المعقدة بذات مبدعه وبالعالم الرحب الذي يعيش فيه. هوذا مقطع ختامي من هذه القراءة المغناة لعائدة، مثلاً:

«تطلب خصائصُ عائدة الشائنة - موضوعها وإطارها المشهدي، وفخامتها النصيبيّة، ومؤثراتها البصرية والموسيقية الخالية حتى الغرابة من التأثير الشعوري، وموسيقاها المنمّاة بشكل فائض، ووضئها الداخلي > المتعلق بإيطاليا > المقيد المكبوح، وموقعها الشدّاذ في مهنة فيردي الفنية - ما سميتّه تأويلاً طباقياً، غيرَ قابلٍ للتمثّل > أو الهضم > لا في وجهة النظر السؤاوية السائدة إلى المغناة الإيطالية ولا، بشكل عام، في وجهات النظر السائدة إلى روائع الحضارة الأوروبية في القرن التاسع عشر. إنّ عائدة، كشكل المغناة ذاته، عملٌ هجين، مشوبٌ عكر جذرياً ينتمي سواء بسواء إلى تاريخ الثقافة وإلى التجربة التاريخية للسيطرة الماروابحارية. إنها عمل مركّب، مبني حول تفاوتات وتباينات وتعارضات لمّا تزل متجاهلة أو غير مكنتها، لكنها قابلة للاستعادة والمسح الخرائطي مسحاً وصفيّاً؛ وهي > هذه التفاوتات والتباينات > شيقة في ذاتها ومن أجل ذاتها، وقادرة على تقديم تفسير لاختلال المستويات في عائدة، ولشدوذياتها، ولكوابحها وصموماتها، أفضل مما تقدّمه التحليلات التي تركّز بصورة حصرية على إيطاليا والثقافة الأوروبية.

سوف اضح امام القارئ مادة لا يمكن تجاهلها لكنها، بمفارقة ضدية، تُجوهلت بانتظام اطراد حتى الآن. والسبب الغالب في ذلك هو ان المخرج في عائدة في نهاية المطاف ليس كونها تدور حول السيطرة الامبريالية بل كونها > بعضاً > من هذه السيطرة. وستنبثق تشابهات مع عمل جين أوستن - الذي > يبدو > بقدر مساوٍ بعيداً عن احتمال ان يكون فناً منشكباً متلبساً بالإمبراطورية. وإذا ما أول المرء عائدة من هذا المنظور، بوعي لكونها كُتبت من أجل بلد افريقي لم يكن لفيردي من صلة به، وأنتجت للمرء الأولى فيه، فإنّ عدداً من الملامح الجديدة ستبرز بجلاء.

وها هي مقاطع من تأويلاته لكامو وكبلنغ:

١-١ «لكني يموضع المرء كامو طباقياً في معظم تاريخه الفعلي (تقيضاً لجزء صغير منه)، ينبغي ان يكون متيقظاً بالغ التنبّه لاسلافه الفرنسيين الحقيقيين، إضافةً إلى أعمال الروائيين، والمؤرخين، وعلماء الاجتماع، وعلماء السياسة، الجزائريين ما بعد الاستقلال. ما يزال شمة اليوم تراث أوروبي التمرکز قابل لحل رموزه (وملاح) من السذّ التأويلي لما قام كامو (وميتران) بسدّه حول الجزائر، وما قام هو وشخصياتٍ مختلفاته بسدّه. حين وقف كامو في سنواته الاخيرة يجهر علناً بل وبحدة معارضاً لطالب الوطنيين الجزائريين بالاستقلال، فقد فعل ذلك بالطريقة ذاتها التي كان قد مثل بها الجزائر منذ بداية حياتها الفنية، مع ان كلماته الآن راحت تحمل بشكل يثير الاكتئاب ونينٌ نبرات البلاغة الاتكلو - فرنسية الرسمية > التي تشكلت إبان غزو > قناة السويس. إنّ تعليقاته على > العقيد ناصر >، وعلى

الامبريالية العربية والإسلامية، مألوفة لنا، بيد أن التصريح السياسي الوحيد الصارم الذي لا مهادنة فيه يعلنه عن الجزائر في النص يظهر كخلاصة سياسية خالية من التزييق لكتابات السابقة: فيما يتعلق بالجزائر، فإن الاستقلال القومي صيغة من العاطفة المشموبة المخالصة. لم يكن شئاً أمة جزائرية أبداً، وإن من حق اليهود، والأتراك، واليونانيين، والإيطاليين، والبربر أن يدعوا لأشهر حق قيادة هذه الأمة الكائنة في الواقع التعليل. لا يشكّل العرب وحدهم الجزائر كلها. وإن أهمية الاستيطان الفرنسي والزمن الذي مضى عليه، بشكل خاص، لكافين خلق مشكلة لا تثارُ بها أية مشكلة أخرى في التاريخ، إن فرنسي الجزائر هم أيضاً، بأشد معاني الكلمة قوة، أصليون. وعلاوة، فإن جزائر عربية محضاً تعجز عن تحقيق ذلك الاستقلال الاقتصادي الذي لا يعدو الاستقلال السياسي من دونه أن يكون مهماً. وأياً كانت درجة تقص كفاءة المجهود الفرنسي، فلقد كان هذا المجهود من رحابة المدى بحيث إن أمة دولة أخرى «سوى فرنسا» لن توافق اليوم على تحمل ذلك العبء.

تكمّن المفارقة اللاذعة في أن كامو حينما يسرد قصة في رواياته أو في مقطوعاته الوصفية، فإن الحضور الفرنسي في الجزائر يُصاغ إما كسردية خارجية، جوهرها لا يخضع للزمان أو التأويل (كما هي جانين)، أو بوصفه التاريخ الوحيد الجدير بأن يُسرد كتاريخ... إن عناد كامو المتعمد ليُفسّر الفراغ والغياب في خلفيّة العربي الذي قتله مُرسو؛ ومن هنا أيضاً الإحساس بالدمار في وهران الذي يرد له بشكل ضمني أن يعبرَ لا عن الموتى العرب بشكل رئيسي (وهم بعد كل حساب مكمّن الأهمية من وجهة نظر سكانية) بل عن الوعي الفرنسي.

من الدقيق أن يقال، لذلك، إن سرديات كامو قد أرسّت مطالب صارمة وسابقة وجودياً على جغرافية الجزائر. فبالنسبة لأي امرئ يملك ولو درجة عابرة من المعرفة بالمغامرة الاستعمارية الفرنسية المديدة هناك، فإن هذه المزاعم لهما من الشذوذية المخالفة للعقل بقدر ما كانه الإعلان الفرنسي عام ١٩٢٨ من قبل الوزير الفرنسي شوتان بأن العربية «لغة اجنبية» في الجزائر. وليست هذه بمزاعم كامو وحده، مع أنه منحها شيوعاً شبه شفاف وياق. بل إن كامو يرث ويقبل بصورة لانتقدية تلك المزاعم كتقاليد وأعراف شكلها تراث طويل من الكتابة الاستعمارية عن الجزائر، أصبح اليوم منسياً أو غير معترف به من قبل قرائه ونقادها، الذين يجد معظمهم تأويل عمل بوصفه يدور حول «الشرط الإنساني» أمراً أكثر سهولة عليهم.

... إن أسلوبيه النظيف، والمعضلات الأخلاقية المبرحة التي يعرّفها، والمصائر الفردية المعدّبة لشخصياته، التي يعالجها بقدر عالٍ من الرهافة والمفارقة اللاذعة المكنّنة - هذه الخصائص كلها تمتاح من تاريخ السيطرة الفرنسية على الجزائر، بل تعيد في الواقع إحياء بدقة محتاطة وغياب لافت للندامة والرأفة والتعاطف الشعوري.

من جديد، ينبغي أن يعاد نفتح العلاقة المتداخلة بين الجغرافيا والنزاع السياسي بالحياة، بالضبط حيث يغطيها كامو، في رواياته، ببنية فوقية احتفى بها سارتر لأنها تقدم «متاحاً للعبثي اللامعقول». إن كلنا الغريب والطاعون تدوران حول موت عرب، وهو موت يُبرز ويُقَم بصمت مصاعب الضمير والتأمل التي تعانها الشخصيات الروائية الفرنسية. وعلاوة، فإن بنية المجتمع المدني التي تقدم بنصاعة بارزة - بلدية المدينة، الجهاز القضائي، المستشفيات، المطاعم، النوادي، أماكن التسلية ووسائلها، المدارس - هي بنية فرنسية، رغم أنها بشكل غالب تقوم بإدارة «شؤون» السكان غير الفرنسيين. وإن التباين بين الطريقة التي يكتب بها كامو عن ذلك كله وبين كيفية تصوير الكتب المدرسية الفرنسية إيّاه لتطابق أسر: فالروايات والقصص القصيرة تروي نتيجة انتصار تحقّق ضدّ شعب مسلم محبّد، معرّق، اغتصبت حقوقه في امتلاك أرضه اغتصاباً حاداً. وكامو، بتأكيد وتعزيزه بهذه الطريقة للولوية الفرنسية، لا يشكك ولا يخرج على الحملة من أجل السيادة التي شنت ضدّ مسلمي الجزائر لِمَا ينوف على مائة عام.

٢-١ وما أشدّ اختلاف «هذا العالم بأسره» عن العالم القائم للعبقوسية «البورجوازية» الأوروبية، الذي يقوم جوّه، كما يصوغه كلُّ رواثي ذي شأن، بإعادة تأكيد انحطاط الحياة المعاصرة، وانقراض جميع أحلام الشبوب العاطفي، والنجاح، والمغامرة الفرثانية. إن عمل كلنغ الاختلاقي ليُشكّل طباقاً: فعالمه، لأنه موضّع في هندسة تسيطر عليها بريطانيا، لا يضمن بشيء على الأوروبي المغترب. وتجلو كيم كيف يستطيع صاحب «سنيد» أبيض أن يتعبّث بالحياة في هذا «الفضاء» المعقّد الخصب الخضيل؛ ويؤدّي أن اطرح منظومة أن غياب المقاومة للتدخل الأوروبي في

هذه الرواية - مرمرًا إلى بمقدرات كيم على التنقل عبر الهند دون أن يمسه خدشٌ نسبيًا - يعود إلى رؤياها الامبريالية. ذلك أن ما يعجز المرء عن تحقيقه في بيته الغربية الخاصة - حيث تعني محاولته لأن يحيا العلم الجليل لبحرٍ مثيرٍ مجابهةً عاديةً مقدراته وفساد العالم وانحطاطه - يقدو قابلاً لأن يحققه في الخارج. أوليس بوسع المرء في الهند أن يفعل كل شيء؟ ويكوّن أي شيء؟ ويذهب إلى كل مكان بأمان من أية عواقب؟

تأمل نسق طواف كيم وتنقلاته من حيث تأثيرها على بنية الرواية. تتحرك معظم رحلاته ضمن البنجاب، على المحور الذي تشكله لاهور وأومبالا... يقوم كيم برحلات قصيرة إلى سيملا، ولكن، وفيما بعد إلى وادي كولو؛ ومع محبوب يمضي موعلاً حتى بومبيّ جنوباً وكراشي غرباً. بيد أن الانطباع الكلي الذي تتركه هذه الرحلات هو انطباع بالتجوال المتمتع الحرّ الطليق... هنا ليس ثمة مرابون يكيّدون المكائد، أو قرويون زميتون، أو لركُ السنة وشانعات اثيمة، أو محدثو نعمة منفرون غلاظ الأكباد، مما يجده المرء في روايات معاصري كلنغ الأوروبيين الكبار.

والآن، قارن بين بنية كيم المحلولة الرخية، القائمة على رحابة جغرافية وفضائية مترفة، وبين البنى المحكّة الضيقة، الزمانية بصرامة لا تسامح فيها، للروايات الأوربية المعاصرة لها. يقول لوكاش في نظرية الرواية إن الزمن هو صانع المفارقة اللادعة العظيم، وهو يكاد يكون شخصية من شخصيات هذه الروايات، إذ يولج البطل <أو البطل> في مزيد من الوهم والاختبال، كما يجلو كون أراماه أو أراماه لا أساس لها، جوفاء، عقيمة إلى حدّ المرارة. في كيم، يتشكل لديك انطباع بأن الزمن إلى جانبك، لأن الجغرافيا ملكك وزمن مشيتك لتتحرك فيها كما تشاء بحرية شبه تامة.

-٢-

تتبطّن منظومات إدوارد سعيد هنا مجموعة من التصورات والأسس النظرية التي تتأصل في ثورة مستمرة في العلوم الإنسانية تترك آثارها على كل شيء، مثلها مثل الامبريالية التي تركت آثارها على كل شيء. تستمر هنا فاعلية المنطلقات التي تبطن الاستشراق، حيث نبعت تحليلاته من معطيات مثل القوة، والسلطة، وسلطة الإنشاء والنصوص، والتمثيلات، ورؤية الآخر وتنميطة، وقوة الإنشاء والنصوص المولدة لذاتها، وترابط المعرفة بالقوة، والاستعراض، والمُعجبة الخ... لكن مفاهيم طارئة تقفز لتحلّ المكانة المركزية في التحليل، وفي تكوين المنظور الذي يعاين منه الثقافة، والتاريخ، والمجتمع، والأدب، والرواية خاصة. بين هذه المفاهيم ما له خطورة هائلة بحق، تخصّصاً بالنسبة لمجتمعات كالمجتمع العربي الآن، ولقضايا سياسية، تاريخية، ثقافية، وأعرافية قومية، كقضاياها. وأهمها على الإطلاق: مفهوم التلاحم بين التاريخ والسرديات، والتكوين الاستيهامي الخالص للمجتمع المتخيل، كما يسميه هو وغيره من الدارسين الآن، وتشابك الخيلة بالتاريخ، والواقع بالسحر، بل انتفاء إمكانية تحديد الواقع خارج إطار التخيل، والتاريخ خارج إطار السرد. وستبدو كلمّة السرد، ومشتقاتها: السردية، والسرديات، والاختلاقات السردية، ملفزة للقارئ العربي - وهي ماتزال بحق ملفزة للقارئ في أميركا وأوروبا غير المتخصّص بمثل هذه الدراسات. ذلك أن وراء معناها المباشر، وهو حكّي حكاية، يختفي مدلولها الخطير المتخصّص الطارئ: السرد، في السياق الجديد، هو تشكيل عالم متماسك متخيل، تحاك ضمنه صور الذات عن ماضيها، وتتدغم فيه أهواء، وتحيزات، وافتراسات تكتسب طبيعةً بديهيات، ونزوعات، وتكوينات عقائدية يصوغها الحاضر بتعقيداته بقدر ما يصوغها الماضي بتجلياته وخفاياه.. كما يصوغها، بقوة وفعالية خاصتين، فهم الحاضر للماضي وأنهاج تأويله له. ومن هذا الخليط العجيب، تُسج حكاية هي تاريخ الذات لنفسها وللعالَم، تُمنح طبيعة الحقيقة التاريخية، وتمارس فعلها في نفوس الجماعة وتوجيه سلوكهم وتصورهم لأنفسهم وللآخرين، بوصفها حقيقةً ثابتةً تاريخياً. وتدخل في هذه الحكاية، أو السردية، مكونات الدين، واللغة، والعرق، والأساطير،

والخبرة الشعبية، وكلُّ ما تهتَزَّ له جوانبُ من النفس المتخيَّلة. غير أن ما هو الآن «حقيقة تاريخية»، يمثل الأمة وتاريخها، في وعي الذات الجماعية، لا يخرج بهذا المعنى عن كونه «متخيَّلاً». إنَّ تكوين هوية يهودية، وخلق إسرائيل، هما بهذا المعنى نتاج لسردية قومية-دينية، علاقتها بالتاريخ «الحقيقي» - إذا كان لهذه الكلمة الآن من معنى، وذلك أمر مريب مشكوك فيه - ملتبسةً، مبهماً، عويصة عصية على البحث والتحديد. غير أن ذلك كله ليس بذي قيمة حقيقية، لأنَّ الذات الجماعية، تُعتبر - بل تؤمن دون وعي لأيِّ انشراح - أنَّ ما تعيشه هو «تاريخها وتراثها وذاتها». وبهذا المعنى، يمكن القول إنَّ القوميات عموماً، والقومية العربية، مثلاً على ذلك، هي سرديات لا أكثر. ولقد صاغ هومي بابا هذه العلاقة صياغةً ممتازة في عنوانِ كتابِ حرَّره يضع الأمة والسردية مقترنيتين معاً، هو **الأمة والسرد (Nation and Narration)**.

هوذا ادوارد سعيد يحدِّد، بإيجاز، أهمية السرد ومعناه، كما يبرزان في هذا الكتاب :

«لقد ركَّزَ قدرٌ كبير من النقد الحديث على السرد الروائي، غير أنَّ موقع هذا السرد في تاريخ الإمبراطورية وعالمها لم يولَّ إلا قدرًا ضئيلاً من الاهتمام. وسرعان ما سيكتشف قراءُ هذا الكتاب أنَّ السرد حاسم الأهمية بالنسبة لمنظوماتي هنا، إذ إنَّ نقطتي الأساسية هي أنَّ القصص تكمن في اللباب مما يقوله المكتشفون والروائيون عن الأقاليم الغريبة في العالم؛ كما أنَّ القصص أيضاً تغدو الوسيلة التي تستخدمها الشعوبُ المستعمرة لتأكيد هويتها الخاصة ووجود تاريخها الخاص. لا شك أن المعركة الرئيسية في «العملية» الامبريالية تدور، طبعاً، من أجل الأرض؛ لكنَّ حين ال الأمر إلى مسألة مَنْ كان يملك الأرض، ويملك حق استيطانها والعمل عليها، ومَنْ ضَمَّن استمرارها ويقابها، ومَنْ استعادها، ومَنْ يرسم الآن مستقبلها - فإنَّ هذه القضايا قد انعكست، ودار حولها الجدل، بل حُصِّمت أيضاً لزمانٍ ما، في السرد الروائي. إنَّ الأمم، كما اقترح أحدُ النقاد، هي ذاتها سرديات ومرويات. وإنَّ القوة على ممارسة السرد، أو على منع سرديات أخرى من أن تتكون وتبزغ، لكبيرة الأهمية بالنسبة للثقافة وللإمبريالية، وهي تشكل إحدى الروابط الرئيسية بينهما. والأكثر أهمية هو أن السرديات الجليلة الكبرى للتحزُّر والتنوير قد جندت الشعوب في العالم المستعمر وحفزتها على الانتفاض وخلع نير الامبريالية؛ وخلال هذه العملية، هزَّت تلك القصصُ وابطأها العديد من الأوروبيين والاميركيين، أيضاً، فقاموا هم بدورهم بالصراع من أجل سرديات جديدة للمساواة و«الروح» المجتمعية الإنسانية.»

ويبلور سعيد وجهاً خطيراً للسرديات يتمثَّل في تشكُّل سرديات رسمية لتاريخ معين ثم سعيها الدائب إلى منع سرديات مغايرة من الظهور. كما يبلور الصراع ضد هذه السرديات والسعي إلى تقويضها:

«الفكرة التي تختفي وراء هذه الأعمال هي أن نساخات التاريخ التي تكون سننَّية «أورثوذكسية»، وقومية، ومؤسسية بطريقة سلطوية تنزع بشكل رئيسي إلى أن تجمَّد نساخات التاريخ مؤقتةً ومعرضةً للتنازع في صيغة هويات رسمية. وهكذا فإنَّ النسخة الرسمية للتاريخ البريطاني المدفونة في - لنقل - المحافل التي أقيمت لنانب الملكة فيكتوريا الهندي عام ١٨٧٦ تتظاهر بأنَّ الحكم البريطاني للهند كان ذا امتداد أسطوري تقريباً؛ وقد أُدرجت تقاليدُ الخدمة، والإجلال، والخضوع، الهندية في هذه الاحتفالات من أجل خلق صورة لهوية عبرتاريخية لقارة بأكملها مضغوطة في قالب من الانصياع أمام صورة لبريطانيا تتمثل هويتها - وهي بدورها هوية مشكَّلة مبتناة - في أنها حكمت ويجب أن تظل أبداً تحكِّم الأمواج والهند معاً. وفيما تحاول هذه النساخات الرسمية للتاريخ أن تفعل ذلك من أجل السلطة الهوياتية (بمصطلحات ادورنيَّة) - كالخلافة، والدولة، والفئة المفكَّرة «الانتلجنسيا» السننَّية، والمؤسسة - فإنَّ الاكتناحات المستترية باطراد، وانتقاسعات الهمم، والمنازعات الماثلة «جميعها» في الأعمال المبتكرة التي اقتبسناها تُخضع هذه الهويات المركبة الهيئية لجديلية سلبية تقوم بحلِّها إلى مكونات مشكَّلة مبتناة بطرق شتى. فأكبر أهمية بكثير من الهوية المستقرة التي يحافظ على رواجها في الإنشاء الرسمي هو القوة التساجلية لطريقة تاويلية تتكون مادتها من مسارات التجربة التاريخية، وهي مسارات متفاوته لكنها متواشجة ومتواقفة «متبادلة الاعتماد»... ومتقاطعة فوق كل شيء.»

ينقل سعيد هذا النهج في التحليل إلى سياق الكتابة الإبداعية الغربية، ليصف أعمال كبار منتجيتها في المرحلة التي شهدت عصر الاستعمار وما مهد له، من جين أوستن إلى البيير كامو، ويحلل أعمالهم بوصفها سرديات تتشابه فيها كلُّ هذه المكونات. لكنَّ براعة عمله تتمثل في التحليل الفذّ، الذي يتفرد به بين معاصريه، للشكل الروائي وبنية النصوص الاختلاقية، والفنية عامة، من هذا المنظور. فهو يكشف دلالات اكتمال السردية في مكان ما، وانقطاعها، واستحالة اكتمالها في مكان آخر، ويكشف دلالات الاتصال والانقطاع فيها، واللولة وفجوات الريبة والمتاهة، وحركة التعاقب والاتصال الخطية، وانكسارات الخطوط السردية، بل وامتتاع تشكّل السردية في مكان أو آخر، أو انفصام سرديتين متباينتين ضمن السردية الواحدة. وهو يمارس هذا النوع من التحليل خارج نطاق العمل الاختلاقي الروائي، فيقدّم دراسة المعية للمناهج المختلفة التي يعمل بها باحثون من العالم غير الأوروبي في دراساتهم للعلاقة بين الامبريالية وبلدانهم على مستوى تكوين السرديات التاريخية التي ينتجونها، فيجلو الفرقَ الجذريّ بين منهج أنطونيوس وجيمس مثلاً، وبين دراستي غوها والعطاس، من منظور استخدامهم لنمط معين من المنهج والسرد في دراساتهم ودلالات هذا الاستخدام على طبيعة علاقتهم بالامبريالية واستجاباتهم لها.

-٣-

وبين المفاهيم الجديدة نسبياً في طريقة استخدام سعيد لها، مع أنها ليست طارئة على عمله، مفهومُ المصادرة ودلالاتها الحاسمة في تكوين أدب العالم الثالث. ذلك أنّ سعيد يؤوّل رواية العالم الثالث تأويلاً طباقياً، بمصطلحاته، أي في سياق العلاقة بين طرفي المزوجة الاستعمارية، لا في سياق تاريخ منفصل معزول للثقافة أو المجتمع. وهو يطبّق ذلك على الثقافة العربية، فيرى فعلة الطيب صالح في موسم الهجرة إلى الشمال مصادرةً لشكل روائي غربي استخدمه الغربيون للقيام باكتساح الفضاء الجغرافي للعالم الآخر واستعمارها وامتصاصه، واستغلالاً له لتشكيل حركة مضادة: تقتحم الفضاء الامبريالي نفسه، وتغزوه، وتقلب الأدوار فيه، بلغة جديدة، وأبطال منتقمين، وبنيةً روائيةً محوكة ومعدّلة الآن لكي تخدم أهدافَ كتاب العالم الثالث ذاتها، وتنقض الأصلَ المركزي الحواصري.

-٤-

وبين مفاهيم سعيد المنمّاة هنا أيضاً مفهوم الأصلاني الصامت الذي لا صوت له، والذي مثله الغربُ نيابةً عنه، وهو الآن يستعيد صوته وينطق ليمثّل نفسه. وفي عملية التمثيل للذات هذه، يُكتشَف واقعٌ جديد، وتاريخ جديد أو، بدقة، سرديةٌ جديدة تكافح من أجل أن تُسمع وتحتل مكانةً لها إلى جانب السرديات الحواصرية. هكذا تبرز أصوات الأفارقة والأفارقة الأميركيين، والعرب، وكتّاب جنوبي أميركا، والآسيويين الآخرين، وخصوصاً الهنود. ويفدو الراهنُ صراعاً على الفضاء بين سرديات متنازعة. هاهما نصّان يبلوران فكرة المستعمر الصامت الذي يمثّله المستعمر، وفكرة استعادة الصوت أو الإنصاح والإسماح يقوم بها الصامتون:

١-٤ [يفترض أن] يكون المستعمر بصورة تمثيلية سلبياً ويتم النطق عنه، ولا يسيطر على تمثيله الخاص بل يمثّل تبعاً لها جس هيمنة يتم عن طريقه استبناؤه وتركيبه كذات وحدانية ومستقرة ثابتة. «بعبارة ماري هامر، ويضيف إدوارد سعيد:» وماحدث في إيرلندا حدث في البنغال أيضاً، كما حدث، على يد الفرنسيين، في الجزائر.

٢-٤ لذلك يحمل كتّابُ العالم الثالث في مرحلة ما بعد الامبريالية ماضيتهم في أعماقهم - ندوباً لجراح مذلة.

وتحريضاً على <خلق> ممارسات مختلفة، ورؤى للماضي تملك الطاقة على التنقيح وتترزع نحو مستقبل مابعد استعماري، وتجارب قابلة بالباح لإعادة التأويل والتوزيع والمركزة، فيها ينطق الاصلاحي الذي كان صامتاً في السابق ويمارس الفعل على أرض استعادها، كجزء من حركة مقاومة شاملة، من المستعمر المستوطن.

## -٥-

وأخيراً مكونات الجهاز التصوري التحليلي التي تتبرعم في الاستشراق وتتبلور حادة الوضوح هنا، هو مفهوم الدنيوية. وكثير من عمل سعيد النقدي منخرط في هذا الإطار، ومبني على هذا المفهوم. وهو يبرز منذ عنوان كتابه النقدي العالم، النص، الناقد (١٩٨٣)، الذي يلفت النظر بتقدمه له العالم على كلا النص، والناقد، بقدر ما يتميز باختفاء المؤلف الخالق للنص منه. العالم ذو أولوية، ودنيوية العالم هي جوهر كينونته. ورغم البعد الروحي في لهجة سعيد التي تضمخ المقاطع الأخيرة التي اقتبسها قبل قليل، والتي تشكل خاتمة الثقافة والإمبريالية، وهو أمر دال بحق، فإن إصراره لا يهن ولا يلين على أن العالم الذي نعيش فيه يجب أن يعاش، ويُفهم، ويُدرس، في دنيويته، لا في أخريته، وأن الأدب وكل أشكال النشاط الإنساني منخرطة في هذه الدنيوية. وقد يبدو هذا المفهوم من جانب أو آخر منتمياً إلى التأويل المادي للتاريخ، لكنه أكثر نبلاً، وجاذبيةً، ويسمح بقدر أعلى من الإدراج لما هو غير مادي تحديداً، وبصورة مباشرة. ولعل المقطعين اللذين يكتبهما سعيد عن هذا الانخراط الدنيوي أن يجسداً بعض رؤيته لهذا التكوين الجوهرى لوجودنا الإنساني، من جهة، وللثقافة والمنتجات الإبداعية، بما فيها العمل النقدي (وعمله هو جزء منه) من جهة أخرى. ها هنا:

١-٥ إن هذا كله لتحديد باتر مغال لما تعلمناه عن الثقافة - عن إنتاجيتها، وتنوع مكوناتها، وطاقاتها النقدية التي كثيراً ما تكون متناقضة، وعن خصائصها الضدية جذرياً، وفوق كل شيء، عن دنيويتها الثرية وتوطنها مع كلاً الفتح الإمبريالي والتحرير.

٢-٥ ثرى ما هو النمط الجديد أو الأكثر جدة من السياسات الفكرية والثقافية الذي تقتضيه هذه العالمية internationalism وما هي التحولات والتشخصات المغيّرة الهامة التي ينبغي أن تطرا على أفكارنا المحددة تحديداً تقليدياً ومتجذراً في التمركية الأوروبية عن الكاتب، والمثقف، والناقد؛ إن الإنكليزية والفرنسية لغتان عالميتان، وإن منطق الحدود والجواهر المتحاربة منطوق شمولي مكل، ولذلك ينبغي أن نبدا بالإقرار بأن خريطة العالم ليست فيها فضاءات، أو جواهر، أو امتيازات مكرسة إلهياً أو مذهبياً. ومع ذلك، فإن بوسعنا أن نتحدث عن فضاء علماني دنيوي، وعن تواريخ مشككة مبتناقة من قيل الإنسان ومتبادلة الاعتماد، قابلة في الأساس لأن تُعرف، وإن لم يكن ذلك من خلال النظريات الجليلية الكبرى والنكلية <التحويل إلى كليات> المنتظمة المطردة. عبر هذا الكتاب كله، مازلت أردد أن التجربة الإنسانية منسوجة بدقة، ومكثفة، وقابلة لأن تُبلّغ إلى درجة تغنيها عن قوى فاعلة زاء تاريخية أو زاء دنيوية لإضاحتها وإيضاحها. وأنا أتحدث عن طريقة لاعتبار عالمنا قابلاً بسلاسة للاكتناه والاستنطاق دون مفاتيح سحرية، أو معاذلات مصطلحية وأدوات خاصة، أو ممارسات محجبة.

نحن بحاجة إلى منسّق مختلف وابتكاري للبحث في الإنسانية. إن بوسع الباحثين أن ينخرطوا صراحة في سياسيات الحاضر ومشاغله - بعيون مفتوحة، وحيوية تحليلية صارمة، <حاملين> القيم الاجتماعية اللانقة بأولئك المعنيين لا ببقايا إقطاعية في حقل دراسي معين أو بقاء نقابة، ولا ببقاء هوية تحكيمية متلاعبة مثل <الهند> أو <أميركا>، بل بتحسين الحياة وتنميتها الخالية من الإكراه في مجتمع يكافح من أجل أن يحيا بين مجتمعات أخرى. ولا ينبغي على المرء أن يقلل من صعوبة أو قدر الحفريات الخلاقة المطلوبة في عمل من هذا النوع. إن المرء لا يبحث عن جواهر فذة الأصالة، سعياً إلى ترميمها أو لموضعها في مكان ذي شرف لا يرقى إليه التجريح.

ولقد أغراني تركيزُ سعيد الحاد على مفهوم الدنيوية بأن أعيد ترجمة المصطلح «secular» الذي يشيع الحديثُ عنه في العربية باستخدام «العلمانية»، واستخدام مصطلح «الدنيوية» بدلاً من «العلمانية»، خصوصاً في عنوان القسم الخامس من الفصل الأول من هذا الكتاب. ذلك أن كلمة العلمانية سيئة الصياغة، وملتبسة الدلالات، ومعظم الناس يظنونها «العلمانية»، فتختلط في أذهانهم علاقاتٌ أساسيةٌ مثل علاقة «العلم» بـ «الدين»، وتكون لها عقابيل مؤذية بحق.

-٦-

لكنَّ المفهوم المركزي في منهج سعيد تحليلياً، على مستوى ما يريد طرحه فكراً عن العلاقة بين المجتمعات والثقافات، هو دون ريب، مفهوم القراءة الطباقية، والتأويل الطباقية. ومن سوء الحظ أن مصطلح «الطباق» المستخدم في العربية لترجمة الـ «contrapuntal»، أو الـ «counterpoint»، - مصطلح سعيد المأخوذ من الموسيقى (وهو موسيقي ممتاز يقدم عروضاً عامة، وبين كتبه الهامة كتاب في الموسيقى هو Musical Elaborations) - مصطلح التباسي من جهة، ومتخصص جداً موسيقياً بحيث يغيب مدلوله عن القارئ العادي، من جهة أخرى. في النقد العربي القديم استخدم ابن المعتز الطبايقَ ليشير إلى علاقة تضاد دلالي بين الكلمات، مثل ضحك، بكى؛ أبيض، أسود؛ طويل، قصير (ومن الشيقُ أنه اعتبره من مكونات البديع الخمسة). وجاء بعده نُقاد آخرون ليستعملوا مصطلحات مثل المقابلة، والمطابقة لوصف حالات مختلفة من علاقة التضاد بين الكلمات أو الأفكار والمعاني. لكنَّ جذر الفعل يعني أيضاً التعاضل والتشابهُ والتراسل، كما في طبَّق، وطابَق، وتطابق الأمران. ولقد شعرتُ برغبة حادة في إعادة ترجمة الـ «contrapuntal» بمصطلح جديد لكي يزول الالتباس منه، فيتضح مفهومُ سعيد الجوهري بالنسبة لمنهجه وعمله بأسرها. غير أنني حتى الآن لم أوفق إلى إيجاد مصطلح بديل وافٍ، ولذلك استخدمتُ عبارة «القراءة الطباقية» أملاً أن تكون تعليقاتي عليها كافية لتوضيح المصطلح والمفهوم. وليس بوسعي أن أشرح المفهوم بأفضل من شرح المؤلف له، مسبوقاً بتحديد موسيقي مأخوذ من قاموس Penguin الجديد للموسيقى: «الاستعمال المتزامن للحنين <ميلودي> أو أكثر لإنتاج المعنى الموسيقي، بما يسمح بالقول عن أحد الألحان إنه النقطة المضادة لـ، أو في حالة تضاد مع، لحنٍ آخر. وهكذا فإنَّ التضاد المزدوج هو أن يكون لحنان، أحدهما فوق الآخر، قابلين لتبادل موقعيهما؛ ومثل ذلك التضاد الثلاثي والرباعي إلخ.»

ومن الواضح أن كلمة «تضاد» هنا يمكن أن تُبدل في العربية بالمصطلح المحدد «طباق».

وهذا شرح سعيد للمفهوم في مكانين من هذا الكتاب :

١-٦ حين تعود بالنظر إلى سِجِلِ المحفوظات الامبريالي، نأخذ بقراءته من جديد لا واحدياً، بل طباقياً، بوعي متآين للتاريخ الحواصري الذي يتم سرده ولتلك التواريخ الأخرى التي يعمل ضدها (ومعها «أيضاً») الإنشاء الميسر. في النقطة الطباقية للموسيقى العريقة الغربية، تتبارى وتتصادم موضوعاتٌ متنوّعة إحداهما مع الأخرى، دون أن يكون لأي منها دور امتيازي إلا بصورة مشروطة مؤقتة؛ ومع ذلك يكون في التعدد النغمي الناتج تلازم ونظام، تفاعل منظم يُشتق من الموضوعات «ذاتها»، لا من مبدأ لحنٍ «ميلودي» صارم أو شكلي يقع خارج العمل. وفي اعتقادي أننا نستطيع، بالطريقة ذاتها، أن نقرأ ونؤوِّل الروايات الإنكليزية، مثلاً، التي يتشكل تعالُفها (المقومُ عادةً إلى درجة غالبية) مع، لنقل، جزر الهند الغربية أو الهند، بل لعلهُ أيضاً يتحمّ ويتقرَّر، بالتاريخ المحدد للاستعمار، والمقاومة، وأخيراً القومية الأصلانية. عندئذ، تنبثق سردياتٌ بديلةٌ أو جديدة، وتصبح ذواتاً مُأسَّسةً أو مستقرة إنشائيةً.



٦-٢ بمصطلحات عملية، تعني «القراءة الطباقية»، كما أسميتها قراءة النص بفهم لما هو مشبوك <متضمن> فيه» حين يظهر مؤلف ما، مثلاً، أنّ مزرعة استعمارية لقصب السكر تماين بوصفها هامة بالنسبة لعملية الحفاظ على أسلوب معين للحياة في انكلترا. وعلاوةً، فإنّ هذه، مثل جميع النصوص الأدبية، ليست مقيّدة بدياياتها ونهاياتها التاريخية الشكلية. إنّ الإحالات إلى أستراليا في دايفيد كورفيلد وإلى الهند في جين اير لتصاغ لأنها يمكن أن تصاغ، لأنّ قوة بريطانيا (لا وهم الروائي فقط) جعلت الإحالة العابرة على هذه المصادرات الضخمة ممكنة: غير أن الدروس الأخرى الأبعد من ذلك لا تقل سلامةً وصدقاً: وهي أن هذه المستعمرات قد تمّ تحريرها لاحقاً من الحكم المباشر وغير المباشر، وهي عملية بدأت وانتشرت حين كان البريطانيون (أو الفرنسيون أو البرتغاليون أو الألمان إلخ) ما يزالون هناك، مع أنها، كجزء من السعي لقمع القوميات الأصلانية، لم تلق إلا اهتماماً عابراً بها من أن لآخر. والنقطة «التي أثيرها» هي أن القراءة الطباقية ينبغي أن تُدخل في حسابها كلتا العمليتين: العملية الامبريالية، وعملية المقاومة لها، ويمكن أن يتم ذلك بتوسيع قراءتنا للنصوص لتشمل ما تمّ ذات يوم إقصاؤه بالقوة - «وهو» في «رواية» الغريب، مثلاً، التاريخ السابق بأسره لاستعمار فرنسا وتدميرها للدولة الجزائرية، ثم الظهور اللاحق لجزائر مستقلة (أُخذ منها كامو موقف المعارض)».

#### -٧-

كل هذه المنطلقات التصورية تدخل في تكوين منهج سعيد في فهم العلاقة بين الامبريالية والاستعمار وضحاياهما، أي فهم العالم الذي نعيش فيه، لأنه عالم صنّعه الامبريالية التي «لم ينج منها شيء» بعبارة سعيد. وتتصهر هذه المقومات أيضاً لتشكّل منهجه في التعامل مع النص الأدبي، تعاملًا مثيراً، يتجاوز المنهج الاستثنائي الصومعي المغلق، وما يراه فكراً هزياً في ما بعد البنوية وما بعد الحداثة، كما يتجاوز ما هو متأصل في التراث الفني للفكر الاجتماعي وللماركسية بشكل خاص: من مفاهيم سانجة، وربط انعكاسي للعمل الأدبي بسياقه الاجتماعي، من جهة، ومن نضج في التعامل لكن قصور صاعق في تحديد السياق الفعلي للعمل الثقافي، كما هي الحال لدى نقاد يجلبهم سعيد مثل ريموند وليمز، ماركسيي النهج، لكنهم يحصرّون مجال فهم الأدب في سياق محلي مباشر ويخفقون في إدراك أهمية التجربة الامبريالية والاستعمارية في تكوين السياق الفعلي للعمل الأدبي - والرواية الأوروبية خاصة، من جهة أخرى. وسعيد متفرّد في هذا النهج الذي يشكّل علامة مائزة لحضوره النقدي في العالم، لا في النقد الأدبي فقط، بل في النقد الاجتماعي، السياسي، الثقافي أيضاً. وتُدخل في تكوين هذا المنهج، كما اشترت، درجة عالية من الوعي بخصوصية النتاج الأدبي، وعبقريّة كل عمل فرد، وبأهمية التقنية، واللغة، والتشكيل البنوي الكلي. ولا أجد طريقة أوفى لإيضاح ما أصفه في عمله من اقتباس واحد من الأقسام اللبائية في هذا الكتاب يشرح للقارئ بدقة، على مستوى نظري، هذا المنهج الجديد. هوذا يقول :

٧-١ «لكل نص عبقرية الخاصة، كما أنّ لكل إقليم جغرافي في العالم عبقرية، بتجاربه المتقاطعة الخاصة، ويتوارخ النزاع المتداخلة الخاصة به. ويمكن إقامة تمييز مفيد، فيما يخص العمل الثقافي، بين الخصوصية والسيادة (أو الحصرية التنسكية). ومن الجلي أنه لا ينبغي لأي قراءة أن تعمم إلى درجة إلغاء هوية نص ما، أو كاتب ما، أو حركة ما. لكن بالمعيار نفسه، ينبغي أن تُدخل القراءة في الاعتبار أنّ ما كان مؤكداً، أو بدا أنه مؤكد بالنسبة لعمل ما أو مؤلف ما، قد يكون أصبح عرضةً للخلاف. إنّ هند كبلنغ، في كيم، لها خصيصية من الديمومة والحتمية تنتمي لا إلى تلك الرواية المدهشة وحسب بل إلى الهند البريطانية أيضاً، إلى تاريخها، وإدريتها، والمتأخرين عنها، وإلى ما لا يقل أهمية وهو الهند التي حارب من أجلها القوميون الهنود لأنها وطنهم الذي ينبغي أن يستعاد. وبتقديم مسرد لهذه

\* - يبدو لي أن خللاً حدث في النص هنا، يتمثل في استخدام اسم الإشارة «هذه» بصيغة الجمع these دون أن يكون هناك مشار إليه سوى «النص».

السلسلة من الضغوط والاضغوط المضادة في هند كبلنغ، نفهم العملية الامبريالية نفسها كما يتعالق معها <اي مع السلسلة> العمل الفني العظيم، كما نفهم عملية المقاومة للامبريالية. في قراع نص ما ينبغي على المرء ان يفتحه لما اندرج فيه ولما اقتضاه مؤلفه عنه ايضاً. إن كل عمل ثقافي هو رؤيا للحظة ما، وعلينا ان نقحم هذه الرؤيا تجاوزياً مع الرؤى التنقيحية المتنوعة التي استنارتها فيما بعد - في هذه الحالة، مع التجارب القومية لهند ما بعد الاستقلال.

وإضافة، فإن على المرء ان يربط بنيات القصة المسروبة بالافكار، والتصورات، والتجارب التي منها تستمد الدعم. إن افارقة كونراد، مثلاً، يطلعون من مكتبة ضخمة لـ الافريقيانية، إذا جاز التعبير، كما من تجارب كونراد الشخصية. ليس ثمة من شيء اسمه التجربة المباشرة، او الانعكاس، للعالم في لغة نص. لقد تاثرت انطباعات كونراد عن افريقيا بشكل حتمي بمخزون الماثورات الشعبية وبالكتابات عن افريقيا، التي يلمع اليها في <كتابه> سيجل شخصي؛ وما يقدمه في قلب الظلام هو حصيلة انطباعاته عن تلك النصوص متفاعلة تفاعلاً خلاقاً، إلى جانب مقتضيات السرد وأعرافه، وعبقريته وتاريخه الخاصين المتميزين. وأن يقال عن هذا المزيج الخارق الثراء إنه <يعكس> افريقيا، او إنه يعكس تجربة لافريقيا، هو قول جبان نوعاً ما، ومضلل بالتأكيد. فما لدينا في قلب الظلام - وهو عمل ذو تاثير ضخم، إذ إنه قد استفز العديد من القراءات والصور - هو افريقيا مسيسة، ومشبعة عقائدياً، كانت لنوايا وأغراض ما المكان المؤيوط (imperialized)، بكل تلك المصالح والافكار الفاعلة فيها بشراسة، لا مجرد انعكاس تصويري <فوتوغرافي> أدبي لافريقيا.

قد يكون ما اقله صياغة متطورة للمسألة، لكنني اريد ان اقرّر النقطة <الهامة> وهي ان قلب الظلام بالصورة التي تبلورها لافريقيا ليست فقط ابعد ما يمكن عن كونها مجرد <ادب>، بل هي إلى درجة خارقة متعالقة متشبكة في، وجزء عضوي بحق من، هذا <التزامح بالمناكب على افريقيا> الذي كان معاصراً لتأليف كونراد. صحيح ان جمهور كونراد كان صغيراً، وصحيح ايضاً انه كان حاد النقد للاستعمار البلجيكي. لكن بالنسبة لمعظم الأوروبيين، كانت قراة نص متشئراً نوعاً ما مثل قلب الظلام هي في الكثير من الحالات اشد النقاط التي يبلغونها قريباً من افريقيا، وبهذا المعنى المحدود فقد كانت جزءاً من السعي الأوروبي للتشبث بافريقيا، والتفكير بها، والتخطيط لها. ان يمثل <المرء> افريقيا يعني ان يدخل حلبة الصراع على افريقيا، المرتبط بصورة حتمية بما حدث فيما بعد من مقاومة وفككة للاستعمار وما إليهما.

إن الأعمال الأدبية، خصوصاً تلك التي يكون موضوعها الصريح هو الإمبراطورية، لها، طبعياً، جانب مشوش بل عصي على التناول في إطار مشهدي سياسي محفوف <بالمشكلات؟> ومشحون <عاطفياً؟> إلى درجة عالية من الكثافة. لكن أعمالاً أدبية مثل قلب الظلام هي، رغم ما فيها من التعقيد البالغ، تقطيرات أو تبسيطات، أو طقم من الخيارات التي اختارها مؤلف ما، <وهي> أقل تشوشاً واختلاطاً بكثير من الواقع. وإن يكون عادلاً أن نفكر بها كتجريدات، رغم أن مفتريات\* مثل قلب الظلام قد صاغها مؤلفوها بدرجة من الإحكام، وتاملها قرائها بقدر من القلق جعلها ثلاثم ضرورات السرد الذي يُمارس - نتيجة لذلك، كما ينبغي أن نضيف - دخولاً عالي التخصص إلى <حلبة> الصراع من أجل افريقيا.

إن نمتاً على هذه الدرجة من الهجنة، والعكرة، والتعقيد لِيَتَلَبَّ انتباهاً يقطاً في <عملية> تأويله. لقد كانت الامبريالية الحديثة من الكونية والشمولية بحيث لم ينح فعلياً من <تأثير>ها شيء؛ وإلى جانب ذلك، فإن تنافس القرن التاسع عشر حول الإمبراطورية، كما قلت سابقاً، ما يزال مستمراً اليوم. ولذلك فإن النظر أو عدم النظر إلى الروابط بين النصوص الثقافية والامبريالية يعنيان اتخاذ موقف هو في حقيقته الأمر متخذ؛ إما ان ندرس الصلة من أجل نقدها

\* - أستخدّم المصطلح العربي الاصيل الذي وجدته حديثاً لدى بديع الزمان الهمداني وهو <المفتريات> للدلالة على مضمون المصطلح الاوروبي "fiction" واضيف اليه احياناً مزيد من التوضيح المصطلح الذي كنت قد ابتكرته قبل ذلك بسنوات، في ترجمتي لـ <الاستشراق>، وهو <مختلقات>؛ ومن الدال ان مصطلحي ومصطلح الهمداني متقاربان جداً، وهما يختلفان جوهرياً عن الترجمات العربية الرائجة مثل <الرواية> او <الفن الروائي> وهي في تقديري غير صالحة إلا في سياقات محدودة.

والتفكير ببدائل لها... أو الا ندرسها من أجل ان نتركها ماثلة، غير محصنة. وأحد أسباب كتابتي لهذا الكتاب هو ان اظهر إلى أي مدى اتسع البحث عن السيطرة على ما وراء البحار، والانشغال بها، والوعي بها - لا في «اعمال» كونراد فقط بل لدى اشخاص لا نذكر بهم عملياً في هذا المعرض على الإطلاق، مثل تاكوي وأوستن -رآن أظهر أهمية وثراء هذه المادة بالنسبة للناقد، لا للأسباب السياسية الواضحة فحسب، بل أيضاً لأن هذا النوع المحدد من الاهتمام، كما ما زلت أحتج، يتيح للقارئ ان يؤرل الأعمال المكتوبة للقرنين التاسع عشر والعشرين باهتمام مشبوه منفرط من جديد».

٧-٢ «إن طريقتي هي ان أركز بقدر المستطاع على أعمال فردية، ان اقراها أولاً ككتاب عظيم للخيال الخلاق أو التأويلي، ثم ان اجد كونها جزءاً من العلاقة بين الثقافة والإمبراطورية. انا لا أؤمن ان المؤلفين يتحدون بصورة آلية بالعقائدية <الأيديولوجيا>، أو الطبقة، أو التاريخ الاقتصادي. بيد ان المؤلفين، كما أؤمن، كانوا إلى حد بعيد في تاريخ مجتمعاتهم، يشككون ويشككون بذلك التاريخ وتجربتهم الاجتماعية بدرجات متفاوتة. إن الثقافة والأشكال الجمالية التي تنطوي عليها نشأت من التجربة التاريخية، وهي في واقع الأمر أحد المواضيع الرئيسية لهذا الكتاب».

- ٨ -

أما أبعد المنطلقات التصورية الجديدة في عمل سعيد خطورةً وخلافيةً، في تقديري، فهو مفهوم الهجنة /التوليد، والعلاقة بينه وبين الهوية المتصلبة، وسياسيات الهوية، والالانتماء، والروح المرتحلة، وتجربة المنفى، التي تنفع كتاباته الآن بشيء لم يكن قد تبرع أو بزغ في الاستشراق وكتاباته التالية له مباشرة. إنه هنا منارئ شرس للهويات المتصلبة، الانفصالية، التي تصنف نفسها نقيضاً للآخر، وتقيم الحواجز بينها وبين العالم، سواء اكانت هذه الهويات تتحدّد في سياسيات الهوية عند المرأة، أم عند الذكر، أو الغربي، أو العربي، أو الإسلامي أو المسيحي أو اليهودي. فهو يرى مفهوم الهوية سكونياً، ويبحث عن الطاقات التي تحرر النفس والثقافة منه :

«... مبدأ الهوية، وهو مبدأ سكوني اساساً يشكل لباب الفكر الثقافي خلال العهد الامبريالي. إن الفكرة الوحيدة التي لم يكدها يمسهما التغير إطلاقاً، عبر التبادلات التي بدأت بانتظام قبل نصف الف من الزمن بين الأوروبيين وأخريهم، هي ان ثمة شيئاً «جوهراًنيأ» هو «نحن» و شيئاً هو «هم»، وكل منهما مستقر تماماً، جلي، ميئاً لذاته وشاهد على ذاته، بشكل حصين منيع. وهو انقسام يعود <تاريخياً>، كما ناقشته في الاستشراق، إلى الفكر اليوناني عن البرابرة : لكن ايأ كان من ابتكر هذا النوع من فكر «الهوية»، فإنه مع حلول القرن التاسع عشر كان قد اصبح العلامة المانزة للثقافات الامبريالية إضافة إلى تلك الثقافات التي كانت تسعى إلى مقاومة التطاولات العدوانية الأوروبية عليها.

نحن ما نزال ورنه ذلك الاسلوب الذي يتحد المرء تبعاً له بالامة: الأمة التي تستقي، هي بدورها، سلطتها من تراث يفترض انه مستمر دونما انقطاع. ولقد أفرز هذا الانشغال بالهوية الثقافية، في الولايات المتحدة، النزاع حول الكتب والثقافات والسلطات التي تشكل تراثنا». إن محاولة قول إن هذا الكتاب أو ذاك هو جزء من تراثنا، (أو أنه ليس كذلك) هي، بصورة عامة، إحدى أكثر ما يمكن تخيله من ممارسات إنضاباً للحيوية. وإضافة، فإن ما تؤدي إليه من تجاوزات أكثر تواتراً بكثير مما تسهم به من دقة تاريخية. فلأعلن إن من أجل التاريخ انني لا أطيق الموقف الذي يقول بأن علينا «نحن» <الغربيين> ان ننشغل فقط أو بشكل رئيسي بما هو «لنا»، باكثير مما أقر رودة الفعل ضد هذا الموقف التي تقتضي من العرب، <مثلاً>، ان يقرأوا الكتب العربية، ويستخدموا الطرق العربية، وما إلى ذلك. إن بيتوفن، كما اعتاد سي.إل. آر. جيمس أن يقول، ينتمي إلى اهل جزر الهند الغربية بقدر ما ينتمي إلى الالمان، لأن موسيقاه الآن جزء من الميراث الإنساني.

بيد ان الانشغال العقائدي بالهوية متشابك متعلق - بصورة يتفهمها المرء تماماً - بمصالح وپرامح أهداف لغات عديدة - ليست كلها اقلية، مضطهدة - تؤد ان ترتب اولوياتها بما يعكس هذه المصالح. ولان قدرأ كبيراً من

هذا الكتاب يدور حول ما ينبغي أن نقرأه من التاريخ القريب العهد وكيف نقرأه، فإنني سأوجز ما لدي من أفكار هنا إيجازاً سريعاً. قبل أن يكون يوسعنا أن نتفق على ما تتألف منه الهوية الأمريكية، ينبغي أن نسلّم بأن الهوية الأمريكية، من حيث هي مجتمع من الهجرات الاستيطانية المُرْتَبِكة على خرائط حضور أصلائي كبير القدر، هي هوية متنوعة إلى درجة استحصال معها أن تكون شيئاً موحداً واحدياً متجانساً؛ وبالفعل فإنّ المعركة «القائمة» داخلها تدور بين دعاة الهوية الواحدة وأولئك الذين يرون الكلّ كلاً متشابكاً معقداً لكنّه ليس موحداً تقليصياً. وتنطوي هذه الضدية على منظورين متباينين، وعلمين للتاريخ متباينين، أحدهما خطّي وإضوائي إتهامي، والآخر طبائقي وكثيراً ما يكون لاستقراً قلقاً رَحْلاً.

ومنظورتي «هنا» هي أنّ المنظور الثاني فقط ذو حساسية «أو استجابة» تامّة لحقيقة التجربة التاريخية. إنّ جميع الثقافات، جزئياً بسبب «تجربة» الإمبراطورية، منشبكةٌ إحداهما في الأخريات؛ ليستَ بينها ثقافة منفردة ونقيّة محض، بل كلّها مهجّنة مولّدة، متخالطة، متمايزة إلى درجة فائقة، وغير واحدة. وإنّ هذا ليُصدّق على الولايات المتحدة المعاصرة بقدر ما يصدق على العالم العربي الحديث، حيث قيل الكثير، على التوالي في كل حالة، عن أخطار «اللاميركانية» وعن التهديدات «الموجّهة» ضدّ «العروبة». إنّ القومية الاستدفاعية، القائمة على ردّ الفعل، بل الارتبابية «المصابة بخبل الريبة» كثيراً ما تُحَاك، للأسف، في صلب نسيج التعليم والتربية، حيث يُلَقَّن الأطفال، كما يُلَقَّن مَنْ يكبرونهم في السن من الطلبة، أن يُجَلِّوا ويحتفوا بفضائل تراثهم، (عادةً، وبطريقة بغيضة، على حساب تراثنا الآخرين). وإنّ هذا الكتاب لمُوجّه إلى مثل هذه الأشكال من التعليم والفكر المفرغ من النقد والتفكير-تصحیح وتقويم، وكبديل صبور، وإمكانية استكشافية صريحة.

## -٩-

وفي موقعه الإنساني المشبوب، يرى سعيد بعينين نسريتين الانفصامات التي تنشأ، والحواجر التي تُتَّصَب، والهويات والسرديات التي تُخْتَرَع، وكلها مُعمّقٌ للتناظر والنزاع والصراعات الاحتدامية بين الإنسان والإنسان، والمجتمع والثقافة وغيرهما. ويرى ذلك كلّ نتيجةً للامبريالية والاستعمار، ثم يراه متجسداً بوضوح جارح في المنتجات الاختلاقية الفنية والإبداعية لكلا الطرفين، على جانبيّ ما يسميه «الفالق الامبريالي». هوذا يرسم بعض خطوطه العامة:

«إنّ هذا النظام العالمي، الذي يُنتج الثقافة، والاقتصاد، والقوة السياسية جنباً إلى جنب مع معاملاتها\* العسكرية والسكانية ويُفصح عنها جميعها، ليُملك ميلاً مُأسساً لإنتاج صور عبرقومية خارجة على المقياس تمارس الآن إعادة توجيه الإنشاء الاجتماعي والعملية الاجتماعية العالميين كليهما. خذ على سبيل المثال ظهور «الإرهاب» والاصولية، مصطلحين مفتاحين في الـ ١٩٨٠ات. أولاً، لا يكاد يكون يوسعك أن تبدأ (في الفضاء العام الذي يشكّله الإنشاء العالمي) في تحليل النزاعات السياسية بين السنّة والشّيعة، أو الأكراد والعراقيين، أو التاميل والسنهاليين، أو السيخ والهندوسيين - والقائمة طويلة - دون أن تضطر في نهاية المطاف للجوء إلى فُصُلات «الإرهاب» و«الاصولية» وصورهما التي اشتقّت كلياً من الشواغل والمصانع الفكرية في المراكز الحواضرية مثل واشنطن ولندن. وإنها لأصوّر مخيفة تفتقر إلى المحتوى التمييزي والتحديد، بيّد أنها تدل على القوة والاستحسان الأخلاقيين لكلّ مَنْ يستخدمها، وعلى الاستدفاعية والتجريم الأخلاقيين لكلّ مَنْ تشير إليه وتخصّصه. ولقد قام هذان التقليصان العلامان باستنفار الجيوش وتعبئتها كما استنفرا وعبّاً المجتمعات المتبعثرة. وليس بالإمكان، في رأيي، فهم ردة فعل إيران الرسمية لزواية رشدي «الآيات الشيطانية»، أو الحماسة غير الرسمية له في المنجعات الإسلامية في الغرب، أو التعبير الخاص

\* - في محاولة للتوفيق بين ترجمات مستخدمة في بلدان عربية مختلفة، استخدم هنا «معاملات» مقابل "coefficients" تنشياً مع قاموس المورد، و«معاملات القيمة» مقابل "parametres" التي يستعمل علماء سوريون ترجمة لها «معاملات». وقد أضفت «القيمة» للتفريق بين المصطلحين.

والعام عن السخط العنيف في الغرب ضدّ الفتوى «الخَمْنِيَّة بإمداد دم رشدي»، دون الإشارة إلى المنطق العام والإصاحات وردود الفعل الجزئية الصغيرة التي اطلقها من عقالها النظام الطاغية الذي مازلت أسمى إلى وصفه.

وهكذا يكون انه في منجمعات القراء المفتحة والمعنية، مثلاً، بظهور ادب انكلوفوني أو فرانكوفوني في مرحلة ما بعد الاستعمار، لا توجه التشخيصات المتبطنة وتتحكم بها الاكثناهاستنوالية، أو الحدس المتعاطف المنقّف، أو القراءة التي تستند إلى اطلاع واسع، بل عمليات أكثر خشونة واشد ادواتية هدفها تعبئة الموافقة والإقرار، consent، واجتثاث الانشقاق، dissent، وتشجيع حماية وطنية تكاد تكون عمياء بالمعنى الحرفي. ويوسائل كهذه تُضَمّن إمكانية حكم اعداد كبيرة من البشر تُقَمّع (أو تخدّر) طموحاتها إلى الديمقراطية والتعبير، وهي طموحات تملك طاقة التعويق والتعطيل، في مجتمعات الجماهير بما في ذلك، طبعاً، المجتمعات الغربية.

إنّ الخوف والرعب اللذين تولدتهما الصور المضخّمة بمقياس مفرط للإرهاب، والأصولية، - ولتسمّها شخصياً لتخويل عالمي أو عبرقومي مكوّن من شياطين اجانب - ليسرعان خضوع الفرد للمعايير المهيمنة في اللحظة الراهنة. ويصدق هذا على المجتمعات ما بعد الاستعمارية الجديدة بقدر ما يصدق على الغرب عامة والولايات المتحدة بشكل خاص. وهكذا فإنّ يعارض المرء الشذوية والتطرف المتواصلين في الإرهاب والأصولية - والمثل الذي اقدمه لا ينطوي إلا على قدر ضئيل من المحاكاة الساخرة - يعني أيضاً تعضيد الاعتدال، والعقلانية، والمركزية التنفيذية لروحية جمعية غامضة التحديد «غربية» (أو فيما عدا ذلك محلية ومفترضة بحمية وطنية). والمارقة اللاذعة هي أنّ هذا المحرك الحيوي، بدلاً من ان يمنح الروحية الغربية الثقة بالنفس والشعور بـ «السوانية الطبيعية» الأمانة اللذين يرتبطان في اذهاننا بـ «امتلاك» الامتيازات والاستقامة، فإنه ينفضنا\* بفضب وروح استفدافية حقائين يبدو من خلالها «الآخرين» في النهاية اعداء، عاقدي العزم على تدمير حضارتنا ونهجنا في الحياة.

إن ما قدمته لا يعدو ان يكون خطأ «استكشاً» سريعة للكيفية التي تقوم بها هذه الانساق من السننوية الإكراهية وتعظيم الذات بمزيد من التديم لقوة الإقرار غير المحص والمذهب غير القابل للتحدّي. وإذا يُرْمَقُ هذان ببط مع مرور الزمن وعبر قدر كبير من التكرار، فإن الردّ عليهما من قبل الاعداء المخصوصين يأتي، للأسف، بنهائية مطابقة. وهكذا يقوم المسلمون، أو الافارقة، أو الهنود، أو اليابانيون، بمصطلحاتهم الجاهزة الخاصة، ومن داخل امكنتهم المحلية المهذّدة، بمهاجمة الغرب، أو الامركة، أو الامبريالية بقدر من العناية بالتفاصيل، والتفريق النقدي، والتمييز، والامتياز، لا يربو على ما كان الغرب قد اسبغ عليهم. والامر ذاته ينطبق على الأميركيين، الذين تقارب الحمية الوطنية بالنسبة اليهم درجة الألوهية. وإنّ هذا في نهاية المطاف محرك حيوي عبثي لا عقلانية فيه. فإيّا كانت الاهداف التي تسمى «حروب الحدود» فإنّ هذه الحروب مفقورة موهنة. «فمبجبتها» ينبغي على المرء ان ينضم إلى الفئة البدنية أو المكوّنة؛ أو يقبل، باعتباره اخر تابعاً ومنضوياً، مقاماً دونياً؛ أو ينبغي عليه ان يحارب حتى الموت.

وإنّ هذه الحروب الحدودية لتعبير عن عمليات خلق الجواهر «التقليصية المقيّدة» - افارقة الافريقي، شرقنة الشرقي، غربنة الغربي، امركة الأميركي، لزمان غير محدود ودون ان يكون ثمة من بديل (إذ إنّ الجوهر الافريقي، والشرقي، والغربي لا يمكن إلا ان يظلّ جوهرأ) - وذلك نسق مايزال ينقل محمولاً من عهد الامبريالية التقليدية (الكلاسيكية) وانظمتها.

- ١٠ -

ونقيضاً لهذه الهويات العزلوية المتشعبة بتاريخ متخيّل، وذات متوهمة، وسرديات مختلقة، يؤسّس سعيد روح الهيام بالإنسان، والتهيام، والترحال، والانسراب إلى العالم دون قيود أو حدود، روح الانخلاع من نقطة ثابتة، وانتماز واحد، متحجر، وتاريخ متناسق عضوي يتصور له

\* اي الغربيين (الناشر).

الكمال. ويرحل في تناقضات العالم ولاتجانسية الثقافات والمجتمعات، ويتلمس تبرعم الطاقات والقوى الجديدة التي تعدُّ بثقافات مغايرة، وروح أعظم ثراءً في نزوعها الإنساني. ولعلَّ في المقاطع التالية ما يكفي لتجسيد هذه الروح الجديدة في عمله :

«كل هذه الطاقات المضادة الهيجنة، الفاعلة في العديد من الميادين، والأفراد، واللحظات توفّر منجماً أو ثقافةً يتكونان من إشارات وممارسات معانية للنظم لا حصر لها، «وتؤسس» لوجود إنساني جماعي ( لا مذاهب ولا نظريات محتملة) غير قائم على الإرغام والسيطرة. ولقد كانت «هذه الطاقات» وقوداً لانتفاضات الـ١٩٨٠ات، التي تحدثت عنها سابقاً. إن الصورة السلطوية، الإرغامية، للإمبراطورية، التي تسلكت وسيطرت على الكثير من إجراءات الإبتقان المتميز الفكري التي تحتلّ مكانة مركزية في الثقافة الحديثة، لتجد نقيضها في الانقطاعات القابلة للتجديد، التي تكاد تكون رياضية الروح، للمشويات الفكرية والدينوية: الأجناس الخليطة، الجموع غير المتوقعة بين التقليد والجدّة، التجارب السياسية القائمة على منجمعات من الجهد والتأويل (بالمعنى الأوسع للكلمة) بدلاً من الطبقات أو شركات الملكية والمصادرة والقوة.

إنني لأجد نفسي أعود مرةً بعد مرة إلى مقطع شابيح الجمال لهوغو أف سان فكتور، وهو راهب ساكسوني عاش في القرن الثاني عشر: "ولذلك، فإنه لمصدر فضيلة عظيمة للعنل المجرّب أن يتعلّم شيئاً فشيئاً، أولاً أن يتغير في الأمور المرئية والزائلة، كمن يكون قادراً بعد ذلك على أن يخلفها وراءه تماماً. إن المرء الذي يجد وطنه حلواً ما يزال مبتدئاً غصاً، أما من يكون له كُدُّ ثرى مثل ثرى بلده الأصلي فقد اشتدَّ عوده، لكن الكامل هو الذي يكون العالراً كلّهُ بالنسبة له مكاناً أجنبياً. إن الروح البانغ قد ركّز حبه على بقعة واحدة من العالراً، والشخص الثرى قد نشر حبه على الأمكنة كلّها، وأما الرّجل الكامل فقد أطفأ شعله حبه".

يقتبس إريك أويرياخ، الباحث الألماني العظيم الذي قضى سنوات الحرب العالمية الثانية منفياً في تركيا، هذا المقطع انمونهاً لكلِّ الراغبين - من الرجال والنساء - في تجاوز مقيدات الحدود الامبريالية، أو القومية، أو الاقليمية. عبر هذا الموقف وحده يستطيع المؤرّخ، مثلاً، أن يشرع في فهم التجربة الإنسانية ومدوّياتها المكتوبة بكلِّ تنوعها وخصوصيتها؛ والأ فسيبقى المرء ملتزماً بالإقصاءات وريود الفعل المتحيّزة أكثر ممّا هو ملتزم بالحريّة السلبية للمعرفة الحقيقية. لكنّ لاحظ أنّ هوغو يوضح مرتين أنّ الشخص «القوي» أو «الكامل» يحقّق استقلاله وتجوّده بالعمل من خلال الاتصاقات والتعلقات لا برفضها. إنّ المنفى لئستند إلى وجود موطن المرء الاصلائي، وحبّه له، ووجود وشائج حقيقية معه؛ والحقيقة الكونية للمنفى لا تكمن في أنّ المرء قد فقد تلك الحب أو الموطن، بل في أنّ في كلّ منهما طبعاً فقداناً غير متوقع وغير مستحبّ. تأمل التجارب، إنن، وكأنّها على أهبة أن تختفي: ثرى أيّ شيء رفيا هو ذلك الذي يرسو بها ويجذّرها في الواقع؟ ما الذي ستحفظه أنت منها، ما الذي ستتحلّي عنه، ما الذي ستستنقذه؟ ينبغي كمن تجيب على اسئلة كهذه أن تتحلّى بالاستقلالية والتجوّد اللذين يتحلّى بهما من كان وطنه «حلواً»، لكنّ وضعه الفعلي يجعل استردادها تلك الحلاوة أمراً مستحيلاً، بل يزيد من استحالة أن يمتاح الرّضى من بدائل يوفّرها الوهم أو المذهب الجامد، سواء أكانت مشتقة من اعتزاز المرء بموروثه الخاص ام من اليقينية حول من تكون «نحن».

لا «يشكل» أحدُ اليوم شيئاً واحداً محضاً. إنّ لاصقات مثل «هندي»، أو «امرأة»، أو «مسلم»، أو «اميركي» ليست بأكثر من نقاط انطلاقٍ سرعان ما تخلف ورائها إذا ما تمّ اتّباعها لحظةً واحدة إلى «مجال» التجربة الفعلية. لقد عزّزت الامبريالية خليط الثقافات والهويات على مستوى كوني. غير أنّ أسوأ هباتها وأكثرها اثسماً بالمفارقة الضدية هي أنّها حملت النّاس على الاعتقاد بأنهم بيض، أو سود، أو غربيون، أو شرقيون... فقط، أو بشكل رئيسي، أو بشكل حصري. لكنّ كما أن البشر يصنعون تاريخهم الخاص، فإنهم بالضبط أيضاً يصنعون ثقافتهم وهوياتهم الاعراقية. ليس بوسع أحد أن يُشكّر الاستمراريات الملحة للتراث العريقة، والمساكن المنزلة المتصلة، واللغات القومية، والجغرافيات الثقافية، لكن يبدو أنّ ليس ثمة من سبب سوى الخوف والتحيز في المضي في الإلحاح على انفصاليتها وتمايزها، كأنما ذلك هو كلّ ما تدور عليه الحياة الإنسانية. إن البقاء «على قيد الحياة»، في الواقع، ليدور حول

العلائق بين الأشياء؛ وبعبارة إلبوت فإنّ الواقع لا يمكن أن يُحرَم من «الأصءاء الأخرى» [التي] تقطن الحديقة». إنه لأعظم نفعاً وإرواء - وأكثر صعوبة - أن نفكر بمحسوسية وتعاطف، طباقياً، بالآخرين من أن نفكر بءأنفسنا، فقط. بيد أن ذلك يعني أيضاً ألا نحاول أن نُحكَم الآخرين، ألا نحاول أن نصنّفهم أو نضعهم في تراتيبات، ويعني، فوق كل شيء، ألا نُكزِّد باستمرار أن ثقافتنا أو بلادنا هي الأولى (أو أنها ليست الأولى، في هذا الخصوص). إن أمام المفكر لقدراً كافياً مما هو قيمٌ ليستغني به عن ذلك».

- ١١ -

غير أن امتياز موقف ادوارد سعيد وروعته من منظور المقاومة الإنسانية، والفكر النقدي التثويري، يكتمنان بالضبط في أنه في عصر اللابقيين، وأنهار السرديات الجليلة الكبرى، كما يسميها ليوتار، وما بعد الحداثءة، وما بعد البنيوية، يتألق بإيمان راسخ وبقين كُلي بأنّ الروح الإنسانية لم تُسحق بعد، ويرفض خرافة «نهاية التاريخ» التي ابتكرها فوكوياما ترسيخاً للعقائدية الأميركية (كما يرفض، في عمل تال ل الثقافة والامبريالية، منظومة حتمية الصراع العدواني بين الثقافات والحضارات، كما صاغها صامول هنتينغتون)، ويمضي باحثاً عن نبضات الروح الخلّاقة في كل مكان يقدر أن يتلمس قبساً منها فيه. وإنه، بما يشبه المعجزة في هذا القرن الذي انهارت فيه إمكانية المعجزات، ليجد بعضاً من هذه القوى المتبرعمة البارزة، ويبلورها بقوة تمنح الشعور بالأمل، دون أن تخلق التفاؤل الاعتيابي الطوباري الساذج. هوذا يحدّد بعضها :

«وذلك نسقٌ مايزال يُقلّ محمولاً من عهد الامبريالية التقليدية (الكلاسيكية) وانظمتها. ما الذي يقاومه؟ ثمة مثل واضح يكشف عنه إيمانويل فالرُشتاين وسميّه الحركات المضادة للنظّم، التي ظهرت كأحدى عقابيل الامبريالية التاريخية. و يوجد في الأونة الأخيرة عددٌ كافٍ من هذه الحركات المتأخرة في مجيئها لمنح قوة العزيمة حتى لأشد المتشائمين تصلباً: الحركات الديمقراطية على ضفاف فائق الاشتراكية كلّها، والانتفاضة الفلسطينية، وحركات شتى اجتماعية، وبيئية، وثقافية، عبر أمريكا الشمالية والجنوبية، والحركة النسائية. ومع ذلك، فمن الصعب على هذه الحركات أن تولي اهتماماً للعالم فيما وراء حدودها الخاصة، أو أن تمتلك المقدرة والحرية لإصدار التعميمات عليه. فإذا كنتَ تنتمي إلى حركة معارضة فيليبينية، أو فلسطينية، أو برازيلية فإن عليك أن تتعامل مع المتطلبات الاخطوطية والتقليدية <التكتيكية واللوجيستكية> للكفاح اليومي. ورغم ذلك فإنني لأعتقد أن جهوداً من هذا النمط تقوم بتطوير استعداد إنشائي مشترك، أو - لأعبر عن الفكرة بلغة جغرافية أرضية - خريطة للعالم متبطنة، إن لم يكن ما تقوم به تطويراً لنظرية عامة. وقد يكون بوسعنا أن نبدا الآن بالحديث عن هذه الحالة المرواغة بعض الشيء من المعارضة، وعن استخطاطياتها الأخذة بالبروغ، بوصفها إقصاحاً مضاداً عالمياً.

... تعانين دراسة التاريخ الهندي في دراسات منضوية، مثلاً، بوصفها سجلاً مستمرّاً بين الطبقات وبين نظمها المعرفية المتنازع عليها. وبالمثل فإنّ «الانكليزانية» في نظر المُسهمين في العمل ذي المجلدات الثلاثة الذي حرّره رافائيل صامول <بعنوان> الوطنية، لا تعطى أولوية على التاريخ، إلا بقدر ما تُسخر الحضارة الاتيكية <الأثينية> في كتاب برنال اثينا السوداء ببساطة لتعمل كأمودج لتيّ تاريخي لحضارة متوقّعة.

... إنّ الاكتناهاات المسترّبية بأطراد، وانتقشاعات الوهم، والسجلات المائئة في الأعمال المبتكرة التي اقتبسناها تُخضع هذه الهويات المركبة الهجينة لجديلة سلبية تقوم بحلّها إلى مكونات مشكّلة بطرق شتى. فأكثر أهمية بكثير من الهوية المستقرّة التي يحافظ على رواجها في الإنشاء الرسمي هو القوة التساجلية لطريقة تاويلية تتكوّن مادتها من مسارات التجربة التاريخية، وهي مسارات متقاوتة لكنها متواشجة ومتوافقة... ومتقاطعة فوق كل شيء.

نجد مثلاً فائق الجرأة لهذه القوة في تأويلات يجي. بها أكبر شاعر عربي معاصر، هو ادونيس - الاسم المستعار لعلي أحمد سعيد - للتراث الأدبي والثقافي العربي. فمنذ صدور كتاب الثابت والمتحول في ثلاثة مجلدات



بين عامي ١٩٧٤ و ١٩٧٨، مايزال أدونيس، وحيداً دون عون تقريباً، يتحدى الاستمرار للملاح لما يعتبره الموروث المتحجر، المقيّد بالتقاليد العربية - الإسلامية، العالق لا في الماضي وحسب بل في إعادات قراءة متصلبة صارمة وسلطوية للماضي. يقول أدونيس إنَّ الغرض من إعادات القراءة هذه هو منع العرب من مواجهة الحداثة مواجهة حقة. ويربط أدونيس في كتابه عن الشعريات العربية «الشعرية العربية» بين القراءة الحرفية المتصلبة الجامدة لشعر عربي عظيم، بالحكام، فيما تجلو القراءة التخيلية الخلاقة انه في قلب التراث التليد «الكلاسيكي» - بما في ذلك القرآن نفسه - ثمة تيار احتجاجي رافض تخريبي يجابه السننية الظاهرية التي تعلنها وتتبنّاها السلطات الزمنية. ويكشف أدونيس كيف ان حكم القانون «الشريعة» في المجتمع العربي يفصل السلطة عن التقنيد، والتقليد عن الابتكار، حاصراً التاريخ بذلك في مرمّزة «نظام ترميز» مضنية من السوابق التي تركزُ إلى ما لا نهاية. ويضع تقيضاً لهذا النظام قوى الحداثة النقدية التي تتحلّى بالقدرة على الحل والإدابة.

ويمضي سعيد في تقصّيه، ليشير إلى قوى أخرى، وحركات، ومبدعين بعينهم في امكنة متباينة من العالم تشكل هذا المحور الجديد لفكر مايزال قادراً على الكشف، والصراع، والطموح إلى مستقبل أبهى خارج أسر الفصلات المرعبة التي تولدت من الامبريالية والسننيات وانفصاليتها، ومن لايقينية «نهاية الحداثة»:

١-١١ «ومع الاستنفاد الفعلي للأنظمة الكبرى والنظريات الكلية (الحرب الباردة، تفاهم بريتون وودز، الاقتصاد السوفييتي والصيني الجماعين، قومية العالم الثالث المناهضة للامبريالية)، ندخل مرحلة جديدة تمتاز باللايقينية الهائلة. وذلك ما مثله بقوة ميخائيل غورباتشيف قبل ان يحلّفه ذلك الاقلُ لايقينيةً بكثير: بوريس يلتسين. فلقد عبّرت الپريسترويكا والغلاسنوتس (إعادة البناء، والانفتاح)، الكلمتان -المفتاحيتان المرتبطتان بإصلاحات غورباتشيف، عن عدم الرضى عن الماضي وفي حدٍّ أقصى، عن آمال مبهمة حول المستقبل، لكنهما لم تكونا نظريات ولا رؤى. وكشفت اسفاره القلقات بالتدرج خريطةً جديدة للعالم، ومعظمه - إلى حد يكاد يكون مخيفاً - متداخلٌ متبادلٌ الاعتماد، ومعظمه غير مخطّط بعدُ فكراً، وفلسفياً، وعراقياً بل غير مخطّط تخيلياً. جماهير غفيرة من البشر، اعظم عدداً وامالاً من أي وقت مضى، تريد ان تاكل بشكل افضل ويتواتر اكبر؛ واعداد كبيرة ايضاً تريد ان تتحرك، وتتحدّث، وتغني، وتلبس. ولئن كانت الأنظمة القديمة عاجزة عن الاستجابة لهذه المطالب، فإن الصور العملاقة التي اسرعت في تشكيلها الإعلاميات والتي تستفز العنف المذبّر والاستجابية المسعورة لن تجدي ايضاً. إنَّ من الممكن الاعتماد على فعالية هذه الوسائل للحظة عابرة، غير انها سرعان ما تفقد قدرتها على الاستنفار والتحريك. «إنذ ثمة تناقضات كثيرة جداً بين الخطط التقليدية والبواعث والدوافع الجامعة الكاسحة.

إنَّ التواريخ والتراثات والجهود، القديمة المخترعة، من أجل الحكم تفسح المجال الآن لنظريات أجد وأكثر مرونة واسترخاء. حول ما هو متفاوت ويالغ التوتر والحدة في اللحظة المعاصرة. في الغرب، استقلت مابعد الحداثة ما يتّسم به النظام الجديد من انعدام للوزن لئي- تاريخي، واستهلاكية، ومُحجّبة. وترتبط معها في ذلك افكار أخرى مثل ما بعد الماركسية وما بعد البنوية، وهي متنوعات مما يصفه الفيلسوف الإيطالي جيانى فاتيمو به الفكر الهزيل «لزم «نهاية الحداثة». ورغم ذلك ففي العالم العربي والإسلامي مايزال كثير من الفنّانين والمفكرين مثل أدونيس، والياس خوري، وكمال ابو ديب، ومحمد أركون، وجمال بن شيخ معنيين بالحداثة ذاتها، ومايزالون بعبيدين جداً عن ان يكونوا مستنقدين أو منهكّين. ومايزالون «يشكلون» تحدياً رئيسياً في ثقافة يسيطر عليها التراث والسننية. وهذه هي الحال ايضاً في الكاربي، وأوروبا الشرقية، وأميركا اللاتينية، وأفريقيا، وشبه القارة الهندية؛ وإن هذه الحركات لتتقاطع ثقافياً في فضاء عوالم «كوزموپوليتاني» ساحر ينفحه بالحياة كتاب نور شهرة عالمية مثل سلمان رشدي، وكارلوس فونتنس، وغابرييل غارسيا ماركيز، وميلان كونديرا، الذين يتدخلون بقوة لا كروائيين فقط بل كمعلّقين وكتاب مقالات ايضاً. وينضمّ إلى مناظرتهم حول ما هو حديث أو ما بعد حديث السؤالُ القلق الملحّ : كيف ينبغي لنا ان نقوم بالتحديث، في اوضاع الغليان الزلزالي الذي يعاينه العالم اليوم وهو يتجه نحو نهاية القرن، أي، كيف لنا ان نحفظ الحياة عينها في حين انَّ المطالب اليومية المبتذلة للزمن الحاضر تهدد بان تيز الحضور الإنساني وتسبقه»؟.

١١-٢ «ولقد اندثرت الآن الثنائيات الضدية العزيزة على قلوب المشروعين الامبريالي والقومي، وبدلاً من ذلك اخذنا نحسّ الآن بان السلطة القديمة لا يمكن ببساطة أن تُستبدل بسلطة جديدة، بل إن تحالفات وتموضعات واصطفافات جديدة مصوغة عبر الحدود، والانماط، والامم، والجواهر، اخذت تظهر للعيان بسرعة، وإن هذه التموضعات الجديدة هي الآن ما يستفز ويتحدى مبدأ الهوية، وهو مبدأ سكوني...»

-١٢-

بين ما يستحق تأملاً خاصاً في تاويل سعيد لازدهار الرواية الغربية، وازدهار الرواية في العالم المستعمر، تصوُّره الفضائي الجغرافي. الرواية، بل السرد عامة، من هذا المنظور، حركة في الفضاء، تتجاوز لحدود الذات الثقافية إلى فضاءات تقع خارجها. وذلك يتم في أوروبا في صيغة الاستعمار والغزو والفتح لعوالم خارجية. ويتم في العالم المستعمر بحركة معاكسة، يمثلها، في نموذج جيد يدرسه سعيد، ما يقوم به الطيب صالح في موسم الهجرة إلى الشمال. وأحد وجوه امتياز تصوّر سعيد أنه يسمح بإدراج منظومتَي إيان واط وباختين في أن واحد ضمّنه. لكنّ امتيازه الضمّني الأكبر هو أنه يسمح بتأمل تاريخ الكتابة السردية من منظور جديد، وتفسير ظواهر قديمة خارج النزاعات الراهنة. لقد نشأ السرد العربي، مثلاً، في الفترة الأولى من الإسلام والعصر الأموي على أيدي القصاصين. ولقد ارتبط فنّه بالضبط بالفتوحات وتجاوز الفضاء المحلي العربي. ولم يكن أدب المغازي والسير إلا تجسيداً واحداً لنشوء فنّ السرد في هذه الأطر. بهذا المعنى يمكن أن نرى أنّ منظومة سعيد تصدق خارج الإطار التاريخي والجغرافي الذي طوّرها من أجل دراسته، وهو أوروبا إبان المدّ الاستعماري والامبريالي. وإذا كان الأمر كذلك، فإنّ مقولة النشأة الحديثة للسرد العربي تصبح باطلة، ويبدو الأمر مساراً تاريخياً تنامي فيه فنّ السرد العربي في أطر تاريخية معينة، واتّخذ اشكالاً قادرة على تجسيد البنى القائمة تاريخياً في السياق المكاني والزمني المحدد. وجاءت الف ليلة وليلة ذروة من ذرى تطوره وتناميّه. لكنّ تقلص الفضاء اللاحق قلّص مدى الخيال السردية كذلك، وأعادته إلى شرنقة مغلقة. بهذا المعنى أيضاً، لا يكون ظهور الرواية في أوروبا بشكلها التقليدي إلا إحدى حلقات تحولات فنّ السرد. أي أنه تحقّق لإمكانية واحدة بين إمكانيات لا حصر لها. ومن الدال، والمفارقة الضدية، أنّ الرواية الأوروبية في عصر اتّساع الفضاء الامبريالي، طورت بنية سردية مغلقة، اختلاقية صرفاً، متميزة عن الواقع منفصلة عنه، وأنّ الرواية الحديثة، مع تقلص المدّ الامبريالي واحتلال الفضاء الخارجي، وضمور دور الطبّوسطيّة <البورجوازية> الأوروبية، تتحوّل الآن بأنّحاء الأشكال الروائية التي سبقتها، وتخلع عنها إهاب المقومات التي اتخذتها إبان العصر الامبريالي التقليدي، وتقترّب من الأشكال السردية التي عرفتها الثقافة العربية سابقاً والتي يمكن وصفها بأنّها بنية سردية مفتوحة، ومختلطة، وغير قابلة للتصنيف الأجناسي السهل المؤطر الدقيق، ومزججة على مستوى الواقع والخيال، والمعقول والسحري، والشعر والنثر، واللغات والأصوات، والأمكنة والواقع والمشهديات، وعلى مستوى الطبقات الاجتماعية التي تجسّد عوالمها، والتي تتوجّه إليها، وحضور الرجل وحضور المرأة في المجتمع، وعلى مستوى تعدّد الرواة، والانماط السردية، والدوائية الحكائية. ومن المنظور نفسه نفهم ظهور شكل روائي في العربية مرتبط بقاعدة اجتماعية معينة، وتصوّر معيّن للفضاء، وبنية سردية محدّدة. إنّ نشوء فنّ المقامة من فنّ الافتراء - كما وصفه بديع الزمان الهمذاني الذي قدم أوّل تحديد أعرفه يقوم على التمييز بين التاريخي والافتراضي، كنفيز للسرد التاريخي - و بروزّ أنجاج السرد العجائبي كاشكال تتجاوز فضائية تنتقل من فضاء الدنيا والعالم الحسّي المحدود إلى الماورائي اللانهائي عبر الخيال أو اللأوجود،

أو الحلم، ثم تجديد شكل المقامة، وظهور شكل الرواية المغلفة الافتراضية تماماً (الصيغة القريبة من الرواية الأوروبية) مرتبطة بالفضاء الأوروبي، والرحيل إليه، ثم شكّل النص المفتوح واختلاط العوالم... لقايلة الآن للمعاينة من منظور جديد في ضوء أطروحات ادوارد سعيد.

-١٣-

لكتابة ادوارد سعيد سميات ومؤشرات أسلوبية ولغوية يتفرد بها، مجموعة، بين كبار كتّاب النثر الإنكليزي اليوم. وإذا كانت مقولة «الأسلوب هو الرجل» صحيحة أحياناً - وهي في كثير من الأحيان خاطئة، لأنّ الأسلوب أيضاً قِناع الرجل، وحجابه عن العالم، - فهي صحيحة صحيحةً لذيدة بالإشارة إلى سعيد. من هنا يمكن وصف كتابته بالشفافية، بمعنى أنها تشف عن ذاته، لا بمعنى الرقة والعذوبة والليونة.

أول هذه المؤشرات: جلال في اللغة والتركيب، وجزالة وشدة أسر - بلغة نقادنا القدماء - ودرجة باهرة من الجدية في اللهجة والتناول. نادراً ما تشف جملته عن سخرية، أو كلبية، أو استخفاف. وهو حين يكتب منتقداً أحداً بحدّة، فإنّه يصوغ ما هو أصلاً لهجة ساخرة، بصيغة تخرجه من السخرية إلى المفارقة اللاذعة. كأنه لا يعرف كيف يضحك أو يلهو أو يلعب أو يستخف. وثاني مؤشراته: القوّ، وتوهج، وجيشان عاطفي، وشبوب وشبق للحياة والجدال والتفنيد والإقناع. ثم إنه مفتقّ معانٍ ودلالات لا يضارع، يدير النقطة الواحدة في محاجته في أمر ما دورات تكاد تستنفد كلّ ما يمكن أن تسمح به من إمكانيات؛ وفي الكثير مما يستخرجه منها، يستخرج ما لم تكن العين ستراه بسهولة لولا أن قام هو بكشفه؛ ويؤدّي ذلك إلى طول في الجملة، وإسهاب في المناقشة، وتفرّيع لعبارة إلى عبارات منضوية، وإدراج بين أقواس لنقاط جزئية تزيد منظومته اكتمالاً، وتقدّم عليها الأدلة، لكنها تزيد حبك نسيجه، وتشابك خيوطه، وتعقيد منظوره. وبين مؤشرات كتابته الباهرة: احتشاد بالصيغ الصرفية التي تشع وتوهج تضخيماً أو تحسناً أو تطويراً، من نمط ما يفعله المفعول المطلق في العربية. وأكثر هذه الصيغ تكراراً وبخللاً لكتابته صيغة الظرفية بالإنكليزية التي تحدّد درجة حدوث أمر أو هيئته أو قدره، كما تتممّل في إضافة اللاحقة «ly» إلى الصفة: beautiful = beautifully و full = fully. ويندر أن تخلو جملة من جمل سعيد الطويلة من هذه الصيغة؛ وهي، بجلاء، تُخرج الجملة الوصفية الخبرية المحايدة إلى جملة موقفية، تحدد شعور الناطق بها مما يقوله، ولذلك دلالة عميقة سأنصّلها بعد قليل. والسمة الثالثة التي ترفد هذه السمة استخدام الكلمات ذات الحقول الدلالية الهائلة؛ فهي تكثّر في كتابته كثرة لا أعرف مثيلاً لها في الإنكليزية، ويندر ما يماثلها في العربية. يندر أن ترد جملة طويلة نسيباً دون كلمة من هذا المعجم التالي: هائلة، ضخمة، كبيرة، مرموقة، صاعقة، مدوّخة، صادمة، كاسحة، مجتاحة، فائقة، خارقة، باهرة، لا تُحصى، لا تُنسى؛ وكل هذا المعجم فُجّرُ انفعالي، وشبوب، وشبق، وموقف متازم حاد، عاطفي، شخصي، لا حيادية فيه من الأشياء والعالم. وإلى جانب هذا المعجم هناك نظيره السلبي في دلالاته؛ فالأشياء عند سعيد في سلبيتها: مروعة، قبيحة، بشعة، مهولة، مفرّعة، مخيفة، دنينة، خسيسة.

أي أننا هنا مع كاتب يتألق متوهجاً مُشعباً من داخل ذاته عبر أعضائه كلّها، لا حجاب بينه وبين الأشياء، والأفكار، والثقافات، والمفكرين، والعالم، بل هو على احتكاك وتعارك وتلاحم مع كل شيء. وكل ذلك مُصنّف بقوة عن، ومتسارق متناغم بجمال مع، جوهر موقفه الفكري ومنهجه النقدي وهو استحالة أن يكون الإنسان محايداً متجرداً، وأن انخرطنا في دنوية العالم الذي نعيش فيه معنى وجودنا. وهو في هذا الكتاب أكثر من غيره يحمل حملة صادمة باهرة كاسحة

(لأستعير مصطلحاته) على ادعائيات المعرفة الغربية بالموضوعية، ويكرر مع قانون أن الموضوعية للأصلائي هي دائماً ضده. لكن سعيد حقق من الشهرة والمكانة الرموقة جامعيأ وعالمياً ما يجعل تخليه عن الموضوعية والتجرد منهجاً فكرياً لا نقطة ضعف، وكعب أخيل.

تنوجد هذه السماتُ وتنصهر كلها في بنية جملة فريدة بين الكتاب بالإنكليزية اليوم، هي الجملة التي تنسج نسقاً ثلاثياً غالباً، ورباعياً أحياناً. أما على مستوى الصفات، فهو غالباً ما يصف شيئاً بثلاث صفات، كان الأشياء لا يمكن أن تكون لها سمة واحدة، أو بعطف ما يقول ثلاث مرات، (مذكراً إلى حد ما بأسلوب طه حسين، لكن بروحية مغايرة تولد الحركية بدل الثبات). والدلالة العميقة لهذه البنية هي الشبوب العاطفي، والتفريع، والولوج إلى تلوينات الفكرة، والأشياء، والمعاني، وقوة الحضور وشموخه. كأن نفساً هادرة تندفع في طريقها بشهوة لامتلاك العالم كله، ووصفه، وتحديده، ورسمه بحيث تتملكه تملكاً لا فكاك له منه.

وإن ذلك كله لهو أدوار سعيد، الذي اعرفه، صديقاً حميماً، وباحثاً شاهقاً، ومفكراً سامياً، ومشتعلاً، في ذلك كله، بشبق وشهوة لا يضاهيان. هو القوي في صداقاته وعداواته، في أوجاعه واغبتباطاته، المتفجر في قطعة موسيقية يعزفها لأصدقاء يتسامرون في دفء بيته، وفي مقالة يكتبها لـ النيويورك تايمز دفاعاً عن فلسطين. إنه لأكبر من الحياة، هذا الذي تنضب شيئاً فشيئاً في عروقه الحياة، وسرطان الدم يمتصُّ نسغه، وهو يهدر عبر العالم بفكره وحيويته وشبويه ومعرفته، التي لا تحصى ولا تُنسى ولا تُضاهى. أقول له أحياناً، بشفقة المحب: «أدوار، لماذا لا تهذا قليلاً، وترتاح قليلاً، وأنت على ما أنت عليه، فتقعد عن السفر، وقبول الدعوات، والتناثر في العالم، وما أنت بحاجة إلى شيء من ذا كله، فلقد بلغت ما بلغت؟» فتزوغ في عينيه ومضة مترددة، قبل أن تأتي الكلمات مزيجاً من الجرح والعزيمة، وفيها رعشة لا تتلمسها إلا نفسُ الصديق الصدوق: «لا أريد أن أهدأ، سأمضي إلى نهاية الشوط، إلى أن أسقط، أريد أن أفعل كل ما أريد أن أفعله، إذا هدأت، فكانني اعترف للمرض بالقهر. وما أنا بقادر على ذلك».

ثم إن بين سماته المذممة، بحق، ثراء لغته الفاحش. لا أعرف باحثاً في الإنكليزية اليوم يتنوع معجمه الشخصي تنوع معجم أدوار سعيد. وفي كلامه ما لا تجده إلا في القواميس الكبيرة، وفيه ما لا تجده فيها أيضاً. هذا الثراء اللغوي ليس عقدة الأجنبي بإزاء اللغة يدلُّ على إتقانه لها بكونه ملكياً أكثر من الملك، كما يعرضي التعبير، بل هو جزء من الانسحار باللغة، والافتتان بالكلمات، ومن الثراء الفكري، والنهم للعالم، والشبق للأساع والرحابة والاحتواء والاحتجان.

وبينها أيضاً تلويناته الأسلوبية، وتغييره لصيغ العبارات، داخل الجملة الواحدة، وتقطيعه لها بالفواصل، والعبارات الاصطلاحية الجاهزة، وخلط التركيب النظمي لها وقبُّه وعكسه، كاشفاً بذلك عن هذا القلق والاستقرار الغد الذي يتموج ويضطرب في حناياه وفي فكره وفي علاقته بالعالم وبالثقافة وبالكتابة.

إن أدوار سعيد يكتب، في النهاية، وقد تمثل التراث البحثي حتى الثمالة، من موقع الفنان الذي يتجاوز البحثية والمجمعية. وهو يفعل ذلك على مستوى اللغة والروح والموقف، كما يبرز، جميلاً، ساحراً، حديثاً عن الالتصاق، والتواشج، والمنفى، والرحيل، والهجرة، واللاقرار، في المقاطع التي يختتم بها كتابه والتي اقتبسها أعلاه، وفي عدد من المواضع الأخرى، بين أجملها لجوؤه إلى الحديث عن الروح الشعرية التي تسكن مقاومة سيزير وجيمس وعلاقتها بمقاومة النظم والمذهبيات الجامدة والسردية. هي ذي بعض كلماته:

«هذه اللحظة في كتاب جيمس، وهي ليست نظرية تجريدية، مملبة مجهزة، ولا مجموعة تبعث على اليأس من

الحقائق القابلة للسرد، تجسّد (ولا تمثل أو تنقل فحسب) الطاقات الحيوية للتحرير المناهض للامبريالية. وإنني لأشك في أن أحداً يستطيع أن ينتزع منها مذهباً ما قابلاً للتكرار، أو نظرية قابلة للاستعمال ثانية، أو قصة لا تُنسى، دُع عنك مكاتبية «بيروقراطية» دولة في مستقبل ما. ربما كان بوسع المرء أن يقول إنها تاريخ الامبريالية وسياسياتها، والعبودية، والفتوحات، والسيطرة وقد حرّره الشعر، من أجل رؤيا مؤثرة في إنجاز التحرير الحقيقي إن لم تكن قادرة على هذا الإنجاز. ويقدر ما يمكن تقريبها في بدايات أخرى فإنها، إذن، مثل اليعاقبة السود، جزء مما يمكن في التاريخ البشري أن يحررنا من تاريخ السيطرة نحو واقع التحرير. وهذه الحركة تقاوم المساربات السردية التي تمّ رسمها والسيطرة عليها من قبل وتلتف حول أنظمة النظرية، والمذهب، والسنتية. لكنها، كما يشهد عمل جيمس بأسره، لا تهجر المبادئ الاجتماعية للمجتمع، واليقظة النقدية، والتوجه النظري. وإن أوروبا والولايات المتحدة المعاصرتين لفي أمس الحاجة إلى مثل هذه الحركة، بجسارتها، وأريحية روحها، ونحن نتقدم إلى القرن الواحد والعشرين».

وبينها اعتباره للمقاومة الجديدة البازغة تلك الطاقة الجميلة الرُحَل التي هو مولع باكتنائها:

«كيف حاولت المناهضة التحريرية للامبريالية كسر هذه الوحدة المقيّدة بالانغلاق؟ أولاً، بتوجّه جديد تكاملي أو طباقي في التاريخ يعاين التجارب الغربية وغير الغربية بوصفها تنتمي بعضها إلى بعض لأنها موشوجة <جميعها> بالامبريالية. وثانياً، برؤيا تخيلية <خلّاقة>، بل طوباوية، تعيد تصوّر النظرية والاداء المرؤفين (نقيضاً للحاصرين المقيّدين). وثالثاً، بالاستثمار لا في سلطات، ومذاهب، وسُننيات مقننة، جديدة ولا في مؤسسات وقضايا واسعة، بل في نمط خاص من الطاقة الحيوية الرُحَل، المهاجرة، والمضادة للسردية».

هنا تتوهج روح الفنّان المبدع المتوفّر المغامر، روح القلق والتيه والرّحيل ورفض الوصول، روح تقف، بل تتراقص، على حافة العالم، بين الكائن واللاكائن، المعروف والمجهول، الجلي والخفي، وهي ثلثان في ذلك، وثلث واحد متردّد في هذا، متشوّفة مستقبلاً لن يجيء».

-١٤-

يثير في عمل ادوارد سعيد الدهش إحساساً متلابساً ضدياً: ذروة الإعجاب بالمعيته، والانتشاء ببراعة تحليله ووهج فكره... والإحساس المهرف بأسى شفاف يفيض من شعور غوّري بأن وراء تفجّره و غضبه الجامح نقاءً إنسانياً يُفعم النفس بالغبطة والشجى. ذلك أنّ الغضب يتضمن جوهرياً إحساساً بالمباغته، بالخيبة وانقشاع الوهم، بأمل انهار، وصورة تكشفّت فإذا هي على غير ما كان المرء يعتقددها. والغضب، جوهرياً، يتضمن برأمة من يستكبر أن تكون الأشياء على ما هي عليه، ويستعظم أن تكون القسوة والوحشية والاستعباد حقائق في عالم كان يظنه نقيّاً منها. كأن ادوارد سعيد في غضبه المتفجّر كان يفترض قبلياً أنّ الغرب والامبريالية والكتاب الكيثار الذين أنتجوا إبداعاتها العظيمة كان لا بدّ أن تكون نقيّة، إنسانية المنظور، غنية في إجلالها للإنسان، مناضلة من أجل القيم، والحرية، والعدالة. فيصعقه بغته أنها لم تكن كذلك، وليست كذلك الآن. والحقيقة البسيطة هي أنّ التاريخ الإنساني كلّ لم يكن كذلك، وأنّ القوّة المدمّرة التي تنتج السيطرة والهيمنة لا مناص لها من أن تؤمن بتفوّقها، وبأنّها ذات رسالة إلهية، أو تحضيرية، أو هادية علوية من نمط أو آخر. فالقوي المسيطر ليس من طبيعته أو طبيعة الأشياء أن يعتبر الضعيف ندأً له، أو أن يعامله بإجلال، أو يؤمن بأنه ينتمي إلى الحيّز ذاته من الوجود، والإنسانية، والموهبة، والأحقية الذي ينتمي هو إليه. وتوق سعيد المبرح إلى تكوين عالم نقيّ من مرّضيات القوّة وتشويهاتها توقّ إلى نموذج لا إمكانية لتحقيقه. قد يكون جميلاً أن نسبح له بدغدغة أحلامنا؛ أما أن نبني أنظمة فكرية، وبرامج أهداف، على فكرة إمكانية تحقيقه، فمما لا ينتمي إلى دنوية العالم التي يؤمن بها سعيد نفسه إيماناً يكاد يكون دينياً، بل ينتمي إلى مستويات لادنيوية، أقرب إلى

حلم جنان عدن - الجنان التي نعرف أننا لا نعرفها، ولم نرَ تحققاً لها، ولا شيءٍ آخر. ولا غرابة أن ينتهي سعيد في خاتمة كتابه المدهش هذا إلى الحديث بلغة الفنّان المبدع عن الروح الرّحل، الهائمة، التي لا تقطن مكاناً ثابتاً بل تظلُّ في هجرة أبدية. ذلك أنّ ما يتبطّن مسعاه كلّ طموحٍ تكتشف الروحُ بانتظام أنّه غير قابلٍ للتحقق، لكنّها إذ تكتشف ذلك لا تنكسر ولا تنكفي، بل تلجُّ حالة قلقها المتأجج الخلاق، فتعصف بها رياحُ الاقترار، حتى وهي تتشبث بأرض الصلابة على مستوى بحثي، وتجلو بعضَ طاقات التغيير، وتقرأ في ثنايا الوجود المكفهر ومضاتٍ من قوى الخلق القادرة على مجابهة فتامة العالم ووحشية القوة، والسيطرة، والأصوليات، والنزعات الانفصالية التي تولّدها الهيمنة نقيضاً لها ومناوئاً لعدوانيتها الشرسة.

في العمق من بحث سعيد اللاتب شعورٌ مضمّرٌ في جلائه بأنّ الغرب نموذج عظيم بحق، وثقافة متفوّقة. ولذلك تنهمر المباحثة حين تتكشف للعين الجوانبُ الإرعابية القبيحة فيه. ولقد انجلى هذا الشعورُ في أشكال متعددة في هذا الكتاب تفصح عن بعض أسرار الروح القلقة الهائمة التي ينبض بها، ومنها تأكيد سعيد - الذي يكشف عن مقدرة يُحسد على الإعجاب بالعمل الفني من حيث هو عمل فني رغم رؤيا العالم، والمواقف، ووجهات النظر العقائدية التي يحملها والتي يعتمدها سعيد أشدّ المقت - أنّ «المراء، بدراسته للنصوص الثقافية التي نجحت في التعايش مع المشاريع الكونية للإمبراطورية الأوروبية والأميركية، أو قدّمت الدعم لها، لا يتّهم هذه النصوص بالجملة أو يقترح أنها أقلّ إشاققة من حيث هي أعمال فنية بسبب كونها بطرق معقدة جزءاً من المشروع الامبريالي»، وأن الثقافة الغربية لم تكن، بسبب كل ما فيها من مثالب، أقلّ عظمة أو إبداعاً أو ثراء.

#### -١٥-

كل ما في هذا الكتاب يشف عن كل هذه الأمور. فكيف أترجمه، واكتفي في ما أفعل بنقل معانٍ وأفكار فأسطحه بعاديّ المفردات، ومتطابقٍ الألفاظ، ومألوفٍ التراكيب، والمسترسِل اللاموئع من الأساليب؟

إنّ بين ما أسعى إليه في تعريب هذا الكتاب هو تعريبٌ إدوارد سعيد أيضاً. ومن أجل ذلك افتقُ كلمات، وأبحث عن صيغ، وأولّد مفردات، وأتجرأ على حدود اللّغة ومقيداتها. ومن غير ذلك كنت سامسحه وأسطحه، وألغي تنوع مفرداته وأساليبه، وأخمد وهج روحه. وكان ذلك كله سيكون فقرأ لسعيد، وخسارة فرصةٍ للعربية لتمتّاح من منابع معرفية جديدة، وتثرى وتزدهي بألقٍ يأتيها من ابنٍ تكلّته.

فإنّ كنتُ قد نجحتُ في صنع طيفٍ صورةٍ لادوارد سعيد، إضافةً إلى ما يقوله هذا الكتاب على مستوى المضامين الفكرية العزلاء، فأية غبطةٍ ستغمرني! وإن لم أكن، فما ذلك مما يلج في المحالات، بل إنه لأشدّ الأمور طبيعية: فإنّ تقبض على روح كهذه الروح الرّحل، وتصوغها في صياغة محدّدة مقيّدة، هو ما لا تناله فرائد المقدرات نفسها؛ ثمّ إنه، الحقّ الحقّ، مما لا ينبغي أن تسعى إليه باستغراق في العزيمة، أصلاً. ذاك أنّ نجاح مثل هذا المسعى سيكون خيانة لتلك الروح، واعتقالاً لجموحها المولّه بحريةٍ لا حدود لها، وبتهيام وترحال لا تؤطّرهما المؤطّرات، ولا تكبح جموحهما الكابحات.

واللّهم، لقد حاولتُ وسعيتُ، فاغفرْ لي. ولا تكتبنُ لمسعاي النجاح!

في حواراتنا الكثيرة، تندبِق بين أن وأن نقطة خلافٍ توشحُها المودَّةُ بيني وبين ادوارد، الصديق، والمفكر الألمي، المناضل العربي الفلسطيني، والباحث الإنساني الكبير. في محاضرات القِيَّتْها وشرَفني بأنْ قدمني فيها، وفي أحاديث بيتية، وفي مطاعم وسهرات، حدث أن اتَّخذنا موقفين مختلفين من قضايا تعني كلِّنا بعمق: بين هذه القضايا إشكالية الهوية. ففيمما يزداد مثلُ إدوارد عاماً بعد عام إلى تقليص أهمية الهوية كعامل فاعل إيجابياً في بناء الثقافة ويراها، في جلِّ تجلياتها، إثمًا قومياً أو فئوياً، أظنَّ عاجزاً عن سلخ نفسي عن الوشائج التي تربطني بمفهوم مترسِّخٍ للهوية في عالم متناجج بصراع الهويات. في إحدى تلك المناسبات قلت له: «ادوارد، إن رؤيتك لجميلة مغوية، ورائعة في إنسانيتها؛ لكن في عالم تهددني فيه إسرائيل والغربُ يوعياً في مصيري، وباجتاثات هويتي، ويوغل الأقيواء في تأكيد هوياتهم المتميزة المتفوقة، لا أستطيع أن أفي هويتي وأحارب باسم هوية هجينة بدعوى أنها أكثر إنسانية لأن كل الثقافات هجينة. إن اللحم شيء، والعالم شيء.» وأرى فكر سعيد هنا في أزمة تقوُّص بعض مرتكزاته <بالمدلول الدردياني للتقويض>: فهو هو الفلسطيني العربي الذي لا أعرف الكثيرين ممن حاربوا دفاعاً عن الهوية الفلسطينية أكثر منه (لكن دون أن يحوِّكها أبداً إلى هوية انفصالية، عزولية، عدائية من النمط الذي يهاجمه)؛ غير أنه، على مستوى آخر، نبي رَقَصَ الهويات. وما أظنَّه سيحلُّ هذا التعارض في فكره وذاته، ولا أريد له أن يفعل؛ فهو أحد أسرار الوهج والقلق الإنساني اللذين يشعان من كتاباته ويعطيانهما حيويتها، ويميزانهما عن غيرها من كتابات نظرية حول خطر الهويات. وبالضبط لأنه متجذِّر في هويته، يبدو صراعُهُ ضدَّ الهويات الضيِّقة إنسانياً، موجعاً، حاراً، حقيقياً، ومَناهِياً - كما يحبه أن يكون.

وترتبط بهذه المسألة مسألة الهجئة. فالثقافات في نظر سعيد كلُّها هجينة، وبمقدار هجنتها يكون ثراؤها. وهذا الكتاب، كما تجلَّى حتى الآن، حربٌ على مفاهيم الصفاء والنقاء والواحدية. ومع أنني شخصياً شئتُ مثل هذه الحرب، فإنني لا أدفع بقضية الهجئة إلى موقع الصدارة من تصوُّر الثقافات وحيويتها، ولا اتبنى الهجئة في تجلياتها القصوى؛ فللهجئة حدود تنقلب بعدها إلى زندقة وبندقية. وليس من المصادفة أن العربية في الجوهر ترى الهجين ذروة البياض الصافي والمختلط المستهجن في أن واحد. فالعربية من حيث هي لغة وبنية معرفية جسدت فهماً عميقاً للهجئة؛ وبين أول من تعامل ثقافياً مع هذا المفهوم المجتمع العربي العباسي الذي ابتكر مفهوم المولَّد، وهو في لغة سعيد ومريديه الهجين تماماً. ولقد أطرى العربُ المولَّدين، لكنهم أيضاً أدركوا أن الاندفاع في التوليد إلى مرحلة قصوى يضيع الوهج الحقيقي في الثقافات ويمسح شخصيتها - أي هويتها. وأنا أقرب إلى هذا المفهوم مني إلى تقديس الهجئة التي يدافع عنها اليوم في العالم دارسون غير إدوارد سعيد ينتمي الكثيرون منهم إلى أقلِّيَّات <هندية وأفريقية غالباً> ويعيشون في خضمِّ مجتمعات غربية تؤمن بعض قطاعاتها بالنقاء النازي، وترى الغرب دخيلاً ينبغي بتره، وتوليداً للنقي ينبغي غسله والاعتسال منه. ومن الطبيعي أن يدافع هؤلاء عن الهجئة، لأنهم بذلك يبحثون عن مشروعية تحميمهم، وعن إطار فكري ملائم لوجودهم، وعن فلسفة تحوُّل العالم الذي يتعرضون فيه للخطر إلى عالم يأمنون على أنفسهم منه. وبمصطلحات سعيد، فإنَّ موقفهم الفكري، وإنتاجهم الثقافي، دنويان أيضاً، ومتعلقان بعمق بالسياق الإمبريالي الغربي الذي يعيشون فيه، وليسوا قضية تصورية معزولة خالصة ومطوَّرة لمحض المتعة التأميلية، والصفاء الجمالاتي.

وأنا لا أشعر بمثل هذه العقدة، ولا ناقة لي فيها ولا صاروخ. إنَّ انتمائي لا يتحدَّد بوجودي



في المجتمع الغربي؛ فانا لا أسعى إلى الاندماج فيه، ولا أبحث عن مسوغ لوجودي في داخله. وهو بالنسبة لي منفي آخر، يحتل مرتبة تالية في النفي للمنفى الأول الذي هو الوطن. وفي الجوهر، أو من بغربة الإنسان في العالم، ويانه يظل منفيًا، وأن انتتار نفيه هو انتتار إبداعه ووهج فكره. وليس ثمة ما هو أخطر على المفكر من الانتماء الحميم والذويان في ثقافة والتواشج اللامتيز مع الكتلة، أيًا كانت الكتلة: عائلة، أم بلدًا، أم وطنًا، أم منفي. إن إبداع الفنآن كامن ومشروط في انقصامه، لا في ذويانه؛ وقد يكون صحيحًا أنه بقدر ما يكون انقصامه انقصام المنتمي يكون وهجًا عظيمًا وألغًا مضيئًا. غير أنه، في هذه الحالة، يظل أقل بكثير من ذلك الإنسان الكامل الذي أشار اليه هوغو أوف سان فكتور.

في اللباب من كتاب ادوارد سعيد هذه الإشكاليات الفكرية، الروحية، الفردية، والثقافية التي تتعلق بعلاقات الثقافات والتواريخ والمجتمعات. وفيه أيضاً قراءة فذة للمقاومة التي تفجرت في العالم المضطهد المستعمر لا اعرف لها مثيلاً في الكتابة غربية كانت أم شرقية. وفي الفصل الذي يكتبه عن فانون خاصة ألغ فكري يندر أن تجد له مضارعاً. وذلك بعض من تسويغ ما يجعله، في تقديري، جديراً بأن يوسم بأنه كتاب عظيم. فها هوذا، لقارئ لم يكتب له، لكنه كتب من أجله، وأجل نظرائه من الذين تعرضوا للقمع والتحيّز والاستعباد ونزع الإنسانية، التي مارسناها بكلّ الوانها الامبريالية والمركزية الأوروبية سابقاً، والأوروبية - الاميركية الآن، ومن الذين قاوموا هذا كله ودفنوا ومايزالون يدفعون ثمناً لمقاومتهم يتراوح بين القتل وبذل الدم والسجن والمذلة والتعذيب والقلق والتوق والتبريح، ويتلون بالكوان كثيرة سواها.

-١٧-

هذه الترجمة، كما هو هذا الكتاب، معترك وساحة تنازع ومقاومة؛ معترك بين الإيمان بثقافة تُغزى وبين الاستسلام لثقافة غازية؛ على مستوى الداخل - مستوى الذات؛ ومعترك بين الثقافة المغزوة والثقافة الغازية، على مستوى العلاقة بين الداخل والخارج، بين الذات والآخر الامبريالي، ومقاومة للغزو واستعمار اللغة والعقل، بعبارة لـ نفوغي أو ثيونفو معدلة قليلاً.

أما على مستوى الداخل، فإن هذه الترجمة معترك ضد الذين يستسلمون للكسل، فيستوردون إلى العربية كل ما برز شيء من الصعوبة في التعامل معه؛ أو يستسلمون للافتتان بالغرب، فيقحمون في العربية كلماته وشعاراته ومصطلحاته، مختارين، مغتبطين؛ أو يستسلمون للعقدة التاريخية من النقص الذي يشعرون به بإزاء الغرب وحضارته ولغاته فيعتبرون العربية قاصرة تحديداً - لكثرة ما تلقنوا ذلك ولقنوه - عن استيعاب العلوم المعاصرة، والثقافات المعاصرة، والحضارة المعاصرة، والفكر المعاصر.

وهي تنازع وصراع مع غزو يجتث ويقتلع ولا يبقي ولا يذر: غزو عسكري وسياسي واقتصادي وأخلاقي وثقافي ولغوي وأزيائي وطعامي... غزو تعرضت له هذه الثقافة مرّات من قبل، وكان بين منقذاتها الأولى هذه اللغة، ونبض الإبداع بها، والتفكير بها، وتطويرها، وتغييرها، وتفجيرها، والجرأة عليها. إن بين لغة الجبرتي قبل قرن من الزمان فقط وبين لغتي التي اكتب بها الآن من الفرق ما يجلو التطور الخلاق الذي تم في هذه اللغة. ولقد حفظ هذه اللغة أيضاً وأنقذها من السقوط قرأئها الكريم. والغزو المعاصر اقتلاع لكلا نبض الإبداع باللغة العربية، ولقرآن هذه اللغة الجميلة. فإذا اجتث كلاهما، اجتثت هذه الثقافة من الجذور، وتكدست خارج التاريخ، مشلولة، تابعة، ساقطة، وصار العرب هنود الصحراء السوداء.

يُسهم في هذا الغزو الكثيرون. وبين أخطرهم إسهاماً معظم المترجمين العرب، والمستهلكين للتقنية والمنتجات الصناعية الغربية، وكثيرون من ممتهني الصحافة - خصوصاً بعض الذين يعملون في الغرب - ومئات آلاف العرب المشردين في كلِّ مكان، يبحثون عن لقمة خبز، فينتهون مترجمين لشركات أجنبية: من مكاتب السفر والدعاية إلى صناعة الصواريخ الموجّهة، وكلّها بحاجة إلى ترجمات ونشرات دعائية وإعلان لغزو الأسواق العربية وامتصاص ثروتها، وإقناع الحكام العرب باقتناء آخر المنتجات والأسلحة التي تتهدد تحت شمس الصحارى فيشترون غيرها لتتهدد مثلها. ومن الأرض التي نبتت منها هذه اللّغة يتفجّر أخطر بركان مدمر لها؛ فالجزيرة العربية الآن هي خضمّ استهلاكي ما بعده من خضم: من السلاح الأميركي، إلى شبكة الانترنت الدولية، إلى القنوات الفضائية المحتشدة بأفلام الجنس يستكين لها اللاهيون لا تُبرد تظليلهم سوى المبرّدات الغربية بقضّها وقضيضها، وأسماؤها وأسماء وظائفها وأعضائها، وكل ذلك بالإنكليزية بالدرجة الأولى ثم بالألمانية أو الفرنسية أو الإسبانية أو الإيطالية. ويصاحب هذا الاستهلاك البضائعي استهلاك لغوي - ثقافي مماثل، وذلك واحد من مصادر الخطر المدمّمة التي تهدّد مستقبل العربية والثقافة العربية الآن.

- ١٨ -

وهذه الترجمة فعلٌ مقاومة أيضاً، من النمط الذي يتحسّسه ادوارد سعيد في كتابات أجيال من المفكرين الذين يناقش أعمالهم. ولئن كان بالمعنى يشير إشارات لمساحة إلى فعل المقاومة باللّغة، فإنه في تقديري لا يولي هذا النمط من المقاومة ما يستحقه من عناية. فهو دون ريب يُعنى عناية وافية بالمقاومة المُمثّلة في استخدام المستعمرين للغة المستعمر، وإنتاجهم لأدب مغاير بها؛ لكن المقاومة باستخدام اللغة الأم هي أيضاً وجه جذري من أليات المقاومة الحقيقية للاستعمار، يمسّه سعيد من طرف يكاد يكون خفياً في حديثه عن جورج انطونيوس، وبيتس، والكتاب الأفرقة. لكنّ تتبعه في الجزائر وتاريخها النضالي، مثلاً، أو في سورية وخوضها لمعركة التعريب الكامل للعلوم والطب، حريّ بأن يصل بنا إلى نتائج قيمة. ثم إن سعيد يفعل شيئاً من ذلك في مكان آخر؛ ففي مقدمته لطبعة إنكليزية جديدة من الاستشراق، وفي معرض الحديث عن تلقّي هذا الكتاب في الثقافة العربية، يشير إلى ترجمتي له قائلاً إن استخدامي لمصطلحات عربية وإحياء مصطلحات تراثية مثل «الإنشاء»، يمثل محاولة للقول إن بالإمكان نقد الثقافة الغربية من داخل الثقافة العربية أيضاً. وإنه لعلى حق تماماً؛ بيد أنّ الجانب الآخر لما فعلته هناك وأفعله هنا هو، في الواقع، إبراز فعل المقاومة باللّغة وبالجهاز المعرفي الذي توفّره، ومقاومة الاستعمار اللغوي والثقافي: مفهوماً، ولغوياً، واصطلاحياً، وإنشائياً.

- ١٩ -

في مقدمة ترجمتي لـ الاستشراق، ناقشتُ بعض المبادئ التي أستند إليها في عملي، ولن يكون بوسعي أن أضيف إليها هنا، أو أصوغها صياغة أفضل، ولذلك سأقتبسها كما هي هناك، ليتضح لقارئ هذا الكتاب أيضاً النهج الذي انتهجه، والأعراف التي أعتمدها. هي ذي بعضها.

مصادر الصعوبة في ترجمة هذا الكتاب ليست وحيدة البعد، بل متعدّدة. فالصعوبة تكمن فيه، بقدر ما تكمن في وضع اللّغة العربية الآن، من حيث هي لغة تعبير عن مشكلات الفكر المعاصر والحضارة المعاصرة ومعطياتها. لست أول من يقرّر هذه الصعوبة ويصطدم بها؛ كما أنني لن أكون الأخير. وليس في تقرير الصعوبة من سبب للّغة، بل هو حكم وصفي يشير إلى مرحلة محدّدة من مراحل تطوّر الحياة والثقافة العربيتين المعاصرتين. فاللغة، حتى إذ

نصيفها بانها كائن حي، لا تعجز ولا تقدر، ولا تمتلك خصائص ثابت تجعلها عاجزة أو قادرة بشكل سرمدى؛ بل الصعوبة في علاقة الحضارة العربية الآن بالبنى الفكرية والحضارية في العالم وموقعها منها. وقد يكون من نافل القول أو من البديهي أن يقال: إن تطور اللغة مشروط بتطور الحضارة. لكن ما قد يكون أقل بديهية هو عكس هذه المقولة، [أي] القول إن تطور الحضارة مشروط، أولاً، بتطور اللغة، بثورة لغوية، بتفجير للبعد اللغوي لعملية التغير والتطور الثقافي - الحضارية.

ولن يتم هذا التفجير، في تصوري، إلا بالمغامرة الرائدة، بالجرأة لا على نقل الفكر من العالم وحسب بل على اللغة أيضاً، على بناها العميقة والسطحية، وعلى مكوناتها الصوتية، والمورفولوجية، والنظمية... جراءة تهدف في النهاية إلى إنجاز جوهري هو توسيع اللغة. وتوسيع اللغة ليس شرطاً يخيف بل إنه شرط أساسي لتطور اللغة في مراحل الصدام الحضاري، شرط حققته العربية في عصر اصطدامها الأول بالحضارة العالمية، اليونانية والفارسية والهندية. فقد كان المترجم العربي في تعامله مع اللغة أكثر جرأة على بنيتها ونظامها. وقد يبدو صعباً على التصديق الآن أن مصطلحات ومفاهيم بسيطة شائعة، ضمن علوم أساسية كعلوم اللغة نفسها، كانت حين ظهرت - أي حين جرؤ المترجم العربي على اقتحام بنية اللغة وصياغتها - تمثل اختراقاً للقوانين الصارمة، وجرأة على الابتكار والتطوير. إن مصطلحات الدراسة الأدبية والبلاغية مثل النقل والاستعارة والمجاز مرّت بمراحل طويلة من التطور قبل أن تستقر؛ وفي القرن الرابع الهجري كان ابن سينا نفسه يغامر باستخدام مصطلحات مثل «التبديل» و«التغيير» و«الانتقال الاستعاري»، ومثل «يضرب»، فيما كانت المصطلحات السابقة قد ترسخت نسبياً في التراث النقدي اللغوي. وثمة صعوبة فعلية في أن نقرأ الآن نص متى بن يونس في تحديد النقل المجازي ونفهم منه ما يربطه بمصدره (كتاب الشعر) أو بالمدلول التي تحملها مصطلحاته الآن، وهو نص يستخدم مصطلح «التادية» لوصف عملية النقل المجازي: وتادي الاسم هو تادية اسم غريب إما من الجنس <على النوع>، وإما من النوع <على جنس ما بزيادة>، وإما من النوع بالزيادة التي بحسب تشكل الذي نقوله [من الجنس]\*.

١-١٩

لعملية الترجمة، في تصوري، بعدان اثنان: تمثل النص المترجم تمثلاً مدركاً لخصائصه البنوية الكلية؛ وتمثله في لغة قادرة على تجسيد هذه الخصائص إلى أقصى درجات التجسيد المتاحة. وبالخصائص البنوية، أعني الخصائص البنوية، لا مجرد الرسالة الفكرية التي يقرها النص. كان عبد القاهر الجرجاني، هذا الرائد العظيم لعلم البنية، قد قال، في لحظة فذة عن البنية والمعنى والترجمة: لو أن مترجماً أخذ قولنا «زيد شجاع» وترجم «شجاع» بالكلمة الموضوعية للشجاعة في لغته، لكان كلامه ترجمة لكلامنا؛ لكن لو أن مترجماً أخذ قولنا «زيد أسد»، وفهم منه أن زيدا شجاع، فترجم «أسد» بالكلمة الموضوعية للشجاعة في لغته، لما كان كلامه ترجمة لكلامنا، بل كان ينشئ إنشأه ويخلق كلاماً خاصاً به.

وبحسب تصور الجرجاني الفذ لبنية النص، بمكوناته المحاورية المختلفة، وتشابكات مستوياته، وعلاقة المنشئ بالإنشاء بالمتلقي، المتجسدة فيه، تصبح الترجمة - التي لا تريد أن تكون إنشأً جديداً بل تود أن تظل ترجمة - إحدى أكثر عمليات التمثيل الفكري والتعبير تعقيداً وتداخلًا وتطلباً للضوابط الصارمة. وفي مواجهة هذه العملية، يبعدها اللذين حدتُهما قبل قليل، يصطدم المترجم إلى العربية في السياق اللغوي الحضاري القائم، بمشكلات مرهقة ترتبط بالطاقات اللغوية العربية الآن على التمثيل الأقصى، وبالطاقات الحضارية على التمثيل الأقصى.

ويبدو أن ثمة إجماعاً على أن أولى هذه المشكلات هي مشكلة المصطلح النقدي، أو الأدبي، أو الاجتماعي، أو السياسي، أو العلمي أو..... حتّامٌ نمضي؟

\* - راجع النص كاملاً في: شكري عياد، كتاب أرسطوطاليس، فن الشعر، دار الكتاب العربي (القاهرة، ١٩٦٧) ص ١١٧.

تبرز المشكلة فور محاولة تجسيد مفهومات شائعة كـ "الديمقراطية"، و"الديكتاتورية" و"الامبريالية" هي، على الصعيد السياسي، أكثرها فوراً حضوراً فقط، لا أبعدهما صعوبة؛ و"الكلاسيكية"، و"الرومانسية" على الصعيد الأدبي بينها: مفاهيم ما زالت تتكرر في حياتنا اليومية لبضعة عقود، إن لم يكن لقرنٍ بأكمله في حالة بعضها، دون أن نستطيع حتى الآن أن نطوّر لها مصطلحاً دقيقاً مستقراً، سلساً في الاستخدام، سلساً في الإدراك الفوري، عربياً.

كيفية مفاهيم تطلع من مدارس جديدة نسبياً حتى في أوروبا، وما تزال إطلالتنا عليها إطلالةً من كوة صغيرة وعبر عدد قليل من الأحداق: "البنوية"، "الإنشاء"، "المحور الاستبدالي"، "المحور الاستتباعي"، "العلامة"، "الإشارية"، "الترميز". هذه بضعة مصطلحات فقط لم يُبدأ باستخدامها إلا منذ سنوات، ومن قبل فئة من الكتاب معدودة، ومع ذلك فإن لها في الواقع الكتابي العربي بدائل تُعَدُّ عملية الفهم والاستخدام والتطوير، وتقف سدّاً دون تحقيق توحّدية سلسة في الاستعمال: "الهيكليّة"، "الخطاب"، "المحور الشاقولي"، "المحور النظمي"، "الإشارة السيميائية"، "الدلالة". وهي بعض البدائل للمصطلحات التي ذكرتها قبل قليل، على التوالي.

بيد أن مشكلة المصطلح قد لا تكون الأولى من حيث صعوبة الحل. فثمة مشكلة طاقة اللغة على تمثيل النص المترجم دقّة، وإيجازاً، وأطراً، أي على مقابلة اللفظة باللفظة، والتركيب بالتركيب، والجملة بالجملة لا دلالةً فقط بل صيغة أيضاً، وبصورة تحقق شروط الإيجاز والأطراد والكثافة في العلاقات - أي قدرة اللغة على التعامل مع النص الأصلي دون أن تتحول إلى شرح عليه أو تبسيط له، ودون أن تقع في الوقت نفسه في المغايرة الدائمة من سياق إلى سياق للالفاظ التي تستخدمها لتمثيل لفظة أجنبية واحدة. لقد عبّرت عن المشكلة بصورة صعبة. فلاسهل. المشكلة هي: هل نستطيع ترجمة اللفظة الأجنبية مباشرة، بلفظة، لها خصائصها، وضمن شبكة العلاقات التي يتشكل فيها الأصل؛ ثم هل نستطيع استخدام اللفظة العربية المترجمة في كل سياق أو في أغلب السياقات التي ترد فيها اللفظة المترجمة؟

ينبغي أن نتذكر، في الإجابة على ذلك، أن اللفظة هي أيضاً جزء من بنية لغوية، تحتل فيها موقعاً دلاليّاً، وموقعاً نظميّاً، وموقعاً شكليّاً في الوقت نفسه؛ وإن علينا أن نجد هذه المواقع كلها في الجملة الواجدة. هل يمكن أن نستخدم الخيارات التي يقدمها المورد\* مثلاً لفعل (EXCLUDE) ومشتقاته ويظل ممكناً إدراك كون الوحدة اللغوية الأصلية في مختلف السياقات التي قمنا بترجمتها، واحدة؟

الجواب، ببساطة، لا. ثم تأتي مشكلة أعمق تصدق في كل الحالات المشار إليها سابقاً، هي مشكلة صلاحية المصطلح، أو المقابل العربي للدخول في علاقات نظمية متغيرة، كما يفعل المصطلح الأجنبي الذي نحاول ترجمته، والتشكل ضمن علاقات تترك أثراً على بنيته التشكيلية (المورفولوجية) مثل النسبة والظرفية بشكل خاص. وتُظهر هذه المشكلة أن حلّها على صعيد محدد قد لا يشكل حلاً على صُعْدٍ هامة أخرى، وفي هذه الحالة حاجة ماسة لتحديد أولويات الحل.

بين الأمثلة البسيطة على هذه الحالات المصطلح النقدي (IRONY) وخضوعه للتحويلات (IRONICAL) و(IRONIC) و(IRONICALLY). ثمة، أولاً، مشكلة تحديد الدلالة الدقيقة لللفظة في سياقاتها المتعددة. ليست (IRONY) "سخرية"، بل إنها تلمز السخرية بالمفارقة. لنفترض أننا تجاوزنا مشكلة التحديد واقترحنا، كما فعلتُ في ترجمتي الحاضرة، المصطلح «المفارقة اللاذعة». جليّ أن المصطلح قد يحقق شرط الدقة لكنه يخل بشرط الإيجاز. وهو عاجز عن التحول المرتبط بحالتي النسبة والظرفية، إلا بإضافة كلمات سابقة عليه.

لكنّ عدم توفر خيارات بديلة تحقق شرط الدقة يجبرني على تبني هذا المصطلح. كيف نواجه المشكلة؟

بالجرأة، والابتكار، والمغامرة... باستخدام اللغة لا باعتبارها وجوداً نهائياً مقدساً لا يُس، بل بوصفها عملية

\* - على امتياز هذا القاموس، الذي يكاد يكون فريداً الآن، والذي كان اعتمادي عليه من الحجم بحيث أنه يستحق تنوّهها خاصاً.

مستمرة من التوالد الاصطلاحي. فاللغة ليست مقدسة؛ وهي في الوقت نفسه ليست مصطلحاً، كما شاع في اللغويات منذ عبد القاهر الجرجاني ودوسويسير، أو أنها ليست مصطلحاً ثابتاً نهائياً. بل هي، كما وصفتها اعلاه، عملية مستمرة من التوليد الاصطلاحي، أو من الاصطلاح التوليدي، أيهما.

ومشكلة ثالثة هي مشكلة الدلالة الصيفية، أي الدلالة الإضافية التي تنبع من تغير صيغة الكلمة التشكيلية <المورفولوجية> إما عن طريق اللاصقات البدئية أو النهائية، أو عن طريق لاصقات ثابتة. بين هذه اللاصقات (ISTIC) في الفاظ مثل: ( HUMANIST = HUMANISTIC و SCIENCE=SCIENTISTIC). وقد لجأت إلى اللاصق «وية» لتجسيد هذه النسبة ملحقاً بها، عامّة، المعنى ذاته الذي تحمله بالإنجليزية، وعاجزاً أحياناً إلا عن استخدامها بطريقة لا تحمل معها الدلالة. وقد شاعت هذه اللاصقة مع المؤنث إلى حد ما (وحدة + وحدوية) لكنني الآن الصقها بالمذكر (علم + علموية؛ إنساني + إنسانية؛ شَعْب + شعبية وهكذا).

أما اللاصقة الثابتة فقد اقترحت لها معادلات عربية:

لِيَّ	A (HISTORICAL)
زَا	EXTRA
زَيَّ	PSUEDO
فَرَّ	OVER
لَا	NON; UN
مَا وَرَاءَ	META

ولقد حاولتُ جاهداً أن أستخدمها باطراد إلا حيث استحال ذلك بسبب المواقع التي ذكرتها سابقاً للكلمة (تركيبياً أو شكلياً).

ثمة مشكلة رابعة، تنبع من العبارة الجاهزة: الصيغة المتكررة في لغة ما، ونقلها إلى لغة أخرى. كيف نترجم عبارات إقحامية، كما أسميها، من مثل: (SO TO SPEAK; SAY; AS IT WERE)؛

لا بشرحها، في تصوري وممارستي في هذا الكتاب، بل باقتراح صيغ ليست لها الطبيعة الجاهزة الإقحامية نفسها، ثم تجميدها على ما هي عليه لتصبح إقحامية جاهزة: «بوجه من القول، لِنُقَلْ».

كل هذه العبارات والاقتراحات تخلخل الأسلوب العربي، تخلق حساً بالقلق، بالأجنبية. لكننا نمثل نصاً أجنبيّاً ذا خصائص فكرية محددة تتجلى في بنيته. والتمثيل إخلاص للنص الممثل، قبل أن يكون إخلاصاً للغة الممثلة.

٢-١٩

ذلك أن النص الممثل تجسيد لفكر، لطريقة في معاينة العالم، والتعامل مع اللغة، لبنية فكرية ثقافية تتحد فيها فاعلياً بنية اللغة بفاعلية العقل الفردي المبدع (في هذه الحالة، اللغة الإنجليزية وعقل ادوارد سعيد). وفي تصوري أنّ مهمة المترجم هي، أو ينبغي أن تكون، تمثيل حصيلة الفاعليتين (أي النص) في اللغة التي يُنقل إليها. أنا قادر على كتابة هذا الكتاب بطريقة مخالفة لطريقة ادوارد سعيد، لكنّ الإنشاء الناتج سيكون إنشائي، لا إنشائه، والبنية الممثلة ستكون بنية تجسد حصيلة تفاعل عقلي الخاص مع بنية اللغة العربية. أي أن نصي سيكون نصّاً آخر. وذلك ليس نقلاً، أو ترجمة. ما أحواله في هذا الكتاب يتعدى نقل النص في «معانيه» إلى أشياء أخرى: فهو يطمح إلى تجسيد بنية الفكر المنشئ، فكر ادوارد سعيد إلى أقصى درجة في طاقتي ضمن المعطيات الحاضرة للبنية اللغوية العربية أولاً، ثم خارجها إلى حد ما: ويخارجها أشير هنا إلى كل المحاولات التي قمت بها والتي تمثل شيئاً من قلق أو خلخلة بالنسبة للإنشاء العربي «السائد» والتعبير العربي «المألوف».

ذلك أن الترجمة، في معظم نماذجها الشائعة الآن والتي أتبع لي أن أراجعها، هي صِبْاً لما يفهمه المترجمُ من نصٍّ ما على صعيد بنيته الدلالية المباشرة، في قالب مسبق هو العربية. أما طموح الترجمة الحاضرة فهو أن تجسّد ما تستطيعه من بنية الفكر المنشئ؛ أولاً، وأن تسهم في توسيع بنية اللغة التي إليها أُترجم ثانياً. فإذا كان للتفجير الذي أتحدث عنه أن يبداً ويتنامى، فإنَّ ما نحن بحاجة إليه ليس حشر كل شيء في البنية القائمة (بشرحه، وتبسيطه، وتحويله إلى ما يمكن أن يقال مباشرة) بل ترسيخ بنية اللغة القائمة وتمديدتها بحيث تصبح أكثر غنى ومراناً وطاقات. وذلك ما فعله المترجمون العرب حين كانت مغامرتهم الفكرية مع العالم مغامرةً الرائد الوائق القادر، مغامرةً المدرك لكون استيعاب العالم لا يمكن أن يتم في إطار البنية القائمة لديه، بل يحتاج إلى تفجير هذه البنية وتوسيعها لتصبح قادرةً على استيعاب العالم دون أن تحشره وتضغطه وتبسّطه.

٣ - ١٩

يبداً ما وصفته يخلق حاجةً إلى مزيد من الوصف، بدلاً من أن يفني بالحاجة القائمة. لقد استخدمتُ عدداً من الصيغ والاقفاظ والتراكيب بعضها يحمل دلالة واضحة للقارئ العربي، وبعضها ذو دلالة تختلف عن دلالاته في الاستخدام اللغوي المألوف، وبعضها لا دلالة محددة له في السياق اللغوي العربي. لكنني في كل الحالات، قمت باختياراتي بعوي حاد لضرورتها، بل لاستحالة توفير بديل أفضل، عليّ شخصياً في الأقل، ضمن إطار الأهداف التي رسمتها لنفسني من الترجمة. ولذلك فقد جمعتُ النسبة الأعلى من استخداماتي هذه ونظمتُها في كشّافٍ مصطلحيّ أمل أن يُجدي استخدامه في إيضاح استخداماتي في النص فقط، بل على صعيد التفاعل المستمر بين المترجمين العرب، وبين المنشئ المترجم، والمنشئ الكاتب؛ ويظلّ الانتشارُ، في النهاية، الوسيلة الوحيدة لامتحان سريرية المصطلح، أو العبارة، أو اللفظة التي استخدمتها. والكشّاف مرثبٌ إبداعياً، ترد فيه الكلمة أو العبارة كما وردت في نص الترجمة، ثم يوضع مقابلها الأصلُ الانكليزي؛ وبينهما، حيث ثمة حاجة، شرحٌ للمفهوم الذي يجسده المصطلح أو العبارة العربية المستخدمة.

ويقوم الترتيبُ الأبجدي على حرف الكلمة الأول بعد تجاهل (ال) التعريف، كما يقوم على صيغة الفعل الماضي مع أن ما يرد في النص أو في الكشّاف قد تكون صيغة الفعل المضارع (على سبيل المثال: "يفك الرموز"، تُدرج في الكشّاف ضمن حرف الفاء لا الياء). عدا ذلك، رتّبُ الكشّاف إبداعياً، دون اعتماد الجذر الثلاثي أصلاً للترتيب؛ وفي مصطلحات قليلة جداً ثمة بديلان (ع. م. \* مصداقية/ موثوقية) يدرجان منفصلين أو يدرجان معاً تبعاً لعلاقتهما اللغوية. وما يجسده إبقاء بديلين هو ترددي في اختيار نهائي لأسباب تختلف من حالة إلى أخرى، ولا مجال لتحديدها الآن.

يبداً لي أن هذه الممارسة - أعني: إلحاق كل نص عربي مترجمٍ بكشّاف يدل على اختيارات المترجم العربي - قد تؤدي إلى إحداث تفاعل قائم على الاستخدام الفعلي، في نص حي للمصطلح المترجم، بين المترجمين أولاً، وبين لغة الترجمة ولغة الكتابة ثانياً. ذلك أن القوائم الكثيرة التي تقوم بإعادها جهاتٌ عربية متعددة (المجامع اللغوية - مكتب تنسيق التعريب - الخ...) على نبل الجهود التي تقف وراءها وأهميتها، لن تؤدي في النهاية، في تصوري، إلا إلى النزول اليسير من الفائدة، لأنها تتم خارج سياق لغوي فعلي، خارج الاستخدام الحي الذي يقدّم حلولاً للإشكالات النابعة من مواقع الكلمة الدلالية والتركييبية والشكلية التي أشرتُ إليها سابقاً. وما نحن بحاجة إليه، بعد كل الجهود القيمة التي تمت، هو دراسات مدققة ذات طبيعة إحصائية، تنضوي تحت علم النفس اللغوي، تحاول أن تجيب على السؤال التالي: - ما هي العوامل التي تؤدي إلى انتشار المصطلح اللغوي العربي المترجم لمصطلح أجنبي، والعوامل التي تمنع المصطلح العربي من الانتشار والشروع، بل من الاستعمال، إلا في قوائم المجامع ومكتب تنسيق التعريب؟

ثمة ميل إلى أن يعتبر المرء سهولة المصطلح وسلاسته عاملاً أساسياً في شيوعه. لكن نظرة سريعة تظهر أنّ

\* - أي: على سبيل المثال.

الأمر أكثر تعقيداً: إن لفظة «سيارة» العربية أقل سلاسة من لفظة CAR الإنكليزية، لكنها أقل صعوبية من لفظة «أوتوموبيل - اطمبيل». ومع ذلك فإن لفظة «سيارة» هي التي سادت على صعيد الاستخدام الكتابي والكلامي. أما لفظة «هاتف»، وهي أكثر سلاسة من «تليفون»، فلم يتح لها من الحياة ما يجعلها شائعة إلا في الدوائر الرسمية وفي لغة الكتابة (أحياناً). ما الذي يجعل لفظة «باص» أكثر قدرة على الانتشار والشيوخ من «مركبة»؛ وما الذي يجعل لفظة «صاروخ» شائعة دون أصلها الإنكليزي ROCKET؛ أو يجعلها صالحة كعادل لـ MISSILE في الوقت نفسه؛ وتُستثار الاستئله ذاتها بالإشارة إلى الالفاظ: «استعمار، امبريالية، ديمقراطية، رأس مالية، شيوعية»؛ وهذه مجموعة على قدر كبير من البساطة بالمقارنة مع مصطلحات العلوم والتقنية.

أنا اطرح تساؤلات ولا اقدم حلولاً.

لكن طرح هذه التساؤلات على صعيد واسع، في دراسات متعمقة يلتزم بها فريق أو فريق من الباحثين: ١- إقليمياً (في كل بلد عربي)، ٢- تاريخياً (في مراحل مختلفة من تطور اللغة خلال القرن الأخير) ومراحل مختلفة من تطور الاحتكاك التقني مع الغرب بشكل خاص، يظل بين أهم ما يمكن أن تدعمه المؤسسات المعنية بالثقافة العربية واللغة اليوم، بدلاً من (أو جنباً إلى جنب مع) المضي في نشر قوائم المصطلحات المترجمة دون تقصُّ لما تتركه من أثر أو ما تقدمه من مادة جديدة تدخل بنية اللغة وتوسعها وتغنيها.

يبقى عدد من الإشارات التوضيحية:

لقد استخدمت الصيغة ١٨٣٠ (١) معادلاً للصيغة الإنكليزية THE 1830 s لأنها صيغة موجزة دقيقة تغني عن القول: «في الثلاثينات من القرن الثامن عشر» أو ما إلى ذلك من تراكييب. ولقد تقبلت في الترجمة صيغاً تركيبية خارجة على القاعدة شائعة في الاستخدام، مثل «مدير ومعلمو المدرسة» في حالات قليلة وحين كان البديل جملة مطولة تضطرب فيها إشارات الضمانر أو بنية الجملة الكلية. وبين المشكلات التي يواجهها المرء باستمرار مشكلة الصفة التي تسبق سلسلة من الأسماء. وقد لجأت في هذه الحالة إلى وضع فاصلة بعد سلسلة الأسماء تأتي الصفة بعدها دالّة على كل ما تقدم لا على الاسم الأخير فقط (ع. م: «المجتمع، والتاريخ، واللغات، والأساليب، الشرقية») تخلصاً من تكرار الصفة بعد كل من هذه الموصوفات. ولأسباب تتعلق ببنية الجملة، تقبلت بنية لغوية إنكليزية يمكن وصف ما يحدث فيها بأنه «تنازع» (على الاسم بين حرفي جرّ عادة) يمثل عليه التركيب: «إنّ إسهام زيد في، وتطويره للاستشراق، مهمان».

حاولت أيضاً، حيث بدا ذلك ذا ميزة، اللجوء إلى مصطلحات عربية مؤسسية، أبرزها «الإنشاء» الذي يبدو لي أكثر قدرة على التعبير عن المصطلح DISCOURSE من المصطلح «الخطاب». ومن مميزات «الإنشاء» أنه يحيى مصطلحاً عربياً قديماً أولاً، وأنه قابل للنسبة بسهولة: «إنشائي» وللإستخدام في صيغة الفعل: «أنشاء»، دون أن يلتبس بمصطلح آخر له دلالات إشكالية كما يحدث إذا نسبنا إلى «خطاب» («خطابي») أو استخدمناه فعلاً «خطب». ولعل مصطلحاً آخر أن يفني أيضاً هو «الكلام»، كما استخدمه عبد القاهر الجرجاني في دراسته للنظم، لولا الحاجة إلى استخدام «الكلام» في الثنائية: اللغة/ الكلام، ترجمةً لثنائية دو سوسور (LANGUE/ PAROLE).

بين ما لجأت إليه من سبل لمواجهة العدد الكبير من المشكلات التي تعترض الترجمة الدقيقة الجادة توظيف صيغ عربية ليس لها الآن من استخدام في الواقع اللغوي. وبهذا التوظيف بدا لي أن بوسع المرء أن يحقق غرضين: تقديم مصطلح دقيق عربي الصيغة غير معرض للالتباس بسهولة، لأنه غير مستخدم؛ وتوظيف صيغة لغوية قائمة. ولقد أعانني ذلك على ترجمة مفاهيم صعبة كالبيروقراطية، والكوزموبوليتانية، اللذين اقترحت لهما المعادلين: «المكاتبية» و«العوالمية» (أو المدائنية) على التوالي.

كذلك حاولت توسيع استخدام صيغة «الفعلية» التي تسمح بمرانة كبيرة في استخدام مفاهيم كالحرية، وعاملتها معاملة الاسم حتى حين يكون ثمة صفة مؤنثة منسوبة من الاسم أصلاً بهذه الصيغة: [ع. م: «الجنسية»، ترجمة لـ SEXUALITY لا صفة مؤنثة من الجنس فقط].

اما إشارات النص الأصلي فقد تردت كثيراً في اتخاذ قرار نهائي بشأنها. من الجلي ان إثبات الإشارات حقاً للكتاب والقارئ والمؤلف على المترجم. بيد ان القيمة العملية لإثباتها مترجمة إلى العربية ضئيلة جداً. تلك انْ شمة قارئ للكتاب: قارئاً لا يعرف الانكليزية وهو لن يفيد من أسماء مؤلفين وعناوين كتب تُذكر له دون ان تكون صادرة بالعربية، وقارئاً يعرف الانكليزية ويرغب في مراجعة المصادر والمراجع المذكورة وسيكون اقل صعوبة عليه ان يطلع على أسماء المؤلفين وعناوين المراجع بلغاتها الأصلية ليعود إليها في طبعاتها المعطاة.

لذلك قررت في النهاية ١- ان اثبت الإشارات كاملة بنصها الانكليزي، ٢- ان اختار الإشارات التي ترد فيها عبارات أو كلمات ذات دلالة قد تفني القارئ العربي، وأترجم هذه العبارات دون أسماء المؤلفين وعناوين المراجع، مشيراً إليها بـ <المرجع المذكور>. وقد احتفظت بأرقام الإشارات كما هي في النص الأصلي. لذلك فإنَّ ما يرد في الإشارات المترجمة هو مثلاً:

١٩- مقتبس في <المرجع المذكور> أو <م>

٢٥- ويعبر عن رأي مشابه <المرجع المذكور> أو <م>.

ويدل الرقم على رقم الهامش الأصلي في الفصل الذي يقع فيه، كما تدل عبارة <المرجع المذكور> بشكل عام على المؤلف والمراجع وتفاصيل النشر: وفي حالة عدد قليل جداً من الكتب التي ذكرت ترجمت عناوينها إما معرفتي بانها مترجمة إلى العربية أو في طريقها إلى ان تترجم، أو من اجل السياق العام للجملة.

في كتابة الأسماء الأجنبية حاولت رسم الاسم بأقرب الصور الممكنة الى نطقه بلغته الأصلية باستثناء الأسماء التي انتشرت برسم معين لها في العربية (بلفور، لويس، جب مثلاً). ومن اجل الاثْنَش الصّفحة العربيّة المطبوعة بالأسماء والعناوين الأجنبية، فقد أوردتها بالعربية فقط ضمن النص. لكنني أوردتها بلغاتها الأصلية في «المؤشر»، الذي تدرج فيه الداخل بالعربية مرتبةً أبجدياً، ويقابل الاسم فيه الأصل الأجنبي له. أخيراً استخدمت رموزاً قليلة مثل «ع. م» (على سبيل المثال) مقابل ل (e. g) و«أي» مقابل ل (i. e). كما استخدمت القوسين <> لإضافاتي الشخصية التوضيحية، مبقياً القوسين ( ) و [ ] كما هي في النص الأصلي.

-٢٠-

نحن، إنن، بحاجة إلى تفجير حدود اللغة <بقدر ما نحن بحاجة إلى تفجير أبنية السلطة، والاستبداد، والتربية الفاسقة في العالم العربي كله>، من بناها الصرفية، خاصة، إلى أنساقها النظامية التركيبية، وقواعد الأداء التوليدية فيها. لكن هذا التفجير ينبغي أن يتم من الداخل، متحرّكاً باتجاه الخارج، لتحفظ اللغة بمقوماتها الجوهرية ونهج تجسيدها للبنى الأساسية في الثقافة والتاريخ العربيين تحديداً. وفي هذه المرحلة التاريخية التي يزداد فيها الهجوم على مفهوم الهوية حدةً، وتتواتر الدعوات إلى التهجين والنغولة، تزداد الحاجة مساساً لفكر نقدي جذري لا يفقد توازنه امام الموجات الفكرية الدارجة، فيخضع لمقولاتها دون امتحان وتمحيص وتنقيب وردع، ولا تفويه الأصولية الجامدة التي تصر على أن كل ما لم يرد في كلام العرب قبل القرن الثاني الهجري مزندق ينبغي تطهير اللغة منه. وإذا كانت اللغة فعلاً ذات علاقة تجسدية صوغية للفكر، كما نميل الآن إلى الاعتقاد، وليست أداة توصيل فقط، فإن حرصنا على العربية ينبغي أن يزداد حدةً ووعياً وتشبثاً. لان اللغة المزندقة، الهجينة، النغولية لا يمكن، تبعاً لهذه المنظومة، أن تنتج إلا فكرياً مزندقاً هجيناً. والهجنة هنا ليست قيمة جمالية أو إنسانية أو ثقافية ينبغي السعي إلى تحقيقها، بل هي انتشار وتشوش وفوضى وخللات عميقة ونسف لكل عناصر التنظيم وقواعد الأداء التي تولد نظاماً من الأشياء، ونظاماً في تعامل الفكر مع العالم. ويقدر ما تزداد نسبة الاقتحام للغوي الفرنسي والإنكليزي والألماني والأميركي والروسي للبنى اللغوية العربية، تتنامى



الخلخلة الجوهرية للفكر، ويزداد تشوشاً واختلاطاً وزندقة وعجزاً عن تجسيد التجليات الأخرى للبنى المكونة في الثقافة: من الطبخ اليومي إلى أنهاج الصلاة، ومن الحكم إلى العلاقات الجنسية، ومن هندسة البناء إلى تنظيم الجيوش. وليس من قبيل الصدفة في شيء أن الحياة، بل الحيوانات العربية الراهنة في كل أشكالها وأساليبها، تتميز بقدر هائل من التعاضل والتراكم والاختلاط وفساد التنظيم والعجز عن تشكيل أنساق وقواعد أداء تحتية عميقة وشمولية في أن واحد تفصح عن بنية فكرية منظمة فاعلة. فزندقة اللغة العربية الراهنة جزء من، ومسبب لهذا الانفجار من الفوضى والاختلالات الذي يجعل حكم القانون على المستوى السياسي أمراً عصبياً، ويجعل نهج العرب في ارتداء الملابس أمراً لا يقل زندقة عن نهجهم في الدفاع عن ثقافتهم أو تخطيط مدنها. إن العصر العربي الراهن ليس أكثر عصور العرب زندقةً فحسب بل أكثرها تدميراً لجميع أشكال التنسيق والتنظيم ولقواعد الأداء في جميع مناهج حياتهم. وإن للغة العربية وما تعرضت له من زندقة لُدوراً أساسياً في صنع ذلك كله.

تفجير اللغة، إذن، فعل لا بد منه، لأنّ البنى اللغوية الراهنة، كما تطورت تاريخياً، لم تعد قادرة على استيعاب العالم الراهن كما تطور هو أيضاً تاريخياً. بيد أن هذا التفجير، كما قلت، لا ينبغي أن يتم من الخارج بل من الداخل. وينبغي البحث الجاد يومياً، بل برهياً، عن سبل تحقيقه. وفي يقيني - وَقَلُّ ما أوقن به بحق في هذه اللجة الهائلة من المربيات والمشككات والمكفّرات - أن بين أقرب السبل إلى تحقيقه البحث عن أنهاج التوليد التي تمارسها اللغات المحكية في المجتمعات العربية؛ ذلك أنّ هذه اللغات مشتقة داخلياً من العربية، من جهة، وممارسة للحياة اليومية وضرورات الابتكار المستمر فيها، من جهة أخرى. والبديل لذلك أن نترك هذا الفيض من التقنيات اللغوية الغربية اللامتجانسة يجتاح حياتنا اجتياح الاستعمار الأوروبي لعالمنا خلال القرنين الماضيين. إن الفعل اللغوي فعل مقاومة للاستعمار لا يقل بل يزيد خطورةً على المقاومة العسكرية - التي لا نستطيعها على أية حال، أو الاقتصادية، التي لا نقوم بها على أية حال، أو السياسية، التي ضللتنا الطريق إليها على أية حال.

على المستوى الصرفي، تبتكر اللغات المحكية بنى جديدةً تنبع من ضرورات التطوير والتعبير والتعامل مع العالم الفعلي والتجربة الحقيقية. وإذا قدرنا على رصد هذه البنى النابعة من التجربة، وأدراجها ضمن البنى المولدة الأساسية في العربية، كان لنا منفذ إلى التطوير يغنينا بعض الغنى عن فيض الاجتياح الغربي. لنتأمل الصيغتين الصرفيتين التاليتين مثلاً:

تقول العامية «بيتزعرن الولد» وتقول «بيتشيطان الصبي». وما يحدث هنا بالغ الأهمية. إن «تشيطان» تجري على نسق صرفي مألوف في العربية، مستخدمةً عملية القياس التي تشكل أساساً جوهرياً من أسس اللغة العربية والثقافة العربية (لاحظ أهمية القياس في الفقه، مثلاً). فهي ترصد الثلاثي (شطن)، وتشتق منه على نسق محدد. والعربية تفعل ذلك بكثير من الالفاظ، لكنّ الجدير بالذكر أنها تفعل ذلك بما تكون فيه النون أصلاً في الفعل أو الجذر الثلاثي. غير أنّ العامية تمضي خطوة أبعد، فتستخدم آلية الاشتقاق هذه من جذور ثلاثية ليست النون أصلاً فيها، أو ليست فيها أبداً. مثل «زعر»، فتشتق منها، بمقاييس على قدر كبير من المغامرة والجرأة والبساطة والحداثة واللافتعال في أن واحد، «تزعرن» لتجسد آلية إنتاج للدلالة واحدة في كلتا العمليتين «تشيطان وتزعرن». وهي دلالة على الممارسة المؤدية إلى تلبس نمط سلوكي تُعرف به ذات أخرى تُعتبر نموذجاً أعلى لهذا السلوك. ويمكن استخدام هذه الآلية لإنتاج أفعال مثل «تغرين» «تشرقن» «تالمن»، لكن يمكن بذلك توليد المتعدي مثل: عَرَبْن، شَرَقْن، شَرَعْن، صَدَقْن، عَلَمْن، أيضاً.

وما يجعل هذه الصيغة مقبولة فوراً هو أنها تتجاور مع، وترجع، رنين بنى قائمة في اللغة فعلاً، مثل «هيمن وبرهن»، أو مؤدّة ومستقرة مثل «سلطن ودوزن». أي أننا هنا أمام قانون بنيوي يفعل فعله، وهو جوهرى في العربية كما لاحظتُ في دراسة للإيقاع، هو أنّ ورود مكوّن ما في سلسلة ما يسمح بتوليد مقياس له في سلسلة مختلفة تماماً.

بطريقة مشابهة، نلاحظ أنّ العامية تستخدم «قَوْلَبَ» و«رَوَكَبَ»، وهي من البنى الصرفية النادرة «قَوَّلَلَ». كما تستخدم العامية «مَرْجَحَ» «مَشَكَلَ» على وزن «مَفْعَلَ» وهي غير وفيرة في البنى الصرفية العربية.

هكذا يمكن أن ننتج، من الداخل: مَوْضَعٌ، مَحْوَرٌ، مَظَهَرٌ، تَمَظَهَرٌ، تَمَوْضَعٌ، تَمَحْوَرٌ، تَمَشَكَلَ، تَمَرْجَحٌ.

وما فعلناه حتى الآن يعني أننا سمحنا باستخدام حروف تنتمي إلى عائلة المزيادات في «سَلَّأْتُمُونِيهَا» لكنها لم تُستخدم بالطريقة نفسها في الفصحى. أي أننا احتفظنا بالتمييزات الأساسية في العربية، لكننا طوّرتنا من الداخل معطيات لغوية جديدة. وذلك أحد وجوه التفجير من الداخل. والبديل له هو السماح بفيض الاستعمار اللغوي - الذي نمارسه كل يوم باستسلام خامل - بمتابعة اكتساحاته الجامحة.

إحدى العمليات الأساسية التي يمكن أن تسمح لنا بتطوير داخلي هي استخدام المهمل، لأن المهمل ناتج أصلاً من البنى التوليدية ذاتها، كإمكانية نظرية، إلا أنه لم يتبلور في الاستخدام الفعلي لزمّن تاريخي معين. وكما كنت قد أظهرتُ في أمور تتعلق بالبنية الإيقاعية، فإنّ لحظات تاريخية معينة تأتي يصبح فيها استخدام المهمل فاعلياً منتجة. لدينا مثلاً صيغة الجمع التي يُنسب إليها في حالات قليلة جداً في العربية، لأن القاعدة الأساسية هي النسبة إلى المفرد: دمشق، دمشق، مدينة، مديني، كتابة، كتابي. وإلى اسم الجنس عرب: عربي، مع بروز صعوبات في النسب إلى صيغ الجموع مثل أعراب، أعرابي لأنها تختلط بالمفرد في مثل «قال أعرابي»: رجال، رجالي (التي لم تستقر في الاستعمال الفصيح، واستخدامها العامي يشعر بأنها «رجالي» نسبة إلى المفرد «رجال = رجل»). وفي مقابل ذلك لدينا نسائي، مدانني، وجواهرى. ولذلك يصح القول كتابني، ومنه أيضاً مغاربي، وحين نغامر قليلاً ننتج مكاتبني، وعوامي، بدلاً من أن نستمر في القول بيروقراطي، وكوزموبوليتاني.

-٢١-

لستُ من السداجة بحيث أوّمن بأنّ النهج الذي أتبعه في ابتكار ترجمات لكلّ المفاهيم والكلمات الأجنبية التي اتعامل معها سيحل مشكلة العربية ويحقنها بالترياق الناجع ويحيلها بين ليلة وضحاها إلى لغة قادرة على تمثّل المجالات المعرفية في الحضارة الإنسانية الآن وفي تطورها المستقبلى. غير أنني لا أستطيع إلا أن أقوم، أن ابتكر فعل مقاومة حقيقياً، للطفيان الكاسح، وأن أسعى إلى الإسهام بما أنا قادر عليه في إثراء اللغة، وأن أرفض الإسهام المذعن المستسلم للواقع الراهن، كما يذعن الحكّام العرب لهيمنة الغرب السياسية وهيمنة إسرائيل. إنّ المقاومة في الدم، ولا سبيل إلى تغيير الدم الجارى في الأعراق. بعض هذا الجهد قد يقدم نموذجاً لآخرين، وبعضه قد ينسرب فعلاً فيغني اللغة، والكثير منه لن يجدي، لكنّه لن يكون زبداً لا يمكث في الأرض، وستكون الحقيقة هي أنّ الواقع الفاجع أعظم من أن يجد له حلاً جهداً فردياً.

غير أنّ هذا الجهد لا يضيع. فحين دَعَوْتُ إلى استخدام المُهْمَل، مثلاً، ونسبتُ إلى الجمع،

فقلت «عوالي» و«مدائني» و«مكاتبي» و«أساطيري» و«جمالاتي» و«مؤسساتي»، كانت هذه خطوة مغامرةً وتخرج على الممارسة المألوفة في العربية التي تنسب كقاعدة إلى المفرد ويندر إلا في بعض شواردها المخصوصة تاريخياً بشروط معينة النسبة إلى الجمع. لكن ها هي ذي النسبة إلى الجمع تصبح بالتدرج - وسواء أكان من يقومون بها يعرفون عملي أم لا يعرفونه - ممارسةً شبة عفويةً ومطردة. وهذا كاتب يتحدث عن «النقودية» نسبة إلى النقود (نور الدين العوفي، كما يورد كلامه في المقال المنسوب إلى مكتب القدس العربي في الرباط، في ندوة «هل يوجد اقتصاد سياسي إسلامي، القدس العربي، ١٦/٥/١٩٩٦، ص ١٤)، وكاتب آخر يستخدم «جهازاً مفاهيمياً» (المقال السابق، والكلام منسوب إلى عبد الله الشيباني)، وها هي ذي دول وشعوب بأسرها تسمي نفسها «الاتحاد المغاربي»، وكتّاب يتحدثون عن «القصة المغاربية» و«الأدب المغاربي».

وحين دعوتُ إلى النسبة بالواو والياء إلى المذكر (لإعطاء الكلمة دلالة مخصصة هي الإشعار بقدر من التظاهر والادعاء أو التطرف المذهبي) فقلت «عَلْمُوي» و«إنساني» - مدركاً أن العربية تنسب إلى المذكر المنتهي بالفاء مقصورة بالواو والياء بعد حذف الألف المقصورة، كما في «معنى = معنوي» وإلى المنتهي بياء بعد حذف الياء كما في «علي = عَلُوي»، وفي حالات أخرى مثل «ثانوي، عَلُوي»، دون أن تُخرج النسبة الكلمة إلى مجال دلالة متخصصة إضافية - لم يكن أحد فيما أعلم يفعل ذلك. لكن ها هي ذي «إسلاموي» و«قوموي» و«عروبيوي» وأشبابها تنتشر في الكتابة العربية\*.

يكفي من هذا الجهد كلُّه أن يكون قد أسهم في توسيع مدى استخدام صيغتين كهاتين إلى اللغة أو، بشكل أدق، استخدام القياس استخداماً جريئاً موسعاً لمداه وتطبيقاته ليحيي صيغتين دفينتين ضمن البنية المولدة كطاقات كامنة لم يتم تحققها الفعلي في الاستخدام من قبل. وكم كاتباً في العالم يستطيع أن يقول بهوده إنه أضاف إضافة فردية مخترعة من لا شيء وعلى غير مثال إلى لغة يتحدثها أو يكتب بها؟

-٢٢-

تحتاج بعض الاستعمالات التي لجأتُ إليها في هذه الترجمة إلى شيء من التوضيح. لقد قررتُ استخدام كلمة «القوة» لترجمة «power» في معظم السياقات التي ترد فيها، للاحتفاظ بتناسق في النص، ولأن مفهوم القوة ولفظها أساسيان جداً في نص الكتاب وتفكير سعيد. كذلك استعملت «قومي» لـ «nationalist» و«قومية» لـ «nationalism»، ولم أفرق بين القومية والوطنية، كما هو شائع في الثقافة العربية، إلا في مواضع قليلة ولاغراض خاصة.

وبين ما قمت به اختيارات شخصية أود أن أعلل بعضها\*\* لقد ميزتُ بين الاستعمار والامبريالية، وترجمتُ colonial بداستعماري، أحياناً، دون تفريق بين المستعمر والمستعمَر؛ فذلك نهج المؤلف نفسه. واستخدمتُ «استيطاني» للاستعمار الذي يكون من هذا النمط، ترجمةً

\* - غير أن العربية كانت أيضاً قد أنتجت «الثنوي» نسبة إلى الثنائية، والهندواني، نسبة إلى الهند.

\*\* - لقد سمحت لنفسني في حالة محددة بمخالفة قوانين الصرف والنحو في العربية لكي أبرز نقطة هامة، حين استعملت الصفة «رُحَلٌ» للمفرد فقلت «الروح الرُحَل»، وكنت قادراً على القول «الروح الرُحُول». لكنني اردت إبراز دلالات «البدواة الرُحَل» في استخدام إدوارد سعيد، ووجدتُ كلمات مثل: «المرتحلة» و«الراحلة» و«الرحول» عاجزة عن استتارة معنى الترحل البدوي الأبدي الدائم.

لـ settler colonization». وقد يكون استخدام سعيد لـ «colonial» ليصف كلا المجتمعين المستعمر والمستعمَر تعبيراً عن إيمانه بتراپطهما أصلاً، وعن طباقية القراءة التي يقترحها، وقد لا يكون سوى مماشاة للعرف اللغوي في الإنكليزية الذي يتحدث عن الهند الاستعمارية كما يتحدث عن بريطانيا الاستعمارية، مُشعراً بأن كلمة «colonial» تعني نمطاً معيناً من الوجود بغض النظر عن علاقة الفاعلية والمفعولية فيه. وقد شئتُ لكلمة «استعماري» أن تكتسب هذه الدلالة المتخصصة في العربية، فاستخدمتها كذلك.

وبين ما ابتكرته من أجل درجة أعلى من التخصيص والتمييز ومنع الالتباس، صيغة «أصلائي» للدلالة على السكان المحليين والأصليين والنزعة السياسية المحلية، وكنت في الاستشراق قد استخدمتُ «السكان الأصليين». لكن بدا لي ضرورياً تمييز الأصل والاصلي بمعنى «original» و«authentic» عن الاصلي بمعنى «native» لما تختص به هذه الأخيرة من دلالات في نص الكتاب والتجربة الاستعمارية كلها، ووجدتُ «الأصلائي» أفضل، خصوصاً أن المؤلف أحياناً يستخدم «original native authentic» في جملة أو مقطع واحد، وترجمتها جميعاً بأصيل وأصلي مربكة وملغزة في الوقت نفسه. (راجع ص ٣٦٨ من النص الإنكليزي). ثم إن المؤلف يتحدث عن نزعة محدّدة يسميها «nativism» وترجمتها إلى الاصلائية تفي بالفرض، أما نسبتها إلى «أصلي» و«أصيل» فتعجز عن التمييز والتخصيص.

أما خاتمة الملاحظات فهي أنني تركتُ بعض المصطلحات الموسيقية في القسم المتعلق بفيردي دون ترجمة، لأنني غير كفؤ لذلك من جهة، ولأنها لن تعني الكثير للقارئ العربي إذا استخدمتُ مصطلحات مبتكرة لها، من جهة أخرى. وسأشرح هذه المصطلحات بإيجاز هنا:

سترتو -stretto: الإشارة إلى تسارع الإيقاع والحركة، أو دخول أصوات مجتمعة ومقاطعة أحدها للآخر قبل أن يكمل دوره؛ وذلك مما يرفع درجة الجِدّة الانفعالية.

كاباليتا cabaletta: وهي أغنية قصيرة في المغناة <الأوبرا> ذات أسلوب بسيط عند روسيني، لكنها عند فيردي القسم الأخير السريع من مقطع لثنائي مؤلف من عدة أقسام.

كونسرتاتو concertato: وهو اسم آخر لمجموعة الـ concertino و concertante <التي تُشتقُ عامّةً من الأداء المتناسق لأصوات مختلفة> التي تحوي آلات فردية من الأصوات في موسيقى الباروك تتعارض مع المجموعة الإضافية. وهناك خلاف في تحديدها بين القواميس التي راجعتها.

ترا اديو terra addio: لم أجدها في مظانها كعبارة واحدة، لكن اللفظتين مفردتين تعنيان الأرض، الوداع. والعبارة تعني، هكذا، «وداعاً أيتها الأرض».

بالسترينا Palestrina: مؤلف موسيقي <١٥٢٥-١٥٩٤> اشتهر بموسيقاه الكنسية باللاتينية؛ (وعنوان لمغناة ألفها بفيترنز عن بالسترينا، قدّمت للمرة الأولى عام ١٩١٧ في ميونيخ. من الجلي أن الإشارة في النص هي إلى المؤلف).

أما الكلمات الأخرى غير المترجمة، فهي عناوين لمغان لفيردي، ماعدا بوريس غودونوف، فهي لـ موسورغسكي، عدلها ونقحها رمسكي كورساكوف؛ وغوترداميرونغ «شفق الآلهة» فهي لفاغنر، وكانت جزءاً من ثلاثية؛ و«أمسية مبدئية»، بتسمية فاغنر، شكلت جميعاً أربعة أعمال متصلة.

وإيماناً منّي بأنّ التكرار والألفة في الاستعمال قد يؤديان في النهاية إلى تقبل القارئ العربي لما افتقده من كلمات وصيغ، درجتُ في هذه الترجمة على إدراج الكلمة التي أترجم بها كلمة إنكليزية الفنا في العربية اليوم استخداماً «معربنة»، أي بأصواتها الأجنبية مكتوبةً بأحرف عربية، ثم وضع الكلمة الأجنبية بأحرف عربية بين قوسين حادتين. وإذا يقرأ القارئ هذه الكلمات مرّةً بعد مرّة، أملٌ أن يألّفها ويغريه الأمرُ باستخدامها. هكذا أكتب مثلاً: «إن المغناة <الوبرا> فن عظيم». ويعني ذلك أنني أوّلُ كلمة المغناة لترجمة الأوبرا، التي يستخدمها الآخرون بلفظها الأجنبي.

والألفة والاعتیاد بين أكثر العوامل أهميةً في ترسيخ المبتكر والمخترع وتحويله إلى حالة اصطلاحية وضعية. وسأقدم على ذلك مثلاً شخصياً أمل أن يفيد القارئ منه فیتاح لبعض ما أوّلده هنا من الیات ومفردات الانتشار وحلّ بعض المشكلات القائمة. منذ سنوات بدأت باستخدام كلمة «العقائدية» للتعبير عن مفهوم «الأيدولوجيا»، لأنه مفهوم أساسي، وخلوُّ العربية من مصطلح للتعبير عنه أمرٌ غيرٌ معقول أو مقبول؛ ثم إنني لم أرتح إطلاقاً لمصطلحات اقترحها بعضُ الكتاب للتعبير عنه، مثل «الفكرولوجيا». ولكثرة ما استخدمتُ «العقائدية» في كتاباتي وفي تفكيري بالأيدولوجيا وما تدخل فيه من سياقات، تحولتُ كلمةُ «العقائدية»، على مستوى التفكير والاستعمال اللغوي، في ذهني إلى عملية سلسلة تماماً لا تثير أدنى قدر من التساؤل أو التردد أو الغموض. وأنا الآن أستخدمها دون أن تخطر ببالي كلمة «الأيدولوجيا» إطلاقاً؛ لقد تم استدخالُ المفهوم والكلمة وتمثلتُها ضمن الجهاز المعرفي التصوري اللغوي الذي أعمل عبره. وانتهى الأمر. وإنني لأمل أن يكون مصيرُ بعض ما اقترحه من مصطلحات ودوالٍ مثل هذا المصير في ذات القارئ وضمن الجهاز المعرفي العربي بالسماح لكلية الألفة والاعتیاد بأن تفعل فعلها في النفس.

لم أخرج على النهج الذي وصفتُه قبل قليل إلا حيث عجزتُ عجزاً قاهرأ عن ابتكار معادل عربي لكلمة إنكليزية، أو حين تكون الكلمةُ الإنكليزية شائعة جداً في العربية ومحمّلةً بأبعاد مختلفة لا يتاح لي الدلالة عليها جميعاً بصيغة عربية واحدة. هكذا قهرتني مثلاً كلمة «الامبريالية» وقد سعيتُ لأشهر طوال كي ابتكر ترجمة لها فلم أستطع. والبديل الوحيد الذي بدا مقنعاً نسبياً هو اشتقاق «امبراطية»، لكن الكلمة التي يُشتق منها <هذا اللفظ الأخير> ليست عربية أصلاً، وهكذا يضيع المسوّغ. غير أنني ماضٍ في المحاولة رغم كل شيء. ومثلها «الديمقراطية».

تؤدي عمليات التبادل الثقافي، والانفعال بثقافات أخرى، بين ما تؤدي إليه، إلى انبثاق مفاهيم، وفصلات، وتصورات قد لا تكون متبلورة في الثقافة المنفصلة، وقد لا تكون موجودة فيها أصلاً. ويكون لهذه المفاهيم في الثقافة الأخرى دوالٌ مخصصة لها ومميزة لحقولها الدلالية ولإستخداماتها في الإنشاء المنتج في الثقافة فعلاً. في هذه الحالة، تواجه الكاتب في الثقافة المنفصلة مشكلتان: فهمُ المفهوم فهماً دقيقاً، والسعي إلى إدخاله في الثقافة أولاً على صعيد مفهومي، ثم ابتكار الدال الدقيق المخصّص المميّز له. ومن الضروري هنا أخذُ عوامل عديدة بالحسبان: قابلية المفهوم للاندراج في حقل المفاهيم التي تألفها الثقافة؛ وقابلية الدال للدلالة الواقية دون التباس بدوال أو مفاهيم مألوفة في الثقافة المنفصلة؛ ثم قابلية الدال للاستعمال العملي الفعلي والتصريف في الصيغ التي يحتاج إليها في الدوال عادة: فعلاً واسماً ومصدرأ واسم فاعلٍ وحالاً وتمييزاً الخ.

ثمة حالات يتاح فيها للكاتب من حسن الطالع والثاقبية ما يمنحه القدرة على ابتكار ما هو بحاجة إلى ابتكاره، وثمة حالات لا يتاح له فيها ذلك.

من هذه العضلات عددٌ اضطُررتُ إلى مواجهته في هذه الترجمة، وفي كتاباتي الشخصية في استقلال عنها. وسأسرد بعضها الآن، موضحاً، معللاً ما وجدتُ إلى ذلك سبيلاً.

١-٢٤

تعرف العربية، ثقافةً ولغةً، تصنيفَ الكائنات إلى فصولات: الذكر والأنثى، المذكر والمؤنث، والذكورة والأنوثة. وتصف العربية الفصلة التصورية لهذا التصنيف بأنها تصنيف من حيث الجنس أو على أساس الجنس. يقسم اللغويون الكلام، مثلاً <من حيث الجنس>، إلى مذكر ومؤنث. غير أن العربية لا تعرف دالاً مخصصاً مميزاً لهذه الحالة المتضمنة، مفهوماً، في عبارة «من حيث الجنس»، سوى الدال «جنس». وهي لا تستطیع، دون التباس، أن تصفه بأنه تصنيف جنسي. بالمصطلح الصرفي، لا تعرف العربية دالاً على فصلة تصورية يطابق «ذكورة» و«أنوثة». وإنْ ذا لمن عجائب الأمور.

لكن اللغات الأوروبية الآن، والثقافات، تكاد تكون مهووسة بدراسات الفصولات الجنسية؛ فالعصر بأكمله قد يكون عصرَ ثورة المرأة وأنقلاب المفاهيم والعلاقات «الجنسية»: الذكورة والأنوثة وهذه الحالة الثالثة التي تكمن في «من حيث الجنس». وثمة دال محدد مخصص لها هو «gender». والكلمة شديدة الورد في النقد والدراسات الثقافية والاجتماعية عامة اليوم. فكيف نفعل بها؟ وكيف نترجمها بدلاً صالح للاستعمال، دقيق، سلس القياد أيضاً؟ لا ريب أن ابتكار دالٍ عليها أمر ضروري، خصوصاً حين ترد في سياقات مثل عنوان هذا الكتاب الذي يذكره ادوارد سعيد في نصه *Women and Gender in Islam*. من الجلي أن ترجمة العنوان به المرأة والجنس في الإسلام، ليست صالحة، لأنها تدل مباشرة على أمر آخر هو موقع المرأة والشعور الجنسي والقضايا الجنسية في الإسلام. وليس ذلك مضمون العنوان أو الكتاب. كذلك تخفق ترجمة العنوان إلى «المرأة والجنسية في الإسلام»، بتأدية المفهوم؛ لأنّ الذهن ينصرف إلى مسألة الجنسية والانتماء لبلد أو قومية ما.

لكل هذه الأسباب، اقترحتُ بعد تأمل طويل، ابتكارَ دالٍ مخصص دقيق، يتناسق مع الفصولات المألوفة في العربية، ولجأتُ في ابتكاره إلى مبدأ جوهرى من مبادئ فعل اللغة والعقل في العربية هو القياس، فصنفتُ كلمة «الجُنوسَة». هكذا تكتمل سلسلة الفصولات والدوال في العربية كما يلي: ذكورة، أنوثة، جنوسة؛ أمومة، أبوة، أخوة؛ وينتج دال جديد على مفهوم قائم في الثقافة واللغة، ونصبح أكثر قدرة على التعبير بسلاسة ودقة عن أمور عديدة. ويظهر عنوان الكتاب - المشكلة الآن كما يلي: «المرأة والجنوسة في الإسلام». وذلك، في سمعي، وتصوري، سلس ملس رقيق دقيق. ولا حاجة بي للاعتذار لأحد عنه، سواء أكان شيخ لغة أم شيخ دين أم شيخ عشيرة أم شيخ جنس.

٢-٢٤

ليس في العربية تمييز واضح بين حيلة يستخدمها المرء لإيجاد حل لأمور مشكلة على مستوى محدود، وبين تخطيط شامل كلي يتم في إطاره كل ما يقوم به من أفعال لكي يبلغ في النهاية هدفاً بعيد المدى، شاملاً، كلياً. وغياب هاتين الفصلتين أمر على قدر كبير من الخطورة، لا في الكتابة، بل في كل شيء في حياتنا، من إنتاج البطاطا إلى محاربة إسرائيل. ويبدو لي واضحاً

تماماً أن الانهيار العربي الراهن، وانحطاط المقاومة الفلسطينية إلى مستوى الاستجداء المنتهر، وبيع فلسطين لشراء قمع أميركي لدول عربية يعيش حكامها على الاستجداء منذ تكوينها أصلاً، هي جميعاً في وجه من وجوها نتيجة مباشرة لغياب المفهومين اللذين أشير إليهما هنا. أما في الإنكليزية، فهناك مفهومان مختلفان لكل منهما دالٌّ مخصص مانز هما «tactic» و«strategy». ولقد انتشر في العربية استعمال الكلمتين معرّبتين، أي مكتوبتين بحروف عربية، هكذا: «تكتيك» و«استراتيجية». وأنا ممن لا يُقنعون بالعربية، بل يتوقون إلى التعريب، ولذلك سعيتُ سعياً مضمياً إلى ابتكار دالين عربيين. وارتحتُ أولاً إلى «تخطيطة» لـ «تكتيك»، و«استخطاطية» لـ «استراتيجية». وكلاهما مشتق من الخط ووضع الخط، وكلاهما رقيق لطيف وعربي محض، ومُفصّل مبین. وهما يلغيان التعارضَ المفتعل الذي نشأ في العربية على مستوى «الجنوسة» بين التكتيك الذي استُخدم مذكراً والاستراتيجية التي استُخدمت مؤنثاً، وفي ذلك، والله، ما فيه من التحيز والأهواء والنظرات التصنيفية القائمة على الهوية، وكلُّه مما يقف ادوارد سعيد موقفَ الناقد المشنّع منه. في ترجمتي، يكون كلا الأمرين مؤنثاً، سواء بسواء. <أولم تكن حواء بحق هي المخططة الأولى، على كلا المستويين: التخطيطي والاستخطاطي، وادم سادر بري، يلعب كالأهل في رحاب الفردوس، متمتعاً بجنات تجري من تحتها الأنهار، وأيك تفرّد فوقه الأطيّار، ومنتشياً بفتنة أصحابها، وسحر أماسيها، لا ناقة له فيما يحدث ولا قاعة؟>

غير أن محكات عمليةً صرفاً جعلتني في النهاية أبحث عن صيغة غير «تخطيطة»، مع أنها أجمل الكلمات، وهي صوتياً تطابق «تكتيك» وقد تكون أصلاً منه. فحين أردتُ الحديث عن «مسائل تكتيكية» بدت النسبة إلى «تخطيطة» إشكاليةً لأنها تلتبس به «تخطيطة» فكلاهما «تخطيطي»، والقارئ يعجز عن التمييز بين «مسائل تخطيطية» بمعنى «متعلقة بالتخطيط» و«مسائل تخطيطية» بمعنى «متعلقة بالتكتيك»؛ ولذلك اعتبرتُ ما أقوم به «تخطيطة» قاصرة. وبعد بحث مضمّن أيضاً قرّ رأيي أخيراً <وقرّرت عيني بما قرّ رأيي عليه> على «أخطوطة» وهي صيغة عربية جميلة <أنشودة: أسطورة: أحبولة: أطروحة: أمثولة: أضحوكة: أعجوبة: أكذوبة - لأقدم زاداً للذين سيحلّو لهم التندر به أخطوطة> - والجمع منها «أخطيط وأخطوطات». هكذا يصير بوسعنا أن نتحدث عن «الفكر الأخطوطي والفكر الاستخطاطي» أي «الفكر التكتيكي، والفكر الاستراتيجي». وذلك لين سهل عربي، أصيل ومبتكر في أن واحد. وفي الكلمتين العربيةتين فروق في الصيغة والطول تكاد توحي بالفرق بين دالتيهما، وأنا من المولعين ببن ابن جنّي اللغوي في كشف التصاقب بين البنية والدلالة. فالاستخطاط أبعد مدى ومطلباً، والأخطوطة تدل على الوحدة والقلة وقصر المدى عامة. ولا أرى ميزة أي ميزة للكلمتين الأجنبيةتين المعرّبتين على ما اقترحته، فيما أرى الكثير من المثالب في استخدامهما.

هذه النقاط تجلو بعض جوانب التعقيد والصعوبة في الترجمة، خصوصاً ترجمة المفاهيم الكثيفة دلاليّاً، التي لا تُسَلِّم نفسها بسهولة لتحديد قاموسي شبه رياضي، والمفاهيم الطارئة على الثقافة التي إليها نترجم. وسأقدم مثلاً أخيراً على ذلك، من حسنات اقتباسه أنه مفهوم جديد نسبياً طارئ على الثقافة الغربية نفسها، وأن ترجمته إلى العربية الآن حاجة طارئة أيضاً. وسيكون جميلاً أن نجد له مصطلحاً دقيقاً فيشيع وينتشر قبل أن تختلط الأمور وتضيع الطاسة، كما تقول العامية السورية.

ما أشير إليه هو مفهوم الـ «political correctness»، وهو طارئ ثقافي أميركي، مثل

الكثير من الطوارئ المعاصرة والحديثة العهد. وقد يعيل المرء في ترجمته إلى النقل القاموسي المباشر، فيقول «الصحة السياسية» أو «الصواب السياسي». لكن عبارة عربية كهذه غير قادرة على الإفصاح عن المنطويات الثقافية والنزاعية التي يحتقن بها المصطلح الإنكليزي. فالعبارة العربية حيادية، ومباشرة تماماً، وقابلة للاستخدام في الوصف الإيجابي المطري لما هو سليم صحيح سياسياً. ثم إن الاشتقاق منها، والتصرف بها، في صيغ أخرى محدود الإمكانات.

والعبارة الإنكليزية ليست عبارة محايدة، ولا تصف وصفاً إيجابياً إطاراً فعلياً سياسياً ما، ولا علاقة لها تخصيصاً بالسياسة بمعناها المباشر. بل هي ابتكار لجناح معادٍ للبنية الفكرية التي اشتدَّ عودها في العقد الأخير من الزمن داخل الجناح التحرري الليبرالي، اليساري، في الثقافة الأميركية، الذي يشمل الأقليات، والسود، والاثنيين والاثنييات ويضم ذوي النزعات المتجنسية ذكوراً وإناثاً، وأمثالهم ممن سعوا إلى تطهير الفضاء السياسي والثقافي من مكوناته «البيضاء»، المحافظة، التفوقية، المؤسسية، ومن آثار تحيزها وأهوائها ضد الجناح المستضعف أصلاً في الثقافة. والمثل على الموقف الثاني هو الإشارة إلى الأفارقة الأميركيين، مثلاً، بالزنج «niggers»، أو الإفصاح عن موقف يعتبر النساء أقلَّ مقدرةً على التفكير المنطقي طبعياً، أو وصف العالم الثالث بالبدائية والتخلف، أو النيل من «اللواطيين أو السحاقيات»، أو - في آخر المعارك على الساحة الأميركية التي تعج بالمعارك من كل لون وكون - القول بأن سقراط كان إغريقياً وأنه وكليوباترة لم يكونا من السود، إلخ.

كيف ننتج مصطلحاً عربياً يشي باحتمالات ضمنية، أو يسمح باكتساب مثل هذه الاحتمالات، عن طريق تفرُّده وكونه لا يُستخدم في سياقات محايدة أصلاً في العربية؟ لقد بذلتُ جهداً كبيراً - قد يرى الكثيرون أن الأمر بأسره لا يستحقه - لإيجاد عبارة تسمح بمثل هذه الإمكانات، وتكون قابلة للتصرف بها. فجرَّيتُ «اللياقة السياسية» و«الصحة السياسية» و«السلامة السياسية» و«الصواب السياسي». غير أنني كنت أجد في كلِّ منها ما يوهنها؛ وأفضلها في تقديري هو «اللياقة السياسية»، فهي تُشعر بأنَّ الأمر ليس محايداً، وليس أمر صواب بالمعنى الحقيقي للكلمة، وتسمح بالاشتقاقات من مثل: «من اللائق سياسياً أن تقول» و«غير لائق سياسياً أن تقول»، وهذا المتحدث لائق سياسياً، وهكذا. وكدت أستقر عليها. وفي مرحلة تالية، رأيتُ أنَّ «الصوابية السياسية» لها ميزة الدقَّة في المعنى، وميزة الصيغة الفريدة غير المستعملة في العربية أصلاً، والتي تسمح لذلك بالاحتقان بالدلالات الجديدة. لكنها بدت محدودة تصريفاً، ومقتربة دائماً بدلالات إيجابية. ولذلك رأيت في نهاية المطاف أن استخدم «الإصابة السياسية» لأنَّ لها ميزات كثيرة. أولها: ما تنطوي عليه من إمكانات الطعن والقدح، لأن الإصابة تميل في العربية إلى الظهور في سياقات عنفية إلى حد ما، مثل إصابة الهدف، أو مَرَضِيَّة، مثل «أصابته الحمى» (رغم عنوان الكتاب المعروف لابن حجر: «الإصابة في أسماء الصحابة»). وثانيها: تصريفاتها الممتازة، كان تقول عن يسلك السلوك ال... سياسياً إنه «مصيب سياسياً»، وبالتالي «إنها مصيبة سياسياً»، وتقول أيضاً «مِنَ المصيب سياسياً»، وفي ذلك تقتربن الإصابة بظلال من المصائب!

٤-٢٤

ومن المفاهيم والدوال في اللغة - المصدر ما يكون موجوداً في اللغة - المرمى، مفهوماً ودالاً؛ غير أنه يكون أكثر لطافةً، ورقَّةً، ودقَّةً تمييز، وروعةً مما هو عليه في اللُّغة المصدر. ويأتي المتسرعون مفتونين، فيلصقون القبيح فوق الجميل، ويحبسون الزهف بالغفل.



ومن ذلك واحدٌ من أخطر ما في الدراسات الإنسانية المعاصرة من مفاهيم، وهو يشكّل، كما قلت في فقرة سابقة، لبابٍ موقّف ادوارد سعيد الفكري الراهن في عمله كلّهُ، وفي هذا الكتاب بالذات. وما أرمي إليه هو مفهومٌ أنّ الثقافات ليست نقيّة، مطهّرةٌ من غيرها، بل هي جميعاً هجينةٌ مولّدة.

وهذا المفهوم منتشر في العربية منذ أن كانت العربية، فلقد كان العرب لسبب ما مولعين بالتمييز بين الصريح المحض وغير الصريح المحض. ميّزوا بينهما في الناس عرقياً، فكان الناس عربياً أقحاحاً أو صليبية أو كانوا غير ذلك. وميّزوا بينهما في الحيوانات، فكانت هجاناً ومهجنّة. وميّزوا بينهما في اللبن، فكان صريحاً ومَشُوباً، وفي الخمرة فكانت صريحاً وممزوجة. ولهذه التمييزات دلالات وأهمية قاصمة على مستويات كثيرة، لكنني لن أناقشها الآن.

ولقد كانت العربية، ثقافتاً ولغةً، من رهافة النظرة، والإنسانية، والرقّة، واللطافة، بحيث أنها وسمت الذوات المميزات بدوالٍ مختلفةٍ تبعاً للمجال الذي تنتمي إليه : اللبن محضاً صريحاً ومشوباً، والخمرة صرفاً وممزوجة. والأهم من ذلك كلّهُ أنهم ميّزوا الحيوان عن الإنسان، أو العكس، أيّاً شئت، فقالوا في امتزاج الحيوانات: تهجين، والناتج هجين؛ وقالوا في الإنسان: مولد، وتوليد.

ثمة، إذن، فصلتان في العربية: المولّد - للإنسان، والهجين للحيوان.

أما في الإنكليزية الآن، ويجهد تلامذة فكريين لادوارد سعيد وآخرين مثل: هومي بابا، فإنّ الكلمة المفتاح هي : «hybrid, hybridity».

ومن غرائب الأمور أن الهايبرد في الإنكليزية محدّدة بالقياس إلى العملية التلاقحية بين الحيوانات والبشر والنباتات، كلّها. لكنها قد تكون أكثر استعمالاً في الحيوان والنبات منها في الإنسان.

حين يستخدم باحثون مثل «بابا» هذا المصطلح فإنّهم في تقديري يغفلون وجه الخطورة فيه التابع من ترابط الكلمة بالتلقيح الحيواني، فيصنفون الثقافات كلّها - باعتراز وإطراء - بأنها هايبرد، وما أظن ذلك إلا مولّداً لردة فعل ازدرائية لدى البيض «الانقياء»، ومانحاً إياهم سلاحاً يحاربون به هذه الدراسات وهذا التصوّر للثقافة بتهمة أنه هو ذاته يسمّي نفسه بما هو خسيس، منقط حيواني.

وسياتي المترجمون من العرب - أم تراهم فعلوها وانتهى الأمر؟ - ليصفوا الهايبرد بالهجنة، طبعاً؛ وهو أمر طبيعي. لكنّهم أيضاً يغفلون أن في أصل المفهوم في العربية هذه التمييزات الدقيقة. لقد كانت الثقافة العربية، كما قلت، بين أوائل مَنْ أدركوا الطبيعة التوليدية للثقافات، والناس، والأفكار. فابتكروا مبكرين مفهوم «المولّد» ونشأ أدب اطروه كثيراً هو أدب المولّدين، الذي اقترن بالحدائث عندهم حتى صار بشّار بين أبرز المولّدين والمُحدّثين في آن واحد.

ما أقترحه هو إنقاذ مفهوم التوليد من ترابطاته الحيوانية، والعودة به إلى مجاله الإنساني، واستخدام مفهوم المولد والتوليد في العربية من جديد، بدلاً من الهجنة والهجين. كما أرى ضرورة أن يحدث هذا في التوليدية بابتكار مصطلح جديد فيها يخلّص المفهوم من خساسته الحيوانية. لكنّ الأفضل من ذلك كلّهُ هو نزع المفهوم من سياق الفعل الجنسي والتلاقح، والإخصاب، ووَسْمُهُ بسمات أخرى. فالعلاقة بين الثقافات ليست من طبيعة جنسية؛ ولقد نشر الغرب صوراً جنسية لافتتاحه وافتضاضه للشرق، كان أمهرٌ مَنْ كشفها ورفضها ادوارد سعيد نفسه في الاستشراق، وكم هو حريٌّ به أن يرفض هذا المفهوم المتضمن للعملية الجنسية في الثقافة والمجتمعات. لقد

تحدث كِتَابُ عربٍ بارعون عن التلاقح بين الثقافات، وعيبروا عنه بالثقافة والتثاقف والتمازج، والاحتكاك، والتفاعل. وكل ذلك خير من أن نتحدث، مثلاً، عن الهجنة والافتضاض والنكاح والمناكحة بين الثقافة الانكليزية والعربية. وقد يكون بين ما يجعل الأصوليين كما نسميهم - وهم ليسوا أصوليين أبداً، بل مؤرِّغون يُلغون الإنسانَ والتاريخَ - يُنفرون من فكرة التفاعل بين الثقافتين الغربية والعربية أصلاً أننا خلقنا في أذهانهم صورةً أن هذا يعني أن الإنكليزية تنكحنا وتلاقحنا، وأن الغرب والإسلام ينبغي أن يندخلا في علاقة تناكحية، مثلاً، وهم معتززين بشرف الأثني ويكارتها يستكبرون أن يلاقحها القريبُ القحّ الصليبيُّ فكيف بغريب أجنبي من الكفرة الملحدين؟. لنبتكرُ مصطلحاً مثلاً «الإثراء المتبادل، أو التطعيم، أو التزيت، أو التشحيم، أو التواقد، أو المضارمة، أو <لماذا نحن ماخوذون بالجنس والافتضاض في كل شيء؟> التثاري والمثارة، أو الإغناء والاعتناء، وتستغفر مواقفها من الثقافات والعلاقة بين الثقافات. لا ريب أنه ما من أحدٍ سيحتج على أن تفتني الثقافة بثقافة أخرى أو أن تتغانيا، لكن الكثيرين <وأنا منهم> يعترضون على أن تتلاقحا وتتضاجعا وتنكح الغربية الشرقية <باستخدام كلتيهما فاعلاً ومفعولاً به> وتنتج منها هجيناً ونغلاً. إن تغير الدال سيغير المدلول وسيغير المواقف من الدال والمدلول والدلالة جميعها، وسنعيش في عالم أجمل وأنبل، وأثري وأقل نغولاً وهجنة، وأكثر تغانياً وتثارياً وإثراءً واستثراءً.

٥-٢٤

وبين هذه المفاهيم التي تحتاج إلى تغير الدال ليتغير المدلول والدلالة، مفهوم التطور والتخلف. ولقد احتج كثيرون على مفهوم الـunderdevelopment، والتخلف المتضمن فيه، لكننا مانزال نستخدم المصطلحات الشائنة التي تعبر عنه. لذلك أستخدم شخصياً مفهومين مختلفين لهما دالان مختلفان هما: البلدان النامية، والبلدان المتنامية. النامية هي تلك التي حققت نمواً وماتزال قادرة على تحقيق نمو، لأن الدال يُشعر بعملية مستمرة؛ والمتنامية هي التي تسعى إلى النمو وتظل قادرة على المزيد منه أيضاً. وذلك أنبل وأقلّ خساسةً في الموقف والرأي ووجهة النظر.

-٢٥-

بين ما أقوم به من تمييزات أيضاً مفهومَا الكتابة النسائية والكتابة الأنثوية. العربية تقول ذكر - ذكورة - ذكوري، ولا تقول ذكري؛ وتقول رجل - رجولة - رجولي، ولا تقول رجلي، فتنسب إلى المفهوم لا إلى الفرد المتعين؛ وتقول أمومة - أمومي ولا تقول أمني <إلا بمعنى محدد هو عدم معرفة القراءة والكتابة، وما أظن ذلك منسوباً إلى الأم، وفيه خلاف، والله اعلم>. لكنها في مقابل ذلك تقول أخ - أخوة - أخوي فتنسب إلى الفرد المتعين لا إلى المفهوم؛ وتقول أب - أبوة - أبوي ولا تقول أبوي، فتنسب أيضاً إلى الفرد المتعين لا إلى المفهوم. أي أن العربية موزعة في هذه الحالات بين نمطين من النسبة: أحدهما إلى الفرد المتعين، أو الذات؛ والآخر إلى المفهوم المجرد، أو العلاقة.

ومن أجل قدر أعلى من التمييز سألجأ إلى إحدى الطريقتين المؤسستين فأنسب إلى الأثني بانوثي في سياق محدد. والغرض من ذلك هو التمييز الدقيق بين الأنثوية والبانوثية، والإشارة إلى اتجاه حديث العهد في دراسة الأدب والثقافة والعلاقات الاجتماعية من منظور مخصص بالمرأة، متميز بمقولات وأساليب تم تطويرها حديثاً. وهكذا يكون لدينا: الحركات النسائية، في مقابل الحركات الأنثوية. أما ما أجده سقيماً بحق فهو النسبة في مثل «الحركة النسوية»؛ وهو شيء سقيم في لفظه وإن لم يكن سقيماً في مدلوله.

بالإشارة إلى الأدب والكتابة أميز بين أمرين : فالأدب الذي تكتبه امرأة أسميه ببساطة: كتابة المرأة، أو الأدب النسائي. أما الأدب الذي يعبر عن موقف محدد عقائدي ينبع من التعلق بما يعتقد صاحبه أو تعتقد صاحبتُه بأنه سمات خاصة بالأنثى ورؤاها للعالم وموقعها فيه، فإنني أسميه أدباً أنوثياً. وهكذا أتحدث عن النقد الأنثوي، وعن الحركات الأنثوية، وعن الأنثوية معادلاً للكلمة الانكليزية «feminism». أما القول «أنثوي» فهو معقول، وكنت قد استخدمته سابقاً، لكنه ليس أفضل الممكنات، وقد أستخدمة سهواً وغفلة أحياناً. وما يعنيه هذا التمييز هو أن النقد الأنثوي قد يكتبه رجل لا أنثى، أما الأدب النسائي فهو من إنتاج أنثى تحديداً. هكذا يمكن أن نتحدث عن حميدة البرقوشي بالقول إنها تكتب أدباً نسائياً، لكنه ليس أنوثياً. وهكذا أيضاً يمكن أن نتحدث عن محمود السرافيني مثلاً بوصفه «ناقداً أنوثياً»، وعن ليلى الصلتاوي بوصفها ناقدة أنثوية، لكن لا نقول عن الأول إنه «ناقد أنثوي»، ويكون من نافل القول أن نصِف الثانية بأنها «ناقدة أنثوية» فهي كذلك دون حاجة إلى الصفة. وما أقترحه أقرب إلى الصيغ المستخدمة في اللغة الانكليزية، حيث ترد التقسيمات التالية:

man / woman  
male/ female  
masculine/ feminine

ويسمى النقدُ المنسوب إلى ما أصفه من أسس منظورية تتعلق بالمرأة feminism ولا يسمى femalism.

ومن التمييزات التي تستحق الذكرَ التفريقُ بين أكثر من دلالة للكلمة الانكليزية «community»: إحداها تترادف مع المجتمع عامة، وأخرى زلقة مطاوعة تضيق وتتسع في سياقات مختلفة. حين يتحدث سعيد مثلاً عن أعداد من «communities» في المجتمع الأميركي، أو عن community القراء المعنيين، فإن من العبث ترجمة ذلك بد المجتمع. وحين يتحدث عن «human community» فذلك لا يعني «المجتمع البشري». ولذلك عبّرتُ عن هذه الاستخدامات بطرق مختلفة، بينها «روح الاجتماع والمشاركة الإنسانية»، وابتكرتُ كلمة «منجمع» للتعبير عن الفئات التي تندرج داخل المجتمع ويكون بينها قدر من التجانس يجعلها «منجمعات» لا «مجتمعات». وأمل أن يحلُ ذلك بعضَ المشكلات القائمة في هذا المفهوم والدال المعقدين.

أما آخر ما يستحق النقاش من ترجمات جديدة فهو مفهومٌ حديثُ العهد جداً لا يكاد يكون مألوفاً بَعْدُ للمتحدثين باللغة الإنكليزية انفسهم على نطاق واسع، وهو المفهوم والمصطلح «soundbite/s»: أحدُ منتجات عصر المعلوماتيات الجديدة. ويستخدم هذا المصطلح للتعبير عن نزعة إلى ابتكار عبارات لافتة للنظر، حادةِ الوقع، موجزةٌ جداً، محبوبةٌ، وقابلة للاقتباس الفوري في الإعلاميات، وبشكل خاص في نشرات الأخبار التلفزيونية، دعماً لوجهة نظرٍ ما أو انتقاداً لغيره ما. ويبدو لي أن أصلَ العبارة موشوج بمصطلح مستخدم في علوم الحاسب «الكومبيوتر» هو الـ bite أو byte وهي أصغر وحدة مستخدمة في الحاسب وهي جزء من كلمة محاسبية، وتضم عادة ثمانية مكونات صغرى كل منها يسمى «bit». يمثل الصفرُ أو الواحدُ في نظام العد الثنائي الحسابي.

ويستغل المصطلحُ الجديدُ الجناسَ التامُ بين المصطلح الحسابي والفعل الإنكليزي العادي «bite» الذي يعني «يعض، يلتقم»؛ ومنه «عضة، لقمة». وكنت أقترح ترجمةً لذلك كله الكلمةَ العامية السورية «يكدش، كدشة»، فهي أدقُ تعبير عن المفهوم، لكنني أردت في وقت واحد أن أقترح ترجمةً

المصطلح في السياق المحسابي، وترجمة في السياق السياسي الإعلامي، ولو كان بوسعي استخدام مصطلح واحد لكليهما لفلعت. أما في السياق المحسابي، فإنني أستخدم المصطلح «رَقْمَة» وتجمع على «رقمات» لكلمة «byte/bite» والمصطلح «رقيمة» وتجمع على «رقيمات» لكلمة «bit»؛ وأما في السياق الإعلامي فاقترح استخدام «السعة / لسعات صوتية»\*.

-٢٦-

هوذا قد اكتمل الجهد، وإن أوأُنُ الخِلاص. قلت لنفسي، بعد المراجعات المرهقة كلها لهذه الترجمة: «جلُّ من لا يخطئ ولا يزلُّ». فلقد عرفتُ يقيناً أنني على كل ما بذلتُ من جهد، ارتكبتُ أخطاءً وزلات. بعضها مما يُغتفر، وبعضها مما لا أعرف إن كان يُغتفر أم لا، لأنني لا أعني أنني اقترفته. بيد أنني واثق من وجوده ثمة، في مكان أو آخر من هذا النص. ولا يَغفر لي أن هذا الكتاب مرهق، صعب، بل متعاضل أحياناً. بل يغفر لي، كما كان أجدادنا العظام يقولون، أنني لم أُلْ جهداً وأنني انقطعتُ إليه انقطاعَ الناسك إلى نسكه، ودفعتُ ثمناً غالياً في حياتي الشخصية للاستغراق المرهق في عملي عليه. اللهم إنني التزمتُ فوفيت، لا راغباً ولا راهباً. وليس لي ما أختتم به سوى الحمد لك، ورجاء أن تشمل برعايتك مؤلِّفَ هذا الكتاب، وثلاثاً عانينَ بعضَ معاناتي في عملي عليه، هنَّ أمية ورهام وزوث، لصبرهنَّ على الضيم، ورحابة صدورهنَّ على الضيق، مع رجل غائب في حضوره، شروء في مشاركته، مقطبٌ في ابتسامه، وهو سادر في تعاضل أيامه، تعاضل الثقافة والامبريالية.

اكسفورد

٢١ أب <اغسطس>، ١٩٩٦

\* - وأودُّ أن اشكر جمال أبو ديب استاذ الجيوفيزياء في جامعة دمشق على مقترحاته فيما يتعلَّق بالمصطلح العلمي.

إن فتح الأرض، الذي غالباً ما يعني انتزاعها من أولئك الذين لهم بشرة مختلفة عن بشرتنا أو أنوف أكثر تسطيحاً بقليل من أنوفنا، ليس عملاً جميلاً حين تتأمله بامعان. وليس ثمّة ما <يشفع له ويمنحه> الخلاص سوى الفكرة ذاتها: فكرة كامنة وراءه؛ لا ذريعة عاطفية بل فكرة؛ وإيمان لا تشوبه الأنانية بالفكرة - التي هي شيء بوسعك أن تقيمه نصباً، وتنحني أمامه <مبجلاً>، وتقدّم له القرابين...

جوزف كونراد، قلب الظلام

<https://telegram.me/maktabatbaghdad>

## مقدمة المؤلف للطبعة الأصلية الانكليزية

بعد حوالي سنوات خمس من صدور الاستشراق عام ١٩٧٨، بدأت بتجميع بعض الافكار التي كانت قد تجلّت لي، وأنا أنجز ذلك الكتاب، حول العلاقة بين الثقافة والامبراطورية. وكانت أولى النتائج سلسلة من المحاضرات التي ألقيتها في جامعات الولايات المتحدة، وكندا، وأنكترا عامي ١٩٨٥ و١٩٨٦. وتشكّل تلك المحاضرات المنظومة اللبابية للكتاب الحالي الذي ظلّ يشغلني بانتظام منذ ذلك الوقت. لقد قام قدر كبير من الأبحاث المنهجية في علم الإنسان <الانثروبولوجيا>\* والتاريخ، والدراسات الإقليمية بتطوير عدد من المنظومات التي كنت قد قدّمتها في الاستشراق الذي اقتصر مجاله على الشرق الأوسط. ولقد حاولتُ، بدوري، في الكتاب الراهن أن أوسّع المنظومات الواردة في الكتاب السابق لأصِفَ نسقاً أكثر شموليةً من العلاقات بين الغرب الحوضري الحديث وأصقاعه الواقعة ما وراء البحار.

لكن، ما هي أمثلة المادة اللاشرق أوسطية التي يتم التعامل معها في هذا الكتاب؟ إنها الكتابات الأوروبية عن أفريقيا، والهند، وبعض مناطق الشرق الأقصى، وأستراليا، وجزر البحر الكاريبي؛ إنني لأعتبر هذه الإنشاءات الأفريقية والهندية، كما يُسمّى بعضها، جزءاً من مجمل الجهود الأوروبية لحكم بلدان وشعوب نائية، وأعتبرها لذلك مترابطة مع الأوصاف الاستشراقية للعالم الإسلامي، كما هي مترابطة مع طرق أوروبا الخاصة في تمثيل الجزر الكاريبية، وإيرلندا، والشرق الأقصى. واللافت في هذه الإنشاءات هو الصور المجازية التي يواجهها المرء باستمرار في أوصافها لـ«الشرق السري»، إضافة إلى التعميمات التي تخلقها لـ«العقل» الأفريقي (أو الهندي أو الأيرلندي أو الجاميكي أو الصيني)، والمفاهيم التي تدور حول إيصال الحضارة إلى شعوب بدائية أو بربرية، والافكار المألوفة إلى درجة الإزعاج حول اقتضاء الجدل بالسياط أو الموت أو العقوبة المسرفة حين يسيئون «هم» السلوك أو يتمردون، لأدّ «هم»، في الأغلب، يفهمون أفضل فهم لغة القوة والعنف؛ فعهم، ليسوا مثلنا، وهم لهذا السبب يستحقون أن يُحكموا.

بيد أن الحقيقة التي تكاد تنطبق على كل مكان في العالم غير الأوروبي هي أن وصول الرجل الأبيض قد استثار المقاومة إلى درجة أو أخرى. إن ما أغفلتُه في الاستشراق هو تلك الاستجابة للسيطرة الغربية التي تُوجت بالحركة العظيمة لفككتة الاستعمار عبر العالم الثالث بأسره. لقد رافق المقاومة المسلحة في أماكن متباينة تباين الجزائر وإيرلندا وأندونيسيا في القرن التاسع عشر قدرٌ عظيمٌ أيضاً من جهود المقاومة الثقافية في كل مكان تقريباً، كما رافقها تأكيد الهوية القومية، ورافقها - في المجال السياسي - تكوين الروابط والأحزاب التي تسعى إلى هدف مشترك هو تقرير المصير وتحقيق الاستقلال الوطني. ولم تكن الحال أبداً أن المواجهة الامبريالية نصبت بخيلاً غربياً نشيطاً في مجابهة مع مواطن أصلائي غير غربي خامل خانع؛ بل لقد كان ثمة دأناً شكلاً ما من المقاومة النشطة، ولقد حدّث، في القدر الأعظم من الحالات، أن الت هذه المقاومة في نهاية المطاف إلى الغلبة والفوز.

\* - أود التذكير بانني استخدم الحاصرتين الحادثين < > لأضع بينهما كل ما هو إضافة مني ولاحصر أيضاً كلمات اجنية، مكتوبة بأحرف عربية، بعد أن أورد ترجمتي المقترحة لها. أما القوسان ( ) فهما من وضع المؤلف ويُستخدمان في مسار نصه، وهو يستخدم المعقوتين [ ] لحصر ما يضيفه في سياق اقتباس ينقله من مصدر آخر. (الترجم)

يُفهم هذان العاملان - نسقُ عامٍ عالميٍّ من الثقافة الامبريالية، وتجربةٌ تاريخيةٌ من المقاومة ضد الإمبراطورية - هذا الكتابَ بطرق تجعله لا مجرد حلقة تالية لـ الاستشراق بل محاولة لإنجاز أمرٍ آخر. لقد أُكِّدَتْ في كلا الكتابين على ما أسميته، بطريقة عامة نوعاً ما، «الثقافة». وتعني الكلمة، كما أستخدمها، امرين اثنين بشكل خاص. أولاً: جميع تلك الممارسات، مثل فنّ الوصف، والتوصيل، والتمثيل، التي تملك استقلالاً نسبياً عن المجالات الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والتي كثيراً ما توجد في أشكال جمالية تشكّل اللذة واحدةً من غاياتها الرئيسية. ويندرج في ذلك، طبعاً، كلا مخزون الماثورات الشعبية حول أجزاء نائية من العالم، والمعرفة المتخصصة المتاحة في حقول تفقيحية مثل علم الأعراق الوصفي «العرقغرافيا» وعلم التاريخ، وفقه اللغة، وعلم الاجتماع، والتاريخ الأدبي. ولما كان مَحْرَقُ تركيزي هنا ينعصر قطعاً في الإمبراطوريات الغربية الحديثة في القرنين التاسع عشر والعشرين، فلقد تناولتُ بشكل خاص أشكالاً ثقافية كالرواية، اعتقد أنها كانت عظيمة الأهمية في صياغة وجهات النظر، والإشارات، والتجارب الامبريالية. وأنا لا أعني أن الرواية وحدها كانت هامة، بل إنني اعتبرها المشروع الجمالي الذي تمثل علاقته بالمجتمعات المتوسعة في بريطانيا وفرنسا ظاهرةً شائعةً بصورة خاصة للدراسة. يتمثل النموذج الأولي للرواية الحديثة الواقعية في روينسون كروزو، ومن المؤكد أنه ليس من قبيل المصادفة أنها تدور حول أوروبي يخلق لنفسه إقطاعية على جزيرة غير أوروبية نائية.

لقد ركّز قدر كبير من النقد الحديث على السرد الروائي، غير أن موقع هذا السرد في تاريخ الإمبراطورية وعالمها لم يُؤلَّ إلا قدرأً ضئيلاً من الاهتمام. وسرعان ما سيكتشف قراءُ هذا الكتاب أن السرد حاسمٌ الأهمية بالنسبة لمنظوماتي هذه، إذ إنَّ نقطتي الأساسية هي أن القصص تكمن في اللباب مما يقوله المكتشفون والروائيون عن الأقاليم الغربية في العالم؛ كما أن القصص أيضاً تغدو الوسيلة التي تستخدمها الشعوب المستعمرة لتأكيد هويتها الخاصة ووجود تاريخها الخاص. لا شك أن المعركة الرئيسية في «العملية» الامبريالية تدور، طبعاً، من أجل الأرض؛ لكن حين ال الأمر إلى مسألة مَنْ كان يملك الأرض، ويملك حقَّ استيطانها والعمل عليها، وَمَنْ ضَمَّنَ استمرارها ويقامها، وَمَنْ استعادها، وَمَنْ يرسم الآن مستقبلها - فإنَّ هذه القضايا قد انعكست، ودار حولها الجدالُ، بل حُسمت أيضاً لُزمن ما، في السرد الروائي. إنَّ الأمم، كما اقترح أحدُ النقاد، هي ذاتها سردياتٌ ومرويات. وإن القوةَ على ممارسة السرد، أو على منع سردياتٍ أخرى من أن تتكون وتبرز، لكبيرة الأهمية بالنسبة للثقافة وللإمبريالية، وهي تشكّل إحدى الروابط الرئيسية بينهما. والأكثر أهمية هو أن السرديات الجلييلة الكبرى للتححرر والتنوير قد جُنِّدت الشعوب في العالم المستعمَر وحفزتها على الانتفاض وخلع نير الامبريالية؛ وخلال هذه العملية، هزّت تلك القصصُ وأبطالها العديد من الأوروبيين والأميركيين، أيضاً، فقاموا هم بدورهم بالصراع من أجل سرديات جديدة للمساواة و«الروح» المجتمعية الإنسانية.

ثانياً، وبصورة تكاد تكون عسوية على الإدراك الحسّي، فإنَّ الثقافة مفهومٌ يضم عنصراً

• - أستخدم كلمة القوة بصيغة تعبر عن الفاعلية والتعدي (نحوياً) حتى تكاد تعني المقدرة، في كل مكان يستخدم فيه المؤلف كلمة "Power": وذلك لأن القوة، من حيث هي مصطلح ومفهوم، أساسية جداً في عمله وعمل باحثين مثل ميشيل فوكو. واقترح إدخال هذه الصيغة في الاستعمال إلى العربية تشبيهاً وتوسيعاً وزيادة للقوة على التعبير عن مفاهيم منتشرة عالياً. ومن الواضح لي على الأقل أن كلمة مثل «المقدرة» لا تفي بالغرض. أما «السلطة» فإنَّ لها سياقاتها المحددة التي استخدمها فيها للتعبير عن "authority". (المترجم)



منقياً ودافعاً إلى السمو، هو مخزونُ كلِّ مجتمعٍ من أفضل ما تحققت المعرفةُ به والتفكير فيه، كما قال ماثيو أرنولد في الـ ١٨٦٠ات. لقد آمن أرنولد بأنَّ الثقافة تلطّف، إن لم تكن قادرةً بشكل تام على أن تحيّد، وتُغَمِّع متالف الوجود الحضري الحديث، العدواني، التجاري، المولّد للفظاظَة والخشونة. إنك لتقرأ دانتى وشكسبير من أجل أن تواكب أسمى ما تحقق التفكير فيه ومعرفته، وكذلك من أجل أن تبصر نفسك، وقومك، ومجتمعك، وتراثك في أفضل إضاءات لها. ومع مرور الزمن، تغدو الثقافة مقترنة، غالباً بشكل عدواني، بالامة أو الدولة، ويميّزنا، ذلك عندهم» تمييزاً تخالطه، دائماً تقريباً، درجةً ما من الاستجابية. إن الثقافة، بهذا المعنى، مصدر من مصادر الهوية، وهي مصدر صدامي أيضاً، كما نراها الآن في حالات «الرجوع» إلى الثقافة والتراث. وترافق حالات الرجوع هذه مرمزاتٌ صارمةٌ من السلوك الفكري والأخلاقي تناهض الإباحية التي تربط بفلسفات تحررية <ليبرالية> نسيباً من مثل التعددية الثقافية والهجنة. ولقد أنتجت هذه الرجوعات في العالم الذي كان خاضعاً للاستعمار سابقاً أنواعاً شتى من الأصوليات الدينية والقومية.

والثقافة، بهذا المعنى الثاني، هي مسرحٌ من نمطٍ ما تشتبك عليه قضايا سياسية وعقائدية متعددة متباينة. هيهات أن تكون الثقافة مملكةً ساجيةً ذات رقة أبولوية، بل إنها قد تكون ساحةً عراكٍ فوقها تعرّض القضايا نفسها لضوء النهار وتتنازع فيما بينها كاشفةً، مثلاً، حقيقةً أن الطلبة الأميركيين، أو الفرنسيين، أو الهنود الذين يُلقنون أن يقرأوا آداب أوطانهم المكرّسة <الكلاسيكية> قبل أن يقرأوا آداب الآخرين، يتوقع منهم أن ينتموا بولاء، غير نقدي غالباً، إلى أممهم وتراثاتهم فيما يزدرون الآخرين أو يحاربونهم.

إن المشكلة في هذه الفكرة عن الثقافة هي أنها تقتضي لا أن يبجّل المرء ثقافته وحسب، بل أن يفكر بها أيضاً بوصفها معزولة عن عالم الحياة اليومية لأنها تتسامى فوق هذا العالم وتتجاوزته. ونتيجةً لذلك، فإن معظم محترفي العلوم الإنسانية عاجزون عن أن يعقدوا الصلة بين الفظاظَة المديدة الأثيمة لممارسات مثل الرق، والاضطهاد الاستعماري والعنصري، والإخضاع الامبريالي، من جهة... وبين الشعر والرواية والفلسفة التي ينتجها المجتمع الذي يقوم بمثل هذه الممارسات، من جهة أخرى. إن إحدى الحقائق الشاقة التي اكتشفتها أثناء إعدادي لهذا الكتاب هي ندرة الفنانين البريطانيين والفرنسيين، ممن أعجب بهم، الذين اعترضوا على مفهوميّ الاعراق "الخاضعة" و"الأدنى مكانة" وغيرهما مما ساد بين الموظفين الذين طبّقوا هذه المفاهيم كمسألة بديهية في حكمهم للهند أو الجزائر. لقد لاقت هذه المفاهيم قبولاً واسعاً وقدمت الوقود للاستيلاء الامبريالي على الأراضي في أفريقيا عبر القرن التاسع عشر بأكمله. وحين فكر النقاد بكارلايل أو رسكن أو حتى ديكنز وثاكري، فإنهم، في ظني، كثيراً ما وضعوا أفكار هؤلاء الكتّاب عن التوسّع الاستعماري، والاعراق الدنيا، و"الزنج" في خانة مختلفة تماماً عن خانة الثقافة، معتبرين الثقافة مساحةً الفاعلية الراقية التي ينتمون إليها "بحق" والتي انجزوا فيها أعمالهم المهمة "حقاً".

إن الثقافة، حين يتم تصويرها بهذا الشكل، قد تتحول إلى منغلق واقٍ: تحرّ «أراك» السياسية على الباب قبل أن تدخله. وإنني، وأنا الإنسان الذي قضى حياته المهنية كلها يدرّس الأدب، والذي كان قد ترعرع في العالم الاستعماري السائد قبل الحرب العالمية الثانية، قد وجدتُ تحدياً حقيقياً في ألا أرى الثقافة بهذه الصورة - أعني مضروراً عليها الحجر في محجر معتم تماماً من انتماءاتها الدنيوية - بل أن أراها ميداناً نشاط فائق التنوع. إن الروايات والأعمال

الأخرى التي أناقشها هنا لتُحلَّلْ لأنني قبل كل شيء اعتبرها أعمالاً من الفن والمعرفة جديرةً بالتقدير والإعجاب، استمدُّ منها أنا وكثيرون غيري اللذة ونمتاح منها الفائدة، ثانياً، يتمثل التحدي لا في أن نربط هذه الأعمال بتلكما اللذة والفائدة وحسب، بل كذلك بالعملية الامبريالية التي كانت هذه الأعمالُ بصورة جلية ومعلنة جزءاً منها؛ وبدلاً من أن أشجب أو أتجاهل انخراطها في ما كان واقعاً لا تساؤلُ حوله في المجتمعات التي انتجتُها، فإنني لاقتحِر أن ما نتعلمه عن هذا الجانب الذي ما يزال مهملاً حتى الآن يُثري بالفعل قراءتنا وفهمنا لهذه الأعمال ويعمقهما.

دعني أتحدث قليلاً عما يدور في خَلدي، مستخدماً روايتين مشهورتين وعظيمنتين جداً. إن رواية ديكنز توقعات عظيمة (1861) هي في المكان الأوَّل رواية حول مخادعة النفس، حول مساعي بيب اليانسة ليغدو رجلاً مهذباً دون أن يبذل الجهد المضني أو تتوفر له الموارد المالية لطبقة الأعيان <الارستقراطية> التي يتطلبها مثلُ هذا الدور. وكان بيب في حياته المبكرة قد قدَّم العون لجرم مدان هو آيل ماغويتش الذي قام، بعد أن نُقل إلى أستراليا، برَدِّ الجميل لمن كان قد أنعم عليه بوهبه مبالغ طائلة من المال؛ ولأن المحامي الذي سلَّم المال لـ بيب لم يبيع له بشيء فقد أقتع بيب نفسه بأنَّ مَنْ وَهَبَ النعمةَ كان سيِّدةً مهذبةً عجوزاً اسمها الأنسة هافيشم. وفيما بعد يعود ماغويتش للظهور في لندن بصورة غير قانونية، ولا يلقي ظهوره ترحيباً من بيب لأنَّ كلَّ ما له صلة بذلك الرجل كان يرشح برائحة الجنوح والإزعاج. إلا أن بيب، في نهاية المطاف، يتقبل ماغويتش وواقعه: فيعترف أخيراً بماغويتش - الذي طورد، واعتقل، وسقط ضحية المرض الفتاك، - والدأ مكلفاً مناباً، لا من حيث هو إنسان ينبغي أن يُنكر أو يرفض، مع أن ماغويتش لم يكن مقبولاً لأنه من أستراليا، وهي مستعمرة للعقاب خُصِّصت لإعادة تأهيل المجرمين الإنكليز المنقولين إليها لا لإعادتهم إلى انكلترة.

إنَّ معظم قراءات هذا العمل الجدير بالثناء، إن لم تكن كلها، تموضعه تماماً ضمن التاريخ الحواصري للرواية البريطانية، في حين أنني شخصياً اعتقد أنه ينتمي إلى تاريخ هو في أن واحد أكثر اشتماليةً وأشدَّ حيويةً مما تبيحه هذه القراءات. وقد ترك لكتابين أقرب عهداً من كتاب ديكنز - هما كتاب روبرت هيرز الجليل الشاطئ القاتل، وكتاب بول كارتر اللامع في تكهناته الطريق إلى خليج بوتني - أن يجلوا تاريخاً ضخماً من التكهّن حول تجربة أستراليا وهي، كإيرلندا، مستعمرة بيضاء بوسعنا أن نموضع فيها ماغويتش وديكنز لا بوصفهما مجرد إشارات عابرة في ذلك التاريخ، بل بوصفهما منخرطين فيه، من خلال الرواية ومن خلال تجربة أكثر قِدامةً واتساعاً بين انكلترة واصقاعها ما وراء البحار.

لقد أُسِّست أستراليا مستعمرةً للعقاب في أواخر القرن الثامن عشر بشكل رئيسي كي يُتاح لانكلترة أن تنقل جماعات من المجرمين فائضة، غير مرغوب فيها وغير قابلة للإصلاح، إلى مكان كان قد رسَم معالمةً أصلاً القبطان كوك، وكي تلعب أستراليا أيضاً دورَ مستعمرة تعوُّض عن فقدان المستعمرات الأميركية. ولقد أنتج السعيُّ إلى الربح، وبناء الإمبراطورية، وما أسماه هيرز التفرقة الاجتماعية، مجتمعةً، أستراليا الحديثة التي كانت، مع حلول الوقت الذي بدأ فيه ديكنز يهتم بها (في رواية ديفيد كويرفيلد يهاجر ولكنز ميكوبر بسعادة إلى أستراليا) قد تقدّمت نوعاً ما إلى نقطة <تحقيق> المربوحية وإلى نمط من النظام الحرّ يستطيع فيه العمال أن يحققوا بأنفسهم مكاسب جيدة إذا سُمح لهم أن يفعلوا ذلك. ومع ذلك ففي ماغويتش

حكَّك ديكنز عدداً من الخيوط في التصوّر الإنكليزي للمحكوم عليهم في أستراليا في نهاية عملية النقل. فلقد

كان باستطاعتهم أن ينجحوا، لكن لم يكن بوسعهم، بمعنى حقيقي، أن يُزجوا. كان بوسعهم أن يَكفروا عن جرائمهم بمعنى تقني، قانوني، غير أن ما كانوا قد عانوه هناك لَعْمَهُمْ بِـ «قَتْرٍ» ان يظلوا دائماً خوارج لامتتمين. ومع ذلك فقد كانوا قادرين على الخلاص - شريطة أن يبقوا في أستراليا<sup>(١)</sup>.

يقدم لنا اكتناه كارتير لما يسميه تاريخ أستراليا الفضائي سُاخَةً أُخرى من تلك التجربة ذاتها. فهنا يقوم مكتشفون، وسجناء، ومختصون بعلم الأعراق الوصفي، وساعون وراء الريح، وجنود، برسم معالم قارة هائلة وخالية نسبياً من السكان، كل منهم في إنشاء يزاحم إنشاء الآخرين، أو يزيحه عن محله أو يحتويه. ومن هنا فإن «رواية» خليج بوتني هي قبل كل شيء إنشاء تنويري من الرحلة والاكتشاف؛ ثم إنها طُفْمٌ من الساردين الرحالين (وبينهم كوك) الذين تُراكِمُ كلماتهم، ومخططاتهم، ومقاصدهم، الأصقاع الغريبة وتحولها تدريجياً إلى «بيت» لهم. وقد أظهر كارتير أن التماس بين التنظيم البنتماني للفضاء (الذي أنتج مدينة ملبورن) والفوضى الظاهرة للاذغال الأسترالية قد أصبح تحويلاً متفانلاً للفضاء الاجتماعي أنتج فردوساً للرجال المهذبين «الجنتمن»، جنّة عدن للعمال في الـ ١٨٤٠ات. ولقد كان ما تصوّره ديكنز من مصير لـ بيبي، وهو الرجل المهذب اللندني بالنسبة لماغويتش، معادلاً عامة لما تصوّره الأريحية الإنكليزية من مصير لاوستراليا: فضاء اجتماعي أول يُشترَعُ فضاء آخر.

بيد أن توقعات عظيمة لم تُكْتَبْ بانشغال المسارد الأسترالية الأصلانية يقارب أدنى درجات المقاربة ما لدى كارتير وهيوز من انشغال؛ كما أنها لم تُفترض أو تُتنبأ بنشوء تراث من الكتابة الأسترالية كان له في واقع الأمر أن يضم لاحقاً الأعمال الأدبية التي انتجها ديفيد معلوف، وبيتر كيري، وپاترك وايت. ولم يكن الحظر المفروض على عودة ماغويتش جزائياً وحسب بل كان امبريالياً أيضاً: فالرعايا قد يُنقلون إلى أماكن مثل أستراليا، لكنهم لن يُسمح لهم بـ «العودة» إلى الفضاء الحواضري الذي كان، كما تشهد كل أعمال ديكنز الروائية، مرسوماً بدقة بالغة، ومتحدثاً باسمه، ومسكوناً من قبَل تراثية «مؤلفة» من أعيان الحواضر. وهكذا فمن جهة أولى، يتوسع مؤلّون مثل هيوز وكارتير في تصوير حضور أستراليا الموهن نسبياً في الكتابات البريطانية في القرن التاسع عشر، معبرين عن الامتلاء والتكامل المكتسب لتاريخ أسترالي أصبح مستقلاً عن بريطانيا في القرن العشرين؛ لكن قراءة سليمة لـ توقعات عظيمة، من جهة أخرى، ينبغي أن تلاحظ أن بيبي نفسه، بعد أن يتم التكفير - بوجه من الكلام - عن جنوح ماغويتش، وبعد أن يقرّ بيبي إقراراً منقذاً بديته للمدان الهرم، الساعي إلى الانتقام، والذي تقعه المرارة بحيوية جديدة، ينهار ثم يُعشّ بطريقتين إيجابيتين بشكل صريح. «أولاً» ييزغ بيبي جديد، أقلّ رزوحاً من بيبي القديم تحت وطأة سلاسل الماضي، وهو يلمح في هيئة طفل اسمه بيبي أيضاً؛ «ثانياً»، يبدأ بيبي القديم مهنة جديدة مع رفيق صباه هيريت بوكيت، لا كرجل مهذب خامل هذه المرّة بل كتاجر دؤوب في الشرق، حيث تمنحه مستعمرات بريطانيا الأخرى نوعاً من السوانية والعاية لم تكن أستراليا بقادرة على منحهما أبداً.

وهكذا، فحتى حين كان ديكنز يسوّي المصاعب مع أستراليا، كانت بنية أخرى من وجهات النظر والإحالات تبرّغ لتشي بولوج بريطانيا الامبريالي للشرق عبر التجارة والأسفار. ولم يكن بيبي في مهنته الجديدة كرجل أعمال استعماري شخصية استثنائية، إذ إن شخصيات ديكنز جميعها تقريباً من رجال الأعمال، والأقارب الجموحين، واللامتتمين الخفيين كانوا على علاقة طبيعية وأمنة مع الامبراطورية. لكن هذه الوشائج لم تكتسب أهمية تأويلية إلا في السنوات

الآخيرة. فقد رأى جيل جديد من الدارسين والنقاد - هم أبناء عصر فكفكة الاستعمار في بعض الحالات، والمستفيدون (مثل الأقليات الجنسية، والدينية، والعرقية) من التقدم الحاصل في مجال الحرية الإنسانية في أوطانهم - في هذه النصوص العظيمة من الأدب الغربي اهتماماً حياً بما كان قد اعتُبر عالماً أدنى، تقطنه شعوب ملونة أدنى، تم تصويره مفتوحاً لتدخل أعداد كبيرة من الروبنسون كروزوات.

مع حلول منتصف القرن التاسع عشر، لم تعد الإمبراطورية مجرد حضور طيفي، ولم تعد تتجسد في مجرد ظهور معقوت لدان هارب بل غدت - في أعمال كَتَّاب مثل كونراد، وكيلنج، وجيد، ولوتي - مجالاً مركزياً للاهتمام والعناية. فرواية كونراد *نوسترومو* (١٩٠٤) - وهي مثالي الثاني - تموضع في واحدة من جمهوريات أميركا الوسطى مستقلة (بخلاف الأطر المشهية الأفريقية والشرق آسيوية الاستعمارية لرواياته السابقة)، وخاضعة في الوقت نفسه لمصالح خارجية بسبب منجم هائل للفضة فيها. إن أكثر جوانب الرواية فرضاً للنفس بالنسبة للاميركي المعاصر هو علمها بالغييب: فكونراد يتنبأ بالاضطرابات وسوء الحكم التي يستحيل إيقافها في جمهوريات أميركا الوسطى (إن حكما، يقول كونراد مقتبساً بوليفار، مثل حُرث البحر)، وهو يُفرد بالتركيز الطريقة الخاصة لاميركا الشمالية في التأثير على الأوضاع بصورة حاسمة لكنها لا تكاد تكون مرئية. يوجّه هولرويد، وهو مموّل من سان فرانسيسكو يدعم البريطاني تشارلز غولد مالك منجم سان تومي، لربييه تحذيراً بـ «إننا لن نُجرّ كمستثمرين إلى مصاعب كبيرة». ومع ذلك،

فإن يوسعنا أن نجلس ونراقب. ذات يوم، سنتدخل، طبعاً. لا مفرّ لنا من ذلك. لكن ليس ثمة ما يدعو إلى العجلة. إن على الزمن ذاته أن يقف على خدمة اعظم بلد في كون الله <الشاسع> كله. نحن سننطق الكلمة <الحاسمة> لكل شيء: الصناعة، والتجارة، والقانون، والصحافة، والفنون، والسياسة، والدين من كيب هورن حتى سوريث ساوند دون انقطاع، بل وابعد من ذلك، أيضاً. إذا ظهر اي شيء، يستحق الامتلاك في القطب الشمالي. وبعدها ستكون لنا نعمة الاستيلاء برخاء وسلاسة على الجزر والقارات القصية من الكرة الأرضية. سنقوم بإدارة اعمال العالم سواء اراق ذلك للعالم ام لم يرق. ليس في وسع العالم أن يمنع ذلك - وليس في وسعنا نحن أيضاً، فيما اختمن (٣).

إن قدراً كبيراً من بلاغيات «النظام العالمي الجديد» الذي أعلنته الحكومة الأميركية بعد نهاية الحرب الباردة - بكل ما فيها من تهنئة للنفس فواحة، وانتصاروية\* مكشوفة، وإعلانات جليلة للمسؤولية - يمكن أن يكون قد كُتِب من قِبَل هولرويد، شخصية كونراد: نحن الأولون، الرقم واحد؛ من المحتم علينا أن نقود؛ نحن رمز الحرية والنظام، وما إلى ذلك. وليس ثمة أمريكي واحد يتمتع بالمناعة ضد هذه البنية من المشاعر، ومع ذلك فمن النادر أن يتم تأمل التحذير المبطن الذي تحتويه صور هولرويد وغولد، ذلك أن بلاغيات القوة تنتج بسهولة بالغة وهماً بالأريحية حين تُستخدم في إطار مشهدي امبريالي. غير أن تلك بلاغيات، السمة الأكثر طغياناً لها هي أنها استُخدمت من قِبَل، لا مرة واحدة وحسب (من قبل إسبانيا والبرتغال)، بل بتواتر متكرر يصم الأذان في العالم الحديث، من قبل البريطانيين، والفرنسيين، والبلجيكين، واليابانيين، والروس، ثم الأميركيين الآن.

\* - إزاء triumphalism، وهي الإيمان بأن عقيدة المرء <الدينية> متفوقة على كل العقائد الأخرى؛ وهي أيضاً العمل بموجب هذا الإيمان (الناشر، عن معجم ويست).

إلا أنه لن يكون من الاكتمال في شيء أن نقرأ عمل كونراد العظيم بوصفه ببساطة تكهنات مبكراً بما نراه يحدث في القرن العشرين في أميركا اللاتينية، بسلسلة شركات الفواكه المتحدة فيها، والعقدهاء، وقوى التحرير، والمرتزقة الذين تمولهم الولايات المتحدة. إن كونراد هو السكفُ المهدد لوجهات النظر الغربية عن العالم الثالث التي يجدها المرء في أعمال روائيين متباينين تباينَ غزاهام غرين، وفي إس. نيبال، وروبرت ستون، ومنظري الامبريالية مثل حنة أرندت، وكتاب الرحلات، ومخرجي الافلام، والمباحكين الذين تخصصوا في نقل العالم غير الأوروبي <إلى الغرب> إما من أجل تحليله والحكم عليه أو لإشباع الأذواق الغرائبية للمتلقين في أوروبا وأميركا الشمالية. ذلك أنه إذا كان صحيحاً أن كونراد، بمفارقة لاذعة، يَعتبر امبريالية المالكين البريطانيين والاميركيين لمنجم سان تومي للفضة محكوماً عليها بالإخفاق بسبب طموحاتها المستحيلة الدعية، فإنه لصحيح أيضاً أنه يكتب كرجل انحرف في وجهه النظر الغربية عن العالم غير الغربي حتى اعمته عن رؤية تواريخ أخرى، وثقافات أخرى، وتطلعات أخرى. إن كل ما يستطيع كونراد أن يراه هو عالمٌ خاضع كلياً للغرب الأطلسي، عالم لا تؤدي فيه أية معارضة للغرب إلا إلى تأكيد قوة هذا الغرب الخبيثة الماكرة. وما لا يستطيع كونراد أن يراه هو البديل لهذه الجملة التي لا تضيف شيئاً. فهو لم يكن قادراً على أن يفهم أن للهند، وأفريقيا، وأميركا الجنوبية أيضاً حيوات وثقافات لها تكاملاتها التي لا يسيطر عليها سيطرة كاملة الغرينغو <الاميركيون>\* الامبرياليون ومصالحو العالم، أو على أن يسمح لنفسه بتصديق أن حركات الاستقلال المناهضة للامبريالية لم تكن كلها فاسدة وعميلة يعولها السادة المحركون للدمى في لندن وواشنطن.

إن هذه المحدوديات الخطيرة في الرؤيا لجزء <مكون> من نوسترومو مثلها في ذلك مثل الشخصيات والحبكة. وإن رواية كونراد لتُجسد عنجية الامبريالية الأبوية عينها التي تسخر منها في شخصيات <روائية> مثل غولد وهولرويد. ويبدو أن كونراد يقول: "نحن الغربيين سنقرر من هو المواطن الاصلاني الجيد ومن هو السيئ، لأن الاصلانيين جميعهم لا يملكون وجوداً كافياً إلا بفضل اعترافنا بهم". فنحن خلقناهم، ونحن علمناهم أن ينطقوا ويفكروا؛ ونحن يتمردون فإنهم ببساطة يؤكدون سلامة رأينا بأنهم أطفال اغبياء استغفلهم بعض أسيادهم الغربيين. وإن هذا فهو في حقيقة الأمر ما يشعر به الاميركيون بإزاء جيرانهم الجنوبيين: أن الاستقلال يمكن أن يتمنى لهم مادام ذلك النمط من الاستقلال الذي نوافق عليه نحن. وأي شيء آخر ليس مقبولاً، بل - وهذا أسوأ - لا ينبغي أن يخطر ببال.

ولذلك فإنه ليس من المفارقة الضدية في شيء، أن كونراد كان في وقت واحد مناهضاً للامبريالية وامبريالياً: تقديمياً حين كان الأمر يتعلق بصياغة فساد السيطرة على ما وراء البحار - ذلك الفساد المؤكد لنفسه، المخادع لذاته - صياغة بالغة الشجاعة ومتشائمة؛ ورجعياً بعمق حين تعلق الأمر بالتسليم بأن أفريقيا وأميركا الجنوبية كان لهما في أي زمن تاريخ وثقافة مستقلان قام الامبرياليون بخلخلتهما بعنف غير أنهم في نهاية المطاف أنهزموا أمامهما. لكن لنلأ نظن بطريقة أبوية متعالية أن كونراد لم يكن إلا وليداً لزمته، فإنه يحسن بنا أن نلاحظ أن المواقف القريبة العهد في واشنطن وفي أوساط معظم صانعي السياسة والمفكرين الغربيين لا تكشف عن كبير تقدم بالقياس إلى آرائه. إن ما تصوّره كونراد من عبثية كامنة في <روح> الإحسان والتصدق الامبريالية - التي تشمل مقاصدها أفكاراً من مثل "جعل العالم أمناً من أجل الديمقراطية" - هو

\* - gringo، بإسبانية أميركا الجنوبية، تُطلق على الأجنبي عامة والاميركي خاصة.

امر ماتزال الحكومة الأميركية عاجزة عن تصوّره، فيما هي تسعى إلى تحقيق رغباتها على مدى العالم بأكمله، ولاسيما في الشرق الأوسط. لقد كان لدى كونراد، على الأقل، من الشجاعة ما جعله يرى أن مثل هذه الخطط لم تنجح مرّة واحدة - لأنها تصطاد المخططين أنفسهم في شركٍ مزيدٍ من أوهم القوة الكلية والشعور المضللّ بإشباع الذات (كما كانت الحال في فيتنام)، ولأنها بحكم طبيعتها تزيّف الأدلّة والبراهين.

ينبغي أن يظلّ هذا كلّه حياً في أذهاننا إذا كان لـ نوسترومو أن تُقرأ بقدر من العناية بما فيها من نقاط قوة هائلة ومحدودية طَبعية. إن دولة سولاكو، الحديثة الاستقلال، التي تبرز في نهاية الرواية ليست إلا صورةً مصغرة، خاضعةً لدرجة أعلى من السيطرة واللاتسامح، عن الدولة الأكبر التي انفصلت عنها وحلّت الآن محلّها في الثراء والاهمية. وكونراد يمنح القارئ فرصةً أن يرى أن الامبريالية نظام، وأن الحياة في مجال من التجربة منضو <تابع> تنطبع بطابع المختلقات والحماقات التي يتسم بها المجالّ المسيطر. لكنّ العكس صحيح أيضاً، إذ إن التجربة في المجتمع المسيطر تؤوّل إلى أن تعتمد اعتماداً غير نقدي على السكان الأصليين واصقاعهم متصوِّرةً إياها في حاجة إلى الرسالة التحضيرية *la mission civilisatrice*.

إن نوسترومو بأيام طريقة قرنت، تقدّم نظرةً لا تُعرف إلاّ بصفحةٍ إطلاقاً، ولقد سمحت، حرفياً، بتبلور <تلك> النظرة المساوية في صرامتها إلى أوهم الامبريالية الغربية التي تتمثل في <رواية> غراهام غرين *الأميركي الهادئ* و<رواية> في. إس. نيبال *منحنى في النهر*، ولكل منهما برنامجٌ أهدافٍ مختلف اختلافاً كبيراً عن الأخرى. إن حفنة من القراء فقط يمكن أن تماري اليوم في أن البراة المحمومة لـ *بايل* <بطل> رواية غرين *والاب هيوسمنز* <بطل> رواية نيبال - وهما رجلان آمنّا بأنّ الأصليين يمكن أن يربّوا ويَلقّنوا "حضارتنا" - هي بالضبط ما آل إلى إنتاج القتل، والتخريب، وانعدام الاستقرار انعداماً لا نهائياً في المجتمعات "البدائية". ويطغى غضب مماثل على أفلام مثل فلم *أوليفر ستون سلفادور*، وفرنسيس فورد كوپولا *سِفْر الرويا الآن*، وقسطنطين كوستاغافراس *فقدان*، التي يقوم فيها عملاء للسي أي أي لا ضمير لهم وضباطٌ فيها مهوسون بالقوة بالتحكم التلاعبي بالأصليين والأميركيين ذوي النوايا الطيبة على حدّ سواء.

بيد أن جميع هذه الأعمال التي تُدين بالكثير للمفارقة اللاذعة المناهضة للامبريالية لدى كونراد في نوسترومو تطرح منظومةً أنّ منابع الفعل الهام والحياة الفعّالة قائمة في الغرب الذي يبدو ممثّلوه أحراراً حرةً تامة في فرض أوهمهم وتصداقاتهم على عالم ثالث ميت العقل. وتبعاً لهذه النظرة فإنّ الأقاليم الخارجية من العالم لا تملك حياة، أو تاريخاً، أو ثقافةً تستحق الذكر، وليس لها استقلال أو اكتمالية جديران بالتمثيل من دون الغرب. وحين يوجد ما يستحق الوصف فإنّه، حدواً لكونراد، فاسد، منحلّ، لا صلاح له إلى درجة يعجز عنها الكلام. لكن فيما كان كونراد قد كتب نوسترومو في مرحلة الحماسة الامبريالية الأوروبية التي لم يكد ينازعها منازع، فإنّ الروائيين ومخرجي الأفلام المعاصرين الذين تلقوا مفارقاته اللاذعة جيّداً قاموا بعملهم بعد فكفكة الاستعمار، بعد التجديد والتفكيك الفكري والأخلاقي والتخلي الهائل للتمثيل الغربي للعالم غير الغربي، بعد عمل فرانتز فانون، وأميليكا كابرال، وسي. إل. آر. جيمس، ووالتر رودني، بعد روايات ومسرحيات تشنوا أتشيبي، ونغوي واثيونغو، وول شوينكا، وسلمان رشدي، وغابرييل غارسيا ماركيز، وعديدين غيرهم.

وهكذا نقلَ كونراد نزعاته الامبريالية القارّة إلى مَنْ تلاه، رغم أن ودّيته لا يكادون يملكون عذراً واحداً لتسويغ ما في اعمالهم من تحيزٍ كثيراً ما يكون مرهف الخفاء وخالياً من التعنّن. وما الامر فقط أمرَ غريبين ليس لديهم قدر كافٍ من التعاطف مع الثقافات الأجنبية أو الاستيعاب لها - إذ إن ثمة فنّانين ومفكرين، بعد كل حساب، عبّروا في الواقع إلى الجانب الآخر - مثل جان جينيه، ويايزل ديغيسن، وألبير ميمي، وخوان غوتيسولو، وآخرين. وربما كان الامر الأكثر علاقةً هو الاستعداد السياسي لأخذ بدائل <عن> الامبريالية ماخذُ الجِد، وبينها وجود ثقافات ومجتمعات أخرى. وسواء أامن المرء بان روايات كونراد الفائقة تؤكد الشكوك الغربية المعتادة في اميركا اللاتينية، وأفريقيا، وآسيا، أم رأى في روايات مثل نوسترومو وتوقعات عظيمة قسّمت رؤيا امبريالية للعالم ذات قدرة مذهلة على الديمومة، وعلى صوغ منظوريّ كلا القارئ والمؤلف على حدّ سواء: فإنّ كلتا هاتين القراءتين للبدائل الحقيقية تبدوان عتيقتين منسوختين. إنّ العالم اليوم لا يوجد كمعجبةٍ بوسعنا أن نشعر إزاماها بالتشاؤم أو بالتفاؤل، وبوسع نصوصنا عنها أن تكون بارعة أو مملّة. وإنّ جميع وجهات النظر هذه لتتشبك استخدام القوة والمصالح وتحريكها. ويقدر ما نرى كونراد ينقد ويعيد إنتاج عقائدية عصره الامبريالية، فإننا نستطيع أن نحُدّد ملامح مواقفنا نحن الآن: مساقطة الرغبة في السيطرة على مجتمعات وتراثات وتواريخ أخرى أو رفض هذه السيطرة، أو القدرة على إدانة هذه المجتمعات والتراثات والتواريخ، أو الطاقة على فهمها والتعلق معها.

لقد تغيّر العالم منذ <أيام> كونراد وديكنز بطرقٍ فاجأت، وكثيراً ما روعت، الأوروبيين والأميركيين الحواضرين، الذين يواجهون اليوم جماهير كبيرة من المهاجرين غير البيض في عقر دارهم، ويواجهون قائمةً دامغة الأثر من الأصوات التي اكتسبت القوة حديثاً والتي تطالب بان يستمع <العالم> إلى سردياتها. وإنّ فحوى كتابي هذا هي أنّ هذه الأصوات وتلك المجموعات البشرية قد تكونت منذ زمن، بفضل العملية الكونية التي أطلقتها إلى الوجود الامبريالية الحديثة؛ وأنّ نتاجها أو نُفغل بصورةٍ ما التجربة المتقاطعة للغربيين والشرقيين، والاعتماد المتبادل للاماد الثقافية التي فيها تعيش المستعمرون والمستعمرون وفيها تصارعوا - عبر المساقطات، وعبر الجغرافيات، والسرييات، والتواريخ، المتنافسة - يعني أن يفوتنا ما هو جوهريّ في العالم خلال القرن المنصرم.

للمرة الأولى، يمكن لتاريخ الامبريالية وثقافتها أن يُدرس الآن دون اعتباره إما وحدانياً أو مجزئاً، متميزاً، منفصلاً بصورة تقليصية. صحيح أن اندلاعاً مزعجاً للإنشاء الانفصالي، الاستعلائي <الشوفيني> قد حدث مؤخراً سواء كان ذلك في الهند أو لبنان أو يوغوسلافيا أو في التصريحات المتمركزة أفريقياً أو إسلامياً أو أوروبياً؛ لكنّ بدلاً من أن تُبطل تقليصات الإنشاء الثقافي هذه مشروعية الصراع من أجل التحرر من الإمبراطورية، فإنها في الواقع تبرهن على سريانية تلك الطاقة التحررية الجذرية التي تنفج بالحياة الرغبة في الاستقلال والكلام بحرية ومن دون عيب السيطرة الظالمة. بيد أن الطريقة الوحيدة لفهم هذه الطاقة هي فهمها تاريخياً؛ ومن هنا هذا المدى الجغرافي والتاريخي الشاسع نسبياً الذي يسعى هذا الكتاب إلى معالجته. إنّنا كثيراً ما ننسى، في خضمّ رغبتنا في إسماع أصواتنا للآخرين، أنّ العالم مكان مزجّم وأنه إذا ما أصرّ كل فردٍ على النقاء أو الأولوية الجذرية لأن يُسمع صوته الخاص، فإنّ ما سنحصل عليه لن يكون إلا الطنّين السيئّ للمعاناة اللانهائية، وفوضى سياسية دموية بدأ رعبها الحقيقي يتجلى ويصبح ملموساً هنا وهناك في عودة السياسات العرقية للظهور في أوروبا، وفي خليطة المناظرات

حول اللياقة السياسية political correctness وسياسيات الهوية في الولايات المتحدة، وحول لاسامح التميز الديني - لكي أتحدث عن ذلك الجزء من العالم الذي انتمي اليه - والوعود المواهبة للطغيان البسماركى، على نهج صدام حسين وأنسالة ونظرانه العديدين في العالم العربي.

كم هو موقظ ومُهم، لذلك، لا أن يقرأ المرء جانبه الخاص - إذا جاز التعبير - وحسب، بل أن يستوعب أيضاً كيف أن فنّاناً عظيماً مثل كبلنغ (وقلّ مَنْ يفوقونه امبرياليةً ورجعيةً) صاغ الهند بكل تلك المهارة، وكيف أن روايته كيم لم تعتمد - فيما كان يصوغها تلك الصياغة - على تاريخ طويل من «سيادة» المنظور الانجلو - هندي فحسب، بل تنبأت كذلك، بالرغم من نفسها، باستحالة التمسك بهذا المنظور في إلحاحها على الإيمان بأن الواقع الهندي كان يتطلب، بل بحق يستجدي الوصاية البريطانية إلى ما لا نهاية له. إنني لأطرح منظومةً أن سجلّ المحفوظات الثقافي العظيم هو المكان الذي تتم فيه الاستثمارات الجمالية والفكرية في الأمصار الخاضعة ما وراء البحار. ولو أنك كنت بريطانياً أو فرنسياً في الـ ١٨٦٠ات لرأيت، وأحسست، الهند وشمال أفريقيا بمزيج من الالفة والمسافة، لكن دون أن يخامرك الشعورُ أبداً بسيادتهما المنفصلة. وفي سردياتك، وتواريخك، وحكايا رحلاتك، واستكشافاتك، كان وعيك يمثل بوصفه السلطة الرئيسية، بوصفه نقطة ناشطة من الطاقة تفقه المعنى الكامن لا في النشاطات المستعمرة وحسب بل في الجغرافيات والأقوام الغرائبية أيضاً. وفوق كل شيء، فإنّ الشعور بالقوة لديك نادراً ما تخيل أن هؤلاء «الأصلايين» الذين بدوا دائماً إناخاتين أو مناكيد لامتعاونين كانوا سيصبحون في زمن ما قادرين على إرغامك على التخلّي عن الهند أو الجزائر، أو قادرين على أن يبنسوا بما قد يناقض أو يتحدى أو يعرقل الإنشاء السائد، بشكل أو آخر.

لم تكن الثقافة الامبريالية خفية لامرئية، كما أنها لم تُخفِ وشائجها ومصالحها الدنيوية. ثمة وضوح في الخطوط الرئيسية للثقافة كافر لتمكيننا من ملاحظة العلامات المدوّنة هناك والتي كثيراً ما كانت بالغة الدقّة، ومن ملاحظة أنها لم تول قدراً كافياً من الاهتمام. أما لماذا غدت الآن مثيرةً للاهتمام إلى درجة أن تحفز، مثلاً، هذا الكتاب وأمثاله، فإنّ الأمر لا يعود إلى رغبة استرجاعية في الانتقام بقدر ما يعود إلى حاجة مدعّمة إلى الروابط والوشائج لقد كانت إحدى منجزات الامبريالية أنها قرّبت بين أجزاء العالم، وإنه لينبغي على معظمنا الآن - رغم أن الفصل بين الأوروبيين والأصلايين خلال هذه العملية كان أثماً وظالماً جذرياً - أن يعتبروا التجربة التاريخية للامبريالية تجربةً مشتركة. وإنّ فإنّ المهمة الراهنة هي أن نصف هذه التجربة في كونها تتعلق بالهنود والبريطانيين، بالجزائريين والفرنسيين، بالغربيين والأفارقة والاسيويين والأميركيين اللاتينيين والأوستراليين... بالرغم من الفظائع، وإراقة الدماء، والمرارة الحقود.

إنّ طريقتي هي أن أركّز بقدر المستطاع على أعمال فردية، أن أقرأها أولاً كنتاج عظيم للخيال الخلاق أو التأويلي، ثم أن أجلو كونها جزءاً من العلاقة بين الثقافة والامبراطورية. أنا لا أوّمن أنّ المؤلفين يتحدّثون بصورة آلية بالعقائدية <الايديولوجيا>، أو الطبقة، أو التاريخ الاقتصادي. بيّد أنّ المؤلفين، كما أوّمن، كانوا إلى حد بعيد في تاريخ مجتمعاتهم، يشكّلون ويتشكّلون بذلك التاريخ ويتجربتهم الاجتماعية بدرجات متفاوتة. إن الثقافة والأشكال الجمالية التي تنطوي عليها تُنشئت من التجربة التاريخية، وهي في واقع الأمر أحد المواضيع الرئيسية لهذا الكتاب. لقد اكتشفتُ وأنا أكتب الاستشماراق أنك لا تستطيع استيعاب التجربة التاريخية من خلال القوائم والجداول والفهارس، وأن بعض الكتب والمقالات والمؤلفين والأفكار - مهما بلغ مدى



تغطيتك للموضوع من الأسع - سيصيبها الإغفال. ولقد حاولتُ، بدلاً من ذلك، أن أتأمل ما اعتبره مهماً وأساسياً من أشياء، مقرأً سلفاً بأنَّ الانتقائية والاختيار الواعي قد تحكَّما بما قمتُ به. ما امله هو أنْ قرأ هذا الكتاب ونقَّاده سيستخدمونه من أجل تطوير خطوط الاستقصاء والبحث والمنظومات المتعلقة بالتجربة التاريخية للامبريالية، التي يطرحها. لقد اضطررتُ، في مناقشةٍ وتحليلٍ ما هو في الواقع عملية كونية، إلى أن أكون أحياناً معممًا ومختزلاً معاً؛ غير أنني واثق أنه ما من أحد يودُ لهذا الكتاب أن يكون أطول مما هو عليه!

وعلاوةً على ذلك، فثمة عدد من الامبراطوريات التي لا أناقشها: النمساوية - الهنغارية، والروسية، والعثمانية، والإسبانية، والبرتغالية. لكن هذا الحذف لا يُقصد منه أبداً الإيحاء بأن السيطرة الروسية على آسيا الوسطى وأوروبا الشرقية، وحكم استانبول للعالم العربي، والبرتغال لِمَا هما اليوم انغولا وموزامبيق، وإسبانيا في كلا المحيط الهادي وأميركا اللاتينية، كان لطيفاً (وبالتالي موضع قبول) أو أقلَّ امبرياليةً. إنَّ ما أقوله عن التجربة الامبريالية البريطانية والفرنسية والاميركية هو أنها كانت تملك تناسقاً وتماسكاً فريدين ومركزيّة ثقافيةً متميزة. إن انكثرة، طبعاً، تقف في طبقة امبريالية خاصة بها، أكبر، وأقخم، وأشدُّ مهابةً من أي امبراطورية أخرى؛ ولقد كانت فرنسا على مدى قرنين تقريباً في تنافس مباشر معها. ولأنَّ السرد يلعب دوراً كبيراً في المسعى الامبريالي، فليس من المفاجئ في شيء أن فرنسا و (خصوصاً) انكثرة تمتلكان تراثاً غير منقطع من الكتابة الروائية لا نظير له في أي مكان آخر. لقد بدأتُ أميركا تصبح امبراطورية أثناء القرن التاسع عشر، لكنها لم تحدُ حدو سلفيها العظيمتين مباشرة إلا في النصف الثاني من القرن العشرين، بعد فكفكة استعمار الامبراطوريتين البريطانية والفرنسية.

ثمة سببان إضافيان لتركيبي على هذه <الامبراطوريات> الثلاث. أولهما أن فكرة حكم بلدان ما وراء البحار - والقفز إلى أراضٍ نائيةٍ أبعد من الأقاليم المتاخمة - ذات موقع امتيازي في هذه الثقافات الثلاث. وهذه الفكرة ذات علاقة وشيجة بالأساطات، سواء أكانت في المختلقات <الروائية> أم الجغرافيا أم الفن، وهي تكتسب حضوراً مستمراً عبر التوسّع الفعلي، والإدارة الفعلية، والاستثمار، والالتزام. ومن هنا فإن ثمة ما هو نظامي مطرد في الثقافة الامبريالية، وهو لا يبدو في أية إمبراطوريات أخرى بمثل جلالة في إمبراطوريات بريطانيا وفرنسا، وبصورة مختلفة، في الولايات المتحدة. وحين استخدم عبارة <بنية وجهات النظر والإحالات>، فإن ذلك هو ما أرمي إليه. و<السبب> الثاني هو أن هذه البلدان هي الثلاثة التي في مداراتها ولدتُ، وترعرعتُ، وأعيش اليوم. ومع أنني أشعر وأنا فيها شعورَ مَنْ هو في بيته، فإنني ظللتُ، كأصلاني من العالم العربي والإسلامي، امرءاً ينتمي في الوقت ذاته إلى الجانب الآخر. ولقد أمكنتني هذا الوضعُ بمعنى ما من أن أعيش على كلا الجانبين، وأن أسعى للتوسُّط بينهما.

وبإيجاز، فإنَّ هذا الكتاب يدور حول الماضي والحاضر، حولعنا، وحولهم، كما يعاين كلُّ من هذه الأمور من قِبَل الأطراف المتعدِّدة والمتعارضة والمنفصلة عادة. أمَّا لحظته، بوجه من الكلام، فإنَّها الفترة التالية لانتهاه الحرب الباردة، إذ برزت الولايات المتحدة بوصفها آخر القوى العظمى. وأن يعيش المرءُ ثمة في زمن كهذا يعني، بالنسبة إلى تربيويٍّ ومفكر ذي خلفية في العالم العربي، عدداً من الشواغل المتميزة التي تركتُ كلها أثرها على هذا الكتاب، كما أثَّرتُ بحقٍ على كلِّ ما كتبتُه منذ الاستشراق.

ثمة، أولاً إحساسٌ مكرب بأن المرء رأى وقرأ <الكثير> من قبل مما يدور حول الصياغات

السياسية الأميركية الراهنة. ذلك أن كل مركز حواصري عظيم يتطلع إلى السيطرة الكونية قد قال - بل من المؤسف أنه قد فعل - كثيراً من الأشياء ذاتها. فثمة دائماً الاستهواء باسم القوة والمصالح القومية في إدارة أمور مَنْ هُمْ أدنى <مكانة> من الشعوب؛ وثمة الحمية المدمرة ذاتها حين تغدو الأمور أكثر صعوبة، أو حين يتمرّد السكّان الأصلاونيون ويرفضون حاكماً متواطئاً وممقوتاً اصطادته القوة الامبريالية وأبقته على سدة الحكم؛ وثمة أيضاً الإعلان المتبرئ دائماً، والمتوقّع حتى الفظاعة، بأنّنا «استثنائيون، أننا لسنا امبرياليين، ولسنا على وشك أن نكرّر أخطاء القوى الامبريالية السابقة، وهو استبراء يتبعه بمكرورية <روتينية> مملّة اقتراف تلك الأخطاء، كما تشهد حرب فيتنام وحرب الخليج. أما ما هو أسوأ من ذلك كلّهُ، فهو التعاون المذهل، رغم أنه كثيراً ما يكون سالباً، مع هذه الممارسات من قِبَل المفكرين، والفنانين، والصحافيين، الذين تتميز مواقفهم ومواقفهم في بلدانهم بالتقدمية وتزخر بعواطف تثير الإعجاب، لكنها تكون معاكسةً لذلك تماماً حين يتعلق الأمر بما يُمارَسُ باسمهم في الخارج.

إنني لأمل (أملاً قد يكون استيهامياً خُلباً) أن تاريخاً للمغامرة الامبريالية مصوغاً في إطار معطيات ثقافية قد يخدم، لذلك، غرضاً إيضاحياً بل رديعاً. لكن رغم تقدّم الامبريالية دونما هودة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، فإن المقاومة لها قد تقدمت هي أيضاً. ومن هنا فإنني، منهجياً، أحاول أن أجلو كلتا القوتين معاً. وذلك لا يستثني من النقد إطلاقاً الشعوب المستعمرة المضطّدة؛ ذلك أنّ أيّ مسح لدول ما بعد الاستعمار يكشف أنّ المصائر الحسنة والسّيئة للقومية، <أو> لما يمكن أن يُسمّى الانفصالية والأصلانية لا تشكل دائماً حكاية تبعث على الاعتزاز والفخر. وتلك أيضاً حكاية ينبغي أن تُروى، وإنّ لولم تروِ إلا لغرض واحد هو أن ينجلي أنه كان ثمة دائماً بدائل - عيدي أمين وصدّام حسين. إنّ امبريالية الغرب وقومية العالم الثالث لتتغذيان إحداهما من الأخرى، بيد أنهما حتى في أسوأ حالاتهما ليستا واحدتين ولا حتمويتين. وإضافةً، فإنّ الثقافة ذاتها ليست واحدة، كما أنها ليست ملكاً حصرياً للشرق أو للغرب، ولا لجماعات صغيرة من الرجال والنساء.

بيد أن الحكاية حكاية كنيبة وكثيراً ما تثبط العزيمة. ولا يلفّها اليوم، هنا وهناك، إلا بزوغ وجدان فكري وسياسي جديد. وذلك هو الشاغل الثاني الذي تغلغل في صنع هذا الكتاب. فرغم كثرة التفجعات على كون المسار القديم للدراسة ذات النزعة الإنسانية قد تعرّض للضغوط المسيّسة، ولما سمّي بثقافة الشكوى، وللدعوى التي تم طرحها بمبالغة فاحشة باسم قيم «غربية» أو «انثوية» أو «تمركزية أفريقية» أو «تمركزية إسلاموية»، فإنّ ذلك ليس كلّ ما هو موجود <فسي العالم> الآن. خذ مثلاً التغيير الفائق في دراسات الشرق الأوسط، التي كانت حين كتبت الاستشراق خاضعةً لروحية ذكورية ومتعالية عدوانية. إنّ فكرة من نمط بالغ الاختلاف عن الإسلام، والعرب، والشرق الأوسط قد قامت بتحدي الاستبداد القديم، وإلى زعزعته إلى حد بعيد. وقد تجلّت في أعمال كثيرة منها - لكي أذكر فقط ما ظهر في الأعوام الثلاثة أو الأربعة الأخيرة - كتّاب ليلي أبو لغد مشاعر محجّبة، ويلي أحمد المرأة والجنوسة في الإسلام، وفدوى مالطي دوغلس جسد المرأة، عالم المرأة، وهي أعمال انثوية لكنها ليست اقتصارية حصرية؛ بل إنها تُبرز التنوع والتعقيد في التجربة التي تفعل فعلها تحت <سطح> الإنشاء المكّبي للاستشراق وللقومية الشرقيوسطية (الذكورية إلى درجة غالبية)؛ وهي أعمال مسفسطة فكرياً وسياسياً في الوقت نفسه، متناغمة مع أفضل ما في الدراسات النظرية والتاريخية، منخرطةً لكنها غير دهمانية <ديماغوجية>، حساسة بإزاء تجربة المرأة، لكنها ليست عاطفية سيالة حولها؛ وأخيراً

فإنها أعمال تحاور الوضع السياسي للمرأة في الشرق الأوسط وتسهم فيه، فيما هي نتاج لباحثات ذوات خلفيات متباينة وتعليم متباين.

وإلى جانب كتابي ساره سوليري بلاغيات الهند الإنكليزية وليزا أو اقاليم نقدية، فإن هذا النمط من البحث التنقيحي قد نُوِّع، إن لم يكن قد هشَّم كلياً، جغرافياً الشرق الأوسط والهند بوصفها مجالات متجانسة مفهومة تقليصياً. ولقد اندثرت الآن الثنائيات الضدية العريضة على قلوب المشروعين الامبريالي والقومي، وبدلاً من ذلك فقد أخذنا نحس الآن بأن السلطة القديمة لا يمكن ببساطة أن تُستبدل بسلطة جديدة، بل إن تحالفات وتموضعات واصطفافات جديدة مصوغة عبر الحدود، والأنماط، والأمم، والجواهر أخذت تظهر للعيان بسرعة، وأن هذه التموضعات الجديدة هي الآن ما يستفز ويتحدى مبدأ الهوية، وهو مبدأ سكوني أساساً يشكّل لباب الفكر الثقافي خلال العهد الامبريالي. إن الفكرة الوحيدة التي لم يكدها التغير إطلاقاً، عبر التبادلات التي بدأت بانتظام قبل نصف الف من الزمن بين الأوروبيين وآخرهم، هي أن ثمة شيئاً <جوهراًئياً> هو "نحن" وشيئاً هو "هم" وكل منهما مستقر تماماً، جلي، مبين لذاته وشاهد على ذاته، بشكل حصين منيع. وهو انقسام يعود <تاريخياً>، كما ناقشته في الاستشراق، إلى الفكر اليوناني عن البرابرة؛ لكن ايّاً كان من ابتكر هذا النوع من فكر "الهوية"، فإنه مع حلول القرن التاسع عشر كان قد أصبح العلامة المائزة للثقافات الامبريالية إضافة إلى تلك الثقافات التي كانت تسعى إلى مقاومة التطاولات العدوانية الأوروبية عليها.

نحن ما نزال ورتة ذلك الاسلوب الذي يتحدد المرء تبعاً له بالامة: الامة التي تستقي، هي دورها، سلطتها من تراث يُفترض انه مستمر دونما انقطاع. ولقد أفرز هذا الانشغال بالهوية الثقافية، في الولايات المتحدة، النزاع حول الكتب والثقافات والسلطات التي تشكل تراث "نا". إن محاولة قول إن هذا الكتاب او ذاك هو جزء من تراثنا (او أنه ليس كذلك) هي، بصورة عامة، إحدى أكثر ما يمكن تخيله من ممارسات إنضاباً للحويوية. وإضافة، فإن ما تؤدي إليه من تجاوزات أكثر تواتراً بكثير مما تُسهم به من دقة تاريخية. فإعلان إن من أجل التاريخ أنني لا أطبق الموقف الذي يقول بأن علينا "نحن" أن ننشغل فقط أو بشكل رئيسي بما هو "لنا"، بأكثر مما أقرّ ردود الفعل ضد هذا الموقف التي تقتضي من العرب، <مثلاً>، أن يقرأوا الكتب العربية، ويستخدموا الطرق العربية، وما إلى ذلك. إن بيتوفن، كما اعتاد سي.إل. آر. جيمس أن يقول، ينتمي إلى أهل جزر الهند الغربية بقدر ما ينتمي إلى الألمان، لأن موسيقاه الآن جزء من الميراث الإنساني.

بيد أن الانشغال العقائدي بالهوية متشابك متعالق - وبصورة يتفهمها المرء تماماً - بمصالح وبرامج أهداف لفئات عديدة - ليست كلها أقلّيات مضطهدة - تؤد أن ترتب أولوياتها بما يعكس هذه المصالح. ولأن قدرأ كبيراً من هذا الكتاب يدور حول ما ينبغي أن نقرأه من التاريخ القريب العهد وكيف نقرأه، فإنني سأوجز ما لدي من أفكار هنا إيجازاً سريعاً. قبل أن يكون بوسعنا أن نتفق على ما تتألف منه الهوية الأمريكية، ينبغي أن نسلم بأن الهوية الأمريكية، من حيث هي مجتمع من الهجرات الاستيطانية المُرَوَّجبة على خرائب حضور أصلاني كبير القدر، هي هوية متنوّعة إلى درجة يستحيل معها أن تكون شيئاً موحدأ واحدياً متجانساً؛ وبالفعل فإنّ المعركة

«القائمة» داخلها تدور بين دعاة الهوية الواحدة وأولئك الذين يرون الكلّ كلاً متشابكاً معقداً لكنه ليس موحداً تقليصياً. وتنطوي هذه الضدية على منظورين متباينين، وعلمين للتأريخ متباينين، أحدهما خطّي وإصرائني إلتهامي، والآخر طباقّي وكثيراً ما يكون لاستقراراً قلقاً رُحلاً.

ومنظومتي «هنا» هي أن المنظور الثاني فقط ذو حساسية «أو استجابة» تامة لحقيقة التجربة التاريخية. إنّ جميع الثقافات، جزئياً بسبب «تجربة» الامبراطورية، منشبكةٌ إحداهما في الأخريات؛ ليست بينها ثقافة منفردة ونقية محض، بل كلّها مهجّنة مولّدة، متخالطة، متمايضة إلى درجة فائقة، وغير واحدة. وإنّ هذا ليصدق على الولايات المتحدة المعاصرة بقدر ما يصدق على العالم العربي الحديث، حيث قيل الكثير، على التوالي في كل حالة، عن أخطار «اللاميركانية» وعن التهديدات «الموجهة» لـ«العروبة». إنّ القومية الاستدفاعية، القائمة على ردّ الفعل، بل الارتياحية «المصابة بخبل الريبة» كثيراً ما تحاك، للأسف، في صلب نسيج التعليم والتربية، حيث يلقن الأطفال، كما يلقن من يكبرونهم سنّاً من الطلبة، أن يُجلّوا ويحتفوا بفداثة تراثهم (عادة، وبطريقة بغیضة، على حساب تراثات الآخرين). وإنّ هذا الكتاب لمُوجّه إلى مثل هذه الأشكال من التعليم والفكر المفرّغة من النقد والتفكير - كتصحيح وتقويم، وكبديل صبور، وكإمكانية استكشافية صراحة. ولقد اُمتحنتُ، وأنا أكتبه، من معين الفضاء الطوبواي الذي مازال توفره الجامعة - التي ينبغي، في يقيني، أن تظلّ مكاناً يمكن أن تُبحث فيه، وتُستقصى، وتُتأمل مثل هذه المسائل الحيوية. فإنّ تتحول الجامعة إلى موقع تُفرض فيه القضايا الاجتماعية والسياسية فعلاً، أو تُحلّ فعلاً، هو أن تُلغى وظيفة الجامعة وتحوّل إلى ملحق تابع للحزب السياسي الحاكم أيّاً كان.

أود ألا يفهمني أحد فهماً خاطئاً. إنّ الولايات المتحدة، رغم تنوعها الثقافي الفائق، هي، دون ريب، أمة متماسكة وستظل كذلك. ويصدق الأمر نفسه على البلدان الأخرى الناطقة بالانكليزية (بريطانيا، نيوزيلندا، أستراليا، كندا) بل يصدق أيضاً على فرنسا، «وكلّها بلدان» تضم مجموعات كبيرة من المهاجرين. إنّ قدراً كبيراً من الانشقاقات التماحكية والمناظرات الاستقطابية، التي يصفها آرثر شلسينغر في كتابه تفكيك وحدة أميركا بأنها مضرّة بدراسة التاريخ، موجود في الواقع طبعاً، بيد أنها، في رأيي، لا تنذر بتفكك الجمهورية. وإنّ لمن الأفضل بشكل عام أن نكتنه التاريخ ونستجليه بدلاً من أن نقمعه أو ننكره؛ إنّ حقيقة كون الولايات المتحدة تنطوي على تواريخ كثيرة، يهجهج العديد منها الآن عالياً محاولاً أن يستحوذ على الاهتمام، لا ينبغي بأية حال أن تقابل فجأةً بشعور بالخوف؛ ذلك أنّ عدداً كبيراً من هذه التواريخ كان موجوداً دائماً، ومنها جميعاً خلق مجتمع أميركي، وسياسيات أميركية (بل وخلق أيضاً أسلوب أميركي من الكتابة التاريخية). وبكلمات أخرى، فإنّ من غير المحتمل أن تقود المناظرات الراهنة حول التعددية الثقافية إلى «اللبننة»، وإذا كانت هذه المناظرات تشير إلى طريق التغييرات السياسية والتغييرات في الكيفية التي تعابّر بها النساء والأقليات والمهاجرون حديثاً أنفسهم، فإنّ ذلك لا ينبغي أن يخشى أو أن يُحتمى منه. وما ينبغي تذكّره دائماً هو أن سرديات التحرر والتنوير في أقوى أشكالها كانت في الوقت ذاته سرديات تكامل لا انفصال، «وهي» قصص بشرٍ تم إقصاؤهم وعزلهم عن

\*- والطباق أساس موقف سميد بأكمله في هذا الكتاب، وهو مفهوم موسيقي يولج في النظام الفكري الذي يطوره لدراسة الثقافات والأدب والمجتمع والقراءة النقدية. وإنّ لفهمه صعب حاولت أن أشرحه بإيجاز في مقدمتي، واقترح أن يراجع القارئ هناك الآن، لتتضح له النقطة المثارة هنا، ونقاط عديدة قادمة في صلب نص الكتاب.

المجموعة الرئيسية وهم الآن يكافحون من أجل أن يكون لهم مكان داخلها. وإذا لم تكن الأفكار القديمة المعتادة للمجموعة الرئيسية من المرونة أو الأريحية بحيث تسمح لجماعات جديدة <بالانتماء إليها>، فإن هذه الأفكار ينبغي أن تُغيَّر - وإنَّ ذلك لأفضل بكثير من رفض الجماعات البازغة.

آخر النقاط التي أودَّ أن أثيرها هي أن هذا الكتاب كتابٌ منفيٌّ. لقد نشأتُ، لأسباب موضوعية لم يكن بوسعني السيطرة عليها، عربياً ذا تعليم غربي. ومنذ أقصى لحظة أستطيع استذكارها، أحسستُ بأنني انتمي إلى كلا العالمين، دون أن أكون كلية <جزءاً عضويّاً> من أيٍّ منهما. لكنَّ، خلال سنوات حياتي، حدث أن تلك الأجزاء من العالم العربي التي كنتُ أشدَّ الفة بها قد غيرتُها تماماً الاضطراباتُ المدنية أو الحروبُ أو أنها، ببساطة، زالت من الوجود. ولفترات طويلة من الزمن، كنت وما أزال خارجياً <لامنتمياً> في الولايات المتحدة، وبشكل خاص حين حاربتُ، وعادتُ بعمقٍ ثقافاتِ العالم العربي ومجتمعاته (التي لا أزم لها الكمال). بيد أنني حين أقول "منفيٌّ" فإنا لا أعني ما هو حزين أو محروم. بل على العكس، ذلك أن انتمائك إلى كلا ضفتي الفالق الامبريالي يتيح لك أن تفهمهما بسهولة أكبر. وعلاوةً، فإنَّ نيويورك، المدينة التي أنجزتُ فيها هذا الكتاب كلُّه، هي بطرق عديدة جداً مدينة النفي النموذجية؛ وهي تضم في طوايا ذاتها البنية المانوية <الثوية> للمدينة الاستعمارية كما يصفها <فرانتز> فانون. وقد يكون ذلك كلُّه نشطاً نمطاً الاهتمامات والتأويلات المجازفُ بها هنا؛ لكنَّ ما لا ريب فيه أن هذه الظروف أتاحت لي أن أشعر وكأنني انتمي إلى أكثر من تاريخ واحد ومن جماعة واحدة. أمَّا السؤال عمَّا إذا كانت هذه الحالة قابلة للاعتبار بحق بديلاً ناجعاً للإحساس المعتاد بالانتماء إلى ثقافة واحدة وللشعور بحسِّ بالولاء لأمة واحدة، فإنه ينبغي أن يترك للقارئ ليختار إجابةً عليه.

قُدِّمت المنظومة التي يشكلها هذا الكتاب أولاً في سلاسل محاضرات متعددة أُلقيتُ في جامعات في المملكة المتحدة، والولايات المتحدة، وكندا بين ١٩٨٥ و ١٩٨٨. وإنني لمدين ديناً عظيماً بهذه الفرص المطولة التي أتاحت لي لأعضاء هيئات التدريس والطلبة في جامعات كُنت، وكورنل، وغربي أونتاريو، وتورنتو، وإسكس... وجامعة شيكاغو، في صيغةٍ للمنظومة مبكرة جداً. كما أُلقيتُ صيغٌ تالية لأقسام هزدةٍ من هذا الكتاب كمحاضرات في مدرسة بيتس الدولية في سليغو، وجامعة أوكسفورد (محاضرة جورج انطونيوس التذكارية في كلية سانت انتوني)، وجامعة مينيسوتا، وكلية كينغز في جامعة كيمبردج، ومركز ديفيس في جامعة برنستن، وكلية بيريك في جامعة لندن، وجامعة پورتوريكو. وإنَّ عرفاني بالجميل لـ دكلان كيرد، وشيمسُ دين، وديريك هويو، وبيتر نَسيلروث، وتوني تانر، وناتالي ديفيس وغيان پراكاش، وأي. والت لیتز، وبيتر هيوم، وديردر ديفيد، وكن بيثس، وتسا بلاكستون، وبرنارد شارث، ولين إنيس، وبيتر مَلْفرد، وخرفاسيو لويس غارثيا، وماريا دي لوس أنجلس كاسترو لإكرامي بالدعوة أولاً ثم لاستضافتي، لَعْرِفَانُ حارٌّ ومخلص. في عام ١٩٨٩ شَرَّفْتُ بأن دُعيتُ لإلقاء المحاضرة الأولى في <سلسلة> محاضرات ريموند وليمزُ التذكارية في لندن؛ وفي تلك المناسبة تحدثتُ عن البير كامو، ولقد كانت تلك تجربة لا تُنسَى بالنسبة لي، بفضل غراهام مارتن والمرحومة جوي وليمزُ. ولا تكاد تكون ثمة حاجة إلى القول إنَّ أجزاء عديدة من هذا الكتاب تعبقُ بفكر ريموند وليمزُ وبالمثال الإنساني والأخلاقي الذي قدَّمه؛ لقد كان صديقاً طيباً وناقداً عظيماً.

ولقد سمحتُ لنفسني دونما حياء، وأنا أعِدُّ هذا الكتاب، بالإفادة من علاقات فكرية وسياسية

وثقافية متعددة، بينها صداقات شخصية تربطني بأصدقاء هم في الوقت نفسه محررو  
 دورياتٍ ظهرت فيها للمرة الأولى بعضُ هذه الصفحات : توم ميتشل (من كريتكل إنكوري)،  
 وريتشارد پواريه (راريتم ريفيو)، وبن سوننبرغ (غراندي ستريت)، واي. سيفاناندان (رئيس  
 اند كلاس)، وجوان وبيجفسكي (ذي فيشين)، وكارل ميلر (لندن ريفيو أف بوكس). وإنني  
 لمتنّ أيضاً لمحرري الغارديان (لندن) وبول كيغن من <دار نشر> پنغون الذين تم التعبير عن  
 بعض أفكار هذا الكتاب للمرة الأولى برعاية منهم. أمّا الأصدقاء الآخرون الذين اعتمدتُ على  
 تدليلهم الغامر، وكرم ضيافتهم، وتقديمهم فهُم: دونالد ميتشل، وإبراهيم أبو لغد، وماساوا ميوشي،  
 وجين فرانكو، وماريان ماكدونالد، وأنور عبد الملك، وإقبال أحمد، وجوناثان كلر، وغياتري  
 سبيفاك، وهومي بابا، وبنيتا پاري، وباريه هارلو. وإنه لما يسعدني سعادة خاصة أن أنوه بالعية  
 عددٍ من طلبتي في جامعة كولومبيا وثاقبتيهم؛ لمثل هؤلاء الطلبة سيسهر أيُّ أستاذ بالعرفان. ولقد  
 اتاح لي هؤلاء الباحثون والنقاد الشباب أن أجتني الفائدة القصوى من أعمالهم المثيرة، وهي  
 أعمالٌ غدت الآن منشورة جيداً ومعروفة جيداً: أن ماكلنتك، روب نيكسون، سوفندي پيريرا، غوري  
 فيسواناثان، تيم برينان.

ولقد ساعدني في إعداد المخطوطة بمقدرة عالية ويطرق مختلفة، كلُّ من يُمنى صديقي،  
 وعامر مُفتي، وسوزان لحوطه، وديفيد بيمز، وپاولا دي روبيلانت، وديبرا پوول، وأنا دوپيكو، وپيبر  
 غانييه، وكيران كنيدي. أما زينب استرابادي فقد أدت مهمة صعبة هي حلُّ الغاز خَطّي المروع ثم  
 وضعه في مسودات متوالية بصبرٍ ومهارةٍ يثيران الإعجاب؛ وأنا مدين لها بعمق لدعما الذي لم  
 ين، ومزاجها الرائق، وذكاؤها. وفي مراحل مختلفة من الإعداد التحريري كانت فرانسس كودي  
 وكارمن كليل قارئتين معينتين وصديقتين طيبتين لما كنت أسعى إلى تقديمه هنا. كذلك ينبغي أن  
 أسجل امتناني العميق وإعجابي شبه المصعوق باليزابيث سيفتن: صديقة السنوات العديدة،  
 والمحررة الفائقة، والناقدة المضيئة دقةً لكن المتعاطفة دائماً. ولقد كان جورج اندريو معيناً دونما  
 لأي في إنجاز كل شيء، على أفضل وجه حين كان الكتاب يمرُّ بـ<مراحل> عملية النشر. ولريم،  
 ووديع، ونجلاء سعيد، الذين عاشوا مع مؤلف هذا الكتاب في ظروف كثيراً ما شككت امتحاناً  
 قاسياً، آياتٍ شكرية النابعة من القلب لحبهم ودعمهم المتواصلين.

نيويورك، ولاية نيويورك

تموز <يوليو> ١٩٩٢

# الفصل الأول

## أقاليم متقاطعة، تواريخ متواشجة

كان الصمت من الأمر، وعنه، هو العرف السائد يومها. بعض تلك الصموتات كانت تُكسر، وبعضها تصان من قبل مؤلِّفين عاشوا باستخطاطيات الحراسة الشرطية وفيها. أمّا ما يثير اهتمامي فهو استخطاطياتُ كَسْرِ ذلك الصمت.

توني موريسُن، اللعب في الظلام

التاريخ، بكلمات أخرى، ليس آلة حاسبة. فهو ينتشر متفتحاً في العقل والمخيلة، ويكتسب تجسده في الاستجابات المتعدّدة المتنوعة لثقافة شعبٍ ما هي بدورها توسط لانهائي الرهافة واللطافة لوقائع مادية، ولحقائق اقتصادية ركانزية، ولوضوعيات تفصيلية عادية.

بايْزِلُ ديفيدسُن، افريقيا في التاريخ الحديث

<https://telegram.me/maktabatbaghdad>



إن استثارة الماضي هي بين أكثر الاستخطاطيات شيوعاً في تأويلات الحاضر. وما ينفخ مثل هذه الاستخطاطيات بالحياة ليس الخلاف على ما حدث في الماضي وما كانه الماضي فحسب، بل هو أيضاً اللائقين مما إذا كان الماضي ماضياً فعلاً، منتهياً ومختتماً، أم كان ما يزال مستمراً لكن في أشكال قد تكون مختلفة. وتنفع هذه المشكلة بالحياة أنواعاً شتى من المناقشات - حول التأثير، وحول اللوم والمحاكمة، وحول الوقائع الراهنة والأولويات المستقبلية.

يعالج تي. إس. إليوت، في إحدى مقالاته المبكرة الأعظم شهرة، كوكبة مماثلة من القضايا. ورغم أن مناسبة المقالة، وما ترمي إليه أيضاً، جمالية محض تقريباً، فإن بوسع المرء أن يستخدم صياغات إليوت لإفهام أقاليم أخرى من التجربة. واضح أن الشاعر، يقول إليوت، موهبةً فردية، غير أنه يعمل داخل تراث لا يمكن أن يورث مجرد وراثة بل يمكن أن ينال فقط <بعظيم الجهد>. "إن التراث"، يتابع إليوت قائلاً:

يتضمّن، في المقام الأول، الحسّ التاريخي، الذي نستطيع أن نصفه بأنه لا يكاد يكون في غنى عنه أي شخص يود أن يستمر في كونه شاعراً بعد عامه الخامس والعشرين؛ والحسّ التاريخي يتضمّن إدراكاً حسياً، لا ماضوية الماضي فقط، بل لحضوره أيضاً؛ الحسّ التاريخي يفرض على المرء أن يكتب لا وجيله هو في عظامه وحسب، بل بشعور بأن أدب أوروبا بأسره منذ هوميروس، وحيثه أدب بلاده بأسره، ذو وجود متناهي ويؤلف نظاماً متيناً. هذا الحسّ التاريخي، الذي هو حسّ باللازمي كما هو حسّ بالوقتي، وباللازمي والوقتي معاً، هو ما يجعل الكاتب تراثياً. وهو في الوقت ذاته ما يجعل الكاتب واعياً أحد الواعي لموقعه في الزمن، لمعاصريته هو نفسه.

ما من شاعر، ما من فنّان في أيّ فن، يملك معناه الكامل منفرداً<sup>(١)</sup>.

توجّه قوة هذه العبارات بالتساوي، كما أظن، إلى الشعراء الذين يفكرون نقدياً وإلى النقاد الذين يهدف عملهم إلى تقديم تقويم ممحصّ للعملية الشعرية. والفكرة الرئيسية فيها هي أننا، حتى ونحن ملزمون بأن نعي ماضوية الماضي وعباً تاماً، لا نملك طريقة عادلة لحجّر الماضي عن الحاضر. إن الماضي والحاضر متفاعمان، كلٌ يشي بالآخر ويوجي به؛ وبالمعنى المثالي كلياً الذي ينتويه إليوت، فإنّ كلاً منهما يتعايش مع الآخر. وما يقترحه إليوت، ببيجاز، هو رؤياً للتراث الأدبي لا يوجهها كلياً التعاقب الزمني، رغم أنها تحترم هذا التعاقب. لا الماضي ولا الحاضر، ولا أيّ شاعر أو فنّان، يملك معنى كاملاً منفرداً.

بيد أن تركيبة إليوت للماضي والحاضر والمستقبل مثالية كما أنها، بطرق هامة، وظيفية أدائية لتاريخه الشخصي الخاص<sup>(٢)</sup>؛ وإضافة، فإنّ تصوّرها للزمن يغفل النزعة الصدمية التي بها يقرر الأفراد والمؤسسات ما هو تراث وما ليس تراثاً، ما هو ذو صلة وما ليس كذلك. إلا أنّ فكرته المركزية ذات سرّانية: <وهي أنّ> الكيفية التي بها نصوغ الماضي أو نمثله تصوغ فهمنا للحاضر ووجهات نظرنا فيه. لأقدم مثلاً: أثناء حرب الخليج في ١٩٩٠-١٩٩١، كان الصدام بين العراق والولايات المتحدة وظيفية أدائية لتاريخين متعارضين جذرياً، تستخدم كلاً منهما المؤسسة الرسمية في كل من البلدين لمصلحتها. فالتاريخ العربي الحديث، كما يتواركه حزب البعث العراقي، يجلو الوعد غير المنجز، غير المشيع، بالاستقلال العربي، وهو وعد انتهكه كلا "الغرب" وثلة كاملة من أعداء

أقرب عهداً، مثل الرجعية العربية والصهيونية. ومن هنا فقد كان احتلال العراق الدموي للكويت مسوئاً لا على أسس بسماركية وحسب، بل أيضاً لأنه كان من المعتقد أن على العرب أن يعيدوا الحق إلى نصابه ويصححوا ما أقتُرف ضدهم من أخطاء، وأن يفتزعوا من الامبريالية إحدى أعظم غنائمها. وبالمقابل، ففي الرؤية الأميركية للماضي، لم تكن الولايات المتحدة قوة امبريالية تقليدية، بل قوة مُحفَّة للحق مُبْتَلة للباطل عبر أرجاء العالم، قوة تتعقب الطغيان، وتدود عن الحرية أيّاً كان المكان أو الثمن. ولقد قامت الحرب بصورة محتمة بتنصيب هاتين النسختين للماضي الواحدة ضد الأخرى.

إن أفكار إليوت عن تعقيد العلاقة بين الماضي والحاضر لهي ذات طاقات إيحائية، خاصة في المناظرة حول معنى "الامبريالية"، وهي اليوم كلمة وفكرة خلافية، ومحفوفة بشتى أنواع الأسئلة، والريب، والمآحكات، والمقدمات المنطقية العقائدية إلى درجة أنها تكاد تكون غير قابلة للاستعمال بأي شكل. وتشبك المناظرة، إلى حد ما طبعاً، تحديدات المفهوم في ذاته ومحاولات ترسيم حدوده: هل كانت الامبريالية اقتصادية بشكل رئيسي، إلى أي أمد امتدت، ما كانت أسبابها، هل كانت انتظامية مطردة، متى (أو هل) انتهت؟ وإن قائمة الأسماء التي أسهمت في النقاش في أوروبا وأميركا لمهيبة بحق: كاوتسكي، هلفردينغ، لُكْسَمْبُورغ، هويسن، لينين، شومپيتر، أرندت، ماغدوف، پول كنيدي. وفي السنوات الأخيرة، أبتت الدراسات المنشورة في الولايات المتحدة، من مثل كتاب پول كنيدي ارتقاء الدول العظمى وسقوطها، والتواريخ التنقيحية التي أنتجها وليم إلمن وليمز، وغابرييل كولكو، ونوعام تشومسكي، وهوارد زن، ووالتر ليفيبر، والمنافحات أو التعليقات الجاهدة التي كتبها استخطاءيون ومنظرون وحكماء متنوعون - كل هذه أبتت مسألة الامبريالية، وانطباقيتها (أو عدمها) على الولايات المتحدة، القوة الرئيسية في عالم اليوم، مسألة زاخرة بالحياة.

لقد عالج هؤلاء الباحثون الثقافات مسائل سياسية واقتصادية في الأغلب. لكن لا يكاد يكون أي قدر من الاهتمام قد أولي لما أوْمُن بأنه الدور الامتيازي للثقافة في التجربة الامبريالية الحديثة، ولم تلق إلا أدنى درجات العناية حقيقة أن الامتداد الكوني الخارق للامبريالية التقليدية الأوروبية في القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ما يزال يلقي بظل مديد على أزمئتنا نحن. لا يكاد يوجد إنسان حيّ اليوم من أميركا الشمالية، أو أفريقيا، أو أوروبا، أو أميركا اللاتينية، أو الهند، أو <جزر البحر> الكاريبي، أو أستراليا - والقائمة طويلة جداً - لم تمسسه امبراطوريات الماضي. لقد سيطرت بريطانيا وفرنسا فيما بينهما على اقاليم هائلة من الأرض: كندا، أستراليا، نيوزيلندا، مستعمرات أميركا الشمالية والجنوبية، الكاريبي، بقاع ضخمة في أفريقيا، الشرق الأوسط، الشرق الأقصى (سوف تحتفظ بريطانيا بهونغ كونغ مستعمرة حتى <١ تموز ١٩٩٧>) شبه القارة الهندية بأكملها - كل هذه الاقاليم خضعت لحكم بريطانيا وفرنسا وتحررت منه مع مرور الزمن؛ وإضافة، فإن الولايات المتحدة، وروسيا، وبلداناً أوروبية عديدة أقل شأنًا، ولنضربُ صفحاً عن اليابان وتركيا، كانت أيضاً قوى امبريالية على مدى القرن التاسع عشر كله أو بعضه. وقد أرسى هذا النسق من الاقطار الخاضعة أو الممتلكات أسس ما هو اليوم في واقع الأمر عالم كوني تاماً. فقد ربطت وسائل الاتصال الالكترونية، والمدى الكوني للتجارة، ولتوفر الموارد، والأسفار، والمعلومات عن انساق الأحوال الجوية والتغير البيئي حتى بين أكثر

زوايا الأرض تثنائياً. ولقد أسستُ هذا الطمّ من الانساق وجعلته ممكناً للمرة الأولى، كما اعتقد، الامبراطوريات الحديثة.

إنّني شخصياً، مزاجياً وفلسفياً، مُعارضٌ للبناء الضخم للانظمة أو للنظريات الكلّويّة للتاريخ الإنساني. لكنّ ينبغي أن أقول إنّني، وقد درستُ بل عشتُ داخل الامبراطوريات الحديثة، يَصدمني بشدة أنها كانت على الدوام تتابع التوسع، وكانت دونما هواده احتوائية تكاملية. وسواء اكان ذلك في <اعمال> ماركس، أم في أعمالِ محافظّةٍ مثل مؤلفات دجي. آر. سيللي، أم في تحليلات حديثة مثل تلك التي قدمها دي. كي. فيلدهاوس وسي. سي. إلدرج (الذي يشكّل كتابهُ إرسالية انكلترا عملاً مركزياً)<sup>(٣)</sup>، فإنّ المرء يقاد إلى أن يرى أنّ الامبراطورية البريطانية قد كاملتْ، وصهرتْ موحّدة، ما احتوته من أشياء، وأنها إذا أخذت مع غيرها من الامبراطوريات قد جعلت العالمَ واحداً. ومع ذلك فما من فرد، وما انا بالتأكيد، بقادرٍ على أن يرى تماماً أو يستوعب هذا العالم الامبريالي الكليّ.

حين نقرأ المناظرات بين المؤرخين المعاصرين باتريك اوبراين<sup>(٤)</sup>، وديفيس وهتّنباك (الذي يحاول كتابهُ الهامّ مامون ونشدان الامبراطورية أن يكمّي الربوحية الفعلية للنشاطات الامبريالية<sup>(٥)</sup>)، أو حين ننظر إلى المناظرات السابقة كتلك التي دارت بين روبنسن وغالاغر<sup>(٦)</sup>، أو إلى أعمال اقتصاديي التبعية والتراكم العالمي: أندريه غوندر فرانك وسمير أمين<sup>(٧)</sup>، فإننا نجد أنفسنا مرغمين كمؤرخين للادب والثقافة على أن نسال عمّا يعنيه كلُّ ذلك بالنسبة لتأويلات الرواية في - لنقل - العصر الفيكتوري، أو لعلم التاريخ الفرنسي، أو للمغناة الإيطالية الجليّة، أو لماورانيات الطبيعة الألمانية في الرحلة ذاتها. لقد بلغنا الآن نقطةً من عملنا لم نعد نستطيع فيها أن نغفل في دراساتنا الإمبراطوريات والسياق الامبريالي. فإن يتحدث المرء، كما يفعل اوبراين، عن "الإعلام الدعائي لامبراطورية متزايدة الاتساع [والذي] خلق أوهاماً بالأمان وتوقعات زائفة بأنّ عائدات كبيرة ستتراكم لدى أولئك الذين استثمروا <أموالهم> خارج حدودها"<sup>(٨)</sup> هو أن يتحدث فعلياً عن مناخ خلقته الامبراطورية والرواية معاً، النظرية العرقية والتكهنات الجغرافية معاً، ومفهوم الهوية القومية و المكروية الحضرية (أو الريفية) معاً. إنّ عبارة "توقعات زائفة" لتستثير في الذهن <عنوان رواية ديكنز> <توقعات عظيمة>، وعبارة "استثمروا خارج حدودها" لتذكّر بـ جوزيف سدلي وبكي شارپ، وعبارة "أوهام مخلوقة" لتوحي بـ أوهام ضائعة — وإنّ حركات العبور <المتبادلة> بين الثقافة والامبريالية لتفرض نفسها بقوة.

إنه لأمر صعب أن نربط بين هذه المجالات المتباينة كي نكشف انخراط الثقافة وانشباكها في الامبراطوريات المتوسعة، وأن نقدم ملاحظات حول الفن تحافظ على معطياته المتفرّدة الفدّة وتقوم في الوقت نفسه برصد انتماءاته. لكنّ علينا، فيما أزع، أن نحاول القيام بهذا العمل، ونموضّع الفنّ في السياق الكوني الأرضي. إنّ موضع الرهان والمجازفة إنّما هو الأراضي، والممتلكات، والجغرافيا، والقوة. كل شيء يتعلّق بالتاريخ البشري متجذّرٌ، طبعاً في الأرض؛ وهذا يعني أن علينا أن نفكر بالسكنى والمعاش، لكنه

\* - أدوين لادونيس بلغت نظري، في سياق آخر، الى أن المعنى القاموسي لـ "جذّر" هو "اقتلع الجذر"، لكنني اتبني التطور الدلالي للفظّة "تجذّر" واستخدامها، وإعياً، بمعنى "التامل وتعميق التثبيت وضرب الجذور في التربة".

ايضاً يعني أنّ البشر قد وضعوا الخطط للتفكير بامتلاك مزيد من الأراضي وأنّ عليهم لذلك ان يفعلوا شيئاً ما بساكنيها الأصليين. وعلى مستوى أساسي جداً، فإنّ الامبريالية تعني التفكير بـ، واستيطان، والسيطرة على، أرض لا يملكها المرء، أرض نائية، يعيش عليها ويملكها آخرون. ولأسباب شتى، فإنها <الامبراطورية> تجذب بعض البشر وكثيراً ما تعني بؤساً لا يوصف لآخريين. ورغم ذلك، فإنّ من الصحيح بشكل عام ان مؤرخي الأدب الذين يدرسون شاعر القرن السادس عشر العظيم إدموند سبنسر، مثلاً، لا يربطون بين خططه المتعطشة للدماء <المتعلقة بمصير> إيرلندا، حيث تصوّر جيشاً بريطانياً يبيد عملياً السكان الأصليين، وبين إنجازاته الشعرية أو تاريخ الحكم البريطاني لإيرلندا، الذي ما يزال مستمراً اليوم.

لقد احتفظتُ، لأغراض هذا الكتاب، بتركيز محرق على نزاعات فعلية على الأرض وعلى سكان الأرض. وما حاولتُ القيام به هو نوع من الاكتناه الجغرافي للتجربة التاريخية؛ ولقد أقيمتُ في ذهني دائماً فكرة أن الكرة الأرضية هي في واقع الأمر عالم واحد، عالم لا توجد فيه إطلاقاً فضاءاتٌ خالية غير مسكونة. وبالضبط كما ان أيّاً منّا ليس خارج الجغرافيا ولا وراعها، فما من احد منا في منأى تام عن الصراع حول الجغرافيا. والصراع معقّد وشيق لأنه ليس صراعاً حول العسكر والمدافع وحسب بل هو ايضاً صراع حول الأفكار، والأشكال، والصور، والمتصورات.

ثمّة قطاع عريض من البشر في ما يُسمّى الغرب أو العالم الحواصري، ونظراء لهم في العالم الثالث أو <العالم> الذي كان مستعمراً، يشتركون في الشعور بأن عهد الامبريالية العالية أو التقليدية - الذي بلغ ذروته في ما أطلق عليه المؤرخ إريك هوبسبام تسميةً شيقةً جداً هي "عصر الامبراطورية" وانتهى تقريباً رسمياً مع تفكك البنيات الامبريالية الكبرى بعد الحرب العالمية الثانية - ما يزال بطريقة أو بأخرى يمارس تأثيراً ثقافياً بالغاً في الوقت الحاضر. ولأسباب شتى، فإنهم يشعرون بحاجة ملحّة جديدة لفهم ماضوية\* الماضي أو عدم ماضويته؛ وتنسرب هذه الملحاحية إلى تصورات الحاضر والمستقبل.

في المركز من هذه التصورات تكمن حقيقة قلّ من ينازع فيها، هي ان قوة لا سابق لها - كانت قوة روما، وإسبانيا، وبيغداد، والقسطنطينية، في أوجها بالمقارنة معها اقلّ بأساً بكثير - قد تركزت في القرن التاسع عشر في أيدي بريطانيا وفرنسا، وبعدهما في بلدان غربية أخرى (الولايات المتحدة، خصوصاً). ولقد أوج هذا القرن "ارتقاء الغرب"؛ ومكنت القوة الغربية الحواصر الامبريالية من ان تمتلك وتراكم أراضي وراعيها ذات حجم مذهل بحق. تأمل أنه في عام ١٨٠٠ ادّعت الدول الغربية لنفسها حق ملكية ٥٥ ٪ من سطح الكرة الأرضية ولكنها ملكت فعلاً ٣٥ ٪ تقريباً منها. وبحلول ١٨٧٨ ارتفع نصيبها إلى ٦٧ ٪، وهي نسبة ازدياد تربو على ٨٣.٠٠٠ ميل مربع في السنة. ومع حلول ١٩١٤ كانت النسبة المثوية للازدياد قد بلغت حدّاً مذهلاً: ٢٤٠.٠٠٠ ميل مربع، وقبضت أوروبا

\* - إزاء pastness كما ارتأى المترجم، وهي هنا تعني كون الشيء ماضياً، لا ما اصطلح عليه كتاب اليوم من اعتبار الماضوية بمعنى السلفية والتعلق بالماضي. ولعلّ استخدام كلمة "الماضية" في سياق الكتاب اقلّ إرباكاً. (الناشر)

على زمام مجموع إجمالي بلغ حوالي ٨٥ ٪ من الكرة الأرضية كمستعمرات، ومحميات، وتابعيات، وأقطارٍ خاضعة، وكومنولثات<sup>(٩)</sup>. ولم يكن هناك طقم مترابط من المستعمرات في التاريخ قد بلغ هذا الحجم من قبل، ولم يوجد طقم أحكمت السيطرةُ عليه إلى مثل هذه الدرجة المطلقة، كما لم يوجد قط طقمٌ اختلَّ ميزانُ القوَّة بينه وبين الحواضر الغربية إلى مثل هذا الحد. ونتيجةً لذلك، كما يقول وليم مكنيل في *فشدان القوة*، فقد تم توحيد العالم في كلِّ متفاعل واحد بصورة لا سابق لها<sup>(١٠)</sup>. وفي أوروبا نفسها في نهاية القرن التاسع عشر، لم تكد تبقى زاوية واحدة من زوايا الحياة لم تمسَّها حقائقُ الامبراطورية؛ فقد كانت اقتصادياتُ البلدان الأوروبية نهماً لأسواق ماوراء البحار، وللمواد الخام، والعمالة الرخيصة، والأراضي التي تدرُّ أرباحاً طائلة؛ وغدت مؤسساتُ الدفاع والسياسة الخارجية ملتزمةً إلى درجة أكبر فأكبر بالاحتفاظ بمساحات هائلة من الأراضي القصية وبإعداد ضخمة من البشر الخاضعين. وحين لم تكن القوى الغربية منخرطة في تنافس لاجم، لا رحمة فيه أحياناً، على مزيد من المستعمرات - كلُّ الامبراطوريات الحديثة، يقول في جي. كيرنان<sup>(١١)</sup>، قلَّدت بعضها بعضاً - فقد كانت تعمل بجهود لا تني على استيطان الأراضي الواقعة تحت نفوذها، وعلى القيام بمسح لها، وعلى دراستها، وعلى حكمها طبعاً.

كانت التجربة الأميركية، كما يكشف ريتشارد فان الستين في كتابه *الامبراطورية الأميركية الصاعدة*، منذ البداية مبنيةً على فكرة قضاء امبريالي - أي قطر، أو دولة أو كيان ذي سيادة سيكون له أن يتوسع سكانياً وجغرافياً، ويزداد قوَّةً وبأساً<sup>(١٢)</sup>. وكانت ثمة مطالب بأقاليم أميركية شمالية لتُعَلَّن وتُدوَّر حولها الحروب (بنجاح مدهش)؛ وكان ثمة أقوام أصلايين ليخضعوا، ويبادوا دونما تمييز، ويشردوا من أراضيهم دونما تمييز؛ ومع نمو الجمهورية سبباً وقوَّة في نصف الكرة الذي توجد فيه، كانت ثمة أراضٍ قصية لتوسم بأنها ذات أهمية حيوية للمصالح الأميركية، وليتم التدخُّل فيها وتُخاضَ من أجلها الحروب - على سبيل المثال: الفيليبين، <المنطقة> الكاريبية، أميركا الوسطى، ساحل باربي، أجزاء من أوروبا والشرق الأوسط، فييتنام، كوريا. غير أن ما يثير الفضول هو أن الإنشاء الذي يصرُّ على فريدة الولايات المتحدة، وتميُّزها الخاص، وغيرتِّها، وما تخلقه من فرص، بالغ التأثير إلى درجة أن "امبريالية" ككلمة أو عقائدية لا ترد إلا في النادر النادر، وفي كتابات حديثة العهد: في المسارد المتعلقة بثقافة الولايات المتحدة وسياساتها وتاريخها. بيد أن الترابط بين السياسات الامبريالية والثقافة مباشرٌ إلى درجة مدهشة. وقد ظلَّت المواقفُ الأميركية من "العظمة" الأميركية، ومن ترتيبات العرق، ومن أخطار الثورات الأخرى (إذ إن الثورة الأميركية تُعتبر فذة وغير قابلة للتكرار في أي مكان آخر من العالم)<sup>(١٣)</sup> ثابتة، وظلَّت تُملِّي، وتعمِّي، حقائقُ الإمبراطورية، فيما مضى المسوِّغون المدافعون عن المصالح الأميركية ما وراء البحار في إلحاحهم على براءة أميركا، وفعلها للخير، وكفاحها من أجل الحرية. ويجسِّد بايل بطل <رواية> غراهام غرين *الأميركي الهادئ* هذا التشكيلَ الثقافيَّ بدقة لا تعرف الرحمة.

إلا أن الإمبراطورية، بالنسبة لمواطني بريطانيا وفرنسا في القرن التاسع عشر، كانت

\* - وهي البلدان التي تتمتع بحكم ذاتي لكنها تخضع لعرشٍ أو ولام واحد. (الناشر)

موضوعاً رئيسياً للاهتمام الثقافي الذي لا يشوبه شعور بالحرَج. وقد لعبت الهند البريطانية وشمال إفريقيا الفرنسية وحدهما أدواراً لا تُثَمَّن في الخيال، والاقتصاد، والحياة السياسية، وفي النسيج الاجتماعي للمجتمعين البريطاني والفرنسي. ونحن إذا ذكرنا أسماء مثل دولاكروا، إدموند بيرك، رَسْكِن، كارلايل، جيمس وجون ستيوارت مل، كيلنغ، بلزك، نرفال، فلوير، أو كونراد فسنكون قد رسمنا خريطة لزاوية صغيرة من حقيقة هي أعظم حجماً بكثير حتى ممَّا تغطيه مواهبهم الهائلة مجتمعة. لقد كان ثمة دارسون، وإداريون، ورحالة، وياعة، ونوَّاب «برلمانيون»، وتجار، وروائيون، ومنظرون، ومضاربون، ومغامرون، وروفيويون، وشعراء، وشتى أنواع المنبذين والشذَّاذ في الممتلكات الثابتة لهاتين القوتين الامبرياليتين اللتين أسهمت كلُّ منهما في تشكيل واقع استعماري ماثل في القلب من الحياة الحاضرة.

تعني "الامبريالية"، كما سأستخدم الكلمة هنا: الممارسة، والنظرية، ووجهات النظر التي يملكها مركزُ حواضري مسيطر يحكم بقعةً من الأرض قصية: أما "الاستعمار" colonialism، الذي هو دائماً تقريباً من عقابيل الامبريالية، فهو زرع مستوطنات في بقاع من الأرض قصية. وكما يعبرُ مايكل دويل فإنَّ "الامبراطورية هي علاقة، رسمية أو غير رسمية، تتحكم فيها دولةٌ ما بالسيادة السياسية الفعالة لمجتمع سياسيٍ آخر. ويمكن تحقيق هذه العلاقة بالقوة، أو بالتعاون السياسي، أو بالتبعية الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية. أما الامبريالية فهي ببساطة العملية أو السياسة اللتان بهما يتمُّ تأسيسُ الامبراطورية أو إدامتها والحفاظُ عليها"<sup>(١٤)</sup>. وفي أيامنا هذه، يكاد يكون الاستعمار المباشر قد انتهى؛ لكن الامبريالية، كما سنرى، تستمر حيث كانت موجودة دائماً: في مناخ ثقافي عام، وفي ممارسات سياسية وعقائدية واقتصادية معينة أيضاً.

ليست الامبريالية وليس الاستعمار مجردَ فعلٍ بسيط من أفعال التراكم والاكْتساب. فكلُّ منهما مدعّمٌ ومعزّزٌ، بل وربما كان أيضاً مفروضاً، من قِبَل تشكيلات عقائدية مهيبة تشمل مفاهيم فحواها أنْ بعض البقاع والشعوب نطلب وتتضرع أن تخضع للسيطرة، إضافةً إلى أشكال من المعرفة متواشجة مع السيطرة: وإنْ مفردات الثقافة الامبريالية العريقة في القرن التاسع عشر لُتْحَفَلُ بالفاظ وتصورات من مثل "دوني"، "أعراق تابعة محكومة"، "شعوب خاضعة"، "تبعية"، "توسّع"، "سلطة". ونتيجة للتجارب الامبريالية، فإنْ مفاهيم تتعلق بالثقافة قد تمَّ جلاؤها أو تعزيزها أو نقدها أو رفضها. أما الفكرة الشاذة المثيرة للفضول، لكن التي ربما جاز أخذها بالاعتبار، والتي طرحها ودعا إليها قبل قرن من الزمان جي. آر. سيللي، والمتضمنةُ أنْ بعض امبراطوريات أوروبا ما وراء البحار قد تمَّ اكتسابها أصلاً في حالة من شرود الذهن، فإنها تعجز أن تفسر مهما شطح بنا الخيال تباينات <هذه> الامبراطوريات، ولجأيتها، واكتسابها وإدارتها المنتظمين، دع عنك حكمها المعزّز المتزايد وثقل حضورها. وكما قال ديفيد لاندز في كتابه بروميثيوس الطليق، فإنَّ قرار بعض القوى الأوروبية... أن تؤسس 'مزارع'؛ أي أن تعتبر مستعمراتها مشاريع ذات استثمارية وديمومة، كان ابتكاراً عظيم الشأن إياً فُكِّر المرء بأخلاقيته"<sup>(١٥)</sup>. وإنْ ذا لهُو السؤال الذي يعني هنا: في ضوء الحركة البدئية، التي ربما كانت مبهمة الاشتقاق والدوافع، نحو الإمبراطورية من أوروبا إلى بقية أرجاء العالم، كيف اكتسبت الفكرة

وممارستها الأطراد والكثافة اللذين يتسم بهما مشروع مستمر دائم، وهو ما فعلناه مع حلول الجزء الأخير من القرن التاسع عشر؟

إن سيادة الامبراطوريتين البريطانية والفرنسية لا تبهم إطلاقاً التوسع الحديث اللافت لإسبانيا والبرتغال وهولندا وبلجيكا وألمانيا وإيطاليا... ولروسيا والولايات المتحدة بشكل مختلف. غير أن روسيا اكتسبت أصقاعها الامبريالية بصورة حصرية تقريباً عن طريق المتاخمة. فقد تحركت روسيا، على خلاف بريطانيا وفرنسا اللتين قفزتا آلاف الأميال بعيداً عن حدودهما إلى قارات أخرى، لتبتلع الأراضي أو الشعوب المتاخمة لحدودها (التي استمرت نتيجة لتلك العملية في الانزياح إلى ما هو أبعد فأبعد شرقاً وجنوباً). أما في الحالة الإنكليزية والفرنسية فقد اقتضى البعد المحض للأصقاع الجذابة تصوراً مصالح بعيدة المدى والتخطيط لها. وذلك هو محرق اهتمامي هنا، جزئياً لأنني معني باكتناه طقم الأشكال الثقافية والبنى الشعورية التي تولدها، وجزئياً لأن السيطرة على ما وراء البحار هي العالم الذي فيه ترعرعت وما أزال فيه أعيش. إن مقام الدولة العظمى الذي تمتعت به روسيا والولايات المتحدة أقل من نصف قرن من الزمان تقريباً ليُشتق من تواريخ متباينة ومن مسارات إمبريالية متفاوتة. ثمة أشكال متنوعة من السيطرة ومن الاستجابات لها، بيد أن النوع "الغربي" منها، إلى جانب المقاومة التي استقرها، هو موضوع هذا الكتاب.

في انتشار الامبراطوريات الغربية الكبرى، كانت الأرباح والأمل بمزيد من الأرباح، بجلاء تام، أمرين على قدر كبير من الأهمية، كما تشهد شهادة مسهبة جاذبية التوابل، والسكر، والعبيد، والمطاط، والقطن، والأفيون، والصفائح، والذهب، والفضة على مدى قرون عديدة. وكمثل ذلك كان أيضاً الخمول، والاستثمارات في مشاريع قائمة فعلاً، والتقاليد، وقوى السوق أو القوى المؤسساتية التي ضمنت استمرار المشاريع. بيد أن الامبريالية والاستعمار ينطويان على أكثر من ذلك. فلقد كان ثمة التزام بهما يتجاوز الربح ويربو عليه، التزام في حالة من التداول وإعادة التداول المستمرين، أمكن، من جهة، رجالاً ونساءً على خلق قويم من تقبل مفهوم أن الأراضي القصية وسكانها ينبغي أن يخضعوا، وأعاد، من جهة أخرى، تغذية الطاقات الحواضرية وتجديد مخزونها إلى درجة تسمح لهؤلاء البشر المحتشمين بأن يفكروا بالفضاء الإمبراطوري بوصفه واجباً مديداً، ميتافيزيقياً تقريباً، للقيام بحكم شعوب خاضعة، أو أدنى مرتبة، أو أقل تقدماً. وينبغي الانسنى أنه لم تكن ثمة من مقاومة داخلية تُذكر لهذه الامبراطوريات، رغم أنها كثيراً جداً ما كانت تؤسس ويحافظ عليها في شروط صعبة بل وسلبية غير ملائمة أيضاً. ولم يقتصر الأمر على أن المستعمرين قد حملوا مشقات هائلة، بل كان ثمة دائماً التباين الفيزيائي المحفوف بالأخطار والمجازفات بين عدد صغير من الأوروبيين الموجودين على مسافات شاسعة جداً من أوطانهم وبين الأعداد التي تفوقهم إلى درجات كبيرة من السكان الأصليين الموجودين على أراضي أوطانهم. في الهند مثلاً، قام حتى الـ ١٩٣٠ات عدد من الموظفين الإداريين البريطانيين لا يتجاوز أربعة آلاف، يعاونهم ستون ألف جندي وتسعون ألف مدني (معظمهم من رجال الأعمال والدين) بفرض أنفسهم على بلد يبلغ عدد سكانه ثلاثمائة مليون نسمة<sup>(١٦)</sup>. وليس بوسعنا سوى أن نحز حزراً مدى <قوة> الإرادة، والثقة بالنفس، بل والعنجهية الضرورية للحفاظ على وضع كهذا؛ غير أن أهمية هذه السمات والمشاعر،

كما سنرى في نصوص <روايتي> مهر إلى الهند وكيم، تعادل على الأقل إن لم تفق أهمية عدد العاملين في الجيش والجهاز الإداري، أو ملايين الجنيهاً التي استخرجتها انكلترا من الهند.

نذك أن مشروع الإمبراطورية يعتمد على نكرة امتلاك إمبراطورية، كما أدرك كونراد فيما يبدو بقوة بالغة، وثمة أنواع شتى من الإعدادات التي تُعدّ له ضمن ثقافة ما؛ بعدئذ تكتسب الامبريالية بدورها نمطاً من التناسق والانسجام، وطقماً من التجارب، وحضوراً متمائلاً لحاكم ومحكوم ضمن الثقافة. وكما عبّر دارسٌ حادّ التقصي من دارسي الامبريالية المحدثين:

إن الامبريالية الحديثة هي جماعٌ تنام لعناصر، ليست كلها ذات ثقل واحد، يمكن تتبعها زمنياً عبر كل حقبة من حقبة التاريخ. وربما كانت أسبابها في نهاية المطاف، إلى جانب الحروب، كامنةً في التوترات المقلقة لمجتمعات شوّمتها الانقسامات الطبقية، بانعكاساتها في أفكار مشوّمة في عقول الرجال <البشر>، أكثر ممّا هي كامنة في حاجات مادية ملموسة<sup>(١٧)</sup>.

يقدم مؤرخُ الإمبراطورية المحافظ المتميز، دي. كي. فيلدهاوس، إحدى الإشارات الحادة للكيفية الحاسمة التي بها انكسرت <كما في انكسار الضوء> وأحكمت التوترات، واللامساواة، والظلم في المجتمع المحلي أو الحواصري، داخل الثقافة الامبريالية إذ يقول: لقد كان أساسُ السلطة الامبريالية الموقفُ الذهني للمستعمر. فلقد أعطى قبولُهُ للإخضاع - سواء أكان ذلك بسبب شعور إيجابي بالمصلحة المشتركة بينه وبين الدولة الأم، أم بسبب عجزه عن تصور أي بديل - الإمبراطورية الصلابة وقابلية الاستمرار<sup>(١٨)</sup>. لقد قال فيلدهاوس ما قاله في معرض الحديث عن المستعمرين البيض في الأمريكتين، غير أن المضمون العام لكلامه ذو شأنٍ أبعد من ذلك: إن استمرارية الإمبراطورية استمدت الدعم من كلا الجانبين، جانبَ الحاكمين وجانبَ المحكومين النائين، ولقد كان لدى كل منهما بدوره طقم من التاويلات لتاريخهما المشترك له منظوره الخاص وحسه التاريخي الخاص ومشاعره وتقاليده الخاصة. إن ما يتذكره اليوم مثقف جزائري من ماضي بلاده الاستعماري ليتمحرق بشدة على أحداث من مثل الاعتداءات الفرنسية المسلحة على القرى <الجزائرية>، و تعذيب المساجين خلال حرب التحرير، و تمجيد الاستقلال والاحتفاء به عام ١٩٦٢؛ أما نظيره الفرنسي، الذي ربما كان قد انغمس في شؤون الجزائر أو كانت عائلته عاشت في الجزائر، فإن لديه شعوراً بالكدر والضيق لـ <خسارة> الجزائر، وموقفاً أكثر إيجابية من مهمة فرنسا الاستعمارية - بمدارسها، وبمدنها المخططة بأناقة، وبالحياة السعيدة فيها - بل ربما يكون لديه أيضاً شعور بأن <المشاغبين> والشيوخيين خلخلوا العلاقة الرعوية الطوباوية بيننا وبينهم.

إن عهد امبريالية القرن التاسع عشر العالية قد انقضى انقضاءً شبه تام: فلقد تخلّت فرنسا وبريطانيا عن أبهى ممتلكاتهما وأفخمها بعد الحرب العالمية الثانية، كما تخلّت قوى أقل مكانة عن الأقطار التي كانت قد خضعت لها في الأقاليم. بيد أن معنى الماضي الامبريالي - بتذكّر كلمات تي. إس. اليوت ثانية، ورغم أن ذلك العهد كانت له بوضوح هويته المانزة الخاصة - ليس منضوياً انضواءً كلياً داخل ذلك الماضي، بل لقد انسرب إلى واقع مئات الملايين من البشر حيث ما يزال وجوده كذاكرة مشتركة، وكنسيج من الثقافة،



والعقائدية، والسياسة، حافلاً بالمنازعات، يمارس تأثيراً وقوة هائلين. يقول فرانتز فانون: ينبغي أن نرفض رفضاً قاطعاً الوضع الذي ترغب الدول الغربية أن تحشرنا وتحاصرنا فيه. إن الاستعمار والامبريالية لا يكونان قد سددا ما عليهما من ديات عندما يقومان بسحب راياتهما وقوات شرطتهما من بلداننا. فلقد سلك الراسماليون (الأجانب) لقرون عديدة في العالم المتنامي سلوكاً لا يختلف في شيء عن سلوك القنلة المجرمين<sup>(١٩)</sup>. ينبغي أن نحسب حساب الحنين إلى الإمبراطورية، كما نحسب حساب الغضب والمقت اللذين تولدهما في نفوس أولئك الذين أخضعوا وحكموا، وينبغي كذلك أن نحاول أن ننظر بامعان وبشكل تكاملي إلى الثقافة التي غدت تلك المشاعر والمعقلات وغذت، فوق كل شيء، تلك المخيلة الإمبراطورية. وكذلك ينبغي أن نسعى إلى وعي هيمنة العقائدية الامبريالية، تلك العقائدية التي كانت قد أصبحت، مع حلول القرن التاسع عشر، متجذرة تماماً في شؤون الثقافات التي مانزال نحتفي بملامحها الأقل إثارة للأسف والأسى.

اعتقد أن في وعينا النقدي اليوم شرحاً خطيراً، شرحاً يسمح لنا بقضاء قدر كبير جداً من الوقت في إرهاف نظريات كارلايل ورسكين الجمالالية وإحكام حبكةها، مثلاً، دون أن نولي أي اهتمام للسلطة التي أضفتها هذه النظريات بصورة متآبنة على إخضاع شعوب أدنى وأراض مستعمرة. ولناخذ مثلاً آخر، فإذا لم يكن بوسعنا أن ندرك إدراكاً تاماً كيف حققت الرواية الواقعية الأوروبية العظيمة واحداً من أهدافها الرئيسية - إذ دعمت بشكل لا يكاد يكون ملحوظاً إقرار المجتمع للتوسع فيما وراء البحار، وهو إقرار، بعبارة جي. إي. هويسن بأن القوى الانانية التي توجه الامبريالية ينبغي أن تستغل ألوان الحماية... <التي توفرها> الحركات التي لا تعمل بدافع من الأهواء<sup>(٢٠)</sup> - مثل الإحسان والتصديق، والدين، والعلوم، والفنون والآداب - فإننا سنقرأ قرامة خاطئة كلاً أهمية الثقافة ودينها الإيقاعي في الامبراطورية، في ذلك الزمن وفي هذا.

والقيام بهذا العمل لا يعني إطلاقاً قذف الفنون والثقافة الأوروبية، والغربية عامة، بنواع نقدية قصد إدانتهما بالجملة. إنه لا يعني ذلك على الإطلاق. إن ما أريد أن أتفحصه هو الكيفية التي حدثت بها العملية الامبريالية في ما يتجاوز مستوى القوانين الاقتصادية والقرارات السياسية، وكيف أنها تجلّت - بفضل النزوع الطبيعي، وبفضل سلطة التشكلات الثقافية القابلة للتمييز، وبفضل التعزيز المستمر ضمن التعليم، والآداب، والفنون البصرية والموسيقية - على مستوى آخر شديد الدلالة والأهمية، هو مستوى الثقافة القومية التي مانزال نميل إلى تزيهها كمجال من النصب الفكرية اللامتغيرة، نقي من التواشجات الدنيوية. إن وليم بليك <ليؤمن إيماناً> لا يقيد قيد فيما يخص هذه النقطة إذ يقول في تحريره لـ إنشءات رينولز: إن أساس الامبراطورية هو الفنون والعلوم. أزلهما أو حط من قدرهما تخفت الامبراطورية. إن الامبراطورية لتتبع الفن، لا العكس كما يفترض الانكليز<sup>(٢١)</sup>.

ما هي، إذن، العلاقة بين السعي إلى أهداف قومية إمبريالية والثقافة القومية العامة ؟ لقد نزع الإنشاء الفكري والجامعي القريب العهد إلى الفصل بين هذين الأمرين؛ فمعظم الباحثين متخصصون؛ ومعظم الاهتمام الذي يُضفى عليه مقام الخبرة التخصصية يولى لموضوعات مستقلة، ع. م. الرواية الصناعية الفيكتورية، والسياسة الاستعمارية الفرنسية

في شمال أفريقيا، وما إلى ذلك. وأنا منذ زمن بعيد أطرح منظومة أن نزوع الميادين <المعرفية> والتخصصات إلى التفرع والتكاثر مناقض لفهم الكل، حين تكون شخصية التجربة الثقافية، وتأويلها، وأتجاهها أو نزوعها موضع الدراسة. إذا غاب عن نظرنا أو تجاهلنا السياق القومي والعالمي لتمثيلات ديكنز، مثلاً، لرجال الأعمال الفيكتوريين، وركزنا فقط على التناسق الداخلي لأدوارهم في رواياتهم، فستفتونا رابطةً جوهرية بين فنه الروائي والعالم التاريخي لهذا الفن. وفهم هذه الرابطة لا يخفف أو يقلص من قيمة الروايات كأعمال فنية: بل على العكس، فإن هذه الروايات، بفضل «نبرتها»، ويفضل الوشائج المعقدة المتشابكة بينها وبين إطارها المشهدي الواقعي، هي أكثر إشاقاة وأعظم قيمة كأعمال فنية.

في مستهل <رواية> **دومبي وولده**، يودّ ديكنز أن يؤكد أهمية ميلاد الابن في نظر أبيه:

لقد صنّعت الأرض لدومبي وولده كي يتاجرا فيها، وصنّعت الشمس والقمر من أجل أن يمنحاهما النور. وشكلت الانهار والبحار كي تطفو عليها سفنهما؛ ولقد وعدتهما اقواس قزح بطقس لطيف؛ وهبّت الرياح مشاريمهما أو ضنّهما؛ ودارت النجوم والكواكب في مداراتهما، كي تضمن سلامة نظام كانا هما المركز منه. واكتسبت المختصرات الشائعة معاني جديدة في نظره، وكانت ذات دلالة وحيدة عليهما؛ لم يكن <مختصر> ب. م. ذا علاقة بما بعد ميلاد المسيح، بل كان يرمز فقط إلى ما بعد ميلاد دومبي - وولده.

إن ما يؤدّيه هذا المقطع من خدمة - وصفاً لشعور دومبي المفرط بأهمية ذاته، ولغفلته النرجسية، ولوقفه الإكراهي من طفله المولود للتو - لجليّ تماماً. غير أن المرء ينبغي أن يسأل أيضاً، كيف أمكن لدومبي أن يشعر بأن الكون، والزمان بأكمله، كانا له من أجل أن يتاجر فيهما؟ وإن بوسعنا أن نرى أيضاً في هذا المقطع - وهو ليس مركزي الأهمية في الرواية بأي معنى - افتراضاً خاصاً مانزلاً لروائي بريطاني في الـ ١٨٤٠ات: هو أن تلك الفترة كانت، بعبارة ريموند وليمز، "الفترة الحاسمة التي كان يتشكل فيها وعي مرحلة حضارية جديدة وفيها يتم التعبير عن هذا الوعي". لماذا، إذن، يصف وليمز ذلك الزمن المحوّل، المحرّر، والمهدّد<sup>(٣٣)</sup> درنا إشارة إلى الهند، وأفريقيا، والشرق الأوسط، وآسيا، مادامت تلك هي الأمكنة التي توسّعت إليها الحياة المحوّلة البريطانية وملاتها، كما يشير ديكنز بخبث ومكر؟

إن وليمز ناقد عظيم يحظى عمله بإعجابي، ولقد تعلّمتُ منه الكثير؛ بيد أنني أحسّ بوجود قصور في شعوره بأن الأدب الإنكليزي يدور بشكل رئيسي حول انكلترة، وهي فكرة مركزية <الأهمية> في عمله كما في أعمال معظم الباحثين والنقاد. وعلاوة، فإن الباحثين الذين يكتبون عن روايات يعالجون بشكل حصري تقريباً هذه الروايات وحدها (إلا أن وليمز ليس من هذا النمط). ويبدو أن هذه العادات يوجّهها مفهوم قوي لكنه يفتقر إلى الدقة <فحواه> أن الأعمال الأدبية تملك استقلالاً ذاتياً، بينما يقوم الأدب نفسه، كما سأحاول أن أظهر خلال هذا الكتاب بأكمله، باستمرار بالإشارة إلى نفسه بوصفه بشكل ما منخرطاً في التوسّع الأوروبي ما وراء البحار، خالقاً بذلك ما يسمّيه وليمز «بني من المشاعر» تدعم، وتعزّز، وتُحكّم وتُزهِف ممارسة الإمبراطورية. صحيح أن دومبي ليس ديكنز نفسه ولا الأدب الإنكليزي برمّته، غير أن الطريقة التي يعبر بها ديكنز عن أنانية

دومبي سْتَحْضِر، وتَقَدُّ باستهزاء، لكنها في النهاية تستند إلى، الانشاءات المجرية والحقيقية للتجارة الامبريالية الحرة، وللأخلاقيات التجارية البريطانية، ولشعورها بأن ثمة فرصاً لا نهاية لها للتقدم التجاري خارج بريطانيا.

ولا ينبغي ان تُفصل هذه المسائل عن فهمنا لرواية القرن التاسع عشر، تماماً كما ان الأدب لا يمكن ان يُبتر عن التاريخ والمجتمع. إن الاستقلال الذاتي المزعوم للأعمال الأدبية والفنية يقتضي نوعاً من الفصل يفرض، فيما أرى، محدوديةً مضجرةً تأبى الأعمال الأدبية نفسها ان تقوم برفضها. ومع ذلك، فلقد امتنعتُ قصداً عن تقديم نظرية محبوكة متكاملة في العلاقة بين الأدب والثقافة من جهة، والامبريالية من جهة أخرى. وبدلاً من ذلك، فإنني لأمل ان تبنثق هذه العلاقات من أماكنها الصريحة في النصوص المختلفة، في وضع يكون فيه المشهدُ الاشتمالي المحيط - وهو الإمبراطورية - مائلاً <أمامنا> لإقامة الروابط معه، ولتطويره، وإحكامه، وتوسيعه، أو نقده. فليست الثقافة ولا الامبريالية خاملتين راكدتين، ومن هنا فإن الروابط بينهما كتجارب تاريخية حيوية ومتشابهة معقدة. وإن هدفي الرئيسي ليس ان أفصل بل ان أربط، وأنا معنيٌّ بهذا لسبب فلسفي ومنهجي رئيسي هو ان الأشكال الثقافية هجينة مولدة، مزيجة، مشوبة غير نقية؛ ولقد ان الأوان في التحليل الثقافي لإعادة ربط تحليل هذه الأشكال بواقعها الفعلي.

## II - صور الماضي. نقيةً ومشوبةً

مع اقتراب القرن العشرين من نهايته، يتنامى وعيٌ في كل مكان تقريباً بالخطوط القائمة بين الثقافات، بالانقسامات والفروق التي لا تسمح لنا بتمييز ثقافة عن أخرى فحسب، بل تمكّننا أيضاً من ان نرى المدى الذي تشكل فيه الثقافات بنياتٍ صنعها البشر من السلطة والانخراط، أريحيةً فيما تشتمل عليه، وتضمه اليها، وتمنحه المصادقية، لكنها أقل أريحية فيما تُقصيه وتحط من قدره.

ثمة في جميع الثقافات المحددة تحديداً قومياً، كما اعتقد، تطلعٌ إلى السيادة، وإلى السطوة والسيطرة. وتلتقي على هذا الثقافاتُ الفرنسيةُ والبريطانية، والهندية واليابانية. وفي الوقت نفسه، ويا للمفارقة، فإننا الآن أشدُ وعياً من أي وقت مضى لمدى كون التجارب التاريخية والثقافية هجينةً مولدةً، وللكيفية التي بها تستمد كل منها من تجارب ومجالات متعددة وكثيراً ما تكون متناقضةً، ولكيفية عبورها للحدود القومية، وتحديدها ورفضها الخضوع للعمل الشرطي <البوليسي> الذي تمارسه المذاهب الجامدة والوطنية الصارخة. هيهات ان تكون الثقافات وحدانيةً موحدةً او مستقلةً ذاتياً، بل إنها بحق لتكتسب عناصر <أجنبية>، وأخرى، وفروق تفوق ما تقوم واعيً بإقصائه. مَنْ يستطيع في الهند أو الجزائر اليوم ان يعزل بثقة المكوّن البريطاني أو الفرنسي للماضي عن الوقائع الراهنة؟ وَمَنْ في بريطانيا أو فرنسا يستطيع ان يرسم دائرة واضحة حول لندن البريطانية أو باريس الفرنسية بوسعها ان تقصي وتُغ الحُند أو الجزائر وتأثيرهما على هاتين المدينتين الامبراطوريتين؟

ليست هذه الأسئلة أسئلةً مجمعية <أكاديمية> او نظرية يصوغها الحنين إلى

الماضي. ذلك أنها، كما يمكن لرحلة وجيزة أو رحلتين أن تبرهننا، ذات عواقب اجتماعية وسياسية هامة. إن كِلَا لندن وباريس لتضمّان أعداداً كبيرة من السكان المهاجرين من المستعمرات السابقة، الذين تشتمل حياتهم اليومية هم بدورهم على مترسّب ثقافي بريطاني وفرنسي كبير. لكنّ هذا واضح جلي. تأمّل، من أجل مَثَلٍ أشدّ تعقيداً، القضايا المعروفة جيداً المتعلّقة بصورة القدامة الإغريقية العريقة أو بالتراث كعامل محدّد ومائز للهوية القومية. لقد أدت دراساتٌ من مَثَلِ دراسة مارتن برنال اثينا السوداء و«دراسة» إريك هويسباوم وترنس رينجر اختراع التراث إلى إبراز التأثير الفائق لمشاعر القلق وبرامج الأهداف الراهنة على الصور النقية (بل المطهرة) التي تشكلها لماضٍ رفيع المقام، نافع أنسابياً، ماضٍ نُقصي منه العناصر، والموروثات، والسرديات التي لا نريدها. وهكذا، كما يرى برنال، فبينما كانت الحضارة اليونانية معروفةً في الأصل بأنها ضاربة الجذور في الثقافات المصرية والسامية وغيرها من الثقافات الجنوبية والشرقية، أعيد تصميمُ هذه الحضارة كحضارة أرية خلال القرن التاسع عشر، وتم تطهيرها من جذورها السامية والأفريقية أو حجبُ هذه الجذور عن الأنظار. ولأنّ الكتاب اليونانيين أنفسهم اعترفوا صراحةً بماضي ثقافتهم المهجّن، فقد اكتسب فقهاء اللغة الأوروبيون العادة العقائدية المتمثلة في المرور على تلك المقاطع المحرّجة دون تعليق، من أجل «تأسيس» نقائنها الأري<sup>(١٤)</sup>. (وإنّ المرء ليتذكر أيضاً أنّ المؤرخين الأوروبيين للحملات الصليبية لم يبدأوا إلا في القرن التاسع عشر تجنّب الإشارة إلى ممارسة أكل لحوم البشر من قبل فرسان الفرنجة، رغم أنّ أكل اللحم البشريّ المذكور دونما حياءٍ في الحوليات المعاصرة للحملات الصليبية).

والى حد لا يقل عمّا حدث لصورة اليونان، تمّ أيضاً تدعيمُ صور السلطة الأوروبية وتشكيلها في القرن التاسع عشر. وأين يمكن لهذا أن يُنَجَزَ إلا في صناعة الطقوس، والمراسيم الاحتفالية، والتقاليد؛ تلك هي المنظومة التي يقدمها هويسباوم ورينجر والمسهمون الآخرون في كتاب اختراع التراث. لقد شعرت النخبُ الحاكمة في أوروبا - في زمن أخذت تتهرأ فيه الوشائج والتنظيمات القديمة التي ربطت المجتمعات ما قبل الحديثة بروابط داخلية، وتساعدت فيه الضغوطُ الاجتماعية الناشئة من إدارة عدد كبير من الأراضي الواقعة ما وراء البحار ومن دوائر سكانية محلية كبيرة وجديدة - بالحاجة الجلية لأن تُسقط قوتها على أزمنة غابرة، وتمنحها تاريخاً ومشروعية ليس بوسع شيء سوى التراث وتقادم الزمن أن يمنحاهما. وهكذا نُصِّبُ «الملكة» فيكتوريا عام ١٨٧٦ امبراطورةً على الهند، وأُرسل نائبها، اللورد ليتون، في زيارة إلى الهند، حيث تم استقبالُهُ والاحتفاء به في حفلات بيعة ومهرجانات «تقليدية» في كافة أنحاء البلاد، إضافة إلى الاحتفاء به في تجمع امبريالي عظيم في دلهي، كما لو أن حكمها لم يكن أساساً مسألة قوة ومرسوم «ملكي» من جانب واحد، بل كان تقليداً عريقاً عراقة الدهر.

ولقد رُكِّبت تشكيلات مماثلة على الطرف الآخر، أي من قبيل السكان «الأصلايين» المتمردين، حول ماضيهم السابق على الاستعمار، كما حدث في الجزائر أثناء حرب الاستقلال (١٩٥٤-١٩٦٢)، حيث شجعت عملية فكفكة الاستعمار الجزائريين والمسلمين على أن يخلقوا صوراً لما افترضوا أنهم كانوا قبل الاستعمار الفرنسي. وهذه الاستخطاطية ناشطة في ما يقوله ويكتبه العديدون من الشعراء والأدباء القوميين أثناء

الصراع من أجل الاستقلال أو التحرير في أماكن أخرى من العالم الاستعماري. وإنني لأريد أن أبرز مقدرة الصور والتراثات المدفوعة إلى الواجهة على التعبئة، «وأن أبرز» خصائصها الاختلاقية أو، على الأقل، المشوية بالوان رومانسية. لتتأمل ما يفعله بيتس من أجل الماضي الإيرلندي، بما فيه من أبطال كوتشلينيين\* ومن بيوتات عظيمة، تقدم للكفاح القومي مادة لإحيائها والإعجاب بها. وفي الدول القومية التي تشكلت في المرحلة التالية للاستعمار، تنجلي جلاءً تاماً أخطارُ جواهر من مثل الروح السلطية، والرئوسية، والإسلام: وهي ذات علاقة وثيقة لا للمتلاعبين المتحكمين الأصليين، الذين يستغلونها أيضاً لتغطية الأخطاء والفساد والطغيان في الزمن الراهن فحسب، بل كذلك بالسياقات الامبريالية الصراعية التي منها نبعث هذه الجواهر وفيها تُشكل الإحساس بضرورتها.

ورغم أن المستعمرات قد نالت استقلالها إلى حد غالب، فإن العديد من وجهات النظر التي تتبطن الفتوحات الاستعمارية ماتزال مستمرة. لقد كتب الداعية الفرنسي المدافع عن الاستعمار، جول هارمان، عام ١٩١٠ ما يلي:

إنه لضروري، إذن، أن نقبل كمبدأ ونقطة انطلاق حقيقة أن ثمة تراتبية بين الأعراف والحضارات، وأننا ننتمي إلى العرق والحضارة المتفوقين، مقررّين مع ذلك بأن التفوقية، فيما تمتد «ننا» حقوقاً، تفرض بالمقابل واجبات صارمة. إن المشروعية الأساسية للفتح والغلبة على شعوب أصلانية تكمن في الإيمان بتفوقيتنا، لا الآلية، والاقتصادية، والمسكوية فحسب، بل الأخلاقية أيضاً. وإن كرامتنا وعزتنا لترتكزان إلى هذه الخصيصة، وهي ما يتبطن حقناً في أن نوجه بقية البشر ونقودهم. وما القوة المادية سوى وسيلة إلى تلك الغاية<sup>(٣)</sup>.

ويمتلك إعلان هارمان قدرةً تكهنية مذهلة كسابق مهتم لمحاكات الزمن الراهن حول تفوقية الحضارة الغربية على غيرها، وحول القيمة الفائقة للإنسانيات الغربية الخالصة كما يمجدها الفلاسفة المحافظون من مثل الآن بلوم، والدونية الجهرية (والتهديد) في غير الغربي، كما يزعم الذين تروق لهم مهاجمة اليابان، والمستشرقون العقائديون، ونقاد النكوص «الأصلائي» في أفريقيا وآسيا.

ولذلك فإن ما يفوق الماضي نفسه أهمية هو تأثيره وعواقبه على المواقف ووجهات النظر الثقافية في الحاضر. لقد عادت الانقسامات القديمة إلى البروز بين المستعمر والمستعمر، لأسباب دافية جزئياً في الوجود الامبريالي، في ما يشيع أن يشار إليه بالعلاقة بين الشمال والجنوب، التي نجمت عنها مواقف دفاعية، وصدامات بلاغية وعقائدية متنوعة الأنماط، وعدائية مفورة يُحتمل تماماً أن تفجر حروباً مدمرة - ولقد فعلت ذلك حتى الآن في بعض الحالات. فهل ثمة من طرق نستطيع بها أن نعيد تصوّر التجربة الامبريالية في إطار معطيات أخرى غير موزعة على خانات منفصلة، كي يتحول فهمنا للماضي والحاضر ووجهات نظرنا إلى المستقبل؟

يجب أن نبدأ بتحديد أكثر الطرق شيوعاً لتعامل الناس مع تراث الامبريالية المتعطل والمتعدد الجوانب، لا أولئك الذين غادروا المستعمرات وحسب بل كذلك أولئك الذين كانوا يقطنونها أصلاً ومكثوا فيها، أي الأصليين. ربما كان الكثيرون من الناس في انكلترا يشعرون بشيء من الندم أو الأسف بسبب تجربة امتهم في الهند، بيد أن الكثيرين أيضاً

\* - نسبة إلى كوتشلين، وهو بطل إيرلندا الأسطوري، الذي عاش - فيما يبدو - في العهد المسيحي المبكر. ويبدو أن اسمه يلفظ «كوهولين» خلافاً لكتابتها.

يتوقون للأيام الجميلة الغابرة، رغم أن قيمة تلك الأيام، وأسباب انقضائها، ووجهات نظرهم إلى القومية الأصلانية ماتزال مسائل رجراجة، عالقة، غير محلولة. وتلك هي الحال خصوصاً حين يشبك الأمر العلاقات العرقية، كما حدث مثلاً أثناء الأزمة الناجمة عن نشر رواية سلمان رشدي الآيات الشيطانية والفتوى التي أصدرها على إثر ذلك أية الله الخميني بإهدار دم رشدي وقتله.

لكن يستوي مع هذا أن المناظرات في بلدان العالم الثالث حول الممارسة الاستعمارية وحول العقائدية الامبريالية التي عززتها، نابضة بالحيوية باللغة التنوع. ثمة فئات كبيرة من البشر تؤمن بأن ألوان المرارة والهوان في التجربة التي قادت عملياً إلى استعبادهم كانت رغم ذلك ذات فوائد - (مثل) الأفكار التحررية، ووعي الذات القومي، والمنتجات التقنية - (وهي فوائد) يبدو أنها مع مرور الزمن جعلت الامبريالية أقل مفضلاً بكثير. كذلك يتأمل بشر آخرون في عصر ما بعد الاستعمار، من منظور استرجاعي، الاستعمار كوسيلة أفضل لِقَهُم مصاعب الحاضر في الدول الحديثة الاستقلال. ويشهد على وجود مشكلات حقيقية في الديمقراطية والتنمية والمصير، التعذيب الذي تمارسه الدولة ضد المثقفين الذين يعتقدون أفكارهم ويقومون بممارساتهم علناً وبشجاعة - (أمثال) إقبال أحمد وفايز أحمد فايز في الباكستان، ونفوغوي واثنونغو في كينيا، وعبد الرحمن منيف في العالم العربي - وهم مفكرون وفنانون بارزون لم تَكُنْ عذاباتهم صلاباً فكرهم، أو تكبح ضراوة عقوباتهم.

لم يكن منيف أو نفوغوي أو فايز، كما لم يكن أي من نظرائهم، يعرف الهوادة في مقته للاستعمار المزروع أو للامبريالية التي منحتة القدرة على الاستمرار. ومن المفارقات اللاذعة أنهم لم يلقوا أذناً صاغية إلا بصورة جزئية سواء في الغرب أو لدى السلطات الحاكمة في مجتمعاتهم نفسها. لقد كان يُحتمل، من جهة، أن يعتبرهم الكثيرون من المثقفين الغربيين إرميات\* استرجاعيين يشجبون شروخ استعمار غابر وأن تعاملهم حكوماتهم في المملكة العربية السعودية وكينيا والباكستان، من جهة ثانية، كعملاء لقوى خارجية يستحقون السجن أو النفي. وتُستق مأساة هذه التجربة، وكثير غيرها من تجارب ما بعد الاستعمار، من المحدودية والقصور اللذين تتسم بهما محاولات التعامل مع علاقات استقطابية، جذرية التفاوت، يتم استذكارها بطرق متباينة. ذلك أن المناخات، ومواقع التوتر والحدة، وبرامج الأهداف، والدوائر السكانية\*\* في العالمين الحواضري والمستعمر سابقاً لا تبدو متقاطعة إلا تقاطعاً جزئياً. ولا توفر المساحة الصغيرة التي تُتصور مشتركة بينهما، في هذه اللحظة، (الفرصة لتشكيل شيء)، سوى ما يمكن أن نسميه بلاغيات الملامة.

أرد أولاً أن أناقش الوقائع الفعلية الماثلة في المجال الفكري للإنشاء العمومي لما بعد الاستعمار، المشتركة منها والمتباينة، مركزاً بصورة خاصة على ما يؤدي في هذا الإنشاء إلى انبثاق بلاغيات الملامة وسياسياتها وإلى تشجيعها. ثم أناقش - مستخدماً منظوراً ما يُمكن أن يُسمّى الأدب المقارن للامبريالية وطرائقه المنهجية - السبل التي تتيح لمفهوم منفتح أو مقيم تقييماً جديداً لموقف فكري ما بعد امبريالي أن يوسّع الفضاء المشترك والمقاطع

\* - جمعاً للنبي إرميا: شاعر المرثي التوراتي.

\*\* - يجب أن أعتز بانني لا أعرف ما تعنيه كلمة constituencies الواردة في النص في هذا السياق.

بين المجتمعات الحواضرية وتلك التي كانت خاضعة للاستعمار\*. وسأحاول أن أصوغ بديلاً لبلاغات الملامة بلّ لِمَا هو أكثر تدميراً منها، أي بلاغات المواجهة والعدائية، عن طريق معاينة طباقية <كما في الطباقي الموسيقي> للتجارب المتباينة بوصفها تشكل طقماً مِمَّا أُسمِّيه تواريخ متواشجة ومتقاطعة. لربما انبثق عن ذلك تأويلٌ دنيوي أكثر إشاقة وإثراءً وجدوى من شجب الماضي، ومن التعبير عن الأسف لانقضائه، ومما هو أشد إتلافاً وإهداراً لأنه عنيف ومفرط السهولة والجازبية، أعني العداء بين الثقافات الغربية وغير الغربية الذي يقود إلى الأزمات. إن العالم من الصغر والاعتماد المتبادل بعضه على بعض بحيث ينبغي الا نسمع لهذه الأزمات أن تُحدث ونحن عنها سادرون سلبيون.

### III – رؤييان في قلب الظلام

إن السيطرة والتفاوت الجائر في <امتلاك> القوة والثروة لحقيقتان دامتان في المجتمع البشري. بيد أنهما في الأوضاع العالمية الراهنة قابلتان للتأويل بوصفهما مرتبطتين ارتباطاً مَّا بالامبريالية، بتاريخها، وأشكالها الجديدة. إن الأمم المعاصرة في آسيا، وأميركا اللاتينية، وأفريقيا، مستقلة سياسياً لكنها من وجوه عديدة ما تزال خاضعة لقدر من السيطرة والتبعية يعادل ما خضعت له حين كانت القوى الأوروبية تحكمها حكماً مباشراً. وذلك، من جهة، نتيجةً لجراح أحدثتها هذه الأمم ذاتياً، كما يميل نقاد مثل في. إس. نيبال إلى القول: إنهم مر (والجميع يعرفون أنهم) هنا تعني الملونين، والأجانب الدون<sup>22</sup>، (والزنوج) مسؤولون، ويستحقون اللوم، عن الأوضاع التي هم عليها، ومن غير المجدي أن يمضي المرء في التهويم حول تراث الامبريالية. ومن جهة أخرى، فإن الإنحاء باللائمة على الأوروبيين بسبب نواب الحاضر ليس بديلاً شافياً. إن ما نحتاج إلى أن نفعله هو النظر إلى هذه الأمور كشبكة من التواريخ المتداخلة، من التعسف واللاجدوى كبتها، ومن المجدي والشائق فهمها.

وليست النقطة <التي أثيرها> هنا بمعقدة. فإذا قلت للعرب أو الأفارقة، وأنت جالس في أوكسفورد، أو باريس، أو نيويورك، إنهم ينتمون إلى ثقافات مريضة أو منحطة بالية في الأساس، فليس من المحتمل أن تقنعهم. بل إذا كانت لك الغلبة عليهم، فإنهم لن يُقرّوا لك بتفوقيتك الجوهرية أو بحقك في حكمهم، رغم ثرائك وقوتك الواضحين. وإن تاريخ موقف المجابهة المتربّصة هذا لظاهرٌ جليٌّ عبر المستعمرات التي كان الأسياد البيض ذات يوم <يحكمون> فيها دون أن يواجهوا بتحدٍ لكنهم في نهاية المطاف طردوا منها. وبالمقابل، فإنّ الأصلائين المنتصرين سرعان ما أدركوا أنهم بحاجة إلى الغرب وأن فكرة الاستقلال الكلي لم تكن سوى اختلاق قومي مصمّم بالدرجة الأولى لمن يسميهم فانون <الطبقة الوسطى> البورجوازية <القومية>، الذين غالباً ما قاموا هم بدورهم بحكم البلدان الجديدة بطغيان فقطعات، استغلالي، يذكّر بالآسياد الراحلين.

وهكذا فإنّ دورة القرن الماضي الامبريالية تكرّر نفسها بصورة ما في أواخر القرن

\* - جملة النّص الانكليزي هنا طويلة ومتعاطلة وناقصة، لا تؤدّي معنى واضحاً متناسقاً. وقد عدتها بما أستطيع لتؤدّي معنى تاماً.

\*\* - لم أجد خيراً من هذه الصيغة لترجمة ما تتضمنه كلمة wogs من تضمينات ازدرائية.

العشرين، رغم أنه لا توجد اليوم فعلاً مساحات كبيرة فارغة، أو حدود تزداد توسعاً، أو مستوطنات جديدة مثيرة تنتظر التأسيس. فنحن نعيش في بيئة كونية واحدة تمزق نسيجها - الذي لم يتم تصويره <حتى الآن> إلا بصورة معتمة، كما أنه ما يزال أساساً غير مفسر أو مفهوم - ضغوطاً بيئية، واقتصادية، واجتماعية، وسياسية هائلة العدد. وإن أي امرئ يملك ولو وعياً غامضاً بهذا <الوجود> الكلي كآينتابه الذعر وهو يرى كيف يمكن للمصالح الانانية والضيقة إلى حد لا يعرف الندامة - من مثل الحمية الوطنية، والاستعلائية <الشوفينية>، والبغضاء العرقية، والدينية، والعنصرية - أن تؤدي في الواقع إلى التدمير الجماعي. وليس في طاقة العالم أن يتحمل حدوث ذلك مراراً عديدة أخرى.

ينبغي الا يتظاهر المرء بأن ثمة أنموذجات جاهزة قريبة المتناول لنظام عالمي متناغم؛ وسيكون مساوياً لذلك في المخادعة أن يفترض المرء أن أفكار السلام وروح التآلف الجمعية يمكن أن تتاح لها فرصة حقيقية حين تضع التصورات العدوانية للمصالح القومية الحيوية أو السيادة التي لا حدود لها، القوة موضع الاستخدام الفعلي. ويقدم صدام الولايات المتحدة مع العراق، وعدوان العراق ضد الكويت بخصوص النفط، متكين واضحين على ذلك. والعجب العجيب في الأمر هو أن التنشئة على هذا النمط الاقليمي نسبياً من الفكر والفعل ماتزال سائدة، دونما كبح، ومقبولة دونما نقد، تُستنسخ متكررة في التعليم جيلاً بعد جيل. فنحن جميعاً نلقن إجلال أمننا والإعجاب بترائثنا: نربى على تعقب مصالحتها بصلابة وقسوة ودونما اكتراث بالمجتمعات الأخرى. ثمة عشائرية جديدة، ومقيدة فيما أرى، تصدع المجتمعات، وتفصل بين الشعوب، وتشجع الجشع، والنزاعات الدموية، والتأكيدات الخالية مما يشوق على خصوصيات ثانوية عرقية أو فئوية. ولا يُنفق إلا قدر ضئيل من الوقت - لن أقول: في اكتساب المعرفة بالثقافات الأخرى، فالعبارة ترشح بغموض تافه في ذاتها - بل في دراسة خارطة التفاعلات، وحركة المرور الفعلية، التي كثيراً ما تكون منتجة، وتحدث يوماً يوماً، بل دقيقة دقيقة، بين الدول والمجتمعات والفئات والهويات.

ليس بوسع أحد، رجلاً كان أو امرأة، أن يستوعب هذه الخريطة في رأسه، الأمر الذي يوجب النظر إلى جغرافية الامبراطورية والتجربة الامبريالية المتعددة الجوانب التي خلقت نسيج هذه الامبراطورية الأساسي، أولاً في إطار معطيات بضعة تشخصات بارزة. في المقام الأول، حين نعيد النظر إلى القرن التاسع عشر، نرى أن الاندفاع نحو الامبراطورية قد ادخلت فعلياً معظم الأرض تحت سيطرة حفنة من القوى. ومن أجل أن ندرك بعض ما تعنيه هذه الحقيقة، أنوي أن أتأمل طقماً محدداً من الوثائق الثقافية الغنية التي يُنفق فيها التفاعل بين أوروبا وأميركا من جهة والعالم المؤبرط <الذي أُخضع للامبراطورية> من جهة أخرى بالحياة، ويُفعم، ويُفصح عنه بجلاء بوصفه تجربة لكلا طرفي المواجهة. لكن، قبل أن أفعل ذلك، تاريخياً وبصورة منظمة مطردة، سيكون تمهيداً مجدياً أن ننظر إلى ما يتبقى من الامبريالية في المناقشات الثقافية الحديثة العهد. وهذا المتبقي مترسب لتاريخ كثيف، شيق، هو في أن واحد، وبصورة تتضح بالمفارقة الضدية، كوني ومحلي، وهو أيضاً علامة مؤشرة على الكيفية التي يحيا بها الماضي الامبراطوري



في الحاضر الراهن، مستثيراً الجدالَ والحجّةَ ونقيضها بدرجة مفاجئة من الحدة والتوتر. ولأن هذه الآثار التي خلّفها الماضي في الحاضر معاصِرةٌ وسهلة المتناول، فإنها تدلّ على الطريق إلى دراسة التواريخ - وصيغة الجمع مستخدمة هنا عمداً - التي خلقتها الامبراطورية، لا قصص البيض من الرجال والنساء فقط، بل قصص غير البيض أيضاً ممن كانت أراضيهم ووجودهم ذاته موضعاً للنزاع، في الوقت عينه الذي كانت فيه دعاواهم ومطالبهم تتعرض للكران أو التجاهل.

ثمة مناظرة معاصرة هامة حول المترسّب الامبريالي - مسألة كيميّة تمثيل "الأصلانيين" في وسائل الإعلام الغربية - توضح استمرارَ الاعتماد المتبادل والتقاطع لا في محتوى المناظرة وحسب بل في شكلها أيضاً، لا في ما يقال فقط، بل في كيف يقال، ومن قِبَل مَنْ، وأين، ولن يقال. وإنّ ذلك لجدير بالتأمل، رغم أنه يتطلب قدراً من الانضباط والصرامة مع الذات لا يتحقق بسهولة، لأن استخطاطيات المواجهة متطورة جداً، ومغوية، وقريبة المتناول. لقد قام سلمان رشدي عام ١٩٨٤، قبل صدور الآيات الشيطانية بزمان طويل، بمعاينة موجة الافلام والمقالات عن الحكم البريطاني للهند، بما في ذلك المسلسل التلفزيوني درة القاج وفيلم ديفيد لين ممر إلى الهند. ولاحظ رشدي أن الحنين الذي جسّدته ووظفته هذه الذكريات الحنون العطوف إلى الحكم البريطاني في الهند تزامن مع حرب الفوكلانديز، وأن "ارتقاء التنقيحية المتعلقة بالراج"، متمثلة في النجاح الهائل لهذه المختلقات الروائية، هو النظر الفني لارتقاء العقائديات المحافظة في بريطانيا. وقد ردّ المعلقون على ما اعتبروه ولولة رشدي ونحيبه العلنيين، وبدا أنهم يتجاهلون نقطته الأساسية. فلقد كان رشدي يحاول أن يقدم منظومة أعم وأوسع، منظومة كان ينبغي، فيما يفترض، أن تستهوي المثقفين الذين لم يعد ينطبق عليهم وصف جورج أوزول المشهور لموقع المثقف في المجتمع بأنه داخل جوف الحوت وخارجّه في آن واحد. إن الواقع الحديث تبعاً لمعطيات رشدي هو واقع لا حوت، هذا العالم الخالي من الزوايا الهادئة [الذي] لا يمكن فيه إيجاد سبل سهلة للهرب من التاريخ، من الضوضاء، والضجيج المرعب الصاخب<sup>(٢٧)</sup>. لكن نقطة رشدي الرئيسية لر تعتبر جديرة بالتناول والنقاش. وبدلاً من ذلك، كانت المسألة الرئيسية الجديرة بالتنازع هي التساؤل ما إذا كانت الأمور في العالم الثالث لم تتدهور في الواقع بعد أن تحررت المستعمرات، وما إذا لم يكن من الأفضل عامّة الإصغاء إلى أولئك المثقفين النادرين - وهم لحسن الحظ على ما ينبغي أن أضيف، نادرون ندرّة بالغة - في العالم الثالث الذين يعزّون برجولة معظم <التصرفات> البربرية الراهنة والطغيان والانحطاط <في بلدانهم> إلى تواريخهم الأصلانية ذاتها، وهي تواريخ كانت على درجة عالية من السوء قبل الاستعمار، ثم انقلبت عائدة إلى حالتها السابقة بعد انتهاء الاستعمار. ومن هنا، كما تتابع هذه المنظومة، فإن رجلاً مثل في. إس. نيبال - اميناً نزيهاً إلى درجة لا تعرف الرحمة - خيرٌ من رجل مثل سلمان رشدي يستوضّع متصنعاً إلى درجة عبثية.

بوسع المرء أن يستخلص من الانفعالات التي أثارها قضية رشدي الشخصية، عندئذ وبعدئذ، أن أناساً كثيرين في الغرب قد بلغوا نقطة يشعرون فيها <بأن صبرهم قد عيل و>

• - راج. كلمة هندية تعني "الحكم" وقد أبقيتُ عليها هنا تجنباً لتكرار كلمة "الحكم" في الجملة ثلاث مرّات، من جهة، ولأن لها مرتبة الاسم العلم، من جهة أخرى؛ أما في صدر الجملة فقد ترجمتها.

بأن في ما حدث الكفاية. فبعد فييتنام وإيران - ولاحظ هنا ان هاتين اللاصقتين تُستخدمان عادةً لاستثارة الأحداث المبرحة الداخلية في أميركا (تمردات الطلبة في الستينات، والكره الشعبي بسبب الرهائن في السبعينات) بقدر ما تُستخدمان لاستثارة النزاعات العالمية وخسارة فييتنام وإيران لحساب القوميات الجذرية - أصبح من الواجب الدفاع عن الحدود المرسومة. لقد تلت الديمقراطية الغربية ضربة مؤلمة، ولقد تولد شعورٌ، رغم أن الأذى قد حصل في الخارج، بـ"الدمار المتبادل"، بالعبارة الشاذة التي صاغها جيمي كارتر ذات مرة. وقد أدى هذا الشعور بدوره إلى أن يعيد الغربيون النظر في عملية فكفكة الاستعمار بأسرها. ألم يكن صحيحاً، بحسب تقييمهم الجديد، أننا "نحن" اعطينا "هم" التقدم والتحديث؟ ألم نوفر لهم نظاماً ونوعاً من الاستقرار لم يستطيعوا منذ ذلك الوقت أن يوفروها لأنفسهم؟ ألكم يكن من قبيل الثقة الشنيعة الموضوعية في غير مكانها أن نؤمن بمقدرتهم على الاستقلال، إذ قاد ذلك إلى <ظهور> رجال مثل بوكاسا و<عدي> أمين اللذين كان معادلتهم فكرياً أشخاص مثل رشدي؟ أ ولم يكن ينبغي أن نتمسك بالمستعمرات، ونبقي الشعوب الخاضعة أو الأدنى مرتبةً قَيْدَ الضبط، ونظلُّ أوفياءً لمسؤولياتنا الحضارية؟

إنني لأدرك أن ما قمتُ للتحظة بإعادة إنتاجه ليس صورة أمينة تماماً للأمور كما هي، بل ربما كان شَخْوصَةً ساخرة <كاريكاتوراً>. بيد أنه، رغم ذلك، يملك درجة من الشبه مزعجة بما قاله أناس عديدون تخيلوا أنفسهم يتحدثون باسم الغرب. ولم يكن ثمة إلا أدنى درجات الشك في وجود غرب واحدٍ في الواقع، كما لم يكن ثمة من شك في وجود عالم مستعمر سابقاً تم وصفه في تعميم كاسح بعد آخر. وقد رافقت القفز إلى الجواهر والتعميمات استهواءً باسم تاريخ متخيل لهبات وعطايا مجانية غريبة، تبعتها سلسلة شائنة من العَضِّ الجحود لتلك اليد الغربية المانحة بأبهة وسخاء. "لماذا لا يقدرُوننا <حقاً> قدرنا < بعد كلِّ ما فعلناه من أجلهم؟ >"<sup>(٢٨)</sup>

يا للسهولة التي يمكن أن يُضغَط بها قدرٌ ضخم <من الأمور> في تلك الصيغة البسيطة من الشهامة التي لم تقدِّر حقَّ قدرها! لقد طرُدت من خاطر أو تنوسيت تلك الشعوب المستعمرة المنهوبة التي تعرضت قروناً للعقاب المتسرع الظالم، وللمقمع الاقتصادي الذي لا يُحَدِّد، ولتشويه حياتها الاجتماعية والحميمة، وللخضوع الذي لا ملاذ منه والذي كان الوظيفة الأدائية للتفوقية الغربية اللامتغيرة. ويكفي أن يتذكر المرء ملايين الأفارقة الذين قُدِّموا زاداً لتجارة الرقيق لكي يدرك الكلفة التي تعصى على التخيل للاحتفاظ بتلك التفوقية. ومع ذلك، فإنَّ العدد اللانهائي من الآثار والذبول في التاريخ العنيف، المفصل أشدَّ تفصيلاً، للتدخل الاستعماري - دقيقة دقيقة، وساعة ساعة - في حياة الأفراد والجماعات، على كلا جانبيِّ الفالق الاستعماري، هو بالضبط ما يُطرد من خاطر في أغلب الحالات.

إن ما ينبغي أن يلاحظ بشأن هذا النمط من الإنشاء المعاصر، الذي يفترض أولوية الغرب - بل مركزيته الكاملة - هو مدى كونه إنشأً مُكلاً من حيث الشكل، ومدى شموليته واحتوائيته، من حيث وجهات النظر والإيماءات، وكم يوصد الباب ويُقصي <من الأشياء> حتى فيما هو يحتوي، ويضغَط، ويعرِّز. إننا لنجد أنفسنا فجأةً محمولين مُرجعين في الزمن إلى أواخر القرن التاسع عشر.

وهذا الموقف الامبريالي، في اعتقادي، ملتقطٌ مجسّدٌ بصورة جميلة في الشكل السردى الثرى المعقّد لرواية كونراد القصيرة العظيمة قلب الظلام، التي كُتبت بين ١٨٩٨ و ١٨٩٩. فمن جهة، يعترف الراوي مالرو بالمعضلة المساوية للكلام كله - أي "أن من المستحيل أن ينقل المرء <وقع> الإثارة الحسيّة الحيّة لأي حقبة تاريخية من\* وجود المرء - ذلك الذي يصنع حقيقتها، ومعناها، وجوهرها المرهف النفاذ... إننا نعيش، كما نحلم: في وحدة"<sup>(٢٩)</sup>. بيد أنه، رغم ذلك، ينجح في نقل القوة الهائلة لتجربة كورتز الأفريقية عن طريق سرديته المتقنة حتى البهر لرحلته الشخصية إلى الداخل الأفريقي باتجاه كورتز. وهذه السردية، بدورها، مرتبطة مباشرة بالقوة المنقّدة، كما هي مرتبطة بالإهدار والفظائع، <الماتلة جميعاً> في إرسالية أوروبا في العالم المظلم. إن كل ما يُضيق أو يُحذف، بل إن كل ما يُخترع في إلقاء مالرو الذي يفرض نفسه بقوة بالغة، يجد ما يعوّض عنه في زخم السردية التاريخي المحض، في الحركة الزمنية إلى الأمام - <المرفّقة ب> استطرادات، وأوصاف، ومواجهات مثيرة، وكل شيء آخر. إن مالرو، داخل سرديته عن كيفية رحيله إلى محطة كورتز الداخلية، التي يصبح هو الآن مصدرها والمرجع الأعلى لها، يتحرك إلى الوراء وإلى الأمام بدوائر لولبية صغيرة وواسعة، بالطريقة ذاتها تقريباً التي تندرج بها بعد ذلك حلقات رحلته نحو منبع النهر ضمن المسار الرئيسي المتجه أماماً إلى ما يصفه بأنه "قلب افريقيا".

وهكذا، فإن مواجهة مالرو للموظف الإداري الذي يرتدي، بصورة غير ملائمة وغير متوقعة، بدلةً بيضاء في وسط الأدغال تمنحه <فرصةً صياغة> بضعة مقاطع استطرادية، كما تفعل مقابلته فيما بعد للروسي شبه المخبول، شبه المهرج، الذي أثّرت عليه أيما تأثير هدايا كورتز. إلا أن ما يتبطن عدم حسم مالرو للأمور، ومراوغاته، وتأملاته العريسيّة لشاعره وأفكاره، هو المسار الصارم للرحلة ذاتها التي تستمر، رغم العوائق العديدة، عبر الأدغال، والزمن، والمشقة، إلى قلب الأمر كله، أي امبراطورية كورتز لتجارة العاج. ويريد كونراد <بذلك كله> أن يرينا كيف تشترك مغامرة النهب العظيمة التي يقوم بها كورتز، ورحلة مالرو المصعدة باتجاه منبع النهر، والسردية ذاتها، في موضوعة واحدة: الأوروبيون وهم يمارسون أفعالاً من السيطرة والإرادة الامبريالية في أفريقيا (أو حولها).

وما يميز كونراد عن غيره من الكُتاب الاستعماريين الذين كانوا معاصرين له هو أنه كان واعياً وعباً ذاتياً حاداً لما يفعله، لأسباب تعود جزئياً إلى الاستعمار الذي حوّلته، وهو المهاجر البولندي، إلى موظّف لدى النظام الامبريالي. ومن هنا فإن قلب الظلام، مثل معظم حكاياته الأخرى، لا يمكن أن تكون مجرد تلالة مباشرة لمغامرات مالرو: فهي أيضاً مسرّحةٌ لمالرو نفسه، الجواب السابق في الأقاليم المستعمرة، وهو يروي قصته لمجموعة من المستمعين البريطانيين في لحظة زمنية معينة وفي مكان محدد. وإن كون هذه المجموعة من الأشخاص مأخوذة في معظمها من عالم <رجال> الأعمال هو طريقة كونراد لتأكيد حقيقة أن عمل الإمبراطورية، الذي كان ذات يوم مبادرةً مغامرة وفي الكثير من الأحيان فردية، قد أصبح خلال الـ ١٨٩٠ات امبراطورية العمل. (ينبغي أن نلاحظ بالمناسبة أنه في الوقت نفسه تقريباً ألقى هالفورد ماكيندر، المستكشف والجغرافي والامبريالي التحريري

\* - أرجح أن ثمة خطأ مطبعياً هنا يتمثل في ورود "on" بدلاً من "of"، وهذا ما يغير معنى العبارة، والله اعلم.

<الليبرالي>، سلسلة من المحاضرات عن الامبريالية في معهد لندن للمصرفيين<sup>(٣٠)</sup>. وربما علم كونراد بذلك). ورغم أن قوة سردية مالرو، التي تكاد تكون قوة قمعية، تخلف فينا إحساساً سليماً إلى درجة بعيدة بأنه ليس ثمة من سبيل للخروج من القوة التاريخية السيّدة للامبريالية، وأنها تملك قوّة نظام يمثل كل ما يقع ضمن دائرة نفوذه كما ينطق باسمه، فإنّ كونراد يجلو لنا أن ما يفعله مالرو عرّضيّاً اشتراطياً، يؤدّي من أجل طقم من المستمعين البريطانيين ذوي الأفكار والآراء المتماثلة، وأنه محدود بذلك الموقف مقصور عليه.

ومع ذلك، لا يقدم لنا كونراد ولا مالرو مشهداً كاملاً لما يقع خارج وجهات النظر الهازمة للعالم التي يجسدها كورتز، ومالرو، ودائرة المستمعين إليه على ظهر <السفينة> نللي، وكونراد نفسه. وما أعنيه بهذا هو أن قلب الظلام تمارس فاعليتها بنجاح لأن سياسياتها وجمالياتها، بوجه من القول، امبريالية بدت في السنوات النهائية من القرن التاسع عشر في وقت واحد <منظومة> جمالاتية، وسياسية، ومعرفية حتمية لا سبيل إلى تحاشيها. ذلك أننا إذا لم نكن قادرين بحق على فهم تجربة شخص آخر وكان علينا لذلك أن نعتمد على سلطة تأكيدية من النمط الذي يمارسه كورتز كرجل أبيض في الأدغال أو يمارسه مالرو، وهو رجل أبيض أيضاً، كسارد، فليس ثمة من جدوى في البحث عن بدائل أخرى غير امبريالية؛ فلقد قام النظام ببساطة ببيترها وجعلها خارجة عن نطاق الفكر. إن دوانرية الأمر كله، أو القفلة الكاملة له، منيعة مناعة مطلقة لا جمالاتياً وحسب بل ذهنياً أيضاً.

يملك كونراد من وعي الذات، فيما يتعلق بمؤسعة حكاية مالرو في لحظة سردية، درجة عالية تتيج لنا أن ندرك في أن واحد أن الامبريالية بعد كل حساب لم تكن بعيدة أشدّ البعد عن ابتلاع تاريخها الخاص فحسب، بل كانت أيضاً تحدث في تاريخ أشمل وكانت محاطة بهذا التاريخ، وهو تاريخ يقع مباشرة خارج الدائرة الحصرية المحكّمة من الأوروبيين <الجالسين> على ظهر النللي. لكنّ حتى تلك اللحظة، لم يكن أحد فيما يبدو يقطن ذلك الإقليم، ولذلك تركه كونراد خالياً.

ربما لم يكن بوسع كونراد قط أن يستخدم مالرو لتقديم أية رؤية أخرى سوى رؤيا العالم الامبريالية، في ضوء ما كان متاحاً لكلا كونراد ومالرو أن يرياه من <العالم أو الإنسان> غير الأوروبي. لقد كان الاستقلال وفقاً على البيض والأوروبيين؛ وكان للشعوب الأدنى أو الخاضعة أن تُحكّم <فقط>؛ ولقد شغ العلم، والمعرفة، والتاريخ من الغرب، وعنه صدرت. صحيح أن كونراد يُسجّل بدقة الموسوس وأمانته الفروق بين مخازني وجهات النظر البلجيكية والبريطانية، بيد أنه لم يكن قادراً على تصور العالم إلا مقطّع الأوصال إلى مناطق خاضعة لسيطرة هذا المجال الغربي أو ذاك. لكنّ لما كان لكونراد أيضاً إحساساً مترسّب فائق الإلحاح بهامشيته المنفوية الشخصية، فقد قيّد سردية مالرو بعناية تامة (وبعضهم سيقولون بصورة تدفع إلى الجنون) بمشروطية <أو مؤقتية> نبعت من الوقوف على نقطة تقاطع هذا العالم مع آخر غير محدّد لكنه مختلف. ومن المؤكد أن كونراد لم يكن رجل أعمال امبريالياً مقداماً عظيماً مثل سيسيل رودس أو فردريك لوغارد، رغم أنه كان يفهم بعمق أن الأمر بالنسبة إلى كل منهما كان يعني، بكلمات حنّه أردنت، أنه

من أجل دخول "معمة" عملية لا نهاية لها من التوسع، أن يتوقف، بوجه من الكلام، عن أن يكون ما كانه ويطيع قوانين العملية، متماهياً مع قوى مجهولة يُفترض فيه أن يخدمها من أجل أن تظل العملية على حركيتها، وسيعتبر نفسه مجرد وظيفة أدائية، وفي نهاية المطاف يعتبر تلك الوظيفية، أو ذلك التجسيد التقمصي للاتجاه الحيوي، أسمى إنجاز يمكن أن يحققه<sup>(٣١)</sup>. إن ما يدركه كونراد هو أنه إذا كانت الامبريالية، كالسرود الروائي، قد احتكرت نظام التمثيل بأكمله - الأمر الذي سمح لها في حالة قلب الظلام أن تنطق باسم الأفارقة كما باسم كورتز والمغامرين الآخرين، بمن فيهم مالرو وجمهوره - فإن وعيك لذاتك كخارجي يمكن أن يتيح لك بشكل فعال أن تستوعب كيف تعمل الآلة، نظراً لعدم كونكما أنت وهي جذرياً في حالة من التزامن أو التطابق التامّين. ولذلك فقد احتفظ كونراد، الذي لم يتحول أبداً إلى رجل إنكليزي محتجن مندمج كلية أو مثاقف تماماً، بمسافة من المفارقة اللاذعة في كل من مؤلفاته.

وهكذا فإن الشكل السردي عند كونراد أمكنه من أن يَشْتَق منظومتين ممكنتين، أو رويتين، في عالم ما بعد الاستعمار الذي تلا عالمه. إحدى هاتين المنظومتين تتيح للمشروع الامبريالي القديم المجال الكامل ليمسرح نفسه بالصورة التقليدية، أي ليصوغ العالم كما رآته الامبريالية الرسمية الأوروبية أو الغربية، ثم أن يعرّض ذاته بعد الحرب العالمية الثانية. قد يكون الغربيون غادروا مستعمراتهم القديمة في أفريقيا وآسيا فيزيائياً، غير أنهم احتفظوا بها لا كأسواق فقط بل أيضاً كمواقع على الخريطة العقائدية التي استمروا يمارسون حكمها أخلاقياً وفكرياً. "أرني تولستوي الزولوي"، كما عبّر مُفكر أميركي حديثاً. إن الاشتمالية الحصرية التأكيدية السيّدة لهذه المنظومة لتشق مسارها في كلمات أولئك الذين ينطقون اليوم باسم الغرب وما فعله الغرب، كما باسم ما هي، وما كانت، وما قد تصير إليه، بقية العالم. وتستثنى تأكيدات هذا الإنشاء ما كان قد تم تمثيله كشيء "مخسور" بالاحتجاج بأن العالم المستعمر كان، من حيث الوجود، بطرق عديدة ضائعاً بدايةً، وغير قابل للخلاص، ودونياً إلى حدّ يستحيل إنقاذه. وعلاوة، فإنه <الإنشاء> يركز لا على ما كان مشتركاً في التجربة الامبريالية، بل على ما ينبغي ألا يكون مشتركاً أبداً، أي السلطة والصحة اللتين ترافقان <امتلاك> قدر أكبر من القوة والتطور. ومعطيات هذا الإنشاء، بلاغياً، هي تنظيم العواطف المشبوية السياسية، باستعارة تنقيد جوليان بندا للمفكرين المعاصرين، وهي معطيات تقود بالضرورة، كما عرف بندا بإدراكه الكافي للأمر، إلى المذابح الجماعية؛ وهي إن لم تقد إلى الذبح الجماعي بالمعنى الحرفي فستقود بكل تأكيد إلى الذبح البلاغي.

أما المنظومة الثانية فإنها أقل إثارة للاعتراض بكثير. وهي ترى نفسها كما رأى كونراد سردياته الخاصة: محلية <مرتبطة> بزمان ومكان معينين، لا هي صحيحة دونما شرط ولا هي مؤكدة دونما قيد. فكونراد، كما قلت سابقاً، لا يعطينا شعوراً بأنه يستطيع أن يتخيل بديلاً متحققاً تماماً للامبريالية؛ فالأصلانيون الذين كُتِبَ عنهم في أفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية كانوا عاجزين عن الاستقلال، ولما كان قد تخيل فيما يبدو أن الوصاية الأوروبية كانت معطى بديهياً، فقد عجز عن التكهّن بما ستؤول إليه الأمور حين تبلغ <هذه الوصاية> نهايتها. غير أنها كانت دونما ريب ستبلغ النهاية، وإن لو لم يكن ذلك لشيء سوى أنها - شأنها شأن كل الجهود الإنسانية، وشأن الكلام ذاته - سيكون

لها يومها، ثم سيكون عليها أن تغبُر. ولأن كونراد يزرخ الامبريالية ويحدّد لحظتها الزمنية، ويكشف عرضيتها الاشتراكية، ويسجل استيهاماتها وعنقها وإدارها الهائلين (كما في *نوسترومو*)، فإنه يسمح لقراءه اللاحقين أن يتخيّلوا شيئاً آخر غير أفريقيًا مقطعةً الأوصال *«وموزعة»* إلى عشرات من المستعمرات الأوروبية، رغم أنه لم يكن لديه شخصياً أدنى تصور عما قد تكونه تلك الأفريقيًا.

لنعدّ إلى الخط الأول التابع من كونراد؛ إن إنشاء الامبراطورية المنبعثة المتجددة يبرهن أن المواجهة الامبريالية التي حدثت في القرن التاسع عشر تُواصلُ اليوم رسمَ الخطوط والدفاع عن الحواجز. ومن الغريب أنها تصرّ أيضاً على التبادل الهائل التعقيد والهادئ التشويق بين شركاء استعماريين سابقين، لنقلّ مثلاً بين بريطانيا والهند، أو بين فرنسا والبلدان الناطقة بالفرنسية في أفريقيا. بيد أن هذه التبادلات تميل إلى أن تختفي تحت ظلال العدائيات الصارخة للمناظرة الاستقطابية بين أنصار الامبريالية وأعدائها، الذين يتحدثون بالدفاع عن المصير القومي والمصالح الواقعة ما وراء البحار، والامبريالية المستحدثة، وما شابه ذلك، مجتذبين من يماثلونهم في الآراء - غربيين عدوانيين، أو غير غربيين من أولئك الذين يُنطق باسمهم، بكل ما في هذا من مفارقة لاذعة، القوميون الجدد وآياتُ الله المنبعثون بقوة - بعيداً عن ذلك التبادل الآخر المستمر. وداخل كلٍّ من هذه المعسكرات التي هي للأسف ضيقة محدودة، يقف أولئك الذين لا يستحقون الملامة، العادلون، المؤمنون الأوفياء، يقودهم القادرون كلُّ القدرة، الأكفاء كلُّ الكفاءة، الذين يعرفون حقيقة أنفسهم وحقيقة غيرهم؛ وفي الخارج تقف عصابةً متنوعة من المفكرين المتبرمين والمشككين المهلهلين الذين يعضون في التذمر حول الماضي دونما كبير جدوى.

لقد حدث انعطاف عقائدي هام خلال السبعينات والثمانينات، مرافقاً لتقليص الآفاق هذا في ما اسميته الخطّ الأوّل من الخطّين التابعين من قلب الظلام. وبوسع المرء أن يجده، مثلاً، في التغيير الاحتدامي في التأكيد وجده، بالمعنى الحرفي، في الاتجاه لدى مفكرين كانوا قد اشتهروا بجذريتهم. إن الانتاج المتأخر لجان - فرانسوا ليوتار وميشيل فوكو، وهما فيلسوفان فرنسيان بارزان كانا قد بزغا في الستينات رسولين للجذرية والتمرد الفكري، ليُصِفُ نقصاً جديداً لافتاً في الإيمان بما يسميه ليوتار: السرديات المشرّعة الجليّة للتححرر والتنوير. إن عصرنا، كما قال ليوتار في الثمانينات، عصر ما بعد حدائثي، معنيٌّ بمسائل محلية فقط، لا بالتاريخ بل بمشكلات تحتاج إلى حلول، لا بواقع جليل بل بالعاب<sup>(٣٢)</sup>. كذلك انصرف فوكو باهتمامه بعيداً عن القوى المعارضة الضدية في المجتمع الحديث التي كان قد درسها لمقاومتها الصلبة للإقصاء والحصص - الأحداث الجانحين، والشعراء، والمنبوذين، وأمثالهم - وقرر أنه مادامت القوة ماثلة في كل مكان فقد يكون من الأفضل أن يركّز المرء على الفيزيائيات الصغرى المحلية للقوة التي تحيط بالفرد. ومن هنا وجب أن تُدرس الذات، وتُنقَف وتُرَبَّى، وأن تعاد صياغتها وتكوينها، إذا اقتضت الضرورة ذلك<sup>(٣٣)</sup>. ونجد لدى كلا ليوتار وفوكو التعبيرَ المجازي ذاته المستخدم لشرح الخيبة بسياسيات التحرير: لم يعد السرد، الذي يفترض نقطةً بدايةً عاضدةً وهدفاً مسوغاً، كافياً لرسم المسار الإنساني في المجتمع. ليس ثمة ما يُطلَعُ إليه *«بلهفة في المستقبل»*: بل نحن عالقون ملتصقون ضمن دائرتنا، والخط الآن مطوّق بدائرة. ويعد سنوات من الدعم للكفاح ضد الاستعمار في الجزائر، وكوبا، وفييتنام،

وفلسطين، وإيران، الذي كان قد أصبح يمثل بالنسبة لكثير من المفكرين الغربيين انخراطهم الأعمق في سياسيات وفلسفة فكفكة الاستعمار المناهضة للامبريالية، انتهى المطاف إلى لحظة من الإرهاق والخيبة. (٣٤) وبدأ المرء يسمع ويقرأ عبث مناصرة الثورات، و«شدة» بربرية الأنظمة الجديدة التي جاءت إلى الحكم، وكيف أن فكفكة الاستعمار - وهذه حالة متطرفة - أفادت «الشيوعية العالمية».

والآن يدخل الإرهابُ والبربرية. كما يدخل خبراءُ الاستعمار السابقون الذين كانت رسالتهم التي رُوِّج لها إعلامياً ترويحاً جيداً: هي أن هذه الشعوب المستعمرة لا تستحق سوى الاستعمار، أو أننا، ما دمنا كنا "حمقى إذ انسحبنا من عدن والجزائر والهند والهند الصينية وكل مكان آخر، فقد تكون فكرة حسنة أن نغزو هذه البقاع ثانية. وتدخل أيضاً تشكيلةً متنوعة من الخبراء والمنظرين للعلاقة بين حركات التحرير، والإرهاب، و«الاستخبارات الروسية» الكي. جي. بي. وقد انبعث تعاطف مع ما أسمته جين كلياترك الأنظمة السلطوية (نقيضاً للأنظمة الشمولية) التي كانت حليفة للغرب. ومع بزوغ الريفانية، والثاتشرية، ومعدالاتهما، بدأت مرحلة جديدة من التاريخ.

أيًا كانت الطرق الأخرى التي ربما كان انتزاعُ الغرب بها انتزاعاً باتاً من تجاربه الخاصة في «العالم الهامشي» قابلاً للتفهم تاريخياً، فإنَّ هذا الانتزاع اليوم ليس نشاطاً جذاباً أو سامياً بالنسبة للمفكر\*. إذ إنه يوصد الباب أمام إمكانية المعرفة واكتشاف ما يعنيه أن يكون المرء خارج الحوت. لنعد إلى رشدي من أجل نفاذ بصيرة آخر:

ندرک ان خلق کون روائي نقي من السياسة قد يكون زائفاً زئفاً أن نخلق كونا لا يحتاج احد فيه إلى ان يعمل او ياكل او يكره او يحب او ينام. خارج الحوت يغدو ضرورياً، بل بهيجاً، ان نسطرع مع المشكلات الخاصة التي يولدها إدراج المادة السياسية وشملها. ذلك ان السياسة هي بالتناوب مهزلة ومأساة، وأحياناً تكون (كما في حالة باكستان في عهد ضياء، «الحق») كلتيهما معاً في اللحظة ذاتها. خارج الحوت، يُجَبَّرُ الكاتب (أو الكاتبة) على ان يقبل انه (او انها) جزء من الحشد، جزء من اليم، جزء من العاصفة، بحيث تصعب الموضوعية حلماً عظيماً، مثل الكمال، غايةً لا تُنال ينبغي ان يصارع المرء من اجلها رغم استحالة النجاح. خارج الحوت عالمٌ صيفيٌّ صاموئيل بكيت المشهورة: لا اقدر ان استمر، سوف استمر (٣٥).

فيما تستعير معطيات وصف رشدي من «جورج» أورول، فإنها تبدولي مشوبةً إلى درجة أكثر إشاقةً برنينٍ من كونراد. فهنا العاقبة الثانية، الخط الثاني التابع من الشكل السردى لدى كونراد؛ وهي تدل في إشاراتها الصريحة إلى الخارج على منظور يقع خارج التمثيلات الامبريالية أساساً التي يقدمها مالرو والمستمعون اليه. وهو منظور دنيويّ بعمق، ليس مديناً للمفاهيم حول المصير التاريخي والجوهرانية التي يبدو أن المصير يستتبعها دائماً، ولا لعدم الاكتراث والاستسلام للأمر الواقع التاريخيين. إن الوجود في الداخل يوصد الباب أمام التجربة الكاملة للامبريالية، ويشذبها، ويخضعها لسيطرة رؤية واحدة متمركزة أوروبياً وكلياتية؛ أما ذلك المنظور الآخر فإنه يقترح وجود حقل ليست فيه امتيازات تاريخية خاصة لطرف واحد.

لا أريد أن أتمحل في تأويل رشدي أو أضع في نثره أفكاراً قد لا يكون انتواها. لقد

\* - في الجملة الانكليزية هنا ما يبدو لي اضطراباً ناتجاً عن ورود الفعل was and is وقد اغفلت was لتتناسق الجملة؛ وقد أكون على خطأ في ما فعلته.

أدعى، في هذه المسألة الخلافية بينه وبين وسائل الإعلام المحلية البريطانية (قبل أن تدفعه الآليات الشيطانية إلى التخفي)، أنه عاجز عن تمييز حقيقة تجربته الشخصية في تمثيلات وسائل الإعلام الشعبية للهند. وأنا شخصياً أود دفع المسألة إلى ما هو أبعد من ذلك، لأقول إن إحدى فضائل مثل هذه التقاطعات بين السياسة والثقافة والجماليات أنها تسمح بكشف أرضية مشتركة حجبها وأبهمتها المساجلة الخلافية ذاتها. وقد يكون صعباً صعوبة خاصة على الأطراف المنخرطة مباشرة في النزاع أن يروا هذه الأرضية المشتركة وهم غارقون في النزاع أكثر مما هم غارقون في التأمل. وإنني لأتفهم تفهماً تاماً الشعور بالغضب الذي يلهب منظومة رشدي لأنني، مثله، أشعر بأنني أواجه ما يفوقني عدداً وتنظيماً بكثير وهو ذلك الإجماع الغربي السائد الذي أصبح يعتبر العالم الثالث إزعاجاً شنيعاً، ومكاناً دونياً ثقافياً وسياسياً. وبينما نكتب نحن ونتحدث كأعضاء في أقلية صغيرة من الأصوات الهامشية، فإن نقادنا الصحافيين والجامعيين ينتمون إلى نظام وافر الغنى من الموارد المعلوماتية والجامعية المتشابهة، <نظام> يجد تحت تصرفه الصحف، وشبكات التلفاز، ودوريات الرأي، والمراكز والمعاهد. وقد اصطنع معظمهم الآن جوقاً صاحبة من الإدانة اللاعنة ذات الميول اليمينية، يُفصلون فيها كل ما هو غير أبيض، غير غربي، وغير يهودي-سيحي عن الروح الجمعية الغربية المقبولة والمخصصة، ثم يحشرونهم جميعاً حشر القطيع تحت واسمات تحقيرية من مثل: الإرهابي والهامشي والثانوي القيمة أو غير المهم. ويغدو الهجوم على ماتحتويه هذه الفصلات هو الدفاع عن الروح الغربية.

لنعد الآن إلى كونراد وإلى ما اشترتُ إليه بوصفه الاحتمال الثاني الأقل تأكيداً امبريالياً في قلب الظلام. ولنتذكر من جديد أن كونراد يوضع القصة على ظهر قارب يرسو في نهر التيمز؛ وفيما يروي مالرو قصته، تغرب الشمس، ومع وصول الحكاية إلى نهايتها يكون قلب الظلام قد عاد إلى الظهور في انكثرة؛ وخارج مجموعة المستمعين إلى مالرو، يقع عالم غير محدد، غامض. ويبدو كونراد أحياناً وكأنه يريد أن يُدرج ذلك العالم داخل الإنشاء الامبريالي الحواضري الذي يمثله مالرو؛ لكنه يقاوم هذا الجهد بفضل ذاتيته الخاصة المزاحة وينجح في هذه المقاومة، كما اعتقدتُ دائماً، بوسائل شكلية إلى حد بعيد. إن الأشكال السردية الاستدارية بوعي للذات لدى كونراد لتجذبُ النظر إلى نفسها كتركيبات مصطنعة، وتشجعنا على الشعور بالطاقات الكامنة لواقع بدا عصياً على الامبريالية، وقائماً خارج حدود سيطرتها مباشرة، واقع لم يكتسب حضوراً كبيراً إلا بعد موت كونراد عام ١٩٢٤.

ويحتاج ذلك إلى مزيد من الشرح. إن رواية كونراد، رغم أسمائهم وعاداتهم السلوكية الأوروبية، ليسوا شهوداً عادين غير متأملين للامبريالية الأوروبية. وهم لا يتقبلون ببساطة ما يحدث باسم الفكرة الامبراطورية؛ وإنما يفكرون به بإمعان، ويقلقون بسببه، بل هم في الواقع قلقون جداً حول ما إذا كان بوسعهم أن يُظهروه وكأنه شيء مكرور. لكنه ليس ذلك أبداً. وطريقة كونراد في جلاء التنافر بين الآراء السننية وأرائه الشخصية في الامبراطورية هي أن يتابع لفت الاهتمام إلى أن الأفكار والقيم تُبنى (وتقوِّض) عبر خلخلات وانزياحات في لغة السارد نفسه. وإضافةً، فإن التلاوات ممسحة بدقة بالغة: فالسارد متحدثٌ يشكّل مستمعوه، وسبب اجتماعهم، وخصائص صوته، وتأثير ما يقوله - جوانب هامة بل



وملحاحة من القصة التي يرويها. إنَّ مالرو، مثلاً، ليس مباشراً قوياً ولو مرةً واحدة. وهو يتناوب بين الهذر والفصاحة المذهلة، وندراً ما يقاوم جعل الأشياء الشاذة تبدو أكثر شذوذاً بموضعها موضوعة مفاجئة، أو يجعلها مبهمهً ومتناقضة. هكذا يقول إنَّ سفينة حربية فرنسية تطلق قذائفها إلى قارة؛ وفصاحة كورتز مضينة موضحة كما هي مخادعة احتيالية؛ وهلم جراً - فكلامه محشوٌ بهذه التناقضات الغربية (التي ناقشها إيان واط مناقشة جيدة بوصفها "فكاً مُرجاً للترميزات"<sup>(٣٦)</sup>) إلى درجة أن الحصيلة النهائية هي أن يترك لدى جمهوره المباشر كما لدى القارئ أيضاً شعوراً حاداً بأن ما يقدمه ليس تماماً كما ينبغي أن يكون أو كما يبدو <ظاهرياً>.

ومع ذلك، فإن الدلالة الحقيقية لما يتحدث عنه كورتز ومالرو هي في الواقع السيادة الامبريالية، <سيادة> الأوروبيين البيض على الأفارقة السود وعاجهم، والحضارة على القارة البدائية المظلمة. وعن طريق إبراز التناقض بين الفكرة الرسمية عن الامبراطورية وواقع أفريقيا الفعلي المربك إرباكاً بالغاً، يقوم مالرو بزعزعة إحساس القارئ لا بفكرة الامبراطورية ذاتها وحسب بل بما هو أشد أساسية، وهو الواقع نفسه، أيضاً. ذلك أنه إذا استطاع كونراد أن يظهر أن النشاط الإنساني كله يعتمد على السيطرة على واقع قلق جذرياً لا تقاربه الكلمات إلا بالإرادة أو العرف، فإن الأمر نفسه يصدق على الإمبراطورية، على إجلال الفكرة، وهلم جراً. فنحن مع كونراد، إذن، في عالم يُصنع ويُفكك طوال الوقت تقريباً. وما يظهر راسخاً أو أمناً - كالشرطي على الزاوية، مثلاً - ليس أكثر أمناً من الرجال البيض في الدغل إلا بدرجة ضئيلة، وهو يتطلب الانتصار المستمر (لكن المقلقل) ذاته على ظلام كلي الشمول والذي يظهر مع نهاية الحكاية أنه هو هو في لندن وفي أفريقيا.

لقد اتاحت عبقرية كونراد له أن يدرك أن الظلام الدائم الوجود قابل لأن يُستعمر أو يضاء - <إذ> تحتشد قلب الظلام بالإشارات إلى الرسالة التحضيرية، إلى مخططات سخية خيرة وأخرى قاسية فظة لإحضار النور إلى الأمكنة والشعوب المظلمة في هذا العالم، وذلك بالانفعال الإرادية واستخدام القوة وتوظيفها - لكن ينبغي أن يتم الإقرار أيضاً بأنه <ذلك الظلام القابل للاستعمار> مستقل. إن كورتز ومالرو يعترفان بالظلام، الأول فيما هو يحتضر، والثاني وهو يتأمل استرجاعياً معنى كلمات كورتز الأخيرة. فهما (وكونراد طبعاً) سابقان لزمهما في إدراك أن ما يسميانه "الظلام" له استقلاله الذاتي الخاص به، وأنه يستطيع أن يعيد غزواً ما انتزعت الامبريالية لنفسها ويستعيده. لكن مالرو وكورتز أيضاً مخلوقان من إنتاج زمنهما ولا يستطيعان القيام بالخطوة التالية، وهي إدراك أن ما رآه، رؤية معوقةً وازدرائية، بوصفه "ظلاماً" غير أوروبي، كان في الواقع عالماً غير أوروبي، بتار الامبريالية كي يستعيد ذات يوم السيادة والاستقلال لا من أجل أن يعيد تأسيس الظلام، كما يقول كونراد بصورة تقليصية. إنَّ محدودية كونراد المساوية هي أنه لم يكن قادراً، رغم أنه رأى بوضوح أن الامبريالية على مستوى أول كانت جوهرية سيطرةً وسرقةً للأرض خالصتين، على أن يستخلص عندئذ أن الامبريالية ينبغي أن تنتهي كي يعيش "الأصلائيون" حياتهم أحراراً من السيطرة الأوروبية. وكمخلوق لزمه، لم يكن في وسعه أن يمنح الأصلائين حريتهم، رغم تنقيده الصارم للامبريالية التي استعبدتهم.

إن الأدلة الثقافية والعقائدية على أن كونراد كان مخطئاً في نهجه التمركزي الأوروبي دماغاً ووافرةً معاً. فثمة في الوجود حركة كاملة، وأدبيات، ونظرية للمقاومة والاستجابة للامبراطورية - وهي موضوع الفصل الثالث من هذا الكتاب -، ويشهد المرء في بقاع متباينة جداً من العالم ما بعد الاستعماري جهوداً هائلة حيوية للتعامل مع العالم الحواصري في مناظرة ندية تهدف إلى الشهادة على تنوع العالم غير الأوروبي وفروقه واختلافه وعلى برامج أهدافه وأولوياته الخاصة وتاريخه الخاص. وغرض هذه الشهادة هو تدوين، وإعادة تأويل، وتوسيع، مساحات التعامل كما المناطق المتنازع عليها مع أوروبا. وبعض هذه النشاطات - كاعمال مفكرين إيرانيين هاميين ونشيطين هما علي شريعتي وجلال علي أحمد، مهذا الطريق، بوساطة الخطب، والكتب، وأشرطة التسجيل، والكتيبات، للثورة الإسلامية - تؤكّد الاستعمار بتأكيد التعارض المطلق بينه وبين الثقافة الأصلانية: فالغرب عدو، ومرض، وشر. وفي حالات أخرى، يقوم روائيون كالكنيني نغوشي والسوداني الطيب صالح بمصادرة موضوعات عظيمة في الثقافة الاستعمارية، مثل البحث والرحلة إلى المجهول، لمختلفاتهم الروائية الخاصة، ويستخدمونها ويدعونها لأغراضهم الخاصة ما بعد الاستعمارية. إن بطل صالح في موسم الهجرة إلى الشمال ليفعل (كما أنه هو) مقلوباً ما يفعله (وما هو) كورتز: فيرحل الرجل الأسود شمالاً إلى أقاليم البيض.

وهكذا فإن بين الامبريالية التقليدية في القرن التاسع عشر وما ولّدت في الثقافات الأصلانية المقاومة، في أن واحد، مواجهة عنيدة وتقاطعاً وعبوراً في النقاش، والاستعارة المتبادلة، والمناظرة. إن العديدين من أكثر كتاب ما بعد الاستعمار إشافةً ليحملون ماضيهم في حناياهم - ندوباً لجراح مهينة، وتحريضات على ممارسات مختلفة، ورؤى منقحة، من حيث الطاقة، للماضي متوجهة نحو المستقبل، وتجارب قابلةً بالحاح لإعادة التأويل والاستخدام، يقوم فيها من كان من قبلُ أصلاً صامتاً بالنطق ويمارس الفعل في أقاليم استُعِيدت من الامبراطورية. ويرى المرء هذه الجوانب في «اعمال» رشدي، وديك والكوت، وأيمي سيزير، وتشنوا اتشيببي، وبابلو نيرودا، وبرلين فريل. والآن يستطيع هؤلاء الكتاب بحق أن يقرأوا الروائع الاستعمارية العظيمة التي لم تقم بتمثيلهم تمثيلاً خاطئاً وحسب بل افترضت أيضاً أنهم عاجزون عن أن يقرأوا ويستجيبوا مباشرة لما كان قد كُتِبَ عنهم، بالضبط كما افترض علم الأصول العرقية الوصفي الأوروبي أن الأصلانيين عاجزون عن التدخل في الإنشاء العلمي «المكتوب» عنهم. فلنحاول الآن أن نراجع هذا الموقف الجديد بشكل اكمل.

#### IV - تجارب متفاوتة

لنبدأ من قبول مفهوم أن التجربة الإنسانية، رغم أن لها لباباً ذاتياً غير قابل للتقليص، هي أيضاً تجربة تاريخية وديوية، في تناول التحليل والتأويل، وأنها - وذلك مركزي الأهمية - لا تستنفدها النظريات المكلية، وغير موسومة ومحددة بخطوط مذهبية أو قومية، وغير منحصرة مرة وإلى الأبد في مبنئيات تحليلية. وإذا ما أمن المرء مع غرامشي بان المهنة الفكرية «ذات الرسالة» ممكنة كما أنها مرغوبة، اجتماعياً، فسيكون من

التناقض المرفوض أن يتم في الوقت نفسه بناءً تحليلات للتجربة التاريخية حول <محور من> الإقصاءات... الإقصاءات التي تفترض، مثلاً، أن النساء وحدهن قادرات على فهم التجربة الأنثوية، وأن اليهود وحدهم قادرين على فهم معاناة اليهود، وأن الذين كانوا ذات يوم رعايا مستعمرين هم وحدهم الذين يستطيعون فهم التجربة الاستعمارية.

وأنا لا أعني ما يعنيه الناس حين يقولون بزلاقة إن لكل مسألة وجهين. فالمشكلة الحقيقية الكامنة في نظريات الجوهرائية والحصرية، أو في العوائق والأطراف، هي أنها تولد الاستقطابات التي تبرئ وتغفر الجهل والدهمائية بأكثر مما تجعل المعرفة ممكنة. بل إن النظرة العجلى إلى المصائر القريبة العهد للنظريات المتعلقة بالأعراق، وبالذلة الحديثة، وبالقوموية الحديثة تكفي نفسها للتحقق من هذه الحقيقة المؤسسية. إذا عرفت مسبقاً أن التجربة الأفريقية أو الإيرانية أو الصينية أو اليهودية أو الألمانية إنما هي في الأساس تجربة متكاملة، متناسقة، منفصلة، وأنها لذلك غير قابلة للفهم إلا من قبل الأفارقة، أو الإيرانيين، أو الصينيين، أو اليهود، أو الألمان، فإنك أولاً تفترض جوهرائية ما هو في اعتقادي مخلوق تاريخياً ونتاج للتأويل - وأعني: وجود الأفريقانية، أو اليهودانية أو الألمانية، أو في هذا الخصوص الشرقانية والغربانية. ثانياً يُحتمل نتيجة ذلك أن تذود عن الجوهر أو التجربة نفسها بدلاً من أن تشجع المعرفة الكاملة بها ويتشابكتها وبعتمادها على معارف أخرى. وحصيلة لذلك، فإنك ستحط من منزلة تجارب الآخرين المختلفة.

إذا ما اعترفنا بدءاً بالتواريخ الشديدة التعقيد والتشابك للتجارب الخاصة لكن المتقاطعة المتداخلة رغم ذلك - تجارب النساء، والغربيين، والسود، والدول والثقافات القومية - فلن يكون ثمة من سبب فكري محدد لمنح كل واحدة من هذه التجارب أو منحها جميعاً مقاماً مثالياً ومنفصلاً من حيث الجوهر. بيد أننا سنظل نود الحفاظ على ما هو قد متفرد في كل منها بشرط أن نحافظ أيضاً على قدر من الإحساس بالروح المنجمية الإنسانية وبالتناقضات الفعلية التي تسهم في تشكيلها، والتي هي جميعاً أجزاء منها. وثمة مثال ممتاز على هذا المقترَّب كنتُ قد ذكرته سابقاً، وهو مجموعة المقالات المدرجة في كتاب اختراع التراث، وهي مقالات تناقش تقاليد مخترعة بالغة التخصص والمحلية (كحفلات البيعة الهندية، ومباريات كرة القدم الأوروبية) لكنها، رغم شدة تباينها، تشترك في خصائص متشابهة. والنقطة الدالة في الكتاب هي أن هذه الممارسات الشديدة التنوع يمكن أن تُقرأ وتُفهم مجتمعة لأنها تنتمي إلى مجالات من التجربة الإنسانية قابلة للمقارنة، وهي تلك التي وصفها هوبسبارم بأنها تحاول تأسيس الاستمرارية مع ماضٍ تاريخي ملائم<sup>(٣٧)</sup>.

إننا بحاجة إلى منظور مقارن، أو بالأحرى، طباقي <بمعنى الطبايق الموسيقي> كي نبصر علاقةً بين طقوس التتويج في إنكلترا وحفلات البيعة الهندية في أواخر القرن التاسع عشر. أي أنه ينبغي علينا أن نملك القدرة على أن نتأمل بإمعان ونؤوِّك، تجارب متفاوتة معاً، لكل منها برامج أهدافها وتساوع تطورها، وتشكيلاتها الداخلية الخاصة، وتناسقها الداخلي ونظام علاقاتها الخارجية، وكل منها تتعايش وتتفاعل مع غيرها. إن رواية كبلنغ، كيم، مثلاً، تحتل مكانة خاصة جداً في تطور الرواية الإنكليزية وفي المجتمع الفيكتوري في مرحلته المتأخرة، بيد أن الصورة التي تحملها عن الهند ذات علاقة متضادة

بعمق مع تطور الحركة الساعية إلى استقلال الهند. فإذا تم تمثيلُ الرواية أو الحركة السياسية أو تأويلُ إحداهما منفصلةً عن الأخرى، فإن هذه أو تلك سيفوتها إدراكُ التفاوت الحاسم بين الاثنتين الذي أضفته عليهما التجربةُ الفعليةُ للامبراطورية.

ثمة نقطة أخرى تتطلب التوضيح. لا يُقصد من عبارة "تجارب متفاوتة" الدورانُ حول مشكلة العقائدية وتحاشيها. وعلى العكس تماماً، فما من تجربة يتم تمثيلها أو تأويلها يمكن أن توصفَ بالفورية، بالضبط كما أنه لا يمكن أن نصدّق كليةً أيُّ ناقدٍ أو مؤرِّكٍ رجلاً كان أو امرأة، يزعم أنه اكتسب منظوراً أرخميدسياً غير معرّضٍ لـ <تأثيرات> التاريخ أو الإطار المشهدي الاجتماعي. إن هدفي التأويلي السياسي (بالمعنى الأوسع للكلمات) من إقحام تجربة إقحاماً تجاورياً مع أخرى، وترك التجارب تتبارى وتتصادم إحداهما مع الأخرى، هو أن أضع الآراء والتجارب المتقاربة عقائدياً وثقافياً، والتي تسعى إلى نفي ما يختلف عنها من آراء وتجارب أو قمعها، في سياق من التأين. إن كشف التفاوت ومسرحته ليضينان ويبرزان الأهمية الثقافية للعقائدية، بدلاً من أن يسعيا إلى التقليل منها، الأمر الذي يمكننا من تقدير قوة العقائدية وفهم تأثيرها الدائم.

لنقابلُ إذنُ بين نصّين متعاصرين تقريباً ينتميان إلى أوائل القرن التاسع عشر (إلى الـ ١٨٢٠ات منه) : الأوّل هو وصف مصر بكل ما فيه من تناسق ضخم دماغ، والثاني مجلد رقيق بالمقارنة هو عجائب الآثار لعبد الرحمن الجبرتي. والوصف هو المسرد المؤلف من أربعة وعشرين مجلداً لحملة نابليون على مصر، وضعه فريقُ العلماء الفرنسيين الذين أخذهم معه. أما الجبرتي فقد كان أحد أعيان مصر وعلماؤها، أو قادتها الدينيين، وقد شهد الحملة الفرنسية وعاش أحداثها. خذ أولاً الوصف التالي من المقدمة العامة لـ وصف مصر التي كتبها جان-باپتيست-جوزيف فورييه:

تحتل مصر، في تموضعها بين إفريقيا وAsia، وفي سهولة اتّصالها بأوروبا، مركزَ القارة القديمة. ولا تقدّم هذه البلادُ سوى الذكريات العظيمة؛ فهي أرض الفنون، وهي تحفظ مآثر لا تحصى؛ وماتزال معابدُها الرئيسية والقصورُ التي سكنها ملوكها قائمة - رغم أن أقلّ صروحها عراقيةً كانت قد سُيّدت حين حدثت حروبُ طروادة. وقد رحل كلُّ من هومر، وليكيكس، وسولون، وفيثاغورس، وأفلاطون إلى مصر لدراسة العلوم، والدين، والقوانين؛ وأسس الإسكندرُ فيها مدينةً عامرة بالثراء والرفاه، مدينةً تمتعت، لزمّن طويل، بالسيادة التجارية، وشهدتُ هوميوس قيصر، ومارك أنتوني، وأغسطس يقررون فيما بينهم مصيرَ روما ومصيرَ العالم بأسره. ومن هنا يليق بهذا البلد أن يجذب اهتمام الأمراء العظام الذين يتحكمون بمصائر الأمم.

ولم يحدث مرّة أن حشدت أمةً من الأمم لنفسها قوةً ذات شأو، سواء في الغرب أو في آسيا، دون أن تقودها هذه القوةُ أيضاً بأنحاء مصر، التي اعتُبرتُ بوجه من الوجوه نصيبها الطبيعي<sup>(٣٨)</sup>.

يتحدث فورييه بوصفه الناظر المعقلن لغزو نابليون لمصر عام ١٧٩٨. ويقوم الترجيعُ الرنان للأسماء العظيمة التي يستدعيها، وموضوعةً الفتح الأجنبي، وتاريخه، وطبيعته ضمن المدار الثقافي للوجود الأوروبي - كل ذلك يقوم بتحويل الفتح من صيدام بين جيش فاتح وآخر مهزوم إلى عملية أشد طويلاً، ويطناً وأكثر قابلية، كما هو واضح، لأن تستسيغها الحساسيات الأوروبية المنطوية داخل افتراضاتها الثقافية الخاصة من ما يمكن أن تكون التجربةُ المعرّقة قد شكّته بالنسبة لمصري تحمل أعباء الفتح.

في الوقت عينه تقريباً يسجل الجبرتي في كتابه سلسلةً من التاملات المبرّحة والحادة

الملاحظة؛ وهو يكتب كواحد من الأعيان الدينيين محاصر يسجل غزوَ وطنه وتدمير مجتمعه.

سنة ثلاث عشرة ومائتين والـف < للهجرة، ١٧٩٨ م >\*

وهي أول سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة، والوقائع النازلة والنوازل الهائلة، وتضاعف الشرور وترادف الأمور، وتوالي المن واختلال الزمن، وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع، وتتابع الأموال واختلاف الأحوال، وفساد التدبير، وحصول التدمير، وعموم الخراب وتواتر الأسباب، [ثم يلتفت كما يفعل المسلم المؤمن، ليتأمل نفسه وشعبه] يقول القرآن [٩/١١] "وما كان ريك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون"<sup>(٣٩)</sup>.

لقد رافق الحملة الفرنسية فريقٌ كامل من العلماء الذين كانت مهمتهم أن يُجروا مسحاً لمصر كما لم تُمسح في تاريخها كلُّه من قبل - وكانت الحصيلة ذلك الوصف العملاق - وأما الجبرتي فعيناهُ مفتوحتان على حقائق القوة وحدها، وهو لا يقدر شيئاً سواها، هي التي أحس بأن كنهها يشكل عقاباً لمصر. وتتوء القوة الفرنسية بآثارها على وجوده كمصري مهزوم، وهو وجود تم ضغطه بالنسبة له إلى مادة خاضعة مستعبدة، لا يكاد يكون بوسعها سوى تسجيل خطرات الجيش الفرنسي في مجيئه وذهابه، ومراسيمه المتعطسة، وإجراءاته الكاسحة الفظافة، ومقدرته الرهيبة التي بدأ أن لا ضابط لما تشاء أن تفعله تبعاً لمقتضيات لم يكن بوسع مواطني الجبرتي أن يؤثرها فيها. إن التعارض بين السياسة التي أنتجت الـ وصف وبين استجابة الجبرتي الفورية لتعارض صارخ، وإنه ليُبرز الأرضية التي يتنازعانها إبرازاً يتسم بلامساواة بالغة.

ليس من الصعب تقصّي نتائج موقف الجبرتي، وهو في الواقع ما فعلته أجيال من المؤرّخين، وما سافعله إلى حد ما في قسم لاحق من هذا الكتاب. فلقد أفرزت تجربة الجبرتي عداءً عميقاً للجذب للغرب يشكل موضوعاً لجوجة في التاريخ المصري، والعربي، والإسلامي، وتاريخ العالم الثالث؛ ويوسع المرء أن يجد في الجبرتي أيضاً بذور <حركة> الإصلاح الإسلامية، التي طرحت منظومةً بشرتها فيما بعد الشيخ الأزهري والمصلح العظيم محمد عبده ومعاصره البارز جمال الدين الأفغاني، وهي أن على الإسلام أن يحدث نفسه كي ينافس الغرب أو أن يعود إلى جذوره المكينة كي يكون أقدر على أن يصادمه. وإضافة، فقد كان الجبرتي يتحدث في لحظة مبكرة من تاريخ الموجة الهائلة من الوعي القومي للذات التي تُوجت بالاستقلال المصري، وبالنظرية والممارسة الناصرية، وبالحرركات المعاصرة لما يسمّى الأصولية الإسلامية.

إلا أن المؤرّخين لم يقرأوا باستعدادٍ عفوياً تطوّر الثقافة والتاريخ الفرنسيين في إطار معطيات حملة نابليون المصرية. (ويصدق الأمر على الحكم البريطاني للهند، الذي كان مداه وثارؤه من الضخامة بحيث أصبح حقيقةً من حقائق الطبيعة لدى الأفراد المنتمين إلى الثقافة الامبريالية). ومع ذلك، فإن ما يقوله الباحثون والنقاد المتأخرون عن النصوص

\* — العنوان من إضافتي، وقد اقتبسْتُ نص الجبرتي الأصلي بدلاً من أن أترجم الترجمة الانكليزية. وقد أضاف المؤلف إلى نص الجبرتي عبارة تقول "يقول القرآن" ورقم السورة والآية الكريمة. راجع نص الجبرتي في عجائب الآثار في التراجم والأخبار، طبعة دار الفارس، بيروت، ج ٢، ص ١٧٩. والمؤلف يقتبس النص من طبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٥٨ - ١٩٦٧، ج ٤، ص ٢٨٤؛ وهي غير متوفرة لدي، وقد يكون ما أضافه موجوداً فيها، والله أعلم.

الأوروبية، التي تدين بوجودها، حرفياً، لـ وصف مصر بما قام به من تدعيم وتعزيز لفتح الشرق، هو أيضاً، وذلك مما يشيق\*، وظيفة أدائية مخففة وضمنية إلى درجة بعيدة من وظائف ذلك النزاع السابق. وأن يكتب المرء اليوم عن نرفال وفلوبير، اللذين اعتمد عملهما اعتماداً ضخماً على الشرق، هو أن يعمل في مجال قام بتخطيطه أصلاً الانتصارُ الامبريالي الفرنسي، وأن يقتفي خطاه ويوسعها على مدى ١٥٠ عاماً من التجربة الأوروبية، مع أن المرء إذ يقول هذا فإنه يُبرز ويضيء، من جديد التعارض الرمزي بين الجبرتي وفورييه. لم يكن الفتح الامبريالي تمزيقاً للحجاب يحدث مرّة وينتهي الأمر، بل كان حضوراً مُأسساً يتكرر باستمرار، في الحياة الفرنسية، حيث اتخذت الاستجابة للتفاوت الصامت والمدمج بين الثقافة الفرنسية والثقافات المخضعة اشكالاً متنوعة.

إن فقدان التناظر للالت صادم. فنحن نفترض، في حالة أولى، بأن الجزء الأفضل من التاريخ في الأراضي المستعمرة كان وظيفة أدائية للتدخل الامبريالي؛ وفي حالة ثانية، ثمة افتراض لا يقل عناداً بأن النشاطات الاستعمارية كانت هامشية، بل ربما كانت أيضاً شاذة بالنسبة للنشاطات المركزية للثقافات الحواضرية العظيمة. وهكذا، فإن ثمة ميلاً في علم الانسان <الانثروبولوجيا>، والتاريخ، والدراسات الثقافية في أوروبا والولايات المتحدة إلى اعتبار تاريخ العالم بأكمله قابلاً للمعاينة من قبل ذاتٍ غربية فائقة تنتزع صرامتها المؤرخنة الحقلية <نسبة إلى الحقول الدراسية> التاريخ، أو، كما في مرحلة ما بعد الاستعمار، تعيد التاريخ لشعوب وثقافات "دونما" تاريخ. ولم يركز إلا القليل من الدراسات النقدية المستوفية على العلاقة بين الامبريالية الغربية الحديثة وثقافتها، الأمر الذي يجعل انسداد تلك العلاقة التكافلية بعمق نتيجة للعلاقة عينها. وبصورة أكثر تخصيصاً، فإن اعتماد الروايات الواقعية الفرنسية والإنكليزية العظيمة على حقائق الامبراطورية اعتماداً شكلياً وعقائدياً فانقاً لم يُدرس هو أيضاً أبداً من موقع نظري عام. وفي اعتقادي أن أعمال الحذف والإنكار هذه يعاد إنتاجها في المناظرات الصحفية الصارخة حول فكفكة الاستعمار، التي تقول فيها الامبريالية دائماً، في واقع الأمر: إنكم ما أنتم عليه بفضلنا؛ وحين غادرنا، انقلبتم إلى حالتكم المنكرة؛ اعلّموا ذلك لأنكم إن لم تعلموه فلن تعلموا شيئاً، فمن المؤكد أن القليل فقط مما يمكن أن يُعرف عن الامبريالية قد يكون ذا عون لكم أو لنا في الزمن الحاضر.

لو كانت القيمة المتنازع عليها للمعرفة بالامبريالية مجرد مسألة جدالية حول المنهجية أو المنظورات الجامعية في التاريخ الثقافي، لكان لنا مسوغ في اعتبارها غير ذات خطورة، رغم أنها قد تكون جديرة بأن نلاحظ. بيد أننا في الحقيقة نتحدث عن تشخيص في عالم القوة والامم شيق وهام إلى درجة تفرض الاهتمام. ليس ثمة من شك، مثلاً، في أن النكوص الفائق في حدته إلى المشاعر القبلية والدينية عبر العالم كله خلال العقد الماضي قد رافق وعمق العديد من التباينات بين الدول التي ظلت قائمة منذ مرحلة الامبريالية الأوروبية العالية - إن لم تكن قد خلقتها أصلاً تلك المرحلة. وعلاوةً، فإن الصراعات المتنوعة على السيطرة بين الدول، والقوميات، والمجموعات العرقية، والأقاليم، والكيانات

\* - اقترح توليد الفعل 'شاق، يشيق' واسم الفاعل 'شائق، شيق' للدلالة على الكلمة الانكليزية "interesting" والصيغة الفعلية منها لأن 'يشوق' ذو دلالات مختلفة.

الثقافية قد قامت بالتحكم التلاعبي بالرأي والإنشاء وتضخيمهما، وابتناج التمثيلات العقائدية الإعلامية واستهلاكها، وتبسيط أمور اللغة التعقيد والتشابك وتقليصها إلى متداولات بسيطة يسهل توظيفها واستغلالها في خدمة سياسات الدولة. وقد أدّى المثقفون في هذا كله دوراً هاماً، لم يبلغ في رأيي درجة أكثر حسماً وتعريضاً للشبهة <ومساساً بالكرامة> مما بلغه في مجال تقاطع التجربة والثقافة الذي هو ميراث الامبريالية حيث تتم سياسات التأويل الدنيوي من أجل رهانات عالية جداً. ومن الطبيعي أن رجحان القوة كان إلى جانب المجتمعات التي شكّلت نفسها ذاتياً بصفتها "غربية"، وإلى جانب المثقفين العموميين الذين يؤدّون وظيفة المدافعين عنها والمنظرين العقائديين لها.

لكن بعض الاستجابات الشيقة لهذا الخلل في التوازن حدثت في عدد من البلدان التي كانت قد خضعت للاستعمار في الماضي. فقد أبرزت بعض الدراسات القريبة العهد للهند والباكستان بشكل خاص (ع.م: دراسات تابعة) التواطؤات بين دولة الأمن ما بعد الاستعمارية والنخبة القومية المثقفة؛ وقد أنتج مثقفون معارضون عرب، وأفارقة، وأميريكيون جنوبيون دراسات نقدية متشابهة. غير أنني سأركز هنا إلى درجة أكبر على التلاقي <التسائل> المؤسف الذي يدفع القوى الغربية دونما نقد أو تمحيص إلى اتّخاذ الإجراءات ضد الشعوب التي كانت مستعمرة سابقاً. خلال الوقت الذي قضيته في كتابة هذا الكتاب، كانت الأزمة الناتجة من غزو العراق للكوييت وضّمها إليه في أوجها: فقد وصل مئات الآلاف من الجنود الأميركيين، والطائرات، والسفن، والدبابات، والصواريخ، الأميركية إلى المملكة العربية السعودية؛ وقد ناشد العراق العالم العربي (المنقسم على نفسه انقساماً حاداً بين المؤيدين للولايات المتحدة مثل الرئيس المصري حسني مبارك، والعائلة المالكة السعودية، وشيوخ الخليج الآخرين، والحكومة المغربية... والمناهضين بقوة مثل ليبيا والسودان... والذين علقوا بين بين مثل الأردن والفلسطينيين) العون والمساعدة؛ وانقسمت الأمم المتحدة بين <سياسة> فرض العقوبات والحصار الأميركي؛ وفي نهاية المطاف كانت الغلبة للولايات المتحدة وشنت حرباً مدمرة مهولة. ومن الجلي أن فكرتين أساسيتين قد حُملت من الماضي وأنها ماتزالان ساندتين نافذتين: الأولى هي حق الدولة العظمى في الحفاظ على مصالحها النائية ولو اقتضى الأمر غزواً عسكرياً؛ والثانية هي أن القوى الأقل قوة هي أيضاً شعوب أقل قدراً، ذات حقوق، وقيم أخلاقية ومطالب أقل وأدنى.

ولقد كانت التصورات ووجهات النظر السياسية التي صاغتتها وتحكّمت بها تلاعبياً وسائل الإعلام على قدر بالغ من الأهمية في ذلك كله. في الغرب، كانت تمثيلات العالم العربي وما تزال منذ حرب عام ١٩٦٧ فظة، وتقليصية، وعرقية عنصرية، كما أثبت البحث النقدي في أوروبا والولايات المتحدة بما لا يترك مجالاً للريبة. لكن رغم ذلك تستمر في التدفق الأفلام والعروض التلفازية التي تصور العرب راكبي جمال دينين، وإرهابيين، وتشيوخاً أثرياء إلى درجة تثير الاشمئزاز. وحين اندفعت وسائل الإعلام معبأة وراء أوامر الرئيس بوش للحفاظ على أسلوب الحياة الأميركية وإجبار العراق على التقهقر، لم يقل أو يُعرض شيء عن الأوضاع السياسية، والاجتماعية، والثقافية في العالم العربي (التي يتأثر الكثير منها تائراً عميقاً بالولايات المتحدة)، وهي الأوضاع التي أفرزت شخصاً صدّام حسين المروّع وأفرزت في الوقت نفسه طقماً معقداً من الشخصيات الأخرى المختلفة

اختلافاً جذرياً: الرواية العربية (التي فاز الممارسُ الأبرز لها، نجيب محفوظ، بجائزة نوبل عام ١٩٨٨) والمؤسسات العديدة التي أتيج لها البقاء في ما تبقى من المجتمع المدني. ورغم أنه من الصحيح بالتأكيد أن وسائل الإعلام مجهزة تجهيزاً أفضل للتعامل مع الشخوص الساخرة والمثيرات الحسية مما هي مجهزة للتعامل مع العمليات الأكثر بطناً للثقافة والمجتمع، فإنَّ السبب العميق لهذه التصورات الخاطئة هو المحرك الحيوي الامبريالي، وبالدرجة الأولى ميوّله إلى الفصل، والجوهرية <ذات التعميم الكاسح>، والسيطرة، والاستجابات المنفصلة.

إنَّ تحديد الذات أحدَ الأنشطة التي تمارسها جميعُ الثقافات: فهو يملك بلاغيات <خاصة>، وله طقم من المناسبات، والسلطات والمراجع الثقافات (الاعياد القومية، مثلاً، وأوقات الأزمات، والآباء المؤسسون، والنصوص الأساسية، وما إلى ذلك)، ومألوفية تخصّه وحده دون غيره. لكنَّ تأكيد الهوية في عالم مترابط، كما لم يسبق له أن كان أبداً، بمقتضيات الاتصالات الالكترونية والتجارة والسفر والنزاعات البيئية والإقليمية القابلة للانتشار بسرعة هائلة، ليس مجرد مسألة مراسيمية. وما يبدو لي خطيراً خطورة خاصة هو أنه قادر على تعبئة الانفعالات المشبوبة تعبئة استسلافية <أسلافية تأسلية>، قاذفاً بالبشر، إلى زمن امبريالي غابرٍ ناصرٍ فيه الغربُ وخصومه - بلُ جسدواً ايضاً - فضائل لم تكن قد صُممت كفضائل، بوجه من القول، بل لأغراض الحرب.

ثمة مثل، قد يكون تافهاً، على هذه الاستسلافية، وهو مقالة نُشرت في الـ وول ستريت جورنال يوم ٢ أيار ١٩٨٩ لبرنارد لويس، أحد المستشرقين المقدمين الذين يعملون في الولايات المتحدة. وقد كان لويس <بهذا المقال> يُدلي بدلوّه في مسألة تغيير التراث المكنون الغربي". وقد اتخذ لويس بإزاء طلبة جامعة ستانفورد وأساتذتها الذين كانوا قد صوّتوا لصالح تعديل المنهاج الدراسي ليحتوي نصوصاً لعدد أكبر من غير الأوروبيين، والنساء، وهلم جراً - متحدثاً بوصفه ثقة ومرجعاً في الإسلام - الموقف المتطرف <التمثل في القول> إنه <إذا اندثرت الثقافة الغربية بالفعل فإنَّ عدداً من الأشياء سيندر معها وستحلّ محلّها أشياء أخرى". ولم يكن أحد قد قال قولاً بسخافة القول التالي: "إن الثقافة الغربية ينبغي أن تندثر، إلا أن منظومة لويس، التي ركزت على أمور أكثر أبهةً وجلالاً من الدقّة الصارمة، تطوّحت متابعاً مسارها باقتراح عجيب هو أنه مادامت تعديلات قائمة المراجع الدراسية المطلوبة ستكون مكافئة لأفول الثقافة الغربية، فإن موضوعات من مثل إحياء الرق، وتعدّد الزوجات، وتوزيع الاطفال (وقد سماها لويس مخصّصاً) سوف تنتج عن ذلك. وإلى هذه الاطروحة المدهشة أضاف أن "حب استطلاع الثقافات الأخرى"، وهو حبٌ يؤمن لويس بأن الغرب يتفرد به، سينتهي كذلك.

إنَّ هذه المنظومة، التي لها طبيعة الأعراض المرّضية، بل المهلّاتية قليلاً، لهي مؤشّر لا على شعور متنفج باقتصارية الإنجازات الثقافية على الغرب وحده وحسب، بل كذلك على وجهة نظر هائلة المحدودية، تكاد تكون شبة هستيرية في عدائها لبقية العالم. فإن يقول قائلٌ إنَّ الرق والمضارة سيعودان في غياب الغرب يعني أنه يلغي احتمال كون أيّ تقدم ضد الطغيان والبربرية يمكن أن يتم أو قد تم فعلاً خارج الغرب. ومنظومة لويس قادرة على دفع الإنسان غير الغربي إلى الغضب الهائج، أو إلى التبجح بمنجزات الثقافات غير



الغربية، وهو أمر لا تقل نتائجه سوءاً. وبدلاً من إثبات اعتماد التواريخ المختلفة كلٌّ على غيره، والتفاعل الضروري للمجتمعات المعاصرة بعضها مع بعض، فقد ضمن الفصلُ البلاغي للثقافات <بعضها عن بعض> نزاعاً امبريالياً سفاهاً فيما بينها - وهكذا تعاد الحكاية الموسية مرّةً بعد مرة.

ولقد حدث مثلٌ آخر عام ١٩٨٦، خلال البثِّ والمناقشات اللاحقة لبرنامج وثائقي عنوانه الأفرقة، كانت الـ بي. بي. سي <هيئة الإذاعة البريطانية> أصلاً قد كلّفت بإعداده وقدمتْ معظمَ تمويله. وقد كتب السلسلة وَسَرَدَها بصوته باحثٌ متميز وأستاذٌ للعلوم السياسية في جامعة ميشيغن هو علي مزروعى، وهو كيني ومسلم تسمو كفاعته ومصداقيته كجامعي ثقةٍ من الدرجة الأولى على كل مساعلة وريبة. وكانت لسلسلة مزروعى مقدمتان منطقيتان: الأولى، أنه للمرة الأولى في تاريخ تهيمن عليه تمثيلاتُ الغرب لأفريقيا (وأنا أستخدم هنا عبارة كريستوفر ميللر في كتابه ظلام خالٍ، بإنشاءٍ هو في كل لحظةٍ ونبرةٍ منه إنشاءً أفريقيان<sup>(٤٠)</sup>) يقوم أفريقيٌّ بتمثيل نفسه وتمثيل أفريقيا أمام جمهور غربي، هو بالضبط الجمهور الذي قامت مجتمعاته لوضع مئات من السنن بنهب أفريقيا، واستعمارها، واستعبادها؛ والمقدمة المنطقية الثانية هي أن تاريخ أفريقيا مكونٌ من ثلاثة عناصر أو، بلغة مزروعى، ثلاث دوائرٍ مُحددةٍ المركز: التجربة الأصلانية الأفريقية، وتجربة الإسلام، وتجربة الامبريالية.

بدايةً، سحب "الصندوقُ القومي للإنسانيات" دعمه المالي لبثِّ هذه السلسلة الوثائقية، رغم أن السلسلة بُنيتْ على قناة الـ بي. بي. اس <محطة الإذاعة العمومية المدعومة حكومياً> على أي حال. ثم إن الـ نيويورك تايمز، وهي الصحيفة الأميركية الأولى، نُشرتْ مقالاتٍ متواليةً تهاجم السلسلة (في ١٤ أيلول، وفي ٩ و ٢٦ تشرين الأول، ١٩٨٦) كتبها المراسلُ التلفازي (يومها) جون كوري. ولن يكون من المبالغة في شيء أن يصف المرءُ مقطوعاتٍ كوري بأنها حمقاء عديمة الإدراك أو شبه هستيرية. وأغلب ما فعله كوري هو أنه اتهم مزروعى شخصياً بأنه يمارس الاقصاءات والتأكيدات العقائدية، من مثل أنه لم يذكر إسرائيل في أيِّ مكانٍ من عمله (في برنامج عن التاريخ الأفريقي قد تكون إسرائيل بدت لمزروعى غير ذات علاقةٍ بالموضوع) وأنه يببالغ مبالغةً ضخمةً في تصوير شرور الاستعمار الغربي. وقد أفرّد كوري في هجومه بشكلٍ خاصٍ إحدائياتٍ مزروعى الأخلاقية والسياسية، في استبدالية لبققة ملطّفةٍ غريبةٍ تتضمن أن مزروعى ليس إلا دعائياً ميت الضمير، <كان ذلك سيجعله أقدّر على تحديّ الأرقام التي قدمها مزروعى عن أمورٍ من مثل عدد الناس الذين لا قوا حتفهم أثناء شق قناة السويس، والذين قُتلوا في حرب التحرير الجزائرية، وما إلى ذلك. ولقد كان متربصاً كامناً قرب سطح نثر كوري المضطرب المشعّب الواقع المزعج والمرفوض (في نظره) لأداء مزروعى نفسه. فهذا هوذا، في نهاية المطاف، شخص إفريقيٌّ على شاشة التلفاز الغربي، في فترة البث الرئيسية، يتجرأ على اتهام الغرب بما كان قد فعله، معيداً بذلك فتح ملفٍ كان قد اعتُبر مغلقاً. ثم إن كون مزروعى قال أيضاً كلاماً حميداً عن الإسلام، وأظهر تمكنه من المنهج التاريخي "الغربي" والبلاغيات السياسية الغربية، وكونه، بياجاز، قد ظهر نموذجاً مقنعاً لكائن إنساني حقيقي - كل هذه الأمور جرت مجرى معاكساً للعقائدية الامبريالية المعادة التشكيل التي كان كوري، وربما دون قصد منه، ينطق باسمها. وفي لباب هذه العقائدية تكمن المنظومة

البدئية > التالية>: لا ينبغي على غير الأوروبيين أن يمثلوا آراءهم في التاريخ الأوروبي والأميركي إذ قامت هذه التواريخ بالتطاول العدواني على المستعمرات؛ وإذا ما فعلوا ذلك، فإنه لينبغي أن يقاوموا بشدة وصرامة.

إن الموروث الكلي لما يمكن أن يسمى استعارياً بالتوتر بين كبلنغ، الذي لم ير في النهاية سوى سياسيات الامبراطورية، وفانون، الذي حاول أن ينظر إلى ما وراء التأكيدات القومية <للذات> التي تلت الامبريالية التقليدية، لكأثرة <حقيقية>. دعنا نقبل بتسامح أنه، في ضوء التعارض بين القوة الاستعمارية الأوروبية وقوة المجتمعات المستعمرة، وُجدت ضرورة تاريخية من نمطٍ ما أدى الضغط الاستعماري عن طريقها إلى خلق المقاومة ضد الاستعمار. إن ما يعينني هو الطريقة التي تستمر بها النزاعات، بعد ذلك بأجيال، في شكل مفتقر لكنه لذلك أشد خطورة، بفضل تحالف لانقدي بين المثقفين ومؤسسات القوة يعيد إنتاج نسق تاريخ إمبريالي سابق. ويؤدي ذلك، كما أشرت سابقاً، إلى سياسيات فكرية للعلامة وإلى تقليص قاسم المدى وتنوع المادة التي تُقترح كموضوعات تتطلب العناية والمساجلة الجدالية من قبل المثقفين العموميين والمؤرخين الثقافيين.

ماهي قائمة الاستخطاطيات المتنوعة التي يمكن استخدامها لتعريض وتوسيع وتعميق وعينا بالطريقة التي يتفاعل بها ماضي المواجهة الامبريالية وحاضرها وأحدهما مع الآخر؟ يبدو لي هذا السؤال ذا أهمية فورية، وهو بحق يوضح الفكرة الكامنة وراء <تأليف> هذا الكتاب. دعني أقدم أيضاً لفكرتي بإيجاز شديد باستخدام مثلين أقدمهما بطريقة تدرية لها، فيما يبدو لي، فائدتها؛ وفي صفحات تالية سأقدم مسرداً أكثر رسمية ومنهجية للمسائل وللتأويلات والسياسيات الثقافية التي تتلو.

قبل بضع سنوات، التقيتُ مصادفةً برجل دين مسيحي عربي كان قد حضر إلى الولايات المتحدة، كما أخبرني، في مهمة ملحة ومجوجة جداً. ولأنني شخصياً أنتمي بالولادة إلى الأقلية الصغيرة لكن المهمة التي يخدمها ويرعاها - وهي طائفة البروتستانتين المسيحيين العرب -، فقد كنت مشوقاً جداً لمعرفة ما لديه من القول. فمذات ١٨٦٠ات كان وما يزال ثمة منجمع بروتستانتية مؤلف من بضع مذاهب متناثرة عبر شرقي المتوسط <الليفانت>، تكون إلى درجة بعيدة نتيجةً للتنافس الامبريالي على المنكفئين المهتمين ودوائر الرعية في الامبراطورية العثمانية، وبشكل رئيسي في سورية، ولبنان، وفلسطين. ومع مرور الزمن، طبعاً، اكتسبت هذه التجمعات المللية - المشيخيون والإنجيليون والأسقفيون والمعمدانيون، وغيرهم - هوياتها وتقاليدها المائزة، ومؤسساتها الخاصة، التي أدت كلها دون استثناء دوراً مشرفاً في عصر النهضة العربية.

لكن، بعد ما يقارب ١١٠ سنوات، بدأت المجامع الكنسية والكنائس الأوروبية والأميركية عينها التي كانت قد أعطت الشرعية للجهود التبشيرية المبكرة ودعمتها بالفعل، وكأنها، فجأة ودونما سابق إنذار، تعيد النظر في المسألة. فقد اتضح لها أن المسيحية الشرقية قد شككتها في الواقع الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية (التي جاء منها، فيما ينبغي أن يلاحظ، أغلب المنكفئين المهتمين إلى البروتستانتية في شرقي المتوسط: فلقد أخفق المبشرون المسيحيون في القرن التاسع عشر إخفاقاً تاماً في هداية المسلمين واليهود على حد سواء). وهام المسؤولون الغربيون عن المنجمعات البروتستانتية العربية، الآن في ال

١٩٨٠ات، يشجعون قسسهم على العودة إلى اكناف الارثوذكسية. وقد كانت الأحاديث تدور حول سحب الدعم المالي، وإغلاق الكنائس والمدارس، بل حول إلغاء الأمر كله بمعنى ما. لقد اقترفت السلطات التبشيرية خطأً قبل مائة عام ببيتري المسيحيين الشرقيين عن الكنيسة الرئيسية، ولقد أن الأوان لعودتهم إليها.

كانت هذه النهاية المحتملة، بالنسبة لصديقي الكاهن، قاصمة بحق؛ ولولا الحساسية المفجوعة الصادقة المعتملة <في نفسه>، لربما كان المرء اعتبر الأمر كله مجرد نكتة فظة. بيد أن ما صدمني بقوة هو الطريقة التي صاغ بها صديقي حجته. فهذا ما جاء إلى أميركا كي يقوله لرؤسائه الكنسيين: إنه يتفهم النقطة المعتدلة الجديدة التي يطرحونها، وهي أن <الدعوة> المسكونية الحديثة ينبغي بشكل عام أن تتوجه نحو حل المذاهب الصغيرة والحفاظ على المنجم الرئيسي، بدلاً من تشجيع هذه المذاهب على البقاء مستقلة عن الكنيسة الرئيسية. وذلك أمر قابل للنقاش. لكن ما بدا امبريالياً مريعاً ونابغاً بإطلاق من عالم سياسيات القوة والسلطة، كما قال، هو التجاهل الكلي الذي يتم به ببساطة شطب قرن ونيف من التجربة البروتستانتية العربية كما لو أنها لم تكن أبداً. قال لي صديقي المتأثر تأثراً بالغاً: يبدو أنهم لا يدركون أننا، فيما كنا ذات يوم تلامذتهم ومنكفئهم، أصبحنا في الواقع لما ينوف على القرن شركاهم. لقد وثقنا بهم وبتجربتنا الخاصة. ولقد طوّرنا كرامتنا وتكاملنا الخاصين وعشنا هويتنا البروتستانتية العربية داخل جوتنا نحن، لكن روحياً داخل جوههم أيضاً. كيف يتوقعون منا أن نمحو تاريخنا الحديث، وهو تاريخ مستقل ذاتياً؟ كيف يمكن أن يقولوا إن الخطأ الذي اقترفوه قبل قرن من الزمان يمكن أن يُصحح اليوم بجرة قلم في نيويورك أو في لندن؟

ينبغي أن يلحظ المرء أن هذه القصة المؤثرة تتعلق بتجربة امبريالية هي جوهرياً تجربة تعاطف وتلاؤم، لا عداوة، أو مقت، أو مقاومة. ولقد كانت المناشدة التي يقوم بها أحد الطرفين مناشدة لقيمة تجربة متبادلة. صحيح أنه كان ثمة ذات يوم رئيس ومرؤوس، لكن كان ثمة حوار وتواصل أيضاً. ويوسع المرء، في اعتقادي، أن يرى في هذه القصة القوة على منح الاهتمام والعناية وعلى حجبهما، وهي قوة جوهرية الأهمية لـ <عملية> التآويل والسياسة. والحجة الضمنية التي قدّمها السلطات التبشيرية الغربية هي أن العرب كانوا قد أفادوا فائدة ثمينة مما وهب لهم، غير أن مسار العطاء في علاقة التبعية والانضواء التاريخيين هذه كان باتجاه واحد، وكانت الفائدة في جانب واحد. <أي أن> التبادلية كانت قد اعتبرت أساساً مستحيلة.

تلك حكاية مئّلية عن منطقة من الاهتمام - قد تزيد أو تقل من حيث الحجم، وقد تتفاوت من حيث القيمة والنوعية، - يفرسها للتآويل الوضع ما بعد الامبريالي.

والنقطة العامة الثانية التي أود أن اطرحها يمكن أن تُطرح هي أيضاً عن طريق المثل. إن أحد الموضوعات المكنونة الشرائعية للتاريخ الفكري الحديث هو تطور الإنشاءات المسيطرة والتقاليد العقلية <نسبة إلى حقول الاختصاص> في الميادين الرئيسية للاكتناه العلمي والاجتماعي والثقافي. ولقد استخلصت مناسباً هذا الموضوع، دونما استثناء واحد أعرفه، مما اعتُبر وما يزال يُعتبر بصورة حصرية منابع غربية. ويشكل عمل فوكو أحد الأمثلة على هذا، كما يشكل عمل ريموند وليمز، في مجال مختلف، مثلاً آخر. وإنني بشكل

أساسي شديد التعاطف مع الاكتشافات الأنسابية لهذين الباحثين المتمكنين، وأدين لهما بالكثير. بيد أن التجربة الامبريالية بالنسبة لكليهما تكاد تكون غير علائقية، وذلك فوات **«سَهْوً»** نظري عابر هو المعيار السائد في الحقول الثقافية والعلمية الغربية باستثناء دراسات شتية في تاريخ علم الإنسان - من مثل كتاب يوهانس فابيان الزمن والأخر وكتاب طلال أسد علم الإنسان والمواجهة الاستعمارية - أو في تطور علم الاجتماع، كما في كتاب براين تيرنر ماركس ونهاية الاستشراق<sup>(٤١)</sup>. ولقد كان جزء من الباعث الكامن وراء ما حاولت أن أفعله في كتابي الاستشراق أن أظهر اعتماداً ما بدا حقولاً ثقافية منفصلة مقطوعة وأبي-سياسية على تاريخ بالغ الخسة والدناءة من العقائدية الامبريالية والممارسة الاستعمارية.

غير أنني سأعترف بانني كنت أيضاً بشكلٍ واعٍ أحاول أن أعبر عن الاستياء من جدران الإنكار المدعومة التي تم تشييدها حول دراسات السياسة policy studies التي تمرر نفسها بوصفها مشاريع ومبادرات غير مثيرة للجدال، تعاملية **«براغماتية»** جوهرية، وبحثية. وأياً كان التأثير الذي حققه كتابي فإنه لم يكن ممكناً لو لم يكن ثمة أيضاً استعداد لدى جيلٍ شابٍ من الباحثين، في الغرب وفي العالم الذي كان مستعمراً سابقاً، لإلقاء نظرة طازجة على تواريخهم الجماعية. ورغم الحدة اللاذعة والاتهامات المضادة التي أعقبت جهودهم، فقد ظهر العديد من الأعمال التنقيحية الهامة. (والواقع أنها كانت قد بدأت تظهر في زمن مبكر، منذ مائة عام، أثناء مقاومة الامبريالية عبر العالم غير الغربي بأسره.) والعديد من هذه الأعمال الأقرب عهداً، التي ناقش بعضها في أمكنة أخرى من هذا الكتاب، قيمةٌ لأنها تتجاوز الاستقطابات المتشائمة الجامدة **«التي تضع»** الشرق ضد الغرب، وتسعى بطريقة ذكية ومحسوسة إلى فهم التطورات اللامتجانسة، والشاذة في كثير من الحالات، التي كانت تفوت من يُسمون بالمؤرخين العالميين كما تفوت المستشرقين الاستعماريين، الذين كانوا ينزعون إلى حشد كميات هائلة من المادة حشد القطيع تحت تسميات بسيطة وكنية الاحتواء. وبين الأمثلة الجديدة بالذكر دراسة بيتر غران للجذور الإسلامية للرأسمالية الحديثة في مصر، ويحث جوديث تركز عن الأسرة المصرية وبنية القرية تحت تأثير الامبريالية، وعمل حنا بطاطو الشامخ الضخم عن تشكل مؤسسات الدولة الحديثة في العالم العربي، ودراسة إس. إتش. العطاس العظيمة: أسطورة الاصلاني الكسول<sup>(٤٢)</sup>.

ومع ذلك فإن القليل جداً من الأعمال قد عالجت الأنسابية الأكثر تعقيداً للثقافة والعقائدية المعاصرة. وثمة **«في هذا المجال»** جهد جدير بالملاحظة هو العمل المنشور حديثاً لطالبة دكتوراه هندية في جامعة كولومبيا، وهي باحثة متمرسة ومدرسة للادب الإنكليزي كُشفَ بحثها التاريخي والثقافي، في اعتقادي، الأصول السياسية للدراسات الإنكليزية الحديثة وموضعها إلى درجة دالة في نظام التربية الاستعمارية الذي فرض على الاصلانيين في هند القرن التاسع عشر. إن قدرأ كبيراً مما في كتاب غوري فيسواناثان اقنعة الفتح يثير اهتماماً غير عادي، لكن نقطتها الأساسية مهمة **«في حد ذاتها»**: وهي أن ما اعتُبر تقليدياً حقلاً دراسياً خلق كلياته من قبل الشباب البريطاني ومن أجلهم كان قد خلق أولاً من قبل الإداريين الاستعماريين في أوائل القرن التاسع عشر بقصد التحديد والإصلاح العقائديين لشعب هندي تكمن في أعماقه الطاقة على التمرد، ثم استورد إلى

انكثرة لغرض مختلف جداً عن ذلك لكنه مرتبط به<sup>(٤٣)</sup>. والأدلة التي تقدمها هي، في اعتقادي، دامغة لا تقبل الجدل، ونقية من "الأصلانية"، وهي عامة تحدد إحداداً خاصاً بمعظم الدراسات ما بعد الاستعمارية. لكن الأمر الأكثر أهمية هو أن هذا النمط من الدراسة يرسم خريطة لعلم آثار معرفة متنوع ومتواشج تكمن وقائعه غائرة تحت السطح الذي ما يزال يُفترض حتى الآن أنه الموضوع الحق، والنصيحة الحق، لما ندرسه بوصفه الأدب والتاريخ والثقافة والفلسفة. ومنظويات هذا وتضميناته شاسعة، وهي تنتزعنا بعيداً عن الماحكات التي غدت مكرورة رتيبة عن تفوقية الأنموذج الغربية على غير الغربية.

ليس ثمة من سبيل لتفادي حقيقة أن اللحظة العقائدية والسياسية الراهنة لحظة صعبة بالنسبة لمعايير العمل الفكري البديلة التي أقرحها في هذا الكتاب. وليس ثمة من مهرب أيضاً من النداءات الضاغطة والملحة التي يُحتمل أن يستجيب لها الكثيرون منا، <والآتية> من قضايا متاهية للزوال ومن ميادين معارك مضطربة. والقضايا التي تشبكني شخصياً كعربي هي، للأسف، شواهد مثالية على ذلك، وتزيدها تفاقماً الضغوط التي تمارسُ عليّ كأميركي. ومع ذلك، فإنّ مكوثاً من مكوثات الحيوية المعارضة، مقاوماً وقد يكون في نهاية المطاف ذاتياً، يُحتمل في المهنة الفكرية أو النقدية <ذات الرسالة> نفسها، وعلى المرء أن يعتمد على تعبئة هذا المكوث، خصوصاً حين تبدو العواطف المشبوبة الجماعية في الأغلب مسخرة لحركات السيطرة <المسكونة بحمياً> الوطنية والإرغام القومي، حتى في دراسات وحقول معرفية تزعم أنها إنسانية. وإن نقف في مواجهة قوتها متحدّين لها، ينبغي أن نجدد <لنصرتنا> ما نحن قادرين بحق على إدراكه من ثقافات ومراحل تاريخية أخرى.

بالنسبة للباحث المتمرس في الأدب المقارن - وهو حقل <معرفي> أصله وغايته تجاوز الانعزالية والانغلاق والمحلية الضيقة وروية عدد من الثقافات والآداب معاً، طباقياً - فإنّ ثمة قدراً كبيراً مما تم استثماره حتى الآن، وبالتحديد في هذا النمط من الترياق المضاد للقومية التقليدية والمذهبية الجامدة اللانقدية: فلقد كان دستور الأدب المقارن وأهدافه المبكرة، بعد كل حساب، اكتساب منظور يتجاوز أمة المرء، وروية نوع من الكلية بدلاً من الرقعة الدفاعية الضئيلة التي تقدمها ثقافة المرء الخاصة، وأدبه وتاريخه الخاصان. وأنا أقترح أن ننظر أولاً إلى ما كانه الأدب المقارن أصلاً، رؤياً وممارسة؛ وإنما لمفارقة لاذعة، كما سنرى فيما بعد، أن دراسة "الأدب المقارن" قد نشأت في مرحلة الامبريالية الأوروبية العالية وأنها مرتبطة بها ارتباطاً لا مراء فيه. وإذنا نستطيع أن نستخرج من المسار اللاحق للأدب المقارن إحساساً أفضل بما يمكنه أن يؤديه في الثقافة والسياسة الحديثتين، اللتين تواصلت الامبريالية ممارسة تأثيرها عليهما.

## V — ربط الامبراطورية بالتأويل الدنيوي

كان التراث الرئيسي لدراسات الأدب المقارن في أوروبا والولايات المتحدة، منذ ما قبل الحرب العالمية الثانية بزمن طويل وحتى أوائل الـ ١٩٧٠ات، خاضعاً بقوة لأسلوب من البحث يكاد يكون قد اختفى الآن. والسمة الرئيسية لهذا الأسلوب القديم هي أنه كان

بالدرجة الأولى بحثاً، ولم يكن ما أصبحنا نسميه نقداً. لم يعد أحد الآن يُدْرَب كما دُرِبَ إريك أويرباخ وليو شبيتزر، وهما اثنان من المقارنين الألمان العظام الذين لجأوا إلى الولايات المتحدة نتيجةً للفاشية: وهذه حقيقة كمية بقدر ما هي نوعية. فبينما يُعْرَضُ مقارنُ اليوم، رجلاً كان أو امرأة، مؤهلاته في «دراسة» الرومانتيكية بين ١٧٩٥ و١٨٣٠ في فرنسا وانكلترا وألمانيا، فإنّ الاحتمال الأرجح هو أن يكون مقارنُ الأمس، أولاً، قد درس مرحلةً أسبق؛ ثانياً، أن يكون قد قضى وقتاً طويلاً في التمهّن مع خبراءٍ متنوعين في فقه اللغة وتراث البحث في جامعاتٍ متنوعة في ميادينٍ متنوعة على مدى العديد من السنوات؛ ثالثاً، أن يكون قد امتلك تأسيساً متيناً أمناً في جميع أو معظم اللغات العريقة، واللغات الدارجة الأوروبية المبكرة وأدائها. لقد كان مقارنُ أوائل القرن العشرين فقيهاً لغوياً بلغ من التفقه في العلم وامتلك من الطاقة على العمل والتحمل ما يجعل، بكلّيات فرانسس فيرغسون في مراجعته لكتاب أويرباخ محاكاةً، أشدّ باحثينا تصلباً - أولئك الذين يتظاهرون دون رفة هذبٍ بالصرامة العلمية والاستيفاء المتقن - [بيدون] ذلولين مسترخين<sup>(٤٤)</sup>.

ولقد كان وراء مثل هؤلاء الباحثين تراثٌ أطولٌ من المعرفة الإنسانية التي اشتقت من ذلك الازدهار لعلم الإنسان الدنيوي - بما اشتمل عليه من ثورة في حقول فقه اللغة - الذي تربط بينه وبين أواخر القرن الثامن عشر وأشخاص مثل فيكو، وهردر، وروسو، والأخوين شليغل. وكان يتبطن أعمال هؤلاء الإيمان بأنّ الإنسانية تشكل كلاً مدهشاً، يكاد يكون سيمفونياً، يمكن دراسة تقدّمه وتشكلاته، من جديد ككل واحد، حصرياً بوصفها تجربة تاريخية متناغمة وديوية، لا تمثيلاً «جالياً» للإلهي. ولأنّ الإنسان هو الذي صنع التاريخ، فقد كان ثمة سبيل استثنائي خاص لدراسة التاريخ يختلف في النية كما في النهج عن العلوم الطبيعية. ولقد انتشرت هذه التبصّرات التنويرية العظيمة وتمّ تقبلها في ألمانيا، وفرنسا، وإيطاليا، وروسيا، وسويسرا، وتالياً لذلك، في انكلترا.

ليس من الابتذال للتاريخ أن يقال إنّ سبباً رئيسياً لانتشار رؤية كهذه للثقافة الإنسانية في أوروبا وأميركا في عدة أشكال مختلفة خلال القرنين الواقعين بين ١٧٤٥ و١٩٤٥، يتمثل في صعود القومية اللافت خلال المرحلة ذاتها. إنّ علاقات التداخل بين البحث (أو الأدب، في هذا الخصوص) ومؤسسات القومية لم تُدرَس بما تقتضيه من جدية، لكنّ من الواضح رغم ذلك أنّ معظم المفكرين الأوروبيين حين احتفوا بالإنسانية أو بالثقافة كانوا بشكل رئيسي يحتفون بأفكار وقيم نسبوها إلى ثقافتهم القومية الخاصة، أو إلى أوروبا متميزة عن الشرق، وعن أفريقيا بل عن البلدان الأمريكية. ولقد كان بعض ما نفع بالحياة دراستي للاستشراق تنقيدي للطريقة التي كانت بها الكونية المزعومة لميادين مثل الدراسات العريقة (لئلا نذكر علم التاريخ، وعلم الإنسان، وعلم الاجتماع) متمركزةً أوروبياً حتى التطرف، كما لو أن الآداب والمجتمعات الأخرى كانت ذات قيمةً دونية أو متجاوزة. (بل إنّ المقارنين الذين تدرّبوا في التقاليد الجليلة التي أنتجت كيرتسيس وأويرباخ لم يظهروا اهتماماً بالنصوص الآسيوية، أو الأفريقية، أو الأميركية اللاتينية). ومع تصاعد التنافس القومي والعالمي بين الدول الأوروبية خلال القرن التاسع عشر، تصاعد أيضاً مستوى الجودة في التنافس بين تراث قومي بحثي تأويلي وآخر. وتقدّم مباحثات أرنست رينان حول ألمانيا والتراث اليهودي مثلاً مشهوراً على ذلك.

إلا أن هذه القومية الضيقة، والتي كثيراً ما كانت صارخة، قد ووجهت برؤية ثقافية أكثر أرحية مثلها الآباء الفكريون لكيرتسيس وأويرباخ، وهم باحثون ظهرت أفكارهم في ألمانيا السابقة على الإمبراطورية (وربما كان ذلك تعويضاً عن التوحيد السياسي الذي ظل يراوغ ألمانيا ويفوتها تحقيقه). ثم، بعد ذلك بقليل، في فرنسا. وقد اعتبر هؤلاء المفكرون القومية أمراً زائلاً وفي النهاية ثانوياً: فما كان أكثر أهمية بكثير هو التآلف بين الشعوب والأرواح الذي يتجاوز عالم المكاتبية <البيروقراطية>، والجيش والحواجز الجمركية، والاستجنايبية. ومن هذا التراث الجامع الكلي، الذي احتكم إليه المفكرون الأوروبيون (نقيضاً للقوميين) في أوقات النزاع الحاد، ولدت فكرة أن الدراسة المقارنة للأدب قادرة على تقديم منظور عبر-قومي، بل عبر-إنساني، في <دراسة> الأداء الأدبي. وهكذا فإن فكرة الأدب المقارن لم تعبر عن الكونية وذلك النمط من الفهم للأسر اللغوية الذي اكتسبه فقهاء اللغة فحسب، بل جسدت رمزياً أيضاً السجوى الصافي الخالي من الأزمات لمملكة تكاد تكون مثالية. وقد انتصب امران اثنان فوق الشؤون السياسية التافهة <متعاليتين عليها>: جنّة عدن علمنسانية <انثروبولوجية> من نعتراً، أنتج فيها الرجال والنساء بسعادة شيئاً يسمى الأدب، وعالم خصه ماثيو أرنولد وحواريوه بأنه عالم "الثقافة" الذي لا يُسمح بالدخول إليه إلا لأفضل ما يجري التفكير فيه ويتم المعرفة به.

كانت فكرة الأدب العالمي Weltliteratur التي بلورها غوته - وهي تصورٌ تطوّح بين مفهوم "الكتب العظيمة" وتركيبية غامضة من آداب العالم كلها - مهمة جداً للباحثين المحترفين في الأدب المقارن في أوائل القرن العشرين. بيد أن فحواها العملية وعقائديتها الفاعلة، كما أشرت سابقاً، ظلتا كوناً أوروبياً، فيما يخص الأدب والثقافة، هي التي تقود الطريق وهي موضوع الاهتمام الرئيسي. وفي عالم باحثين عظماء مثل كارل فوسلر ودو سانكتس، فإن رومانيا\* بشكل أشد تخصيصاً هي التي تجعل التصنيف الضخم للأدب المنتجة في العالم تصنيفاً قابلاً للفهم وتوفّر مركزاً له؛ ورومانيا تقدم الركائز المدعّمة لأوروبا، تماماً كما أن الكنيسة والإمبراطورية الرومانية المقدسة (بطريقة تراجعية مثيرة للفضول) تضمّنان تكامل الأدب اللبائية الأوروبية. وعلى مستوى أكثر غوراً من ذلك، فإن الأدب الواقعي الغربي كما نعرفه قد انبثق من التجسد <التقمصي> المسيحي. ولقد أوضحت هذه الأطروحة المقدّمة بتشبيت عنيد أهمية دانتي الفائقة لكل من أويرباخ، وكيرتسيس، وفوسلر، وشييتزر.

ولذلك فقد كان الحديث عن الأدب المقارن يعني الحديث عن تفاعل آداب العالم بعضها مع بعض؛ غير أن الحقل كان منظماً من الناحية المعرفية كنوع من التراتبية التي تحتل أوروبا وأدبها المسيحية اللاتينية المركز والموقع الأسمى منها. فحين يُلحظ أويرباخ، في مقالة مشهورة باستحقاق عنوانها "فقه لغة الأدب العالمي"، كُتبت بعد الحرب العالمية الثانية، عدد اللغات الأدبية والآداب "الأخرى" التي يبدو أنها ظهرت إلى الوجود (كما لو أنها جاءت من لا مكان: فهو لا يذكر شيئاً عن الاستعمار أو فكفكة الاستعمار)، فإنه يعبر عن الكرب والخوف أكثر مما يعبر عن السرور لبروز احتمال يبدو غير راغب في الاعتراف به. <وهو أن> رومانيا كانت تتعرض للتهديد.<sup>(٤٥)</sup>

\* - والقصد هنا ليس إلى رومانيا الدولة المعاصرة، بل إلى الفضاء الجغرافي للغات والآداب الرومانسية.

ومن المؤكد أنّ الممارسين الأميركيين والدوائر الجامعية <في أميركا> وجدت هذا النسق الأوروبي نسقاً ملائماً لتحكاكيه. وقد تأسست أولُ دائرة أميركية للادب المقارن عام ١٨٩١ في جامعة كولومبيا، كما تأسست أولُ مجلة أميركية للادب المقارن هناك. تأمل الآن ما قاله جورج ادوارد وودبري - أول استاذٍ كرسيٍّ في الدائرة - عن هذا الحقل المعرفي:

إن أجزاء العالم تتجاذب وتتقارب، ومعها تتقارب أجزاء المعرفة، متناسجةً ببطء ومتحوّلةً إلى تلك الحالة الفكرية الواحدة التي ستغدو أخيراً، فوق مجال السياسة ومن دون أية أليةٍ مؤسسيةٍ سوى هيئات الحقوقيين ومؤتمرات الرجال المهذبين <الجنتملن>، الرابطة الحقيقية للعالم كله. ويشارك الباحث الحديث أكثرَ ممّا يشارك المواطنون الآخرون في <جني> فوائد هذا التوسيع والتواصل التفاعلي، وهذا العصر الذي هو عصر التوسّع بقدر ما هو عصر التركيز إلى درجة هائلة، وهذا التخاطب الممتد الحميم إلى ما لا نهاية له للامم وأحدتها مع الآخريات ومع الماضي: إن تجربته العقلية العادية تشمل <قديراً أعظم> من ذاكرة العرق وخيال العرق مما يتيح لاسلافه، وإطلائاً من قبّل ومن بعد هي إطلالة على آفاق أرحب وأعظم؛ فهو يعيش في عالم أضخم - بل إنه، في الحقيقة، لم يعد يولد حاملاً امتيازَ حرية <المواطنة في> مدينة فقط - أيّاً كان نيلها، بل يولد حاملاً امتيازَ تلك المواطنة الجديدة في الدولة الصاعدة - والتي كانت الحلم المبهم أو المشع لجميع الباحثين العظماء من أفلاطون إلى غوته - والتي لا حدود لها ولا عرق ولا قرة <تحكمها>، بل ثمة العقل محتلاً المكانة الفائقة الأسمى. وإن ظهر الدراسة الجديدة المعروفة باسم الادب المقارن ونموها لامران عارضان بالقياس إلى مجيء هذا العالم الأكبر ودخول الباحثين مجالَ عمله: سوف تجري الدراسة في مجراها، وستضمي متآلفةً مع عناصر مترافدةٍ أخرى إلى غايتها في <تحقيق> وحدة البشر الماثلة في الوحدة <ات> الروحية للعلوم، والفنون، والحب <أو المحبة>. (٤٦)

تُرنن هذه البلاغيات، بسذاجةٍ ودونما تعقيد، بتأثيرات كروتشه ودو سانكتس، وكذلك بأفكار فلهم فون هامبولت السابقة عليهما. بيد أن ثمة شيئاً ناعماً مستلطفاً في <عبارة> وودبري "هيئات الحقوقيين ومؤتمرات الرجال المهذبين"، شيئاً يتعرض لأكثر من التكذيب والنقض في الوقائع الفعلية للحياة في "العالم الأكبر" الذي يتحدث عنه. إن وودبري يُفعلح، في زمن الهيمنة الامبريالية الغربية الأعظم في التاريخ، في التغاضي عن ذلك الشكل المسيطر من الوحدة السياسية كي يحتفي بوحدة أعلى من هذه نفسها، وحدة مثالية قطعاً. وهو لا يوضح كيف ستتعامل "الوحدات الروحية للعلوم والفنون والحب" مع وقائع أقلّ إسعاداً، كما أنه أقلّ توضيحاً للكيفية التي يتوقع بها أن تتغلب "الوحدات الروحية" على حقائق المادية والقوة والانقسامات السياسية.

لقد حمل العمل الجامعي في الادب المقارن معه مفهوم أن أوروبا والولايات المتحدة معاً كانتا مركز العالم، لا بفضل موقعهما السياسي وحسب، بل لأن أدابهما كانت الأكثر جدارةً بالدراسة أيضاً. وحين استسلمت أوروبا للفاشية، وأفادت الولايات المتحدة بثراء من الباحثين المهاجرين العديدين الذين وفدوا عليها، لم يتجذر معهم سوى القليل القليل من إحساسهم بالآزمة، وهو أمر قابل للتفهم. لم يكن محاكاة، مثلاً، الذي كتبه أويرياخ حين كان في المنفى في استانبول هارياً من أوروبا النازية، ببساطة تمريناً في التفسير النصّي، بل كان - كما يقول هو في مقالته المكتوبة عام ١٩٥٢ التي اشترت إليها قبل قليل - فعلٌ بقاء حضاري. كان قد بدا له أن رسالته كمقارن هي أن يعرض، ربما للمرة الأخيرة، التطور المعقد للادب الأوروبي بكل تنوعاته من هوميروس إلى فيرجينيا وولف. وكان كيرتسيس قد ألف كتابه عن العصور الوسطى اللاتينية مدفوعاً بالخوف المحرك ذاته. لكن ما أقلّ ما بقي من تلك الروح في آلاف الباحثين الجامعيين في الادب الذين تأثروا بهذين الكتابين! لقد امتدح محاكاةً لأنه كتاب من التحليل الثري اللافت، لكن روح الرسالة <الماثلة> فيه ماتت



في الاستعمالات التي سُخِّرَ لها والتي كثيراً ما كانت تافهة.<sup>(١٧)</sup> وأخيراً جاء سبوتنيك في أواخر الـ ١٩٥٠ات، وحوّل دراسة اللغات الأجنبية - والأدب المقارن - إلى حقل يؤثر على الأمن القومي تأثيراً مباشراً. وقام قانونُ التعليم الدفاعي القومي<sup>(١٨)</sup> بتشجيع الحقل وترويجهِ مروجاً معه، للأسف، تمركزية عرقية وحزبية رديئة Cold Warriorism خفية أشد تواطؤاً مما كان يمكن أن يتخيله وودبري نفسه.

غير أن مفهوم الأدب الغربي الذي يكمن في لباب الدراسة المقارنة، كما يكشف محاكاة فوراً، يُبرز فكرةً معينةً عن التاريخ، ويمسرحها <مسرحاً احتدامية>، ويحتفي بها، وفي الوقت نفسه يُبهم الحقيقة الجغرافية والسياسية الأساسية التي تمنح تلك الفكرة القوة. إن الفكرة المتعلقة بالتاريخ الأدبي الأوروبي أو الغربي المتضمنة في الكتاب وفي غيره من الأعمال البحثية في الأدب المقارن لفكرةٌ مثالية في الجوهر وهي، بطريقة غير منتظمة، هيغلية أيضاً. وهكذا فإنَّ المبدأ التطوري الذي يقال إن رومانيا اكتسبت به السيطرة مبدأً اشتمالي وتركيبي توليفي. فالزيد ثم المزيد من الواقع يتم احتواؤه في أدب يتوسّع ويزداد إحكاماً من الحوليات القُرُوسْطية إلى الصروح العظيمة من السرد الروائي في القرن التاسع عشر - في أعمال ستاندا، وبلزك، وزولا، وديكنز، وپروست. ويمثّل كلُّ عمل في مسار الحركة تركيبةً من العناصر الإشكالية التي تقلل النظام المسيحي الأساسي الذي رسّخه دانتي ترسيخاً لا يُنسى في الملهاة الإلهية. وتندرج الطبقات، والاضطرابات السياسية، وانعطافات الأنساق الاقتصادية والتنظيم الاقتصادي، والحروب: كلُّ هذه المواضيع تندرج وتنطوي، بالنسبة لمؤلفين عظام مثل سرفانتس وشكسبير ومونتين، كما لأفواج من الكتاب أقل مكانة، داخل بنيات ورؤى ومستقرات متجددة بتكرار، تشهد كلها على <سلامة> النظام الجدلي الدائم الذي يتمثل في أوروبا ذاتها.

تتصادف الرؤيا الصحية لـ "أدب عالمي" التي اكتسبت مقاماً خلاصياً في القرن العشرين مع ما أفصح عنه ويلوره أيضاً منظرو الجغرافيا الاستعمارية. ففي كتابات هالفورد ماكيندر، وجورج شيزولم، وجورج هاردي، وكوروا - بوليو، ولوسيان فيفر، يظهر تقييم أكثر صراحةً بكثير للنظام العالمي، معادل في تمركزته الحواضرية وامبريالية؛ لكن بدلاً من التاريخ وحده، تتضافر الآن الامبراطورية والفضاء الجغرافي الفعلي معاً لإنتاج "إمبراطورية عالمية" تحكمها وتقودها أوروبا. بيد أنه في هذه الرؤيا المفصّح عنها جغرافياً (والتي يستند قدر كبير منها، كما أظهر هول كارتر في الطويق إلى خليج بوتني، إلى النتائج الخرائطية لاستكشافات جغرافية وفتوحات فعلية) ثمة التزام لا يقل قوةً بالإيمان بأن التفوق الأوروبي أمر طبيعي، وأنه تأوُّج لما يسميه شيزولم "امتيازات تاريخية" متنوعة أمكنت أوروبا من أن تتغلب على "الامتيازات الطبيعية" للأقاليم الأكثر خصباً، وثراءً، وسهولة بلوغ، التي سيطرت <أوروبا> عليها<sup>(١٩)</sup>. أما كتاب فيفر الأرض والتطور البشري (١٩٢٢)، وهو موسوعة مليئة بالحيوية ومتكاملة، فإنه يضارع وودبري في <سعة> مجاله وطويالته.

لقد قدم المؤلفون الجغرافيون التركيبيون العظماء لجمهورهم في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، شروحاتاً تقنية لوقائع سياسية جاهزة. إن أوروبا قد حكمت العالم نعلًا؛ والخريطة الامبريالية رخصت نعلًا للرؤيا الثقافية. أما بالنسبة لنا، بعد قرن من

الزمان، فإنَّ التتابع أو التماثل بين رؤيا أولى للنظام العالمي وأخرى، بين الجغرافيا والتاريخ الأدبي، يبدو شيئاً لكن إشكالياً. ترى، ما الذي ينبغي أن يفعله بهذا التماثل؟

أولاً، اعتقد أنه يحتاج إلى الإنصاح والنشيط، اللذين لا يمكن أن يحدثا إلا إذا أخذنا بالاعتبار الجادَّ الزمنَ الحاضرَ، وبشكل خاص: تفكيك الإمبراطوريات التقليدية، والاستقلالَ الجديدَ لعشرات الشعوب التي كانت خاضعة للاستعمار. نحتاج إلى أن ندرِك أنَّ المشهد العالمي المعاصر - أقاليم متداخلة، تواريخ متواشجة - كان قد نُقشَ وشُخِّصَ مُسبقاً في تطابقات وترافدات بين الجغرافيا والثقافة والتاريخ، <وهي تطابقات وترافدات> كانت بالغة الأهمية بالنسبة لرواد الأدب المقارن. عندها نستطيع أن نستوعب بطريقة جديدة وأشدَّ حيويةً كِلا التاريخانية المثالية التي حركتْ بوقودها خطأً <الباحث> المقارن المتعلقة بـ"الأدب العالمي"، وخريطة العالم الامبريالية بشكل محسوس في اللحظة نفسها.

لكنَّ ذلك لا يمكن أن يتحقق دون قبول أنَّ ما هو مشترك بينهما هو إحكام متقن للقوة. لقد انطوى العملُ البحثيُّ العميق بحق لأولئك الذين آمنوا بالأدب العالمي - welt literatur ومارسوه على امتياز فائق لمراقبٍ متموضع في الغرب بوسعه فعلاً أن يقوم بمسح النتائج الأدبي في العالم بنوع من المحايدة المستقلة ذات السيادة. وقد امتلك المستشرقون والمختصون الآخرون بالعالم غير الأوروبي - من علماء إنسان إلى مؤرخين، وفقهاء لغة - تلك القوة التي كثيراً ما لازمت، كما حاولت أن أظهر في مكان آخر، مشروعاً امبريالياً مطروحاً للتنفيذ بشكلٍ واعٍ. وإن علينا أن نفصح عن هذه الميول المتنوعة ذات السيادة ونرى منهجيتها المشتركة.

ثمة أنموذج جغرافي صريح في مقالة غرامشي "بعض جوانب المسألة الجنوبية". وهذه المقالة، التي لم تُقرأ ولم تُحلَّلْ بالقدر <الذي تستحقه>، هي التحليل السياسي والثقافي المتقسي الوحيد الذي كتبه غرامشي (رغم أنه لم يُنْهَها قط)؛ وهي تعالج العضلة الجغرافية المفلتة التي طرحها رفاقه من أجل المعالجة العملية والتحليل والتي تتعلق بكيفية التفكير بجنوبي إيطاليا، والتخطيط له، ودراسته، نظراً لأنَّ ثقته الاجتماعية قد جعله يبدو عصبياً على الفهم، لكنه جعله، بمفارقة ضدية، حاسماً الأهمية لفهم الشمال. إنَّ تحليل غرامشي الألمي، في اعتقادي، يتجاوز حدود علانيته الأخطوية بالأوضاع السياسية في إيطاليا عام ١٩٢٦، إذ إنه يقدم تأوُّج عمله الصحفي قبل ١٩٢٦ واستهلالاً أيضاً لـ<كتابه> دفاقر السجن الذي أعطى فيه، كما لم يعط نظيره الشامخ لوكاش، مَحْرَقَ تركيز بارزاً للأسس الأرضية، المكانية، الجغرافية للحياة الاجتماعية.

ينتمي لوكاش إلى التراث الهيغلي في الماركسية، أما غرامشي فألى ابتعاد فيكوي، كروتشوي عنها. إنَّ الإشكالية المركزية بالنسبة للوكاش في عمله الرئيسي التاريخ والوعي الطبقي (١٩٢٣) هي الزمانية؛ أما بالنسبة لغرامشي، فإنَّ التاريخ الاجتماعي والواقع، كما يمكن لمحض فحص عاجل لمفرداته التصورية أن يجلو فوراً، يدركان في إطار معطيات جغرافية - إذ تطفئ <في عمله> كلمات مثل "المنطقة"، "الأرض"، "الكتل"، "الأقاليم". وغرامشي في "المسألة الجنوبية" لا يجهد فحسب كي يُظهر أن الانقسام بين أقاليم إيطاليا الشمالية والجنوبية أساسيٌ بالنسبة للتحدي المتعلق بما ينبغي أن يفعل سياسياً بخصوص حركة الطبقة العاملة القومية في لحظةٍ من انسداد الطريق، بل إنه

ايضاً نَبِّقُ في وصفه للتكوين التضاريسي الغريب للجنوب الذي يسترعي الاهتمام، كما يقول، بسبب التقابل الصادم فيه بين الكتلة الضخمة غير المتميزة من الفلاحين، من جهة، وحضور ملاك الأراضي "الكبار"، ودور النشر الهامة، والتشكيلات الثقافية المتميزة، من جهة أخرى. ويرى غرامشي، بالدهاء النمطي الذي يميزه، كروتشه نفسه، وهو شخص يحتل مكانة سامية مهيبة في إيطاليا، فيلسوفاً جنوبياً يجد سهولة أكبر في التعامل مع أوروبا وأفلاطون مما يجد في التعامل مع بيئته الخاصة الجنوبية المتداعية.

ولذلك فإنّ المشكلة هي كيفية ربط الجنوب - الذي كان فقره والحوض الضخم من اليد العاملة فيه معرّضين بشكل خامل للسياسات والقوى الاقتصادية الشمالية - بشمال معتمد عليه. ويصوغ غرامشي الإجابة بطرق تنبئ بملاحظاته الانتقادية المشهورة عن المثقف في دفاتر كوادرنّي: إذ يدرس بييرو غوييتي، الذي فهم كمثقف ضرورة ربط الطبقة العاملة الشمالية مع الطبقة الفلاحية الجنوبية - وهي استخطاطية انتصبت في تعارض صارخ مع أفكار كروتشه وغويستينو فورتوناتو - وربط الشمال والجنوب بفضل قدرته على تنظيم الثقافة. وقد "مَوْضَع عملهُ المسألة الجنوبية في منطقة مغايرة للمنطقة التقليدية [التي تعتبر الجنوب ببساطة إقليمياً متخلفاً من إيطاليا] بإدخال الطبقة العاملة الشمالية إليه".<sup>(٤٠)</sup> بيد أن هذا الإدخال لا يمكن أن يحدث، كما يتابع غرامشي قائلاً، إلا إذا تذكّر المرء أنّ العمل الفكري أبطأ، ويعمل تبعاً لتقويمات زمنية أكثر امتداداً من تقويم أية فئة اجتماعية أخرى. فالثقافة لا يمكن أن تعايّن كحقيقة مباشرة فورية بل ينبغي أن تعايّن (كما كان له أن يقول في الدفاتر الكوادرنّي) من منظور الأبدية. إن زماً طويلاً ينقضي قبل أن تنبثق تشكيلات ثقافية جديدة؛ والمفكرون، الذين يعتمدون على سنوات مديدة من الإعداد والعمل والتراث، ضروريون لهذه العملية.

ويدرك غرامشي ايضاً أنّ المرء يحتاج، في الفترة الزمنية المديدة التي يحدث فيها تشكيل الثقافة الشبيهة بالمرجان، إلى "انقطاعات من نمط عضوي". ويمثل غوييتي واحداً من مثل هذه الانقطاعات، شرخاً أنفغر داخل البنى الثقافية التي ساندت وحجبت تعارض شمال - جنوب لزمان طويل في التاريخ الإيطالي. وينظر غرامشي إلى غوييتي بحرارة واضحة، وتقدير، ومودة من حيث هو فرد، بيد أن أهميته السياسية والاجتماعية بالنسبة لتحليل غرامشي للمسألة الجنوبية - وإنه ملانم تماماً أن المقالة غير المكتملة تنتهي بصورة مبتورة بهذه المناقشة لغوييتي - تكمن في أنه يؤكد الحاجة إلى أن يتطور تشكيل اجتماعي، ويحكم باتقان، ويبنى على الانقطاع الذي أسسه عمله، وفي إلحاحه على أن الجهد الفكري نفسه يقدم الصلة بين أقاليم التاريخ الإنساني المتباينة التي تبدو ظاهرياً مستقلة ذاتياً.

إن ما يمكن أن نسميه العامل الغوييتي يؤدي وظيفة رباطٍ نافح بالحياة يمثّل ويعبّر عن العلاقة بين تطور الأدب المقارن وظهور الجغرافيا الامبريالية، ويفعل ذلك بصورة حيوية وعضوية. وأن يكفني المرء بالقول عن كِلا نمطَي الإنشاء إنهما امبرياليان يعني الا يقول إلا القليل عن مكان حدوثهما وزمان حدوثهما. وفوق كل شيء، فإن ذلك يُسقط ما يمكننا من الإفصاح عنهما معاً، كطاقم، وبوصفهما مرتبطين بعلاقة تتجاوز العرضي، والظرفي، والآلي. ومن أجل هذا ينبغي أن ننظر إلى السيطرة على العالم غير الأوروبي من منظورٍ بديلٍ مقاومٍ يتنامى تحدياً ويتصاعد باطراد.

تفترض الإنشاءاتُ المكوَّنةُ في أوروبا الحديثة والولايات المتحدة، دونما استثناء دال، أن العالم غير الأوروبي عالم صامت، بإرادة منه أو دونما إرادة. ثمة اشتمالية؛ ثمة احتوائية؛ ثمة حكم مباشر؛ ثمة إرغام وقسر... لكن ليس ثمة إقرار - إلا في النادر - بأن الشعوب المستعمَرة ينبغي أن يُسمع منها، وأن يُعرف ما لديها من أفكار.

بوسع المرء أن يطرح منظومة أن الإنتاج والتأويل المستمرين للثقافة الغربية نفسها قد افترضا الافتراض ذاته بالضبط إلى زمن موغل في القرن العشرين، حتى حين كانت المقاومة السياسية لقوة الغرب تتصاعد في العالم الهامشي "الأطرافي". وبسبب من ذلك، وبسبب ما أدّى إليه، يغدو ممكناً الآن أن نعيد تأويل سبجَل محفوظات الثقافة الغربية كما لو كان مشروخاً جغرافياً بالفالق الامبريالي المنشط، وأن نقوم بنمط مختلف من القراءة والتأويل. قبل كل شيء، يمكن أن نعاين تاريخ حقول مثل الأدب المقارن، والدراسات الإنكليزية، والتحليل الثقافي، وعلم الإنسان بوصفه منتسباً إلى الامبراطورية بل بوصفه مُسْتَهْماً، بوجه من الكلام، في طُرُقها في ضمان التفوق الغربي على الاصلايين غير الغربيين، خصوصاً إذا كنا على معرفة بالوعي الفضائي المكاني الذي يتمثل في <مقالة> غرامشي "المسألة الجنوبية". ثانياً، يسمح لنا تغيير منظورنا التأويلي بتحدي السلطة السائدة وغير المتحداة للملاحظ الغربي الذي يزعم الحياد وعدم التحيز.

يمكن إخراج الأشكال الثقافية الغربية من المنفصلات المستقلة ذاتياً التي تمت حمايتها فيها، ووضعها بدلاً من ذلك داخل البيئة الكونية الحيوية التي خلقتها الامبريالية. بعد تنقيح هذه الأخيرة <ورؤيتها> نزاعاً متصلاً راهناً بين الشمال والجنوب، والحواضر والأطراف، والأبيض والاصلائي. وبوسعنا هكذا أن نعدّ الامبريالية عملية تحدث كجزء من الثقافة الحواضرية، التي تعترف أحياناً بعمل الامبريالية المتصل المعزّز، وتُبهمه وتعميه أحياناً أخرى. والنقطة الهامة - وهي نقطة غرامشية جداً - هي كيف حافظت الثقافات القومية البريطانية، والفرنسية، والأميركية على الهيمنة على الأطراف، وكيف تم داخلها <هي نفسها> كسب القبول والتعزيز المتصل للحكم الثاني لشعوب وأقاليم اصلائية؟

حين نعود بالنظر إلى سبجَل المحفوظات الامبريالية، نأخذ بقراءته لا واحدياً، بل طبائياً، بوعي متاين للتاريخ الحواضري الذي يتم سردهً ولتلك التواريخ الأخرى التي يعمل ضدها (ومعها <أيضاً>) الإنشاء المسيطر. في النقطة الطباقية للموسيقى العريقة <الكلاسيكية> الغربية، تتبارى وتتصادم موضوعاتٌ متنوعة إحداهما مع الأخرى، دون أن يكون لأيّ منها دورٌ امتيازى إلا بصورة مشروطة مؤقتة؛ ومع ذلك يكون في التعدد النغمي الناتج تلاؤمٌ ونظام، تفاعلٌ منظم يُشتق من الموضوعات <ذاتها>، لا من مبدأ لحني <ميلودي> صارم أو شكلي يقع خارج العمل. وفي اعتقادي أننا نستطيع، بالطريقة ذاتها، أن نقرأ ونؤوِّك الروايات الإنكليزية، مثلاً، التي يتشكل تعالُفها (المقصوع عادةً إلى درجة غالبية) مع، لنقل، جزر الهند الغربية أو الهند، بل لعلّه أيضاً يتحتم ويتقرّر، بالتاريخ المحدد للاستعمار، والمقاومة، وأخيراً القومية الاصلائية. عندئذ، تنبثق سردياتٌ بديلةٌ أو جديدة، وتصبح ذواتاً مُمأسسةً أو مستقرة إنشائياً.

ينبغي أن يكون جلياً أنه ليس ثمة مبدأ نظري شامل واحد يحكم المجموعة الامبريالية بأكملها، كما ينبغي أن يكون جلياً بالقدر نفسه أن مبدأ السيطرة والمقاومة المبني على

الانقسام بين الغرب وسائر العالم - وأنا اقتبس كلام الناقد الأفريقي تشينونيزو محوراً له بحرية - يمتد مثل شرح عبر <كل شيء>. ولقد ترك هذا الشرح أثارة على التعالقات، والتقاطعات، والاعتمادات المتبادلة، المحلية العديدة في أفريقيا، والهند، وأماكن أخرى في الهوامش <الأطراف>; وكلٌ منها مختلفة، ولكلٌ منها كثافة تداعياتها وأشكالها الخاصة، ومتخللاتها <موتيفاتها> الجذرية، وأعمالها، ومؤسستها، الخاصة بل لها - وهذا هو أكثر الأمور أهمية من وجهة نظرنا كقراء نعيد قراءة <النصوص ثانياً> - إمكانياتها وشروطها المعرفية الخاصة. ويبدأ نمطاً خاصاً من البحث والمعرفة بالتنامي بالنسبة لكل موضع يحدث فيه التعالق، ويفكك فيه الأنموذج الإمبريالي، وتُجَعَلُ نُظْمُهُ الترميزية الاشتمالية، المكوّنة، المُكَلِّية منعدمة الفاعلية والتطبيق.

سيكون أحد الأمثلة على المعرفة الجديدة دراسة الشرقانية أو الأفريقية <أو الاستشراق أو الاستفراق>، و، لكي نأخذ طقماً ذا علاقة بذلك، دراسة الإنكليزية والفرنسانية. إن هذه الهويات تحلّ اليوم لا بوصفها جواهر من صنع إلهي، بل بوصفها نتائج للتعاون بين التاريخ الأفريقي ودراسة أفريقيا في انكلترا، مثلاً، أو بين دراسة التاريخ الفرنسي وإعادة تنظيم المعرفة في عهد الإمبراطورية الأولى. وبمعنى هام، فنحن هنا نتعامل مع تشكّل هويات ثقافية تُهَمُّ لا بوصفها تجوهرات <تقليصية اختزالية> (رغم أن بعض ما تملكه من استهواء قادر على الديمومة يعود إلى كونها تبدو وتُعتبر شبيهة بالتجوهرات) بل بوصفها مجموعات طباقية. فالواقع أن الهوية لا يمكن أن توجد بمعرفها ومن دون ثلّة من النقائض، والنوافي، والأضداد: فالإغريقيون يقتضون البرابرة دائماً، والأوروبيون يقتضون الأفارقة والشرقيين، إلخ. والعكس صحيح دون ريب، أيضاً. بل إن التعالقات الهائلة في زمننا الراهن بخصوص تجوهرات\* من مثل "الإسلام"، أو "الغرب"، أو "الشرق"، أو "اليابان"، أو "أوروبا" تقرّ <وجود> نمط خاص من المعرفة وبنيات وجهات النظر والإحالات، وهذه كلها تتطلب التحليل والبحث الحذرين.

إذا قام المرء بدراسة بعض الثقافات الحواضرية الرئيسية - ثقافة انكلترا، أو فرنسا، أو الولايات المتحدة، مثلاً - في السياق الجغرافي لصراعها من أجل الإمبراطوريات (وعليها)، ينجلي تشكّل تضاريسي ثقافي متميز. وحين استخدم عبارة "بنيات وجهات النظر والإحالات"، فإنني أستخدمها وفي ذهني هذا التشكّل التضاريسي، كما أن في ذهني أيضاً عبارة ريموند وليمز الإحصابية الخلّقة: "البنيات الشعورية". وأنا أتحدث <هنا> عن الطريقة التي تظهر بها بنيات المواضيع والإحالة الجغرافية في اللغات الثقافية للادب، أو التاريخ، أو العرقغرافيا <علم الأعراق الوصفي> إلماعاً أحياناً وبصورة مدبرة بحذر أحياناً أخرى، عبر بضعة من الأعمال الفردية التي لا تتربط عدا ذلك فيما بينها أو ترتبط بأية عقائدية رسمية للإمبراطورية\*.

في الثقافة البريطانية، مثلاً، قد يكتشف المرء أطراداً في الانشغال لدى سبنسر،

\* - لا أستطيع اشتقاق صيغة اسمية متعددة من "جوهر" تعبّر بدقة عن الصيغة الإنكليزية، مع أنني في موضع آخر اشتقت الفعل "جوهر - جوهر". وقد لا يكون العجز دائماً عجزاً بل يصير عجز اللغة ذاتها. والله أعلم. فليتفضل المتشدقون بالعلم الذين تغيظهم كثرة محاولاتي وابتكاراتي لتجديد العربية ويداها بدلتهم أو يقذفوا بسهامهم في الأمر! هل نقول، مثلاً، "الاستشيلازيشينز" ونرتاح من عناء المحاولة، كما يفعلون؟

وشيكسبير، وديفو، وأوستن، يقوم بتثبيت الفضاء المرغوب، والمقوى اجتماعياً، في انكلترة أو أوروبا الحواضريتين وبربطه بوساطة التصميم، والدوافع، والتطور بعوالم قصية أو أطرافية (أيرلندا، البندقية، أفريقية، جاميكا)، يتم تصوُّرها <عوالم> مرغوبة لكنها منضوية خاضعة. ومع هذه الإحالات المصونة بدقةٍ حذافيرية تأتي وجهاتُ نظرٍ - في الحكم، والسيطرة، والريح، والتحسين، والملازمة - تنمو بقوةٍ مذهلة من القرن السابع عشر إلى نهاية التاسع عشر. ولا تنشأ هذه البنى من تصميم ما مُسبق (وشبه تامري) يقوم الكتابُ بعد ذلك بالتحكم التلاعبي به، بل هي موشوجة بتطوُّر هوية بريطانية ثقافية، كما تتخيل تلك الهوية نفسها في عالم متصوّر جغرافياً. وتُمكن ملاحظة بنى مشابهة في الثقافتين الفرنسية والأميركية، تنمو لأسباب مختلفة ويطرق مختلفة كما هو بيّن واضح. ونحن لم نبلغ بعدُ المرحلة التي تسمح لنا بمعرفة ما إذا كانت هذه البنى المتكاملة كونيّاً إعداداتٍ للسيطرة والفتوحات الامبريالية، أم كانت مرافقةً لمثل هذه المشاريع والمبادرات، أم كانت - بطريقة ما - انعكاسية ولامبالية، نتيجة من نتائج الإمبراطورية. إننا لا نعدو أن نكون في مرحلة ينبغي علينا فيها أن ننظر إلى التواتر المذهل للإفصاحات الجغرافية في الثقافات الغربية الثلاث التي بلغت أعلى قدر من السيطرة على أماكن نائية. وأنا أكتنه هذا السؤال في الفصل الثاني من هذا الكتاب، وأطرح مقولات أخرى حوله.

ويقدر ما تكشف قصارى مقدرتي على قراءة هذه البنيات من وجهات النظر والإحالات وفهمها، فإنه لم يكد يوجد أيُّ معارضةٍ لها، أيُّ خروجٍ عنها، أيُّ ممارسة أو تلكؤٍ فيها: بل كان ثمة إجماع كلي عملياً على أن الشعوب الخاضعة ينبغي أن تُحكم، وعلى أنها بحقُّ شعوبٌ خاضعة، وعلى أن عرقاً واحداً يستحق، وأنه قام بانتظام باكتساب الحق في، أن يُعتبر العرق الذي تتمثل إرساليته الرئيسية في التوسع إلى ما وراء حدود مجاله. (وبالفعل، كما عبّر سيلبي عام ١٨٨٢، <متحدثاً عن> بريطانيا - وقد كان لفرنسا والولايات المتحدة منظروهما الخاصون - فإنَّ البريطانيين لا يمكن أن يُفهموا إلا بهذه الصفة). وقد يكون مُخرجاً أن قطاعاتٍ من الثقافات الحواضرية التي كان لها فيما بعد أن تصبح طلائعية في النزاعات الاجتماعية في عصرنا قد كانت أعضاء لا تصدر عنهم الشكوى في هذا الإجماع الامبريالي. فلقد كانت كلا الحركة النسائية وحركة الطبقة العاملة، مع استثناءات قليلة، مناصرةً للإمبراطورية. ورغم أن على المرء ألا يالو جهداً أبداً في إظهار وجود <وفعالية> خيالات، وحساسيات، وأفكار، وفلسفات، مختلفة، وفي إظهار أن كل عمل أدبي أو فني شيء خاص متميز.. فقد كانت ثمة وحدةٌ في الهدف حول هذا الأمر: ينبغي أن تصان الامبراطورية وتبقى، ولقد صيغت وقيمت بالعدل.

إن قراءة النصوص الثقافية الحواضرية الرئيسية وتاويلها بهذه الطريقة المنشطة، المدعّمة حديثاً، ما كانا سيكونان ممكنين لولا حركات المقاومة التي حدثت في كل مكان من الأطراف ضد الامبراطورية. وفي الفصل الثالث من هذا الكتاب، أزعّم أن وعياً كونياً جديداً يربط بين الطبقات المحلية المتنوعة للنزاع المعادي للامبريالية. ولقد فرض اليوم كتابُ وباحثون من العالم الذي كان خاضعاً للاستعمار تواريخهم المتباينة على النصوص المكونة العظيمة لثقافة المركز، وقاموا برسم جغرافياتهم المحلية داخلها. ومن هذه التفاعلات المتقاطعة لكن المتعارضة مع ذلك، تبدأ القراءاتُ والمعارفُ الجديدة بالظهور

<الآن>. وَحَسْبُ المرء أن يفكر بالهيجانات العنيفة التي حدثت في نهاية الـ١٩٨٠ات - انهيار الحواجز، أحداث العصيان الشعبية، الاندياح عبر الحدود، والمشكلات التي أخذت تلوح مكفهرَةً حول حقوق المهاجرين واللاجئين والأقليات في الغرب - ليرى إلى أي مدى صارت الفصلات القديمة، والانقسامات المحكّمة، والاستقلالات الذاتية المريحة باليةً منتبذةً.

لكن من المهم جداً أن نقدّر كيف تمّ بناء هذه الكيانات، وأن نفهم بكم من الصبر اكتسبت فكرة <وجود> ثقافة إنكليزية غير منقطة بالديون، مثلاً، سلطتها وقوتها على فرض نفسها عبر البحار. وإن هذه لمهمة ضخمة بالنسبة لأي فرد، بيد أن ثمة جيلاً جديداً كاملاً من الباحثين والمفكرين من العالم الثالث منخرط الآن في مثل هذه المهمة بالضبط.

يقتضي الأمر هنا كلمة حذرة ومتعمّلة. إن أحد الموضوعات التي أناقشها هو العلاقة الصعبة بين القومية والتحرير، وهما مثالان أو هدفان لبشر منخرطين في الصراع ضد الامبريالية. من الصحيح، بشكل رئيسي، أن خلق عدد كبير من الدول-الأمم المستقلة حديثاً في عالم ما بعد الاستعمار قد نجح في إعادة تأسيس أولية ما أسماه البعض مجتمعات متخيلة، قلدها بسخرية وهزئ منها كتاب مثل في. إس. نيبال وكونر كروز أوبراين، واختطفتها جمهرة من الحكام الديكتاتوريين والطفاعة الصغار، ونصبت كالمقدسات في أشكال مختلفة من قوميات الدولة. ومع ذلك، فإن ثمة سمة من المعارضة والضدية، بشكل عام، في وعي الكثيرين من الباحثين والمفكرين في العالم الثالث، خصوصاً (لكن ليس حصراً) لدى أولئك المنفيين، أو المغتربين، أو اللاجئيين والمهاجرين <الموجودين> في الغرب (وكثيرون منهم وريثة للعمل الذي كان قد قام به مغتربون سابقون في القرن العشرين، من مثل جورج انطونيوس و سي. إل. آر. جيمس). ولا يمكن لعلمهم في محاولة عقد الصلات بين التجارب عبر الفائق الامبريالي، وفي إعادة تحييص التراثات المكونة العظيمة، وفي إنتاج ما هو فعلياً أدب نقدي، أن يمتصّ ويستوعب داخلياً، وبشكل عام لم يحدث له أن امتصّ واستوعب داخلياً، من قبل القوميات، وأنظمة الطغيان، والعقائديات البخيلة، المنبعثة <جميعها> من جديد والتي خانت المثال التحرري مفضلةً واقع الاستقلال القومي.

وعلاوة على ذلك، فإن علمهم ينبغي أن يعاين بوصفه يشترك في انشغالات هامة مع أصوات أقلييات ومجموعين ضمن الحواضر نفسها: بينهم أنثويات، وكتاب أفارقة أميركيون، ومفكرون، وفنانون. لكن الاحتراس ونقد الذات حاسما الأهمية هنا أيضاً، لأن ثمة خطراً طبعياً في الجهد المعارض الضدي، وهو التحول إلى فعل مؤسساتي، يحوّل الهامشية إلى انفصالية، ويحجّر المقاومة في مذهبية جامدة. ولا ريب أن روح الفعل الناشط الذي يعيد موضعةً وصياغةً التحديات السياسية في الحياة الفكرية محصنٌ ضد السننية <الأرثوذكسية>. لكن ثمة دائماً حاجةً لوضع المجتمع قبل الإكراه، والنقد قبل مجرد التضامن، والاحتراس قبل الإقرار.

ولأن موضوعاتي هنا أقرب إلى أن تكون تكملة لـ الاستشراق، الذي كُتب كهذا الكتاب في الولايات المتحدة، فإن قدرأ من الاعتبار للبيئة الثقافية والسياسية الأميركية أمرٌ مسوغ. ليست الولايات المتحدة بلداً شاسعاً عادياً. بل هي آخر القوى العظمى، وهي قوة

هائلة التأثير، كثيرةً التدخّل في كل مكان من العالم تقريباً. ويتحمل مواطنو الولايات المتحدة ومفكروها مسؤوليةً خاصةً عما يحدث بين الولايات المتحدة وبقية العالم، مسؤولية لا يُعفى منها أو تُتجزّ على الإطلاق بالقول إنّ الاتحاد السوفييتي، أو بريطانيا، أو فرنسا، أو الصين كانت، أو هي، أكثر سوءاً. فالحقيقة هي أننا فعلاً مسؤولون عن، ولذلك أقدّر على، التأثير على هذا البلد <الولايات المتحدة> بطرق لم تكن متاحة لنا بالنسبة للاتحاد السوفييتي السابق على غورباتشيف، أو بالنسبة لبلدان أخرى. ولذلك ينبغي أن نلاحظ بدقة قصوى كيف حلّت الولايات المتحدة، في أميركا الوسطى واللاتينية - لنذكر الأشد وضوحاً من الحالات - كما في الشرق الأوسط، وأفريقيا، وآسيا، محلّ الإمبراطوريات العظيمة السابقة، وأصبحت القوة الخارجية المسيطرة فيها.

إن السّجل، إذا نظرنا إليه بنزاهة، ليس سِجلاً جيداً. فالتدخلات العسكرية للولايات المتحدة منذ الحرب العالمية الثانية قد حدّثت (وما تزال تحدث) في كل قارة تقريباً، والكثير منها عظيم التعقيد والمدي، وباستثمار قومي هائل، كما بدأنا ندرک الآن فحسب. وهذا كله، بعبارة ولئم أيلمن وليئرز، هو الامبراطورية كطريقة للحياة. وما الإفشاءات <الفاضحة> المستمرة عن الحرب في فيتنام، وعن دعم الولايات المتحدة للـ <كونترا> <المتمردين> في نيكاراغوا، وعن الأزمة في الخليج الفارسي، إلا جزء فحسب من حكاية هذا الكلّ المعقّد من التدخلات. ولا يولى القدر الكافي من الاهتمام لحقيقة أنّ سياسات الولايات المتحدة في الشرق الأوسط وأميركا اللاتينية - سواء أتمثلت في استغلال ثغرة جغرافية <جيوبوليتيكية>، بين من يُسمون المعتدلين الإيرانيين، أم في مساعدة من يسمون مقاتلي الكونترا الأحرار للإطاحة بالحكومة الشرعية المنتخبة في نيكاراغوا، أم الاندفاع لنجدة الأسرة الملكية السعودية والأسرة الاميرية الكويتية - لا يمكن أن توصف إلا بأنها إمبريالية.

بل لو كان لنا أن ندخل في الاعتبار، كما فعل الكثيرون، أن السياسة الخارجية للولايات المتحدة هي رئيسياً غيريةً ومنذورةً لغايات لا يرقى إليها التجريح مثل الحرية والديمقراطية، فإنّ ثمة مجالاً واسعاً للتشكك والريبة. وإن ملاحظات تي. إس. إليوت في التراث والموهبة الفردية عن الحسن التاريخي لذات أهمية قابلة للبرهنة\*. أوّلنا كأمة <أمريكية> نكر ما فعلته فرنسا، وبريطانيا، وإسبانيا، والبرتغال، وهولندا، والمانيا، قبلنا؟ ومع ذلك أقلنا نميل إلى اعتبار أنفسنا بشكل ما مستثنين من المغامرات الامبريالية الأكثر خسةً التي سبقتنا؟ وإلى جانب ذلك، أفليس لدينا افتراض لا نُخضعه للتساؤل بأنّ قدرتنا هو أن نحكم العالم ونقوده، وهو قدرٌ خصصنا به أنفسنا بأنفسنا كجزء من خروجنا <الرسولي> إلى البراري؟.

بإيجاز، إننا نواجه كأمة المسألة القلقة والمقلقة بعمق وهي مسألة علاقتنا بالآخرين - الثقافات، والدول، والتواريخ، والتجارب، والتراثات، والشعوب، والمصائر الأخرى. وليس ثمة نقطة أرخميدسية متجاوزة للسؤال بوسعنا الإجابة منها عليه؛ ليس ثمة من فرصة مواتية خارج واقع العلاقات بين الثقافات، بين قوى امبريالية ولا امبريالية غير متساوية، بيننا وبين الآخرين؛ وما من إنسان يملك الامتياز المعرفي لمحاكمة العالم، وتقييمه، وتأويله متحرراً من المصالح والالتزامات المرهقة للعلاقات القائمة نفسها. إننا، بوجه من الكلام،

\* في الجملة الانكليزية هنا خطأ نحوي تركيبى قمت بتعديل الجملة من أجل تصحيحه.



«مصنوعون» من الارتباطات، لا خارجها أو فوقها. وإنه ليتعين علينا كمفكرين وإنسانيين ونقاد دنيويين أن نفهم الولايات المتحدة في عالم الأمم والقوة من داخل الواقع، كمسهمين فيه، لا كمراقبين خارجيين متجردين يقومون، كما يفعل أوليفر غولدسميث، بعبارة بيتس الكاملة، عن عمدٍ بارتشاف قوارير عسل عقولنا.

إن حالات المعاناة المعاصرة في علم الإنسان الأوروبي والأميركي الحديث العهد لتعكس هذه الملفزات والتورطات بطريقة أعراضية وشيقة. وتلك الممارسة الثقافية والنشاط الفكري يحملان، كعنصرٍ مكوّنٍ رئيسي، علاقةً قوةً غير متساوية: بين عالم الأعراف المراقب الخارجي الغربي وبين الشخص البدائي، أو على الأقل المختلف، لكن الأضعف والأقل تطوراً بالتأكيد، غير الأوروبي، غير الغربي. ويستنتج كبلنغ في نصٍ كيم الفائق الثراء المعنى السياسي لتلك العلاقة ويجسده في شخصية العقيد كريتون، وهو عالم أعرافٍ مسؤولٍ عن مسح الهند، كما أنه أيضاً رئيسُ الاستخبارات البريطانية في الهند، أو اللعبة العظيمة التي ينتمي إليها كبلنغ الشاب. وكثيراً ما كرّر علمُ الإنسان الغربي الحديث تلك العلاقة الإشكالية، وهو يعالج في أعمالٍ قريبة العهد لعددٍ من المنظرين التناقض الذي يكاد يكون غير قابل للتجاوز بين الواقع السياسي المبني على القوة، والرغبة العلمية والإنسانية لفهم الآخر فهماً استثنوياً «هرمنوطيقاً» ومتعاطفاً بأنهاج غير متأثرة بالقوة.

إن تُنجح هذه الجهود أو لا تنجح أمرٌ أقلُّ إشاعةً مما يميّزها ويجعلها ممكنة: «وهو» الوعي الحادّ والمحرّج للمشهد الامبريالي الكلي الانتشار والذي لا يمكن تجنُّبه. بل الحق أنه ليس ثمة من طريقةٍ فيما أعرف لاستيعاب العالم من داخل الثقافة الأميركية (بالتاريخ الكامل من البترية والاشتمالية الذي يمتد خلفها) دون استيعاب أيضاً للنزاع الامبريالي نفسه. وهذه، فيما أرى، حقيقةٌ ثقافيةٌ ذات أهمية سياسية وتأويلية فائقة، ومع ذلك فإنه لم يتم الاعتراف بها بهذه الصفة في النظرية الثقافية والأدبية، كما يتم الدوران حولها وإيصادها بمكرورية في الإنشاءات الثقافية. فإن نقرا معظم التقويضيين «التفكيكيين»، أو الماركسيين، أو التاريخانيين الجدد، الثقافيّين هو أن نقرا كتاباً يقبع أفقهم السياسي، وموقعهم التاريخي داخل مجتمع وثقافة ملتفتين مشبوكين بعمق في السيطرة الامبريالية. ومع ذلك، لا يولّى إلا أدنى اهتمام لهذا الأفق، ولا تُقدّم إلا أقلّ التنويهات بهذا المشهد، ولا يُدخّل في الاعتبار إلا أضعف إدراك للمغلق الامبريالي نفسه. وبدلاً من ذلك، يتشكل لدى المرء انطباعٌ بأن تأويل الثقافات الأخرى، والنصوص والشعوب الأخرى - وهي في النهاية ما يدور عليه التأويل قاطبةً - يحدث في فراغٍ لزماني، هو من الغفران والإباحية بحيث ينقل التأويل مباشرةً إلى كونيةٍ خالية من التعلق «العاطفي»، والكوابح، والمصالح.

نحن نعيش طبعاً في عالم لا من السلع فحسب بل من التمثيل أيضاً. والتمثيلات - إنتاجها، وتوزيعها، وتاريخها، وتأويلها - هي عين مادة الثقافة وعنصرها. في الكثير من التنظير الحديث العهد، تُعتبر مشكلة التمثيل مركزية، لكنها نادراً ما توضع في سياقها السياسي التام، وهو سياقٌ امبرياليٌّ بالدرجة الأولى. وبدلاً من ذلك، لدينا، من جهة، مجالٌ ثقافي معزول، يُعتقد أنه متاح مجاناً ودونما شروط للتكهن والاكتناه النظري العديمي الوزن ... ولدينا، من جهة أخرى، مجالٌ سياسيٌّ مُزدري، هو المكان الذي يُفترض أن يدور فيه الصراع الحقيقي بين المصالح. إن مجالاً واحداً فقط هو علائقي «وثيق الصلة»

بالموضوع> في نظر دارس الثقافة المحترف - الإنساني، والناقد، والباحث - ثم إنَّ المقبول، وذلك الصقَّ بالنقطة المثارة، أنَّ المجالين منفصلان، <أما الحقيقة> فهي أنَّ المجالين ليسا متصلين فحسب بل هما في نهاية المطاف مجالٌ واحدٌ.

ثمة تزييف جذري تأسس وترسخ في هذا الفصل والعزل. تُنزّه الثقافة وتُبرأ من أيِّ تعالقٍ مع القوة، وتُعتبر التعميلات مجرد صورٍ لي - سياسية <ليست موجودة لشيءٍ، إلا> لكي تُعزَّب وتُتأوَّل كعدد ما من قواعد <تحوُّل> التبادل، ويُفترض بدهاءة أنَّ الطلاق بين الحاضر والماضي قد اكتمل. ومع ذلك، وبعبداً عن أن يكون هذا الفصل بين المجالات اختياراً مصادفاً أو محايداً، فإنَّ معناه الحقيقي هو أنه فعل تواطٍ: اختياراً الباحث الإنساني لأنموذج نصيٍّ مُقنَع، معرّى، يتم تظهيره بانتظام واطراد، بدلاً من أنموذج محاصرٍ حصاراً أشدَّ تدور حوله التنازعات، لا بدَّ أن تتلاحم ملامحهُ الأساسية حول <محور> الصراع المستمر على مسألة الامبراطورية ذاتها.

دعني أصعِّ ذلك بطريقة مختلفة، مستخدماً أمثلةً ستكون مألوفة لدى الجميع. على مدى عقد من الزمان على الأقل، ما تزال تدور في الولايات المتحدة مناظرةٌ جادة إلى درجة لا تترك حوله معنى التعليم التحرري <الليبرالي>، ومضمونه، وغايته. ولقد انبعت معظم هذه المناظرة، لا كلها، من داخل الجامعات بعد فورانات الـ ١٩٦٠ات، حين ظهر للمرة الأولى في هذا القرن أنَّ بنية التعليم الأميركي، وسلطته، وراثته كانت تتعرض للتحدي من قِبَل طاقات غازية، أطلقتها من عقالها استغرازاتٌ ملهمةٌ اجتماعياً وفكرياً. واكتسبت التيارات الأكثرُ جدَّةً في المؤسسة الجامعية، كما اكتسبت قوةً ما يُسمَّى النظرية (وهي تسميةٌ حُشدت تحتها حُشد القطيع مبادئ معرفيةً جديدةً متعددةً مثل التحليل النفسي، واللسانيات، والفلسفة النيتشوية، <بعد أن> أخرجت من إطار الحقول التقليدية مثل فقه اللغة، وفلسفة الأخلاق، والعلوم الطبيعية) موقفاً امتيازياً واهتماماً؛ وبدا أنها تززع سلطةً واستقراراً المكنونات المرسَّخة، والحقول المموَّلة تمويلياً جيداً، والإجراءات العريقة لمنح الأرصدة <الدراسية> والشهادات، والبحث، وتقاسيم الجهد الفكري. وأن يكون هذا كله قد حدث في قطاع متواضع ومطوقٍ هو قطاع الممارسة الثقافية الجامعية في وقت واحد مع الموجة العظيمة من الاحتجاج ضدَّ الحرب، وضدَّ الامبريالية، لم يكن بالأمر العرضي، بل كان بحقٍ، مفترقاً سياسياً وفكرياً أصيلاً.

ثمة مفارقة لازعة كبيرة في كون بحثنا في الحواضر الكبرى عن تراثٍ منفوح بحياة جديدة، ومستعادٍ <مستنقذ>، يأتي في إثر إرهاب الحداثة، ويُعبَّر عنه بأشكالٍ مختلفة بـ <عبارة> ما بعد الحداثة أو، كما قلتُ سابقاً مقتبساً ليوتار، بوصفه فقداناً للقوة التشريعية في سرديات التحرر والتطوير الغربية؛ وفي الآن نفسه، يعاد اكتشاف الحداثة في العالم الهامشي المستعمر سابقاً، حيث تقوم المقاومة، ومنطقُ الجسارة، والاكتناهات المتعددة للموروث العريق عراققة الزمن (وهو التراث، في العالم الإسلامي) مجتمعةً بصياغة نغمة <اللحظة> الراهنة.

كانت إحدى الاستجابات في الغرب للمفترقات الجديدة، إذن، رجعيةٌ بعمق: <وهي> السعي إلى إعادة فرض السلطات والمكنونات القديمة، <أو> السعي إلى إعادة تنصيب عشرة كتب أساسية أو عشرين أو ثلاثين من دونها لا يمكن للغربي أن يتعلم - وقد صيغت هذه الجهود كلها بلغة بلاغيات الوطنية المحاصرة <المتأهية للنزال>.

بيد أن ثمة إمكانيةً لاستجابة أخرى، جديرة بأن نعود إليها هنا، لأنها تتيح فرصةً نظريةً هامة. إن التجربة الثقافية، بل كل صيغة ثقافية، هي جذرياً، وفي جوهر الجوهر، تجربةٌ هجينةٌ. ولئن كانت الممارسة الغربية قد جرت منذ إيمانويل كانت على عزل المملكة الثقافية والجمالية عن المجال الدنيوي، فقد حان الوقت لإعادة وصلهما. وما هذه بقضية بسيطة على الإطلاق، إذ إنني اعتقد أن جوهر التجربة في الغرب منذ أواخر القرن الثامن عشر على الأقل ليس اكتساب السيطرة القصية وتعزيز الهيمنة وحسب، بل تقسيم ممالك الثقافة والتجربة إلى مجالات منفصلة ظاهرياً أيضاً. وتشهد كيانات «او ذوات» من مثل الأعراق والأمم، وجواهر من مثل الانكليزية أو المشرقية، وأنماط إنتاج من مثل الآسيوي والغربي، كلها في رأيي على «وجود» عقائدية تسبق معادلاتها الثقافية بزمنٍ طويلٍ التراكم الفعلي للأصقاع الإمبريالية على مدى العالم بأسره.

يتحدث معظم مؤرخي الإمبراطورية عن «عصر الإمبراطورية» بوصفه يبدأ رسمياً حوالي عام ١٨٧٨، مع التزاحم بالمناكب لامتلاك أفريقيا. لكن نظرة أدق تحيضاً إلى الوقائع الثقافية تجلو وجهة نظرٍ أسبقٍ بكثير، ومُعتنقةٌ بعنادٍ أشدٍ وعمقٍ أبعد، حول الهيمنة الأوروبية فيما وراء البحار. ونستطيع أن نموضع نظاماً من الأفكار متناسقاً، ومعبأً تعبئةً تامة، حوالي نهاية القرن الثامن عشر، ثم يتلو ذلك طقم التطورات المتكاملة مثل الفتوحات المنتظمة العظيمة الأولى بقيادة نابليون، وصعود القومية والدولة - الأمة الأوروبية، وبداية التصنيع على نطاقٍ واسع، وتعزيز القوة وتركيزها في الطبقة الوسطى «البورجوازية». وتلك هي أيضاً المرحلة التي يبرز فيها الشكل الروائي والسرديّة التاريخية الجديدة ويحتلان مكانة عالية، والتي تترسخ فيها بقوة أهمية الذاتية بالنسبة للزمن التاريخي.

ومع ذلك، فإن معظم المؤرخين الثقافيين، وبالتأكيد جميع الباحثين في الأدب، قد اخفقوا في أن يلاحظوا التوزيع الجغرافي: المسح الخرائطي النظري وترسيم الأراضي الذي يتبطن فن الاختلاق الروائي، والكتابة التاريخية، والإنشاء الفلسفي في الغرب في ذلك الزمن. ثمة، أولاً، سلطة المراقب الأوروبي - مسافراً رحالة، أو تاجراً، أو باحثاً، أو مؤرخاً، أو روائياً. ثم هناك تراتبية الفضاءات التي يعاينُ بوساطتها المركز الحواصري، ويعاينُ تدريجياً، الاقتصاد الحواصري بوصفهما معتمدين على نظام ما وراء بحاري من السيطرة على الأراضي، والاستغلال الاقتصادي، ورؤيا اجتماعية-ثقافية؛ ومن دون هذه «الأمور كلها» فإن الاستقرار والرّفاه في البيت - والبيت كلمة مشحونة بترينيات بالغة القوة والخصوبة - لن يكونا ممكنين. ويوجد المثل الأكمل لما اعنيه في رواية جين أوستن روضة مانسفيلد، التي تكون فيها مزرعة العبيد التي يملكها توماس بيرترم في أنتيغوا ضروريةً بشكل مبهم سرّي لاتزان وجمال روضة مانسفيلد، وهي مكان موصوف بمصطلحات اخلاقية وجمالية قبل «التزاحم المتناكب على أفريقيا» بزمن طويل، وقبل أن يبدأ العصر الإمبراطوري رسمياً. وبعبارة جون ستيورت مل في هداى الاقتصاد السياسي:

هذه [الملكات القصية التي نملكها] لا يكاد ينبغي النظر إليها كبلدان... بل بشكل أكثر سلامة كإقطاعات كبيرة نائية زراعية أو تصنيعية يملكها مجتمع أكبر. إن مستعمراتنا في جزر الهند الغربية، مثلاً، لا يمكن أن تُعتبر بلداناً لها راسمالها المنتج الذاتي... [بل هي بالبحرى] المكان الذي تجد انكثرة فيه مريحاً لها أن تقوم بإنتاج السكر، والقهوة، وبعض المحاصيل المدارية الأخرى<sup>(٥١)</sup>.

اقرأ هذا المقطع الخارق إلى جانب جين أوستن، وستبرز <لك> صورة أقل لطفاً بكثير من الصورة المعتادة للتشكيلات الثقافية في العصر ما قبل الامبريالي. فنحن نجد لدى ملّ النغمات التملكية التي لا تُرحم للسيد الأبيض الذي اعتاد على محو واقع ملايين العبيد، وعملهم، وعذابهم، منقولين عبر المقطع الأوسط، مقلّصين إلى مجرد مقام منضو مشمول من أجل منفعة المالكين. يقول ملّ إن هذه المستعمرات ينبغي أن تُعتبر شيئاً لا يكاد يزيد على وسيلة للراحة، وهو موقفٌ تثبته وتؤكدّه جين أوستن، التي تتسامى في روضة مانسفيلد بعذابات وجور الكاريبيين إلى ما لا يعدو حفنةً من الإشارات العابرة إلى أنتيغوا. وتحدث العمليات ذاتها بشكل عام لدى كتاب مكنونين آخرين في بريطانيا وفرنسا؛ وبإيجاز، فإنّ الحاضرة تكتسب سلطتها إلى حد بعيد من الحط من قيمة الممتلكات الاستعمارية النائية كما تكتسبها من استغلالها أيضاً. (إذن، لم يكن لغير ما سبب أن والتر رودني غنّون رسالته العظيمة المتعلقة بفكفكة الاستعمار عام ١٩٧٢: كيف حققت أوروبا تخلف أفريقيا).

وأخيراً، فقد عزّز سلطة المراقب، وسلطة المركزية الجغرافية الأوروبية، إنشاءً ثقافيً اسقط غير الأوروبي إلى مكانة ثانوية عرقياً، وثقافياً، ووجودياً وخصّره فيها. بيد أن هذه الثانوية هي، بمفارقة ضدية، جوهرية بالنسبة لأولوية الأوروبي؛ وهذه هي بالطبع المفارقة الضدية التي اكتنتها سيزير، وفانون، وميمي؛ وما اكتنأها إلا نادراً من طرف المحصّنين لمشككات القراءة ومربياتها ومستحيلاتا سوى واحدة من عدة مفارقات لازعة في النظرية النقدية الحديثة. ولعلّ السبب في ذلك أن يكمن في كونها لا تؤكد على <مسألة> كبد نقرأ، بل بالأحرى على ما يُقرأ ورأى هو المكتوبُ عنه والممثل. وإنه لما يضاف إلى رصيد كونراد الضخم أنه عزف في نشر على ذلك القدر من التعقيد والتمزق النغمة الامبريالية الأصلية - كيف تزوّد أنت <بوصفك قارئاً، مراقباً...> قوى التراكم العالمي وحكّمها بمحرك عقاندي مؤكّد لذاته (هو ما يسميه مارلو في قلب الظلام الكفاءة مصحوبةً بنذر النفس لفكرة تكمن وراءها، والها <في وراءها> تشير إلى انتزاع الأرض من أولئك الذين لهم بشرات أكثر دكنة وأنوف أكثر تسطحاً)، وكيف تُلقى <أنت> في الآن نفسه بستارة فوق العملية وعبرها، قائلاً إن الفن والثقافة لا علاقة لهما بـها.

ماذا نقرأ، وما الذي نصنعه بتلك القراءة، ذلك هو الشكل التام للسؤال. إن جميع الطاقات الحيوية التي صبّت في النظرية النقدية، في ممارسات نظرية جديدة مبتكرة تعري الأشياء من السرية التي تلفعها، من مثل التاريخية الجديدة والتقويفية والماركسية، قد تحاشت الأفق السياسي الرئيسي، بل أود أن أقول: المحتمّ المشكّل، للثقافة الغربية الحديثة، وهو الامبريالية. ولقد عزّز وأزّز هذا التحاشي الضخم <عمليات> احتواء وإقصاء شرانعية؛ فانت تشمل أمثال روسو، ونيتشة، وهوردزورث، وديكنز، وفلوبير، ومن إليهم، لكنك في الوقت نفسه تُقصي علاقاتهم بعمل الامبراطورية الجديد، المعقّد، المخدّد. لكن، ما الذي يجعل هذه المسألة مسألة ماذا نقرأ، وعن أيّ الأمكنة؛ ببساطة شديدة، لأن الإنشاء النقدي لم يدخل في إطار معرفته الأدب ما بعد الاستعماري المثير، والهائل التنوع، الذي أنتج <كجزء من> المقاومة للتوسّع الامبريالي لأوروبا والولايات المتحدة خلال القرنين الماضيين. وأن يقرأ المرء أوستن دون أن يقرأ أيضاً فانون وكابرال - والخ وهلمّ جراً - هو أن يقطع أواصر الثقافة الحديثة مع انخراطاتها وارتباطاتها. وهذه عملية ينبغي أن تُوقف وتُدفع بالاتجاه المعاكس.

لكنّ علينا أن نفعل أكثر من ذلك. لقد قامت النظرية النقدية والبحثُ الأدبي التاريخي بإعادة تأويل عيّنات رئيسية من الأدب، والفنّ، والفلسفة، الغربية ومنجها المصدقية والسرانية. وإنّ قدراً كبيراً من هذا العمل مثيرٌ وقوي، رغم أنّ المرء كثيراً ما يشعر بأنه يشهد طاقةً من الإحكام المتقن والإرهاق أكثر مما يشهد انخراطاً ملتزماً فيما أسميه نقداً دنيوياً والتحامياً؛ ولا يمكن الشروع في مثل هذا النقد دون إحساس قوي نسبياً بالكيفية التي تكون بها النماذج تاريخية مختارة بوعي ذات علاقةٍ بالتغيير الاجتماعي والفكري. ومع ذلك، فإنك إذا قرأت أو أوّلت الثقافة الأوروبية والأميركية الحديثة بوصفها ذات علاقةٍ ما بالامبريالية، فإنه يصبح لزاماً عليك أيضاً أن تعيد تأويل المكون الشرائعي في ضوء نصوص لم يُربط موقعها فيه ربطاً كافياً بالتوسع الأوروبي أو توجهه باتجاه هذا التوسع برجحانٍ كافٍ. وبكلمات أخرى، يقتضي هذا الإجراء قراءة التراث المكون كمُصاحبٍ متعددِ التغمات للتوسع الأوروبي، وإعطاء أُنجاه ووزنٍ منقّحين لكتاب مثل كونراد وكبلنغ، اللذين تمت قراءتهما دائماً بوصفهما مرتاضين <غير رَسْمِيِّين>، لا ككتاب تملك موضوعائهم الامبريالية بجلال حياةٍ طويلةٍ تحترضية أو متضمنةٍ ومستنبقةٍ <زمنياً> في أعمالٍ أبكر منها لكتابٍ مثل، لنقل، أوستن أو شاتوبريان.

ثانياً، ينبغي أن يشرع العملُ النظريُّ في صياغة العلاقة بين الامبريالية والثقافة. ثمة معالم مائزة منجزةٌ على هذا السبيل - عمل كيرنان، مثلاً، ومارتن غرين - لكنّ الانشغال بهذه المسألة ليس حاداً متواتراً. بيد أن الأشياء أخذت في التغيير، كما اشرتُ سابقاً. وقد بدأ مدى واسعٌ متنوعٌ من الأعمال في ميادين معرفية أخرى، ومجموعةٌ جديدة من باحثين ونقادهم في الكثير من الحالات أصغرُ سناً - في الولايات المتحدة، وفي العالم الثالث، وفي أوروبا - بالعمل على المشروعات النظرية والتاريخية؛ ويبدو كثيرون منهم بطريقة أو أخرى منكبّين على مسائل الإنشاء الامبريالي، والممارسة الاستعمارية، وما إليهما. أما على الصعيد النظري، فنحن مانزال في مرحلة محاولة إعدادِ جردٍ لاستجواب الثقافة من قبيل الامبريالية، غير أن الجهود التي بُذلت حتى الآن لا تعدو أن تكون بدنيةً إلا بقدر طفيف. وإذا تمتد دراسة الثقافة إلى وسائل الإعلام، والثقافة الشعبية، والسياسيات الصغرى، وهلمّ جراً، فإنّ التركيز على انهاج القوة والهيمنة يصبح أكثر حدةً ودقّةً.

ثالثاً، ينبغي أن تظل نصبُ أعيننا امتيازاتُ الحاضر <المقصورةً عليه وحده> كعلاماتٍ طريقٍ ومناسقٍ لدراسة الماضي. ولئن كنتُ قد الحثتُ على التكامل والروابط بين الماضي والحاضر، بين المؤيِّط والمؤيِّط عليه <الحاكم الإمبراطوري والمحكوم بالإمبراطورية>، بين الثقافة والامبريالية، فإنني فعلتُ ذلك لا من أجل تقليل الفروق، بل بالأحرى من أجل أن انقل إحساساً أشدُّ إلحاحاً بالاعتماد المتبادل بين الأشياء. إنّ الامبريالية لمن الضخامة، لكنها من التفصيل أيضاً، كتجربة ذات أبعادٍ ثقافية حاسمة، بحيث ينبغي علينا أن نتحدث عن أقاليم متقاطعةٍ وتواريخ متواشجةٍ مشتركةٍ بين الرجال والنساء، وبين البيض وغير البيض، وقاطني الحواضر وقاطني الأطراف، وبين الماضي والحاضر والمستقبل أيضاً؛ وهذه الأقاليم والتواريخ لا يمكن أن تعايَنَ إلا من منظورٍ التاريخ البشري الدنيويِّ بأسره.

<https://telegram.me/maktabatbaghdad>

# الفصل الثاني

## رؤيا معززة

أسمينا أنفسنا "اقتحاميين" كعصبة؛ ذلك أننا قصدنا أن نقتحم القاعات المقبولة للسياسة الخارجية الانكليزية، ونبني شعباً جديداً في الشرق، رغم السنن التي سنها لنا أسلافنا.

تي. إي. لورنس، أعمدة الحكمة السبعة

<https://telegram.me/maktabatbaghdad>



## I - السرد < الروائي > والفضاء الاجتماعي

في كل مكان تقريباً من الثقافتين البريطانية والفرنسية، خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، نجد إلماعات، إلى حقائق الإمبراطورية، لكنها قد لا تُرد في أي مكان بقدر من الانتظام والتواتر يفوق ورودها في الرواية البريطانية. وتشكل هذه الإلماعات، في مجموعها، ما اسميته بنية من وجهات النظر والإحالات. في روضة مانسفيلد التي تحدّد بعناية، ضمن عمل جين أوستن، القيم الأخلاقية والاجتماعية التي تُفعم رواياتها الأخرى، تحاك الإشارات إلى ممتلكات السير توماس بيرترم ما وراء البحار <عبر نسيج الرواية كلها>؛ فهي <الممتلكات> تمنحه ثروته، وتحدّد مناسبات غيابه، وتنبئ مقامه الاجتماعي في الوطن< والخارج، وتجعل قيمه ممكنة، هذه القيم التي تؤمن بها في نهاية المطاف فاني برايس (وجين أوستن نفسها). وإذا كانت هذه الرواية رواية عن "الرّسامة"، كما تقول أوستن، فإنّ الحق في الملكية الاستعمارية يعين مباشرة على تأسيس النظام الاجتماعي والأولويات الأخلاقية في الوطن. وثمة نقطة ثانية، وهي أنّ برثا ماسون، زوجة روشستر المخبولة في جين آير، من جزر الهند الغربية، وهي أيضاً حضور مهذّب، مقصاةً محصورةً في غرفة العلية. وجوزف سدلي في <رواية> ثاكري معرض الخيلاء موسر هندي واسع الثراء يوضّع سلوكه الحرون وثروته الفاحشة (ربما دون استحقاق) موضعاً طباقياً مع مراوغة بيكي غير المقبولة في نهاية المطاف، وهذه بدورها تقابل بسلوك اميليا الرصين الخلق الذي يكافأ في النهاية؛ ونرى جوزيف دوين في خاتمة الرواية منخرطاً بهدوء ساج في كتابة تاريخ للبنجاب. وتطوف السفينة الخيرة "وردة" في رواية تشارلس كينغزلي هلم غربياً! عبر البحر الكاريبي وأميركا الجنوبية. وأبل ماغويتش، في رواية ديكنز توقعات عظيمة، هو المجرم المحكوم المنقول إلى أستراليا الذي تجعل ثروته - المقصاة بشكل مريح عن <متناول> انتصارات بيپ كشاب ريفي يزدهر في لندن في قناع رجل مهذب - التوقعات العظيمة التي يهجس بها بيپ، بمفارقة لانعة، أمراً ممكناً. ولرجال الأعمال، في العديد من روايات ديكنز الأخرى، ارتباطات بالإمبراطورية، وفي دومبي وكويلب مثلان جديران بالملاحظة على ذلك. أما بالنسبة لـ كافكرد دزرائيلي ودانييل دوروندا إليوت فإنّ الشرق هو جزئياً بيئة سكنى لشعوب أصلانية (أو لجماعات أوروبية مهاجرة)، لكنه أيضاً جزئياً مدمج مشتمل تحت سيطرة الإمبراطورية. وفي <رواية> هنري جيمس صورة سيّدة يسافر رالف توشيت في الجزائر ومصر. وحين نأتي إلى كبلنغ، وكونراد، وأرثر كونان دويل، ورايدر هاغارد، وأر. إل. ستيفنسن، وجورج أورول، وجويس كاري، وإي. إم. فورستر، وتي. إي. لورنس، تكون الإمبراطورية في كل مكان إطاراً مشهدياً حاسماً.

كان الوضع في فرنسا مختلفاً، بقدر ما كانت المهنة <ذات الرسالة> الامبريالية الفرنسية خلال أوائل القرن التاسع عشر مختلفة عن مهنة انكلترا، التي كانت مدعّمة باستمرارية الدولة الإنكليزية نفسها وباستقرارها. وقد عنّت الإخفاقات في السياسات، وفقدان المستعمرات، وانعدام أمان الملكية، والانعطافات الفلسفية، التي عانتها جميعاً

\* - استخدم كلمة "الوطن" هنا وفي أماكن أخرى لترجمة "home" مع أنني أحياناً أترجمها بـ "البيت"؛ والأمر يعتمد على السياق وعلى ترابطات الكلمة في مكان أو آخر.

فرنسا أثناء الثورة والعهد النابليوني، أن امبراطوريتها لم تكتسب درجةً معادلةً من رسوخ الهوية والحضور في الثقافة الفرنسية. إننا لنسمع لدى شاتوبريان ولامارتين بلاغيات الجلال الامبريالي؛ وفي الرسم، والكتابات التاريخية والفلسفية، والموسيقى والمسرح، يشهد المرء إدراكاً كثيراً ما يكون مفعماً بالحياة لـ «وجود» ممتلكات فرنسا القصية. لكن في الثقافة «الفرنسية» ككل - إلى ما بعد منتصف القرن - نادراً ما يوجد ذلك الإحساس العام، الفلسفي تقريباً، بالإرسالية الامبريالية الذي نجده في بريطانيا.

ثمة أيضاً جسم كثيف من الكتابات الأميركية، المعاصرة لهذه الأعمال البريطانية والفرنسية، تُكشِف عن نزوع امبريالي شاذٍ في حدته، رغم أن مناهضتها الشرسة للاستعمار، الموجهة ضد العالم القديم، هي أيضاً، بمفارقة ضدية واضحة، مركزية الأهمية فيها؛ ويخطر ببال المرء، مثلاً، «الخروج» الطهروي «البيوريتاني» «إلى البراري»؛ كما يخطر بباله، في مرحلة تالية، ذلك الانتشغال المهووس هوساً خارقاً لدى كوبر، وتوين، وملفيل، وآخرين بتوسع الولايات المتحدة غرباً، إلى جانب استعمار وتدمير الحياة الأصلانية الأميركية بالجملة (كما درسهما دراسة لا تُنسى ريتشارد سلوتكين، وپاتريشيا ليمريك، ومايكل پول روغن<sup>(١)</sup>)؛ وينبثق متخلل «موتيف» جذري امبريالي «امريكي» ينافس المتخلل الأوروبي (في الفصل الرابع من هذا الكتاب، سوف أعالج جوانب أخرى واقرب عهداً للولايات المتحدة في شكلها الامبريالي أواخر القرن العشرين).

تؤدي الامبراطورية وظيفتها - من حيث هي إحالة مرجعية، ونقطةً للتحديد، ومكانٌ مفترض بسهولة للسفر والإثراء والخدمة - على مدى معظم القرن التاسع عشر الأوروبي كحضور مرمرٌ مقنن، وإن يكن مرثياً بصورة هامشية فقط، في الاختلاق «الأدبي»، بصورة تقارب صورة الخدم في البيوتات الفخمة وفي الروايات: يؤخذ عملهم بدايةً لكنهم نادراً ما يعطون أسماء، ونادراً ما يُدرسون (مع أن بروس روبنز قد كتب عنهم حديثاً<sup>(٢)</sup>)، أو يُمنحون كثافة «الحضور». وثمة مقياسة أسرة أخرى: وهي أن الممتلكات الامبريالية على قدر من الفائدة هناك، مجهولة الهوية وجماعية، مساو لجموع المنبوذين (الذين حلّهم غاريت ستيدمن جونز<sup>(٣)</sup>) من العمّال العابرين، والمستخدمين لبعض الوقت، والصنّاع الموسمين؛ إن وجودهم لذو أثر على الدوام، لكن أسماءهم وهوياتهم لا أثر لها، وهم مصدرُ الربح دون أن يكون لهم وجود تام. وهذا معادل أدبي، بكلمات إريك وولف المهنتية لنفسها إلى حد ما، لـ «بشر دون تاريخ»<sup>(٤)</sup>، بشر يعتمد عليهم الاقتصاد والدولة اللذان تعزّزهما الامبراطورية، لكن واقعهم لما يقتض الاهتمام تاريخياً أو ثقافياً.

في جميع هذه الحالات تُربط حقائق الامبراطورية بالتمكك المعزّز، وبفضاءات قصية بل غير معروفة أحياناً، وببشرٍ شاذين أو مرفوضين، وبتحسين الطالع أو بنشاطات مستوحاة كالهجرة، وجمع المال، والمغامرة الجنسية. الأبناء الأصغر سناً الذين قاموا بأعمال مشينة يرسلون إلى المستعمرات، والأقرباء المهلهلون الهرمون يذهبون إليها محاولين أن يستعيدوا ثروات أضعافها (كما في «رواية» بلزاك بت، ابنة العم)، والمسافرون الشباب ذوو المبادرة يذهبون إليها ليبتدروا الشوفان البري وجمعوا الغرائب المدهشات. فالأصقاع المستعمرة ممالك للإمكانيات والاحتمالات، ولقد ارتبطت دائماً بالرواية الواقعية. إن روبنسون كروزو عملياً غير قابل للخطر ببال في غياب المهمة

الإرسالية الاستعمارية التي تَسمح له بأن يخلق عالماً جديداً خاصاً به في أقاصي البراري النائية في أفريقيا، و«منطقة» المحيط الهادي، والأطلسي. بيد أن معظم الروائيين الواقعيين العظام في القرن التاسع عشر هم أقل تأكيداً وجزماً فيما يتعلق بالحكم والممتلكات الاستعمارية من ديفو أو كَتَّاب متأخرين مثل كونراد وكبلنج، اللذين أدَّى الإصلاح الانتخابي العظيم ومشاركة الجماهير الغفيرة في السياسة في زمنهما إلى جعل التنافس الامبريالي موضوعاً أكثر تدخلاً في الحياة المحلية «داخل البلدان المستعمرة نفسها». وفي السنة الختامية للقرن التاسع عشر، مع التزاحم بالمناكب على أفريقيا، وتعزيز الاتحاد الامبريالي الفرنسي، وضمَّ أميركا للفلبين، و«بلوغ» الحكم البريطاني في شبه القارة الهندية أوجهاً، أصبحت الإمبراطورية شاغلاً كونياً.

ما أودَّ أن الاحظه هو أن هذه الوقائع الاستعمارية والامبريالية تُغفَل في النقد الذي أصبح - فيما عدا ذلك «الإغفال» - متقناً وبارعاً براعةً خارقةً في العثور على موضوعات لمناقشتها. لقد قدَّم العدد الصغير نسبياً من الكُتَّاب والنقاد الذين يناقشون العلاقة بين الثقافة والامبريالية - وبينهم مارتن غرين، ومولي ماهود، وجون ماكلور، وبشكل خاص باترك برانتلنجر - إسهاماتٍ ممتازة، بيد أن نهجهم جوهرياً سردىً ووصفيً يشير إلى وجود موضوعاتٍ، وأهميةٍ مفترقاتٍ تاريخيةٍ معينة، وتأثير أو استمرار أفكار متعلقة بالامبريالية - وهم يغطون كمياتٍ ضخمة من المواد<sup>(٥)</sup>. إنهم في جميع الحالات تقريباً يكتبون بطريقة نقدية عن الامبريالية، عن طريقة الحياة تلك التي يصفها وليم أبلمن وليمز بأنها تتلاءم مع شتى القناعات العقائدية الأخرى، بما في ذلك المتناقضة منها، بحيث أن «الامتداد الامبريالي» خلال القرن التاسع عشر "جَعَلَ من الضروري تطوير عقائدية ملانمة" متحالفة مع الطرق العسكرية، والاقتصادية، والسياسية. وقد جعلت «هذه الطرق» أمراً ممكناً «الحفاظ على الامبريالية وتوسيعها دون إهدار محتواها النفسي أو الثقافي أو الاقتصادي". ثمة إلماعات في أعمال هؤلاء الباحثين إلى أن الامبريالية، باقتباس آخر من وليمز، تُنتج صوراً للذات مقلقة، مثل صورة «الشرطي التقدمي المطبوع على حب الخير»<sup>(٦)</sup>.

غير أن هؤلاء النقاد هم بشكل رئيسي كُتَّابٌ وصَفِيُّونَ وَوَضَعِيُّونَ مختلفون مختلفون اختلافاً لافتاً عن الحفنة القليلة من الإسهامات النظرية والعقائدية بشكل عام - وبينها «كُتُب» جوناه راسكن أساطير الامبريالية، وغوردن لويس الرق، والامبريالية، والحرية، وفي. جي. كيرنان الماركسية والامبريالية، وكتابه الحاسمُ أرباب الجنس البشري<sup>(٧)</sup>. وجميع هذه المؤلفات، التي تدين دُبناً عظيماً للتحليل والمقدمات «المنطقية» الماركسية، تشير إلى مركزية الفكر الامبريالي في الثقافة الغربية الحديثة.

ومع ذلك، فإنَّ إياً منهم ليس مؤثراً إلى درجة تقارب أدنى مقارنة ما كان ينبغي أن يكون له من تأثير في تغيير طريقة نظرنا إلى الأعمال المكونة الشرائعية في الثقافة الأوروبية في القرنين التاسع عشر والعشرين. أما الممارسون الرئيسيون للنقد فإنهم ببساطة يتجاهلون الامبريالية. ولقد صدمني، مثلاً، في قراءة حديثه العهد لكتاب لاينول ترلينغ الممتاز الصغير عن إي. إم. فورستر، أنه في معالجته التي هي - فيما عدا ذلك «العيب الذي ساذكره» - حساسة نافذة لـ «رواية» نهاية هاوردن، لا يذكر ولو مرة واحدة الامبريالية، التي يصعب جداً على المرء، تبعاً لقراءتي للكتاب، أن يُخطئها، دع عنك أن يتجاهلها. فهنري وكوكس وعائلته هم، بعد كل حساب، مزارعو مطاط استعماريون:

كانت لديهم الروح الاستعمارية، وكانوا دائماً متوجّهين إلى بقاع ما يمكن للإنسان الأبيض فيها أن يحمل عبئه دون أن يلحظه أحد<sup>(٨)</sup>. ثم إن فورستر كثيراً ما يقابل ويربط تلك الحقيقة بالتغيرات التي تحدث في انكلترا، وهي تغيّرات تترك أثرها على ليونرد وجاكي باست، وأسرة شليغل، وعلى نهاية هاوردن نفسها. وثمة حالة تفاجئ مفاجأة أشد، هي حالة ريموند وليمز، الذي لا يتعرض (كتابه) الثقافة والمجتمع للتجربة الامبريالية على الإطلاق (وحين تُحدّثي) وليمز في مقابلة معه بسبب هذا الغياب الضخم، إذ إنّ الامبريالية لم تكن أمراً ثانوياً وخارجياً - بل كانت مكونةً مشكّلةً بشكل مطلق لطبيعة النظام السياسي والاجتماعي الإنكليزي بأسرها... وكانت من الملمح البارز (فيها)<sup>(٩)</sup> - ردّ بأن تجربته الولشية (كإنسان من مقاطعة ويلز)، التي كان ينبغي أن تمكّنه من التفكير بالتجربة الامبريالية، كانت "معطلةً مؤقتاً إلى حد بعيد" حين كتب الثقافة والمجتمع<sup>(١٠)</sup>. أما بضع الصفحات المغاوية الموجعة التي تمس الثقافة والامبريالية في (كتاب وليمز) الريف والمدينة فإنها هامشية بالنسبة لفكرة الكتاب الرئيسية.

لماذا حصلت هذه الهفوات؟ وكيف تمّ تدوين مركزية الرؤيا الامبريالية وتدعيمها من قبل الثقافة التي أنتجتها، ثم قنعتها إلى حد ما، وتحولت أيضاً بتأثيرها؟ من الطبيعي أنك إذا حدث أن كنت أنت نفسك ذا خلفية استعمارية، فستكون الموضوعة الامبريالية موضوعاً محتمةً مقررةً في تكوينك، كما أنها ستستملك إليها إذا حدث أيضاً أن كنت ناقداً متفانياً للادب الأوروبي. إن الباحث الهندي أو الأفريقي (المختصص) بالادب الإنكليزي يقرأ كيم، لنقل، أو قلب الظلام بلحاحية نقدية لا يشعر بها بالطريقة نفسها تماماً باحث أميركي أو بريطاني. لكن، بأيّ الطرق نستطيع أن نصوغ العلاقة بين الثقافة والامبريالية بما يتجاوز التأكيدات الجازمة والأيمان المغلظة للشهادة الشخصية؟ إن بروز الرعايا السابقين للاستعمار كمؤلّكين للامبريالية وأعمالها الثقافية العظيمة قد أعطى الامبريالية هويةً ملموسةً، كي لا نقول ناتئةً قاحمة، كموضوع للدراسة والتنقيح النابض بالحياة. لكن كيف يمكن لذلك النمط الخاص من الشهادة والدراسة ما بعد الامبرياليتين، المتروك عادةً على هوامش الإنشاء النقدي، أن يدخّل في اتصال فعال مع الانشغالات النظرية الراهنة؟

إن نعتبر الانشغالات الامبريالية هامةً تأسيسياً بالنسبة لثقافة الغرب الحديث يعني، كما اقترحت، أن نعاين تلك الثقافة من منظور توفّره المقاومة المناوئة للامبريالية كما توفّره المنافحات الموالية للامبريالية. فماذا يعني ذلك؟ إنه يعني تُذكّر أنّ الكتاب الغربيين إلى منتصف القرن العشرين - ويستوي في ذلك ديكنز وأوستن، وفلوبير وكامو - كتبوا وفي أذهانهم جمهوراً غريباً حصرياً، حتى حين كانوا يكتبون عن شخصيات، وامكنة، ومواقف ستستخدم، وتشير إلى، أراض يملكها أوروبيون فيما وراء البحار. لكن لمجرد أن أوستن اشارت إلى أنتيغوا في روضة مانسفيلد أو إلى أقاليم زارتها البحرية البريطانية في (رواية) إقناع دون أن تخطر ببالها أية أفكار عن الاستجابات المحتملة للاصلانيين الكاريبيين أو الهنود الذين يقطنونها، ليس سبباً يدعوننا نحن إلى أن نفعل الشيء عينه. فنحن الآن نعرف أنّ هذه الشعوب غير الأوروبية لم تتقبل بلامبالاة السلطة المفروضة عليها، أو الصمت العام الذي يُسند\* إليه حضورها في أشكال مخففة بطرق شتى. ولذلك

\* - بمعنى الإسناد في الجملة الخبرية المؤلفة من مسند ومسد إليه (أو مبتدأ وخبر).

ينبغي علينا أن نقرأ النصوصَ المكونةَ العظيمة، بل ربما أيضاً سِجْلَ المحفوظات الكامل للثقافة الحديثة وما قبل الحديثة في أوروبا وأميركا، باذلين الجهد لاستخلاص ما هو صامت أو موجود هامشياً أو مقموع عقائدياً (وإنَّ في ذهني شخصيات كبلنغ الهندية) في مثل هذه الأعمال، وتوسيعه، وتأكيدِه، والإفصاح عنه.

بمصطلحات عملية، تعني "القراءة الطباقية" كما أسميتها قراءة النص بفهم لما هو مشبوك حين يُظهر مؤلفٌ ما، مثلاً، أنَّ مزرعة استعمارية لصب السكر تعالين بوصفها هامة بالنسبة لعملية الحفاظ على أسلوبٍ معين للحياة في انكلترا. وعلاوة، فإنَّ هذه، مثل جميع النصوص الأدبية، ليست مقيدةً ببداياتها ونهاياتها التاريخية الشكلية. إنَّ الإحالات إلى أستراليا في دايفيد كويرفيلد أو إلى الهند في جين إير لتصاغ لأنها يمكن أن تصاغ، لأن قوة بريطانيا (لا وهم الروائي فقط) جعلت الإحالة العابرة إلى هذه المصادر الضخمة ممكنة؛ غير أن الدروس الأخرى الأبعد من ذلك لا تقل سلامةً وصدقاً؛ وهي أنَّ هذه المستعمرات قد تمَّ تحريرها لاحقاً من الحكم المباشر وغير المباشر، وهي عملية بدأت وانتشرت حين كان البريطانيون (أو الفرنسيون أو البرتغاليون أو الألمان إلخ) مايزالون هناك، مع أنها، كجزء من السعي لقمع القوميات الأصلية، لم تلق إلا اهتماماً عابراً بها من أن لآخر. والنقطة <التي أثيرها> هي أن القراءة الطباقية ينبغي أن تُدخل في حسابها كلتا العمليتين: العملية الإمبريالية، وعملية المقاومة لها، ويمكن أن يتم ذلك بتوسيع قراءتنا للنصوص لتشمل ما تم ذات يوم إقصاؤه بالقوة - <وهو> في <رواية> الغريب، مثلاً، التاريخ السابق بأسره لاستعمار فرنسا وتدميرها للدولة الجزائرية، ثم الظهور اللاحق لجزائر مستقلة (اتخذ منها كامو موقفَ المعارض).

لكل نصٍّ عبقريته الخاصة، كما أنَّ لكل إقليم جغرافي في العالم عبقريته، بتجاربه المتقاطعة الخاصة، وبتواريخ النزاع المتوافقة <المتبادلة الاعتماد> الخاصة به. ويمكن إقامة تمييز مفيد، فيما يخصَّ العمل الثقافي، بين الخصوصية والسيادة (أو الحصرية التنسكية). ومن الجلي أنه لا ينبغي لأي قراءة أن تسعى إلى أن تعمم إلى درجة إلغاء هوية نصٍّ ما، أو كاتب ما، أو حركة ما. لكنَّ بالمعيار نفسه، ينبغي أن تُدخل القراءة في الاعتبار أنَّ ما كان مؤكداً، أو بدا أنه مؤكَّد بالنسبة لعمل ما أو مؤلف ما، قد يكون أصبح عرضةً للخلاف. إنَّ هند كبلنغ، في كيم، لها خصيصة من الديمومة والحتمية تنتمي لا إلى تلك الرواية المدهشة وحسب بل إلى الهند البريطانية أيضاً: إلى تاريخها، وإداريتها، والمنافحين عنها، وإلى ما لا يقل أهمية وهو الهند التي حارب من أجلها القوميون الهنود لأنها وطنهم الذي ينبغي أن يُستعاد. ويتقديم مسرد لهذه السلسلة من الضغوط والاضغوط المضادة في هند كبلنغ، نفهم العملية الإمبريالية نفسها كما يتعالق معها <أي مع السلسلة> العمل الفني العظيم، كما نفهم عملية المقاومة اللاحقة للإمبريالية. في قراءة نصٍّ ما ينبغي على المرء أن يفتحه لِمَا اندرج فيه ولِمَا أقصاه مؤلفه عنه أيضاً. إنَّ كل عمل ثقافي هو رؤيا للحظة ما، وعلينا أن نُقحم هذه الرؤيا تجاورياً مع الرؤى التنقيحية المتنوعة التي استتارتها فيما بعد - في هذه الحالة، مع التجارب القومية لهند ما بعد الاستقلال.

\* - بيدولي أن خلاصاً حدث في النص هنا، يتمثل في استخدام الإشارة "هذه" بصيغة الجمع "these" دون أن يكون هناك مشار إليه سوى "النص".

وإضافةً، فإنَّ على المرء أن يربط بنيات القصةِ المسرودةِ بالأفكار، والتصورات، والتجارب التي منها تستمدُّ الدعم. إنَّ أفارقة كونراد، مثلاً، يطلعون من مكتبة ضخمة لـ الأفريقيانية، إذا جاز التعبير، كما من تجارب كونراد الشخصية. ليس ثمة من شيء اسمه التجربة المباشرة، أو الانعكاس، للعالم في لغة نصِّ. لقد تأثرت انطباعاتُ كونراد عن أفريقيا بشكلٍ حتميٍّ بمخزون الماثورات الشعبية وبالكتابات عن أفريقيا، التي يُلمع إليها في <كتابه> **سِجَلٌ شخصيٌّ**؛ وما يقدِّمه في قلب الظلام هو حصيلة انطباعاته عن تلك النصوص متفاعلةً تفاعلاً خلاقاً، إلى جانب مقتضيات السرد وأعرافه، وعبقريته وتاريخه الخاصين المتميزين. وأن يقال عن هذا المزيج الخارق الثراء إنه "يعكس" أفريقيا، أو إنه يعكس تجربةً لأفريقيا، هو قول جبان نوعاً ما، ومضلل بالتاكيد. فما لدينا في قلب الظلام - وهو عمل ذو تأثيرٍ ضخمٍ، إذ إنه قد استفزَّ العديدَ من القراءات والصور- هو أفريقيا مسيَّسةً، ومشبَّعةً عقائدياً، كانت لنوايا وأغراض ما المكانَ المؤيَّز (imperialized)، بكل تلك المصالح والأفكار الفاعلة فيها بشراسة، لا مجرد "انعكاس" تصويري <فوتوغرافي> أدبي لأفريقيا.

قد يكون ما أقوله صياغةً متطرِّفةً للمسألة، لكنني أريد أن أقرَّ النقطة <الهامة> وهي أن قلب الظلام بالصورة التي تبلورها لأفريقيا ليست فقط أبعد ما يمكن عن كونها "مجرد" أدب، بل هي إلى درجة خارقة متعالقة منشبكة في، وجزءٌ عضويٌّ بحق من هذا "التزاحم بالمناكب على أفريقيا" الذي كان معاصراً لتأليف كونراد. صحيح أن جمهور كونراد كان صغيراً، وصحيح أيضاً أنه كان حاداً النقد للاستعمار البلجيكي. لكن بالنسبة لمعظم الأوروبيين، كانت قراءة نصِّ مُتَشَبِّهٍ نوعاً ما مثل قلب الظلام هي في الكثير من الحالات أشد النقاط التي يبلغونها قريباً من أفريقيا، وبهذا المعنى المحدود فقد كانت جزءاً من السعي الأوروبي للتشبُّث بأفريقيا، والتفكير بها، والتخطيط لها. أن يمثَّل <المرء> أفريقيا يعني أن يدخل حلبة الصراع على أفريقيا، المرتبط بصورةٍ حتمية بما حدث فيما بعد من مقاومة وفكفكة للاستعمار وما إليهما.

إنَّ الأعمال الأدبية، خصوصاً تلك التي يكون موضوعها الصريحُ هو الإمبراطورية، لها، طَبْعياً، جانبٌ مشوَّش بل عصيٌّ على التناول في إطار مشهدي سياسي محفوف <بالمشكلات؟> ومشحون <عاطفياً؟> إلى درجة عالية من الكثافة. لكن أعمالاً أدبية مثل قلب الظلام هي، رغم ما فيها من التعقيد البالغ، تقطيرات أو تبسيطات، أو طقم من الخيارات التي اختارها مؤلِّفُ ما، <وهي> أقل تشوشاً واختلاطاً بكثير من الواقع. ولن يكون عادلاً أن نفكر بها كتجريدات، رغم أن مفتريات\* مثل قلب الظلام قد صاغها مؤلِّفوها بدرجة من الإحكام، وتأمَّلها قراؤها بقدر من القلق جعلها تلائم ضرورات السرد الذي يمارس - نتيجةً لذلك، كما ينبغي أن نضيف - دخولاً عالي التخصص إلى <حلبة> الصراع من أجل أفريقيا.

\* - استخدم المصطلح العربي الأصيل الذي وجدته حديثاً لدى بديع الزمان الهمداني وهو "المفتريات" للدلالة على مضمون المصطلح الأوروبي "fiction" واضيف إليه أحياناً المزيد من التوضيح المصطلح الذي كنت قد ابتكرته قبل ذلك بسنوات، في ترجمتي لـ **الاستشراق**، وهو: "مختلقات"؛ ومن الدال أن مصطلحي ومصطلح الهمداني متقاربان جداً، وهما يختلفان جوهرياً عن الترجمات العربية الرائجة مثل "الرواية" أو "الفن الأوروبي" وهي في تقديري غير صالحة إلا في سياقات محدودة.

إن نصاً على هذه الدرجة من الهجنة، والعكرة، والتعقيد لِيَتطلب انتباهاً يقظاً في (عملية) تأويله. لقد كانت الامبريالية الحديثة من الكونية والشمولية بحيث لم ينجُ فعلياً من (تأثير)ها شيء؛ وإلى جانب ذلك، فإن تنافس القرن التاسع عشر حول الإمبراطورية، كما قلت سابقاً، ما يزال مستمراً اليوم. ولذلك فإنّ النظر أو عدم النظر إلى الروابط بين النصوص الثقافية والامبريالية يعينان اتّخاذ موقفٍ هو في حنيئة الأمر متخذ: إما أن ندرس الصلة من أجل نقدها والتفكير ببدائل لها... وإما أن لا ندرسها من أجل أن نتركها ماثلة، غير ممحصّة، ودونما تغيير على سبيل الافتراض. وأحد أسباب كتابتي لهذا الكتاب هو أن أظهر إلى أيّ مدى اتّسع البحث عن السيطرة على ما وراء البحار، والانشغالُ بها، والوعيُ بها - لا في (أعمال) كونراد فقط بل لدى أشخاص لا نفكر بهم عملياً في هذا المعرض على الإطلاق، مثل ثاكري وأوستن - وأن أظهر أهمية وثراء هذه المادة بالنسبة للناقد، لا للأسباب السياسية الواضحة فحسب، بل أيضاً لأنّ هذا النوع المحدّد من الاهتمام، كما ما زلت أحتجّ، يتيح للقارئ أن يؤوّل الأعمال المكونة للقرنين التاسع عشر والعشرين باهتمام مشبوكٍ منخرطٍ من جديد.

لنعدّ إلى قلب الظلام، في هذه الرواية يقدم كونراد نقطة بداية فائقة الإيحائية للتعامل عن قرب مع هذه المسائل الشائكة. لنتذكر أنّ مالرو يقابل بين المستعمرين الرومان ونظرائهم المحدثين بطريقة غريبة الحساسة، مضميناً المزيج الخاصّ من القوة، والحيوية العقائدية، والموقف العملي الذي يميّز الامبريالية الأوروبية. يقول مالرو إنّ الرومان القدماء لم يكونوا "مستعمرين؛ فقد كانت إدارتهم اعتصاراً ولا شيء آخر". وقد قام مثل هؤلاء الناس بالفتوحات ولم يفعلوا شيئاً آخر. وبالمقابل، فإنّ "ما ينقذنا هو الكفاءة - ونُدزّر النفس للكفاءة"، على العكس من الرومان الذين اعتمدوا على القوّة الوحشية، التي لا تكاد تعدو أن تكون "حدثاً عارضاً نابحاً من ضعف الآخرين". أمّا اليوم، فإنّ:

فتح الأرض، الذي غالباً ما يعني انتزاعها من أولئك الذين لهم بشرية مختلفة عن بشرتنا أو أنوف أكثر تسطحاً بقليل من أنوفنا، ليس عملاً جميلاً حين تتأمله بإمعان. وليس ثمّة ما (يشفع له) ويمنحه الخلاص سوى الفكرة ذاتها. (وهي) فكرة كامنة وراءه؛ لا نزعاً عاطفياً بل فكرة؛ وإيمان لا تشوبه الأنانية بالفكرة - وهي شيء بوسعه أن تقيمه نصياً، وتحنّي امامه (مبجلاً)، وتقدّم له القرابين<sup>(١١)</sup>.

يوسّع مالرو، في مسرده لرحلته النهرية العظيمة، النقطة لتشكّل تمييزاً بين الضراوة الغاصبة البلجيكية والعقلانية البريطانية (ضمنياً) في تسيير أمور الامبريالية<sup>(١٢)</sup>.

والخلاص في هذا السياق مفهوم شيق. فهو يضعنا في موقع منفصل عن الرومان والبلجيكيين الملغوبين، المحتقرين، الذين لا تشعّ شراهِتهم بأية منافع لا على ضمائرهم هم ولا على أراضي رعاياهم وأجسامهم. "نحن" مخلصون لأننا قبل كل شيء، آخر لسنا بحاجة إلى النظر مباشرة إلى نتائج أفعالنا؛ ونحن مطوّقون ونطوّق أنفسنا بممارسة الكفاءة، التي عن طريقها نضع الأرض والبشر موضع الاستخدام بشكل كلي؛ فالأرض وسكانها مشمولة مدمجة كليّة بفضل حكمنا، الذي يقوم بدوره بشملنا ودمجنا كليّة إذ نستجيب بكفاءة لمقتضياتها. ثم إنّ كونراد، من خلال مالرو، يتحدّث عن الخلاص re-demption، وهو بمعنى ما خطوة تتجاوز الإنقاذ salvation. ولئن كان الإنقاذ ينقذنا، ينقذ الوقت والمال، وينقذنا أيضاً من خرائب الفتح المجرد القصير الأمد، فإنّ الخلاص يوسّع

الإنقاذ إلى نقطة أبعد من ذلك. إنَّ الخلاص لَيوجد في الممارسة الذاتِيَّة التسويغ لفكرة ما أو لمهمة إرسالية ما على مدى الزمن، في بنية تطوِّك تماماً وتبجِّلها أنت تماماً، رغم أنك أنت الذي نَصَبْتَ البنية باديء ذي بدء - ويا للمفارقة الضدية - وتتوقف عن دراستها لأنك تستنبدُها.

وهكذا يضع كونراد في معلبة صغيرة جانبيين من الإمبريالية متباينين لكنهما مترابطان بحميمية: الفكرة المبنية على امتلاك القوة للاستيلاء على الأرض، وهي فكرة جليلة تماماً بقوتها وعواقبها البيئية؛ والممارسة التي تقوم، في الجوهر، بتقنec ذلك أو بإبهامه عبر تطوير نظام تبريري من السلطة التي تعظَّم ذاتها وتولِّد ذاتها، مقحَم قسراً بين ضحايا الامبريالية ومرتكبيها.

سوف نفوتنا تماماً القوة الهائلة لهذه المنظومة إذا اقتصرنا على انتزاعها من قلب الظلام، كما تُنزَع رسالة من قارورة. إنَّ منظومة كونراد مخطوطة تماماً في عين الشكل الروائي كما ورثه وكما مارسه. وسأذهب إلى حد القول إنَّ الرواية الأوروبية كما نعرفها اليوم ما كانت ستوجد في غياب الإمبراطورية؛ وبالفعل فإننا إذا درسنا البواعث التي سببت نشوؤها، فسندرى الالتقاء - البعيد تماماً عن أن يكون عَرَضياً - بين انساق السلطة السردية المشكَّلة للرواية، من جهة، وتشخص عقائدي معقد يتبطن النزوع نحو الامبريالية، من جهة أخرى.

يلاحظ كلُّ روائي وكلُّ ناقد أو منظر للرواية الأوروبية طبيعتها المؤسساتية. فالرواية متصلة بصورة أساسية بمجتمع الطبقة الوسطى <البورجوازية>؛ وهي، بعبارة شارل موراز، تراقب بل هي بحق جزء من فتح المجتمع الغربي من قبل ما يسميه: الفاتحين الطبقيّوسطين <البورجوازيين>. ومما لا يقل دلالة أن الرواية نُشنت في انكلترة ب روبنسون كروزو، وهي رواية بطلها مؤسس لعالم جديد، يقوم بحكمه واستعادته للمسيحية ولانكلترة. صحيح أنه، فيما تمَّنح كروزو المقدرة بصورة صريحة عقائدية للتوسع فيما وراء البحار - <وهي عقائدية> مرتبطة مباشرة في الأسلوب والشكل بسرديات الرحلات الاستكشافية في القرنين السادس عشر والسابع عشر التي وضعت أسس الإمبراطوريات الاستعمارية العظيمة - فإنَّ الروايات الرئيسية التي جاءت بعد ديفو، بل أعمال ديفو التالية نفسها، تبدو غير محكومة حكماً موطد العزم وحيد الهدف بالاحتمالات المثيرة لما وراء البحار. إنَّ كاتبين سبغلتن حكاية قرصان كثير الأسفار في الهند وأفريقيا، وهول فلاندرز تكتسب تشكيلها من احتمال خلاص البطلة الذروي في العالم الجديد من حياة قضنتها في الجريمة، بيد أن فيلدنغ، وريتشاردسون، وسمولت، وستيرن لا يربطون سردياتهم ربطاً مباشراً إلى فعل مراكمة الثروات والأراضي في الخارج.

ومع هذا، فإنَّ هؤلاء الروائيين يوضعون عملهم في، ويستمدونه من، بريطانيا إقليمية أعظم تم مسخها بعناية، وذلك متصل حتا بما بداه ديفو بدءاً ينم عن معرفة سبقيّة بالغيب <كما يتجلى في عمله> لكن، فيما نذرت دراسات متميزة للرواية الإنكليزية في القرن الثامن عشر - <دراسات> ل إيان واط، ولينرد ديفيس، وجون ريشتي، ومايكل ماكيون - قدراً كبيراً من الاهتمام للعلاقة بين الرواية والفضاء الاجتماعي، فإنَّ المنظور الامبريالي قد



أهمل<sup>(١٣)</sup>. ولا يعود الأمر ببساطة إلى كون المرء غير واثق، مثلاً، مما إذا كانت بناءً ريتشاردسون الدقيقة للإغواء، والجشع الطباقوسطين متصلة بالفعل بالتحركات العسكرية البريطانية ضد الفرنسيين في الهند التي كانت تحدث في الوقت ذاته. فمن الواضح أنها لا تتصل بها بمعنى حرفي؛ لكننا في كلا المجالين نجد قِيماً مشتركة متعلقة بالنزاع، وتجاوز الاحتمالات السلبية والعوائق، والصبر في تأسيس السلطة عبر فن وصل المبدأ بالريح على مدى زمني «طويل». وبكلمات أخرى، فإننا نحتاج إلى امتلاك حس نقدي بكيفية كون الفضاءات العظيمة لـ كلاريسا أو قوم جونز أمرين اثنين في وقت واحد: مواكبة داخلية «محلية» للمشروع الامبريالي في الحضور والسيطرة الخارجيين، وسردية تطبيقية حول التوسع والتنقل في فضاء ينبغي أن يقطن ويتمتع به بشكل ناشط قبل أن يمكن تقبل نظامه أو حدوده.

لست أسعى إلى القول بأن الرواية - أو الثقافة بالمعنى الواسع - قد «سببت» الامبريالية، بل إن الرواية، من حيث هي مصنع ثقافي من مصنعات المجتمع الطباقوسطي، والامبريالية غير قابلين للخطور بالبال منفصلتين إحداهما عن الأخرى. إن الرواية هي أكثر الأشكال الأدبية الرئيسية حداثة زمنياً، وإن نشوعها هو الأكثر قابلية للتاريخ، وحدوثها هو الأكثر غربية، ونسقتها المعيارية للسلطة الاجتماعية هو الأكثر بُنيّة؛ ولقد حصنت الرواية والامبريالية إحداهما الأخرى إلى درجة «عالية» يستحيل معها، تبعاً لما أطره، قراءة إحداهما دون التعامل بطريقة ما مع الأخرى.

وما هذا بكل شيء. فالرواية شكل ثقافي اشتعالي تدميجي، شبه موسوعي. وفيها يعبأ أمران: الية للحبكة بالغه التقنين، ونظام كامل من الإحالة الاجتماعية يعتمد على مؤسسات المجتمع الطباقوسطي القائمة وعلى سلطتها وقوتها. ويظهر بطل الرواية أو بطلتها القلق والطاقة المائزين للطبقوسطية المبادرة النشيطة؛ ويُسمح لهما بالقيام بمغامرات تجلو لهما تجاربهما فيها حدوداً ما يسعهما التطلع إلى تحقيقه، وأنى يمكن أن يمضيا، وما يمكنهما أن يصيرا. ومن هنا فإن الروايات تنتهي بموت البطل أو البطلة (جوليان سوريل، إيما بوفاري، بازروف، جود المجهول) للذين لا ينسجمان مع الخطة المنظمة للأشياء بسبب طاقتهم الفياضة، أو بارتقاء البطل والبطلة إلى الاستقرار (ويكون ذلك عادةً في شكل الزواج أو الهوية المؤكدة المثبتة، كما هي الحال في روايات لـ أوستن، وديكنز، وثاكري، وجورج إليوت).

لكن، قد يسأل المرء، لماذا نؤكد كل هذا التأكيد على الرواية وعلى إنكلترة؟ وكيف نستطيع تجسير المسافة الفاصلة بين هذا الشكل الجمالي الفرد، والموضوعات والمساعي الكبيرة من مثل «الثقافة» والامبريالية؟

لسبب أول، كانت الإمبراطورية البريطانية، مع اندلاع الحرب العالمية الأولى، قد أصبحت طاغية بما لا يترك مجالاً للسؤال، وذلك نتيجة لعملية كانت قد بدأت في أواخر القرن السادس عشر؛ ولقد كانت العملية من القوة، وكانت نتيجتها من التحديد الحاسم، بحيث أنها - كما احتج سيللي وهوبسن قبيل نهاية القرن التاسع عشر - كانت الحقيقة المركزية في التاريخ البريطاني، وكانت حقيقةً اشتملت على نشاطات متباينة عديدة<sup>(١٤)</sup>. وليس من قبيل المصادفة تماماً أن بريطانيا أيضاً أنتجت ودعمت استمرار مؤسسة روائية

لا منافس أو معادل أوروبياً حقيقياً لها. لقد كانت لفرنسا مؤسساتٌ فكرية أرقى تطوراً - مجامعٌ <علمية>، وجامعاتٌ، ومعاهدٌ، وصحفٌ، وما إليها - على مدى النصف الأول من القرن التاسع عشر على الأقل، كما لاحظ جمهورٌ من المفكرين البريطانيين، بينهم أرنولد، وكارلايل، وميل، وجورج إليوت، نادبين راثين. لكن التعويض الخارق لهذا التفاوت جاء في الصعود المستمر وفي السيطرة - التي غدت تدريجياً دونما منازع - للرواية البريطانية. (ولا نرى تشكلاً جمالياً وثقافياً مكافئاً أخذاً في التدفق إلا حين يكتسب شمالاً أفريقيا حضوراً حواضرياً من نمطٍ ما في الثقافة الفرنسية بعد ١٨٧٠: تلك هي المرحلة التي يطرح فيها لوتي، وجيدٌ <في عمله> المبكر، ودودييه، وموياسان، وميل، وپيسيشاري، ومالرو، والغرائبيون مثل سفالين، وكامو طبعاً، <فكرة وجود> توافقٍ كوني بين الأوضاع الداخلية المحلية والامبريالية).

مع حلول الـ ١٨٤٠ات كانت الرواية الإنكليزية قد برزت بوصفها الشكل الجمالي <المطلق> في المجتمع الإنكليزي وصوتاً فكرياً رئيسياً فيه، إذا جاز التعبير. ولأن الرواية اكتسبت تلك المكانة الهامة في قضية <وضع انكلترة الراهن>، مثلاً، فإن بوسعنا أن نعتبرها أيضاً مشاركةً في إمبراطورية انكلترة ما وراء البحار. ولقد قامت جين أوستن، وجورج إليوت، والسيدة غاسكل، في طرحهن لـ <فكرة> ما يسميه ريموند وليمز <مجتمعاً قابلاً للمعرفة> من الرجال والنساء الإنكليز، بصياغة فكرة انكلترة بطريقةٍ مَنَحَتْها هويةً، وحضوراً، وطرقاً من الإنفصاح القابل لإعادة الاستعمال.<sup>(١٩)</sup> ولقد كان جزء من هذه الفكرة هو العلاقة بين <الوطن> و<الخارج>. وهكذا تمَّ مَسُحُّ انكلترة، وتقييمها، وجعلها معروفةً؛ وأما <الخارج> فقد أُشير إليه فقط أو أظهر بإيجاز دون أن يُمنح ذلك النمط من الحضور أو الفورية الذي أُعِدق على لندن، أو الريف، أو المراكز الصناعية الشمالية مثل مانشستر وبرزمنهام.

إن هذا العمل المطرد، المُطَمَّن تقريباً، الذي قامت به الرواية لهو أمرٌ تتفرد به انكلترة، وينبغي أن يُتناول باعتباره تنسيباً ثقافياً هاماً على الصعيد الداخلي، لم يتم توثيقه ودراسته حتى الآن، لِمَا حدث في الهند وأفريقيا وأيرلنده والكاريبي. وثمة ما يشبه ذلك في القياس: وهو العلاقة بين سياسة بريطانيا الخارجية وماليتها وتجاريتها، وتلك علاقة تمت دراستها بالنعل. ونحن نكتسب إحساساً حيويًا بمدى كثافة هذه العلاقة وتعقيدها من دراسة دي. سي. إم. پلات المكرسة <الكلاسية> (وإن كانت لم تزل موضعاً للنقاش) لها: الشؤون المالية، والتجارة، والسياسيات في السياسة الخارجية البريطانية ١٨١٥-١٩١٤، وإحساساً بمدى اعتماد التوامة الخارقة للتجارة البريطانية والتوسع الامبريالي البريطاني على عوامل ثقافية واجتماعية مثل التعليم، والصحافة، والتزاوج، والطبقات. يتحدث پلات عن <الصِّلات الاجتماعية والفكرية [الصدقة، الضيافة، المساعدات المتبادلة، الخلفية الاجتماعية والتعليمية المشتركة] التي نشطت الضغوط الفعلية على السياسة الخارجية البريطانية، ويتابع قائلاً إن <الدليل الملموس [على الإنجازات الفعلية لطقم الاتصالات هذا] قد لا يكون وُجِدَ على الإطلاق>. ومع ذلك، فإذا نظر المرء إلى الطريقة التي تطوّر بها موقف الحكومة من قضايا مثل <القروض الأجنبية... وحماية حاملي السندات، وتشجيع العقود والامتيازات <المنووحة> في ما وراء البحار>، فإنه يستطيع أن

يرى ما يسميه «پلات» وجهة نظر دوائية، نوعاً من الإجماع على الإمبراطورية يعتقد مدى متنوعاً واسعاً من البشر المسؤولين عنها. وإن هذا «ليوحي بالكيفية التي كان يُحتمل أن تتم بها ردودُ فعل الموظفين والسياسيين واستجاباتهم»<sup>(١٧)</sup>.

ما هي الطريقة المثلى لوصف وجهة النظر هذه وتمييزها؟ يبدو أن ثمة اتفاقاً بين الباحثين على أن السياسة البريطانية حتى عام ١٨٧٠ كانت تقوم (تبعاً لـ «عمل» دزرائيلي المبكر، مثلاً) على الاتوسُّع الإمبراطورية بل أن تُدعم وتُصان ويُحافظ عليها من الانقراض<sup>(١٧)</sup>. وكانت الهند، التي اكتسبت مقاماً ذا ديمومة مذهلة في الفكر «الدوائي»، مركزية الأهمية لهذه المهمة. أما بعد ١٨٧٠ (ويقتبس شومبيتر خطاب دزرائيلي في كريستال بالاس عام ١٨٧٢ كعلامة مائزة للإمبريالية العدوانية، «العبارة اللاقطة للسياسة الداخلية»<sup>(١٨)</sup>)، فقد جعلتُ حماية الهند (ظَلَّت الدوائرُ تنداح متسعة متعاطمة) والدفاعُ ضد القوى المنافسة الأخرى، كروسيا على سبيل المثال، التوسُّع البريطاني الإمبريالي في أفريقيا، والشرق الأوسط، والشرق الأقصى أمراً ضرورياً. ومنذ تلك اللحظة، في منطقة ما من العالم تلو أخرى، «كانت بريطانيا بحق مشغولةً بهاجس التمسُّك بما كانت قد امتلكته فعلاً»، كما يعبرُ پلات، «وكان كلُّ ما نالته مطلوباً «منها» لأنه أعانها على الحفاظ على غيرهِ. لقد انتمت بريطانيا إلى حزب المكتفين القانونيين، لكنها كانت مجبَّرةً على الصراع بجهد متعاطم لكي تظلَّ معهم، ولقد كان لديها ما يفوق ما لدى غيرها ممَّا هو عرضة للخسارة»<sup>(١٩)</sup>. وكانت وجهة النظر الدوائية للسياسة البريطانية حذرةً بشكل أساسي؛ وكما عبَّر رونالد روبنسون وجون غالاغر في إعادة تحديدهما لأطروحة پلات، فإنَّ «البريطانيين يفضلون أن يتوسَّعوا عن طريق التجارة والنفوذ إذا أُتيح لهم ذلك، لكنهم «سيتوسَّعون» بالحكم الإمبريالي إذا كان لا بدَّ لهم منه»<sup>(٢٠)</sup>. ويندُكرنا المؤلفان باننا ينبغي الأنتسى أو نضائل من أهمية كون الجيش الهندي قد استُخدم في الصين ثلاث مرات بين ١٨٢٩ و١٨٥٦، ومرةً على الأقل في «كلِّ من» فارس (١٨٥٦)، والحبشة وسنغافورة (١٨٦٧)، وهونغ كونغ (١٨٦٨)، وأفغانستان (١٨٧٨)، ومصر (١٨٨٢)، وبورما (١٨٨٥)، ونغاسي (١٨٩٣)، والسودان وأوغندا (١٨٩٦).

وبالإضافة إلى الهند، فقد كان من الواضح أن السياسة البريطانية جعلتُ مَعْقَل التجارة الإمبريالية البرِّ البريطاني نفسه (إذ كانت أيرلنده مشكلةً استعمارية مستمرة) وإلى جانبه ما يسمَّى بالمستعمرات البيضاء (أستراليا، نيوزيلندا، كندا، جنوب أفريقيا، بل الممتلكات السابقة الأميركية نفسها). ولم يكن ثمة من مواز هام للاستثمار المستمر والمحافظة المكرورة على الأراضي البريطانية ما وراء البحار وفي البلاد نفسها بين القوى الأوروبية أو الأميركية، حيث كانت تحدث ارتجاجاتٌ، ومكتسباتٌ أو خساراتٌ مفاجئة، وفعالٌ مرتجلة بدرجة من التواتر أعلى بكثير.

وبإيجاز، فقد كانت القوة البريطانية ذات طاقة على التحمل والديمومة وكانت تعزُّزُ باستمرار. وفي المجال الثقافي المرتبط «بهذه القوة» والذي كثيراً ما يكون ملاصقاً «لها»، تمَّ إحكامُ تلك القوة والإفصاحُ عنها في الرواية، التي لا يمكن أن نعثر على حضورها المركزي المستمر بصورة مماثلة في أي مكان آخر. بيد أننا لا ينبغي أن نرضى بشيء إلا بعد جهد جهيد، إنَّ روايةً ما ليست فرقاطة «حربية» كما أنها ليست تحويلاً مصرفياً. بل

إن رواية ما توجد أولاً كجهد روائي فردي، وتوجد ثانياً كشيء يقرأه جمهور. ومع مرور الزمن، تتراكم الروايات وتحوّل إلى ما يطلق عليه هاري ليفن تسمية مفيدة هي "مؤسّسة أدبية"، لكنّها لا تفقد أبداً مقامها كأحداث أو ككافئتها الخاصة كجزء من مشروع مستمر يتميّزه ويقبله القراء والكتاب الآخرون بوصفه كذلك. لكن الروايات رغم كل حضورها الاجتماعي لا يمكن تقليصها إلى تيار علم اجتماعي ولا يمكن أن تُوقى حقّها جمالياً، وثقافياً، وسياسياً «إذا عوملت» كاشكال فرعية للطبقات أو العقائديّات أو المصالح.

غير أنّ الروايات، بقدر مساو تماماً، ليست ببساطة إنتاجاً لعبقريّة متوحّدة (كما تحاول مدرسة من المؤرّكين المحدثين مثل هلين فندلر أن تقترح) ينبغي أن تعيّن بوصفها تجلّيات للإبداع غير المشروط فقط. إن بعضاً من أكثر النقد الحديث العهد إثارة - وثمة مثلاًن بارزان عليه هما «كتابا» اللاوعي السياسي لفردريك جيمسن، والرواية والشرطة لديفيد ميلز - يُظهر أن الرواية بشكل عام، والسرديات بشكل خاص، لها نمط من الحضور الاجتماعي المنظم المقتن في مجتمعات أوروبا الغربية. ولكنّنا نفتقد في هذه التوصيفات، القيمة فيما عدا هذا «الافتقاد»، ظلّال العالم الفعلي الذي تحدث فيه الروايات والسرديات. إنّ كون شخص ما كاتباً إنكليزياً كان يعني شيئاً محدداً ومختلفاً تماماً عن كونه، لنقل، كاتباً فرنسياً أو برتغالياً. فلقد كان "الخارج" بالنسبة للكاتب البريطاني شيئاً يُحسّ به، بشكل غامض ومخلخل، قائماً هناك بعيداً، أو غرائبياً وغريباً، أو بطريقة أو بأخرى شيئاً هو "لنا" لنسيطر عليه، ونتاجر به "بحريّة"، أو لنقمعه إذا اكتسب الأصلاّنين طاقة تدفعهم إلى المقاومة العسكرية أو السياسية العلنية. ولقد أسهمت الرواية إسهاماً هاماً في «تكوين» هذه المشاعر، ووجهات النظر، والإحالات، وأصبحت عنصراً رئيسياً في الرؤية المعرّزة، أو وجهة النظر الثقافية الدوائية، للعالم.

ينبغي أن أظهر بالتخصيص كيف صنّع الإسهام الروائي، وأن أظهر بالمقابل أيضاً كيف أن الرواية لم تردع ولم تكبت المشاعر الإمبريالية الأشدّ عدوانية وشعبية التي تجلّت بعد 1880. إنّ الروايات صوّرت للواقع في أبكر المراحل أو آخر المراحل من تجربة القارئ لها: بل الحق أنها تصوغ بإحكام وتصون واقعاً ترثه من روايات أخرى، فتقوم بالإفصاح عنه من جديد ويسكنه من جديد تبعاً لوضع خالقها، ومواهبه، وميوله وأفضلياته. يؤكد پلات بحق على الصيانة conservation في «وجهة النظر الدوائية»؛ وهي مسألة هامة للروائي أيضاً: فالروايات الإنكليزية في القرن التاسع عشر تؤكّد على الوجود المستمر (نقيضاً للانقلاب الثوري) لانكلترة. وعلاوة، فإنّها لا تدعو أبداً إلى التخلي عن المستعمرات، بل تتبنى وجهة النظر البعيدة المدى «القائلة» بأنها مادامت تقع ضمن مدار السيطرة البريطانية، فإن هذه السيطرة هي نوع من المعيار، وهكذا فهي تُحفظ وتُصان جنباً إلى جنب مع المستعمرات.

إنّ ما نجده هو صورة تُبنى ببطء تحتل مركزها انكلترة - وقد رُسمت ومُيزت اجتماعياً وسياسياً وأخلاقياً بتفصيل دقيق بالغ - وعلى الأطراف منها سلسلة مرتبطة بها من الأراضي الواقعة ما وراء البحار. وترافق استمرارية السياسة الإمبريالية البريطانية عبر القرن التاسع عشر بأسره - وهي في الحقيقة «حكاية» سردية - بشكل ناشط هذه العملية الروائية، التي ليس هدفها الرئيسي طرْح المزيد من الأسئلة، أو إقلاق الانتباه أو

شغلّه بأيّ طريقة كانت، بل الحفاظ على الإمبراطورية قائمةً حيث هي. ولا يكاد يكون الروائي مهتماً أبداً بأن يعدو ذكرَ الهند أو الإشارة إليها، مثلاً، في معرض الخيلاء أو جين إير، أو ذكر أستراليا أو الإشارة إليها في توقعات عظيمة. والفكرة هي أن الأراضي النائية (تبعاً للمبادئ العامة للتجارة الحرة) متاحةٌ للاستعمال، بمقتضى الإرادة، وبحسب مشيئة الروائي وتقديراته، من أجل أغراض بسيطة في العادة مثل الهجرة، أو الثراء، أو النفي. في نهاية أزمئة صعبة، مثلاً، يرحل توم بالباخرة إلى المستعمرات. ولم تصبح الإمبراطورية موضوعاً رئيسياً للاهتمام إلى ما بعد منتصف القرن بزمّن لدى كُتاب مثل هاغارد، وكپلنغ، ودويل، وكونراد، إلى جانب الإنشاءات المنبثقة في علم الأعراق الوصفي، وفي الإدارة الاستعمارية والنظرية الاستعمارية والاقتصاد الاستعماري، وفي علم تاريخ الأقاليم غير الأوروبية، وفي موضوعات متخصصة مثل الاستشراق، والغرائبية، وعلم النفس الجماهيري.

إنّ العواقب التأويلية الفعلية لهذه البنية البطيئة المطردة من المواقف والإحالات التي أفصحت عنها الرواية متنوعةٌ شتى. وسأذكر بالتخصيص أربعاً منها. الأولى هي أنّه، في التاريخ الأدبي، يمكن أن تُرى استمراريةً عضويةً غيرُ عادية بين السرديات المبكرة التي لا تُعتبر عادةً ذات علاقة وثيقة بالإمبراطورية، والسرديات المتأخّرة التي تحكي صراحةً عنها. فكپلنغ وكونراد يمهّد لهما أوستن، وناكري، وديفو، وسكوت، وديكنز؛ وهما أيضاً مترابطان ترابطاً شيقاً بمعاصريهما من مثل هاردي وجيمس، اللذين يُفترض بانتظام أنهما يرتبطان مصادفةً وعرضاً فحسب بالمعروضات الماورابحارية التي يقدّمها نظراؤهما الروائيون الأكثر غرابة. غير أنّ الخصائص الشكلية والمضامين في أعمال هؤلاء الروائيين جميعاً تنتمي إلى التشكل الثقافي ذاته، وتقتصر الفروق بينها على اللّهجة، والتأكيد، والنبيرة.

ثانياً، تثير بنية المواقف والإحالات مسألة القوة بأسرها. لا يستطيع ناقدُ اليوم، ولا ينبغي له، أن يعطي روايةً ما فجأةً سلطةً تشريعيةً أو سلطةً سياسيةً مباشرة: يجب أن نستمر في تذكر أنّ الروايات تُشارك وتُسهم وهي جزءٌ من سياسيات بالغة البطء لانتهائية الصغر توضح، وتعرّز، بل ربما كانت من أن لآخر تدفع قُدماً، التصورات ووجهات النظر حول انكلترا والعالم. إنه لمن اللافت الصادم أنّ ذلك العالم القصي، في الرواية، لا يُرى مرةً واحدة إلا منضوياً خاضعاً، وإنّ الحضور الانكليزي يعتبر تقنياً ومعيارياً. إنّ قدراً من الجِدّة الخارقة لمحاكمة عزيز في مهر إلى الهند يتمثل في أن فورستر يعترف بأن "الإطار المهلهل للمحكمة"<sup>(٣٣)</sup> لا يمكن أن يوازّر لأنه "وهْمٌ يُدخل المساومة والوهن على القوة البريطانية (وهي حقيقية) بالعدالة النزيهة للهنود (وهي غير حقيقية)". ولذلك فإنّ فورستر، عن طيب خاطر (بل بشيء من نفاذ الصبر المحبّط) يحلّ <يُذيب> المشهد <محيلاً إياه> إلى "تعقيد" الهند، الذي كان على القدر نفسه من الحضور قبل ذلك بأربعة وعشرين عاماً في كيم كپلنغ. والفرق الرئيسي بين الاثنتين هو أنّ الإزعاج المتطاوّل الذي يسبّبه الأصلائيون المقاومون كان قد أقحم <نفسه> على وعي فورستر. ولم يكن يوسع فورستر أن يتجاهل أمراً كان كپلنغ قد احتجته ودمجه بسهولة (كما حدث حين صاغ <هذا الأخير> "تمردّ" الجند المشهور نفسه الذي حدث عام ١٨٥٧ بوصفه مجرد عصيان، لا اعتراضاً هندياً خطيراً على الحكم البريطاني).

لا يمكن أن يتشكل وعيٌ بأنَّ الرواية تُؤكِّد وتقبل التباين في القوة إلا إذا لاحظ القراءُ فعلاً علاماتٍ (ذلك) في أعمالٍ فردية، وإلا إذا تمتَّ معاينةُ تاريخ الرواية بوصفه يملك انسجامَ مشروعٍ مستمر. فكما أنَّ الصلابة المدعَّمة والروايات الدوَّانية الثابتة إلى حدٍّ بعيدٍ للأصقاع القصصية التي استعمرتها بريطانيا قد حوِّفظ عليهما على مدى القرن التاسع عشر، فقد حوِّفظ أيضاً، بطريقةٍ أدبيةٍ عامة، على الإدراك الجمالي (وبالتالي الثقافي) للأصقاع الواقعة ما وراء البحار جزءاً من الرواية، عَرَضياً أحياناً، وبالغ الأهمية أحياناً أخرى. وقد حدثتْ رُؤياها المعزَّزة في سلسلة كاملة من التأكيدات والإثباتات المتقاطعة، التي تدعَّم وتعرِّز عن طريقها إجماعٌ شبه تام على وجهة نظر (واحدة). وإنَّ كون ذلك قد تم في إطار معطياتٍ كلِّ وسيطٍ تعبيري أو إنشائي (الرواية، كتابات الرحلات، علم الأعراق الوصفي) لا في إطار معطياتٍ فُرِضتْ من الخارج، لِيُقْتَرَحَ «وجود» انسياقٍ متكيفٍ، وتعاونٍ، ورغبةٍ، لكنه لا يعني بالضرورة «وجود» برنامجٍ أهدافٍ سياسيٍ متبنيٍ بشكلٍ مكشوفٍ أو صريحٍ، على الأقل إلى وقت متأخر من القرن أصبح فيه البرنامجُ الامبرياليُّ ذاته أكثرَ انكشافاً وغداً إلى درجة أبعد مسألةً دعائيةً إعلاميةً شعبيةً مباشرةً.

ثمة نقطةٌ ثالثةٌ أفضلُ طريقاً لطحها هو التوضيح «التمثيلي» السريع. تتخلَّلُ معرضُ الخيلاءِ إشاراتٌ إلى الهند، لكنَّ أيّاً منها لا تزيد على كونها عارضةً بالنسبة للتغيرات في حظوظ بيكي، أو في مواقف دوين أو جوزيف أو أميليا. غير أننا على مدى الرواية نُدْفَعُ إلى أن نكونَ واعين مدركين للنزاع المتصاعد بين انكلترا و نابليون، الذي يبلغ ذروته في ووترلو. ولا يكاد هذا البُعدُ الماورا بحاري يجعل معرضَ الخيلاءِ روايةً تستغلُّ ما أسماه هنري جيمس فيما بعدُ «الموضوعة العالمية»، باكثر مما ينتمي ثاكري إلى نادي الروائيين القوطيين «ذوي الأسلوب القوطي» مثل والبول، أو رادكليف، أو لويس الذين يوضعون أعمالهم في الخارج بطريقة مثيرة للوهم نوعاً ما. ومع ذلك، فإنَّ ثاكري، بل جميع الروائيين الإنكليز البارزين في أواسط القرن التاسع عشر، كما أود أن أحتج، تقبَّلوا رؤيا للعالم مكوَّنةً ولم يكن بوسعهم حقاً أن يتجاهلوا (وهم في معظم الحالات لم يتجاهلوا) المدى الشاسع الذي بلغته القوةُ البريطانية ما وراء البحار. لقد تمَّ ربطُ النظام الداخلي «ضمن البلاد»، كما رأينا في المثل الصغير المقتبس سابقاً من دومبي وولده، وموضعته، وإضامته، بنظام إنكليزيٍّ تحديداً قائم في الخارج. وسواء أكان الأمر يتعلق بمسئلتِ سير توماس برترام في أنتيغوا أم، بعد ذلك بمائة عام، بإقطاع المطاط التي تملكها عائلة وُلْكُوس في نيجيريا، فقد وُضِعَ الروائيون امتلاكُ القوةِ والامتيازاتِ في الخارج، في صفِّ واحدٍ مع نشاطاتٍ مماثلة لها في الوطن.

حين نقرأ الروايات بتيقظٍ، تتشكل لدينا صورةٌ أشدُّ تمييزاً ورهافةً بكثيرٍ من الرؤية الكونية والامبريالية إلى حدِّ الجراءة التي وصفقها حتى الآن. ويقودني ذلك إلى العاقبة الرابعة مما أسميته بنية المواقف والإحالات. إنَّ علينا، إذ نلج على تكاملية العمل الفني، كما ينبغي بحق أن نفعل، وإذ نرفض أن نقلص الإسهامات المتنوعة للمؤلفين الأفراد إلى خطة عامة، أن نقبل أن البنية التي تصل الروايات إحداها مع الأخرى ليس لها وجود خارج الروايات ذاتها. وهذا يعني أن المرء يحصل على التجربة المعينة الملموسة لـ«الخارج» في روايات مفردة فقط، ويعني بالمقابل أنَّ الروايات المفردة هي وحدها القادرة على أن تنفخ بالحياة، وتفصح عن، وتجسِّدُ العلاقة بين انكلترا وأفريقيا، مثلاً. وذلك يرغم النقاد

على أن يقرأوا ويحلّلوا، بدلاً من أن يكتفوا بأن يلخّصوا ويقيّموا، أعمالاً قد يعتبرون محتواها القابل للتخصيص <بكلمات غير كلماتها> مثيراً للاعتراض سياسياً وأخلاقياً. فمن جهة أولى، حين يوجّه تشينوا انتشيبني النقد، في مقالة مشهورة، إلى عنصرية كونراد العرقية، فهو إما أنه لا يقول شيئاً عن المقيّدات المحدّدة التي تفرضها على كونراد الرواية كشكل جمالي، وإما أنه يتجاوز تلك المقيّدات <مغفلاً إياها>. ومن جهة ثانية، فإنّ انتشيبني يُظهر أنه يعرف كيف يؤدي الشكل عمله حين يعيد، في بعض رواياته، كتابة كونراد - بجهد مضمّن وبإصالة<sup>(٢٤)</sup>.

وذلك كلّهُ يصدّق بشكل خاص على الرواية الإنكليزية لأن انكثرة هي الوحيدة التي كانت لها امبراطورية ماوراء البحار صانّت نفسها وذادت عنها على مثل تلك المساحة، وعلى مثل هذا المدى الزمني الطويل، ويمثل هذا البروز المثير للحسد. صحيح أنّ فرنسا نافستها، لكن الوعي الامبريالي الفرنسي، كما قلت في مكان آخر، ظلّ متقطعاً حتى أواخر القرن التاسع عشر، وظلّ الواقع الفعلي معروضاً أكثر ممّا ينبغي لتناول انكثرة وعدوانها عليه، كما ظلّ متخلفاً على مستوى التنظيم والربح والمدى. لكنّ الرواية الأوروبية في القرن التاسع عشر هي بشكل رئيسي شكلٌ ثقافي معرّضٌ لسلطة الواقع الراهن، لكنّه أيضاً منقّ مرهف له، ومفصّل عنه. وإيّا كان مدى تحريض ديكنز، مثلاً، لقرآته ضد النظام القانوني، أو المدارس الريفية، أو المكاتبية <البيروقراطية>، فإنّ رواياته في نهاية المطاف تمثل ما أسماه أحد النقاد 'رواية حل <التناقضات والتوتر>'<sup>(٢٥)</sup>. وأكثر التعبيرات المجازية عن ذلك وروداً هو إعادة توحيد الأسرة، التي تؤدي في حالة ديكنز دورَ العالم الأصغر <المجسّد> للمجتمع. وفي <أعمال> أوستن، وبلزك، وجورج إليوت، وفلوبير - لتأخذ بضعة أسماء بارزة مجتمعةً - يشمل تعزيزُ السلطة، كلاً من الملكية الخاصة والزواج، بل هو بحقّ منسوج في صلب نسيجهما، وهما مؤسستان نادراً ما تتعرّضان للتحدي.

إنّ الجانب الحاسم لما أسميته تعزيز الرواية للسلطة لا يرتبط ببساطة بأداء عمل القوة الاجتماعية والحكم، بل يُبرز معيارياً وسيدياً معاً، أي مانحاً المصدقية والسريانية لذاته في مجرى تطوّر السردية. وليس في هذا مفارقة ضدية إلا إذا نسي المرء أنّ تشكيل موضوع سردي، مهما كان غير عادي أو شاذاً، إنّما هو فعل اجتماعي بامتياز، وأنه بهذه الخصيصة يملك في داخله سلطة التاريخ والمجتمع أو يستند إليها. ثمّة أولاً سلطة المؤلف - <وهو> شخصٌ ما يدوّن عمليات المجتمع بطريقة مقبولة مُناسّسة، مراقباً الأعراف، ومتبعياً الأنساق، وما إلى ذلك. وثمّة ثانياً سلطة السارد، الذي يُرسي إنشاؤه السردية في ظروفٍ قابلة للتمييز وهي بالتالي ظروفٌ إحالية وجودياً. وأخيراً، ثمّة ما يمكن أن يسمّى سلطة المجتمع الذي يغلب أن يكون ممثله العائلة لكنّه <قد يكون> أيضاً الأمة، والموضع المحلي المحدّد، واللحظة التاريخية المحسوسة. ولقد أدّت هذه جميعاً ذلك الدورَ بأعلى درجات الحيوية، وبما يلفت النظر جداً، خلال أوائل القرن التاسع عشر إذ انفتحت الرواية على التاريخ بطريقة لا سابق لها. وقد ورث مالرو <في عمل> كونراد كل ذلك مباشرةً.

لقد درس لوكاش بمهارة لافتة انبثاق التاريخ في الرواية الأوروبية<sup>(٢٦)</sup> - كيف يوضع ستاندال، وسكوت خاصة، سردياتهما في تاريخ عمومي وكجزء منه، واضعين ذلك التاريخ في متناول جميع الناس لا الملوك وأفراد الطبقة العالية <الارستقراطية> وحسب، كما كانت

الحال من قبل. وهكذا فإن الرواية سردية تاريخية بصورة محسوسة تصوغها تواريخ حقيقية لأمة حقيقية. إن ديفو يوضع كروزو على جزيرة لا اسم لها في مكان ما من إقليم ناء، ومول تُرسل إلى ولايتي كارولينا المدركتين بشكل مبهم (نقط)؛ لكن توماس برترم وجوزيف سدلي يستمدان ثروات محددة وفوائد محددة من أراضٍ ملحقة (مضمومة) تاريخياً - الكاريبي والهند، على التوالي - في لحظات تاريخية محددة. وكما يظهر لوكاش بإقناع تام، يقوم سكوت باستنباء الدولة البريطانية في صيغة مجتمع تاريخي يشق طريقه للخروج من المغامرات الأجنبية<sup>(٢٧)</sup> (الحروب الصليبية، مثلاً) والنزاعات الداخلية المدمرة (تمرد عام ١٧٤٥، والقبائل المتحاربة في منطقة الأراضي العليا <الهايلاوند>) ليصبح العاصمة الحاضرة المستقرة التي تقاوم الثورة المحلية والاستفزاز القاري <الآتي من أوروبا> بنجاح متساو. وفي فرنسا، يؤكد التاريخ ويثبت ردة الفعل ما بعد الثورية، المتجسدة في ألترميم البوربون، ويقوم ستاندا ل بتدوين حولياتها التي كانت في رايه إنجازات تستثير الأسي. ويفعل فلوبيير في مرحلة تالية الشيء نفسه بالنسبة لعام ١٨٤٨. غير أن الرواية تتلقى العون أيضاً من العمل التاريخي الذي يقوم به ميشليه وماكولي، اللذان تضيف سردياتهما كثافة إلى نسيج الهوية القومية.

إن مصادرة التاريخ، وأرخنة الماضي، وسردنة المجتمع، وهي جميعاً تمنح الرواية قوتها، تشمل مراكمة الفضاء الاجتماعي وممايزته، وهو فضاء يراد له أن يُستخدم لأغراض اجتماعية. وهذه السمة أكثر وضوحاً بكثير في رواية أواخر القرن التاسع عشر الاستعمارية علناً: في هند كبلنغ، مثلاً، حيث يسكن الأصلايون والراج <الحكم البريطاني للهند> فضاءات مرسومة بطرق مختلفة، وحيث يبتكر كبلنغ - بعبقريته الخارقة -: كيم، <وهو> شخصية مدهشة يتيح شبابها وحيويتها له أن يكتنه كلا الفضاعين، عابراً من أحدهما إلى الآخر بسمو جريء، كأنما من أجل أن يربك سلطة الحواجز الاستعمارية ويدحضها. وتوجد الحواجز المنتصبة ضمن الفضاء الاجتماعي لدى كونراد أيضاً، ولدى هاغارد، ولوتي، ودويل، وجيد، وپسيشاري، ومالرو، وكامو، وأورول.

تتبطن الفضاء الاجتماعي أصقاع، وأراض، وأقاليم جغرافية، والركائز الجغرافية الفعلية للنزاع الإمبراطوري والثقافي أيضاً. ويحدث التفكير بالأماكن البعيدة، واستعمارها، وسكناها أو إخلاؤها من السكان، كل ذلك يحدث على الأرض، وعنها، وبسببها. فالإمبراطورية في نهاية المطاف إنما تدور على الامتلاك الفعلي الجغرافي للأرض. وفي اللحظة التي يحدث فيها تطابق بين السيطرة والسلطة الحقيقيتين، <أي بين> فكرة ما كأنه مكان معين (ويمكن أن يكونه، ويمكن أن يصيره) وبين مكان فعلي - في تلك اللحظة يدشن الصراع من أجل الإمبراطورية. وهذا التطابق هو منطق الغربيين الذين يتملكون الأرض، ومنطق الأصلايين المقاومين أثناء فكفكة الاستعمار الذين يسعون لاستعادتها. وتثبت الامبريالية والثقافة المرتبطة بها أولوية الجغرافية وعقائدية ما حول السيطرة على الأرض. ويقوم الحس الجغرافي بصياغة خطط وتوقعات - تخيلية، وخرائطية، وعسكرية، واقتصادية، وتاريخية أو بمعنى عام ثقافية. وهو ما يجعل ممكناً أيضاً بناء أنماط شتى من المعرفة، تعتمد كلها بطريقة أو بأخرى على الشخصية والكثافة المتصورتين لجغرافيا معينة.



ينبغي أن تُطرح هنا ثلاث نقاط مقيدة إلى حد ما. أولاً، لا تظهر التمايزات الفضائية الواضحة في روايات أواخر القرن التاسع عشر ببساطة وبصورة مفاجئة كانعكاسات محايدة لعصر إمبراطوري عدواني، بل تُستمد وتُشتق في صيغة استمرارية من تمييزات اجتماعية سابقة كانت قد أُجيزت وشرعن في روايات تاريخية وواقعية سابقة.

تعابن جين أوستن مشروعياً ممتلكات السير توماس برترام الواقعة ما وراء البحار بوصفها امتداداً لهدوء روضة مانسفيلد ونظامها ومكوناتها الجميلة، «فثمة» إقطاعية مركزية تمنح المصادقية والسريانية للدور المساعد اقتصادياً للآخر الهامشي الأطفافي. وحتى حيث لا تكون المستعمرات حاضرةً جليةً بشكل ملحاح أو ملموس، فإن السردية تبارك وتقرّ نظاماً أخلاقياً فضائياً، سواء أكان ذلك في الترميم المنجمي لبلدة ميدلمارش ذات الأهمية المركزية في مرحلة من الاضطرابات القومية، أم في الفضاءات القصية من الانحراف واللايقين التي يراها ديكنز في عالم لندن السفلي، أم في مرتفعات برونتي العاصفة.

ونقطة ثانية. إذ تؤكد خواتم الرواية وتُبرز تراتبيةً متبطنَةً «مؤلفة» من العائلة، والأملاك، والأمة، فإن ثمة أيضاً منابذةً فضائيةً بالغة القوة مُسبغةً على التراتبية. إن القوة الباهرة في «رواية» بيت كئيبة لمشهد الليدي ندلوك المنتحبة على قبر زوجها الذي كان قد توفي منذ زمن بعيد تبرز ما كنا قد أحسنا به حول ماضيها السري - حضورها البارد للإنساني، وسلطتها العقيمة حتى الإزعاج - في المقبرة التي كانت قد لجأت إليها إبان هربها. ويتعارض ذلك لا مع الخلطة الفوضوية لمؤسسة جليباي (بصلاحتها الشذاعة مع أفريقيا) فحسب، بل كذلك مع البيت المفضل الذي تعيش فيه إستر وزوجها الوصي. والسردية تكتنه هذه الأماكن وتتنقل عبرها وتسبغ عليها أخيراً قيمةً تأكيديةً إيجابيةً وأو سلبيةً.

وهذا التكافؤ الأخلاقي في التفاعل بين السردية والفضاء الداخلي (للبلاد) يمكن توسيعه، بل إعادة إنتاجه بالفعل، في العالم بما يتجاوز المراكز الحواضرية مثل باريس أو لندن. ولهذه الأماكن الفرنسية والإنكليزية دورها نوعٌ من القيمة التصديرية: فكل ما هو جيد أو سيئ عن الأماكن في الوطن يُشحن «بحراً» إلى الخارج وتُعزى إليه فضيلةً أو سيئةً مماثلة. حين يتحدث رسكين في محاضراته التدشينية عام ١٨٧٠ بعد انتخابه استاذاً لكرسي سليلد في جامعة أكسفورد عن عرق انكلترا النقي، فإنه يستطيع بعد ذلك أن يتابع «كلامه» ليلطلب من مستمعيه أن يُحيلوا انكلترا إلى «بلد [هو] من جديد عرش» يليق بالملوك، وجزيرةً تتقلد صولجان الملك، ومنبع نور للعالم بأسره، ومركزٌ للسلام. والتلميح إلى شيكسبير يُقصد منه إعادة تأسيس وموضعة شعور محاب تفضيلي لانكلترا. لكن هذه المرة، يتصور رسكين انكلترا مؤديةً لفاعليتها شكلاً «أو رسمياً» على صعيد عالمي؛ وتعباً بشكل مُذهل مشاعرُ المحاباة للمملكة الجزرية - التي كان شيكسبير قد تصوّرَها مقصورة رئيسياً لكن دون حصرية على الوطن - للخدمة الامبريالية، بل الاستعمارية العدوانية بالفعل. فكانه يقول: صيروا استعمارين، وأنشئوا «مستعمرات بأسرع ما تستطيعون وبأبعد ما تستطيعون».

• يضم الها، اشتقاقاً من ظرف المكان «هنا».

أما نقطتي الثالثة فهي أن المشاريع الثقافية الداخلية كالاختلاق السردي والتاريخ (ومن جديد أؤكد على المكوّن السردي) تُسند إلى نقطة انطلاق هي القوى، المدوّنة، المنظّمة الملاحظة للذات، أو الأنا، المركزية المانحة للشرعية والتفويض. وأن يقال عن هذه الذات، بطريقة تقارب التكرار الذي لا يضيف إلى المعنى شيئاً، أنها تكتب لأنها تستطيع أن تكتب هو أن نشير لا إلى المجتمع الداخلي وحسب بل إلى العالم القصي «خارج المركز». إن المقدرة على التمثيل representation، والتصوير، والتحديد، والوصف ليست متاحة بسهولة لأي كائن كان في أيّ مجتمع كان؛ وعلاوةً، فإنّ «الماذا» والكيف في تمثيل الأشياء، فيما تسمّحان بدرجة عالية من الحرية الشخصية، محدّدتان ومقتنّتان اجتماعياً. لقد أصبحنا في السنوات الأخيرة على درجة عالية من الوعي للمقيّدات المفروضة على التمثيل الثقافي للمرأة، وللصغوب التي تدخل في التمثيلات المخلوقة للطبقات والأعراق الأدنى مكانةً. وفي كل هذه المجالات - الجنوسة، والطبقة، والعرق - ركّز النقد وما يزال تركيزاً سليماً على القوى المؤسّساتية في المجتمعات الغربية الحديثة التي تشكّل وتضع حدوداً على تمثيل ما يُعتبر في الجواهر كائنات منضوية خاضعة؛ وهكذا وُصف التمثيل نفسه بأنه قد أبقى الخاضع خاضعاً، والأدنى أدنى.

## II - جين أوستن والامبراطورية

إننا لنقف على أرضية صلبة مع في. جي. كيرنان حين يقول إن «على الإمبراطوريات أن يكون لها قالب (جاهز) من الأفكار وردود الفعل المنعكسة (الشرطية) لتنصبّ فيه، والأمم الشابة تحلم بأن يكون لها مكانٌ سام في العالم كما يحلم شباب الرجال بالشهرة والثروات»<sup>(٢٩)</sup>. وإنه لمن شدة التبسيط والتقليص، كما ما أزال أقول عبر «هذا الكتاب»، أن يطرح المرء منظومةً أن كل شيء، في الثقافة الأوروبية والأميركية يمهّد للفكرة الجليلة للإمبراطورية ويعزّزها. ومع ذلك، فإنّه ليس من الدقيق تاريخياً أيضاً أن نتجاهل تلك النزوعات - سواء أكانت في السرديات، أم في النظرية السياسية، أم في التقنيات التصويرية البصرية - التي قوّت، وشجّعت، وكفلت بسبل أخرى استعداداً الغرب لتقلّد تجربة الإمبراطورية والتمتع بها. ولئن كانت ثمة مقاومة ثقافية لمفهوم الإرسالية الامبريالية، فإنّه لم يكن هناك كبير دعم لتلك المقاومة في الدوائر الرئيسية للفكر الثقافي. لقد كان جون ستيوارت مل - كمثل دال في هذا السياق - ما يزال قادراً على القول، رغم تحرّره «ليبراليته»: «إن الواجبات المقدّسة التي تدين بها الأمم المتحضّرة لاستقلال كل منها وقوميّتها، لا تكّرمها حيال أولئك الذين تمثّل القوميّة والاستقلال لهم شراً أكيداً أو في أفضل الحالات خيراً مشكوكاً فيه». ولم تكن مثل هذه الأفكار من ابتكار مل؛ بل كانت حاضرةً شائعةً (من قبل): في إخضاع انكلترة لإيرلندا أثناء القرن السادس عشر وكانت، كما برهن نيكولاس كاني بإقناع، على قدر مساوٍ من الفائدة في عقائدية الاستعمار الانكليزي في «البلدان» الأميركية<sup>(٣٠)</sup>. إن جميع الخطط الاستعمارية تقريباً تبدأ بافتراض تخلف الأصلايين وعدم كفاءتهم عامّةً ليكونوا مستقلّين، أو «مساوين»، أو معافين صالحين.

لماذا ينبغي أن يكون الأمر كذلك، لماذا ينبغي ألا يكون الفرض المقدّس على جبهة أولى

ملزماً على جبهة ثانية، ولماذا يجوز لحقوق مقبولة في جبهة أن تُنكر في أخرى؟ <تلك> أسئلة يمكن أن تُفهم خير فهم في إطار معطيات ثقافة متأسفة بعمق في معايير أخلاقية، واقتصادية، بل ماورائية، تم تصميمها بحيث تُقَرّ نظاماً مُرضياً محلياً، أي أوروبياً، وتسمح بإلغاء الحق في <امتلاك> نظام مماثل في الخارج. وقد يبدو تصريح كهذا منافياً للعقل أو متطرفاً. لكنه في الحقيقة يصوغ الصلّة بين عافية أوروبا وهويتها الثقافية من جهة، وبين إخضاع المناطق المستعمرة ماوراء البحار بطريقة بالغة الأناة والتدقيق والحيطه، من جهة أخرى. إن بعض الصعوبة التي نواجهها اليوم في قبول <وجود> أي صلّة <بين الأمرين> على الإطلاق تتمثل في أننا نميل إلى تقليص هذه المسألة المعقّدة إلى علاقة سببية بسيطة في الظاهر، تُنتج هي بدورها بلاغيات الملامة والاستدفاعية. أنا لا أقول إن العامل الرئيسي في الثقافة الأوروبية المبكرة هو أنها سببت امبريالية أواخر القرن التاسع عشر، وأنا لا أضمن <كلامي> أن جميع مشكلات العالم الذي كان مستعمراً سابقاً ينبغي أن تعزى إلى أوروبا. بيد أنني أقول إن الثقافة الأوروبية غالباً، إن لم يكن دائماً، قد حدت نفسها وميزتها بطريقة تقوم في أن واحد بإضفاء المصادقية على تفضيلاتها الخاصة فيما تنافح أيضاً عن هذه التفضيلات مقترنة مع <ممارسة> الحكم الامبريالي الثاني. ولقد فعل من ذلك بالتأكيد: فقد كان يوصي دائماً بالألمع الهنّد الاستقلال. وحين أصبح الحكم الامبريالي لأسباب شتى شاغلاً لأوروبا بصورة أشدّ حدة بعد عام ١٨٨٠، صارت هذه العادة الفصامية <الشيذوفرينية> ذات فائدة.

أول ما ينبغي فعله الآن هو أن نُطرح السببية البسيطة إن نعمن الفكر في العلاقة بين أوروبا والعالم غير الأوروبي، وأن نخفّف من شدة سطوة التعاقب الزمّني الذي لا يقل بساطة على تفكيرنا. ينبغي ألا نسمح بأي مفهوم، مثلاً، يهدف إلى أن يُظهر أن ووردزورث، أو أوستن، أو كولردج، لأنهم كتبوا نبل عام ١٨٥٧، قد سبّبوا فعلاً تأسيس السيطرة الحكومية البريطانية الرسمية على الهند بعد ١٨٥٧. بل ينبغي أن نحاول بدلاً من ذلك تلمس نقطة طباقية بين الانساق المكشوفة في الكتابة البريطانية عن بريطانيا وتمثيلات العالم خارج الجزر البريطانية. والنهج الطّبعي لهذه النقطة الطباقية ليس زمانياً بل هو مكاني فضائي. كيف يوضع الكتاب في الفترة السابقة على عصر التوسّع الاستعماري المبرمج الصريح - <فترة> <التزاحم بالمناكب على أفريقيا>، لنقل - ويرون أنفسهم وعملهم في العالم الأرحب؟ سنجدهم يستخدمون استخطاطيات لافتة لكنها محترسة، كثير منها مشتق من مصادر متوقعة: أفكار وضعية <إيجابية> عن الوطن، والأمة ولغتها، والنظام القويم، والسلوك الحسن، والقيم الأخلاقية.

بيد أن الأفكار الوضعية <الإيجابية> من هذا النمط تتجاوز في فعلها مجرد منح الشرعية لعالمنا. فهي تميل أيضاً إلى الحطّ من قيمة عوالم أخرى، كما أنها - وهذا ما قد يكون أبعد دلالة وأهمية من وجهة نظر استرجاعية - لا تمنع أو تلجم أو تقاوم ممارسات امبريالية مُنقّرة إلى درجة مربعة. كلا، إن اشكالا ثقافية مثل الرواية أو المغناة لا تدفع الناس إلى أن يخرجوا ويستعمروا - فكارلايل لم يدفع رودس مباشرة، وهو بالتأكيد لا يمكن أن يلام على مشكلات جنوب أفريقيا المعاصرة - غير أنه من المُقلق المزعج بحق أن نرى مدى ضالة وقوف أفكار بريطانيا، ومؤسّساتها، ومعالمها، الإنسانية العظيمة التي مانزال نحتفي بها بوصفها تملك قوة لي-تاريخية لاستدرار قبولنا لها، في وجه

العملية الامبريالية المتسارعة. إننا نملك حق أن نسأل كيف تعاش جسدُ الأفكار الإنسانية هذا بذلك الشكل المريح مع الامبريالية ولماذا لم يكن ثمة سوى قدر ضئيل من المعارضة الهامة أو الرُذع للإمبراطورية في الوطن (المستعمر) إلا بعد أن تطوّرت المقاومة ضد الامبريالية في المجال الاسبرالي نفسه، بين الافارقة والاسيويين والاميركيين اللاتينيين؟ ربما كانت عادة التمييز بين وطننا ونظامنا ووطنهم ونظامهم قد تنامت لتصبح قاعدة سياسية فظة لمراكمة المزيد منهم لحكمهم، ودراستهم، وإخضاعهم. وإننا لنجد في الأفكار والقيم الإنسانية العظيمة التي طرحتها الثقافة الأوروبية في تيارها الرئيسي السائد، ذلك القالب (الجاهز) بالضبط من الأفكار وردود الفعل المنعكسة (الشرطية) الذي تحدث عنه كيرنان، والذي انصبّ فيه فيما بعد عملُ الإمبراطورية بأكمله.

يشكّل مدى انغماس هذه الأفكار فعلياً في تمييزات جغرافية بين أماكن حقيقية موضوع أغنى كتاب لريموند وليْمُنز، وهو الريف والمدينة. فمنظومة وليمز المتعلقة بالتفاعل بين الأماكن الريفية والحضرية في انكلترا تفسح المجال لأكثر التحولات خارقية - من شعوبية لانغند الرعوية، مروراً بقصائد بن جونسون عن البيت الريفي وروايات ديكنز عن لندن، وارتقاءً إلى رؤى المدن الحواضر في أدب القرن العشرين. يدور الكتاب بشكل رئيسي، طبعاً، حول كيفية تعامل الثقافة الإنكليزية مع الأرض: ملكيتها، وتخليها، وتنظيمها. وفيما يعالج وليمز تصدير انكلترا إلى المستعمرات، فإنه يفعل ذلك، كما أشرت سابقاً، بطريقة أقل تركيزاً وتوسّع أقل مما تُبيحه الممارسة فعلاً. وقبيل نهاية الريف والمدينة يتبرّع وليمز بالقول إنه "ابتداءً من أواسط القرن التاسع عشر على الأقل، وفي حالات هامة قبل ذلك، كان ثمة هذا السياق الأوسع [العلاقة بين انكلترا والمستعمرات، التي بلغت أثارها على الخيال الإنكليزي] إلى أعماق مما يمكن تتبُّعه بسهولة" الذي تأثرت كلُّ فكرة وكلُّ صورة فيه بشكل واع وغير واع. ثم يمضي بسرعة ليقبّس "فكرة الهجرة إلى المستعمرات" كواحدة من مثل هذه الصور الطاغية في روايات مختلفة لديكنز و(الأخوات) برونتي وغاسكل، ويظهر بحق أن مجتمعات جديدة ريفية، استعمارية كلها، تدخل الاقتصاد الحواضريّ التخيلي للادب الإنكليزي من خلال كبلنغ، و(عمل) أورول المبكر، وموم. وبعد 1880 يحدث امتدادٌ احتدائيٌّ للمشهد الطبيعي الأرضي للعلاقات الاجتماعية: ويتطابق ذلك بالضبط تقريباً مع عصر الإمبراطورية العظيم<sup>(٣١)</sup>.

ثمة خطر في أن يختلف المرء مع وليمز، ومع ذلك فإنني سأجازف بالقول إن المرء إذا شرّع في البحث عما يكاد يكون خريطة امبريالية للعالم في الأدب الإنكليزي، فإن هذه الخريطة ستنبثق بإلحاح وتواتر مذهلين قبل أواسط القرن التاسع عشر بزمان طويل وستنبثق لا بالانتظام الخامل الذي يوحي بشيء يُستبَدّه فحسب، بل - وذلك أكثر إشاقة - (ستنبثق) منسوجة، مشكّلة جزءاً حيويّ الأهمية من نسيج الممارسة اللغوية والثقافية. لقد كان ثمة مصالح إنكليزية مؤسّسة راسخة خارج حدود انكلترا البحرية في إيرلنده، وأميركا، والكاريبي، وآسيا منذ القرن السادس عشر، وسيجلو جرد ولو سريع شعراء، وفلاسفة، ومؤرّخين، ومسرحيين، ورجال دولة، وروائيين، وكتاب رحلات، وكتاب حوليات، وجنوداً، ورواة حكايا الحيوان ممن ثُمّنوا هذه المصالح عالياً، واعتنوا بها، وتتبعوها بانشغال مستمر. (يناقش بيتر هيوم قدراً كبيراً من ذلك في «كتابه» مواجهاً استعمارية<sup>(٣٢)</sup>). ويمكن طرح نقاط مماثلة فيما يتعلّق بفرنسا، وإسبانيا، والبرتغال، لا من

حيث هي قوى ماورابحارية في ذاتها وحسب، بل كمنافسات لبريطانيا أيضاً. كيف لنا أن نتفحص هذه المصالح في حالة من الفاعلية في انكلترة الحديثة قبل عصر الإمبراطورية، أي خلال الفترة ما بين ١٨٠٠ و١٨٧٠؟

يجدر بنا أن نحدو حدّوً وليمز ونقتفي خطاه، فننظر أولاً إلى تلك المرحلة من الأزمة التي حدثت إثر مصادرة الأراضي «بتسيجها وإغلاقها» على نطاق واسع في انكلترة في نهاية القرن الثامن عشر. لقد تمّ حلّ الجمعيات الريفية العضوية العريقة وتشكيل أخرى جديدة بدافع من نشاط المجلس التشريعي والتصنيع، والخلخلة السكانية. لكنّ عملية جديدة أيضاً حدثت، وهي إعادة موضعة انكلترة (وفي فرنسا، إعادة موضعة فرنسا) داخل دائرة أشدّ أساعاً بكثير في الخريطة العالمية. وكانت المنافسة الإنكليزية - الفرنسية في أميركا الشمالية والهند في النصف الأول من القرن الثامن عشر على أشدها؛ وفي النصف الثاني منه حدثت مواجهات عنيفة كثيرة بين انكلترة وفرنسا في البلدان الأميركية، والكاريبي، وشرقي المتوسط، وفي أوروبا نفسها طبعاً. ويحتوي الأدب قبل الرومانسي الرئيسي في فرنسا وانكلترة على فيض متّصل من الإشارات إلى الأقاليم الخاضعة ما وراء البحار: ولا يخطر ببال المرء هنا الموسوعيون المتعدّدون وحدهم - الأب رينال، ودو بروس، وفولني - بل ادموند بيرك، وكيفورد، وغيبن، وجونسن، ووليم جونز أيضاً.

عام ١٩٠٢ وصف دجي. أي. هويسن الامبريالية بأنها توسّع الجنسية «القومية»، مضميناً «كلامه» أنّ العملية قابلة للفهم بشكل رئيسي عن طريق اعتبار الترسخ أكثر المصطلحين أهمية، إذ إنّ «الجنسية/القومية» كانت كمّاً كامل التشكل مثبّناً راسخاً<sup>(٣٣)</sup>، في حين أنها قبل ذلك بقرن من الزمان كانت ني طرر التشكل، في الوطن وفي الخارج أيضاً. ويتحدث والتر بيجهوت في «كتابه» الطبيعيات والسياسيات (١٨٨٧)، بدرجة خارقة من العلانقية، عن «صنع الأمم». ولقد كان ثمة سباقان بين فرنسا وبريطانيا في أواخر القرن الثامن عشر: المعركة من أجل المكاسب الاستخطاطية - في الهند، ودلتا النيل، والنصف الغربي (من الكرة الأرضية) - والمعركة من أجل قومية منتصرة. وكلا المعركتين تعارض الإنكليزية بـ «الفرنسيين». ويغضّ النظر تماماً عن عمّا كان يبدو عليه الجوهرُ المقترض الإنكليزي أو الفرنسي من حميمية وسريّة، فقد كان دائماً تقريباً يتصوّر أنه في طور الصنّع (نقيضاً لكونه منجزاً)، وأنّ حرباً تدور حوله مع المنافس العظيم الآخر. إن بيكي شارپ «شخصية» تاكري، مثلاً، «تعتبر» متسلّقةً «اجتماعياً» بالقدر الذي هي عليه بسبب ميراثها نصف الفرنسي. وفي وقت سابق من ذلك القرن، انبثق الموقف الإلغائي «الداعي إلى إلغاء الرق» القويم لدى ولبرفورس وحلفائه، جزئياً من رغبة في تعكير صفو الهيمنة الفرنسية في جزر الأنتيلز<sup>(٣٤)</sup>.

توفّر هذه الاعتبارات فجأةً بعداً مترامياً ترامياً فاتناً لروضة مانسفيلد (١٨١٤)، وهي أكثر روايات أوستن صراحةً في توكيدات العاقندية والأخلاقية. إنّ وليمز من جديد مُصيّبٌ كلّ الصواب بشكل عام: فروايات أوستن تعبر عن «نوعية حياة قابلة للنوال»، في الأموال والممتلكات المُكتسبة، والتمييزات الأخلاقية المُقامة، والاختيارات الصحيحة الموضوعية موضع التنفيذ، والتحسينات «السليمة» المُبرمة، واللغة ذات الظلال مؤكّدة ومصنّفة. لكن، يتابع وليمز «قائلاً»:

ما يقوم [كويبت] بتسميته، وهو يُغبر الطريقَ ركباً، هو طبقات «اجتماعية». لكنَّ جين أوستن لا تستطيع إبداء، من داخل البيوت، أن ترى ذلك، رغم كلِّ إرهاف وصفها الاجتماعي ودقته. فكُلُّ ما تقوم به من تمييز هو، بشكل متفهم «تماماً»، داخليٌ وحصريٌ إقصائي. إنَّها مشغولة بسلوك بشرٍ يحاولون بتكرار، في تعقيدات التحسين، أن يحوِّكوا أنفسهم إلى طبقة. لكن، حينما تُرى طبقةً واحدةً، لا تُرى طبقاتُ «أبداء»<sup>(٣٥)</sup>.

إن هذا «الكلام» ممتاز، من حيث هو وصفاً عامٌ لكيفية مقدرة أوستن على الارتقاء بـ«تمميزات أخلاقية» معينة إلى «قيمة مستقلة». لكنَّ قدرأ أكبر بكثير ينبغي أن يقال حين يتعلَّق الأمر بـ روضة مانسفيلد ذاتها، ليمنحَ مسَّحَ وليمز درجةً أعظم من التصريحية والسَّعة. وعندئذ قد تبدو أوستن، بل الرواياتُ السابقة على الامبريالية عموماً، أكثرَ تورطاً في مُعقَّباتِ التوسُّع الامبريالي مما بدت عليه للوهلة الأولى.

لقد اعتدنا، بعد لوكاش وپروست، على التفكير بحكمة الرواية وبنيتها بوصفهما يتشكلان رئيسياً بفعل الزمانية، إلى درجة أننا اغفلنا وظيفةَ الفضاء، والجغرافيا، والموقع. ذلك أن مَنْ يرى نفسه في حلزونٍ يزداد أنساعاً في البيت «الوطن»، وفي أيرلنده، وفي العالم ليس ستيفن ديدالوس\* أليافع وحده، بل كلُّ بطلٍ روائي شابٍ آخر قبله أيضاً. وروضة مانسفيلد، مثل روايات كثيرة أخرى، تدور بالضبط حول سلسلة من أفعال الإزاحة وإعادة المؤضة في الفضاء، منها الصغير ومنها الكبير، تحدث، في نهاية الرواية، قبل أن تصبح فاني پرايس، بنتُ الأخت، السيِّدة الرُحيَّة لروضة مانسفيلد. وتوضع أوستن ذلك الفضاء ذاته في مركز قوسٍ من المصالح والشواغل تترامى على مدى نصف الكرة، ويحرِّن رئيسيين، وأربع قارات.

إنَّ الفئة المركزية التي تنبثق في النهاية، كما هي الحال في روايات أوستن الأخرى، «وقد حصلت» على الزواج والأملاك «المكرزة»، لا تقوم حصرياً على «روابط» الدم. فرواياتها تمارس فعلياً فصمَّ الصلات (بالمعنى الحرفي) لبعض أفراد عائلة ما، والوصل بين أفراد آخرين وشخص أو شخصين مختارَين ومجرَّبين: بكلمات أخرى، لا تكفي روابط الدم لضمان الاستمرارية، والتراتبية، والسلطة، داخلياً أو عالمياً. وهكذا فإنَّ فاني پرايس - وهي بنت الأخت الفقيرة، الطفلة اليتيمة من مدينة پورتسموث الواقعة في الأطراف، المهملة، الرزينة، زهرة الحائط\* القويمة - تكتسب بالتدرج مقاماً يكافئ، بل يفوق مقامَ معظم أقرانها الأسعد حظاً. وفاني پرايس سلبية نسبياً في هذا النسق من الترابطات وفي تقلدها للسلطة. إنها تقاوم سلوك الآخرين الشرير ومطالبهم اللجوجة. وفي أحيان قليلة جداً تجازف بالقيام بأفعال نابعة من ذاتها: لكنَّ في المجمل، يتشكل لدى المرء انطباعٌ بأنَّ أوستن ترسم مخططات ومصيراً لفاني لا تكاد هذه الأخيرة نفسها تفهمها على الإطلاق؛ وهذا بالضبط مماثل لكون الجميع عبر الرواية كلُّها يعتبرونها «راحةً» و«مكتسباً» بالرغم عنها. إنَّ فاني، مثل كيم أوهارا «في عمل» كيلنغ، هي في أن واحد وسيلة وأداة في نسق أكبر، كما أنها أيضاً شخصيةً روائيةً مكتملة.

وفاني، مثل كيم، تتطلب التوجيه، تتطلب الوصاية والسلطة الخارجية التي لا يسع

\* - شخصية في صورة الفنان في شبابه وفي يوليسيس، لجرؤس (الناشر).

\*\* - شخصٌ يبقى على هامش أيِّ نشاط اجتماعي (كالرقص مثلاً) إما حياءً وإما لأنَّ الآخرين لم يُشركوه فيه (الناشر).

تجربتها المفتقرة أن توفرها. وروابطها الواعية إنما هي «قائمة» مع بعض الناس وبعض الأماكن، غير أن الرواية تجلو روابط أخرى ليست لديها هي عنها إلا ومضات خائبات، لكن «هذه الروابط»، رغم ذلك، تقتضي حضورها وخدماتها. إن فاني تلج موقفاً يُفتتح بطم بالغ التشابك من الحركات التي تتطلب، في مجموعها، الفرز والتعديل وإعادة الترتيب. لقد وقَّع السير توماس برترام أسيرَ فنتة إحدى الأخوات «من عائلة» وورد، وأما الأخريان فلم تحققاً نجاحاً، و«ينفتح شرح مطلق» «بين الأخوات الثلاث»؛ كانت «دوائرهن من التمايز والانفصال»، والمسافة بينهن من الشسوع بحيث أنهن فقدن الأتصال الواحدة منهن بالأخريات لأحد عشر عاماً<sup>(٣٧)</sup>؛ وتسعى عائلة برايس، وقد نزلت بها النوايب، إلى عائلة برترام. وبالتدرج، تغدو فاني، وإن لم تكن كبراهن، مدار الاهتمام إذ تُرسل إلى روضة مانسفيلد لتبدأ هناك حياتها الجديدة. وبالمثل، فقد هجرت عائلة برترام لندن (نتيجة لوضع الليدي برترام الصحي السيئ ولخمولها الكبير) لتقطن كليةً في الريف.

إن ما يوفر لهذه الحياة الاستمرار مادياً هو إقطاعة عائلة برترام في أنتيغوا، التي لا تسير أمورُها الآن سيراً حسناً. ولا تالو أوستن جهداً في أن تكشف لنا عمليتين منفصلتين ظاهرياً لكنهما متضافرتان فعلياً: تنامي أهمية فاني لحياة عائلة برترام الاقتصادية، بما في ذلك أنتيغوا... وصمود فاني ذاتها في وجه تحديات، وتهديدات، ومفاجآت، عديدة. ويعمل خيال أوستن في كلتا الحالتين بصرامة فولاذية من خلال نهج يمكن أن نسميه الاستجلاء الجغرافي والفضائي. إن جهل فاني حين تصل إلى روضة مانسفيلد طفلةً خائفةً في العاشرة، يُدلُّ عليه بعجزها عن أن تجمع وتركب خارطةً صحيحةً لأوروبا<sup>(٣٧)</sup>؛ وعلى مدى معظم النصف الأول من الرواية يتعلق الفعل «الروائي» بمدى واسع من المسائل التي يشكّل الفضاء، مفهوماً فهماً خاطئاً أو مستخدماً استخداماً سيئاً، القاسم المشترك بينها: ولا يقتصر الأمر على كون السير توماس موجوداً في أنتيغوا من أجل تحسين الأوضاع هناك وفي البيت/الوطن، بل إن فاني، وادموند، وخالة فاني «واسمها» نوريس، في مانسفيلد بارك، يتفاوضون على المكان الذي ستسكن فيه فاني، وتقرأ، وتعمل، وعلى الأماكن التي «ينبغي أن» يتم إشعال النار فيها؛ وينشغل الأصدقاء وأبناء الأعمام والأخوال والعَمات والخالات في تحسين الإقطاعات، كما يجري تأمل أهمية الكنائس الصغيرة (أي السلطة الدينية) بالنسبة للأوضاع البيئية وتدور حولها المناظرات. وحين تقترح أسرة كروفورد، كحيلة تهدف إلى تحريك الأمور، «تقديم» مسرحية (وثمة دلالة هنا لتلك المسحة من فرنسا التي تخيم فوق خلفيتهم بشكل يثير قدراً من الريبة)، فإن انزعاج فاني يكون حاداً حدةً استقطابية. فهي لا تستطيع المشاركة، ولا تستطيع أن تتقبل بسهولة أن تتحول الغرفُ المُعدة للعيش إلى فضاء مسرحي... رغم أن المسرحية، «وهي» عهود العشاق لكوتزيبو، بكل ما فيها من خلط للأدوار والأغراض، قد تمّ الإعداد لها على أية حال.

يُراد لنا أن نستخلص، في ظني، أن عدداً من الإجراءات الخاطئة المحتومة (المربوطة صراحةً بسلوك أنثوي «خارج على القانون») ستحدث، حين يكون السير توماس غائباً يُعنى بحديقته الاستعمارية. ولا تظهر هذه «الإجراءات الخاطئة» فقط في المشاور البرينة التي يقوم بها الأزواج الثلاثة من الأصدقاء والصديقات الشبان في روضة يغيب فيها

النَّاسُ بَعْضُهُمْ عَنِ ابْصَارِ بَعْضٍ وَيَلْمَحُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِشَكْلِ غَيْرِ مَتَوَقَّعٍ، بَلْ تَظْهَرُ  
 أَيْضًا بِأَشَدِّ الدَّرَجَاتِ وَضُوحًا فِي الْمَازَلَاتِ وَالْإِرْتِبَاطَاتِ الْمُتَوَعَّةِ بَيْنَ الشُّبَّانِ وَالشَّابَّاتِ  
 الَّذِينَ تُرَكُوا دُونَ سُلْطَةِ أُبُويَّةِ حَقِيقِيَّةٍ، إِذْ إِنَّ اللَّيْدِي بَرْتَرَامَ لَا تَأْبَهُ «بِمَا يَجْرِي»، وَالسَّيِّدَةُ  
 نَوْرِيْسُ غَيْرُ مَلَائِمَةٍ «لِهَذِهِ السُّلْطَةِ». ثَمَّةُ مَنَاقِشَاتٍ وَمُنَاقِرَاتٍ، وَتَلْمِيحَاتٌ وَغَمَزَاتٍ، وَتَلْبُّسٌ  
 لِلأَدْوَارِ خَطِيرٍ: وَكُلُّ ذَلِكَ طَبَعًا يَتَبَلُّورُ أَثْنَاءَ الإِعْدَادِ لِلْمَسْرُحِيَّةِ، الَّتِي يَكُونُ شَيْءٌ يِقَارِبُ  
 الْفَسْقَ قَرِيبًا خَطِيرًا عَلَى وَشِكِّ أَنْ يَمْتَلِّ فِيهَا (لَكِنَّهُ لَا يَمْتَلِّ أَبْدًا). وَتَغْدُو فَنَانِي الْآنَ - وَهِيَ  
 الَّتِي يُشْتَقُّ إِحْسَاسُهَا السَّابِقُ بِالْإِغْتِرَابِ وَالبَعْدِ وَالخَوْفِ، مِنْ اجْتِنَاطِ الجُذُورِ الأُولَى الَّتِي  
 كَانَتْ قَدْ تَعَرَّضَتْ لَهَا - ضَمِيرًا مَنَابِئًا «بِقَضِي ب» مَا هُوَ سَلِيمٌ قَوِيمٌ، وَ «ب» حُدُودٌ كُلُّ أَمْرٍ.  
 غَيْرِ أَنَّهُ لَا تَمْلِكُ السُّلْطَةُ لِتَنْفِيذِ «مَا يَمْلِيهِ» وَعَيْهَا المُضْطَرَّبُ، وَيَسْتَمِرُّ الْإِنْجِرَافُ الَّتِي لَا  
 وَجْهَةَ لَهَا وَلَا دَفْعَةً تَسِيرُهُ إِلَى أَنْ يَعُودَ السَّيْرُ تَوَاسُ فِجَاعَةً مِنَ «الخَارِج».

وَحِينَ يَظْهَرُ فَعَلًا، تُوقَّفُ الإِعْدَادَاتُ لِلْمَسْرُحِيَّةِ فُورًا؛ وَفِي مَقْطَعٍ لَاقَتْ جَدًّا بِسَبَبِ  
 إِبْرَامَةَ التَّنْفِيذِي، تَرُوي أَوْسْتَنَ إِعَادَةَ تَأْسِيسِ حَكْمِ السَّيْرِ بَرْتَرَامِ المَحَلِي:

كَانَ صِبَاغُهُ مَزْمَعًا بِالْعَمَلِ. وَلَمْ يَشْفَلِ التَّحَدُّثُ إِلَى أَيِّ مِنْهُمُ إِلَّا قَسْمًا ضَنْبِلًا مِنْهُ. كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَعِيدَ تَنْصِيبَ  
 نَفْسِهِ عَلَى الشُّؤْنِ المَعْتَادَةِ لِحَيَاتِهِ فِي «رُوضَةِ» مَانسْفِيلِدِ، وَأَنْ يِقَابِلَ مَدِيرَ مَنزَلِهِ وَرَكِيزَ إِقْطَاعَتِهِ - لِيَفْهَمَ وَيُجْرِي  
 الحِصَابَاتِ - وَأَنْ يَسِيرَ، بَيْنَ فَرَاتِ العَمَلِ، إِلَى اصْطِبْلَانِهِ وَحَدَائِقِهِ وَأَقْرَبِ مُسْتَنْبِقَاتِهِ. لَكِنَّهُ - لِنَشَاطِهِ وَمَنْهَجِيَّتِهِ - لَمْ  
 يَكُنْ قَدْ نَفَّذَ ذَلِكَ كُلَّهُ وَحَسِبَ قَبْلَ أَنْ يَسْتَأْنِفَ مَجْلِسَهُ سَيِّدًا لِلْبَيْتِ عَلَى مَائِدَةِ العِشَاءِ، بَلْ كَانَ أَيْضًا قَدْ دَفَعَ التَّجَارَ إِلَى  
 العَمَلِ فِي تَفْكِيكِ مَا كَانَ قَدْ أَضْيَفَ قَبْلَ ذَلِكَ بِوَقْتِ قَصِيرٍ فِي غُرْفَةِ البِلْيَارْدُو، وَطَرَّزَ رَسَامَ المَنَاطِرِ قَبْلَ ذَلِكَ بِمَا يَكْفِي  
 مِنَ الوَقْتِ لِيَسْرُخَ الشُّعُورَ المَسْعُودَ بَانَ الرِّسَامَ كَانَ قَدْ بَلَغَ فِي رَحِيلِهِ «بِلْدَةَ» نَوْرِنَهَامْبِتِنَ عَلَى الأَقْلِ. لَقَدْ مَضَى رَسَامُ  
 المَنَاطِرِ، بَعْدَ أَنْ أَفْسَدَ أَرْضِيَّةَ غُرْفَةٍ وَاحِدَةً فَقَطْ، وَشَرَّهَ اسْفَنْجَاتِ الحِوْذِيِّ كُلَّهَا، وَجَعَلَ خَمْسَةَ مِنَ الخِدْمِ المَسَاعِدِينَ  
 عَاطِلِينَ عَنِ العَمَلِ وَمَتَذَمَّرِينَ؛ وَكَانَ السَّيْرُ تَوَاسُ يَأْمَلُ بَانَ يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ سَيَكْفِيَانِ لِمَسْحِ كُلِّ أَثَرٍ خَارِجِيٍّ مَا كَانَ قَدْ  
 حَدَثَ، بَلْ لِتَمْدِيرِ كُلِّ نَسْخِ «عَهْدِ العِشَاقِ» غَيْرِ المَجْلُدَةِ المَوْجُودَةِ فِي البَيْتِ، نَلِكُ أَنَّهُ كَانَ «مَصْنُوعًا» عَلَى أَنْ يُحْرَقَ كُلُّ  
 مَا وَقَعَتْ عَيْنَاهُ عَلَيْهِ<sup>(٣٨)</sup>.

إِنَّ قُوَّةَ هَذَا المَقْطَعِ بَيِّنَةٌ لَا تُخْطَأُ. وَلَيْسَ هَذَا «رُويْنِسُون» كَرُوزُو «آخَرَ» يَضَعُ الأُمُورَ  
 فِي نِصَابِهَا الصَّحِيحِ وَحَسِبَ: بَلْ إِنَّهُ أَيْضًا بَرُوتَسْتَانْتِيٌّ مُبَكِّرٌ يَزِيلُ جَمِيعَ أَثَارِ السُّلُوكِ  
 الطَّائِشِ. وَلَيْسَ فِي رُوضَةِ مَانسْفِيلِدِ مَا سَيِنَاقِضُنَا، مَعَ ذَلِكَ، لَوْ افْتَرَضْنَا أَنَّ السَّيْرَ  
 تَوَاسُ يَفْعَلُ الأَشْيَاءَ ذَاتَهَا بِالضَّبْطِ - عَلَى مَسْتَوَى أَوْسَعٍ - فِي «مَسْتَنْبِقَاتِهِ» فِي أَنْتِيغَوَا.  
 وَإِيَّاكَ كَانَتْ الأَخْطَاءُ هُنَاكَ - وَالأَدَلَّةُ الدَّاخِلِيَّةُ الَّتِي جَمَعَهَا وَارِنُ رُويْرْتِسُ تَقْتَرِحُ أَنَّ الرُّكُودَ  
 الأِقْتِصَادِي، وَالرَّقِيقَ، وَالمُنَافَسَةَ مَعَ فَرَنْسَا كَانَتْ مَوْضِعَ نِقَاشٍ وَخِلَافٍ<sup>(٣٩)</sup> - فَإِنَّ السَّيْرَ  
 تَوَاسُ كَانَ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَصْحَحَهَا، وَيَصُونَ بِذَلِكَ سَيِّطَرَتَهُ عَلَى إِقْلِيمِهِ المَسْتَعْمَرِ. وَإِنَّ  
 أَوْسْتَنَ لَتَقُومُ هُنَا - بِشَكْلِ أَشَدِّ وَضُوحًا مِنْ أَيِّ مَكَانٍ آخَرَ فِي رُويَايَاتِهَا - بِمَزَامِنَةِ السُّلْطَةِ  
 الدَّاخِلِيَّةِ «الْبَيْتِيَّةِ، المَحَلِيَّةِ» مَعَ السُّلْطَةِ العَالِمِيَّةِ، مَوْضِعَةً تَمَامًا أَنَّ القِيمِ الَّتِي تَرْتَبِطُ بِشُؤْنِ  
 عَلِيَا مِنْ مِثْلِ الرُّسَامَةِ، وَالقَانُونِ، وَالِاسْتِقَامَةِ يَنْبَغِي أَنْ تَوْصَلَ «تَوَدُّضًا» بِثَبَاتٍ فِي الحَكْمِ  
 الفَعْلِيِّ لِلأَرْضِ وَامْتِلَاقِهَا. إِنَّهَا لَتَرَى بِوَضُوحٍ أَنَّ امْتِلَاقَ رُوضَةِ مَانسْفِيلِدِ وَحَكْمِهَا هُمَا  
 امْتِلَاقٌ وَحَكْمٌ لِإِقْطَاعَةِ امْبِرْيَالِيَّةِ مُتَرَابِطَةٌ مَعَهَا تَرَابِطًا وَثِيقًا، إِنْ لَمْ نَقْلِ مَحْتَمًا. وَمَا يَضْمَنُ  
 السُّجُودَ الدَّاخِلِيَّ وَالتَّنَاقُصَ الجَذَابَ لِإِحْدَاهُمَا هُوَ إِنتَاجِيَّةُ الأُخْرَى وَانْضِبَاطُهَا المَقْتُن.

لَكِنْ، قَبْلَ أَنْ يَغْدُو مَمَكْنًا تَأْمِينِ كِلَيْهِمَا تَأْمِينًا تَامًا، يَنْبَغِي عَلَى فَنَانِي أَنْ تَنْخَرِطَ بِنَشَاطِ  
 أَشَدِّ فِي الحَدِثِ المَتَنَامِي. وَهِيَ تَتَحَوَّلُ بِالتَّدْرِيجِ مِنْ قَرِيبَةٍ «نَسِيْبَةٍ» فَقِيرَةٍ خَائِفَةٍ كَثِيرًا مَا



وقعت ضحية <للآخرين>، إلى عضو مشارك مباشرة من أعضاء آل برترام في روضة مانسفيلد. ولهذا، في اعتقادي، صممت أوستن الجزء الثاني من الكتاب، الذي لا يحتوي على إخفاق العلاقة الرومانسية بين ادموند وماري كروفورد كما على خلاعة ليديا وهنري كروفورد المشينة وحسب، بل يحتوي أيضاً على اكتشاف فاني برايس من جديد لبيتها في پورتسموث ورفضها إياه، وعلى تعرض توم برترام (الابن الأكبر) للإصابة والإعقاد، وعلى بدء وليم برايس مهنته في البحرية. وتكلم هذه المجموعة من العلاقات والأحداث بأسرها بزواج ادموند من فاني، التي تحل أختها سوزان برايس محلها في منزل الليدي برترام. وليس من المبالغة في شيء أن تؤوّل الأقسام الختامية في روضة مانسفيلد كتتويج لمبدأ يمكن الاحتجاج بأنه غير طبيعي (أو على الأقل، غير منطقي) يكمن في الباب من نظام إنكليزي مشتهى. وتقتنع جراً رؤيا أوستن شيئاً ما بصوتها المتواضع تواضعاً ملحوظاً والتلطيفي في تقرير ما يقرّره، رغم مكروه من أن لأن. لكن ينبغي الأ تناول تناولاً خاطئاً الإشارات القليلة إلى العالم الخارجي، وإلماعاتها المؤكدة تأكيداً خفياً إلى العمل والعملية والطبقة، ومقدرتها الظاهرة (بعبارة ريموند وليمز) على تجريد نظام أخلاقي يومي لا يقدم التنازلات، قابل في نهاية المطاف لأن يفصل عن قاعدته الاجتماعية. والحق أن أوستن أقل حياءً بكثير وأشدّ صرامة بكثير.

وبوسعنا أن نجد الأدلة في فاني، أو بالأحرى في مدى الصرامة الذي نستطيع أن نبلفه في معالجاتها. صحيح أن زيارتها لبيتها الأصلي في پورتسموث، حيث ماتزال أسرتها المباشرة تقطن، تخلخل التوازن الجمالي والعاطفي الذي اعتادت عليه في روضة مانسفيلد. وصحيح أيضاً أنها بدأت تستبده مظاهر ترفها المدهشة، بل تعتبرها ضروريات أساسية؛ وهذه عواقب مكرورة وطبيعية إلى حد بعيد من عواقب التعود على <العيش في> مكان جديد. غير أن أوستن تتحدث عن أمرين آخرين لا ينبغي أن نخطئ إدراكهما: الأول هو إحساس فاني المتضخم حديثاً بما يعنيه العيش في البيت؛ فحين تتأمل الأمور وتقدرها بعد أن تصل إلى پورتسموث، لا يكون ذلك مجرد مسألة فضاء يزداد اتساعاً:

كادت فاني أن تصعق. لقد قرب صيفُ المنزل، ورفقُ الجدران، الأمور كلها إليها أشدّ تقرب، إلى درجة أنها - إضافة إلى إرهاق السفر، واضطرابات الأخريرة كلها - لم تكد تعرف كيف تتحملها. داخل الغرفة، كان كل شيء هائلاً إلى حد كافٍ. إذ إن اختفاء سوزان مع الآخرين تركها بعد قليل من الوقت وحيدة مع والدها، الذي أخرج جريداً - مستعارة كالعادة من جار له - وانهمك في قراتها، دون أن يبدو أنه يتذكر وجودها. كانت الشمعة الوحيدة منصوبة بينه وبين الجريدة، دونما إشارة إلى احتمال كون ذلك مريحاً <أو غير مريح> لها؛ لكن لم يكن لديها ما تفعله، وقد سرّما أن يُجذب الضوء عن رأسها المصدوح، وهي تجلس في تأملات ذاهلة كبيرة أسيانة.

كانت في بيتها لكن، بالأسف! لم يكن خير بيت، ولم يُرحب بها خَيْرَ ترحيب، إذ لقت الرُحال وربّت أمور إقامتها بنفسها؛ لم تكن عقلانية... إن يوماً أو يومين قد يظهران الفرق. إن اللوم يقع عليها وحدها. لكنّها فكرت أن الأمر ما كان سيكون كذلك في مانسفيلد. لا، في بيت زوج خالتها، كان سيكون ثمة اعتباراً للوقت والفصول، وتنظيم الموضوع، واستقامة ولياقات، واهتمام بكل فرد: <وكل ذلك> مما لا وجود له هنا (٤٠).

إنك لا تستطيع، في مكان بالغ الصغر، أن ترى بوضوح، لا تستطيع أن تفكر بوضوح، لا تستطيع أن تجد التنظيم أو تحصل على اهتمام من النمط اللائق. إن رهافة تفاصيل أوستن (كانت الشمعة الوحيدة منصوبة بينه وبين الجريدة، دونما إشارة إلى احتمال كون ذلك مريحاً <أو غير مريح> لها) تصوغ بدقة شديدة أخطار السلوك

الاجتماعي، والانعزالية المتوحدة، والوعي الضئيل، التي يتم تداركها وتصحيحها في فضاءاتٍ أرحب تُدار إدارةً أفضل.

والنقطة المحددة التي تبلورها أوستن هنا هي أن مثل هذه الفضاءات ليست في متناول فاني بالوراثة المباشرة، أو الاستحقاق القانوني، أو القرابة، أو التجاور، أو التماس (يفصل بين روضة مانسفيلد وپورتسموث سَفَرُ ساعاتٍ عديدة). فكي تكسب الحق في روضة مانسفيلد، عليك أولاً أن تغادر البيت مثل خادم مستأجرٍ لأجلٍ محدد، أو (لنضع المسألة في مصطلحات متطرفة)، كسلعة منقولة من نمط ما - وهذا، بوضوح، هو مصير فاني وأخيها وليم - لكأنك عندئذ تنال الوعد بثروة في المستقبل. وأعتقد أن أوستن ترى ما تفعله فاني حركةً في الفضاء بيتيةً (محلية) أو على مستوى صغير تتطابق وتتراسل مع الحركات الأكبر حجماً، والاستعمارية بشكل أكثر علنية، التي يقوم بها السير توماس، مُرشدُها ومُعَلِّمُها النصوح، الذي ترث فاني إقطاعته. وإن كلاً من الحركتين لتعتمد على الأخرى.

أما الأمر الثاني، الأشد تعقيداً، الذي تتحدث عنه أوستن، وإن بصورة غير مباشرة، فإنه يثير مسألة نظرية شقيقة. فمن الجلي أن وعي أوستن للإمبراطورية شديد الاختلاف عن وعي كونراد أو كبلنغ، والتلميح إليه أكثر عرضيةً بكثير لدى الأولى منه لدى الآخرين. ففي زمنها كان البريطانيون ناشطين جداً في «المنطقة» الكاريبية وأميركا الجنوبية، وخاصة البرازيل والأرجنتين. ولا تبدو أوستن واعية إلا وعياً غامضاً لتفاصيل تلك النشاطات، مع أن الإحساس بأهمية المستنبتات الكثيرة المترامية في جزر الهند الغربية كان واسع الانتشار في انكلترا الحاضرة. ولأنتيغوا ورحلة السير توماس إليها وظيفاً أدائيةً تحديدياً في روضة مانسفيلد، وهي وظيفة ما زلت أقول إنها وظيفاً عرضية يشار إليها بشكل عابر فقط، «ولكنها» حاسمة إطلاقاً بالنسبة للأحداث. فكيف ينبغي أن نؤمن بإشارات أوستن القليلة إلى أنتيغوا، وكيف نتعامل معها تأويلياً؟

إنني لأزعم أن أوستن، بذلك المزيج الغريب من العرَضية والتاكيد، تُكشِف أنها تتعرض (تماماً كما تفترض فاني، بكلا معنيي الكلمة\*) أهمية «امتلاك» إمبراطورية بالنسبة للأوضاع في الوطن. بل دعني أمضي إلى أبعد من ذلك. فلما كانت أوستن تشير إلى أنتيغوا وتستخدمها كما تفعل في روضة مانسفيلد، فلا بد أن يكون ثمة جهدٌ معادلٌ من طرف قرائها لفهم المكافئات التاريخية «المتضمنة» في الإشارات فهماً محسوساً؛ ولأضع الأمر بصورة مختلفة: علينا أن نحاول فهم ما كانت تشير إليه، ولماذا عَزَت إليه الأهمية التي عزتها إليه، ولماذا قامت فعلاً بذلك الاختيار، إذ إنها كانت قادرة على أن تفعل شيئاً آخر لتبرهن على ثراء السير توماس. فلنعاير الآن القوة الدلالية للإشارات إلى أنتيغوا في روضة مانسفيلد؛ كيف تحتل «هذه الإشارات» المكانة التي تحتلها، وماذا تفعل هناك؟

علينا، تبعاً لأوستن، أن نستنتج أن المكان الإنكليزي (وعلى سبيل المثال: روضة مانسفيلد) مهما كان منعزلاً ومعزولاً يتطلب الدعم والتغذية ممّا وراء البحار. كان لا بد لأمالك السير توماس في الكاريبي أن تكون مستنبتة لـ«قصب» السكر يشتغل فيها

\* - ليس من السهل إظهار المعنيين المختلفين لـassume المستخدم هنا؛ أحدهما هو الافتراض بالمعنى المألوف ومنه اعتبار الأمر مفروغاً منه، والثاني هو تقلد الأمر أو السلطة أو أخذ البرء أمراً ما على عاتقه.

ويصونها العمالُ العبيدُ (لم تُلغ عمالةُ الرقيق حتى الـ ١٨٢٠ات): وما هذه بحقائق تاريخية مينة بل هي، كما عرفتُ أوستن بالتاكيد، وقائعُ تاريخيةٌ جليةٌ. وقبل التنافس الإنكليزي -الفرنسي كانت الخصيصةُ الرئيسيةُ المانزةُ للإمبراطوريات الغربية (الرومانية، الإسبانية، البرتغالية) هي أن الإمبراطوريات السابقة كانت منهكةً في النهب، كما يعبرُ كونراد، وفي نقل الكنوز من المستعمرات إلى أوروبا، دون كبير اهتمام بالتنمية، والتنظيم، والنظام داخل المستعمرات نفسها. وقد أرادت بريطانيا، وإلى درجة أدنى فرنسا، أن تجعلها إمبراطوريتينهما مشروعاً بعيد المدى، مريحاً، ومستمرّاً، وقد تنافستا في هذا المشروع، وبلغ التنافسُ ذروتهُ في مستعمرات الكاريبي، حيث كان نُقلُ الرقيق، وأداءُ مستتبتات السكر الكبيرة، وتطوير أسواق تجارة السكر، التي أثارَتْ مسألة الحماية، والاحتكارات، والأسعار... كلُّ هذه الأمور كانت بصورة شبه دائمة، مداراً للمنافسة.

لم تكن الممتلكاتُ الإنكليزيةُ الاستعمارية في الانتيلز وجزر الليورد مجرد شيء ضئيل "هناك في مكان قصي"، بل كانت في زمن جين أوستن موقِعاً حاسماً للتنافس الإمبريالي الإنكليزي - الفرنسي. كانت الأفكار الثورية تصدُر من فرنسا إلى تلك المناطق، وكانت الأرباح البريطانية في تدهور مستمر: كانت مستتبتات السكر الفرنسية تُنتج كميات أكبر بكلفة أقل. لكن تمردات العبيد في هايتي، ومن هايتي، كانت تعوق فرنسا وتحفز المصالح البريطانية على التدخل بصورة أكثر مباشرة وكسب المزيد من القوة محلياً. ورغم ذلك، فإن الإنتاج البريطاني من السكر الكاريبي في القرن التاسع عشر، بالمقارنة مع أهميته البارزة للسوق الداخلية سابقاً، أصبح مجبراً على منافسة واردات بديلة من قصب السكر من البرازيل وموريشيس، ومنافسة صناعة أوروبية ناهضة للسكر المستخرج من الشوندر، ومنافسة السيطرة المتزايدة تدريجياً لعقائديّات التجارة الحرة وممارساتها.

يلتقي في روضة مانسفيلد - في خصائصها الشكلية ومحتوياتها معاً - عدد من هذه التيارات. وأهمها هو إخضاع المستعمرة التام إخضاعاً مُعلنًا للمدينة الحاضرة. إن السير توماس، الغائب عن روضة مانسفيلد، لا يُعتبر حاضراً أبداً في أنتيغوا، التي تُستندَر على الأكثر نصفَ دزينة من الإشارات في الرواية. وثمة مقطع، كنت قد اقتبستُ قسماً منه، في كتاب جون ستيوارت من مبادئ الاقتصاد السياسي يقبض على روح استخدام أوستن لأنتيغوا. وأقتبسُهُ هنا كاملاً:

إن [ممتلكاتنا القصية] هذه لا يكاد ينبغي النظر إليها كبلدان تقوم بتبادل السلع مع بلدان أخرى، بل - بشكل أكثر سلامة - كإقطاعات نائية زراعية أو تصنيعية يملكها مجتمع أكبر. إن مستعمراتنا في جزر الهند الغربية، مثلاً، لا يمكن أن تُعتبر بلداناً لها راسمالها المنتج الذاتي... [بل هي بالأحرى] المكان الذي تتراح فيه انكثرتا بإنتاج السكر، والقهوة، وبعض المحاصيل الدارية الأخرى. إن راس المال المستخدم كلُّه ورأسمال إنكليزي؛ والصناعة كلها تقريباً تتم من أجل استخدامات إنكليزية؛ وليس ثمة إلا القليل من الإنتاج لأي شيء باستثناء السلع الأساسية، وهي تُرسل إلى إنكلترة، لا من أجل أن تُبادل بأشياء تصدُر إلى المستعمرة وتُستهلك من قِبَل سكانها، بل لتباع في إنكلترة لمنفعة المالكين هناك. إن التجارة مع جزر الهند الغربية لا يكاد يمكن أن تُعتبر تجارة خارجية، بل هي أشبه بالحركة بين المدينة والريف<sup>(٤١)</sup>.

إن أنتيغوا، إلى حد ما، مثل لندن أو پورتسموث: إطارٌ مشهديُّ أقلُّ استحساناً من إقطاعة في الريف مثل روضة مانسفيلد، لكنه ينتج بضائع يستهلكها الجميع (مع أوائل القرن التاسع عشر، كان كلُّ فرد بريطاني يستهلك السكر)، وإن كانت تملكه وتصونه فئة

صغيرة من الأعيان الموسرين <الارستقراطيين> والسادة الريفيين. يشكّل آل برترام والشخصيات الأخرى في روضة مانسفيلد فئة فرعية داخل الأقلية، والجزيرة بالنسبة لهم هي ثروة حوّكّت - بحسب أوستن - إلى استقامة، ونظام، وحوكّت، في خاتمة الرواية، إلى راحة وخير إضافي. لكن لماذا هو "إضافي"؟ لأن أوستن تريد، كما تُخبرنا صراحةً في الفصول الأخيرة، أن تعيد وضع كلّ فرد في موضع على درجة معقولة من الراحة، إذ إنهم في ذاتهم لم يقتروا أخطاءً فادحة، وإن تَسْتَبعد كلُّ ما تبقى<sup>(٤٢)</sup>.

يمكن تأويل ذلك بأنه يعني أولاً أنّ الرواية فعلت ما يكفي على صعيد خلخلة حياة كلّ فرد<sup>٤٣</sup> وينبغي الآن أن تضعهم في موقع مريح: وبالفعل فإنّ أوستن تقول ذلك صراحةً، في نتفة من نفاذ صبر ما وراء اختلاقيّ، حيث تعلّق الروائية على عملها نفسه بأنه قد طال بما يكفي وصار بحاجة إلى أن يُخْتَم. ويمكن أن يعني، ثانياً، أنّ كلّ فرد قد يُسْمَع له الآن أخيراً بأن يدرك معنى أن يكون في البيت، متمتعاً بالراحة، دونما حاجة للتجوال أو المجيء والرواح. (ولا يشمل ذلك وليم الشاب الذي نفترض أن يواصل تطوافه البحار في البحرية البريطانية في أيما مهمة تجارية أو سياسية ماتزال مطلوبة. ومثل هذه الأمور لا تستدير من أوستن إلا إيماءً وجزيرة أخيرة، ملاحظة عابرة عن سلوك وليم الحسن المتواصل وشهرته المتزايدة). وأمّا بالنسبة لأولئك الذين استقرّوا نهائياً في روضة مانسفيلد نفسها، فإنّ قدراً أكبر من الامتيازات البيئية يُمنح لتلك الأرواح المتألمة تألماً تاماً، ولا يُمنح منها لأحد ما يربو على ما يُمنح للسير توماس نفسه. إنه يفهم الآن للمرّة الأولى ما كان ناقصاً في تربيته لأولاده، وهو يفهم ذلك في إطار معطيات توقّرها له - بمفارقة ضديّة - قوى خارجية لا أسماء لها، إذا جاز التعبير: ثروات أنتيغوا والمثلّ المستورد <المتجسّد في> فاني برايس. لاحظ في ما يلي كيف أن التناوب المثير للفضول بين الداخل والخارج يتبع النسق الذي ميّزه وحدد هويته <جون ستيفورات> ملّ للخارج في صيرورته داخلًا عن طريق الاستعمال وعن الطريق "النزوع الطبيعي" بحسب تعبير أوستن نفسها:

هنا [في تدريبه المقصّر، وسماحه للسيدة نوريس بأن تلعب دوراً أعظم ممّا ينبغي، وتركه لأولاده يُراوون ويناقفون ويكبّتون مشاعرهم] كان ثمة قدر خطير من سوء الإدارة؛ لكنّه، رغم كل ما في ذلك من سوء، أخذ يشعر بالترديد بأن الأمر لم يكن أشدّ الأخطاء فادحةً في خطته التربوية. لا بد أنّ شيئاً ما كان مفقوداً في الداخل، ولولم يكن كذلك، لَمَسَحَ الزمنُ جلّ تأثيراته السيئة. وخشي أن المبدأ، المبدأ الفعّال، كان مفقوداً: أنّهم لم يعلّموا بشكل سليم كيف يتحكّمون بميولهم وأهوائهم وأمزجتهم، عن طريق ذلك الشعور بالواجب الذي يكفي ويغي. كانوا قد لُفّنوا ديانتهم نظرياً، لكنّهم لم يطالبوا أبداً بأن يمارسوها في حياتهم اليومية. ولم يكن امتيازهم في الأناقة والإنجازات - وهو الهدف المرغّب لـ(عهد) صباحهم - بقادر على أن يترك أثراً ناجعاً من تلك الزاوية، أثراً أخلاقياً على عقولهم. كان قد انتوى لهم أن يكونوا خيّرين، غير أنّ اهتمامه كان قد اتّجه إلى الفهم و(آداب) السلوك، لا إلى الطباع والمزاج؛ أما عن ضرورة نكران الذات والتواضع، فقد خشي أنهم لم يسمعوها من شفّتي بشرٍ كلمة واحدة عنها قد تكون نافعة لهم<sup>(٤٢)</sup>.

وما كان مفقوداً في الداخل تمّ في الحقيقة توفيره عن طريق ثروة استمدّت من مستنبقة في الهند الغربية ومن قريبة فقيرة ريفية، استجلبت كليهما إلى روضة مانسفيلد ودُفعتا إلى العمل. لكنّ لا هذه ولا تلك كانت وحدها، منعزلة، بقادرة على أن تكفي؛ بل إنّ كلا منهما تتطلّب الأخرى، ثم إنهما <معاً>، وذلك هو الأهم، تحتاجان إلى المزاج التنفيذي، الذي يساعد هو بدوره على إصلاح ما تبقى من حلقة آل برترام. وتترك أوستن ذلك كلّه لقارئها ليقوم بتأمينه وتوفيره على مستوى الشرح الحرفي.

وإنّ ذلك هو ما تقتضيه قراءتها. غير أنّ جميع هذه الأمور المتعلقة بالخارج الذي

استُجلب <إلى الداخل> تبدو ماثلة لا تخطأ ثمة في إيحائية لغتها الإشارية والتجريدية. وفي اعتقادي أن "المبدأ المفقود في الداخل" يُراد له أن يستثير في نفوسنا ذكريات عن غيابات السير توماس في أنتيغوا، أو عن التقلب العاطفي وشبه النزوي الصادر عن الأخوات الثلاث من عائلة وورد اللواتي يعانين من شتى أنواع العوز والذي يؤدي إلى إزاحة بنت أخت من منزل إلى آخر. لكن كون آل برترام قد تحسّنوا، إن لم يكونوا فعلاً أصبحوا خَيْرين، وكون إحساس ما بالواجب قد نُفِع فيهم، وكونهم تعلموا أن يتحكّموا بنزواتهم وأهوائهم وطباعهم وأن يُدخلوا الدين إلى ممارستهم اليومية، أي كونهم قد وَجَّهوا الطباع والمزاج: كل هذه أمور حصلت فعلاً لأن عوامل خارجية (بل بالأحرى قسوية طرفية) أدخلت بشكل سليم إلى الداخل وأودعت فيه، وأصبحت أصلانية <مستوطنة> في روضة مانسفيلد، التي غدت فاني بنت الأخت سيّدتها الروحية النهائية، وغدا إدموند الابن الثاني سيّدتها الروحي.

ثمة فائدة إضافية هي أن السيدة نوريس تزاح من مكانها؛ ويوصف ذلك بأنه "الراحة المتّمة العظيمة في حياة السير توماس".<sup>(٤٤)</sup> وما إن يتم استدخال المبادئ، حتى تتبعها الميرحات: تستقر فاني مؤقتاً في ثورنتون ليسي "فتلقّى عناية كليّة براحتها"؛ ويصبح بيتها فيما بعد "بيت المودة والراحة"؛ وتستحضر سوزان "أولاً كمصدر راحة لفاني، ثم كمساعدة، وأخيراً كبديل لها"<sup>(٤٥)</sup> حين تحتلّ المستوردة الجديدة مكان فاني إلى جانب الليدي برترام. ويستمر بوضوح النسق الذي تم تأسيسه في مطلع الرواية، غير أنه الآن يملك ما أرادت أوستن طوال الوقت أن تمنحه إياه، <أي> معقناً مستدخلاً ومكفولاً استرجاعياً. وهذا هو المعقّن الذي يصفه ريموند ويمر بأنه "نظام أخلاقي يومي، لا يقدم التنازلات، قابل في نهاية المطاف لأن يُفصل عن قاعدته الاجتماعية، وقابل، حين يصير تحت سيطرة آخرين أو إشرافهم، لأن ينقلب عليها ويُستخدم ضدها".

لقد حاولت أن أظهر أن النظام الأخلاقي في الحقيقة لا ينفصل عن قاعدته الاجتماعية: وإن أوستن حتى الجملة الأخيرة تماماً، تُثبّت وتكرّر عملية التوسع الجغرافية التي تشبك <تتضمّن> التجارة، والإنتاج، والاستهلاك، والتي تسبق النظام الأخلاقي وتتبطّنه وتكفّله. والتوسع، كما يذكّرنا غالغر، سواء أكان "من خلال الحكم الاستعماري محبوباً أم غير محبوب، قد كانت مرغوباً [به] من خلال نهج أو آخر بشكل عام متقبّلاً. وهكذا لم يكن ثمة، في واقع الأمر، إلا القليل من المقيدات الداخلية للتوسع".<sup>(٤٦)</sup> ولقد نزع معظم النقاد إلى نسيان أو تجاهل تلك العملية، التي بدت أقل أهمية للنقاد مما بدا أن أوستن نفسها كانت تعتقده. لكن تأويل <أعمال> جين أوستن يعتمد على من يقوم بالتأويل، ومن يتم، ويعتمد - وهذا مما لا يقل أهمية - على من أين يتم. وإذا كنّا مع الأنثويات، ومع نقاد ثقافيين عظام مثل ريموند وليمز يملكون حساسية بالتاريخ والطبقة، ومع مؤلّكين ثقافيين وأسلوبيين، قد أصبحنا ذوي حساسية بالمسائل التي تثيرها اهتماماتهم، فإنه لينبغي أن نمضي قدماً الآن لنعتبر الانقسام الجغرافي للعالم - وهو، بعد كل حساب، ذو دلالة بالنسبة لـ روضة مانسفيلد - غير حيادي (باكثير مما الطبقة أو الجنوسة حياديتان) بل هو مشحون سياسياً، يتضرّع من أجل الاهتمام والتوضيح اللذين تتطلبهما نسبه وإبعاده الضخمة. وهكذا فإن السؤال ليس فقط كيف نفهم وبماذا نربط نظام أوستن الأخلاقي وقاعدته الاجتماعية، بل هو أيضاً ما الذي نقرأه من هذا النظام.

لنأخذُ من جديدِ الإشاراتِ العابرةِ إلى أنتيغوا، ومدى السهولة التي تُحقَّقُ بها حاجاتُ السيرِ توماس في انكثرة عن طريق إقامة مؤقتة في الكاريبي، والإشاراتِ غيرِ المُعربة، وغيرِ التأميلية إلى أنتيغوا (أو البحر الأبيض المتوسط، أو الهند، التي تطلب اللبدي برترام في نوبةٍ من نفاذ الصبر المشوُّش أن يذهب إليها ولِيمٌ من أجل أن يصبح لديّ وشاح، <بل> اعتقد أنه بوذي أن يكون لدي وشاحان).<sup>(14)</sup> إن هذه الإشارات تمثل دلالة قائمة "هناك في الخارج" تُؤطر الحدثَ ذا الأهمية الحقيقية منا، لكن دون أن تُؤدِّي دلالة عظيمة. ورغم ذلك فإنَّ علامات "الخارج" هذه تُشمل، حتى فيما هي تُكبت، تاريخاً غنياً معقداً متشابكاً، قام منذ ذلك الوقت باكتساب مقام لا تعترف به - بل لاستطيع أن تعترف به - عائلة برترام، أو عائلة برايس، أو أوستن نفسها. وإنَّ تسمية ذلك بـ "العالم الثالث" سيشكل بدايةً للتعامل مع الوقائع، لكنّه لا يستنفد التاريخ السياسي أو الثقافي على الإطلاق.

ينبغي أولاً أن نأخذ بالاعتبار تكهّنات روضة مانسفيلد المشخّصة لتاريخ إنكليزي لاحق كما تدوّنهُ الكتابة الاختلاقية. بوسعنا قراءةً مستعمرةً آل برترام القابلة للاستخدام، التي تصوّرها روضة مانسفيلد، بوصفها مؤشّرةً إلى ما سيتلونها: <من مثل> منجم سان توميه الذي يملكه تشارلس غولد في نوسسترومو <لكونراد>، أو شركة المطاط الامبراطورية والافريقية الغربية التي تملكها عائلة ولكس في نهاية هاوردن لفورستر، أو إلى أيّ من هذه البقاع القصية لكن المريحة المدرة للكنوز في توقعات عظيمة <لديكنز>، وبحر سارغاسو الشاسع لجين رايس، وقلب الظلام - وهي موارد تزار، ويتحدّث عنها، وتوصّف، أو تُثمّن لأسباب داخلية، ولنافع محلية حواضرية. وإذا اتجهنا بتفكيرنا إلى الامام نحو هذه الروايات الأخرى، فإنَّ أنتيغوا السير توماس سرعان ما تكتسب كثافةً أشدّ بقليل من ظهوراتها المبعثرة المتكثمة في روضة مانسفيلد. وما إنَّ نفعل ذلك، حتى تبدأ قراءتنا للرواية تفتتح على تلك النقاط التي كانت أوستن فيها، وبمفارقةٍ لاذعة، على أعلى درجات الاقتصاد، وكان نقادها على أعلى (أيجرو المرء أن يقول؟) درجات الإهمال. ولذلك فإنَّ "أنتيغوا" أوستن ليست مجرد طريقة مستخفة، بل هي طريقةٌ محدّدة لوسم الحدود الخارجية لما يسمّيه ولیمز التحسينات الداخلية <أو المنزلية>، أو هي إلماع عاجل إلى المغامرة التجارية <الكامنة> في اكتساب أصقاع ما ورابحارية كمصادر للثروات المحلية، أو إشارةً واحدةً من بين إشارات كثيرة تشهد على <وجود> حساسية تاريخيةٍ مشريةٍ لا بأداب السلوك والمجاملات وحسب بل بنزاع الأفكار، وبالصراعات ضد فرنسا النابليونية، والوعي بالتغيّر الاقتصادي والاجتماعي الزلزالي خلال مرحلة ثورية من تاريخ العالم.

ثانياً، علينا أن نرى "أنتيغوا" مُثبتتةً في مكان دقيق محدّد في جغرافية أوستن الأخلاقية، وفي نثرها، بفعل التغيرات التاريخية التي تمتطها روايتها كمثل سفينة على بحر جبار. لم تكن عائلة برترام ممكنةً من دون تجارة الرقيق، والسكر، وطبقة المستنبتين الاستعماريين؛ ولا بدّ أن السير توماس، كنمط اجتماعي، قد كان مألوفاً لدى القراء في القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر الذين كانوا يعرفون تأثير الطبقة القوي من خلال السياسة، والمسرحيات (مثل مسرحية كمبرلند الهندي الغربي)، ونشاطات عامة عديدة أخرى (البيوتات الكبيرة، والحفلات والطقوس الاجتماعية المشهورة، والمشاريع التجارية

الذائعة الصيت، والزيجات المحتفى بها حفاوة كبيرة). ومع الاختفاء التدريجي للنظام القديم القائم على الاحتكارات المحمية، ومع بدء طبقة جديدة من المستنبتين - المستوطنين بالحلول محل نظام الملك الغائبين القديم، زالت أولوية الاهتمام «الاستعماري» بالهند الغربية. فقد قلصت صناعة القطن، «وقيام» نظام تجاري أكثر انفتاحاً، وإلغاء تجارة الرقيق، القوة والمكانة الامتيازية لعائلات مثل آل برترام، التي بدأ تواتر «فترات» إقامتها في الكاريبي آنذاك بالتناقص.

وهكذا تعكس رحلات السير توماس المتناقصة إلى أنتيغوا بوصفه مالك مُستنبتةً غائباً تضالُّ قوّة طبّقته، وهو تضالُّ يجد تعبيراً مباشراً عنه في عنوان «دراسة» لولل راغاتز المكرّسة «الكلاسيكية» سقوط طبقة المستنبتين في الكاريبي البريطاني، ١٧٦٣-١٨٣٣ (المنشورة عام ١٩٢٨). لكن هل يتحوّل ما هو خبيء أو إلماعي في «عمل» أوستن إلى ما هو صريح كفاية في «عمل» راغاتز بعد مائة عام ونيف؟ وهل يتلقّى الصمت أو التكمّم الجماليّان في رواية عظيمة في سنة ١٨١٤ شرحاً وافياً في عمل بارز من البحث التاريخي بعد قرن كامل؟ وهل بوسعنا أن نفترض أن عملية التأويل قد أنجزت، أم أنها ستستمر مع رؤية مادة جديدة الثور؟

ما يزال راغاتز، رغم كل معرفته وعلمه، يجد في نفسه القدرة على التحدث عن «العرق الزنجي» <negro> بوصفه حاملاً للخصائص التالية: «لقد سرق، وكذب، وكان بسيطاً، شككاً، ضعيف الكفاءة، لاسمؤولاً، خاملاً، متطيراً، خليعاً في علاقاته الجنسية»<sup>(٤٨)</sup>. ومن هنا، فإن مثل هذا «التاريخ» فسح المجال بسعادة للعمل التنقيحي الذي قام به مؤرّخون كاريبيون مثل إريك وليمز وسي. إل. آر. جيمس ومثل - في زمن أقرب - روبن بلاكبيرن في «كتابه» الإطاحة بالعبودية الاستعمارية، ١٧٧٦-١٨٤٨؛ وفي هذه الأعمال يُكشّف أنّ العبودية والإمبراطورية قد غذّتا ارتقاء الرأسمالية وتعزيزها إلى عهد يتجاوز بزمن طويل الاحتكارات المستنبتية القديمة، ويكشف أنّهما كانتا نظاماً عقائدياً قوياً قد تكون صلته الأصلية بمصالح اقتصادية محدّدة قد زالت، بيد أن تأثيراته استمرت لعقود عديدة.

سوف تُفحص أفكار العصر السياسية والأخلاقية في علاقاتها الأشد حميمية بالتطور الاقتصادي... بوسع مصلحة بالية، تُبلّغ رائحة إفلاسها السماء من منظور تاريخي، أن تمارس تأثيراً موقوفاً ومخزياً لا يمكن تعليقه إلا بالخدمات القوية التي كانت قد قدّمها سابقاً والتحصّن الذي كانت قد اكتسبته... تستمر الأفكار التي بُنيت على هذه المصالح إلى زمن طويل بعد تدمير تلك المصالح، وتمضي في ممارسة فعلها الخبيث القديم، الذي يزداد خبثاً لأن المصالح التي تتطابق معها «الأفكار» قد زالت من الوجود<sup>(٤٩)</sup>.

كذا «يتحدث» إريك وليمز في الرأسمالية والعبودية (١٩٦١). إن مسألة التأويل، بل مسألة الكتابة نفسها بحق، موشوجة بمسألة المصالح، التي رأيناها فعالة في الكتابة الجمالية كما التاريخية، آننذ، والآن. ينبغي ألا نقول إنّ روضة مانسفيلد رواية ولذلك فإن ارتباطاتها بتاريخ دنيء ليست ذات علاقة أو إنها متجاوزة، «متعالية عن الواقع»، لا لأنه من انعدام المسؤولية أن نقول ذلك وحسب، بل لأننا نملك معرفة أكبر بكثير من أن تسمح لنا بقول ذلك بنية حسنة «وضمير نقي». إنّ المرء لا يستطيع، بعد أن قرأ روضة مانسفيلد كجزء من بنية مشروع امبريالي متوسّع، أن يعيدها ببساطة إلى موقعها ضمن

التراث المكنون من "الروائع الأدبية العظيمة" - الذي تنتمي إليه بكل تأكيد - وأن يكتفي بذلك. بل الأحرى أن الرواية، كما اعتقد، تفتح بآطراد، وأن يكن بطريقة غير نانتة، مدى واسعاً عريضاً من الثقافة الامبريالية الداخلية التي ما كان اكتساباً بريطانياً اللاحق للاراضي سيكون ممكناً من دونها.

لقد قضيت وقتاً (طويلاً) في «دراسة» روضة مانسفيلد لأقدم نموذجاً لنمط من التحليل قل أن يجده المرء في التأويلات التي تنتمي إلى التيار السائد أو، فيما يخص هذه النقطة، في قراءات تأصلت بصرامة في واحدة أو أخرى من المدارس النظرية المتقدمة. ومع ذلك، فإن موقع الرواية العام، المدهش بحق، لا يمكن أن يُجلى إلا في المنظور الكوني الذي تطرحه جين أوستن وشخصياتها ضمنياً. وإنني لأعتبر مثل هذه القراءة متممة أو مستكملة لقراءات أخرى، لا مطرحة لها أو بديلة عنها. ومن الجدير بالتوكيد القول: لما كانت روضة مانسفيلد تربط بين وقائع القوة البريطانية ما وراء البحار، والتراكم الفوضوي الداخلي ضمن إقطاعية ال برترام، فليس ثمة من وسيلة للقيام بقراءة كقراعتي، أو لفهم "بنية المواقف والإحالات" إلا عن طريق العمل المستقصي عبر نص الرواية بأكمله. فدون أن نقرأ الرواية بتمامها، سنخفق في فهم قوة تلك البنية والطريقة التي بها تم تنشيطها وصيانتها في الأدب. لكننا، بقراءتها قراءة حريصة، نستطيع أن نستشف كيف اعتنقت أفكاراً متعلقة بأعراق وإقاليم تابعة من قبل موظفين تنفيذيين في وزارة الخارجية، ومكاتبين استعماريين، ومخططين عسكريين، ومن قبل قراء أذكيا للرواية يتقنون أنفسهم بالنقاط المرهفة في التقييم الأخلاقي، والتوازن الأدبي، والصلب الأسلوبي.

ثمة مفارقة ضدية هنا في قراءة جين أوستن، ما زلت اشعر بأهميتها الضاغطة، لكنني لا أستطيع بأي شكل حلها. تقول جميع الأدلة إن الجوانب الأكثر مكرورية لعملية اقتناء العبيد في مستتبنة للسكر في الهند الغربية كانت هي نفسها امرأ فظاً. وكل ما نعرفه عن أوستن وقيمها منابئ لفظاظة الرق. تذكر فاني پرايس ابنة خالتها بأن "صمتاً مطبقاً ساد" (٥٠) بعد أن سألت السير توماس عن تجارة الرقيق، الأمر الذي يوحي بأن عالماً أوّل لا يمكن أن يوصل بالآخر لأنه، ببساطة، ليس ثمة من لغة مشتركة بينهما. وذلك صحيح. بيد أن ما ينشط التفاوت الخارق ويهبه الحياة هو ارتقاء الإمبراطورية البريطانية ذاتها، وانحطاطها، وسقوطها، ثم بزوغ وعي ما بعد استعماري في عقابيلها. وكى نقرأ بدقة أكبر أعمالاً مثل روضة مانسفيلد، ينبغي أن ننظر إليها بشكل رئيسي كـ«أعمال» تقاوم أو تتحاشى ذلك الإطار الشهدي الآخر، الذي تعجز اشتماليتها الشكلية، ونزاهتها التاريخية، وإيحائيتها النبوية عن إخفائه إخفاء تاماً. ومع الزمن، لم يعد يسود صمت مطبق حين يُذكر الرق، وأصبح الموضوع مركزياً لـ«اكتساب» فهم جديد، لما كانته أوروبا.

سيكون من الغيباء أن نتوقع من جين أوستن أن تعالج الرق بما يشبه أدنى شبه الشبوب العاطفي الذي يشعر به داعية لإلغاء الرقيق أو عبد أعتق حديثاً. ومع ذلك، فإن ما أسميته بلاغيات الملامة، التي كثيراً ما تُستخدم الآن من قبل أصوات تابعة منضوية، أو اقلية، أو محرومة، تقوم بمهاجمة أوستن، وبمهاجمة آخرين مثلها، استرجاعياً، لكونها بيضاء، ذات موقع امتياز، عديمة الحساسية، متواطئة. أجل، إن أوستن انتمت إلى مجتمع مارس اقتناء الرقيق، لكن هل نقذف لهذا السبب برواياتها بعيداً بوصفها تمارين



سخيفة كثيرة في التهكم الجمالي؟ كلا، بإطلاق، أقول محتجاً، لن نفعل ذلك إذا كنا نأخذ مأخذ الجد مهنتنا الفكرية التأويلية <التي تقتضي> عَقْد الصَّلَات، والتعامل مع أكبر قدر ممكن من الأدلة، تعاملأ كاملاً وحقيقياً، وقراءة ما هو موجودٌ نَمَّةً وما هو غير موجود، وبققتضي - فوق كل شيء - رؤية التتيمية\* والاعتماد المتبادل\*\* بدلاً من التجربة المعزولة، أو المبعجلة، أو المشككة التي تقصي وتستثني وتُحرم اقتحامات التاريخ الإنساني المهجئة.

إن روضة مانسفيلد عمل ثري من حيث أن تعقيدها الفكري الجمالي يتطلب ذلك التحليل الأكثر إسهاباً وبنطاً الذي تتطلبه أيضاً إشكالياتها الجغرافية: <بوصفها> رواية تحدث في انكلترا <التي> تعتمد من أجل الحفاظ على أسلوبها <في الحياة> على جزيرة كاريبية. فحين يذهب السير توماس إلى، أو يعود من، أنتيغوا، حيث يملك ممتلكات، فإن ذلك ليس على الإطلاق عَيْنَ ما يحدث حين يجيء إلى، أو يرحل عن، روضة مانسفيلد، حيث يكون لحضوره، ووصوله، ومغادرته عواقبٌ كبيرة. لكن بالضبط لأن أوستن بالغة التسرع والإيجاز في سياق أول، وثرياً حتى الاستفزاز في سياق آخر، بالضبط بسبب فقدان التوازن هذا نستطيع أن نُغير على الرواية، ونجلو ونُبرِّز الاعتماد المتبادل الذي يكاد الأ يُذكر على صفحاتها اللامعة. إن عملاً أقل <روعة> ليرتدي تواشجاته التاريخية بشكل أكثر وضوحاً وبساطة؛ وتكون دنيوية بسيطة ومباشرة، بالطريقة التي ترتبط بها أمزوجة شوفينية مهللة للحرب أثناء الانتفاضة المهدية أو التمرد الهندي عام ١٨٥٧ مباشرةً بالموقف والدائرة السكانية اللذين ابتكراهما. <غير> أن روضة مانسفيلد ترمز التجارب ولا تكررهما ببساطة. وبوسعنا من منظورنا المتأخر زمنياً أن نُؤكِّل قوة السير توماس على أن يجيء ويروح في أنتيغوا بوصفها نابعةً من التجربة القومية المكتومة للهوية الفردية، والسلوك، والرسامة، ممثلةً بقدر كبير من المفارقة اللاذعة ورهافة الذوق في روضة مانسفيلد. والمهمة <الحقيقية التي تواجهنا> هي الأ تُضيع الحس التاريخي الحقيقي بالأولى ولا المتعة والتقدير التأمين للثانية، وأن نظل نرى الاثنتين معاً كل لحظةً وأن.

### III - الاكتمالية الثقافية للامبراطورية

إلى ما بعد منتصف القرن التاسع عشر لم يكد يوجد في الثقافة الفرنسية ما يعادل نمط التبادل السهل لكن المعزَّز بين روضة مانسفيلد (الرواية والمكان) وأرض واقعة ما وراء البحار. لقد وُجدت قبل نابليون، طبعاً، أدبياتٌ فرنسيةٌ وفيرةٌ من الأفكار، والرحلات، والمباحكات، والتكهن حول العالم غير الغربي. ويخطر ببال المرء، مثلاً، فولني، أو مونتسكيو (وبعض ذلك يُناقش في <كتاب> تزفيتان تودوروف الصادر حديثاً فحن والأخرون<sup>(٥١)</sup>). وقد كانت هذه الأدبيات، دون استثناء هام، إمَّا متخصصة - كما في تقرير الأب رينال المشهور عن المستعمرات، مثلاً - أو منتمية إلى جنس أدبي (كالمناظرة الأخلاقية، على سبيل المثال) استُخدم مسائل مثل الفناء، والرقيق، والفساد كأمثلة في مناقشة عامة عن الجنس البشري. ويشكل الموسوعيون وروسو نماذجاً أيضاً ممتازة

\* - إزاء complementarity: أي كون الأشياء (كالروايات مثلاً) يتَّمم بعضها بعضاً (الناشر).  
 \*\* - إزاء interdependence (أو التوافق): أي توافق الأشياء بعضها على بعض (الناشر).

لهذه الحالة الأخيرة. ويجسد شاتوبريان - رحالةً، وكاتبَ مذكرات، وعالمًا نفسيًا بنفسه ورومانسيًا فصيحًا - فرديةً في النبرة والأسلوب لا نُدُّ لها؛ ولا شك أنه سيكون من الصعب جدًّا إظهار انتمائه في ريفيه أو أقالا إلى مؤسسة أدبية مثل الرواية، أو إلى إنشئات متفهمة مثل علم التاريخ أو اللسانيات. وإلى جانب ذلك، فإنَّ سردياته عن الحياة الأميركية والشرقوسطية هي من الشذازة بحيث يصعب تدجينها أو تقليدها.

وهكذا فإنَّ فرنسا تُظهر اهتماماً أدبيًا أو ثقافيًا متقطعاً نوعاً ما، بل ربما كان متناثراً لكنّه بالتأكيد محدود ومتخصّص، بتلك العوالم التي ذهب إليها التجارُ، أو الدارسون، أو المبشّرون، أو الجنود، حيث واجهوا في الشرق أو الأميركيكتين نظراءهم البريطانيين. ولم يكن لدى فرنسا، قبل أن تستولي على الجزائر عام ١٨٣٠، من هُندٍ، وكانت قد عرفت، كما احتججتُ في مكان آخر، من وقت لآخر تجاربَ لامعةً في الخارج كانت تتم العودةُ إليها في الذاكرة أو المجاز الأدبي أكثرَ مما تتمُّ العودةُ إليها في الواقع الفعلي. وأحد الأمثلة المشهورة على ذلك رسائلُ هنري بلاد بربري\* للاب پواريه (١٧٨٥)، التي تصف مواجهةً كثيراً ما تكون حائرة عاجزة عن الفهم لكنّها منشّطة بين رجل فرنسي وأفارقة مسلمين. ويقترح أفضلُ مؤرّخ فكري للامبريالية الفرنسية، راوول جيرارديه، أنَّ التيارات الاستعمارية في فرنسا بين ١٨١٥ و١٨٧٠ وُجِدَت بوفرة، لكنَّ أيّاً منها لم يطع على التيارات الأخرى، ولم يتموضع في مكانة بارزة أو حاسمة في المجتمع الفرنسي. ويخصَّ جيرارديه تجارَ الأسلحة، والاقتصاديين، والعسكريين، والدوائر التبشيرية، بالمسؤولية عن إبقاء المؤسسات الامبريالية الفرنسية حيّةً في الداخل، مع أنَّ جيرارديه لا يستطيع أن يميّز، كما فعل پلات وغيره من دارسي الامبريالية البريطانية، شيئاً قابلاً لأن يوصف بجلاء بأنه «وجهة نظر دوائية» فرنسية<sup>(٥٧)</sup>.

من السهل أن يستخلص المرء نتائج خاطئة عن الثقافة الأدبية الفرنسية، ولذلك يجدر تقديم سلسلة من التقابلات بينها وبين انكلترا. ليس ثمة معادلٍ مباشرٍ فرنسي للوعي الانكليزي الواسع الانتشار، غير المتخصّص، القريب المتناول، بالمصالح الماورابحارية. وليس من السهل العثورُ على معادلين فرنسيين لـ«فئة» السادة الريفيين عند أوستن أو رجال الأعمال عند ديكنز الذين يشيرون إشاراتٍ عابرةً إلى الكاربيبي أو الهند. ومع ذلك، فإنَّ مصالِح فرنسا ماوراء البحار تُظهر في الإنشاء الثقافي بطريقتين أو ثلاث متخصّصةً نوعاً ما. إحداها، وذلك شيقٌ بحق، شخصيةُ نابليون الضخمة، التي تكاد تكون ايقونية (كما هي في قصيدة هوغو «هو»)، والتي تجسّد الروح الرومانسية الفرنسية في الخارج، إذ لا يبدو نابليون فاتحاً (وهو ما كانه في واقع الأمر في مصر) بقدر ما يبدو حضوراً غارقاً في التفكير، مستثيراً للانفعالات الحادة، تؤدي شخصيتهُ دورَ القناع الذي يتم التعبير عن التأمّلات من خلاله. ولقد علّق لوكاش بدهاء على التأثير الضخم الذي مارسته حياةُ نابليون المهنية على مهن الأبطال الروائيين في الأدبين الفرنسي والروسي؛ ولقد كان لنابليون الكورسيكي في أوائل القرن التاسع عشر هالةٌ غرائبيةٌ أيضاً.

يستحيل فهمُ شخصيات ستاندال الشابّة من دون نابليون. ففي الأحمر والأسود،

\* - وهي بلادٌ في شمالي أفريقيا على «الساحل البربري»، وتمتد من الحدود المصرية الى المحيط الاطلسي، وتشمل المغرب والجزائر وتونس وليبيا. (الناشر)

تسيطر على جوليان سوريل سيطرةً كاملةً قراءته لنابليون (وبشكل خاص مذكرات <ه في جزيرة> القديسة هيلانة)، بما فيها من جلال تشنجي <متقطع>، وإحساس بالاندفاع المتوسطي، وإقدام متهور. ويتعرض نسخٌ مثل هذا المناخ في حياة جوليان المهنية لسلسلة خارقة من الانعطافات، تقوم جميعها، في فرنسا التي أمتازت آنذاك بالعادة والرجعية المدبّرة للمكائد، بتنفيس الخرافة النابليونية دون أن تنتقص من تسلطها على سوريل. وإن طغيان المناخ النابليوني في الأحمر والأسود ليلبغ من القوة حدًا أننا نفاجأ مفاجأة مليئة بالعبر حين نلاحظ أن حياة نابليون المهنية لا يشار إليها مباشرةً في أيّ مكان من الرواية. والحق أن الإشارة الوحيدة إلى عالم خارج فرنسا تحدث بعد أن تبعت ماتيلد إلى جوليان مكاشفتها بحبها له، ويصف ستانداو وجودها الباريسي بأنه يتضمّن مجازفةً أعظم من رحلة إلى الجزائر. بشكل نمطي، إذن، وبالضبط في تلك اللحظة من عام ١٨٢٠ التي تقوم فيها فرنسا بتأمين إقليمها الامبريالي الرئيسي، ينبثق <هذا الاقليم: الجزائر> في إشارة ستانداوالية يتيمة تدل على الخطر، والمفاجأة، وعلى نوع ما من اللامبالاة المحسوبة. وذلك مخالفٌ بشكل لافت للإشارات السهلة إلى أيرلندا، والهند، والبلاد الأمريكية التي تنزلق داخله خارجةً من الأدب البريطاني في الوقت ذاته.

ثمة وسيلة ثانية لاكتناه الشواغل الامبريالية الفرنسية اكتناهاً ثقافياً، وهي طقم العلوم الجديدة والفتانة نوعاً ما التي مكّنت من <بروزها> أصلاً المغامرات النابليونية ماوراء البحار. ويعكس ذلك بدقة البنية الاجتماعية للمعرفة الفرنسية، المختلفة اختلافاً احتدامياً عن الحياة الفكرية الانكليزية المتسمة بروح الهوية، والتي كثيراً ما كانت مزمّنة عتيقة démodé حتى الإحراج. لقد مارست المؤسسات التعليمية العظيمة في باريس (التي طوّرها نابليون) تأثيراً طاغياً على ارتقاء علم الآثار، واللغويات، وعلم التاريخ، والاستشراق، وعلم الحياة التجريبي (وكثيرٌ من هذه العلوم أسهم بشكل فعال في وصف مصر). وبشكل نمطي، يقتبس الروائيون <الفرنسيون> الإنشاء المقتن جامعياً عن الشرق، والهند، وإفريقيا - كما يفعل بلزاك مثلاً في جلد حمار الوحش أو بت، ابنة العم - بدراية وبريق خبرة بعيدين كل البعد عن <الروح> الانكليزية. ففي كتابات الكتاب الانكليز المقيمين في الخارج، من الليدي وورثلي مونتاغيو إلى <الزوجين> وب، يجد المرء لغةً من الملاحظة العابرة <غير المقصودة>؛ ولدى <الخبراء> الاستعماريين (مثل السير توماس برترام والاخوين ميل) يجد وجهة نظر مدروسة لكنها أساسياً غير مُحْتَجَّة مُدمجة وغير رسمية؛ وفي النثر الإداري أو الرسمي، الذي تقدّم مذكرةً ماكرلي حول التعليم الهندي <المكتوبة> عام ١٨٣٥ مثلاً مشهوراً له، يجد المرء عناداً متعجرفاً لكنه ما يزال شخصياً إلى حد ما. ومن النادر أن يكون أيٌّ من هذا كله حال الثقافة الفرنسية في أوائل القرن التاسع عشر، حيث تصوغ المكائنة الامتيازية للمجمعية <الأكاديمية> ولباريس كلُّ عبارة تُنطق.

إن القوة - في الحديث العابر نفسه - على تمثيل ما يقع خارج الحدود الحواضرية تُشتق، كما احتججت، من قوة مجتمع امبريالي، وتلك القوة تتخذ الشكل الإنشائي <التمثّل في> إعادة تشكيل أو إعادة ترتيب مادة معلوماتية <خام> أو بدائية ضمن الأعراف المحلية للسرد الأوروبي والمنطوق الرسمي، أو، في حالة فرنسا، <ضمن> نظميات الترتيب

الحقلي > المتعلق بحقول المعرفة والدراسة. > ولم تكن تلك > النظاميات > ملزمةً بإرضاء أو إقناع جمهور > أصلائي > أفريقي، أو هندي، أو إسلامي: بل لقد كانت بحق في معظم الحالات الفعالة مبنيةً على مقدمة منطقية هي صمت الأصلائي. فحين آل الأمر إلى ما يتعلق بما يقع خارج أوروبا الحاضرة، اعتمدت الآداب وحقول التمثيل - من جهة أولى: الرواية، والتاريخ، وأدب الرحلات، والرسم؛ ومن جهة ثانية: علم الاجتماع، والكتابة الإدارية أو المكتبية، وفقه اللغة، والنظرية العرقية - على قوة أوروبا ومقدرتها على استحضار العالم غير الغربي إلى > مجال > التمثيلات، من أجل التمكن من رؤيته، ومعرفته معرفة متقنة، وفوق كل شيء، من أجل القبض عليه والاحتفاظ به. وقد يكون > كتاب > فيليب كيرتن ذو المجلدين صورة أفريقيا > وكتاب > برنارد سميث الرؤيا الأوروبية وجنوب المحيط الهادي أكثر التحليلات المتاحة لهذه الممارسة إسهاباً. > كما أن > ثمة وصفاً شائعاً جيداً يقدمه بايزل ديفيدسن في مسحه للكتابات عن أفريقيا حتى منتصف القرن العشرين:

إن أدب الاستكشافات والفتوحات [الأفريقية] يبلغ من الضخامة والتنوع ما تبلغه هذه العمليات نفسها. ورغم ذلك، فإن السجلات، مع بضعة استثناءات بارزة، قد بُنيت بشكل فريد على وجهة نظر للسيطرة واحدة: فهي دفاتر رجال يعاينون أفريقيا من الخارج بثبات. ولست أقول إن العديدين منهم كان يمكن أن يتوقع منهم أن يفعلوا غير ذلك: فالنقطة الهامة هي أن نوعية ملاحظاتهم قد طوّقت داخل حد ضيق معوق، وأنه ينبغي أن يُقرأوا اليوم دون أن تغيب هذه الحقيقة عن البال. ولئن حاولوا أن يفهموا عقول الأفارقة الذين عرفوهم وأعمالهم، فإن ذلك قد حدث عرضاً، وكان نادراً. ولقد كانوا جميعاً تقريباً على اقتناع تام بأنهم يواجهون بـ > الإنسان البدني >، بالإنسانية كما كانت قبل بدء التاريخ، بمجتمعات تسكّمت في فجر الزمن. [يفصل كتاب برانين ستريت الهام المتوحش في الأدب الخطوات التي بها تم في الأدب الجامعي والشعبي إظهار صحة ذلك]. ولقد واكبّت وجهة النظر هذه توسع أوروبا الكاسح في القوة والثراء، وقوتها السياسية ومرآنتها وسفستقتها، وإيمانها بأنها كانت بشكل ما قارة الله المختارة. ويوسعا أن نرى ما اعتقده وفعله مكتشفون - هم فيما عدا ذلك > العيب الذي سيذكره سعيد بعد قليل - رجال شرفاء - في كتابات رجال مثل هنري ستانلي أو في أعمال رجال مثل سيسيل روبس ووكلائه المصطادين للمواد المعدنية، الذين كانوا على استعداد دائم لتمثيل انفسهم حلقات نزيهين لاصدقائهم الأفارقة مادامت المعاهدات مضمونة - > وهي > المعاهدات التي يمكن عن طريقها لكل من الحكومات أو المصالح الخاصة التي خدموها وشكّلوها أن تثبت لغيرها الاحتلال النافذ الفعلي (٥٣).

تميل جميع الثقافات إلى صنع تمثيلات للثقافات الأجنبية توفر سبيلاً أفضل لمعرفة باتقان أو السيطرة عليها بطريقة ما. ومع ذلك، فلا تصنع جميع الثقافات تمثيلات للثقافات الأجنبية وتعرفها باتقان أو تسيطر عليها فعلاً. وذلك هو، في اعتقادي، ما تتميز به الثقافات الغربية الحديثة. وهذا يستدعي أن تكون دراسة المعرفة الغربية أو تمثيلات العالم غير الأوروبي دراسة لهذه التمثيلات وللقدرة السياسية التي تعبّر عنها. إن فناني أواخر القرن التاسع عشر مثل كيلنغ وكونراد أو، في هذا الخصوص، شخصيات من منتصف القرن مثل جيروم وفلوبير، لا يعيدون ببساطة إنتاج الأقاليم القصية الطرفية: بل إنهم يكتشفون > طبيعت >ها أو ينفجونها بالحياة، مستخدمين تقنيات سردية ووجهات نظر تاريخية واستكشافية وأفكاراً وضعية من النمط الذي قدمه مفكرون مثل ماكس مولر، رينان، وتشارلس تمبل، وداروين، وبنجامن كيد، وإمر دو فاتيل. وجميع هؤلاء طوّروا

\* - الجدير ذكره أن سعيد يستخدم هنا عبارة: "to master it" التي تعني معرفته معرفة متقنة، وتحمل - في الوقت نفسه - ظلالاً من التحكم والسيطرة والسيادة على العالم غير الغربي (الناشر).

وأبرزوا المواقف الجوهرائية في الثقافة الأوروبية معلنين أن الأوروبيين ينبغي أن يحكموا، وعلى غير الأوروبيين أن يحكموا، ولقد حكم الأوروبيون بالتعل.

نحن الآن على قدر معقول من الوعي لدى كثافة تلك المادة، ولدى انتشار تأثيرها. خذ، مثلاً، دراسات ستيفن جاي غولد ونانسي ستيبان لقوة الافكار العرقية في عالم الاكتشافات، والممارسات، والمؤسسات، العلمية في القرن التاسع عشر.<sup>(٥٤)</sup> فكما يظهر كلاهما، لم يكن ثمة من صوتٍ منشق هام رافض لنظريات دونية السود، وتراتيبات الأعراف المتقدمة والمتخلفة (التي أُسميتُ فيما بعد "الرعية الخاضعة"). وكانت هذه الشروط قد اشتقت من الأراضي الواقعة ما وراء البحار، أو طُبِّقَتْ - في حالاتٍ كثيرةٍ دونما كلامٍ أحياناً - على هذه الأراضي، حيث كان الأوروبيون يملكون ما اعتبروه دليلاً مباشراً على أنواع <بشرية> منحلة. وحتى مع تنامي القوة الأوروبية بشكل لا يتناسب قياسياً مع قوة المُبرِّط <الفضاء الامبراطوري> غير الأوروبي الهائل، فقد تنامت كذلك قوةُ الخطائط التي ضَمِنَتْ للعرق الأبيض سلطتهُ التي لم يكن ثمة ما يتحداها.

لم ينج مجال من مجالات التجربة من تطبيق هذه التراتيبات المتصلبة عليه. ففي نظام التعليم الذي صُمِّم من أجل الهند، تمَّ تعليمُ الطلبة لا الأدبَ الإنكليزي وحسب، بل التفوقية الطَّبعية للعرق الإنكليزي كذلك. أما المهتمون في علم الملاحظة العرقية الوضعية البازغ في أفريقيا، وآسيا، وأستراليا، كما يصفه جورج ستوكنغ، فقد حملوا معهم أدوات تحليل مرهفةٍ ومعها ثلة من الصور، والمفاهيم، والتصورات شبه العلمية حول البربرية، والبدائية والحضارة؛ وقد اختلطت في حقل علم الإنسان <الانثروبولوجيا> الوليد <كُلٌّ مِنْ> الداروينية، والمسيحية، والمنفعة، والمثالية، والنظرية العرقية، والتاريخ القانوني، واللغويات، وموروث الحكايا الشعبية للرحالة البواسل في تمازجات وتركيبات محيرة مذهلة، بيد أن أيّاً منها لم يتردد أو يهن لحظة واحدة حين آل الأمر إلى تأكيد وتثبيت القيم التي لا تضاهي للحضارة البيضاء (أي الإنكليزية)<sup>(٥٥)</sup>.

كلما امعن المرء قراءةً في هذه المادة، وكلما امعنَ قراءةً في الباحثين الذين كتبوا عنها، ازداد بروزاً وفرصاً على النفس إلحاحها وتكراريتها الأساسية حين آل الأمر إلى <دراسة> "الأخرين". أن نقارن إعادات التقييم المفخمة التي قام بها كارلايل للحياة الروحية الإنكليزية في الماضي والمستقبل، مثلاً، مع ما يقوله عن السود هناك أو في <مقالته> "إنشاء عارض حول مسألة الزواج" يعني أن نلاحظ عاملين ظاهريين ظهوراً صادماً. أحدهما أن نقديات كارلايل الحيوية عن إنعاش بريطانيا، وإيقاظها لتتنبه إلى <قيمة> العمل، والروابط العضوية، وحبُّ التطور الصناعي والراسمالي غير المحدود، وما إلى ذلك، لا تفعل شيئاً لتتفح بالحياة "كواشي": <وهو> الأسود المسجَّم <لعرقه> الذي حُكِّم على "بشاعته، وخموله، وتمرده" بأن تبقى إلى الأبد في مقام تحت -إنساني. وكارلايل صريح إزاء هذا الأمر في مسألة الزواج:

كلا: إن الآلهة يشاؤون أن تنمو إلى جانب القرع [وهي النبتة المعينة المفضلة لدى "زواج" كارلايل] التوابل والمحاصيل الثمينة في <جزر> هندم الغربية؛ هذا قنرٌ ما أعلنوه إذ خلقوا الهند الغربية كذلك: - لكنهم يشاؤون أمراً آخر مشبهة لا حدود لها، <وهو> أن يحتل رجالٌ ذويون هندم الغربية، لا بقزٍ على ساقين، كسالي أيّاً بلغت "غبطتهم" بقرعهم الرفيرا كلا منين الامرين، وبوسعنا أن نكون على يقين من ذلك، قد قرره الآلهة الخالدون، وأصدروا به قانون مجلسهم التشريعي الخالد. وكلامهما سيتم تنفيذه، رغم أن المجالس التشريعية والكيانات الأرضية كلها تعارضهما

حتى الموت. وإذا كان كواشي لن يساعد في استخراج التوابل فسيودي بنفسه إلى أن يُستعبد من جديد (وهي حالة سنكور أقل فحياً بقليل من حالته الراهنة)، وسيبرغم بسوسطٍ أرحي، مادامت الطرق الأخرى لا تجدي، على أن يستغل<sup>(٥٦)</sup>

لا يُقدّم شيءٌ يستحق الذكر لأنواع «البشرية» الأدنى، فيما تتوسع انكثرة توسعاً هائلاً. إذ تتغير ثقافتها لتصبح ثقافة قائمة على التصنيع في الداخل والتجارة الحرة المحمية في الخارج. ويحدّد مقامُ السود بمرسومٍ تشريعي خالداً، وتنعدم بذلك أيةُ فرصةٍ لمساعدة الذات، أو الارتقاء إلى الأعلى، أو لأي شيءٍ أفضل من العبودية الصريحة الحالصة (رغم أن كارلايل يقول إنّه يعارض العبودية). والسؤال «الحق» هو ما إذا كان ينطقُ كارلايل ووجهاتُ نظره أموراً خاصة به كلية (أي أنها شذازة) أم كانت تفصح، بطريقة متطرفة ومميزة، عن مواقف جوهرية ليست شديدة الاختلاف عما كانت قد اعتنقته أوستن قبل ذلك ببضعة عقود أو عما اعتنقه جون ستيوارت ملٌ بعد ذلك بعقد.

إن أوجه الشبه للافتهُ جداً، والفرق بين الأفراد مساوية «لتلك الأوجه» في العظم؛ ذلك أن ثقل الثقافة بأسره جعلَ من الصعب أن يكون الأمر على خلاف ذلك. لا يقدم أيُّ من أوستن أو ملٌ للكارببي غير الأبيض أيّ مقامٍ تخيلياً، أو إنشائياً، أو جمالياً، أو جغرافياً، أو اقتصادياً سوى مقامٍ مُنتجٍ للسكر في موقع خاضع دائماً للإنكليز. وهذا بالطبع هو المعنى الملموس للسيطرة التي تُشكل وجهها الآخر الإنتاجية. ويشبه كواشي «لدى» كارلايل ممتلكات السير توماس في انتيفوا: فكواشي مصمّم، والممتلكات مصمّمةٌ لإنتاج الثروة التي يُقصد منها أن يستعملها الإنكليز. وهكذا فإنّ الفرصة المتاحة لكواشي لكي يوجد نذ من أجل كارلايل معادلةً للعمل المطيع السلس من أجل إبقاء الاقتصاد والتجارة البريطانيين في حركة ناشطة مستمرة.

والشيء الثاني الذي يلاحظ على كتابات كارلايل في «هذا» الموضوع هو أنها ليست مبهمة، أو سحرية غيبوية، أو إسرارية. فهو يقول ما يعنيه عن السود، وهو أيضاً صريح جداً في التهديدات والعقوبات التي ينوي أن يُنزلها بهم. وكارلايل يتحدث بلغة من التعميم الكلي، متأصلة في يقينيات ثابتة لا تنزعزع حول جوهر الأعراق، والشعوب، والثقافات، لا تحتاج أيّ منها إلى كبير إيضاح لأنها مالوفة لجمهوره. إنه يتحدث لغةً مشتركةً لبريطانيا الحواضرية: كونيّة، شموليّة، ويقدر من السلطة الاجتماعية هائل إلى درجة أنها في متناول كلِّ من يتحدث إلى الأمة أو عنها. وتُوضعُ هذه اللغة المشتركةُ lingua franca انكثرةً في محرق عالم تنزعمه أيضاً قوتها، مضاءً بأفكارها وثقافتها، تبقيه منتجاً وجهات نظر معلّمها الأخلاقيين، وفنّانها، ومشرّعها.

يُسمع المرءُ نبراتٍ مماثلة لدى ماكولي في الـ ١٨٣٠ات وبعدها بأربعة عقود، دونما تغيير تقريباً، لدى رسكين، الذي تبدأ محاضراته «التي تحمل اسم سليد» في جامعة اكسفورد عام ١٨٧٠ باستدعاءٍ وقرورٍ لمصير انكثرة وقدرها. ويجدر الاقتباسُ من كلامه هنا بإسهاب، لا لأنه يُظهر صورةً سيئةً لرسكين، بل لأنه يوطّر تقريباً كلَّ ما في كتاباته الغزيرة عن الفن. تضم طبعه كوك وودنبيرن الثقة لأعمال رسكين تديلاً للمقطع التالي يؤكّد أهميته بالنسبة إليه؛ فلقد «اعتبره الأكثر حملاً» امتلاءً وثراءً وجوهريةً بين تعاليمه كلها<sup>(٥٧)</sup>.

ثمة مصير ممكن لنا الآن - وهو أعلى ما نُصَبُ أبداً أمامَ أُمَّةٍ لَتُقْبَلَهُ أو ترفضه. إننا ما نزال غير منحنِيّ العرق؛ وهو عرق مزيج من خيرة الدم الشمالي. ونحن لما نزل غير فاجري المزاج، بل ما نزال نملك صرامةً إن نحكم، وبركةً أن نُطع. لقد قمنا بتعليم دين من الرحمة الخالصة، دين علينا الآن إما أن نخونه أو أن نتعلم كيف نحويه بأن نحققه. ونحن أثرياء، بميراث من الشرف، وُزِنَتْه عبر ألف من السنوات من تاريخ نبيل، وينبغي أن نتعطش يوماً إلى أن نغنيه وننميهم بنهم رافع، لكي يكون الإنكليزُ - إن كان إثمًا أن يُستَهَى الشرفُ - أكثر الأرواح الحية اقتراًفاً للآثام. خلال السنوات القليلة الأخيرة أتبع لنا أن تفتح قوانين العلوم الطبيعية أمامنا بسرعة يُعْمَى لمعناها الإبصار؛ وأعطينا سُبُلًا للنقل والاتصالات، حوَّكَتِ العالم الصالح للسكنى إلى مملكة واحدة. مملكة واحدة؛ - لكن من تراه سيكون ملكها؟ أو تكون، في رايمك، دونما ملك فيها، ويكون لكل امرئ أن يفعل ما يبدو حقاً «صواباً» في نظره؟ أم يكون لها فقط ملوك للعرب، والإمبراطوريات الفاجرة لشيطان الجشع مامون والإيليس بيلال؟ أم انكم، يا شباب إنكلترة، ستجعلون بلادكم من جديد عرشاً «لاتقاً» بالملوك؛ جزيرةً تنقل الصولجان، للعالم كله مصدرراً للإشعاع، ومركزاً للسلام؛ سيده العلم والفنون؛ - حارسةً أمينةً لذكريات عظيمة في لجةٍ من الرؤى الزائلة والمستهتره؛ - خادمةً أمينةً للمبادئ التي عَجَبَهَا الزمانُ، معرضةً لغواية التجارب المشبوبة والرغبات الإباحية؛ وفي لجة من «مشاعره» الغيرة الغظة المهججة «في نفوس» الأمم، معبودةً في بسالة واداءها الغريب بإزاء الرجال «البشر»؟

٢٩ - رايات الملك تتقدم > "vexilla regis prodeunt" أجل، لكن رايات أيّ ملكٍ؟ ثمة الراياتان الاثنتان: ايتهما سنزوع على الجزيرة القصوى: تلك التي تعرم في نار إلهية، أم تلك التي تتدلى مثقلةً بنسيج منن من الذهب الأرضي؟ ثمة بحق نهج من المجد الأرحي مفتوح أمامنا، لم يقدم مثله من قبل إلى أية فئة مسكينة من الأرواح الفانية. لكنّه ينبغي أن يكون معنا - بل إنه معنا فعلاً الآن، "أحكم أو مُتْ". وسيقال عن هذا البلد: "هُوَ مَنْ رَفَضَ الرَفَضَ الأعظمَ لَجَسْبِيَه" > "fece per viltate, il gran rifiuto". رفض التاج ذاك سيكون، من بين كل ما سجدّه التاريخ (من أفعال ورفض)، أكثرها عاراً وأكثرها مجيباً في غير وقتها. هذا ما ينبغي أن تفعله «هذه البلاد» أو تفنى: ينبغي أن تؤسّس مستعمراتٍ بأسرع ما تستطيعه، وإلى أبعد ما تستطيعه، مؤلّفةً من رجالها الأكثر حيويةً وطاقتهم وجدارةً؛ - محتلةً كل بقعةٍ مثمرةٍ بوسعها أن تطاها من الأرض الخراب، وأن تعلم مستعمري هذه الأرض أن فضيلتهم العظمى ينبغي أن تكون وقاهم لبلادهم، وأن هدفهم الأول ينبغي أن يكون دفع قوة إنكلترة إلى الأمام في البر وفي البحر، وأنهم على رغم عيشهم على خيرات بقعةٍ ثانيةٍ من الأرض، فإنهم لا ينبغي أن يعتبروا أنفسهم مبتورين مسلوبين الحقوق من أرضهم الأم، باكثير مما يفعل بحارو أساطيلها ل «مجرد» أنهم يعومون فوق أمواج نانية. على هذه المستعمرات أن تكون - حرقياً - أساطيلٌ مربوطة، ويكون كل رجل منهم خاضعاً لسلطة قباطنة وضباط تكون أمرئهم الفضلى على حقول وشوارع بدلاً من سفن القتال «الكبيرة»؛ وسيكون لانكلترة، من سفن بحريتها الثابتة، (أو بالمعنى الحق والأتوى، كنانسا اللامتحركة، التي يحكمها ربابنة على بحيرة «طبريا» الجليل التي هي لكل العالم)، أن تتوقع أن يؤدي كل رجل وأجبه؛ مدركةً أن الواجب بالفعل ليس أقلّ إمكانيةً في السلم مما هو في الحرب؛ وأتينا إذا كنا قادرين على جعل رجال، مقابل اجر زهيد، ينصبون أجسادهم على فوهات المدافع حباً بانكلترة، فقد نجد رجالاً أيضاً يحرقون الأرض ويزرعون من أجلها، ويتصرفون برافة واستقامة من أجلها، ويربّون أطفالهم على حبها، ويفتبطون بألق مجدها أكثر مما يفيتبطون بكل ما في السموات المدارية من نور. لكن لكي يكونوا قادرين على فعل ذلك، فإنّ عليها هي أن تجعل جلالتها نقيّة لا تلتطخها شائبة؛ ينبغي أن تمنحهم أفكاراً عن بلدهم بوسعهم أن يفخروا بها. إن انكلترة التي ستكون سيده على نصف الكرة الأرضية، لا يمكن أن تبقى هي نفسها كومةً من النفايات، تطاها اقدام الحشود المتنازعة البائسة؛ ينبغي عليها أن تصبح ثانيةً انكلترة التي كانت ذات يوم، وبالطرق الجميلة كلها، - أكثر سعادةً وتوحداً وبقاءً، إلى درجة أنها في سمائها التي لا تلوّثها سحباً غير مقدسة - يمكنها أن ترصد بحق كل نجم تجلوه السماء؛ «وإن ترصد» في حقولها - منظمةً ورحيبيّةً وجميلةً - كل عشبٍ ترشفت الندى؛ «وإن ترصد» تحت المسالك الخضراء لحديقها الغناء، سيرسي\*\* مقدسةً، ابنةً أصيلةً للشمس، ينبغي أن تهدي الفنون الإنسانية، وتجتني المعرفة الإلهية، لدى أم قصية، وقد حوَّكَت من الوحشية إلى الإنسانية «الرجولة»، واستنقذت من اليأس إلى السلام<sup>(٥٨)</sup>.

• - العبارتان مقتبستان من دانتي في الجحيم، وهذا ما يضيف على نصّ رسكُنْ طابعاً بلاغياً تاريخياً أشد تأثيراً وتحريضيةً.

•• - ساحرة في الادوية تولى لزوارها ثم تسرحهم وحوشاً: المرأة المغوية الخطرة.

تتجنب معظم المناقشات «لأفكار» رسكن، إن لم يكن كلها، هذا المقطع. ومع ذلك، فإن رسكن، مثل كارلايل، يتحدث بكلام صريح واضح؛ ومعنى ما يقوله، رغم تجلله بالإشارات والمجازات، جلي تماماً: إن انكلترة ينبغي أن تحكم العالم، لأنها الأفضل؛ ينبغي استخدام القوة؛ منافسوها الامبريالليون ليسوا جديرين «بشيء»؛ مستعمراتها ينبغي أن تزداد، وتثري، وتبقى مربوطة بها. وما يفرض نفسه بقوة في نغمات رسكن الوعظية هو أنه لا يؤمن إيماناً حاداً بما يدعو إليه فحسب، بل يربط أيضاً أفكاره السياسية عن السيطرة البريطانية على العالم بفلسفته الجمالية والأخلاقية. وهو بقدر إيمانه العاطفي المشبوب بالأولى، مؤمن أيضاً بالثانية إيماناً عاطفياً مشبوباً، «بحيث أن» الجانب السياسي الامبريالي يكتنف، وبمعنى ما يضمن، الجانب الجمالي والأخلاقي. ولأن انكلترة ستكون «ملكة العالم»، جزيرة تتقلد الصولجان، للعالم كله مصدراً للإشعاع، فإن شبابها ينبغي أن يصبحوا مستعمرين هدفهم الأول دفع قوة انكلترة إلى الامام في البر والبحر؛ ولأن على انكلترة أن تفعل ذلك «أو تفتن»، فإن فنونها وثقافتها تعتمد، في نظر رسكن، على إمبريالية مفروضة بالقوة.

أن نتجاهل ببساطة هذه الآراء - التي نعرث عليها بسهولة في كل نص تقريباً ننظر إليه في القرن التاسع عشر - ليُشبهه، في اعتقادي، وصف طريق دون إطاره المشهدي في المحيط الطبيعي. لقد كان معظم الكتاب، والمفكرين، والسياسيين، والتجار الأوروبيين يميلون، كلما طمح شكلاً أو إنشاءً ثقافي إلى الكلية أو الاكتمال، إلى أن يفكروا في إطار معطيات كونية. ولم تكن هذه «المعطيات» تطبيقاً بلاغياً «في الخيال» بل كانت تراسلات «ومراسلات» دقيقة مع المدى الكوني الفعلي والمتوسع الذي بلغته أممهم. يتفحص في جي. كيرنان، في مقالة حادة حدة متميزة عن تنيسون، وهو معاصر رسكن، وعن امبريالية رعويات الملك الطوبواوية، المدى المدوّخ للحملات البريطانية ما وراء البحار، التي أدت كلها إما إلى اكتساب الأراضي أو تعزيز الاكتساب، وهو ما كان تنيسون أحياناً شاهداً عليه، وأحياناً أخرى على صلة مباشرة به (عن طريق أقربائه). ولأن القائمة كانت معاصرة لرسكن، فنُلَقّ نظرة على المواد التي اقتبسها كيرنان منها:

حروب الأفيون في الصين	١٨٣٩-١٨٤٢
حروب ضد كفيرتي جنوب أفريقيا، والماورين في نيوزيلنده*؛ وفتح البنجاب	١٨٤٠ات
حرب القرم	١٨٥٤-١٨٥٦
فتح القسم السفلي من بورما	١٨٥٤
الحرب الصينية الثانية	١٨٥٦-١٨٦٠
الهجوم على فارس	١٨٥٧
قمع التمرد الهندي	١٨٥٧-١٨٥٨
قضية الحاكم أير في جاميكا	١٨٦٥
الحملة على الحبشة «اثيوبيا»	١٨٦٦

\* - الكفيرتيون: مجموعة من الشعوب الجنوبيةافريقية الناطقة بـ «البانتو»؛ واما الماوريون فهم شعب نيوزيلندا الاصلية (الناتشر).



صدّ التوسع الفيني* في كندا	١٨٧٠
تدمير مقاومة الماوريين	١٨٧١
الحملة الحاسمة ضد الأشانتين في غربي افريقيا	١٨٧٤
فتح مصر	١٨٨٢

إضافة إلى ذلك، يشير كيرنان إلى تينسون بوصفه نصيراً «لسياسة» عدم السكوت على أي هراء من الأفغانيين<sup>(٩١)</sup>. إن ماراه رسكن، وتينسون، وميريدث، وديكنز، وارنولد، وثاكري، وجورج إليوت، وكارلايل، وميل - وبياجاز، كل قائمة الأسماء البارزة بين الكتّاب الفيكتوريين - كان استعراضاً هائلاً عالمياً للقوة البريطانية التي لا رادع فعلياً لها عبر العالم بأسره. ولقد كان منطقياً وسهلاً أن يتماهوا مع هذه القوة بطريقة أو أخرى، بعد أن كانوا بوسائل مختلفة قد تماهوا مع بريطانيا داخلياً «محلّياً». وأن يكونوا قد تحدثوا عن الثقافة، والأفكار، والذوق، والأخلاق، والأسرة، والتاريخ، والفن، والتعليم كما فعلوا، وأن يكونوا قد مثلوا هذه الموضوعات، وحاولوا التأثير فيها أو تشكيلها فكرياً وبلاغياً، كان يعني بالضرورة أن يقرّوها على مستوى عالمي. لقد قدمت الهوية العالمية البريطانية، والمدى الشاسع لسياسة بريطانيا التجارية، وفعالية السلاح البريطاني ومتحركيته، أنموذجاً لا تقاوم لتقليدها، وخرائطاً لاتباعها، وأفعالاً لكي يسلك المرء على منوالها وتكون أفعاله على مستواها.

هكذا جاءت التمثيلات لما يقع وراء الحدود الجُزُرية (نسبة إلى الجزيرة) أو الحواضرية، منذ البداية تقريباً، لتزكد وتثبت القوة الأوروبية. وثمة دائرية دماغية في هذا المجال: فنحن نسيطر لأننا نملك القوة (الصناعية، والتقنية، والعسكرية، والأخلاقية)؛ وهم لا يملكونها، ولذلك فهم ليسوا مسيطرين؛ إنهم دونيون ونحن فوقيون... وهكذا دواليك. ويرى المرء هذه الجملة «التي لا تضيف في لغوها إلى المعنى شيئاً» ماثلةً بتشبّه خاص في وجهات النظر البريطانية حول أيرلندا والأيرلنديين في زمن مبكر يعود إلى القرن السادس عشر؛ وستفعل فعلها في القرن الثامن عشر من خلال الآراء المتعلقة بالمستعمرين البيض في أستراليا والأميركتين (بقيت أستراليا عرقاً دونياً إلى زمن طويل في القرن العشرين)؛ وستنشر سلطتها بالتدرج إلى أن تشمل عملياً العالم بأسره خارج الشواطئ البريطانية. وتنبثق في الثقافة الفرنسية جملة «لا تضيف في لغوها إلى المعنى شيئاً» مماثلةً في تكراريتها واشتماليتها حول ما هو ورابحاري خارج حدود فرنسا. وعلى هوامش المجتمع الغربي، تم إخضاع جميع الأقاليم غير الأوروبية - التي يمثل سكانها، ومجتمعاتها، وتواريخها، وكيوناتها جوهراً غير أوروبي - لأوروبا، التي أمعنّت هي بدورها بشكلٍ جليّ في السيطرة على ما لم يكن أوروبا، ومثلّت غير الأوروبي بطريقة تدعّم تلك السيطرة وتحفظها.

ولقد كانت هاتان الرتابة والدائرية بعيدتين كل البعد عن أن تكونا كابحتين أو كابتيتين للفكر والادب والفن والإنشاء الثقافي. وهذه الحقيقة ذات الأهمية المركزية بحاجة إلى أن نمضي في الإلحاح عليها بشكل دائم. إن العلاقة الوحيدة التي لا تتغير هي العلاقة

\* - منسوب إلى مجموعة سرية من الأيرلنديين والإيرلنديين - الأميركيين دعاوا في القرن التاسع عشر إلى إسقاط الحكم الإنكليزي في أيرلندا (الناشر).

التراتبية بين العاصمة <الحواضرية> وما وراء البحار عامة، بين الذكر-الأوروبي-الغربي-الأبيض-المسيحي وتلك الشعوب التي تقطن جغرافياً وأخلاقياً العالم الواقع خارج أوروبا (أفريقيا، وآسيا، إضافة إلى أيرلنده وأستراليا بالنسبة لبريطانيا).<sup>(١٠)</sup> فيما عدا ذلك، يُسمح لإحكام عجائبي بأن يحدث على كلا جانبي العلاقة، وتنتج عنه نتيجة عامة هي أنّ هوية كل منهما تتدعم حتى فيما تأخذ تنوعاتها المختلفة على الجانب الغربي في التكاثر. وحين يتم تقرير الموضوع الأساسي للإمبريالية من قبل كتاب - مثل كارلايل، الذي يصوغ الأمور بصراحة تامة - فإنها تضم إليها عن طريق الانتساب والصلات عدداً هائلاً من النساخات الثقافية الموافقة، لكن الأكثر إشاقة في الوقت نفسه، التي تملك كلٌ منها نبراتها وملذاتها الخاصة وخصائصها الشكلية الخاصة.

والمشكلة التي تواجه الناقد الثقافي المعاصر هي كيف يجمع ويقرب بشكل مجدٍ بينهما. إنه لمن الصحيح بالتأكيد، كما أشار باحثون متعددون، أنّ وعياً ناشطاً بالإمبريالية وبمهمة إرسالية عدوانية واعية للذات، لا يصبح بالنسبة للكتاب الأوروبيين حتمياً - مقبولاً، ومشاراً إليه، ومقرراً إقراراً ناشطاً في كثير من الحالات - حتى القسم الثاني من القرن التاسع عشر. (في انكلترا في الـ ١٨٦٠ ات كان يكثر استخدام كلمة "إمبريالية" لتشير، بقدر من الاشمئزاز، إلى فرنسا بوصفها بلاداً يحكمها امبراطور).

لكن مع نهاية القرن التاسع عشر، استطاعت الثقافة الرسمية أو العالية أن تظل في منجى من أن يُخصّص دورها في تشكيل المحرك الحيوي الإمبريالي، وظلّت بشكل سري غامض مستثناة من التحليل كلما تمت مناقشة أسباب الإمبريالية، أو فوائدها، أو شرورها؛ ولقد تمت مناقشة هذه الأمور جميعها بما يقارب الهوس. وإنّ ذا لجانب ساحر من جوانب موضوعي: كيف تسهم الثقافة في الإمبريالية ومع ذلك يُعَدُّ دورها <ويُصَفَّح عنه> بطريقة ما. يتحدث هوبسن، مثلاً، باستخفاف، عن فكرة غيدينفز العصية على التصديق عن <القبول > أو <الإذعان> الاسترجاعي <ذو المفعول الرجعي><sup>(١١)</sup> (بمعنى أنّ الشعوب الخاضعة ينبغي أن تُخضع أولاً ثم يُفترض استرجاعياً أنها أقرت استعبادها ووافقت عليه). بيد أنه لا يجازف بالتساؤل أين، وكيف نشأت الفكرة لدى أناس مثل غيدينفز، بما يملكونه من تعاضليات سلسلة عن القوة المهنئة لذاتها. ويستخدم البلاغيون العظام للتسويغ النظري للإمبريالية بعد ١٨٨٠ - في فرنسا: لوروا-بوليو، وفي انكلترا: سيلبي - لغة كانت، بما فيها من صور النمو، والخصب، والتوسع، وبينيتها الغائبة <المكوّنة> من الممتلكات والهوية، ويتميزها العقائدي بين "نا" و بين "هَمْ"، قد نضجت قبل ذلك في مكان آخر: في السرد الاختلاقي، وعلم السياسة، والنظرية العرقية، وأدب الرحلات. وفي مستعمرات مثل الكونغو ومصر يسجل أناسٌ مثل كونراد، وروجر كُيسمنت، وولفرد سكاون بلنّت إساءات الرجل الأبيض وطغيانه الذي لا رقيب عليه إلى درجة شبه جنونية، فيما يتغنى لوروا-بوليو في الداخل باندفاع نشوان بأنّ جوهر الاستعمار هو:

ان النظام الاجتماعي شبيه بالنظام العائلي. (إذ إنّ) الأهمية فيه ليست للإنجاب وحده بل للتربية... إنها تمنح الخصوبة إنتاجاً جديداً من أحسانها... ينبغي ألا يُترك تشكيل المجتمعات الإنسانية، بأكثر مما يُترك تشكيل الرجال، للمصادفة... لذلك فإنّ الاستعمار فن يتشكل في مدرسة التجربة... إنّ غاية الاستعمار هي أن يضع مجتمعاً جديداً في أفضل الشروط <التي تُعِدُّه> للرفاه والتقدم.

في انكثرتة مع أواخر القرن التاسع عشر، كانت الإمبريالية تُعتبر ضرورةً أساسيةً لعافية الخصوبة البريطانية عامةً وللأمومة بشكل خاص<sup>(١٣)</sup>؛ ويمكن، كما تجلو قراءةً ممحصّة حياة بادن باول المهنية، إرجاع حركة الكشافة التي أنشأها إرجاعاً مباشراً إلى الصلة التي تأسست بين الإمبراطورية وصحة الأمة (الخوف من العادة السرية، والانحلال، وعلم تحسين النسل)<sup>(١٤)</sup>.

لا يكاد يكون ثمة من استثناءات، إذن، للطغيان الكاسح للأفكار التي تقترح، وكثيراً ما تنفّذ عقائدياً، الحكم الإمبريالي. فلنجمّع ما نستطيعه في تركيبية وجيزة من كتيبة كاملة من الدراسات الحديثة في ميادين مختلفة من الجهد البحثي، تنتمي جميعها في رأيي إلى دراسة "الثقافة والإمبريالية". ويوسعنا أن نطرح ذلك بصورة منظّمة بالشكل التالي:

١- ليس ثمة اختلاف على التمييز الأساسي الوجودي «الأونطولوجي» بين الغرب وبقية العالم. إن الحدود الجغرافية والثقافية الفاصلة بين الغرب وهوامشه غير الغربية تبلغ من حدة الإحساس بها وتصورها «في ثقافة الغرب» درجةً أننا يمكن أن نعتبر هذه الحدود مطلقاً. ويرافق سيادة «هذا» التمييز ما يسميه يوهانس فايبان نكران «التعاصر» في الزمن، وانقطاع جذري على صعيد الفضاء الإنساني<sup>(١٥)</sup>. وهكذا يكون «المشرق» وأفريقيا، والهند، وأستراليا أماكن تسيطر عليها أوروبا، مع أن أجناساً أخرى تسكنها.

٢- مع نشوء علم الأعراف الوصفي «العرقغرافيا» - كما يصفه ستوكنغ، وكما يتجلّى أيضاً في اللسانيات، والنظرية العرقية، والتصنيف التاريخي - ثمة ترميز وتقنين للفوارق، وثمة خطط نشوئية مختلفة بدءاً من الأعراف البدائية فالخاضعة، وصولاً إلى الشعوب المتفوّقة أو المتحضرة. ويحتلّ غويينو، ومين، ورينان، وهَمْبولدت «هنا» مكانةً مركزية الأهمية. وتنتمي إلى هذا المجال أيضاً الفصائل الشائعة الاستخدام من مثل: البدائي، المتوحش، المنحل، الطبيعي، غير الطبيعي.

٣- إن السيطرة الغربية الفاعلة على العالم غير الغربي، التي غدت الآن فرعاً من فروع البحث التاريخي مقبولاً شرانعيّاً (من وجهة نظر الشرعة الأدبية الغربية) هي سيطرة كونية في مداها بشكل ملانم (على سبيل المثال: كي. إم. بانيكار: أسسها والسيطرة الغربية، أو مايكل عدس: الآلة مقياساً للإنسان: العلوم، والتقنوية، وعقائديات السيطرة الغربية)<sup>(١٦)</sup>. ثمة تلاق بين المدى الجغرافي العظيم للإمبراطوريات، وخاصة الإمبراطورية البريطانية، والإنشاءات الثقافية المكوّنة. وتجعل القوة هذا التلاقي ممكناً، طبعاً؛ وترافقها المقدرة على الوجود في أماكن قصية نائية، واكتساب العلم بشعوب أخرى، وترميز المعرفة وتقنيّتها ونشرها، ووصف أمثلة وعينات من الثقافات الأخرى ونقلها وتركيبها واستعراضها (عن طريق المعارض، وبعثات الاستكشاف، والصور، واللوحات، والمسوحات، والمدارس)، وفوق كل شيء «المقدرة» على حكمها. ويُنْتج هذا كلّ بدوره ما أسمى «واجباً» بإزاء السكان الأصليين، وهو مطلب تأسيس المستعمرات في أفريقيا وأماكن أخرى لـ «منفعة» الأصليين<sup>(١٧)</sup> أو من أجل كسب «الاعتبار والمقام» للبلد الأم. «تلك هي» بلاغيات الرسالة التحضيرية «التمدنية» - La mis-sion civilisatrice.

٤- إن السيطرة ليست خاملة، بل هي تُفَعِم الثقافات الحواضرية بطرق عديدة؛ وفي

المجال الإمبريالي نفسه، لم تبدأ إلا الآن دراسة تأثيرها حتى على أدق تفاصيل الحياة اليومية. فقد قامت سلسلة من الأعمال القريبة العهد<sup>(١٩)</sup> بوصف المتخلل <الموتيف> الإمبريالي المنسوج في بنى الثقافة الشعبية، والسرد الاختلاقي، وبلاغيات التاريخ، والفلسفة، والجغرافيا. ويفضل عمل غوري فيزواناثان، يعاين نظام التعليم البريطاني في الهند، الذي تُشتق عقائديته من ماكولي وبتنك، بوصفه مُشرباً متخللاً بأفكار عن الاعراق والثقافات غير المتساوية تم بثها في قاعات الدراسة؛ وكانت جزءاً من المنهاج الدراسي ووسيلة تربية كان هدفها، تبعاً لشارلس تريفلان، وهو أحد المنافحين عنها المبرزين لها:

بمعنى أفلاطوني، أن ترقظ الرعايا المستعمرين على ذاكرة لشخصيتهم الطبيعية، التي كانت قد فسدت فساداً عظيماً... بسبب الطبيعة الإقطاعية للمجتمع الشرقي. وفي هذه السردية المكوّنة، التي أعيدت كتابتها من حوارية <سيناريو> كان قد صاغها سابقاً البشرون، أعيدت صياغة الحكومة البريطانية في صورة الجمهورية المثالية التي ينبغي على الهنود بشكل طبيعي أن يطمحوا إليها كتعبير عفوي عن الذات، <وهي> دولة فاز فيها الحكام البريطانيون بمكانة مجازية بوصفهم أوصياء أفلاطونيين يحرصونها<sup>(٧٠)</sup>.

ولأنني أناقش رؤيا عقائدية لم يتم تنفيذها وتدعيمها عن طريق السيطرة المباشرة والقوة الفيزيائية وحسب، بل تمّاً أيضاً بصورة أكثر فعالية بكثير على مدى زمني طويل باستخدام رسائل شتعة، فإنّ عملية الهيمنة اليومية - التي كثيراً ما تكون خلاقاً، ابتكارية، شيقة، وفوق كل شيء، تنفيذية - تُسلم نفسها إلى درجة مفاجئة الجودة للتحليل والإيضاح. على أكثر المستويات وضوحاً للعين، كان ثمة التحويل الفيزيائي للعالم الإمبريالي، سواء أكان ذلك من خلال ما يسميه الفرد كروسبي "الإمبريالية البيئية"<sup>(٧١)</sup>، <وهي> إعادة صياغة البيئة الفيزيائية، أم من خلال إنجازات إدارية، ومعمارية، ومؤسسية من مثل بناء مدن استعمارية (الجزائر، دلهي، سايفون)؛ وفي الداخل، <كان ثمة> بروز نخب إمبريالية جديدة، وثقافات، وثقافات فرعية (مدارس لـ "المساعدين" الإمبرياليين، ومعاهد، ودوائر، وعلوم - مثل الجغرافيا، وعلم الإنسان، الخ - تعتمد على سياسة استعمارية مستمرة)، وأساليب فنية جديدة، بما في ذلك فن تصوير الرحلات، واللوحات الغرائبية الاستشراقية، والشعر، والرواية، والموسيقى، والنحت الانصابي، والصحافة (كما يصفها موباسان وصفاً لا يُنسى في بل - أمي<sup>(٧٢)</sup>).

لقد تمت دراسة ركائز هذه الهيمنة بقدر عالٍ من البصيرة في أعمال من مثل <كتاب> فايان اللغة والسيطرة الاستعمارية: المصادرة التملكية للسواحلية في الكونغو البلجيكي السابق، ١٨٨٠-١٩٣٨، و<كتاب> رناجيت غوها حكم للممتلكات في البنغال، و<مقالة> برنارد كوهن - التي تشكل قسماً من مجموعة هويسباوم ورينجر - تمثيل السلطة في الهند الفيكنتورية (وكذلك دراساته اللاحقة للتمثيلات وعمليات المسح البريطانية للمجتمع الهندي في <كتاب> عالم إنسان <انثروبولوجي> بين المؤرخين)<sup>(٧٣)</sup>. تكشف هذه الأعمال الفرض اليومي للقوة في المحركات الحيوية للحياة اليومية، والتفاعل الرائح الغادي بين السكان الأصليين والرجل الأبيض ومؤسسات السلطة. لكن العامل الهام في هذه الفيزيائيات الصغرى للإمبريالية هو أنه في العبور من "التواصل إلى الأوامر" والإياب منه، يتطور إنشاءً موحداً - أو، بكلمات فايان، "حقل من المعابر، من الأفكار العابرة المجتازة والمتقاطعة ذهاباً وإياباً"<sup>(٧٤)</sup> - يقوم على تمييز بين الغريبي والأصلائي يبلغ من التكامل والقابلية للتكيف حدّاً يجعل التغيير شبه مستحيل.

وُحَسَّ بمدى الغضب والإحباط اللذين يولدهما ذلك مع مرور الزمن في تعليقات فانون على ثنوية «مانوية» النظام الاستعماري والحاجة إلى العنف التي تنشأ عنه.

٥- كان لوجهات النظر الإمبريالية مدى «واسع» رسلطه، لكن كانت لها أيضاً، في فترة من التوسع خارجياً ومن الخلطة الاجتماعية داخلياً، قوة إبداعية عظيمة. وأنا لا أشير هنا فقط إلى «اختراع التراث» بشكل عام، بل كذلك إلى المقدرة على إنتاج صور فكرية وجمالية مستقلة ذاتياً استقلالاً غريباً. لقد تطورت إنشاءات استشرافية، واستشرافية، واستمرائية، تحوكت الخيوط من الكتابة التاريخية، والرسم، والرواية، والثقافة الشعبية. إن أفكار فوكو عن الإنشاءات ملائمة تماماً هنا؛ وكما وصف برنال الأمر، فقد تطور فقه لغة عريق متناسق خلال القرن التاسع عشر قام بتطهير اليونان الإغريقية من جذورها السامية - الأفريقية. ومع الزمن - كما حاول رونالد إندن في «كتابه» تصور الهند<sup>(٧٥)</sup> أن يظهر - برزت تشكيلات حواضرية شبة مستقلة كاملة، تتصل بالملكيات الإمبريالية ومصالحها. وبين روايتها وسارديها: كونراد، وكبلنغ، وتي. إي. لورنس، ومالرو؛ ويشمل أسلافها والقائمون عليها: كلايف، وهيستغنز، ودويلكس، وبوغو، وبروك، وأير، وبالمروستن، وجول فري، وليوتيه، ورووس؛ وفي هذه «الأعمال» وفي السرديات الإمبريالية العظيمة (أعمدة الحكمة السبعة، قلب الظلام، لورد جيم، نوسترومو، المسار الملكي) تغدو الشخصية الإمبريالية تامة التمايز. وتسهم منظومات سيللي، وبلك، وفروود، ولوروا - بوليو، وهارمان وآخرين - وكثيرون منهم منسيون وغير مقرئين اليوم، لكنهم كانوا ذوي تأثير قوي، بل كانوا أيضاً نبويين عندئذ - في استكمال تشكيل إنشاء إمبريالية أواخر القرن التاسع عشر.

تبقى صور السلطة الإمبريالية الغريبة ماثلة - شابهة، ذات جاذبية غريبة، فارضة نفسها بقوة: غوردن في الخرطوم، مُطِلاً ببصره بعنف على الدراويش السودانيين في لوحة جي. و. جوي المشهورة، مسلحاً بمسدس وسيفٍ مغمّد فقط؛ وكيرتز «في عمل» كونراد في قلب أفريقيا، لامعاً، معتوهاً، مشؤوم المصير، شجاعاً، جشعاً، فصيحاً؛ ولورنس الجزيرة العربية، على رأس محاربيه العرب، يعيش سحر الصحراء، مبتكراً حرب العصابات الشعبية، منادياً الأمراء ورجال الدولة، مترجماً هوميروس، وساعياً إلى الحفاظ على «مجال نفوذ بريطانيا الأسمر»؛ وبسيل رودس، مؤسساً البلدان، والدول، وصناديق الاستثمار بالسهولة التي قد ينجب بها رجال آخرون الأطفال أو يبدؤون بمشروع عمل؛ وبوغو، هازماً قوات عبد القادر، محولاً الجزائر فرنسية؛ ومحظيات جيروم، وراقصاته، ونساء حريمه؛ وسردناپالوس «لدى» دولاكروا، وشمال أفريقيا «لدى» ماتيس، وشمشون ودليلة «لدى» سان - سينس. وإن القائمة لطويلة، وإن كنتوزها لمهولة.

\* - أستخدم هذه الصيغة غير المكلفة للإشارة إلى الإنشاءات التي تدور حول الشرق وأفريقيا وأميركا لكنها ليست شرقية أو أفريقية أو أميركية في ذاتها، حفاظاً على الاطراد في الترجمة وروح الأصل وتميزاته الدقيقة. ولقد كنتُ استعملتُ صيغةً أخرى للدلالة على الصيغة الإنكليزية ذاتها، لكن في سياق الهوية الجنسية العرقية مثل «الشرقانية» و«الغربية»، وذلك من التداخلات التي لا أعرف كيف اتخلص منها الآن، إن كان ثمة ضرورة للتخلص منها، وهو ينبع من التمييزات العديدة في النص الإنكليزي التي لا معادل لها في العربية ولا سبيل آخر إلى تجسيدها إلا بإطالة الشرح وصياغة عبارات تزيد النص العربي تعشكاً وتعاضلاً، وهو بين ما أسعى إلى تجنبه ما وجدت إلى ذلك سبيلاً.

#### IV – الامبراطورية في حالة الفعل: عائدة <لـ فيردى>

أود الآن أن أظهر إلى أي مدى وبأي درجة من الابتكار تؤثر هذه المادة على مجالات معينة من النشاط الثقافي، حتى تلك المجالات التي لا ترتبط في الذهن اليوم بالاستغلال الامبريالي الديني. ومن حسن حظنا أن عدداً من الدارسين الشباب قد طوّروا دراسة القوة الامبريالية إلى درجة كافية تسمح لنا بلحظ المكوّن الجمالي الذي دخل في مسح مصر والهند وإدارتهما. وأنا أعني، مثلاً، <كتاب> تيموثي ميتشل استعمار مصر<sup>(٧٦)</sup>، حيث يظهر أن ممارسة بناء القرى النموذجية، واكتشاف حميمية حياة الحريم، وتأسيس أنهاج جديدة من السلوك العسكري في مستعمرة هي ظاهراً عثمانية لكنها في الحقيقة أوروبية، لم تؤد فقط إلى إعادة تأكيد القوة الأوروبية بل أنتجت أيضاً لذة إضافية هي لذة مسح المكان وحكمه. وينجلي هذا التواضع بين القوة واللذة في الحكم الامبريالي انجلاءً رائعاً في دراسة ليلي كني وزينب شليك للرقص الشرقي <هزّ البطن>، حيث غدت الاستعراضات شبه العرقرافية التي قدمتها العروض الأوروبية مرتبطة في واقع الأمر باللهو الاستهلاكي القائم في أوروبا<sup>(٧٧)</sup>. ويُسخرُجُ امران متفرعان ذوا علاقة بالموضوع في دراسة تي. دجي. كلارك لـ مانيه ورسامين باريسيين آخرين، <وعنوانها> رسم الحياة الحديثة، وتحديدًا: انبثاق اللهو والشبقية غير العاديين في فرنسا الحواضرية، متأثراً في بعض وجوهه بأنموذج غرائبية؛ وفي قراءة مالك علولة التقويضية <التفكيكية> لبطاقات البريد الفرنسية في أوائل القرن العشرين <التي تحمل صوراً نساء جزائريات، وعنوانها> الحريم الاستعماري<sup>(٧٨)</sup>. ومن الواضح أن المشرق من حيث هو مكانٌ وعدوٌّ وقوة على قدر كبير من الأهمية هنا.

بيد أنني أود أن اقترح تعليلاً لاحتمال كون محاولاتي لتقديم قراءة طباقية شذّانة أو غريبة. أولاً، رغم أنني أتقدم بشكل عام في مسار من التعاقب الزمني، من بداية القرن التاسع عشر إلى نهايته، فإنني لا أَسعى في الواقع إلى توفير متواليّة تعاقبية من الأحداث والاتجاهات والأعمال. <بل> إن كل عمل فرديّ يعاين في إطار معطيات من ماضيه الخاص ومن تأويلات تالية لهذا العمل. ثانياً، إن المنظومة النهائية الشاملة هي أن هذه الأعمال الثقافية التي تثير اهتمامي تُنير، وتتدخل في، فُصّلات تبدو ظاهرياً ثابتة مطردة وغير قابلة للتخلل، قائمة على الجنس <الادبي> أو المرحلة أو الجنسية القومية أو الأسلوب، وتفترض قبلياً أن الغرب وثقافته هما إلى حد بعيد مستقلان عن الثقافات الأخرى، وعن السعي الديوي إلى القوة والسلطة والامتيازات والسيطرة. وبدلاً من ذلك، أود أن أظهر أن بنية وجهات النظر والإحالات طاغية وبالغة التأثير بعشرات الطرق، والأشكال، والأماكن، حتى قبل العصر الذي يُحدّد رسمياً بأنه عصر الامبراطورية بكثير؛ وهي أبعد ما تكون عن كونها مستقلة ذاتيةً ومتسامية متجاوزة، بل إنها لشديدة القرب من العالم التاريخي؛ كما أنها أبعد ما تكون عن كونها مثبتة ونقية، بل إنها مهجئة، تمتاح من التفوقية العرقية بقدر ما تمتاح من الألمعية الفنية، ومن السلطة السياسية بقدر ما تمتاح من السلطة التقنية، ومن التقنيات التقليدية حتى التبسيط بقدر ما تمتاح من التقنيات المعقدة.

تأملُ عائدة، مغناةُ فيردي "المصرية" الشهيرة. إنها، كمعجبةٍ بصريةٍ، وموسيقيةٍ، ومسرحيةٍ، لتؤدِّي الكثير من الأشياء العظيمة من أجل الثقافة الأوروبية وفيها؛ وأحد هذه الأشياء هو تأكيدُ المشرق وتثبيتهُ مكاناً غرائبياً، وقصياً، وأثرياً، في الجوهر، بوسع الأوروبيين أن يقيموا فيه استعراضاتٍ معينةً للقوة. لقد احتوتِ المعارضُ "الكونية" الأوروبية بصورةٍ مكرورة، في وقتٍ مزامنٍ لتأليفِ عائدة، انموذجاتٍ لقرى، وبلدان، وبلطاتٍ استعمارية، وما إلى ذلك؛ وقد أكد ذلك مطواعيةُ الثقافاتِ الثانوية أو الأدنى مرتبةً وقابليتهاً للنقل. وقد استعرضت هذه الثقافاتُ التابعة أمام الغربيين كعواملٍ صفريٍ <مجسدةٍ> للعالم الامبريالي الأرحب. ولم يُسمَحَ لغير الأوروبي بشيءٍ من الحضور - إن كان قد سُمحَ له بأيّ حضورٍ على الإطلاق - إلا ضمن هذا الإطار<sup>(٧٨)</sup>.

إن عائدة مرادفةٌ لـ "المغناة الفخمة الجليية" من النمط المتفرَّد السموّ في القرن التاسع عشر. وقد تم لها البقاء، مع مجموعةٍ صغيرةٍ جداً من الأعمال، لقرنٍ من الزمان، ونيفٍ كعملٍ له شعبيةٌ هائلةٌ ويحظى في الوقت ذاته باحترام الموسيقيين، والنقاد، والمختصين بالموسيقى. ومع ذلك، فإن جلالَ عائدة وسموَّ مكانتها أمران معقدان، رغم كونهما جليين لأيّ شخصٍ رآها أو سمعها، توجد حولهما شتى أنواع النظريات التكهنية التي تدور في الأغلب حول ما يربط عائدة بلحظتها التاريخية والثقافية في الغرب. يطرح هيربرت ليندبيرغر في <كتابهُ> "المغناة: الفن المغالي، نظريةٌ بارعةٌ تخليلاً تقول إن عائدة، وبوريس غودونوف، وغوتتردامونج هي مغاني عام ١٨٧٠، متصلة على التوالي بعلم الآثار، و<علمُ> التاريخ القومي، وفقه اللغة<sup>(٧٩)</sup>. ويعامل فيلاند فاغنر، الذي أنتج عائدة في برلين عام ١٩٦٢، بوصفها، بكلماته هو، "إسرارية myth افريقية". ويرى فيها تشخصاً استباقياً لمغناة جدّه تريستان، بما يكمن في لبابها من نزاعٍ غير قابلٍ للتقليص بين قيم الروح <الجمعية> (Ethos) و الحياة العضوية الطبيعية (Bios) ("إن عائدة فيردي هي مسرحية من النزاعات غير القابلة للتقليص بين الـ "ethos" و الـ "bios"، بين المشروعية الأخلاقية ومطالب الحياة"<sup>(٨١)</sup>). إن امريس، في خطته، هي الشخصية المركزية، التي يسيطر عليها "قضيبي" <ذكر> عملاق يتدلى فوقها مثل عصا جبارة؛ وتبعاً <لكتاب> "المغناة، فإن عائدة لا تُرى في الأغلب إلا ساجدةً أو منكشمةً على نفسها مرتعدةً في الخلفية"<sup>(٨٢)</sup>.

حتى إذا اغفلنا الابتذال الذي كثيراً ما اسلم نفسه إليه المشهد الانتصاري المشهور في الفصل الثاني، فإننا سنلاحظ أن عائدة تشكل أوجَ تطورٍ في الأسلوب والرؤيا أخذَ بفيردي من نابوكو وإي لومباردي في الـ ١٨٤٠ات، مُروراً بـ ريغوليتو، وتروفاتوري، وترافياتا، وسيمون بوكانيغرا وأون بالو إن ماشيرا في الـ ١٨٥٠ات، إلى فورزا دل ديستينو ودون كارلوس الإشكالييتين في الـ ١٨٦٠ات. كان فيردي قد أصبح علي مدى ثلاثة عقود المؤلفَ الإيطالي الأبرز في عصره، وكانت مهنته تراقف وتبدو وكأنها تعلق على الريزورجيمنتو <حركة الوحدة السياسية الإيطالية في القرن التاسع عشر>. وكانت عائدة آخر مغناةٍ عموميةٍ وسياسيةٍ كتبها قبل أن يلتفت إلى

\* - يورد المؤلف هذه الجملة بالالمانية دون ترجمة تامة. وقد فعلتُ ما بوسمي - وهو محدود في هذه الحالة - لترجمتها. واحتمال الخطأ فيها وارد تماماً.

المغناطين المحليتين، في الجوهري، وإن كانتا متوترتين حادثين، اللتين اختتمت بهما حياتها التأليفية: **أوتللو وفالستاف**. ويلاحظ جميع الدارسين الرئيسيين لفيردي - جوليان بودن، وفرانك ووكر، ووليم ويفر، وأندرو پورتر، وجوزف فيشسبرغ - أن **عائدة** لا تكفي بإعادة استخدام أشكال موسيقية تقليدية مثل الكاباليتا والكورسراتو، بل تضيف إليها تلوينية جديدة، ورهافة في تألف الأداء الجمعي **«أوركستريشن»**، وتنسيقاً احتدامياً، لا توجد في أعمال أي مؤلف آخر في ذلك العصر سوى فاغنر. وإن تردد جوزف كيرمان في **«كتابه»** المغناة كمسرحية احتدامية لشيء بسبب القدر من التفرد الذي يعترف به لـ **عائدة**:

في رأيي أن النتيجة في **عائدة** هي تباين شبه دائم بين بساطة كلمات النص **«الليبريتو»** الزلقة زلقة خاصة والتعميد المروع للتعبير الموسيقي - ذلك أن تقنية فيردي طبعاً لم تكن أبداً على هذا القدر من الثراء من قبل. وحدها امنريس تنبض بالحياة؛ أما **عائدة** فإنها مشوشة تختلط عليها الأمور تماماً؛ ورائيس يبدو مثل استعادة إن لم تكن لميتاستاسيو، فلروسيني على الأقل. من ناقل القول إن بعض الصفحات، والأصوات\*\*، والمشاهد تسمو فوق المديح، الأمر الذي يمثل سبباً كافياً للشعبية العظيمة لهذه المغناة. ومع ذلك، فإن زيفاً مثيراً للفضول يكتنف **عائدة**، زيفاً لا يتفق تماماً مع **«خصائص»** فيردي، ويذكر بميربير بشكل أكثر إزعاجاً مما يذكر بجهاز الانتصارات، والتكريرات، ويفرق النحاسيات **«المرتبطة»** بالمغناة الجليبة **(٨٢)**.

لا مجال لنكران أن هذا الكلام مقنع في حدود ما يقره؛ فكيرمان مصيب فيما يتعلق بزيف **عائدة**، لكنه لا يستطيع أن يعلل ما يُنتج هذا الزيف بالضبط. ينبغي أن نتذكر قبل كل شيء، أن عمل فيردي السابق لفت الانتباه لأنه شبك وجذب جمهوره الذي كان في الأغلب إيطالياً بطريقة مباشرة. وقد صوّرت احتدامياته الموسيقية، بطريقة راسخة، أبطالاً وبطلات متفجّرين بالحياة وهم في أبهة الصراع (الذي كان غالباً استحرامياً) على القوة، والشهرة، والشرف، لكنها **«الاحتداميات»** كانت جميعها تقريباً - كما جادل بول روبنسن بشكل مقنع في **المغناة والأفكار** - قد قُصِد بها أن تكون مغاني سياسية، تطفح بالحدة وعلو النبرة البلاغيين، والموسيقى العسكرية، والعواطف الجياشة الطليقة. قد يكون المكوّن الأكثر وضوحاً في أسلوب فيردي البلاغي - بتعبير يخلو من الكياسة - الارتفاع الخالص في الصوت. إنه وبيتهوفن بين أكثر المؤلفين الكبار ضجيجاً وجلبة... إن فيردي، مثله مثل خطيب سياسي، عاجز عن البقاء ساكناً لزمن طويل. أسقط الإبرة عشوائياً على **«أسطوانة»** تسجيل لمغناة لفيردي، وسيكون جزاؤك في العادة قرقعة وفرقعة عاليتين **(٨٤)**. ويمضي روبنسن إلى القول إن ضجيج فيردي الفخم سُحِر بشكل فعال لمناسبات مثل مسيرات الاستعراض، والسباقات، والخطب **(٨٥)**، التي كان يُسَمَّع إليها أثناء الوحدة **«الإيطالية»** كتضخيمات وتكبيرات ينجزها فيردي لأحداث حقيقية حية. **«وعائدة** ليست استثناء، كما تشهد، مثلاً، قطعة المجمع **«الأنسامبل»** الهائلة سو دل نيلو، لعدد من العازفين المنفردين وجوقة محشودة في أوائل الفصل الثاني). وإنه لمن

\* - والتلوينية "chromaticism" هي ميل المؤلف الموسيقي أو القطعة الموسيقية إلى استعمال الفواصل والاستراحات خارج المقام السائد، الأمر الذي ينتج وفرة من الاستعمالات القائمة على انتقالات متصلة بين المقامات، لا على البدء من جديد كل مرة، وترابطات داخلية في التنظيم البنيوي.

\*\* - استخدم "الصوت" هنا بدلالته العربية الأصلية عند أبي الفرج الأصفهاني في الأغاني، ممثلاً للكلمات الملحنة المغناة، لترجمة "numbers". والله اعلم. (تعقيب الناشر: و numbers في الاصطلاح المهجور - بحسب قاموس ويستر - هي النغمات الموسيقية أو "النوتات")



المعروف بشكل شائع الآن أنّ الحان فيردي في مغانيه المبكرة (نابوكو، واي لومباردي، وأتيللا خاصة) حركت مستمعيه ودفعتهم إلى حمياً من المشاركة، وكان تأثيرها بالغ الفورية، وكذلك كان وضوح إحالاتها المعاصرة، والمهارة الخالصة في مقدرته على إلهاب مشاعر المتفرجين قاطبةً ودفعهم إلى ذرواتٍ مسرحية ملحة سامقة.

وفيما كانت إيطاليا والايطاليون (وبقوة خاصة في نابوكو، مع ما في ذلك من مفارقة ضدية) الجمهورَ المخاطبَ في مغاني فيردي السابقة، رغم أن الموضوعات كثيراً ما كانت غرائبية أو مغرقة في الغلو، فقد كانت مصر هي المخاطبة، وكان المصريون القدماء هم المخاطبين في عائدة. وكانت تلك ظاهرة أشد نأياً، وأقلُّ شبكاً، من أيّ ظاهرة سبق لفيردي أن عالجها موسيقياً. ولا يعني ذلك أن عائدة تفتقر إلى جلبته السياسية المعتادة؛ فمن المؤكد أن المشهد الثاني من الفصل الثاني (الذي يسمّى المشهد الانتصاري) هو أضخم ما كتبه فيردي للمسرح، وهو عملياً مهرجانٌ اختلاطٌ لكل ما بوسع دار للمغناة أن تجمعها وتعرضه. غير أن عائدة <مغناة> محدّدة ومقيّدة لنفسها، ومكبوحة كبحاً ليس مالوفاً <من فيردي>، وليس ثمة من سجلّ لاية مشاركة حماسية أثناء تقديمها، مع أنها قُدّمت في دار نيويورك المتروبولية للأوبرا، مثلاً، أكثر من أيّ عملٍ آخر. وعلى أية حال فإن أعمال فيردي الأخرى التي عالجت ثقافات قومية أو أجنبية لم تمنع جمهوره من التعاطف التلبسي معها؛ وعائدة، مثل المغاني السابقة، تدور حول صوت صادق <أعلى رجالي> وصوت نديّ <أعلى نسائي> يودان ممارسة الوصال الجنسي فيمنعهما من ذلك صوتُ جهيرٍ أول <معتدل عالٍ رجالي> وصوتٌ معتدل عالٍ نسائي\*. ترى ما هي الأمور المختلفة في عائدة، ولماذا أدى مزيج فيردي المعتاد إلى إنتاج توليف غير عادي إلى هذا الحد من الكفاءة العالية والحياد الشعوري؟

إن الظروف التي تم فيها أولُ إنتاجٍ لعائدة وفيها كُتبت لها ظروف فريدة في مهنة فيردي الفنية. فلقد شمل الإطارُ المشهدي السياسي، والثقافي دون ريب، الذي عمل ضمنه فيردي بين أوائل ١٨٧٠ وأواخر ١٨٧١ لا إيطاليا وحدها بل أوروبا الامبريالية ومصر <التي يحكمها> نائب الملك أيضاً، والتي كانت من وجهة نظر تقنية واقعةً ضمن الامبراطورية العثمانية لكنها كانت تؤسس بالتدريج <لتكون> جزءاً منضوياً وتابعاً لأوروبا. وتتطلب خصائصُ عائدة الشاذة - موضوعها، وإطارها المشهدي، وفخامتها النُصبيّة، ومؤثراتها البصرية والموسيقية الخالية حتى الغرابة من التأثير الشعوري، وموسيقاها المنمّاة بشكل فائض، ووضعها الداخلي <المتعلق بإيطاليا> المقيّد المكبوح، وموقعها الشذوذ في مهنة فيردي الفنية - ما أسميته تأويلاً طباقياً، غير قابل للتمثل <أو للهضم> لا في وجهة النظر السؤانية السائدة إلى المغناة الإيطالية ولا، بشكل عام، في وجهات النظر السائدة إلى روائع الحضارة الأوروبية في القرن التاسع عشر. إنّ عائدة، كشكل المغناة ذاته، عمل هجين، مشوب عكر جذرياً، ينتمي سواءً بسواء إلى تاريخ الثقافة وإلى التجربة التاريخية للسيطرة الماورابحارية. إنها عمل مركّب، مبني حول تفاوتات وتباينات وتعارضات لما تزل متجاهلةً أو غير مكنته، لكنها قابلة للاستعادة والمسح

\* - الأصوات السابقة هي المعايير العربي ل: tenor، و soprano، و baritone، و mezzo على التوالي.

الخرائطي مسحاً وصفيّاً؛ وهي <هذه التفاوتات والتعارضات...> شيقة في ذاتها ومن أجل ذاتها، وقادرة على تقديم تفسير لاختلال المستويات في عائدة، ولشذوذياتها، ولكوابحها وسموتاتها، أفضل مما تقدمه التحليلات التي تركّز بصورة حصرية على إيطاليا والثقافة الأوروبية.

سوف أضع أمام القارئ مادة لا يمكن تجاهلها لكنها، بمفارقة ضدية، تُجوهلت بانتظام واطراد حتى الآن. والسبب الغالب في ذلك هو أنّ المخرج في عائدة في نهاية المطاف ليس كونها تدور حول السيطرة الامبريالية بل كونها <بعضاً> من هذه السيطرة. وستنبثق تشابهات مع عمل جين أوستن - الذي <يبدو> بقدر مساو بعيداً عن احتمال أن يكون فناً منشكباً متلبساً بالامبراطورية. وإذا ما أوّل المرء عائدة من هذا المنظور، بوعي لكونها كُتبت من أجل بلدٍ أفريقي لم يكن لفيردي من صلة به، وأنتجت للمرة الأولى فيه، فإنّ عدداً من الملامح الجديدة ستبرز بجلاء.

يقول فيردي نفسه شيئاً بهذا المغزى في رسالة تدشّن علاقته، التي كانت عندئذٍ مازال كامنة بشكل شبه كليّ، بمغناة مصرية. فهو يكتب في رسالة إلى كميل دو لوكل، وهو صديق له حميم كان قد عاد لتوه من رحلة إلى الشرق، في ١٩ شباط <فبراير> ١٨٦٨: <حين نلتقي، يجب أن تصف لي جميع أحداث رحلتك، العجائب التي رأيتها، وجمال وبشاعة بلدٍ كانت له ذات يومٍ عظمة وحضارة لم أجد نفسي أبداً قادراً على الإعجاب بهما><sup>(٨٦)</sup>.

كان تدشين دار المغناة في القاهرة، يوم ١ تشرين الثاني <نوفمبر> ١٨٦٩ حدثاً لامعاً إبان الاحتفالات بافتتاح قناة السويس؛ وكانت ريغوليتو هي المغناة التي قُدمت يومها. وقبل ذلك ببضعة أسابيع، كان فيردي قد رفض تلبية عرض الخديوي اسماعيل بأن يكتب ترنيمة من أجل تلك المناسبة، وفي كانون الأول <ديسمبر> كتب إلى دو لوكل رسالة طويلة في اخطار المغاني المؤلفة <ترقيعياً> قائلاً: <إنني أريد التّن في أيّ من تجلياته، لا الترتيب وراعة الحيلة، والنظائر التي تفضلها أنت>، محتجاً بأنه شخصياً يريد أعمالاً <موحدة> تكون <الفكرة فيها واحدة وكلّ شيء ينصبّ مترافداً لتشكيل هذا الواحد><sup>(٨٧)</sup>. ورغم أن هذه التأكيدات وردت استجابةً لاقتراحات من دو لوكل بأن يكتب فيردي مغناةً من أجل باريس، فقد ظهرت في مسار عمله على عائدة من المرات ما يكفي لجعلها تغدو موضوعاً هاماً. وقد كتب يوم ٥ كانون الثاني <يناير> ١٨٧١ إلى نيكولا دي غيوسا: <إنّ المغاني تُكتب هذه الأيام بمقاصد مسرحية وموسيقية هي من التعدد والاختلاف بحيث يكاد يستحيل تأويلها؛ ويبدو لي أنه لا يمكن لأحد أن يشعر بالإساءة إذا ما قام المؤلف، حين يُقدّم إنتاج له للمرة الأولى، بإرسال شخص درس العمل بعناية تحت إشراف المؤلف نفسه><sup>(٨٨)</sup>. كما كتب لريكوردي يوم ١١ نيسان <أبريل> ١٨٧١ أنه لا يسمح إلا <بخالق واحد> لعمله، وذلك الخالق هو <فيردي> نفسه: <إنني لا أسلم بالحق في الخلق للمغنين وقادة الفرق الموسيقية، لأنّ ذلك، كما قلت من قبل، مبدأ يؤدي إلى الهاوية><sup>(٨٩)</sup>.

إذن، لماذا قبل فيردي أخيراً عرض الخديوي اسماعيل بأن يكتب مغناة خاصة للقاهرة؟ لقد كان المال بالتأكيد سبباً؛ فقد مُنح ١٥٠.٠٠٠ فرنك ذهباً. كما أنه شعر بزهو الإطراء، إذ إنّه كان بعد كل حساب الخيار الأول، مفضلاً على فاغنز وغونو. ثم إنني اعتقد

ان القصة التي قدمها له دو لوكل كانت <سبباً> على قدر مساو من الأهمية؛ فقد كان دو لوكل تسلّم تخطيطاً أولياً لمعالجة مغناتية ممكنة من أوغست مارييت، وهو مستمصر\* فرنسي مشهور. وكان فيردي قد أشار في رسالة إلى دو لوكل يوم ٢٦ أيار <مايو> ١٨٧٠ إلى أنه قد قرأ <التخطيط المصري الأولي>، وأنه كان جيداً، وأنه <يقدم مسرحاً فخمة<sup>(٩٠)</sup>. كما كان قد دوّن ملاحظة بأن العمل يكشف يداً بالغة الخبرة فيه، تعودت على الكتابة، وتعرف المسرح معرفة جيدة. ومع أوائل حزيران <يونيو> بدأ العمل على عائدة، معبراً لريكوردي فوراً عن نفاذ صبره بسبب بطء تقدم الأمور، حتى وهو يطلب أن تؤمن له خدمات شخص اسمه انطونيو غيزلانزوني ليؤلف كلمات المغناة. هذه الأشياء يجب أن تنفذ بسرعة بالغة، يقول في تلك اللحظة.

في الحواريات التي وضعها مارييت - <وتتميز> ببساطتها، وحدة توترها، وفوق كل شيء بأصالتها <المصرية> - تصور فيردي نية وحدانية، أثرأ أو طابعاً لإرادة خبيرة وبالغة الإتقان تاق إلى أن يكون نداءً لها موسيقياً. وفي وقت كانت فيه مهنته الفنية قد وُسّمت بالإحباطات، والنوايا غير المتحققة، والتعاون غير المرضي مع مدراء فرق ويانعي تذاكر، ومغنين - وكان العرض الأول لـ دون كارلوس في باريس مثلاً قريب العهد، ما يزال مبرحاً - رأى فيردي فرصة سانحة لخلق عمل بوسعه هو أن يُشرف على كل صغيرة وكبيرة فيه: من التخطيط الأولي إلى ليلة الافتتاح. وإضافةً، فقد كان سيتلقى الدعم في هذا المشروع من أهل الملك؛ وبالفعل فقد أوحى دو لوكل أن نائب الملك لم يكن يريد القطعة بلهفة عظيمة لنفسه فحسب، بل كان قد ساعد مارييت في كتابتها أيضاً. وكان بوسع فيردي أن يفترض أن عاهلاً شرقياً ثرياً قد تضافر مع عالم آثار غربي لامع الذكاء لا يحيد عن هدفه قيد أنملة، ليمنحاه مناسبة يستطيع فيها أن يكون حضوراً فنياً مهيباً ومركزاً لا تشبّت فيه. وبدا أن مصدر القصة وإطارها المشهدي المصريّين اللذين يؤدّان الشعور بالاعتراب قد نشطاً، بمفارقة ضدية، حسّه بالتفوق التقني.

ويقدر ما أتبع لي أن أتحقق من الأمر، لم يكن لدى فيردي أيّ مشاعر على الإطلاق نحو مصر الحديثة، على عكس مفاهيمه النامية نمواً جيداً عن إيطاليا، وفرنسا، وألمانيا، رغم أنه خلال العامين اللذين أمضاهما في العمل على المغناة، ظل يتلقى التأكيدات بأنه يفعل شيئاً <هاماً> من أجل مصر على صعيد قومي، إذا جاز التعبير. وقد قال له ذلك درانيث بك (الذي كان اسمه الأصلي بافلوس بافليدس)، مدير مغناة القاهرة، وكان مارييت، الذي حضر إلى باريس لتجهيز الأزياء والمشاهد في صيف ١٨٧٠ (واحتجزته هناك لاحقاً الحرب الفرنسية البروسية)، يذكره بتواتر بأن كل ما يقتضيه الأمر من مال يُبذل بسخاء من أجل تقديم عرض رائع يثير الإعجاب بحق. وكان فيردي مصمماً كلّ التصميم على أن تكون الكلمات والموسيقى في أوج الكمال، وكان يتحقق دائماً من أن غيزلانزوني يجد <الكلمة المسرحية المثلى<sup>(٩١)</sup>، وكان يشرف على تفاصيل العرض باهتمام لا يعتره الوهن. وخلال المفاوضات الهائلة التعقيد لاختيار <من يؤدي دور> امنريس الأولى، أدت إسهامات فيردي في الوضع المتشابك المشوش إلى تلقيه بـ <أبرز راهب

\* - استخدم الصيغة <المستمصر> قياساً على <المستشرق> و<المستغرب>، واستخدم بعد قليل <الاستمصار>، للإشارة إلى حقل الدراسات المصرية.

يسوعي<sup>٩٢</sup> في العالم<sup>(٩٢)</sup>. وقد أتاح له حضورُ مصر الخانع أو - على الأقل - اللامبالي في حياته أن يتعقب مقاصده الفنية بما بدا أنه حدة وتوتر لإيهابان ولا يقبلان التنازلات.

لكنني أعتقد أن فيردي خلط خلطاً قاتلاً بين هذه المقدره المعقّدة، التي هي في نهاية المطاف مقدره تعاونية، على إعادة حكاية خرافية مغناتية نائية إلى الحياة، وبين المثال الأعلى الرومانتيكي للعمل الفني المتكامل عضوياً، والذي لا خلل فيه، ولا يفعمه شيء سوى مقصد جمالي لخالق فرد. وهكذا تعالق بشكل مريح مفهوم امبريالي للفنان مع مفهوم امبريالي لعالم غير أوروبي لم يكن له أية مطالب من المؤلف الأوروبي أو كانت مطالبه على ادنى حد ممكن. ولا بد أن يكون التقاطع قد بدا لفيردي جديراً بالرعاية إلى حد بارز. فلقد كان في وسعه الآن، بعد أن أمضى سنوات خاضعاً لأهواء العاملين الرقحة في دار المغناة، أن يتحكم بمجاله تحكماً ليس ثمة من يتحده؛ وقد قال له ريكوردي، فيما كان <فيردي> يُعدّ المغناة للعرض في القاهرة ويعدّها بشهور قليلة لعرضها الأول في إيطاليا في <دار> لاسكالا (شباط <فبراير> ١٨٧٢): "سوف تكون مولتك السكالا" (أيلول <سبتمبر> ١٨٧١)<sup>(٩٣)</sup>. ولقد كانت جاذبية هذا الدور المسيطر عسكرياً من القوة بحيث أنّ فيردي ربط مرة، في رسالة إلى ريكوردي، بشكل صريح بين أهدافه الجمالية وأهداف فاغنر، وبصورة أبعد دلالة، بين أهدافه و<دار مغناة> بايرويت (وكانت حتى تلك اللحظة ما تزال مقترحة نظرياً)، التي كان فاغنر ينوي السيطرة على عروضها سيطرة كلية عملياً.

إن ترتيب مقاعد فرقة العازفين <الأوركسترا> ذو أهمية أكبر بكثير مما يُظن عامةً - بالنسبة لـ توليف الآلات، والصفاء الصوتي، والتأثير. وسوف تفتح هذه التحسينات الصغيرة الباب فيما بعد لابتكارات أخرى لا شك أنها ستحدث ذات يوم؛ ومنها إزالة مقصورات المشاهدين من على المسرح، وإنزال الستارة إلى الأسواء السفلية؛ ومنها أيضاً جعل الأوركسترا غير مرئية. وليست هذه الفكرة لي بل لفاغنر، وهي فكرة ممتازة. يبدو أمراً مستحيلاً أننا نتحمل اليوم مرأى الأذيال الرثة وربطات العنق البيضاء، مثلاً، مختلطة بأزياء مصرية وأشورية ودرويدية، الخ الخ، بل أكثر من ذلك، مرأى اعالي القيثارات، وأعناق الكمنجات الكبرى، وعصا القائد كلها منتصبه في الهواء في وسط القاعة تقريباً<sup>(٩٤)</sup>.

يتحدث فيردي هنا عن عرض مسرحي في سنأى عن التدخلات المعتادة لدور المغناة، مُصنّى ومعرّول بطريقة تجعله قادراً على ترك أثر عميق على الجمهور في مزيج مبتكر من السلطة والمشابهة. والتوازيات جلية بين <هذا> وبين ما يسميه ستيفن بان في إعداد صلابس كليو "التأليف التاريخي للمكان" لدى كَتّاب تاريخيين مثل والتر سكوت وبارون<sup>(٩٥)</sup>. والفرق أن فيردي كان بوسعه أن يسمح لنفسه، ولقد فعل ذلك للمرة الأولى في تاريخ المغناة الأوروبية، بالإفادة من الرؤية التاريخية والسلطة الجامعية للاستمصار. ولقد تجسّد هذا العلم بالنسبة لفيردي على مقربة منه في شخص أوغست مارييت، الذي كانت جنسيته وتدريبه <العلمي> الفرنسيان جزءاً من نَسَب امبريالي حاسم الأهمية. وربما لم يكن متاحاً لفيردي أن يعرف الكثير من التفاصيل عن مارييت، غير أنه تأثر تأثراً شديداً بحوارية مارييت الأولى وميَز فيه خبيراً مؤهلاً تستطيع كفاعته أن تمثل مصر القديمة بمصدقية شرعية.

والنقطة البسيطة التي يجب أن تُطرح هنا هي أنّ الاستمصار هو الاستمصار، لا

\* - مولتك: اسمُ جنرالِ المانيّ مشهور في زمنه.

مصر نفسها. ولقد جعل وجودَ مارييت أمراً ممكناً سلفان مهمان له، كلاهما فرنسي، وكلاهما امبريالي، وكلاهما استبنائي، وكلاهما - إذا كان لي أن استخدم كلمة استعيرها من نورثرُپ فراي - استعراضيّ <أو تقديمي>: الأول هو مجلدات نابليون الأثرية وصف مصر؛ والثاني هو فك شامپوليون للرموز الهيروغليفية الذي قدّمه عام ١٨٢٢ في رسالة إلى السيد داسييه وعام ١٨٢٤ في المُجمل في النظام الهيروغليفي. وأنا أعني بـ "استعراضي <تقديمي>" و "استبنائي" عدداً من الخصائص التي بدت مفصلةً تفصيلاً جاهزاً <على قياس> فيردى: لقد كان الباعث على حملة نابليون العسكرية على مصر الرغبة في احتلال مصر، وتهديد البريطانيين، وإظهار القوة الفرنسية؛ لكنّ نابليون وخبرائه الباحثين ذهبوا إلى مصر أيضاً لكي يضعوا مصر أمام الأوروبيين، وبمعنى ما لكي يُمَسِّرحوا قدامتها، وثراء ترابطاتها، وأهميتها الثقافية، والهالة الفريدة التي تحيط بها، من أجل جمهور أوروبي. بيد أن ذلك لم يكن ممكناً أن ينفذ دون نية جمالية إلى جانب النية السياسية. لقد كان ما وجده نابليون وفرقاؤه مصرّاً حَجَبَ أبعادها العتيقة حضورُ المسلمين، والعرب، بل حتى العثمانيين، منتصبين جميعاً في كل مكان بين الجيش الفرنسي الغازي ومصر القديمة. فكيف كان للمرء أن ينفذ إلى ذلك الجزء الآخر، والأعرق، والأكثر اعتباراً ومقاماً؟

هنا بدأ الجانبُ الفرنسي تخصيصاً من الاستمصار، الذي استمر في عمل شامپوليون ومارييت. كان على مصر أن تُستبنى ويعد تركيبتها في أنموذجات أو رسوم كانت مقاييسها، وجلالها المساقطي (وأنا أقول "مساقطي" لأنك وأنت تقلب صفحات الـ وصف <أي وصف مصر> تعرف تماماً أن ما تنظر إليه هو رسومٌ، ومخططاتٌ، ولوحاتٌ لمواقع فرعونية غبراء، متهدمة، مهملة، تظهر مثاليةً وفاخرةً كأنما ليس ثمة مصريون محدثون بل مشاهدون أوروبيون فقط)، ونأيها الغرائبي، دونما سابق بحق. ولذلك فإنّ النسخيات التي يعيد الـ وصف إنتاجها ليست أوصافاً بل أفعالَ نسبةً. أولاً، أعيد إنتاج المعابد والقصور في توجيهٍ ومنظور قاما بمسرحة الواقع الفعلي لمصر القديمة كما انعكست عبر العين الامبريالية: ثم - لأنها جميعاً كانت خاليةً أو ميتة لا حياة فيها - بكلمات امبير، وجب أن تُحمَل على النطق، ومن هنا فعاليةُ فك شامپوليون للرموز؛ وأخيراً، كان بالوسع انتزاعها من سياقها ونقلها إلى أوروبا لاستعمالها هناك. ولقد كان هذا، كما سنرى، هو إسهام مارييت.

وقد استمرت هذه العملية المتواصلة، بصورة تقريبية، من ١٧٩٨ إلى الـ ١٨٦٠ات، وهي عملية فرنسية <محض>. فعلى خلاف انكلترا التي كانت لديها الهند، وعلى خلاف ألمانيا التي كان لها - بشكل غير مباشر - التعلّم المنظم الذي رافق فارس والهند، كان لدى فرنسا ذلك الحقلُ التخيلي والناشط المبادر الذي كان فيه الباحثون، بكلمات ريمون شتاب فسي النهضة الشرقية، من روجيه إلى مارييت على آخر الخط [الذي بدأ بعمل شامپوليون]... رواداً مستكشفين ذوي مهن منعزلة تعلموا كل شيء بأنفسهم<sup>(٩٦)</sup>. وكان العارفون النابليونيون رواداً مستكشفين تعلموا كل شيء بأنفسهم، إذ لم يكن ثمة جسد من المعرفة المنظمة، الحديثة والعلمية بحق، عن مصر يستطيعون الامتياح منه. ورغم أن

• - ثمة تلاعب بالجناس بين كلمتي "discriptions" و "ascriptions" هنا، مما يستحيل إظهاره بالعربية.

امتياز مصر عبر القرن الثامن عشر، كما وصفه مارتن برنال، كان مرموقاً، فقد كان مرتبطاً في الذهن بتيارات غرائبية وإسرارية مثل الماسونية<sup>(٩٧)</sup>. وكان شامپوليون ومارييت شذائين علماً نفسيهما بنفسيهما، لكن كانت تحركهما طاقات حيوية علمية وعقلانية. وما يعنيه هذا في إطار المعطيات العقائدية لتقديم مصر في علم الآثار الفرنسي هو أن مصر كان يمكن وصفها بأنها "التأثير الشرقي الأول والجوهري على الغرب"، وهو زعمٌ اعتبره شغاب - وهو على حق تماماً - زائفاً، لأنه يتجاهل العمل الاستشراقي الذي قام به باحثون أوروبيون على أجزاء أخرى من العالم القديم. وعلى أية حال، يقول شغاب:

في مقالة نشرها في مجلة العالمين «ريغو دي دو موند»، في حزيران «يونيو» ١٨٦٨ [بالضبط حين كان درانيث، والخديوي اسماعيل، ومارييت قد بدأوا بتصور ما قبض له أن يصبح عائدة] حياً لودفيك فيتيه «الاكتشافات التي لا مثيل لها» للمستشرقين على مدى الخمسين عاماً السابقة. بل تحدث عن «الثورة الآثارية التي يشكل مسرحها الشرق»، بيد أنه أكد بهدوء أن «الحركة بدأت بشامپوليون وكل شيء بدأ بفضل. إنه نقطة انطلاق جميع هذه الاكتشافات». وبعد أن تبع مسار تقدم فيتيه ذلك الخط الذي كان قد ترسّخ من قبل في عقول الجمهور، انتقل إلى صروح الآثار الآشورية ثم إلى بضع كلمات عن القديا. ولم يثلث فيتيه أو يتوقف طويلاً. من الجلي أنه بعد حملة نابليون على مصر، كانت صروح الآثار هناك والبعثات البحثية إلى المواقع «الآثرية» المصرية قد نُظمت وخاطبت كل إنسان. أما الهند فإنها لم تتبث أبداً إلا على الورق<sup>(٩٨)</sup>.

إن حياة أوغست مارييت المهنية ذات أهمية بالنسبة لـ عائدة بعدد من الطرق الشيقة. ورغم أن قدراً من الخلاف قد دار حول مدى إسهامه في كلمات عائدة، فإن جان أومبير أثبت بصورة قاطعة أن تدخله كان مرال تدخل التدشيني الهام في المغناة<sup>(٩٩)</sup>. (وكان وراء الكلمات مباشرة دوره كمصمم رئيسي للآثرات في الجناح المصري في معرض باريس الدولي عام ١٨٦٧، وهو أحد أعظم استعراضات القوة والطاقة الامبريالية وأبكرها).

ورغم أن علم الآثار، والمغاني الفخمة، والمعارض الأوروبية الكونية هي بوضوح عوالم مختلفة، فإن شخصاً مثل مارييت يصل بينها بطرق موحية. وثمة مسرد المعني لما قد يكون جعل عبور مارييت بين هذه العوالم الثلاثة أمراً ممكناً:

كان القصد من المعارض الكونية في القرن التاسع عشر أن تكون عوالم صغرى تُختصر التجربة الإنسانية بأسرها - ماضية وحاضرة، مع مساقطات «إسقاطات» على المستقبل. وقد دلت «هذه المعارض» أيضاً، بترتيبها المبرز المتفصيل بعناية، على العلاقة المسيطرة للقوة. فقد قام الترتيب وتحديد الخصائص بوضع المجتمعات المختلفة في مراتب، وبعقلنتها، وجعلها أشياء موضوعية. وصوّرت الترتيبات الناتجة عالماً احتلت فيه الأعراق، والأجناس «ذكر/انثى»، والامم مواقع مثبتة خصصتها لهم لجان المعارض في الدول المضيفة. وقد أسندت الأشكال التي تم بواسطتها تمثيل الثقافات غير الغربية في المعارض إلى الترتيبات الاجتماعية التي كانت قد تأسست من قبل في الثقافة «المضيفة»، فرنسا؛ ومن هنا فإنه لأمر مهم أن توصف معاملات القيمة «parametres» لأنها أسست انساق التمثيل القومي ووفرت قنوات التعبير الثقافي التي كانت المعرفة المنتجة عن طريق المعارض ستصاغ عبرها<sup>(١٠٠)</sup>.

في الدليل الذي كتبه مارييت لمعرض عام ١٨٦٧، أكد بطريقة جاهدة نوعاً ما الجوانب الاستثنائية، غير تارك مجالاً للشك في ذهن أحد أنه هو، مارييت، الذي استحضر مصر إلى أوروبا للمرة الأولى، بوجه من الكلام. ولقد كان بوسع فعل ذلك بفضل نجاحاته الآثارية المثيرة في حوالي خمسة وثلاثين موقعاً، بما فيها مواقع الجيزة، وسكارة، وإدفو، وطيبة، حيث قام بالتنقيب بانغماس كلي<sup>(١٠١)</sup>، بعبارة براين فاغن الملائمة تماماً. وإضافة، فقد كان مارييت منخرطاً بانتظام في الحفر وفي إخلاء المواقع، الأمر الذي أدى إلى أنه فيما ازدادت المتاحف الأوروبية (وخاصة اللوفر) اكتنازاً بكنوز مصر، كان مارييت بطريقة أقرب

إلى الكلية يعرض المقابر الحقيقية في مصر فارغة، محتفظاً برزانه خالية من أي تعبير في إيضاحاته لـ "الموظفين المصريين المصابين بخيبة الأمل" (١٠٢).

وقد قابل مارييت، في خدمة الخديوي، مهندس القناة، فردينان دو لسبس. ونحن نعرف أنّ الرجلين تعاونوا في خطط متعددة ترميمية وإشرافية إدارية، وإنني لعلّي اقتناع بأنّ كلا الرجلين كانت لديه رؤيا مشابهةً للآخر - ربما عادت في أصولها إلى أفكار أوروبية سابقة سان-سيمونية، أو ماسونية، أو لاهو-صوفية <ثيو-صوفية> حول مصر - منها غزلا حِطَطهما الخارقة التي من المهم أن يقال إنّ فعاليتها ازدادت بفضل التحالف في نفس كلّ منهما بين الإرادة الشخصية، والنزعة إلى المسرحة، والإنجاز العلمي.

قادت كتابة مارييت لكلمات عائدة إلى أن يقوم أيضاً بتصميم الأزياء والمشاهد، وأدى ذلك بدوره إلى العودة إلى تصاميم المناظر النبوتية بشكل لافت في الـ وصف. إن أكثر صفحات الـ وصف إثارةً تبدو وكأنها تبتهل من أجل أفعال وشخصيات جليلة تملأها بحضورها، كما يبدو فراغ هذه الصفحات ومقياسها مثل مشاهد مغناتية مبنية تنتظر مَنْ يقوم بسكتها. وإنّ سياقها الأوروبي الضمني لهو مسرحٌ للقوة والمعرفة، وأما إطارها المشهدي المصري الفعلي في القرن التاسع عشر فقد سقط منها ببساطة <واختفى>.

كان معبّد فياله كما رُسم في الـ وصف (لا أصلٌ مفترضٌ له في مَمْفيس في <الولايات المتحدة>) في ذهن مارييت بشكل شبه مؤكّد حيث كان يصمم المشهد الأول من عائدة. ورغم أنّه يبعد عن الاحتمال أن يكون فيردي قد رأى هذه النسخ المطبوعة بعينها، فقد رأى مستنسخات عنها كانت تُتداول على نطاق واسع في أوروبا؛ وقد سهّلت عليه رؤيته لها أن يجد مجالاً للموسيقى العسكرية الصاخبة التي تُردُّ بوفرة وتواتر في الفصلين الأولين من عائدة. ومن المحتمل أيضاً أن تكون تصورات مارييت حول الأزياء قد جاءت من الرسوم الإيضاحية في الـ وصف التي قام بتحويلها من أجل المغناة، رغم أنّ ثمة فروقاً لا يستهان بها بينهما. وأظنّ أن مارييت كان قد قام في مخيلته بتحويل الأصول الفرعونية إلى معادلات حديثة تقريبية لها، أي إلى ما سيبدو عليه مصريّو ما قبل التاريخ إذا جُلِبوا بالأساليب السائدة عام ١٨٧٠: وتشبه بذلك الوجوه، والشوارب، واللحي المؤوّدة.

كانت النتيجة مصرّاً مشرقة، بلغها فيردي في موسيقاه بمفرده وبصورة مستقلة. وتحدث أمثلة معروفة جيداً في الفصل الثاني غالباً: أنشودة الكاهنة، وبعدها بقليل <في> الرقصة الطقسية. ونحن نعرف أن فيردي كان معنياً عنايةً خاصة بدقة هذا المشهد وصحته، لأنّه كان يتطلب أعلى درجات الأصالة والمصداقية ودفع فيردي إلى طرح أكثر الأسئلة التاريخية تفصيلاً. وتحتوي وثيقة أرسلها ريكوردي إلى فيردي عام ١٨٧٠ مادة عن مصر القديمة، أشدها تفصيلاً ما يخصّ التقديس والتكريز، وطقوس الكهانة، وحقائق أخرى تتعلق بالديانة المصرية القديمة. ولم يستخدم فيردي إلا القليل منها، بيد أنّ المصادر تدلّ على وعي أوروبي معمّم بالشرق كما اشتقّ من فولني وكروزيير، مضافاً إليهما عمل شامبوليون الأثاري الأقرب عهداً. غير أنّ ذلك كله يتعلق بالكهّان، وما من ذكرٍ لامرأة فيه.

يصنع فيردي بهذه المادة شيئين. فهو يحوّل بعض الكهنة إلى كاهنات، متبعاً الممارسة

الأوروبية التقليدية التي تضع النساء الشرقيات في المركز من أية ممارسة غرائبية: والمعادلات الوظيفية لكاهناته من الفتيات الراقصات، والإماء، والمحظيات، وجميلات الحريم المستحقات، اللواتي يطغين في منتصف القرن التاسع عشر في الفن الأوروبي، ويطغين - ابتداءً من الـ ١٨٧٠ات - في <معرض> اللهو والتسلية <في أوروبا>. وقد <أفصحت> هذه الاستعراضات للشيق الأنثوي على الطراز الشرقي - عن علاقات القوة، و<جلت> رغبةً في اكتساب المزيد من التفوق من خلال التمثيل<sup>(١٠٣)</sup>. وبعض ذلك يسهل اكتشافه في مشهد من الفصل الثاني يدور داخل مقصورة أمريس، وفيه تتربط الحسية الشهوانية والفظافة ترابطاً لا مناص منه (مثلاً، في رقصة الإماء المغريبات). والشيء الثاني الذي يصنعه فيردى <بهذه المادة> هو تحويل الشعيرة المستهلكة <الكليشية> الاستشراقية العامة لحياة البلاط إلى طعنة مراوغة بصورة أكثر مباشرة ضد الكهنة الرجال. وأظن أن الكاهن الأكبر رمفيس مفعم بموقف فيردى المعادي للكهنوت والتابع من <حركة> التوحيد الإيطالي، وبالأنكار التي كان يحملها عن العاهل الشرقي المستبد الذي يمارس الانتقام بدافع من التعطش الخالص للدماء مقنعاً بالشرعية والأسبقية <الواردة> في النصوص المقدسة.

أما فيما يخص الموسيقى الغرائبية من حيث السلم الموسيقي، فإننا نعرف من رسائل فيردى أنه رجع إلى عمل فرانسوا-جوزيف فيتيس Fétiis، وهو عالمٌ موسيقي بلجيكي يبدو أنه سحر فيردى وأزعجه بالقدر نفسه. وكان فيتيس أولٌ أوروبي يحاول دراسة الموسيقى غير الأوروبية كجزء منفصل من تاريخ الموسيقى العام، في <كتابه> خلاصة فلسفية لتاريخ الموسيقى (١٨٣٥). وقد حمل عمله الذي لم يكتمل، تاريخ عام للموسيقى منذ الأزمنة القديمة إلى أيامنا (١٨٦٩-١٨٧٦)، <هذا> المشروع إلى مدى أبعد، مؤكداً الخصوصية الفريدة للموسيقى الغرائبية وهويتها الاكتمالية. ويبدو أن فيتيس كان يعرف عمل <ادوارد ولِيم> لين Lane عن مصر في القرن التاسع عشر، كما كان يعرف المجلدين الخاصين بالموسيقى في الـ وصف.

تمثلت قيمة فيتيس بالنسبة لفيردى في أنه استطاع أن يقرأ في عمله أمثلة عن الموسيقى <الشرقية> - والشعيرات المستهلكة التناغمية، التي يكثر استخدامها في مهرجانات العريضة الاحتفالية، مبنية على تسطيح للنغمية المفرطة - ونماذج من الآلات الشرقية، تطابقت في بعض الحالات مع التمثيلات التي ترد في الـ وصف: قيثارات، ونايات، وبيق المراسيم الذي كان قد أصبح مشهوراً في ذلك الوقت، والذي بذل فيردى جهداً فكاهياً إلى حد ما ليضمن صنعةً في إيطاليا.

وختاماً، فلقد تعاون فيردى ومارييت تخلياً - وباعظم قدر من النجاح، في رأيي - لخلق الأجواء الرائعة في الفصل الثالث، المسمى مشهد النيل. وهنا أيضاً يُحتمل أن يكون التمثيل المقدم في صيغة مثالية في الـ وصف النابليوني هو النموذج الذي احتذاه مارييت في تصويره للمشهد، فيما قام فيردى بتعميق تصويره لشرق أثري باستخدام وسائل موسيقية أقل حرقيةً وأشد إيحائية. والنتيجة هي صورة نغمية فائقة مع رسم كفاقي ذي خطوط نفيدة يُساند اللوحة المشهدية الهادئة لمستهل الفصل، ثم تفتتح على الذروة العاصفة والنزاعية بين عاندة، وأبيها، ورادميس. ويشبه تخطيط مارييت الأولي لإطار هذا المشهد الفاخر تركيباً لمصره من: <يمثل المشهد حديقة من حدائق القصر. إلى اليسار،



واجهت مائلة لفسطاط - أرخبية. في خلفية المسرح يتدفق النيل. وفي الأفق تبدو جبال السلسلة الليبية، مضاءةً بنصاعةٍ بالشمس الغاربة. <وثمة> تماثيل، وأشجار نخيل، وشجيرات مدارية<١٠٤>. ولا عجب في أن مارييت، مثل فيردي، اعتبر نفسه خالقاً: إن عائدة، كما قال في رسالة إلى درانيث الصبور الذي لا ينضب معينُ موارده (١٩ تموز <يوليو> ١٨٧١) هي في الواقع نتاج لعملِي. أنا مَنْ أقتع نائبُ الملك بأن يأمر بتقديمها؛ عائدة، بكلمة واحدة، هي من مخلوقات ذهني<١٠٥>.

هكذا تُدمجُ عائدة وتوحدُ مادةً عن مصر في شكل يتيح لكلا فيردي ومارييت أن يزعم زعماً مسوغاً بأنه مِنْ صنعه هو. ورغم ذلك، فإنني أترح أن العمل يعاني <عيباً أو علة> - أو أنه على الأقل شاذٌ - بسبب الانتقائية والتأكيد لما يُضمُّ <فيه> وضمنياً لما يُقصَى <عنه>. ولا بد أن الفرص قد أتحت لفيردي ليتسائل عن رأي المصريين المُحدثين بعمله، وعن استجابة المستمعين الأفراد لموسيقاه، وعمّا سيكون مصيرُ المغناة بعد عرضها الأول. لكنْ لم يجد شيء من هذا سبيلَه إلى التدوين والحفظ، باستثناء حفنة من الرسائل التي كُتبت بمزاج سيئٍ معنفةً النقاد الأوروبيين الذين حضروا العرضَ الافتتاحي؛ فلقد قرؤوا له دعايةً لا يُرحَّبُ بها، كما قال بشكل أقرب إلى الغضاظة. ويوسعا أن نحس بشيء من المسافة التي تفصل فيردي عن المغناة في رسالة كتبها إلى فيليبي، وهو، كما اعتقد، شعور بالاعتراب <أو التغريب>، كان قد خُط في الواقع ضمن كلمات عائدة ومشاهدا:

... أنت في القاهرة؟ إن هذا أقوى دعاية ل عائدة بوسع المرء أن يتخيلها! بيدولي أن الفن بهذه الطريقة لا يظل فناً بل يغدو عملاً تجارياً، لعبة للمتعة، صيداً، شيئاً ينبغي أن يطارده، شيئاً ينبغي أن يُعلى إن لم يكن نجاحاً، فعلى الأقل شهرةً سيئةً بأيّ ثمن! إن ردة فعلي على هذا هي التقزز والشعور بالهانة! إنني لا أتذكر ببغطة دائماً أيامي الأولى حين كنتُ أقف أمام الجمهور، دون أصدقاء تقريباً، ودون مَنْ يتحدث عني، ودون إعدادات، ودون أيّ تأثير من أيّ نمط كان، بمغاني، مستعداً لتلقي الهجوم الكاسح وسعيداً تماماً <لاحتمال> أن أنجح في تحريك انطباع إيجابي ما. أما الآن، فإية تنفجية هذه لمغناة!!!! صحفيين، وفنانين، ومغفّو فرقي، وقادة فرقي، وعازفو الات، إلخ، إلخ. وعليهم جميعاً أن يحملوا حجارتهم إلى صرح الدعاية ويصوغوا بذلك إطاراً من التوافه التي لا تضيف شيئاً إلى قيمة مغناة؛ بل إنهم في الحقيقة يؤمنون القيمة الحقيقية (إذا كان ثمة من قيمة) ويكتفونها بالفموض. إن ذا المستهجن، مستهجن بعمق!!!!

أشكرك على عروضك اللبقة إلى القاهرة، لكنني كتبتُ إلى برنسيني أول أمس كلُّ ما يتعلق بـ عائدة. إن ما أريده لهذه المغناة هو، فحسب، أداء صوتيٍّ والاتي ومسرحيٍّ جيدان وذكيان فوق كل شيء. أما ما تبقى، فعلى بركة الله؛ إذ هكذا بدأت وهكذا أود أن أنهى حياتي المهنية...<١٠٦>

توسّع احتجاجات فيردي هنا وجهات نظره في مقصد المغناة الوحيد: إذ يبدو أنه يقول إن عائدة عمل فني مكتفٍ بذاته، ولندعها كذلك. لكن، وأليس ثمة أمرٌ آخر يحدث هنا أيضاً: بعضٌ من إحساس لدى فيردي بمغناة كُتبت لمكان لا يستطيع أن يشعر فيردي بانتماء إليه، وبحبكة تنتهي إلى طريق مسدود يائس ودفن حقيقي؟

يظهر وعي فيردي بتنافرات عائدة وافتقارها للانسجام في مكان آخر. ففي لحظةٍ ما يتحدث بمفارقة لاذعة عن إضافة بالسترينا إلى تناغم الموسيقى المصرية، ويبدو كذلك أنه كان يعي إلى أي مدى كانت مصر القديمة لا حضارةً مية فقط بل ثقافة موتٍ أيضاً، كانت عقائدية الفتوحات <العسكرية> الظاهرية فيها (كما اقتبسها وحوّرها من هيرودوتس ومارييت) متصلةً بعقائدية تتعلق بالعالم الآخر. ويظهر تعلق فيردي بسياسيات الوحدة

الإيطالية، أثناء عمله على عائدة، تعلقاً أسياناً، مخيباً، أثرياً، في هيئة نجاح عسكري يولّد إخفاقاً شخصياً أو، كما يُمكن وصفه أيضاً، هيئة انتصارٍ سياسي يصاغ في النغمات المتلاعبة المتضاربة للمأزق الإنساني، وبإيجاز، لسياسيات الواقع الرأهن (Realpolitik). ويبدو أنّ فيردي تخيل أن السمات الإيجابية لـ باتريا عند رادميس تُصنّب في النغمات الجنائزية لـ تِراً أديو، ولا ريب أنّ المسرح المفصول في الفصل الرابع - الذي قد تكون مصدرته إحدى لوحات الـ وصف - ترك في ذهنه انطباعاً قوياً بالتناظر الحاد <ديسكوريا كونكورز> لشبوب امريس العاطفي الذي لا يلقى استجابةً وليميتّي عانده ورادميس الهنيء المبارك.

لا يُخفّف من سكونية عائدة وجمودها سوى <رقصات> الباليه واستعراضات الانتصار، لكنّ هذه العروض نفسها يدخلها الوهنُ بأكثر من طريقة: لقد كان فيردي من الذكاء وصلابة الرأي والعزيمة بحيث أنه لم يتركها دونما مساس. إنّ رقصة التقديس المنتصر لرامفيس في الفصل الأول تؤدّي طبعاً إلى تلاشي رادميس في الفصلين الثالث والرابع، ولذلك فليس ثمة ما يدعو إلى البهجة؛ أما رقصة الإماء المغريبات في الفصل الثاني، المشهد الأول، فإنّها رقصة إماء يُقْمَن بالترويح عن امريس وهي تلاعب عائدة، منافستها الأمة، بضغينة. وأما فيما يتعلق بالجزء المشهور فعلاً في المشهد الثاني من الفصل الثاني، فإنّ ما لدينا هنا قد يكون لباب استهواء عائدة الفائق للمشاهدين والمخرجين سواءً بسواء، الذين يستغلونه فرصةً سانحةً ليفعلوا بشكل عام كلّ ما يحلو لهم ما دام مفرطاً ومحتشداً بالاستعراضية. والحق أنّ هذا قد لا يكون بعيداً عما انتواه فيردي.

خذْ أمثلةً ثلاثةً على ذلك ما يلي. الأول:

عائدة في سنسناتي (انذار <مارس> ١٩٨٦). تُعلن نشرةً إعلاميةً من أوبرا سنسناتي أنّ عرضها لـ عائدة في هذا الموسم سيضم الحيوانات التالية التي ستشارك في مشهد النصر: خنزير أرض ١، حمار ١، فيل ١، أنعى البوا العاصرة ١، طاووس ١، طوقان ١، صقر أحمر الذيل ١، نمر أبيض ١، وشقّ سيبيري ١، كوكبو <بيغاء العرف> ١، وفهد صياد ١. المجموع ١١؛ وأنّ عدد المشاركين في العرض سيكون ٢٦١، بينهم ٨ رئيسيون، ١١٧ جوقة (٤٠ جوقة نظامية، ٧٧ إضافياً)، ٢٤ باليه، ١٠١ من النوافل (منهم ١٢ حارس حديقة حيوانات)، و ١١ حيواناً (١٠٧).

هذه عائدة كدقق خام تقريباً، ملهاتي جزئياً، للثراء، وإنجاز ضخم يؤدّي ويعاد أدائه بابتدال لا يضاهاى في حمّامات كراكلا\*.

وفي مقابل ذلك، ثمة المشهد الثاني، الفصل الثاني، كما يعرضه فيلاند فاغنر، وهو استعراض لسجناء أحباش يحملون الطوطمات، والاقنعة، وأشياء طقوسية كعناصر من معرض للوصف الأعراقى <الاثنوغرافى> يقدم للمشاهدين. ولقد كان هذا "نقلًا للإطار المشهدي للعمل بأكمله من مصر الفرعونية إلى إفريقيا الأشدّ سواداً في عصور ما قبل التاريخ":

ماكنت أحاول أن أفعله، فيما يخص المناظر، هو أن أمنع عائدة الأريج اللؤلؤ الذي تحتويه - مستمدّاً إياه لا

\* - وهي مثال بارز على البناء الرومانى، بناها الكسندر سيفيروس عام ٢١٧ بعد الميلاد، وتتكون من مساحة ٢٣٠ x ١١٥ متراً من الحمامات والغرف المحقة المخصصة للالعاب والتدريبات الرياضية (الناشر، عن الموسوعة البريطانية).

من متحف مصري، بل من الجو الكامن طبيعياً في العمل نفسه. أردت أن أبتعد عن التفتنية المصرية الزائفة والنُصبية المغتاتية الزائفة، عن الرسم التاريخي شبه الهوليودي، لأعود إلى العتيق السحيق، أي - بمصطلحات علم الآثار المصرية - إلى العصور السابقة للأسرِّ والسلالات (١٠٨).

ينصبُّ تأكيدٌ فإغزى على الفرق بين عالمنا\* وعالمهم\*، وهو دون ريب ما أكده فيردي أيضاً، بإدراكه لكون المغناة قد أَلْفَتْ وصُعُمَتْ أولاً لمكان هو دونما جدال ليس باريس، أو ميلان، أو فيينا. وبينقلنا هذا الإدراك، بصورة شيقة تماماً، إلى <عرض> عائدة في المكسيك عام ١٩٥٢، حيث فاقت المغنية الرئيسية، ماريا كالاس، أداء المجمع <الأنسامبل> بأكمله باختتام <أدائها> بـ E الخفيضة مرتفعة، أي أعلى بجواب <اوكتاف> واحدٍ من النغمة التي كتبها فيردي.

في الأمثلة الثلاثة، ثمة جهد لاستغلال المجال المفتوح الوحيد الذي سمح به فيردي في العمل، وهو فتحةٌ عدسةٌ يبدو أنه يسمح من خلالها لعالم خارجي، هو فيما عدا ذلك <الانفتاح الضيق> مصدودٌ ممنوع، بالدخول. بيد أن مصطلحاته صارمة لازية. ويبدو وكأنه يقول، <أدخل كفرانبيات أو كاسرى، أمكثُ برهة، ثم دعني وشأني لأقوم بعملتي>. ومن أجل حماية أرضه، يلجأ إلى وسائل موسيقية يكاد الأ يكون قد استخدمها من قبل أبدأ، مصممةٌ كلها لكي تشير للمشاهدين إلى أن علماً موسيقياً كبيراً، متمرساً ضاربَ الجذور في تقنيات تقليدية تفهية احتقرها معاصروه من محبِّي <الغناء الجميل\*، يمارس الآن عمله. وقد كتب فيردي في ٢٠ شباط <فبراير> ١٨٧١ إلى مراسل صحفي هو جيوسبيبي بيرولي: <للمؤلف الموسيقي الشاب، أريد إذن، تدريباتٍ طويلةً وصارمةً جداً في جميع فروع الطباقي <الموسيقى> <درن أي دراسة للحدّين> (١٠٩) وذلك ملائم تماماً للجوانب الجئنية المحنطة من المغناة التي كان يكتبها (جاعلاً المومبيات تغني، كما قال مرة) والتي تُستهلُّ بقطعة من الكتابة الشرائعية الصارمة، وتبلغ تقنيات الطباقي والد سترتو عند فيردي في عائدة درجة من التوتر والحدة والصرامة نادراً ما حققها <في مكان آخر>. وتقوي هذه المقاطع المتفقهة، إلى جانب الموسيقى العسكرية التي ترشرش نصُّ عائدة الموسيقي (والتي كان لبعضها لاحقاً أن تصبح النشيد الوطني للخدوي اسماعيل)، الطبيعة النُصبية الضخمة للمغناة، وتقوي - وذلك مما هو الصق بالنقطة المثارة هنا- بنيتها التي تشبه الجدار.

وبإيجاز، فإنَّ عائدة تستعيد بدقة تامة الظروف التي مكنتها من أن تُكَلَّف وتؤلَّف، وهي، مثل صدق <بالنسبة> لصوت أصلي، تنساق متكيفةً مع جوانب من السياق المعاصر الذي تجهد جهداً مضنياً كي تقصيه وتستثنيه. وتجسّد عائدة، كشكل من أشكال الذاكرة الجمالية متخصص تخصصاً عالياً، كما أريد لها أن تفعل، سلطة النُسخة <التي صنعتها> أوروبا لمصر في لحظة <محددة> من تاريخها في القرن التاسع عشر، وهو تاريخ كانت القاهرة خلال السنوات ١٨٦٩-١٨٧١ موقعاً ملائماً له ملائمةً فائقة. ويجلو التقديرُ الطباقي الكامل لـ عائدة بنيتها من جهات النظر والإحالات، وشبكة من الانتماءات، والترابيات، والقرارات، والتعاونات، يمكن أن تُقرأ بوصفها مخلّفة طقماً من العلامات الموسيقية الشبحية في نص المغناة البصري والموسيقي.

\* - bel canto: غناءٌ مغتاتي نشأ في إيطاليا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ويتميز بالسهولة والصفاء، والدقة والتناغم (الناشر).

تأمل القصة: يهزم جيش مصري قوةً عسكريةً حبشية، لكنَّ بطل الحملة المصري الشاب يُتهم بالخيانة، ويحكم عليه بالموت، ويموت اختناقاً. وتكتسب هذه الفقرة من المنافسة الافريقية الداخلية الغابرة رنيناً مرجعاً عالياً حين يقرأها المرء على خلفية من المنافسة الانجليزية - المصرية في شرق افريقيا من الـ ١٨٤٠ات الى الـ ١٨٦٠ات. فلقد اعتبر البريطانيون الاهداف المصرية هناك تحت قيادة الخديوي اسماعيل، الذي كان يتوق للتوسع جنوباً، تهديداً لهميمنتهم على البحر الأحمر، ولسلامة خطوطهم إلى الهند؛ ومع ذلك، فقد شجّع البريطانيون، بتغيير حصيلف لسياستهم، تحركات اسماعيل في شرق افريقيا كوسيلة لصد المطامح الفرنسية والايطالية في الصومال والحبشة. ومع أوائل الـ ١٨٧٠ات، كان التغير قد استكمل، وبحلول ١٨٨٢ كانت بريطانيا قد احتلت مصر كلية. ومن وجهة النظر الفرنسية، التي احتجتها وادرجها مارييت، فإنَّ عاقبة قد مسرحت أخطارَ نجاح سياسة القوة المصرية في الحبشة، خصوصاً أنَّ اسماعيل نفسه - ككاتب للسلطان العثماني - كان معنياً بمثل تلك المبادرات كوسيلة لتحقيق المزيد من الاستقلال عن استانبول<sup>(١١٠)</sup>.

لكنَّ في بساطة عاقبة وصرامتها ما هو أكثر من ذلك وأبعد، ولاسيما أن الكثير مما يتعلق بها، ویدار الأويرا التي شيدت ليعمل فيردي، يتعلق باسماعيل نفسه وبعهده (١٨٦٣-١٨٩٧). لقد أنجز حديثاً قدرٌ جيد من العمل <البحثي> في تاريخ التورط الأوروبي الاقتصادي والسياسي في مصر خلال السنوات الثمانين التي تلت حملة نابليون؛ والكثير مما في هذا العمل يتفق مع موقف المؤرخين القوميين المصريين (صبري، رافع، غريال) <الذين يرون> أنَّ وريثة العرش من نواب السلطان الذين شكلوا سلالة محمد علي، مرتبين على سلم نازل من الكفاءة والاستحقاق (باستثناء المتصلب عباس) قد ورطوا مصر أعمق فأعمق في ما أسمي "الاقتصاد العالمي"<sup>(١١١)</sup>. لكن ما هو أكثر دقةً كان التجمع السائب للممولين الأوربيين وأصحاب المصارف التجارية وشركات الإقراض الأوروبية، والمغامرات التجارية الأوروبية. وقد أدى ذلك بصورة محتومة إلى الاحتلال البريطاني عام ١٨٨٢، كما أدى - بالحثمية نفسها - إلى استعادة جمال عبد الناصر في النهاية لقناة السويس في تموز <يوليو> عام ١٩٥٦.

مع حلول الـ ١٨٦٠ات والـ ١٨٧٠ات، كان أبرز ملامح الاقتصاد المصري الازدهارُ في مبيعات القطن الذي حصل حين قطعت الحرب الأهلية الأميركية إمدادات القطن الأميركي إلى المعامل الأوروبية؛ وقد أدى ذلك إلى تسارع التشوهات المتعددة في الاقتصاد المحلي (وتبعاً لأون، فمع مجيء الـ ١٨٧٠ات كانت الدلتا بأسرها قد تحولت إلى قطاع تصدير منذور لإنتاج، ومعالجة، وتصدير محصولين أو ثلاثة<sup>(١١٢)</sup>)، وكان ذلك جزءاً من وضع يأس أعم بكثير. لقد فتحت مصر لأنواع شتى من الخطط والمشاريع، بعضها جنوني، وبعضها نافع (مثل بناء الطرق والسكة الحديدية)، وجميعها باهظ التكاليف، وخصوصاً القناة. وتم تمويل التنمية بإصدار سندات استثمار لخزينة الدولة، وطبع الأوراق النقدية، وزيادة عجز الميزانية؛ وقد أضاف ازدياد الدين العمومي قدرأ كبيراً إلى ديون مصر الخارجية، وتكاليف خدمتها، وتعميق اختراق المستثمرين الأجانب ووكلائهم المحليين لها. ويبدو أنَّ الكلفة العامة للقروض الأجنبية كانت تشكل ما يتراوح تقريباً بين ٣٠ و ٤٠ في المائة من القيمة الاسمية لهذه القروض. (يقدم كتاب ديفيد لاندز مصرفيون وباشوات تاريخاً مفصلاً لتلك المرحلة الخسيسة، لكن المسلية مع ذلك<sup>(١١٣)</sup>).

مرت مصر في عهد إسماعيل، إضافةً إلى ضعفها الاقتصادي المتفاقم واتكافها المتفاقم على الأموال الأوروبية، بسلسلة من التطورات المتعارضة الضدية. ففي الوقت الذي كان فيه عدد السكان يزداد زيادةً طبيعية، كان حجمُ المنجمعات الأجنبية المستوطنة يزداد زيادةً هندسية - بلغت ٩٠.٠٠٠ مع أوائل الـ ١٨٨٠ات. وقد شكّل تركيزُ الثروة في أسرة نائب الملك وتابعيها بدوره، نسقاً إقطاعياً، على الصعيد الفعلي، من ملكية الأرض والامتيازات الحضرية، الأمر الذي عَجَلَ بدوره في نمو وعي قومي للمقاومة. ويبدو أنّ الرأي العام قد عارض اسماعيل لأنه تصوّره يُسَلِّم مصر إلى الأجانب، بقدر ما عارضه لأنّ أولئك الأجانب بدورهم بدوا وكأنهم يعتبرون سكّونَ مصر وضعفها أمراً بديهياً. ولقد لوحظَ بغضب، كما يقول المؤرخ المصري صبري، أنّ ناپليون الثالث في خطابه في حفل افتتاح القناة، ذكر فرنسا وقتنا "ها"، لكنه لم يذكر مصر أبداً<sup>(١١٤)</sup>. وعلى الطرف الآخر من المشور، قام الصحفيون الموالون للدولة العثمانية بمهاجمة اسماعيل علناً<sup>(١١٥)</sup> لحماقة تبذيره الهائل في رحلاته الأوروبية (التي تؤرّخ بتفصيلٍ شبه مفرّز في كتاب جورج دوان تاريخ عهد الخديوي اسماعيل، ج٢<sup>(١١٦)</sup>) وزعمه الاستقلالَ عن الباب للعالي، وإفراطه في فرض الضرائب على رعاياه، ودعواته المغدقة للمشاهير من الأوروبيين إلى افتتاح القناة. وكلما اشتدت رغبة الخديوي اسماعيل في أن يُظهر مستقلاً، ارتفعت تكاليفُ صفاقته على مصر، وازداد العثمانيون مقتاً لاستعراضات استقلاله، وازداد دائنوه الأوروبيون تصميماً على تضيق الخناق عليه. لقد "أذهل طموحُ إسماعيل وخياله مستمعيه. ففي صيف ١٨٦٤ القانظ المتأزم، لم يكن يفكر بالقنوات والخطوط الحديدية وحدها بل بباريس - على - النيل، وبإسماعيل امبراطوراً لأفريقيا. ستكون للقاهرة شوارعها اللاحبة <بوليفاراتها> الفخمة، وسوقها المالية <البورصة> ومسارحها، ودارُ مغانيها؛ وسيكون لمصر جيش جرار، وأسطول جبار. لماذا؟ سأل القنصل الفرنسي. ولقد كان حرياً به أن يسأل أيضاً: وكيف؟"<sup>(١١٧)</sup>.

أما "كيف" فقد كان لها أن تبدأ بترميم القاهرة وتجديدها، الأمر الذي اقتضى استخدام الكثيرين من الأوروبيين (وبينهم درانث) وتنمية طبقة جديدة من سكان المدن الذين تنبئ أذواقهم ومتطلباتهم بتوسُّع سوق محلية ذات توجُّهٍ إلى استيراد البضائع الثمينة. وكما يقول أون، "كانت الواردات الأجنبية مهمة في توفير البضائع لنسق استهلاكي مغاير تماماً لدى العدد الكبير من القاطنين الأجانب وأولئك المصريين المحليين من ملاك الأراضي والموظفين الذين كانوا قد بدأوا يعيشون في مساكن من طرز أوروبية في المناطق المؤرّبة من القاهرة والاسكندرية حيث كان كلُّ ما هو ذو قيمة تقريباً يُشترى من الخارج - حتى مواد البناء"<sup>(١١٨)</sup>. ويمكن أن نضيف: المغاني، والمؤلفين <الموسيقيين>، والمغنين، وقادة الفرق، والمشاهد <المسرحية>، والأزياء. وكانت لهذه المشاريع فائدةٌ إضافية هامة، هي إقناع الدائنين الأجانب بدليلٍ مرئيٍّ ملموس هو أن أموالهم كانت تنفق على خير وجه<sup>(١١٩)</sup>.

بيد أنّ القاهرة، على عكس الاسكندرية، كانت مدينة عربية وإسلامية، حتى في أوج أيام اسماعيل. لم يكن ماضي القاهرة، باستثناء سحر مواقع الجيزة الأثرية، سيتواصل بسهولة أو بشكلٍ جيد مع أوروبا؛ ففي القاهرة لم يكن ثمة من ترابطات وتداعيات هيلينية

أو شرق - متوسطة <ليفانتاينية>، لم يكن ثمة نسانم بحرية عليّة، أو حياةً مدينةً ساحليةً متوسطة تعج بالحركة. وبدت المركزية الهائلة التي تحظى بها القاهرة بالنسبة لأفريقيا، والإسلام، والعالمين العربيّ والعثماني، مثلَ حاجز صلب عنيد في وجه المستثمرين الأوروبيين، ولا شك أنّ الأمل بجعلها أقرب إلى متناولهم وأشدّ جاذبيةً لهم قد حدا باسماعيل إلى دعم تحديثها. ولقد فعل ذلك في الجوهر بتقسيم القاهرة. وليس في وسع المرء <في هذا المجال> أن يفعل ما هو أبلغ من الاقتباس من أفضل مسردٍ في القرن العشرين للقاهرة، وهو القاهرة: ١٠٠١ سنة من <تاريخ> المدينة المظفرة\*، للمؤرخة الأميركية المختصة بالدراسات العمرانية جانيت أبو لغد:

هكذا، مع نهاية القرن التاسع عشر، كانت القاهرة تتكون من مُتَجَمِّعَيْن فيزيائيين متميزين، تفصلهما الواحد عن الآخر حواجزٌ أشدّ عرضاً بكثيرٍ من الشارع المنفرد الصغير الذي علّم حدودهما. وكان الانقطاع بين ماضي مصر ومستقبلها، الذي ظهر صدعاً صغيراً في أوائل القرن التاسع عشر، قد ازداد اتساعاً وغداً شرخاً فاغراً مع نهاية القرن. ولم تكن الازدواجية الفيزيائية للمدينة سوى تجلٍ للانفراج الثقافي.

إلى الشرق، كانت المدينة الأصلانية مازال جوهراً قُبْلٌ - صناعيةً على مستوى التقوية، والبنية الاجتماعية، وأسلوب الحياة: وإلى الغرب قامت المدينة "الاستعمارية" بتقنياتها التي تدفعها محركات البخار، وبيئها حياتها الأسرع، وبحركةٍ مرورها التي تستخدم العجلات، وبتلبّس هويتها الأوروبي. إلى الشرق كان نسق الشوارع الفيهيّ للحارات والدروب التي لمّا تزل غير معبّدة، رغم أنّ البوابات كانت قد أزيلت قبلئذٍ وكان طريقان عريضان قد اخترقا الظلام؛ وإلى الغرب كانت الشوارع العريضة المستقيمة المرصوفة، تكتنفها أرصفتاً للمشاة وانحسارات <جانبية> عريضة، تتقاطع ناشطةً في زوايا قائمةٍ صارمةٍ أو تتلاقى منصبّةً هنا وهناك في مستديرٍ أو ميدان. كانت أحياء المدينة الشرقية مازال تعتمد على السقّانين المتجولين، رغم أنّ سكان المدينة الغربية كانوا يتلقون مياه عبر شبكة مريحةٍ من القنوات متصلةً بالمضخة البخارية القريبة من النهر. ومع هبوط الليل، كانت الأحياء الشرقية تغرق في الظلام، فيما كانت الأنوارُ الغازية تضيء الشوارع الغربية. ولم يكن ثمة رياض أو أشجار في الشوارع تُخَفِّف من وقع اللكنات اللولبية الرملية والطينية للمدينة القروسطية؛ ومع ذلك فقد كانت المدينة الواقعة إلى الغرب مرئيةً بإحكامٍ بحدائق فرنسيةٍ رسميةٍ، أو بشرائطٍ من أحواض الزهور المزخرفة، أو بالأشجار المهذمة اصطناعياً. وكان المرء يدخل المدينة القديمة على عربة <أو بالقافلة> ويقطعها على الأقدام أو على ظهور الحيوانات؛ وأما الجديدة فكان يدخلها بالسكة الحديدية ثم يتابع مساره عبرها في عربات فيكتوريا تجرّها الخيول. وبيجاز، فقد كانت المدينتان، في جميع النقاط الحاسمة، رغم تجاورهما الفيزيائي، مفصولتين بمسافات شاسعة اجتماعياً وبقرونٍ عديدةٍ تقنيّاً<sup>(١٢٠)</sup>.

انتصبت دار المغاني التي بناها اسماعيل لفيردي في مركز المحور الشمالي- الجنوبي، وسط ميدان فسح، تواجه المدينة الأوروبية التي امتدت غرباً إلى ضفاف النيل. وإلى الشمال، كانت محطة السكك الحديدية، وفندقُ شپرد، وحدائقُ الأزيكية التي، كما تضيف أبو لغد، استورد لها إسماعيل مهندسُ المشاهد الطبيعية الفرنسي الذي أعجب إسماعيل بعمله في غاية بولونيا <بوا دو بولوئي> ومعسكرات المُرِيخ <شان دو مارس> وكلّفه بإعادة تصميم الأزيكية لتحاكي روضة مونسو كاملةً بما في ذلك حوضُ السباحة ذو الشكل الحرّ <اللامتاسق>، والمغارة، والجسور، ومبنى المشرفية <بلغدير>، التي شكّلتُ مجتمعةً الشعيرات <الكليشيهاة> الحتميةً للحديقة الفرنسية في القرن التاسع عشر<sup>(١٢١)</sup>. وإلى الجنوب انتصب قصرُ عابدين، الذي أعاد إسماعيل تصميمه ليكون مقره الرئيسي عام ١٨٧٤. وخلف دار المغاني امتدت الأحياء التي تعجّ بالحركة مثل الموسكي،

\* - من الواضح أنّ العنوان الانكليزي يترجم معنى كلمة "القاهرة" من جهة، ويُدرج اسمها العربي "القاهرة" في صيغته الإنكليزية، من جهة أخرى. وقد حاولت الإبقاء على هذا التباين بهذه الصيغة.

والسيدة زينب، والعتبة الخضراء، تكبح جماح تقدمها دارُ المغاني بحجمها المهيب وسلطانها الأوروبية.

كانت القاهرة قد بدأت تعبر عن التخمر الفكري من أجل الإصلاح، الذي كان بعضه - لكن لم يكن كلُّه على الإطلاق - نتيجة لتأثير الاختراق الأوروبي؛ وقد أدى ذلك، كما يعبرُ جاك بيرك، إلى تشوُّش في الانتاج<sup>(١٢٢)</sup>. ويُستحضر ذلك بشكل جميل في ما قد يكون أفضلَ مسردٍ لقاهرةِ اسماعيل، وهو الخطط التوفيقية لعلي باشا مبارك، وزير الأشغال العامة والتربية المتفجر حيويةً، وهو مهندس، وقومي، ومحدث، ومؤرِّح لا يكلُّ، وقرويُّ ابنُ فقيه بسيطٍ، ورجلٌ افتتنَ بالغرب بقدر ما كان مدفوعاً بتقاليد الشرق الإسلامي وديانته. ويتشكل لدى المرء انطباعٌ بأنَّ التغيرات التي شهدتها القاهرة في هذه الفترة اضطرتُّ علي باشا إلى تدوين حياة هذه المدينة اعترافاً منه بأنَّ فواعل الحيوية فيها تتطلب الآن اهتماماً جديداً وحديثاً بالتفاصيل، التفاصيل التي نشطت تمييزات وملاحظات لا سابق لها لدى أهل القاهرة الأصليين. لا يذكر علي دارُ المغاني، رغم أنه يتحدث بالتفصيل عن إنفاق اسماعيل المذواق على قصوره، وحدائقه، وحدائق حيواناته، واستعراضاته <التي أقامها> للأعيان من زواره. وسيلحظ كتاب مصريون لاحقون، كما فعل علي، تخمُّرات هذه الفترة واضطراباتهما، لكنهم (ع. م: أنور عبد الملك) سيلحظون أيضاً دارُ المغناة وعائدة كرمزين متناقضين لحياة البلاد الفنية وإخضاعها الامبريالي. وقد احترقت دارُ المغناة الخشبية عام ١٩٧١؛ ولم يُعدَّ بناؤها هناك أبداً، وشغل موقعها أولاً موقفٌ للسيارات، ثم مرآبٌ متعدد الطوابق. وعام ١٩٨٨ أقيم مركز ثقافي جديد على جزيرة الجزيرة بتمويل ياباني؛ ويضم هذا المركز داراً للمغاني.

جليُّ أن علينا أن نستخلص أنَّ القاهرة لم تكن قادرةً على تحمل عبء الحفاظ على عائدة كمغناة كُتبت لمناسبة ومكانٍ عمرت أكثر منهما، حتى فيما راحت تسجِّل انتصارات كبيرة على مسارح غربية لعقود عديدة. لقد كانت الهوية المصرية لـ عائدة جزءاً من الواجهة الأوروبية للمدينة، ولقد نُقِشت بساطتها وصرامتها على تلك الجدران التخيلية التي تفصل أصلائي المدينة الاستعمارية عن أحيائها الامبريالية. إنَّ جماليات عائدة هي جماليات العزل والفصل، وليس بوسعنا أن نرى في عائدة ذلك التلاؤم بينها وبين القاهرة الذي رآه كيتس في النقش الموجود على الأبيص الإغريقي وفي ما يتراسل معه: أي المدينة وقلعتها مفرغتين من أهلها، في هذا الصباح الورع. لقد كانت عائدة، بالنسبة لمعظم مصر، سلعةً كماليةً ثمينة، اشترت بالدين لمجموعة ضئيلة من الزبائن كانت تسليتهم أمراً عَرَضياً بالقياس إلى أهدافهم الحقيقية. ولقد اعتبرها فيردي نُصباً تذكاريّاً لِقَنه؛ وأغدق عليها إسماعيل ومارييت، لأغراض شتى، الفانض من طاقاتهما الحيوية وإرادتهما التي لا قرار لها. إنَّ بوسعنا التمتع بـ عائدة وتأويلها، رغم نقاط القصور فيها، كنوع من فن الإشراف المتحفي، الذي تستعيد صرامته وإطاره المتصلب، بمنطق جنثي لا يلين، لحظة تاريخية محددة وشكلاً جنالتيّاً عتيقاً مُزْمناً بالتخصيص، مَعْجبةً امبرياليةً صُمِّمت كي تخلق الشعور بالاعتراب لدى جمهور يكاد يكون أوروبياً بصورة حصرية، وكي تحظى بإعجابه.

وذلك، طبعاً، بعيداً كلَّ البعد عن مكانة عائدة في المخزون الثقافي اليوم. ولا ريب في

أن كثيراً من أشياء الامبراطورية الجمالية تُتذكر اليوم وتحظى بالإعجاب دون قرنها بجعب السيطرة التي حملتها عبر عملية الانتقال من التصور إلى الإنتاج. بيد أن الامبراطورية تبقى، في تصريفاتها ونبراتها المُعربة\* واثارها، لتُقرأ، وتُرى، وتُسمع. وإننا إذ نخفق في أخذ بنيات المواقف والإحالات الامبريالية التي تقترحها هذه الأعمال بالاعتبار، حتى في أعمال مثل عائدة تبدو غير متصلة بالصراع على الأراضي والسيطرة، فإننا نقلص هذه الأعمال إلى شخصيات ساخرة <كاريكاتورات>، قد تكون محكمة متقنة، بيد أنها شخصيات ساخرة رغم ذلك.

ينبغي على المرء أن يتذكر أيضاً أنه حين ينتمي إلى الطرف الأقوى في المواجهة الامبريالية والاستعمارية، فإن من المحتمل جداً أن يُغفل، أو ينسى، أو يتجاهل الجوانب المزعجة لما حدث هناك في البعيد. إن لالة الثقافية - <المكوّنة> من معجبات مثل عائدة، ومن كتب شيقة بحق كتبها رحالة وروائيون وباحثون، ومن صور فانتة ولوحات غرائبية - تأثيراً جَمالياً إلى جانب تأثيرها الإعلامي على المتلقين الأوروبيين. إن الأشياء تبقى إلى درجة لافتة دونما تغيير حين تُستخدم مثل هذه الممارسات الثقافية التي تقصي وتحول <الأشياء> إلى موجودات جمالاتية، لأنها أولاً تقصم ثم تخدر الوعي الحواضري. عام ١٨٦٥ أمر حاكم جامايكا البريطاني إي. دجي. أير، بمذبحة انتقامية ضد السود لقتل بضعة بيض؛ وقد جلا ذلك لكثير من الانكليز ما في الحياة الاستعمارية من مظالم وفظائع؛ وقد اجتذبت المناظرات التي حدثت في أعقاب ذلك شخصيات عامة مشهورة؛ بعضهم (رسكن، كارلايل، أرنولد) سع إعلان أير للأحكام العرفية وذبج للجاميكيين السود، وآخرون (مل، هكسلي، اللورد كوكبيرن كبير القضاة) ضده. لكن مع مرور الزمن، طوى النسيان القضية، وحدثت مذابح إدارية أخرى في الامبراطورية. ومع ذلك، وبكلمات أحد المؤرخين، فقد استطاعت بريطانيا العظمى أن تحتفظ بالتمييز بين الحرية الداخلية والسلطة الامبريالية [التي يصفها بأنها قمع وإرهاب] في الخارج<sup>(١١٣)</sup>.

يجهل معظم القراء المُحدثين لشعر ماثيو أرنولد المبرج، أو لنظريته المشهورة في مديح الثقافة، أنه ربط أيضاً بين المذبحة الإدارية التي أمر بها أير والسياسات الغظة البريطانية ضد أير\*\* المستعمرة وأقر كليهما بقوة؛ فلقد وُضع <كتاب أرنولد> الثقافة والفوضى في وسط لجة أحداث شغب هايد پارك عام ١٨٦٧، وكان من المعتقد تحديداً أن ما قاله أرنولد عن الثقافة جاء على سبيل ردع الفوضى الجامحة - استعمارية، وإيرلندية، وداخلية. ويقوم الجاميكيون، والإيرلنديون، والنساء، وبعض المؤرخين بنبش هذه المذابح وإبرازها في لحظات غير ملائمة، لكن معظم قراء أرنولد الانكلو-أميريكيين يظنون غافلين عنها، ويرونها - إذا نظروا إليها على الإطلاق - غير ذات صلة بالنظرية الثقافية الأكثر أهمية التي يبدو أن أرنولد كان يدعو إليها ويروجها لجميع العصور.

(بين قوسين صغيرتين، من المهم أن نلاحظ أن عملية عاصفة الصحراء، أياً كانت

\* - اعترف بأنني لا أفهم دلالة كلمة inflection في هذا السياق، واحد معانيها تصريف الكلمات (في علم الصرف).

\*\* - يستغل المؤلف هنا الجنس التام صوتياً بين اسم الحاكم Eyre واسم إيرلندة Eire؛ ولا اعرف سبيلاً إلى إظهار الفرق الكتابي بينهما في العربية.



الأسس القانونية التي استندت إليها ضد احتلال صدام حسين الوحشي للكويت، قد سُنت أيضاً جزئياً من أجل دفن شبح "متزامنة الأعراض الفيتنامية" "The Vietnam Syndrome"، وتأكيد قدرة الولايات المتحدة على أن تريح حربياً، وأن تريحها بسرعة. وكان على المرء، من أجل تعزيز هذا الدافع وإدامته، أن ينسى أن مليونين من الفيتناميين قد قُتلوا، وأن جنوب شرقي آسيا ما يزال مدمراً خرباً بعد ستة عشر عاماً من انتهاء الحرب. ولذلك فقد اكتسب جعل أميركا قوية وتحسين صورة الرئيس بوش كقائد، الأولوية على تدمير مجتمع قصي. واستخدمت أرقى التقنيات، والعلاقات العامة البارعة، لجعل الحرب تبدو مثيرةً، ونظيفةً، وفاضلةً. وفيما كان العراق يعيش سكرات التفنن، والتمرد المضاد، والمعاناة الإنسانية على نطاق جماهيري واسع، كان الاهتمام الشعبي الأميركي لفترة وجيزة يهمل).

كان للأوروبي في أواخر القرن التاسع عشر، مدى شيق من الخيارات المعروضة، وكانت جميعها ترتكز إلى مقدمة منطقية هي إخضاع الأصليين والتنكيل والتضحية به. أحد الخيارات كان متعةً ذاهلةً عن نفسها باستخدام القوة - القوة على الملاحظة، والحكم، والاحتفاظ، والريح، من أراض وشعوب نائية. ومن هذه <الأمور> تولد رحلات الاكتشاف، والتجارة المدرارة، والإدارة، والإلحاق، والبعثات والمعارض المتفكحة، والمُعجبات المحلية، وطبقة جديدة من الحكام والخبراء الاستعماريين. وثانيها مُعقِلن عقائدي لتصغير الأصليين ثم إعادة تشكيله شخصاً ينبغي أن يُحكَم ويُدَار. ثمة أساليب للحكم، كما وصفها توماس هودجكين في <كتابه> القومية في أفريقيا الاستعمارية <المستعمرة> - ديكرتية فرنسية، وتجريبية بريطانية، وأفلاطونية بلجيكية<sup>(١٢٤)</sup>. ويجدها المرء منقوشة داخل المشروع الإنساني نفسه: في المدارس، والكليات، والجامعات الاستعمارية المختلفة، وفي النخب الأصلانية التي تم خلقها والتحكم التلاعبي بها عبر أفريقيا وآسيا. و<الخيار> الثالث هو فكرة الخلاص والانتقال الغربي من خلال رسالة الغرب التحضيرية. ولقد حققت الفكرة الامبريالية <القائمة على> غربة المتخلفين مقاماً دائماً على صعيد عالمي، مؤيدةً بصورة مشتركة من قبل الخبراء في الأفكار (المبشرين، والمعلمين، والمستشارين، والباحثين) وفي الصناعة والاتصالات الحديثة، بيد أنها، كما أظهر مايكل عدس وآخرون، كانت دائماً مقترنة بالسيطرة<sup>(١٢٥)</sup>. والرابع هو <الشعور ب> أمان موقف يسمح للمحتل بالأ ينظر إلى حقيقة ما يرتكبه من عنف. إن فكرة الثقافة نفسها، كما هذبها أرنولد وشذبها، قد صُممت من أجل أن ترقى بالممارسة إلى مستوى النظرية، وتحرر الإكراه العقائدي ضد العناصر المتمردة - في الداخل والخارج - من الديني والتاريخي <متسامية به> إلى التجريدي والتعميمي. ويُعتبر أفضل ما يتم التفكير به وفعلةً موقعاً حصيناً لا يرام، في الداخل والخارج. والخامس هو العملية التي بها تعاد كتابة تاريخ الأصليين، بعد أن يتم اقتلاعهم من مواقعهم التاريخية في أرضهم، كوظيفة أدائية من وظائف التاريخ الامبريالي. وهذه العملية تُستخدم السردية لكي تطرد الذكريات المتناقضة وتحجّب العنف - يستبدل الغرائبي طابع القوة بمداهنات الفضول - والحضور الامبريالي طاغ إلى درجة تجعل بذل أي جهدٍ للتفريق بينه وبين الضرورة التاريخية أمراً مستحيلًا. وتُخلق هذه <الأمور> مجتمعةً مزيجاً من فنون السرد والملاحظة حول الأقاليم المراكمة، والسيطر عليها، والحكومة، التي يبدو أن سكانها قدّر لهم الانجواً ابداً، وأن يظلوا مخلوقات للإرادة الأوروبية.

تتفرد «رواية» كسيم في حياة رديارد كبلنغ وعمله المهني بقدر تفردها في الأدب الانكليزي. لقد ظهرت عام ١٩٠١، بعد اثنتي عشرة سنة من مغادرة كبلنغ للهند، وهي مسقط رأسه والبلاد التي سيظل اسمه مرتبطاً بها دائماً. ومما هو أكثر إشاقاً، أن كسيم كانت قطعة السرد المطول الوحيدة الناضجة والدائمة الجودة في نتاج كبلنغ؛ ومع أنها يمكن أن تُقرأ بمتعة من قبل المراهقين، فإنها يمكن أن تُقرأ أيضاً باحترام واهتمام بعد المراهقة بسنوات، من قبل القارئ العام والناقد سواءً بسواء. أما كتابات كبلنغ الاخلاقية السردية الأخرى، فهي إما قصص قصيرة (أو مجموعات قصصية مثل كتب الأدغال)، أو أعمالاً أطول بالغه الضعف (مثل القباطنة الشجعان، والضوء الذي خبا، وستوكي وشركاه، التي يغطي على ما فيها من أمور أخرى مثيرة للاهتمام الإخفاق على مستوى الانسجام، أو الرؤيا، أو المحاكمة «الفكرية»). وحده كونراد، ذلك الأسلوبى الآخر البارع، من يمكن اعتباره إلى جانب كبلنغ، نِدو الأصغر سنأً بقليل، «كاتباً» صاغ التجربة الإمبراطورية موضوعاً رئيسياً لعمله بكل تلك القوة والمقدرة؛ ورغم أن هذين الفنانين مختلفان اختلافاً كبيراً في اللهجة والأسلوب، فقد استحضرا لجمهور بريطاني - هو أساساً جزري وأقاليمي - الوان المشروع البريطاني ما وراء البحار وفتنته الجمالية وسحره الرومانسي، مما كان معروفاً جيداً للقطاعات المتخصصة ضمن مجتمع الداخل. وقد كان كبلنغ - وهو أقل من كونراد «إحساساً» بالمفارقة اللاذعة، وأقل وعياً بالذات على مستوى التقنية، وأقل التباسية وإرابةً - هو الذي نال شعبيةً واسعة في البداية. غير أن كلا الكاتبين ظلا لغزاً محيراً للباحثين في الأدب الإنكليزي الذين يجدونهما شذائين، ومُفلقين في كثير من الحالات، يحسن أن يعالجا بحيطه بل أن يتجنبنا من أن يُستوعبا ويتمثلاً داخل المكنون الشرائعي ويُدجنا جنباً إلى جنب مع انداد لهما مثل ديكنز وهاردي.

تتعلق رؤى كونراد الرئيسية للامبريالية بأفريقيا في قلب الظلام (١٨٩٩)، وبالبحار الجنوبية في لورد جيم (١٩٠٠)، وباميركا الجنوبية في فوسترومو (١٩٠٤). أما عمل كبلنغ الأعظم فإنه يركّز على الهند، وهي بلاد لم يكتب عنها كونراد إطلاقاً. وكانت الهند قد أصبحت، مع أواخر القرن التاسع عشر، أعظم الممتلكات الاستعمارية البريطانية، بل ربما الأوروبية، وأكثرها ديمومةً، وأعلاها درأً للارباح. وقد مارست الهند، منذ وصول البعثة البريطانية الأولى إليها عام ١٦٠٨ حتى مغادرة آخر نواب الملك البريطانيين لها عام ١٩٤٧، تأثيراً هائلاً على الحياة البريطانية، في المبادلات والتجارة، والصناعة والسياسة، والعقائدية والحرب، والثقافة وحياة الخيال. وتبلغ قائمة الأسماء العظيمة التي عالجت الهند وكتبت عنها، في الأدب والفكر الإنكليزيين، حداً مدهشاً، إذ تشمل وليم جونز، وادموند بيرك، ووليم ماكبيس ثاكري، وجيرمي بنتام، وجيمس وجون ستيوارت ميل، واللورد ماكولي، وهاربيت مارتينو... وطبعاً، رديارد كبلنغ، الذي لا تُنكر أهميته في تحديد، وتخيل، وصياغة ما كانته الهند بالنسبة للامبراطورية البريطانية في مرحلتها الناضجة، مباشرة قبل أن يبدأ الصرح بأسره بالتصدع والانسراخ.

وكبلنغ لم يكتب فقط عن الهند، بل كان «جزءاً» منها. وكان والده، لوغود، وهو باحث مرفه، ومعلم، وفنان (وهو أنموذج «شخصية» أمين متحف لاهور العطوف في الفصل

الأول من كيم) معلماً في الهند البريطانية. وقد ولد رديارد هناك عام ١٨٦٥، وكان في سنوات حياته الأولى يتحدث الهندستانية ويعيش حياةً شديدةً الشبه بحياة كيم، وهي حياة صاحب <العظمة>\* في ملابس أصلانية. وفي السادسة من العمر أرسل <ه أهله> مع اخته إلى انكلترا لدخول المدرسة؛ وقد أمدته تجربة السنوات الأولى في انكلترا، التي كانت سنوات عذاب وتبريح مروّعين (تحت إشراف امرأة تدعى مسز هولواوي في ساوثسي) بموضوع دائم <لكتابته>، هو التفاعل بين الشباب والسلطة المنقصة المقيتة، صاغه بدرجة عظيمة من التعقيد وتلابسية المشاعر خلال حياته كلها. بعدئذ ذهب كبلنغ إلى مدرسة خاصة أدنى شأنًا <من المدارس الشهيرة> مخصصة لأطفال موظفي الإدارة الاستعمارية، هي كلية الخدمات المتحدة في وستورد هول (كانت أعظم المدارس هي هيلبري، المقتصرة على الشرائح العليا من النخبة الاستعمارية)؛ وعاد إلى الهند عام ١٨٨٢. كانت عائلته ما تزال هناك، وهكذا - كما يخبرنا هو بهذه الأحداث في سيرته الذاتية شيء من نفسي التي نُشرت بعد موته - عمل صحفياً في البنجاب لمدة سبع سنوات، أولاً في الفشرة المدنية والعسكرية، ثم في صحيفة الرائد.

وقد نَبَعَتْ قصصه الأولى من تلك التجربة، ونُشرت محلياً؛ وبدأ في ذلك الوقت بكتابة شعره أيضاً (ما أسماه تي إس اليوت تَظْماً)، الذي جُمع أولاً في أغنيات دواثرية (١٨٨٦). غادر كبلنغ الهند عام ١٨٨٩، ولم يعد بعدها للإقامة فيها إلا لفترات قصيرة من الزمن، رغم أن عمله على مدى حياته التالية كلها ظل يستقي من ذكريات سنواته المبكرة في الهند. وقد قضى كبلنغ في مرحلة لاحقة بعض الوقت في الولايات المتحدة (وتزوج من امرأة أميركية) وفي جنوب أفريقيا، غير أنه استقر في انكلترا بعد ١٩٠٠: وكُتبت كيم في بيتن، المنزل الذي عاش فيه حتى وفاته عام ١٩٣٦. وقد اكتسب بسرعة شهرةً عظيمة وشعبية بين القراء واسعة؛ ومُنح جائزة نوبل <للآداب> عام ١٩٠٧. كان أصدقاؤه أغنياء وأقوياء، بينهم ابن خالته <رجل الدولة الانكليزي> ستانلي بولدوين، والملك جورج الخامس، وتوماس هاردي؛ وقد تحدث عدد كبير من الكتاب البارزين، بمن فيهم هنري جيمس وكونراد، عنه باحترام. وبعد الحرب العالمية الأولى (التي قُتل فيها ابنه جون) أعتمت رؤياه إلى درجة كبيرة. ومع أنه ظل دائماً امبريالياً ينتمي إلى حزب المحافظين، فإن قصصه البانسة الداكنة الرؤيوية عن انكلترا والمستقبل، إضافةً إلى قصصه الشذازة عن الحيوانات واللاهوت الزائف، أُنذرت بتحولٍ في صيته وسمعته. وحين توفي، أُغدق عليه الشرف الأسمى الذي تغدقه انكلترا على كتابها العظماء: إذ دُفن في كنيسة وستمنستر. وبقي كبلنغ مؤسسة <حقيقية> في الآداب الانكليزية، وإن تكن مؤسسة منفصلة قليلاً عن المجري المركزي العظيم، تلقى الاعتراف لكنها مُغفلة، وتحظى بالتقدير لكنها غير مكنونة مشرعةً بصورة تامة.

كثيراً ما يتحدث المعجبون بكبلنغ ومريدوه عن تمثيله للهند وكان الهند التي كتب عنها مكان سرمدى، لامتغير، جوهرائي، مكان يكاد يكون شعرياً بقدر ما هو حقيقي في

\* - الكلمة التي يستخدمها النص هي "Sahib"، وهي فيما يبدولي الكلمة العربية أصلاً التي استُخدمت في الهند إشارةً، في التحية خاصة، إلى السيد الأوروبي. وقد تكون اختصاراً العربية التي ما تزال تستخدم: صاحب السعادة، صاحب السيادة، صاحب العظمة، الخ.

المحسوسية الجغرافية. وتلك، في يقيني، قراءة خاطئة جذرياً لأعماله. فلئن كانت لهند كبلنغ خصائصٌ جوهرائيةٌ ولامتغيرة، فإن ذلك يعود إلى أنه اختار متعمداً أن يراها كذلك. إننا، بعد كل حساب، لا نفترض أن قصص كبلنغ الأخيرة عن انكلترا أو حكاياه عن حرب البور تدور <على التوالي> حول انكلترا أو جنوب أفريقيا جوهرائيتين؛ بل إننا بالأحرى نستخلص مصيبيين أن كبلنغ كان يستجيب لحسّه بهذين المكانين في لحظات معينة من تاريخيهما ويعيد فعلياً تشكيل هذا الحس تخيلاً. ويصدق الأمر نفسه على هند كبلنغ، التي ينبغي أن تُؤوَّك بوصفها إقليمياً سيطرت عليه بريطانيا لمدة ثلاثمئة سنة، ولم يبدأ إلا عندئذ يعيش تجربة القلاقل التي تآوجت بفككة الاستعمار وبالاستقلال.

ينبغي أن يبقى في خاطرنا ونحن نُؤوَّك كيم عاملان اثنان. الأول هو أن مؤلفها، سواء أراق لنا ذلك أم لم يرق، لا يكتب من وجهة النظر المسيطرة لرجل أبيض في مملكة استعمارية فحسب، بل كذلك من منظور نظام استعماري هائل كان اقتصاده، وأداؤه العملي، وتاريخه جميعاً قد اكتسبت مقامَ حقيقةٍ من حقائق الطبيعة. إن كبلنغ يفترض بدهاءٍ إمبراطورية ليست، بشكل أساسي، مدار نزاع. على أحد جانبي الفالق الاستعماري كان ثمة أوروبا مسيحية بيضاء سيطرت دولها المتعددة - بريطانيا وفرنسا بصورة رئيسية، لكن أيضاً هولندا، وبلجيكا، وألمانيا، وإيطاليا، وروسيا، والبرتغال، وإسبانيا - على معظم سطح الكرة الأرضية. وعلى الجانب الآخر، كان ثمة عددٌ هائل التنوع من الأصقاع والأعراق التي اعتُبرت جميعاً أقلّ مكانةً، دونيةً، تابعةً، وخاضعة. وقد اعتُبرت مستعمراتٍ <بيضاء> أيضاً، مثل أستراليا وإيرلندا، مكوّنة من بشر دونيين؛ وتربط لوحة مشهورة لدوميه، مثلاً، بصراحة بين البيض الأيرلنديين والسود الجاميكيين. وكان كلٌّ من هذه الشعوب الخاضعة الأدنى مصنفاً ومُؤَضَعاً ضمن خطةٍ للشعوب يضمنها علمياً باحثون وعلماء مثل جورج كوفييه، وتشارلس دارون، وروبرت نوكس. وكان الفصل بين البيض وغير البيض، في الهند وكل مكان آخر، فصلاً مطلقاً، يلمع إليه عبر كيم بأسرها كما في بقية أعمال كبلنغ؛ إن صاحب يظل صاحباً <أبداً>، ولايجدي أيُّ قدر من الصداقة أو الرفقة الحميمة <مع الأصليين> في تغيير مبدئيات الفروق العرقية. ولم يكن كبلنغ ليتسائل عن <مشروعية> هذا الفرق، وعن حق الأوروبي الأبيض في أن يحكم، بأكثر مما كان له أن يتجادل مع <جبال> الهلمايا.

أما العامل الثاني فهو أن كبلنغ كان كائناً تاريخياً، إلى درجة لا تقل عن الهند نفسها، كما كان فنانياً كبيراً. وقد كُتبت كيم في لحظة محددة من حياته المهنية، في وقت كانت العلاقة فيه بين شعبي الهند وبريطانيا تتعرض للتغير. وكانت كيم مركزية الأهمية بالنسبة للعصر شبه الرسمي للإمبراطورية، وهي بطريقة ما تُتمثل هذا العصر. ورغم أن كبلنغ قد قاوم هذه الحقيقة القائمة، فإن الهند كانت قد قطعت شوطاً من الطريق إلى <خلق> المحرك الحيوي للمعارضة الشاملة العلنية للحكم البريطاني (تأسس المؤتمر القومي الهندي عام ١٨٨٥) فيما كانت تغييرات هامة تحدث ضمن موظفي الفئة المغلقة المسيطرة في الإدارة الاستعمارية البريطانية، العسكريين والمدنيين على حد سواء، نتيجة لتمرده عام ١٨٥٧. كان البريطانيون والهنود يَمرون بتطور وتحول، وكانوا <يتطورون ويتحوّلون> معاً. كان لهم تاريخٌ متداخل مشترك، فصّل بينهم فيه التعارض، والعدائية،

والتعاطف، أو قرَّبتَ <هذه جميعها> بينهم. وتشكَّل كيم، هذه الرواية اللافئة المعقدة، جزءاً مضيئاً جداً من ذلك التاريخ، محشواً بال تأكيدات، والنبرات المعربة، والاشتمالات والإقصاءات المتعمدة، كما هو شأن كل عمل فني عظيم. ومما زادها إشاقَةً أَنْ كِبلنغ لم يكن شخصاً محايداً في الوضع الأنكلو - هندي، بل كان لاعباً بارزاً فيه.

ورغم أن الهند نالت استقلالها (وقُسمت) عام ١٩٤٧، فإنَّ كِبلنغ تأويل التاريخ الهندي والبريطاني في المرحلة التالية لفككة الاستعمار ما تزال، شأنها شأن جميع المواجهات الكثيفة المماثلة الحافلة بدرجة عالية من التنازع، مسألةً مناظرةً شاقّةً جاهدة، وإن لم تكن دائماً مثريّةً مجزية. ثمة، مثلاً، وجهة النظر القائلة بأنَّ الامبريالية تركت ندوباً وتشويهاتٍ دائمةً في الحياة الهندية، إلى درجة أن الاقتصاد الهندي، حتى بعد عقودٍ من الاستقلال، ما يزال يعاني آثار استنزافه لمصلحة حاجات بريطانيا وممارساتها. وعلى عكس ذلك، ثمة مفكرون، وسياسيون، ومؤرخون، بريطانيون يؤمنون بأنَّ تخلي بريطانيا عن الامبراطورية - التي تمكَّنت رموزها في قناة السويس، وعدن، والهند - كان أمراً سيئاً لبريطانيا وسيئاً لـ "الأصلايين"، وبأنَّ كلا الطرفين قد تدهور وانحط بطرق عديدة ومتباينة منذ ذلك الوقت (١٣٦).

حين نقرا كيم كِبلنغ اليوم فإنَّها تستطيع أن تمسَّ <وتثير> العديدَ من هذه المسائل. هل يصوِّر كِبلنغ الهنود بشراً أدنى <من البيض> أم، بشكل ما، مساوين <لهم> لكنهم مختلفون <عنهم>؟ من الجلي أن قارناً هندياً سيعطي جواباً يركز على عوامل معينة أكثر من أخرى (مثلاً، آراء كِبلنغ التمييزية - التي سيصفها البعض بأنها عرقية عنصرية - في الشخصية الشرقية)، وأما القراء الانكليز والأميريكيون فسيؤكدون على شعور المودة الذي يحمله للحياة الهندية على الطريق الرئيسي الكبير. إذن، كيف نقرا كيم كرواية من روايات أواخر القرن التاسع عشر سبقتُها أعمالُ سكوت، وأوستن، وديكنز، و<جورج> إليوت؟ ينبغي ألا ننسى أن الكتاب هو بعد كل حساب روايةٌ ضمن خط من الروايات، وأنَّ ثمة أكثر من تاريخ واحد فيه ينبغي أن يُستذكر، وأنَّ التجربة الامبريالية - مع أنها كثيراً ما تعتبر تجربةً سياسية حصرأ - قد تغلغلت أيضاً إلى الحياة الثقافية والجمالية للغرب الحواصري كذلك.

قد يكون من المستحسن أن يورد هنا ملخصٌ وجيزٌ لحبكة الرواية. كيمبال أوهارا هو الابن اليتيم لرقيب في الجيش الهندي؛ واه أيضاً بيضاء. وقد نشأ ابناً لأسواق لاهور القديمة، حاملاً معه تعويذةً وبضع أوراق تشهد على أصله. يلتقي براهب تيبتي قديسي يبحث عن النهر الذي يؤمن بأنه سيظهر فيه من أاثمه. يصبح كيم مريده، أو حواريه، ومعاً يطوف الاثنان مغامرَيْن يعيشان على الصدقات في أرجاء الهند، مستمدين بعض العون من الأمين الانكليزي لمتحف لاهور. وفي الوقت نفسه، يتورط كيم في خطةٍ للمخابرات البريطانية لإحباط مؤامرةٍ تقف وراءها روسيا تُهدف إلى إحداث قلاقل وتمردٍ في أحد أقاليم البنجاب الشمالية. ويُستخدم كيم رسولاً بين محبوب علي، وهو تاجرٌ خيول أفغاني يعمل في خدمة البريطانيين، والعقيد كريتون، رئيس الاستخبارات، وهو باحث في علم الأعراق الوصفي <العرقرافيا>. فيما بعد، يلتقي كيم بالعضوين الآخرين في فريق كريتون في "اللعبة العظيمة" <أي الاستخبارات البريطانية في الهند>، وهما لورغان

صاحب، وهوري بابو، وهو أيضاً دارسٌ عرقيجرافي. وقبل أن يتم لقاء كيم مع كريتون، كان قد انكشف أن كيم أبيض (وإن كان إيرلندياً) وليس أصلياً كما يبدو من مظهره، ويُرسَلُ إلى مدرسة سانت كزافيير، من أجل أن يستكمل تعليمه كصبي أبيض. وينجح الراهبُ في الحصول على أموال لدفع تكاليف تعليم كيم، وأثناء الإجازات يستأنف الشيخُ وحوارته الشابُ ترحالهما. يلتقي كيم والشيخ بالجواسيس الروس، ويسرق الصبي منهم بطريقة ما بعض الأوراق التي تدينهم، لكن ذلك لا يتم إلا بعد أن يكون "الأجانب" قد هاجموا الرجل المقدس. ورغم أن المكيدة قد اكتشفت وأحبطت، فإن كلا الحواري ومعلمه ينفطر قلباهما غمًا ويمرضان. وتشفيهما من المرض القوي الخلاصية الترميمية التي يملكها كيم والتواصل الجديد مع الأرض؛ ويدرك الشيخ أنه من خلال كيم قد عثر على النهر. ومع اختتام الرواية، يعود كيم إلى "اللعبة العظيمة"، ويدخل فعلياً سلك الخدمة الاستعمارية البريطانية موظفاً متفرغاً.

ستسبب بعضُ ملامح كيم صدمةً لأي قارئ، بغض النظر عن السياسة والتاريخ. فهي بشكل كاسح روايةٌ ذكور، يحتل مركزها رجلان جذبان جاذبيةً مذهشة: صبي يتنامى ليبلغ أوائل الرجولة، ورجلٌ دين كهلٌ متنسك. وحولهما يتجمع رجال آخرون، بعضهم رفاق، وبعضهم زملاء وأصدقاء؛ ويصنع هؤلاء واقع الرواية الرئيسي، المحدد. محبوب علي، ولورغان صاحب، وبابو العظيم، إضافةً إلى الجندي الهندي الكهل وابنه الفاتن الفارس، ثم العقيد كريتون، والسيد بنيت، والأب فكتور - لاسمي حفنةً فقط من الشخصيات العديدة في هذا الكتاب الحافل بالنشاط -: جميعهم يتحدثون تلك اللغة التي يتحدثها الرجالُ فيما بينهم. وأما النساء فقليلات بشكل لافت بالمقارنة، وهنّ جميعهنّ بصورة ما ممتهّناتٌ أو غيرُ جديرات باهتمام الرجال - عاهرات، أو أرامل عجائز، أو نساء لجوجات وشبقات مثل أرملة شامليغ؛ يقول كيم: "أن يكون المرء معرّضاً لمضايقات النساء أبدأ"، يعني أن يُعاقب في لعب "اللعبة العظيمة" (أي الاستخبارات البريطانية في الهند)، التي يلعبها على خير وجه الرجال وحدهم. إننا في عالم ذكوري يطفى عليه السفر، والتجارة، والمغامرة، والمكائد؛ وهو عالم عازبٌ متبتل، فيه يطوق ويراوغ، ويتحاشى، ويُغفل <كلُّ من> سحر العشق المألوف في الكتابة الاختلاقية، ومؤسسة الزواج العريقة الدائمة. والنساء، في أفضل الحالات، يساعدن ما يحدث على أن يحدث: إنهن يشترين لك بطاقتك، ويظهن الطعام، ويعنين بالمرضى... ويزعجن الرجال.

يظل كيم نفسه صبياً، رغم أنه في الرواية يكبر في السن من الثالثة عشرة إلى السادسة أو السابعة عشرة، ويظل لديه ولعُ الصبي بالحيل، والمزجات، واللعب الذكي على الكلمات، وسعة الحيلة ووفرة المقدرات. ويبدو أن كيلنغ قد احتفظ على مدى حياته بتعاطف عميق مع نفسه كصبي تعرّض لمضايقات عالم الكبار المحتشد بمدراء المدارس والقسس ذوي السطوة (ويمثّل السيد بنيت في كيم عينة لهم مقبته بشكل خاص) الذين ينبغي دائماً أن يُحسب حسابٌ لسلطتهم - إلى أن يأتي شخص آخر ذو سلطة، مثل العقيد كريتون، ليعامل الفتى اليافع بعطفٍ متفهم لكنّه لا يقلّ سلطويةً. ولا يكمن الفرق بين مدرسة سان كزافيير، التي يذهب إليها كيم لبعض زمن، والخدمة في "اللعبة العظيمة" (الاستخبارات البريطانية في الهند) في مدى الحرية الأوسع الذي توفره الثانية؛ فالعكس هو الصحيح، إذ إن مقتضيات الاستخبارات أشد صرامة وقسوة. بل يكمن الفرق في حقيقة أن المدرسة

تفرض سلطةً لا جدوى منها، وأما مقتضيات الخدمة السرية فإنها تتطلب من كيم انضباطاً مثيراً ودقيقاً يتقبله بصدور منشرح. و"اللعبة العظيمة"، من وجهة نظر كريتون، هي نوع من الاقتصاد السياسي للسيطرة، يمثل الخطيئة الكبرى فيه، كما يقول ذات مرة لكيم، الجهل: الأ تكون على معرفة. أما بالنسبة لكيم فإن "اللعبة العظيمة" لا يمكن أن تُتصور بانساقها المعقدة كلها، رغم أنها يمكن أن تكون مصدر متعة كنوع من المزاح المديد. وتقدم المشاهد التي يمازح فيها كيم، ويساوم، ويحبب بسرعة بديهة وفطنة من يكبرونه سنأ - الودودين والعدوانيين منهم سواء بسواء - دلائل على مخزون كبلنغ الذي يبدو أنه لا ينضب من المتعة الصبانية باللذة البُهرية الخالصة النابعة من لعب لعبة، أي كانت اللعبة.

ينبغي الا نخطئ <فَهْم> هذه المذات الصبانية. فهي لا تناقض الغرض السياسي الشامل للسيطرة البريطانية على الهند وعلى ممتلكات بريطانيا الأخرى ما وراء البحار: بل على العكس من ذلك تماماً، فإن اللذة - التي كثيراً ما تُقفل دراسة حضورها المستمر في أشكال عديدة من الكتابة الامبريالية الاستعمارية والفنون التصويرية والموسيقية - هي مكوّن لا يمكن إنكاره من مكونات كيم. ويوجد مثلاً مختلف على هذا المزيج من اللهو والجدية السياسية التي لا تحيد عن هدفها في تصور اللورد بادن-پاول للكشفة، التي أُسست ودُشنت في ١٩٠٧-١٩٠٨. كان ب. پ، كما عُرف، معاصراً لكبلنغ بالضبط تقريباً، وتأثر تأثراً عظيماً بصببية كبلنغ عامّة وبموغلي خاصة: وقد ادخلت أفكار ب. پ عن "الصبولوجيا" boyology هذه الصور مباشرة إلى خطة جليلة من خطط السيطرة الامبريالية بلغت أوجها في البنية العظيمة للكشفة "محصنة جدران الامبراطورية"، الأمر الذي أكد هذا التقاطع المبتكر بين اللهو والخدمة في صفّ تلوصف من خدم الامبراطورية الصغار ذوي الأحداق اللامعة، المهوفين، المتعددي الكفاءات الواسعي الحيلة، المنتمنين إلى الطبقة الوسطى<sup>(١٢٧)</sup>. إن كيم، بعد كل حساب، هو في أن واحد ايرلندي ومن فئة اجتماعية أدنى؛ وذلك ممّا يحسن في نظر كبلنغ فرص ترشيحه للخدمة <الاستخباراتية>. ويتفق ب. پ وكبلنغ على أمرين هامين آخرين: أن على الصبيان أن يتصوروا الحياة والامبراطورية محكومتين بقوانين لا تنتهك، وأن الخدمة تكون أكثر إمتاعاً حين يفكر بها كأرض ملعب - متعددة الأبعاد، متقطعة، وفضائية - أكثر ممّا حين يفكر بها كقصة - خطية، متصلّة، وزمانية. ويختصر كتاب صادر حديثاً للمؤرخ جي. أي. مانغان المسألة كلها في صيغة لطيفة هي عنوان الكتاب: **الامبريالية وفلسفة اللعبة**<sup>(١٢٨)</sup>.

إن منظور كبلنغ لمن الاتساع، وإنه لحساس بصورة غريبة لتنوع الإمكانات المتاحة للإنسان ومداهها، بحيث يوازن أخلاقيات الخدمة هذه في كيم بإطلاق عنان التعبير لنزعة أخرى من نزعاته العاطفية، التي يعبر عنها اللاما التيببتي الغريب وعلاقته مع الشخصية التي يعطي اسمها للرواية عنوانها. ورغم أن كيم سوف يجنّد للعمل الاستخباراتي، فإن هذا الولد الموهوب كان قد أغري واجتذب من قبل ليصبح مريداً للآما عند مفتتح الرواية تماماً. ولهذه العلاقة التي تكاد تكون رعوية طوباوية بين رفيقين ذكرين نسب سلالي شيق بحق. إن كيم تحتفي، كما تفعل بعض الروايات الاميركية (وتخطر بالبال فوراً هكليري فين، وموبي دك، وذابح الظباء)، بالصدقة بين رجلين في بيئة صعبة، وعدائية أحياناً. لاشك أن الحدود الاميركية والهند الاستعمارية مختلفة جداً، بيد أنها <كلها> تضي درجة من الأولوية على رابطة الذكورة أعلى مما تضيفه على الصلة البيتية أو الغرامية

بين الجنسين. وقد تكهنَ بعضُ النقاد بوجود متخللٍ خفيٍّ من المثجنسية في هذه العلاقات، لكنَّ ثمة أيضاً المتخلل الثقافي الذي ارتبط منذ زمن طويل بحكايا الكدية <البيكارسك> التي ينخرط فيها مغامرٌ ذكُورٌ (تكون زوجته أو أمه، إذا كان له أيُّ منهما، بسلام في البيت) مع رفاق ذُكور في تعقُب حلم خاص - مثل جيسن، وأوديسيوس أو، في شكل يفوقهما تأثيراً، دون كيشوت مع سانتشو بانزا. إن بوسع رجلين، في الحقول أو على الطرقات المكشوفة، أن يسافرا معاً بسهولة أعظم، وبوسع أحدهما أن يهرع إلى نجدة الآخر بصورة أكثر مصداقية، مما إذا كان الرفيق امرأة. وهكذا يبدو أن تراث قصص المغامرات العريق، من أوديسيوس وطاقمه إلى الـ لون رينجر وتونتو، فهولمز وواطسن، وياتمن <الرجل الوطواط> وروين، يستمر سارياً متيناً.

وإضافةً إلى ذلك، فإنَّ مرشد كبلنغ القدسي ينتمي إلى ذلك النهج الديني صراحةً من انهاج الحج أو البحث المتشوّف الشائع في جميع الثقافات. ونحن نعلم أن كبلنغ كان معجباً بحكايات كافنبري لتشوسر وتقدّم الحجيج لِ بَنِين. لكنَّ كيم أقرب بكثير إلى عمل تشوسر منه إلى عمل بنين. إنَّ لكبلنغ عينَ شاعر الإنكليزية الوسطى التي يجذبها التفصيلُ الجامع، والشخصيةُ الشاذة، وشريحةُ الحياة <الحقيقية>، والإحساسُ المتسلي بالمثالب والمسرات الإنسانية. لكنَّ كبلنغ، خلافاً لكلا تشوسر وبنين، أقلُّ اهتماماً بالدين في ذاته ولذاته (مع أننا لا نشك لحظة في تقوى الراهب -اللاما) منه باللون المحلي، والانتباه المُوسَّوس في دقته للجزئية الغرائبية، والوقائع الشاملة للعبة العظيمة <الاستخبارات>. وإنَّ عظمة إنجاز كبلنغ لتمثّل في أنه قد مَوْضَع الراهب بثبات، دون أن يغمطه حقّه أو يقلل بأي شكل من الإخلاص المستحب لبحثه وتشوّفه، داخل المدار الواقعي للحكم البريطاني الهندي. ويجد هذا التعبيرَ الرمزيُّ عنه في الفصل الأول، حين يعطي أمينُ المتحف البريطاني الكهل للراهب نظارتيه، مضيفاً بذلك إلى الموقع الامتيازي الروحي للرجل وإلى سلطته، ومعززاً عدالة سطوة بريطانيا الأريحية وشرعيتها.

في رأيي أن وجهة النظر هذه قد فهمت فهماً سيئاً، بل أنكرت أيضاً، من قِبَل الكثيرين من قراء كبلنغ. غير أن علينا الأُنسى أن اللاما يعتمد على كيم في المؤازرة والهداية، وأنَّ إنجاز كيم لا يتمثل في كونه قد خان قيم اللاما ولا في كونه تراخي في عمله كجاسوس ثانوي. إنَّ كبلنغ حريص، خلال الرواية كلها، على أن يُظهر لنا بجلاء أن اللاما، وهو الرجل الحكيم الصالح، يحتاج إلى شباب كيم، وإرشاده، وفطنته وذكائه؛ بل إنَّ اللاما ليعترف صراحةً بحاجته المطلقة، الدينية لكيم حين يروي، في بنارس <في شمالي الهند>، قرب نهاية الفصل التاسع، "الجاتاكا"، وهي الحكاية التمثيلية للغيل الشاب ("الرب ذاته") الذي يُطلق سراح الغيل الهرم (اناندا) المكبل بقيد حديدي. من الجلي أن الراهب -اللاما يعتبر كيم مخلصه. وفي وقت لاحق، بعد المجابهة المصيرية مع العملاء الروس الذين يحرّضون على التمرد ضد بريطانيا، يساعد كيم (كما يتلقى المساعدة من) اللاما الذي يقول، في واحدٍ من أكثر المشاهد في عمل كبلنغ الروائي كله تأثيراً وإثارةً للعاطفة، "يا بني، لقد عشتُ على قوتك كما تعيش شجرةُ هرمة على كلس جدار عتيق". ومع ذلك فإنَّ كيم، الذي يبادل مرشدَه الروحيَّ الحبَّ، لم يتخل لحظة عن واجبه في "اللعبة العظيمة"، رغم أنه يعترف للشيخ بأنه يحتاج إليه في بعض الأمور الأخرى.



لا ريب أن هذه "الأمر الأخرى" هي اليقين <الديني> والهدف الذي لا يوهن. ولا تفتا كيم، في أحد خيوطها السردية الرئيسية، تعود إلى التشوف والبحث: بحث اللاما عن الخلاص من دلاب الحياة، الذي يحمل <اللاما> تخطيطاً له معقداً في جيبه، ويحث كيم عن مكان آمن في الخدمة الاستعمارية. ولا يعامل كبلنغ ايأً منهما معاملةً فوقية. إنه يتبع اللاما حيثما مضى في رغبته في التحرر من "غوايات الجسد"، وليس ثمة من شك في أن جزءاً من انخراطنا في البعد الشرقي للرواية، الذي يصوغه كبلنغ دون أي قدر من الغرائبية الزائفة، يعود إلى مقدرتنا على تصديق احترام الروائي لهذا الحاج. بل الحق أن اللاما يحظى باهتمام وتقدير الجميع تقريباً. فهو ينجز وعده بالحصول على المال لتعليم كيم؛ ويقابل كيم في الأماكن والأزمنة المتفق عليها؛ ويصغي إليه الناس بإجلال وتфан. وفي لمسة لطيفة لطفاً خاصاً في الفصل الرابع عشر، يجعله كبلنغ يروي "حكاية عجائبية محشوة بالسحر والفتنة والمعجزات" تدور حول أحداث رائعة في جبال بلده الاصلاني التيب، وهي أحداث يُحجَم الروائي بلباقة وتادب عن تكرارها، فكانه يقول إن لهذا القديس الهرم حياته الخاصة التي لا يمكن أن يعاد إنتاجها في نثر إنكليزي متسلسل مسترسل.

يبلغ بحث اللاما ومرض كيم نقطة حلّهما في نهاية الرواية معاً. إن قراء العديد من حكايات كبلنغ الأخرى يالفون ما يسميه الناقد جي. إم. أس. تومپكنز بحق "موضوعة الشفاء"<sup>(١٢٩)</sup>. هنا أيضاً تتقدم السردية دونما هواده نحو أزمة عظيمة. وفي مشهد لا يُنسى يهاجم كيم المعتدين الأجانب الذين انتهكوا اللاما، ويتمزق مخطط الشيخ الطلسمي، فيتشرد الحاجان البائسان عبر التلال محرومين من الهدوء والعافية. وينتظر كيم أن يزاح عن كاهله العيب الذي يحمله، وهو رزمة الأوراق التي سرقها من الجاسوس الأجنبي؛ ويشتد وعي اللاما إلى درجة لا تطاق بالزمن الطويل الذي ينبغي أن ينتظره قبل أن يستطيع أن يحقق غاياته الروحية. وإلى هذا الموقف الذي يقطع نياط القلب، يُدخّل كبلنغ واحدة من المراتين الساقطتين العظيمتين في الرواية، وهي امرأة شاملينغ (أما الثانية فهي أرملة كولو الكهله)، التي كان قد هجرها منذ زمن بعيد صاحبها "الكريستاني"، <لكنها ماتزال قوية، متدفقة بالحوية، مشبوبة عاطفياً رغم كل شيء. (ثمة ما يذكر هنا بوحدة من أكثر قصص كبلنغ القصيرة المبكرة تأثيراً في النفس، وهي "ليسبت"، التي تعالج معضلة المرأة الأصلانية التي يحبها رجل أبيض على أهبة الرحيل، لكنّه لا يتزوجها أبداً). وتومض لمحة خافتة من شحنة جنسية بين كيم وامرأة شاملينغ الشبقة، لكنها تخبو بسرعة، إذ ينطلق كيم واللاما في رحيل جديد.

ما هي العملية الشفائية التي ينبغي أن يمر بها كيم واللاما الكهل قبل أن تتاح لهما الراحة؟ لا يمكن الاجابة على هذا السؤال المعقد جداً والشيق جداً إلا بطريقة بطيئة ومتمعنة، ذلك أن كبلنغ كان بالغ الحرص على أن لا يُلجّ على الحدود الحاصرة للحل الامبريالي المشحون بحميا الاستعلانية الوطنية. وكبلنغ لن يتخلى عن كيم والراهب الكهل دون مبالاة بالعواقب لـ <مجرد> إشباع رغبات مخادعة في تلقي الإطراء على عمل سهل تم إنجازه باتقان. وهذه الحيلة طبعاً ممارسةً روائية جيدة، لكن ثمة دوافع ملزمة أخرى - عاطفية، وثقافية، وجمالية. إن كيم ينبغي أن يُمنح مكانة في الحياة ملائمة لهويته التي صار صراعاً عنيداً من أجلها. فقد قاوم إغواءات "لورغان صاحب" الايهامية وأثبت حقيقة أنه هو كيم فعلاً؛ وقد احتفظ بمقام "صاحب" حتى فيما ظلّ ابناً كئيساً للأسواق

القديمة والسطوح؛ وقد لعب اللعبة بإتقان، وحارب من أجل بريطانيا بقدر من المخاطرة بحياته وفعل ذلك أحياناً بالعمية؛ وقد صدّ امرأة شاملينج بنجاح. أين ينبغي، إذن، أن يوضع؟ أين <يوضع> رجل الدين المحبوب الكهل؟

سوف يميز قراء نظريات فكتور تيرنر العلمسانية في انزياحات كيم، وأقنعتة، ومراوغاته العامة (الناجعة عادة) الخصائص الجوهرية لما يسميه تيرنر "العنبي" liminal. يرى تيرنر أن بعض المجتمعات تتطلب شخصية توسطة بوسعها أن تنسج أفرادها نسجاً لحيماً ليصيروا مُنجماً، وتحيلهم إلى ما هو أكثر من بنيات إدارية أو قانونية.

الكائنات العنبية، من مثل المعتنقين لدين جديد في طقوس الاستبداء أو البلوغ <الجنسي>، يمكن تمثيلها بوصفها لا تملك شيئاً. قد تُقنَع في هيئة اغوال، أو ترتدي شرائط من الثياب فقط، بل قد تتعري، لكي تبرهن أنها لا تملك مقاماً، أو ممتلكات، أو اسماء، مانزة... كما لو أنها تقلص أو تُشدّب وتُنزَل إلى وضع موحد لتصاغ من جديد وتُضغى عليها قوى إضافية تمكّنها من تدبّر أمور موقعها الجديد في الحياة (١٣٠).

إن كون كيم نفسه، في أن واحد، صبيّاً إيرلندياً منبوذاً ثم لاعباً أساسياً في لعبة الاستخبارات البريطانية العظيمة ليشي بفهم كبلنغ الخارق شبه السحري لآليات عمل وإدارة السيطرة على المجتمعات. إن المجتمعات، تبعاً لتيرنر، لا يمكن أن تدار بصرامة جامدة من قبل "البنيات" كما لا يمكن أن تكتسحها كلية شخصيات الهيبيين المشردين أو اصحاب اليقين الألفي الهامشية، النبوية، المستلبة الاغترابية؛ لا بد أن يكون ثمة تناوب، بحيث تُحسّن سطوة أحد الطرفين أو تُلطّف وتعدلّ بإلهام من الآخر. إن الشخصية العنبية تساعد على الحفاظ على المجتمعات، وذلك هو الإجراء الذي يضعه كبلنغ موضع التنفيذ في اللحظة الذرية من الحبكة وتحول شخصية كيم.

ولعلاج هذه المسائل، يخترع كبلنغ مرض كيم ويؤسّ اللاما وشعوره بالنبذ. ثمة أيضاً الحيلة العملية الصغيرة المتمثلة في جعل بابو الذي يصعب كبح اندفاعه وحيويته - والمتفاني <في الاعجاب ب> هربرت سبنسر تفانياً لا يُتوقّع من مثله، ومرشد كيم الأصلي والعلماني في "اللعبة العظيمة" - يظهر لكي يضمن نجاح مغامرات كيم. إذ تُؤخذ بأمان رزمة الأوراق الشاهدة على الجرم التي تبرهن المكائد الروسية - الفرنسية والخدع الماكرة التي يقترفها بنذالة أمير هندي. عندئذ يبدأ كيم يشعر، بكلمات عطيل، بخسارة مهنته:

طوال ذلك الوقت كان يشعر، وإن لم يستطع التعبير عن ذلك بالكلمات، أن روحه كانت في حالة من التنافر مع ما يحيط به - <فهي أشبه ب> دولا ب لا يتصل بأية آلة، بالضبط مثل دولا ب رخيص معطل لكسارة "بهيها" للسكر رخيصة مطروحة في زاوية ما. كانت النسومات التي تهب فوقه، والبيغاوات التي تزحف في وجهه، والضجيج المتصاعد من البيت المسكون من خلاله - مشادات، وأوامر، وتائيات - تقع على أذان ميتة (١٣١).

وواقع الأمر أن كيم كان قد مات <إحساسه> بهذا العالم، وكان، مثل البطل الملحمي أو الشخصية العنبية، قد هبط إلى نوع ما من العالم السفلي سيخرج منه، إذا أُتيح له أن يخرج، أشد قوة وأكثر سيطرة على زمام الأمور مما كان عليه من قبل.

ينبغي الآن أن يُلام الشرح بين كيم وهذا العالم. وقد لا تكون الصفحة التالية أوج فنّ كبلنغ، لكنها قريبة من ذلك، يُبنى المقطع <التالي> حول جواب يتبلج بالتدرج على سؤال كيم: "أنا كيم. فما هو كيم؟ هوذا ما يحدث:

لم يُرد أن يبكي - لم يشعر مرة واحدة في حياته كلها برغبة أقل في البكاء مما شعر به الآن - لكن فجأة قطرت دمعاً سهلة بلها، فوق أنفه، وأحس في نكة كادت تكون مسموعاً بدواليب وجوده تنقل من جديد في وجه العالم الخارجي. انزلت أشياء - كانت قبل لحظة فقط قد اعتلت جوفاً من كل معنى حدقة العين - إلى مقياس متناسب سليم. فالطرق يُصعد منها أن يسار عليها، والبيوت أن تُسكن، والقطعان أن تساق، والحقول أن تُحرث، والرجال والنساء أن يُحدث اليهم. كانت كلها واقعية وحقيقية - مزروعة بصلاصة على الأقدام - قابلة للفهم تماماً - طينة من طينته، لا أكثر ولا أقل<sup>(١٣٣)</sup>.

تدرجياً، يبدأ كيم يحس بسلام وتناغم مع نفسه ومع العالم. ويتابع كبلنغ:

ثمة وقفتُ عربةً ثيران فارغة على تلة صغيرة مستديرة تبعد نصف ميل، وخلفها شجرة بانيان \* "banian" شابة - مرّقب، إذا جاز التعبير، فوق مستويات محرونة حديثاً؛ وثقلت اجفانه، المستحمة في الهواء الرقيق، وهو يقترب منها. كانت الأرض تربةً طيبة نظيفة - لا اعشاباً جديدة حية <لكنها> في منتصف الطريق إلى الموت، بل التربة الموملة التي تحمل بذرة كل حياة. أحس بها بين أصابع قدميه، رثتها بكفه، موصولاً موصولاً، مُتهدأ برحاء وسلاسة ثريين، واستلقى على الأرض بطوله الكامل في ظلال العربة المثبتة بالخشب. وكانت الأرض الأم مخصصة لإخلاء الصاحبة [أرملة كولو التي كانت تُعنى بكيم]. تنفست <الأرض> خلاله لتعيد له الاتزان الذي كان قد فقده وهو يمتد كل هذا الزمن على مهاد صغير مُتبتاً عن تياراتها الطيبة. ارتدى رأسه واهناً على صدرها، واستسلمت يدها المنبسطنان لقوتها. وعرفت الشجرة المتعددة الجذور فوقه، بل عرف الحطب الميت (الذي عالجت يد الإنسان بقسوة) إلى جانبه، ما كان ينشده، كما لم يعرفه هو نفسه. ساعةً تلو ساعة، استلقى في ما هو أعمق من النوم<sup>(١٣٤)</sup>.

وفيما ينام كيم الصبي راح اللاما ومحبوب يناقشان مصيره؛ كلاهما يعرف أن كيم قد شفي، ومن هنا فإن كل ما يبقى هو وجهة حياته ونزوعها. فمحبوب يريد أن يعود إلى الخدمة؛ ويقترح اللاما، ببرامته المذهلة تلك، على محبوب أن ينضم إلى كلا المرشد والمرشد الروحي في رحلة حجّهما على طريق الحق. وتختتم الرواية <بمشهد> اللاما يجلو لكيم أن كل شيء الآن على ما يرام، لأنه قد رأى:

"الهند كلها، من سيلان في البحر إلى التلال، وصخوري الخاصة الملونة في سوشزن؛ لقد رأيت كل مخيم وقرية، على الأقل، حيث استرحنا. رأيتها في لحظة واحدة وفي مكان واحد؛ لأنها جميعاً داخل الروح. من نكك عرفت أن الروح قد عبّرت إلى ما يتجاوز وهمّ الزمان والمكان والأشياء. وبذلك عرفت أنني حر"<sup>(١٣٤)</sup>.

بعض هذا الكلام، طبعاً، هذر مذر، لكن لا ينبغي أن يُبذ كلّه. إن رؤيا اللاما الموسوعية للحرية لتُشبه إلى درجة صادمة المسح الذي يُعده العقيد كريتون للهند والذي تُنبّت عليه بحرص كل قرية وكل مخيم. والفرق بينهما هو أن القائمة الوضعية للاماكن والبشر التي تندرج في إطار السيطرة البريطانية تتحول، في احتمالية اللاما السخية، إلى رؤيا خلاصية وتتحول من أجل كيم، إلى رؤيا علاجية شفائية. الأشياء كلها متماسكة الآن. وفي المركز منها يقطن كيم، الصبي الذي أعادت روحه الهائمة إدراك الأشياء كلها متماسكة الآن. تكون مسموعة. ومع أن الاستعارة الآلية للروح وهي توضع من جديد على السكك - إذا جاز التعبير - تنتهك نوعاً ما الموقف المتسامي المضيء، فإن الصورة ملائمة فطنة ولاسيما أنها تصدر عن كاتب انكليزي يوضع ذكراً أبيض شاباً يعود من جديد إلى الأرض في بلاد هائلة كالهند. فالبريطانيون، بعد كل حساب، هم الذين بنوا السكك الحديدية الهندية وضمّنوا درجة أعلى من السيطرة على المكان مما كان متاحاً من قبل.

\* هي شجرة التين الهندي، التي تتدلى اغصانها فتبلغ الأرض ثم تشكل جذوعاً جديدة. والكلمة، تبعاً لقاموس اكسفورد الكبير، عربية أصلاً.

لقد قام كتاب آخرون قبل كبلنغ بكتابة هذا النمط من مشهد إعادة إدراك الحياة، وبين أبرزهم جورج إليوت في هدمارش وهنري جيمس في صورة سيدة، بتأثير من الأولى على الثاني. في كلتا الحالتين تفاجأ البطلة (دوروثيا بروك وإيزابيل أرشر)، لكي لا أقول تُصدم، بالانكشاف المفاجئ لخيانة الحبيب: فدوروثيا ترى ولًا لاديسلاو يغازل كما يبدو روزاموند فنسي، وتحسد إيزابيل بعلاقة الهوى بين زوجها ومدام ميرل. وتتلو كلا التجليين ليالٍ من العذاب المبرح، شبيهة بمرض كيم. بعدها تفيق المرأتان على وعي جديد لنفسيهما، وللعالم. وإنّ المشهدين في الروايتين متشابهان إلى حدّ لافت، وتصلح تجربة دوروثيا بروك هنا لوصف كليهما. تنظر دوروثيا إلى العالم فيما وراء زنازة كارتتها الضيقة فتري:

الحقول التي تقع عبرها، خارج بوابات الدخول. على الطريق كان ثمة رجل يحمل رزمة على ظهره، وامرأة تحمل طفلًا... أحسّت باتساع العالم وبيقظات الإنسان المتعددة الجوانب للعمل والتحمل والبقاء. كانت جزءاً من تلك الحياة النابضة دينما إرادة، ولم يكن بوسعها أن تنظر إليها من ملجئها المترف ك مجرد مراقبة ولا أن تخبئ عينها في شكوى انانية<sup>(١٣٥)</sup>.

لا تقصد إليوت وجيمس أن تكون مثل هذه المشاهد بقطات أخلاقية جديدة وحسب، بل لحظات تتجاوز فيها البطلة معدّبها، بل تغفر له بحق عن طريق رؤية نفسها ضمن المخطط الأرحب للأشياء. إنّ جزءاً من استخطاطية إليوت هو أن تمنح المصدقية والشرعية لخطط دوروثيا السابقة لمساعدة أصدقائها؛ وهكذا يؤكد مشهد اليقظة الجديدة الدافع إلى الوجود في العالم والانخراط فيه. وتحدث الحركة ذاتها في كيم، مع فرق واحد هو أنّ العالم فيها محدد بكونه عرضة لأن توصلد الروح «الباب» في وجهه. إنّ للمقطع الذي اقتبسته من كيم سابقاً نمطاً من الانتصاروية الأخلاقية محمولاً في نبراته المعربة المؤكدة للهدف، والإرادة، والتطوعية؛ فالأشياء تنزلق إلى مقاييسها ونسبها السليمة، والطرق وجدت لكي يمشى عليها، والأشياء مفهومة فهاً تاماً ومزروعة بصلاية على الأقدام، إلى آخر ذلك. وفوق المقطع ثمة «دواليب» وجود كيم وهي تنقل من جديد في وجه العالم الخارجي. وتُدعم هذه السلسلة من الحركات لاحقاً وتُعزز بمباركة الأرض الكيم وهو يتكى قرب العربة: «تفتست خلاله لتعيد له [ما كان قد] فقده». إنّ كبلنغ يصوغ رغبة قوية، تكاد تكون غريزية، لإعادة الطفل إلى أمه في علاقة سابقة على «مرحلة» الوعي، غير مدنسة، ولي - جنسية.

لكنّ بينما توصف دوروثيا وإيزابيل بأنهما بشكل لا مفرّ منه جزء من «حياة لإرادية، نابضة»، فإنّ كيم يصوّر وهو يستعيد القبض الإرادي على زمام حياته. والفرق، فيما أرى، جوهرى وأساسي. إنّ وعي كيم الذي ازدادت حدته حديثاً للقاء والسيادة، ولـ «الانقغال» والصلاية، والانتقال من العتبية إلى السيطرة، هو إلى حد بعيد وظيفة أدائية من وظائف كونه صاحباً «سيداً» في الهند المستعمرة؛ وما يعرض كبلنغ «بطلة» كيم له هو طقس احتفالي لإعادة المصادرة، «تقوم فيه» بريطانيا (من خلال واحد من رعاياها، إيرلندي تامّ الولاء) بالقبض من جديد على «زمام» الهند. إنّ الطبيعة، أي الإيقاعات اللاإرادية للعافية المستعادة، تأتي إلى كيم بعد الإشارة الأولى، السياسية - التاريخية إلى حد بعيد، التي يطلقها كبلنغ باسم كيم ونيابة عنه. وفي مقابل ذلك، فإنّ العالم، بالنسبة للبطلات الأوروبية أو الأميركيات في أوروبا، قائمٌ ثمة ينتظر أن يُكتشف من جديد؛ وهو لا يتطلب

أحدًا بالذات كي يقوم بتوجيهه أو ممارسة السيادة عليه. وليست هذه هي الحال في الهند البريطانية، التي ستُعبر إلى حالة من الفوضى أو التمرد ما لم يتم السير على الطرقات بالصورة السليمة، والسكنى في البيوت بالطريقة الصحيحة، والتحدث إلى الرجال والنساء باللهجات والنعقات القوية.

يقترح مارك كينك - ويكس، في واحد من أفضل المسارد النقدية لـ كيم، أنها فريدة بين أعمال كبلنغ الكاملة لأن ما قصد بوضوح أن يكون حلاً <إشكالية> الرواية لا ينجح في الواقع <في أداء ما نيط به>. وبدلاً من ذلك، يقول كينك - ويكس، يتجاوز الانتصار الفني مقاصد كبلنغ المؤلف نفسها:

[الرواية] نتاج توتر غريب بين طرق مختلفة في الرؤية: الافتتان الودود بمنظار الأشكال الملونة <كلايدسكوب> للواقع الخارجي من أجل ذاته؛ والمقدرة السلبية على النفاذ إلى ما تحت جلد وجهات النظر متباينة فيما بينها ومبانية لوجهة نظر المرء نفسه؛ وهي أخيراً - نتاجاً لهذه <السمة> الأخيرة لكن في أكثر حالاتها <حدة وإبداعاً - الإنجاز المنتصر لذات مضادة لذات هي من القوة بحيث أنها أصبحت محكاً لكل شيء آخر: خلق اللاما. وقد شبك ذلك تخيل نقطة للمعانية وتخيّل شخصية تغعان على الطرف الأقصى تقريباً من نقطة معاينة كبلنغ نفسه؛ بيد أنها \* تكتنه بمحبة تبلغ من العمق درجة أنها لا يمكن إلا أن تفعل فعل محفّر <يدفع> باتجاه توليفة أبعث غوراً. ومن هذا التحدي الخاص - منع الهوس بالذات، والغور إلى ما هو أعمق من مجرد النظرة الموضوعية للواقع المائل خارج ذاته، متمكناً بذلك الآن من أن يرى، ويفكر، ويشعر بما يتجاوز ذاته - جاءت رؤيا كيم الجديدة، أكثر اشتمالية، وتعقيداً وتشابكاً، وتانساً، ونضجاً من رؤيا أي عمل آخر (١٣٦).

أيًا كان قدر اتفاقنا مع بعض التبصرات النفاذة في هذه القراءة المرهفة فإنها، في رأيي، مبالغة في لي - تاريخيتها. أجل، إن اللاما لهو من نمط الذات المضادة للذات، وأجل، إن كبلنغ قادر على النفاذ إلى ما تحت جلود الآخرين بشيء من التعاطف. ولكن، كلا، إن كبلنغ لا يتنسى أبداً أن كيم جزء لا يدحض من الهند البريطانية: إن اللعبة العظيمة تستمر، وكيم جزء منها، بغض النظر تماماً عن عدد الحكايات المثلية التي يبتكرها اللاما. إن من حقنا الطبيعي أن نقرأ كيم كرواية تنتمي إلى أعظم أدب في العالم، متحررة إلى حد ما من ظروفها التاريخية والسياسية المرهقة. لكن، بالمعيار نفسه، ينبغي ألا نقوم من طرف واحد بإلغاء الصلات <المائلة> فيها، والتي لاحظها كبلنغ بانتباه يقط: <صلاتها بـ واقعا المعاصر. لا ريب أن كيم، وكريتون، ومحيوب، والبابو، بل اللاما نفسه، يرون الهند كما راها كبلنغ: جزءاً من الامبراطورية. ولا ريب أيضاً أن كبلنغ يحافظ بدقة بالغة على آثار هذه الرؤية حين يجعل كيم - الصبي المتواضع الإيرلندي الأدنى في السلم التراتبي من الإنكليز الخُصّ النسب - يعيد تأكيد أولوياته البريطانية قبل زمن طويل من مجيء اللاما ليباركها.

لقد حاولت قراءة أفضل عمل لكبلنغ محاولةً منتظمةً أن ينقذوه من نفسه. وقد أدى ذلك باطراد إلى تأكيد <سلامة> حكم إدموند ولسن المشهور على كيم:

إن ما يميل القارئ إلى توقعه هو أن كيم سوف يدرك في نهاية المطاف أنه يُسلم إلى عبودية الغزاة البريطانيين أولئك <البشر> الذين اعتبرهم دائماً أهله، وأن صراعاً بين الولاءات سينشب <في نفسه>. لقد أسس كبلنغ للقارئ - وفعل ذلك بتأثير احتدائي كبير - التقابل بين الشرق، بصوفيته وشهوانيته وبالأطراف المتناقضة فيه تناقض القدسية والإجرام، وبين الإنكليز، بتنظيمهم المتفوق، وثقتهم بالنهج الحديث، وميلهم الغريزي إلى أن يزيحوا جانباً الأساطير

• - كذا في الأصل. والأصح، فيما يبدو لي، التثنية.

والمعتقدات الأصلانية < كما يزاح > نسيجٌ عنكبوتي. لقد ارانا كبلنغ عالمين مختلفين تماماً مائلين جنباً إلى جنب، دون أن يفهم أحدهما الآخر فهماً حقيقياً، ولقد راقبنا تناؤس كيم، وهو يتراجع جيئةً وذهاباً بينهما. لكنَّ الخطين التوازين لا يلتقيان أبداً؛ ومشاعر الإعجاب المتناوية التي يشعر بها كيم لا تولدُ أبداً صراعاً حقيقياً أصيلاً... إنَّ كتابة كبلنغ الاختلاقية، إذن، لا تُسرحِ احتدامياً أيُّ نزاعٍ أساسي، لأنَّ كبلنغ نفسه لم يكن ليواجه أبداً مثل هذا النزاع (١٣٧).

ثمة بديل لهذين الرأيين هو، في اعتقادي، أكثر دقة واستجابةً للوقائع الفعلية للهند البريطانية في أواخر القرن التاسع عشر كما رآها كبلنغ وآخرون. إنَّ التنازع بين خدمة كيم الاستعمارية وولائه لأصحابه الهنود لا يجد حلاً، لا لأنَّ كبلنغ لم يكن قادراً على مواجهة هذا التنازع، بل لأنه لم يكن ثمة من تنازع من وجهة نظره؛ والواقع أنَّ أحد أغراض الرواية هو إظهار غياب التنازع ما إنَّ يُسقى كيم من شكوكه، ويُشفى اللاما من توقه إلى النهر، ويُشفى الهند من حفنة من المتسلقين الاجتماعيين والعملاء الأجانب. ليس ثمة من شك في أن التنازع كان يمكن أن يوجد لو أنَّ كبلنغ اعتبر الهند مستعبدةً من قبيل الامبريالية استعباداً مسيئاً، غير أنه لم يفعل ذلك؛ فبالنسبة إليه كان أفضل قدر للهند هو أن تحكّمها انكلترة. وبتقليصية مكافئة ومضادة، فإذا قرأ المرءُ كبلنغ لا بوصفه مجرداً ممثلاً امبريالي متتكراً بالسواد (وهو ما لم يكنه) بل كشخص قرأ فرانتز فانون، وقابل غاندي، وتمثّل دروسهما، ثم ظلَّ بعنادٍ غيرٍ مقتنعٍ بها، فإنَّ المرءَ يشوّه تشويهاً بالغاً سياقَ كبلنغ الذي يرهفه < كبلنغ > ويحكم صياغته، ويضيئه. إنَّه لأمر حاسم أن نتذكر أنه لم يكن ثمة روادع، يمكن إدراكها أو تصوّرها، < مضادة > لرؤيا العالم الامبريالية التي حملها كبلنغ، كما لم يكن ثمة بدائل للامبريالية في عرف كونراد، رغم إدراكه البليغ لآثارها وشرورها. ومن هنا فإنَّ كبلنغ لم يكن يزعجه في شيء مفهومٌ حصول الهند على الاستقلال، رغم أنَّ من الصحيح القول إنَّ كتابته الاختلاقية تُمثّل الامبراطورية وشرعياتها الواعية، التي تُنتج في الكتابة الاختلاقية (في مقابل النثر المتسلسل المطرد) مفارقاتٍ لاذعةً ومشكلاتٍ من النمط الذي تجلّى لنا لدى أوستن وفيردي والذي سنراه قريباً لدى كامو. إنَّ نقطتي في هذه القراءة الطبقية هي أنَّ أوكد وأبرز معالم الانفصال والقطع، لا أن اغضَّ النظر عنها أو أقلَّ من أهميتها.

تاملْ حدثين فقيرين اثنين في كيم. بعد أن يفادر اللاما ومريده أمبالا بقليل، يقابلان الجندي السابق الهزيل الهرم الذي كان قد خدم الحكومة إبان العصيان. بالنسبة للقارئ المعاصر يعني "العصيان" الحدث الفقري المفرد، والأكثر أهمية، والأشهر، والأعنف في علاقة انكلترة بالهند في القرن التاسع عشر: العصيان العظيم عام ١٨٥٧، الذي بدأ في ميروت < في شمالي الهند > يوم ١٠ أيار < مايو > وأدى إلى الاستيلاء على دلهي. ثمة عدد كبير جداً من الكتب البريطانية والهندية (ع.م: < كتاب > كريستوفر هيربرت "العصيان العظيم")، التي تغطي "العصيان" (الذي يشير إليه الكتاب الهنود بكلمة "التمرد"). إنَّ ما سبّب الـ "عصيان" - وهنا سأستخدم التسمية البريطانية عقائدياً - كان اشتباه الجنود الهندوسيين والمسلمين في الجيش الهندي بأنَّ رصاصات < أسلحتهم > كانت مشحمةً بدهن البقر (النجس في عرف الهندوسيين) ودهن الخنزير (النجس في عرف المسلمين). غير أنَّ الحقيقة هي أنَّ أسباب العصيان كانت من مكوّنات الامبريالية البريطانية نفسها، < مكوّنات > جيشٍ كان إلى حدٍ غالبٍ يتألف من أفراد من الأصلانيين وضباطٍ من < فئة >

الصاحبين\*، ومن مكوثات شذوذات الحكم الذي مارسته "شركة شرقي الهند". وإضافة، فقد كان ثمة قدر عظيم من الكراهية المتبطنة الموجهة إلى مسيحي أبيض في بلاد تتعدد فيها الأعراق والثقافات الأخرى، التي يرجع أن معظمها اعتبر خضوعها للبريطانيين مهانة ومذلة. ولم يغب عن بال أي من العصاة أنهم عددياً يفوقون قادتهم من الضباط بأضعاف مضاعفة.

في التاريخين الهندي والبريطاني كليهما كان العصيان (عام ١٨٥٧) حداً فاصلاً واضحاً. وإن بوسعنا القول - دون أن ندخل في البنية المعقدة من الأفعال، والدوافع، والأحداث، والأخلاقيات، التي دارت حولها مناظرات لا نهاية لها إبان العصيان ومنذ حدوثه - إن البريطانيين الذين قمعوا العصيان بوحشية وحسم اعتبروا كل تصرفاتهم انتقامية: فقد قال البريطانيون إن العصاة قتلوا أوروبيين، فبرهنت أفعال كهذه - إن كان ثمة حاجة إلى البرهان - أن الهنود يستحقون الإخضاع من قبل الحضارة الأسمى لبريطانيا الأوروبية؛ وبعد ١٨٥٧ استبدلت "شركة شرقي الهند" بحكومة الهند التي كانت رسمية إلى درجة أبعد. وأما بالنسبة للهنود، فقد كان العصيان انتفاضة شعبية ضد الحكم البريطاني الذي أعاد تأكيد سطوته دون مهادة رغم الإساءات، والاستغلال، وشكاوى السكان الأصليين التي لم تلق فيما يبدو اذناً صاغية. وحين نشر إدوارد ثومپسن عام ١٩٢٥ رسالته الصغيرة القوية الوجه الآخر للوسام - وهي تصريح حار عاطفة ضد الحكم البريطاني، ونصرة لاستقلال الهند - أفرد العصيان بوصفه الحدث الرمزي العظيم الذي حقق به كل من الطرفين، الهندي والبريطاني، معارضته الكاملة والواعية للآخر. وقد أظهر ثومپسن بصورة احتدامية أن التاريخ الهندي والبريطاني يفترقان أشد افتراق وأوكده <تحديداً> في تمثيلتهما لهذا العصيان. وبإيجاز، فقد عزز العصيان الفرق بين المستعمر والمستعمر.

في موقف كهذا من التحريض القومي المسوّغ للنفس، كان يعني كون المرء هندياً أن يشعر بالتضامن الطبيعي مع ضحايا الانتقام البريطاني. وأن يكون المرء بريطانياً كان يعني الشعور بالقرى والجرح - لكي لا نقول شيئاً عن البرهنة الحقانية <على أن البريطانيين كانوا على حق> - في ضوء ما عرّض من فظاظة مروعة من "الأصليين" الذين أعطوا تجسداً فعلياً لدور المتوحشين الذي صيغ من أجلهم. بالنسبة لشخص هندي، كان يعني عدم الشعور بهذه المشاعر الانتماء إلى أقلية صغيرة جداً؛ ولذلك فإن من الدال جداً أن الشخص الهندي الذي اختاره كبلنغ للحديث عن العصيان هو جندي موالٍ <للسلطة> يعتبر ثورة أبناء بلده عملاً جنونياً. وليس من المفاجئ أن هذا الرجل يحظى باحترام "نواب المبعوث البريطانيين" الذين - كما يقول كبلنغ - كانوا ينطفون عن الطريق الرئيسي لكي يزوروه. ما يبتره كبلنغ هو احتمال أن يعتبر أبناء البلد ذلك الجندي خائناً لشعبه (على الأقل). وحين يقوم المحارب القديم، بعد ذلك بوضع صفحات، بإخبار اللاما وكيم عن العصيان، تكون نساخته للأحداث مشحونة بشدة بالمعطين البريطاني لما حدث:

نهش الجنون الجيش بأسره، فانقلبوا ضد ضباطهم. كان ذلك الشر الأول، لكنه لم يكن قد تجاوز حد

\* - استخدم صيغة الجمع هذه للتمييز بين "صاحب" في السياق الهندي، و"صاحب" الكلمة العربية التي أجمعها على "أصحاب".

﴿إمكانية﴾ الإصلاح لو أنهم عندئذ كفوا أيديهم ﴿عما عداه﴾. غير أنهم اختاروا أن يقتلوا زوجات الصحاب واطفالهم. ثم وفد الصحابون من وراء البحر وحاسبوهم حساباً عسيراً<sup>(١٢٨)</sup>.

أَنْ يُقْلَصَ اسْتِيَاءُ الْهِنْدِ، وَأَنْ تُقْلَصَ الْمَقَاوِمُ الْهِنْدِيَّةُ (كما يمكن أن تكون قد سُمِّيتْ) لانعدام الحساسية البريطانية إلى «مرتبة» «الجنون»، وَأَنْ تُمَثَّلَ تصرفاتُ الهنود بأنها بشكل رئيسي اختياريٌّ فطريٌّ لقتل النساء والأطفال البريطانيين - ليست مجرد تقليصات برينة للقضية القومية الهندية بل هي تقليصات مغرضة متحيزة. وحين يجعل كبلنغ الجندي القديم يصف الثورة المضادة البريطانية - بكل ما فيها من انتقامات بشعة يمارسها رجالٌ بيض عازمون على الفعل «الأخلاقي» - بأنها «محاسبة» للعصاة الهنود «حساباً عسيراً»، فإننا نكون قد غادرنا عالم التاريخ ودخلنا عالم الماحكات الامبريالية الذي يكون فيه الاصلانيُّ بشكل طبيعي منحرفاً قاصراً، والرجل الأبيض أباً وقاضياً صارماً لكنه اخلاقي. وهكذا يقدم لنا كبلنغ النظرة البريطانية المتطرفة إلى العصيان، ويضعها على لسان هندي لا نرى في الرواية أبداً شخصيةً محتملةً تمثل نظيراً له من القوميين المضطَّهدين. (بطريقة مشابهة، ينتمي محبوب علي، وهو معاونٌ كريتون المخلص، إلى شعب الباثان، الذي كان تاريخياً في حالة من الثورة التي لا تهدأ ضد البريطانيين على مدى القرن التاسع عشر، ومع ذلك فإنه يُعْتَمَلُ هنا سعيداً بالحكم البريطاني، بل متعاوناً معه). لقد كان كبلنغ بعيداً كلُّ البعد عن أن يظهر عالمين في حالة تنازع، إلى درجة أنه قدم لنا بداب مدرّوس عالماً واحداً فقط، ويترّأية فرصة لظهور التنازع على الإطلاق.

يؤكد المثال الثاني المثال الأول. وهو من جديد لحظة صغيرة دالة. في الفصل الرابع، يكون كيم، واللاما، وأرملة كولو في طريقهم إلى سهارنپور. وكان كيم قد وُصِفَ للنتو وصفاً فياضاً بأنه «في خضمّ الأمر، أكثر يقظة وأكثر شعوراً بالإثارة من أي شخص آخر»، وتشير كلمة «الأمر» في وصف كبلنغ هنا إلى «العالم في حقيقته الفعلية؛ كانت تلك هي الحياة كما يتمناها: هرج ومرجٌ وصخبٌ وصراخ، شدٌ أحزمة، جلدٌ ثيرانٍ وصريرٌ عجلات، إشعال نيرانٍ وطهوٌ أطعمة، ومناظر جديدة كيفما اتجهت العينُ الراضية»<sup>(١٢٩)</sup>. ولقد رأينا من قبل قدراً كبيراً من هذا الجانب من الهند، بألوانها، وإثارتها، وما تولّده من اهتمام، مجلوةً بتنوعها الكامل من أجل «متعة» القارئ الانكليزي. لكن كبلنغ، بشكل ما، يحتاج إلى أن يُظهر قدراً من السلطة على الهند، وربما كان ذلك لأنه أحسُّ قبل بضع صفحات في المسرد المهذَّب الذي قدمه الجنديُّ الهرم عن «العصيان» بالحاجة إلى أن تُخَبِّطُ مُسبقاً أية درجة أعلى من «الجنون». فالهند، بعد كل حساب، هي المسؤولة عن كلا الحيوية المحلية التي يتمتع بها كيم، والتهديد لامبراطورية بريطانيا. يُعْبَر ضابطٌ شرطةً المقاطعة بهم خبيماً، ويستثير مظهره التامل التالي في نفس الأرملة الكهلة:

هؤلاء ينبغي أن يكونوا المشرفين على العدالة. فهم يعرفون البلد وعادات البلد. واما الآخرون، وكلهم وافدون حديثاً من أوروبا، تُرضعهم نساءٌ بيضاواتٍ ويتعلمون لغتنا من الكتب، فإنهم أسوأ من الطاعون. إنهم يسيئون إلى الملوك.<sup>(١٤٠)</sup>

لا شك أن بعض الهنود آمنوا بأن موظفي الشرطة البريطانية كانوا يعرفون البلد أفضل من معرفة «أهلها» الاصلانيين بها، وأن هؤلاء الموظفين - لا الحكام الهنود - ينبغي أن يُمسكوا باعنة السلطة. لكن لاحظ أنه في كيم لا يتحدى أحد الحكم البريطاني، ولا يُفصح أحد عن التحديات المحلية الهندية التي لا بد أنها كانت ماثلة للعيان إلى درجة



عظيمة - حتى بالنسبة لشخص مسترسل في عناده استرسال كيلنغ. بدلاً من ذلك، نرى شخصية <من شخصيات الرواية> تقول صراحةً إن موظف شرطة استعماريًا ينبغي أن يحكم الهند، وتضيف أنها تفضل موظفًا من الطراز القديم عاش (مثل كيلنغ وأسرته) بين الأصليين وأصبح لذلك خيراً من المكاتبين الجدد ذوي التدريب الجامعي. وإنّ ذي لُسَاخَة من منظومةٍ مَنْ يُسَمَّوْنَ بالمستشرقين في الهند، الذين آمنوا بأن الهنود ينبغي أن يُحكّموا تبعاً لآنهاج شرقية - هندية من قبل "خبراء متمرسين" بالهند. غير أنّ كيلنغ خلال هذه العملية يَنبذ ويتفقه جميع المقاربات الفلسفية والعقائدية التي تنازع الاستشراق باعتبارها مجعية <أكاديمية> لا طائل وراءها. وبين طُرُز الحكم التي تُنفى مصداقيتها: الرسولية <الايغانجيليكية> (المبشرون والمصلحون، الذين يُقلّدون بسخرية في شخصية السيد بنيت)، والمنفعة والسينسورية (اللذان تُقلّدان بسخرية في شخصية الـ بابو)، وبالطبع الجامعيون الذين لا يُسَمَّوْنَ ويُهَجَّوْنَ هجاءً لانعاباً بأنهم "أسوأ من الطاعون". ومن الشيق أنّ رضى الأرملة، مصوغاً بالطريقة التي بها صيغ <في المقطع السابق>، رحيب بما يكفي لإدراج رجال شرطةٍ مثل الضابط المسؤول، جنباً إلى جنب مع مدرّسٍ مرّنٍ مثل الأب فكتور، وشخصٍ سلطويٍّ بهدوءٍ مثل العقيد كريتون.

إنّ جعل الأرملة تعبّر عما هو في واقع الأمر نوع من الحكم المعياري الذي لا ينازع فيه منازع على الهند وحكامها ليمثّل طريقة كيلنغ في البرهنة على أنّ الأصليين يتقبلون الحكم الاستعماري مادام من النمط الملائم. ولقد كان هذا تاريخياً هو الأسلوب الذي به جعلت الامبريالية الأوروبية نفسها مستساغةً لنفسها، إذ ما الذي يمكن أن يكون أفضل لتصورها لنفسها من أن يعبّر الرعايا الخاضعون الأصليون عن إذعانهم لمعرفة الخارجي وقوته، وقبولهم الضمنيّ للحكم الذي تُصدره أوروبا على الطبيعة المتخلفة، أو اللامتطورة أو المنحطة، لمجتمعاتهم نفسها؟ إذا قرأ المرء كيم كمغامرات صبي يافع أو كشاسعة <بانوراما> تفصيلية ثرية ومُحيّة للحياة الهندية، فلن يكون ما يقرأه هو الرواية التي كتبها كيلنغ في الواقع، منقوشة بعناية بالغة بتلك الآراء، والمكبوتات، والمحدوفات التي تم تحصيلها بدقة. فمع أواخر القرن التاسع عشر، بتعبير فرانسيس هتشينز في وهم الديمومة: الامبريالية البريطانية في الهند،

تم خلقُ هند <من توليد> الخيال لا تحوي على أي عنصر من عناصر التغيير الاجتماعي أو التهديد السياسي. وكانت الشرقة نتيجة هذا الجهد المبذول لتصوّر المجتمع الهندي خالياً من العناصر المعادية لاستمرار الحكم البريطاني وإدامته. ذلك انه على أساس من هذه الهند الأقتراضية جهد المشرّقون لتأسيس حكم أبدي<sup>(١٤١)</sup>.

وإنّ كيم لإسهام رئيسي في <صياغة> هذه الهند المشرّقة التي ولّدها الخيال، كما هي إسهام رئيسي في ما أصبح بعضُ المؤرخين يسمونه: "اختراع التراث".

ثمة أمور أخرى ينبغي أن تلاحظ وتدوّن. إنّ نسيج كيم منقوش بحواشٍ تحريرية متناثرة عن الطبيعة اللامتغيرة للعالم الشرقي متميزاً عن العالم الأبيض، الذي لا يقل عنه لامتغيريةً. هكذا، مثلاً، "يستلقي كيم كما يستلقي الشرقي": أو <كما كتب كيلنغ> فيما بعد بقليل: <إنّ كل الساعات الأربع والعشرين متشابهة لدى الشرقيين>؛ أو حين يدفع كيم ثمن بطاقات القطار من أموال اللاما يُبقي لنفسه أنةً واحدة لكل روبية، وهو ما يصفه كيلنغ بأنه "العمولة الأزلية لآسيا"؛ ويشير كيلنغ لاحقاً إلى "غريزة المساومة <التجارية>

للشرق": وعلى رصيف محطة القطار، لا يقوم عمال محبوب، "لأنهم أصلانيون"، بتفريغ الشاحنات كما كان ينبغي أن يفعلوا؛ وتمثل مقدره كيم على النوم رغم هدير القطارات "لامبالاة الشرقي بالضجيج المطلق": "و حين يُفكُّ الخيمُ، يقول كيلنغ إنَّ ذلك يتم بسرعة - كما يفهم الشرقيون السرعة - بشروح مسهبة، وأحاديث متطاولة متعاطلة، وبذاءة، ولا مبالاة، ووسط ألف تدقيق وتفتيش عن أشياء صغيرة تم نسيانها": ويوصف السيخ بأنهم يمتازون "بحب خاص للمال": ويساوي هوري بابو بين كونه بنغالياً وكونه رعددياً؛ وحين يخبئ الرزمة التي أخذها من العملاء الأجانب، "يستف الرزمة النفيسة كلها حول جسمه، بطريقة لا يقدر عليها إلا الشرقيون".

ولا يتفرد كيلنغ بأي من هذا كله. وإن أي مسح عابر للثقافة الغربية في أواخر القرن التاسع عشر ليجلو مخزوناً هائلاً من هذا النمط من الحكمة الشعبية، التي ما يزال قدر كبير منها، للأسف، نابضاً بالحياة اليوم. وعلاوة، فإن وسائل التحكم التلاعبي، كما أظهر جون إم. ماكنزي في كتابه القيم الإعلام الدعائي والامبراطورية، من بطاقات <علب> السجائر، إلى البطاقات البريدية، وصفحات العلامات الموسيقية، والتقاويم، وكتب الأدلة العملية، وحفلات القاعات الموسيقية والجنود الدمى، وحفلات الفرق النحاسية، والعباب الألواح، وجميعها مجدت الامبراطورية وأكدت على عظم أهميتها بالنسبة لرفاه انكثرة الاستخطاطي، والأخلاقي، والاقتصادي، مصورة في الوقت نفسه الشعوب الداكنة أو الدونية بأنها فاقدة للحياة، وأنها بحاجة إلى القمع والحكم الصارم والإخضاع الأبدي. وكان مذهب تعبير الشخصية العسكرية بارزاً، وكان ذلك في العادة لأن شخصيات كهذه استطاعت أن تكسر بضعة رؤوس داكنة. وقد قُدمت مُعقِّلاتٌ مختلفة للسيطرة على اراضي ما وراء البحار: فكانت الريح أحياناً، والاستخطاطية أو التنافس مع قوى امبريالية أخرى أحياناً (كما هي الحال في كيم؛ وفي <كتاب> رحلة رديارد كيلنغ الغربية يذكر انغس ولسن أن كيلنغ في عامه السادس عشر اقترح في مناظرة مدرسية موضوعاً للتبني هو "أن التقدم الروسي في آسيا الوسطى معاد للقوة البريطانية"<sup>(١٤٢)</sup>). والشئ الوحيد الذي يظل ثابتاً لا يتغير هو إخضاع غير البيض.

إن كيم عمل ذو امتياز جمالي عظيم؛ ولا يمكن نبذ هذه الرواية ببساطة بوصفها تخيلاً عرقياً لامبريالي فردٍ مختبل ورجعي من الطراز الأول. ولقد كان جورج أورول على حق بالتأكيد حين نوه بقوة كيلنغ الفذة على إضافة عبارات وتصورات إلى <مخزون> اللغة - <مثل العبارات والجمل التالية>: الشرق هو الشرق، والغرب هو الغرب؛ عبء الرجل الأبيض\*\*؛ في مكان ما شرقي السويس - وعلى حق أيضاً في قوله إن انشغالات كيلنغ كانت عوامية ودائمة معاً، مثيرة لاهتمام ملحاح<sup>(١٤٣)</sup>. وقد كان أحد أسباب قوة كيلنغ أنه كان فناناً ذا مواهب هائلة. إن ما فعله في فنه هو أنه أحكم إحكاماً متقناً أفكاراً كانت ستكون أقل ديمومة بكثير، رغم كل ما فيها من عوامية، لولا الفن. بيد أنه كان أيضاً يمتاح الدعم من (وقادراً لذلك على استعمال) الصروح المجازة المشرعة للثقافة الأوروبية في القرن التاسع عشر؛ وكانت دونية الأعراق غير البيضاء، وضرورة أن تُحكَم من قِبَل عرق

\* - وهذه الألعاب تشمل الشطرنج والنرد (أو لعبة الطاولة) والداما، وغير ذلك مما يستخدم الرُّقعة. (الناشر)  
 \*\* - أي: العبء الملقى على عاتق الرجل الأبيض. (الناشر)

متفوق، وجوهرها المطلق اللامتغير تكاد تكون حقيقة بديهية غير متنازعَ عليها في الحياة الحديثة.

صحيح أن بعض المناظرات كانت تدور حول كيفية حكم المستعمرات، أو ما إذا كان ينبغي أن يتمّ التخلي عن بعضها. غير أن أحداً ممن كانوا يملكون القوة على التأثير في المناقشة أو السياسة العامة لم يتكأ فيما يتعلق بالتفوقية الأساسية للذكر الأبيض الأوروبي، الذي ينبغي أن تكون له دائماً اليدُ العليا. وكانت جمل تقريرية من مثل "إنّ الهندوسي طبعياً غير صادق وتنقصه الشجاعة الأخلاقية" تعبيراتٍ عن حكمة لم يخرج عليها ويرفض قبولها إلا القلائلُ جداً، واقلهم <رفضاً> حكّامُ البنغال <إنكليزُ>، وبصورة مماثلة، فحين خطّ أحدُ مؤرخي الهند - وهو السير إتش. إم. إليوت - عمله، فقد احتلّ المكانةَ المركزيةَ فيه مفهومُ البربرية الهندية. لقد حتمّ المناخُ والجغرافيا <نشوء> خصائص معينة في الشخصية الهندية؛ والشرقيون، تبعاً للورد كرومر - وهو أحد حكامهم الأعظم هيباً وترويعاً - عاجزون عن تعلم المشي على الأرصفة، وعن الإخبار بالحقيقة، وعن استخدام المنطق؛ والماليزي الأصلي جوهرياً كسول، تماماً كما أنّ الأوروبي الشمالي جوهرياً حيوي، نشيط، وفيرُ الإمكاناتِ واسع الحيلة. ويرسم كتاب في جي. كيرنان الذي أشرتُ إليه سابقاً، أسياذ الجنس البشري، صورةً لافتة لمدى انتشار مثل هذه الآراء. وكما اقترحتُ سابقاً، فقد بُنيتْ حقولُ معرفية مثل الاقتصاد الاستعماري، وعلم الإنسان، والتاريخ، وعلم الاجتماع من هذه الأقوال الماثورة. وقد نتج عن ذلك أنّ جميع الأوروبيين، حتى آخر رجل أو امرأة منهم تقريباً، الذين تعاملوا مع مستعمرات كالهند غدوا معزولين عن حقائق التغير والقومية. وقد قامت تجربةٌ بأسرها - وصَفَها بدقة حذافيرية مايكل إدواردز في <كتابه> <الصاحيون> و<زهرة> اللوتس - بتاريخها التكاملية الخاص، واللوان طعامها، ولهجتها، وقيمها، ومجازاتها، الخاصة، بضم نفسها تقريباً عن الوقائع المتزاحمة، المتناقضة للهند، وقامت بتأييد نفسها دون مبالاة. حتى كارل ماركس استسلم للأفكار <السائدة> عن القرية أو الزراعة الآسيويتين اللامتغيرتين أو الطغيان الآسيوي اللامتغير.

كان أيُّ شاب إنكليزي يُرسل إلى الهند ليكون واحداً من جهاز الخدمة المدنية "المكرّس الموقوف" سينتمي <ألياً> إلى طبقة كانت سيطرتها القومية على كل فرد هندي، مهما كان أرسقراطياً أو ثرياً، سيطرةً مطلقة. وكان سيُسمع القصصَ نفسها التي يسمعها جميعُ الموظفين الاستعماريين الشباب الآخرين، ويقرأ الكتبَ نفسها، ويتعلم الدروسَ نفسها، وينضم إلى الأندية نفسها. لكنّ قلة قليلة منهم، كما يقول مايكل إدواردز، <كَلَفَتْ نفسها عنايةً تعلم لغة البشر الذين حكموهم بأيّ درجةٍ من السلاسة، وكانوا بالغي الاتكال على كَتَبَتِهِم الأصليين، الذين كَلَفُوا أنفسهم عنايةً تعلم لغة الفاتحين وكانوا، في حالات كثيرة، لا يتورعون عن استغلال جهل أسياذهم لمصلحتهم الخاصة><sup>(١٤٤)</sup>. ويمثّل روني هيسلوب في رواية فورستر ممرٌ إلى الهند صورةً فعالة لمثل هؤلاء الموظفين.

وذلك كله وثيق الصلّة بالنسبة لـ كيم، التي يمثل الشخصية الرئيسية للسلطة الدنيوية فيها العقيدُ كريتون. وإنّ هذا الباحث - وعالم الأعراق الوصفي - والجندي ليس مجرد مخلوقٍ من مخلوقات الخيال المبتكر، بل هو دونما كبيرٍ ربّ شخصيّةٍ منتزعةٍ من تجارب

كبلنغ في البنجاب. وهو يؤكّل بأكثر الطرق إشاقاً بوصفه في آن واحد مشتقاً من شخصيات سلطوية سابقة في الهند المستعمرة، وبوصفه شخصية أصيلة مبتكرة ثلاث اغراض كبلنغ الجديدة أكمل ملامحة. أولاً، رغم أن كريتون لا يظهر في الرواية مرات كثيرة ومتواترة، ورغم أن شخصيته ليست مرسومة بالدرجة نفسها من الاكتمال التي تُرسم بها شخصية محبوب علي أو البابو، فإنه مع ذلك حاضر كنقطة مرجعية للفعل «الروائي»، وموجّه خفي للأحداث، ورجلٌ تستحق قوّته الاحترام. لكنه ليس ضابطاً صارماً خاماً؛ فهو يسيطر على حياة كيم بالإقناع، لا بالقسر وفرض رتبته وموقعه. وهو قادر على أن يكون مرناً حين يبدو ذلك معقولاً - مَنْ كان يمكن أن يتمنى أن يكون له رئيس أفضل من كريتون خلال إجازات كيم المنفلتة الطليقة؟ - وصارماً حاداً حين تقتضي الأحداث ذلك.

ثانياً، من الشيق بشكل خاص أن كريتون موظف استعماري وباحث. فهذا الاتحاد بين القوة والمعرفة معاصراً لايتكار دويل\* لشرلوك هولمز (الذي كان كاتبه المخلص، الدكتور واظسن، قد ادى خدمته على الحدود الشمالية الغربية)، وهو أيضاً رجل تشمل مقاربته للحياة احتراماً قوياً، وحمايةً، للقانون مقترنين بعقل متفوق، متخصص، ينزع نحو العلوم. وفي كلتا الحالتين، يُمثّل كبلنغ ودويل لقراءتهما رجلين لهما أسلوب غير سنّيني «ارثوذكسي» في العمل تُعقلنه حقول جديدة من التجارب تم تحويلها إلى تخصصات شبه جامعية. يكاد الحكم الاستعماري والتحقيق في الجرائم يحظيان بالاحترام والتنظيم اللذين تحظى بهما الروائع المكرّسة أو الكيمياء. حين يسلم محبوب علي كيم إلى «المدرسة» لتعليمه، يفكر كريتون، وقد طرّق حديثهما سمعاً عفواً، «أن الصبي لا ينبغي أن يُهدر إذا كان «بحق» كما هو مُعلن عنه. إن كريتون يرى العالم من وجهة نظر منظمة مطردة تماماً. ويشير اهتمامه كل ما في الهند، لأن كل ما فيها ذو أهمية بالنسبة لحكمه. والتبادل المتداخل بين علم الأعراق الوصفي والحكم الاستعماري في نفس كريتون سلس؛ ولهذا فإن بوسعه أن يدرس الصبي الموهوب كجاسوس مستقبلي وكشيء مثير للفضول علمسانياً «انثروبولوجياً» في آن واحد. وهكذا، حين يتساءل الأب فكتور بارتيا ب عما إذا لم يكن من المبالغ فيه أن يهتم كريتون بتفصيل مكاتبي يتعلق بتعليم كيم، ينبذ كريتون التساؤل المرتاب ويثبته. «إن تحويل شارقة فوجية مثل «شارقة» الثور الأحمر التي تخصك إلى ما يشبه الصنمية <fetish> التي يتبعها الصبي لأمّ شيق جداً».

إن كريتون كدارس علمساني مهم لأسباب أخرى. فعلم الإنسان، تاريخياً، هو أكثر العلوم الاجتماعية تواشجاً بالاستعمار، إذ كثيراً ما قدّم علماء الإنسان والأصول العرقية المشورة والنصح للحكام الاستعماريين حول عادات الشعوب الأصلانية وأعرافها ومسالكها (يعترف تلميح كلود ليفي - شتراوس إلى علم الإنسان بوصفه «وصيفة» الاستعمار بهذه الصلة؛ وتنمي مجموعة المقالات الممتازة التي حرّرها طلال أسد عام ١٩٧٣، وعنوانها «علم الإنسان والمواجهة الاستعمارية، الصلات إلى ما هو أبعد من ذلك؛ والشخصية المركزية في رواية روبرت ستون الصادرة عام ١٩٨١ عن «دور» الولايات المتحدة في شؤون اميركا اللاتينية، راية لشروق الشمس، هي هوليول، عالم الإنسان ذو العلاقة الملتبسة بالمخابرات المركزية الأميركية). ولقد كان كبلنغ أحد أوائل

\* - سير آرثر كونن دويل (١٨٥٩ - ١٩٢٠): طبيب وروائي بريطاني وكاتب قصص بوليسية.

الروائيين الذين صوّبوا هذا التحالف المنطقي بين العلوم الغربية والقوة السياسية موضوعاً موضع التنفيذ في المستعمرات<sup>(١٤٥)</sup>. وكبلنغ دائماً يأخذ كريتون مأخذاً الجدد، وذلك أحد أسباب وجود البابو <في الرواية>. فعالم الإنسان الاصلاني - وهو رجل ذكي نكاه واضحاً، وتستند طموحاته، التي يكرز إعلانها، إلى الانتماء إلى الجمعية الملكية، إلى أسس لا تُنكر - يكاد يكون دائماً مثيراً للضحك، أو أخرق مفترقاً إلى اللبابة، أو مثل شخوصة ساخرة <كاريكاتور> بشكل ما، لا لأنه غير كفء أو غير موائم - فالعكس هو الصحيح - بل لأنه ليس ابيض؛ أي أنه لا يمكن ابدأ أن يكون كريتون آخر. وكبلنغ بالغ الحرص في هذا الشأن. فكما أنه لم يكن قادراً على تخيل الهند في حالة من الهلامية التاريخية خارجة عن <مجال> السيطرة البريطانية، فإنه لم يكن قادراً على تخيل هنود بوسهم أن يكونوا فعالين وجادين في أمور ومساح كان هو وغيره من معاصريه يعتبرونها غريبة بصورة حصرية. ورغم أن البابو كان محبوباً ومحطاً للإعجاب، فقد كان ما يزال فيه النمط المكشّر للأصلاني المثير للضحك وجودياً، وهو يسعى دونما أمل لكي يكون مثلاً "نا".

قلت إن شخصية كريتون هي تأوُّج للتغير الذي كان يحدث على مدى أجيال في تشخيص <شخصنة> القوة البريطانية في الهند. وراء كريتون ثمة مغامرو أواخر القرن الثامن عشر ورواده مثل وارن هيستنغز وروبرت كلايف، اللذين اقتضى حكمهما المبتكر وتجاوزاتهما <السلوكية> الشخصية من انكلترا أن تقوم قانونياً بكبح جماح سلطة الزواج المطلقة. وما يترسب من كلايف وهيستنغز في <شخصية> كريتون هو إحساسهما بالحرية، واستعدادهما للارتجال، وتفضيلهما للتصرف العفوي غير الرسمي. وقد جاء بعد مثل هؤلاء الرواد العتاة توماس مونرو وماونتستورت الفنستون، المصلحان والتوليفيان اللذان كانا بين أوائل الباحثين - الإداريين الكبار الذين عكست إدارتهم ما يقارب المعرفة الخابرة. ثمة أيضاً شخوص الباحثين العظام الذين كانت الخدمة في الهند بالنسبة لهم فرصة لدراسة ثقافة أجنبية - رجال مثل السير وليم ("الآسيوي") جونز، وتشارلس ولكنز، وثنائيل هالهد، وهنري كولبروك، وجونثن دنكن. وقد انتمى هؤلاء الرجال إلى مؤسسات تجارية بالدرجة الأولى، ولم يكونوا فيما يبدو يشعرون، كما كانت حال كريتون (وكبلنغ)، بأن العمل في الهند كان منسجماً واقتصادياً (بالمعنى الحرفي) إلى درجة تكافئ ما كانت عليه إدارة نظام كلي.

إن معايير كريتون هي معايير الحكومة النزيهة، الحكومة التي لا تقوم على النزوات أو التفضيلات الشخصية (كما كانت الحال عند كلايف) بل على القوانين، ومبادئ النظام والسيطرة. ويجسد كريتون مفهوم أنك لا يمكن أن تحكم الهند إلا إذا كنت تعرف الهند، وأن تعرف الهند يعني أن تفهم الطرق التي تعمل بها الهند. وقد تطور الفهم حين كان وليم بنتنك الحاكم العام، وامتاح من مبادئ استشرافية ومنفعية من أجل حكم أضخم عدد من الهنود بأقصى فائدة ممكنة (للهنود وللبريطانيين معاً)<sup>(١٤٦)</sup>، لكنه كان دائماً مكتئباً بالحقيقة التي لا تتغير، وهي السلطة الامبريالية البريطانية التي أحلت الحاكم العام في منزلة منفصلة عن البشر العاديين، الذين كانت مسائل الخير والشر والحق والباطل والفضيلة والأذى بالنسبة لهم هامة وشابكة عاطفياً. أما بالنسبة لموظف الحكومة التي تمثل بريطانيا في الهند فلم تكن المسألة مسألة ما إذا كان أمر ما خيراً أو شراً، فيقتضي بالتالي التغيير أو البقاء كما هو، بل ما إذا كان يؤدي الغرض أو لا يؤديه، يسهل حكم

الكيان الأجنبي أو يعرقله. وهكذا فإن كريتون يُرضي <ذلك الجانب من> كبلنغ الذي كان قد تخيلَ هنداً مثالية، لامتغرية، جذابة، كجزءٍ مكاملٍ منضوٍ إلى الأبد داخل الامبراطورية. لقد كانت هذه سلطةً يمكن للمرء أن يدعن لها.

في مقالة مشهورة (مكانة كبلنغ في تاريخ الأفكار)، يطرح نويل أنان مفهوم أن رؤيا كبلنغ للمجتمع كانت شبيهة برؤيا علماء الاجتماع الجدد - دوركهايم، وفيبر، وبارتو - الذين

اعتبروا المجتمع رابطة من الفئات؛ وروا ان انساق السلوك التي أسستها هذه الفئات على غير دراية منها، بدلاً من رغبات البشر <الرجال> أو فصلاثر غامضة كالطبقة والترات الثقافي والقومي، هي التي حدثت وحثمت أفعال البشر. وتسلطوا عن الكيفية التي بها شجعت هذه الفئات وأعانت على تحقيق النظام أو عدم الاستقرار في المجتمع، فيما كان أسلافهم قد تسلطوا عما إذا كانت فئات معينة قد أعانت المجتمع على التقدم<sup>(١٤٧)</sup>.

ويمضي أنان ليقول إن كبلنغ كان يشبه مؤسسي الإنشاء العلمتماعي الحديث في أنه كان يؤمن أن كفاءة الحكومة في الهند تعتمد على "قوى السيطرة الاجتماعية [الدين، القانون، الأعراف، العادات، الأخلاق] التي تفرض على الأفراد قواعد معينة يعود عليهم انتهاكها بالعقاب". ولقد أصبح مشاعاً تقريباً في النظرية الامبريالية البريطانية الإيمان بأن الامبراطورية البريطانية كانت مختلفة عن الامبراطورية الرومانية (وأفضل منها)، في كونها <الأولى> نظاماً صارماً دقيقاً ساد فيه التنظيم والقانون، فيما كانت تلك الأخيرة مجرد نهب وسلب وجني أرباح. ويطرح كرومر هذه النقطة في الامبريالية القديمة والحديثة، كما يطرحها مالرو في قلب الظلام<sup>(١٤٨)</sup>. ويفهم كريتون ذلك فهماً تاماً، وهو ما يدفعه إلى العمل مع مسلمين، وبنغاليين، وأفغانيين، وتيبتيين دون أن يبدو أبداً أنه يستصغر معتقداتهم أو يزدري اختلافاتهم <عن البريطانيين؟>. ولقد كان تبصراً نفاذاً طبيعياً من قبل كبلنغ أنه تخيل كريتون عالماً يشمل تخصصه آليات العمل الدقيقة لمجتمع معقد متشابك، بدلاً من أن يكون مكاتبياً استعمارياً أو باحثاً عن الريح جشعاً. إن حس الفكاهة الأولي لدى كريتون، وموقفه الودود، لكن المتجرد الموضوعي من الناس، وهينته الشذازة، هي تجميلات كبلنغ التي يضيفها على موظف هندي مثالي.

لا يقتصر كريتون، رجل المنظمة، على تروؤس "اللعبة العظيمة" <الاستخبارات البريطانية في الهند> (التي تعود الفائدة منها في نهاية المطاف على قيصرية الهند، أو الملكة الامبراطورة وشعبها البريطاني)، بل يعمل يداً بيد أيضاً مع الروائي نفسه. وإذا كان لنا أن ننسب إلى كبلنغ وجهة نظر مطردة، فإن بوسعنا أن نجدها في <شخصية> كريتون أكثر من أي شخصية أخرى. إن كريتون، مثل كبلنغ، يحترم التمييزات القائمة ضمن المجتمع الهندي. حين يُخبر محبوب علي كيم بأن عليه ألا ينسى أبداً أنه صاحب <في السياق الهندي>، فإنه يتحدث بوصفه مُستخدَم كريتون الموثوق المجرب. وكريتون، مثل كبلنغ، لا يعيب أبداً بالتراتيبات، والأولويات، والامتيازات المتعلقة بالطبقة المنغلقة، والدين، والانتماء السلالي والعرقى؛ ويفعل فعله الرجال والنساء الذين يعملون تحت إمرته. ومع أواخر القرن التاسع عشر، كان ما يسمى بـ "ضمان الأسبقية" - الذي بدأ، كما يرى جيفري مورهاوس، بالاعتراف بـ "أربعة عشر مستوى مختلفاً من المقام <الاجتماعي>" - قد اتسع ليضم "واحداً وستين، بعضها مقصور على شخص واحد، وبعضها يشترك فيه

عدد من الناس<sup>(١٤٩)</sup>. ويخمن مُورهاوس أن علاقة المحبة <المزوجة ب> الكره بين البريطانيين والهنود اشتقت من وجهات النظر التراتبية المعقدة الكامنة لدى كلا الشعبين. لقد أدرك كلٌ منهما المقدمة <المنطقية> الاجتماعية الأساسية للآخر، ولم يفهما فحسب بل احترما أيضاً على مستوى لاواع بوصفها تنوعاً مثيراً للفضول لمقدمته هو<sup>(١٥٠)</sup>. وإن المرء ليرى هذا النمط من التفكير معاداً إنتاجه في كل مكان من كيم تقريباً: في سجل كبلنغ المفصل بأناة وصبر لأعراق الهند وطبقاتها المنغلقة المتباينة، وفي قبول الجميع (بمن فيهم اللاما) لمبدأ الفصل العرقي، والخطوط والعادات التي لا يمكن أن تتجاوز بسهولة من قبل الخارجيين. إن كل شخص في كيم هو، بالقدر نفسه، خارجي بالنسبة للفئات الأخرى وداخلي في فنته.

يشبه تقدير كريتون لمقدرات كيم - سرعته، ومقدرته على التنكر وعلى الانسراب إلى موقفٍ ما كما لو كان أصلاً بالنسبة إليه - اهتمام الروائي <كبلنغ> بهذه الشخصية المعقدة الحراوية، التي تندفع كالسهم والجه عباب المغامرات، والمكائد، والأحداث الفخرية، وخارجة منها. والمقايضة النهائية هي المقايضة بين "اللعبة العظيمة" <الاستخبارات> والرواية ذاتها. وإنه لمصدر من مصادر الإحساس الغامر بالرضى أن يستطيع المرء أن يرى الهند كلها من الموقع الامتيازي للمراقبة المنظمة المضبوطة. والمصدر الثاني أن يكون طوعً بنان المرء شخصياً تستطيع بارتياض أن تغبر الخطوط وتغزو الأصقاع والمجالات: صديقٌ صغيرٌ للعالم كله - كيم أوهارا بعينه. كما لو أن كبلنغ، بتنصيبه لكيم في مركز الرواية (بالضبط كما ينصب سيد الجواسيس كريتون الصبي في مركز "اللعبة العظيمة") كان بوسعه أن ينال\* الهند ويتلذذ بها بطريقة لم تحلم بها أبداً الامبريالية نفسها.

ما الذي يعنيه ذلك في إطار معطيات بنية مرمزة ومنظمة إلى درجة عالية كبنية الرواية الواقعية في أواخر القرن التاسع عشر؟ إن كبلنغ، إلى جانب كونراد، كاتبٌ مختلفات سردية ينتمي أبطاله إلى عالم غير عادي حتى الإذهال من المغامرة <في الأصقاع> الأجنبية وسحر الشخصية الجذابة <الكاريزماً>. إن كيم، ولورد جيم، وكورتز، لنقل، هم مخلوقات ذات إرادة متوهجة مستعرة تنبأ بمغامرات لاحقة مثل اعمدة الحكمة السبعة لـ تي. إي. لورنس وبيركن <شخصية أندريه> مالرو في المسار الملكي. ويظل أبطال كونراد، رغم ابتلائهم بقوة غير عادية من التأمل و<الإحساس ب> المفارقة اللاذعة الكونية، أحياء في الذاكرة بوصفهم رجالاً فاعلين، أقوياء، وفي الكثير من الأحيان جريئين جراً لامبالية.

ويستحق كبلنغ وكونراد، رغم أن مختلفاتهما السردية تنتمي إلى جنس <أدبي هو> المغامرة - الامبريالية - جنباً إلى جنب مع أعمال رايدر هاغارد، ودويل، وتشارلس ريد، وفرنون فيلدنغ، وجي. أي. هنتي، وعشرات آخرين من الكتاب الأقل شأناً - الاهتمام النقدي والجمالي الجاد.

لكن إحدى طرق إدراك ما هو غير عادي في عمل كبلنغ هي أن نستذكر بإيجاز من كانوا معاصريه. لقد اعتدنا أن نعاينه جنباً إلى جنب مع هاغارد ويكزن حتى نسينا أنه كفنان يمكن أن يقارن بتسويغ تام مع هاردي، أو هنري جيمس، أو مريدث، أو غسنغ، أو

\* - وللنوال هنا دلالة ضمنية جنسية كامنة في فعل الامتلاك "have" الذي يشمل الامتلاك المادي والنوال الجنسي.

جورج إليوت <في أعمالها> المتأخرة، أو جورج مور، أو صامول بترل. وأقرانه في فرنسا هم فلوبيير وزولا، بل حتى پروست وجيدٌ المبكر. بيد أن أعمال هؤلاء الكتاب هي جوهرياً رواياتٌ انقشاعٌ للوهم والسحر، وأما كيم فإنها ليست كذلك. إن البطل الروائي في أواخر القرن التاسع عشر هو، <أو هي>، دونما استثناء تقريباً، شخص يدرك أن مشروع حياته أو حياتها - الرغبة في أن يكون عظيماً، أو ثرياً، أو متميزاً - ليس سوى مخيلة، وإيهام، وحلم. ففريدريك مورو في رواية فلوبيير القريبية العاطفية، أو ايزابيل أرشر في <رواية جيمس> صورة سيدة، أو ارنست پونتفكس في رواية بترل <كلٌ حي> - <كل منهم> شاب أو شابة يفيق بمرارة من حلم واهم من الإنجاز، والفعل، والمجد، ويُرغم بدلاً من ذلك على تقبلٍ مقام أدنى، وحبٍ مخون، وعالمٍ طبقوسطي حتى الشناعة، سطحي، ضيق الأفق، جاهل، بليد.

لا توجد هذه الإفاقة في كيم. ولا شيء يجلو هذه النقطة لنا بأفضل مما تفعله المقارنة بين كيم وجود فاولي الذي يكاد يكون معاصره تماماً، وهو <بطل> توماس هاردي في روايته جود الغامض (١٨٩٤). كلاهما يتيم شاذ الأطوار، في تصادم موضوعي مع بيئته: كيم أيرلندي في الهند، وجودٌ صبيٌ ريفي انكليزي لم يُرزق إلا بأقل المواهب وهو أكثر اهتماماً باللغة اليونانية منه بالزراعة. كلاهما يتخيل لنفسه حياةً من الجاذبية المستميلة، وكلاهما يسعى إلى تحقيق هذه الحياة من خلال تتلمذ من نمط أو آخر: كيم كمريد للراهب - اللاما الجوال، وجود كطالب متضرع في الجامعة. لكن التماثل ينقطع هنا. فجود يقع في إشراك ظرف بعد آخر؛ يتزوج أربلا التي لا تلائمه إطلاقاً، ويعشق سو برايدهد عشقاً مدمراً، ويُنجب أطفالاً ينتحرون، وينتهي حياته رجلاً منبوذاً بعد سنين من التشرد المثير للشفقة. أما كيم فإنه، في المقابل، يتدرج من نجاح متالق لامع إلى آخر.

إلا أن من المهم أن نلح مرة ثانية على التشابهات بين كيم وجود الغامض. كلا الصبيين، كيم وجود، يُفردان بفضل أصلهما غير العادي؛ ليس أيٌّ منهما مثل الصبية <العاديين> الذين يضمن أبائهم وعائلاتهم لهم عبوراً سلساً في الحياة. والمسألة المركزية في معضلتيهما هي مشكلة الهوية - ما يكونان، أين يمضيان، ما يفعلان؟ وما دام محالاً أن يكونا كالأخرين، فمن هما؟ إنهما باحثان جوالان شريدان لا يعرفان السكينة، مثل البطل النمطي للشكل الروائي ذاته: دون كيشوت، الذي يسم وسمماً حاسماً الرواية في حالتها الساقطة، البائسة، وفي <تساميها التجاوزي المفقود>، كما يعبر لوكاش عن ذلك في نظرية الرواية، من عالم الملحمة السعيد الرضي. كل بطل روائي، يقول لوكاش، يسعى إلى استعادة وترميم عالم خياله <أو خيالها> المفقود، وهو مسعى مُحال التحقيق في رواية انقشاع الوهم في أواخر القرن التاسع عشر<sup>(١٥٩)</sup>. وجود، مثل فريدريك مورو، ودوروثيا بروك، وايزابيل أرشر، ورنست پونتفكس، والأخرين جميعاً، محكوم عليه بـ <لعنة> هذا المصير. وتكمن المفارقة الضدية للهوية الشخصية في أنها مورطة مشبوكة في هذا الحلم المخفق. ما كان جود سيكون من هو إياه لولا رغبته العقيمة العبثية في أن يصبح باحثاً. إن الهرب من كون المرء نكرةً غير ذي شأن اجتماعياً يحمل وعداً بالاعتاق؛ بيد أن هذا محال. والمفارقة اللاذعة البنيوية هي بشكل دقيق هذا الاقتران: إن ما تتمناه هو بالضبط ما لا نستطيع أن نتاله. لقد أصبحت الحدّة اللذاعة والأمل المهزوم في خاتمة جود الغامض مرادفين لهوية جود بالذات.



وكيم أوهارا شخصية متفائلة تفاؤلاً لافتاً لأنه يتجاوز هذا الطريق المسدود الشال الذي يستلب الروح. إن أفعاله، كأفعال غيره من أبطال الكتابة الاختلاقية الامبريالية، تؤدي إلى انتصارات لا إلى هزائم. فهو يعيد العافية إلى الهند ويرممها، إذ يتم القبض على العملاء الأجانب الغزاة وطردهم. وإن بعضاً من قوته ليكمن في أنه يعرف معرفة عميقة، تكاد تكون غريزية، اختلافه عن الهنود المحيطين به؛ إنه يملك تميماً خاصة أعطيت له في طفولته، وهو على خلاف غيره من الصبية الذين يلعب معهم - وهذا مؤسس في مستهل الرواية - موهوب من خلال نبوءة الولادة مصيراً فذاً يريد أن يجعل الجميع يدركونه. فيما بعد، يعي وعياً جلياً أنه "صاحب"، رجل أبيض، وكلما تذبذب <في إدراكه هذا> كان ثمة من يُذكّره بأنه بالفعل صاحب، بكل ما لهذه المرتبة الخاصة من حقوق وامتيازات. بل إن كلينغ يجعل المرشد الروحي القدسي يؤكد <بنفسه> الفرق بين الرجل الأبيض وغير الأبيض.

لكن ذلك وحده لا يمنح الرواية الإحساس الغريب بالمتعة والثقة المائل فيها. لم يكن كلينغ، بالمقارنة مع جيمس وكونراد، كاتباً استبطانياً، كما أنه لم يكن - تبعاً للدلالة التي نملكها - يعد نفسه، كما فعل جويس، فناً. إن قوة أفضل كتاباته لتتبع من السهولة والسلاسة، والطبيعية الظاهرية لسرده ورسمه للشخصيات، فيما يضاهاى التنوع المحض لإبداعه <ما لدى> ديكنز وشكسبير. لم تكن اللغة بالنسبة له، كما كانت بالنسبة لكونراد، وسيطاً <تعبيرياً> مقاوماً؛ بل كانت شفافة، قادرة بسهولة على <حمل> نغمات ونبرات مغربة متعددة، تمثل جميعها تمثيلاً مباشراً العالم الذي يكتنحه. وهذه اللغة تمنع كيم رشاقته وفطنته، وحيويته وجاذبيته. إن كيم بطرق عديدة ليشبه شخصية كان ممكناً أن يرسمها كاتب أكثر تبكيراً بكثير من كتاب القرن التاسع عشر، مثل ستاندال، الذي يملك تصويره الناصع لفابريس دل دونغو وجولييان سوريل المزيج نفسه من المغامرة والتوق الآسيان، الذي أسماه ستاندال <الروح> الإسبانية. إن العالم، بالنسبة لـكيم، كما هو بالنسبة لشخصيات ستاندال، وعلى خلاف مع جود <لدى> هاردي، مليء بالاحتمالات والإمكانات، ويشبه إلى حد بعيد جزيرة كاليبان، "المحتشدة بالضجيج، والأصوات، والأنسام العذاب، التي تهب المتعة ولا تمس بأذى".

وهذا العالم، أحياناً، مريح مطمئن، بل رعوي طوباوي. وهكذا فإننا لا نرى الحركة النشيطة والحيوية الموجودتين في "الطريق الرئيسي الكبير" وحسب، بل كذلك الرعاية <الباستورية> اللطيفة المرحبة للمشهد الطبيعي على مدى الدرب مع الجندي القديم (الفصل الثالث) إذ تهجع الجماعة الصغيرة من المسافرين بسلام:

كان ثمة أزيز مدوّمٌ لحياق صغيرة في شمس حارة، هديلٌ حمانم، وتهويمٌ ناعس لدواليبٍ بثرٍ عبر الحقول. وبببهِ وتأثير بالغ بدأ اللاما. وبعد مرور عشر دقائق انزلق الجندي الهرم من على فرسه الصغيرة، لكي يسمع بشكل أفضل كما قال، وجلس والعنان ملتبساً حول معصمه. ترتج صوت اللاما - وطالت فترات الصمت. كان كيم مشغولاً بمراقبة سنجاب رمادي. حين اختفت الكتلة المويجة الصغيرة من الفراء، منضبطة بالتحام إلى الفصن، كان الواعظ والمستمعون قد غطوا في نوم عميق، وتوسد رأس الضابط الهرم <بشعره> المقصوص جيداً ذراعاً، وارتقى رأس اللاما إلى الوراء مستنداً إلى جذع الشجرة، حيث ظهرت بلون العاج الاصفر. اقترب طفلٌ عارٍ بخطى متثاقلة، حدّق، ثم انحنى انحناءةً إجلالٍ خفيفة أمام اللاما، مدفوعاً بدافع سريع ما من الإجلال - لكن الطفل كان من القصر والسمنة بحيث أنه انقلب واقعاً على جنبه، وضحك كيم من الساقين المكتنزتين المنطرحتين. ولول الطفل، مرتعباً ومستنكرًا (١٥٢).

على جميع جوانب هذا التأليف العدني\* ثمة "المُعجَبَةُ المدهشة" للطريق الرئيسي الكبير حيث "تتحرك"، كما يقول الجندي القديم، "جميع الطبقات المغلقة وأنماط البشر... براهمة و دباغين\*\*"، مصرفيين وسمكريين، حلاقين وتجاراً، حجيجاً وخزافين - العالم كله رانحاً غادياً. إنه بالنسبة لي مثل نهر أُسْحَب منه مثلما تُسْحَب قُرْمَةٌ حطبٍ بعد الفيضان<sup>(١٠٣)</sup>.

إن أحد المؤشرات الفاتنة على طريقة كيم <في التعامل مع> هذا العالم الذي يعجّ بالحركة، والمضيف إلى حد الغرابة، هو موهبته اللافتة في التنكر. فنحن نراه أولاً جاثماً على المدفع القديم في ساحة في لاهور - حيث ما يزال <المدفع> موجوداً اليوم - صبياً هندياً بين صبية هنود آخرين. ويميّز كبلنغ بحرص ديانة كل من الصببية وخلفيتته (المسلم، الهندوسي، الإيرلندي) لكنه لا يقل حرصاً علي أن يُظهر لنا أن أياً من هذه الهويات لا تشكل عائقاً بالنسبة لكيم، مع أنها قد تمثل عائقاً بالنسبة للصبية الآخرين. فكيم قادر على العبور من لهجة إلى أخرى، ومن طقم من القيم والمعتقدات إلى آخر. وهو يتصنع خلال الكتاب بأسره لهجات منجمعات هندية عديدة؛ يتكلم الأوردو، والإنكليزية (يقدم كبلنغ تقليداً ساخراً بديع الفكاهة لطيفاً للغة كيم الأنكلو - هندية المتقعرة، مميّزاً إياها برهافة عن إطناب البابو الطنّان)، والأوراسية، والهندية، والبنغالية؛ وحين يتحدث محبوب بالباشتية، يلتقط كيم تلك أيضاً؛ وحين يتحدث اللاما بالتببتية الصينية، يفهم كيم لغته. وإن يدير كبلنغ بابل الألسنة هذه، وسفينّة نوح الحقيقية هذه من السنسين، والكشميريين، والاكسبيين، والسيخ، والكثيرين غيرهم، إدارة قائد فرقة موسيقية يناغم بينها جميعاً، فإنه يدير أيضاً تقدم كيم الحرباوي راقصاً داخلها إليها خارجاً منها، مثل ممثل عظيم ينتقل عبر مواقف عديدة ويشعر في كل منها بأنه في بيته الأليف.

ما أشدّ اختلاف <هذا العالم بأسره> عن العالم القاتم للطبقوسطية الأوروبية، الذي يقوم جوّه، كما يصوغه كلُّ روائي ذي شأن، بإعادة تأكيد انحطاط الحياة المعاصرة، وانقراض جميع أحلام الشبوب العاطفي، والنجاح، والمغامرة الفرانجية. إن عمل كبلنغ الاختلاقي يُشكل طباقاً: فعالمه، لأنه موضعٌ في هندٍ تسيطر عليها بريطانيا، لا يَضُنُّ بشيء على الأوروبي المغترب. وتجلو كيم كيف يستطيع "صاحب" أبيض أن يتمتع بالحياة في هذا <الفضاء> المعقّد الخصب الخضيل؛ وبودي أن اطرح منظومة أن غياب المقاومة للتدخل الأوروبي في هذه الرواية - مُرمزاً إليه بمقدرات كيم على التنقل عبر الهند دون أن يمسه خدشٌ نسبياً - يعود إلى رؤياها الامبريالية. ذلك أن ما يعجز المرء عن تحقيقه في بيئته الغربية الخاصة - حيث تعني محاولته لأن يحيا الحلم الجليل لبحثٍ مثيرٍ مجابهةً عاديةً مقدراته وفساد العالم وانحطاطه - يفدو قابلاً لأن يُحقّقه في الخارج. أو ليس بوسع المرء في الهند أن يفعل كل شيء؟ ويكون أي شيء؟ ويذهب إلى كل مكان بأمان من أية عواقب؟

تأملُ نسقَ طواف كيم وتنقلاته من حيث تأثيرها على بنية الرواية. تتحرك معظم رحلاته ضمن البنجاب، على المحور الذي تشكله لاهور وأومبالا، وهي ثغرٌ لحامية عسكرية على حدود "الأقاليم المتحدة". ويمتد "الطريق الرئيسي الكبير"، الذي بناه الحاكم المسلم

\* - نسبة إلى جنة عدن.

\*\* - ويبدو أن الدباغين المعنيين هنا ينتمون إلى فئة اجتماعية دنيا، ولذلك يقرنهم بالبراهمة. والاصل الانكليزي هو "chumars"؛ ومن معانيها أيضاً العامل في الزراعة.

العظيم شير شان في أواخر القرن السادس عشر، من بيشاور إلى كَلْكَتَا، رغم أن اللاما لا يتعدى أبداً بنارس في رحيله جنوباً وشرقاً. يقوم كيم برحلات قصيرة إلى سيملا، ولكن، وفيما بعد إلى وادي كولو؛ ومع محبوب يمضي موعلاً حتى بومبي جنوباً وكراشي غرباً. بيد أن الانطباع الكلي الذي تتركه هذه الرحلات هو انطباعٌ بالتجوال المتمتع الحر الطليق. وبين فينة وأخرى، تقطع أسفار كيم متطلبات السنة المدرسية في سانت كزافيير، لكن برنامجي الأهداف الجادين الوحيدين، والشينيين الوحيدين اللذين يقربان من أن يشكلوا ضغطاً زمانية على الشخصيات، هما (١) بحث الراهب - اللاما، وهو بحث مطّاطي مرن جداً، و (٢) تعقب العملاء الأجانب الذين يحاولون إثارة القلاقل على الحدود الشمالية الغربية وطردهم في النهاية. هنا ليس ثمة مرابون يكيدون المكائد، أو قرويون زميتون، أو لوك السنة وشائعات أثيمة، أو مُحَدَثُو نعمةٍ منفرون غلاظ الأكباد، مما يجده المرء في روايات معاصري كبلنغ الأوروبيين الكبار.

والآن، قارن بين بنية كيم المحلولة الرخية، القائمة على رحابة جغرافية وفضائية مُترفة، وبين البنى المحكّمة الضيقة، الزمانية بصرامة لا سَاسَاحَ فيها، للروايات الأوروبية المعاصرة لها. يقول لوكاش في نظرية الرواية إن الزمن هو صانع المفارقة اللاذعة العظيم، وهو يكاد يكون شخصية من شخصيات هذه الروايات، إذ يولج البطل <أو البطلة> في مزيد من الوهم والاختبال، كما يجلو كون أوهامه أو أوهامها لا أساس لها، جوفاء، عقيمة إلى حد المرارة<sup>(١٥٤)</sup>. في كيم، يتشكل لديك انطباعٌ بأن الزمن إلى جانبك، لأن الجغرافيا ملكك ورهنٌ مشينتك لتتحرك فيها كما تشاء بحرية شبه تامة. ولا ريب أن كيم يشعر بذلك، كما يفعل العقيد كريتون، في صبره، وفي الطريقة غير المنتظمة، بل الغامضة أيضاً، التي بها يظهر ويختفي. إن ثراء فضاء الهند الغامر، والحضور البريطاني الطاغى فيه، وحس الحرية الذي تفصح عنه التفاعلات بين هذين العاملين لتؤدي مجتمعة إلى خلق مناخ رائع في إيجابيته يشعشع عبر صفحات كيم ويمنحها اللق. فهذا العالم ليس عالماً تدفعه الكارثة المتسارعة، كما هو في <أعمال> فلوبيير وزولا.

واعتقد أن سلاسة مناخ الرواية تنبع أيضاً من إحساس كبلنغ الشخصي الذي تستعيده الذاكرة بأنه يكون في بيته الأليف حين يكون في الهند. في كيم لا يبدو أن ممثلي السراج <الحكم البريطاني في الهند> يواجهون أي مشكلة في وجودهم في الخارج؛ فالهند بالنسبة لهم لا تقتضي أي تسويغ أو اعتذار واع للذات، ولا أي حرج أو شعور بالضيق. يعترف العملاء الروس الذين يتحدثون الفرنسية بأنه في الهند لم نترك بصماتنا على أي مكان بعد<sup>(١٥٥)</sup>، أما البريطانيون فيعرفون أنهم قد فعلوا ذلك، ويلغوا فيه حد أن حوري، ذلك "الشرقي" المعترف بشرقيته، تزعجه المؤامرة الروسية نيابة عن السراج لا عن شعب بلده. وحين يهاجم الروس اللاما ويمزقون خريطته، فإن فعل التدنيس هو استعارياً تدنيس للهند نفسها، ويقوم كيم فيما بعد بمسح هذا التدنيس. ويعترف عقل كبلنغ نغمة المصالحة والوئام، ولأم الجراح، والكلية في الخاتمة، مستخدماً في ذلك وسائل جغرافية: إذ يعيد البريطانيون امتلاك الهند، من أجل أن يتمتعوا من جديد برحابة فضاءها، وليكونوا في بيتهم الأليف ثانيةً فثالثة.

ثمة تطابق يسترعي النظر بين إعادة كبلنغ الإصرار على جغرافيا الهند، وما يفعله كامو في بعض قصصه الجزائرية التي كتبت بعد ذلك بنصف قرن تقريباً. إن إيماءاتهم

ليست من أعراض الثقة <بالنفس>، بل الاعتلال المتربص الذي كثيراً ما لا يجزي الاعتراف به، فيما اعتقد. ذلك أنك إذا كنت تنتمي إلى مكان ما، فليس لزاماً عليك أن تظن تردّد ذلك وتظهره: فانت منه وكفى، كما هم العرب الصامتون في الغريب أو السود ذور الشعر الأشعث الجعد في قلب الظلام أو الهنود المتعددون في كيم. بيد أن المصادر الاستعمارية، أي الجغرافية، تقتضي نبرات مُعربةً إصراريةً كهذه؛ وتلك التأكيدات هي العلامة المانزة للثقافة الامبريالية وهي تعيد تثبيت نفسها لنفسها ومن أجل نفسها.

يكتسب توجيه كيلنج الجغرافي والفضائي لـ كيم، عوضاً عن التوجيه الزماني للكتابة الاختلاقية الأوروبية الحواضرية، بروزاً خاصاً بفضل عوامل سياسية وتاريخية؛ فهو يعبر عن حكم سياسي غير قابل للتقليص يصدره كيلنج. كأنما هو يقول إنَّ الهند لنا ولذلك فنحن نستطيع أن نعاينها بهذه الطريقة التي لا تتأزغ عليها في الأغلب، والمتمعجة، والمشبعة للنفس. الهند "آخر"، ومما هو بالغ الأهمية أنها، على روعة حجمها وتنوعها، في قبضة بريطانيا الآمنة.

يرتّب كيلنج تطابقاً آخر مُرضياً من الناحية الجمالية، وهو أيضاً ما ينبغي أن يدخل في الاحتساب. ذلك هو الترافد بين "لعبة" كريتون "العظيمة" <الاستخبارات...>، ومقدرة كيم المتجددة دونما نفاذ على التنكر والمغامرة؛ وكيلنج يُبقي الاثنتين في تواشج متين. الأولى وسيلة من وسائل المراقبة والسيطرة السياسية؛ والثانية، على مستوى أبعد غوراً وإشافة، استيهامٌ رغبوي لامرئٍ يود أن يؤمن بأن كل شيء ممكن، وأن المرء يمكن أن يذهب حيث يشاء ويكون كل ما يشاء. ويعبر تي. إي. لورنس في أعمدة الحكمة السبعة عن هذا الاستيهام مرةً بعد مرة، إذ يذكرنا كيف تنقل - وهو الإنكليزي الأشقر، ذو العينين الزرقاوين - بين عرب الصحراء كأنه واحد منهم.

وأنا اسمي ذلك استيهاماً لأنه ما من أحد، كما يذكرنا كل من كيلنج ولورنس دونما انقطاع، ينسى أبداً - وأقلهم نسياناً هم بيضٌ وغير بيض حقيقيون في المستعمرات - أن "صيرورة المرء اصلانياً" أو ممارسة "اللعبة العظيمة" تعتمدُ <أن> على الأسس الراسخة رسوخ الصخر للقوة الأوروبية. اتراه كان ثمة اصلانيٌ واحد خدعة ذات يوم أمثال كيم أو لورنس الرزق العيون أو الخضرها ممن تنقلوا بينهم كمغامرين عملاء؟ إنني لأشك في ذلك، بالضبط كما أشك في أن أي رجل أبيض أو امرأة بيضاء عاشا ضمن مدار الامبريالية الأوروبية ونسيا مرةً أن التفاوت في القوة بين الحكام البيض والرعايا الاصلايين كان تفاوتاً مطلقاً، وأريد له أن يكون لامتغيراً، متجذراً في الواقع الثقافي والسياسي والاقتصادي.

وكيم، البطل الايجابي الصبي، الذي يسافر متنكراً في أرجاء الهند، عبّر الحدود وسطوح المنازل، وفي الخيام والقرى، مسؤولٌ بشكلٍ أزلي أمام القوة البريطانية، متمثلة في "لعبة" كريتون "العظيمة". وما يجعلنا نرى ذلك بوضوح بالغ هو أن الهند بين كتابة كيم وزمننا الراهن قد نالت استقلالها، تماماً كما أن الجزائر، بين نشر <رواية> جيد اللاخلاق و<رواية> كامو الغريب وزمننا، قد أصبحت مستقلة عن فرنسا. وأن نقرا هذه الأعمال الرئيسية من المرحلة الامبريالية بشكل استرجاعي وغير متجانس صوتياً مع تواريخ وترايات أخرى مُموضعة طباقياً ضدها، وأن نقراها في ضوء فكفكة الاستعمار، لا

يعني الانتقاص من قوتها الجمالاتية العظيمة ولا معالجتها تقليصياً بوصفها إعلماً دعائياً امبريالياً. ومع ذلك، فإنه لخطأ أشد فداحةً بكثير أن نقرأها مسلوخةً عن تواشجاتها وانتماءاتها إلى حقائق القوة التي أفعمتها ونفحتها بالمقدرات.

من الجلي أن الوسيلة التي ابتكرها كبلنغ وأدت إلى تطابق السيطرة البريطانية على الهند ("اللعبة العظيمة") بصورة مفصلة مع توهم كيم التنكري بأنه متماهم متناغم مع الهند، وأنه، فيما بعد، يغسل عنها ما حل بها من تدنيس، لم تكن قابلة للحدوث لولا الامبريالية البريطانية. إذ ينبغي أن نقرأ <هذه> الرواية بوصفها تحققاً لعملية تراكمية عظيمة كانت في السنوات الختامية للقرن التاسع عشر تبلغ لحظتها الرئيسية الأخيرة قبل استقلال الهند: من طرف أول، الرقابة والسيطرة على الهند؛ ومن طرف آخر، عشق الهند والتنبه المفتون لكل جزئية منها. وما يجعل التقاطع بين السطوة السياسية لـ <الطرف> الأول والمتعة الجمالاتية والنفسية بالثاني أمراً ممكناً هو الامبريالية البريطانية نفسها؛ ولقد فهم كبلنغ ذلك، غير أن الكثيرين من قرائه اللاحقين يرفضون أن يتقبلوا هذه الحقيقة المزعجة، بل المحرجة أيضاً. ولم يكن الأمر أمر إدراك كبلنغ للإمبريالية البريطانية بصورة عامة، بل للإمبريالية في تلك اللحظة المحددة من تاريخها، حين كانت قد فقدت تقريباً مقدرتها على رؤية فواعل الحيوية المتفتحة لحقيقة إنسانية وديوية. حقيقة أن الهند كانت قد وُجدت قبل أن يصل الأوروبيون، وأن مقاليد الحكم قد اغتصبت من قبل قوة أوروبية، وأن المقاومة الهندية لتلك القوة لا بد أن تشق طريقها بجهد خارجاً من تحت <نير> الاستعباد البريطاني.

إننا إذ نقرأ كيم اليوم نستطيع أن نراقب فناً عظيماً أعمته، بمعنى من المعاني، تبصرائه الشخصية النفاذة حول الهند، خالطاً بين الحقائق التي أبصرها بكل ذلك التلون والحدق ومفهوم أن هذه الحقائق دائمة وجوهرية. إن كبلنغ يستعير من الشكل الروائي خصائص يحاول أن يلوحيها لـ <تلائم> هذه النهاية التي هي أساساً نهاية مربكة محيرة. لكن لا ريب أن ثمة مفارقة لازعة فنية عظيمة في أنه لا ينجح حقاً في هذا الإرباك المحير؛ وإن محاولته استخدام الرواية لهذا الغرض تؤكد من جديد نزاهته واكتماله الجمالي. إن كيم، بأقصى درجات التأكيد، ليست رسالة سياسية وإن ما ينبغي أن نحفظ به بعزم بوصفه المعنى المركزي للكتاب هو اختيار كبلنغ للشكل الروائي ولشخصيته كيم أوهارا ليتعلق بعزم مع هند أحبها لكنه لم يستطع أن ينالها بشكل سليم. عندئذ يكون بوسعنا أن نقرأ كيم كوثيقة عظيمة للحظتها التاريخية، ونقرأها أيضاً كعلامة مضيئة على الطريق المؤدي إلى منتصف ليلة ١٤-١٥ آب <أغسطس> عام ١٩٤٧، وهي لحظة أنجز أطفالها الكثير الكثير من أجل أن ينفخوا إحساسنا بثرأ الماضي وبمشكلاته المستمرة الباقية\*.

## VI - المواطن الأصلاحي تحت السيطرة

مازلت أحاول، من طرف أول، أن أركّز على جوانب من ثقافة أوروبية مستمرة قامت الامبريالية باستغلالها مع تسارع نجاحاتها، وأن أصف، من طرف ثان، كيف حدث أن

\* - يتضمن النص هنا إيحاءة إلى رواية سلمان رشدي المشهورة أطفال منتصف الليل التي تبدأ أحداثها منتصف ليلة استقلال الهند، وما تركته هي ومثيلاتها من أثر على وجهات النظر الحديثة.

الامبريالي الأوروبي، رجلاً كان أم امرأة، لم ير أو لم يكن بوسعها أن يرى أنه كان امبريالياً، وكيف حدث، بمفارقة لاذعة، أنّ غير الأوروبي في الظروف نفسها لم ير الأوروبي إلا كامبريالي. بالنسبة للأصلائي يقول فرانتز فانون، فإن قيمة أوروبية مثل "الموضوعية" تكون دائماً موجهة ضده<sup>(١٥٦)</sup>.

ورغم ذلك، فهل يسع المرء أن يتحدث عن الامبريالية وكأنها مغروسة متأصلة طبيعياً في أوروبا القرن التاسع عشر إلى درجة أنها لم تعد قابلةً للتمايز عن الثقافة ككل؟ ما معنى كلمة مثل "امبريالي" حين تُستخدم لوصف عمل كبلنج المهلّل للحرب، كما تُستخدم في الوقت نفسه لوصف عمله الأدبي الأكثر لطافةً ورهافة، أو أعمال معاصريه تينيسون ورسكين؟ هل كلُّ مُنتجٍ ثقافي متورطٌ <ومتهمٌ> نظرياً؟

ثمة إجابتان تقترحان نفسيهما. كلا، ينبغي أن نقول: ذلك أنّ تصورات مثل "الامبريالية" لها خصيصاً معمة تُقنَع بدرجة من الغموض غير مقبولة اللاتجانس الشيق لثقافات الغرب الحواضرية. ينبغي أن نقيم تمييزات بين نمط أوّل من العمل الثقافي ونمط آخر حين يُؤوّل الأمر إلى التورط والانشباك في الامبريالية؛ هكذا نستطيع أن نقول، مثلاً، إنّ جون ستيورث مل، رغم كل ما لديه من لاتحررية فيما يتعلق بالهند، كان أكثر تعقيداً وتشابكاً وتنوّراً في مواقفه من مفهوم الامبراطورية من كارلايل ورسكن كليهما (كان سلوك مل في قضية إير مبادئياً، بل مثيراً للإعجاب، من وجهة نظر استرجاعية). ويصدق ذلك على كونراد وكبلنج كفنانيين بالمقارنة مع بكن أو هاغرد. بيد أنّ الاعتراض بأنّ الثقافة لا ينبغي أن تُعتبر جزءاً من الامبريالية يمكن أن يتحول إلى أخطوطة <تكتيك> لمنع المرء من الربط جدياً بين الاثنين. ولكن قد يكون بوسعنا، بالنظر إلى الثقافة والامبريالية نظرة متأنية، أن نتلمس اشكالاتاً متعددة لعلاقتهما، وسنرى أننا سنكون قادرين بشكل مثير على عقد صلات تُثري قراءتنا لنصوص ثقافية رئيسية وتزيدها إرهافاً. وإنّ المفارقة الضدية لتكمن، طبعاً، في أنّ الثقافة الأوروبية لم تكن أقل تعقيداً أو تشابكاً أو ثراءً أو إشاقّة نتيجة لدعمها لمعظم جوانب التجربة الإمبريالية.

دعنا ننظر إلى كونراد وفلوبير، وهما كاتبان قاما بعملهما في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكان أوّلهما معنياً صراحةً بالإمبريالية، فيما كان الثاني منشكباً فيها ضمناً. يؤكد كلا الكاتبين بصورة متشابهة، رغم الفروق بينهما، شخصيات تتخذ مقدرتها على عزل نفسها وتطويرها ببنى تخلقها <هي ذاتها> الشكل نفسه الذي يتخذه المستعمر <المنتصب> في المركز من امبراطورية يحكمها. ينسحب أكسل هيسست في انقصار وسان انطوان في الإغواء - وكلاهما عمل متأخر - إلى مكان يقومان فيه، مثل حراس لـ <وحدة> كلية سحرية، بتدميج واحتجان عالم عدائي تم تطهيره من مقاوماته المزججة لسيطرتهما عليه. ولهذه الانسحابات الانزوائية تاريخ طويل في كتابات كونراد الاختلاقية - الميير، وكورتز في المحطة الداخلية، وجيم في باتوسان ويشكل أكثر انغراساً في الذاكرة: تشارلس غولد في سولاكو؛ وهي تتكرر بتوتر متزايد لدى فلوبير بعد مدام بوفاري. لكن، بخلاف روبنسون كروزو في جزيرته، فإنّ هؤلاء المُساحات الحديثة عن الامبريالي الذي يحاول <تحقيق> خلاصه الشخصي محكومٌ عليهم، بمفارقة لاذعة، بأن يتعرضوا للمقاطعة وتشنت الانتباه، لأنّ ما كانوا قد حاولوا استثناءهم وإقصاءهم من عوالمهم الجُزئية يلجها

وينفذ إليها على أية حال. إنَّ التأثير الخفي للسيطرة الامبريالية في صور الغطرسة الانعزالية لدى فلوبيير لأصامة <بحق> حين تُقَحَّم تجاورياً مع تمثيلات كونراد المكشوفة.

تشكّل هذه المقاطعات<sup>٢٠</sup> لمشروع امبريالي، ضمن تقنيات الكتابة الاختلاقية الأوروبية، تذكيرات واقعيةً بأنه ليس في وسع أحد في الواقع أن ينسحب من العالم إلى نَسَاحَةٍ خاصةٍ عن الواقع. والصلة الراجعة إلى دون كيشوت جليئة هنا، وجليٌ أيضاً الاستمرارية <المتصلة> بجوانب مؤسساتية للشكل الروائي ذاته، حيث يؤدّب ويعاقب الفردُ الشادُ عادةً حرصاً على مصلحةٍ هويةٍ مدمجةٍ موحّدة. في أطر كونراد المشهيدة الاستعمارية علناً، تحدث أعمالُ التخريب والمقاطعة على يد أوروبيين، وهي منضوية ضمن بنية سرديةٍ يعاد تعريضُها استرجاعياً للتمحيص الأوروبي بهدف التأويل والمساءلة. ويرى المرء ذلك في كلا لورد جيم، العمل المبكر، وانقصار، العمل المتأخر: فإذا يحيا الرجلُ الأبيض المثالي أو المنسحب (جيم، هiest) حياةً عزلةً دونكيشوتيةً نوعاً ما، تُخترق عالمةً فيوضٍ شيطانية <مفستوفيلية>، ومغامرون تُمَحَّص استرجاعياً انتهاكاتهم وتجاوزاتهم التالية من قبل راو أبيض.

ثمة مثل ثان هو قلب الظلام. إنَّ جمهور مالرو انكليزي، ومالرو نفسه يخترق مجال كورتز الخاص عقلاً غريباً مستغلياً يحاول أن يجد معنى ما في كَشْفِ سِفْرُؤُوي<sup>٢١</sup>. وتلفت معظمُ القراءات، مُحَقِّقَةً، النظرَ إلى شكوك كونراد بالمشروع الإمبريالي، لكنها لا تلاحظ إلا نادراً أن مالرو في سرده لحكاية رحلته الافريقية يكرِّز ويؤكد فعلَ كورتز: وهو استعادة أفريقيا إلى <حظيرة> الهيمنة الأوروبية عن طريق أرْحَنَة وسرد غرابتها. إنَّ المتوحشين، والبراري المتأبدة، بل الحمق السطحي المتمثّل في إطلاق القذائف إلى <قلب> قارة هائلة - كلُّ هذه الأمور تعيد تأكيد حاجة مالرو إلى وضع المستعمرات على الخريطة الامبريالية وتحت الزمانية المستوعبة المجلّلة لتاريخٍ قابلٍ للسرد، بغض النظر عن مدى تعقيد النتائج ودائريتها المتلافة.

إنَّ المعادلين التاريخيين لمالرو، لناخذ مثلين بارزين، هما السير هنري ميّن والسير رودرك مورتشيسن، وهما رجلان يُحتفى بهما بفضل أعمالهما الثقافية والعلمية الضخمة - وهي أعمال غير قابلة للفهم إلا ضمن السياق الامبريالي. تتحرى دراسة مين العظيمة القانون القديم (١٨٦١) بنية القانون في مجتمع بدائي أبوي يضفي الامتيازات على <مقامات> ثابتة ولا يمكن أن يصير حديثاً إلى أن يتم تحوله إلى أساس <عاقدي>. ويتكهن مين بطريقة تكتنفها السحريّة المرهبة بتاريخ فوكو، في أدبٍ وعاقبٍ، للنقلة التي حدثت في أوروبا من الرقابة ذات <السيادة> إلى الرقابة الإدارية. ويكمن الفرق بينهما في أن الامبراطورية أصبحت، بالنسبة لـ مين، نوعاً من المختبر لبرهنة سلامة نظريته (<فيما> يعالج فوكو البانوپتيكون البنثامي<sup>٢٢</sup> المستخدم في المراكز الإصلاحية الأوروبية برهاناً على

\* - إزاء interruptions (الناشر).

\*\* - النسبة هنا إلى <سفر الرؤيا> للقديس يوحنا في العهد الجديد؛ وقد رايتُ نُحْتُ كلمة من الكلمتين بهذه الصيغة ليسهل التصرف بها: <سفرؤوي>؛ وهي تشير إلى الرؤيا التي تكشف أحداث المستقبل، وتتضمن المشاهد المهولة القيامية. ولذلك ترجمتها في سياق آخر بـ <الرؤى الحشرية>.

\*\*\* - وهو نمط من السجن صممه بنثام، يمكن أن نسميه <السجن الشفاف>، لأنه دائرة مركزها موقع السجناء الذي تتحلّق حوله الزنانات، فيرى السجنانون من مكانهم جميع السجناء في زرناناتهم طوال الوقت.

صحة نظريته): وحين عُيِّنَ مَنَ عضواً للقانون في مجلس نائب الملك في الهند، اعتبر إقامته في الشرق "رحلة ميدانية مطولة". وقد حارب المنفيين على قضايا تتعلق بالإصلاح الشامل للتشريع الهندي (الذي كتب هو مانتى قطعة منه)، وأوَّلَ مهمتهُ على أنها اكتشاف وحفظُ الهنود الذين يمكن إنقاذهم من "المقام" واجتذابهم، كخبرة تُربى بعناية وحرص، إلى الأساس التعاقدى للسياسة البريطانية. وقد رسم مين، في <كتاب> المنجمعات القروية (١٨٧١) ثم في سلسلة المحاضرات <التي تحمل اسم> "ريد" خطوطاً نظرية تشبه نظرية ماركس إلى درجة مذهلة: إن الإقطاع في الهند، وقد تحداه الاستعمارُ البريطاني، كان تطوراً ضرورياً؛ وقد طرح منظومة أن السيد الإقطاعي، مع مرور الزمن، سيُرسى أسس الملكية الفردية ويسمح لنموذج بدني من الطبوقسية بالظهور.

كان رودرك مورتشيسن لافتاً إلى درجة مكافئة، وكان جندياً انقلب إلى مُختصٌ بعلوم الأرض <جيولوجي>، وجغرافي، وإداري للجمعية الجغرافية الملكية. وكما أشار روبرت ستافورد في مسرّد أخذ حياة مورتشيسن ومهنته، فقد كان لا بد أن يقارب موضوعه كعالم أرض - في ضوء خلفيته العسكرية، ونزغته المحافظة القاطعة، وثقته بنفسه وإرادته الجامحتين، وحميته الهائلة للعلم والاكْتساب - مِثْلَ جيشٍ منتصرٍ داحرٍ أضافت حملاته إلى الامبراطورية البريطانية قوةً ومقدرةً على الوصول إلى كل بقاع العالم<sup>(١٥٧)</sup>. لقد كان عملُ مورتشيسون، سواء في بريطانيا نفسها، أو في روسيا، أو أوروبا، أو المناطق المقابلة <على الجهة الأخرى من الكرة الأرضية>، أو أفريقيا، أو الهند، هو الامبراطورية عينها. ولقد قال مرة إن "السفر والاستعمار ما يزالان اليوم العاطفتين المسيطرتين في نفوس الإنكليز، تماماً كما كانا في أيام رالي وديك"<sup>(١٥٨)</sup>.

هكذا يعيد كونراد في حكاياته تمثيلَ الحركة الامبريالية التي تسحب العالمَ كلّه عملياً <إلى مجال الامبراطورية>، وهو يمثلُ مكتسباتها فيما يؤكد مفارقاتها اللاذعة غير القابلة للتقليص. وتطغى رؤياه التاريخية على التواريخ الأخرى المتضمنة في المتواليات السردية: وتقوم محرّكاتُها الحيوية بشرعنة أفريقيا، وكورتز، ومالرو - رغم شذوذيتها الجذرية - بوصفها أشياء تنتمي إلى فهم غربي نكروني (لكنه بالتأكيد إشكالي) متفوق. ورغم ذلك، فإنّ قدراً كبيراً من سردية كونراد، كما قلتُ سابقاً، مشغول بما يُعصى على التعبير المفصح: الأدغال، الأصلايين اليانسين، النهر العظيم، حياة أفريقيا الفخمة السوداء التي تجلّ عن الوصف. في المناسبة الثانية من مناسبتين ينطق فيهما أصلائي بكلمة مفهومة، يغرّز "راساً أسوداً وقحاً" عبر المدخل ليعلن وفاة كورتز، كأنما لا يمكن إلا لسوِّغ أوروبي أن يقدم سبباً كافياً لأفريقي ليتكلم بكلام متناسق. ليست حكاية مالرو اعترافاً باختلاف أفريقي جوهرى، بقدر ما هي تناولٌ للتجربة الأفريقية بوصفها اعترافاً آخر باهمية أوروبا الكونية؛ وتتحسر أفريقيا من حيث المعنى الاكتمالي، كما لو أنها بموت كورتز أصبحت من جديد الخلاء الذي حاولتُ إرادتهُ الإمبريالية أن تتغلب عليه.

لم يكن متوقّعاً من قرّاء كونراد في ذلك الوقت أن يسألوا أو أن يشغلوا أنفسهم بما ال إليه الأصلايون. كان ما يعينهم هو كيف يكشف مارلو المغزى والمراد من كل شيء،

٥ - السير والتر رالي (١٥٥٤ - ١٦١٨) بحار ومؤرخ انكليزي. والسير فرانسيس دريك (١٥٤٠ أو ١٥٤٢ - ١٥٩٦) بحار انكليزي أيضاً.



فلولا سرديته المصوغة بتمعن لما كان ثمة تاريخٌ يستحق الإخبار عنه، أو مختلقات <حكاية> تستحق الاعتبار، أو سلطة تستحق الاستشارة. ولا يبعد هذا إلا بمقدار خطوة قصيرة عن مسرد الملك ليوبولد للرابطة العالمية للكونغو <التي أنشأها> لتقدّم خدمات دائمة متجردة عن الأهواء لقضية التقدم<sup>(١٥٩)</sup>، والتي وصفها أحد المعجبين عام ١٨٨٥ بأنها أنبل وأعظم خطة تضحياً بالنفس حاول أحد تنفيذها أو سيحاول أحد تنفيذها في المستقبل لتطوير أفريقيا.

لا يبلغ نقدُ تشينوا انشيبني المشهور لكونراد (بأنه كان عرقياً عنصرياً سلخ عن سكان أفريقيا الأصليين إنسانيتهم سلخاً تاماً)، مدى وأياً من التأكيد على ما في كتابه كونراد الاختلاقية المبكرة من منطويات تصبغ في أعماله المتأخرة، مثل نوسترومو وافتصار، التي لا تعالج أفريقيا، أشدّ انكشافاً وصراحة<sup>(١٦٠)</sup>. إن تاريخ كوستاغوانا في نوسترومو تاريخٌ عاتٍ لا يرحم لعائلة بيضاء ذات خططٍ جليّة ونزعة انتحارية. ولا يقدم الهنود المحليون ولا أفراد الطبقة الحاكمة من الإسبانيين في سولاكو منظوراً بديلاً: فكونراد يعاملهم <جميعاً> بشيء من الازدراء المشفق والغرائبية اللذين يخصّ بهما الافارقة السود وفلاحي جنوب شرقي آسيا. لقد كان جمهور كونراد، في نهاية المطاف، أوروبياً، ولم يكن الأثر <الفعلي> لكتابه الاختلاقية تحدّي تلك الحقيقة بل تأكدها وتعزز الوعي بها، رغم أن شكوكه الناهشة - وهنا المفارقة الضديّة - قد أطلقت من عقالها نتيجة ذلك. ويبرز محركٌ حيويٌّ مماثلٌ لدى فلوپير.

إنّ الأشكال الثقافية الاحتوائية التي تعالج أطراً مشهدة خارجية غير أوروبية هي، إذن، رغم إرهافها وشبكيّتها، عقائدية وانتقائية (بل قمعية) بشكل بارز فيما يتعلق بـ <الأصليين>، تماماً كما أن الجاذبية التصويرية لفن الرسم الاستعماري<sup>(١٦١)</sup> في القرن التاسع عشر هي، رغم <واقعيّتها>، عقائدية وقمعية: فهي فعلياً تُصمّت الآخر، وتعيد تأسيس الاختلاف هويةً، وتُحكّم وتُمثّل مجالات مسكونة من قبل قوى محتلة، لا من قبل أصليين غير فاعلين. والسؤال الشيق هو أيّ شيء، إن كان ثمة من شيء، قاوم السرديات الامبريالية المباشرة كتلك المتمثلة في عمل كونراد؟ هل ظلت الرؤيا المعززة لأوروبا <سليمة ومتصلة> دون انكسار؟ أم كانت <ذات قوة> لا تقاوم ودون معارضة داخل أوروبا؟

أجل، لقد ولدت الامبريالية الأوروبية معارضةً أوروبية - كما يبرهن أي. بي. تورتون، وپورتر، وهويسن<sup>(١٦٢)</sup> - بين منتصف القرن ونهايته؛ ولا شك أن دعاة إلغاء الرقيق، مثل <الروائي الإنكليزي> أنتوني ترولوب، وغولدون سميث، كانوا نسبياً رجالاً شرفاء ضمن كثير من الحركات الفردية والجمعية. بيد أن أناساً مثل <المؤرخ البريطاني> فرود، وديك، وسيلي كانوا يمثلون الثقافة المناصرة للإمبريالية، وهي ثقافة كانت أشدّ قوةً وأعظم نجاحاً بشكل كاسح<sup>(١٦٣)</sup>. وكان المبشرون، مع أنهم كثيراً ما أدوا دور عملاء لقوة امبريالية أو أخرى على مدى القرن التاسع عشر، قادرين أحياناً على كبح أشدّ التصرفات الاستعمارية تجاوزاً وسوءاً، كما يحتج ستيفن نيل في الاستعمار والبعثات التبشيرية المسيحية<sup>(١٦٤)</sup>. وصحيح أيضاً أن الأوروبيين جلبوا التغيير التقنوي الحديث - المحركات البخارية، والاتصالات البرقية، بل التعليم أيضاً - إلى بعض الأصليين، وهي منافع استمرت إلى ما بعد المرحلة الاستعمارية، وإن لم تخلُ من جوانب سلبية. بيد أن النقاء المذهل للبحث المتشوّف الامبريالي في قلب الظلام - حين يعترف مالرو بأنه كان دائماً

يشعر بشيوب عاطفي ملء الفضاءات العظيمة الفارغة على الخريطة - يظل هو الحقيقة الغالبة، وهي حقيقة تكوينية أساسية، في ثقافة الامبريالية. وهذه الامعاء، في قوتها المندفعة، تعيد إلى الذهن مستكشفين وامبرياليين حنينيين مثل رودن، ومورثيسين، وستانلي. وليس ثمة من وسيلة للتقليل من أهمية القوة المتفاوتة التي أسستها الامبريالية والتي اطلت أمدها في المواجهة الاستعمارية. ويؤكد كونراد هذا الواقع لا في مضمون تقرير كورتز المؤلف من سبع عشرة صفحة إلى "جمعية قمع العادات المتوحشة" وحسب، بل في شكله أيضاً: إن هدف تحضير <تمدين> الأماكن السوداء وإدخال النور إليها لهُوَ على علاقة مطابقتة <ضدية> ومعادلة منطقية في الوقت نفسه مع نهايته الفعالة: وهي الرغبة في إبادة المتوحشين الذين قد لا يكونون متعاونين أو قد تروق لهم أفكار عن المقاومة. إن غولد في سولاكو هو نبي أن واحد راعي المنجم والرجل الذي يخطط لنسف المشروع. ولا حاجة لعقد الروابط: فالرؤيا الامبريالية تجعل حياة الاصلايين وموتهم أمراً ممكناً في الوقت ذاته.

لكن الاصلايين طبعاً لا يمكن أن يُزالوا جميعاً من الوجود إزالة فعلية، بل الحق أنهم يتناولون أكثر فاكثراً على الوعي الامبريالي ويقتحمونه. وما يتلو هو خطط لفصل الاصلايين - الافارقة، والماليزيين، والعرب، والبربر، والهنود، والنيباليين، والجافاويين، والفلبينيين - عن البيض على أسس عرقية ودينية، ثم إعادة تكوينهم بشراً يتطلبون حضوراً أوروبياً، سواء اتخذ شكل مستتببة استعمارية أم إنشاء سيد مسيطر يمكن أن يُحشروا فيهما ويجبروا على العمل. وهكذا فإن المرء، من طرف أول، يجد كتابة كبلنغ الاختلاقية التي تفترض الهندي مخلوقاً يحتاج بجلاء إلى الوصاية البريطانية التي تشكل جانباً منها سردياً تطوق الهند أولاً ثم تستوعبها وتمثلها، إذ إن الهند من دون بريطانيا ستختفي داخل فسادها الخاص وتخلّفها (وكبلنغ هنا يكرر الأفكار المعروفة جيداً التي طرحها جيمس وجون ستيورت ميل وغيرهم من المنفعيين إبان فترة سلطنتهم في بيت الهند <إنديا هاوس> (١٦٥)).

أو يجد المرء، من طرف آخر، الإنشاء الظلي للراسمالية الاستعمارية، التي تضرب جذورها في سياسات التجارة الحرة التحررية <الليبرالية> (والتي تُشتق أيضاً من الأدب الرسولي <الايغانجليكي>) التي يبرز فيها، مثلاً، الاصلائي الكسول من جديد شخصاً تقتضي شخصيته المتحللة وفسوقه الطبيعي سيداً أمراً أوروبياً. ونرى ذلك في ملاحظات الحكام الاستعماريين مثل غاليني، وهوير ليوتي، واللورد كرومر، وهيو كليفورد، وجون باورينغ: يداه كبيرتان، وأصابع أقدامه رخوة مرنة، وقد تمرست بتسلق الأشجار وغير ذلك من الوظائف النشيطة... الانطباعات التي تترك أثرها عليه مؤقتة عابرة، وهو لا يحتفظ إلا بذكرى خافتة واهنة للأحداث العابرة أو الماضية. أسأله عن عمره، ولن يستطيع الإجابة. من كان أسلافه؟ لا يعرف ولا يابه... إنهم <الأعظم> الأمار هو عطلته، وهي نعيمه وغبطته. وهو يبذل الجهد الذي تقتضيه الضرورة بتذمر ومقت (١٦٦). ونرى ذلك أيضاً في المعطيات الصارمة للرسائل المستفردة <المونوغراف> التي ألّفها علماء الاجتماع الاستعماريون الباحثون من أمثال مؤرخ الاقتصاد كلايف داي، الذي كتب عام ١٩٠٤: على صعيد عملي تبين أنه يستحيل أن يؤمن المرء خدمات السكان الاصلايين [الجافاويين] عن طريق استئارة أي طموح <لديهم> لتحسين أنفسهم ورفع مستوياتهم. لا شيء سوى المتعة المادية الفورية تحركهم من مكروريتهم الكسلى (١٦٧). لقد حولت هذه

الأوصافُ الأصلانيين وعملهم إلى سلع وغطتُ ببريق مموءُ الشروطُ التاريخيةُ الفعلية، مهريَّةٌ ومبحرَّةٌ منها حقائقُ الكدح والمقاومة<sup>(١٦٨)</sup>.

لكنَّ المسارد أيضاً هزَّيتُ، وحجَّبتُ، وحذفتُ القوةَ الحقيقيةَ التي امتلكها المراقبُ الذي كان بوسعه، لأسباب لا تُضمَّنُها إلا القوةُ وتحالفُها مع روح تاريخ العالم، أن ينطق أحكاماً على حقيقة الشعوب الأصلانية كأنما يرى من نقطة لامرئية لمنظور خارق الموضوعية، مستخدماً مراسيم العلوم الجديدة ومصطلحاتها المتعاطلة ليزيح وجهة نظر "الأصلانيين" من مكانها. وكما تعبَّرُ روميلاً ثابار، مثلاً:

فقد أصبح تاريخ الهند أحد وسائل الترويج لهذه المصالح وتشجيعها. وتم إلى حدٍ كبير تجاهلُ الكتابة التاريخية الهندية التقليدية التي تركز على التراجم والحواليات الشخصية. كانت الكتابات الأوروبية عن التاريخ الهندي محاولة لخلق تقليد تاريخي طازج. ويُحتمل أن النسق العلمتاريخي للماضي الهندي الذي تُشكِّلُ إبان المرحلة الاستعمارية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان مشابهاً للنساق التي انبثقت في تواريخ مجتمعات استعمارية أخرى<sup>(١٦٩)</sup>.

حتى المفكرون الضديون المعارضون أمثال ماركس وإنجلز كانوا قادرين على إصدار مثل هذه الآراء بما لا يقلُّ عن المتحدثين الرسميين باسم الحكومتين الفرنسية والبريطانية؛ فقد اعتمد كلا العسكريين السياسيين على الوثائق الاستعمارية، وعلى إنشاء الاستشراق الرمزي ترميزاً كاملاً، مثلاً، وعلى رأي هيغل في الشرق وأفريقيا بوصفهما ساكنين واستبديادين ودونما صلة بالتاريخ العالمي. وحين تحدث إنجلز يوم ١٧ أيلول (سبتمبر) ١٨٥٧ عن مغاربة <مور> الجزائر بوصفهم "عرقاً يفتقر إلى الثقة والشجاعة" لأنهم كانوا مقموعين لكنهم يحتفظون مع ذلك بفظاظتهم وروح الانتقام المتشفي لديهم، فيما يحتلون على سعيد الشخصية الأخلاقية مكانةً بالغة الانحطاط<sup>(١٧٠)</sup>، فإنه لم يكن إلا صدى يرجع المذهب الاستعماري الفرنسي. وبصورة مماثلة استخدم كونراد المسارد الاستعمارية عن الأصلانيين الكسالي، تماماً كما نسج ماركس وإنجلز نظريتهما عن الجهل والتطوُّر الشرقيين والأفريقيين. وإنَّ ذا لجانبٍ ثانٍ من جوانب الرغبة الامبريالية غير المنطوقة؛ ذلك أنه إذا تم تحويل الأصلانيين المعنئين في ماديتهم من كائنات خاضعة إلى <مخلوقات> بشرية دنيوية، فإن المستعمر يتحول بصورة مشابهة إلى كاتب لامرئي تقدِّم كتابته تقريراً عن الآخر وتصرُّف في الوقت نفسه على تجرُّدها العلمي وتصرُّ (كما لاحظتُ كاثرن جودج<sup>(١٧١)</sup>) على التحسن المطرد في أوضاع الأصلانيين، وشخصياتهم، وعاداتهم نتيجةً لأحتكاكهم بالحضارة الأوروبية<sup>(١٧٢)</sup>.

في أوج الامبريالية العالية في أوائل هذا القرن، إنَّ، لدينا توحيداً مفترقي بين المرمرات المؤرخية للكتابة المطردة <المنطقية> في أوروبا، والتي تفترض عالماً في متناول التخصيص اللاشخصي العابر للقوميات عبي المستوى الكوني من جهة، وعالم مستعمر إلى مدى هائل من جهة أخرى. وهدف هذه الرؤيا المعززة والمدمجة هو دائماً إما ضحية وإما شخصية - سواء أكانت امرأة أم رجلاً - مكبَّلةً بالمقيِّدات، مهددةً باستمرار بالعقاب الصارم، رغم فضائلها، وخدماتها، وإنجازاتها، العديدة، مقصاةً وجودياً لأنها لا تتمتع إلا بالقليل من مواهب الخارجي الفاتح، الماسح، المحضَّر\*. بالنسبة للمستعمر، يقتضي الجهاز الاحتوائي جهداً لا يني للحفاظ عليه. وللضحية، لا تقدِّم الامبريالية سوى البديلين التاليين: فلتُخدم أو فلتُدمر.

\* - لعلَّ من الواضح أنَّ المقصود بالمتين الأخيرين: من يقوم بمسح الأراضي والتخيط لها، ومن يسعى إلى تمدين الشعوب (الناشر).

## VII - كامو والتجربة الاستعمارية الفرنسية

ومع ذلك، فلم تكن جميع الامبراطوريات شيئاً واحداً. كانت امبراطورية فرنسا، تبعاً لأحد أشهر مؤرخيها، تكتسب الحيوية والطاقة من "الموقع الامتيازي"<sup>(١٧٣)</sup>، رغم أنها لم تكن أقل اهتماماً من امبراطورية بريطانيا بالرياح، والمستنبتات، والعبيد. وقد تربعت على رأس اقاليمها الخاضعة المختلفة التي اكتسبتّها (وخسرتّها أحياناً) على مدى ثلاثة قرون "عبقريتها" المتألقّة المشعّشة، التي هي بدورها وظيفة أدائية من وظائف "مهنة فرنسا ذات الرسالة السامية"، بكلمات دُلافينيّ وشارل أندريه جوليان، اللذين قاما بتجميع عمل فاتن هو مؤسسو فرنسا ما وراء البحار<sup>(١٧٤)</sup>. يبدأ طاقم الشخصيات <التي يُدرجها في عملهما> بشانپلان وريشيليو، ويضم قناصل مهيبين مروّعين من مثل بوغو، فاتح الجزائر؛ وبرازا، الرجل الذي أسس الكونغو الفرنسي؛ وغاليني، مُخضع مدغشقر؛ وليوته الذي كان مع كرومر اعظم الحكام الأوروبيين للعرب المسلمين. ولا يحس المرء بوجود مكافئ <فرنسي> لوجهة النظر الدوائية البريطانية، بل يحس إلى درجة تفوق ذلك بكثير بالاسلوب الشخصي <المجسد> لكون المرء فرنسياً في مشروع تمثليّ استيعابيّ عظيم.

وسواء اكان ذلك مجرد تصور للذات فرنسي أم لم يكن كذلك، فليس للأمر من أهمية، إذ إن الاطراد والانتظام في الاستهواء كانا القوة الدافعة في <عملية> تبرير اكتساب الاراضي قبل حدوثه، وخلالها، وبعده. حين قال سيلي (الذي تُرجم كتابه المشهور إلى الفرنسية عام ١٨٨٥ واثار الكثير من الإعجاب والتعليقات) عن الامبراطورية البريطانية إنها اكتُسيبت في حالة من شرود الذهن، فقد كان يصف وجهة نظر عن الامبراطورية بالغة الاختلاف عن وجهات نظر الكتاب الفرنسيين المعاصرين <له>.

لقد نشطت الحرب الفرنسية البروسية عام ١٨٧٠ بشكل مباشر تزايدت الجمعيات الجغرافية الفرنسية، كما يُظهر اغنيس ميرفي<sup>(١٧٥)</sup>. وصارت المعرفة والاستكشافات الجغرافية بعدئذ مرتبطة بالإنشاء الذي يدور حول الامبراطورية (وباكتسابها)؛ ويوسع المرء أن يرسم، في البروز الشعبي لأشخاص مثل يوجين إتيان (مؤسس المجموعة الاستعمارية عام ١٨٩٢)، ارتقاء النظرية الامبريالية الفرنسية إلى ما يقارب العلوم الدقيقة. وقد تطوّر بعد ١٨٧٢ وللمرة الأولى، تبعاً لجيرارديه، مبدأ سياسي متناسق للتوسع الاستعماري على مستوى رئاسة الدولة الفرنسية؛ وارتفعت ممتلكات فرنسا الاستعمارية من مليون إلى ٩٠ مليون كيلومتر مربع، ومن خمسة ملايين من السكان الاصلايين إلى خمسين مليوناً<sup>(١٧٦)</sup>. وفي المؤتمر العالمي الثاني للعلوم الجغرافية، الذي عُقد عام ١٨٧٥ وحضره رئيس الجمهورية، وعمدة باريس، ورئيس المجلس <النيابتي>، وأمير البحر <الادميرال> لاروسبير، كشف خطاب لونوري الافتتاحي وجهة النظر السائدة عبر المؤتمر <بأسره>: "أيها السادة، لقد حكمت العناية الإلهية علينا بواجب معرفة الأرض والقيام بفتحها. وهذا الأمر السامي أحد الواجبات المحتمة المنقوشة على <صفحة عقولنا أو> ذكائنا ونشاطاتنا. لقد أصبحت الجغرافيا، ذلك العلم الذي يُلهم مثل هذا التفاني الجميل والذي قُدّم باسمه العديّد من الضحايا، فلسفة الأرض"<sup>(١٧٧)</sup>.

• - سامونيل نو شانپلان Champlain (١٥٦٧ - ١٦٣٥): بحار ومكتشف فرنسي ومؤسس الكيبك. وأما دوق نو ريشليو Richelieu (١٥٨٥ - ١٦٤٢) فكان رينال ورجل دولة فرنسي.

ازدهر علم الاجتماع (بإلهام من لو بون)، وعلم النفس (الذي دشنته ليوبولد دو سوسور)، والتاريخ، وعلم الإنسان طبعاً، في العقود التالية لعام ١٨٨٠، وتُوِّج العديد منها بمؤتمرات استعمارية عالمية (١٨٨٩، ١٨٩٤، الخ) أو بجماعات محددة (كالمؤتمر العالمي لعلم الاجتماع الاستعماري عام ١٨٩٠، ومؤتمر علوم الأعراق الوصفية في باريس عام ١٩٠٢). وقد أحييت مناطق بأسرها من العالم إلى موضوعات للاهتمام المتفقه الاستعماري؛ ويذكر ريمون بتس أن مجلة علم الاجتماع العالمية خصصت أعداداً سنوية لمسح مدغشقر عام ١٩٠٠، ولسح لاوس وكمبوديا عام ١٩٠٨<sup>(١٧٨)</sup>. وقد انهارت النظرية العقائدية للتمثل الاستعماري التي كانت قد بدأت زمن الثورة <الفرنسية>، إذ أخذت نظريات الأنماط العرقية - مثل أعراق غوستاف لويون البدائية، والدونية، والمتوسطة، والمتفوقة؛ أو فلسفة القوة الخالصة عند ارنست سيلر؛ أو نظاميات الممارسة الاستعمارية عند ألبير سارو وپول لوروا - بوليو؛ أو مبدأ السيطرة عند جول هارمان<sup>(١٧٩)</sup> - تقود خطى الاستخطاطيين الامبرياليين الفرنسيين. كان ينبغي <بحسب هؤلاء> الا يعامل الأصليون وأراضيهم ككيانات يمكن تحويلها إلى <كيانات> فرنسية، بل كمتلكات تتطلب خصائصها اللامتغيرة العزل والفصل والإخضاع، رغم أن ذلك لا يلغي إمكانية <إداء> 'الرسالة التحضيرية'. وقد حول تأثير قواييه، وكولزيل، وجيران مثل هذه الأفكار إلى لغة؛ كما حولها، في الأقاليم الامبريالية ذاتها، إلى ممارسة اقتريت قريباً كبيراً من أن تكون علماً؛ علماً لحكم الدونيين الذين كانت فرنسا تتحكم بمواردهم، وأراضيهم، ومصائرهم. لقد كانت علاقة فرنسا بالجزائر، والسنغال، وموريتانيا، والهند الصينية، في أفضل حالاتها، علاقة ترابط عبر 'الشراكة التراتبية'، كما يحتج رينيه مونيه في كتابه علم اجتماع المستعمرات<sup>(١٨٠)</sup>، لكن بتس يلاحظ مُحِقاً أن نظرية الامبريالية رغم ذلك لم تُحَدث عن طريق دعوة موجهة بل عن طريق القوة، ولم تكن ناجحة على المدى الطويل، بعد أخذ جميع المبادئ النبيلة بالاعتبار، إلا بقدر ما ظل هذا المعقلن الأخير بارزاً<sup>(١٨١)</sup>.

حين نقارن المناقشات التي دارت حول <فكرة> الامبراطورية من قبل الفرنسيين ومن أجلهم بالوقائع الفعلية للفتوحات الامبريالية، تصدمنا تفاوتات ومفارقات لأذعة عديدة. لقد أخذت بعين الاعتبار دائماً أموراً عمليانية سمحت لأشخاص مثل ليوتيه، وغاليني، وفيدهيرب، وبوغو - من الوية <جنرالات>، ونواب قناصل، وإداريين - بالتصرف وحسم الأمور بقوة وبطش عاتيين. وقد احتفظ سياسيون مثل جول فيري، ممن أفصحوا عن السياسة الامبريالية بعد حدوث الأمور (وإبانها)، لأنفسهم بحق افتراض أهداف استخفت بالسكان الأصليين مثل الإدارة نفسها... والدفاع عن التراث القومي<sup>(١٨٢)</sup>. وكانت الامبراطورية الفرنسية، بالنسبة لأروقة الضغط والتأثير على الرأي وما نسميه اليوم بالدعائين - الذين كان بينهم روائيون ومهللون <شوفينيون> للحروب وفلاسفة حكاء - متواشجة تواجهاً فذاً بالهوية القومية الفرنسية، بالمعيتها، وحيويتها الحضارية، وتطورها الخاص الجغرافي والاجتماعي والتاريخي. ولم يكن أي من هذه الأمور منسجماً أو متطابقاً مع الحياة اليومية في المارتينيك، أو الجزائر، أو الغابون، أو مدغشقر؛ ولقد كان ذلك أمراً صعباً - بتعبير معتدل - بالنسبة للأصليين. وإضافة، فلقد كانت امبراطوريات أخرى - الألمانية، والهولندية، والبريطانية، والبلجيكية، والأميركية - تتحرش بفرنسا، إلى

درجة الاقتراب من الحرب الشاملة معها (كما في فاشودا) <في جنوبي شرقي السودان> أو تتفاوض معها (كما في العالم العربي في ١٩١٧-١٩١٨)، أو تهددها، أو تقلدها (١٨٣).

لكن العملية التي لا هواده فيها استمرت في الجزائر، أيًا كان افتقارُ سياسة الحكومات الفرنسية منذ ١٨٣٠ إلى التناسق والاطراد، لتحويل الجزائر إلى <مقاطعة> فرنسية. أولاً، اغتصبت الأرضُ من الأصلايين واحتلت مبانهم؛ ثم اغتصبت المستوطنون الفرنسيون السيطرة على غابات شجر البلوط الفليني ومستوطنات المواد المعدنية. ثم طردوا الجزائريين من أماكنهم وأحلوا محلهم أوروبيين في [مدن مثل] بون (١٨٤)، كما يلاحظ دايفيد پروشاسكا بالإشارة إلى عنابة (التي أُسميت فيما بعد: بون). ولبضعة عقود بعد ١٨٣٠، سيطر "رأس المال المنهوب" على الاقتصاد وأداره، وتقلص عدد السكان الأصلايين، فيما تزايد عدد الجماعات المستوطنة. وظهر إلى الوجود اقتصاد مزدوج: يمكن تشبيه الاقتصاد الأوروبي بشكل عام باقتصاد رأسمالي يتمركز في الشركات، وأما الاقتصاد الجزائري فيمكن أن يُقارَن باقتصاد قَبْ - رأسمالي سُوْفُشَغِي <بازاري> التوجّه (١٨٥). وهكذا، فبينما أعادت فرنسا إنتاج نفسها في الجزائر (١٨٦)، أقصى الجزائريون إلى مرتبة دنيا من الهامشية والفقر. ويقارن پروشاسكا بين مسرد يقدمه مستعمرٌ فرنسي لقصة <مدينة> بون، وآخر لوطني جزائري تبدو نساخته عن الحوادث في عنابة مثل قراءة المؤرخين الفرنسيين لبون مقلوبين رأساً على عقب (١٨٧).

فوق كل شيء آخر، يطبل ارنو ويزمُر للتقدم الذي أنجزه الفرنسيون في بون بعد الفوضى التي خلفها الجزائريون. يجب أن يحافظ على هذه المدينة كما هي تماماً "لا لأن المدينة القديمة" قذرة، بل لأنها هي وحدها التي تتيح للزائر... أن يفهم بشكل أفضل فخامة وجمال المهمة التي أنجزها الفرنسيون في هذه البلاد في هذا المكان الذي كان في السابق مهجوراً، وقاحلاً، وخالياً تماماً من الموارد الطبيعية، هذه القرية العربية القبيحة الصغيرة التي لا يكاد يتجاوز عدد سكانها ١٠٠٠ (١٨٨).

لا غرابة إذن في أن كتاب حسين درور عن عنابة يُستخدم للفصل الذي يتناول الثورة الجزائرية بين ١٩٥٤ و ١٩٦٢ عنواناً <هو التالي>: "الجزائر، السجينة في مخيم كوني للأعمال الشاقة، تمرق الاستعمار وتنال حريتها" (١٨٩).

وعلى بعد ثمانية عشر ميلاً من بون تقع قرية موندوفي، التي كانت قد أُسست عام ١٨٤٩ على يد عمال "حمر" شحنتهم الحكومة من باريس (كوسيلة للتخلص من العناصر المزعجة سياسياً) ومنحتهم أراضي صادرتها من الأصلايين الجزائريين. وتُظهر أبحاث پروشاسكا أن موندوفي بدأت كتاب لإنتاج الخمر يدور في فلك بون، وفيها ولد البير كامو عام ١٩١٣، طفلاً أمه عاملة بيوت إسبانية وأبوه مراقب لأقبية حفظ الخمر (١٩٠).

إن كامو هو المؤلف الوحيد من الجزائر الفرنسية الذي يمكن أن يُعتبر بتسويغ تام مؤلفاً ذا مقام عالمي. وقد كان كامو، كما كانت جين أوستن قبله بقرن من الزمان، روائياً أسقطت من أعماله حقائق الواقع الامبريالي، الماثلة في هذه الأعمال مثولاً واضحاً بانتظار أن ترى، وكما في حالة أوستن، فقد بقي <من كامو> روحية قابلة للفصل، روحية توحى بالكونية والإنسانية، على قدر عميق من التنافر مع أوصاف الامكنة الجغرافية التي تُقدّم بشكل عار في الكتابة الروائية نفسها. إن فاني تمسك بكل روضة مانسفيلد ومستنبت انتيفوا؛ وفرنسا تمسك بالجزائر، كما تمسك في القبض السردية نفسها بعزلة مُرسو الوجودية إلى درجة الادهاش.

وكامو على قدر بالغ من الأهمية في <سياق> الاضطراب الاستعماري البشع الناتج من مخاض تفكيك الاستعمار الذي مرت به فرنسا في القرن العشرين. إنه شخصية امبريالية متأخرة جداً لم يبق بعد انقضاء أوج الامبراطورية فحسب، بل ما يزال باقياً اليوم بوصفه كاتباً "كوني النزوع" تُضرب جذوره في عملية استعمارية صارت الآن نسياً منسياً. وعلاقة كامو الاسترجاعية بجورج أورول شيقة إلى درجة أعلى. فكامو، مثل أورول، أصبح كاتباً مشهوراً بفضل قضايا ازداد بروزها في الـ ١٩٣٠ات والـ ١٩٤٠ات: الفاشية، والحرب الأهلية الإسبانية، ومقاومة الهجوم الفاشي، وقضايا الفقر والعدالة الاجتماعية منظوراً إليها من داخل الإنشاء الاشتراكي، والعلاقة بين الكتاب والسياسة، ودور المثقف. وكان كلاهما مشهوراً بوضوح الأسلوب وتجرده <من المعاظة والتعقيد> - ينبغي أن نذكر بوصف رولان بارت لأسلوب كامو في <كتاب بارت> درجة صفر الكتابة (١٩٥٣) بأنه كتابة بيضاء<sup>(١١١)</sup> - إضافة إلى الوضوح غير المتكلف لصياغاتها السياسية. وكلاهما أيضاً مرّ بعملية التحول إلى سنوات ما بعد الحرب وآل إلى مال سيئ. كلاهما، بياجان، مثير للاهتمام بعد رحيله بفضل سرديات كتبها تبدو الآن متعلقة بموقف يظهر بعد تمحيص أدق مختلفاً جداً. فلقد اكتسبت تمحيصات أورول للاشتراكية البريطانية سمّة نبوية (إذا كانت <هذه التمحيصات> تروق لك؛ أو سمّة أعراضية مَرَضِيَّة إذا لم تكن تروق لك) في مجال محاكات الحرب الباردة؛ وأما سرديات كامو عن المقاومة والمجابهة الوجودية، التي بدت ذات يوم متعلقة بصدّ الغناء والنازية ومعارضتهما، فإنها يُمكن أن تُقرأ الآن كجزء من المناظرة حول الثقافة والامبريالية.

رغم تنقيد ريموند وليمز القوي لرؤيا أورول الاجتماعية، فإنّ مثقفي اليمين واليسار ما يزالون يدعون <انتماء> أورول <إليهم> بانتظام<sup>(١١٢)</sup>. هل كان أورول محافظاً مستجداً سابقاً لزمانه كما يزعم نورمن پودهورتز، أم كان بطلاً لليسار، كما يحتج كريستوفر هيتشنز بشكل أكثر إقناعاً؟<sup>(١١٣)</sup> لكنّ كامو بشكل ما ليس في متناول الانشغالات الأنجلو - أميركية الآن إلى الدرجة نفسها؛ إلا أنه يُقتبس ناقدًا، ومفكراً سياسياً أخلاقياً، وروائياً يثير الإعجاب في مناقشات تدور حول الإرهاب والاستعمار<sup>(١١٤)</sup>. بيد أن التوازي اللافت بين كامو وأورول يكمن في أن كلاهما أصبح شخصية نموذجية في ثقافته، شخصية تُشْتَقُّ أهميتها من القوة الفورية لسياقها الأصلي، لكنها مع ذلك تبدو وكأنها تتجاوز هذا السياق. وتُعرّف هذه النغمة بشكل بالغ الكمال في وصف لكامو يردّ قرب نهاية السليخ الرشيق للإبهامية والسرية عن كامو الذي يقوم به كونر كروز أوبراين في كتاب يشبه بطرق عديدة دراسة ريموند وليمز عن أورول في سلسلة الإعلام المحدثون (وتم تأليفه للنشر في السلسلة نفسها). يقول أوبراين:

قد لا يكون كاتبٌ أوروبي آخر في زمنه خَلَفَ <ما خَلَفَ كامو> من عميق الأثر على خيال جيله والجيل اللاحق له، وعلى عيبيهما الأخلاقي والسياسي في الوقت ذاته. لقد كان أوروبياً بشكل حاد متوتر لأنه انتمى إلى حدود أوروبا وكان يعي وجود تهديد <داهم>. لقد أوما التهديد أيضاً إليه. وقد رفض، لكنه لم يرفض دونما صراع. ما من كاتبٍ آخر، حتى كونراد نفسه، أكثر تمثيلاً للوعي والضمير الغربيين في العلاقة بالعالم غير الغربي. والاحتدامية الداخلية لعمله هي تطوّر لهذه العلاقة، تحت ضغط متزايد وبشجن متزايد<sup>(١١٥)</sup>.

لكن أوبراين، بعد أن فضح بحنكة ودرية، بل بقسوة لا ترحم، الروابط بين روايات كامو الأكثر شهرةً والموقف الاستعماري في الجزائر، يُحرر كامو من الشرك ويخلي سبيله. ثمة

فعل مرهف من التسامي المتجاوز في مفهوم أوبراين عن كامو كتحصص ينتمي إلى حدود أوروبا، في حين أن من يعرف شيئاً عن فرنسا، والجزائر، وكامو - وإن أوبراين ليعرف قدراً عظيماً بالتأكيد - لن يسمّ الرابطة الاستعمارية بأنها رابطة بين أوروبا وحدودها. وبطريقة مماثلة، فإن كونراد وكامو ليسا مجرد ممثلين لشيء، يكاد يكون نسبياً عديم الوزن اسمه "الوعي الغربي" بل للسيطرة الغربية في العالم غير الأوروبي. وكونراد يطرح هذه النقطة التجريدية بقوة لا تخطئ في مقالته "الجغرافيا وبعض المستكشفين"، التي يحتفي فيها بالاستكشافات البريطانية للمنطقة القطبية الشمالية ثم يختتم مقالته بمثل على جغرافيته الناشطة الشخصية، أي الطريقة التي، كما يقول، "أعلنتُ بها، بوضع إصبعي على نقطة في الوسط تماماً مما كان يوماً قلب أفريقيا الأبيض، أنني ذات يوم سأذهب إليها"<sup>(١٩٦)</sup>. ولقد ذهب إليها لاحقاً طبعاً، وأعاد تاهيل تلك الحركة في قلب الظلام.

إن الاستعمار الغربي الذي يبذل أوبراين وكونراد كل ذلك الجهد المضني لوصفه هو أولاً اختراق إلى ما بنحازر الحدود الأوروبية و«دخول» إلى قلب كيان جغرافي آخر. وهو لا يختص، ثانياً، بـ "وعي غربي في العلاقة مع العالم غير الغربي" لِي - تاريخي (فمعظم الأصلايين الأفارقة أو الهنود اعتبروا أعباءهم مرتبطة بممارسات استعمارية محددة مثل الرقيق، ومصادرة الأراضي، والقوة المسلحة الأثمة الفتاكة، أكثر مما هي مرتبطة بـ "الوعي الغربي") بل بعلاقة تم استبناؤها بجهد دؤوب أسُمتُ فيها بريطانيا وفرنسا نفسيهما "الغرب" بإزاء شعوب أدنى خاضعة في "عالم غير غربي" خامل وناقص النمو في أغلبه<sup>(١٩٧)</sup>.

يحدث الحذف والانضغاط في تحليل أوبراين - الذي هو فيما عدا ذلك تحليل صارم لكامو - حين يعالج كامو من حيث هو فنان فرد مشحون بأشجان «مواجهة» خيارات صعبة. فعلى خلاف من سارتر وجينسون، اللذين كان خياراً معارضة السياسة الفرنسية إبان الحرب الجزائرية بالنسبة لهما أمراً سهلاً نسبياً، كما يرى أوبراين، كان كامو قد وُلد وترعرع في الجزائر الفرنسية، وكانت أسرته قد بقيت هناك بعد أن بدأ يعيش في فرنسا، وكان انشباكه في الصراع مع جبهة التحرير الوطني الجزائرية مسألة حياة أو موت. وإن من السهل بالتالي على المرء أن يوافق إلى هذا الحد مع رأي أوبراين. لكن ما يصعب تقبله أكثر هو الكيفية التي يسمو بها أوبراين بمصاعب كامو إلى المرتبة الرمزية «المتملة في» "الوعي الغربي"، ذلك الإناء المُفرغ من كل شيء سوى مقدرته على الإحساس والتأمل.

ينقذ أوبراين كامو أيضاً من الإحراج الذي وضعه فيه بتأكيد على الموقع الامتيازي لتجربته الفردية. ومع هذه السبيلة، ثمة احتمال بأن نشعر ببعض التعاطف: ذلك أنه أياً كانت الطبيعة الجماعية البائسة للسلوك الاستعماري الفرنسي في الجزائر، فليس ثمة ما يدعو إلى إلقاء تبعته على كامو؛ إن تربيته الفرنسية المحض في الجزائر (الموصوفة وصفاً حسناً في سيرته التي وضعها هربرت لوتمان<sup>(١٩٨)</sup>) لم تقف حائلاً دون إنتاجه تقريراً مشهوراً قبل الحرب عن بؤس المكان الذي يسبب معظم الاستعمار الفرنسي<sup>(١٩٩)</sup>. هوذا إذن رجل أخلاقي في موقف لا أخلاقي. وما يركّز كامو عليه هو الفرد في إطار مشهدي اجتماعي: ويصدق ذلك على الغريب بقدر ما يصدق على الطاعون والسقوط. وهو يعلي من شأن إدراك الذات، والنضج المصحوب بانقشاع الوهم، والصمود الأخلاقي في خضم موقف سيئ.



لكن ينبغي طرح ثلاث نقاط منهجية. الأولى هي مسألة تفويض اختيار كامو للإطار المشهدي الجغرافي لـ الغريب (١٩٤٢)، والطاعون (١٩٧٤)، والمجموعة الشيقة جداً من قصصه القصيرة المنشورة بعنوان المنفى والملكوت (١٩٧٥). لماذا كانت الجزائر الإطار المشهدي لسرديات كانت وما تزال مرجعيتها الرئيسية (في حالة العملين الأولين) تُتأوّل باعتبارها فرنسا بشكل عام، وبشكل أشدّ تخصيصاً: فرنسا تحت الاحتلال النازي؟ إن أوبراين ليذهب إلى أبعد مما يُذهب إليه معظم «المعلقين» حين يلاحظ أن الاختيار ليس بريئاً، وأن الكثير مما في الحكايات (على سبيل المثال: محاكمة مُرسو) هو إما تسويغ مستسرّ أو لاواع للحكم الفرنسي وإما محاولة عقائدية لتجميله<sup>(٢٠٠)</sup>. بيد أننا إذ نحاول تأسيس استمرارية بين كامو كفتان فردي وبين الاستعمار الفرنسي في الجزائر، فإننا ينبغي أن نتساءل عما إذا كانت سرديات كامو نفسها ترتبط به، وتمتاز بميزات من، سرديات فرنسية سابقة لها واستعمارية بشكل أكثر انكشافاً. وإذ نوسع المنظور التاريخي من كامو ككاتب جذاب التفرد في الـ١٩٤٠ات والـ١٩٥٠ات ليشمل الحضور الفرنسي في الجزائر الذي كان قد استمر لقرن من الزمان، فقد يتاح لنا أن نفهم فهماً أفضل لا شكل سردياته ومعناها العقائدي وحسب بل كذلك الدرجة التي يبلغها عملُه في الإغراب عن طبيعة المشروع الفرنسي هناك «في الجزائر»، وفي الإشارة إليها، وتعزيزها، وجعلها أكثر دقّة.

أما النقطة المنهجية الثانية فإنها تتعلق بنوع الأدلة الضرورية لمثل هذه الرؤية الأرحب، وبالسؤال العلائقي المتصل بمن يقوم بالتأويل. إن ناقداً أوروبياً ذا نزوع تاريخي يُحتمل أن يؤمن بأن كامو يمثل الوعي الفرنسي المعوق بشكل مأساوي للارزمة الأوروبية على مشارف إحدى منعطفاتها العظيمة؛ ورغم أن كامو اعتبّر فيما يبدو المزارع الاستعمارية قابلة للإنقاذ والاستمرار إلى ما بعد عام ١٩٦٠ (وهو عام وفاته) فقد كان ببساطة مخطئاً تاريخياً، إذ إن الفرنسيين تنازلوا عن ملكية الجزائر وعن جميع دعاوهم المتعلقة بها بعد سنتين فقط من ذلك. ويقدر ما يومي عملُه بوضوح إلى الجزائر المعاصرة، فإنّ انشغال كامو العام كان بالوضع الفعلي للشؤون الفرنسية - الجزائرية، لا بتاريخ تغييراتها الاحتدامية في صيرورتها على المدى البعيد. وهو، مع استثناءات متفرقة، يتجاهل أو يتغاضى عن التاريخ الذي ما كان جزائريّ يشكّل الحضور الفرنسي بالنسبة له ممارسة برسية للقوة والسلطة سيتجاهله. ولذلك، فإنّ عام ١٩٦٢ بالنسبة للجزائري يُرَجَّح أن يبدو نهاية لحقبة مديدة بائسة من حقب التاريخ كانت قد بدأت مع وصول الفرنسيين عام ١٨٣٠، وتدشيناً منتصراً لحقبة جديدة. ومن ثمة، فإنّ تأويلاً ترابطياً تعادلياً لروايات كامو سيتمثل في تأويلها بوصفها تدخلات في تاريخ الجهود الفرنسية في الجزائر، لجعل الجزائر فرنسية والإبقاء عليها فرنسية، لا بوصفها روايات تنبئنا عن حالة مؤلفها العقلية. إن احتواء كامو للتاريخ الجزائري وافتراضاته حوله ينبغي أن تقارن بتواريخ كتّبتها جزائريون بعد الاستقلال، من أجل اكتساب إحساس أكمل بالنزاع بين القومية الجزائرية والاستعمار الفرنسي. وسيكون سليماً أن نعتبر عمل كامو متصلاً تاريخياً بكلّ المبادرة الاستعمارية الفرنسية نفسها (مادام يفترضها غير قابلة للتغيير) وبالمعارضة الصريحة المباشرة لاستقلال الجزائر. وقد ينجح هذا المنظور الجزائري في فتح مغالِق جوانب أخفاها كامو، أو استبدها، أو أنكرها، وفي إطلاقها من عقالها.

وأخيراً، فإنّ ثمة قيمة منهجية حاسمة في التفاصيل، والأناة، والإلحاح فيما يتعلق

بنصوص كامو المضغوطة إلى درجة عالية. ثمة نزوع عند القراء إلى ربط روايات كامو بروايات فرنسية عن فرنسا، لا بسبب لغتها والأشكال التي يبدو أنها تأخذها من سواف مرموقة مثل أدولف والحكايات الثلاث <لكونستان دو رويستك> وحسب، بل كذلك لأن اختياره لإطار مكاني جزائري بيده٣٣ وعارضاً بالنسبة للقضايا الأخلاقية الضاغطة التي يتناولها. ومن هنا فإن رواياته بعد حوالي نصف قرن من صدورهما، ما تزال تُقرأ كحكايات مثلية عن الشرط الإنساني. صحيح أن مُرسو يقتل عربياً، بيد أن هذا العربي لا اسم له، ويبدو دونما تاريخ، دع عنك أن يكون له أم وأب؛ وصحيح أيضاً أن العرب يموتون بالطاعون في وهران، بيد أنهم دون أسماء كذلك، فيما يُدفع ريو وتارو إلى الامام في الحدث. قد نقول إن على المرء أن يقرأ النصوص من أجل ثراء ما هو موجودٌ ثمة، لا من أجل ما تم استثناءه وإقصاؤه، إذا كان ثمة ما تم استثناءه وإقصاؤه. غير أنني أريد أن أصرَّ على أن المرء يجد في روايات كامو ما ظنُّ ذات يوم أنها قد نُفِيت منه: تفاصيل عن ذلك الفتح الامبريالي الفرنسي بشكل متميز الذي بدأ عام ١٨٣٠، مستمراً خلال حياة كامو، ومُسَقَّطاً إلى صميم نسيج النصوص وتأليفها.

ليس القصدُ من هذا التأويل الترميمي انتقامياً. ولست أنوي بعد إقرار الحقيقة إلى الإنحاء بالمر على كامو لأنه أخفى أموراً عن الجزائر في كتاباته الاختلاقية <مع انه> بذل جهداً مضنياً، مثلاً، في القطع المختلفة المجموعة في <كتابه> حوليات جزائرية لإيضاحها. ما أريد أن أفعله هو أن أعين قصص كامو كعنصر في الجغرافية السياسية الفرنسية للجزائر، <تلك الجغرافيا> التي تم بناؤها منهجياً، واستغرقت أجيالاً عديدة لاستكمالها، من أجل أن نراها رؤية أجلى بوصفها تقدم مسرداً أسراً للنزاع السياسي والتأويلي <الهادف إلى> تمثيل الأرض نفسها وسكنها وامتلاكها - في الوقت عينه الذي كان فيه البريطانيون يغادرون الهند. إن كتابات كامو مفعمة بحساسية استعمارية متأخرة تأخراً فائقاً، بل إنها بطريقة ما <حساسية> مشلولة، تقوم بأداء حركة امبريالية ضِمنَ (وعن طريق) شكل، هو الرواية الواقعية، كان قد تجاوز بيون شاسع إنجازاته العظمى في أوروبا.

سوف استعمل، كمثال نموذجي، حدثاً فقيراً قرب نهاية "المرأة الزانية" إذ تهجر جانين، بطلة القصة، سرير زوجها خلال ليلة مؤرقة في فندق صغير في الريف الجزائري. كان زوجها في السابق طالب حقوق واعداء، لكنه أصبح بائعاً متجولاً؛ يصل الزوجان بعد رحلة بالحافلة طويلة ومتعبة إلى مقصدهما، حيث يقوم الزوجُ بجولة على زبائنه العرب المختلفين. وكانت جانين خلال الرحلة قد تأثرت بالسلبية الصامتة التي يتمتع بها الأصلاحيون الجزائريون وباستحالة فهمهم؛ لقد بدأ حضورهم مثل حقيقة من حقائق الطبيعة لا تكاد تكون جلية، ولا تكاد تسترعي انتباهها في حالتها العاطفية المضطربة. وحين تترك جانين الفندق وزوجها النائم، تلتقي بالحارس الليلي، الذي يتحدث إليها بالعربية، وهي لغة بدأ أنها لا تفهمها. وتمثل ذروة القصة تواصلاً توحدياً لافتاً، يكاد يكون تجسيداً للإحساس بوحدة الوجود، بينها وبين السماء والصحراء. وجلي، في رأيي، أن كامو يريد أن يقدم العلاقة بين المرأة والجغرافية في إطار معطيات جنسية، بديلاً لعلاقتها الميتة الآن تقريباً بزوجها؛ ومن هنا الزنى الذي يشار إليه في عنوان القصة.

كانت تدور معها [النجوم العائمة في سماء تحرك في تدويم حلزوني بطيء]، وقد وَجَدَ التقدُّمُ الثابتُ ظاهرياً شيئاً فشيئاً بينها وبين لباب كينونتها، حيث كان البرد والشهوة الآن يتنافسان أحدهما مع الآخر. أمامها كانت النجوم تتساقط نجمةً نجمةً وتختفي غائرةً بين حجارة الصحراء، وفي كل مرة كانت جانين تفتتح لليل أكثر بقليل. كانت تتنفس بعمق، وقد نسيت البرد، وثِقَلَ الآخرين الصلْدَ، وجنَّوْنَ الحياة أو احتقأنها المتفتنج، والبراح الطويل للعيش والموت. بعد سنوات عديدة من الهروب التائه، الجنوني، من الخوف، وصلت أخيراً إلى قرار. وفي الوقت نفسه بدا أنها تستعيد جذورها، وسرى النسجُ ثانيةً خلالها مستندةً إلى الحاجز وهي تنزع نحو السماء المتحركة؛ كانت فقط تنتظر أن يهدأ قلبها المتخافق ويسودَّ الصمتُ داخلها. وقد أسقطت آخرُ نجوم المجرة تجمعاتها لتتدلى قليلاً فوق افق الصحراء وهدأت تماماً. عندها بدا ماء الليل، برقلاً لا تُحْتَمَلُ، يملا جانين، فأغرق البرد، وارتفع تدريجياً من لباب كينونتها الخبيء، صاعداً إلى فمها المليء بالانين. وفي اللحظة التالية تمددت السماءُ بأسرها فوقها، وقد سقطت على ظهرها على الأرض الباردة<sup>(٢٠١)</sup>.

إن الأثر <الذي تتركه هذه اللحظة> هو أثر لحظة خارج الزمن تنجو فيها جانين من دناءة سردية حياتها الراهنة وتلج ملكوت عنوان المجموعة <القصصية>: أو، كما عبّر كامو عن الأمر في ملحوظة أراد أن يولجها في الطبقات التالية للمجموعة: <الملكوت [الذي] يتطابق مع حياة معينة حرة وعارية، والذي تقع علينا مسؤولية العثور عليه ثانيةً من أجل أن نولد أخيراً من جديد<sup>(٢٠٢)</sup>.> يَسْقُطُ ماضيها وحاضرها، كما يَسْقُطُ واقع الكينونات الأخرى (le poids des êtres، التي يترجمها جستن أوبراين ترجمة خاطئة على نحو اعراضيّ دالّ بعبارة (the dead weight of other people) <والتي عزبئها بعبارة "ثقل الآخرين الصلْد">. في هذا المقطع، تبلغ جانين أخيراً نقطة توقف، عديمة الحركة، خصبة، جاهزة للتواصل التوحدي مع تلك القطعة من السماء والصحراء، حيث تُكْتَشَفُ المرأة - التي تنتمي إلى الأقدام السود\* والمستعمرين - (مرجعةً صدى ملحوظة كامو التوضيحية، التي صمغها كإضافة لاحقة للقصص الست <في المجموعة>) جذورها. ويتم الحكم على هويتها الحقيقية أو ما يمكن أن تكونه هويتها الحقيقية في ما يلي من المقطع حين تحقّق ما هو دونما ريب ذروة جنسية: يتحدث كامو هنا عن لباب كينونتها الخبيء <الغامض المبهم>\*\*\*، الذي يشي بكلّ إحساسها الخاص بالغموض والمجهولية والجهل، وإحساس كامو بذلك أيضاً. إن تاريخها الخاص كامرأة فرنسية في الجزائر ليس بذي بال، ذلك أنها قد حققت نفاذاً فورياً ومباشراً غير متوقّع إلى تلك الأرض والسماء المعينتين.

تعالج كل قصة من قصص المنفى والملكوت (عدا واحدة هي حكاية مئلبية مثرثرة وغير مؤثرة عن الحياة الفنية الباريسية) حياة المنفى لأشخاص ذوي تاريخ غير أوروبي (تَمَوَّضَ أربع حكايات في الجزائر، وواحدة في باريس، وواحدة في البرازيل) بانسٍ بعمق بل بشكل مهدد أيضاً، يسعون سعياً قلقاً إلى اكتساب لحظة من راحة، وانفصالٍ متجردٍ رعوي، وتحقيقٍ للذات شعري. وليس ثمة ما يوحي بأن كامو قد سمح لنفسه - إلا في المرأة الزانية وفي القصة الموضوعة في البرازيل، حيث يستقبل الأصلاونيون أوروبياً، عبر ما يقوم به من <تضحية والتزام، إلى دائرتهم الحميمة كبديل لأصلائي توفي - بالاعتقاد

\* - pied noir: طبقة الفرنسيين الذين ولدوا في أفريقيا الشمالية.

\*\* - ثمة مشكلة في هذه الصفحات تنبع من أن أدوارد سعيد يستخدم ترجمة انكليزية لنص كامو، من جهة، ويناشر عبارات من النص الأصلي الفرنسي، من جهة أخرى. والترجمة الانكليزية، في رأيي، وفي رأيه كذلك، غير دقيقة. ولذلك فإنني أترجم النص الانكليزي، من جهة، وأترجم العبارات الفرنسية ذات الأهمية للمناقشة، مباشرةً من الأصل الفرنسي، من جهة ثانية. وذلك كله اضطراب لا أعرف كيف اتحايل عليه، فأتقلب عليه. والله أعلم بالمعنى.

بأن الأوروبيين يمكن أن يحققوا إحساساً معززاً ومُرَضياً بالتماهي مع أراضي ما وراء البحار. في المرتد يقع أحد المبشرين في أسر قبيلة جزائرية جنوبية منبوذة، ويُقطع لسأته (وذلك مواز يرشح بالرهبة لقصة پول بولز 'حدث بعيد')، ويصبح موالياً فائق الحماية للقبيلة، ويشارك في كمين ضد القوات الفرنسية. وكأنما ذلك يقول إن تحول المرء إلى أصلائي لا يمكن أن يحدث إلا نتيجة لتقطيع الأوصال الذي يؤدي إلى فقدان مَرَضِيٍّ، غير مقبول، للهوية.

لا تفصل سوى بضعة شهور بين هذا الكتاب المتأخر نسبياً (١٩٥٧) من القصص القصيرة <التي سبق نُشْرُ كلُّ منها فردياً وتلا ظهور السقوط عام ١٩٥٦>، وبين محتويات القطع المتأخرة في <كتاب> كامو حوليات جزائرية الذي صدر عام ١٩٥٨. ورغم أن ثمة مقاطع في المنفى تعود إلى الغنائية والحنين المنضب المبكرين في أعراس - وهو واحد من أعمال كامو القليلة التي يشبعها جوُ المكان حول الحياة في الجزائر - فإن القصص مشحونة بالقلق إزاء الأزمة التي تلوح في الأفق. ينبغي أن يبقى في أذهاننا أن الثورة الجزائرية أعلنت وبدأت رسمياً في ١ تشرين الثاني <نوفمبر> ١٩٥٤؛ وكانت مذابح الجيش الفرنسي ضد المدنيين الجزائريين في صطيف قد حدثت في أيار <مايو> ١٩٥٤؛ وكانت السنوات السابقة، حين كان كامو يكتب الغريب، مليئة بأحداث كثيرة تتخلل مسار مقاومة القومية الجزائرية الطويل والدموي ضد الفرنسيين. ومع أن كامو ترعرع في الجزائر شاباً فرنسياً، تبعاً لجميع مَنْ تَرَجَّم له، فقد كان دائماً محاطاً بآثار الصراع الفرنسي الجزائري، التي يبدو أنه تحاشاها أو عمدَ، في سنواته الأخيرة، بشكل مكشوف إلى ترجمتها إلى لغة إرادة فرنسية قاصمة، وإلى صور هذه الإرادة، وإدراكها الجغرافي، <وهي إرادة> تتنازع أهل الجزائر المسلمين الأصلائين على بلادهم. عام ١٩٥٧، أعلن كتاب فرانسوا ميتران الحضور الفرنسي والتخلي بصراحة بالغة: دون أفريقيا، لن يكون هناك تاريخ لفرنسا في القرن الواحد والعشرين<sup>(٢٠٤)</sup>.

لكي يوضع المرء كامو طبانياً في معظم تاريخه الفعلي (نقيضاً لجزء صغير منه)، ينبغي أن يكون متيقظاً بالغ التنبه لأسلافه الفرنسيين الحقيقيين، إضافةً إلى أعمال الروائيين، والمؤرخين، وعلماء الاجتماع، وعلماء السياسة، الجزائريين ما بعد الاستقلال. ما يزال ثمة اليوم تراث أوروبي التمركز قابل لحل رموزه (وملاح) من السدِّ التأويلي لما قام كامو (وميتران) بسدِّه حول الجزائر، وما قام هو وشخصيات مختلفاته بسدِّه. حين وقف كامو في سنواته الأخيرة يجهر علناً بل وبحدة معارضةً لمطالب الوطنيين الجزائريين بالاستقلال، فقد فعل ذلك بالطريقة ذاتها التي كان قد مثَّل بها الجزائر منذ بداية حياته الفنية، مع أن كلماته الآن راحت تحمل بشكل يثير الاكتئاب رنين نبرات البلاغة الانكسورية الفرنسية الرسمية <التي تشكلت إبان غزو> قناة السويس. إن تعليقاته على العقيد ناصر، وعلى الامبريالية العربية والإسلامية، مألوفة لنا، بيد أن التصريح السياسي الوحيد الصارم الذي لا مهادنة فيه الذي يعلنه عن الجزائر في النص يظهر كخلاصة سياسية خالية من التزييق لكتابات السابقة:

فيما يتعلق بالجزائر، فإن الاستقلال القومي صيغة من العاطفة المشبوبة الخالصة. لم يكن ثمة أمة جزائرية أبداً. وإن من حق اليهود، والأتراك، واليونانيين، والايطاليين، والبربر أن يدعوا لأنفسهم حق قيادة هذه الأمة الكامنة. في الواقع الفعلي، لا يشكل العرب وحدهم الجزائر كلها. وإن أهمية الاستيطان الفرنسي والزمن الذي مضى عليه،

بشكل خاص، لكافيان لخلق مشكلة لا تقارنُ بها أية مشكلة أخرى في التاريخ. إن فرنسيي الجزائر هم أيضاً، بأشد معاني الكلمة قوة، أصلايين. وعلاوةً، فإنّ جزائر عربيّة محضاً تعجز عن تحقيق ذلك الاستقلال الاقتصادي الذي لا يعدو الاستقلال السياسيّ من دونه أن يكون وهماً. وأياً كانت درجة نقص كفاءة الجهد الفرنسي، فلقد كان هذا الجهدُ من رحابة المدى بحيث أنّ أية دولة أخرى (سوى فرنسا) لن توافق اليوم على تحمل ذلك العبء.

تكمّن المفارقة اللاذعة في أنّ كامو حينما يسرد قصة في رواياته أو في مقطوعاته الوصفية، فإنّ الحضور الفرنسي في الجزائر يُصاغ إمّا كسرديّة خارجية، جوهرأ لا يخضع للزمان أو التأويل (كما هي جانين)، أو بوصفه التاريخ الوحيد الجدير بأن يُسرد كتاريخ. (وكم هو مختلف في الموقف واللهجة <كتابُ> بيير بورديو علمجتماع الجزائر، الذي صدر أيضاً عام ١٩٥٨، والذي يدحض تحليله صيغة كامو الصببانية التفاهة ويتحدث صراحةً عن الحرب الاستعمارية بوصفها نتيجة لوجود مجتمعين اثنين في حالة من الصراع). إنّ عناد كامو المتماذي يُفَسِّر الفراغ والغياب في خلفية العربي الذي قتله مُرسو؛ ومن هنا أيضاً الإحساسُ بالدمار في وهران الذي يراد له بشكل ضمني أن يعبرَ لا عن الموتى العرب بشكل رئيسي (وهم بعد كل حسابٍ مكمّن الأهمية من وجهة نظر سكانية) بل عن الوعي الفرنسي.

من الدقيق أن يقال، لذلك، إنّ سرديات كامو قد أرسّت مطالبَ صارمة وسابقة وجودياً على جغرافية الجزائر. فبالنسبة لأي امرئ يملك ولو درجة عابرة من المعرفة بالمغامرة الاستعمارية الفرنسية المديدة هناك، فإن هذه المزاعم لهي من الشذوذية المخالفة للعقل بقدر ما كانه الإعلان الفرنسي عام ١٩٣٨ من قبَل الوزير الفرنسي شوتان بأن العربية لغة اجنبية في الجزائر. وليست هذه بمزاعم كامو وحده، مع أنه منحها شيوعاً شبه شفّافٍ وياق. بل إنّ كامو يرث ويقبل بصورة لانتقدية تلك المزاعم كتقاليد وأعراف شكّلها تراث طويل من الكتابة الاستعمارية عن الجزائر، أصبح اليوم منسياً أو غير معترفٍ به من قِبَل قرائه ونقّاده، الذين يجد معظمهم تأويلَ عمله بوصفه يدور حول الشرط الإنسانيّ أمراً أكثر سهولة عليهم.

تورد مانولاً سميدي مؤشراً ممتازاً للعدد الكبير من الافتراضات الاستبداهية حول المستعمرات الفرنسيّة التي يشترك فيها قراءُ كامو ونقّاده، في مسح لافتٍ قامت به للكتب المدرسية الفرنسية من الحرب العالمية الأولى إلى الفترة التالية مباشرةً للحرب العالمية الثانية. وتُظهر كشوفاتُ سميدي إصراراً متزايداً بانتظام على دور فرنسا الاستعماري بعد الحرب العالمية الأولى، والأحداث الفخرية المجيدة في تاريخها كقوة عالمية، كما تكشف أوصافاً شاعرية تتغنّى بمنجزات فرنسا الاستعمارية، بتأسيسها للسلام والرخاء، ولشّتى المدارس والمستشفيات التي عادت بالفائدة على الأصلايين، وهلمّ جرأً؛ وثمة إشارات متناثرة إلى استخدام العنف، لكنها تُشحب تحت غلالة من هدف فرنسا الكلي المدهش لإنهاء العبودية والطغيان، واستبدالهما بالسلام والرخاء. وتبرز شمال أفريقيا <هنا> بروزاً لافتاً، لكنّ ليس ثمة اعتراف أبداً، تبعاً لسميدي، بأنّ المستعمرات قد تنال استقلالها <يوماً>؛ أما الحركات القومية في الـ ١٩٣٠ات فإنها تمثّل "مصاعب" لا تحديات خطيرة.

تلاحظ سميدي أنّ هذه النصوص المدرسية <الموضوعة> بين الحربين تقارن مقارنةً

تحبيذيةً بين حكم فرنسا الاستعماري المتفوق وحكم بريطانيا، مقترحةً أن الاقاليم الخاضعة لفرنسا إنما يتم حكمها في غياب للتحيّز والتمييز العرقي اللذين يسمان نظائرها البريطانية. ومع مجيء الـ ١٩٣٠ات يغدو هذا المتخلُّل الجذري نغمةً تُكرَّر إلى ما لا نهاية. وحين تَرُدُّ إشاراتُ إلى العنف في الجزائر، مثلاً، فإنّها تصاغ بلغة مبطنّة تصوّر القوات الفرنسية مضطّرةً إلى اتخاذ مثل تلك الاجراءات غير المحبّبة بسبب "عصبية" الاصلايين "الدينية" ونزوعهم إلى النهب والسلب<sup>(٢٠٥)</sup>. ولكنّ الجزائر الآن قد غدت "فرنسا جديدة": يعمّها الرخاء، والمدارس، والمستشفيات، والطرق، الممتازة. وحتى بعد الاستقلال، يظل تاريخُ فرنسا الاستعماري يعاينُ بوصفه جوهرياً ببناءً، مُرسيّاً أسسَ علاقات "أخوية" بين فرنسا وبين مستعمراتها السابقة.

إنّ مجرد كونِ جانبٍ واحدٍ فقط من جوانب النزاع يبدو علائقياً بالنسبة إلى جمهور فرنسي، أو كونِ المحرِّك الحيوي للانزراع الاستعماري والمقاومة الاصلاية <ضده> يحط من قيمة النزعة الإنسانية الجذّابة لتراث أوروبي رئيسي خطأً محرّجاً، ليساً سبباً مسوّغاً للانجراف مع هذا التيار التأويلي، أو لقبول الاستثناءات والصور العقائدية <التي يصوغها>. بل إنني سامضي إلى حد القول بأنّ أشهر أعمال كامو الاخلاقية إنّما هي أكثر لا أقلّ إشاقّة، بالضبط لأنها تدمجُ إنشاءً فرنسياً ضخماً حول الجزائر ينتمي إلى لغة المرجعية الجغرافية ووجهات النظر الامبريالية الفرنسية، وتختزلها بتصلب، وتستند بطرق عديدة إليه. إنّ أسلوبه التنظيف، والمعضلات الاخلاقية المبرّحة التي يعرّضها، والمصائر الفردية المعذبة لشخصياته، التي يعالجها بقدر عالٍ من الرهافة والمفارقة اللاذعة المقتنّة - هذه الخصائص كلها تمتاح من تاريخ السيطرة الفرنسية على الجزائر، بل تعيد في الواقع إحياءه بدقة محتاطة وبغياب لافت للندامة والرافة والتعاطف الشعوري.

من جديد، ينبغي أن يعاد نفعُ العلاقة المتداخلة بين الجغرافيا والنزاع السياسي بالحياة بالضبط حيث يغطيها كامو، في رواياته، ببنية فوقية احتفى بها سارتر لأنها تقدّم "مناخاً للعبثي اللامعقول"<sup>(٢٠٦)</sup>. إنّ كلتا الغريب والطاعون تدوران حول موت عرب، وهو موت يُبرز ويُفعم بصمتٍ مصاعبَ الضمير والتأمل التي تعانيتها الشخصيات الروائية الفرنسية. وعلاوةً، فإنّ بنية المجتمع المدني التي تقدّم بنصاعة بارزة - بلدية المدينة، الجهاز القضائي، المستشفيات، المطاعم، النوادي، اماكن التسلية ووسائلها، المدارس - هي بنية فرنسية، رغم أنها بشكل غالب تقوم بإدارة <شؤون> السكان غير الفرنسيين. وإنّ التطابق بين الطريقة التي يكتب بها كامو عن ذلك كله وبين كيفية تصوير الكتب المدرسية الفرنسية إيّاه لتطابقٍ أسر: فالروايات والقصص القصيرة تروي نتيجة انتصار تحقّق ضد شعب مسلم محيّد، ممزّق، اغتصبتُ حقوقه في امتلاك أرضه اغتصاباً حاداً. وكامو، بتاكيدهِ وتعزيزه بهذه الطريقة للألوية الفرنسية، لا يشكُّ ولا يخرج على الحملة من أجل السيادة التي سنّتْ ضد مسلمي الجزائر لما ينوف على مائة عام.

في المركز من النزاع يكمن الصراعُ العسكري الذي كان أول بطلين عظيمين فيه المارشال تيودور بوغو والأمير عبد القادر. الأول ضابطٌ عنيف ضار بدأت صرامته الأبوية ضد الاصلايين الجزائريين عام ١٨٣٦ كوسيلة لفرض النظام وانتهت بعد ذلك بعقدٍ أو ما يقاربه بسياسة من الإبادة الجماعية والمصادرة الهائلة للاراضي. والثاني متنسكٌ صوفيٌ

ومحارب فدائي لا يكلّ له عزم، يعيد تجميع قواته وتشكيلها ونذرها إلى ما لا نهاية ضدّ عدو غاز أقوى، وأكثر حداثةً. وأن نقراً وثائق المرحلة - سواء أكانت رسائل بوغو، وبياناته، وتقاريره المرسلّة إلى حكومته (التي صنّفت ونُشرت في الوقت الذي نُشر فيه الغريب تقريباً)، أم طبعةً حديثة العهد لشعر عبد القادر الصوفي (حرّرها وترجمها إلى الفرنسية ميشيل شوكويوش<sup>(٢٠٧)</sup>)، أم صورةً لافتةً لعلم نفس الفتح التي أعاد ابتناؤها من مذكرات ورسائل فرنسية كُتبت في الـ ١٨٢٠ات والـ ١٨٤٠ مصطفى الأشرف، وهو عضو بارز في جبهة التحرير الوطني واستاذ بعد الاستقلال في جامعة الجزائر<sup>(٢٠٨)</sup> - هو أن نتصور ونتحسس المحرك الحيوي الذي يجعل تقليل كامو من شأن الحضور العربي أمراً محتملاً.

كان لبابُ السياسة العسكرية الفرنسية كما أفصح عنها بوغو وضباطه هو الـ raz-zia، أو الغارة التاديبية على قرى الجزائريين، على بيوتهم، ومواسمهم، وفسائهم، وأطفالهم. "إنّ العرب"، يقول بوغو، "يجب أن يُمنَعوا من بذر البذار، أو حصد المواسم، أو رعي مواشيتهم"<sup>(٢٠٩)</sup>. ويقدم مصطفى الأشرف عينةً من النشوة الشعرية التي سجّلها مرةً بعد مرة الضباط الفرنسيون أثناء قيامهم بعملهم، وإحساسهم بأنّ لديهم أخيراً فرصةً لشن حرب إبادةٍ guerre à outrance تتجاوز جميع حدود الأخلاق أو الحاجة. يصف الجنرال شانغارنييه، مثلاً، تسليةً ممتعةً يجيزها لجنوده بغزو القرى المسالمة؛ فيقول إنّ الكتب المقدسة تعلم هذا النمط من الفعل، وفيها قام يوشع وغيره من القادة العظام "بغزوات مخيفة جداً" وباركهم الربُّ. <وهكذا> يباركُ الخرابُ، والدمارُ الشامل، والوحشيةُ التي لا هوادة فيها، لا لأنّ الرب شرّعها فحسب، بل لأنّ "العرب"، بكلمات يرن صداها ويُرَجِّع من بوغو إلى سالان، "لا يفهمون سوى القوة الوحشية"<sup>(٢١٠)</sup>.

يعلّق الأشرف قائلاً إنّ الجهود العسكرية الفرنسية خلال العقود الأولى تجاوزت هدفها - وهو إخماد المقاومة الجزائرية - بمدى واسع، واكتسبت المقامَ المطلق الذي يتمتع به مثالٌ أعلى<sup>(٢١١)</sup>. وكان الجانب الآخر لها، كما عبّر عنه بحمية لا تكلّ بوغو نفسه، هو الاستعمار. وقد كان بوغو قبيل انتهاء خدمته في الجزائر يثور غاضباً باستمرار بسبب الطريقة التي كان المهاجرون المدنيون الأوروبيون يستنفدون بها موارد الجزائر دون انضباط أو عقل؛ فيكتب في رسالته أنّ دعوا الاستعمار للعسكريين؛ لكن دونما جدوى<sup>(٢١٢)</sup>.

في واقع الأمر أنّ واحداً من الموضوعات الهادئة التي تتخلل الإنتاج الاختلاقي الفرنسي من بلزاك إلى سيسشاري ولوتي هو بالضبط هذا الاستغلالُ البشع للجزائر والفضائح التي تسببها خططٌ مالية مشبوهة ينفّذها أفراد لا وازع لديهم أباحت الطبيعة المنفتحة للمكان في نظرهم فعلٌ كل ما يمكن أن يخطر بالبال من أمور تقريباً مادامت تُعدّ بتحقيق الربح أو تسمح بتوقعه. ويوسعنا أن نجد تصورات لا تُنسى لهذه الأوضاع في <كتاب> دوديه تارتران الترسكوني و<كتاب> موياسان بل - أمي (اللذين ترد الإشارة إليهما في كتاب مارتين لطفّي الثاقب الأدب والاستعمار)<sup>(٢١٣)</sup>.

كان الدمار الذي أنزله الفرنسيون بالجزائر منظمًا مطّرداً من جهة، وعنصرًا تكوينياً أساسياً لنظام حكم فرنسي جديد من جهة أخرى. ولم يكن لدى أحدٍ ممن شهدوا الفترة الواقعة بين ١٨٤٠ و ١٨٧٠ من شكّ في هذه النقطة. وقد آمن البعض، مثل <الكسي دو>

توكفيل، الذي وجّه انتقاداً حاداً للسياسة الاميركية تجاه السود والاصلايين الهنود، بأنّ تقدم الحضارة الأوروبية يقتضي بالضرورة ابتلاء المسلمين الاصلايين بالقساوة والفظاظة: لقد أصبح الفتح الكلي في نظره معادلاً للعظمة الفرنسية. وقد اعتُبر الإسلام مرادفاً لـ تعدد الزوجات، وعزل النساء، وغياب الحياة السياسية غياباً تاماً، والحكومة الطاغية الكليّة الوجود التي تُجبر البشر على إخفاء أنفسهم والبحث عن جميع أوجه الرضى في الحياة العائلية<sup>(٢١٤)</sup>. ولأنه اعتقد أنّ الاصلايين كانوا رُحلاً فقد آمن بـ "أن جميع وسائل تخريب هذه القبائل وتهجيرها ينبغي أن تُستعمل. ولا أستثني من ذلك سوى ما يحرمه القانون الدولي والاعتبارات الإنسانية". بيد أنّ توكفيل، كما يعلّق مُلقن رُختر، لم ينبس بكلمة عام ١٨٤٦ حين انكشف أنّ مئات من العرب قد قُتلوا خنقاً بالدخان إبان غزوات razzias كان قد وافق عليها من أجل قيمتهم الانسانية<sup>(٢١٥)</sup>. إنها "ضرورات غير محببة"، <هذا ما خَطَرَ لتوكفيل، لكنها لا تقارب في الأهمية إطلاقاً الحكومة الصالحة التي كانت الحكومة الفرنسية مدينةً بها للمسلمين تصف المتحضّرين>.

لم يكن مقصدُ السياسة الفرنسية الاستعمارية، كما يراها أفضل مؤرّخ في شمال افريقيا اليوم، عبد الله العروي، بأقلّ من تدمير الدولة الجزائرية، بقدر ما كانت كذلك. ومن الجلي أنّ إعلان كاموباته لم توجد ثمة أمة جزائرية أبداً قد افتُرَضَ بدهاء أنّ متالف السياسة الاستعمارية الفرنسية كانت قد مَسحت السجّل تماماً <والغت التاريخ>. وعلى اية حال، فإنّ الأحداث التي تلت الاستعمار، كما ما زال أقول، تُفرض علينا سرديةً أطول وتأييلاً أكثر اشتماليةً ونزاعاً للغموض والسرية. يقول العروي:

إنّ تاريخ الجزائر من ١٨٢٠ إلى ١٨٧٠ مصنوع من التظاهر والادّعاءات الزائفة: <فتمتة> المستعمرون الذين زعموا أنهم يرغبون في تحويل الجزائريين إلى بشر مثلهم، فيما كانت رغبتهم الوحيدة في الواقع هي تحويل تربة الجزائر إلى تربة فرنسية؛ والعسكريون الذين يُفترض أنهم كانوا يحترمون التقاليد وطريقة الحياة المحلية، فيما كان مهمهم الوحيد في الواقع أن يحكموا باقل جهد ممكن؛ وأنّعاءً نابليون الثالث أنه كان يشيد مملكة عربية، فيما كانت افكاره المركزية "مركبة" الاقتصاد الفرنسي والاستعمار الفرنسي للجزائر<sup>(٢١٦)</sup>.

حين يصل تارتران <في عمل> دوديه إلى الجزائر عام ١٨٧٢، لا يرى إلا اثاراً قليلة من "الشرق" الذي كان قد وُعد به، ويجد نفسه بدلاً من ذلك في نسخة ماورابحارية عن بلده الاصلي ترسكون. والجزائر، بالنسبة لكتاب مثل سغالان وجيد، مكان غرائبي بوسعهم فيه - مثل ما كان في وسع جانين - أن يعالجوا مشكلاتهم الروحية ويشقوا منها. ولا تُولى إلا ادنى درجات الاهتمام للاصلايين، الذين يكون غرضهم بمكرورية دائمة أن يوفروا متعاً مثيرة أو فرصاً عابرة لممارسة الإرادة واستخدامها - لا بالنسبة لميشيل في اللااخلاقي وحسب، بل كذلك لبيركن بطل مالرو في الإطار المشهدي الكمبودي في المسار الملكي. ويمكن تقصّي جميع الاختلافات في التمثيلات الفرنسية للجزائر - سواء اكانت بطاقات البريد الفظة التي تحمل صور الحريم والتي درسها مالك علولة دراسة لا تُنسى<sup>(٢١٧)</sup>، أم التركيبات العلمنسانية المسفسطة التي كُشفت عنها فاني كولونا وكلود براهيمي<sup>(٢١٨)</sup>، أم البنى السردية البالغة الاثر التي تقدّم اعمال كامو مثلاً بالغ الأهمية عليها - في اليد الميتة\* <morte-main> الجغرافية للممارسة الاستعمارية الفرنسية.

\* - والعبارة التي يستخدمها المؤلف استعارية، فرنسية، نُقلت إلى الإنكليزية حرفياً بعبارة ترجمتها "اليد الميتة"؛ وهي تعني السلطة التي تستمر حتى بعد زوال صاحبها، وكثيراً ما تُفوق سلطة الأحياء. وإنها لاستعارة جميلة قد استخدمها بهذه الصيغة في أماكن أخرى من هذه الترجمة. وقد كان عبد القاهر الجرجاني يتشدد في مسألة ترجمة الاستعارة ويرى أنها يجب أن تترجم استعارياً تماماً ولا تُبدّل بعبارة تفسيرية غير استعارية. وأنا على مذهبه.



بوسعنا ان نكتشف عمقَ تَلَفَعِ الإنشاءِ الفرنسي - مشروعاً - بالمشاعر العميقة، وأطراً إعادة تجديد قوته وتدميجه ومأسستِهِ في الأعمال الجغرافية وفي الفكر الاستعماري في أوائل القرن العشرين. يحدد <كتاب> البير سارو الفخامة والعبودية الاستعماريّتان هدفاً للاستعمار لا يقل عن الوحدة الحياتية <البيولوجية> للجنس البشري، <وهو> "التضامن الانساني". فالأعراق التي تعجز عن استثمار مواردها (وعلى سبيل المثال: الأصلاونيون في أصقاع فرنسا ما وراء البحار) ستنتم استعادتها إلى الأسرة البشرية؛ "هنا، بالنسبة للمستعمر، يكمن النظرُ الرسمي لفعل الامتلاك؛ إنه ينزع عن هذا الفعل طبيعةً النهب ويجعله مخلوقاً من مخلوقات القانون الانساني"<sup>(٢١٩)</sup>. ويبادر جورج هاردي، في كتابه النموذجي العريق السياسة الاستعمارية وتقسيم الأرض في القرنين التاسع عشر والعشرين، إلى طرح منظومة أنّ استيعاب المستعمرات ضمن فرنسا "سببٌ تفجّر مصادر الإلهام ولم يؤدّ فقط إلى ظهور روايات استعمارية لا تُحصى، بل فتح العقول أيضاً على تنوع الأشكال الأخلاقية والعقلية، مشجّعاً الكتاب على تبني أنهاج جديدة من الاكتناه النفسي"<sup>(٢٢٠)</sup>. وقد نُشرَ كتابُ هاردي عام ١٩٣٧؛ وكان هاردي رئيسَ مجمع <أكاديمية> الجزائر، كما كان المديرَ الفخري للمدرسة الاستعمارية، وكان، بعباراته التقريرية المشحونة برهبة المجهول، سلفاً مهتداً مباشرةً لكامو.

وهكذا فإنّ روايات كامو وقصصه تقطّر بشكل دقيق جداً تقاليدَ مصادرة فرنسا للجزائر، ومصطلحات هذه المصادرة واستخطاياتها الإنشائية الاستطردية. إنه يقدم إفصاحها الأكثر أناقةً، وتطورها النهائي إلى تلك "البنية الشعورية" الهائلة. لكنّ من أجل ان نتلمس هذه البنية ينبغي ان نعاين أعمالَ كامو بوصفها تشخصاً متحولاً\* حواضرياً للمعضلة الاستعمارية: فهذه الأعمال تمثل المستعمرين المستوطنين وهم يكتبون لجمهور فرنسي يرتبط تاريخه الشخصي ارتباطاً لا فكاك منه بهذه الدائرة الجنوبية من فرنسا <أي الجزائر>؛ وإنّ تاريخاً يحدث في أيّ مكان آخر غير قابل للفهم. غير أن مراسيم التواشج مع الأرض المستعمرة - وهي مراسيم يقوم بأدائها مُرسو في الجزائر، وتارو وريو منطويين داخل أسوار وهران، وجانين خلال ترقبٍ خاشع في الصحراء - تثير، بمفارقة لاذعة، استفسارات لدى القارئ عن الحاجة إلى مثل هذه التأكيدات والإثباتات. وحين يُستدعى عنفُ الماضي الفرنسي هكذا من غير قصد، فإنّ هذه المراسيم تغدو احتفالات تذكاريةً مقصّرةً، ومضغوطةً إلى درجة عالية، للبقاء، بقاءً منجمع ليس لديه مكان يذهب اليه.

إنّ معضلة مُرسو أشدُّ جذريةً من معضلات الآخرين. ذلك أننا حتى إذا افترضنا أنّ المحكمة التي تشكلت بشكل زائف (وهي، كما يقول كونر كروز أوبراين بحق، آخرُ مكانٍ يُمكن توقُّعه لمحكمة رجلٍ فرنسي قتلَ عربياً) ذات وجود مستمر، فإنّ مُرسو نفسه يفهم الطبيعة النهائية للأمر؛ إنّ بوسعه أخيراً أن يعيش تجربة الانفراج والتحدّي معاً: "لقد كنتُ

\* - إزاء transfiguration، وهو التجلّي أو التجسّد في شكلٍ جديد (الناشر).

من قبلُ على حق، وكنتُ على حق ثانيةً، وكنت ما أزال على حق. لقد عشتُ من قبلُ على هذه الشاكلة وكان بوسعي أن أعيش على شاكلة أخرى. لقد فعلتُ هذا ولم أفعل ذلك، ولم أفعل ذلك الشيء الآخر. وماذا بعد؟ كأننا كنت دائماً في انتظار هذه اللحظة وهذا الفجر اللذين سيمنحانني التسويغ" (٢٢١).

لم تبق ثمة من خيارات هنا، لا بدائل، لا أشياء إنسانية قابلة لأن تحل محلّ أخرى. إن المستعمر المستوطن ليُجسّد كلا الجهد الإنساني الحقيقي الذي يُسهم به منجمعه، وعقبة رفض التخلي عن نظام سياسي جائر جوراً منتظماً. لم يكن ممكناً أن تتبثق الشدّة المتأزّمة بعمق للإقرار الانتحاري للذات لدى مُرسو إلا من ذلك التاريخ المعين وفي ذلك المنجمع المعين. وفي نهاية المطاف، يقبل مُرسو ما هو إيّاه لكنه يفهم مع ذلك أيضاً لماذا قررت أمه، الحبيسة في ماوى للعجزة، أن تتزوج ثانيةً: لقد حاولت أن تمارس دور البداية من جديد... وكانت من القرب إلى الموت بحيث كان عليها أن تشعر بأنها حرة وعلى استعداد لكي تعيش كل شيء من جديد<sup>(٢٢٢)</sup>. لقد فعلنا ما فعلناه هنا، فدعنا انن نفعله من جديد. إن هذا العناد الخالي من العاطفية خلّواً مأساوياً ينقلب إلى مقدرة إنسانية لا تتذبذب على التوليد وإعادة الولادة المتجددين. لقد عزا قراء كامو إلى الغريب الطبيعة الكونية لإنسانية وجودية محررة تواجه اللامبالاة الكونية السماوية وفضاظة الإنسان برواقية صفيقة.

إن نعيد موضوعة الغريب في السلسلة الجغرافية التي منها ينبثق مسارها السردية هو أن نووّلها بوصفها شكلاً متوتراً من أشكال التجربة التاريخية. وبطريقة مماثلة لعمل أورول ومقامه في انكلترة، فإن أسلوب كامو العاطل عن الحلي، وإخباره الخالي من التزييق بالمواقف الاجتماعية، ليخفيان تناقضات معقدة إلى درجة أسرة، تناقضات لا تحل بأن تجعل مشاعر ولاته للجزائر الفرنسية، كما جعلها النقاد، حكاية مثلية عن الشرط الإنساني؛ وهذا هو ما تستند اليه سمعته الاجتماعية والأدبية حتى الآن. ومع ذلك، فإن محدوديات كامو وإخفاقاته تبدو شائعة بشكل غير مقبول، لأنه كان أمامه دائماً البديل الأصعب والأشدّ تحدياً المتمثل أولاً في محاكمة احتلال فرنسا للأراضي والسيادة السياسية ثم في رفضهما، مشكلاً بذلك سداً حائلاً دون توكون فهم متعاطف، مشترك، للقومية الجزائرية. إن سرديات كامو، إذ تُقَابَلُ بالأدب المفكك للاستعمار الذي أنتج في زمنها، سواء أكان فرنسياً أم عربياً - جيرمين تيبون، أو كاتب ياسين، أو فانون، أو جينيه - لهما ذات حيوية سلبية، تحقّق فيها الخطورة المأساوية الإنسانية للمسعى الاستعماري آخر إيضاح عظيم لها قبل أن يحل بها الخراب. وإن هذه السرديات لتعبّر عن إهدار وأسى لم نفهمهما فهماً كاملاً ولم نُشَفَ منهما حتى الآن.

## VIII - ملحوظة حول الحداثيّة modernism

لا تمتلك أية رؤيا، كما لا يمتلك أي نظام اجتماعي، هيمنة كاملة على مجالها. إن المرء، بدراسته للنصوص الثقافية التي نجحت في التعايش مع المشاريع الكونية للامبراطورية الأوروبية والأميركية، أو قدّمت الدعم لها، لا يتهم هذه النصوص بالجملة أو يوحى بأنها أقل إشاقّة من حيث هي أعمالاً فنية بسبب كونها بطرق معقدة جزءاً من المشروع الامبريالي. إن المسرد الذي أقدمه هنا يتحدث عن إرادة للسيطرة الماورابحارية

كانت إلى حد كبير دون معارضةٍ ولا رادع لها، لا عن إرادةٍ دون معارضةٍ على الإطلاق. ينبغي أن يترك أثراً عميقاً فينا أن الضغوط الرواقية < اللويبية > الاستعمارية في أوروبا كانت تستطیع، مثلاً، مع نهاية القرن التاسع عشر، سواء عن طريق النُحل القبالية التي شكَّتها أو التأييد الشعبي، أن تمارس الضغط على الأمة < المستعمرة > لتقوم بمزيد من التزام المناكب على الأراضي وإزغام المزيد من الأصلانيين على الدخول في الخدمة الإمبريالية، دون أن يكون ثمة الكثير في بلدانها < الاستعمارية > مما يمنع أو يكبح هذه العملية. ورغم ذلك، فإن ثمة مقاومات دائماً، بغض النظر عن عدم فعاليتها. ليست الإمبريالية علاقةً من السيطرة فحسب بل هي أيضاً ملتزمة بعقائديةٍ محددةٍ للتوسع؛ ولقد كان التوسع، كما أدرك سيلي بشكل يستحق الإطراء، أكثر من مجرد نزعة، بل هو بشكل جلي الحقيقة العظيمة في التاريخ الانكليزي المعاصر<sup>(٢٢٣)</sup>. وقد طرح الاميرال ماهان في الولايات المتحدة ولوروا - بوليو في فرنسا دعاوى ماثلة. ولم يكن ممكناً للتوسع أن يحدث ويؤدي إلى تلك النتائج المذهلة لولا وجود القوة - القوة العسكرية، والاقتصادية، والسياسية، والثقافية - الكافية لإنجاز هذه المهمة في أوروبا واميركا.

ما إن اعتبرت الحقيقة الأساسية للسيطرة الأوروبية والغربية على العالم غير الغربي حقيقة قائمة، محتمة، حتى بدأ النقاش الثقافي الأكثر تعقيداً وتشابكاً، بل، كما أود أن أضيف، الأكثر تناقضاً، يحدث بتواتر أعظم. ولم يؤد ذلك مباشرةً إلى خلخلة الشعور بالديمومة السيدة والحضور غير القابل للزوال، لكنه أدى فعلاً إلى نهج بالغ الأهمية من انهاج الممارسة الثقافية في المجتمع الغربي، لعب دوراً شيقاً في تطور المقاومة ضد الإمبريالية في المستعمرات.

سوف يتذكر أولئك الذين قرأوا <كتاب> البرت هيرشمن العواطف المشبوية والمصالح أنه يصف المناظرة الفكرية التي صاحبت التوسع الاقتصادي الأوروبي بأنها نبعت من - ثم عززت ورسخت - منظومة أن العراطف المشبوية الإنسانية ينبغي أن تخلي الطريق أمام المصالح كطريقة لحكم العالم. وحين انتصرت هذه المنظومة، مع أواخر القرن الثامن عشر، أصبحت هدفاً من الإمكانيات لأولئك الرومانسيين الذين رأوا في عالم يتركز حول المصالح رمزاً للموقف الممل، والخالي مما يثير الاهتمام، والأناهي الذي كانوا قد ورثوه عن الأجيال السالفة<sup>(٢٢٤)</sup>.

دعنا نمدّ طريقة هيرشمن لتغطي مسألة الإمبريالية. مع أواخر القرن التاسع عشر كانت امبراطورية انكلترة بارزة جداً في العالم، وكانت المنظومة الثقافية التي تساند الإمبريالية تحقق انتصارها. كانت الامبراطورية أمراً حقيقياً، بعد كل حساب، وكما أخبر سيلي جمهوره، فإننا في أوروبا... متفقون تماماً على أن كنز الحقيقة الذي يشكل نواة حضارة الغرب لهو إلى درجة لا مثيل لها أكثر جوهرياً ونقاءً وامتيازاً لا من الصوفية البراهمانية التي هو مضطراً إلى منافستها وحسب، بل من التنوير الروماني أيضاً الذي نقلته الامبراطورية القديمة إلى أمم أوروبا<sup>(٢٢٥)</sup>.

\* - تعود كلمة "cabal" في جذرها إلى نخلة يهودية سرية أسست مذهباً عرف بـ "القبالة Cabala"; وارتبطت الكلمة بالمكيدة، والسرية، في استخدامها الانكليزي. وقد رأيت استخدام كلمة من الجذر العربي الذي تُشتق منه "القبيلة"، و"القبيلة"; وقد يكون ثمة ترابط بين المفهومين والمصطلحين في الأصول السامية.

في المركز من هذا التصريح الواثق وثوقاً لافتاً ثمة واقعان جامحان متمردان إلى حد ما يدمجها سيّلي بمهارة ويطرّحها جانباً أيضاً: الأول هو الاصلاني المنافيس (الصوفي البراهماني ذاته)، والثاني هو وجود امبراطوريات أخرى، ماضية وحاضرة. وفي كليهما، يسجل سيّلي بشكل تلمحي العواقب المليئة بالمفارقة الضدية لانتصارات الامبريالية ثم ينتقل إلى موضوعات أخرى. ولرة واحدة، أصبحت الامبراطورية، مثلها مثل مذهب المصالح، المعيار المستقر في الأفكار السياسية المتعلقة بمصير أوروبا على مستوى عالمي؛ ثم تم، بمفارقة لاذعة، توضيح وإبراز جاذبية خصومها المغاوية، وتصلب الطبقات المخضعة فيها، والمقاومة لسلطوتها التي لا تقاوم. ويتعامل سيّلي مع هذه الأمور تعامل الواقعي، لا تعامل الشاعر الذي ربما يرغب في أن يجعل من الأولى حضوراً نبيلاً أو رومانسياً، أو من الثانية منافساً دنيئاً ولا أخلاقياً. كما أن سيّلي لا يحاول تقديم مسرد تنقيحي بطريقة هويسن (الذي يمثل كتابه عن الإمبريالية نظيراً خارجياً منشقاً).

دعني الآن أقفز عائداً فجأة إلى الرواية الواقعية التي مازلت منشغلاً بها انشغالاً عميقاً في هذا الفصل. لقد كانت موضوعتها المركزية مع أواخر القرن التاسع عشر انقشاع الوهم والخيبة، أو ما يسميه لوكاش انقشاع الوهم المشحون بالمفارقة اللاذعة. توقظ أحداث الرواية الأبطال الروائيين المسدودين\* صدأً مأساوياً، أو ملهاوياً أحياناً، بفضاظة وأحياناً كثيرة بصفاقة، على التفاوت بين توقعاتهم التوهمية والوقائع الاجتماعية. <ومن هؤلاء الأبطال: > جود <في عمل> هاردي، ودوروثيا <في عمل> جورج اليوت، وفردريك <في عمل> فلوبيير، ونانا <في عمل> زولا، وارنست <في عمل> بتر، وايزابيل <في عمل> جيمس، وريرنن <في عمل> غيسنغ، وفيفرل <في عمل> ميرديث - والقائمة طويلة جداً. وفي هذه السردية من فقدان والإضعاف يولج تدريجياً بديل - وهذا البديل ليس رواية الغرائبية الصريحة والامبراطورية الوثيقة وحسب، بل سرديات الأسفار، وأعمال الاستكشاف والبحث العلمي الاستعماريين، والذكريات، والتجربة والخبرة. ونحن نتلمس في سرديات الدكتور ليفينغستون الشخصية، وفي <كتاب> هاغرد هيبي، وفي راج كبلنغ، و <عمل> لوتي رواية جندي جزائري <Spahi>، وفي معظم مغامرات جول فيرن، تقدماً سردياً جديداً وانتصارية جديدة. وتؤدي هذه السرديات جميعها دون استثناء تقريباً، مع مئات من مثلها تقوم على الانتشاء بالمغامرة في العالم المستعمر وعلى الانشغال بها، دور تأكيد نجاح المبادرة الامبريالية والاحتفاء بها، دون أن تشكك للحظة واحدة بها. <ففيها> يجد المستكشفون ما يبحثون عنه، ويعود المغامرون إلى الوطن سالمين وأكثر ثراءً، بل إن كيم المعاقب نفسه يُدخل في سلك "اللعبة العظيمة" <الاستخبارات البريطانية في الهند>.

وعلى عكس هذا التفاؤل، والإثبات، والثقة الرزينة، تشعُّ سرديات كونراد - التي أشرت إليها بكثرة لأنه عالج أكثر من أي شخص آخر التعزيزات والتجليات الثقافية المرهقة للامبريالية - بقلق متطرف مخلخل: فهي تستجيب لانتصار الامبراطورية بالطريقة التي يقول هيرشمن بها إن الرومانسيين استجابوا لانتصار رؤية للعالم تتمركز حول

\* - والمعنى الفعلي للكلمة الانكليزية "blocked" هو "المسدودون"، وبين السين والحصاد في العربية شبه تطابق، لكنني وجدت عبارة "الأبطال المسدودون" هنا ناشرة شيئاً ما.

المصالح. إن حكايات كونراد ورواياته بمعنى أول تعيد إنتاج الخطوط الكفافية العدوانية للمبادرة الامبريالية العالية، لكنها بمعنى ثانٍ مصابةً بعدوى الإدراك المشحون بالمفارقة اللاذعة للحساسية الحداثية المابعد واقعية، القابلة للتمييز بسهولة. إن كونراد، وفورستر، ومالرو، وتي. إي. لورنس ينقلون السرد من التجربة الانتصاروية للامبريالية إلى اقاصي وعي الذات، والانقطاع، والمرجعية الذاتية، والمفارقة اللاذعة النهاشة، التي أصبحنا نميز أنساقها الشكلية بوصفها العلامات الفارقة للثقافة الحداثية، وهي ثقافة تحتضن أيضاً الأعمال الرئيسية لجويس، وتي. إس. إليوت، وپروست، ومان، وبيتس. وأود أن أقترح أن العديد من أكثر خصائص الثقافة الحداثية بروزاً، والتي نزعنا إلى اشتقاقها من فواعل حيوية داخلية محض في الثقافة والمجتمع الغربيين، تضم استجابةً إلى الضغوط الخارجية على الثقافة الآتية من الفضاء الامبريالي <imperium>. ويصدق هذا بالتأكيد على أعمال كونراد الكاملة بأسرها، كما يصدق بالنسبة لأعمال فورستر، وتي. إي. لورنس، ومالرو؛ وقد انطبعت، بطرق مختلفة، تعديت الامبراطورية على الحساسية الأيرلندية في أعمال بيتس وجويس، كما ارتسمت تعدياتها على حساسية الأميركيين المهاجرين في أعمال إليوت وپاوند.

في حكاية <توماس> مان المثلية العظيمة عن التحالف بين الإبداع والمرض - موت في البندقية - يعود الطاعون الذي يصيب أوروبا إلى أصول آسيوية؛ ويشكل الدمج بين الرهبة والوعد، بين الانحلال والرغبة، الذي تصوغه بقوة بالغة التأثير الأوضاع النفسية لأشبناخ، فيما اعتقد، طريقة مان في الإيحاء بأن أوروبا - فنونها، وعقلها، وروحها - لم تعد عصيةً على الاختراق، وفي منجى من الأذى، ولم يعد بوسعها أن تتجاهل روابطها مع أقاليمها الماورابحارية. ومثل ذلك جويس، الذي يستمد <بطله> القومي والمثقف الأيرلندي ستيفن ديدالس الدعم والقوة، بمفارقة لاذعة، لا من رفاق <ه> من الكاثوليك الأيرلنديين بل من اليهودي التائه ليوپولد بلوم، الذي تزعزع غرائبيته ومهاراته العوالمية الوقار السوداوي المرضي في تمرّد ستيفن. إن بلوم ليشهد، مثل المعكوسات inverts الفاتنة في رواية پروست، على حضور جديد داخل أوروبا، حضورٌ يوصف بصورة لافتة في إطار معطيات مأخوذة بالتأكيد من المسارد الغرائبية للاكتشافات، والفتوحات، والرؤى الماورابحارية. والفرق هو أنها الآن قائمة منا بدلاً من أن تكون قائمة مناك في الخارج، مزعجة إزعاج الإيقاعات البدائية لطقوس الربيع <لسترافينسكي> أو الايقونات الأفريقية في فن بيكاسو.

إن الخلخلات والإزاحات الشكلية في الثقافة الحداثية، وبشكل أشد صدماً المفارقة اللاذعة فيها، متأثرةً بالضبط بهذين العاملين المزعجين اللذين يذكّرهما سيلبي بوصفهما <من> عواقب الامبريالية: المنافس الأصلاحي وحقائق <وجود> امبراطوريات أخرى. يتطلب عربّ لورنس في أعمدة الحكمة السبعة، إضافةً إلى الرجال الشيوخ الذين يدمرون ويخطفون مغامرته العظيمة، اعترافه الحزين والمتبرم، بالضبط كما تتطلبه فرنسا وتركيا الامبريالتان؛ وإن إنجاز فورستر العظيم في مصر إلى الهند هو أنه يُظهر بدقة لافتة (وبشكل غير مريح) كيف تتكشف الاحتدامية الأخلاقية للتصوف والقومية في الهند المعاصرة - غودبول وعزيز - على خلفية الصدام القديم بين الامبراطوريتين البريطانية

والمغولية. وفي <عمل> لوتي الهند (من دون الإنكليز) نقراً سردية رحلات تقوم على رحلة عبر الهند لا يُذكر فيها الإنكليزُ الحاكمون، بصورة متعمدة بل مزدرية أيضاً، ولو مرة واحدة<sup>(٢٢٦)</sup>، كما لو أن الغرض هو الإيحاء بأنّ الأصلانيين وخدمهم الذين يُبصرون هناك، فيما كانت الهند طبعاً ممتلكة بريطانية حصراً (والمؤكد أنها لم تكن فرنسية).

إنني لأطرح اقتراحاً بأنّ الثقافة الأوروبية حين بدأت في نهاية المطاف تأخذ بالاعتبار المستحقّ الأوهام والمكتشفاتِ الإمبريالية - بعبارة بنيتا پارِي الممتازة لوصف المواجهة الثقافية الانجلو - هندية<sup>(٢٢٧)</sup> - فإنّها فعلت ذلك لا ضدياً بل بروح المفارقة اللاذعة، وفي محاولة يائسة لتحقيق اشتمالية جديدة. كأنما بدأ أعضاء الثقافات الأوروبية المسيطرة الآن - بعد أن كانوا لقرون عديدة قد فهموا الإمبراطورية كحقيقة من حقائق المصير القومي تُستبَدّه أو يحتفى بها وتعرّز وتطور وتحسّن - ينظرون إلى الخارج بريبة وتشوش بشرٍ أصيبوا بالدهشة، بل ربما بالصدمة أيضاً، بسبب ما راه. لقد استوردت النصوصُ الثقافية الأجنبية إلى أوروبا بطرق تحمل بشكلٍ ناصع الجلاء سمة المشروع الإمبريالي، والمكتشفين والمختصين بعلم الأعراف الوصفي، وعلماء الأرض، والجغرافيين، والتجار والجنود. وفي البداية حركت <هذه النصوص> اهتمام المتلقين الأوروبيين؛ ومع بداية القرن العشرين، تمّ استخدامها للتعبير عن إحساس مشحون بالمفارقة اللاذعة بمدى قلّة تحسّن أوروبا وبأنّ هذا أيضاً - بعبارة كونراد العظيمة - قد كان وما يزال واحداً من الأماكن المظلمة على سطح الأرض.

من أجل أن تتعامل مع هذا كله، كان ضرورياً لشكل موسوعي جديد أن يظهر، شكل له ملامح ثلاثة. كان الأول دوائرية البنية، أي أن تكون اشمالية ومفتوحة في آن واحد <كما في>: يولييسيس، قلب الظلام، البحث عن <الزمن المفقود>، الأراب، الفصول <الكانتوس>، إلى المنارة. وكان الثاني جده طريفة تقوم بشكل كلي تقريباً على إعادة تشكيل شظايا قديمة، بل تكاد تكون مُزمنة مأخوذة - بوعي تام للذات - من أمكنة، ومصادر، وثقافات متباينة: ذلك أنّ العلامة الفارقة للشكل الحدائي هي الإقحام التجاروي الغريب للمهاوي والمساوي، العالي والواطي، العادي المبتذل والغرائبي، المؤلف والأجنبي؛ وكان الحلّ الأكثر مهارةً لذلك هو توحيد جويس لـ الأوديسة باليهودي التانه، والإعلانات بفرجيل (أو دانتي)، والتناظر المطلق بمسردة <كتالوج> البائع. والملمح الثالث هو المفارقة اللاذعة لشكل يلفت الانتباه إلى نفسه بوصفه حلّ الفنّ ومخلوقاته محلّ التركيبة <التوحيدية الضامة> التي كانت محتملة ذات يوم <على يد> الإمبراطوريات العالمية. فحين لا تعود قادراً على افتراض أن بريطانيا <العظمى> سوف تحكم الأمواج إلى الأبد، فإنك تغدو مجبراً على أن تعيد تصور الواقع بوصفه شيئاً قابلاً لأن يبقى مشدوداً بعضه إلى بعض من قبلك أنت الفنان، في التاريخ بدلاً من الجغرافيا. تصبح الفضائية <أو المكانية>، بمفارقة لاذعة، خصيصة لسيطرة جمالية بدلاً من سياسية، إذ تُشرع أقاليم متزايدة - من الهند إلى أفريقيا والكاريببي - بتحدّي الإمبراطوريات العريقة وثقافتها.

\* - إزاء fusing، التي تعني أيضاً: الصنهر، واللحم، والدّمج، والإدابة (الناشر).

# الفصل الثالث

## المقاومة والمعارضة

شُدِّينِي بِذِرَاعِيكَ الرَّحْبَتَيْنِ إِلَى الطَّيْنِ اللَّالَاءِ  
أَيُّمِي سِيْزِيرِ، دَفْتَرُ عَوْدَةٍ إِلَى مَسْقَطِ الرَّاسِ

والمغولية. وفي <عمل> لوتي الهند (من دون الإنكليز) نقراً سردية رحلات تقوم على رحلة عبر الهند لا يُذكر فيها الإنكليزُ الحاكمون، بصورة متعمدة بل مزدوجة أيضاً، ولو مرة واحدة<sup>(٢٢٦)</sup>، كما لو أن الغرض هو الإيحاء بأنّ الأصلانيين وهدمهم الذين يُبصرون هناك، فيما كانت الهند طبعاً ممتلكة بريطانية حصراً (والمؤكد أنها لم تكن فرنسية).

إنني لأطرح اقتراحاً بأنّ الثقافة الأوروبية حين بدأت في نهاية المطاف تأخذ بالاعتبار المستحقّ الأوهام والمكتشفاتِ الامبريالية - بعبارة بنيتا پارلي الممتازة لوصف المواجهة الثقافية الانجلو - هندية<sup>(٢٢٧)</sup> - فإنّها فعلت ذلك لا ضدياً بل بروح المفارقة اللاذعة، وفي محاولة يائسة لتحقيق اشتمالية جديدة. كانما بدأ أعضاء الثقافات الأوروبية المسيطرة الآن - بعد أن كانوا لقرون عديدة قد فهموا الامبراطورية كحقيقة من حقائق المصير القومي تُستبَدّه أو يحتفى بها وتعزّز وتطور وتحسّن - ينظرون إلى الخارج بريبة وتشوش بشرٍ أصيبوا بالدهشة، بل ربما بالصدمة أيضاً، بسبب ما راهو. لقد استوردت النصوصُ الثقافية الأجنبية إلى أوروبا بطرق تحمل بشكلٍ ناصع الجلاءِ سمةَ المشروع الامبريالي، والمكتشفين والمختصين بعلم الأعراف الوصفي، وعلماء الأرض، والجغرافيين، والتجار والجنود. وفي البداية حركت <هذه النصوص> اهتمام المتلقين الأوروبيين؛ ومع بداية القرن العشرين، تمّ استخدامها للتعبير عن إحساس مشحون بالمفارقة اللاذعة بمدى قلّة تحسّن أوروبا وبأنّ هذا أيضاً - بعبارة كونراد العظيمة - قد كان وما يزال واحداً من الأماكن المظلمة على سطح الأرض.

من أجل أن تتعامل مع هذا كله، كان ضرورياً لشكل موسوعي جديد أن يظهر، شكل له ملامح ثلاثة. كان الأولُ دوائرية البنية، أي أن تكون اشتمالية ومفتوحة في أن واحد <كما في>: يولييسيس، قلب الظلام، البحث عن <الزمن المفقود>، الأراب، الفصول <الكانتوس>، إلى المنارة. وكان الثاني جده طريفة تقوم بشكل كلي تقريباً على إعادة تشكيل شظايا قديمة، بل تكاد تكون مُزمنة مأخوذة - بوعي تام للذات - من أمكنة، ومصادر، وثقافات متباينة: ذلك أنّ العلامة الفارقة للشكل الحدائي هي الإقحام التجاوري الغريب للمهاوي والمساوي، العالي والواطي، العادي المبتذل والغرائبي، المؤلف والأجنبي؛ وكان الحلّ الأكثر مهارةً لذلك هو توحيد جويس لـ الأوديسة باليهودي التانه، والإعلانات بفرجيل (أو دانتي)، والتناظر المطلق بمسردة <كتالوج> البائع. والملمح الثالث هو المفارقة اللاذعة لشكل يلفت الانتباه إلى نفسه بوصفه يُحلّ الفنّ ومخلوقاته محلّ التركيبة <التوحيدية الضامة> التي كانت محتملة ذات يوم <على يد> الامبراطوريات العالمية. فحين لا تعود قادراً على افتراض أن بريطانيا <العظمى> سوف تحكم الأمواج إلى الأبد، فإنك تغدو مجبراً على أن تعيد تصور الواقع بوصفه شيئاً قابلاً لأن يبقى مشدوداً بعضه إلى بعض من قبلك أنت الفنان، في التاريخ بدلاً من الجغرافيا. تصبح الفضائية <أو المكانية>، بمفارقة لاذعة، خصيصة لسيطرة جمالية بدلاً من سياسية، إذ تُشرع أقاليم متزايدة - من الهند إلى أفريقيا والكاريببي - بتحدّي الامبراطوريات العريقة وثقافتها.

\* - إزاء fusing، التي تعني أيضاً: الصهر، واللحم، والدمج، والإذابة (الناشر).



# الفصل الثالث

## المقاومة والمعارضة

شُدِّينِي بِذِرَاعَيْكَ الرَّحْبَتَيْنِ إِلَى الطَّيْنِ اللَّالَاءِ  
أَيْمِي سِيزِير، دَفْتَرُ عَوْدَةٍ إِلَى مَسْقَطِ الرَّاسِ

<https://telegram.me/maktabatbaghdad>

أحد الموضوعات السؤنانية المعيارية في تاريخ الأفكار ودراسة الثقافات هو تلك الكوكبة من العلاقات التي يمكن ضمها تحت عنوان عام هو: "التأثير". لقد بدأت هذا الكتاب باستدعاء مقالة اليوت المشهورة "التراث والموهبة الفردية" وسيلة لتقديم قضية التأثير في شكلها الأكثر أساسية، بل تجريدية أيضاً: وهو العلاقة بين الحاضر وماضوية (أو لاماضوية) الماضي، وهي علاقة تشمل كما يناقشها اليوت العلاقة بين الكاتب الفرد والتراث الذي يشكل هذا الكاتب، أو تشكل هذه الكاتبة، جزءاً منه. ولقد اقترحت أن دراسة العلاقة بين "الغرب" و"آخريه" الثقافيين المخضعين ليست سبيلاً فحسب إلى فهم علاقة غير متكافئة بين متحاورين غير متكافئين، بل هي أيضاً نقطة دخول إلى دراسة تشكل الممارسات الثقافية الغربية ذاتها ودراسة معناها. وينبغي أن نأخذ بالاعتبار التفاوت اللجوج المستمر في القوة بين الغرب وسوى الغرب إذا أردنا أن نفهم فهماً دقيقاً أشكالاً ثقافية كالرواية، والإنشاء العرقي والجغرافي والتاريخي، وبعض أنماط الشعر والمغناة، حيث تكثر الإلماعات إلى هذا التفاوت وتكثر البنى القائمة عليه. ولقد مضيت لأحتج بأنه حين تتلاقى دوائر ثقافية مثل الأدب والنظرية النقدية، يُفترض أنها حيادية، متكافئة فوق ثقافة أضعف أو منضوية وتوكلها باستخدام أفكار عن جواهر غير أوروبية وأوروبية لامتغيرة، و«عن» سرديات حول التملك الجغرافي، وصور الشرعية والخلاص، فإن العواقب الصادمة كانت وما تزال هي تقنيق موقف القوة وإخفاء مدى تقاطع تجربة الطرف الأقوى مع الأضعف واعتمادها عليه، بكل ما في ذلك من غرابة.

ثمة مثل على ذلك في رواية جيد اللاخلاقى (١٩٠٢)، التي تُقرأ عادة بوصفها قصة رجل يبلغ نقطة يقبل معها ميوله الجنسية الشذانة بالسماح لها بأن تنتزع منه لا زوجته، مارسيلين، ووظيفته، وحسب، بل كذلك وبمفارقة ضدية إرادته أيضاً. وميشيل فقيه لغوي يجلو له بحثه الجامعي في ماضي أوروبا البربري غرائزه، وأشواقه، ونوازعه الشخصية المقموعة. وكما هي الحال في «رواية» توماس مان موت في البندقية، فإن الإطار المشهدي يمثل مكاناً غرائبياً يقع على حدود أوروبا أو خارجها مباشرة؛ وتشكل الجزائر الفرنسية مكاناً رئيسياً لأحداث اللاخلاقى، وهي مكان من الصحارى، والواحات المتراخية، والصبيان والبنات الأصلانيين اللّي - أخلاقيين. يوصف مُرشيد ميشيل النيتشوي، مينالك، دون مؤاربة بأنه موظف استعماري، ورغم أنه خارج مباشرة من عالم امبريالي بوسع قراء تي. إي. لورنس أو مالرو تمييزه بسهولة، فإن حضوره الماجن والأبيقوري حضور جيد تاماً. يَشْتَق مينالك (أكثر مما يفعل ميشيل) المعرفة، واللذة أيضاً، من حياته القائمة على رحلات استكشافية غامضة، والانغماس في المتع الحسية، والحرية المناهضة للحياة المنزلية. إن حياة مينالك، بل فعله الأكثر تفاهةً، يقول ميشيل متاملاً وهو يقارن منهاج المحاضرات الجامعية «الذي يسير عليه» بالامبريالي المتألق «مينالك»، «ليس أكثر فصاحة بألف مرة من منهاجي؟».

بيد أن ما يربط بين الرجلين بدءاً ليس هو الأفكار ولا تواريخ الحياة بل اعترافات مُختر، وهو صبي أصلاني من بسكره (التي يعود إليها جيد في كتاب بعد آخر)، يُخبر مينالك كيف راقب ميشيل يتجسس عليه وهو يسرق مقص مارسيلين. ويشكل التواطؤ

المثُلجَنسيُّ بين الثلاثة علاقةً تراتبية لا يخطئها الإدراكُ: فمُكتر، الصبي الأفريقي، يمنح ميشيل، مستخدمه، لذةً سرية، هي بدورها خطوةً على طريق اكتسابه المعرفة بالنفس، الذي تهدي خطاه فيه تبصراتٌ ميناك النفاذةُ الفائقة. وما يفكر أو يشعر به مكتر (ويبدو كل ذلك خَلْقياً، ان لم يكن أيضاً عرقياً، خبيثاً) أقلُّ أهميةً بكثير مما يَخرج به ميشيل وميناك من التجربة التي ينظران بها إليها. ويربط جيداً ربطاً مكشوفاً صريحاً بين معرفة الذات لدى ميشيل وتجاريه في الجزائر، وهي تجاربُ تُربطُ بشكلٍ سببيٍّ عُلِّي بموت زوجته، وبتغيير توجهه الفكري، وبؤسه النهائي الثنائي الجنس المثير للإشفاق.

يقدم ميشيل للمحات الخُلصية التالية، وهو يتحدث عن شمال افريقيا الفرنسي - وفي ذهنه تونس :

إن أرض اللذة هذه لتُشبع دون ان تهدي الرغبة؛ بل الحق أن كل إشباع لا يؤدي إلا إلى إثارتها واحتدامها. أرض محررة من الأعمال الفنية. إنني لاحتر أولئك الذين لا يعترفون بالجمال إلا حين يكون مكتوباً، مؤولاً. ثمة شيء يثير الإعجاب في العرب: أنهم يعيشون فَنهم، يغنونه وينثرونه من يوم إلى يوم؛ لا يتشبثون به، لا يحسطنونه في أعمال. وذلك هو السببُ والنتيجةُ لغياب الفنانين العظام... حين كنت عانداً إلى الفندق، تذكرتُ مجموعاً من العرب كنتُ قد لاحظتهم يتمددون في الهواء الطلق على حُصُرٍ مقهى صغير. ذهبُ ونمت بينهم. عدتُ مغطىً بالحشرات الهوام<sup>(٢)</sup>.

إن أهل افريقيا، وخاصة أولئك العرب، لموجودون ثمة وحسب؛ ليس لهم فن أو تاريخ تراكم <عبر الزمن> وترسب في أعمال. وهو ما كان سيكون بذوي بال لولا الملاحظ الأوروبي الذي يشهد على وجوده. إنه لمتع أن يوجد المرء بين هؤلاء البشر، غير أن عليه أن يتقبل أخطار ذلك الوجود (الحشرات الهوام، مثلاً).

لِ اللاأخلاقي بُعدُ إشكالي إضافي يتمثل في أن سرّدها بضمير المفرد المتكلم - فميشيل يروي قصته بنفسه - يعتمد اعتماداً كبيراً على عدد من الاشتمالات التي يقوم بها: عبره يأتي أهل شمال افريقيا، وتأتي زوجته وميناك. ميشيل ملاك أرض موسرٍ من نورماندي، وباحث، وپروتستانتِي - وهو ما يوحي بأن جيدٌ يقصد <إظهاراً> جوانب متعددةٍ للشخصية، قادرةٌ على تحمل أعباء النفوس والدنيوية كليهما. وتعتمد جميع هذه الجوانب في التحليل الأخير على ما يكتشفه ميشيل عن نفسه في افريقيا، ومع ذلك فإن اكتشاف النفس لديه محدودٌ بالمؤقتية <الزوايئة> والشغافية، وغيرُ مقدرٌ حق قدره. ومن جديد، فإن السردية تملك بنية من وجهات النظر والإحالات تمنح الذات المؤلفة الأوروبية حقاً أن تتمسك بإقليم واقع وراء البحار، وتمتأخ منه الفائدة، وتعتمد عليه، ثم ترفض في نهاية المطاف أن تعترف بحقه في الاستقلال أو الوجود المنفصل.

إن جيدٌ حالة خاصة - فهو يعالج في أعماله الشمالأفريقية مادةً محدودةً نسبياً: إسلامية، عربية، مثلجَنسية. لكن علاقة جيدٌ بأفريقيا، رغم أنها تمثل حالة فنّان فرديٍّ إلى درجة عالية، تنتمي إلى تشكل أوسع من الممارسات ووجهات النظر الأوروبية بإزاء تلك القارة، انبثق منها ما أسماه نقاداً أواخر القرن العشرين بالافريقانية، أو الإنشاء الأفريقي، وهو لغة مطردة منتظمة للتعامل مع أفريقيا ودراستها من أجل الغرب<sup>(٣)</sup>. وترتبط بهذه اللغة تصوراتٌ عن البدائية، كما ترتبط بها تصوراتٌ تُشتق من الأصل الأفريقي امتيازات معرفية خاصة، مثل القبلية، والحيوية، والأصالة. وبوسعنا أن نجد هذه

التصورات التي يسهل استخدامها باستطاعة فاعلة لدى كونراد وأسحق دينسين\*، كما نجدها لاحقاً في العمل البحثي الجسور الذي أنجزه ليو فروبينيوس، وهو عالم الإنسان الألماني الذي ادعى أنه اكتشف الترتيب الكامل للنظام الأفريقي، ولدى بلاسيد تامل، المبشر البلجيكي الذي اقترح كتابه فلسفة البانتو <وجود> حيوية جوهرانية (وتقليصية) تكمن في القلب من الفلسفة الأفريقية. ولقد كان هذا المفهوم عن الهوية الأفريقية من الإنتاجية المثمرة والقابلة للتكيف بحيث أمكن استخدامه من قِبَل المبشرين الغربيين، ثم علماء الإنسان، ثم المؤرخين الماركسيين ثم، بطريقة عداوية، من قِبَل حركات التحرير نفسها، كما أظهر في. واي . موديمي في دراسته اللافتة اختراع أفريقي (١٩٨٨)، وهي تاريخ لما يسميه عرفانية روحية <غنوصية> أفريقية<sup>(٤)</sup>.

لقد تكيف مع هذا النوع من النسق الموقف الثقافي العام القائم بين الغرب وفضائه الإمبريالي ماوراء البحار حتى المرحلة الحديثة، خاصة الفترة الواقعة حوالي الحرب العالمية الأولى. ولأن موضوعي الضخم لا يمكن أن يعالج بأفضل الطرق في هذه المرحلة إلا بالتناوب بين الدراسات العامة والدراسات البالغة التخصص والمحلية، فإن هدفي هنا هو أن أقدم تخطيطاً أولياً للتجربة المتفاعلة التي تربط المتأثرين بالمتأثر عليهم. فدراسة العلاقة بين الثقافة والإمبريالية في هذه المرحلة المبكرة من تطورها لا تحتاج إلى السرد الزمني البسيط ولا إلى السرد التندري\*\* البسيط (يوجد عدد لا بأس به من هذين السردين الآن في حقول منفصلة)، بل إلى محاولة لإنجاز وصف كوني (لا وصف كلي). ومن الطبيعي أن أي دراسة للروابط بين الثقافة والإمبراطورية هي نفسها جزء لا يتجزأ من الموضوع - جزء مما أسمته جورج إليوت في سياق آخر بـ: الوسط المشبوك المتعطل - بدلاً من أن تكون إنشاءً مكتوباً من منظور نام وغير ملتزم <أو متعالي>. إن ظهور حوالي مائة دولة جديدة انفكت عن الاستعمار في المرحلة ما بعد الاستعمارية بعد ١٩٤٥ ليس حقيقة محايدة، بل هي حقيقة اتخذ منها الباحثون والمؤرخون والناشطون، في مناقشتهم لها، مواقف إما مناصرة وإما معادية.

وكما أن الإمبريالية في مرحلتها المنتصرة لم تُجرَّ إلا إنشاءً ثقافياً مصوغاً داخلها، فإن ما بعد الإمبريالية اليوم لا تسمح بشكل رئيسي إلا لإنشاء ثقافي من الريبة والشك من طرف البشر الذين كانوا مستعمرين سابقاً، ومن التحاشي النظري في الأغلب من طرف المثقفين الحواضرين. وإنني لأجد نفسي عالقاً بين الاثنين، كما هي حال عدد منا، نحن الذين ترعرعنا إبان الفترة التي تم فيها تفكيك الإمبراطوريات الاستعمارية التقليدية. فنحن ننتمي إلى مرحلة كلا الاستعمار والمقاومة ضده؛ لكننا مع ذلك ننتمي أيضاً إلى مرحلة من الإحكام النظري الفائق، ومن الأخطاط المكونة للتقويضية والبنوية والماركسية اللوكاشية والالتوسيرية. وإن حكّي المَعْدَ منزلياً للتضاد بين الانخراط والنظرية كان وما يزال منظوراً عريضاً بوسع المرء أن يعاين منه الثقافة والإمبريالية كليهما، وتُمكنُ منه ملاحظة الجدلية التاريخية الواسعة بينهما وإن لم يكن ممكناً إلا بين حين وآخر

\* مؤلف دانمركي (١٨٨٥ - ١٩٦٢)

\*\* وهي تعريب المترجم لكلمة anecdotal، أي قائم ومشتمل على نوادر وقصص وحكايات (الناشر)

ملاحظة تفاصيلها التي لا تُحصى. ولذلك سأتابع العمل مفترضاً بدهاء أن قطاعات هام- عديدة من ثقافة ما يمكن أن تُدرك بوصفها تعمل معاً طباقياً *contrapuntally*، بينما تمثل <هذه> الثقافة بأسرها كلاً منفصلاً.

وأنا معنيٌ هنا خاصةً بالتغيُّر الخارق، الذي يكاد يكون كوبرنيكياً، في العلاقة بين الثقافة الغربية والامبراطورية خلال السنوات المبكرة من هذا القرن. ومن المجدي أن نرى هذا التغير مماثلاً في مداه ودلالته وأهميته لتغيرين سابقين عليه: <الأول> هو إعادة اكتشاف اليونان إبان المرحلة الإنسانية لعصر النهضة الأوروبية؛ و<النهضة الشرقية> - كما أسماها مؤرِّخُها الحديث العظيم ريموند شقَاب<sup>(٥)</sup> - من أواخر القرن الثامن عشر الى منتصف التاسع عشر، حين أُدرِعت الكُنُوزُ الثقافية للهند، والصين، واليابان، وفارس، والإسلام بثبات وصلابة في قلب الثقافة الأوروبية. وكان الثاني، وهو ما أسماه شقَاب المصادرة الأوروبية الفخمة للشرق - اكتشاف النحويين الألمان والفرنسيين للسنسكريتية؛ و<اكتشاف> الشعراء والفنانين الإنكليز والألمان والفرنسيين للملاحم القومية الهندية العظيمة؛ و<اكتشاف> كثير من المفكرين الأوروبيين بل والأميركيين أيضاً من غوته الى امرسُن للصور <الشعرية>؟ الفارسية والفلسفة الصوفية - أحد أروع الأحداث الفقرية في تاريخ المغامرة الإنسانية، وموضوعاً <للبحث> كافياً في حد ذاته.

البُعد المفقود في سردية شقَاب هو البعد السياسي، وهو أشدُّ إحزاناً وأقلَّ بهجة للنفس، من البعد الثقافي. إنَّ التأثير النهائي للتبادل الثقافي بين شركاء يعون عدم تساويهم، كما طرحتُ في منظوماتي في الاستشراق، هو أنَّ البشر <العادين> هم الذين يقاسون. لقد خدّمت الروائع العريقة اليونانية الإنسانيين الإيطاليين، والفرنسيين، والإنكليز دون الإقحام المزعج ليونانيين حقيقيين. وقد قرئتُ نصوصُ كتبها بشر أموات، وثُمَّنتُ، وقُدِّرتُ، وصودرت، من قِبَل بشر <آخرين> تخيلوا <وجود> ثروة مشتركة <كومونولث> مثالية. وذلك سببٌ في أنَّ الباحثين نادراً ما يتحدثون بريبة او انتقاص عن النهضة. وأما في الأزمنة الحديثة، فإنَّ التفكير بالتبادل الثقافي يتضمَّن التفكير بالسيطرة والمصادرة القسرية: يُخسر البعض، ويَربح البعض. إنَّ المناقشات حول التاريخ الأميركي اليوم، مثلاً، هي بصورة متنامية باستمرار استنطاقاتٌ لذلك التاريخ بخصوص ما فعله بالشعوب الأصلانية، والسكَّان المهاجرين، والأقليات المضطَّهدة المقموعة.

بيد أنَّ الغربيين لم يدركوا إلا حديثاً أنَّ ما يقولونه عن تاريخ الشعوب <الخاضعة المنضوية> وثقافتها قابلٌ للتحدي من قِبَل هذه الشعوب نفسها، التي كانت الى ما قبل بضع سنوات فقط تخضع ببساطة للتدميج والاشتمال - ثقافة، وتاريخاً، وأرضاً وكلُّ شيءٍ آخر - ضمن الامبراطوريات الغربية العظيمة، وإنشاءاتِ حقولها المعرفية. (ولا يُقصد بهذا القول الحطُّ من قيِّمة منجزاتِ العديد من الباحثين، والمؤرخين، والفنانين، والفلاسفة، والموسيقيين، والمبشرين الغربيين، الذين كانت جهودهم الفردية والمتَّحدة في جعل العالم الواقع خارج أوروبا معروفاً <لها> إنجازاً مذهلاً).

لقد تجاوزتُ موجةً هائلةً من النشاط، والفكر، والتنقيح المناهض للاستعمار والمناهض في نهاية المطاف للامبريالية، الصرْحُ الضخْمُ للامبراطورية الغربية، متحدياً إياها في حصارٍ متبادل، بحسب استعارة غرامشي المفعمة بالحياة. وللمرة الأولى أصبح الغربيون

مطالبين بأن يواجهوا أنفسهم لا من حيث هم الراج\* وإنما كمتلين لثقافة بل لأعراق مُتَهمة بارتكاب الجرائم - جرائم العنف، جرائم القمع والاضطهاد، جرائم الضمير. يقول فانون في المعذبون في الأرض (١٩٦١): "اليوم يواجه... العالم الثالث أوروبا مثل كتلة هائلة ينبغي أن يكون هدفها محاولة حلّ المشكلات التي لم تستطع أوروبا أن تجد الأجوبة عنها"<sup>(٦)</sup>. لقد وُجّهت مثل هذه الاتهامات من قِبَل، طبعاً، حتى من قِبَل أوروبيين جسورين مثل صموئيل جونسون و دبليو. إس. بلنت. وقد حدثت عبر العالم غير الأوروبي كله انتفاضاتٌ استعمارية من قِبَل، من ثورة سان دومينغو <في هايتي> وانتفاضة عبد القادر المسلحة <في الجزائر>، إلى تمرد عام ١٨٥٧ <في الهند>، وثورة عُرابي، وتمرد البوكسر <الصيني ضد الأجانب عام ١٩٠٠>. كما حدثت غارات انتقامية، وتغييرات لأنظمة الحكم، وقضايا شهيرة، ومناظرات، وإصلاحات، وإعادة تقييمات. بيد أن الامبراطوريات، خلال ذلك كله، ازدادت حجماً وأرباحاً. أما الموقف الجديد فقد غداً مجابهةً معززة، ومقاومة منظمة، للامبراطورية من حيث هي غرب. واندفعت الكراهيات التي كانت تغلي لزمان طويل ضد الرجل الأبيض من المحيط الهادي إلى الاطلسي، متحوّلةً إلى حركاتٍ استقلالٍ تامةٍ النمو ناضجة. وانبثق دعاةٌ وحادثةٌ أفريقيةٌ ووحدةٌ آسيوية ناشطون لم يكن ممكناً إيقافهم وصددهم.

لم تكن الجماعات الناشطة بين الحربين العالميتين ضد الغرب بجلاء أو بشكل تام. فقد أمن البعض بأن الخلاص من الاستعمار يمكن أن يأتي نتيجةً للعمل مع المسيحية؛ وأمن آخرون بأن الغربية هي الحل. في أفريقيا كانت هذه الجهود الواقعة بين الحربين تتمثل، تبعاً لـ بايزل ديفيدسن، في أشخاص مثل هربرت ماکولي، وليوبولد سينغور، ودجي. إتش. كيسلي هينغورد، وسموئيل اوما<sup>(٧)</sup>. وفي العالم العربي إبان هذه الفترة كان سعد زغلول، ونوري السعيد، وبشارة الخوري نظراء لهم. حتى القادة الثوريون اللاحقون - هوشي منه في فيتنام، مثلاً - اعتقدوا في الأصل أن بعض جوانب الثقافة الغربية يمكن أن تساعد على إنهاء الاستعمار. بيد أن جهودهم وأفكارهم لم تُقابل إلا بأقل القليل من الاستجابة في الحواضر، ومع الوقت حصل تحوّلٌ في <طبيعة> مقاومتهم.

ذلك أنه إذا كان الاستعمار نظاماً، كما كان لسارتر أن يقول في إحدى مقالاته التي تلت الحرب <العالمية الثانية>، فإن المقاومة بدأت تشعر بانها نظامية أيضاً<sup>(٨)</sup>. كان بوسع شخص مثل سارتر أن يقول، في مستهل مقدمته لكتاب فانون المعذبون في الأرض (١٩٦١)، إن العالم كان في الحقيقة فئتين متحاربتين: خمسمائة مليون من الرجال، ألف وخمسمائة مليون من الأصلايين. الفئة الأولى تملك الكلمة؛ والآخرين يملكون استعمالها... في المستعمرات وقفت الحقيقة عارية، لكن مواطني البلد الأم فضلوا لباساً ثياباً<sup>(٩)</sup>. ويصوغ ديفيدسن القضية لنصرة الاستجابة الأفريقية الجديدة بثاقبته الفصيحة المعتادة:

التاريخ... ليس آلة حاسبة. فهو يتفتح في العقل والمخيلة، ويتجسد في الاستجابات المتعددة المتنوعة لثقافة شعبٍ ما هي بدورها توسطٌ لانهاية الرهافة واللطافة لوقائع مادية، ولحقائق اقتصادية، وركائزية، وبوضوحات تفصيلية عادية. لقد كانت الاستجابات الثقافية الأفريقية بعد ١٩٤٥ من التنوع بالقدر الذي قد يتوقع المرء من ذلك العدد الكبير من الشعوب والمصالح المتصورة. لكنها كانت تمتاح إليها فوق كل شيء من أملٍ ناصع في التغيير لا يكاد يكون قد وُجِدَ من قبل، ومن المؤكد أنه لم يخامر المشاعر <من قبل> بمثل ذلك التوتر والحدة أو سعة الاستهواء؛ ولقد نُقِ

\* - من الواضح هنا أن المؤلف لا يعني حكّام بريطانيا للهند فحسب، بل كلّ الحكام الاستعماريين. (الناشر)

باسم هذه الاستجابات وألصَحَ عنها رجالٌ ونساء كانت قلوبُهُم تخفق على إيقاعِ موسيقى شجاعة. تلك كانت الاستجابات التي نقلت التاريخَ الإفريقيَ الى مسار جديد<sup>(١٠)</sup>.

كان شعور الأوروبيين بتغيير منظوريِّ هائلٍ ومشئتٍ للتوجَّهات في العلاقة بين الغرب واللاغرب جديداً كلُّ الجدة، لم يُجرَّب من قبلُ لا في <عصر> النهضة الأوروبية ولا في <اكتشاف> الشرق بعد ذلك بقرون ثلاثة. تأملُ الفُرقُ بين استنقاذ بوليزيانو وتحريره للروائع العريقة اليونانية في الـ ١٤٦٠ات، او قرامة بوب وشليغل للنحويين السنسكريتيين في الـ ١٨١٠ات، و قرامةٍ منظرٍ سياسي او مستشرق فرنسي لفانون إبان الحرب الجزائرية عام ١٩٦١، اول <كتاب> سيزير إنشاء حول الاستعمار حين ظهر عام ١٩٥٥ مباشرة بعد الهزيمة الفرنسية في ديان بيان فو <في فيتنام>. إن مثل هذا الشخص السنيُّ الحظ لا يتعرض فقط للمخاطبة من قبل اصلايين فيما جيشُهُ منخرط في الحرب ضدهم، كما لم يتعرض احدٌ من اسلافه، بل إنه ليقرا أيضاً نصاً بلغة بوسويه وشاتوبريان، ويستخدم مفاهيم لهيغل وماركس وفرويد من أجل تجريم عين الحضارة التي انتجتهم جميعاً. ويمضي فانون الى ما هو أبعد من ذلك حين يعكس المُسنَّق الذي كان مقبولاً حتى ذلك الوقت والذي اعطت بموجبه أوروبا للمستعمرات حدثاتها، ويطرح منظومةً بديلة هي ان الحقيقة لا تقتصر على كون رفاه أوروبا وتقدمها... قد بُنيا بعرق الزوج، والعرب، والهنود، والأعراق الصفراء، وأجسادهم التي تساقطت جثثاً<sup>(١١)</sup>. بل إن أوروبا بمعنى حرفي هي من خلق العالم الثالث<sup>(١٢)</sup>، وهي تهمة سيردها مراراً وتكراراً والتر رودي، وتشينونيزو، وآخرون. وإننا لنجد سارتر، إذ نختم إعادة الترتيب المنافي للعقل هذا، يرجع صدى فانون (بدلاً من أن يكون الأمر معكوساً)، حين يقول ليس هناك شيء أكثر أطراداً من إنسانية عرقية، إذ إن الأوروبي لم يستطع أن يصبح رجلاً إلا عبر خلقه للعبيد والوحوش المرعبة<sup>(١٣)</sup>.

لم تؤدِّ الحربُ العالمية الاولى إلى تراخي قبضة الغرب على الاقاليم المستعمرة، لأن الغرب كان بحاجة إلى هذه الاقاليم لإمداد أوروبا باليد العاملة والموارد من أجل حرب لم تكن تعني الافارقة والآسيويين مباشرة<sup>(١٤)</sup>. بيد أن العمليات التي كان لها أن تقود ألى الاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية كانت قد بدأت فعلاً. إن مسألة تحديد زمن بروز المقاومة ضد الامبريالية في الاقاليم الخاضعة ذات أهمية حاسمة لكلا الطرفين في تشكيل كيفية معاينة الامبريالية. فبالنسبة للأحزاب القومية الناجحة التي قادت الصراع ضد القوى الأوروبية، تعتمد الشرعية والأولية الثقافية على تأكيد هذه الأحزاب لاستمرارية غير متقطعة ترجع الى المحاربين الأوائل الذين وقفوا ضد الرجل الأبيض <الغربي> المتطفل المقتحم. وهكذا تعقبتُ جبهة التحرير الوطني الجزائرية التي دشنت انتفاضتها المسلحة ضد فرنسا عام ١٩٥٤ نَسَبَها إلى الامير عبد القادر، الذي حارب الاحتلال الفرنسي إبان الـ ١٨٣٠ات والـ ١٨٤٠ات. وفي غينيا ومالي تُتقصى المقاومة ضد الفرنسيين عبر عدة اجيال الى جذورها لدى ساموري والحاج عمر<sup>(١٥)</sup>. غير أن كُتاب الامبراطورية لم يعترفوا إلا بين أن وآخر بسريرية هذه المقاومات؛ وكما رأينا في مناقشتنا لكينغ فقد تم تفضيلُ معقلنات تخفيفية عديدة لحضور الاصلايين (من مثل أن "هُم" كانوا في الحقيقة سعداء الى أن أثارهُم مسيؤ المتاعب) على السبب الأكثر بساطة للاستياء، وهو أن الاصلايين رغبوا في الخلاص من الحضور الأوروبي في اراضيهم.



وتستمر المناظرة حتى اليوم بين المؤرخين في أوروبا والولايات المتحدة. هل كان "انبیاء التمرد المبکرون" أولئك، كما یسمیهم مایکل عدس، أشخاصاً متخلفی النظرة، ماضویین، ورومانسیین، و غیر واقعیین عملوا بسلیبة ضد الاوروبیین "المُحدِّثین" (١٦) ام انّ علینا ان نأخذ مأخذ الجد تصریحات ورتّتهم الحدیثین - مثل یولیوس نیریری ونلسون ماندیلا - عن الدلالة المستمرة لجهودهم المبکرة، التي الت الى الإخفاق عادةً؟ لقد أظهر ترنس رینجر ان هذه الأمور لیست ببساطة أمور تکهُنّ جامعی، بل هي ذات أهمية سیاسیة ملحة. لقد صاغ العدیّد من حركات المقاومة، مثلاً "البینة" التي تطورت داخلها السیاسات اللاحقة... وترکت المقاومة أثراً عميقة على سیاسات البیض ووجهات نظرهم؛... وانبتقت خلال مسیرة المقاومات، أو بعضها، أنماطاً من التنظيم أو الإلهام السیاسی كانت بطرق هامة مستقبلیة التشوق؛ وكانت بصورة مباشرة في بعض الحالات و غیر مباشرة في بعضها مرتبطة بالتجلیات اللاحقة للمعارضة الافریقیة [للامبریالیة الاوروبیة] (١٧). ویرهن رینجر انّ المعركة الفکریة والأخلاقیة حول استمراریة وتناسق المقاومة القومیة للامبریالیة دامت عشرات السنوات وتحولت الى جزء عضوی من التجربة الامبریالیة. وإذا كنت كأفریقی أو عربی تختار ان تتذکر انتفاضتی ندیبل - شونا <في جنوبي افریقیا> وعرابی <في مصر> بین ١٨٩٦-١٨٩٧ و ١٨٨٢ على التوالي، فإنك تکرّم قیادات قومیة جعلت إختاناتها النجّاح اللاحق أمراً ممکناً؛ ومن المحتمل ان الاوروبیین سیؤولون هذه الانتفاضات بطريقة أكثر استخفافاً وانتقاصاً: أعمال شلّل وعصب، أو أعمال الفیین\* مجانین، وهلم جراً.

ثم، بصورة مذهلة، تحرّر العالمُ كله تقريباً من الاستعمار بعد الحرب العالمیة الثانیة. وتضم دراسة غریمال خریطة للامبراطوریة البریطانیة في أوجها: وهي دلیل مُقنّع على ضخامة ممتلكاتها في السابق وعلى كونها فقدت ذلك كله تقريباً خلال بضع سنوات بعد نهاية الحرب عام ١٩٤٥. ویحیی کتاب جون ستراتشي المعروف جيداً نهاییة الامبراطوریة (١٩٥٩) ذکری الفقدان اکمل إحياء. لقد وقعت على عاتق رجال دولة، وجنود، وتجار، وباحثین، وتربویین، ومبشّرین، ومکاتبین، وجواسیس، بریطانیین مسؤولیة حاسمة، من موقعهم في لندن، عن <حکم> أوسترالیا، ونيوزیلندا، وهونغ كونغ، وغینیا الجدیة، وسیلان، ومالایا، وشبه القارة الآسیویة بأسرها، ومعظم الشرق الأوسط، وجميع شرقي افریقیا من مصر إلى جنوب افریقیا، وقسم کبیر من افریقیا الغربیة الوسطی (بما فیها نیجیریا)، وغینانا، وبعض الجزر الکاریبیة، وأیرلندا، وكندا.

وقد ضمت امبراطوریة فرنسا، التي كانت أصغر بكثير من امبراطوریة بریطانیا، كتلة ضخمة من الجزر في المحيطین الهادی والهندي إضافة الى الکاریبی (مدغشقر، کالیدونیا الجدیة، تاهیتی، غوادلوپ، الخ)، وغینانا، والهند الصینیة بأسرها (آنان، کمبودیا، کوتشن الصین، لاوس، وتونکین)؛ وفي افریقیا، زاحمت فرنسا بریطانیا بجدیة على الأولیة والسیادة - فقد كان جلّ النصف الغربي من القارة من المتوسط إلى خط الاستواء بيد فرنسا، كما كانت الصومال الفرنسیة <بیدها أيضاً>. وإضافةً، كان ثمة سوريا ولبنان، اللذان تطاولا وتعدّیا، مثل العدیّد من مستعمرات فرنسا الافریقیة والآسیویة، على خطوط

\* - راجع شرح هذا المفهوم في الهامش الواقع ص ٢٨٦ من هذا الفصل.

<اتصال> بريطانيا وأقاليمها المستعمرة. وكثيراً ما تحدث اللورد كرومر - وهو أحد القناصل البريطانيين الامبرياليين الأكثر شهرةً ومهابةً (كما عبّر مرةً باستعلاء متعجرف <حين قال>: "نحن لا نحكم مصر، بل نحكم حكام مصر فقط"<sup>(١٨)</sup>)، وكان قد قضى فترة خدمة متميزة في الهند قبل أن يحكم مصر بمفرده تقريباً بين ١٨٨٣ و ١٩٠٧ - بانزعاجٍ عن التأثير الفرنسي "الطائش" في مستعمرات بريطانيا.

لقد ابتكرت الثقافات الحواضرية الغربية، من أجل هذه الأصقاع الهائلة (وتلك التي حكمتها بلجيكا، وهولندا، واسبانيا، والبرتغال، والمانيا) استثمارات واستخطايات ضخمة. وقلّ مَنْ فكّر في فرنسا وبريطانيا، فيما يبدو، بأن شيئاً قد يتغيّر. ولقد حاولت أن أظهر أنّ معظم التشكيلات الثقافية افترضت بدهاءً أنّ سيادة القوى الامبريالية باقيةً أبداً. ومع ذلك، فقد انبثقت نظرةً بديلةً إلى الامبريالية، واستمرت بالحاح، وكانت لها الغلبة أخيراً.

فمع حلول عام ١٩٥٠ كانت اندونيسيا قد نالت حريتها من هولندا. وعام ١٩٤٧ سلّمت بريطانيا الهند إلى حزب المؤتمر، وانفصلت باكستان عن هذه الأخيرة مباشرةً بقيادة حزب جناح\* الجامعة <الرابطة> الإسلامية. وأصبحت ماليزيا، وسيلان، ويورما مستقلة، كما استقلت دولٌ جنوب شرقي آسيا "الفرنسي". وانتهى الاحتلال البريطاني، والفرنسي، والبلجيكي عبر شرقي افريقيا، وغربها، وشمالها، بخسائر فادحة أحياناً (كما في الجزائر) في الحياة والممتلكات. وظهرت إلى الوجود تسعٌ وأربعون دولةً افريقية جديدة مع حلول ١٩٩٠. بيد أنّ أياً من هذه الصراعات لم يحدث في فراغ. فلقد قامت القوى العالمية، كما يشير غريمال - <مثل> الكنائس، والأمم المتحدة، والماركسية، والاتحاد السوفيتي، والولايات المتحدة - بدفع العلاقة المدوّلة بين المستعمر والمستعمر وتحريرها. وتمت كَوْنُ الصراع ضد الامبريالية، كما تشهد المؤتمرات التي عقدها دعاة الوحدة العربية، والوحدة الافريقية، والوحدة الآسيوية، وازداد الشرخُ احتداماً بين الثقافات والشعوب الغربية (البيضاء، الأوروبية، المتقدمة) وغير الأوروبية (الملونة، الأصلانية، المتنامية).

ولأنّ إعادة الرسم هذه لخريطة العالم كانت احتدامية جداً، فقد فَعَدْنَا (وربما كنا قد شَجَعْنَا على فقدان) الحس التاريخي الدقيق، دع عنك الحس الأخلاقي بأنّ الامبريالية وخصومها في مساجلات الصراع نفسها كانت تتحارب على الأرضية ذاتها، وتتنازع على التاريخ ذاته. ومن المؤكد أنّ الطرفين تقاطعا حين واجهَ الجزائريون أو الفيينتاميون ذوو التعليم الفرنسي، وأبناءً شرقي الهند وغربها، والعرب، والافارقة ذوو التعليم البريطاني أسيادهم الامبرياليين. لقد تأثرت المعارضة للإمبراطورية في لندن وباريس بالمقاومة التي حدثت في دلهي والجزائر. ورغم أنّ الصراع لم يكن صراع الندّ للند (يزعم تمثيلُ خاطئِ امبريالي سوائي أنّ الافكار الغربية عن الحرية هي التي قادت المعركة حصرأً ضد الحكم الاستعماري، وذلك يتجاهل بعث ومكر تلك المخزونات في الثقافتين الهندية والعربية التي قاومت الامبريالية دانا دون هواده، كما يدعي <ذلك التمثيل الخاطئ> أنّ النضال ضد الامبريالية هو أحد الانتصارات الكبرى للامبريالية)، فقد تمت بين الخصوم على الأرضية

\* - محمد علي جناح (١٨٧٦ - ١٩٤٤): سياسي مسلم هندي، ومؤسس دولة باكستان.

الثقافية نفسها مواجهاتٌ ساحرة. ولولا الشكوك والمعارضة الحواضرية، لكانت خصائصُ المقاومة الأصلانية للامبريالية، ومصطلحاتها ولغتها، وبنيتها ذاتها، مختلفةً. هنا أيضاً، تتقدم الثقافةُ على السياسة، أو التاريخ العسكري، أو العملية الاقتصادية.

ليس هذا التقاطعُ نقطةً صغيرة أو قابلةً للإهمال. فكما أنُ بمقدور الثقافة أن تخلق مثلاً مُسبقاً واستعداداً ناشطاً لدى مجتمع ما للسيطرة على مجتمع آخر ماوراء البحار، فقد تستطيع أيضاً أن تُعدّ ذلك المجتمع للتخلي عن فكرة السيطرة الماورابحارية أو لتحويلها. ولا يمكن لهذه التغييرات أن تحدث دون رغبة البشر رجالاً ونساءً في مقاومة ضغوط الحكم الاستعماري، وفي حمل السلاح، وإسقاط projection أفكار التحريض، وتخيّل مُجمَع قومي جديد (بلغة بندكت أندرسن)، والقيام بالعمل الأخير الحاسم. كما أنها لا يمكن أن تحدث إلا إذا بلغ الإرهاق الاقتصادي أو السياسي من الامبراطورية أوجه في الوطن <المستعمر>، وإلا إذا تم تحدي فكرة الامبراطورية وتكاليف الحكم الاستعماري تحدياً علنياً عمومياً، وإلا إذا بدأت تمثيلات الامبريالية تفقد تسويغها وشرعيتها، وإلا - أخيراً - إذا فرض "الأصلاينيون" المتمردون على الثقافة الحواضرية استقلال ثقافتهم الخاصة واكتماليتهما، متحررةً من التطاول العدواني الاستعماري. لكنّ علينا، وقد اشرنا إلى جميع هذه المتطلبات المسبقة، أن نعترف بأنّ المعارضة والمقاومة للامبريالية، على كلا طرقي الخريطة المعارِ رسمها، يتم الإنصاحُ عنهما معاً على أرضية مشتركة إلى حد غالب، مع أنها موضعُ للتنازع، توفرها الثقافة.

ما هي الأرضيات الثقافية التي عاش عليها كلا الأصلاني والتحرري <الليبرالي> الأوروبي وفهم أحدهما الآخر؟ كم كان بوسع كل منهما أن يمنح الآخر؟ كيف كان بوسعهما، ضمن دائرة السيطرة الامبريالية، أن يتعاملا أحدهما مع الآخر قبل أن يحدث التغيرُ الجذري؟ تأملْ أولاً <رواية> إي. إم. فورستر ممر إلى الهند، وهي رواية تعبّر بالتأكيد عن المودة التي يكنّها المؤلف (والتي تكون أحياناً مشاكسةً مغمورةً بمشاعر الحيرة والإبهام) للمكان. لقد شعرتُ دائماً بأن الأمر الأكثر إشاقةً في ممر إلى الهند هو استعمال فورستر الهند لتمثيل مادة لا يمكن في الحقيقة - تبعاً للمقومات الشرائعية المكونة للشكل الروائي - أن تُمثّل: الضخامة الهائلة، الملل والنحل العصية على الفهم، التحركات السرية، التواريخ، الأشكال الاجتماعية. من الجلي أن الرواية تريد لنا أن نفهم السيدة مور خاصة وفيلدنج أيضاً كأوروبيين يتجاوزان حدود المعيار التجسيمي الإحيائي <للتبيعة والآلهة>\* ببقائهما في ذلك العنصر الجديد المرعب (بالنسبة لهما) - وهو في حالة فيلدنج: اختبار تعقيد الهند وتشابكها لكن العودة بعدئذ إلى إنسانية مألوفة (بعد المحاكمة يعود إلى البيت عبر قناة السويس وإيطاليا إلى انكلترا، بعد أن تعرّض لإرهاصات شعورٍ مدمرٍ بما يمكن للهند أن تفعله بإحساس المرء بالزمان والمكان).

بيد أن فورستر مراقبٌ بالغُ التدقيق والاحتراس للواقع الذي يحتويه بحيث لا يمكن أن يترك الأمور عند هذه النقطة. تعود الرواية في قسمها الأخير إلى حسّ تقليدي باللياقة الاجتماعية، حيث يستورد المؤلف إلى الهند عمداً وبصورة إثباتية، الحلّ المنزليّ الروائي المعتاد (الزواج وملكية الأرض والعقارات): فيتزوج فيلدنج ابنة السيدة مور. ومع ذلك فإنه

\* - اعترف بانني لا افهم دلالة العبارة الانكليزية "anthropomorphic norm" في هذا السياق.

وعزيز - وهو قومي مسلم - يركبان معاً ويظلان متباعدين منفصلين: «لم يريدوا ذلك، قالوا بأصواتهم الألف، لا، ليس بعد»، وقالت السماء، لا، ليس هنا». ثمة حل <للتناقضات> واتحاد، لكنّ أياً منهما ليس كاملاً<sup>(١٩)</sup>.

إذا لم تكن الهندُ المعاصرة المكانَ ولم تكن الزمانُ (وتوجيهات فورستر حذرة) <الملائمين> للهوية، والتلاقي، والاندغام، فالإلم هي اذن؟ تومئ الرواية الى أنّ الاصول السياسية لهذه المسألة تكمن في الحضور البريطاني، لكنها تتيح للمرء مع ذلك أن يجرب جوانبَ مختلفةً من هذا الطريق المسدود بشعور بان النزاع السياسي سوف ينحلّ ببساطة في المستقبل. تعترف <الرواية> بمقاومات غوُديبول وعزيز المتعارضة تماماً للإمبريالية - عزيز القومي المسلم، وغوديبول الهندوسي الذي يكاد يكون فوقواقعي <سوريالياً> - كما تعترف بمعارضة فيلدنغ الطُبعية، رغم أنه يعجز عن صياغة اعتراضاته على مظالم الحكم البريطاني في مصطلحات سياسية او فلسفية، ويكتفي بتقديم اعتراضات محلية على إساءات محلية. تطرح بينيتا پاربي منظومةً شبيقة في مخادعات واكتشافات هي أن حلّ فورستر الرواية إيجابياً، إنّما يتمفصل على <تلميحات متناهية متلاشية> يقدمها فورستر على الرغم من <النص الكلي><sup>(٢٠)</sup>: والادق أن يقال إنه انتوى أن يظل الشرخ بين الهند وبريطانيا قائماً، لكنه سمح بحركات عبور متقطعة بينهما ذهاباً وإياباً. لكنّ إياً كان الأمر، فإنّ لنا الحق في أن نربط مشاعرَ العداء الهنديّة ضد الحكم البريطاني التي تنجلي أثناء محاكمة عزيز بظهور مقاومةٍ هندية واضحة للعيان، <وهي مقاومة> يتحسس فيلدنغ مع مرور الوقت وجودها في عزيز الذي كان اليابانُ أحدَ النماذج القومية في نظره. أما أعضاء النادي البريطاني الذين يُرغم صدهم وتعاليمهم فيلدنغ على الاستقالة فقد كانوا عصبيين بل كرهين تماماً، واعتبروا انتهاك عزيز <خطيراً> إلى درجة أنّ آية علامة من <الضعف> كانت تشكل هجوماً على الحكم البريطاني نفسه. وتلك أيضاً إشارات الى جو لا أمل فيه.

إن مهر الى الهند، بفضل تبنيها التحرريّ الإنساني لوجهات نظر فيلدنغ ومواقفه، هي في موقع ارتباكٍ وحيرة. <ويعود ذلك> جزئياً إلى أن التزام فورستر بالشكل الروائي يعرضه لمصاعب في الهند يعجز عن معالجتها. فهندُ فورستر، مثل أفريقيا كونراد، هي مكان يوصف بتواتر بأنه عصي على الإدراك ومفرط الضخامة. وذات مرة، يكون روني وعادله معاً في لحظة مبكرة من الرواية، يراقبان طائراً يختفي في شجرة، لكنهما يعجزان عن تمييز نوعه لأنه - كما يضيف فورستر لمنفعتهما ومنفعتنا نحن - <ما من شيء في الهند قابل للتحديد، فمجرد طرح سؤال سيدفعه إلى الاختفاء أو الاندغام في شيء آخر><sup>(٢١)</sup>. ولذلك فإنّ نقطة ارتكاز الرواية هي المواجهة المدعّمة بين المستعمرين الإنكليز - <وهم> أجساد جيدة التطور، وعقول حسنة التطور، وقلوبٌ لامتطورة - والهند.

تلاحظ عادله، وهي تقترب من كهوف مرابار، أنّ <صوت> القطار <نومبر، نومبر>، الذي يصاحب تأملاتها، يحمل رسالة لا تستطيع أن تدرك فحواها.

كيف يستطيع العقل أن يقبض على بلاد كهذه؟ لقد حاولت أجيالاً من الغزاة أن تفعل ذلك، لكنهم يبقون في المنفى. والمدن المهمة التي يبنيونها تظل مجرد منتجات ينسحبون إليها، وتظلّ خصوماً تُهمُّ اعتلال رجال لا يستطيعون أن يجدوا طريق <العودة الى> بيوتهم. والهند تعرف متاعبهم. تعرف متاعب العالم كله إلى أعماق أعماقها. تنادي <تعالوا> عبر أفواهها المائتة، عبر أشياء سخيفة وجليلة. لكنّ تعالوا إلى ماذا؟ ذلك ما لم تحدّه أبداً، إنها ليست وعداً، بل مجرد استهواء<sup>(٢٢)</sup>.

لكن فورستر يكشف كيف تحاول "الأجهزة الوظيفية الرسمية" البريطانية أن تفرض معنى على الهند. ثمة أنظمة أسبقية، ونوادٍ ذات قوانين، ومقيّدات، وتراتيبات عسكرية، وثمة - منتصبّة فوقها جميعاً ومفعمة إياها جميعاً - القوة البريطانية. الهند "ليست حفلة شاي"، يقول روني هيسلوي. لم أعرف شيئاً ينتج سوى الكوارث حين يحاول الإنكليز والهنود أن يتعاملوا اجتماعياً بحميمية. التفاعل، نعم. المجاملات، نعم، دونما ريب. <لكن> الحميمية - ابدأ، ابدأ<sup>(٢٣)</sup>. لا غرابة إذن في أن الدكتور عزيز يفاجأ مفاجأة عظيمة حين تخلع السيدة مور حذاءيها لدخول مسجد، وهي حركة توحى بالمرعاة وتؤسّس الصداقة بطريقة يحرّمها النظام الترميزي المقنّن.

ثم إن فيلدنج مغاير للنمط الصافي: <فهو> ذكي بحق، وحساس، وأسعد ما يكون حين يشارك في الأخذ والعطاء في محادثة خاصة. ومع ذلك، فإنّ مقدرته على التفهم والتعاطف تُخفّق في وجه اللامفهومية الهائلة للهند؛ كان بوسعها أن يكون بطلاً كاملاً في أعمال فورستر الاختلاقية المبكرة، أما هنا فإنه مهزوم. لكن فيلدنج يستطيع على الأقل أن يكون "على صلة" ما بشخصية كالدكتور عزيز، <وذلك> نصف حيلة فورستر للتعامل مع الهند في رواية بريطانية بتقسيمها الى قسمين: واحد إسلامي، والآخر هندوسي. وكانت هاربيت مارتينو قد لاحظت عام ١٨٥٧ أن "العقل الذي لم يتمّ إعداده، سواء أكان هندوسياً أم مسلمانياً<sup>\*\*\*</sup>، والذي تطوّر في ظلّ شروط آسيوية، لا يمكن أن يكون في تعاطف، نوعاً ما، فكراً أو أخلاقياً، مع العقل الأوروبي المُستَبح"<sup>(٢٤)</sup>. ويؤكد فورستر على المسلمين، الذين يبدو الهندوسيون (بمن فيهم غودبول) بالمقارنة معهم هامشين، كما لو كانوا غير قابلين للمعالجة الروائية. فقد كان الإسلام أقرب إلى الثقافة الغربية، محتلاً مكانةً وسطية بالنسبة للإنكليز والهندوس في شاندرابور فورستر. إن فورستر في ممر إلى الهند أقرب بقليل إلى الإسلام منه إلى الهندوسية، غير أن غياب التعاطف النهائي <مع الديانتين> كلتيهما واضح تماماً.

يؤمن الهندوس، تبعاً للرواية، بأنّ الأشياء كلها في حالة اختلاط، وأنها كلها في حالة اتصال، وأنّ الرب واحد، ليس كائناً، ولم يكن، وقد كان. وأما الإسلام فإنه، على العكس، وكما يمثله عزيز، يدرك النظام ورباً معيناً. ("عقل المحمدي البسيط بالمقارنة"<sup>(٢٥)</sup>)، يقول فورستر بصورة التباسية، كأنما من أجل أن يُضمّن كلامه كلا الأمرين: أنّ عزيز ذو عقل بسيط نسبياً، وأنّ "المحمدي"، بشكل عام، ذو عقل بسيط كذلك). وعزيز، في نظر فيلدنج، شبه إيطالي، رغم أن نظريته المغالية للماضي المغولي، وعاطفته المشبوية بإزاء الشعر، وحياءه الغريب حيال صور زوجته التي يحملها معه إلى كل مكان، تشي جميعاً بكائن غرائبي مغاير لنمط <أهل> البحر المتوسط. ورغم طبايع فيلدنج البلومسبرية<sup>\*\*\*\*</sup> الرائعة، ومقدرته على محاكاة <الناس> بروح أريحية وبمحبّة، وذكائه المشبوب المتوقد بالعاطفة

\* - إزاء officialism كما ارتأى المترجم، علماً أن الكلمة تعني أيضاً: سلوك الموظفين - ولاسيما في أجهزة الدولة - الذي يفتقر إلى المرونة والمبادرة وينطبع بطابع التقيد بالأنظمة والقوانين. (الناشر)

\*\* - لقد استخدمت هذه الصيغة بدلاً من "مسلم" متعمداً لترجمة الأصل "Mussulman"، لما في التشويه الحاصل في الصيغة من دلالات كامنة.

\*\*\* - أمل أن يكون واضحاً أنني اشتقت هذه الصيغة من فعل مؤنث هو "مستبح" أي حوّل إلى مسيحي.

\*\*\*\* - نسبة إلى بلومسبري، وهي تقع في لندن شمالي التايمز.

والقائم على معايير إنسانية، فإنه يُرْفَضُ في نهاية المطاف من قبل الهند نفسها، التي لا يَنْفَذُ الى قلبها المحيّرُ المشْتَتِّ لِحَسِّ التوجه سوى السيدة مور، التي تقتلها في النهاية رؤياها. ويتحول الدكتور عزيز إلى قومي، لكنني أعتقد أن فورستر يشعر بالخيبة بإزانه لما يبدو أنه مجرد توضعَات متظاهرة يتخذها <عزيز>؛ ففورستر لا يستطيع ربطه بالحركة المتناسقة، الأكثر شمولاً، الداعية لاستقلال الهند. ويرى فرانسيس هُتْشِينز أن "الحركة القومية <الهندية>"، في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، لم تلق إلى حد يثير الدهشة، إِيَّةَ استجابةٍ من الخيال البريطاني في الهند<sup>(٢٧)</sup>.

حين سافر بياتريس وسدني وبُ عبر الهند عام ١٩١٢، لاحظا المصاعب التي كان يواجهها أربابُ العمل البريطانيون مع العمال الهنود الذين يعملون في خدمة الراج، إما لأنَّ الكسل كان شكلاً من أشكال المقاومة (واسع الانتشار في امكنة أخرى في آسيا، كما أظهر العطاس)<sup>(٢٧)</sup>، وإما بسبب ما سُمِّيَ بِـ "نظرية الاستنزاف" لدى داداهي ناؤوجي، الذي طرح منظومةً نالت رضى الأحزاب القومية ومؤدائها أن ثروات الهند كانت تُستنزَف من قبل البريطانيين. ويلوم الزوجان وبُ "قائمي الهند الأوروبيين أولئك، الذين مضى عليهم زمن طويل فيها و[الذين] لم يكتسبوا فنَّ إدارة الهنود". ثم يضيفان:

إنه لجلي بالقدر نفسه أن الهندي أحياناً عاملٌ يصعب صعوبةً خارقةً إجبارُهُ على أن يَغْرِقَ. فهو لا يبالي الى درجة كافية بدخله. ويفضّلُ أن يذوي في حالة تقترب من المجاعة على أن يُجهد نفسه. وإيّا كان انحطاط مستوى حياته، فإنَّ مستوى عمله أكثر انحطاطاً، <أو هو كذلك> على أية حال حين يعمل لربِّ عملٍ لا يحبه. وإنَّ عدم انتظامه للمفرد محيّرٌ<sup>(٢٨)</sup>.

لا يكاد هذا يوحى بنزاع بين امتين متحاربتين؛ وبشكل مماثل، فإنَّ فورستر في مصر إلى الهند يجد الهند صعبة لأنها على قدر بالغ من الغرابة والاستعصاء على التحديد، أو لأن اشخاصاً مثل عزيز يسمحون لأنفسهم بأن يسقطوا ضحيةً إغواء مشاعر قومية صيبانية، أو لأن المرء اذا حاول أن يبلغ حالة من التلاؤم معها <أي الهند>، كما تفعل السيدة مور، فإنه لن يكون في وسعه الشفاء من تلك المواجهة.

إن السيدة مور في نظر الغربيين مَصْدَرُ ضيق وإزعاج، وهو ما تصبح عليه في نظر نفسها أيضاً بعد رحلتها في الكهوف. أما بالنسبة للهنود الذين استثيروا مؤقتاً إلى شيء من التناسق القومي أثناء مشهد المحاكمة، فإنَّ السيدة مور ليست شخصاً بقدر ما هي عبارة تحشد القوى، مبدأ مضحكٌ مُهْدَنٌ <مُهْدَنٌ> للاحتجاج والروح المنجمية: "إِسْمِسْ إسْمور". إنها تعيش تجربة مع الهند تعجز عن فهمها، فيما يفهم فيلدنغ فهماً سطحياً لكنه يفترق الى التجربة العميقة. ولا يبلغ عجزُ الرواية نهاية الشوط فتشجب الاستعمار البريطاني (أو تدافع عنه)، كما أنها لا تشجب القومية الهندية أو تدافع عنها. صحيح أن مفارقات فورستر اللاذعة تحجّم الجميع: من آل تيرتن وبيترن البليمپيين، الى الهنود المتوضّعين المتظاهرين الملهاووين، لكن المرء لا يستطيع أن يقاوم الشعور، نظراً للوقائع السياسية في الـ ١٩١٠ات والـ ١٩٢٠ات، بأن رواية لافتة مثل مصر الى الهند تدعاه مع ذلك في وجه حقائق القومية الهندية التي لا يمكن تحاشيها. إنَّ فورستر يماهي بين مسار السردية وبريطاني، هو فيلدنغ، الذي لا يستطيع أن يفهم سوى أن الهند مفرطة الضخامة

٥ - نسبة إلى الكولونيل بليمب، وهو شخصية من شخصيات الصور المتحركة، يميّز بنتنجه ورائته المحافظة وحماقته.

وملغزة محيرة، وأن مسلماً مثل عزيز يمكن أن يصادقَ إلى درجة معينة فقط، لأنَّ عداوته للاستعمار غبية إلى حد غير مقبول. أما الحس بان بريطانيا والهند أمتان متعارضتان (مع أن مواقعهما تتقاطع) فإنَّ أهميته تُقلُّ، ويُكتم، ويُبَدُّ.

تلك امتيازات تتمتع بها روايةٌ تعالج تواريخ شخصية، لا رسمية أو قومية. وأما كبلنغ، فإنه على العكس قد اعترف مباشرةً بالواقع السياسي بوصفه أكثر من مصدر للمفارقة اللاذعة الروائية، مهما كان تاريخ بريطانيا في الهند مهدداً، أو مأساوياً، أو عنيفاً بالنسبة إليه. إن الهنود قوم مختلفون متعددون، ينبغي أن يُعرفوا ويُفهموا، وعلى القوة البريطانية أن تحسب حساب الهنود في الهند: تلك هي إحدائيات كبلنغ، من وجهة نظر سياسية. وأما فورستر فهو مراوغ وأكثر امتلاكاً لروح الرعاية المتعالية؛ وثمة قدر من الحقيقة في تعليق <بنيتا> باري أن <همر الى الهند هي التعبير الانتصاري للخيال البريطاني في اكتناها للهند><sup>(٢٩)</sup>، لكنَّ من الصحيح أيضاً أن هند فورستر هي من الشخصية المحيَّة والماورائية التي لا ندامة فيها بحيث أن نظرتة الى الهنود كأمة تناضل من أجل السيادة ضد بريطانيا نظرة غير جادة جداً، بل ولا جديرة بالاحترام، سياسياً. تأمل ما يلي:

اتَّصل حميد الله في طريقه الى اجتماع لجنة مقلقة من الاعيان، ذات ميل قومية، يحاول فيها <اشخاص من> الهندوس، والمسلمين، واثنان من السيخ، واثنان من البارسيين <الفرس>، وشخص ياني، ومسيحي اصلاني ان يحبوا بعضهم بعضاً أكثر مما يوجد به طبع كل واحد منهم. كان كل شيء على ما يرام مادام ثمة احدٌ يتحدث بسوء عن الإنكليز، لكن لم يكن ثمة شيء ببناء قد أنجز، ولو ان الإنكليز غادروا الهند فإن اللجنة تنفسها كانت ستختفي أيضاً. كان مسروراً لأن عزيز، الذي احبه <حميدُ الله> وكانت عائلته ترتبط بعائلته باواصر قري، لم يكن يهتم بالسياسة، التي تتمرُّ الشخصية والمهنة، لكن شيئاً لا يمكن ان يتحقق دونها. وفكر بكيمبردج - باسي، كما بقصيدة اخرى كانت قد انتهت. هناك، ما كان اسعده، قبل عشرين عاماً؛ لم يكن للسياسة من أهمية في منزل السيد بانايستر وزوجته. ثمة تشابك العمل، والاعابُ <السلية>، والمجتمع اللطيف، ويبدت كافية كبنية تحتية لحياة وطنية. اما هنا فكل شيء شدُّ اسلاك وخوف<sup>(٣٠)</sup>.

يسجّل هذا <الكلام> تغييراً في المناخ السياسي: ما كان ذات يوم ممكناً في بيت بانايستر أو في كيمبردج لم يعد ملائماً في عصر القومية الجامحة. غير أن فورستر يرى الهنود بعينين امبريالييتين حين يقول إنَّ من <الطبيعي> للبلل ان تكره بعضها بعضاً، أو حين يتفقه قوة اللجان القومية على البقاء بعد انتهاء الحضور الإنكليزي، أو حين لا تكون القومية - مهما كانت مملة ومتواضعة الشأن - سوى <شدُّ أسلاك وخوف>. إنه يفترض مسبقاً أنه قادر بنسبه على تجاوز المظاهر القومية الصببانية <والنفاذ> إلى الهند الجهورية؛ وحين يؤول الأمر إلى <مسألة> حكم الهند - وذلك هو ما يتشبط حميدُ الله والآخرين من أجله - فالأجدر بالإنكليز ان يستمروا في القيام به، رغم أخطائهم: ف <همُ> <الهنود> ليسوا مؤهلين بَعْدُ لحكم أنفسهم.

تعود هذه النظرة إلى <جون ستوروت> مل، طبعاً، وتُشبه إلى درجة مفاجئة موقف <بلور - ليتن>، الذي قال ما يلي، حين كان يشغل منصب نائب الملك عامي ١٨٧٨ و١٨٧٩:

لقد حدث حتى الآن قدرٌ عظيم من الأذى بسبب الميل المستهجن لدى موظفين هنود من الدرجة الثانية، ومحسنين خيئين إنكليز سطحيين، الى تجاهل التمايزات الجهورية وغير القابلة للتجاوز في الخصائص العرقية، والتي هي أساسية بالنسبة لموقعنا في الهند؛ والميل هكذا، ومن غير قصد، الى تليل غرور الاصلانيين انصاف المتعلمين وخيلائهم، الأمر الذي يؤدي الى إيذاء الإحساس <الطري> العام، والاعتراف الصحي بالوقائع والحقائق<sup>(٣١)</sup>.

وفي مناسبة أخرى قال إنَّ "بابوْدُم" البنغال الأسفل، رغم أنه غير موال هو لحسن الحظَّ جان، ومسدُّهُ الوحيد هو دواة حبره، وهي غير خطيرة، مع أنها قدرة<sup>(٣٣)</sup>. ويلاحظ أنيل سيل في بزوغ القومية الهندية، حيث اقتُبست هذه المقاطع، أن بلور- ليتن أخفق في إدراك التيار الرئيسي في السياسة الهندية، وهو تيارُ تحسُّسُهُ وأدركه قائدُ شرطة المقاطعة النبيه الذي كتب يقول:

قبل عشرين عاماً... كان علينا أن نحسب حساب جنسيات محلية وإعراق معينة. لم يكن كره المرثاوي\*\* يعني كرة البنغالي... وأما الآن... فقد غيّرنا ذلك كله، وبداننا نجد أنفسنا وجهاً لوجه لا مع سكان أقاليم منفردة، بل مع ٢٠٠ مليون إنسان متّحدين بالتعاطف والتفاعل اللذين خلقناهما وغذيتهما نحن بانفستنا<sup>(٣٤)</sup>.

لقد كان فورستر روائياً بالطبع، لا موظفاً سياسياً أو منظرراً أو نبياً. بيد أنه وجد طريقة لاستخدام آليات الرواية لإحكام بنية وجهات النظر والشعور التي كانت قائمة فعلاً دون أن يحدث فيها تغييراً. ولقد سمحت هذه البنية للمرء بالشعور بالموءة، بل بالحميمية، تجاه بعض الهنود وتجاه الهند عامة، لكنها جعلت المرء يرى السياسيات الهندية بوصفها مسؤولية البريطانيين، ورفضت ثقافياً إعطاء موقع امتياز للقوقية الهندية (وهو، بالمناسبة، موقع مَحْتَه برغبة لليونانيين والايطاليين). يقول أنيل سيل من جديد:

في مصر، كما في الهند، اعتُبرت النشاطات التي لا تلائم البريطانيين دساتنَ تحركها مصالح ذاتية لا قوميات أصيلة. فقد عاينت حكومة غلادستون ثورةً عرابي في مصر بوصفها حفنةً من ضباط طامحين صاعدين، يدعمهم بعض المثقفين المصريين الذين ولعوا بقراءة أعمال لامارتين - ولقد كان ذلك استنتاجاً مريحاً لأنه سوغ للغلادستونيين التتكر لمجانهم نفسها. فبعد كل حساب، لم يكن ثمة من غاربيالدي في القاهرة. كذلك لم يكن <ثمة من غاربيالدي> في كلكتا أو بومبي<sup>(٣٤)</sup>.

إنَّ كيفية تمثيل قومية مقاومة من قبيل كاتب بريطاني ينظر إليها بتعاطف، لهي مشكلة لم يضطلع فورستر اضطلاعاً صريحاً بها في عمله الشخصي. لكنها مدروسة بفعالية مؤثرة جداً من قبل المناهض للسياسة البريطانية في الهند الذي قاد حملة صليبية ضدها، <وهو> ادوارد ثومپسن، في كتابه الوجه الآخر للوسام الذي صدر عام ١٩٦٦، بعد صدور مهر الى الهند بسنتين. موضوع ثومبسن هو التمثيل الخاطى. وهو يقول إنَّ الهنود يعاينون الإنكليز كليه من خلال تجربة الوحشية البريطانية إبان "عصيان" ١٨٥٧. وأما الانكليز - ودينية الراج المتنقجة، ذات الدم البارد، في أوج سونها - فهم يعاينون الهنود بوصفهم برابرة، غير متحضرين، ولاإنسانيين، وكذلك يعاينون تاريخهم. ويلاحظ ثومبسن اختلال التوازن بين التمثيلين الخاطئين، الكامن في أن أحدهما يملك كل قوة التقنوية والانتشار الحديثة لتدعيمه - من الجيش إلى تاريخ أوكسفود للهند - بينما يعتمد الآخر على النشرات <السياسية التعبوية> وعلى المشاعر الراضة المستنيرة للقوى التي يملكها شعبٌ مضطهد. ومع ذلك، يقول ثومبسن، ينبغي أن نعترف بحقيقة أن كون\*\*\*

\* - والكلمة مؤلفة من "بابو" و "تُم". أما الأولى فهندية وتعني "الأب" أو السيد (مقابل Mr. الانكليزية). أو الكاتب الإداري، أو الهندي الذي يلم بالإنكليزية. وأما "تُم" فهي لاحقة بمعنى مملكة أو مجال. فيكون معنى Baboodom، على الأرجح، مملكة الهنود الكتبة أو مجالهم. وقد تمت شخصنة المكان في الجمل التالية التي تتعتت بناً على نعتها لساكنيه أنفسهم - بالجين وغير ذلك. والله اعلم (الناشر).

\*\* - وهو الهندي الذي يعيش في وسط الهند وغربها. (الناشر)

\*\*\* - ثمة خلل في تركيب العبارة الانكليزية هنا ناتج من طريقة ربط عبارة المؤلف بالاختباس المدرج. وقد أصلحتُ الخلل بما في وسعي، والله اعلم.



الكروه الهندي موجوداً - «وهو» كروه وحشي، راسخ - امر مؤكد؛ وكلما اسرعنا في الاعتراف بذلك، وبحثنا عن اسبابه، كان الامر افضل. إن التبريم من حكمتنا يتنامى ويصبح كونياً، ولا بد ان يكون ثمة اولاً، ذكريات شعبية واسعة الانتشار تفسر قدرة هذا التذمر على الانتشار؛ «ولا بد ان يكون ثمة» ثانياً، كره متوقد، في سويدانه، «يفسر» قدرته» على اكتساب قوة اندفاعه السريع<sup>(٣٥)</sup>.

ومن هنا، يقول ثومپسن، ينبغي ان نطالب بتوجه جديد في «كتابة؟» تواريخ الهند، ينبغي ان نعبر عن «تكفيرنا» عما فعلناه، وفوق كل شيء، ينبغي ان نعترف بأن رجال الهند ونساءها «يبتغون استعادة احترام النفس. لنجعلهم أحراراً من جديد، ولنمكثهم من ان ينظروا الينا والى كل البشر برؤوس مرفوعة، وسيتصرفون «اذاك» كبشر أحرار وينقطعون عن الكذب»<sup>(٣٦)</sup>.

إن كتاب ثومپسن القوي والمثير للإعجاب لتعبير اعراضه كاشف بطريقتين. فهو يعترف بالاهمية الكبيرة للثقافة في تعزيز المشاعر الامبريالية: فكتابة التاريخ، كما يكرر مراراً، مرتبطة بامتداد الامبراطورية. ومحاولته هي إحدى أكثر المحاولات الحواضرية تبكيراً وإقناعاً لفهم الامبريالية بوصفها مُصاباً ثقافياً بالنسبة للمستعمر كما هي بالنسبة للمستعمر. بيد أنه مقيّد بمفهوم أن ثمة «حقيقة» واحدة للأحداث تورط كلا الطرفين وتتجاوزهما معاً. الهنود «يكذبون» لانهم ليسوا أحراراً، أما هو (وأشخاص ضديون آخرون من أمثاله) فانهم قادرون على رؤية الحقيقة لانهم أحرار حناً ولانهم انكليز. «هكذا» لم يكن ثومپسن باكثر مما كان فورستر قادراً على إدراك ان الامبراطورية - كما احتج فانون - لا تمنح شيئاً أبداً بدافع من الطيبة والمودة<sup>(٣٧)</sup>. إنها لا تستطيع ان تمنح الهنود حريتهم، بل ينبغي ان تُرغم على إطلاقها حصيلة لصراع مديد سياسي، وثقافي، وأحياناً عسكري يصبح أشد عتاةً وخصوميةً لا أقلهما مع مرور الزمن. والبريطانيون بصورة مماثلة، بتمسكهم بالامبراطورية، هم جزء من هذا المحرك الحيوي ذاته؛ فوجهات نظرهم لا يمكن الدفاع عنها إلا ريشماً تهزماً.

كان على المرء ان ينخرط انخراطاً واضحاً في المعركة بين الاصلاني والرجل الابيض، كما كانت الحال مع حلول ١٩٢٦، كمي يرى ثومپسن نفسه منتمياً إلى «الطرف الآخر». والآن ثمة طرفان، أمّتان، في معترك، لا مجرد صوت السيد الابيض يُستجاب له بصوت مضاد النغمة - كردة فعل - من قبل الطارئ المتسلق المستعمر. ويسمي فانون ذلك في مقطع مسرحي «آخريات الانقطاع، والنزاع، والمعركة»<sup>(٣٨)</sup>. ويقبل ثومپسن هذا أكثر مما يقبله فورستر، الذي كان ميراث الرواية «المنحدر» من القرن التاسع عشر والمتمثل في رؤية الاصلانيين خاضعين وتابعين مايزال بالغ القوة بالنسبة إليه.

في فرنسا، لم يكن ثمة من يفعل فعلَ كبلنغ، فيحذر من كسوف الامبراطورية الكوارثي القادم حتى فيما هو يحتفي بها، كما لم يكن ثمة من يشبه فورستر. لقد كانت فرنسا ثقافياً متعلقة بما يسميه راوول جيرارديه حركة مزدوجة من الاعتزاز والقلق - الاعتزاز بما تم إنجازه في المستعمرات، والخوف على مصير المستعمرات<sup>(٣٩)</sup>. لكن كما كانت الحال في انكلترا أيضاً، فإن الاستجابة الفرنسية للقومية الآسيوية والافريقية لم تكذب تبلغ حد رفح حاجب عين إلا حين أيد الحزب الشيوعي، تمثلياً مع الاممية الثالثة، الثورة ضد الاستعمار والمقاومة ضد الامبراطورية. يقول جيرارديه معلّقاً إن عمليّن هامين لـ جيد

تالين لـ اللاأخلاقي - هما رحلة إلى الكونغو (١٩٢٧) وعودة من تشاد (١٩٢٨) -  
يثيران شكوكاً حول الاستعمار الفرنسي في أفريقيا الواقعة جنوبي الصحراء الكبرى،  
لكنه يضيف بحنكة وتمرس أن جيداً لا يُخضع للمسألة في أيّ مكانٍ مبدأ الاستعمار في  
ذاته (٤٠).

إنّ النسق، للأسف، لهُوَ واحدٌ على الدوام: يهاجم ناقدون للاستعمار مثلاً جيداً  
وتوكفيل إساءات في أمكنة ومن قبيل قوى لا تستهم عظيم مساس، ثم يتفاضون عن  
إساءات استخدام القوة في اقاليم فرنسية <مستعمرة> يهتمون شخصياً بها، أو يصمتون  
تماماً حين يُخفّفون في صياغة قضية عامة ضد القمع بكل أشكاله وضد الهيمنة الامبريالية.

إبان الـ ١٩٣٠ات، ناقش أدبٌ عرقيّ جادٌ بحبة وبعناية مضمناً المجتمعات  
الأصلانية في الفضاء الامبريالي الفرنسي. وتدرت أعمالٌ لموريس دولافوس، وشارل  
اندرية جوليان، ولابوريه، ومارسيل غريول، وميشيل ليريس قدراً كبيراً ودقيقاً من التفكير  
لثقافات نائية، وغالباً ما كانت مبهمّة غامضة، واضفت عليها تقديراً كان مُنكرّاً عليها  
محجوباً عنها ضمن قيود الامبريالية السياسية (٤١).

ويوجد شيء من ذلك المزيج الخاص من الاهتمام المتفكّه والإغلاق الامبريالي في  
<رواية> مالرو المسار الملكي (١٩٣٠)، وهي أحد أقل أعماله شهرةً وتعرضاً للنقاش.  
كان مالرو نفسه مغامراً وهاوياً لعلم الأعراق الوصفي وعلم الآثار؛ وفي خلفية <تكوينه>  
يكن ليوفروبينيس، وكورنراد في قلب الظلام، وتي. إي. لورنس، ورامبو، ونيتشه، وأنا  
مقتنع تماماً بأنّ شخصية جيداً الروائية مينالك تكمن في خلفيته أيضاً. تُمسّح المسار  
الملكي رحلةً إلى "الداخل"، الذي هو في هذه الحالة الهند الصينية الفرنسية (وهذه حقيقة  
لا يكاد يلحظها نقاد مالرو الرئيسيون، الذين تشكل أوروبا بالنسبة لهم، كما في حالة كامو  
ونقاد كامو نفسه، الإطار المشهدي الوحيد الجدير بالحديث عنه). يتنافس بيركن وكلود  
(الراوي)، من جهة، والسلطات الفرنسية، من جهة أخرى، على السيطرة والنهب: فيبركن  
يريد الحصول على المنحوتات الكمبودية الضئيلة النُفور، والمكاتبون ينظرون إلى طلبه  
بارتياب ومقت. وحين يعثر المغامرون على غرابو، وهو شخصية شبيهة بكورتز، كان قد  
وقع في الأسر، وسُملت عيناه، وعُذّب، ويحاولون أن يسترجعوه من الأصلانيين الذين  
يقبضون عليه، بيد أن روحه كانت قد انكسرت. وبعد أن يُجرَح بيركن وتبدو رجُلُه المصابةً  
مدمّرةً له، ينطق الأناشي الجامحُ (مثل كورتز في عذاباته الأخيرة) برسالته المتحدية لكلود  
المفجوع (مثل مالرو):

"ليس ثمة... ميت... ثمة ... أنا... فقط

...إصبح متشنجة على النخذ

...أنا الذي سيمرت." (٤٢)

يتم تمثيل الدُغل والقبايل في الهند الصينية في المسار الملكي بمزيج من الخوف  
والإغواء المستميل. يقع غرابو في أسر قبيلة الموا؛ وكان بيركن قد حكم شعب الستينغ  
فترةً طويلة ويحاول، محاولة عالم الإنسان المتقاني، دون جدوى، أن يحميهم من التحديث  
الذي يتناول بعدوانية عليهم (في هيئة خط حديدي استعماري). لكن، رغم التهديد والقلق  
<الذين يولدُهُما> الإطار المشهدي الامبريالي للرواية، فليس ثمة ما يوحي بوجود تهديد

سياسي، أو بأنّ المصير المشؤوم الكوني الذي يكتنف كلود وبيركن وغرابو هو شيء أكثر محسوسية تاريخياً من ضغينة معمرة ينبغي على المرء أن يشدد عزمته في وجهها. بلى، إنّ المرء لَقَادِرٌ على التفاوض على أمور صغيرة في عالم الأصلانيين الأجنبي (وبيركن يفعل ذلك مع المواء، مثلاً)، لكنّ كراهيته الشاملة لكمبوديا تشي، بطريقة انفعالية احتدامية إلى حدّ ما، بالشرخ الماوراني الذي يفصل الشرق عن الغرب.

إنني أعلّق أهميةً بالغة على المسار الملكي لأنها، من حيث هي عملٌ لوهبة أوروبية فائقة، تشهد شهادة قاطعة على عجز الوجدان الإنساني الغربي على مواجهة التحدي السياسي للمجالات الامبريالية. فبالنسبة لكللا فورستر في الـ ١٩٢٠ات ومالرو في الـ ١٩٣٠ات، وهما رجلان على الفة أصيلة بالعالم غير الأوروبي، يواجه الغرب مصيرٌ أجل من مجرد تقرير المصير القومي؛ وعيُّ الذات، أو الإرادة، أو حتى القضايا العميقة المتعلقة بالذوق و«ملكة» التمييز. ربما كان شكل الرواية ذاته يبكّد حساسيتهما وتصوراتهما، ببنية الإحالات والمشاعر فيه الموروثة عن القرن السابق. وإذا قارن المرء بين مالرو والخبير الفرنسي البارز بثقافة الهند الصينية بول مُس، الذي ظهر كتابه فيقتنام: علمٌ اجتماع حرب بعد ذلك بعشرين عاماً، عشية «معركة» ديان بيان فو، والذي شهد، كما شهد إدوارد ثومپسن، الأزمة السياسية العميقة التي فصلت فرنسا عن الهند الصينية، فإنّ الفرق بينهما سيبدو صامداً. في فصل لافت عنوانه «على الطريق الفيتنامي» (وربما كان يرجعُ صدى المسار الملكي)، يتحدث مُس حديثاً صريحاً عن النظام المؤسساتي الفرنسي وانتهاكه الدينيّ «العلماني» للقيم الفيتنامية المقدسة؛ ويقول إنّ الصينيين فهموا فيتنام فهماً أفضل من فهم فرنسا لها، بسككها الحديدية، ومدارسها، ونظامها الإداري الدينيّ «العلماني». لقد كان الفرنسيون، في غياب تفويض ديني، وبمعرفة ضئيلة بالقيم الأخلاقية الفيتنامية التقليدية، بل بقدر أقل من ذلك من ألتنبه للأصلانية والحساسية المحليتين، مجرداً فاتحين غافلين<sup>(٤٣)</sup>.

يرى مُس، مثل ثومپسن، الأوروبيين والآسيويين متواشجين معاً. وهو، مثل ثومپسن من جديد، يعارض استمرار النظام الاستعماري. ويقترح «منح» الاستقلال لفيتنام، رغم التهديد الروسي والصيني. بيد أنه مع ذلك يريد معاهدة فرنسية - فيتنامية تمنح فرنسا امتيازات معينة في إعادة إعمار فيتنام (وتلك هي الفكرة الرئيسية للفصل الأخير من الكتاب، «ما العمل؟»). وإنّ بين هذا الموقف وموقف مالرو لبؤناً شاسعاً، بيد أنه تحوّل تنوعياً ضئيل في التصور الأوروبي للوصاية - وإن تكن وصايةً متنوّرة - على غير الأوروبيين. وهو يقصّر عن الوصول إلى نقطة إدراك القوة التامة لما أصبح، فيما يتعلق بالامبريالية الغربية، قومية العالم الثالث الضدية، التي لم تعبّر عن التعاون بل عن العدائية.

## II - موضوعات ثقافة المقاومة

يسبق الاسترجاع البطيء للأرض الجغرافية، الذي كثيراً ما يكون مدارّ نزاع مرير، والذي يكمن في القلب من عملية فكفكة الاستعمار - كما كان قد سبق الامبراطورية نفسها - رسمٌ لخريطة الأرض الثقافية. بعد مرحلة «المقاومة الأولية»، التي تعني حرفياً القتال ضد الاقتحام الخارجي، تأتي مرحلة المقاومة الثانوية، أي العقائدية، إذ تبدّل جهود إعادة

تكوين "مجتمع محطّم، وإنقاذ أو ترميم حسّ المجتمع وحقيقته ضد جميع ضغوط النظام الاستعماري"<sup>(٤٤)</sup>، كما يعبر بايزل ديفيدسن. ويسمح هذا بدوره بإمكانية تأسيس مصالح جديدة ومستقلة. ومن المهم أن نلاحظ أننا لا نتحدث هنا عن أقاليم طوباوية - مروج رعوية مطمئنة، إذا جاز التعبير، يكتشفها المثقفون، والشعراء، والأنبياء، والقادة، ومؤرّخو المقاومة في ماضيهم الخاص. يتحدث ديفيدسن عن الوجود "الأخروي" التي يطلقها البعض في مرحلتهم المبكرة، مثل رفض المسيحية ورفض ارتداء الملابس الغربية. لكنهم جميعاً يقدمون استجابات لمهانات الاستعمار، ويقودون إلى "البند الرئيسي من تعاليم القومية: وهو الحاجة إلى إيجاد الأساس العقائدي لوحدة أوسع من أمة وحدة عُرفت في الماضي"<sup>(٤٥)</sup>.

ويوجد هذا الأساس، كما اعتقد، في إعادة اكتشاف ما كان قد تمّ قمعه في ماضي الأصلايين من قبيل عمليات الامبريالية، وفي إطلاقه من الأسر. وهكذا يمكن أن نفهم إصرار قانون على إعادة قراءة جدلية السيد - العبد عند هيغل في ضوء الموقف الاستعماري، وهو موقف يعلّق قانون فيه على الكيفية التي يكون بها السيد في الامبريالية مختلفاً بشكل أساسي عن السيد الذي يصفه هيغل. فبالنسبة لهيغل ثمة تبادلية: «وأما هنا فإنّ السيد يضحك ساخراً من وعي العبد. فما يريده من العبد ليس الاعتراف بل العمل"<sup>(٤٦)</sup>. أن يحقق «المرء» الاعتراف هو أن يعيد رسم المكان المحجوز للخضوع والانضواء في الأشكال الثقافية الامبريالية، وأن يحتله بوعي للذات، محارباً من أجله على الأرضية نفسها التي كان قد حكّمها ذات يوم وعي افتراض بداهة خضوع آخر دوني مخصّص. ومن هنا، إعادة النقش «أو الكتابة». وتكمن المفارقة اللاذعة في أن جدلية هيغل هي جدلية هيغل، بعد كل حساب: فلقد كان هيغل ثمة أولاً، بالضبط كما أن جدلية الذات والموضوع الماركسية كانت موجودة ثمة قبل أن يستخدمها قانون «صاحب» المعذبون في الأرض لشرح الصراع بين المستعمر والمستعمر.

تلك هي المأساة الجزئية للمقاومة: أنها ينبغي أن تعمل إلى حدّ ما من أجل استعادة أشكال أسستها ثقافة الامبراطورية من قِبَل، أو على الأقل أثرت عليها أو تسلّت إليها. وتلك حالة أخرى مما أسميتُه أقاليم متقاطعة: فالصراع على افريقيا في القرن العشرين، مثلاً، هو صراع على أقاليم قام بتصميمها وإعادة تصميمها لأجيال عديدة مستكشفون من أوروبا، وهي عملية ينقلها بصورة لا تُنسى وبجهد مضمّن فيليب كيرتن في كتابه صورة افريقيا<sup>(٤٧)</sup>. فكما أن الأوروبيين رأوا افريقيا، تماحياً\*\*، مكاناً فارغاً حين اغتصبوها، أو افترضوا بداهة وجودها في متناولهم خاملة مستسلمة حين تأمروا على تقسيمها في مؤتمر برلين في ١٨٨٤-١٨٨٥، فقد وجد الافارقة المفكّون للاستعمار ضرورياً أن يتخيلوا افريقيا من جديد معرفة من ماضيها الامبريالي.

خذ، كحالة محدّدة من حالات هذه المعركة على المسقطات والصور العقائدية، ما يُسمّى متخلّل «موتيف» البحث والتشوّف أو الرحلة، الذي يظهر في قدر كبير من الأدب الأوروبي، وبشكل خاص في الأدب الذي يدور حول العالم غير الأوروبي. في جميع سرديات المستكشفين العظام في أواخر عصر النهضة (وقد أسمى دانييل دفّر هذه السرديات تسمية

\* - وهي التعريب الذي اقترحه المترجم لـ "otherworldly"، نسبة إلى العالم الآخر. (الناشر)  
 \*\* - وهي تعريب المترجم لـ polemically، أي أثناء محاكاتهم وجدالهم ومناظراتهم. (الناشر)

ملائمةً هي "جَمْعُ العالم > بعضه إلى بعض)"<sup>(٤٨)</sup>، وفي سرديات مستكشفي القرن التاسع عشر وعلماء الأعراق الوصفين فيه، ناهيك عن رحلة كونراد مصعداً في نهر الكونغو، ثمة تضاريسية الرحلة جنوباً كما أسمتها ماري لويز برات، مشيرةً الى جيد وكامو<sup>(٤٩)</sup>، التي يعلو فيها صوت متخلل السيطرة والسلطة "دون مقاطعة". وهذه النغمة الملحة، بالنسبة للأصلائي الذي يبدأ يراها ويسمعها، تُطلق "نغمة الأزمة، نغمة الطرد، الطرد من القلب، الطرد من البيت". بهذه الطريقة يصوغ ستيفن ديدالس الأمر صياغةً لا تُنسى في فقرة المكتبة في يوليسيس<sup>(٥٠)</sup>، يعيش الكاتب الأصلائي المفكك للاستعمار - مثل جويس، وهو الكاتب الأيرلندي الذي استعمره البريطانيون - من جديد تجربة متخلل البحث - الرحلة الذي كان قد طُرد منه عن طريق الصيغة المجازية نفسها التي تُنقل من الثقافة الامبريالية الى الثقافة الجديدة، وتُبنى، وتُرفض من جديد، وتعاش من جديد.

تعيد رواية النهر الما بين لجيمس نغوي (نغوي واثونغو فيما بعد) كتابةً قلب الظلام بنفح الحياة في نهر كونراد على صفحاتها الأولى بالذات. "كان اسمُ النهر هونيا، التي تعني اشف، او ابعث الحياة من جديد. ونهر الهونيا لم يَجفَ أبداً: بل بدأ انه يملك إرادة قوية للحياة، ويحتقر الجفاف وتغيرات الطقس. وظل يجري بالطريقة ذاتها، فلا يستعجل أبداً، ولا يتردد. ورأى الناسُ هذا وكانوا سعداء"<sup>(٥١)</sup>. لا تقيب صورُ كونراد للنهر، والاستكشاف، والإطار المشهدي المغلف بالسرية عن وعينا أبداً ونحن نقرأ، لكنها تُعطى وزناً مختلفاً تماماً، وتُختبرُ بصورة مختلفة - بل مرتجةً مضايقةً - في لغة بعيدة عن الزخرفة عمداً، ومتشقة، ومنقاة من التعابير الاصطلاحية الجاهزة بشكل واع للذات. في <رواية> نغوي ينحسر الرجل الأبيض من حيث الأهمية - فهو يُضغَط إلى شخص مفرد من المبشرين يُسمى، بطريقة ترميزية دالة، لفينغستون <الحجر الحي> - رغم أن تأثيره مائل في الانقسامات التي تفصل القرى والصفاف والناس. ويُنقل نغوي بقوة، في النزاع الداخلي الذي يتناهب حياة وياكي، التوترات غير المحلولة التي ستستمر إلى ما بعد انتهاء الرواية بأمد والتي لا تبذل الرواية أدنى جهد لاحتوائها. ويظهر نسقٌ جديد، كان مجموعاً في قلب الظلام، يولدُ منه نغوي أسطوريات جديدة، يوجي مسارها الواهي وإبهامها النهائي بالعودة الى افريقيا افريقية.

وفي رواية الطيب صالح موسم الهجرة إلى الشمال، يصبح نهر كونراد النيل، الذي تُجدد مياهه نفوس أهله وحيويتهم، وبمعنى ما يُعكس أسلوب كونراد السردى البريطاني القائم على المتكلم المفرد ويُعكس أبطاله الأوروبيون، أولاً عن طريق استخدام اللغة العربية، وثانياً في كون رواية صالح تدور حول رحلة الى الشمال لسوداني يذهب إلى أوروبا؛ وثالثاً، لأن الراوي يتحدث من قرية سودانية. هكذا تُقلب رحلة إلى قلب الظلام إلى هجرة مقدسة من الريف السوداني - الذي ما يزال يزرع تحت أعباء موروث الاستعماري - إلى قلب أوروبا، حيث يُطلق مصطفى سعيد، وهو صورة مروية لكورتز <في قلب الظلام>، عنان عنف طقوسي ضد نفسه وضد النساء الأوروبيات وضد الفهم لدى الراوي. وتُختتم الهجرة\* بعودة سعيد إلى قريته الأصلانية وانتحاره فيها. وتبلغ

\* - يستخدم المؤلف في هذا القسم كلمة الهجرة لا بترجمتها الانكليزية "migration" بل بالصيغة التي ترد فيها كلمة "الهجرة" العربية في النصوص الانكليزية مشيرة تحديداً الى هجرة النبي <محمد> هكذا "hegira"; وغرضه، فيما أظن، واضح.

عمليات العكس المؤمّية التي يقوم بها صالح لكونراد درجةً من القصدية تجعله يكرّز ويشوّه سياج كورتز المغطى بالجماجم ضمن محتويات قائمة الكتب الأوروبية المكّسة في مكتبة سعيد السرية. وتقوم التدخلات والعبورات من الشمال إلى الجنوب، ومن الجنوب إلى الشمال، بتوسيع وتعقيد المسار الاستعماري الرائح الغادي الذي يرسم كونراد خريطته؛ وما ينتج ليس ببساطة استعادة الإقليم الاخلاقي الروائي، بل الإفصاح عن بعض التفاوتات التي يمغمها نثر كونراد الجليل وعن عقابيلها المتخيّلة:

هناك مثل هنا، ليس أحسن ولا أسوأ. ولكنني من هنا، كما أنّ النخلة القائمة في فناء دارنا نبثت في دارنا ولم تثبت في دار غيرها. وكونهم جاوا الى ديارنا، لا أدري لماذا، فهل معنى ذلك ان نسلم حاضرتنا ومستقبلنا؟ انهم سيخرجون من بلادنا إنّ عاجلاً أو آجلاً، كما خرج قوم كثيرون عبر التاريخ من بلاد كثيرة. سكك الحديد، والبواخر، والمستشفيات، والمصانع، والمدارس، ستكون لنا، وستحدث لغتهم، دون إحساس بالذنب ولا إحساس بالجميل. سنكون كما نحن، قوم عاديين، وإذا كنا اكاذيب، فنحن اكاذيب من صنع انفسنا<sup>(٥٢)\*</sup>.

لذلك يحمل كتاب العالم الثالث في مرحلة ما بعد الامبريالية ماضيهم في أعماقهم - ندوياً لجراح مؤدّلة، وتحريضاً على <خلق> ممارسات مختلفة، ورؤى للماضي تملك الطاقة على التنقيح وتنزع نحو مستقبل مابعد استعماري، وتجارب قابلة لإعاده التأويل والتوزيع والمركزة، فيها ينطق الأصلائي الذي كان صامتاً في السابق ويمارس الفعل على أرض استعادها، كجزء من حركة مقاومة شاملة، من المستعمر المستوطن.

يبرز متخلل جذري آخر في ثقافة المقاومة. تأمل الجهد الثقافي المذهل الذي يُبدل لادعاء سلطة مستعادة ومرمّمة ومنفوحة بحياة جديدة على إقليم <معين> في العدد الكبير من النساخات الأميركية اللاتينية والكاريبية لـ <مسرحية> شيكسبير العاصفة. إنّ هذه الحكاية المثلية واحدة من عدد من الحكايات المثلية التي تنتصب حارساً على خيال العالم الجديد؛ وأما القمص الأخرى فهي مغامرات واكتشافات كولومبس، وروبنسون كروزو، وجون سميث، وپوكاهونتاس، ومغامرات إنكل وياريكو. (تقوم دراسة لامعة لبيتر هيوم، <عنوانها> مواجهات استعمارية، بمرح لها جميعاً بقدر من التفصيل<sup>(٥٣)</sup>). وإنه لقياس <دقيق> لدى تحول مسألة <الشخصيات التدشينية> هذه إلى مسألة تدور حولها المارك أنه قد غدا من المستحيل أن يقال أي شيء بسيط عن أي منها الآن. إنه لخطأ تام، فيما أرى، أن نصيف هذه الحمية المعيدة للتأويل بأنها ساذجة، أو انتقامية، أو هجومية لا غير. ذلك أنّ تدخلات الفنانين والباحثين غير الأوروبيين لا يمكن أن تُطرح جانباً أو تُخرس، وذلك وضع جديد تماماً في الثقافة الغربية؛ فهذه التدخلات ليست جزءاً تكاملياً من حركة سياسية فحسب، بل هي، بطرق عديدة، الخيال الذي يهّدي هذه الحركة بنجاح. وهي الطاقة الحيوية الفكرية والمجازية التي تعيد معاينة الأرضية المشتركة بين البيض وغير البيض وتعيد التفكير فيها. <لكن> أن يريد الاصلانيون أن يدعوا تلك الأرضية لأنفسهم هو، من وجهة نظر غربيين عديدين، صفاقة لا تطاق، وأن يستعيدوا ملكيتها فعلاً لهو أمر لا يخطر ببال ولا يُقبَل التفكير به إطلاقاً.

إنّ لباب عاصفة إيمي سيزير الكاريبية ليس المفتّ، بل منازعة ودود مع شيكسبير

\* - استخدمت النص العربي لـ موسم الهجرة الى الشمال، ط ٢، دار العودة، بيروت، ١٩٦٩، ص ٥٣. والمؤلف يقبس من الترجمة الانكليزية كما سيرد في إشارات الكتاب.

على حق تمثيل المنطقة الكاريبية. ويشكل دافع المنازعة هذا جزءاً من جهد أعظم وأجل لاكتشاف أسس لهوية اكمالية مغايرة للهوية السابقة التي كانت اتكالية تابعة ومشتقة. إن كالبان\*، تبعاً لجورج لينغ، هو "المقصى، ذلك الذي يبقى إلى الأبد تحت <مستوى> الإمكان... إنه يعاين كمناسبة، حالة من الوجود يمكن أن تُصَادَر وتُستغل لأغراض تخدم تطور ذات أخرى"<sup>(٥٤)</sup>. وإذا كان الأمر كذلك، فإنه ينبغي أن يُكشَف أن لكالبان تاريخاً يمكن أن يتم تصوّره وحده وفي ذاته، نتيجةً لجهد كالبان الخاص. وينبغي على المرء، تبعاً لـ لينغ، أن "يفجّر أسطورة بروسپيرو\*\* القديمة بتعميد اللغة عماداً جديداً؛ بيد أن ذلك لا يمكن أن يحدث" إلى أن نجلو اللغة كنتاج للجهد الإنساني؛ وإلى أن نضع في متناول الجميع نتائج مبادرات قام بها رجال ما يزالون إلى الآن يُعتبرون أحفاداً بانسين لعبيد مشوهين ولا لغة لهم"<sup>(٥٥)</sup>.

ونقطة لينغ هي أن مجرد تأكيد هوية مختلفة - على أهمية الهوية - ليس كافياً أبداً. بل إن الأمر الرئيسي هو أن يكون <المرء> قادراً على أن يرى أن لكالبان تاريخاً قادراً على التطور، كجزء من عملية العمل، والنمو، والنضج التي كان قد بدا أن للاوروبيين وحدهم الحق فيها. ولذلك فإن كل إعادة نقش <اوكتابة> أميركية لـ عاصفة شكسبير إنما هي سُاخَة محلية عن القصة الجليلة القديمة، مفعمة بالحياة من جديد وحاملة لنبرات مُعربة جديدة بفضل ضغوط تاريخ سياسي وثقافي أخذ في التفتح والانكشاف. وي طرح الناقد الكوبي روبرتو فرنانديز ريتامار النقطة الدالة التالية: بالنسبة للاميركيين اللاتينيين وللكاريبين العصريين، يمثل كالبان نفسه، لا أيرل\*\*\*، رمز الهجنة بمزجها الغريب وغير القابل للتوقع من الخصائص والسمات. وذلك أكثر صدقاً بالنسبة للكربول او المستيزو\*\*\*\* المركب لاميركا الجديدة<sup>(٥٦)</sup>.

يُشعر اختيار ريتامار لكالبان بدلاً من أيرل بمناظرة عقائدية بالغة الأهمية تكمن في قلب الجهد الثقافي لفككة الاستعمار، وهو جهد لترميم المجتمع وإعادة امتلاك الثقافة ويستمر إلى ما بعد تأسيس الدول-الأمم المستقلة بأمد طويل. إن المقاومة وفككة الاستعمار كما اتحدثُ عنهما هنا تستمران إلى أمد طويل بعد أن تكون القومية قد وصلت إلى نقطة توقف. وتُطرح هذه المناظرة رمزياً في كتاب نفوغي فككة استعمار العقل (١٩٨٦)، الذي يسجل توديفه للإنكليزية كما يسجل محاولته لدفع عجلة التحرير إلى الأمام بسبب اللغة والأدب الإفريقيين إلى مدى أعمق<sup>(٥٧)</sup>. ويتجسد جهد مماثل في كتاب باربره هارلو الهام أدب المقاومة (١٩٨٧) الذي يهدف إلى استخدام أدوات النظرية الأدبية الحديثة العهد لفسح مكان لـ "النتاج الأدبي <الذي تخلقه> مناطق جغرا - سية <جيوبولتيكية> تقف موقف المعارضة من التنظيم الاجتماعي والسياسي عينه الذي تتوضع ضمنه هذه النظريات وتشكل استجابة له <وردة فعل عليه>"<sup>(٥٨)</sup>.

يحسن أن نترجم الشكل الأساسي للمناظرة فوراً إلى طقم من البدائل بوسعنا

\* - عبد متوحش وبشع في عاصفة شكسبير (الناشر)

\*\* - ثوق ميلان الشرعي في عاصفة شكسبير (الناشر)

\*\*\* - Ariel: روح مَرحة لُغوب في عاصفة شكسبير (الناشر)

\*\*\*\* - المستيزو، مكسيكي من أصول مختلفة؛ شخص من أصل إسباني وهندي احمر؛ وفي الفلبين مولد صيني - وأصلاني.

اشتقاقه من خيار ابريل - كاليان، الذي يتسم تاريخه في اميركا اللاتينية بأنه خاص وغير عادي لكنه مفيد بالإشارة الى مناطق أخرى كذلك. والحق أن المناقشة الاميركية اللاتينية (التي يمثل ريتامار مُسهماً حديث العهد معروفاً جيداً فيها، وكان بين المسهمين الآخرين فيها كلٌّ من خوسيه إنريك رودو وخوسيه مارتني) هي استجابة للسؤال <التالي>: كيف تتخيل ثقافة تسعى للاستقلال عن الامبريالية تاريخها الخاص؟ إن أحد الخيارات هو أن تسلك سلوك أيريل، إذ يتصرف كخادم مطيع لپروسپرو؛ فأيريل يفعل ما يؤمر به عن رغبة، وحين ينال حريته يعود إلى عنصره الاصلاحي، ليكون نمطاً من الاصلاحي البورجوازي الذي لا يزعجه تعاونهُ مع پروسپرو. والخيار الثاني هو أن تسلك سلوك كاليان، الذي يعي ويتقبل ماضيه المهجن النغولي دون أن يعوقه ذلك عن التطور في المستقبل. والخيار الثالث هو أن تكون كالياناً يسْلُخُ عنه عبوديته الرهنة وتشويهاها الفيزيائية اثناء عملية اكتشافه لذاته الجوهرية السابقة على الاستعمار. رمذا الكاليان <الآخر> هو الذي يقف وراء القوميات الاصلاحيّة والجذرية التي انتجت مفاهيم الزنوجة، والاصولية الإسلامية، والعروبة، ومثيلاتا.

كلٌّ من هذين الكاليانين <الآخرين> يُغذّي الآخر ويتطلبه. ولقد أدّى كلٌّ مجتمع مُخضع في أوروبا، وأستراليا، وأفريقيا، وآسيا، والاميركتين <دور> كاليان المجرّب والمقموع بمرارة أمام سيدٍ خارجيٍّ ما يشبه پروسپرو. وإن صيرورة المرء واعياً لذاته بوصفها تنتمي الى شعب خاضع لهُي التبصّر النفاذ التأسيسي للقومية المناهضة للامبريالية. ومن هذا التبصر نبعت أداب، وأحزاب سياسية لا تحصى، وأفواج من الصراعات الأخرى من أجل حقوق الأقليات والنساء، و<نبعت>، في معظم الوقت، الدول المستقلة حديثاً. ورغم ذلك، فإن الوعي القومي، كما يلاحظ فانون بصواب، قد يقود بسهولة كبيرة إلى صرامة متجلدة؛ فهو يقول إن مجرد استبدال موظفين ومكاتبين بيض بمكافئين لهم ملوئين لا يضمن أن لا ينسخ الموظفون القوميون الإدارة والتدابير القديمة. إن أخطار الاستعلاء <الشوفينية> والاستجنابية (<أفريقيا للأفريقيين>) لأخطارٌ حقيقية تماماً. والحالة المثلى هي حين يرى كاليان تاريخه الخاص جانبا من تاريخ جسد الرجال والنساء المخضعين، ويُدرك الحقيقة المعقدة المتشابكة لوضعه الاجتماعي والتاريخي الخاص.

ينبغي الآن نقل من قدر الأهمية المحطمة <الكاسحة> لذلك التبصر النفاذ الأولي - إذ تعي الشعوب نفسها سجيئة في أرضها هي - وذلك أنه يعود للظهور مراراً وتكراراً في أدب العالم المستعمر. إن تاريخ الامبراطورية - الذي تقطعه بانتظام الانتفاضات والتمردات إبان القسم الأعظم من القرن التاسع عشر - في الهند؛ في أفريقيا الألمانية، والفرنسية، والبلجيكية، والبريطانية؛ في هايتي، ومدغشقر، وشمال أفريقيا، وبورما، والفلبين، ومصر، وأمكنة غيرها - يبدو مفتقراً الى التناسق والترابط ما لم يعترف المرء بذلك الإحساس بالانسجان المحاصر المشرب بعاطفة مشبوبة إلى التكوين المجتمعي الذي يؤصل ويؤرض المقاومة ضد الامبريالية في الجهد الثقافي. هوذا ايمي سيزير:

إن ما لي ايضاً:

\* - الزنوجة (وهي تعريب قاموس المنهل والمغرب معاً للكلمة الفرنسية négritude): وعي الزنوج للتراث الافريقي (الذي يرونه جامعا لهم) وفخرهم به. (الناشر)



هو زنزانة صغيرة في الجورا\*  
زنزانة صغيرة يُضاعفها الثلج بقضبانٍ بيضاء.  
الثلج سجان أبيض  
يتولى الحراسة أمام السجن  
إن ما لي:  
هو رجلٌ وحيدٌ يسجنه بياضُ  
رجلٌ وحيدٌ يتحدّى الصرخات  
البيضاء لمبتةٍ بيضاء.  
توسان، توسان لوفرتور<sup>(٥٩)</sup>

غالباً ما يَمْنَحُ مفهومُ العِرْقِ نفسَهُ السجنَ علّةً وجوده، وهو ينبثق في كل مكان تقريباً من ثقافة المقاومة. يتحدث عنه طاغور في محاضراته العظيمة التي تحمل عنوانَ القومية، والصادرة عام ١٩١٧. "الأمة" بالنسبة لطاغور بوتقةٌ قويّةٌ ضيقةٌ غيرُ سمحاءٍ لإنتاج التكيف والامتثال، سواء أكانت بريطانية، أم صينية، أم هندية، أم يابانية. وهو يقول إن جواب الهند لا يكون بتقديم قومية تنافسية، بل بتقديم حل خلاقٍ للانقسامية التي أنتجها الوعي العِرقي<sup>(٦٠)</sup>. ويكمن تبصُّرٌ نفاذٌ مشابهٌ في اللباب من <كتاب> ديليو إي. بي. دي بويز\*\* أرواح الناس السود (١٩٠٣): "ما هي مشاعر المرء حين يكون مشكلة؟... لماذا جعلني الله منبوذاً وغريباً في بيتي الخاص؟"<sup>(٦١)</sup> لكن طاغور ودي بويز كليهما يحذران من الهجوم بالجملة ودونما تمييز على الثقافة البيضاء أو الغربية. إن اللوم لا يقع على عاتق الثقافة الغربية، يقول طاغور، بل على "التقدير المتعفلّ للامة التي أخذت على عاتقها <حمل> عبء الرجل الأبيض في توجيه النقد للشرق"<sup>(٦٢)</sup>.

تبرز ثلاثة مواضع عظيمة في المقاومة الثقافية المفككة للاستعمار، تُفصل <ههنا> لأغراض التحليل <وحدها>، لكنها جميعاً متواشجة. أحدها، طبعاً، هو الإصرار على الحق في رؤية تاريخ المجتمع كلاً، وبصورةٍ متناسقةٍ منسجمةٍ، وبتكامليةٍ، إسترجع الأمة السجينة لنفسها ورمّمها. (يربط بندكت أندرسون ذلك في أوروبا بـ "رأسمالية الطباعة" التي أعطت اللغة ثباتيةً جديدةً و"خلقت حقولاً موحدةً من التبادل والاتصالات أدنى من اللاتينية <مرتبة> وأعلى من اللهجات الدارجة المحكية"<sup>(٦٣)</sup>). إن مفهوم اللغة القومية مفهوم مركزي، لكن في غياب ممارسة ثقافة قومية - من الشعارات إلى النشرات والصحف، ومن الحكايات الشعبية والأبطال <الشعبيين> إلى الشعر الملحمي، والروايات، والمسرحيات - تظل اللغة خاملة؛ فالثقافة القومية تقوم بتنظيم الذاكرة الجماعية وتعزيزها والحفاظ عليها، كما يحدث حين تُستعاد الهزائم المبكرة في قصص المقاومة الأفريقية (لقد انتزعوا أسلحتنا عام ١٩٠٣؛ ونحن الآن نستعيدها)؛ وهي تعيد سكنى المشهد الطبيعي مستخدمةً طرائق حياةٍ، وأبطالاً، وبطلات، ومآثر، مُرممةً مُستنقذةً؛ وهي تصوغ تعبيرات الكبرياء والتحدى ومشاعرهما، التي تشكل هي بدورها العمود الفقري للأحزاب الرئيسية القومية الداعية للاستقلال. وتشكل سرديات العبيد المحلية، والسير الذاتية الروحية، ومذكرات السجن

\* - Jura: في شرقي فرنسا.

\*\* - W.E.B. Du Bois (ويلفظ: دي بويز): مؤرخ وعالم اجتماعي وروائي وناشط سياسي أسود. وُلد عام ١٨٦٨ وتوفي عام ١٩٦٣. ويعتبر أعظم قادة الفكر النضالي الأسود في الولايات المتحدة. (الناشر)

حركة طباقية لتواريخ القوى الغربية الشاهقة، وإنشاءاتها الرسمية، ولوجهة نظرها الكلية الرؤية شبه العلمية. في مصر، مثلاً، تَصَفِّر روايات جرجي زيدان التاريخية للمرة الأولى سردية عربية تخصصياً (بشكل مماثل لما كان والتر سكوت قد فعله قبل ذلك بقرن). وفي أميركا الإسبانية، تبعاً لأندرسن، أنتجت مجتمعات الكريول\* اشخاصاً من الكريول أعادوا بشكل واع تحديد هؤلاء السكان [المختلطين] كمواطنين متماثلين<sup>(٦٤)</sup>. ويلاحظ أندرسن وحده أرندت الحركة الواسعة الانتشار عالمياً من أجل تحقيق تضامنتٍ على أساس هو في الجوهر أساس متخيل<sup>(٦٥)</sup>.

ثانياً تأتي فكرة أن المقاومة بعيدة كل البعد عن أن تكون مجرد ردة فعل على الامبريالية، فهي نهج بديل في تصور التاريخ البشري. وإنه ل ذو أهمية خاصة أن نرى الى أي مدى يقوم هذا النهج البديل في إعادة التصور على تحطيم الحواجز <القائمة> بين الثقافات. من المؤكد أن الكتابة رداً writing back، كما يعبر عنوناً كتاب فاتن، على الثقافات الحواضرية، وتخريب السرديات الأوروبية عن الشرق وأفريقيا، وأستبدالها بأسلوب سردي جديد أكثر لعباً أو أشد قوة، تشكل مكوناً رئيسياً في هذه العملية<sup>(٦٦)</sup>. إن رواية سلمان رشدي أطفال منتصف الليل عمل لامع يقوم على الخيال المحرر للاستقلال ذاته، وقد برزت شواذه وتناقضاته كلها باحثاً عن قرار. والجهد الواعي لولوج إنشاء أوروبا والغرب، والتمازج به، وتحويله، ودفعه إلى الاعتراف بتواريخ مهمشة أو مقموعة أو منسية، لهو جهد ذو أهمية خاصة في عمل رشدي، وفي أعمال جيل سابق من الكتابة المقاومة. ولقد قام بهذا النوع من العمل عشرات الباحثين، والنقاد، والمثقفين في العالم الأخرافي؛ وأنا اسمي هذا الجهد: الرحلة إلى <الداخل> the voyage in.

ثالثاً، ثمة نفور ملحوظ من القومية الانفصالية نحو وجهة نظر أكثر اشتماالية ومكاملة للمجتمع الإنساني والتحرر الإنساني. وأريد أن أكون واضحاً تماماً حول هذه المسألة. لا يحتاج أحد الى أن يُذكَر بأن حركات الاحتجاج، والمقاومة، والاستقلال عبر العالم الامبريالي بأسره كانت إبّان مرحلة فكفكة الاستعمار قد استمدت وقودها من قومية ما أو أخرى. وإن المناظرات اليوم حول القومية في العالم الثالث تتزايد في الحجم والاهتمام، لأسباب عديدة ليس أقلها أهمية أن عودة القومية للظهور بالنسبة لباحثين ومراقبين كثر في الغرب قد بعثت إلى الحياة وجهات نظر استسلافية عديدة؛ ويعتبر ايلي خضوري، مثلاً، القوميات غير الغربية جديدة من الناحية الجوهرية بالشجب، وردة فعل سلبية على دونية ثقافية واجتماعية مبرهنة، وتقليداً للسلوك السياسي "الغربي" الذي لم يؤد إلا الى القليل من الخير؛ ويعتبر آخرون، مثل إريك هوبسباوم وإرنست غلنر، القومية شكلاً من أشكال السلوك السياسي تجاوزته وأبطلته تدريجياً وقائع عبر- قومية جديدة نابعة من الاقتصادات الحديثة، والاتصالات الذرية <الالكترونية> والمسقطات العسكرية للقوى العظمى<sup>(٦٧)</sup>. واعتقد أن ثمة شعوراً بعدم الارتياح واضحاً (بل هو، في رأيي، لتي-تاريخي أيضاً) في جميع هذه المواقف بإزاء حصول المجتمعات غير الغربية على الاستقلال القومي الذي يُعتبر "غربياً" على روحية قيمها الجمعية الخاصة. ومن هنا الإصرار المتكرر <في

\* - الكريول هو المواطن الأصلي في أميركا الإسبانية، أو لويزيانا، أو جزر الهند الغربية، المتحرر من اصول أوروبية <إسبانية عادة>؛ ولهجة فرنسية شائعة في لويزيانا.

تلك المواقف > على الأصل الغربي للفلسفات القومية التي هي لذلك غير ملائمة للعرب، أو الزولو، أو الأندونيسيين، أو الأيرلنديين، أو الجاميكيين، الذين يُحتمل أن يُسيئوا استخدامها.

اعتقد أن هذا النقد الموجه لشعوب حديثة الاستقلال يحمل في ثناياه معارضةً ثنائية بشكل عام (من قِبَل اليسار كما اليمين) لمنظومة أن الشعوب التي كانت محكومة سابقاً لها الحق في النمط عينه من القومية الذي يتمتع به، لنقل، الألمان أو الإيطاليون الذين هم أكثر تطوراً، ومن ثم أكثر جدارة <بالقومية>. وإن مفهوماً للولويات مشوشاً ومولداً للمحدودية <في الرؤية> هو ما يسمح <بالاعتقاد> بأن الدعاة الأوائل لفكرة ما هم وحدهم القادرون على فهمها واستعمالها. بيد أن تاريخ الثقافات جميعاً إنما هو تاريخ من الاستعارات الثقافية. والثقافات ليست كتيمة غير مُنفذة؛ فكما استعارت العلوم الغربية من العرب، كان العرب قد استعاروا من الهند واليونان. إن الثقافة ليست أبداً مسألة ملكية وحسب، واستعارة وإعارة بين دائنين ومدنين مطلقين، بل هي بالأحرى <مسألة> مصادرات، وتجارب مشتركة، واعتمادات متبادلة متداخلة من جميع الأنماط بين ثقافات مختلفة. وإن ذا لمعيار كوني. من استطاع حتى الآن أن يحدد إلى أي مدى وبأي مقدار أسهمت السيطرة على الآخرين في تكوين الثروة الهائلة للدولتين الانكليزية والفرنسية؟

يصدر تنقيده أكثر إشاعةً للقومية غير الغربية عن الباحث والمنظر الهندي پارثا تشاترجي (وهو أحد أعضاء جماعة دراسات تابعة <أو منضوية>). يقول تشاترجي إن قدرأ كبيراً من الفكر القومي في الهند يعتمد على وقائع القوة الاستعمارية، إما في معارضته لها كلياً وإما في تأكيده وإثباته لوجودان وطني. وذلك يقود بصورة حتمية إلى نخبوية الفئة المفكرة <الانتلجنسيا>، المتصلة في رؤيا انبعاث جذري للثقافة القومية<sup>(٧٨)</sup>. وأن سَنَعَادَ الأمة في مثل هذا الموقف هو بصورة أساسية أن يُحَلَمَ بمثال أعلى رومانسي طوباوي، حلم يحجمه وينفضه الواقع السياسي. وقد تم، تبعاً لتشاترجي، بلوغ العلامة الفاصلة في مسار القومية في معارضة غاندي للحضارة الحديثة معارضة كلية: فغاندي يقف معرفياً خارج ما يتصل بموضوعات فكر ما بعد التنوير، متأثراً بمفكرين معادين للحدثة مثل رسكين وتولستوي<sup>(٧٩)</sup>. وكان إنجازُ نهرو أنه أخذ الأمة الهندية محررةً من الحدثة على يد غاندي وأودعها بأكملها داخل مفهوم الدولة. إن عالم المحسوسات، عالم الاختلافات، والنزاعات، والصراع بين الطبقات، والتاريخ والسياسة، يجد الآن وحدته في حياة الدولة<sup>(٧٠)</sup>.

يُظهر تشاترجي أن للقومية الناجحة والمناهضة للامبريالية تاريخاً من المراوغة والتحاشي، وأن القومية يمكن أن تصبح الدواء السحري الشافي لعدم معالجة التفاوتات الاقتصادية والظلم الاجتماعي، وللقبض على زمام الدولة المستقلة حديثاً من قِبَل نخبة قومية. لكنه، في اعتقادي، لا يؤكد بما يكفي أن إسهام الثقافة في الدُولِيَّة <statism> \*\* كثيراً ما يكون نتيجة تصور انفصالي، بل استعلائي وسلطوي، للقومية. ثم إن هناك، مع

\* - إزاء critique، ويبدو أن المترجم قد اختار هذه الصيغة لتمييزها عن النقد criticism. (الناشر)

\*\* - تركيز السلطة الاقتصادية والتخطيط الاقتصادي في يد دولة شديدة المركزية. وقد اختار المورد لفظ <الدُولانية>. واختار المصطلح <الحكومية> (مقابل étatisme). (الناشر)

ذلك، داخل الإجماع القومي اتجاهاً فكرياً متناسقاً، نقدياً بصورة حيوية، يرفض مدهانات الشعارات الانفصالية والانتصاروية ذات المدى القصير، لصالح الوقائع المفعمة بروح التواصل الجمعي بين الثقافات والشعوب والمجتمعات، وهي وقائع إنسانية أرحب وأكثر أريحية <من تلك المدهانات>. وهذا التواصل هو التحرر الإنساني الحقيقي الذي تبتشر به مقاومة الامبريالية. يطرح بائزل ديفيدسن النقطة نفسها تقريباً في كتابه الجليل أفريقيا في التاريخ الحديث: البحث عن مجتمع جديد<sup>(٧)</sup>.

لا أود أن يفهم خطأ أنني ادعو إلى موقف بسيط مضاد للقومية. بل إنها حقيقة تاريخية أن القومية - <بما هي> ترميم للمجتمع، وتأكيد للهوية، وانبثاق لممارسات ثقافية جديدة - ومن حيث هي قوة سياسية معبأة، قد حرّضت ثم دفعت إلى الامام الصراع ضد السيطرة الغربية في كل مكان من العالم غير الأوروبي. ولن يكون أكثر جدوى أن يعارض المرء ذلك من أن يعارض اكتشاف نيوتن للجاذبية الأرضية. لقد تجمع الأصلاونيون وتضافروا، في الفيلبين، أو أي عدد <تشاهة> من الأقاليم الأفريقية، أو شبه القارة الهندية، أو العالم العربي، أو المنطقة الكاريبية، أو معظم أميركا اللاتينية، أو الصين، أو اليابان، مُشكّلين جماعات تنادي بالقومية والاستقلال ومبنية على إحساس بالهوية، <وهو إحساس> كان اقوامياً أعراقياً، أو دينياً، أو منجمياً، وكان معارضاً لأي تعدد آخر من قبل الغرب. ولقد حدث هذا منذ البدء، وأصبح واقعاً عالمياً في القرن العشرين لأنه كان ردة فعل واسعة الانتشار على الغزو الغربي الذي كان هو بدوره قد أصبح واسع الانتشار أيضاً؛ ولقد تضافر الناس وتعاقدوا، مع استثناءات قليلة، في تأكيد مقاومتهم لما تصوره ممارسة ظالمة ضدهم يلقونها بشكل رئيسي لأنهم كانوا ما كانوا، أي: غير غربيين. ومن المؤكد أن هذه التجمعات حدثت أن كانت أحياناً إقصائية حصرية بشدة، كما أظهر العديد من مؤرخي القومية. لكن علينا أن نركز أيضاً على المنظومة الفكرية والثقافية داخل المقاومة القومية، <وفحواها> أن تصورات جديدة للمجتمع والثقافة ستكون مطلوبة ما إن يتحقق الاستقلال من أجل أن تتجنب السننات والممارسات الظالمة القديمة.

والحركة النسائية ذات أهمية مركزية هنا. ذلك أنه حين تبدأ المقاومة الأولية، لتتلوها الأحزاب القومية المكتملة التشكيل، تصبح ممارسات ذكورية ظالمة - مثل اقتناء المحظيات، وتعدد الزوجات، وتقييد الأقدام، والساتي\*، والاستعباد الفعلي - النقاط المحرقة للمقاومة التي تقوم بها النساء. في مصر، وتركيا، واندونيسيا، والصين، وسيلان، يرتبط النضال المبكر في القرن العشرين لتحرير المرأة ارتباطاً عضوياً بالهيجان القومي. لقد استنفّر راجا رامحان روي، وهو قومي في أوائل القرن التاسع عشر متأثر بماري ولستونكرافت\*\*، الحملة المبكرة من أجل حقوق المرأة الهندية؛ وذلك نسق مألوف في العالم المستعمر، حيث اشتملت التحركات الفكرية الأولى ضد الظلم على اهتمام بالحقوق المهضومة لجميع الطبقات المضطهدة. وبعد ذلك، اندفعت كاتبات ومثقفات - كثيراً ما كن ينتمين إلى طبقات ذات امتيازات <اجتماعية> ويعملن في تحالف مع رائدات غربيات لحقوق المرأة مثل أنني

\* - الساتي، أو السوتية: إحراق الامرلة الهندوسية نفسها في محرقة زوجها المتوفى علامة على تفانيها وإخلاصها له. (الناشر)

\*\* - كاتبة ومناضلة نسائية إنكليزية، ولدت عام ١٧٥٩ وتوفيت عام ١٧٩٧.

بيزانت\* - الى المواقع الامامية للتحريض على تعليم النساء. ويصف عمل كوماري جاياواردينا المركزي الانثوية والقومية في العالم الثالث الجهود التي بذلتها المصلحات الهنديات مثل تورا دُط، ودي. كئي. كارفي، وكورنيليا سورابجي، والناشطات مثل بونديتا رامابي. ولقد وسَّعت نظيرتهنَّ في الفيلبين، ومصر (هدى شعراوي)، واندونيسيا (رادن كارتيني) تيارَ ما أصبح <فيما بعد> الانثوية، التي اصبحت بعد الاستقلال إحدى نزعات التحرر الرئيسية.

ولقد برز هذا البحث الأوسع عن التحرير إلى الوجود أبرزَ ما برَزَ حينما أُوقِفَ الإنجاز القومي أو أُخِرَ تأخيراً بالغاً - في الجزائر، وغينيا، وفلسطين، وأجزاء من العالم الإسلامي والعربي، وجنوب أفريقيا. إن دارسي السياسات مابعد الاستعمارية، في اعتقادي، لم ينظروا بامعان كافٍ إلى الأفكار التي تقلص وتحد من السُّنَّية والفكر السلطوي أو الأبوي، والتي تنظر نظرة صارمة <نقدية> إلى الطبيعة القسرية لسياسيات الهوية. وربما كان السبب في ذلك أن أمثال عيدي أمين وصادم حسين في العالم الثالث قد اختطفوا القومية إلى درجة تامة وبطريقة شنيعة ومروعة. إن كونَ قوميين عديدين أحياناً أشدَّ قسريةً أو أشدَّ نقداً للذات فكراً من آخرين لأمر واضح، بيد أن أطروحتي هي أن المقاومة القومية للامبريالية، في أحسن حالاتها، كانت ناقدة لذاتها على الدوام. وإن قراءة يقظة لعمالقة المفكرين ضمن الحركات القومية - ككتاب مثل سي. إل. آر. جيمس، ونيرودا، وطاقور نفسه، وفانون، وكابرال، وآخرين - لتُمَيِّزُ بين القوى المتعددة المتنافسة على السيطرة داخل المعسكر القومي، المعادي للامبريالية. وجيمس حالة مثالية من هذه الحالات. فلقد كان دائماً يلطف دعوته، وهو بطل القومية السوداء العريق، باستبراءات وتذكيرات بأن تأكيدات الخصوصية الاعراقية ليست كافية، تماماً كما أن التضامن دون نقد ليس كافياً. ويمكن اشتقاق قدر عظيم من الأمل من هذا <الموقف>، ولو لم يتأت ذلك إلا لأننا - ونحن أبعد ما نكون عن نهاية التاريخ - في موقع نستطيع فيه أن نفعل شيئاً <ذا معنى> لحاضرنا الخاص وتاريخنا المستقبلي، سواء أكننا نعيش داخل العالم الحواصري أم خارجه .

وخلصاً، فإن فكفة الاستعمار معركة بالغة التعقيد حول مسار مصائر سياسية مختلفة، وتواريخ وجغرافيات مختلفة، وإنها لتُحْفَلُ بأعمال من إنتاج الخيال، والبحث، والبحث المضاد. لقد اتخذ الصراعُ شكلَ الإضرابات، والمسيرات، والهجوم العنيف، والقصاص والقصاص المضاد. لكن نسيجه محوك أيضاً من روائيين وموظفين استعماريين يكتبون عن طبيعة العقلية الهندية، مثلاً، وعن خطط تاجير الأراضي في البنغال، وبنية المجتمع الهندي؛ وهو محوك أيضاً، على سبيل الاستجابة لذلك، من هنود يكتبون روايات عن نصيب أعظم <لأنفسهم> في حكم أنفسهم، ومن مثقفين وخطباء يناشدون الجماهير التزامات أعظم وتعبئة أشد من أجل الاستقلال.

وليس بوسع المرء أن يحدد تواريخ ثابتة أو يضع جداول زمنية لهذا الأمر. فلقد أتبعَت الهندُ مساراً، وبورما مساراً آخر، وغربي أفريقيا مساراً ثالثاً، والجزائر مساراً مختلفاً عنها جميعاً، ومصر وسوريا والسنغال مسارات أخرى مغايرة كذلك. لكن المرء في كل

الحالات يرى الانقسامات التي تغدو تدريجياً أكثر فأكثر محسوسةً بين الكتل القومية الضخمة: الغرب - فرنسا، بريطانيا، هولندا، بلجيكا، ألمانيا، الخ - في جانب، ومعظم الأصليين في الجانب الآخر. ولذلك يمكن القول بشكل عام إن المقاومة المناوئة للامبريالية تتبنى تدريجياً من تمردات متقطعة وغير ناجحة في الكثير من الحالات، إلى ما بعد وقوع الحرب العالمية الأولى إذ تنفجر هذه المقاومة في أشكال متباينة من الأحزاب، والحركات، والشخصيات، الكبيرة على مدى الامبراطورية، وتصبح على امتداد عقود ثلاثة بعد الحرب العالمية الثانية، أكثر نشاطاً في توجيهها الاستقلالي، وتثمر الدول الجديدة في أفريقيا وآسيا. وخلال هذه العملية تغيّرُ إلى الأبد الوضع الداخلي للقوى الغربية، التي انقسمت إلى معادين ومناصرين للسياسة الامبريالية.

### III - بيتس وفكفة الاستعمار

يكاد ولئم بثئر بيتس أن يكون الآن متمثلاً تماماً في المكون الشرائعي وفي إنشاءات الأدب الإنكليزي الحديث والحدائية العالية الأوروبية. فهذان <أي الأدب والحدائية> يحسبان له حساباً كشاعر إيرلندي عظيم، متواضع ومتفاعل بعمق مع تقاليده الأصلانية، ومع السياق التاريخي والسياسي لعصره، ومع الموقف المعقد المتمثل في كونه شاعراً يكتب بالانكليزية في إيرلندا قومية حتى الاحتياج. ورغم حضور بيتس الواضح، بل ساقول حضوره المستقر، في إيرلندا، وفي الثقافة والأدب البريطانيين، وفي الحدائية الأوروبية، فإنه يقدم لنا جانباً آخر فائتاً: جانب الشاعر الذي هو دونما جدال شاعرٌ نربي عظيم يُفصح إبان مرحلة من المقاومة ضد الامبريالية عن التجارب، والتطلعات، والرؤيا المرمة الإحيائية لشعب يعاني من وطأة سيطرة قوة من خارج سواحله.

إن بيتس، من هذا المنظور، شاعر ينتمي إلى تراث لا يُعتبر عادةً تراثه، <لأنه> تراث العالم الاستعماري الذي تحكمه الامبريالية الأوروبية في مرحلة ذرؤية تحفل بأحداث التمرد والعصيان المسلح. ولئن كانت هذه طريقة غير معتادة في تأويل بيتس، فإننا بحاجة إلى القول إنه ينتمي أيضاً بشكل طبيعي إلى المجال الثقافي الذي هو مجاله، بفضل مقام إيرلندا الاستعماري، الذي تشترك فيه مع حشد من الأقاليم غير الأوروبية: التبعية الثقافية، والعدائية معاً.

يقال إن عصر الامبريالية العالية ابتدأ في أواخر الـ ١٨٧٠ات، لكنه كان في المناطق الناطقة بالانكليزية قد بدأ قبل ذلك بسبعمئة عام ونيف، كما يبرهن برهنة ممتازة كتاب أنفس كالدرا الأسر الامبراطورية الثورية. لقد تخطى البابا عن إيرلندا لمصلحة هنري الثاني ملك انكلترا في الـ ١١٥٠ات: وقد حضر هو نفسه إلى إيرلندا عام ١١٧١. ومنذ ذلك الوقت سادت وجهة نظر ثقافية ملحة حتى الإدهاش حول إيرلندا كمكان سكاني عريق بربري ومنحط. وقد قام نقاد ومؤرخون حديثو العهد - شيمس دين، ونيكولاس كاني، وجوزيف ليرسن، و آر. إن. ليو، من بين آخرين - بدراسة وتوثيق هذا التاريخ، الذي أسهم أشخاص بارزون مثل ادmond سبنسر وديفيد هيوم في تشكيله بنصيب كبير.

هكذا تنتمي الهند، وشمال أفريقيا، والكاريببي، وأميركا الوسطى والجنوبية، وأقسام كثيرة من أفريقيا، والصين، واليابان، وبرزخ المحيط الهادي، وماليزيا، وأستراليا،

ونيوزيلندا، وأميركا الشمالية، وإيرلندا طبعاً، جميعاً إلى مجموعة واحدة، رغم أنها في معظم الوقت تعالَج منفصلةً. فلقد كانت جميعها مواقعاً للتنازع قبل ١٨٧٠ بزمان طويل، إما بين جماعات المقاومة المحلية المتعددة، أو بين القوى الأوروبية نفسها؛ وكان نمطا الصراع ضد السيطرة الخارجية، في بعض الحالات، كالهند وأفريقيا، مثلاً، يجريان متآبئين قبل ١٨٥٧ بزمان طويل، وقبل المؤتمرات الأوروبية المتعددة التي انعقدت حول أفريقيا في نهاية القرن بزمان طويل أيضاً.

والنقطة «الدالة» هنا هي أن الامبريالية نفسها، أي كانت الطريقة التي يرغبها المرء في رسم حدود الامبريالية العالية - وهي تلك الفترة التي امن فيها كلُّ رجل وامرأة تقريباً في أوروبا وأميركا بأنهما يخدمان القضية السامية الحضارية والتجارية للامبراطورية - كانت قد صارت عمليةً متواصلة لعدة قرون من الفتوحات، والافتراس الضاربي، والاستكشافات العلمية، لما وراء البحار. وكانت الأرض، بالنسبة للهندي، أو الإيرلندي، أو الجزائري خاضعةً في ذلك الوقت وقبله، لسيطرة قوة غريبة أجنبية، سواء أكانت تحررية «ليبرالية»، أم ملكية، أم ثورية.

لكن الامبريالية الأوروبية الحديثة كانت نمطاً من السيطرة الماويرابحارية مختلفاً - تكويناً وجنرياً - عن جميع ما سبقه من أشكال. ولقد كان مقياسُ هذه السيطرة ومداهما بعضاً من مكونات الاختلاف فقط، رغم أن من المؤكد أنه لا بيزنطة، ولا روما، ولا أثينا، ولا بغداد، ولا اسبانيا، ولا البرتغال إبان القرنين الخامس عشر والسادس عشر قد سيطرت على ما يقارب أدنى مقاربةٍ حجم الأراضى التي سيطرت عليها بريطانيا وفرنسا في القرن التاسع عشر. وإن أهم الفروق هو أولاً الطول المعزَّز للتباين في القوة؛ وهو، ثانياً، التنظيم الهائل للقوة، الذي ترك أثره على تفاصيل الحياة لا على خطوطها العريضة وحسب. ومع أوائل القرن التاسع عشر كانت أوروبا قد بدأت التحويل الصناعي لاقتصاداتها - وبريطانيا تقود الركب؛ وراحت البنى الإقطاعية والتقليدية في ملكية الأرض تتغير؛ وجرى تأسيس أنساق جديدة مركنتيلية للتجارة الماويرابحارية، والقوة البحرية، والاستيطان الاستعماري؛ وكانت الثورة الطبوقسطية تدخل مرحلتها المنتصرة. ولقد منحت كلُّ هذه التطورات أوروبا مزيداً من السيادة والسيطرة على ممتلكاتها الواقعة خارج سواحلها، وصورةً جانبيةً «مظهِراً» من القوة المهيبة بل المروعة. ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى، كانت أوروبا وأميركا تقبضان على أعنة معظم سطح الكرة الأرضية وتخضعانه لنوع أو آخر من الحكم الاستعماري.

ولقد حدث هذا لأسباب عديدة، عزَّتها مكتبةٌ كاملةٌ من الدراسات المنظمة المنهجية (بدءاً بتلك التي كتَّبتها نقاداً للامبريالية في أكثر مراحلها عدوانيةً، من مثل هوبسن، وروزا لكسمبورغ، ولينين) إلى عمليات اقتصادية بشكل رئيسي، سياسيةً محدَّدةً بطريقة التباسيةٍ إلى حدٍّ ما (وفي حالة جوزيف شومبتر، «إلى عمليات» عدوانيةٍ نفسياً أيضاً). أما النظرية التي أقدمها في هذا الكتاب فهي أن الثقافة قد أدت دوراً هاماً جداً بل لا غنى عنه بحق. فلقد كانت تُقبع في السويداء من الثقافة الأوروبية إبان العقود العديدة من التوسع الامبريالي تركزيةً أوروبيةً لا رادع لها ولا هواده فيها. ولقد قامت هذه «التمركزية» بمراكمة التجارب، والأراضى، والشعوب، والتواريخ؛ ودرَّستْها، وصنَّفَتْها، وأخضعتها للتمحيص والتحقق، وأتاحت - بتعبير كالدور - لرجال الأعمال الأوروبيين

القوة على "أن يخطأوا ويكيدوا بجلال"<sup>(٧٣)</sup>؛ لكنها فوق كل شيء آخر، أخضعتها والحقها بها عن طريق نفي هويتها - إلا كشكل من الوجود أدنى مرتبة من الثقافة - بل نفيها من فكرة أوروبا البيضاء المسيحية عنها. وينبغي أن تعاین هذه العملية الثقافية بوصفها نقطة طباق <كاونترپوينت> حيوية، مفعمة، ومنشّطة للالة الاقتصادية والسياسية الكامنة في المركز المادي من الامبريالية. ولقد قامت هذه الثقافة المتمركزة أوروبياً دون هواده بترميز وتقنين ولحظ كل شيء يتعلق بالعالم غير الأوروبي أو الأفرافي، وفعلت ذلك بقدر بلّغ من الإلتقان والتفصيل أنه لم يترك إلا القليل من الأشياء دون مساس، وإلا حفنة من الثقافات دون دراسة، وإلا بضعة من الشعوب والبقاع دون استيلاء.

لم يكد يوجد أي انحراف ذي أهمية عن هذه الآراء منذ عصر النهضة. ولئن كان محرراً لنا أن نعلّق بأن تلك العناصر في المجتمع التي اعتبرناها لزمناً طويل تقديمية كانت - فيما يخص الامبراطورية - تراجعية تفهقرية دون استثناء، فإنه لينبغي علينا ألا نخشى قول ذلك. لقد أظهر كتاب وفنانون تقدّميون، كما أظهرت الطبقة العاملة، ونساء - <وجميعها> فئات هامشية في الغرب - حمياً امبرياليةً ازدادت حدةً وأثّقت حماسة مع ازدياد التنافس بين مختلف القوى الأوروبية والأميركية وحشية وسيطرة طائشة، بل غير ذات جدوى. وتغلّغت التمركزية الأوروبية إلى لباب الحركة العمالية، والحركة النسائية، والحركات الطلائعية في الفنون والآداب، ولم تُدرّ أحداً ذا أهمية دون أن تمسه بمسيسها.

مع تنامي الامبريالية من حيث المدى والعمق، تنامت أيضاً المقاومة في المستعمرات نفسها. وكما حدث في أوروبا أن التراكم الكوني الذي ضمّ الأقاليم المستعمرة إلى اقتصاد السوق العالمية قد كان مدعماً ومؤازراً من قبل ثقافة منحت الامبراطورية رخصة عقائدية، فقد حدث في الفضاء الامبريالي ما وراء البحار أن المقاومة السياسية والاقتصادية والعسكرية الهائلة كانت تدفعها إلى الامام وتفعمها ثقافة مقاومة استفزازية ومتحدية فاعلة. ولقد كانت هذه ثقافة ذات تراث عريق من التكاملية والقوة في ذاتها وبصورة مستقلة، ولم تكن ببساطة استجابة منفعلة متأخرة للامبريالية الغربية.

في أيرلندا، كما يقول كالدور، كانت فكرة قتل الغالين\* منذ البداية كجزء من جيش ملكي أو بموافقة ملكية، [تعتبر] عملاً وطنياً ويطولياً وعادلاً<sup>(٧٤)</sup>. وأصبحت فكرة التفوقية العرقية الانكليزية محفورة راسخة <في النفوس>؛ حتى إن آدموند سبنسر، الشاعر والرجل المهذب <الجنتمن> ذا الروح الإنسانية، اقترح بجرأة في <كتابه> رأي في الوضع الراهن في أيرلندا (١٥٩٦) أنه مادام الأيرلنديون سكايتيين برابرة، فإن معظمهم ينبغي أن يبادوا. ومن الطبيعي أن الثورات ضد الانكليز بدأت في وقت مبكر، ومع حلول القرن الثامن عشر كانت المعارضة، بقيادة وولف تون وغراتن، قد اكتسبت هوية خاصة بها، مصحوبةً بتنظيمات، ومصطلحات خاصة، وقواعد. لقد أخذت الوطنية تصبح زياً رائجاً<sup>(٧٥)</sup> خلال منتصف القرن، كما يتابع كالدور، الأمر الذي أعطى المقاومة الأيرلندية، بفضل مواهب سويفت وغولدسميث وبيرك الفائقة، إنشاءً متميزاً خاصاً بها تماماً\*\*.

\* - الغالين (أو الغالين): السكتيون القاطنون في أيرلندا (أو في اسكتلندا أيضاً). (الناشر)

\*\* - المقصود هنا الكتاب البريطانيون جوناثان سويفت (١٦٦٧ - ١٧٤٥)، وأوليفر غولدسميث (١٧٣٠ - ١٧٧٤)، وإدموند بيرك (١٧٢٩ - ١٧٩٧). (الناشر)



لقد أُنجزَ القدرُ الأعظمُ من المقاومة للامبريالية، لكن لم تُنجزَ كلها على الإطلاق، في السياق الواسع للقومية. ما تزال "القومية" كلمة تدل على أشياء من أنماط كثيرة غير متميزة، غير أنها تخدم غرضي بشكل وافر لتحديد هوية القوة المستنفرة الحاشدة التي تواشجت وتلاحمت لتشكّل مقاومةً ضد امبراطورية أجنبية ومحتملة من قبل بشرٍ يمتلكون تاريخاً مشتركاً، وديناً مشتركاً، ولغةً مشتركة. بيد أن القومية، رغم كل نجاحاتها - بل في الواقع بسبب نجاحاتها - في تخليص أقاليم كثيرة من أسياها الاستعماريين، ما تزال مشروعاً إشكالياً بعمق. فحين أخرجت القومية الناس إلى الشوارع في مسيرات ضد السيد الأبيض، كانت في كثير من الحالات بقيادة محامين، وأطباء، وكتّابٍ كانت القوة الاستعمارية هي التي شكّلتهم جزئياً وانتجتهم إلى حدٍ ما. فلقد مالت الطبقتوسطيات القومية ونخبها المتخصصة، التي تحدث عنها فانون بلغة منزرة مُحوّفة، في الواقع الفعلي، إلى استبدال القوة الاستعمارية بقوة جديدة طبقية المقومات ومستغلة في نهاية المطاف، نسخت البنى الاستعمارية القديمة في إطار مصطلحات «ومعطيات» جديدة. ثمة دول عبر العالم الذي كان خاضعاً للاستعمار بأسره انتجت «مرصيات القوة» pathologies of power، كما يسميها إقبال أحمد<sup>(٧٦)</sup>. ثم إن الأفاق الثقافية للقومية قد تكون محدودةً محدوديةً قاتلةً بالتاريخ المشترك الذي تفترضه بدهاءً للمستعمر والمستعمر. فلقد كانت الامبريالية بعد كل حساب مشروعاً تعاونياً، وإحدى خصائصها البارزة في شكلها الحديث هي أنها (أو ادّعت أنها) كانت حركة تعليمية تربيوية؛ ذلك أنها انطلقت بصورة واعية تماماً كي تُحدِّث «تُعصِّر»، وتطوّر، وتعلّم، وتحضّر «تمدّن». وتزدحم حوليات المدارس، والإرساليات والجامعات، وجمعيات البحث العلمي، والمستشفيات، في آسيا، وأفريقيا، وأميركا اللاتينية، وأوروبا، وأميركا، بهذا التاريخ الذي أسس مع مرور الزمن ما يُسمّى اتجاهاتٍ تحديثية بقدر ما أخرس الجوانب الأشد قسوةً من السيطرة الامبريالية. لكنها في المركز منها قد حافظت على الفالق الفاصل في القرن التاسع عشر بين الأصليين والغربيين.

لقد لُقنت المدارس الاستعمارية العظيمة، مثلاً، أجيالاً من الطبقتوسطية الأصلانية حقائق هامة عن التاريخ، والعلوم، والثقافة. ومن خلال هذه العملية التعليمية أدرك الملايين المقومات الأساسية للحياة الحديثة، بيد أنهم ظلوا تابعين خاضعين لسلطة تقوم في مكان آخر غير حياتهم. وإذا كان أحد أغراض التعليم الاستعماري إعلاء شأن تاريخ فرنسا وبريطانياً وترويجهُ، فإن ذلك التعليم ذاته حطّ من شأن التاريخ الأصليين. وهكذا فقد كانت ثمة دائماً بالنسبة للأصليين الانكترات، والفرّسّات، والألمانيات، والهولنديات كمستودعات قصيةٍ لـ "الكلمة"، رغم الوشائج التي تطورت بين الأصليين والرجل الأبيض خلال سنوات التعاون المثمر. ويقدم «بطل» جويس، ستيفن ديدالس، وهو يواجه مدير دراسات الانكليزي، مثلاً مشهوراً لشخص يكتشف هذا بقوة غير عادية:

اللغة التي نتحدث بها هي لغته قبل أن تكون لغتي. ما أشد اختلاف كلمات: "البيت"، "المسيح"، "الجزر"، "السيد"، على شفثية وعلى شفثي! لا أستطيع أن انطق أو اكتب هذه الكلمات دون أن أشعر بقلق في الروح. إن لغته، المألوفة جداً والأجنبية جداً، ستكون دائماً بالنسبة لي لغةً مكتسبةً. أنا لم اصنع أو اقبل كلماتها. صوتي يصدّما. وروحي ترتعد في ظلال لغته<sup>(٧٧)</sup>.

\* - تعتمد المؤلف استخدام هذه الكلمة Word مستخدماً حرفاً كبيراً لـ W، فتصبح "الكلمة" تحمل المعاني التالية: إرادة الله، كلمة الله (اللوغوس أو المسيح)، العهد الجديد... (الناشر)

كانت القومية في أيرلندا، والهند، ومصر، مثلاً، متجذرةً في الصراع العريق من أجل الحقوق الأصلانية والاستقلال الأصلي الذي قامت به الأحزاب القومية مثل شين فين، والمؤتمر، والوفد. وحدثت عمليات ماثلة في أماكن أخرى من أفريقيا وآسيا. نهرو، عبد الناصر، سوكارنو، نيريري، نكروما: لقد ازدهر معبد الهة «بانثيون» باندونغ، بكل معاناته وعظمته، بفضل المحرك الحيوي القومي، الذي تجسّد ثقافياً في السير الذاتية الملهمة لهؤلاء القادة القوميين العظماء وفي كتب إرشاداتهم، وفي تأملاتهم الفلسفية. ويوسعنا تبينٌ مسحةً أبويةً «ربوبية» لا يخطئها الإدراك في كل مكان من القومية العريقة، تتضمن إرجاءات وتشويهات لحقوق النساء والأقليات (لكي ندع جانباً الحريات الديمقراطية) ما تزال قابلة للتمسك اليوم. ولقد أنتجت القومية العريقة أيضاً أعمالاً حاسمة الأهمية مثل «كتب» كاي. أم. بانيكار آسيا والسيطرة الغربية، وجورج انطونيوس العقطة العربية، والأعمال المختلفة لـ «حركة» الانبعاث الأيرلندي.

ضمن «حركة» الانبعاث القومي، في أيرلندا وفي أماكن أخرى، كانت ثمة لحظتان سياسيتان متميزتان، لكل منهما ثقافتها التخيلية الخاصة، ولا يمكن تصوّر الثانية دون الأولى. كانت الأولى وعياً واضحاً بأن الثقافة الأوروبية والغربية هي الامبريالية؛ ولقد امكنت لحظة الوعي الانعكاسية هذه المواطن الأفريقي، أو الكاريبي، أو الأيرلندي، أو الأميركي اللاتيني، أو الآسيوي من تأكيد انتهاء ادعاء أوروبا الثقافي لحق هداية و / أو إرشاد الفرد غير الأوروبي أو غير القاطن للبر الرئيسي. وكثيراً ما تم هذا أولاً، كما يحتجّ توماس هودجكن، على يد «أنبياء وكهنة»<sup>(٧٨)</sup>، بينهم شعراء ورؤيويون، قد يكونون سُخاخات من «الثوار البدائيين» لدى هوبسبوم. وحدثت للحظة الثانية، وهي تحريرية بشكل أكثر علنية، خلال الحملة الامبريالية الغربية التي استطلت طويلاً احتدامياً بعد الحرب العالمية الثانية في أقاليم استعمارية مختلفة، وبصورة رئيسية في الجزائر، وفيتنام، وفلسطين، وأيرلندا، وغينيا، وكوبا. وقد انجلى «أنها» أن القومية التقليدية، سواء اكانت في الدستور الهندي، أم في تصريحات دعاة الوحدة العربية والوحدة الأفريقية، أم في أشكالها الإقليمية مثل غيئة بيرس\* ورتوجة سنغور، قد كانت غير كافية، وكانت حاسمة، في أن واحد، لكن كخطوة أولى فقط. ومن هذه المفارقة الضدية تتبع فكرة التحرير، وهي موضوع ما بعد-قومية قوية جديدة كانت متضمنة في أعمال كونوللي، وغارفي، ومارتي، وماريتيغي، وكابرال، ودي بويز، مثلاً، بيد أنها كانت بحاجة الى التشرب بالنظرية، بل إلى التشرب بالكفاحية المسلحة العصيانية لتندفع إلى الأمام بشكل واضح.

لننظر من جديد الى أدب اللحظة الأولى، لحظة المقاومة ضد الامبريالية. إذا كان ثمة ما يميّز خيالاً مناهضة الامبريالية تمييزاً جذرياً، فإنه أولية العنصر الجغرافي. فالامبريالية بعد كل حساب فعلٌ من أفعال العنف الجغرافي الذي يتم عن طريقه فعلياً استكشاف كل فضاء في العالم، وتخطيطه، وإخضاعه أخيراً للسيطرة. ولقد دُشّن تاريخ العبودية الاستعمارية، بالنسبة للأصلائي، بفقدان المكان المحلي لـ «مصلحة» الغريب الخارجي؛

\* - غيئة: منسوب إلى الغيئة (راجع هامشاً سابقاً). وأما باتريك هنري بيرس (١٨٧٩ - ١٩١٦) فهو شاعرٌ ومربٍ وزعيم القومية الأيرلندية، وأول رئيس للحكومة المؤقتة للجمهورية الأيرلندية التي أعلنت في دبلين عام ١٩١٦، ورئيس أركان القوات الأيرلندية المناهضة للبريطانيين في تلك السنة (الناشر، عن الموسوعة البريطانية).

ومن ثم يجب البحث عن هوية المكان الجغرافية واستعادتها بصورة ما. لكن حضور الخارجي المستعمر يجعل استعادة الأرض متعذرة، في البداية، إلا من خلال الخيال.

دعني أقدم ثلاثة أمثلة تُظهر كيف تنتقل اليد الميتة\* الجغرافية الامبريالية، المعقدة لكن الثابتة، من العام الى الخاص. اكثرها عمومية يُعرض في <كتاب> كروسبي الامبريالية البيئية. يقول كروسبي إنَّ الاوروبيين حيثما ذهبوا بدأوا فوراً بتغيير البيئة المعيشية المحلية؛ وكان غرضهم الواعي هو تحويل الأراضي إلى صور مما كانوا قد خَلَفوه وراءهم. ولم يكن لهذه العملية من نهاية، إذ قام عدد هائل من النباتات والحيوانات والمحاصيل، إضافة الى طرائق البناء، بتحويل المستعمرة تدريجياً إلى مكان جديد، مكتمل بأمراضه الجديدة، واختلالاته البيئية، وإزاحاته للأصلايين المغلوبين على أمرهم<sup>(٧٩)</sup>. وقد خلقت البيئة المغيرة أيضاً نظاماً سياسياً مغيراً. وأدى هذا، في عين الشاعر أو الرويوي القومي اللاحق، إلى تغريب البشر عن تقاليدهم، وطرق حياتهم وتنظيماتهم السياسية الأصلية. ولقد نَحَلَّ قدرٌ كبيرٌ من الأسطورة الرومانسية في هذه النساخات القومية للكيفية التي سببت بها الامبريالية استلاب الأرض، بيد أننا ينبغي الانشك في ان التغييرات الفعلية التي حُبكت كانت واسعة المدى.

والمثل الثاني هو المشاريع العقلية للتملك الطويل المدى للأراضي، وهي مشاريع حاولت بمكرورية أن تجعل الأرض مريحة وأن تدمجها في الوقت ذاته ضمن حكم خارجي. يصوغ الجغرافي نيل سميث في كتابه التطور اللامتكافئ بالمعية كيف أنتجت الرأسمالية تاريخياً نمطاً معيناً من الطبيعة والفضاء، مشهداً طبيعياً متفاوت التطور يُكامل الفقر مع الثراء، والتمدين الصناعي مع الانكماش الزراعي. وأوج هذه العملية هو الامبريالية، التي تسيطر على الفضاء كله وتصنّفه، وتُسَلِّعُه<sup>٨٠</sup>، على مدى كوني، تحت رعاية المركز الحواصري. والمقاييس الثقافية لها هو الجغرافيا التجارية في أواخر القرن التاسع عشر، التي سَوَّغَتْ منظوراتها (في أعمال ماكيندر وتشيزولم، مثلاً) الامبريالية بالقول إنَّ هذه الأخيرة نتيجة للخصوبة أو العقم الطبيعيين، ولتوفر الخطوط البحرية، والمناطق، والأراضي، والمناخات، والشعوب، التمايزة تمايزاً دائماً<sup>(٨١)</sup>. وهكذا تتحقق كونية الرأسمالية، التي هي مُمَايزَةُ الفضاء القومي تبعاً للتقسيم الأرضي <الجغرافي> للعمل<sup>(٨١)</sup>.

يُسَمِّي سميث، مقترحياً في ذلك خطى هيغل وماركس ولوكاش، إنتاج هذا العالم "الطبيعي" علمياً، طبيعياً ثانية. وبالنسبة للخيال المناهض للامبريالية، فإنَّ فضاءنا في الوطن في الهوامش قد اغتُصِبَ وهو يُستخدم من قبل <آخرين> خارجيين لأغراضهم الخاصة. ولذلك يكون ضرورياً أن نتشوق، أو نرسم، أو نبتكر، أو نكتشف طبيعياً ثالثة، لا طبيعياً نقيية ولا قبل-تاريخية (يقول بيتس إنَّ ايرلندا الرومانسية ماتت واندثرت) بل مشتقة من حرمانات الحاضر الراهن. إنَّ الهاجس الدافع هاجسُ خرائطي <كارتوغرافي>، وبين

\* - راجع ملاحظتي المتعلقة بعبارة "اليد اليمنى" في حاشية في الفصل الثاني؛ وهي تعني "السلطة القاهرة المستمرة".

\*\* - أي: تحوُّله إلى سلعة؛ ويبدو أنَّ المترجم أثر هذا التعريب تمييزاً له عن الأشيع: "سَلَّعَ"، لأنَّ معنى هذه الأخيرة في الأصل يفيد التشقيق (الناشر)

امتثلته الأشد إثارةً قصائدُ بيتس المبكرة المجموعة في "الوردة"، وقصائدُ نيرودا العديدة التي ترسم خريطةً المشهد الطبيعي التشيلي، وسيزير <في قصائده> عن الأنتيلز، وفازير عن الباكستان، ودرويش عن فلسطين:

أرد إليّ لون الوجه والبدن،

رضوء القلب والعين

وملح الخبز واللحن

وطعم الأرض والوطن (٨٢).

لكن الفضاء الاستعماري - <وإليكم> مثلاً ثالثاً - ينبغي أن يحوّل تحويلاً كافياً لكي لا يظل يبدو اجنبياً للعين الامبريالية. ولقد تعرضت أيرلندا، أكثر من أيّ مستعمرة أخرى من مستعمرات بريطانيا، لانمساحاتٍ لا تُحصى عن طريق مشاريع استيطانيةٍ متكررة، وفي أوج ذلك، عن طريق ضمّها العملي <إلى بريطانيا> عام ١٨٠١ بموجب "قانون الاتحاد". بعدئذ، صدر أمرٌ عسكري عام ١٨٢٤ بإعداد مسح لأراضي أيرلندا كان هدفه إطلاقُ أسماء انكليزيةٍ <على الأماكن>، وإعادة رسم حدود الأراضي لتتيح تضمين الأملاك (ومزيداً من مصادرة الأراضي لمصلحة العائلات الإنكليزية وعائلات "النبلاء")، وإخضاع السكان إخضاعاً دائماً. وقد قام بعملية المسح بصورة كلية تقريباً موظفون إنكليز، وترك ذلك، كما جادلّت ماري هامر بإفحام، "أثراً فورياً هو تحديد الأيرلنديين بأنهم غير أكفاء [و]... الحط من إنجاز[هم] القومي" (٨٣). وتعالج إحدى أقوى مسرحيات براين فرييل، وهي ترجمات (١٩٨٠)، التأثير المدمر لمسح الأراضي <المذكور> على السكان الأصليين. ففي عملية كهذه، تتابع هامر قائلةً، "يُفترض أن يكون المستعمر بصورة تنميطية سلبياً ويتم النطق عنه، ولا يسيطر على تمثيله الخاص بل يُمثّل تبعاً لهاجس هيمنة يُركّب عن طريقه ذاتاً وحدانية ومستقرة ثابتة" (٨٤). ومحدث في أيرلندا حدث في البنغال أيضاً، كما حدث على يد الفرنسيين في الجزائر.

كانت إحدى المهمات الأولى لثقافة المقاومة هي إستعادة الأرض، وإعادة تسميتها، وإعادة سكناها. وترافق مع ذلك طقمٌ كامل من التأكيدات، والاسترجاعات، والتعريفات الإضافية التي كانت جميعاً بمعنى حُرْفِي مؤرّضةً على هذا الأساس المسقط شعرياً. ولقد كان البحث عن أصالة، وعن أصل قومي أكثر ملاءمةً ومجانسةً من ذلك الذي قدّمه التاريخ الاستعماري، وعن معبد الهةٍ <پانثيون> جديدٍ من الأبطال (ومن آن لآخر) البطلات والأساطير والأديان - كل هذه صارت أيضاً ممكنة بفضل إحساس بالأرض التي أعاد أهلها مصادرتها. وإلى جانب هذه الإشارات الترميزية القومية للهوية التي فكّ عنها الاستعمار، يحدث دائماً إعادة تطوير تكاد تكون ملهمةً سحرياً، وشبه كيميائيةً للغة الأصلانية.

وبيتس شيقٌ بشكل خاص هنا. فهو يعبر، مع الكتاب الكاريبيين وبعض الكتاب الأفارقة، عن مازق تقاسم لغةٍ مع سيد استعماري أعلى <مطلق>، وبيتس ينتمي طبعاً بطرق عديدة هامة إلى <حركة> الهيمنة <السيطرة> البروتستانتية، التي كانت ولاءاتها الأيرلندية مشوشة، بكلمة معتدلة، إن لم تكن في حالته الشخصية <ولاءات> متناقضةً

• - جزر الهند الغربية، باستثناء الباهامان.

تماماً. وثمة تقدّم منطقي الى حد بعيد من غَيْلِيَّة بيتس المبكرة، بهواجسها وموضوعاتها السلّية، إلى اساطيرياته المنتظمة اللاحقة كما صيغت في قصائد برنامجية مثل "أنا الرب إلهك" Ego Dominus Tuus وفي رسالته رؤيا. وبالنسبة لبيتس، كان لا بدّ للتقاطع الذي عرّف أنه قائم بين قوميته الايرلندية والتراث الثقافي الانكليزي، الذي سيطر على بيتس ومنحه القوة في أن واحد، من أن يسبب توتراً؛ وبوسع المرء أن يتكهن بأن الضغط <النابع> من هذا التوتر السياسي والدنيوي بالحاح هو ما دفع بيتس إلى محاولة حلّه على مستوى "أعلى"، أي: على مستوى غير سياسي. إنّ التواريخ الشذّاذة شذّاذة عميقة والمصوغة جمالياً التي أنتجها في رؤيا وفي القصائد المتأخرة شبه الدينية، لتسمو بالتوتر الى مستوى زائد-دنيوي، كما لو أن ايرلندا لا تؤخذ الأخذ الاكمل، إذا جاز التعبير، إلا على مستوى أعلى من مستوى الأرض.

لقد اقترح شيمس دين، في انبعاثات سلتية، وهو أكثر المسارد إشاقاً والمعية لفكرة بيتس الفؤأرضية عن الثورة، أنّ ايرلندا بيتس المبكرة والمختزعة كانت "سلسة" الانقياد لخياله... [في حين] انتهى الى اكتشاف ايرلندا حُرُون تجمع به جموحاً. وكلما حاول بيتس أن يوفّق بين آرائه السحرية الغيوية وبين ايرلندا حقيقية - كما فعل في "التمائل" - كانت النتائج متكلفة مصطنعة، كما يقول دين مصيباً<sup>(٨٥)</sup>. ولأنّ ايرلندا بيتس كانت بلداً ثورياً، فقد كان بمقدوره أن يستخدم تخلفها منبعاً لعودة مقلقة جذرياً، ومخرّبة معوقة، الى مثل عليا روحية ضاعت في أوروبا حديثة مفرطة التطور. وقد رأى بيتس أيضاً في وقائع احتدامية مثل انتفاضة فصّح عام ١٩١٦\*، كسراً لدورة من التكرار اللانهائي الذي ربما كان في نهاية المطاف تكراراً عبثياً، كما يُجسّد رمزياً في مخاضات كوتشولين التي تبدو غير ذات حدود. ونظريته دين هي أنّ ولادة هوية قومية ايرلندية تتطابق بالنسبة لبيتس مع كسر تلك الدورة، مع أنها أيضاً تؤكّد وتعزز - لدى بيتس نفسه - وجهة النظر الاستعمارية البريطانية في <وجود> شخصية قومية ايرلندية مخصّصة. وهكذا تؤكّد عودة بيتس إلى التصوف ولجوؤه إلى الفاشية، كما يقول دين بحساسية وإدراك، المازق الاستعماري الذي يتم التعبير عنه أيضاً، مثلاً، في تمثيلات في. إس. نيبال للهند، كتثافة تدين للوطن الأم بذاتها الخاصة وبإحساس بـ "الانكليزية" وتنعطف مع ذلك نحو المستعمرة: "إنّ مثل هذا البحث عن طابع قومي يغدو استعمارياً، بسبب التواريخ المختلفة للجزيرتين. ولقد كان أعظم إزهار لمثل هذا البحث شعراً بيتس"<sup>(٨٦)</sup>. إنّ تصوف بيتس المقصود وتهافته بعيدان كلّ البعد عن أن يمثلوا قومية بالية، إذ إنهما يجسّدان طاقة كامنة ثورية، ويصرّ الشاعر على "أن ايرلندا ينبغي أن تحتفظ بثقافتها بابقاء وعيها للأسئلة الماورائية يقطاً حياً"، كما يعبر دين<sup>(٨٧)</sup>. ففي عالم أزالته منه التوترات القاسية للرأسمالية الفكر والتأمل، يكون الشاعر الذي يستطيع تنشيط الإحساس بالابدئي وبالموت <بضخه> الى الوعي هو المتمرّد الحقيقي، يكون شخصاً تحفره مضاءلات الاستعمار <له> إلى إدراك سلبي لمجتمعه وللحادثة "المتحضرة".

\* - اندلع القتال في اثنين فصّح ١٩١٦ بين القوميين الايرلنديين والقوات البريطانية بعد إعلان الاوائل - بلسان باتريك هنري بيرس (راجع هامشاً سابقاً) - عن قيام الجمهورية الايرلندية من على درج مكتب البريد في دبلن. وقد نُعت الانتفاضة في ٢٩ نيسان من العام نفسه. (الناشر)

هذه الصياغة، الأدورنوية إلى حدّ ما، لورطة يبتس شديدة الجاذبية بالطبع. ومع ذلك فربما أوهنتها رغبتها في أن تجعل يبتس أشدّ بطولاً مما كانت ستوحي به قراءة سياسية خام، وأن تُعزّر سياسياته الرجعية غير المقبولة وغير المستساغة - فاشيته الخالصة، واستيهاماته حول بيوت وعائلات عتيقة عريقة، وتهويماته المتهافنة السحرية الغيوبية - بترجمتها الى حالة من حالات "الجدلية السلبية" عند ادورنو. وكتصحيح صغير، فإنّ بوسعنا أن نرى يبتس رؤية أكثر صحةً ودقة كمثّل متفانٍ لظاهرة الأصلانية nativism التي ازدهرت في أماكن أخرى (على سبيل المثال: الزنوجة) نتيجةً للمواجهة الاستعمارية.

صحيح أنّ الصلات الفيزيائية، الجغرافية، بين انكلترا وإيرلندا أوثق من الصلات بين انكلترا والهند، أو بين فرنسا والجزائر أو السنغال. بيد أن العلاقة الامبريالية قائمة ثمة في كل الحالات. فالإيرلنديون <تبعاً لهذه العلاقة> لا يمكن أبداً أن يصبحوا إنكليزيين بأكثر مما يمكن للكيمبويين أو الجزائريين أن يصيروا فرنسيين. تلك هي الحالة دائماً، في ما يبدو لي، في كل علاقة استعمارية، لأن المبدأ الأول هو أن تميزاً تراتيبياً مطلقاً وصارم الوضوح ينبغي أن يظل ثابتاً بين الحاكم والمحكوم، سواء أكان الثاني أبيض أم لم يكن. والأصلانية، للأسف، تعزّز التمايز حتى حين تعيد تقييم الطرف الأضعف أو الخاضع <وتعلي من شأنه>. وهي كثيراً ما قادت الى تأكيدات قوية تستدعي الانتباه، ولكنها تأكيدات دهمائية حول ماض أصلائي، أو سردية أو واقع، تنتصب متحررةً نقيّةً من الزمن الدنيوي نفسه. ويرى المرء هذا في مشروعات مثل زنوجة سنغور، أو في الحركة الراسفارية، أو في المشروع الغارفي <الذي حثّ> الأميركيين السود على العودة إلى أفريقيا\*، أو في إعادة اكتشاف جواهر إسلامية متعددة غير ملطخة، سابقة على الاستعمار.

إذا وضعنا جانباً المقت الهائل في الأصلانية (كما يتجلى، مثلاً، عند جلال علي احمد في مرض الغرباوية <Occidentosis> وهو كُرّاس <دعائي> واسع التأثير صدر عام ١٩٧٨ يلوم الغرب على جلّ الشرور في العالم)، فإنّ ثمة سببين لرفض المشروع الأصلاني، أو على الأقل لإعادة تصوره. فإن نقول، كما يفعل دين، إنّ هذا المشروع متهافت ولكنه ثوري الى درجة البطولة أيضاً لأنه ينفي السياسة والتاريخ، هو أن ننع - كما يبدو لي - في <شرك> الموقف الأصلاني وكأنه هو الخيار الوحيد المتاح لقومية مقاومة تفكك الاستعمار. بيد أنّ لدينا أدلة على متالف هذا الموقف وخرائبه: فإن نقبل الأصلانية هو أن نقبل عقابيل الامبريالية، <أن نقبل> الانقسامات العرقية، والدينية، والسياسية التي فرضتها الامبريالية ذاتها. وإن نهجر العالم التاريخي تعلقاً بماورائيات جواهر مثل الزنوجة، والإيرلندية، والإسلام، والكاثوليكية، هو أن نهجر التاريخ من أجل تجوهرات تملك القوة على أن تثير البشر بعضهم ضد بعض؛ وكثيراً ما قاد هذا الهجران للعالم الدنيوي الى نوع من الالفوية\*\* حين كانت للحركة قاعدة جماهيرية، أو تحلّت

\* - الزنوجة négritude: وعي الزنوج للتراث الافريقي وفخرهم به. واما الحركة الراسفارية فهي عقيدة دينية في اوساط الجامايكيين السود تقول بخلاص السود وعودتهم إلى أفريقيا، وتقُدس هيلاسيلاسي. واما المشروع الغارفي فهو نسبة الى ماركوس غارفي (١٨٨٧ - ١٩٤٠) الذي وُلِد ونشأ في جامايكا، ثم ذهب الى لندن فالولايات المتحدة وأسس بين عامي ١٩١٩ و ١٩٢٦ اول حركة اميركية سوداء، وكان مركزها في هارلم في نيويورك. (الناشر)

\*\* - الإيمان بقدم العصر الالفّي السعيد الذي سيملك فيه المسيح على الأرض، بحسب سطر الرؤيا؛ وهي أيضاً الإيمان بقدم عصر تسوده العدالة والسعادة والكمال الإنساني. (الناشر)

وانحطت إلى جنون خاص ضئيل الشأن، أو إلى قبول خال من التفكير بالتنميطات والأساطير والعداوات والتقاليد التي تشجعها الامبريالية. ولا يكاد يكون ثمة من ريب في أن مثل هذه البرامج بعيدة عن أن تكون ما «سبق أن» تخيلته حركات المقاومة العظيمة أهدافاً لها .

ثمة طريقة ناجحة للقبض قبضاً أفضل على هذه «المشكلة» تحليلياً، وهي إلقاء النظر على تحليل للمشكلة نفسها تم إنجازُه في السياق الأفريقي، من خلال تنقيد «الكاتب النيجيري» وول شوينكا الصاعق للزئوجة الذي نُشر عام ١٩٧٦. يلاحظ شوينكا أن مفهوم الزئوجة هو المصطلح الثاني، الدوني، في ثنائية ضدية - هي ثنائية الأوروبية ضد الأفريقي - قَبِلَتِ البنية الجدلية للمجابات العقائدية الأوروبية لكنها استعارت من مكونات قياسها العِرقي عينها<sup>(٨٨)</sup>. هكذا يكون الأوروبيون تحليليين، والأفارقة «عاجزين عن «ممارسة» الفكر التحليلي، ولذلك فإن الأفريقي ليس متطوراً تطوراً عالياً» أما الأوروبي فهو كذلك. والنتيجة، تبعاً لشوينكا، هي أن:

الزئوجة أوقعت نفسها في شرك ما كان بشكل رئيسي دوراً دفاعياً، رغم أن نبراتها كانت حادة صارخة، ونظمتها التركيبي مغالياً، واستخطاطيتها عدوانية... لقد انخسبت الزئوجة في نظام مُسبق الصياغة من التحليل الفكري المتمركز أوروبياً لكلا الإنسان ومجمعه، وحاولت أن تعيد تحديد الأفريقي ومجمعه في إطار تلك المعطيات المُخرَّجة «المدفوعة إلى الخارج»<sup>(٨٩)</sup>.

إننا نبقى مع هذه المفارقة الضدية التي أفسح عنها شوينكا نفسه (وفي باله فانون)، وهي أن عبادة الزنجي أمرٌ «مَرَضِيٌّ مقرف» بقدر ما هو مقته. وفيما يستحيل تجنب المراحل الصدامية التأكيدية المبكرة في «تشكل» الهوية الأصلانية - وإنها لتحدث دائماً: فلا يدور شعر بيتس المبكر «مثلاً» على أيرلندة وحسب بل على الأيرلندانية «أيضاً» - فإن ثمة قدراً كبيراً من الوعد في تجاوز هذه المراحل، وفي عدم انحباس المرء في مصيدة الانغماس العاطفي في الاحتفاء بهويته الخاصة. ثمة قبل كل شيء إمكانات اكتشاف عالم ليركَّب من جواهر متحاربة. وثمة، ثانياً، إمكانات كونية ليست محدودة أو إكراهية، كما هو «محدود وإكراهي» الإيمان بأن الناس جميعاً يمتلكون هوية واحدة مفردة - أن جميع الأيرلنديين هم أيرلنديون فقط، والهنود هنود وحسب، والأفارقة أفارقة، وهلم جرأً إلى حد الغثيان. ثالثاً، وهو الأمر الأهم، لا يعني تجاوز الأصلانية التخلي عن الجنسية/القومية\*، بيد أنه يعني بحق التفكير بالهوية المحلية باعتبارها غير مستنفذة، ويعني كون المرء نتيجة لذلك غير متلهف لحصر نفسه في مجاله الخاص، بما فيه من مراسيم انتماء، واستعلانية مُنبئية «طَبْعياً»، وحسن أمان مولدٍ للمحدودية.

الجنسية، القومية، الأصلانية: إن توالي هذه «المفاهيم»، في اعتقادي، ليصبح أكثر فاكثراً تقييداً وإكراهياً. إن بوسع المرء أن يراقب في الجزائر وكينيا مقاومة مجتمع بطولية تشكلت جزئياً من المذلات الاستعمارية، وأدت إلى نزاع مسلح وثقافي مديد مع القوى الامبريالية، فسَّخ بدوره الطريق لدولة حزب واحد ذات حكم استبدادي مطلق وفسَّخ، في

\* - يصعب التفريق في هذا السياق بين الجنسية والقومية في الكلمة الانكليزية التي يستخدمها المؤلف وهي "nationality" بدلاً من الكلمة الطاغية عبر دراسته كلها وهي "nationalism"، وهو في المقطع التالي يستخدمهما معاً؛ ولذلك ادرجت كلا الإمكانيتين.

حالة الجزائر، لمعارضة إسلامية أصولية لا تهاين ولا تقبل الحلول الوسطى. ولا يكاد يكون ممكناً القول إن الاستبداد المهرق الذي مارسه نظام موا Moi في كينيا يُكمل التيارات التحريرية لانتفاضة الماوماو؛ إذ ليس ثمة تحويل وتغيير للوعي الاجتماعي هنا <في كينيا موا>، بل مَرَضِيَّاتُ القوة والسلطة المروَّعة وحسب، التي تُنسخ في أماكن أخرى: في الفلبين، واندونيسيا، وباكستان، وزانير، والمغرب، وإيران.

على أية حال، ليست الأصلانية هي البديل الوحيد. بل ثمة إمكانية لرؤيا أكثر أريحية وتعددية للعالم، الذي تتابع فيه الامبريالية طريقها متهادية، إذا جاز التعبير، في أشكال مختلفة (أحدها استقطابية الشمال - الجنوب في زمننا الراهن)، وتستمر علاقة السيطرة، غير أن فرص التحرير متاحة مفتوحة. ورغم أن دولة أيرلندية حرة قد وُجدت قبل نهاية حياة بيتس عام ١٩٣٩، فإنه جزئياً ينتمي إلى هذه اللحظة الثانية، كما يتجلى في شعوره المعزَّز المستمر بالعداء للبريطانيين وفي الغضب والمرح الماثلين في شعره الأخير المزَّعج إزعاجاً فوضوياً. وفي هذه المرحلة يكون التحرير، لا الاستقلال القومي، البديل الجديد: التحرير الذي يشمل بطبيعته عينها، بكلمات فانون، تحويل الوعي الاجتماعي إلى ما يتجاوز الوعي القومي<sup>(٩٠)</sup>.

إن انزلاق بيتس إلى التهاقت والتصوف خلال الـ ١٩٢٠ات، ورفضه للسياسة، ومناصرتَه المتغترسة - على ما فيها من فتنة - للفاشية (أو للسلطوية من النمط الإيطالي أو الأميركي الجنوبي) لا ينبغي أن تُعَدَّرَ، إذن، حين نعاينها من هذا المنظور، ولا ينبغي أن تحوَّلَ بتسرُّع إلى جدلية من النهج الطوباوي السلبي. ذلك أن بوسع المرء بسهولة تامة أن يوضع وينقد آراء بيتس المرفوضة هذه دون أن يغيَّرَ رأيه في بيتس كشاعر من <شعراء> فكفكة الاستعمار.

تتجسد هذه الطريقة في تجاوز الأصلانية في المنعطف العظيم الذي يحدث في ذروة <كتاب> سيزير دفتراً عودة حين يدرك الشاعر - بعد أن يعيد اكتشاف ماضيه ويعيش تجاربه من جديد، وبعد أن يلج من جديد عواطف تاريخه المشبوبة وفنائه وظروفه كـ <إنسان> أسود، وبعد أن يحسُّ بالغضب ثم يُفرغ نفسه منه، وبعد أن يقبل:

إنني لأقبل... إنني لأقبل... كلياً، ودون تحفُّظ  
عزقي الذي لا يُقدَّرُ وضوءاً بالزُّوفاً مزوجاً بالسُّوسنِ أن يطهره  
عزقي المنخور بالوصمات  
عزقي عينا ناضجاً لأقدام سكري

يدرك أنه بعد ذلك كله تتملكه فجأة القوة والحياة "مثل ثور <هانج>"، ويبدأ يفهم أن:

ليس صحيحاً أن عمل الإنسان قد انتهى

وأنه ليس لدينا ما نفعله في العالم

وأننا نتطفل <ونشوش> على العالم

وأنه يكفينا أن نفتني العالم

بل <الحق> أن عمل الإنسان لم يبدأ إلا اللحظة

وأن على الإنسان أن يقهر جميع النواهي والتحريمات

المغروزة بثبات في أعماق حُمياه



ولا عِرْقٌ <يملك أن> يحتكر الجمال، والذكاء، والقوة  
وثمة مكانٌ للجميع في موعد الفتح  
ونحن نعرف الآن أن الشمس تدور  
حول أرضنا مضيئةً البقعة التي تحددها  
إرادتنا نحن فقط، وأن كل نجم يسقط من السماء  
إلى الأرض تلبيةً لأوامرنا التي لا حدود لها\*

والعبارتان الصادمتان هنا هما "يقهر جميع النواهي والتحريمات المغرورة بثبات في أعماق  
حمايته"، و"الشمس <تدور>... مضيئة البقعة التي تحددها إرادتنا نحن فقط". عليك  
<بحسب العبارتين> ألا تُدْعَن للتصلب والنواهي <الكامنة> في المحدوديات المفروضة  
ذاتياً والتي تصحب العرق، واللحظة، والبيئة؛ بل أن تخترقها إلى حس منقوح بالحياة  
وموسّع بـ "موعد الفتح"، الأمر الذي يشبك بالضرورة ما هو أكثر من إيرلندتك، أو  
مارتينيكك، أو باكستانك.

لست أقصد إلى استخدام سيزير ضد بيتس (أو ضد بيتس <في مفهوم> شيمس  
دين)، بل بالأحرى إلى ربط خيط رئيسي في شعر بيتس ربطاً أوثق وأتم بشعر فكفكة  
الاستعمار والمقاومة، وبالبدائل التاريخية لطريق الأصلانية المسدود. إن بيتس بطرق كثيرة  
أخرى لهو مثل شعراء آخرين يقاومون الامبريالية: في إصراره على سرديّة جديدة لشعبه،  
وفي غضبه على خطط انكلترا لتقسيم إيرلندا (وحماسته لكيّة هذا البلد <واكتماليته>)،  
وفي احتفائه بالعنف وإحيائه لذكراه في خلق نظام جديد، وفي الانتساج المتلوي لعروق  
الولاء والخيانة في الإطار المشهدي القومي. إن ارتباط بيتس المباشر بـ پارنل\*\* وأوليري،  
ويمسرح أبي، وبيانتفاضة عيد الفصح <١٩١٦>، يُدْخِل إلى شعيره ما يسميه آر. بي.  
بلاكمر، مستعيراً من يونغ: "الالتباس المريع لتجربة فورية"<sup>(٨٣)</sup>. وثمة شبة سحري غريب  
بين عمل بيتس في أوائل الـ ١٩٢٠ات والالتزام والالتباسات في شعر درويش الفلسطيني  
بعد ذلك بنصف قرن، في صياغاته للعنف، وللمفاجآت والمباغآت الكاسحة للأحداث  
التاريخية، وللسياسة والشعر كنعقوض للعنف والبنادق (انظر قصيدته الغنائية الرائعة  
"الوردة والقاموس"<sup>(٨٤)</sup>)، وللبحث عن فسح لقرار بعد أن يتم عبور الحدود الأخيرة  
والطيران عبر السماء الأخيرة. "لقد اختفت قنطورات\*\*\* <سنتورات> التلال المقدسة"،  
يقول بيتس، "وليس لدي سوى الشمس التي تملأها المرارة".

يشعر المرء - حين يقرأ القصائد العظيمة لتلك المرحلة الذُويّة بعد انتفاضة عيد  
الفصح عام ١٩١٦، من مثل "الف وتسعمائة وتسع عشرة" أو "فصح ١٩١٦"، و"أيلول  
<سبتمبر> ١٩١٢" - لا بالخيبة فقط في حياة تقودها وتوجهها "التربة المدهنة\*\*\*\*"، أو

\* - لم أتبع هنا ترجمة المؤلف للنص الفرنسي بحذافيرها، بل ترجمتُ الأصل، مخالفاً بذلك نص الترجمة الانكليزية  
مخالفة طفيفة.

\*\* - تشارلز ستوروت پارنل (١٨٦٤ - ١٨٩١): زعيم قومي إيرلندي في أواخر القرن التاسع عشر. (الناشر)

\*\*\* - الكائن الخرافي، نصفه رجل ونصفه فرس.

\*\*\*\* - لا أستطيع إعطاء ترجمة وثيقة لعبارة "greasy till"، لأنها مجردة عن سياق يحدها، والموصوف فيها  
متعدد المعاني. وهي ليست عنواناً لقصيدة لـ بيتس، بل عبارة ترد في مكان ما من شعره عجزت عن اكتشافه رغم  
جهدي في ذلك. والترجمة التي أثبتتها هي إحدى الإمكانات فقط.

عنف الطرقات والأحصنة، و"أبناء عرس تتعارك في جُحْر"، وطقوس ما أُطلق عليه اسم "شعر التضحية (أو الفداء) بالدم... بل (يشعر) كذلك بجمال جديد مريع يغيّر المشهد الطبيعي السياسي والأخلاقي القديم. وإن بيتس، مثل جميع شعراء فكفكة الاستعمار، يصارع لكي يُعلن الخطوط المؤطرة لمجتمع متخيل أو مثالي، متبلور عن طريق إحساس هذا المجتمع لا بنفسه فقط بل بعدوه أيضاً. والمجتمع المتخيل < مفهوم > ملائم هنا، مادامنا لسنا مرغمين أيضاً على قبول التقسيمات الخطية الخاطئة للفترات < التاريخية > التي يقدمها بنديكت أندرسن. إن أعداداً كبيرة من اللغات، والتواريخ، والأشكال، في الإنشاءات الثقافية لفكفكة الاستعمار، تنتشر وتدخل في التداول. وكما أظهرت باربره هارلو في أدب المقاومة، فإن عدم استقرار الزمن، الذي ينبغي أن يُصنع ويعاد صنعه من قبل الشعب وقادته، هو موضوع يجدها المرء في جميع الأجناس < الأدبية >: في السير الشخصية الروحية، وقصائد الاحتجاج، ومذكرات السجن، والمسرحيات التعليمية حول الخلاص. وتستثير الانعطافات في مسار بيتس لدوراته العظيمة عدم الاستقرار هذا، كما يستثيره التبادل السهل في شعره بين الكلام الدارج والرسمي، وبين الحكايات الشعبية والكتابة المتفككة. وإن قلّق ما يسميه تي. إس. إليوت "التاريخ الداهية [و] ردهات الزمن المتكفّة" - الانعطافات الخاطئة، والتقاطع، والتكرار العبثي، واللحظة المجيدة بين أن وأن - تمدّ بيتس، كما تمدّ جميع شعراء وأدباء فكفكة الاستعمار - < ومنهم > طاغور، وسنغور، وسيزير - بالنبرات العسكرية الصارمة، والبطولة، وبالأستمرار الملحاح الساحق لـ "السر المتعذر ضبطه على الأرضية الوحشية". وهكذا يصعد الكاتب خارجاً من بينته القومية ويكتسب دلالة < وأهمية > كونية.

يتحدث پابلو نيرودا، في المجلد الأول من مذكراته، عن مؤتمر للكتاب عُقد في مدريد عام ١٩٣٧ للدفاع عن الجمهورية. "انهمرت استجابات ثمينة للدعوات من جميع الأنحاء. وكانت إحداها من بيتس، شاعر أيرلندا القومي؛ وكانت أخرى من سلمى لاجرلوف، الكاتبة السويدية البارزة. كان كلاهما طاعناً في السن بحيث لا يستطيع السفر إلى مدينة محاصرة مثل مدريد، التي كانت تتعرض للقصف بالقنابل بانتظام، بيد أنهما هرعا إلى الدفاع عن الجمهورية الإسبانية"<sup>(٩٥)</sup>. وبالضبط كما أن نيرودا لم يجد صعوبة في اعتبار نفسه شاعراً يعالج كلا الاستعمار الداخلي في تشيلي والامبريالية الخارجية عبر أميركا اللاتينية بأسرها، فإنه ينبغي، في اعتقادي، أن نعتبر بيتس شاعراً أيرلندياً يمتلك معنى وتطبيقات تتجاوز الأيرلندي المحلي حصراً. لقد قبله نيرودا كشاعر قومي يمثل الأمة الأيرلندية في حربها ضد الطغيان، ولقد ردّ بيتس، تبعاً لنيرودا، إيجابياً على تلك الدعوة المعادية للفاشية عداءً لا يخطئه الإدراك، رغم ميوله التي يكثر الاستشهاد بها إلى الفاشية الأوروبية.

إن التشابه بين قصيدة نيرودا المشهورة عن استحقاق: "القرية" < الپوبلو > (في مجموعة Plenos Poderes الصادرة عام ١٩٦٢، والتي ترجمها ألسنتير ريد، الذي استخدم ترجمته هنا، بـ ممنوحاً قوة تامة) وبين قصيدة بيتس "صيد السمك" لتشابه صادم. فالشخصية المركزية، في القصيدتين كليهما، رجل مجهول الهوية من عامة الناس، وهو في قوته ووحدته تعبيراً مكتوماً عن الناس، وتلك سمة تلهم الشاعر في عمله. هوذا بيتس:

منذ زمن بعيد بدأت  
أستحضر أمام العيون  
هذا الرجل الحكيم البسيط.  
طوال اليوم كنت ابحث في الوجه  
عمّا كنت أمل أنه سيكون  
لاكتب <ع> من أجل عزّتي  
ومن أجل الواقع<sup>(٩٦)</sup>.

وهوذا نيرودا:

عرفتُ ذلك الرجل، وحين كان بوسعي  
حين كان ما يزال لي عينان في رأسي،  
حين كان ما يزال لي صوت في حنجرتي،  
بحثتُ عنه بين الأضرحة وقلت له،  
ضاغطاً ذراعَه الذي لم يكن قد صار غباراً:  
كل شيء سيزول، وستبقى حياً.  
انت اشعلت النارَ في الحياة.  
وصنعتُ ما هو لك.  
لذلك لا تدع أحداً يُثلق  
حين ابدو وحيداً ولست وحيداً؛  
لستُ دون رفاق، وإنني لأتحدث باسم الجميع.  
وثمة مَنْ يسمعني دون أن يدري،  
لكن أولئك الذين عنهم أغني، أولئك الذين يعرفون،  
يواصلون الولادة، ولسوف يفمرّون العالم<sup>(٩٧)</sup>.

يتنامى الباعث والوظيفة الشعريان من حِلْفٍ ينعقد بين الناس والشاعر؛ ومن هنا قوة مثل  
هذه التوسلات لقصيدة فعلية التي يوفّرها الأشخاص الذين يبدو أن كلا الرجلين  
يحتاجها.

ولا تنقطع السلسلة هنا، إذ إن نيرودا يتابع (في واجب الشاعر) ليزعم أنه من  
خلالي، سترد الحرية والبحر مستجيبين للقلب المكفّن، وبيتس يتحدث في البرج عن  
إطلاق الخيال "وإستدعاء الصور والذكريات/من الخراب أو من أشجار عتيقة"<sup>(٩٨)</sup>. ولأن  
هذه المراسيم من الاستنهاض والامتداد الرحب تُعلن من تحت ظلال السيطرة، فإن بوسعنا  
أن نربطها بسرديات التحرير التي صورها فانون تصويراً لا يُنسى في المعذبون في  
الأرض. ذلك أنه فيما تجمّد الانقسامات والانفصالات التي يُحدثها النظام الاستعماري  
عبودية الناس في سُبات منكود، "تولّد مخرج جديدة... أهدافاً لعنف الشعوب  
المستعمرة"<sup>(٩٩)</sup>. ويذكر فانون بالتخصيص إعلانات الحقوق، والمطالبات الصاخبة بحرية  
التعبير، ومطالب اتحادات العمال؛ وفي مرحلة لاحقة، يفتتح تاريخ جديد تماماً إذ تندفع  
طبقة ثورية من الناشطين - خارجة من صفوف فقراء المدن، والمثبوزين، والمجرمين، وذوي  
المكانة <أو الطبقة> المخفوضة <أو الدنيا> - إلى الريف، لتشكل هناك بيطة خلايا من

الفاعلين المسلحين، الذين يعودون إلى المدينة <فيما بعد> من أجل المراحل النهائية للعصيان.

تكمُن القوةُ الفائقة لكتابات فانون في أنها تُعرض كسرديّة مضادّةٍ سريريّةٍ للقوة العنيفة للنظام الاستعماري، الذي سيُهزَم دونما ريب تبعاً للغائيّة <التي تقوم عليها> سرديّة فانون. ويبدو الفرق بين فانون وبيتس في أنّ سرديّة فانون النظرية وربما الماورائية أيضاً لفكفكة الاستعمار المناهضةً للامبريالية موسومةٌ بأسرها بنبرات التحرير ولكناته المُعربة: وهي أكثر بكثير من <مجرد> استدفاعية أصلانية مُنْفَعِلَة <تقوم على ردود الفعل>، تتمثل مشكلتها الرئيسية (كما حلّلها شويكنا) في أنها ضمناً تقبل، ولا تتجاوز، الثنائيات الضدية الأساسية بين الأوروبي وغير الأوروبي. إنّ إنشاء فانون هو إنشاء ذلك الانتصار المتوقع: التحرير، الذي يسمُّ اللحظة الثانية لفكفكة الاستعمار. وفي مقابل ذلك، يعرّف عمل بيتس المبكر النعمة القومية ويتوقف عند عتبة لا يستطيع اجتيازها، رغم أنّ بيتس يرسم مساراً مشتركاً مع مسارات آخرين من شعراء فكفكة الاستعمار، مثل نيرودا ودرويش، <ولكنه> لم يستطع أن يكمله، وإن كانوا هم، ربما، قادرين على قطع شوط <من ذلك المسار> أبعد من شوطه. وقد يحسن المرء على الأقل أن يعترف لبيتس بإرهاصه الترميزي في شعره بالثورية التحريرية والطوباوية التي كُتبتْها بل الغتها أيضاً سياسته الرجعية فيما بعد.

كثيراً ما تمّ الاستشهادُ ببيتس في السنوات الأخيرة بوصفه إنساناً يحذّر شعره من التجاوزات القومية. فهو يُقْتَسَب، مثلاً، دون نسبة <المقتبس إليه> في كتاب غاري سيك (كل شيء يسقط) عن طريقة معالجة إدارة كارتر لازمة الرهائن <الأميركيين> في إيران بين ١٩٧٩ و ١٩٨١<sup>(١٠٠)</sup>، ويقتبس مراسلُ النيويورك تايمز في بيروت خلال ١٩٧٥-١٩٧٧، المرحوم جيمس مرخم، المقاطع نفسها من <الجيء الثاني> في مقالة عند اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية عام ١٩٧٦. <الأشياء تداعي> والمركز لا يستطيع التماسك هي إحدى العبارات. والعبارة الأخرى هي: <الأفضل > بين الناس > يفتقرون إلى أي اعتقاد، فيما يمتلئ الأسوأ بالتوتر المشوب. وسيك ومرخم يكتبان كأمركيين تحريريين <ليبراليين> يفزعهما المدُّ الثوري الذي يكتسح عالمًا ثالثاً كان ذات يوم خاضعاً لاحتواء القوى الغربية وتطويقها. واستخدامهما لبيتس تهديدي: إبقِ خاضعاً للنظام، وإلا فإن مصيرك المشؤوم <مواجهة> نوبة جنون تعجز عن السيطرة عليها. أما كيف يُفترض بالمستعمرين، في وضع استعماري مستعمر، أن يُمسكوا المركز <عن أن يتهاوى> فهو ما لا ينبئنا به سيك ومرخم، بيد أن افتراضهما المسبق هو أن بيتس، في أية حال، كان سيعارض فوضى الحرب الأهلية. كما لو أنّ أيّاً من الرجلين لم يفكر في اقتفاء تداعي النظام إلى <جذوره في> التدخل الاستعماري بادئ ذي بدء - وهو ما فعله تشينوا تشيبي عام ١٩٥٩ في روايته العظيمة الأشياء تداعي<sup>(١٠١)</sup>.

والنقطة <الدالة> هي أن بيتس يكون أشدّ ما يكون قوةً حين يتخيّل ويصوغ تلك اللحظة عينها. وسيكون مجدياً أن نتذكر أنّ النزاع الانكلو - إيرلندي الذي يُشَبَّع به عمل بيتس الشعري كله كان أنموذجاً لحروب التحرير في القرن العشرين<sup>(١٠٢)</sup>. وأعظم أعماله المفككة للاستعمار تتعلق بولادة العنف، أو بالولادة العنيفة للتغيير، كما هو الأمر في

حالات من "ليدا والبجعة" حين تُعْرَضُ لعينيه الاستعماريّتين لمعةً من التآينية تخطف البصر - <وهذه اللمعة هي> اغتصاب الفتاة، وهي إلى جانب ذلك، السؤال "هل اصطنعتُ معرفتَهُ مع قوته/ قبل أن يستطيع المنقار اللامبالي أن يدعها تسقط؟" إن بيتس يوضع نفسه في ذلك المفترق حيث يكون عنفُ التغيير غير قابل للنقاش لكن نتائج العنف تتوسل سبباً ضرورياً، وإن لم يكن دائماً كافياً. وإن موضوعته العظمى، في الشعر الذي بلغ أوجه في البرج (١٩٢٨)، هو كيف يوفّق بين العنف الحتمي للنزاع الاستعماري والسياسيات اليومية لصراع قومي جار، وكذلك كيف يوائم بين قوة كلٍّ من أطراف النزاع المختلفة وبين إنشَاء العقل، والإقناع، والتنظيم، ومقتضيات الشعر. لقد كان إدراك بيتس النبوي بأن العنف عند نقطة معينة لا يمكن أن يكون كافياً وأن على استخطاطيات السياسة والعقل أن تدخل لتؤدي دورها، هي، بحسب علمي، الإعلانُ الهامُّ الأوَّلُ في سياق فكفكة الاستعمار عن الحاجة إلى موازنة القوة العنيفة بعملية سياسية وتنظيمية ملحة. ويأتي تأكيدُ فانون أن التحرير لا يمكن أن يُجَزَّزَ ببساطةٍ عن طريق انتزاع السلطة (رغم أن "أكثر الرجال حكمةً يغدو هو نفسه متوتراً/ بنوع ما من العنف"<sup>(١٠٤)</sup>) بعد ذلك بنصف قرن تقريباً. وإن كُون أيُّ من الرجلين بيتس وفانون لا يقدّم وصفاً لإحداث انتقال بعد فكفكة الاستعمار إلى فترة يحقُّ فيها الهيمنة الأخلاقية نظامٌ سياسيٌ جديدٌ، لهُوَ أحدُ أعراض الصعوبات التي يعيشها ملايين البشر اليوم.

إنه لأمر مدهش أن مشكلة التحرير الإيرلندي قد استمرتُ زمناً أطول بكثير من صراعات مماثلة لها، ومدهش أيضاً أنها كثيراً ما لا تُعتبر قضيةً امبريالية أو قومية؛ بل هي تعايُن بدلاً من ذلك كوضع شاذ ضمن الأقاليم البريطانية. لكن الحقائق تكشف بصورة قاطعة أن الأمر على خلاف ذلك. فمنذ كراس سبنسر حول أيرلندا عام ١٥٩٦، اعتَبَرَ تراثُ كامل من الفكر البريطاني والاوروبي الإيرلنديين عرقاً منفصلاً ودونياً، بربرياً غير قابل للهداية في العادة، وفي حالات كثيرة قاصراً منحرفاً وبدائياً. وتتسم القومية الإيرلندية على مدى المائتين الأخيرتين من السنوات على الأقل بصراعات مدمرة ضروس تشبك مسألة الأرض، والكنيسة، وطبيعة الأحزاب والقادة. بيد أن ما يطغى على الحركة هو محاولة استعادة السيطرة على الأرض، بحيث يكون، بكلمات إعلان ١٩١٦ الذي أسس الجمهورية الإيرلندية، "حقُّ الشعب الإيرلندي في ملكية أيرلندا، وفي السيطرة الكاملة غير المقيدة على المصائر الإيرلندية، حقاً سيّداً وغير قابل للنقض"<sup>(١٠٥)</sup>.

لا يمكن فصلُ بيتس عن هذا المسعى. وبغض النظر عن عبقريته المذهلة، فقد كان إسهامه، كما يعبرُ توماس فلائزن، "في إطار معطيات أيرلندية، وبطريقة فريدة بالطبع في قوتها وفرضها لنفسها، تلك العملية من التجريد والتشبيء المتأينين، التي هي، بشكل

\* أمل أن يكون القارئ على قدر من التسامح فيما يتعلق بترجمة كلمات وعبارات وعناوين تُردُّ في النص الانكليزي معزولةً عن سياق محدّد؛ فترجمة مثل هذه المواد أصعب أنواع الترجمة، لأن عزلتها السياقية تجعل فهم دلالاتها الدقيقة أمراً بالغ الصعوبة. ومن غير المعقول طبعاً أن يُتوقع أن يقوم المترجمُ بالبحث عن كل كلمة وعبارة وعنوان في مظانها ليرى دلالاتها الدقيقة، خصوصاً في كتاب كهذا يحتشد بمئات الأسماء والاقتراسات والإشارات، وبلغات مثل الألمانية، والإيطالية، والفرنسية، والإسبانية، واللأينية أيضاً، إضافة إلى الإنكليزية، طبعاً. فالعمر قصير، والترجمة ليست مهنة المرء الوحيدة في الحياة. وأنا واثق تماماً من أن ترجمتي لبعض هذه المادة - ومنها هذه الجملة، وعناوين بعض قصائد لبيتس - ليست سليمة. لكن العين بصيرة، واليد قصيرة. وحسبي الله!

يتحدى المنطق، سويداء القومية<sup>(١٠٦)</sup>. وقد أسهم في هذا العمل أيضاً بضعة أجيال من كتاب أقل شأناً، مفسحين عن الهوية الأيرلندية في علاقتها بالأرض، وبأصولها السلطية، ويجسد متنام من التجارب القومية والقادة القوميين (ولف تون، كونوللي، ميتشل، اسحق بط، أوكونل، حركة الأيرلنديين المتحدّين، حركة الحكم الذاتي، وما إليها)، وبأدب قومي تخصيصاً<sup>(١٠٧)</sup>. وتضم القومية الأدبية أيضاً بصورة استرجاعية سابقين مهمّين: توماس مور، ومؤرخي أدب مبكرين مثل الأب ماكغويغيهن وصامول فيرغيسن، وجيمس كلارنس مانغن، وحركة الأورنج - أيرلندا الفتاة، وستاندرش أوغريدي. وفي الأعمال الشعرية، والمسرحية، والدراسية البحثية اليوم لشركة فيلد دي (شيمس هيني، وبراي فريل، وشيمس دين، وتوم بولين) ولؤرخي الأدب دكلن كيرد ودبليو. دجي. ماكورماك، يعاد تخيل "انبعاثات" التجربة القومية الأيرلندية هذه تخيلاً لامعاً، وتدفع هذه الانبعاثات المغامرة القومية إلى أشكال جديدة من التعبير اللغوي<sup>(١٠٨)</sup>.

تنبثق نغمة الموضوعات اليتسية الجوهرية عبر الأعمال الأدبية السابقة واللاحقة : مشكلة ضمان اقتران المعرفة بالقوة، وفهم العنف؛ ومن الشيق أن هذه الموضوعات تنبثق أيضاً في عمل غرامشي المعاصر تقريباً، الذي تم الشروع فيه وإحكامه في سياق مختلف. يبدو بيتس، في الإطار المشهدي الاستعماري الأيرلندي، أقدّر على طرح السؤال وإعادة طرحه بشكل مستفز، مستخدماً شعره، كما يقول بلاكمر، كتقنية لـ «إثارة» المتاعب<sup>(١٠٩)</sup>. وهو يذهب إلى أبعد من ذلك في قصائد الرؤيا والاستجماع العظيمة مثل «بين أطفال المدارس»، و«البرج»، و«صلاة من أجل ابنتي»، و«تحت بن بكن»، و«هجران حيوانات السيرك». وهذه القصائد قصائد من اقتفاء الأنساب ومن الاستخلاص، طبعاً: فهي تروي وتعيد رواية قصة حياته من الغورن القومي الأول إلى مقام شيخ «سناتور» يسير عبر قاعة صفاً مفكراً كيف صوّرت وبزّرت شخصية ليذا في جميع مواضعهم، أو أب محب يفكر بطفله، أو فنّان متقدم «في السن أو المرتبة» يحاول تحقيق اتزان الرؤيا، أو أخيراً، كصنّاع عريق يتمكن من البقاء بطريقة ما بعد فقدان (هجران) قواه. إن بيتس يعيد بناء حياته الشخصية شعرياً كتجسيد ملموس للحياة القومية.

تقلّب هذه القصائد رأساً على عقب التعليقات «الكبّسات» التقليدية والمشيئة للوقائع الأيرلندية التي كانت، تبعاً لكتاب جوزيف ليرسن المتفقه *Mere Irish and Fior Ghael*، قدّر الأيرلنديين على يد الكتاب الانكليز لثمانية قرون، مخلّعة ومزيحة تسميات لي - تاريخية مثل «آكلة البطاطا» أو «سكان المستنقعات» أو «أهل الكواخ»<sup>(١١٠)</sup>. يقوم شعر بيتس بربط شعبه بتاريخه، ويفعل ذلك بشكل أكثر إلزاماً من حيث أن الشاعر - كآب أو «رجل عمومي في الستين متبسم»، أو كابن وزوج - يفترض بدهاء أن سرديّة التجربة الشخصية وكثافتها تعادلان تجربة شعبه. وتوحي الإشارات في المقاطع الختامية من «بين أطفال المدارس» بأن بيتس كان يذكّر جمهوره بأن التاريخ والأمة لا يمكن فصلهما بأكثر مما يمكن فصل الراقص عن رقصته.

تجد احتدامية إنجاز بيتس، في ترميم تاريخ مقموع وربط الأمة به، تعبيراً جيداً عنها

في وصف فانون للوضع الذي كان على بيتس أن يقهره. "لا يقنع الاستعمار بمجرد إحكام قبضته على شعبٍ ما وإفراغ عقل الأَصْلاني من كل الأشكال والمضامين. بل إنه، بنمطٍ من المنطق منحرفٍ، يلتفت إلى ماضي الشعب فيشوِّهه ويعمل فيه تخريباً وتدميراً"<sup>(١١١)</sup>. يرقى بيتس من مستوى التجربة الشخصية والشعبية الى مستوى النموذج الأعلى القومي دون أن يفقد فورية الأول أو مقام الثاني. ويخاطبُ اختياره الذي لا يخطئ للخرافات والشخصيات الانسابية جانباً آخر من الاستعمار كما يصفه فانون: وهو مقدِّره على فصم الفرد عن حياته أو حياتها الغريزية، وبتر السمات المائزة المولدة للهوية القومية:

على الصعيد اللاواعي، لم يَسعُ الاستعمار إلى أن يعتبره الأَصْلاني أماً رؤوماً مُحبباً بلطف تحمي طفلها من بيئة معادية، بل بالآخرى أماً تكبح دون انقطاع نسلها المنحرف بشكل أساسي عن أن ينجح في الانتحار وأن يطلق العنان لغرائزه الشريرة. إنَّ الأمَّ الاستعمارية تحمي طفلها من نفسه، من اناء، ومن تركيبه الجسدي <الفيزيولوجي>، وتركيبه الحيوي <البيولوجي>، ومن يؤسه الخاص الذي هو عين جوهره.

في وضع كهذا لا تكون مزاعمُ المثقف [أو الشاعر] الأَصْلاني ترفاً كمالياً، بل ضرورة في أيِّ برنامج متناسق. إنَّ المثقف الأَصْلاني الذي يحمل السلاح دفاعاً عن شرعية أمته، والمستعدُّ برحابة صدرٍ لتعريفه نفسه كمن يُدرَس تاريخ جسده، ملزَمٌ بتشريع قلب شعبه<sup>(١١٢)</sup>.

لا غرابة في أن بيتس نصح الشعراء الأيرلنديين بأن:

احترقوا النوع الذي يشبُّ الآن

متهدكين بلا شكل من القمة إلى الأخص.

وقلوبهم ورفوسهم التي لا تتذكر

نتائج دنيء بالولادة لاسرةٍ دنيئة<sup>(١١٣)</sup>.

أن ينتهي بيتس خلال هذه العملية لا إلى خلق أفراد بل أنماطٍ عاجزين عن أن يقهروا التجريدات التي منها انبثقوا، تبعاً لبلاكمر من جديد<sup>(١١٤)</sup>، أمرٌ صحيح إنَّ تجاهل المرء برنامج فكفكة الاستعمار وخلفيته في تاريخ إخضاع أيرلندا، كما كان بلاكمير مبالاً إلى أن يفعل؛ إنَّ تأويلاته ماهرة متقنة لكنها لي-تاريخية. وحين تؤخذ الوقائع الاستعمارية بالحسبان، نكتسب التبصُّر النفاذ والتجربة، لا مجرد "مُصوِّرة" <صورة زائفة عن> التمثيل الرمزي <الاليفورية> التي تُزِيد بالفعل <والحركة><sup>(١١٥)</sup>.

إنَّ نظام بيتس التام من الدورات، والالتواءات، والأشكال الحلزونية يبدو هاماً فقط حين يرمز إلى جهوده في القبض على واقع قصي، لكنه مع ذلك <واقع> منظَّم، كملاذ من هيجان تجربته الفورية. وحين يُطلب في قصائد بيننطة أن يُجمَع إلى تحايلات الأبدية، فإنَّ الحاجة إلى الراحة من تقدم العمر ومما أسماه لاحقاً "صراع الذبابة في المريء" يعلنان فعلهما إلى درجة أتم. وإلا فإنَّ من الصعب أن نقرأ معظم شعره دون أن نشعر بأن غضب سويتف وعبقريته المدمرَّين قد استخدما من قبل بيتس ليرفع عن كاهل أيرلندا أعباء نواب الاستعمار. صحيح أنه قصر عن الوصول إلى تخيلٍ تحريريٍّ سياسي كامل، لكنه رغم ذلك ترك لنا إنجازاً عالمياً بارزاً في فكفكة الاستعمار الثقافية.

\* وهي عبارة لافتة في قصيدته "Ego Dominus Tuus"، ترد في سياق حديثه عن "اولئك الذين يحيون العالم وخدمتهم للعالم عن طريق الفعل"، حتى حين يكتبون او يرسمون، يكون ذلك "تعللاً": "صراع الذبابة في المريء".

## IV- الرحلة إلى الداخل وبزوغ المعارضة

تشهد التجربة الأيرلندية وتاريخ استعمارية أخرى في مناطق أخرى من العالم المعاصر على <بزوغ> ظاهرة جديدة: حركة لولبية مبتعدة عن أوروبا والغرب واستخلاص استقرائي منهما\*. لست أقول إن الكتاب الأصليين وحدهم جزء من هذا التحول، بيد أن العملية تبدأ بشكل أكثر خصباً وإنتاجية في العمل الهامشي، البعيد عن المركز، الذي يلج الغرب تدريجياً ثم يطلب الاعتراف به.

إلى عهد قريب لا يتجاوز الثلاثين عاماً، لم يُنذر إلا عدد قليل جداً من الجامعات الأوروبية والأميركية اهتماماً في مناهجها الدراسية للادب الأفريقي. أما الآن فثمة اهتمام صحّي بأعمال بيسي هُد، والكس لاغوما، وول شوينكا، ونادين غورديمر، ودجي. إم. كوتزي، بوصفها أدباً يتحدث باستقلال عن تجربة أفريقية. وبشكل مماثل، لم يعد ممكناً الآن تجاهل عمل أنتا ديوب، وبولين هونتونديجي، وفي. واي. مودمبي، وعلي مزروعي، حتى في أكثر المسوحات إجازاً وعجلة للتاريخ الأفريقي والسياسة والفلسفة الأفريقية. صحيح أن جواً من التماحك يحيط بهذا العمل، لكن ذلك يعود فقط إلى أن المرء لا يستطيع النظر إلى الكتابة الأفريقية إلا من حيث هي دفينة متصلة في ظروفها السياسية، التي يمثّل تاريخ الإمبريالية والمقاومة لها دون ريب واحداً من أكثرها أهمية. ولا يعني هذا القول بأن الثقافة الأفريقية هي أقل ثقافية من، لنقل، الثقافة الفرنسية أو البريطانية، بل يعني أن تغييب سياسيات الثقافة الأفريقية عن البصر أمرٌ أكثر صعوبة. إن "أفريقيا" ما تزال معترك تنازعات، وهو ما نستطيع أن ندركه حين نلاحظ أن باحثيها، مثلهم في ذلك مثل الباحثين في الشرق الأوسط، يوضعون في فُصَلاتٍ مبنية على السياسيات الإمبريالية القديمة - <فهمٌ بموجب هذه الفُصَلات>: أنصار التحرير، <أو> مناهضون للتمييز العرقي <الإپارتايد>، وما إلى ذلك. وهكذا يربط طقمٌ من التحالفات، أو التشكلات الثقافية، العمل الإنكليزي الذي يقوم به بايزل ديفيدسن بسياسيات أملاك كابرال، مثلاً، لإنتاج عمل دراسي بحثي معارض ومستقل.

وبرغم ذلك، فإن الكثير من مكونات التشكيلات الثقافية الغربية الرئيسية، التي يشكل هذا العمل "الهامشي" <الأطرافي> واحداً منها، تم إخفاؤها تاريخياً في رؤيا الإمبريالية المعرّزة ومن قبلها. ويذكر هذا المرء بموياسان يتمتع بغداء يومي في برج إيفل لأن البرج كان المكان الوحيد في باريس الذي لم يكن مرغماً فيه على النظر إلى ذلك البنيان الضخم المهيّب. ولأن معظم مسارد التاريخ الثقافي الأوروبي لا تولي الإمبراطورية إلا أدنى درجات الاهتمام، ولأن الروائيين العظام بشكل خاص يحلّون كما لو كانوا يأنفونها <الإمبراطورية> تماماً، فإن الناقد والباحث المعاصر ما يزالان إلى الآن معتادين على أن يقبلوا دون تمحيص وجهات نظر تلك المسارد وإحالاتها الإمبريالية جنباً إلى جنب مع مكانتها المركزية السلطوية.

\* - المقصود - والله أعلم - بسطُ نتائجٍ منبثقة من تجربة سابقة معلومة (هي تجربة أوروبا والغرب)، وتعميمها وإسقاطها على تجربة غير معلومة النتائج يُعدُّ (وهي التجربة الأيرلندية وتاريخ استعمارية أخرى في العالم المعاصر). (الناشر).



ومع ذلك فإنّ مما هو جدير بالترّكّر القول إنه، مهما بلغت سيطرة عقائدية ما أو نظام اجتماعي ما من الاكتمال الظاهري، فستكون ثمة دائماً أجزاء من التجربة الاجتماعية لا يغطيانها وسيطران عليها. ومن هذه الأجزاء تنبع في حالات كثيرة جداً معارضةً واعيّةً للذات وجدلية معاً. وليس هذا على القدر من التعقيد الذي يبدو عليه. فمقاومةً بنيةً سائدةً تنبع من وعي متصوّر، بل ربما كان أيضاً ناشطاً، من قِبَل أفراد وجماعات خارج تلك البنية وداخلها بأنّ بعض سياساتها، مثلاً، خاطئة. وكما تُظهر الدراسات البارزة التي قدّمها غوردن كي. لويس (العبودية والامبريالية والحرية) وروبن بلاكبورن (خلع نير العبودية الاستعمارية ١٧٧٦-١٨٤٨)<sup>(١١٦)</sup> فقد أسهم خليط فائق من الحركات الحواضرية والأفراد الحواضرين - الفيين، وإحيائيين، وفاعلي خير، وجذريين سياسيين، وأصحاب مستنبتات ومستعمرين كلييين، وساسةً بارعين محنّكين - في انحطاط تجارة الرقيق ونهايتها مع حلول الـ ١٨٤٠ات. وقد أظهر البحث التاريخي الذي يمكن أن يُدعى تنقيحياً أو معارضاً أنّ الأمر كان أبعد ما يكون البعد عن وجود مصلحة استعمارية بريطانية وحيدة لا معارضة لها تجري مباشرة، لنقل، من الهانوفريين\* إلى الملكة فيكتوريا، بل كان ثمة تنازُع للمصالح متعدّد الألوان والسمات. ولقد بنى باحثون مثل لويس، وبلاكبورن، وبيايزل ديفيدسن، وترنس رينجر، وإي. بي. تومپسن من بين آخرين عملهم على المُنسّق الذي قدّمته المقاومة الثقافية والسياسية داخل الامبريالية. وهكذا قام مؤرخون بريطانيون للهند وأفريقيا المستعمرتين، مثلاً، بكتابة تواريخ لهذه الأقاليم ضدّية معارضة، متحالفين متعاطفين مع قوى محلية هناك، ثقافية وسياسية، كانت تُعتبر قوميةً ومناهضةً للامبريالية. وقد حاول هؤلاء المثقفون، كما يلاحظ توماس هودجكن، بعد أن يشرح ارتفاع الامبريالية وتأثيراتها اللاحقة، أن يُظهروا كيف يمكن لهذا النظام من العلاقات بأسره، ولوجهات النظر التابعة منه، أن يُلغى أو يحوّل<sup>(١١٧)</sup>.

ثمة حاجة لإقامة تمييز، بسرعة، بين مناهضة الاستعمار anti-colonialism ومناهضة الامبريالية anti-imperialism. لقد كانت ثمة مناظرةً أوروبية حيوية يعود تاريخها على الأقل إلى منتصف القرن الثامن عشر حول مزايا امتلاك المستعمرات وسيناتها. وكانت وراءها المواقف السابقة لـ بارتولومي دي لاس كاستس، وفرانسيسكو دي فيتوريا، وفرانسيسكو سواريز، وكامونينز\*\*، والغاتيكان، من حقوق الشعوب الأصلانية والانتهاكات الأوروبية. ولقد أيّد معظم مفكّري عصر التنوير الفرنسيين، وبينهم بيدرو ومونتسكيو، معارضة الأب رينال للعبودية والاستعمار؛ وعبر عن آراء مشابهة كُلاً من: <صامويل> جونسن، و<ويليام> كوبر، و<إدموند> بيرك، وكذلك فعل فولتير، وروسو، ويراناردان دو سان بيير. (يوجد تجميع مفيد لأفكارهم في كتاب مارسيل ميرل المناهضة

\* - أعضاء العائلة الملكية البريطانية الهانوفرية، أو مناصروها؛ وقد حكمت هذه العائلة بين ١٧١٤ و ١٩٠١.

\*\* - الأوّل مؤرّخ وإرسالي أسباني دومينيكي (١٤٧٤ - ١٥٦٦)، وأوّل من فضح قمع الأوروبيين للهنود ودعا إلى إلغاء استرقاق الهنود في جزر الهند الغربية. والثاني (١٤٨٦ - ١٥٤٦) واحد من أعظم اللاهوتيين الأسبان، دانّ احتلال الأسبان للعالم الجديد ودافع عن حقوق الهنود الأصلانيين. والثالث (١٥٤٨ - ١٦١٧) فيلسوف ولاهوتي أسباني رفض ميذا «الحق الإلهي، للملوك في الحكم، ودان الاستعمار الأسباني للجزر المذكورة هو أيضاً. والرابع (١٥٢٤ - ١٥٨٠) شاعر برتغالي قومي عظيم، شجب الاستعمار البرتغالي للهند والصين (الناشر، عن الموسوعة البريطانية).

الاوروبية للاستعمار من لاس كاستس الى كارل ماركس<sup>(١١٨)</sup>. وإذا استثنينا حالات نادرة، مثل الكاتب الهولندي ملتاالي، فإن المناظرة حول المستعمرات خلال القرن التاسع عشر كانت تدور عادةً حول مبروحيتها، وإدارتها وسوء إدارتها، وحول أسئلة نظرية مثل: هل يمكن التوفيق، وكيف يتم، بين الاستعمار وبين <سياسة> عدم التدخل laissez-faire أو سياسيات التعرف <الجمركية>؛ وكان ثمة إطار امبريالي ومتمركز أوربياً مقبولاً ضمنياً. وكان قدر كبير من المناظرة غامضاً مبهماً، وكان أيضاً، كما أظهر هاري براكن وآخرون، ملتبساً، بل متناقضاً فيما يتعلق بالأسئلة الأعمق التي تخص المقام الوجودي <الانطولوجي>، إذا جاز التعبير، للسيطرة الأوروبية على غير الأوروبيين<sup>(١١٩)</sup>. بكلمات أخرى، يتخذ التحرريون <الليبراليون> المناهضون للاستعمار الموقف الإنساني القائل إن المستعمرات والعبيد لا ينبغي أن تُحكم أو تُحكَل بشكل بالغ القسوة، لكنهم - في حالة فلاسفة التنوير - لا يجادلون في التفوقية الأساسية للإنسان الغربي أو، في بعض الحالات، للعرق الأبيض.

لقد دسَّتْ وجهة النظر هذه نفسها إلى قلب الحقول المعرفية والإنشاءات في القرن التاسع عشر التي تعتمد على المعرفة الملاحظة والمجمعة ضمن الإطار المشهدي الاستعماري<sup>(١٢٠)</sup>. لكن فترة فككة الاستعمار مختلفة. إنها مسألة وضع ثقافي متغير، لا مسألة مراحل متميزة تمايزاً كاملاً: فكما أن المقاومة القومية أو المناهضة للامبريالية في المستعمرات تصبح تدريجياً أكثر فأكثر اجتذاباً للنظر، فإن عدداً من القوى المناهضة للامبريالية والمتناقضة تناقضاً حاداً <فيما بينها> تصبح هي بدورها كذلك. يهاجم أحد أكثر التنقيدات الأوروبية المنتظمة بكبيراً، وقد يكون أكثرها شهرةً أيضاً - وهو كتاب دجي. أي. هوبسن الامبريالية: دراسة (١٩٠٢) - الامبريالية لاقتصادياتها التي لا قلب لها، وتصديرها لرأس المال، وتحالفها مع قوى لا ترحم، وواجهتها <البراقة الكاذبة> من الذرائع "التحضيرية" <التمدينية> ذات النوايا الطيبة. لكن الكتاب لا يقدم تنقيداً لمفهوم "الأعراق الأدنى"، وهذا المفهوم فكرة يجدها هوبسن مقبولة<sup>(١٢١)</sup>. وقد قدّم آراءً مماثلة <رجل> السياسة البريطاني رامي ماكدونلد، وهو دون ريب ذو موقف نقدي من الممارسات الامبريالية البريطانية لكنه لا يعارض الامبريالية في ذاتها.

لم يدرس أحدُ الحركة المناهضة للامبريالية في بريطانيا وفرنسا بأفضل مما درسها أي. بي. ثورنتون <في الفكرة الامبريالية واعدائها>، وبرنارد پورتر <في نقاد الامبراطورية>، وراول جيراردي في الفكرة الاستعمارية في فرنسا. وتسم خلاصاتهم سمتان رئيسيتان: من المؤكد أنه كان ثمة مثقفون في أواخر القرن التاسع عشر <مثل> ولفرد سكاون بلنّت ووليم موريس عارضوا الامبريالية معارضةً تامة، غير أنهم لم يكونوا ذوي تأثير؛ وأما أولئك الذين كانوا ذوي تأثير فقد كان الكثيرون منهم، مثل ماري كينغسلي ومدرسة لفربول، قد وصفوا أنفسهم بأنهم امبرياليون ومطلبون للحرب، إلا أنهم كانوا مع ذلك صارمين صرامةً لا تعرف الندامة فيما يتعلق بانتهاكات النظام وفضاظاته. بكلمات أخرى، لم يكن ثمة شجب عام شامل للامبريالية إلا - وهذه هي نقطتي - بعد أن كانت الانتفاضات الأصلانية قد بلغت مرحلة متقدمة يستحيل معها تجاهلها أو هزيمتها.

(يستحق هامش لهذا <الكلام> أن يُثبت هنا: لقد كان المثقفون الأوروبيون، كما كان توكفيل بالنسبة للجزائر، ينزعون إلى مهاجمة الانتهاكات التي تقوم بها امبراطوريات منافسة، فيما كانوا يقللون من شأن ممارسات امبراطورياتهم فُهم أو يعذرونها ويبررونها<sup>(١٢٢)</sup>). وهذا هو سببُ إلحاحي على أمرين اثنين: أن الامبراطوريات الحديثة تنسخ واحدها الأخريات، بالرغم من الإعلانات المتبرئة لكل منها بأنها مختلفة عن غيرها... وأن اتخاذ موقفٍ مناهضٍ للامبريالية مناهضةً صارمةً أمرٌ ضروري. لقد تطلّع كثيرٌ من الأحزاب القومية والقادة القوميين في العالم الثالث إلى الولايات المتحدة بشكل مكرور لأنها كانت، خلال الحرب العالمية الثانية، مناهضةً للامبريالية علناً. فقد تغيرت سياسة الولايات المتحدة المتعلقة بالجزائر، حتى زمن قريب العهد في الـ ١٩٥٠ات والـ ١٩٦٠ات، تغيراً أدى إلى تغيير العلاقات الودية بين الولايات المتحدة وفرنسا إلى درجة كبيرة، وكل ذلك لأن الولايات المتحدة لم تكن راضية عن الاستعمار الفرنسي. ومع ذلك، فإن الولايات المتحدة بصورة عامة اعتبرت نفسها بعد الحرب العالمية الثانية مسؤولةً عن أجزاء كثيرة من العالم الثالث كانت قد جلت عنها بريطانيا وفرنسا - وفييتنام، طبعاً، هي المثل الرئيسي<sup>(١٢٣)</sup> - كما اعتبرت نفسها أيضاً، بفضل تاريخ استثنائي قائم على مشروعية الثورة ضد الاستعمار، مستثناةً من تهمة أنها قد بدأت بطريقتها الخاصة تصبح شبيهةً ببريطانيا وفرنسا. وإن مذاهب الاستثنائية الثقافية لوفيرة وفرة مفردة).

أما السمة الثانية التي يُبرزها جيراردييه خاصةً، فهي أنه لم تتطور حركةٌ مناهضةٌ للاستعمار ذات أهميةٍ في الحواضر إلا بعد أن كان القوميون قد أخذوا أولاً بزمام المبادرة في الأقاليم المستعمرة، وتبعهم المثقفون المهاجرون والناشطون. إن كتاباً مثل إيمي سيزير ثم فانون يمثلون، في نظر جيراردييه، "مسيحانية ثورية" مشبوهة بعض الشيء، لكنهم حفزوا سارتر وأوروبيين آخرين إلى معارضة السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر والهند الصينية خلال الـ ١٩٥٠ات<sup>(١٢٤)</sup>. ومن هذه المبادرات نبعت أخرى: <من مثل> المعارضة الإنسانية للممارسات الاستعمارية كالتعذيب والترحيل، ووعي جديد للعصر العالمي لنهاية الامبراطورية، ومعه إعادات تحديد الهدف القومي، ونبعت - بشكل خاص في سنوات الحرب الباردة - الدفاعات المتعددة عن "العالم الحر" التي اقتضت استمالة أصلايين مابعد الاستعمار عن طريق المجالات الثقافية والرحلات والندوات. ولقد أدى الاتحاد السوفييتي والأمم المتحدة دوراً لا يمكن تجاهله، ولم يكن دائماً صادراً عن نوايا حسنة، ولم تكن نابعة فيما يخص الاتحاد السوفييتي من دوافع غيرية؛ وتكاد تكون كل حركة تحرير ناجحة في العالم الثالث بعد الحرب العالمية الثانية قد لقيت عوناً في نفوذ الاتحاد السوفييتي الموازن المضاد للولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا والبرتغال وهولندا.

تُسقط معظمُ تواريخ الحداثية الجمالية الأوروبية التدفقات الهائلة للثقافات غير الأوروبية إلى قلب العالم الحواضري خلال السنوات الأولى من هذا القرن، رغم تأثيرها ذي الأهمية الواضحة على فنانيين حداثيين مثل بيكاسو، وسترافنسكي، وماتيس، وعلى نسيج مجتمع آمنٍ إلى حدٍ كبيرٍ بأنه أبيض وغربي بشكل متجانس. في سنوات ما بين الحربين، تدفقت الطلبة من الهند، والسنغال، وفييتنام، والكاريبي إلى لندن وباريس؛<sup>(١٢٥)</sup> وأُسست المجالات، وصحف المراجعات، والروابط السياسية؛ وتخطر ببال المرء <في هذا

الصدد): التجمعات الداعية إلى الوحدة الأفريقية في انكلترا، ومجلات مثل صرخة الزفوج، وأحزاب مثل اتحاد العمال الزواج، أسسها مهاجرون، ومنشقون، ومنفيون، ولاجنون، من المفارقة الضدية أنهم يعملون في قلب الامبراطورية بشكل أفضل من معلم في اقاليمها القصية، أو تخطر ببال المرء الحيوية المجددة التي وفرتها للحركات الأفريقية <حركة> نهضة هارلم<sup>(١٧٦)</sup>. لقد تولد شعور بتجربة مشتركة مناهضة للامبريالية، ذات روابط جديدة بين أوروبيين، وأميركيين، وغير أوروبيين، ولقد أدى ذلك إلى إعادة تشكيل حقول معرفية وأعطى صوتاً لأفكار جديدة غيرت تغييراً لا يُنقُض تلك البنية من وجهات النظر والإحالات التي كانت قد بقيت حياً قوية لأجيال <عديدة> داخل الثقافة الأوروبية. إن الإخصاب المتبادل بين القومية الأفريقية من جهة، كما مثلها جورج پادمر، ونكروما، وسي. إل. آر. جيمس، وانثياق أسلوب أدبي جديد من جهة ثانية، في أعمال سيزير، وسنغور، وشعراء نهضة هارلم مثل كلود ماكي ولانغستن هيوز، ليشكل جزءاً مركزياً في التاريخ الكوني للحدثية.

يلزم حدوث تعديل ضخم ومرموق في المنظور والفهم كي يؤخذ بعين الاعتبار الإسهام الذي قدمته إلى الحدثية <كل من>: فكفكة الاستعمار، وثقافة المقاومة، وأدب معارضة الامبريالية. ورغم أن التعديل، كما قلت، لم يحدث بعد بشكل كامل، فإن ثمة أسباباً جيدة للاعتقاد بأنه قد بدأ يحدث. إن العديد من دفاعات الغرب <عن نفسه> اليوم هي في الحقيقة استدفاعات\*، كما لو أنها تعترف بأن الأفكار الامبريالية القديمة قد واجهت تحدياً خطيراً من قبل الأعمال، والتراثات، والثقافات التي أسهم فيها شعراء، وباحثون، وقادة سياسيون من أفريقيا، وآسيا، والمنطقة الكاريبية إسهاماً عظيماً. وعلاوة، فقد انفجر ما أسماه فوكو المعارف المخضعة عبر الحقل المعرفي الذي كان ذات يوم يسيطر عليه، إذا جاز التعبير، التراث اليهودي - سيحي؛ وإن الذين يعيشون في الغرب متأثراً تأثراً عميقاً بالتدفق اللافت لأدب ودراسات بحثية من الطراز الأول صادرة عن العالم مابعد الاستعماري، وهو مكان لم يعد واحداً من الأمكنة المظلمة من الأرض، بحسب وصف كونراد المشهور، بل غدا من جديد محلاً لجهد ثقافي يزخر بالحيوية والنشاط. أن يتحدث المرء اليوم عن غابرييل غارسيا ماركيز، وسلمان رشدي، وكارلوس فونتنس، وتشينوا انتشيببي، وويل شويتكا، وفايز أحمد فايز، وكثيرين من أمثالهم هو أن يتحدث عن ثقافة بازغة جديدة لم يكن يمكن التفكير بها لولا الأعمال التي سبقتها لمتحيزين مثل سي. إل. آر. جيمس، وجورج انتونيوس، وادموند ولمت بلايدن، ودبليو. إي. بي. دي بويز، وخوسيه مارتى.

أود أن أناقش جانباً خفياً إلى حد ما من جوانب هذا الانتهاك القوي - وهو عمل متقنين من الأقاليم المستعمرة أو الهامشية الأطرافية كتبوا بلغة "امبريالية"، وشعروا بأنهم مرتبطون عضواً بالمقاومة الجماهيرية ضد الامبراطورية، وأخذوا على عاتقهم المهمة

\* - مَيَزَتْ في هذه الترجمة بين الكلمة العربية المألوفة "دفاع" وصيغة ابتكرتها هي "استدفاع"، للتعبير عن الكلمة الانكليزية "defensive" التي لا تعني "دفاعي" بالمعنى المباشر بل تحمل دلالات سلبية. وليس ثمة ما يسوغ فعلتي أكثر من المقطع الذي يكتبه المؤلف هنا، ناعماً الـ defence بأنه "defensive" بتضمينات سلبية. ولولا التمييز الذي أدخلته لكنت الجملة العربية: "إن العديد من دفاعات الغرب... دفاعي؛ وذلك مما يدخل في الهراء.

التنقيحية النقدية الحاسمة للتعامل وجهاً لوجه مع الثقافة الحواضرية، مستخدمين تقنيات، وإنشاءات، وأسلحة للبحث والنقد كانت ذات يوم مقصورةً قسراً كاملاً على الأوروبيين. وهذا العمل، بما فيه من ميزات، لا يعتمد إلا ظاهرياً فقط (وهو ليس متطفاً بالتأكيد) على الإنشاءات الأوروبية التي تنتمي إلى التيار السائد؛ ونتائج أصالته وإبداعيته قد كانت وما تزال تحويل عين الأرضية <التي تقوم عليها> الحقول المعرفية.

يردُ مسرُودُ عام، شبه نظري للظاهرة التي سناقشها، في <كتاب> ريموند وليمز **الثقافة** (١٩٨١). في الفصل المتعلق بما يسميه وليمز "تشكلات"، يبدأ المؤلف بمناقشة النقابات الحرفية، والمهن، والنوادي، والحركات، ثم ينتقل إلى قضايا أكثر تعقيداً وتشابكاً هي المدارس، والزمر المنقسمة، والمنشقون، والمتمردون. ويقول إن هذه جميعها ترتبط بتطورات داخل نظام اجتماعي قومي واحد. بيد أن تشكلات جديدة تُحدث في القرن العشرين، عالمية، أو شبه قومية، وتميل إلى أن تكون طلائعية، في المركز الحواضري. وإلى حد ما، فإن شبه التشكلات هذه - في باريس (١٨٩٠-١٩٣٠)، ونيويورك (١٩٤٠-١٩٧٠) - هي نتيجة لقوى السوق التي غدت مؤثرة حديثاً والتي تجعل الثقافة عالمية - مثلاً: "الموسيقى الغربية"، وفن القرن العشرين، والأدب الأوروبي. لكن ما هو أكثر إشاقاً، هو أن "المسهمين في الحركات الطلائعية كانوا مهاجرين إلى مثل هذه العواصم الحواضرية الكبرى، لا من الأقاليم القومية النائية فحسب بل من ثقافات قومية أخرى وأصغر تبدو الآن ريفيةً بالقياس إلى العواصم". والمثل الذي يقدمه وليمز على ذلك هو أبولينز، رغم أنه يكتب عن "علمجتماع المواجهات والارتباطات الحواضرية بين المهاجرين" والجماعات التي تنتمي إلى التيار الرئيسي السائد، التي "تخلق شروطاً مدعّمة ملائمة خاصة للجماعات المنشقة" (١٢٧).

ويخلص وليمز إلى القول إنه ما يزال من غير المؤكد ما إذا كانت مثل هذه المواجهات تُنتج تأثيراتٍ من "الانقطاعات الحادة بل العنيفة مع الممارسات التقليدية (انشقاقاً أو تمرداً بدلاً من طلائعية بالمعنى الحرفي)" أم يتم امتصاصها، وتصبح جزءاً من "الثقافة السائدة" لمرحلة لاحقة حواضرية وشبه قومية. ومع ذلك، فإذا قمنا منذ البدء بأرخنة منظومة وليمز وتسييسها، ثم وضعناها داخل الإطار المشهدي التاريخي للامبريالية ومناهضة الامبريالية، فإن عدداً من العوامل تغدو واضحة. أولاً، إن العمل الفكري والبحثي المناهض للامبريالية الذي يقوم به كتاب من الأطراف هاجروا إلى العواصم الحواضرية أو يقومون بزيارتها هو في العادة امتدادٌ لحركاتٍ جماهيريةٍ كبيرةٍ إلى <قلب> هذه العواصم. ولقد حدث تعبيرٌ ناصع عن هذا إبان الحرب الجزائرية، حين سمّت جبهة التحرير القومي فرنسا الولاية السابعة، <إذ> تشكّل الولايات الست الأخرى الجزائر الفعلية (١٢٨)، ناقلةً بذلك النزاع حول فككتة الاستعمار من الأطراف إلى المركز. ثانياً، تتعلق هذه الإغارات بمجالات التجربة، والثقافة، والتاريخ، والتراث نفسها التي كانت حتى تلك اللحظة محكومةً من طرفٍ واحدٍ هو المركز الحواضري. حين كتّب فانون كتبه، كان ينوي الحديث عن تجربة الاستعمار كما يراها رجل فرنسي، من داخل فضاء فرنسي كان إلى لحظتها حرماً لا يُنتهك وأصبح بعد ذلك مغزواً ويعاد تمحيصه نقدياً من قبل أصلائي منشق. هكذا يكون ثمة تقاطع وتوافق لا يُمكن نظرياً وصفهما بأنهما مجرد تأكيدٍ منفعل <انعكاسي> لهوية منفصلة استعمارية أو أصلائية. وأخيراً، فإن هذه الرحلات إلى الداخل voyages

تمثل، في اعتقادي، تناقضاً أو تفاوتاً ما يزال غيرَ محلول داخل الثقافة الحواضرية، التي تعترف جزئياً بهذا الجهد وترفضه جزئياً، عن طريق الاستدخال المحابي، وتخفيفِ درجةِ التركيز، والتجنب\*.

اذن، تشكّل الرحلةُ إلى الداخل تنوعاً شيقاً بصورة خاصة من تنوعات العمل الثقافي الهجين. وإن كونها موجودة على الإطلاق لعلامة على التدويل التخاصمي adversarial internationalization في عصر من البنى الامبريالية المستمرة. لم تعد اللوجوس <الكلمة، الحكمة، المبدأ العقلاني، كلمة الله وسره> الآن تقطن حصرياً، إذا جاز التعبير، في لندن وباريس. ولم يعد التاريخ يجري جرياً وحيداً الطرف، كما أمن هيجل، من الشرق إلى الغرب، أو من الجنوب إلى الشمال، غادياً أكثرَ سفسطةً وتطوراً، وأقلَ بدائيةً وتخلفاً فيما هو يغذ السير. بل أصبحت أسلحةُ النقد جزءاً من الميراث التاريخي للامبراطورية، الذي تمجّي فيه إجراءات الفصل والعزل والإقصاء <المتتملة في سياسة> فَرَقْ نَسُدْ، وتنبثق شخصياتٌ جديدةٌ مفاجئة.

ينتمي كلُّ من النصوص الأربعة التي أودّ مناقشتها إلى لحظة تاريخية معينة: الأولان هما اليعاقبة السود لـ سي. إل. آر. جيمس، الصادر عام ١٩٣٨، واليقظة العربية، الذي صدر في الوقت نفسه تقريباً، لـ جورج انطونيوس. يتعلق الأولُ بعصيان مسلح كاريبي أسود في أواخر القرن الثامن عشر، والثاني بعصيان مسلح عربي حديث العهد؛ وكلاهما يعالج أحداثاً في الماضي الذي يسعى الكاتبُ إلى أن يتقصّى في أنساقه، وأعدائه واقعاً أصلياً أو استعمارياً تجاهلته أوروبا أو خائفته. وكلا الكاتبين أسلوبِيّ لامع، ورجل لافِت، (وفي حالة جيمس: رياضي لافِت) وكُلُّ تشكُّل المبكر في المدارس الاستعمارية البريطانية تقديرأ رائعاً للثقافة الانكليزية، كما وكُلُّ خلافات خطيرة معها. وكلا الكاتبين يبدو الآن تنبؤياً إلى درجة ملحوظة، إذ يتنبأ جيمس بتاريخ غير منقطع لحياتِ كاريبيةٍ مبرحةٍ مازال إلى الآن عميقة القلق والاستقرار... ويتنبأ انطونيوس بدقةٍ مماثلةٍ بقصص الصفحات الأولى <من جرائد> اليوم وبالمشاهد الصادمة المتلفزة من الشرق الأوسط، حيث يظل الموقفُ في فلسطين - إسرائيل محفوراً بالمخاطر، بعد أن كان قد حلّ نفسه من قَبْلُ حلاً سلبياً سيناً من وجهة النظر العربية بتأسيس إسرائيل عام ١٩٤٨، وهي خاتمة محتملة تنبأ بها انطونيوس بنذر رهيبٍ قبل وقوعها بعشر سنوات.

وفيما كان يُقصّد لكتابتِي جيمس وانطونيوس أن يكونا كتابين جادين من البحث والمنافحة يخاطبان جمهوراً عاماً من داخل حركة قومية تسعى إلى الاستقلال، فإنّ الكتابين الآخرين <الذين سناقشهما>،: حكم للممتلكات في البنغال: مقالة حول فكرة التسوية الدائمة (١٩٦٣) لرانجيت غوها، وأسطورة الأصيلاني الكسول: دراسة لصورة الماليزيين، والفلبينيين، والجاويين من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين ووظيفتها في عقائدية الرأسمالية الاستعمارية (١٩٧٧) لـ إس. إم. العطاس، هما كتابان مابعد استعماريين ومتخصّصان، يخاطبان جمهوراً أصغر في قضايا أشد تخصصاً. كلا هذين الكتابين، الأول لبنغالي متخصص في الاقتصاد

\* - والمعصود من العبارة الأخيرة: عن طريق 'استيعاب' الثقافة الحواضرية لثقافة الأطراف الغازية عقر دارها، وعن طريق حمير حدثها [كما تُشغشغُ الخمرُ بالماء، لتخفُ سوزُها]، وأخيراً عن طريق تجنّبها تماماً. (الناشر)

السياسي، والثاني لمؤرخ ومنظر اجتماعي مسلم ماليزي، يكشفان بحث مؤلفيهما الدؤوب في سجلات المحفوظات، ويكشفان توثيقهما وحججهما وتعميماتهما التي تأخذ جميعاً بما تم إنجازه حتى زمن كتابتهما وعلى نحوٍ بالغ الدقة.

كتاب غوها دراسة علمُ أثرية <أركيولوجية> وتقويضية، بطريقة يميزها الكتابُ مابعد البنيويين المتأخرون (بمن فيهم غوها نفسه) للكيفية التي يُشتق منها قانونُ رقم ١٨٢٦ للتسوية الدائمة للبنغال\* - وهو قانونٌ قام البريطانيون تبعاً له بتقنين الأجر والمداخيل في البنغال بدقة لا تفاوت فيها - من خلفية معقدة من الفكر الفيزيوقراطي والعقائدي في أوروبا الذي كان قد وُضِع موضع التنفيذ في البنغال في أواخر القرن الثامن عشر من قِبل فيليب فرانسيس. ويفصلُ كتاب العطاس أيضاً، وهو بطريقته الخاصة ذو أصالة مذهلة تعادل أصالة كتاب غوها، كيف خلَق الاستعمارُ الأوروبي شيئاً، هو في هذه الحالة الأصلانيُّ الكسول، أدنى وظيفة حاسمة في حساباتٍ ومنافحاتٍ ما يسمّيه العطاسُ الرأسمالية الاستعمارية. وكان يراد لهذا الأصلاني، المخضَع لقوانين صارمة وانضباطٍ مرهق، بكلمات سينبالدو دي ماس - وهو موظف إسباني كان قد عُهد إليه عام ١٨٤٣ بالحفاظ على الفيلبيين مستعمرةً إسبانية - أن يُبقى "في حالة فكرية ومعنوية تجعل الأصلانيين رغم تفوقهم العددي لا يزنون سياسياً زنةً قضيب من الذهب"<sup>(١٢٩)</sup>. وقد كان هذا الأصلاني مداراً للحديث، وحلّ، وانتُهِك، وأجبرَ على العمل، وأُطعم طعاماً سيئاً وأفيوناً، وفُصم عن بيئته أو بيئتها الطبيعية، وغُطّي بإنشاءٍ كان غرضه إبقاءه دؤوباً وخاضعاً. هكذا، كما يقول العطاس، "كان القمار، والأفيون، وظروف العمل للإنسانية، والتشريعُ المُغرض، وانتزاعُ حقوق الاستنجار التي تخص الشعب، والعملُ القسري، كلّها بطريقة أو أخرى منسوجة في لُحمة العقائدية الاستعمارية ومحاطة بهالةٍ من الاحترام. وتعرض أولئك الذين كانوا خارجها للهزء والازدياء".

لا يتمثل التعارض بين جيمس وانطونيوس من جهة، وغوها والعطاس من جهة أخرى، فقط في أن الكاتبين السابقين كانا منخرطين بصورة أكثر مباشرة في السياسيات المعاصرة، فيما يُعنى الكاتبان الأخيران عنايةً كبيرة بالنزاعات البحثية في الهند وماليزيا في مرحلة ما بعد الاستعمار، بل في أن تاريخ مابعد الاستعمار نفسه قد غيّر معطيات السجال، وغير بحق طبيعتها ذاتها. بالنسبة لجيمس وانطونيوس كان عالمُ الإنشاء الذي يسكنه الأصلانيون في المنطقة الكاريبية والشرق العربي خلال الـ ١٩٣٠ات معتمداً بشكل مُشترّف على الغرب. يقول جيمس إن توسان لوفرتور\*\* ما كان سيستطيع أن يطرح المقولات التي طرحها لولا الأب رينال، والموسوعيون الآخرون، والثورة العظيمة <الفرنسية> نفسها:

في ساعة الخطر، كان يوسع توسان - وهو الذي لم يكن قد تلقى الإرشاد - أن يجد <في متناوله> لغةً يديرو، روسو، ورنال، وميرابو، وروبسبير، ودانتون، ونيراتيم. ولقد تفوق عليهم جميعاً في جانب واحد. ذلك أن أمراء

\* - 1826 Act of Permanent Settlement for Bengal

\*\* - فرنسوا دومينيك توسان لوفرتور (١٧٤٢ - ١٨٠٣): زعيم حركة استقلال هاييتي (التي كان اسمها سان دومينغ) أثناء الثورة الفرنسية. حرّر العبيد، وأسس هاييتي ذات حكم أسود ذاتي. دعا إلى المبادئ الجمهورية، وإلى توافق البيض والسود والخلاسيين، وإلى تبني السود للثقافة الفرنسية. (الناشر)

الكلمة المحكية والمكتوبة هؤلاء. انفسهم اضطروا مرات كثيرة إلى التوقف، والتردد، وتقييد <كلامهم>، بسبب التعقيدات الطبقيّة لمجتمعاتهم. وأما توسان، فقد كان بوسع أن يدافع عن حرية السود دون تحفظ، الأمر الذي منع إعلانه قوة واستغراقاً في الهدف نادرين في الوثائق العظيمة لذلك العصر. ولم يكن بوسع الطبوقسطية الفرنسية أن تستوعب ذلك. ولقد جرت أنهاز من الدماء قبل أن تستوعب أن توسان، بالرغم مما في لهجة من رفعة وجلال، لم يكتب كلاماً متبجحاً أو بلاغياً بل الحقيقة البسيطة الرزينة<sup>(١٣١)</sup>.

في هذا الوصف الرائع لرجل يستدخل استدخالاً كاملاً الحقيقة الحرفية للمشاعر الكونية التي روجها عصر التنوير الاوروبي، يُظهر جيمس إخلاص توسان كما يُظهر أيضاً الخلل الكامن فيه: استعداده للوثوق بالتصريحات الأوروبية، ومعانيّتها كنوايا حرقية بدلاً من كونها ملاحظات مجموعات ومصالح محتمّة ومحدّدة طبقيّاً وتاريخياً.

وقد طوّر انطونيوس الموضوع نفسه تقريباً؛ إذ يركز تاريخه لليقظة العربية، التي غذّتها بريطانيا في وقت مبكر من قرننا الراهن، على الطريقة التي أخذ بها العرب، بعد أن حرروا انفسهم من العثمانيين عامي ١٩١٧ و ١٩١٨، وعود بريطانيا لهم بالاستقلال على أنها الحقيقة الحرفية. ويتطابق مسرد انطونيوس لمراسلات الشريف حسين مع السير هنري ماكماهون، التي وعد فيها هذا الموظف البريطاني شعب <الشريف> بالاستقلال والسيادة، مع وصف جيمس للطريقة التي فهم بها توسان إعلانات حقوق الانسان وعمل بموجبها. ومع ذلك، فبالنسبة لانطونيوس، الذي يكتب كمتحزّب للعرب والبريطانيين معاً - وتلك حالة عريضة من الاعتماد المتبادل إذا كان ثمة أبدأ من حالة كهذه - كان الخداع المتعمّد، الذي لا يُعزى للطبقة ولا للتاريخ بل لانعدام الشرف، هو ما يمتلك في نظره قوة الكارثة\*:

لا ريب في أن حكم التاريخ سيصادق إلى حد بعيد على وجهة النظر العربية. إذ أيّاً كان ما يمكن قوله عن قرارات سان ريمو [ربيع عام ١٩٢٠، التي وُضِعَ فيها كامل المستطيل العربي الواقع بين البحر الابيض المتوسط والحدود الفارسية تحت الانتداب] فإنها انتهكت المبادئ العامة المعلنة والوعود المحدّدة التي قدّمها الحلفاء، وبشكل خاص بريطانيا. لقد أصبحت فحوى العهد التي قطعت سرّياً معروفة الآن: ومنها، ومن التأكيدات العلنية، يستطيع الدارس أن يتخذ المادة الضرورية للحكم. لقد خاض العرب الحرب <العالمية الأولى> وقدّموا إسهاماتهم وتضحياتهم استناداً إلى هذه الوعود؛ وكانت تلك الحقيقة وحدها كافية لتحويل الالتزام المُراسل <لا فعلوه> إلى دين شرفي. إلا أن ما فعله مؤتمر سان ريمو كان، فعلياً، تجاهل هذا الدين واتخاذ قرارات ناقضت رغبات الشعوب المعنية، في جميع النقاط الجوهرية<sup>(١٣٢)</sup>.

سيكون من الخطأ التقليل من <أهمية> الفروق بين جيمس وانطونيوس، اللذين لا يفصل بينهما العروق والعقائدية وحدهما، بل المزاج والتعليم أيضاً. ومع ذلك، فإنّ الأسى نفسه، والخيبة ذاتها، والامل المصدود عينه، تسري متلبّثة بشكل لا يخطئه الإدراك في نثرهما. ولقد انتمى كلا الرجلين إلى سياسيات فكفكة الاستعمار وتشكلا بها. كان جيمس ينتمي إلى الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى في ترينداد؛ وكان ذاتي التعلّم، ورياضياً، وتلميذ المدرسة المبكر النضج أبدأ - كما أتبع لي أن أرى بنفسني عندما زرت، وكان في السادسة والثمانين، في بريكستن <في لندن> في حزيران <يونيو> ١٩٨٧ - وكان لديه

\* - يستطيع القارئ العربي العودة إلى ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس الكاملة للكتاب. صدرت الترجمة عن دار العلم للملايين بعنوان يقظة العرب. ويقع المقطع التالي في الصفحتين ٤١٩ و ٤٢٠ من الطبعة السابعة. (الناشر)



اهتمامُ الثوري بالتاريخ والسياسة والنظرية، ويقظةُ المثقف للأفكار والتناقضات، وروحُ المغامرة الخالصة الرياضية في الأدب الجيد والموسيقى الجيدة والمحادثة الجيدة. أما انطونيوس، كما وصفه البرت حوراني وصفاً لا يُنسى<sup>(١٣٣)</sup>، فقد كان ينتمي إلى طبقةٍ من السوريين من شرقي المتوسط <اللفانتيين> أقدم، وأكثرَ دينوية، أقام في مصر لزمان (حيث دَرَسَ في كلية فكتوريا، وهي المدرسة التي درستُ فيها أنا شخصياً)؛ ثم تخرَّجَ من جامعة كيمبردج. وحين كتب انطونيوس اليقظة العربية، كان في العقد الرابع من العمر (توفي عام ١٩٤٢ وهو في حوالي الخمسين)؛ وكان جيمس أصغر بعقد كامل. وفي حين كان انطونيوس قد مارس حياةً مهنيةً ثرية كرجلٍ موضع ثقةٍ موظفين بريطانيين ذوي رتبٍ عالية، وكمستشارٍ لزملاء عرب بارزين ونخبٍ بارزةٍ من حسّين وفصيل إلى فارس نمر والحاج أمين الحسيني، وكورنثولعقود من الفكر والنشاط القومي العربي، وكان رجلاً دنيوياً يخاطب رجلاً دنيويين آخرين في مواقع القوة والسلطة... عمِلَ جيمس، وكان قد وصل إلى انكلترا حديثاً، مراسلاً للعبة الكريكت؛ كان أسود، وماركسياً، وخطيباً عاماً، ومنظماً عظيماً؛ وفوق كل شيء، كان ثورياً منغمساً بعمق في القومية الأفريقية، والكاريبية، والسوداء. وقد قُدِّمَت اليعاقبة السود أولاً لا ككتاب بل كمطويةٍ تمثيلية في لندن لـ پول روبسن؛ وخلال عروض المسرحية، تناوَبَ روبسن وجيمس على دُورَيِ توسان وديسالين<sup>(١٣٤)</sup>.

رغم الفروق بين المؤرخ الهنديغربي الماركسي الأسود المُعَوِّز الجوال، والعربي الأكثر محافظةً، الرفيع العِلْمِ ذي العلاقات الالامعة <بالمثقفين>، فقد وجَّه كلاهما عمله إلى عالمٍ اعتبره عالمه الشخصي، رغم أن عينَ ذلك العالم الأوروبي من القوة والسيطرة الاستعمارية قد أقصاهما، وإلى حد ما أخضعهما، وأصابهما بخيبة عميقة. لقد خاطبا ذلك العالم من داخله، وعلى أرضياتٍ ثقافيةٍ فنّداً وتحدياً سلطنته بتقديم رؤى بديلةٍ لها، بصورة احتداميةٍ وبمقارعة الحجة بالحجة، وبحميمية. ليس ثمة من إحساس في عملهما بأنهما يقفان خارج التراث الثقافي الغربي، أيّاً كانت شدة إفساحهما عن التجربة الخصامية للشعوب المستعمرة و/أو غير الغربية. لقد أيّد جيمس بعنادٍ - بعد الزنوجة، والقومية السوداء، وأصلانية الـ١٩٦٠ات والـ١٩٧٠ات بزمانٍ طويل - التراث الغربي في الوقت ذاته الذي كان ينتمي فيه إلى لحظة العصيان المسلح المناهضة للامبريالية التي شارك فيها فانون، وكابرال، ورووني. وقد قال في إحدى المقابلات:

كيف لي أن أعود إلى جذور غير أوروبية؟ إذا كان هذا يعني أن الكتاب الكاريبيين اليوم ينبغي أن يكونوا على وعي بأنّ ثمة تأكيدات في كتاباتهم ندين بها لجذور غير أوروبية، غير شيكسبيرية، وإلى الماضي في الموسيقى الذي ليس بيتهوفن، فانا أوافق. لكنني لا أحبها <تلك الأسئلة> مطروحةً بالطريقة التي صيغت بها: إما - أُر - لا أفكر كذلك. إنني أفكر كليهما معاً. وبشكل أساسي فإننا شعبٌ يتجذر ماضيه الجمالي وتعلّمه ومعرفته في الحضارة الأوروبية الغربية<sup>(١٣٥)</sup>.

ولئن كان انطونيوس في مسرده المتقن لبزوغ القومية العربية قد أكّد الأهمية القصوى

\* — Jean-Jacques Dessalines (١٧٥٨ - ١٨٠٦): ثائر عبْدٌ في سان دومينغ (هايتي) إبّان الثورة الفرنسية. ثم صار نزع «لوهرتور» اليمنى. وحين هُزم هذا الأخير، خَضَعَ دسالين للنظام الجديد، لكنه ما لبث أن تار مع آخرين ضده حين أعرب نابوليون عن نيّته في إعادة العبودية. فطردوا الفرنسيين بمساعدة الإنكليز، وأعلن دسالين استقلال بلاده عام ١٨٠٤ وسمّى نفسه امبراطوراً. قُتل أثناء قمعه لإحدى الثورات الخلاسية. (الناشر، عن الموسوعة البريطانية).

إعادة اكتشاف اللغة العربية والموروث الإسلامي العريق (في أغلب الحالات عبر عمل مفكرين مسيحيين مثله، وهو تأكيدُ قام المؤرِّخون اللاحقون بنقده لغلوه)، فإنه يصر أيضاً على أن التراث العربي ليس بأي طريقةٍ جوهريةٍ في نزاع مع التراث الغربي. بل ثمة توالد وتواشجٌ نسبٍ بينهما كما يوضح، مثلاً، في المقطع الهام التالي:

كانت للنشاطات التعليمية للمبشّرين الاميركيين في تلك المرحلة المبكرة [الـ١٨٥٠ات والـ١٨٦٠ات]، بين عدد كبير من الفضائل، ميزةٌ واحدة بارزة؛ فلقد وضعوا العربية في المقام الأول من التقدير وبذلوا الجهود العظمى، ما إن التزموا بالتدريس بها، لاداء مهمة تقديم ادب وافق. وفي ذلك، كانوا هم الرواد؛ وبسبب من ذلك يدين لجهودهم بالقدر الأعظم ذلك الفورانُ الفكري الذي وسَمَ التحركات الاولى للانبعث العربي<sup>(١٣٦)</sup>.

لا يُلاحظ مثلُ هذا التطابق المتناغم بين الغرب ومستعمراته الماورابحارية في عمل غوها والعتاس. فقد تدخلت الحروبُ الاستعمارية والنزاعاتُ المديدة السياسية والعسكرية التي نجمت عنها. ولئن كان التحكمُ السياسيُّ المباشر قد اختفى، فقد أبقتُه وعزّزته السيطرةُ الاقتصاديةُ والسياسية، وأحياناً العسكرية، مصحوبةً بالهيمنة الثقافية - قوة الأفكار الحاكمة والموجهة، كما يسميها غرامشي - نابعةً من الغرب وممارسةُ القوة على العالم الهامشي. إن إحدى أشد الهجمات التي يقوم بها العتاس في اسطوره الأصلاني الكسول هي مهاجمةُ المايليزيين الذين يواصلون في تفكيرهم الخاص إعادة إنتاج العقائدية الاستعمارية التي خلقتُ وعزّزتُ وأدامتُ فكرةَ "الأصلاني الكسول". ففي مقاطع تذكرُ بنقدِ فانون الحادٍ للطبقوسطية القومية، يُظهر العتاس كيف أن رواسب من الراسمالية الاستعمارية تبقى في فكر المايليين\* الذين نالوا حديثاً استقلالهم الذاتي، حاصرةً إياهم - وتحديداً، أولئك الذين لم يصبحوا واعين للذات في المنهجية ومدركين للارتباطات الطبقيّة التي تؤثر على الفكر- في فُصلات "الفكر الراسمالي الاستعماري". وهكذا، يتابع العتاس قائلاً:

يشوّه الوعي الزائفُ الواقع. لقد ورثَ الحزبُ المايلي الحاكمُ الحكمَ من البريطانيين دون صراع من أجل الاستقلال كذلك الذي حدث في اندونيسيا، والهند، والفيليبين. بهذه الصورة، لم يكن ثمة صراعٌ عقائدي أيضاً. لم يحدث انقطاعٌ فكريٌّ مع التفكير العقائدي البريطاني على المستوى الأعمق للفكر. لقد جُنّدت قيادةُ هذا الحزب من الترتيبية العليا لجهاز الإدارة المدنية التي درّبها البريطانيون، ومن معلمي المدارس المايليين والموظفين المدنيين من ابناء الطبقة الوسطى. ولم تقم الحفنةُ من المحترفين المرتبطين بالحزب بتأسيس النسق<sup>(١٣٧)</sup>.

وغوها ليس أقلُّ اهتماماً بإشكالية الاستمرار والانقطاع، بيد أن المسألة بالنسبة إليه ذاتُ ترينياتٍ نابعة من السيرة الذاتية، في ضوء هواجسه المنهجية الخاصة والواعية للذات وعياً عميقاً. كيف يدرس المرءُ الماضيَ الهندي المتأثر جذرياً بالقوة البريطانية، لا دراسةً تجريديةً بل بصورة محسوسة، حين يكون هذا المرءُ هندياً حديثاً اعتمَدَ أصله، وتربيته، وواقعُ أسرته اعتماداً تاريخياً على تلك القوة؟ كيف يقدر المرءُ أن يرى تلك العلاقة بعد استقلال الهند في حين أنه قد كان <جزءاً> من هذه العلاقة، لا خارجها؟ إن معضلةً غوها لتجدُ حلاً لها في استخطاطية فكرية تُمسرح الأخيرة الصارمة للحكم البريطاني، التي أدت لا الى صدور "قانون التسوية الدائمة" وحسب بل الى نشوء طبقة الخاصة:

\* - الملايين هم أبناء شبه جزيرة الملايو، وهي جزءٌ من ماليزيا، وكانت محميةً انكليزية بين ١٩٤٨ و ١٩٥٧. وفي عام ١٩٦٣ توحدت الملايو مع سنغافورة وساراواك وشمالى بورنيو في أمةٍ مستقلة هي ماليزيا، ثم أصبحت سنغافورة جمهوريةً مستقلة بذاتها. (الناشر)

نشا المؤلف، في شبابه المبكر، مثله في ذلك مثل الكثيرين من أبناء جيله في البنغال، في ظلّ "التسوية الدائمة" وقد استُمدت مواردهُ عيشه، مثل موارد عيش أسرته، من إقطاعات ثانياً لم يزورها مرةً واحدة، وكان ما يوجّه تعليمه حاجاتٍ مكاتبية استعمارية تجنّد موظفيها <كادراتها> من سلالة المستفيدين من لورد كورنواليس؛ وكان عالمه الثقافي مطوّماً تطويقاً صارماً بقيم طبقة وسطى تعيش على شحم الأرض ومعزولة عن الثقافة الأصلية لجماهيرها من الفلاحين. لذلك تعلّم أن يعتبر "التسوية الدائمة" ميثاقاً للاستتقاع الاجتماعي والاقتصادي. وفي مرحلة لاحقة، قرا حين كان طالباً للدراسات العليا في جامعة كلكتا، عن أفكار فيليب فرانسيس المناهضة للإقطاعية، وواجهه فوراً سؤال لم تستطع الكتب المقررة والجامعيون الإجابة عليه: كيف حدث أن التسوية شبه الإقطاعية للأراضي التي تمت عام ١٧٩٢ كانت قد نبعت أصلاً من أفكار رجل معجبٍ إعجاباً عظيماً بالثورة الفرنسية؛ لم يكن بوسع المرء أن يعرف من كُتِب التاريخ أن مثل هذا التناقض قد وُجد وتطلّب توضيحاً. كانت كتب الأدلة راضية قانعة بأن العمل الطيب الذي قامت به انكثرة في الهند قد مثل سلسلةً من التجارب الناجحة لم تكن لها علاقةٌ تذكر بالفكر والامواء التي ورثها الحكّام من خلفيتهم الأوروبية. ولا تجد وجهة النظر هذه إلى السياسة البريطانية بوصفها "ازدهاراً لاجذور له" تأكيداً لـ <سلامتٍ>ها في تاريخ قانون الأراضي الذي عاش أطول حياةٍ تحت حكم بريطانيا للهند. إن المؤلف ليأمل أن يكون قد نجح في موضحة أصول "التسوية الدائمة" في ترافد الأفكار ذاك الذي تحوّد فيه التياران الرئيسيان للفكر الانكليزي والفرنسي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر (١٧٢٨).

ثمة فعلٌ انفصالٍ يكرّر الحركة الأساسية لفكفكة الاستعمار. إن غوها - بإدراكه لكون العقائدية التي أنتجت "التسوية الدائمة" في الهند اشتقت من مصادر فرنسية وبريطانية، وبرؤيته لكون موروثه الطبقي الشخصي نَبْعٌ لا من الأرض بل من بنية القوة الاستعمارية - ليستطيع بعدئذ أن يفصل نفسه فكراً. إن التاريخ في نظر غوها، كما في نظر العطاس، هو التنقيد Critique، لا الاستنساخ الطبع لأشياء الاستعمار وعقائدياته ومقولاته. وفي أعمال لاحقة، يركّز كلا الرجلين على محاولة إنقاذ الصوت الأصلي المقموع من التاريخ الاستعماري، واشتقاق تبصّراتٍ تاريخية جديدة لا للماضي فحسب بل لعين الضعف الكامن في المجتمع الأصلي أيضاً، وهو الضعف الذي جعله لزمان طويل جداً عرضةً لخطط من مثل "قانون التسوية الدائمة".

يلاحظ غوها، في المقالة التمهيدية لدراسات منضوية - وهي سلسلة من المجلدات الجماعية لزملاء متشابهي النظرات صدرت بإشرافه عام ١٩٨٢ - أن "علم التاريخ اللاتاريخي" للهند المستعمرة أسقط <من حسابها> "سياسيات الشعب" مفضلاً عليها النخب القومية التي خلقها البريطانيون. ومن هنا "الإخفاق التاريخي" للأمة في أن تنضج نضجها الذاتي، الأمر الذي يجعل دراسة هذا الاخفاق الإشكالية المركزية لعلم تاريخ الهند المستعمرة (١٩٢٩).

وبإيجاز، فإن بوسعنا الآن أن نرى أن الثقافة الحواضرية قَمَعَتِ العناصرَ الأصلية في المجتمع المستعمر. وما الأمر ببساطة أن العطاس وغوها متخصصان جامعيان، بل أن العلاقة بين الثقافات، بعد عدة عقود من الاستقلال، يتم تصويرها بوصفها تضاديةً إلى درجة جذرية. وإحدى علامات هذا التصور الذي نشأ بعد الحرب <العالمية الثانية>؟ هي الاختفاء التدريجي للسرديات. إن مواضيع اليقظة العربية واليعاقبة السود هي الحركات الجماهيرية التي قادها قادة فائقون. وثمة قصص تأسر اللب وتستحوذ على النفس، بل ثمة قصص نبيلة أيضاً، هنا <في هذين الكتابين>: قصص عن صعود

<حركتين من> حركات المقاومة الشعبية - ثورة العبيد في سانتو دومينغو، والثورة العربية\* - وهي سردياتٌ جليلةٌ عظمى، بمصطلحات جان - فرانسوا ليوتار، للتحرير. وليس ثمة من قصصٍ مماثلةٍ تنفع بالحياة صفحات <كتابي> العطاس وغوها.

هناك جانب متماثلٌ تماثلاً صادماً بين الكتابين المبكرين <اليقظة العربية واليعاقبة السود>، وهو أن القصد منهما توسيعُ وعي القراء الغربيين الذين كانت الأحداثُ المسرودة قد رويت لهم سابقاً من قِبل شهودٍ حواضريين. فمهمة جيمس هي إنتاجُ سرديةٍ للثورة الفرنسية تدمج أحداثاً وقعت في فرنسا وماوراء البحار، ولهذا فإن توسان ونابليون هما بالنسبة له الشخصيتان العظيمتان اللتان أنتجتها الثورة <الفرنسية>. وأما اليقظة العربية فقد صُمِّمَ، بطرق ساحرة لا تُحصى، لتقيدٍ ومناقضة المسرد البالغ الشهرة عن الثورة العربية الذي كان قد كتبه وتبجَّح به بشدة تي. إي. لورنس في أعمدة الحكمة السبعة. هنا أخيراً، يبدو أن انطونيوس يقول، بوسع العرب، بقادتهم ومحاربيهم ومفكرهم، أن يرووا حكايتهم الخاصة. وإنه لواحد من جوانب رؤيا جيمس وانطونيوس التاريخية السخية أن كليهما يقدمان سردية بديلة يمكن أن تُقرأ كجزء من قصة عرفها المتلقون الأوروبيون معرفة جيدة، لكنها لم تكن إلى ذلك الوقت معروفة جيداً من وجهة نظر أصلانية. وكلا الرجلين يكتب طبعاً من موقع صراع سياسي جماهيري قائم - الثورة الزنجية في حالة جيمس، والقومية العربية في حالة انطونيوس. وما يزال العدو واحداً: أوروبا والغرب .

إحدى مشكلات كتاب انطونيوس أنه، بسبب تركيزه بصورة رئيسية على الأحداث السياسية التي كان هو نفسه منخرطاً فيها بعمق، يقلل من شأن الانبعاث الثقافي الهائل في العالم العربي والإسلامي الذي سبق مرحلته، أو أنه لا يتناوله بالتقييم الوافي. وقد قام مؤرخون لاحقون - ع. ل. طيباوي، وألبرت حوراني، وهشام شرابي، وبسام طيبي، ومحمد عابد الجابري - بتقديم مسرد أكثر دقةً وشموليةً لهذا الانبعاث، ولوعيه (الذي كان ماثلاً من قَبْلُ لدى الجبرتي) للعدوان الغربي الامبريالي ضد الإسلام<sup>(١٤٠)</sup>. إن كتاباً مثل الطهاوي المصري أو خير الدين التونسي، أو المصلحين ومؤلفي الكراريس المتدينين ذوي الدور الحاسم في أواخر القرن التاسع عشر وبينهم جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ليؤكدون أهمية تطوير ثقافةٍ مستقلةٍ منفوحةٍ بالحيوية من جديد، لمقاومة الغرب، ولضارعه تقنياً، لكي يمكن تطوير هوية عربية - إسلامية أصيلة متماسكة. وتحمل دراسةً بالفئة الأهمية لعبد العزيز الدوري هي التكوين التاريخي للأمة العربية (١٩٨٤)<sup>(١٤١)</sup> تلك القصة إلى صلب السردية القومية العربية العريقة عن أمة مكتملة متكاملة، تسعى لإنجاز تطورها الخاص بالرغم من عقباتٍ من مثل الامبريالية، والاستنقاع الداخلي، وضمور النمو الاقتصادي، والاستبداد السياسي.

في جميع هذه الأعمال، بما فيها عملُ انطونيوس، تتقدم السردية من التبعية والدونية

\* - يستخدم المؤلف لفظه "revolt" هنا وفي مواضع أخرى، بقصد تمييز هذه الحركات، فيما يبدو، عن "revolution" التي تصف، مثلاً، الثورة الفرنسية. والتمييز بين الأمرين في العربية ليس سهلاً دائماً. وقد استخدمتُ صيغاً مختلفة لإبرازه مثل "الثوران" و"التمرد". لكنني احتفظت بالوصف "ثورة" لأنه قد تمت تسميته بالعربية هكذا، مثل "الثورة العربية" و"ثورة عراقية". والله أعلم.

إلى الانبعاث القومي، وتشكّل الدولة المستقلة، والاستقلال الذاتي الثقافي في شراكة قلقة مع الغرب. وذلك كله بعيداً أقصى البعد عن أن يكون قصة انتصاروية. في سويدانها يقبع بوجه من الكلام، مركّب متشابك من الأمل، والخيانة، والخيبة المريرة؛ ويحمل إنشاءً القومية العربية اليوم هذا المركّب معه في مساره. والنتيجة هي ثقافة غير محقّقة <للذات> وغير مكتملة، تعبّر عن نفسها بلغة متشظية من العذاب، والإلحاح الغاضب، والشجب غير النقدي في حالات كثيرة لأعداء خارجيين (غربيين في العادة). وهكذا فإنّ أمام الدول العربية ما بعد الاستعمارية خيارين: إذ يحتفظ عدد كبير منها، مثل سورية والعراق، بالنبرة الداعية إلى الوحدة العربية، مستخدماً إياها لتسويغ دولة أمن قومية ذات حزب واحد قامت بابتلاع المجتمع المدني بصورة كلية تقريباً.. وبعضها، مثل المملكة العربية السعودية ومصر والمغرب، تحتفظ بجوانب من البديل الأول، لكنها قامت بالتقلّص إلى قومية محلية أو اقليمية لم تتطور ثقافتها السياسية، في اعتقادي، إلى ما يتجاوز الاتكال على الغرب الحواصري. وكلا البديلين، الموجودين ضمناً في اليقظة العربية، يتعارضان مع تفضيل انطونيوس الشخصي للاستقلال الذاتي الكريم والمتكامل.

في حالة جيمس، يجسّر كتابه اليعاقبة السود فجوة هامة ثقافية وسياسية بين تاريخ كاريبي، أسود تخصصياً، من جهة، والتاريخ الأوروبي من جهة أخرى. ومع ذلك، فإنّ هذا الكتاب يتغذى هو أيضاً بتيارات أكثر ويتدفق في جدول أعرض مما توحى به سرديته الثرية نفسها. وقد ألف جيمس، حوالي الوقت نفسه، تاريخ التمرد الزنجي (١٩٣٨)، الذي كان غرضه أن يمنح عملية المقاومة نفسها عمقاً تاريخياً، تبعاً لوصف والتر رودني اللامع لذلك العمل<sup>(٤٢)</sup>. ويلاحظ رودني أنّ جيمس اعترف بالمقاومة العريقة (وإن كانت غير ناجحة في العادة) للاستعمار في أفريقيا والكاريبي والتي لم تلق اعترافاً من قبل المؤرخين الاستعماريين. وكان عمله، شأنه شأن عمل انطونيوس من جديد، عملاً ملحقاً بانخراط مؤلّفه في الصراع السياسي الأفريقي والهندغربي والتزامه به، وهو التزام حمله على السفر إلى الولايات المتحدة، وإلى أفريقيا (حيث كانت صداقة العمر التي ربطته بجورج پادمور، والرابطة الناضجة مع نكروما حاسمتي الأثر في تشكيل السياسة في غانا، كما هو جلي في دراسته النقدية جداً، نكروما وثورة غانا)، ثم إلى <جزر> الهند الغربية من جديد، وأخيراً إلى انكلترا.

ورغم أنّ جيمس كان مفكراً جديلاً معادياً للستالينية، فإنّ موقفه النقدي من الغرب كمركز امبريالي، مثله في ذلك مثل انطونيوس، لم يمنعه أبداً من فهم إنجازات هذا الغرب الثقافية، أو من نقد قصور المتحرّزين السود (مثل نكروما) الذين أيّدهم. لقد عاش أكثر مما عاش انطونيوس طبعاً، لكنه - إذ توسّعت وتغيرت آراؤه، وأضاف مجالات أخرى من التجربة إلى اهتماماته التحريرية، ودخل وخرج في مباحكات وسجالات - احتفظ بتركيز محرق مطرد على (وإنّ العبارة لتظل تعود إلى الظهور) القصة. لقد رأى النسق المركزي للتاريخ والسياسيات في إطار معطيات خطية - من دي بويز إلى فانون، من توسان إلى كاسترو - وكانت الاستعارة الأساسية لديه هي استعارة رحلة تقوم بها الأفكار والبشر؛ فيمكن لأولئك الذين كانوا عبيداً وطبقات خاضعة أن يصيروا المهاجرين أولاً ثم المثقفين الرئيسيين لمجتمع متنوع جديد.

في عمل غوها والعطاس، تُحلُّ المفارقة اللاذعة محلَّ ذلك الحسِّ السردي بالمغامرة الإنسانية. كلا الرجلين يُبرز إلى منطقة الضوء الاستخطاطيات المنفردة التي لازمت ادعاءات الإمبريالية، وعقائديتها التي فقدت مصداقيتها تماماً الآن والتي ادعت أنها تحقق الارتقاء والتحسين التعليمي. تأملُ أولاً إعادة تركيب غوها الدقيقة التفصيلية للطرق التي قام بوساطتها موظفو شركة الهند الشرقية البريطانيون بمزاوجة التجريبية ومناخضة الإقطاعية مع الفلسفة الفيزيوقراطية الفرنسية (التي كان أساسها عقائدية عائدات الأرض) من أجل أن يحققوا الدوام والاستمرار للحكم البريطاني، لاستخدم العبارة التي يستخدمها بطلُ غوها: فيليب فرانسس<sup>(١٤٣)</sup>. ويورد غوها مسرده المتقن البارح عن فرانسس - وهو "السيبيادس شاب" كان صديقاً لـ <ادموند> بيرك، ومعاصراً لوارن هيستغنز، ومناوئاً للملكية، ومن دعاة إلغاء الرق، وحيواناً سياسياً من الطراز الأكمل - وعن فكرته المتعلقة بالتسوية الدائمة، وذلك في صيغة تقطيع وإلصاق <مونتاج>، بقطع متعددة ووصلات، لا كقصة بطولية. ويظهر غوها كيف تُحدث أفكارُ فرانسس عن الأرض، وكيف يتم تقبل هذه الأفكار تدريجياً بعد انتهاء سنوات خدمته بزمن طويل، مقتربة بتلميح صورة هيستغنز، وكيف تساعد على تحسين فكرة الإمبراطورية، وإغنائها، ومساندتها.. وهي فكرة، لاقتبس غوها:

كانت قد بدأت بسرعة تفوق سبيلُ مهندسها الفردي أهمية، وكانت تكتسب - من حيث هي تجريد - استقلالية سعة شركة ما وهيبتها بإزاء شخصية مؤسسها<sup>(١٤٤)</sup>.

لذلك فإنَّ موضوع غوها هي الطريقة التي يقتضي بها التجريدُ ويصادر لا الناس فقط بل الجغرافيا أيضاً. والمفهوم المركزي <لديه> هو أن البريطانيين كامبرياليين شعروا بأنَّ مهمتهم في الهند كانت أيجاز حل لـ <مشكلة السيادة في البنغال><sup>(١٤٥)</sup> لمصلحة العرش البريطاني، كما هو طبيعي تماماً. وكان إنجازُ فرانسس الحقيقي في إصدار الخطة التي ينبغي بموجبها أن تسوى أجزء الأرض كلها في البنغال تسوية دائمة تبعاً لصيغة حسابية <رياضية>، هو أنه نجح في تشكيل أو ترميم دستور إمبراطورية<sup>(١٤٦)</sup>.

يراد لعمل غوها أن يجلو إحدى طرق تفكيك علم التاريخ الإمبريالي - الذي حصَّنه ودعَّمه تخطيطُ البريطانيين للأراضي الهندية - لا في الهند بل بقدر أكبر في أوروبا <نفسها>، التي هي الموقع الأصلي لأعظم درجات أمنه، وأمتداد بقائه، وسلطته. والمفارقة اللاذعة هي أن أصلاً هي الذي يقوم بهذه المهمة، وقد اتقن وتمكَّ لا المصادر والمنهج فحسب، بل التجريبات القاهرة أيضاً التي لم تكن تكون آثارها في عقول الإمبرياليين أنفسهم ملموسة حين نَبَّعت.

يتحقق الإنجاز الاحتدائيُّ نفسه في كتاب العطاس. وبينما تمثَّل شخصياتُ غوها، حرفياً، عقائدين معنيين بتأكيد السلطة على الهند بطرق متماسكة فلسفياً، فليس ثمة برنامج مماثل يُنسب إلى الاستعماريين البرتغاليين، والإسبان، والبريطانيين الذين يحلهم العطاس. فهؤلاء موجودون في جنوب شرقي المحيط الهادي للحصول على الكنوز (المطاط والمعادن) واليد العاملة الرخيصة، اقتفاءً للريح الاقتصادية. وهم يبتكرون خططاً متعددة، تتطلب خدمةً الأصلانيين لهم، للاقتصاديات الاستعمارية التي تدرُّ أرباحاً وفيرة، ويدمرون خلال هذه العملية التَّجَارَ المحليين المتوسطي الحال، ويخضعون الأصلانيين بل

يستعبدونهم عملياً، ويفجرون صراعات داخليةً أقواميةً <إثنية> بين المنجمعات الصينية، والجاوية، والماليزية من أجل أن يتمكنوا من الحكم بشكل أفضل ويُبقوا الأصلايين منقسمين وضعفاءً أيضاً. ومن هذا الخضمّ المضطرب تنبثق الشخصيةً الأسطورية للأصلايين الكسول، الذي يُفترض أن يفيض من وجوده - ككتابت جوهرائي ولامتغير من ثوابت المجتمع الشرقي - عددٌ من الحقائق الأساسية. ويوثق العطاسُ بصبراً وأناةً كيف أن هذه الأوصاف - وجميعها مبنية على "الوعي الزائف" لاستعماريين يرفضون أن يقبلوا أن يرفض الأصلايين للعمل كان واحداً من أكثر أشكال مقاومة الغزو الأوروبي تبكيراً - تكتسب بشكل مطرد التناسق، والسلطة، والفورية التي لا تُدحض، التي يملكها الواقع الموضوعي. بعد ذلك يقوم مراقبون مثل رافلز\* بتكريب معقلين مسوَّغين لمزيد من الخضوع والعقاب للأصلايين، إذ إنَّ الانحطاط في الشخصية الأصلائية كان قد حدث من قَبْلُ، في رأي الإداريين الاستعماريين، ولم يكن قابلاً لعكس اتجاهه <أو إغاثة>.

يزوِّدنا العطاسُ بمنظومةٍ بديلةٍ عن معنى الأصلايين الكسول، أو هو بالأحرى يزوِّدنا بمنظومةٍ عن سبب نجاح الأوروبيين في التشبث بالأسطورة ذلك المدى الطويل من الزمن. بل إنه ليجلو أيضاً كيف توصل الأسطورة الحياة، وكيف تستطيع، بكلمات أريك وليمز المقتبسة سابقاً، "مصلحةً بالية، تبلغ رائحةً إفلاسها السماء من منظور تاريخي، أن تمارس تأثيراً تعويقياً وتخريبياً لا يمكن تعليقه إلا بالخدمات القوية التي كانت قد قدمتها سابقاً وبالتخندق المنيع الذي كانت قد اكتسبته"<sup>(١٤٧)</sup>؛ إنَّ أسطورة الأصلايين الكسول مرادفة للسيطرة؛ والسيطرة، في العمق، هي القوة. لقد اعتاد باحثون كثيرون على اعتبار القوة مجرد تأثير إنشائي إلى درجة أن وصف العطاس للكيفية التي بها دمر المستعمرون بصورةٍ منتظمةٍ الدولَ التجارية الساحلية على <جزيرة> سومطرة وعلى امتداد الساحل الملاي، وللكيفية التي بها قاد فتح الأراضي إلى حذف طبقات أصلائية مثل صيادي الأسماك، وجرّفتي الأسلحة، ووصفه - فوق كل شيء آخر - للكيفية التي قام الأسياد الأجانب بموجبها بأشياء لم تكن أية طبقةٍ أصيلةٍ ستقوم بها أبداً، يُحتمل أن يصدمننا بمباشرة وخلوه من كلِّ المحسنات:

إنَّ القوة حين تقع في أيدي هولنديةٍ مختلفةٍ عن القوة حين تقع في أيدي خليفةٍ أهليٍّ بلدي. كانت القوة الأهلية البلدية بشكل عام أكثر تحررية <ليبرالية> في التجارة. فهي لم تدمر طبقتها التجارية الخاصة عبر المنطقة بأسرها، واستمرت في استخدام منتجات صناعتها الخاصة، وبنّت قواربها بنفسها، وأخيراً وليس آخراً فإنها كانت عاجزة عن فرض احتكار على امتداد الجزء الأعظم من اندونيسيا. لقد شجعت وروّجت مقدرات شعبها رغم أن طاغية كان يتبوأ العرش<sup>(١٤٨)</sup>.

إنَّ التحكم من النمط الذي يصفه العطاس هنا ويصفه غوها في كتابه يكاد يكون كلياً شاملاً، وهو في نزاعٍ مدمرٍ مستمرٍ مع المجتمع المستعمر. ولذلك فإنَّ روايةً سرديةً عن الكيفية التي بها تتأسس استمراريةً بين أوروبا ومستعمراتها الأطرافية أمرٌ مستحيل، سواء أكان ذلك من الجانب الأوروبي أم من الجانب الاستعماري؛ وبدلاً من ذلك فإنَّ ما يبدو أكثر ملاءمةً للباحث المفكك للاستعمار هو استنوايات من الريبة والشك. لكن، رغم

\* - السير توماس ستامفورد رافلز (١٧٨١ - ١٨٢٦): حاكم الهند الشرقية البريطاني، ومؤسس سنغافورة، والمسؤول الأوّل عن خلق امبراطورية الشرق الأقصى البريطانية (الناسر، عن الموسوعة البريطانية).

أن السرديات الجلييلة العظمى، المتفائلة تفاوياً منعشاً، للقومية التحررية لم تعد تؤدي دور الإثبات والتأكيد لمنجم ثقافي كما فعلت بالنسبة لجيمس وأنطونيوس في الـ ١٩٢٠ات، فإن منجماً منهجياً - أكثر صعوبةً وصرامة في متطلباته - ينهض بدلاً من ذلك. لقد نشط عمل غوها مشروعاً تعاونياً هاماً، هو دراسات منضوية، قاد بدوره غوها وزملاءه إلى مزيد من الأبحاث اللافته عن مشكلات القوة، وعلم التاريخ، وتاريخ البشر. وكان لعمل العطاس هدفان: إرساء أساس لمنهجية مابعد استعمارية لتاريخ جنوبي آسيا ومجمعه.. ودفع العمل التقويضي، والنزاع لغلالة السرية والغموض، الذي يقترح في أسطورة الاصلاني الكسول، الى أمام أبعد.

إنني لا أقصد إلى الايحاء بأن حماساً المثقفين السابقين على الحرب <العالمية الثانية، اي: جيمس وأنطونيوس> وأعمالهما المسرودة بشبوب انفعالي قد رُفضت واعتُبرت فقيرة ناقصة من قبل أجيال لاحقة. كما أنني لا أقصد إلى الايحاء بأن عمل العطاس وغوها الأكثر تقنويةً وتطلباً للجهد يكشف عن نظرة محترفة أشد ضيقاً وأقل ارحيةً ثقافياً - للأسف - إلى الجمهور الحواضري الغربي. بل بالأحرى، يبدو لي أن جيمس وأنطونيوس ينطقان باسم حركات كانت قد انطلقت بالفعل نحو تقرير المصير، وإن تكن من نمط جزئي وغير مُرضٍ في نهاية المطاف على الإطلاق... فيما يأخذ غوها والعطاس، في مناقشتها لمسائل يثيرها المازق مابعد الاستعماري، نجاحات سابقة (مثل الاستقلال القومي) أخذَ بداهةً ويؤكدان في الوقت نفسه أيضاً نواقص فكفكات الاستعمار والحرية والهويات الذاتية التي اكتسبت حتى اليوم. وكذلك فإن غوها والعطاس يتوجهان سواء بسواء إلى الباحثين الغربيين، وإلى أبناء وطنهم من الباحثين الاصلانيين الذين ما تزال تستعدهم تصورات المستعمرين لماضيهم <ماضي الاصلانيين> نفسه.

يثير السؤال المتعلق بالدوائر السكانية السؤال الأعم الخاص بجمهور المثقفين: فلقد تقلص الجمهور، كما يمكن أن يشهد العديد من القراء العاديين لـ *اليعاقبة السود* واليقظة العربية، بالنسبة للكاتبين اللاحقين، وهما كتابان أكبر استغراقاً في الحقول المعرفية وأكثر نقاءً وتسامياً. يفترض جيمس وأنطونيوس بداهة أن ما يريدان أن يقولاه ذو أهمية سياسية وجمالية بالغة. يرسم جيمس توسان <لوفرتور> رجلاً رائعاً حتى حدود الفتنة والاستهواء، بعيداً عن الانتقامية والحدق، هائل الذكاء، مرهفاً، ومتجاوباً مع عذابات مواطنيه الهايتيين. "الرجال العظماء يصنعون التاريخ"، يقول جيمس، لكنهم لا يصنعون إلا ذلك التاريخ الذي يمكنهم ان يصنعوه"<sup>(١٤٩)</sup>. نادرأ ما وثق توسان بشعبه أو باح له بما في نفسه، كما أنه حكم حكماً خاطئاً على أعدائه. أما جيمس فلا يقترف مثل هذه الأخطاء، ولا يعزز اية استيهامات. بل هو يعيد في *اليعاقبة السود*، بدقة جراحية، بناء السياق الامبريالي من المصلحة الذاتية والريبة الأخلاقية الذي نبعت منه حركة إلغاء الرق البريطانية وويلبرفورس\* ذو النوايا الطيبة؛ لكن الحكومة البريطانية تلاعبت بالشعور الخير <المحب للبشر>، في وقت كان فيه السود الهايتيون وفرنسا مشتبكين في حرب دامية، من أجل تحقيق مزيد من المكاسب للقوة البريطانية في الكاريبي على حساب فرنسا

\* - ويليام وويلبرفورس (١٧٥٩ - ١٨٢٣) كاتب انكليزي، ورجل دولة، وداعية إنساني إلى إلغاء الرق.



وخصوصها. وجيمس بالغُ الحدة في شجبه للامبريالية التي لا تعطي شيئاً ابداً <دون مقابل>. ومع ذلك فإنه يحتفظ بثقته بقوى الإقناع التي تملكها سرديّة <مِنْ> مقوماتها الرئيسية: الصراع من أجل الحرية - وهو صراعٌ مشترك بين فرنسا وهايتي -، والرغبة في المعرفة والفعل؛ ويقدمُ هذا الركائزُ الداعمةُ لكتابته كمؤرخٍ أسود يكتب من أجل رجل أسود منخرطٍ في النزاع ومن أجل جمهورٍ متلقٍ حواصري أبيض، أيضاً.

هل هذه الرحلة إلى <الداخل> اقتصاصية عقابيّة، يأتي فيها الشيءُ المستعمرُ المكبوتُ ليُشَبَّحَ ويتعقب خطواتِ الأوروبي الحديث، الذي يؤكِّد في نظره الميراثَ المشوّهَ لتوسان لوفرتور <المتجسّدُ> في أمثال دوفالييه وتروهييو<sup>(١٥٠)</sup> في هذا العالم، فكرة المتوحش غير الأوروبي؟ إن جيمس لا يسقط في فخ رذات الفعل بشكل رئيسي، مفضلاً بدلاً من ذلك، في مقدمته المكتوبة عام ١٩٦٢، أن يكشف كيف عادت أفكارُ توسان الثورية إلى الظهور في صراعات ناجحة من أجل التحرير، وكيف ظهرت - بقوة معادلة - في ولادة ثقافاتٍ قوميةٍ حديثةٍ الوعي بالذات والثقة بالنفس، واعيةٍ للماضي الاستعماري ومندفعةٍ مع ذلك إلى الأمام باتجاه "المرحلة النهائية لبحثٍ كاربيبي عن الهوية القومية"<sup>(١٥٠)</sup>. ولذلك لم يكن مجاناً، ولغير ما سببٍ مسوِّغ، أن اغتُبرَ جيمس، من قِبَل عددٍ كبير من الكتاب - جورج لامنغ، وفي. إس. نيبال، واريك وليمز، وولسن هاريس - الحَبْرَ الجليل لثقافة جزر الهند الغربية المعاصرة.

والأمرُ شبيه بالنسبة لانطونيوس، ذلك أن خيانة الحلفاء للعرب لا تقلص من رحابة الاندياح الاسترجاعي الجليل لسرديته، التي تحركُ العربَ فيها أفكارٌ عن الحرية مشتركةٌ مع الأوروبيين. وكما قام اليعاقبة السود بتأريض دراسة "التمرد الزنجي" (والعبارة لجيمس)، فقد قام اليقظة العربية بتدشين الدراسة الجامعية للقومية العربية، التي أصبحت تدريجياً حقلاً معرفياً لا في العالم العربي وحسب بل في الغرب كذلك. وهنا أيضاً يثير الارتباط مع سياسيات راهنة العاطفة إثارةً خاصة. إن انطونيوس، إذ يتنكب قضيتَهُ ويعبّر عن تقرير مصير العرب المحبَط أمام هيئة المحلفين المؤلفة من سياسيين ومفكرين غربيين كانوا قد أجهضوا بانفسهم حركةً من حركات التاريخ، يُشبه جيمس شَبهاً كبيراً وهو يتحدث إلى كِلا شعبه وجمهور أبيض مقاوم كان تحريرُ غير البيض قد أصبح بالنسبة له قضيةً هامشية. والناشدة لا تُقدّم باسم الأنصاف والرحمة، بل باسم وقائع التاريخ نفسها التي كثيراً ما تكون مذهلة ومباغثة. فما أروع أن نقرأ تعليقات انطونيوس في محاضرة ألقاها في جامعة برنستن عام ١٩٣٥، حين كان يعمل على إنجاز **اليقظة العربية**:

كثيراً ما يحدث في تاريخ الأمم أن نزاعاً لقوى متعارضة بدا مقدراً له أن ينتهي بانتصار الجانب الأقوى يتعرض لانفجارٍ غيرٍ محدد بفضل انبثاق قوى جديدة تُدين بانبثاقها إلى عين ذلك الانتصار<sup>(١٥١)</sup>.

\* - جان كلود دوفالييه، هو ابنُ فرانسوا دوفالييه. صارَ رئيس هايتي (عام ١٩٧١) بعد وفاة أبيه الرئيس الذي حكم بقبضةٍ من حديد والذى كل معارضةٍ سياسية له. وأما رافائيل ليونيداس موليناس تروهييو Trujillo (١٨٩١ - ١٩٦١) فهو ديكتاتور جمهورية الدومينيكان. تسلّم زمام الحكم إثر الثورة على الرئيس هوراسيو فاسكين عام ١٩٣٠؛ وتلقى تدريبه العسكري على يد المارينز الأميركيين، وعُرف بوحشيته وقمعه للمعارضة. (الناشر، عن الموسوعة البريطانية).

إنه لبيدولي أن انطونيوس، بصورةً يكتنفها السحريُّ الغيبي، كان ينظر من أعماق خيبة الحاضر إلى انفجار ذلك العصيان الجماهيري ذاته الذي يبدو أنه يدعو إليه في كتابه ضمناً وي طرح الحجج من أجله. (وإن الانتفاضة الفلسطينية، وهي إحدى الانتفاضات العظيمة ضد الاستعمار في أزمنتنا هذه، تتابع الصراع من أجل فلسطين التاريخية، التي تشكل أحد الموضوعات الرئيسية في اليقظة العربية).

وهذه الملاحظة تعود بنا بفظافة الى الموضوع العام للبحث الدراسي والسياسة. إن كلاً من الباحثين الذين ناقشتهم متاصلٌ بقوة في وضع محلي، بتاريخه، وتقاليد، وترايطاته التي تؤثر على اختيار الموضوع وطريقة معالجته كليهما. فكتاب انطونيوس، مثلاً، يلتمس اهتمامنا اليوم بوصفه تاريخاً للقومية العربية في وقت مبكر من القرن العشرين، ووثيقة حافلة مؤثرة لطبقة من الأعيان الذين حلُّ محلِّهم وتجاوزهم بعد الـ١٩٢٠ات والـ١٩٤٠ات ككتاب أصلانين أكثر جذريةً، وشعبيةً يكتبون بالعربية؛ لم تعد ثمة إمكانية، أو حاجة، لمخاطبة صانعي السياسة الغربيين إطلاقاً، بل غدت الحاجة أقل بكثير إلى مخاطبتهم من داخل كون مشترك من الإنشاء. ويبرز غوها في الـ١٩٦٠ات منفياً، متناظراً بعمق مع السياسات الهندية التي يسيطر عليها في الواقع أولئك الذين أسماهم طارق علي "النُّهروين والغانديين" (١٩٧٢)\*.

تؤثر السياسة - والهاجس السياسي الصريح الذي يكمن وراء أعمال هؤلاء الرجال الأربعة جميعهم - بشكل طبيعي على نهج الدراسة والبحث الذي يقدمونه. ففي هذه الأعمال تتعارض ملحاحية سياسية أو إنسانية صريحة في النغمة والأهمية تعارضاً ملحوظاً مع ما أصبح في الغرب الحديث يمثل المعيار والقاعدة في البحث العلمي. (أما كيف نشأ هذا المعيار - بتجرده المزعوم <عن الأهواء>، وتوكيداته للموضوعية والنزاهة، ونظامه المقنن من الكياسة والسجوة الطقوسي - فتلك مشكلة لعلم اجتماع الذوق والمعرفة). إن كلاً من مفكري العالم الثالث الأربعة هؤلاء يكتب صادراً عن وضع سياسي، ومن داخل وضع سياسي؛ وضغوط هذا الوضع دائمة: فليست هي إزعاجات مؤقتة أو انشغالات ثانوية تجريبية يمكن تَحْيِيَّتُها جانباً من أجل هدف أسمى. فالوضع السياسي الذي لا يجد حلاً إنما هو قريب جداً من السطح، وهو يصيب بعدواه بلاغةً ذلك البحث، أو يلوي نبراته ويشوِّهها: صحيح أن المؤلفين يكتبون من موقع المعرفة والعلم السلطوي، لكنهم <يكتبون> أيضاً من موقع أناس رسالتهم عن المقاومة والمنازعة هي النتيجة التاريخية للإخضاع وكما يقول أدورنو عن البتر الظاهر للغة المستخدمة في مثل هذه الظروف: "فإن ما يسمُّ لفة المخفضين، من جهة ثانية، لهو السيطرة وحدها، سالبٌ إياهم بهذه الطريقة - وإلى مدى أبعد - العدالة التي وعدت بها الكلمة غير المبتورة المستقلة ذاتياً جميع أولئك الأحرار حرةً تكفي لأن ينطقوا بها دون حقد" (١٩٥٣).

لا أريد أن أوحى بأن البحث الدراسي المعارض يجب أن يكون صارخاً صاخباً وملحاحاً إلى درجة الإزعاج، أو أن انطونيوس وجيمس (أو غوها والعطاس بهذا

\* - النهروين هنا جمع نهرو، والغانديون جمع غاندي، وليست الصيغة صيغة نسبة إليهما، ومثل هذه الصيغة صعبة الإظهار في العربية، وهي تشبه قولك "جاء المحمدون" و"أكرمتمى الحاتمون" وتصارع العكيون.

الخصوص) يناقشون إنشائهم بالإهانات والانتقادات <بين أن وأن>. بل إنني أقول فقط إن البحث الدراسي والسياسة مرتبطان بطريقة أكثر انكشافاً في هذه الكتب لأن هؤلاء المؤلفين يعتبرون أنفسهم رُسلًا إلى الثقافة الغربية يمثلون حرية وإنجازاً سياسيين لم يتحققا بعد وبقيا مسطومين، ومؤجلين. وأن يسيء المرء تأويل القوة التاريخية لتصريحاتهم وإنشاءاتهم وتدخلاتهم، وأن يسميها (كما فعل كونر كروز أوبراين مرة<sup>(١٥٥)</sup>) نحيباً يستدرّ التعاطف، وأن يطرحها جانباً بوصفها صرخاتٍ من القلب عاطفيةً وذاتيةً لناشطين متفدين <حماسة> وسياسيين متحيزين، هي أن يوهن من قوتها، ويسيء تمثيل قيمتها، ويطرح جانباً إسهامها الهائل في المعرفة. فلا عجب أن قال قانون إن <الموضوعية، بالنسبة للأصلائي، موجهة ضده دائماً<sup>(١٥٥)</sup>>.

إن الإغراء الذي يواجه المتفكين الحواضرين هو عادةً إغراء الحكم بأن هذه الكتب، وأمثالها، ليست سوى دليل على الأدب الأصلائي الذي يكتبه <مُخبرون أصلائيون>، لا إسهاماتٍ عاصرت (في حينها أعمالاً أخرى) في المعرفة. لقد تم في الغرب تهميش سلطة أعمال من مثل عملي أنطونيوس وجيمس نفسيهما، لأنها تبدو للباحثين المحترفين الغربيين مكتوبةً من الخارج <الأطرافي> ناظرةً إلى الداخل <الحواضري>. وقد يكون هذا أحد الأسباب التي جعلت غوها والعطاس، بعد ذلك بجيل، يختاران التركيز على البلاغة، والأفكار، واللغة بدلاً من التاريخ ولا شيء آخر، مفضلين أن يحلوا الأعراض <المرضية> اللفظية للقوة بدلاً من ممارستها المتوحشة، وعملياتها وأخطايتها بدلاً من مصادرها، ومناهجها الفكرية وتقنياتها الإفصاحية بدلاً من أخلاقيتها - أن يفككا بدلاً من أن يدمرا.

إن نعيد ربط التجربة بالثقافة هو طبعاً أن نقرأ النصوص التي ينتجها المركز الحواضري وتنتجها الأطراف قراءةً طباقيةً contrapuntally، دون أن ننسب امتياز <الموضوعية> لـ <طرفنا> أو عبء <الذاتية> لـ <طرفهم><sup>(١٥٦)</sup>. والمسألة هي مسألة أن نعرف كيف نقرأ، كما يقول التقويضيون، دون أن نفصل ذلك عن مسألة معرفة ماذا نقرأ. فالنصوص ليست أشياءً مكتملة. إنها، كما قال <ريموند> وليمز مرة، علامات <موسيقية> وممارسات ثقافية. والنصوص لا تخلق أسلافها الخاصة فحسب، كما قال بورخيس عن كافكا، بل تخلق أيضاً خلفاءها. إن التجربة الإمبريالية العظيمة للقرنين الماضيين عالمية وكونية؛ ولقد ورطت كل زاوية من زوايا الكرة الأرضية، المستعمر والمستعمر معاً. ولأن الغرب حقق سيطرةً عالمية، ولأنه بدأ وكأنه أكمل مساره بإحداث <نهاية التاريخ> كما أسماها فرانسيس فوكوياما، فقد افترض الغربيون اكتماليةً ومناعةً روائجهم الثقافية وتراثهم البحثي وعالمهم الإنشائي؛ ويقف باقي العالم متوسلاً أن نعبره <نحن الغربيين> انتباهنا على حافة نافذتنا. ومع ذلك، فإنني أؤمن بأنه تزييف جذري للثقافة أن نسلخ عنها انتماؤها وتواشجاتها مع إطارها المشهدي، أو أن نتزعها بعيداً عن الأرضية التي نازعت عليها، أو - وهذا أوثق صلةً بتيار معارض في الثقافة الغربية - أن ننكر تأثيرها الحقيقي. إن ووضه مانسفيلد لجين أوستن تدور حول انكلترا وحول انتيغوا أيضاً، وأوستن نفسها تقيم العلاقة بصراحةً وجلاء؛ ولذلك فإنها تدور حول النظام في الوطن وحول العبودية في الخارج، ويمكنها - بل بحق ينبغي - أن تُقرأ بهذه الطريقة، مع <عملي> أريك وليمز وسي. إل. آر. جيمس إلى جانبها. وبصورة مماثلة يكتب كامو وجيدو عن الجزائر عينها التي يكتب عنها قانون وكاتب ياسين.

إذا كان في هذه الأفكار عن الطباق <الموسيقى>، والتلاحم، والتكامل ما يربو بها على مجرد كونها اقتراحاً يرفع المعنويات بلطف لطريقة كلية شاملة في الرؤيا، فإنه كونها تعيد تأكيد التجربة التاريخية للإمبريالية بوصفها قضيةً تواريخ متبادلة الاعتماد، وأقاليم متقاطعة، أولاً.. وبوصفها ثانياً قضيةً أمر يتطلب القيام باختيارات فكرية وسياسية. فإذا ما دُرِسَ التاريخ الفرنسي بصورة منفصلة عن التاريخ الجزائري أو الفيتنامي، ودُرِسَ التاريخ البريطاني بصورة منفصلة عن التاريخ الكاربي أو الأفريقي أو الهندي، بدلاً من دراستهما <أي دراسة تاريخ المستعمر والمستعمر> معاً، فإنَّ تجربتي السيطرة والخضوع للسيطرة ستظلان منفصلتين بصورة مصطنعة، بل مزيفة أيضاً. وأن يعتبر المرء الإمبريالية ومقاومة الإمبريالية عمليةً مزدوجة تتطور باتجاه فكفكة الاستعمار، ثم الاستقلال، هو إلى حدٍ كبير أن يقف المرء في صف <هذه> العملية وأن يؤوّل كلا طرفي النزاع لا أستوائياً فقط بل سياسياً أيضاً.

إنَّ كتباً مثل اليعاقبة السود، واليقظة العربية، وحكم للممتلكات وأسطورة الأصلاح الكسول لتنتهي إلى النزاع نفسه انتماءً كلياً. وهي تجعل الخيار التأويلي أشد جلاءً، وتجعل تجنُّبه أعظم صعوبةً.

تأمل التاريخ المعاصر للعالم العربي مثلاً على تاريخ من الإرهاق المستمر. لقد كان إنجاز أنطونينوس إثباته أن التفاعل بين القومية العربية والغرب (أو المناهين عنه الإقليميين) أمر ينبغي أن يُدرَسَ وأمر ينبغي أن يُدْعَمَ أو يُحارَبَ. وكان انبثاقُ حقلٍ جامعي اسمه "دراسات الشرق الأوسط"، في مرحلة لاحقة لـ اليقظة العربية، خصوصاً في الولايات المتحدة، وفرنسا، وبريطانيا، في علم الإنسان، والتاريخ، وعلم الاجتماع، وعلم السياسة، والاقتصاد، والأدب، مرتبطاً بالتوترات السياسية في المنطقة وبموقع القوتين الاستعماريتين السابقتين والقوة العظمى الراهنة. ومنذ الحرب العالمية الثانية، ما يزال مستحيلاً في "دراسات الشرق الأوسط" الجامعية تفادي النزاع العربي الإسرائيلي، أو تفادي دراسة المجتمعات كلاً على حدة. وهكذا فإن يكتب المرء عن القضية الفلسطينية إطلاقاً يقتضي منه أن يقرر إذا كان الفلسطينيون شعباً (أو مجتمعاً قومياً) <أم لم يكونوا>، الأمر الذي يتضمن بدوره تأييداً أو معارضة لحقهم في تقرير المصير. وبالنسبة لكلا الطرفين، فإنَّ البحث الدراسي يعود بهما إلى أنطونينوس - قبولاً لآرائه عن الخيانة الغربية أو، بالعكس، قبولاً لحق الغرب في أن يكون قد وَعَدَ الحركة الصهيونية بفلسطين في ضوء الأهمية الثقافية الكبرى للصهيونية<sup>(١٥٧)</sup>.

وهذا الخيار يفتح خيارات أخرى. فمن جهة أولى، هل يستطيع المرء، بأي نوع من التسويغ سوى السياسي أو العقائدي، أن يتحدث عن "العقل العربي" الحديث، بنزوعه المزعوم إلى العنف، وثقافة العار فيه، والتأكيد المفرط التاريخي للإسلام، ودلاياته <سيمانتيكيته> السياسية، وانحطاطه بإزاء اليهودية والمسيحية؟ إنَّ هذه المفاهيم تنتج كتباً متحيّزةً مثل كتاب رفائيل بطي: العقل العربي، وكتاب ديفيد بيرسي-جونز: الدائرة المغلقة، وكتاب برنارد لويس لغة الإسلام السياسية، وكتاب باتريشيا كرونه ومايكل

\* - أعاد الناشر ترتيب هذه الجملة بما يُبرز فكرة سعيد "الطباقية" في دراسة تاريخ المستعمر والمستعمر.

كوك الهاجرية<sup>(١٥٨)</sup>. وهي كتب ترتدي مسوح البحث العلمي، لكن آياً منها لا يتحرك خارج حلبة الصراع كما حدّدها انطونيوس للمرة الأولى في الغرب؛ ولا يمكن وصف أيّ منها بأنه خال من العدائية لطموح العرب الجماعي إلى التحرّر من طوق الحتمية التاريخية التي نشأت **«وَنَمَتْ»** في المنظورات الاستعمارية.

ومن جهة أخرى، فإنّ الإنشاء النقدي والمعادي للاستشراق الذي كتبه جيلٌ من الباحثين أكبر سنّاً مثل أنور عبد الملك ومكسيم رودنسون يستمر مع جيل أصغر يضم: تيموثي ميتشل، وجوديث تكرر، وبيتر غران، ورشيد الخالدي، ونظراءهم في أوروبا. خلال الـ ١٩٨٠ات، خضعت **«رابطة»** دراسات الشرق الأوسط MESA التي كانت محافظةً في السابق لتحوّل عقائديّ هامّ أسهم هؤلاء الأشخاص في إحداثه. فقد تناولت هذه الرابطة - التي كانت سابقاً تقف في صفّ الجامعيين المنتمين إلى التيار السائد، ومدراء شركات النفط، ومستشاري الحكومة ومستخدميها، كما كانت غالباً تُدار من قبلهم - تناولاً علنياً في اجتماعاتها السنوية الكبيرة قضايا ذات أهمية سياسية معاصرة: الثورة الإيرانية، حرب الخليج، الانتفاضة الفلسطينية، الحرب الأهلية اللبنانية، اتفاقيات كامب ديفيد، العلاقة بين البحث العلمي للشرق الأوسط والعقائدية السياسية - وهي قضايا كانت في الماضي قد حُجبت أو قُلصت مكانتها في دراسات **«ذات مظهر بحثي»** لأفرادٍ من مثل لويس، ويطي، وفي زمن أقرب: والتر لاكير، وإيمانويل سيفن، ودانييل بايبس. وكان العملُ الجامعي الذي دعا إلى خط سياسي معادٍ للقومية العربية أو الإسلامية قد سيطر في السابق على المناقشات المحترفة بل على المناقشات الصحفية نفسها (كما هي الحال في أعمال رائجة جداً من نمط **«الصحافة كبحث علمي فوري»** ككتاب توماس فريدمن: **«من بيروت إلى القدس، وديفيد شيبيلر: العربي واليهودي»**)، غير أن ذلك أخذ يتغير.

في لباب الخط **«العتيق»** كانت تكمن عملية تحويل للعرب إلى **«جوهر»**، بوصفهم **«آخر»** أساسياً، وبشكل لا يُردُّ، وبالولادة والطبع. وقد انشجنت هذه النظرة بنغماتٍ عنصرية في أحكاماتها المتقنة لوجهة نظر **«عربية»** إلى العالم معاديةٍ للديمقراطية، عنيفة، ونكوصية. وكان ثمة عامل آخر مركزيّ الأهمية في هذا الموقف، هو إسرائيل، التي أسهمت أيضاً في الاستقطاب الذي أقيم بين إسرائيل الديمقراطية وعالم عربي غير ديمقراطي بصورة متجانسة، وأصبح الفلسطينيون - الذين اغتصبت إسرائيل أرضهم وشردتهم وفتتهم من وطنهم - ممثلين **«في هذا الاستقطاب»** لـ **«الإرهاب»** ولا شيء بعده. أما الآن فقد أصبحت التواريخ الدقيقة التمايز لشعوب، ومجتمعات، وتشكلاتٍ عربيةٍ مختلفة هي ما طرحه الجيلُ الأصغر من الباحثين المعادين للاستشراق؛ وباحترامهم لتاريخ العالم العربي وللتطورات التي تحدث داخله، استعادوا له حساً حيويّاً بالمسيرة غير المتحققة نحو الاستقلال، وبحقوق الإنسان (خصوصاً حقوق المرأة والأقليات المحرومة)، والتحرر من التدخل الخارجي (الامبريالي في الكثير من الحالات) والفساد أو التعاون الداخلي<sup>\*\*</sup>.

ولذلك فإنّ ما حدث في **«رابطة»** دراسات الشرق الأوسط كان قصة حواضرية عن المعارضة الثقافية للسيطرة الغربية. وقد ضارعتها تغييراتٌ هامّة مماثلة في دراسات

\* - إزاء essentialization كما سبق للمترجم أن شرحها، بما فيها من مضامين تقليصية. (الناشر)  
 \*\* - المقصود بهذا **«التعاون»** ما سيتحدث عنه سعيد في مطلع القسم الخامس والأخير من هذا الفصل. (الناشر)

أفريقيا، والهند، والكاريبي، وأميركا اللاتينية. لم تعد هذه الحقول تحت إمرة موظفي استعماريين سابقين أو فصيلة «عسكرية» من الجامعيين يتحدثون باللغة «الأكاديمية» الملائمة. بل بدلاً من ذلك، انتزع استعداداً جديداً لتقبل حركات التحرير والنقد مابعد الاستعماري، وانتزعت جماعات معارضة حديثة الوعي (مثل حركة الحقوق المدنية في أميركا، وحركة حقوق المهاجرين في المملكة المتحدة) انتزاعاً فعلياً احتكار الإنشاء الذي كان قد قبض عليه مفكرون وسياسيون متمركزون أوروبياً. وهنا كان بايزل ديفيدسن، وترنس رينجر، ويوهانس فايان، وتوماس هودجكين، وغوردن كي. لويس، وعلي مزروعي، وستيوارت هول، ذري دور جوهرى، وكانت أبحاثهم حافزة لباحثين آخرين. وبالنسبة لجميع هؤلاء كان العمل التدشيني الذي قام به الباحثون الأربعة الذين ناقشهم هنا - «وأعني» رحلتهم إلى «الداخل الحواصري» - أساسياً للانتلاف الثقافي الذي يتم الآن بناؤه بين المقاومة المناهضة للامبريالية في الأطراف والثقافة المعارضة في أوروبا والولايات المتحدة.

## V - التعاون، والاستقلال، والتحرير

في ندوة عُقدت في جامعة أكسفورد عام ١٩٦٩ - ١٩٧٠ حول الامبريالية، كانت ورقة رونالد روبنسن «الأسس غير الأوروبية للامبريالية الأوروبية» أحد أكثر الإسهامات إشاققة. وإلى جانب «ورقة» توماس هودجكين «النظريات الأفريقية والعالم الثالثية في الامبريالية»، أظهر «اقتراح» روبنسن من أجل الدراسة النظرية والتجريبية تأثير العدد الكبير من التطورات مابعد الاستعمارية التي أذكرها «في هذا الكتاب»:

ينبغي على أية نظرية جديدة أن تُقر بأن الامبريالية كانت وظيفة أدائية لتعاون ضحاياها أو عدم تعاونهم، سياساتهم الأصلية «الاهلية البلدية»، بقدر ما كانت وظيفة من وظائف التوسع الأوروبي... وما كان سيكون في وسع الأوروبيين لولا [التعاون الطوعي أو القسري لنخبهم الحاكمة و] التعاون الأصلي المحلي أن يفتحوا ويحكموا امبراطورياتهم غير الأوروبية، حين أن الأوان لذلك. منذ البدء كان هذا الحكم يقاوم دون انقطاع؛ بالضبط كما أن الحاجة كانت ماسة باستمرار إلى التوسط الاصلاحي لتفادي المقاومة أو إخضاعها<sup>(١٩٩)</sup>.

ويمضي روبنسن ليكشف كيف تعاون الباشاوات والخديوي في مصر قبل عام ١٨٨٢ على إتاحة الاختراق الأوروبي، الذي احتل البريطانيون بعده البلاد عسكرياً، في ظلل التغطية الاحتدامية على ذلك القطاع من قبل ثورة عرابي القومية. وكان يجدر بروبنسن أن يضيف، لكنه لا يفعل، أن كثيراً من الطبقات والأفراد المتعاونين مع الامبريالية بدأوا بمحاولة تقليد الطرق الأوروبية الحديثة، وأن يحدثوا تبعاً لما كان قد تُصوّر أنه التقدم الأوروبي. فخلال العقدين الأولين من القرن التاسع عشر، أرسل محمد علي بعثات إلى أوروبا، قبل مجيء البعثات اليابانية إلى الولايات المتحدة وأوروبا للغرض نفسه بثلاثة عقود. وداخل المدار الاستعماري الفرنسي، جيء بطلبة موهوبين إلى فرنسا للحصول العلمي حتى وقت قريب في الـ ١٩٢٠ات والـ ١٩٣٠ات، رغم أن بعضهم، مثل سنغور وسيزير وكثير من المفكرين من الهند الصينية، انقلبوا إلى مناوئين أشداء للامبراطورية.

كان الغرض الرئيسي لهذه البعثات المبكرة إلى الغرب تعلم الطرق المتقدمة للرجل الأبيض، وترجمة أعماله، واكتساب عاداته. وتُظهر دراسات قريبة العهد للموضوع قام بها

ماساؤ ميوشي (كما رأيناهم) وابراهيم أبو لغد (إعادة اكتشاف العرب لأوروبا) (١٦٠) كيف تم نقل التراتبية الامبريالية إلى طلاب شغوفين من الشرق جنباً إلى جنب مع المعلومات، والنصوص المفيدة، والعادات الناجعة (١٦١).

ومن محرك التبعية الحيوي المعين هذا، انبثقت أول تجربة طويلة، لها طبيعة رد الفعل، من الاصلانية المناهضة للامبريالية، ممثلة في المراسلات المتبادلة بين <جمال الدين> الافغاني وارنست رينان التي نُشرت عام ١٨٨٣ في مجلة العالمين، وفيها يحاول الاصلاني، مستخدماً مصطلحات محدّدة سلفاً من قبل رينان، ان يدحض الافتراضات الأوروبية العرقية والمتغترسة ثقافياً عن دنيته. وبينما يتحدث رينان عن مقام الإسلام بوصفه أدنى من مقام اليهودية والمسيحية، يؤكد الافغاني أن الإسلام أفضل، ويزعم أن الغرب حسّن نفسه بالاستعارة من المسلمين. كذلك يطرح الافغاني منظومة أن التطور الإسلامي في العلوم حدث قبل نظيره الغربي، وأنه، إذا كان ثمة ما هو نكوصي ارتدادي في الدين، فقد جاء من أمرٍ مشترك بين جميع الأديان: وهو عدم قابلية التوفيق بينها وبين العلم (١٦٢).

لهجة الافغاني لطيفة، رغم أنه يعارض رينان بجلاء. وفي مقابل مقاومين لاحقين للامبريالية - يشكل التحريض الموضوع الأساسي لهم - ينتمي الافغاني، مثل المحامين الهنود في الـ ١٨٨٠ات، إلى شريحة من الناس كانوا يسعون، فيما هم يكافحون من أجل مجتمعاتهم، إلى ايجاد مكان لهم ضمن الإطار الثقافي الذي يشاركون الغرب فيه. فهم النخبة الذين تسلّمهم القوة الاستعمارية السلطة في قياداتهم لحركات الاستقلال القومية المختلفة: هكذا <من> مونبتاتن\* إلى نهرو، و<من> ديغول إلى جبهة التحرير القومي <الجزائري>. وإلى هذا النمط من التعاون العدائي تنتمي شخصيات مختلفة للتبعية الثقافية مثل المستشارين الغربيين الذين ساعد عملهم الشعوب أو الأمم الاصلانية على ان تنهض (وقد تم تأريخ جانب <من ذلك> بشكل جيد في كتاب جوناثن سبنس عن المستشارين الغربيين: من أجل تغيير الصين)، وأولئك الغربيين المنافحين عن المقموعين - والسيدة جليباي شخوصة ساخرة مبكرة <لهذا النمط>، وأعضاء مدرسة ليفرپول\*\* مثل متأخر - الذين مثلوا نساختهم الخاصة عن مصالحي الاصلانيين. ثمة مثل آخر <يتمثل> في المنافسة بين تي. إي. لورنس ولوي ماسينيون بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة، والتي وصفها برهافة عظيمة البرت حوراني في مقالة له (١٦٥). لقد كان لدى كل من الرجلين تقامص\*\*\* أصيل مع العرب الذين حاربوا ضد العثمانيين خلال الحرب (بل إن ماسينيون جعل من التقامص مع الإسلام عين المركز لنظريته عن المجتمع التوحيدي

\* - لويس مونبتاتن (١٩٠٠ - ١٩٧٩) قائد عسكري بحري بريطاني قاد حملة عسكرية ضد اليابان أدت إلى استسلام بورما. أشرف - بوصفه آخر نائب للملك في الهند - على انتقال السلطة البريطانية إلى الهنود والباكستانيين عام ١٩٤٧. قُتل على يد الجيش الجمهوري الإيرلندي - على الأرجح - في إطار حملته ضد الحكم البريطاني لإيرلندا الشمالية (الناشر، عن الموسوعة البريطانية).

\*\* - الميسز جليباي: شخصية روائية في رواية ديكنز بيت كليب (١٨٥٢)، تضخى بعائلتها في سبيل افكارها المحبة للبشر. وأما مدرسة ليفرپول فاعتقد أنها تشير إلى مجموعة مكونة من ثلاثة شعراء تميّز عملهم في الستينات من هذا القرن بروح غير أكاديمية وحسن انتماء شعبي. (الناشر)

\*\*\* - ازاء empathy، أو التقمص العاطفي.

«المؤمن بإله واحد»، وهو الخلافة المتسلسلة الإبراهيمية)، ومع ذلك فقد أدى كلٌّ منهما، بدافع من اليقين الامبريالي، دوره في تقسيم العالم العربي بين فرنسا وبريطانيا: فخدّم لورنس بريطانيا، وخدّم ماسينيون فرنسا، من أجل العرب.

يتنامى فصلٌ كامل ضخم في التاريخ الثقافي عبر قارات خمس من هذا النمط من التعاون بين الأصلانيين من جهة وممثلين للامبريالية تقليديين وشذازين ومتناقضين، من جهة أخرى. وإن نقدّم له الاحترام، ونعترف بالتجارب المشتركة والمتضامة التي أنتجت العديدين منا، فإنه ينبغي أن نلاحظ في الوقت نفسه كيف أنه في عين المركز منه قد حافظ على فالق القرن التاسع عشر الامبرياليّ الفاصل بين الأصلاني والغربي. لقد علّمت العديداً من المدارس الاستعمارية في الشرق الأقصى، والهند، والعالم العربي، وشرقي أفريقيا وغربها، مثلاً، أجيالاً من الطبوقسطين الأصلانيين حقائق هامة عن التاريخ، والعلوم، والثقافة. ومن خلال تلك العملية التعليمية أدرك الملايين المقومات الأساسية للحياة الحديثة، ومع ذلك ظلوا تابعين خاضعين لسلطة امبريالية أجنبية.

إن تأوَج محرك التبعية الحيويّ هذا هو القومية التي أنتجت في نهاية المطاف دولاً مستقلة في البلدان التي كانت مستعمرة ذات يوم عبر العالم بأسره. وعند تلك اللحظة، وسَم عاملان سياسيان، كانت أهميتهما قد سُجّلت في الثقافة من قبل، نهايةً مرحلة المناهضة القومية nationalist للامبريالية ودشّنا عصر المقاومة التحريرية liberationist المناهضة للامبريالية. الأول كان وعياً بارزاً بالثقافة من حيث هي الامبريالية: لحظة الوعي المرتدة على نفسها التي مكّنت المواطن المستقل حديثاً أن يؤكد نهاية ادعاء أوروبا الثقافي بأنها تهدي أو/وترشد غير الأوروبي. والثاني كان المهمة «الإرسالية» المستديمة بشكل احتدامي للامبريالية الغربية في بقاع مختلفة ذكرتها من قبل، وبشكل رئيسي في الجزائر، وفييتنام، وفلسطين، وغينيا، وكوبا. بيد أن التحرير، متميزاً عن الاستقلال القومي، أصبح هو الموضوع القوية الجديدة، وهي موضوعة كانت متضمنة في أعمال سابقة لأشخاص مثل ماركوس غارفي، وخوسيه مارتني، ودبليو. إي. بي. دي بويز، لكنها أصبحت الآن تتطلب الحقن الاندفاعي للنظرية وأحياناً للناشطة المتمردة المسلحة.

وجدت الهوية القومية التي تناضل للتحرر من السيطرة الامبريالية نفسها مودعةً منغرساً في الدولة «القومية المستقلة حديثاً»، ومحققة لذاتها فيها أيضاً فيما يبدو. ونتج عن ذلك جيوش، ورايات، ومجالس تشريعية، وخطط للتعليم القومي، وأحزاب سياسية طاغية (إن لم تكن وحيدة)؛ وقد تم ذلك عادةً بطرق منحت النخب القومية المكانة التي كان يحتلها البريطانيون أو الفرنسيون من قبل. ويبرز تمييز بايزل ديفيدسن الهام بين استنفار الجماهير mobilization (كالمجموع الهندية الهائلة التي تظاهرت في شوارع كلكتا، مثلاً) والمشاركة الجماهيرية participation، التمايز بين النخبة القومية والجماهير الريفية والحضرية التي كانت لزمين وجيز جزءاً عضويّاً من المشروع القومي. إن ما يقوم به بيتس في أيرلندا هو المساعدة على خلق حسّ بمجتمع مستعاد مرمم: بايرلندا مغتبطة بـ «فرقة غنت»، لكي تحلّي خطأ أيرلندا، أشعار البلد والقصص، والمقطوعات «rann» والأغنيات<sup>(١٦٤)</sup> - لكن في المركز منها تنتصب جماعة مختارة من الرجال والنساء.

حين تتأسس الدولة القومية الجديدة، كما يحتج پارثا تشاترجي، فإنها لا تُحكّم من



قبل الأنبياء والمتمردين الرومانتيكيين بل، في حالة الهند، من قبل نهرو <وهو> باني دولة، وتعاملي <براغماتيكي>، وواع للذات<sup>(١٦٥)</sup>. في عُرف نهرو، أن الفلاحين وفقراء المدن تتحكم بهم العواطف المشبوبة، لا العقل؛ ويمكن أن يستنفهم شعراء مثل طاغور وحضور الشخصيات الجذابة الساحرة <الكاريزماتيكية> مثل غاندي، لكن بعد الاستقلال ينبغي أن يتم تمثُّل هذا العدد الضخم من الناس واستيعابُهُ في الدولة، وأن يوظفوا لخدمة تطورها. إلا أن تشاترجي يطرح نقطة شيقة، وهي أن البلدان مابعد الاستعمارية - بتحويل القومية إلى عقائدية جديدة للإقليم أو للدولة - قد أخضعت نفسها لعملية كونية من العقلنة مبنية على معايير خارجية، وهي عملية حكَّمتها في سنوات التحديث والتنمية التالية للحرب <العالمية الثانية؟> منطق نظام عالمي نموذجة هو الرأسمالية العالمية، التي تقودها وتتحكم بها في الذروة حفنة من البلدان الصناعية الرئيسية.

إن تشاترجي على صواب في قوله "أيًا كانت درجة المهارة في استخدام الفنون الحديثة في إدارة الدولة وتطبيق التقنوية الحديثة، فإنها لا تستطيع أن تقع بشكل فعال التوترات الحقيقية جداً التي تبقى غير محلولة"<sup>(١٦٦)</sup>. <ذلك أن> مَرَضِيَّات القوة الجديدة، بعبارة إقبال احمد، تؤدي إلى ظهور دول الأمن القومية، وحكم الطغاة <الديكتاتوريات>، ودول الطَّم والشلل الحاكمة، وأنظمة الحزب الواحد. في رواية في إس. نيبال منحنى في النهرو (١٩٧٩) تُحكَّم بلاد أفريقية لا تُسمَّى من قبل "رجل كبير" لا اسم له ولا حضور، يتحكم تلاعبياً بالمستشارين الأوروبيين، والأقليات الهندية والمسلمة، وأبناء قبيلته، تبعاً لمذهب أصلائي صارم جامد يطبقه كيفما شاء (وذلك أشبه بالمذهب التبديلي لكتاب القذافي الأخضر أو تقاليد موبوتو القبلية المخترعة)؛ ومع نهاية الكتاب يكون عدد كبير من رعاياه قد قتلوا دون رحمة؛ وأما الواحد أو الاثنان اللذان يبقيان على قيد الحياة بعد الحملة الضارية ويدركان ما يحدث - مثل سليم، بطل الرواية - فإنهما يقرران أن لا أمل في الوضع وأنه لا بد من هجرة أخرى. (يهوم سليم، وهو من عائلة هندية مسلمة من شرق أفريقيا، إلى الداخل الذي يحكمه "الرجل الكبير"، ثم يغادره بانساً ومنبوذاً نبذاً تاماً). والنقطة العقائدية التي يطرحها نيبال هي أن انتصار القومية في العالم الثالث لا يقع "التوترات الحقيقية جداً... غير المحلولة" في الدولة مابعد الاستعمارية فحسب، بل يبتتر أيضاً الأمل الأخير للمقاومة ضدها، كما يبتتر البقايا التحضيرية <التمدينية> الأخيرة للتأثير الغربي.

يُمتسرح نيبال، وهو كاتب رحلات وروائي موهوب إلى درجة لافتة، مسرحةً احتدامية ناجحة موقعاً عقائدياً في الغرب يمكن منه إدانة الدول مابعد الاستعمارية لأنها نجحت دونما شروط في نوال الاستقلال. ويشكل هجومه على العالم ما بعد الاستعماري - بسبب تعصبه الديني (في بين المؤمنين)، وسياسياتِه المنحطة (في فدائيون)، ودونيته الأساسية (في كتابيه الأولين عن الهند)<sup>(١٦٧)</sup> - جزءاً من <إحساس ب> انقشاع الهمم بإزاء العالم الثالث الذي تملك الكثيرين من الأشخاص خلال الـ١٩٧٠ات والـ١٩٨٠ات، وبينهم عددٌ من المناصرين الغربيين البارزين لقومية العالم الثالث، مثل كونر كروز وأيرين، وباسكال بروكتر (دموع الرجل الأبيض)، وجيرار شاليان. في تاريخ شبه وثائقي شيقٍ للدعم الفرنسي السابق للمقاومة في العالم الثالث، في أصول نزعات العالم الثالثية: المستعمرون والمناهضون للاستعماريين في فرنسا (١٩١٩-١٩٣٩)، يجازف كلود

ليوزو بتقديم أطروحة تقول إن الكتلة المناهضة للإمبريالية لم تعد موجودة مع حلول عام ١٩٧٥ كما كانت من قبل (١٦٨). ويمثل اختفاء معارضة داخلية للإمبريالية في فرنسا منظومة معقولة عن فرنسا في تيارها الرئيسي وربما عن الغرب الأطلسي بشكل عام، لكنها ليست بذات جدوى فيما يتعلق بمواقع التنازع المستمر، سواء في الدول الجديدة أو في قطاعات أقل بروزاً من الثقافة الحوضرية. إن أسئلة القوة والسلطة التي وُجّهت ذات يوم إلى امبراطوريتي بريطانيا وفرنسا التليدتين تُقذف الآن في وجه الأنظمة الوريثة المستبدة، وضد فكرة أن بلدان أفريقيا أو آسيا ينبغي أن تظل قيد الاستعباد والتبعية.

والشواهد على هذا احتدامية. فالصراع باسم حقوق الانسان والديمقراطية يستمر - ولنسمي بضعة أمكنة فقط - في كينيا، وهاييتي، ونيجيريا، والمغرب، وباكستان، ومصر، وبورما، وتونس، والسلفادور. وكذلك فإن الأهمية المتزايدة للحركات النسائية تمارس مزيداً من الضغط على الدولوية الاوليغاركية، وحكم العسكر، (أو حكم الحزب الواحد). وإضافة، فإن الثقافة المعارضة ماتزال تحافظ على صلوات بين العالم <ين> الغربي وغير الأوروبي: ويرى المرء دليلاً على صلة من هذه الصلوات للمرة الأولى في روابط سيزير، مثلاً، بالماركسية وما فوق الواقعية <السوريالية>، ثم لاحقاً في العلاقة بين دراسات منضوية وغرامشي وبارت. ولقد رفض كثيرون من المثقفين في العالم المستعمر سابقاً أن يقنعوا بالمصير البائس لإنذار <بطل> نيبال <في منحني في النهر>، الذي كان ذات يوم شاباً ريفياً واعدأ تسعى إلى اكتسابه مؤسسات في الولايات المتحدة، لكنه غدا الآن شخصاً منبوذاً ويائساً لا مكان له ليذهب إليه.

بين ان وان يكون ذلك كل ما يعرفه: ان الاوان قد حان لكي يعود إلى الوطن. ثمة في راسه قرية ما <يصوغها> الحلم. وفي الوقت الفاصل يؤدي أحط أنواع العمل. إنه يدرك أنه مؤهل لأشياء أفضل، لكنه لا يريد أن يقوم بها. اعتقد أنه يستمتع بأن يقال له إنه يستطيع أن يفعل ما هو أفضل. لكننا اقلعنا <عن المحاولة> الآن. فهو لا يريد أن يجازف بأي شيء ثانية (١٦٩).

وإنذار واحد من الرجال الجدد، مثقف من العالم الثالث يقفز إلى موقع بارز لا يستحقه حين يشعر المتحمسون المتقلبون في العالم الأول بالرغبة في دعم حركات العصيان القومية، لكنه يخسر حين يصبحون أقل حماسة.

هل هذا تمثيل دقيق لما كان عليه مدار سياسي المقاومة وثقافتها بأسرها؟ هل تم أخيراً احتواء الحيوية الجذرية التي دفعت الجزائريين والهنود إلى العصيان الجماهيري، وهل تم إخماد جذوتها بالاستقلال؟ كلا، ذلك أن القومية كانت جانباً واحداً فقط من جوانب المقاومة، ولم تكن أكثرها إشاقاً أو قدرة على التحمل والاستمرار.

والحق أن قدرتنا على رؤية التاريخ القومي والحكم عليه بهذه الدرجة من القسوة لهي برهان على المنظور الجديد جده جذرية الذي أصبح متاحاً <لمعاينة> تجربة الامبريالية التاريخية بأسرها من قبل معارضة أشد عمقاً؛ وهو ينبع إيجابياً من مذاهب فرويد، وماركس، ونيتشه، المزيحة للمركز <عن مركزيته>، <كما ينبع> سلبياً من قصورات العقائدية القومية. وهو يفعم ويبت الحياة في <كتاب> ايمي سيزير إنشاء حول

الاستعمار، الذي يكشف أن عقائد التبعية الاستعمارية والدونية السوداء العرقية كانتا قد خضعتا للتدميج بشكل خفي في اللغة المصطلحية الحديثة للطب النفسي، الذي يسمح هو بدوره لسيزير باستعمال قوة هذا الطب المتبطنة التقويسية النظرية لإضعاف سلطته الامبريالية الخاصة به. لقد سبقتُ خطى الثقافة القومية أحياناً سبقاً احتدامياً ثقافة مقاومة خصبية يشكّل لبابها العصيانُ المتفجّر حيوية، (و هو) تقنيةٌ لإثارة المتاعب موجةً ضد سلطة الامبريالية وضد الإنشاء الذي يصدر عن هذه الامبريالية.

بيد أن هذا، للأسف، لا يحدث طوال الوقت بل ولا معظمه. إن جميع الثقافات القومية تعتمد بقوة على مفهوم الهوية القومية، وإن السياسات القومية هي سياسيات للهوية: مصر للمصريين، أفريقيا للأفارقة، الهند للهنود، وهكذا. وإن ما يسميه بايزل ديفيدسن "خصوية" القومية "الانتبائية" لا تكتفي بتأكيد هوية كانت ذات يوم غير مكتملة ومقموعة لكنها في نهاية المطاف رُمّت واستُعيدت من خلال نُظم التعليم القومية، بل تفرس في النفوس أيضاً سلطةً جديدة. ويصدق هذا بالقدر نفسه على الولايات المتحدة، حيث تحوَّلت هنا وهناك القوة المنعشة لتعبير الأميركيين-الأفريقيين، والنساء، والأقليات <عن الذات؟> إلى عقيدة، كما لو أن الرغبة في نقد أسطورة أميركا البيضاء إنما عنت أيضاً الحاجة إلى اقتلاع تلك الأسطورة وإحلال أساطير مذهبية جامدة جديدة محلها.

في الجزائر، مثلاً، حرّم الفرنسيون اللغة العربية كلفة رسمية للتعليم أو الإدارة؛ وبعد ١٩٦٢ جعلتها جبهة التحرير القومية، بشكل قابل للتفهم تماماً، اللغة الوحيدة <في هذين المجالين>، وادخلت نظاماً جديداً من التعليم العربي-الإسلامي. وبعدئذ انتقلت الجبهة سياسياً لتمتص المجتمع المدني الجزائري بأسره: وخلال ثلاثة عقود أدى اصطفاً سلطة الدولة والحزب مع هوية مرّمة مستعادة لا إلى احتكار معظم الممارسات السياسية من قبل حزب واحد وإلى تآكل الحياة الديمقراطية بصورة شبه تامة وحسب، بل أدى أيضاً إلى الظهور المتحدي، من الجناح اليميني، لمعارضة إسلامية تفضّل هوية جزائرية مسلمة ناشطة تقوم على مبادئ الشريعة (القرآنية). وبحلول الـ ١٩٩٠ات، كانت البلاد في أزمة، نتیجتاً الآن مواجهةً موهبةً بعمق بين الحكومة - التي ألغت نتائج الانتخابات\* كما ألغت معظم النشاط السياسي الحر - والحركة الإسلامية، التي تناشد الماضي والسُننية <دعماً> لسلطتها. وكلا الطرفين يدعي لنفسه حق حكم الجزائر.

لقد تكهن فانون في فصل "أشراك" الوعي القومي في المعذبون في الأرض بمنعطف الأحداث هذا. وكان مفهومه أنه ما لم يتم بطريقة ما تحويل الوعي القومي في لحظة انتصاره إلى وعي اجتماعي، فإن المستقبل لن يأتي بالتحرير بل بامتداد الامبريالية. وليس القصد من نظريته في العنف أن تلبّي مناقشات أصلاني يتململ رازحاً تحت المراقبة الأبوية لشرطي أوروبي، فيفضل - بمعنى ما - خدمات شرطي أصلاني بدلاً منه. بل إنها، على العكس، تمثّل أولاً الاستعمارَ نظاماً مُكثِّباً totalizing يتغذى بالطريقة ذاتها - وقياساً فانون الضمني هنا مدمرٌ تماماً - التي تفجّر بها الرغبات اللاواعية السلوك

\* - والمعلوم أن جبهة الإنتقاذ الإسلامية هي التي فازت في هذه الانتخابات. (الناشر)  
\*\* - جمع شرك، للاحبولة أو الفخ. (الناشر)

الإنساني. وفي حركة تالية، شبه - هيغلية، يندبثق نقيضُ ثنوي <مانوي> هو الأصلي المتمرّد، وقد ملّ من المنطق الذي يقلّصه، ومن الجغرافيا التي تعزله، ومن نظرية الوجود التي تسلخ عنه إنسانيته، ومن نظرية المعرفة التي تعريه إلى جوهر رثّ بال. إنَّ عنف النظام الاستعماري وعنْفَ الأصلي المضادَّ يُوازنان أحدهما الآخرَ ويُسْتجيبان أحدهما للآخر بتجانس متبادل فائق<sup>(١٧١)</sup>. ينبغي <بحسب فانون> أن يُرتقى بالصراع إلى مستوى جديد من التنازع، <إلى> تركيبة تتمثل في حربٍ للتحرير، تتطلب ثقافةً ما بعد قومية نظريةً جديدةً جدَّةً كليةً.

لئن كنتُ قد أكثرْتُ من اقتباسِ فانون، فما ذلك إلا لأنني أعتقد أنه يعزُّر، باحتداميةٍ وحسمٍ يفوقان ما يفعله أيُّ شخصٍ آخر، عن النقلة الثقافية الهائلة من مجال الاستقلال القومي إلى المجال النظري للتحرير. وتلك النقلة تحدث غالباً حيث ما تزال الامبريالية تتلبّث في أفريقيا بعد أن نالت معظمُ الدول المستعمرة الأخرى (على سبيل المثال: الجزائر وغينيا-بيساو) استقلالها. وعلى أية حال، فإنَّ فانون لا يُفهم إلا إذا أدركنا أنَّ عمله كان استجابةً لإحكاماتٍ نظريةٍ أنتجتها ثقافةُ الرأسمالية الغربية المتأخّرة، التي استقبلها مثقّفُ العالم الثالث الأصلي بوصفها ثقافةً للقمع والاستعباد الاستعماري. إنَّ عمل فانون بأسره هو محاولته التغلّب على العناد المتصلّب لتلك الإحكامات النظرية عينها بفعل من أفعال الإرادة السياسية، وقَلْبها ضدَّ مؤلفيها كي يستطيع - بالعبارة التي يستعيرها من سيزير - أن يبتكر أرواحاً جديدة.

يربط فانون ربطاً نفاذاً الفتح الذي يقوم به المستوطنٌ للتاريخ، بنظام الحقيقة في الامبريالية، <وهو نظامٌ> تتربع على عرشه الأساطيرُ العظيمةُ للثقافة الغربية:

المستوطن يصنع التاريخ؛ حياته حقبة، وأوديسة. إنّه البدء المطلق. نحن خلقنا هذه الأرض: هو العله التي لا تنقطع: إذا غادرتنا فكل شيء سيضيع، وستعود البلادُ إلى العصور الوسطى. وفوقه وضده مخلوقاتٌ بليدةٌ خبيرة، أرقفتها الحميات، مهووسةٌ بعبادات الأسلاف، تشكل خلفيةً تكاد تكون لاعضويةً للحبوية الابتكارية للمركنتيلية الاستعمارية<sup>(١٧٢)</sup>.

وكما نَقَبَ فرويد في الأسس التحترضية لصرح العقل الغربي، وكما أوّل ماركس ونيتشه المادة المعلوماتية المتشبيّهة للمجتمع الطباقوسطي بردّها إلى دوافع بدائية، لكنها منتجة، نحو السيطرة والمراكمة، كذلك يقرأ فانون <النزعة؟> الإنسانية الغربية بنقل القرص المهدّد الكبير لـ "القاعدة الاستنادية الإغريلاينية" نقلاً ماديّاً إلى الأرض الخراب الاستعمارية، حيث يتحول هذا الحارسُ المصطنعُ إلى غبار<sup>(١٧٣)</sup>. فهو <أي الحارس> لا يقدر على البقاء حياً بعد أن يُفجّمه المستوطنون الأوروبيون إلى جانب امتهانه اليومي. ثمة في الإيماءات التخريبية لكتّابة فانون رجلٌ واع إلى درجة عالية يكرّر بتعمدٍ وبمفارقةٍ لاذعة أيضاً أخطيئ الثقافة التي يؤمن بأنها قامت بقمعه واضطهاده. والفرق بين فرويد وماركس ونيتشه من جهة، و"الثقّف الأصلي" عند فانون من جهة أخرى، هو أنّ مفكّر عهود الاستعمار المتأخّر عن أوانه يثبّت أسلافه جغرافياً - إنهم من الغرب <وبعضٌ منه> - لكي يكون أشدَّ قدرةً على تحرير طاقاتهم الحيوية من قالب الثقافة القامع الذي أنتجهم. ويؤدّي فانون، بمعاينتهم ضدّياً كجزءٍ داخلٍ متأصلٍ في طبيعة النظام الاستعماري، وبرؤيته لهم في الوقت نفسه كمحاربين له من حيث الطاقة، فعلاً من الإغلاق الختامي على

الإمبراطورية ويعلن بدء عصر جديد. "إن الوعي القومي"، يقول فانون، "يجب الآن أن يُترى ويُعمق بتحويله بسرعة إلى وعي للحاجات السياسية والاجتماعية، وبكلمات أخرى، إلى إنسانية [حقيقية]" (١٧٤).

ما أشد ما تبدو كلمة "إنسانية" غريبة في هذا السياق، حيث <تنبثق> حرة من الفردية النرجسية، والشقاقية <روح خلق الانقسامات>، والأثوية الاستعمارية للإمبريالية التي سوَّغت حكم الرجل الأبيض. إن الإمبريالية التي أعاد فانون تصورها، مثل امبريالية سيزير في <كتابه> دفتر عودة، هي في بُدْها الإيجابي فعلٌ جماعي يعيد أحياء وتوجيه كتلة خاملة من الأصلايين الصامتين نحو دخول تصور اشتعالي جديد للتاريخ:

هذه المهمة الضخمة، التي تتشكل من إعادة إدخال الجنس البشري إلى العالم، الجنس البشري بأسره، سوف يتم إنجازها بالمساعدة التي لا غنى عنها من الشعوب الأوروبية، التي ينبغي أن تدرك بنفسها أنها كثيراً ما انضمت في الماضي إلى صفوف أسبائنا المشتركين في ما يتعلق بالقضايا الاستعمارية. ولتحقيق هذا، يجب على الشعوب الأوروبية أولاً أن تقر أن تستيقظ وتمهز نفسها، وتستعمل عقولها، وتُقلع عن لعب دور "قون" الغبي للجمال النائم\* (١٧٥).

أما كيفية تنفيذ ذلك فإنها تنقلنا من الاستنهاضات والوصفات الظاهرية إلى بنية المعذبون في الأرض ومنهجها المشوقين تشويقاً فائقاً. وإنجاز فانون في هذا الكتاب، وهو كتابه الأخير (فقد صدر عام ١٩٦١، بعد وفاته ببضعة أشهر) يكمن أولاً في أنه يمثل الاستعمار والقومية في نزاعهما الضدي الثنوي <المانوي>، وفي أنه يمثل بعد ذلك ولادة حركة استقلال، وأخيراً في أنه يحول هذه الحركة لتتجلى في الواقع قوة تتجاوز الشخصي وتتجاوز القومي. إن السمة الرؤيوية والابتكارية لعمل فانون النهائي تُشتق من الرهافة اللافتة التي يشهدها تشويهاً قسرياً شكل الثقافة الامبريالية وعدوها القومي أثناء عملية النظر إلى ما يتجاوز كليهما باتجاه التحرير. إن فانون، مثل سيزير من قبله، يفند الامبريالية بسبب ما خلقتة عن طريق أفعال تلخيصية قوية بلاغية ومُبنية. وتجلو هذه <الأفعال> تاريخ الامبريالية الثقافية الطويل، وتتيح لفانون - وذلك ابلغ تعبيراً - أن يصوغ استخطاطات واهدافاً جديدة للتحرير.

المعذبون في الأرض كتاب هجين - فهو جزئياً مقالة، وجزئياً قصة متخيَّلة، وجزئياً تحليل فلسفي، وجزئياً تاريخ حالاتٍ نفسي، وجزئياً حكاية ترميزية <البيغورية> قومية، وجزئياً تسام رؤيوي للتاريخ. يبدأ <الكتاب> برسم تخطيطي أرضي للفضاء الاستعماري، فإذا به فضاء مقسوم إلى المدينة الأوروبية النظيفة، الحسنة الإضاءة، والقصبة\*\* المظلمة المنتنة السيئة الإضاءة. من هذا المازق الثنوي والمؤرض فيزيائياً، ينبع عمل فانون بأسره، مدفوعاً إلى الحركة - إذا جاز التعبير - بعنف الأصلايين، وهو قوة يُقصد لها أن تجسّر الفجوة بين الأبيض وغير الأبيض. والعنف، بالنسبة لفانون، هو - كما قلت سابقاً - التركيبية <التوليفة> التي تتغلب على تشييء الرجل الأبيض كذات فاعلة، <تشبيء> الرجل الأسود كمفعول <موضوع أو شيء>. وأخمن أن فانون حين كان يكتب هذا العمل

\* - والإشارة هنا إلى بابه تشايكوفسكي المشهورة "الجمال النائم" (المترجم). وأما Faun فخر إله في الميثولوجيا الرومانية. (الناشر)

\*\* - وهي هنا، بالطبع، القسم الأصلايين من المدينة الشمالأفريقية. (الناشر)

قرأ كتابَ لوكاش التاريخ والوعي الطبقي، الذي كان قد صدر للتوّ في باريس في ترجمة فرنسية عام ١٩٦٠. «وفيه» يُظهر لوكاش أنّ «من» تأثيرات الرأسمالية التشغيلية والتشبيعية: ففي مثل هذا التوزيع «أو التديبير»، يتحول كلُّ إنسان إلى شيء، أو سلعة، ويُغرب نتاجَ العمل الإنساني عن صانعه، وتختفي صورةُ الكلِّ أو المجتمع اختفاءً كلياً. وكان الأمرُ الأهمُّ بالنسبة للماركسية العاصية والمهرطقة التي طرحها لوكاش (بعد صدور الكتاب عام ١٩٢٣ بقليل سَحَبَهُ لوكاش نفسه من التداول) هو انفصام الوعي الذاتي عن عالم الأشياء. ويقول لوكاش إنّ هذا يمكن التغلب عليه بفعل إرادة ذهنية، بوساطتها يستطيع عقلٌ متوحِّدٌ أن ينضم إلى آخرَ بتخيُّله الوشيجة المشتركة بينهما، كاسراً الصلابة المفروضة التي تُبقي البشر عبيداً لقوى طاغوتية خارجية. ومن هنا «يتم» التصالحُ والتركيبةُ بين الفاعل والمفعول، «الذاتِ والموضوع».

يتطابق عنفُ فانون، الذي يتغلب الاصلاني عن طريقه على الفصل بين البيض والاصلايين، تطابقاً بالغَ القرب مع أطروحة لوكاش في التغلب على التشظي بفعلٍ للإرادة: ويسمى لوكاش ذلك «لا تمزيقاً مفرداً، غير قابلٍ للتكرار، للحجاب الذي يقنّع العملية، بل التناوب اللامقطع بين التحجّر، والتناقض، والحركة»<sup>(١٧٦)</sup>. هكذا يتم تدميرُ تشيؤِ الذات/الموضوع في جموده الذي يشبه السجن. ويتبنّى فانون قدراً كبيراً من هذه الأطروحة البالغة الجسارة، وهي ضدية «معارضة» حتى ضمن الماركسية الضدية، في مقاطع كالتالية، حيث يؤدي وعيُ المستوطن دوراً يشبه دورَ وعي الراسمالي، محوِّلاً العمال البشرَ إلى أشياء غير بشريةٍ ولا-واعية:

المستوطن يصنع التاريخ، وهو واع لصنعه إياه. ولأنه يحيل بأطواره على تاريخ وطنه الأم، فإنه يشير بجلالٍ إلى أنه هو نفسه امتداد لذلك الوطن الأم. وهكذا فإنَّ التاريخ الذي يكتبه ليس تاريخَ البلد الذي ينهيه بل تاريخ أمته هو بخصوص كل ماتقوم بسلخه، وكل ما تقوم بانتهاكه وتجريمه.

إنَّ الجمود (وفانون يتحدث فيما بعد عن سياسة العزل العرقي «الآبارتايد في جنوب أفريقيا») كواحد من اشكال «التقسيم إلى خانات»: إنَّ الاصلاني، يضيف قائلاً، «يُحصَر ويُطوَّق... وأولُ ما يتعلمه الاصلاني هو أن يبقى في مكانه»<sup>(١٧٧)</sup> الذي يفرض على الاصلاني كمصير له لا يمكن أن يتحدّى إلا إذا قرر الاصلاني أن يضع حداً لتاريخ الاستعمار - تاريخ السلب والنهب - ويخلق تاريخَ الأمة - تاريخَ فكلكة الاستعمار<sup>(١٧٨)</sup>.

في عالم فانون، لا يمكن أن يحدث التغييرُ إلا حين يقرر الاصلاني، مثله في ذلك مثل العامل المغرّب المستلب عند لوكاش، أنّ على الاستعمار أن ينتهي - وبكلمات أخرى، يجب أن تحدث ثورة معرفية. عندها فقط يمكن أن توجد الحركة. وعند هذه النقطة يدخل العنف، وهو «قوةٌ مطهرة»، تنصّب المستعمر مباشرةً ضد المستعمر:

إنَّ عنف النظام الاستعماري وعنْف الاصلاني المضادُّ يوازنان أحدهما الآخرَ ويستجيبان أحدهما للآخر بتجانسٍ متبادلٍ فانق... إنَّ عمل المستوطن هو أن يجعل أحلامَ الحرية نفسها مستحيلةً على الاصلاني. وعملُ الاصلاني هو أن يتخيل جميعَ الطرق الممكنة لتدمير المستوطن. على الصعيد المنطقي، تُنتج ثنويةُ المستوطن ثنويةً لدى الاصلانيين، وعلى نظرية «النشر المطلق في الاصلاني» تقوم بالرّد نظريةُ «النشر المطلق في المستوطن»<sup>(١٧٩)</sup>.

هنا لا يقوم فانون بإعادة تشكيل التجربة الاستعمارية في إطار معطياتٍ اقترحها لوكاش فحسب، بل يقوم أيضاً بتحديد سمات الخصم السياسي والثقافي المنبثق للامبريالية. والصور التي يستخدمها لهذا الانبثاق «بيولوجية» مأخوذة من علم الحياة:

لقد عنى ظهورُ المستوطن، في إطار معطيات التوفيقية، موتَ المجتمع الاصيل «المحلي»، والخمولَ الثقافي،

وتحجّر الأفراد. والحياة، بالنسبة للأصلائي، لا يمكن أن تنتفض وتفيض من جديد إلا من جنة المستوطن المتفسخة... لكن يحدث أن يتشخّن هذا العنفُ شخصيات المستعمرين، بخصائص إيجابية وخالقة لأنه يَكُنّ معلم الوحيد. وممارسة العنف تشدّم بعضهم إلى بعض، إذ إن كل فرد يشكل حلقةً عنيفة من السلسلة العظيمة، جزءاً من الجسد العظيم للعنف (١٨٠).

من المؤكّد أنّ فانون يعتمد هنا على لغة الاستعمار الفرنسي السابقة عليه، التي استخدّم فيها مروّجون شعبيون مثل جول هارمان ولوروا-بوليو الصور الحياتية < البيولوجية > للولادة، والمخاض، وعلم تناسل الأنساب لوصف علاقة فرنسا الأبوية بأطفالها المستعمرين. وفانون يعكس الأمور، مستخدماً تلك اللغة لولادة أمة جديدة، ولغة الموت لدولة الاستيطان الاستعمارية. ومع ذلك، فإنّ هذه العدائية نفسها لا تغطّي جميع الفروق التي تنتصب حين يبدأ التمرد و[تبدو] الحياة نزاعاً لا نهاية له (١٨١). ثمة الانقسامات الرئيسية بين القومية القانونية واللاقانونية، بين سياسيات الإصلاح القومي وفكفكة الاستعمار البسيطة من جهة، وسياسيات التحرير المحظورة من جهة أخرى.

ولهذه الانقسامات من الأهمية ما للانقسام بين المستعمر والمستعمر (الذي يناقشُ متخلّله <موتيفه>، بطريقة أشدّ بساطة عامة، البرير ميمي (١٨٢)). والحق أنّ العبقريّة النبوية الحقيقية لـ المعذبون في الأرض تكمن هنا تماماً: يتحسس فانون الفالق الفاصل بين الطبقة الوسطى القومية في الجزائر والنزوعات التحريرية لجبهة التحرير، ويبرهن أيضاً على وجود انساق سردية وتاريخية متضاربة. فما إن يبدأ العصيان، حتى تحاول النخب القومية إقامة تكافؤ وتعادل مع فرنسا: فتطالب بحقوق الإنسان، والحكم الذاتي، واتحادات العمال، وما إلى ذلك. ولأنّ الامبريالية الفرنسية أسّمت نفسها تمثليّة توحيدية، فإنّ الأحزاب السياسية القومية الرسمية تَعْلُق في شَرَك أن تصبح وكيلةً للسلطات الحاكمة تستوعبها هذه الأخيرة. (كذا كان، مثلاً، المصير المحزن لفرحات عباس، الذي خسر أيّ أمل في اكتساب دعم جماهيري، مع تزايد كسبه للقبول الرسمي الفرنسي). وهكذا فإنّ القوميين الطباقوسطيين الرسميين يسقطون ببساطة في <داخل> النسق السردى للارويبيين، أمّلين أن يصبحوا رجالاً محاكاةً وموماةً، بعبارة نيبال: مجرد مراسلين أصلائين لآسيادهم الامبرياليين.

يفتح تحليل فانون اللامع للنزعة التحريرية الفصل الثاني <من كتابه>، وعنوانه <التلقائية (أو العفوية): قوتها وضعفها>، الذي يشكّل أساسه تفاوت في الزمن وفُرْقُ إيقاع décalage بين قادة حزب قومي وجماهير الشعب (١٨٣). فإذا يَنْتَسَخ القوميون طرائقهم من الأحزاب السياسية الغربية، تتطور أنواع مختلفة لا تحصى من التوترات داخل المعسكر القومي - بين الريف والمدينة، بين القائد والأعضاء العاديين، بين الطبقة الوسطى والفلاحين، بين الزعماء الاقطاعيين والسياسيين - التي يستغلها جميعاً الامبرياليون. والمشكلة اللبابية هي أنه، رغم إرادة القوميين الرسميين تحطيم الاستعمار، فإنّ إرادة مغايرة تماماً <تصبح جلية>: تلك هي إرادة الوصول الى اتفاق وديّ معه (١٨٤). ومن ثمّ تطرح جماعة غير قانونية مساءلات حول هذه السياسة، فتعزّل بسرعة، وكثيراً ما تُسجن.

مكنا نستطيع أن نراقب العملية التي يجري بها التمزق بين النزعتين القانونية وغير القانونية داخل الحزب... وتكون النتيجة حزياً سريعاً يعمل في الخفاء، متفرّجاً من الحزب القانوني (١٨٥).

والطريقة التي استخدمها فانون في إظهار تأثير هذا الحزب السري هي أن يمسح وجود هذا الحزب كسرديّة مضادة، سرديّة تحترضية، يبعث فيها الحركة هاربون، ومنبذون، ومثقفون مطاردون يهربون الى الريف ويوضحون في عملهم وتنظيمهم نقاط ضعف السردية الرسمية للقومية كما يوهنون من قوة هذه السردية أيضاً. وبدلاً من أن يقودوا

الشعب المستعمر إلى سيادة عليا بانقضاضة واحدة قاضية، فإن ذلك اليقين الذي كنت قد امتلكته بأن جميع فئات الامة سوف تندفع معك بالسرعة ذاتها وستتفاد إلى الامام بالضوء نفسه، وذلك الشعور بالقوة الذي منحك الأمل: كل ذلك سيبدو الآن في ضوء التجربة أعراضاً لوهم عظيم جداً<sup>(١٨٦)</sup>.

وتلك القوة على نقل "ضوء التجربة" تكمن بالضبط في النزعة غير القانونية التي تنفخ بالحياة الحزب التحريري. وهذا الحزب يكشف للجميع أن العرقية والانتقام "لا يستطيعان أن يعرّزا ويديما حرباً للتحرير". ومن هنا "يكتشف" الأصلائي أنه بتحطيم القمع الاستعماري يبني بشكل آلي نظاماً آخر من الاستغلال، معطياً له هذه المرة "وجهاً أسوداً أو وجهاً عربياً"، مادام الرجال المحاكون المومنون هم الذين يقودون.

"التاريخ يعلم بجلاء"، يعلّق فانون عند هذه النقطة، "أن المعركة ضد الاستعمار لا تجري فوراً على خطوط القومية"<sup>(١٨٧)</sup>. وفي صورة "خطوط القومية" يفهم فانون أن السردية التقليدية، كما لاحظنا في عمل كونراد، مركزية <الأهمية> بالنسبة لسمات الامبريالية المتعلقة بالصادرة والسيطرة. إن السردية نفسها هي تمثيل القوة، وغايتها مرتبطة بالدور العالمي للغرب. لقد كان فانون أول منظر بارز لمناهضة الامبريالية يدرك أن القومية السننية اقتفت الخط نفسه الذي شقته الامبريالية التي - وإن بدت وكأنها تتنازل عن السلطة للطبقة الوسطى القومية - إنما كانت في الواقع توسّع وتمدّ هيمنتها <هي>. ولذلك فإن يروي المرء قصة قومية بسيطة هي أن يكرّر، ويوسع ويمد، ويولد أيضاً أشكالاً جديدة من الامبريالية. وإذا تُركت القومية بعد الاستقلال لمزاجها ولمصيرها الخاص فإنها "سوف تتفتت إلى إقليميات <محلية> داخل القوقعة الجوفاء للقومية نفسها"<sup>(١٨٨)</sup>. وتتكرر أنثذ النزاعات القديمة بين الأقاليم، ويتم احتكار الامتيازات من قبل شعب على شعب آخر، ويعاد تنصيب التراتيبات والانقسامات التي كوّنتها الامبريالية، والفرق أنها الآن يتزعمها جزائريون، أو سنغاليون، أو هنود، وهلم جراً.

إلا إذا، كما يقول فانون بعدها بقليل، "أُخذت خطوة سريعة ... <لانتقال> من الوعي القومي إلى الوعي السياسي والاجتماعي"<sup>(١٨٩)</sup>. وهو يعني أولاً أن الحاجات المبنية على وعي هوياتي (أي قومي) ينبغي أن يتم تجاوزها. وينبغي لـ <هويات> جمعية جديدة وعامة - افريقية، عربية، إسلامية - أن تُعطى الأولوية على هويات إقليمية، لتقام صلات جانبية، غير سرديّة بين بشر فصلتْهم الامبريالية إلى قبائل، وسرديات، وثقافات مستقلة ذاتياً. ثانياً - وهنا يقتفي فانون بعض أفكار لوكاش - ينبغي أن يتم نزع القداسة وسلخ السرية والغموض عن المركز (العاصمة، الثقافة الرسمية، القائد الذي تم تعيينه). ويجب أن يحلّ نظام جديد من العلاقات المتحركة محلّ التراتيبات الموروثة عن الامبريالية. ويلجأ فانون، في مقاطع تتوهج قوة والفاء، إلى الشعر والمسرح، إلى رينيه شار وكايتا فوديبا. <ويقول> إن التحرير هو وعي الذات، "لا إغلاق باب في وجه التواصل"<sup>(١٩٠)</sup> بل عملية لا نهاية لها أبدأ من "الاكتشاف والتشجيع" تقود إلى تحرير الذات قومي حقيقي وإلى الكونية.



يتشكل لدى المرء انطباعاً وهو يقرأ الصفحات الأخيرة من المعذبون في الأرض بأن قانون، وقد ألزم نفسه بمقارعة الامبريالية والقومية السننية كلتيهما باستخدام سرديّة مضادة ذات قوة تقويضية عظيمة، لم يستطع أن يجعل تعقيد هذه السردية المضادة وقوتها المعادية للهوياتية anti-identitarian أمراً جلياً صريحاً. بيد أن ثمة إحاءات شعرية ورؤيوية كافية، في إبهام نثر قانون وصعوبته، لبلورة الدعوى وبسط الحجج المساندة لسالة التحرير من حيث هي عليّة لا من حيث هي هدفٌ تحويه بصورة الية الأمم الحديثة الاستقلال. إن قانون يريد بطريقة ما، عبر المعذبون في الأرض بأسره (الذي كُتب بالفرنسية)، أن يشجّع الأوروبي والأصلائي معاً في مجتمع غير عدائي من الوعي والمناهضة للامبريالية.

في لعنات قانون ضد الاهتمام الأوروبي، وفي استدراراته إياه نجد الطاقة الحيوية الثقافية نفسها التي نراها في كتابات نفوغي، واتشبيبي، و«الطيب» صالح الاختلاقية. والمُرسلات التي تتضمنها «هذه الكتابات» هي أن علينا أن نسعى جاهدين إلى تحرير الجنس البشري كله من الامبريالية؛ يجب علينا جميعاً أن نكتب توارخنا وثقافتنا، جوابياً وإعادة كتابةً descriptively، بطريقة جديدة؛ فنحن نشترك في التاريخ نفسه، رغم أن هذا التاريخ قد استعبد بعضنا. هذه، بايجاز، كتابةً من المستعمرات ذات حدودٍ مشتركة مع الطاقة الكامنة الحقيقية للتحرير ما بعد الاستعماري. لقد حُررت الجزائر، وكذلك كينيا والسودان. غير أن الروابط الهامة مع القوى الامبريالية السابقة تبقى، كما يبقى إحساسٌ تم جلاؤه حديثاً بما يمكن وبما لا يمكن الاعتماد عليه أو إنقاذه من تلك العلاقة السابقة. ومن جديد فإن الثقافة والجهد الثقافي هما ما يبشران بمسار الأشياء الآتية - متقدمين بزمان طويل على السياسيات الثقافية لمرحلة ما بعد الاستعمار التي تسيطر عليها الولايات المتحدة، القوة العظمى «الوحيدة» الباقية.

لقد كُتبت معظم أدب المقاومة في خضم المعركة، ولذلك فإن ثمة ميلاً قابلاً للتفهم إلى التركيز على توكيديته الصدامية، التي كثيراً ما تكون صارخة، أو «ميلاً» إلى رؤية تخطيط لبرنامج عمل لفظائع نظام پول بوت\* فيه. فمن جهة أولى، نظر فيض حديث العهد من المقالات عن قانون إليه باعتباره واعظاً بالمعنى الدقيق يحض المضطهدين على العنف، والعنف وحده. ولا يقال شيء «في هذه المقالات» عن العنف الفرنسي الاستعماري؛ بل إن قانون، تبعاً للمماحكات الصارخة التي يقدمها سدني هوك، ليس أكثر من عدو لاعتقلائي، وفي النهاية غيبي، من أعداء «الغرب». ومن جهة أخرى، فإنه من الصعب أن تفوت المرء في خطب أمليكار كابرال وكتابات اللافته الحدة الفائقة لمقدرة هذا الرجل على الاستنفار والتعبئة، وعدائيتة وعنفه، والطريقة التي لا يترجح بها المقت والحقد بينثقان - بشكل يزداد جلاءً على خلفية الاستعمار البرتغالي البشعة بشاعةً خاصةً. ومع ذلك، فإن المرء سيسيء، إساءةً كبيرةً في قراءة نصوص مثل «أسلحة النظرية» أو «التحرير القومي والثقافة» إذا فاتته طويوية كابرال المقوية وأريحيته النظرية، بالضبط كما أنها قراءة خاطئة لقانون الا يرى المرء فيه شيئاً يتجاوز الاحتفاء بالنزاع العنيف تجاوزاً كبيراً. إن التأكيد على الصراع المسلح، بالنسبة لكلا قانون وكابرال، هو في أقصى الحالات تأكيد أخطوطي. إن

\* - زعيم «الخيمر الحمر» في كمبوديا؛ اشتهر بوحشيته ومجازره الجماعية. (الناشر)

التحرير المحقق بالعنف، والتنظيم، والناشضية بالنسبة لكبارال مطلوب لأن الامبريالية قد عزلت غير الأوروبي عن تجارب سمحت بها للرجل الابيض وحده. لكن، يقول كبارال، لقد اندثر الزمن الذي كانت فيه الثقافة، في محاولة لتأييد السيطرة على الشعوب، تُعتبر خصيصة من خصائص شعوب أو أمم ذات امتيازات، وكانت فيه الثقافة، بدافع الجهل أو النية الخبيثة، تُماهى خطأ بالمهارات التقنية، إن لم تماه بلون جلد المرء أو شكل عينيه<sup>(١٩١)</sup>. وأن ننهي هذه الحواجز هو أن نسمح لغير الأوروبي بالدخول إلى التجربة الانسانية بمداهها الواسع العريض وأشكالها كلها؛ فعلى الأقل سيكون ممكناً أن يكون للجنس البشري بأسره قدر ومصير، ويكون له - وذلك مما هو أكثر اهمية - تاريخ.

من المؤكد، كما قلت سابقاً، أن المقاومة الثقافية للامبريالية كثيراً ما اتخذت الشكل الذي يمكن أن نسميه اصلاً مستخدمة كمالاذ خاص. ويجد المرء ذلك لا في الجبرتي وحسب، بل < ايضاً > في البطل المبكر العظيم للمقاومة الجزائرية: الامير عبد القادر، وهو محارب من القرن التاسع عشر تعهد نفسه، بينما كان يحارب جيوش الاحتلال الفرنسي، بالتلمذة الروحية النسكية على العَلَم الصوفي ابن عربي الذي عاش في القرن الثالث عشر<sup>(١٩٢)</sup>. أن تحارب ضد التشويهات التي تنزل بهويتك بهذه الطريقة هو أن تعود إلى مرحلة سابقة على الامبريالية بحثاً عن ثقافة اصلاً "نقية صافية". وذلك امر مختلف تماماً عن التاويلات التنقيحية، كتلك التي يقدمها غوما أو تشومسكي، التي تهدف إلى نزع السرية والغموض عن المصالح الفاعلة في < نفوس > باحثي المؤسسة < الحاكمة > الذين يتخصصون في دراسة الثقافات "المختلفة"، وتهدف < ايضاً > إلى تقدير تعقيد العملية التاويلية. بطريقة ما، يطرح الاصلاً منظومة أن المرء يستطيع أن يتجاوز التاويل كله < ليصل > إلى الظاهرة الصافية، إلى حقيقة حرفية تلتصق بالإقرار والتثبيت، بدلاً من المناظرة والاستقصاء. ويوجد قدر من هذه الحدة المشبوبة في تعابير الشجب الشامل لـ "الغرب" كتلك التي ترد في كتاب جلال علي احمد مرض الغرباوية < Occidentosis >: طاعون من الغرب (١٩٦١-١٩٦٢)<sup>(١٩٣)</sup> أو في ما تنطوي عليه كتابات لول شوينكا من إيمان بوجود اصلاً افريقي نقي (مثل هجومه البناس على الإسلام والعرب بوصفهم طامسين للتجربة الافريقية)<sup>(١٩٤)</sup>؛ ويوسع المرء أن يرى هذه الحدة مستخدمة استخداماً أكثر إشاقة وإنتاجية في اقتراح انور عبد الملك حول "المشاريع التحضيرية < التمدينية >" ونظرية الثقافات المتلاقحة<sup>(١٩٥)</sup>.

لستُ معنياً عنايةً خاصة بقضاء قدر كبير من الوقت في مناقشة العقابيل الثقافية البناسة الواضحة للقومية في العراق، وأوغندا، وزانير، وليبيا، والفيلبين، وايران، وعبر اميركا اللاتينية. إن المقدرات الموهبة للقومية قد درستُ بتريث، ورُسِمَتْ لها تخطيطاتٌ ساخرة، على مدى طويل من الزمن من قِبل جيش عرمرم من المعلقين، الخبراء والهواة سواءً بسواء، الذين يبدو أن العالم غير الغربي بعد أن غادره البيض قد أصبح بالنسبة لهم مجرد خليط مزعج من رؤساء القبائل، والبرابرة الطفاة، والأصوليين الاغبياء. لكن ثمة تعليقاُ أكثر إشاقة على النزعة الاصلاًنية - وعلى العقائدية الأساسية الساذجة التي تجعلها ممكنة - في مسارد للثقافة الكريولية أو المستيزوية الخليفة مثل كتاب رودو ارييل، وأعمال كتاب الحكايات الخرافية في جنوب اميركا الذين تكشف نصوصهم العكراً impurity الجلي، والخليط الغاتن من الواقعي وما فوق الواقعي في جميع التجارب. وإذ

يقرا المرء "الواقعيين السحريين"، مثل كارپانتيني، الذي كان أول من وصف <ذلك العكز>...، وبورخيس، وغارسيا ماركيز، وفونتس، فسيدرك بجلاء ناصع الخيوط الكثيفة التناسج لتاريخ يهزأ بالسردية الخطية، وبـ "الجواهر" القابلة بسهولة للاستعادة، وبالمحاكاة المذهبية الجامدة <الدوغمائية> للتمثيل "الصافي".

تقترح ثقافة المعارضة والمقاومة، في أفضل صورها، بديلاً نظرياً ومنهجاً عملياً لإعادة تصور التجربة الإنسانية في إطار معطيات غير امبريالية. وأنا أستخدم كلمة "تقترح" المترددة التجريبية، بدلاً من "تقدّم" الوثائق لأسباب أمل أن تصبح جلية.

دعني أولاً أستخلص بسرعة النقاط الرئيسية لمنظومتني. تُحدث الحربُ العقائدية والثقافية ضد الامبريالية في شكل مقاومة في المستعمرات؛ وإن تفيض المقاومة بعد ذلك لتبلغ أوروبا والولايات المتحدة، فإنها تحدث في شكل معارضة أو انشقاق في الحواضر. وتنتج المرحلة الأولى من هذا المحرك الحيوي حركات الاستقلال القومية، وتنتج المرحلة الثانية - المتأخرة، والأكثر حدة - صراعات التحرير. والمقدمة المنطقية الأساسية لهذا التحليل هي أنه، رغم كون الفالق الامبريالي في الواقع يفصل الحواضر عن الأطراف، ورغم أن كل إنشاء ثقافي ينتشر ويتكشف تبعاً لبرامج أهداف وبيلاغات وصور متباينة، فإنها جميعاً في الواقع مترابطة، إن لم تكن دائماً في تراسل كامل. إن الراج قد تطلب أمثال بابو، بالضبط كما أن نهرو وغاندي وأمثالهما فيما بعد تولوا أمور الهند التي كونها البريطانيون. وتُصنع هذه الرابطة على الصعيد الثقافي لأن التجربة الامبريالية - مثل جميع الممارسات الثقافية، كما ما زلت أقول - هي تجربة متواشجة ومتقاطعة. فالأمر لا يقتصر على كون المستعمرين قلدوا بعضهم بعضاً كما تنافسوا بعضهم مع بعض، بل لقد فعل الشيء نفسه المستعمرون، الذين كثيراً ما انتقلوا من النمط العام نفسه من "المقاومة الأولى" إلى أحزاب قومية متماثلة تسعى إلى السيادة والاستقلال.

لكن هل هذا هو كل ما جاءت به الامبريالية وأعداؤها: دورة لامبالية من الإرغامات والإرغامات المضادة، أم أن أفقاً جديداً قد انفتح؟

ليس ثمة من ريب في أن فانون وكابرال لو كانا ما يزالان على قيد الحياة اليوم، لكانا سيصابان بخيبة أمل فادحة في نتائج جهودهما. وأنا أطرح هذا التكهن معتبراً عملهما نظرية لا للمقاومة وفكفة الاستعمار وحسب، بل للتحرير أيضاً. إن القوى التاريخية الناقصة <التشكل> نوعاً ما، والطبقات المشوشة، والأحداث غير المزامنة التي حاولت أعمالها أن تفصح عنها لم تكن تحت سيطرة هذه الأعمال سيطرة كاملة، ولم تُصغها هذه الأعمال بشكل تام. لقد اتضح أن فانون كان مصيباً فيما يتعلق بضرارة <أو جشع؟> الطبقات الوسطى القومية وتوليدها للانقسامات، لكنه لم يُقدّم ولم يكن قادراً على تقديم ترياق ناجع مؤسساتي، بل ولا ترياق نظري، لتالفها وخرابها.

بيد أن أعظم كتّاب المقاومة مثل فانون وكابرال لا ينبغي أن يُقرأوا ويؤوّلوا بوصفهم بناءً دولياً، أو، بالتعبير البشع المؤلف، آباء مؤسسين. ورغم أن الصراع من أجل التحرير

\* - سبق أن اشرنا إلى أن "الراج" هو الحكم البريطاني للهند؛ وأن "البابو" هو السيد الهندوسي، أو هو الكاتب الهندي أو الهندي الذي يُكِّم بالانكليزية. (الناشر)

القومي مستمرٌ مع الاستقلال القومي، فإنه ليس - وفي رأبي أنه لم يكن أبداً في الماضي - مستمراً معه ثقافياً. إن قراءة فانون وكابرال، أو سي. إل. آر. جيمس وجورج لامينغ، أو بايزل ديفيدسن وتوماس هودجكن بوصفهم مجرد عدد كبير من أمثال يوحنا المعمدان\* لعدد ما من الأحزاب الحاكمة أو خبراء وزارات الخارجية، لهما فعل مسخرةٌ وزيف. لقد كان شيء آخر يحدث، وهو يعرقل ويخرب وحدة مسار الوحدة التي اصطنعت بين الامبريالية والثقافة، ثم ينحرف بفتنة عنه. لماذا يصعب هذا على التصور؟

بادئ ذي بدء، لأن النظرية والبنى النظرية التي افترحتها الذين يكتبون عن التحرير لا تُعطى إلا نادراً السلطة الأمر - وأنا اعني العبارة حرفياً تماماً - أو الكونية البهيجة اللتين تمتلكهما نظيراتها المعاصرة، وهي غالباً غريبة. ولذلك أسباب عديدة، ليس أقلها أهمية السبب الذي ذكرته في الفصل السابق، وهو أن العديد من النظريات الثقافية التي تتظاهر بالكونية تستبدده، بشكل يشبه شهاباً كبيراً الحيل والوسائل السرديّة في قلب الظلام، وتدمج (داخلها) اللامساواة بين الأعراق، وإخضاع الثقافات الأدنى، وإذعان أولئك الذين، بكلمات ماركس، لا يستطيعون أن يمثلوا أنفسهم ولذلك ينبغي أن يمثلهم الآخرون. "ومن هنا"، يقول الباحث المغربي عبد الله العروي، "شجّب الفئدة المفكرة (الانتلجنسيا) في العالم الثالث للامبريالية الثقافية. أحياناً يحار الناس بسبب المعاملة السيئة التي تلقاها الأبوية التحررية (الليبرالية) القديمة، وتمركزية ماركس الأوروبية، ومناهضة العرقية البنيوية (ليفي- شتراوس). ومردّ حيرتهم الى أنهم لا يودون أن يروا كيف يمكن أن تشكل هذه الأشياء جزءاً من النظام المهيمن ذاته" (١٩٦). أو، كما يعبر تشينوا اتشيببي، حين يعلّق قائلاً إن النقاد الغربيين كثيراً ما يعيبون على الكتابة الأفريقية أنها تفقر إلى "الكونية":

هل يخطر مرة واحدة لهؤلاء الكونيين أن يجربوا لعبتهم بتغيير أسماء الشخصيات والأماكن في رواية اميركية لـ فيليب روث، لنقل، أو جون ايدريك، ثم إقحام أسماء أفريقية لمجرد أن نرى كيف تكون النتيجة؟ لا، لن يخطر لهم طبعاً أن يشكوا في كونية ادبهم هم. ففي طبيعة الأشياء أن يُفعم عمل كاتبٍ غربي اليأ بالكونية. والآخرون وحدهم ينبغي أن يجهدوا لتحقيقها. عمل فلان الغلاني كوني: لقد وصل بحق! كما لو كانت الكونية منقطعاً نائياً في الطريق بوسعه أن تسلكه إذا أوغلت في السفر باتجاه أوروبا أو اميركا، وإذا اقمتم مسافة وافية بينك وبين وطنك (١٩٧).

تأمل، كتذكير ناجع بهذه الحالة البائسة للأمور، العمل المتعاصر تقريباً لميشيل فوكو وفرانتز فانون، اللذين يؤكد كلٌ منهما الإشكالية التي لا يمكن تجنبها للجمود والانحصار (المائلين) في المركز من نظام المعرفة والتأديب (والانضباط) الغربي. إن عمل فانون يسعى بشكل مبرمج إلى معالجة المجتمعات المستعمرة والحواضرة معاً، بوصفها كيانات متفاوتة لكنها مترابطة، بينما يتحرك عمل فوكو الى ما هو أبعد فأبعد عن اعتبار الكليات الاجتماعية اعتباراً جاداً، مرگزاً بدلاً من ذلك على الفرد محلولاً في "فيزيائيات صغرى للقوة" (١٩٨) تتقدم تقدماً محتوماً لا أمل في مقاومته. إن فانون يمثل مصالح دوائر سكانية مزدوجة، أصلانية وغربية، متحركة من الانحصار والعزل إلى التحرير؛ واما فوكو فإنه، إذ يتجاهل السياق الامبريالي لنظرياته، فإنه يبدو فعلياً ممثلاً حركة مستعمرة لا تقاوم تقوم - بمفارقةٍ صديّة - بتحسين امتيازات كلاً الباحث الفرد المتوحد والنظام الذي يحتويه

\* - والشاهد هنا هو ان يوحنا المعمدان بشرٌ بقدم المسيح وقام حين جاء بعماده في مياه نهر الاردن مباركاً إياه.

ضمنه. إن في ميراث فانون وفوكو معاً <كُلًّا مِنْ> هيغل، وماركس، وفرويد، ونييتشه، وكانغويلم، وسارتر، بيد أن فانون وحده يدفع بهذا المخزون المهول من السلاح إلى خدمة مناهضة السلطوية. أما فوكو، فإنه، ربما بسبب انقشاع الوهم عن تمردات الـ ١٩٦٠ات والثورة الإيرانية، ينحرف مبتعداً عن السياسة كلياً<sup>(١٩٩)</sup>.

وكذلك فإنّ قدراً كبيراً من الماركسية الغربية، في دوائرها الجمالية والثقافية، مصابٌ بالعمى عن مسألة الامبريالية. فالنظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت\*، بالرغم من تبصراتها النفاذة المُخصّية في العلاقات بين السيطرة والمجتمع الحديث والفرص المتاحة للخلاص عبر الفن من حيث هو تنقيد، صامتةٌ صامتاً مذهباً عن النظرية العرقية، والمقاومة ضد الامبريالية، والممارسة المعارضة الضدية في الامبراطورية. ولكيلا يُؤوّل ذلك الصمتُ كسهوٍ غير مقصود، فهاهوذا المنظر الرئيسي لمدرسة فرانكفورت اليوم، يورغن هابرماس، يوضح في مقابلة (كانت قد نُشرتُ أصلاً في مجلة اليسار الجديد) أنّ الصمت امتناعٌ مقصود: كلا، يقول هابرماس، ليس لدينا مانقولُه لـ "الصراعات ضد الامبريالية وضد الرأسمالية في العالم الثالث"، حتى لو كنتُ، كما يضيف قائلاً، "أعي حقيقة أنّ هذه وجهةُ نظر ضيقةٌ في مركزها الأوروبي"<sup>(٢٠٠)</sup>. وجميع المفكرين الفرنسيين البارزين - باستثناء دولوز، وتودوروف، وديدا - كانوا وما يزالون غافلين غافلاً مماثلة، دون أن يمنع ذلك ورسائهم من أن تمخض نظريات في الماركسية، واللغة، والتحليل النفسي، والتاريخ يدعون ضمنياً أنها تنطبق على العالم بأسره. ويمكن أن يقال الكلامُ نفسه عن معظم النظرية الثقافية الانغلو ساكسونية، باستثناء هام هو الأنثوية، وحنفةٌ ضئيلة من أعمال نقاد شبنان متأثرين بريموند ولِيمز وستيوارت هول.

إذن، إذا لم تبرهن النظرية الأوروبية والماركسية الغربية كمعاملين ثقافيين للتحريير عن كونهما في الأغلب حليفين جديرين بأن يُعتمد عليهما في المقاومة ضد الامبريالية - بل بوسع المرء، على العكس من ذلك أن يعتقد أنهما جزء من "الكونية" البغيضة نفسها التي ربطت الثقافة بالامبريالية لقرون عديدة - فكيف حاولت المناهضة التحريرية للامبريالية كسُرّ هذه الوحدة المقيدة بالانغلا؟ أولاً، بتوجهٍ جديد تكاملي أو طباق في التاريخ يعاين التجارب الغربية وغير الغربية بوصفها تنتمي بعضها إلى بعض لأنها موشوجة <جميعها> بالامبريالية. وثانياً، بروياً تخيلية <خلاقة>، بل طوباوية، تعيد تصور النظرية والأداء المحررين (نقيضاً للحاصرين المقيدين). وثالثاً، بالاستثمار لا في سلطات، ومذاهب، وسُنناتٍ مقننة، جديدةٍ ولا في مؤسسات وقضايا راسخة، بل في نمطٍ خاصٍ من الطاقة الحيوية الرَّحَل، المهاجرة، والمضادة للسردية.

دعني أوضح نقاطي بتأملٍ مقطع رائع في العاقبة السود لـ سي. إل. آر. جيمس. لقد أضاف جيمس إلى كتابه هذا، بعد حوالي عشرين عاماً من صدور طبعته الأولى عام ١٩٢٨، فصلاً جديداً <عنوانه>: "من توسان لوفرتور إلى فيديل كاسترو". ورغم أن جيمس مفكر على درجة عالية جداً من الجدة والابتكار، كما قلتُ، فلا ينتقص من إسهامه في

\* - والمعروف أنّها مجموعة من المثقفين اليساريين شكّلت معهداً مستقلاً هو "معهد البحث الاجتماعي" في منتصف العشرينات من هذا القرن. ومن أعلامها: ثيودور أدورنو، والتر بنيامين، وماكس هوركهايمر، وهيربرت ماركوزه، وإريك فروم. (الناشر)

شيء أن يُربط بين عمله وأعمال عددٍ متباين من المؤرخين والصحافيين الحواريين - <مثل> بايزل ديفيدسن، وتوماس هودجكن، ومالكوم كالدول، من بين آخرين في بريطانيا، وماكسيم رودنسون، وجاك شيزنو، وشارل - روبير أرجرون بين آخرين في فرنسا - الذين قاموا بعملهم على نقطة التقاطع بين الامبريالية والثقافة، والذين مضوا على طول المسار من الصحافة إلى الكتابة الاختلاقية <القصصية> والبحثِ الدراسي. أي أنه كانت ثمة محاولة واعية <في أعمالهم> لا لكتابة التاريخ مشبعاً بالصراع بين أوروبا الامبريالية والاطراف، وأخذاً هذا الصراع بالاعتبار الكامل... فحسب، بل لكتابته من حيث المضمون والمعالجة أو المنهج، من موقع الصراع ضد السيطرة الامبريالية ومن موقع هو جزء من هذا الصراع. وبالنسبة اليهم جميعاً، كان على تاريخ العالم الثالث أن يتغلب على الافتراضات، ووجهات النظر، والقيم التي تنطوي عليها السرديات الاستعمارية. وإذا كان ذلك يعني، على نحو ما كان يعني عادةً، تبني موقع تحزبي من الدعوة والمنافحة، فليكن الأمر كذلك؛ فلقد كان مستحيلاً أن يكتب المرء عن التحرير والقومية، مهما كانت الكتابة تلميحية، دون أن يعلن أيضاً أنه ضدهما أو معهما. ولقد كانوا على صواب، في اعتقادي، بالافتراض أنه في رؤية للعالم على هذا القدر الهائل من العولة كما هي حال رؤية الامبريالية للعالم، فإنه لا يمكن أن تكون ثمة من حيادية؛ فإما أن يكون المرء الى جانب الامبراطورية وإما يكون ضدها. ولما كانوا هم انفسهم قد عاشوا الامبراطورية (اصلايين أو بيبضاً)، فلم يكن امامهم من مفر منها.

**يعالج اليعاقبة السود لجيمس انتفاضة العبيد في سانتو دومينغو كعملية تتفتح**  
داخل تاريخ الثورة الفرنسية عينه، ونابليون وتوسان هما الشخصيتان العظيمتان اللتان تطغيان على هذه السنوات المضطربة. تتقاطع الأحداث في فرنسا وهايتي متصاليةً ويشير بعضها إلى بعض، مثل اصوات في قطعة فيورغ موسيقية\*. وسردية جيمس مقطعة قطعاً الى تاريخ مبعر في الجغرافيا، وفي مصادر سجلات المحفوظات، وفي تأكيدات سوداء وفرنسية معاً. وعلاوةً، فإن جيمس يكتب عن توسان كشخص يتبنى الصراع من أجل الحرية الانسانية - وهو صراع يدور أيضاً في الحواضر التي يدين لها ثقافياً بلغته وبالعديد من ولاياته الاخلاقية - بعزيمة وتصميم نادرين بين الخاضعين، وأشد ندره بين العبيد. وهو يصادر مبادئ الثورة <الفرنسية> لا كرجل أسود بل كإنسان، ويفعل ذلك بوعي تاريخي كثيفٍ للكيفية التي يقتفي بها المرء - إذ يجد لغة بيدرو وروسو وروبسبير - أسلافاً بطريقة خلاقة، مستعملاً الالفاظ عينها، ومستخدماً نبراتٍ معربة تحيل البلاغة إلى واقع فعلي.

انتهت حياة توسان نهايةً مريعة، سجيناً من سجناء نابليون، محصوراً في فرنسا. إلا أن موضوع كتاب جيمس، إذا توخينا الدقة، ليس مشمولاً في سيرة توسان الشخصية بأكثر مما سيكون تاريخ الثورة الفرنسية قابلاً للتمثيل تمثيلاً وافياً إذا أسقط منه التمرد الهايتي. إن العملية تستمر الى الحاضر - ومن هنا ملحق جيمس عام ١٩٦٢ "من توسان الى كاسترو" - وتبقى المعضلة ماثلة: كيف يمكن لتاريخ غير امبريالي أو مابعد امبريالي أن يكتب ولا يكون طوباوياً حتى السذاجة أو متشائماً حتى اليأس، في ضوء واقع

\* Fugue: قطعة موسيقية تُكزف فيها موضوعاً أو موضوعتان أو أكثر، يُصنَع عنها بإبخال اصواتٍ متعدّدة متتابعة، وتطوّر طيفاً من خلال تناسج أجزاء الصوت تناسجاً مستمراً. (الناشر)

السيطرة المستمر المشوش في العالم الثالث؟ إن هذه لمتاهة ريبٍ منهجيةٌ وماورا - تاريخية، وإن حلَّ جيمس العاجل لها لتخليُّ تخيلاً المعياً.

يكشف جيمس، إذ يستطرد قليلاً لإعادة تأويل كتاب امي سيزير دفتُرُ عودهُ إلى مسقط الرأس، حركةَ الشاعر عبر حرمانات الحياة <في جزر> الهند الغربية، وعبر "التصلُّبات الفولاذية الزرقاء" و"الفتوحات المختالة" لـ "العالم الابيض"، فالى الهند الغربية من جديد، حيث يعلن الشاعر، إذ يودُّ أن يتحرر من الكره الذي شعر به ذات يوم لمضطهديه، التزامه بـ "أن يكون راعي هذا العرق الفذ". وبكلماتٍ أخرى، يكشف سيزير أن استمرار الامبريالية يعني أن ثمة قدرأ من الحاجة للتفكير بـ "الرجل <الإنسان>" (والتأكيد الذكوري حصراً صادمٌ تماماً) بوصفه شيئاً أكثر من "طفيلي في العالم". أن نظل مواكبين للعالم ليس الواجب الوحيد:

لكنَّ عمل الإنسان يبدأ هذه اللحظة  
ويبقى على الرجل أن يقهر كلَّ العنف  
المتخندق في أعماق عواطفه المشبوبة.  
ولا يملك أيُّ عرق أن يحتكر الجمال  
والذكاء، والقوة، وثمة

مكان للجميع في موعد النصر<sup>(٢٠١)</sup>. (الترجمة <إلى الانكليزية> لجيمس)

هذا، كما يقول جيمس، هو عين مركز القصيدة، بالضبط إذ يكشف سيزير أن التأكيد الاستدفاعي لهوية المرء (الزُنُوْجَة) ليس كافياً. فالزنوجة واحد فقط من الإسهامات في صنع "موعد النصر". وإن رؤيا الشاعر، يضيف جيمس، ليست اقتصادية أو سياسية، بل شعرية، فذة النوع، صادقةٌ مع نفسها وفي ذاتها ولا تحتاج أية حقيقة أخرى. لكن سيكون أكثر أنواع العرقية ابتداءً أن لا يرى المرء هنا تجسداً شعرياً لجملة ماركس المشهورة: «إن التاريخ الحقيقي للإنسانية سوف يبدأ»<sup>(٢٠٢)</sup>.

عند هذه اللحظة، يحقق جيمس نقلةً طباقيةً، غيرَ سردية، أخرى. فبدلاً من أن يقتفي خطى سيزير عانداً إلى تاريخ جزر الهند الغربية أو العالم الثالث، وبدلاً من أن يكشف أسلافه المباشرين شعرياً، وعقائدياً، وسياسياً، فإنَّه يوضعه الى جانب معاصره الانكلوساكسوني العظيم تي. إس. إليوت، الذي تكون خاتمه هي "التجسد" Incarnation:

هنا الوحدة المستحيلة،  
لفضاءات الوجود، حقيقيةً.  
هنا الماضي والمستقبل  
يُهرمان، ويصنَّحان،  
حيث كان الفعل سيكون لولا ذلك حركةً  
لذلك الذي يُحرك فقط  
وليس في داخله مصدرٌ للحركة<sup>(٢٠٣)</sup>.

بالانتقال بهذه الصورة المبالغتة من سيزير إلى "دراي سالفيجز" لاليوت\* - وهي أبياتُ

\* - في رباعيات أربع، ولم أترجم العنوان لأنه كما يحدده اليوت، اسمُ علمٍ لمجموعة من الصخور على شاطئ كيب ان، ماستشوستس، ينتصب عليها علمٌ هدايةٌ للبحارة.

لشاعر ينتمي، كما قد يقول المرء، إلى مجال مغاير تماماً - يعتلي جيمس صهوة القوة الشعرية لحقيقة سيزير "الصادقة مع نفسها" كمركبة للعبور من اقاليمية نمط من التاريخ إلى إدراك تواريخ أخرى، منفوحة جميعاً بالحياة من قبل "وحدة مستحيلة" ومتحققة في هذه الوحدة. وهذه حالة حرفية من البداية التي فرضها ماركس للتاريخ الانساني، وهي تمنح نثره البعد الذي يملكه مجتمع اجتماعي فعلي فعلياً تاريخ شعبي، وشامل شمولية رؤيا الشاعر.

هذه اللحظة في كتاب جيمس، وهي ليست نظرية تجريدية، معلبةً مجهزة، ولا مجموعة تبعث على اليأس من الحقائق القابلة للسرد، تجسّد (ولا تمثل أو تنقل فحسب) الطاقات الحيوية للتحرير المناهض للامبريالية. وإنني لأشك في أنّ أحداً يستطيع أن ينتزع منها مذهباً ما قابلاً للتكرار، أو نظريةً قابلة للاستعمال ثانية، أو قصة لا تُنسى، دع عنك مكاتبة دولة في مستقبل ما. ربما كان بوسع المرء أن يقول إنها تاريخ الامبريالية وسياسياتها، وتاريخ العبودية والفتوحات والسيطرة وسياسياتها <جميعاً>، وقد حررها الشعر، من أجل رؤيا مؤثرة في إنجاز التحرير الحقيقي إن لم تكن قادرة على هذا الإنجاز. ويقدر ما يمكن تقريبها في بدايات أخرى فإنها، إذن، مثل اليعاقبة السود، جزء مما يمكن في التاريخ البشري أن يحررنا من تاريخ <أي ماضي> السيطرة نحو واقع التحرير. وهذه الحركة تقاوم المسارب السردية التي تم رسمها والسيطرة عليها من قبل وتلتف حول أنظمة النظرية، والمذهب، والسنتية. لكنها، كما يشهد عمل جيمس بأسره، لا تهجر المبادئ الاجتماعية للروح المنجمية، واليقظة النقدية، والتوجه النظري. وإن أوروبا والولايات المتحدة المعاصرتين لفي أمس الحاجة إلى مثل هذه الحركة، بجسارتها وأريحية روحها، ونحن نتقدم إلى القرن الواحد والعشرين.



## الفصل الرابع

### التحرر من السيطرة في المستقبل

إن رجال الامبراطورية الجدد هم أولئك الذين يؤمنون ببدايات طازجة، بفصول جديدة، وصفحات جديدة؛ إنني لاتباع مصارعة القصة القديمة، أملاً أن تجولي قبل أن تنتهي سبب اعتقادي بأنها جديرة بتكف المشقة .

دجي. إم. كوتزي، في انتظار البرابرة

<https://telegram.me/maktabatbaghdad>

## I - الارتقاء الأميركي: الفضاء العمومي في حالة حرب

الإمبريالية لم تنته؛ لم تتحول فجأة الى "ماضٍ" ما إن أطلقت عملية فكفكة الاستعمار حركة تفكيك الإمبراطوريات التقليدية < الكلاسيكية >. ذلك أن إرثاً من الوشائج ما يزال يشدّ بلداناً مثل الجزائر والهند إلى فرنسا وبريطانيا على التوالي. ويقطن عدد جديد هائل من السكان، من المسلمين، والأفارقة، وأهالي < جزر > الهند الغربية، الذين ينتمون الى مستعمرات سابقة، في الحواضر الأوروبية؛ حتى ايطاليا، والمانيا، واسكندنافيا تجد نفسها اليوم مضطرة إلى مواجهة هذه الانزياحات التي هي إلى حد بعيد من عقابيل الامبريالية وفكفكة الاستعمار، كما أنها من نتائج التوسع السكاني الأوروبي. وكذلك، فإن نهاية الحرب الباردة والاتحاد السوفييتي قد غيرت بصورة قطعية خريطة العالم. إن انتصار الولايات المتحدة، بوصفها آخر الدول العظمى، ليُشعر بأن طقماً جديداً من خطوط القوة، وهي خطوط كانت قد أخذت بالاتضاح في الـ ١٩٦٠ات والـ ١٩٧٠ات، سوف يشكل بنية العالم.

يطرح مايكل بارت - براون في استهلال كتبه عام ١٩٧٠ للطبعة الثانية من كتابه بعد الامبريالية (١٩٦٣) منظومة أن "الامبريالية ما تزال دون أدنى شك إحدى أعظم القوى تأثيراً في العلاقات الاقتصادية والسياسية والعسكرية التي عن طريقها يتم إخضاع البلدان الأقل تطوراً اقتصادياً للبلدان الأكثر تطوراً اقتصادياً. إنه ما يزال بوسعنا أن نتطلع بأمل الى انتهاء الامبريالية"<sup>(١)</sup>. وإنها لمفارقة لاذعة أن تُستخدم توصيفات الشكل الجديد للامبريالية استخداماً منتظماً للتعابير الجاهزة للعملة الهولية والرؤى الحشرية < الشبيهة بسفر الرؤيا > التي لم يكن يمكن أن تطبق بالقدر نفسه من السهولة على الامبراطوريات التقليدية في أزهي أيامها. ولبعض هذه التوصيفات طبيعة حتمية مثبتة، خصيصاً من نمط جامع، ملقح، لاشخصاني، قَدري. تراكم على نطاق عالمي؛ النظام الرأسمالي العالمي؛ تقدم التخلف؛ الامبريالية والتبعية، أو بنية التبعية؛ الفقر والامبريالية؛ وما الى ذلك من هذا المخزون < المسرحي > المعروف جيداً في علم الاقتصاد، والعلوم السياسية، والتاريخ، وعلم الاجتماع، والذي وُجِدَ هويته لا بهوية النظام العالمي الجديد بل بهوية أعضاء مدرسة فكرية يسارية مثيرة للجدال. ومع ذلك، فإن المنطويات الثقافية لمثل هذه العبارات والتصورات قابلة للتلمس - والحق أنها، للأسف، مثيرة للكآبة دونما إنكار حتى والبعيدة كل البعد عن الاستقرار - والحق أنها، للأسف، مثيرة للكآبة دونما إنكار حتى لأقل الأعين دربة وخبرة.

ما هي الملامح البارزة لإعادة تقديم المظالم الامبريالية القديمة، ولاستمرار النظام القديم، بعبارة أرنو ماير الشديدة الكشف والدلالة؟<sup>(٢)</sup> إن أحد هذه الملامح بالتأكيد هو الانشراح الاقتصادي الهائل بين البلدان الفقيرة والغنية، وهو انشراحٌ كانت تضاريسه البسيطة أساساً قد رُسمت بأكثر اللغات جهامةً في ما أُسمي بـ تقرير براندت: الشمال - الجنوب: برنامج من أجل ضمان البقاء (١٩٨٠)<sup>(٣)</sup>. ولقد صيغت استخلاصات هذا التقرير بلغة الازمة والطوارئ: ينبغي أن يتوجه الاهتمام إلى "الحاجات الأكثر أولوية" في دول النصف الجنوبي الأكثر فقراً، وأن يُقضى على الجوع، وأن تُزاد موارد الدخل الناتجة من المواد الأولية؛ وينبغي أن يُسمح التصنيع في دول النصف الشمالي بحدوث نمو حقيقي

في مراكز التصنيع في النصف الجنوبي، كما ينبغي أن تُفرض القيود على ممارسات الشركات التي تنتشط في إطار يتجاوز حدود البلد الواحد، وأن يتم إصلاح النظام النقدي العالمي، وأن تُغيّر قواعد تمويل التنمية بهدف إزالة ما أسمى بحق "مصيدة الديون"<sup>(٤)</sup>. إن جوهر الأمر، بعبارة التقرير، هو المشاركة في القوة، أي إعطاء بلدان الجنوب نصيباً أكثر عدالةً من "القوة وصناعة القرار ضمن المؤسسات المالية والنقدية"<sup>(٥)</sup>.

من الصعب مخالفة تشخيص التقرير، الذي تزيد من مصداقيته لهجته المتوازنة والصورة الصامته التي يرسمها لضراوة الشمال، وشرائته ولاخلاقته، التي لا يُكبح جماحها كايح، بل إن من الصعب مخالفة توصيات هذا التقرير. لكن كيف ستحدث التغيرات؟ لقد تم الآن إلى حد بعيد، نبدأ بتصنيف كل الأمم إلى ثلاثة "عوامل"، وهو تصنيف ابتكره صحفي فرنسي بعد الحرب العالمية الثانية. ويعترف ويولي براندت وزملاؤه ضمناً بأن الأمم المتحدة - وهي مؤسسة جديرة بالإعجاب من حيث المبدأ - لم تكن في مستوى النزاعات الإقليمية والكونية التي لا تُحصى والتي تنشب بتواتر متزايد. وباستثناء عمل جماعات صغيرة (ع. م: "مشروع أنموذجات النظام العالمي")، فإن التفكير الكوني يميل إلى إعادة إنتاج صراعات الدول العظمى، والحرب الباردة، والصراعات الإقليمية والعقائدية والأعرافية، وهي صراعات قديمة لكنها أشد خطورة الآن في العصر النووي وما بعد النووي، كما تشهد فظائع يوغوسلافيا. وإنه ليرجح أن الاقوياء سيزدادون قوة وثراء، والضعفاء سيزدادون ضعفاً وفقراً؛ وإن الهوة بين الفئتين تتجاوز <في أهميتها> التمييز السابق بين الأنظمة الاشتراكية والرأسمالية الذي أصبح، في أوروبا على الأقل، ادنى شأنًا ودلالة.

عام ١٩٨٢ استنتج نوعام تشومسكي أنه خلال الثمانينات:

لن تنحسر حدة نزاع "الشمال - الجنوب"، وسوف تكون ثمة حاجةً لابتكار أشكال جديدة من السيطرة لتضمن احتفاظ الشرائح ذات الامتيازات في المجتمع الصناعي الغربي بقدر كبير من التحكم بالموارد الكونية، الانسانية والمادية، وأن تفيد فائدة لا تتناسب مع حجمها من هذا التحكم. وهكذا فليس ثمة من مفاجأة في أن تجد إعادة تشكيل العقائدية في الولايات المتحدة أصداً لها عبر العالم الصناعي كله... غير أنه من المقتضيات المطلقة للنظام العقائدي الغربي أن تُخلق هوة شاسعة بين الغرب المتحضّر - بالتمزاه التقليدي بالكرامة، والحرية، وتقرير المصير - وبين الوحشية البربرية لأولئك الذين يُخفقون لسببٍ أو آخر - وقد يعود هذا السبب إلى المورثات المشوهة المعتلة - في أن يقدروا عمق هذا الالتزام التاريخي الذي يتجلى أحسن تجلٍ على سبيل المثال، في حروب اميركا الآسيوية<sup>(٦)</sup>.

إن انتقال تشومسكي من معضلة "الشمال - الجنوب" إلى السيطرة الأميركية والغربية هو، في تقديري، انتقالٌ سليم من حيث الأساس، رغم أن تقلص القوة الاقتصادية الأميركية، والأزمة الحضرية، والاقتصادية، والثقافية في الولايات المتحدة، وارتقاء دول حوافي المحيط الهادي، والاختلالات التي تملأ العالم المتعدد الأقطاب، كلها أدت إلى كبح جماح العهد الريغاني. إن هذا الانتقال أولاً يؤكد استمرار الحاجة العقائدية لتعزيز السيطرة وتسويقها في إطار معطيات ثقافية، وهي حاجة ماتزال ماثلة في الغرب منذ القرن التاسع عشر، بل قيل ذلك أيضاً. وهو ثانياً يقبض بدقة على الموضوعية المبنية على الإسقاطات التكهنية والتنظيرات المتكررة عن القوة الأميركية، التي يعبر عنها بطرق يغلب أن تكون مفتقرة إلى الشعور بالأمان وأن تكون لذلك مغالية، وهي موضوعاً أننا نعيش الآن في عصر الارتقاء الأميركي.

توضّح ما أعنيه دراساتٌ ظهرتُ خلال العقد الماضي عن شخصيات بارزة في منتصف القرن العشرين. يمثّل كتابُ رونالد ستيل وولتر ليبمان والقرن الأميركي التكوينَ الذهني لهذا الارتقاء كما هو منقوش في الحياة المهنية لأشهر صحفي أميركي، وهو الصحفي الذي امتلك أعلى درجات الامتيازات والقوة في هذا القرن. إنّ الأمر الفائق في حياة ليبمان المهنية كما تنبثق من كتاب ستيل ليس أنه كان مصيباً أو على درجة خاصة من ثاقبية الفكر في تقاريره أو تنبؤاته بالأحداث العالمية (فالحق أنه لم يكن كذلك)، بل أنه قام من موقع "الداخلي" (والمصطلح له) بالإفصاح عن السيطرة الأميركية الكونية دونما تلكؤ، إلا في حالة فييتنام، وأنه رأى أنّ دوره كملقِّقٍ مراقِبٍ هو أن يساعد أبناء وطنه على "التكيف مع الواقع"، واقع القوة الأميركية التي لا منافس لها في العالم، والتي جعلها هو متقبّلةً إلى درجة أعلى بتأكيد أخلاقيتها، وواقعيّتها، وغيريتها بـ "مهاراة كبيرة ومقدرة على عدم الاندياح بعيداً عن التوجه الأساسي للرأي العام"<sup>(٨)</sup>.

ثمة وجهة نظر مماثلة، وإن يكن التعبير عنها مختلفاً، إذ قدّمت كَفَهْمُ أكثر تقشُفاً ونخبويةً قامَ به حكيمٌ رفيعُ الشأن للدور الكوني الأميركي، وذلك في كتابات جورج كينان ذات التأثير الكبير. لقد آمن كينان، وهو مؤلفُ سياسةِ الاحتواء التي وجّهت التفكير الرسمي في الولايات المتحدة لزمان طويل إبان مرحلة الحرب الباردة، بأنّ بلاده هي حارسة الحضارة الغربية والوصية عليها. ولم يكن مثلاً هذا المصير في العالم غير الأوروبي في نظره ينطوي على ضرورة بذل أي جهد لإكساب الولايات المتحدة شعبيةً عالية (المثالية الروتارية\*\*، كما أسماها بازدراف) بل كان يعتمد على "تصورات القوة الخالصة المباشرة". وقد نصح كينان بضبط النفس مادام لم يكن هناك مَنْ يمتلك الموارد والمقدّرات لتحديّ الولايات المتحدة عسكرياً أو اقتصادياً من الشعوب أو البلدان التي كانت سابقاً خاضعة للاستعمار. ومع ذلك فإنه في مذكرة مكتوبة عام ١٩٤٨ وموجهة إلى "جهاز التخطيط السياسي"، وافق على إعادة استعمار أفريقيا، كما وافق، في كلام كتبه عام ١٩٧١، على العزل العنصري <الآبارتايد في جنوب أفريقيا> (لكنّه لم يوافق على إساءة استعماله)، رغم أنه لم يوافق على التدخل الأميركي في فييتنام، وبشكل عام على "نمطٍ أميركي محض من نظام امبريالي غير رسمي"<sup>(٩)</sup>. ولم يكن ليخامر كينان أدنى شك في أن أوروبا وأميركا كانتا في موقع فريد يؤهلها لقيادة العالم، وهي وجهة نظر جعلته يعاين بلاده بوصفها "قُتّى يافعاً" ينمو ليؤدي الدور الذي أدته ذات يوم الامبراطورية البريطانية.

لقد أسهمت قوى أخرى إلى جانب رجال مثل ليبمان وكينان - وكلاهما رجلٌ متوحّدٌ يعاني من الاعتراّب مجتمع الغُفرة\*\*\* الذي يعيش فيه، ويمقت التهليل للحرب والأشكال الخامّة للسلوك العدواني الأميركي - في تكوين السياسة الخارجية الأميركية في المرحلة التالية للحرب <العالمية الثانية>. ولقد أدرك كلاهما أن الانعزالية، والتدخلية، ومناهضة الاستعمار، والامبريالية القائمة على التجارة الحرة، مرتبطة بالخصائص الداخلية للحياة السياسية الأميركية التي وصفها ريتشارد هوفستادتر بأنها "معادية للفكر" و"مصاوبة

• تعريب المترجم لـ insider، وهو المصطلح على بواطن الأمور لمتعمّه بمركز سلطة. (الناشر)  
 •• نسبة إلى نادي يقدم خدمات كبيرة، ويعرف باسم: rotary club. (الناشر)  
 ••• وهو التعريب الذي ارتأه المترجم لـ mass society. (الناشر)

بعقدة الاضطهاد والارتياب: وهي خصائص أدت الى حالات فقدان الأتساق، إلى تقدّمات وتقهقرات في السياسة الخارجية الأميركية قبل نهاية الحرب العالمية الثانية. ومع ذلك فإن فكرة الزعامة والاستثنائية <الامتيازية> الأميركية لا تغيب لحظة واحدة؛ ومهما فعلت الولايات المتحدة فإن هؤلاء الثقات لا يريدونها في كثير من الحالات أن تكون قوة امبريالية شبيهة بتلك القوى التي سبقتها، مفضلين بدلاً من ذلك مفهوم "المسؤولية العالمية" مُعقّلين مسوّغاً لكل ما تفعله. وتقود المُعقّلات السابقة - مثل مبدأ مونرو، والمصير الجلي\*، وغيرهما - الى "المسؤولية العالمية"، وهو ما يتطابق تماماً مع تنامي المصالح الكونية للولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية ومع تصور قوتها الهائلة كما صاغته نخبة الفكر والسياسة الخارجية.

في مسرد جليّ مُقنع للأضرار التي سببها ذلك، يلاحظ ريتشارد بارنيت أن تدخلًا عسكرياً أميركياً في العالم الثالث كان قد حدث كل سنة بين ١٩٤٥ و١٩٦٧ (وهي السنة التي توقف فيها عن الإحصاء). ومنذ ذلك الوقت، ماتزال الولايات المتحدة ناشطة نشاطاً مؤثراً بلغ أوجّه أثناء حرب الخليج عام ١٩٩١، حين أرسلت ٦٥٠.٠٠٠ جندي عبر ٦.٠٠٠ ميل لصدّ غزو عراقي لحليف من حلفاء الولايات المتحدة. ومثل هذه التدخلات، كما يلاحظ بارنيت في كتابه جذور الحرب، تملك "جميع مقومات مذهب امبريالي قوي... : إحساس بالرسالة، والضرورة التاريخية، والحميّة التبشيرية". ويتابع قائلاً:

يستند المذهبُ الإمبرياليُّ إلى نظرية تتعلق بصنع القانون. وتبعاً للكويين\*\* الجامحين، مثل [لندن بينز] جونسون، وللكويين الصامتين، مثل نيكسون، فإن هدف السياسة الخارجية للولايات المتحدة هو تكوين عالم يزداد انصياعاً لحكم القانون. لكن الولايات المتحدة هي التي ينبغي أن تنظّم السلام، بعبارة وزير الخارجية <دين> رسك. والولايات المتحدة تفرض "المصلحة العالمية" بوضع القواعد المؤسسة للتنمية الاقتصادية وتمركز القوات العسكرية وتوزيعها عبر الكرة الأرضية. هكذا تُسنّ الولايات المتحدة قواعداً للسلوك السوفييتي في كُزبا، والبرازيليّ في البرازيل، والغيبتيامي في فييتنام. ويُعتبر عن سياسات الحرب الباردة بسلسلة من التعليمات التي تصدرها <الولايات المتحدة> حول أمور تقع خارج النطاق <الجغرافي> الأرضي من مثل ما إذا كان لبريطانيا أن تتاجر مع كوبا أو ما إذا كان لحكومة غويانا البريطانية أن تختار طبيباً أسنان ماركسياً ليحكّمها. ولقد كان تحديد شيشرون للإمبراطورية الرومانية المبكرة شبيهاً بشكل لافت. فقد كانت <الإمبراطورية ذلك> المجال الذي تمتعت روما بالحقّ الشرعي في فرض القانون عليه. واليوم يسري الشرع الأميركي المعين ذاتياً عبر العالم بأسره، بما في ذلك الاتحاد السوفييتي والصين اللذان اكدت الحكومة الأميركية حقّها في إرسال طائرات عسكرية لتطلق فوق أراضيها. إنّ الولايات المتحدة، وقد حَبَّتْها <الطبيعة> بما لم تُحِبْ به غيرها من ثروات تفوق الوصف ومن تاريخ استثنائي، لتقف فوق النظام العالمي، لا ضمنه. و<إذ تشمخ> سيدهُ فائقهُ بين الأمم، فإنّها تقف مستعدة أيضاً لتكون رافعة لواء <حكم> القانون<sup>(١)</sup>.

رغم أن هذه الكلمات نشيرت عام ١٩٧٢، فإنها تصف الى درجة أكثر سلامة، <وضع> الولايات المتحدة أثناء غزو پَناما وحرب الخليج: فهي بلد يستمر في محاولة فرض أرائه في القانون والسلام عبر العالم بأسره. والمدهش في هذا الأمر لا يتمثل في محاولة تحقيقه، بل في أنها تتم بهذه الدرجة العالية من الإقرار وبتجماع شبه تام في

\* - مبدأ (أو عقيدة) مونرو: مبدأ ورد في رسالة الرئيس الأميركي جيمس مونرو الى الكونغرس عام ١٨٢٣ يحرم التدخل الأوروبي في شؤون البلدان الإسبانية - الأميركية. وأما "المصير الجليّ" Manifest Destiny فهو إيمان شاع في القرن التاسع عشر، ومؤداه أن قدر الولايات المتحدة هو التوسّع الامبريالي الى المحيط الهادي. (الناشر) \*\* - تعريب المترجم لـ globalists، وهم المؤمنون بأن العالم كله مجال للتأثير السياسي لبلدانهم. (الناشر)

فضاء عمومي شكّل كنوع من الفضاء الثقافي لغرض واضح هو تمثيله وشرحه. وفي فترات الأزمات الداخلية الحادة (ع. م: بعد حرب الخليج بسنة أو بعض السنة) يتم تعليق هذا النمط من الانتصاروية الاخلاقية ويُطرح جانباً. لكنّه مادام قائماً، فإن اجهزة الإعلام تؤدّي دوراً خارقاً في "صناعة الموافقة والتسليم" كما أسماها تشومسكي، وفي جعل الأميركي العادي يشعر بأنه يقع على عاتق "نا" نحن <الأميركيين> أن نصحح ما يقترفه العالم من اخطاء واثام، وإلى الجحيم بكل ما ينشأ من تناقضات وعدم اتساق واطراد. لقد سبقت التدخل في حرب الخليج سلسلة من التدخلات (بناما، غرنادا، ليبيا) تمت مناقشتها كلها، وإقرارُ معظمها، أو على الأقل عدم ردها، بوصفها من اختصاصنا "نحن" بحكم الحق. وبعبارة كينان: "لقد أولعت أميركا بالاعتقاد بأن كل ما ترومه هي هو بالضبط ما يرومه الجنسُ البشري برمته"<sup>(١١)</sup>.

لقد تبنت حكومة الولايات المتحدة لسنوات عديدة سياسةً ناشطة من التدخل المباشر والمعلن في شؤون أميركا الوسطى والجنوبية: فتعرضت كوبا، ونيكاراغوا، وبناما، وتشيلي، وغواتيمالا، والسلفادور، وغرنادا لهجمات على سيادتها تتراوح بين الحرب القبلية والانقلابات والتخريب المعلن، ومن محاولات الاغتيال إلى تمويل جيوش الـ "كونترا". وفي شرقي آسيا خاضت الولايات المتحدة غمارَ حربين ضخمتين، وزعتُ اندفاعاتٍ عسكرية هائلة أدت الى مقتل مئات الآلاف من البشر على يد حكومة "صديقة" (اندونيسيا في تيمور الشرقية)، وأسقطت حكومات (<كما حدث حين اسقطت حكومة مصدق في> إيران عام ١٩٥٢)، وأيدت حكومات تمارس نشاطات خارجة على القانون، منتهكة قرارات الامم المتحدة، وناقضة للسياسة <الأميركية> المعلنة (<وقد حصل هذا الانتهاك والنقض في> تركيا واسرائيل). والموقف الرسمي معظم الوقت هو أن الولايات المتحدة تدافع عن مصالحها، وتحافظ على النظام، وتضع العدالة في نصابها السليم في مواجهة الظلم وإساءة السلوك. ومع ذلك، فإن الولايات المتحدة، في حالة العراق، استخدمت مجلس الأمن الة لفرض قرارات من أجل الحرب، في الوقت الذي تجوهمت فيه أو ظلت دون تنفيذ قرارات أصدرها مجلس الأمن بتأييد من الولايات المتحدة في حالات لا حصر لها (لإسرائيل منها النصيب الأكبر)؛ وإضافة فإن الولايات المتحدة تدين باستحقاقات غير مدفوعة للامم المتحدة قدرها مئات ملايين الدولارات.

كان للادب المنشق دائماً قدرةً على البقاء في الولايات المتحدة جنباً إلى جنب مع الفضاء العمومي المركز <المشرعن>؛ ويمكن وصف هذا الأدب بأنه ضدّي معارض للاداء العام القومي والرسمي. ثمة مؤرخون تنقيحيون مثل وليم أبلمن وليمز، وغابرييل كولكو، وهوارد زين، وثمة نقاد أقوياء في الحياة العامة مثل نوعام تشومسكي، وريتشارد بازينت، وريتشارد فوك، وآخرين عديدين. وجميع هؤلاء بارزون لا كأصوات فردية وحسب بل أيضاً كأعضاء في تيار بديل ومناهض للامبريالية ذي حجم كبير داخل البلاد. وثراًفق حضورهم دوريات يسارية - تحررية <ليبرالية> من مثل الأمة <ذي نيشن> والتقليدي <ذي

\* - Manufacturing Consent عنوانُ فيلم وثائقي صدر عن ناعوم تشومسكي، وقام بتنفيذه بيتر وثنوك ومارك أشبُر. وقد صدر هذا الفيلم في كتاب عام ١٩٩٤، بعنوان فرعي إضافي هو: ناعوم تشومسكي ووسائل الإعلام. (الناشر)

بروغرسيف < وأسبوعية آي. إف. ستون > (آي. إف. ستونز ويكلي) حين كان صاحبها مايزال على قيد الحياة. ويصعب كثيراً تقدير مدى التأييد الذي تلقاه مثل هذه الآراء كما تعبر عنها المعارضة؛ فلقد كان ثمة معارضة دائماً - ويخطر ببال المرء أشخاص مناهضون للامبريالية مثل مارك توين، ووليم جيمس، ورائدولف بورن - غير أن الحقيقة التي تبعت على الاكتئاب هي أن نبرة الردع التي تمتلكها المعارضة لم تكن يوماً فعالة. إن الآراء التي عارضت هجوم الولايات المتحدة على العراق لم تستطع فعل ما يقف القوة المرعبة لذلك الهجوم أو يؤجلها أو يخففها. وكان ما حظي بالسيادة إجماعاً خارق يمثل التيار الرئيسي تضافرت منصبه فيه بلاغات الحكومة، وصناعات السياسة، والعسكري، ومدركات التفكير، ووسائل الإعلام، والمراكز الجامعية، وتلاقت على الحاجة إلى القوة الاميركية وعلى العدالة النهائية لاستخدامها. وقد توفر تاريخ عريق من <آراء> المنظرين والمسوغين المناصرين، من اندرو جاكسون الى ثيودور روزفلت وهنري كيسنجر وروبرت ديليو. تكبر، مهد الطريق لهذا الاستخدام للقوة.

ثمة تراسل قائم، لكنه في الغالب مقنع او منسي، بين الأمور التالية: المبدأ المعروف في القرن التاسع عشر باسم "المصير الجلي" (وهو <ايضاً> عنوان كتاب لجون فيسك صدر عام ١٨٩٠)، والتوسع الجغرافي للولايات المتحدة، والادبيات التسويغية الضخمة (باسم الرسالة التاريخية، او الانبعاث الأخلاقي، او توسيع امداد الحرية: وكل ذلك مدروس في كتاب البرت كي. واينبرغ الموثق توثيقاً ضخماً والصادر عام ١٩٥٨ بعنوان المصير الجلي: دراسة في التوسع القومي في التاريخ الاميركي<sup>(١٢)</sup>)، والصيغة التي تكبر دون لأي منذ الحرب العالمية الثانية حول ضرورة التدخل الاميركي ضد هذا العدوان او ذلك. ونادراً ما يفصح بجلاء عن هذا التراسل، بل إنه ليتلاشى تماماً حين تُقرع طبول الحرب العمومية وتلقى مئات الاف الأطنان من القنابل على عدو قصي ومجهول غالباً. ويثير اهتمامي ذلك التعقيم الفكري على ما نفعه "نحن" في هذه العملية، لأن من الواضح انه لا يمكن ابدأ لاية إرسالية أو مخطط إمبريالي أن ينجح في نهاية المطاف في الاحتفاظ بالتحكم بـ <مستعمرات> ماوراء البحار إلى الأبد؛ وإن التاريخ ليعلمنا ايضاً أن السيطرة تولد المقاومة، وأن العنف الكامن طبيعياً في النزاع الامبريالي - على كل ما يوجد فيه من أن لأن من إفادة وإمتاع - هو إفقار لكلا الطرفين. وهذه الحقائق تصدق وتنطبق في حقبة تاريخية مشبعة بذكريات الامبرياليات الماضية. وإن الشعوب المسيسة الآن في العالم لهمي من الكثرة بحيث يستحيل أن توجد أمة تقبل برضى حتمية أن تكون لاميركا رسالة تاريخية لقيادة العالم.

لقد أنتج مؤرخو الثقافة الاميركيون ما يكفي من الدراسات لكي نفهم منابع الدافع إلى السيطرة على نطاق عالمي، والطريقة التي بها يتم تمثيل هذا الدافع وجعله موضع قبول. يطرح ريتشارد سلوتكين، مثلاً، في <كتابه> التجدد عن طريق العنف منظومة أن التجربة المكوّنة للتاريخ الاميركي هي الحروب المديدة ضد الهنود الاميركيين الاصلايين:

• إزاء think tanks بحسب تعريب العرب، وهي المؤسسات والمجموعات والمعاهد البحثية أو الاكاديمية أو العلمية؛ وغلبت على تلك التي تمولها الحكومة [الاميركية] لـ "حل" المشكلات "المعقدة" او للتنبؤ باحتمالات عسكرية أو بخصوص سياسيين قادمين. (الناشر)



وقد أنتج هذا بدوره صورةً للأميركيين لا كمجرد قتلة (كما وصفهم دي. إتش. لورنس) بل كـ"عرق جديد من البشر، مستقلّين عن الميراث الإنساني الذي لطّخه الإنثم بالسواد، يرومون علاقةً جديدةً وأصليةً تماماً مع الطبيعة النقية كصيادين، ومستكشفين، وروادٍ، وباحثين"<sup>(١٣)</sup>. وتتكرر مثلُ هذه الصور مراراً في أدب القرن التاسع عشر، وهي تبرز بزوْعها الأشدُّ التصاقاً بالذاكرة في <رواية هرمان> ملفيل موبلي دك حيث يجسّد القبطانُ أهاب، كما طرح سي. إل. آر. جيمس وفي. دجي. كيرنان من منظورٍ لأميركي، تمثيلاً ترميزياً <اليغوريا> للبحث الأميركي الكوني؛ فأهَاب مهووس، يفرض نفسه بقوة، لا يُصدِّد، ملغح تماماً بتبريراته النظرية الشخصية وبإحساسه برمزيته الكونية<sup>(١٤)</sup>.

ما من أحدٍ يودُ أن يقلصَ عملَ ملفيل العظيم إلى مجرد زخرفة أدبية لأحداثٍ <وقعت> في العالم الحقيقي؛ وإلى جانب ذلك، فإنَّ ملفيل نفسه قد اتخذ موقفاً نقدياً جداً ممّا كان أهَاب يدبّره كأميركي. ومع ذلك، فحقيقة الأمر هي أنّ الولايات المتحدة قد قامت نعلًا بالتوسع الجغرافي في القرن التاسع عشر، وقد فعلت ذلك في الغالب على حساب السكان الأصليين، واكتسبت مع مرور الزمن هيمنةً على قارة أميركا الشمالية والأراضي والبحار المتاخمة لها. وقد امتدت تجاربُ <أميركا> في عبور سواحلها في القرن التاسع عشر من سواحل شمالي أفريقيا إلى الفيليبين، والصين، وهاواي وامتدت، بالطبع، عبر الكاريبي وأميركا الوسطى. وكانت النزعة العامة هي التوسع ونشر السيطرة إلى آماذ أبعد، دون إضاعة كثير من الوقت في التأمل في كرامة "الأخرين" واستقلالهم - الآخرين الذين كان وجودُ الولايات المتحدة بالنسبة لهم في أفضل الحالات نعمةً ممزوجةً بالنعمة.

ثمة مثل خارق للعادة، بيد أنه نمطيٌ مع ذلك، على التصلبُ الإرادي الأميركي، وهو العلاقة بين هاييتي والولايات المتحدة. فمنذ اللحظة الأولى تقريباً التي نالت هاييتي فيها استقلالها كجمهورية سوداء عام ١٨٠٣، نزع الأميركيون - تبعاً لقراءة دجي. مايكل داش للأمور في كتابه هاييتي والولايات المتحدة: التمنيّات القومية والخيال الأدبي - إلى تخيل هاييتي فضاءً فارغاً بوسعهم أن يصبوا فيه ما لديهم من أفكار. فقد نظر الإلغانيون <الذين كانوا يدعون إلى إلغاء الرقيق>، كما يقول داش، إلى هاييتي لا كمكان له كرامته وشعبه الخاصان به، بل كمكان ملائم لإعادة توطين العبيد المحرّرين. وفي زمن تال غدت الجزيرة وسكانها تجسّداً للانحلال وتجسّداً - بالطبع - للدونية العرقية. ثم احتلت الولايات المتحدة الجزيرة عام ١٩١٥ (كما احتلت نيكاراغوا عام ١٩١٦) وأرست قواعدَ حكم طغيانٍ أصلائي أدى إلى تفاقم بؤس وضع كان بالغ البؤس من قبل<sup>(١٥)</sup>. وفي ١٩٩١ - ١٩٩٢، حين حاول آلاف الهايتيين اللاجئين الدخول إلى فلوريدا، أعيد معظمهم إلى بلدهم مرغمين.

قلّة هم الأميركيون الذين تمرّقت نفوسهم أسىً على امكنة مثل هاييتي أو العراق لحظة انتهت الأزمة أو انتهى تدخلُ بلدهم تدخلًا فعلياً. وإنه لمن الغريب بحق أنّ السيطرة الأميركية، رغم مداها الجاربي بين القارات وعناصرها المتنوعة تنوعاً أصيلاً، هي سيطرة عزلوية جُزئية. ليس لدى النخبة الصانعة للسياسة الخارجية <الأميركية> إرثٌ عريق من ممارسة الحكم المباشر عبر البحار، كما كانت الحال بالنسبة للبريطانيين والفرنسيين، ومن

هنا فإن الاهتمام الأميركي يعمل بانبثاقات مفاجئة: فتُقدِّق كتلٌ عظيمة من البلاغيات وأقدار ضخمة من الموارد والإمكانات على مكان ما (فبييتنام، ليبيا، العراق، بناما)، ثم يتلوها صمّتٌ مطبق. هوذا كيرنان من جديد قائلاً: "إذ كانت القوة المهيمنة الجديدة أكثر تشعباً وتنوعاً من الامبراطورية البريطانية، فإنها كانت أقل منها قدرةً على إيجاد برنامج عمل متناسق سوى النفي الغيبي العنيد عناد الثيران. ومن هنا استعدادها لتترك الأمر لمدراء الشركات او العملاء السريين لوضع الخطط لها"<sup>(١٦)</sup>.

ومع التسليم بأنّ التوسع الأميركي هو بالدرجة الأولى توسعٌ اقتصادي، فإنه مع ذلك يعتمد اعتماداً كبيراً على أفكار وعقائديت ثقافية حول أميركا نفسها، ويتحرك ملازماً لها ومحمولاً عليها؛ وهي أفكار وعقائديت يعاد تقويرها علناً دونما لأي. ويذكرنا كيرنان محقاً أنّ النظام الاقتصادي، مثل الأمة أو الدين، لا يحيا بالخبز وحده، بل بالمعتقدات، والرؤى، وأحلام اليقظة أيضاً، وقد لا تكون هذه الأمور أقل حيوية له لـ **<مجرد>** كونها ضليعة<sup>(١٧)</sup>. إن الانتظام الذي به تُنتج أجيالاً متلاحقة الخطط، أو العبارات أو النظريات التي تسوّغ المسؤوليات الخطيرة للامتداد الأميركي على مدى الكرة الأرضية، ليملك نوعاً من الرقابة المملة. وإنّ دراسات جادة قام بها أميركيون حديثاً لترسم صورة كالحة للكيفية التي بها كانت معظم تلك المواقف والسياسات التي تولدت عنها مبنيةً على ما يكاد يكون سوء تفسير وجهلاً صفيقاً لا تفرّج عنهما سوى الرغبة في السيادة والسيطرة، وهي ذاتها رغبةً تطبعها أفكارٌ عن الطبيعة الاستثنائية لاميركا. وإن العلاقات بين الولايات المتحدة ومحاورها من بلدان المحيط الهادي والشرق الأقصى مثل الصين، واليابان، وكوريا، والهند الصينية، لمفعم بالتحيز العرقي، وباندفاعات من الاهتمام مباحثةً وغير معدةً نسبياً تتلوها ضغوطاً هائلة تمارسُ على ما يناهز آلاف الأميال، جغرافياً وفكرياً، عن حياة الغالبية العظمى من الأميركيين. وحين نأخذ بعين الاعتبار الكشوفَ البحثية التي قام بها أكيري إيري، وماساو ميوشي، وجون داور، ومارلين ينغ، فإننا ندرك أنه كانت هناك درجة عالية من سوء الفهم للولايات المتحدة لدى هذه الدول الآسيوية، غير أن هذه الدول لم تقم - باستثناء المثال الياباني المعقد - باختراق القارة الأميركية والولوج فيها.

بوسع المرء أن يرى هذا الانعدام الخارق للتناظر في درجته القصوى مع بزوغ إنشاء التنمية والتحديث (وسياساتهما) في الولايات المتحدة، وهو واقع عالجه غراهام غرين في روايته الأميركي الهادئ، كما عالجه بدرجة أقل براعةً في الفهم إلى حد ما كل من ليدرر ويوردك في كتابهما الأميركي البشع. لقد وُزعت ترسانةً تصويريةً مذهلة بحق - تضم نظريات عن المراحل الاقتصادية، والأنماط الاجتماعية، والمجتمعات التقليدية، وتحولات النظم، والتهدئة المحيطة pacification، والتعبئة الاجتماعية، وما شابه ذلك - واستخدمت عبر العالم بأسره؛ وتلقّت الجامعات ومدرعات التفكير مبالغٌ ضخمة من الدعم الحكومي لتقصي هذه الأفكار التي استحوز العديد منها على اهتمام الاستخطاطيين وخبراء السياسة داخل حكومة الولايات المتحدة (أو على مقربة منها). ولم يول الدارسون ذور المواقف النقدية هذا الأمر اهتماماً حتى نشوب التعلل الشعبي العظيم ضد حرب فيتنام، لكن النقد عندئذ، وللمرة الأولى تقريباً، غدا مسموعاً لا لسياسة الولايات المتحدة في الهند الصينية وحسب بل للمقدمات المنطقية الامبريالية لوجهات النظر الأميركية بإزاء آسيا. ويمثّل كتابُ إيرين جندزير إدارة التغيير السياسي : علماء الاجتماع والعالم

الثالث<sup>(١٨)</sup> مسرداً مقنعاً لإنشاء التنمية والتحديث يستغل استغلالاً ناجعاً التنقيد المضاد للحرب. وتكشف المؤلفة كيف أن الاندفاع غير المحصن نحو بلوغ أمد الكون قد أدّى إلى نزع التسييس عن مجتمعات ماوراء البحار، وإلى الحط من كرامتها وتكاملها، بل إلى تدميرها أحياناً، وهي مجتمعات كانت تبدو بحاجة إلى التحديث وإلى ما أسماه والت ويتمن روستو "الإقلاع الاقتصادي".

ورغم أن تحديدات الخصائص هذه ليست متقصيةً مستوفيةً، فإنها في ظني تصف بدقة سياسة عامة تتمتع بسلطة اجتماعية كبيرة، خلقت ما أسماه دي. سي. إم. پلات في السياق البريطاني "وجهة نظر دوانرية" departmental view. فلقد حدّد الجامعيون البارزون الذين قامت جندزبير بتحليلهم - من مثل هنتنغتون، وپاي، وفيربا، وليرنر، ولاسول - جدول الأعمال الفكري ومنظورات القطاعات ذات التأثير داخل الحكومة وفي البيئة الجامعية. ولقد تمت معانئة التخريب، والقومية الجذرية، والحجج التي يقدمها السكان الاصلانيون دفاعاً عن فكرة الاستقلال - وهي جميعاً ظواهر لعملية فكفكة الاستعمار ولعقاييل الامبريالية التقليدية - من منظور خطوط الإرشاد التي صاغتها الحرب الباردة. وكان لا بد من تخريبها أو استيعابها <تمثلها>؛ وقد تطلبت، في حالة كوريا والصين وفييتنام، التزاماً متجدداً بحملات عسكرية باهظة التكاليف. ويوحى التحدي الظاهري للسلطة الاميركية في حالة كوبا بعد <سقوط> باتيستا، وهي حالة تكاد تثير القهقهة، بأن ما كان موضع رهان ومجازفة لم يكن الأمن أبداً بل الإحساس بأن الولايات المتحدة لن تقبل في المجال الذي قامت هي بتحديدته لنفسها (وهو نصف العالم) أي تطاول أو تحدّ عقائدي مدعّم مستديم لما اعتبرت أنه "الحرية".

إن هذه التوأمة للقوة والشرعية، وإحدهما قوة تعمل في عالم السيطرة المباشرة، والثانية في المجال الثقافي، أسمة من سمات الهيمنة الامبريالية التقليدية. أما اختلافها في القرن الأميركي فيكمن في القفزة الهائلة في المدى الذي تصله السلطة الثقافية، الى حد كبير بفضل النمو الذي لا سابق له في أجهزة نشر المعلومات والتحكم بها. إن وسائل الإعلام، كما سنرى، ذات أهمية مركزية بالنسبة للثقافة المحلية. وفيما كانت الثقافة الأوروبية قبل قرن من الزمان ترتبط بحضور الرجل الأبيض، بل بحضوره الفيزيائي الطاغية طغياناً مباشراً (والذي كان لذلك قابلاً للمقاومة)، فإننا الآن نشهد إضافة إلى ذلك حضوراً لوسائل إعلام عالمية تدس نفسها، في مستوى ما تحت الإدراك الواعي غالباً، على مدى عريض عرضاً خارقاً. إن عبارة "الامبريالية الثقافية" التي جعلها جاك لانغ دارجة بل ورائجة <رواج الأزياء>، تفقد بعض معناها حين تُطبّق على وجود مسلسلات تلفازية مثل دايونستي\*\* ودالاس في، لنقل، فرنسا أو اليابان، لكنها تغدو ذات علاقة وثيقة من جديد، حين تعاین من منظور كوني.

وأقرب شيء إلى مثل هذا المنظور هو ما قدّم في التقرير الذي نشرته "اللجنة العالمية لدراسة مشكلات التواصل" والتي شكّلت بتوصية من اليونسكو وترأسها شون ماكبرايد:

\* - رئيس كوبا بين ١٩٤٠ و ١٩٤٤، ثم بين ١٩٥٢ و ١٩٥٩، قبل أن يطيح به فيديل كاسترو. (الناشر)

\*\* وهي السلسلة المعروفة في لبنان (وربما في غيره من الاقطار العربية) بـ "المال والسلطة". (الناشر)

اصوات كثيرة، وعالم واحد (١٩٨٠) وعالج ما أسمى بالنظام المعلوماتي العالمي الجديد<sup>(١٩)</sup>. لقد قُذِفَ ضد هذا التقرير ركامٌ ضخْمٌ، كان في الأغلب غير ذي علاقةٍ بالكتاب، من كلام التحليل الغاضب والهجوم، وصدر في معظمه عن صحفيين وحكماء أميركيين صالحين لكل الأغراض يقرعون "الشيوعيين" و"العالم الثالث" لمحاولتهم تكبيل ديمقراطية الصحافة، والتدفق الحر للأفكار، وقوى السوق التي تمنع شكلاً محدداً لصناعات الاتصالات البعيدة والصحافة والمحساب <الكومبيوتر>. لكن أسرع النظرات لحأ إلى تقرير ماكبرايد تكفي لتكشف أنه ليس صحيحاً فقط أن أعضاء اللجنة لم يقدموا توصياتٍ بطول ساذجة من مثل فرض الرقابة، بل الصحيح أيضاً أن قدرأ كبيراً من الشك كان يعتمل في نفوس معظمهم في إمكانية القيام بالكثير مما يمكن أن يحقق التوازن والإنصاف في النظام الفوضوي العالمي للمعلومات. ولقد أقر كِتَابٌ لم يكونوا بأنفسهم متعاطفين كليةً مع التقرير، مثل انطوني سميث في جغرافيات المعلومات، بخطرورة القضايا المثارة:

إن تهديد الإلكترونيات الجديدة للاستقلال في أواخر القرن العشرين قد يكون أعظم مما كانه الاستعمارُ نفسه. لقد بدانا حديثاً نتعلم أن فكفكة الاستعمار ونمو ما فوق القومية <supra-nationalism>\* لم يكونا إنها؛ للعلاقات الامبريالية بل مجرد توسيع لنسج عنكبوتي جغراسي <جيوبوليتيكي> ما يزال ينغزل منذ عصر النهضة. إن وسائل الإعلام الجديدة تمتلك قوةً أخطرأ إلى أعماقٍ أكثر غوراً في ثقافةٍ مستقبلية <مُتلقية> مما امتلكتها أية تجليات سابقةٍ للتقنية الغربية. وقد تكون نتائج ذلك عصفاً من الفوضى هائلاً، ورفعاً لحدة التوتر في التناقضات الاجتماعية داخل المجتمعات المتنامية اليوم<sup>(٢٠)</sup>.

لم ينف أحد أن مالك القوة العظمى في هذا التشخص هو الولايات المتحدة، سواء اكان ذلك لأن حفنة من الشركات الأميركية العاملة عبر البلدان تسيطر على تصنيع الأخبار التي تعتمد عليها معظم أنحاء العالم، وعلى توزيعها، وتسيطر فوق كل شيء، على اختيارها (بل إن صدام حسين <نفسه> فيما يبدو اعتمد على سي. إن. إن. مصدرأ لأخباره)، أم لأن التوسع الذي لا يلقى معارضةً فعليةً في مختلف أشكال التحكم الثقافي التي تتبع من الولايات المتحدة قد خلَقَ آليةً جديدةً للاحتواء والتدميج والتبعية لا يتم بها إخضاع وإرغام جمهورٍ متلقٍ أميركي داخلي فقط بل ثقافاتٍ أصغر وأضعف أيضاً. ولقد أدى بعضُ العمل الذي قام به منظرون ذوو موقف نقدي - وبشكل خاص مفهوم هربرت ماركوزه عن المجتمع ذي البعد الواحد، وصناعة الوعي عند أدورنو وإنزنسبيرغر - إلى كشف طبيعة المزيج من القمع والتسامح اللذين استُخدما أداتين من أدوات التهدئة والإخضاع الاجتماعيين في المجتمعات الغربية (وهي قضايا كان قد عالجه قبل جيل من الزمن كِتَابٌ مثل جورج أورول، والدمس هكسلي، وجيمس بورنهم)؛ إن تأثير امبريالية وسائل الإعلام الغربية، والاميركية خاصة، على بقية العالم ليدعمُ النتائج التي توصلت إليها لجنة ماكبرايد، كما يدعمُ أيضاً النتائج البعيدة الأهمية التي توصل إليها جورج شيلر وأرماند ماتلارت عن ملكية وسائل إنتاج الصور، والأخبار، والتمثيلات، وتوزيعها<sup>(٢١)</sup>.

لكن وسائل الإعلام تكون فعالةً قبل أن ترحل إلى الخارج - إذا جاز التعبير -، وذلك من خلال تمثيل ثقافاتٍ اجنبية غريبة ومهددةٍ للجمهور المحلي، ونداراً ما فاق نجاح هذه

\* أي النزعة أو السياسة التي تتخطى الحدود أو السلطة القومية.

الوسائل في خلق شهوة للعداوة والعنف ضد هؤلاء "الأخرين" الثقافيين ما حققته أثناء أزمة الخليج وحرب الخليج في ١٩٩٠-١٩٩١. لقد كان من عادة بريطانيا وفرنسا في القرن التاسع عشر أن ترسلا حملات عسكرية لقتل الأصلانيين بالقنابل - "بيدو"، كما يقول مالرو <شخصية رواية قلب الظلام لـ كونراد إذ يبلغ أفريقيا، أن الفرنسيين كانوا يشنون إحدى حروبهم في مكان ما قريب... في الفراغ الهائل للأرض، والسماء، والمياه، كانت [سفينة حربية فرنسية]، عصية على الفهم، تطلق النار إلى قارة. بم بم، ينفجر صوت مدفع من مدافع الست بوصات - وأما الآن فإن الولايات المتحدة هي التي تفعل ذلك. تأمل الآن كيف جُعِلت حرب الخليج أمراً مقبولاً > في الغرب أو الولايات المتحدة>: في منتصف كانون الأول ١٩٩٠ حدثت مناظرة محدودة المجال على صفحات وول ستريت جورنل والنيويورك تايمز: كارن البيوت هاوس من الجريدة الأولى ضد انتوني لويس من الجريدة الثانية. وكانت أطروحة هاوس أن الولايات المتحدة ينبغي ألا تنتظر العقوبات الاقتصادية لتفعل فعلها، بل عليها أن تهاجم العراق <فوراً>، لكي تبرز صدام حسين خاسراً بجلاء تام. وقد أبرز رد لويس في بيئته نصيبه المعتاد من المعقولة وحسن النية التحرري <الليبرالي>، وهما خلتان جعلتا متميزاً بين كتاب الأعمدة من المعلقين الأميركيين البارزين. كان لويس قد أيد استجابة جورج بوش البدئية ضد غزو العراق للكويت، لكنه شعر بعد ذلك بأن احتمالات الحرب المبكرة غدت عالية، وأنها ينبغي أن تقاوم. ولقد تركت أثراً عميقاً على موقفه حجج شخص عُرف بأنه صقر من الدرجة الأولى هو بول نيتز، الذي كان يقول إن تشكيلة كبيرة من الكوارث ستحدث إذا حدث هجوم أميركي بري في الخليج، وإن على الولايات المتحدة أن تنتظر، وأن تضاعف الضغوط الاقتصادية والديبلوماسية، وإن الدعوة إلى شن حرب متأخرة بعد ذلك كله قد تصبح معقولة في الظاهر. بعد ذلك بأسبوعين ظهر الخصمان معاً في <برنامج> ساعة أخبار ماكنيل/ليبرز - وهو برنامج ليلي <يُعرض كل ليلة ما عدا يومي عطلة الأسبوع> على مدى الولايات المتحدة ويتيح المجال للمناقشة والتحليل المفصلين - ليُسرّحاً موقفيهما السابقين. وأن يراقب المرء تلك المناظرة كان أن يشهد فلسفتين متعارضتين منخرطتين في مناقشة جادة في لحظة حساسة من التجربة القومية <الأميركية>. لقد بدت الولايات المتحدة متاهة، مستوزعة، للحرب: وهاهوذا ما للحرب وما عليها يصاغ بفصاحة ضمن الفضاء العمومي المركز: <وهو> برنامج إخباري ليلي يعرض في جميع أنحاء الولايات المتحدة.

ولما كان كل من هاوس ولويس واقعيين، فقد قبل المبدأ القائل بأن علينا "نحن" - وهذا الضمير يُحصّن، أكثر من أية كلمة أخرى تقريباً، الإحساس الوهمي إلى حد ما بأن الأميركيين كلهم، من حيث هم مشاركون في ملكية الفضاء العمومي، يشاركون في القرارات <المتخذة> لانخراط أميركا في تدخلاتها الأجنبية النائية - أن تكون في الخليج، لنقوم بتنظيم سلوك الدول، والجيش، والشعوب التي تقع على بعد عشرات الآف الأميال عنا. لم يكن البقاء القومي على قيد الحياة موضع سؤال، ولم يرد له ذكر في المناظرة إطلاقاً. لكن دار كلام كثير على المبادئ، والأخلاق، والحق؛ وتحدث المتناظران كلاهما عن القوة العسكرية بوصفها في متناول أيديهما تقريباً، لنشرها، واستخدامها، وسحبها بالصورة الملائمة: وفي كل ذلك كانت الأمم المتحدة تبدو في أحسن الحالات مجرد امتداد

لسياسة الولايات المتحدة. وقد كانت تلك المناظرة بالذات مثيرةً للكآبة والضيق لأن كلا الخصمين كان شخصاً مرموقاً، ولم يكن أيُّ منهما من الصقور الذين يمكن التكهن بما يعتقدونه (كما هي حال هنري كيسنجر الذي لم يُصَبَّ بالكلل أبداً من <الدعوة إلى إنزال> "الضربات الجراحية") ولا من خبراء الأمن القومي (من مثل زيبغنيو بريجنسكي الذي عارض الحربَ بحويةٍ على أسس جغرافية <جيوبوليتيكية> خالصة).

في عُرْف كلِّ من هاوس ولويس أن أفعالنا كانت جزءاً من الميراث المفترض من الأفعال الأميركية في العالم الواسع كله، حيث قامت أميركا بالتدخل <في شؤون البلدان الأخرى> قرنين كاملين ويعواقب كثيراً ما كانت مدمرة، لكنها أُسْلِمَت للنسيان بمكرورية رتيبة. ونادراً ما وَرَدَ ذكرٌ للعرب في تلك المناظرة بوصفهم ذوي علاقةٍ ما بالحرب، كضحايا لها، مثلاً، أو (بقدره مكافئة على الإقناع) كمُضْرَمين لها. وتشكل لدى المرء انطباعٌ بأنَّ على الأزمه أن تعالجَ كلياً في حنايا الذات، ككشأن داخلي من شؤون الأميركيين. وكان الاندلاغُ الوشيك، بالاحتمالات الجلية والأكيدة للدمار المرعب <الكامنة> فيه، نائياً؛ ومن جديد لم يتعرض الأميركيون لنوازله - باستثناء العدد (الضئيل جداً) من أكياس الجثث الوافدة والعائلات المفجوعة. وهكذا أضفت الطبيعةُ التجريديةُ على الموقف برودةً ووحشية.

ولقد وجدتُ ذلك كله، لكوني أميركياً وعريبياً عاش في كلا العالمين، مَصْدراً لقلق وإزعاج خاصين، لأسباب ليس أقلها أن الصَّدَام بدا كلياً، شاملاً على مستوى كوني؛ ولم يكن ثمة من طريقةٍ لنلا يكون المرءُ منخرطاً فيه. لم يحدث من قبل، أن توقّذتُ أسماء تشير الى العالم العربي أو إلى مكونات منه يميناً وشمالاً إلى هذا الحد؛ ولم يحدث أن كان لها معانٍ تجريديةً وتصغيريةً حتى الغرابة بقدر ما كان لها آنذاك، ونادراً ما رافقتُها أية درجة من التقدير أو العناية والمبالاة، رغم أن الولايات المتحدة لم تكن في حرب مع جميع العرب. لقد أثار العالمُ العربي في النفوس السحرَ والاهتمامَ، لكنه ضنُّ عليها بالموءة أو المعرفة المتحمسة والخاصة. فليس ثمة، مثلاً، فئة ثقافية رئيسية <في العالم> كانت (وماتزال) المعرفةُ بها ضئيلة ضالّة المعرفة بالعرب: وإن حدث أن سأل المرءُ أميركياً مواكباً للرواية والشعر القريببي العهد عن اسم كاتبٍ عربي، فقد يكون الاسم الوحيد الذي ما يزال يحضره هو <جبران> خليل جبران. كيف يمكن أن يوجد هذا القدرُ الكبير من التفاعل على مستوى أوّل، وذلك القدرُ الضئيلُ جداً من الفعلية والواقع على مستوى آخر؟

والصورة، من وجهة النظر العربية، مشوهةٌ ملتويةٌ إلى الدرجة نفسها. فحتى الآن لا يكاد يوجد أدبٌ باللغة العربية يصوّرُ الأميركيين؛ والاستثناءُ الأكثر تشويقاً هو سلسلة عبد الرحمن منيف الروائية الضخمة، مدن الملح<sup>(٢٢)</sup>، غير أن كتبه ممنوعة في عدد من البلدان، وقد قام بلده الأم، المملكة العربية السعودية، بإسقاط الجنسية عنه. وبحسب معرفتي، فليس هناك بُعدٌ في العالم العربي معهدٌ أو دائرةٌ جامعية بارزة غرَضُها الرئيسي دراسة أميركا، رغم أن الولايات المتحدة هي - بما لا يقاس - أكبرُ القوى الخارجية الفاعلة في العالم العربي المعاصر وأكثرها أهمية وتأثيراً. إن بعض الزعماء العرب الذين يقضون حياتهم في التنديد بالمصالح الأميركية يُنفقون طاقاتٍ كبيرةً أيضاً في السعي لإدخال أبنائهم إلى الجامعات الأميركية وفي تدبير حصولهم على البطاقة الخضراء <الأميركية>.

وما يزال من الصعب أن يُوضَّح المرءُ لأبناء جنسه من العرب، بمن فيهم أولئك الذين اكتسبوا درجةً عاليةً من التعليم والخبرات، أنَّ السياسةَ الخارجيةَ للولايات المتحدة لا تديرها في الواقعِ <وكالةُ الاستخبارات المركزية> السّي. آي. أي. لو مؤامرة، أو شبكةً خفيةً شبيهةً من الوسطاء الكبار ذوي العلاقات النافذة؛ وإنَّ كلَّ مَنْ أعرَفهم تقريباً يؤمنون بأنَّ الولايات المتحدة تخطُّ عملياً كلَّ حدثٍ ذي أهميةٍ في الشرق الأوسط بما في ذلك، تبعاً لاقتراحٍ محيّرٍ مدوَّخٍ للعقل كاشفني به أحدُهُمْ مرةً، الانتفاضةَ الفلسطينية.

يسود هذا المزيجُ المستقر من المألوفية الطويلة (التي يصفها وصفاً جيداً جيمس فيلد في كتابه أميركا والعالم المتوسطي<sup>(٢٣)</sup>)، والعدائية، والجهل لدى كلا طرفي <هذه المواجهة، وهي > مواجهة ثقافية معقدة، غير متكافئة، وحديثة العهد نسبياً. لقد كان الشعور الكاسح الذي أحس به المرء أيام عملية عاصفة الصحراء هو الحتمية، كأنما كان سندراً على ما أعلنه الرئيس بوش من حاجةٍ إلى النزول إلى هناك ومن حاجةٍ (بعاميته الرياضية الخاصة) إلى <رُكِّل قفا > صدام حسين< أن تصطدم بتعبير صدام حسين الجلف القاسي عن الحاجة العربية في مرحلة ما بعد الاستعمار إلى مجابهة الولايات المتحدة، والانبراء للردِّ عليها، والوقوف أمامها بعين ثابتة لا يطرف لها جفن. وبكلمات أخرى، فإنَّ البلاغة العمومية لم تجد لها رادعاً، ولم يعقدها أيُّ اعتبارٍ للتفاصيل الواقعية والأسباب والناتج. على مدى عقد كامل من الزمان على الأقل، كانت أفلامٌ عن المفاوير الأميركيين قد نصَّبت <رامبو> ضخماً\* أو دلتا فورس معجزةً في مقدراتها التكنولوجية، في مواجهةٍ مع إرهابيين - مجرمين عرب/مسلمين ينهشهم اليأس نهشاً؛ وفي ١٩٩١ بدا وكأن نية تكاد تكون ماورائية لاجتياح العراق واجتثائه قد انبثقت إلى الوجود، لا لأنَّ ما اقترفه العراق - رغم كونه جلالاً - كان كوارثياً، بل لأنَّ بلدأ صغيراً غير أبيض أزعج أو اغاظ أمةً عظمى، مشحونةً فجأةً بالحيوية، منفوخةً بحمياً لا يرضيها إلا أن يُدعَنَ لمشيئتها ويخضعَ لها <الشيوخُ> والطفأةُ وفرسانُ سباق الجمال. أما العرب المقبولون بحق فلن يكونوا إلا أمثال أنور السادات الذين يبدون مطهرين تماماً تقريباً من ذاتهم القومية المزعجة والذين قد يصبحون، تبعاً لذلك، ضيوفاً على برامج الأحاديث <التلفزيونية والإذاعية> الشعبية.

تاريخياً، كانت وسائلُ الإعلام الأميركية، بل ربما الغربية عموماً، امتداداً حواسياً للسياق الثقافي الرئيسي. وما العرب إلا مثالٌ مخفَّفٌ حديث العهد لـ <آخرين> انصبَّ عليهم جامٌ غضبٍ رجلٍ أبيض صارم، هو نوع من الأنا الأعلى الطهوري <البيوريتاني> الذي لا يعرف ارتحاله إلى البراري حدوداً بل يمضي إلى أقصى الأماد من أجل أن يُثبِت نقطةً أو وجهةً نظر له. ومع ذلك، بالطبع، فقد كانت لفظة <الامبريالية> غائبةً غياباً باهراً عن مكونات المناقشات الأميركية للخليج. فـ <في الولايات المتحدة>، كما يقول المؤرِّخ ريتشارد دبليو. فان الستين في الامبراطورية الأميركية الصاعدة، <فإنَّه مما يقارب الهرطقة أن يصف أحدُ الأمةِ بأنها امبراطورية><sup>(٢٤)</sup>. ومع ذلك فإنه يُظهر أنَّ المؤسسين الأوائل، وبينهم جورج واشنطن، قد وسَّمو البلادَ بأنها امبراطورية، ذاتُ سياسةٍ خارجيةٍ مرتتبةٍ على ذلك

\* Rambo، كما هو معروف لدى متبعمي أفلام العنف الأميركية، بطلٌ صنيدي أمريكي يواجه <الشيوعية> والإرهاب ويُقتد الأسرى والنساء والأحرار بقوةٍ ساعديه وذكائه. وقد جسَّد هذه الشخصيةَ المثلُّ سيلاستر ستالون. (الناشر)

نددت بالثورات وروجت للنمو الامبريالي. وقد اقتبس «الستين» رجل دولة بعد آخر يقدمون الحجج على أن البلاد هي، بعبارة رايנהولد نيبوهلر اللاسعة، «إسرائيل الرب الأميركية»، التي كانت «رسالتها» أن تكون «الأمين الراعي لحضارة العالم تحت إشراف الرب». ولذلك كله فقد كان من الصعب ألا يسمع المرء أصداءً ذلك الإسباغ الذاتي المطنطن الفخيم نفسه أثناء حرب الخليج «الثانية». وإذا بدا الانتهاك العراقي في الواقع متنامياً أمام ابصار الأمة الجماعية، فإن صداماً تحول إلى «هتلر»، وإلى «سفاح بغداد»، وإلى «المجنون» (كما وصفه السناتور الن سمپسون) الذي ينبغي أن يُقذف إلى الحضيض.

لعل كل من قرأ هوبي دك قد أحس باغراء لايقاوم ليستنتج «استقرارياً» من هذه الرواية العظيمة ما يصدق على أمور في العالم الحقيقي، ويرى الامبراطورية الاميركية أخذة بالتأهب من جديد، مثل «أهاب» للإقلاع خلف شر مزعوم. وتبرز، أولاً، الإرسالية الأخلاقية غير المحصنة، ثم يبرز، في وسائل الإعلام، امتدادها العسكري-الجغرافي-الاستخطاطي. ولقد كان أكثر ما يثبُط الهمة، فيما يتعلق بوسائل الإعلام - علاوة على كونها تبعت كالأخراف الأنموذج السياسي للحكومة، مستنفرة ومعبئة «الناس» للحرب منذ البداية - متاجرتها بمخزون الموروث المعرفي لـ «خبراء» الشرق الأوسط، الذين يفترض أنهم على معرفة جيدة بالعرب. كل الطرق تؤدي إلى البازار؛ العرب لا يفقهون سوى «لغة» القوة؛ الغضاة والعنف جزء من الحضارة العربية؛ الإسلام دين لامتسامح، تفرقي، قروسطي، متعصب، فظ لا يرحم، معادٍ للمرأة. ولقد حُدد السياق، والإطار، والمشهد لأي مناقشة، بل إنها في الواقع قد جُمُدت، بهذه الأفكار. وإذا أن قدرنا من المتعة كبيراً، لكنه عصي على التفسير، في انتظار أن يُجتني من احتمال أن يكون «العرب»، كما يمثلهم صدام، على وشك أن يلقوا أخيراً ما يستحقونه من جزاء. وسوف تتم تسوية حسابات عديدة مع أعداء للغرب شتى قديماً: الفلسطينيين، والقومية العربية، والحضارة الإسلامية.

كان ما أغفل هائل القدر. إذ لم يُنشَر إلا النزر اليسيرُ عن أرباح شركات النفط، أو عن كون قفز أسعار النفط غير ذي علاقة كبيرة بالعرض والتزويد؛ استمر إنتاج النفط بكميات فائضة. ولم يُصنَّ أحدٌ إلى دعوى العراق ضد الكويت، أو إلى طبيعة الكويت نفسها - وهي تحررية «ليبرالية» في بعض الجوانب، ولاتحررية في بعضها الآخر. ولم يُقلَّ أو يُحلَّل إلا القليلُ عن تواطؤ ورياء دول الخليج، والولايات المتحدة، وأوروبا، والعراق، معاً أثناء الحرب الإيرانية - العراقية. ولقد راجت آراءٌ حول أمور كهذه بعد الحرب بزمان طويل، كما، في المقالة التي كتبها ثيودور دريبر في ال نيويورك ريفيو أف بوكس (١٦ كانون الثاني، ١٩٩٢) والتي اقترح فيها أن قدرنا ما من الاعتراف بشرعية دعوى العراق ضد الكويت كان يمكن، لو تم، أن يدرأ الحرب. لقد بدَّلت حفتة صغيرة من الباحثين جهوداً لتحليل الالتفاف الشعبي لبعض العرب حول صدام، رغم عدم جاذبية حكمه، غير أن تلك الجهود لم تكامل داخل النبرات المغربة الغربية للسياسة الاميركية، ولم تُمنَح من الوقت قدرماً مساوياً لتلك النبرات في هذه السياسة التي قامت لبعض الزمن بالترويج لصدام حسين وإعلاء شأنه، ثم أبلستته، وبعد ذلك تعلمت كيف تتعايش معه من جديد.

إنه لأمر مثير للعجب وعرض عميق الدلالة من أعراض نزاع الخليج أن إحدى الألفاظ التي دارت على الألسنة وتكرَّر التلفظ بها حتى الإملال، لكنها ظلت رغم ذلك دونما تحليل،



هي لفظة "الارتباط" linkage، وهي بدعة لغوية بشعة يبدو أنها اخترعت رمزاً للحق الأميركي غير المحص في تجاهل أجزاء جغرافية كاملة من المعمورة أو إدراجها ضمن اعتبارات <أميركا>. فلم تعن كلمة "الارتباط" اثناء أزمة الخليج وجود علاقة بين أمور هي في الحقيقة ذات انتماء واحد بالترابط المشترك، والحس، والجغرافيا، والتاريخ... وإنما عنت عدم وجود مثل هذه العلاقة. ولقد مُرِّتْ هذه الأمور إرباً إرباً، وتُرِّتْ منفصلة على سبيل التسهيل، والمنفعة المتغطرسين المتأبطرين من صانعي السياسة الأميركية، وواضعي الاستخطاطيات العسكرية، وخبراء المناطق <من المتخصصين الجامعيين>. وإذا كُتْلُ أمرٍ يقطع شرائح اللحم لنفسه، كما قال جوناثان سويفت. أما ان الشرق الاوسط متواشج داخلياً بالوان الوشائج كلها، فقد كان ذلك أمراً غير علانقي. وأما ان العرب قد يرون علاقة ما بين <وجود> صدام في الكويت، ووجود تركيا في قبرص، مثلاً، فذلك أيضاً أمرٌ بلا جدوى. وأما أن سياسة الولايات المتحدة نفسها كانت احد الارتباطات، فقد كان ذلك أمراً محرماً، وبشكل اخص على فقهاء الخبراء الذين كان دورهم ان يدبروا أمر إقرار الشعب للحرب رغم انه في واقع الأمر لم يظهر إلى الوجود أبداً.

كانت المقدمة المنطقية استعمارية باكملها: وهي ان ديكتاتورية صغيرة من العالم الثالث، غذاها الغرب وساندها، لم تكن تملك حق ان تتحدى أميركا، التي هي بيضاء ومتفوقة. لقد قُتِبَتْ بريطانيا الجنود العراقيين في ١٩٢٠ ات لأنهم تجرأوا على مقاومة الحكم الاستعماري؛ ويعد ذلك بسبعين عاماً فعلت الولايات المتحدة الفعل ذاته ولكن بلهجة أكثر اخلاقية؛ دون ان ينجح ذلك في إخفاء الأطروحة القائلة إن احتياطات الشرق الاوسط النفطية هي امانة أميركية. وإن مثل هذه الممارسات لتُتطوي على مفارقة تاريخية وخبيث فائق، لا لأنها تجعل الحروب محتملة وجذابة باستمرار وحسب، بل لأنها تمنع أيضاً المعرفة الآمنة بالتاريخ، والدبلوماسية، والسياسة من ان تكتسب الأهمية التي ينبغي ان تكون لها.

تُسْتَهَلُ مقالةٌ ظهرت في عدد الشتاء لعام ١٩٩١ من <مجلة> الشؤون الخارجية تحت عنوان "صيف خيبة العرب" بالمقطع التالي الذي يعُلب <يُكْبَسِل> بكمال الحالة البائسة للمعرفة والقوة التي أنجبت عملياً عاصفة الصحراء:

لم يكد العالم العربي/الإسلامي يودع الغضب والانفعال المشبوب <المقتربين> بالحملة الصليبية لآية الله الخميني حتى بزغ منافس طامع آخر في بغداد. ولقد كان المطالب الجديد مقدوداً من مادة مختلفة عن الخُص المَعْم من قُم؛ فلم يكن صدام حسين كاتب رسائل في الحكم الإسلامي ولا نتاجاً للتعليم العالي في المعاهد الدينية. ولم يكن يابه للصراعات العقائدية المتمادية للاستحواذ على قلوب المؤمنين وعقولهم. بل لقد أتى من أرض جافة مشته، من بلد حدودي بين فارس والجزيرة العربية، <بلد> لم يزعم لنفسه نصيباً من الثقافة والكتب والانكار الجليلة. لقد كان المنافس الطامع الجديد طاغية، وحاكماً مايراً لا يعرف الرحمة، قد دَجَنَ ملكه وحوَّله إلى سجن كبير (٢٥).

لكن أطفال المدارس أنفسهم يعرفون أن بغداد كانت كرسى الحضارة العباسية، نزوة ازدهار الثقافة العربية بين القرنين التاسع والثاني عشر، الثقافة التي أنتجت أعمالاً أدبية ما تزال تُقرأ اليوم أسوة بشيكسبير ودانتى وديكنز، وأن بغداد، كمدينة عاصمة، هي أيضاً أحد المعالم العظيمة للفن الإسلامي (٣٦). وإضافة، فإنها المدينة التي حدث فيها، إلى جانب القاهرة ودمشق، الانبعاث والتجدد العربي في الأدب والفن في القرنين التاسع عشر والعشرين. ولقد أنجبت بغداد خمسة على الأقل من أعظم الشعراء العرب في القرن

العشرين، كما أنجبت دون أيّ مجال للتساؤل معظم كبار الفنانين، والمعماريين، والنحاتين العرب. ورغم كون صدام تكريتياً، فإنّ الإيحاء بأنّ العراق ومواطنيه لا علاقة لهم بالكتب أو الأفكار يعني أنّ المرء مصاب بمرض نسيان "سومر"، وبابل، ونيونوى، وحمورابي، وأشور وكلّ المعالم العظيمة للحضارة القديمة لبلاد ما بين النهرين (ولحضارة العالم)، التي مهدّها هو العراق. وأن يقول أحدُ بهذه الطريقة القطعية غير المقيّدة إنّ العراق أرضٌ "جافة هشة"، بما يوحي به ذلك من قحط وبوار شاملين، هو أن يُظهر جهلاً سوف يَخجل من إظهاره طفلاً في مدرسة ابتدائية. ترى ما الذي حدث للأودية الخضراء الخضيلة لدجلة والفرات؟ وما الذي حلّ بالحقيقة العريقة: حقيقة أنّ العراق، بين بلدان الشرق الأوسط كلها، كان دائماً وما يزال، أخصبها إلى حدّ أقصى؟

يُسبِّح كاتبُ المقالة\* بحمد الملكة العربية السعودية المعاصرة، وهي أشد هشاشة وجفافاً، وأكثر نأياً عن الكتب، والأفكار، والثقافة مما كان عليه العراق في أية لحظة من تاريخه. وليس غرضي هنا أن أستصغر العربية السعودية، فهي بلد مهم ولديها الكثير لتُسهّم به. غير أنّ مثل تلك الكتابات أعراضٌ مؤشّرة على الإرادة الفكرية لإرضاء السلطة علناً، وإسماعيها ما تريد أن تسمعه، والقول لها إنّ بوسعها أن تمضي قُدماً فتقتل، وتُقتل، وتدمّر، مادام مرمى هجومها في الحقيقة تأفها، جافاً هشاً، ولا علاقة له بالكتب، والأفكار، والثقافات، ولا علاقة له كذلك - كما توحى <المقالة> بلطف - بالبشر الحقيقيين. وفي حضور مثل هذه المعلومات عن العراق، فأيّ غفران، وأيّة إنسانية، وأيّة فرصة للمقولات ذات الروح الإنسانية؟ لا شيء، للأسف، إلا أقلّ القليل. ومن هنا ذلك الاحتفال التذكاري الغث والمفتقر إلى البهجة الفوّارة بعملية عاصفة الصحراء بعد مرور سنة واحدة عليها، إذ راح كتابُ الأعمدة والمفكرون اليمينيون أنفسهم يندبون "الرئاسة الامبراطورية" للرئيس بوش والنهاية غير الحاسمة لحربٍ لم تؤدّ إلا إلى إطالة أزمات البلاد العديدة.

ليس في طاقة العالم أن يتحمل لزمان طويل هذا المزيج الهائج من الوطنية، والإنّيّة النسبية، والسلطة الاجتماعية، والعدوانية الجامحة التي لا يردعها رادع، والمواقف الاستدفاعية بإزاء الآخرين. إنّ الولايات المتحدة اليوم تتصرف بطريقة انتصاروية على المستوى العالمي، وتبدو متلهفة بطريقة محمومة على أن تبرهن أنها الدولة الأولى، ربما لأنها تريد أن تخلق ما يكافئ إيجابياً التراجع الاقتصادي <الأميركي>، والمشكلات المستوطنة التي تطرحها المدن <الأميركية>، والفقر، والصحة، والتعليم، والإنتاج <في الولايات المتحدة>، والتحدى الأوروبي-الياباني. ومع أنني أميركي، فقد ترعرعت في إطار ثقافي تتخلّله وتضمّحه بعمق فكرة أن القومية العربية ذات أهمية مطلقة، وأنها أيضاً قومية مضطهدة لم تحقّق ذاتها، تُحدّق بها المؤامرات والأعداء في الداخل والخارج، <وكلها> عقبات ينبغي التغلب عليها مهما كان الثمن عالياً.

كانت بيتتي العربية إلى حدٍ بعيدٍ بينةً استعمارية، لكن كان بوسعك في صباي أن

\* - وهو البروفسور فزاد عجمي، أستاذ العلوم السياسية في جامعة جونز هوبكنز، ولِد في أرنون، لبنان، ومن كتبه: مازق العرب: الفكر والممارسة السياسيتان العربيان منذ ١٩٦٧ (١٩٨١): والامام المختفي: موسى الصدر وشيعة لبنان (١٩٨٦). (الناشر)

\*\* - وهي الكلمة التي اقترحها المترجم لتعريب solipsism، وهي نظرية تقول بأنّ لا وجود لشيء غير الانا. وكان قاموس المورد والمنهل قد عرّبا هذه الكلمة بـ "الانانة". (الناشر)

تسافر برّاً من لبنان وسوريا عبر فلسطين إلى مصر والأقاصي الغربية. وأما اليوم فإن ذلك محال. ذلك أنّ كل بلد ينصب عراقيل كُأداء على حدوده؛ (والعبور بالنسبة للفلسطينيين تجربة مرعبة بشكل خاص، فكثيراً ما تعاملُ الدولُ التي تؤيد فلسطين بصوت عال الفلسطينيين الفعليين أسوأ معاملة). إنّ القومية العربية لم تمت، غير أنها في كثير من الحالات قامت بحلّ نفسها إلى وحدات أصغر فأصغر. وهنا أيضاً يحتلّ الارتباط linkage المرتبة الأخيرة في الإطار المشهدي العربي. لم يكن الماضي أفضل من الحاضر، لكنه كان متواشجاً متواشجاً أكثر عافية، إذا جاز التعبير؛ فقد كان الناس في الواقع مترابطين بعضهم مع بعض، بدلاً من أن يُحدّق أحدهم إلى الآخر عبر حدودٍ محصنة. ولقد كنتُ تلتقي في كثير من المدارس عرباً من كل مكان، مسلمين ومسيحيين، إضافة إلى الأرمن، واليهود، واليونانيين، والايطاليين، والهنود، والاييرانيين، وهم جميعاً متمازجون، يعيشون معاً تحت نظام حكم استعماري من نمط أو آخر، لكنهم يتفاعلون كأنما كان الأمر الطبيعي هو أن يكونوا كذلك. أما اليوم فإن قوميات الدول تتصدّع إلى قوميات العشائر والطوائف. ويمثّل لبنان واسرائيل نموذجين دقيقين لما حدث: فالرغبة في الانقسام إلى مقاطعات <كانتونات> صارمة في شكل أو آخر حاضرة في كل مكان تقريباً كشعور فنوي - إن لم يكن كعمارة -، وتقوم الدولة بتدعيمها بأجهزتها المكاتبية وشروطها السرية. أما الحكام فهم عشائر، وأسّر، وشلّل، ودوائر مغلقة من زعماء الطغم الطاعنين في السنّ الذين يتمتعون، شأنهم شأن بطريك غارسيا ماركيز الخريفي، بمناعة شبه أسطورية ضد الدم الجديد والتغيير.

لقد قادت الجهود التي بُدلت لخلق التجانس بين المجموعات السكانية <المتباينة> ولعزلها باسم القومية (لا باسم التحرير) إلى تضحيات وإخفاقات بالغة الجسام. وفي معظم أنحاء العالم العربي ابتلع المجتمع السياسي، وشكله الرئيسي الدولة، المجتمع المدني (الجامعات، ووسائل الإعلام، والثقافة بتحديداتها الواسع). لقد كان أحد المنجزات العظيمة للحكومات القومية العربية في المرحلة المبكرة التالية للحرب <العالمية الثانية> نشر التعليم الجماهيري على أوسع نطاق: ولقد كانت النتائج في مصر، مثلاً، مفيدة إلى حدود احتدامية تكاد تفوق القدرة على التخيل. ومع ذلك فإن المزيج من التعليم المتسارع والعقائدية البصمية\* لئسوغ تماماً مخاوف قانون. ولدي انطباع بأن الجهود التي تُبذل لتعزيز الرابطة، وتدعيم فكرة مؤداها أنه سيكون كافياً كفاية أن يكون المرء سورياً، أو عراقياً، أو مصرياً، أو سعوديماً إنما هي أكبر من الجهود التي تبذل في التفكير النقدي، بل الجريء، الجسور، بالبرنامج القومي ذاته. الهوية، الهوية دائماً، أسمى وأعظم شأناً من المعرفة بالآخرين.

في هذه الأوضاع المختلة التوازن، اكتسبت العسكرية امتيازات مفرطة في التنظيم\*\* الأخلاقي للعالم العربي. ويعود جلّ السبب في ذلك إلى شعور الانسان بأنه يعامل معاملة

\* - اقصد عقائدية البصم بالموافقة على ما يقر؛ والاصل الإنكليزي يصاغ بالنقر بالإبهام على المقعد إشارة إلى الموافقة. والامرآن واحد.

\*\* - يستخدم المؤلف هنا كلمة "economy" ومعناها المألوف "الاقتصاد". وقد اخترت أحد معانيها الممكنة الأخرى. وقد اكون على غير هدى.

ظالمة، ظلماً تجسّد في فلسطين لا استعارياً بل حقيقة جلية. لكن هل كانَ الجوابَ الوحيدَ الممكِن هو القوّة العسكرية، والجيشُ الجرارة، والشعاراتُ الرنانة، والوعودُ الدامية، إضافةً إلى حالات محسوسة لانتهائية من العسكرية، بدءاً - من على أعلى السُلّم - بحروبٍ خُسِرَتْ بفداحة كوارثية، وانحداراً - في أسفل السُلّم - إلى العقوبات الجسمانية والتلويحات المنذرة بالعرب؟ لست أعرف عريباً واحداً يماري في جلسات خاصة، أو يتلصق في الاعتراف بأنّ احتكار الدولة للإرغام والقهر قد قضى نهائياً تقريباً على الديمقراطية في العالم العربي، وأولجّ عداوةً ضرورياً بين الحاكمين والمحكومين، وأسند قيمةً مفرطة العلوّ إلى الامتثال والانتهازية والمراءاة والعيش بسلام، بدلاً من المجازفة بطرح أفكار جديدة، أو بالنقد أو الانشقاق والمعارضة.

وهذا كله، إذا دُفِعَ به إلى مدى معين، يولّد البترية\*: مفهومٌ أنّك إذا لم تتل ما تشاؤه أو واجهك ما لا يسرك، كان بوسعك ببساطة أن تحوّه وتلغيه. ولا شك أن هذا المفهوم كان بوجهٍ ما وراء عدوان العراق ضد الكويت. فآية فكرة مختلطة ومحشوة بالمفارقة التاريخية عن "التوحيد <الدمج>" البسماركي كانت تلك التي دفعت إلى محو بلد من الوجود وسحق مجتمعه، ناصبةً الوحدة العربية هدفاً لها؟ ولقد كان أكثر ما يثبط الهمة ما بدا من أن بشراً كثيرين، ممن كانوا هم أنفسهم ضحايا للمنطق الوحشيّ نفسه، قد ساندوا تلك الفعلة ولم يتعاطفوا إطلاقاً مع الكويت. وحتى لو أقر المرء بأن الكويتيين لم يكونوا ذوي شعبية (هل ينبغي أن يكون المرء محبوباً لكي لا يُباد؟)، ورغم أن العراق ادّعى أنه يرفع فلسطين رايةً في وقوفه المتحدي أمام إسرائيل والولايات المتحدة، فلا شك أن الفكرة في ذاتها، فكرة أن أمة ما ينبغي أن تُحصى من الوجود على درب المسيرة، هي فكرة إجرامية لا تليق بحضارة عظيمة. وإنه لمقياسٌ للحالة المقيتة للثقافة السياسية في العالم العربي اليوم أن تسري مثل هذه البترية فيه.

رغم كل ما قد يكون النفطُ وقَره من تنمية وثراء - ولقد وقّر الكثير منهما - فإنّه حيثما اقترن بالعنف، والتنقية العقائدية، وروح الاستدفاع السياسي، والتبعية الثقافية للولايات المتحدة، قد خلق من الانشراخات والمشكلات الاجتماعية أكثر مما قام بلامه. وبالنسبة لأي امرئ يفكر بالعالم العربي كعالم يتمتع بنمطٍ ما من الانسجام الداخلي المعقول في الظاهر، فإنّ المناخ العام من توسُّط الجودة mediocrity والفساد الذي يخيم فوق هذه المنطقة الثرية دون حدود، والتي رُزقتْ بأريحيةً فائقة ثقافياً وتاريخياً، والمباركة بوفيرٍ من الأفراد الموهوبين، ليمثّل لغزاً هائلاً ويمثّل، بالطبع، خيبةً هائلةً.

ليس ثمة من ديمقراطيةٍ بأيّ معنى حقيقي للكلمة في أيّ بقعةٍ من بقاع الشرق الأوسط الذي ما يزال "قومياً": بل ثمة إمّا طُغْمٌ <أوليغارشيات> ذات امتيازات، أو فئاتٍ أعراقية ذات امتيازات. وأما الجموع الغفيرة من البشر فإنها مسحوقة تحت كلال الاستبداد أو حكوماتٍ مكروهةٍ متصلبةٍ لا تلين ولا تستجيب. لكنّ مفهوم أن الولايات المتحدة هي في هذه الأوضاع المقيتة بريئة فاضلةً مفهومٌ مرفوضٌ؛ كما أن المنظومة التي تقول إنّ حرب الخليج لم تكن حرباً بين جورج بوش وصادق حسين - فلقد كانت كذلك

\* - وهي تعريبٌ ارتآه المترجم لـ exterminism التي لم نثر عليها في أيّ معجم إنكليزي. والواضح أن المقصود هو extermination، بمعنى الإبادة والاستئصال. (الناشر)

بأشد درجات التأكيد - وأن الولايات المتحدة قد تصرفت خدمةً لمصالح الأمم المتحدة فقط وبالدرجة الأولى، مرفوضةً هي أيضاً. في الأعماق كانت الحرب صراعاً مُشخصتاً بين طاغية من العالم الثالث من النمط الذي تعاملت الولايات المتحدة لزمان طويل معه (هياسيلاسي، سوموزا، سينغمان ري، شاه إيران، بينوشيه، ماركوس، نوربيغا، إلخ)، وشجعت حكمه، وتمتعت طويلاً بنعم أفضاله... وبين رئيس بلدٍ تسريلاً ببُرْدة الامبراطورية التي ورثها عن بريطانيا وفرنسا وكان عازماً على أن يبقى في الشرق الأوسط من أجل نفعه ولأسباب تتعلق بالامتيازات الجغرافية - الجغرافية - الاستخطاطية والسياسية.

على مدى جيلين كاملين من الزمان وقفت الولايات المتحدة في الشرق الأوسط غالباً إلى جانب الطغيان والظلم. ولم تساند الولايات المتحدة رسمياً أيّاً من الصراعات من أجل الديمقراطية، أو حقوق المرأة، أو العلمانية، أو حقوق الأقليات. وبدلاً من ذلك فقد قامت إدارة أميركية بعد أخرى بتدعيم الاتباع المُدعنين المقوتين، وأشاحت بوجهها بعيداً عن جهود الشعوب الصغيرة لتحرير أنفسها من الاحتلال العسكري، مقدمةً - في الوقت نفسه - التمويل لأعدائها. وقد شجعت الولايات المتحدة النزعة العسكرية غير المحدودة وانخرطت (إلى جانب فرنسا، وبريطانيا، والصين، وألمانيا، ودول أخرى) في مبيعات هائلة للأسلحة في كل بقعة من بقاع المنطقة، وفي الأغلب الأعم إلى حكومات دُفِعت إلى مواقع أكثر فأكثر تطرفاً نتيجة لهوس الولايات المتحدة بصدام حسين وتهويلها المغالي لقوته. وأن يتصور المرء عالماً عربياً في مرحلة ما بعد الحرب يسيطر عليه حكّامُ مصر، والسعودية، وسورية، عاملين جميعاً في «إطار» سلام أميركي شامل جديد كجزء من النظام العالمي الجديد، لهُوَ أمر يفتقر إلى المصادقية فكرياً وأخلاقياً.

حتى الآن لم يتنام في الفضاء الأميركي العمومي إنشاءٌ يفعل ما هو أكثر من التماهي مع القوة، رغم أخطار هذه القوة في عالم تقلص وصغر وتواشج إلى درجة بالغة الأثر. ليس للولايات المتحدة أن تفترض بدهاء، ويروج نزاعةً إلى القتال والعنوان، أنها تملك حق استهلاك ثلاثين في المائة من موارد الطاقة في العالم، مثلاً، وهي التي لا يمثل سكانها سوى ستة في المائة من سكان العالم. لكن هذا ليس كل ما في الأمر. فعلى مدى عقود عديدة، ما تزال تُشن في أميركا حربٌ ثقافيةً ضد العرب والإسلام: وتوحي الشخصيات الساخرة «الكاريكاتورية» العنصرية المروعة للعرب والمسلمين بأنهم جميعاً إما إرهابيون أو شيوخ «نفط»، وأن المنطقة خرابٌ قاحلٌ شاسع لا يصلح لشيءٍ إلا لجني الأرباح أو الحرب. ولم يُنحَ لمفهوم أنه قد يكون هناك تاريخ، وثقافة، ومجتمع - بل مجتمعات عديدة بحق - أن يحتل خشبة المسرح إلا لبرهة أو برهتين، حتى إبان ارتفاع جوقة الأصوات المنادية بفضائل «التعددية الثقافية». ولقد غمر السوق فيضٌ من الكتب الفورية التافهة التي ألّفها صحفيون وروّجت وأشاعت بضعة نماذج تمثيلية تنزع عن الإنسان إنسانيته، تُبرز جميعها العربَ جوهرياً بوصفهم تنوعاً أو آخر على صدام «حسين». وأما تعساء الحظ الذين قاموا بالعصيان المسلح من شيعة وأكراد، والذين كانت الولايات المتحدة أول من شجّعهم على الانتفاض ضد صدام، ثم تخلت عنهم «فريسة» لانتقامه الذي لا يرحم، فإنهم نادراً ما يخطر ببال، دع عنك أن يرد لهم نِكْرٌ.

بعد الاختفاء المفاجئ للسفير إبريل غلاسبي، الذي كان ذا تجربة طويلة في الشرق

الأوسط، لم يكد يكون لدى الإدارة الأميركية أيُّ محترفٍ في مركز رفيع يتمتع بمعرفة أو بتجربة حقيقتين بالشرق الأوسط، أو لغاته، أو شعوبه. وما يزال العراق، بعد الهجوم المنتظم على بنيته المدنية الأساسية، يُدمر - بالتجويع والأوبئة واليأس - لا بسبب عدوانه ضد الكويت، بل لأن الولايات المتحدة تريد لنفسها حضوراً فيزيائياً في الخليج وذريعة لوجودها فيه، وتريد أن يكون لها نفوذ مباشر على النفط لكي تمارس تأثيراً قوياً على أوروبا واليابان، ولأنها تُنشد صياغة برنامج الأهداف العالمي، ولأن العراق ما يزال يُتصور تهديداً لإسرائيل.

ينبغي أن يكون الولاء والشعور الوطني مبنين على حس نقدي بماهية الحقائق وبما يدين به الأميركيون، كقاطنين لهذا الكوكب المتقلص والمستنفد، لجيرانهم ولبقية البشر. إن التضامن اللانقدي مع سياسة اللحظة الراهنة، خصوصاً حين تكون تلك السياسة باهظة التكاليف إلى حد يعجز التخيلُ عن إدراكه، لا يمكن أن يُسمَح لها بالسيادة.

لقد كانت عاصفة الصحراء في نهاية المطاف حرباً إمبريالية ضد الشعب العراقي، وجهداً لتحطيمه وقتله كجزء من تحطيم صدام حسين وقتله. غير أن هذا الجانب المليء بالمفارقة التاريخية والفريد في دمويته ووحشيته ظلَّ إلى حد غالب محجوباً عن جمهور التلفاز الأميركي، كوسيلة للاحتفاظ بصورة هذه الحرب وكأنها «مجرد» تمرين في «لعبة» النيبتندو خال من الألم، وبصورة الأميركيين كمحاربين فاضلين انقياء. ولربما كانت الأمور اختلفت قليلاً حتى لدى الأميركيين الذين لايهتمون عادةً بالتاريخ لو أنهم عرفوا أن المرة الأخيرة التي دُمِّرت فيها بغداد كانت عام ١٢٥٨ على أيدي المغول، رغم أن البريطانيين يزودوننا بسابقة أقرب عهداً للسلوك العنيف ضد العرب.

إن غياب أيِّ رادع داخلي هام لهذا النموذج الخارق من العنف الجماعي، الذي لا يكاد يمكن تخيله والذي أطلقتها الولايات المتحدة ضد عدوٍ قصي غير أبيض، ليُضاء حين نقرأ مسرداً كتبه كيرنان لتعليل كون المثقفين الأميركيين - باستثناء بعض الأفراد والفئات تمييزاً لهم عن أعداد كافية لإعطاء [النقد] ثقلًا عملياً - تجنبوا اتخاذ موقف نقدي من سلوك بلدهم خلال الـ ١٩٧٠ات. يقر كيرنان أن «اعتزاز البلد بنفسه منذ زمن بعيد كحضارة جديدة» كان أمراً حقيقياً، لكن «استسلامه بصورة محفوفة بالخطر للانحراف من قبل المحرّضين الدهمانيين» قد كان أمراً حقيقياً أيضاً. ولقد كان ثمة احتمال خطر هو أن ذلك الاعتزاز بالنفس راح يتحول إلى ما يشبه الثقافة البسماركية شبهاً مفرطاً، في وضع تتصلب فيه «الثقافة» في هيئة «معرفة بالكيف» know-how تقنوية. وإضافة، وعلى شاكلة إحساس بريطانيا السابق بالفوقية، فإن إحساس الأميركيين بذلك كانت تسانده درجة عالية من العزلية عن بقية العالم والجهل به. وأخيراً:

فقد ساعد هذا النأي في الأزمنة الحديثة على إضفاء ناي مطابق له في القياس - عن الحياة، أو الواقع التاريخي - على الفئة المفكرة «الانتجنسيا» في اميركا. لم يكن سهلاً على المنشقين أن يكسروا الحاجز القائم. كان ثمة نوع من السطحية، من العجز عن الارتقاء إلى ما فوق المستوى الصحفي، في ادب الاحتجاج في سنوات ما بين الحربين «العالميتين»... فقد افتقر هذا الأدب إلى العمق التخيلي والترنين اللذين لا يمكن أن يُشتقاً إلا من بيئة متجاوبة.. ومنذ الحرب العالمية ازداد انجذاب المثقفين إلى مجالات النشاطات العمومية التي كان محرّكها الحيوي المطلق هو القطاع العسكري - الصناعي المتشابك. وأخذوا يشاركون في وضع الاستخطاطيات، وفي تطوير وسائل الحرب العلمية والعصيان المسلح المضاد، ولقد وُجِّهت إليهم الدعوات إلى البيت الأبيض بإطراء، وكافأوا الرؤساء

بإحراق البخور الذي يستحقه الملوك. وعبر سنوات الحرب الباردة كلها، قدّم الباحثون في دراسات اميركا اللاتينية الضمان والدعم لعقائدية "حُسن الجوار"، والتناغم في المصالح بين الولايات المتحدة وبقية العالم. ولقد كان لدى تشومسكي ما يكفي من الاسباب ليتحدث عما أسماه "الحاجة الملحة الكاسحة" لفعل مضاربيوزن اثار جيل من المثقفين المذهبي وتاريخ طويل من التملق الذاتي؛ ولقد ناشد تشومسكي المثقفين ان يفتحوا اعينهم على تراث السذاجة والشعور بالحقانية الذي يشوّه تاريخنا الفكري<sup>(٢٧)</sup>.

وان هذا لينطبق بقوة بالغة على حرب الخليج عام ١٩٩١. فلقد راقب الاميركيون الحرب على التفاز بيقين لا تساؤل فيه نسبياً بأنهم كانوا يرون الواقع الفعلي، بينما كان ما راوه حرباً لقيت أكبر تغطيةٍ وأدنى قدر من التقارير الإخبارية عرفتهما حربٌ في التاريخ. كانت الصور والكلمات خاضعة لتحكّم الحكومة بها، وقامت وسائل الإعلام الاميركية الكبرى بنسخ بعضها بعضاً، ثم تمّ نسخها هي بدورها وعرضها على مدى العالم (كما كانت الحال بالنسبة لـ سي. إن. إن.). ولم يولّ قدرٌ من الاهتمام يستحق الذكر للدمار الذي أنزل بالعدو، في الوقت الذي صمت فيه بعض المثقفين وشعروا بالعجز المطلق، أو أسهموا في النقاش "العمومي" بمعطيات تُقبَلت وأدرجت بصورةٍ لانتقديّةٍ في الرغبة الامبريالية في خوض الحرب.

لقد بلغت عملية تحويل الحياة الفكرية إلى حرفة حدّاً من الانتشار ابتلّع معه تقريباً ما أسماه جوليان بندا، بالإشارة للمثقف، حسّ الاصطفاء <المهنة ذات الرسالة>. ولقد استدخل\* المثقفون ذرو التوجه نحو صناعة السياسات معايير الدولة التي، حين تدعوهم إلى العاصمة - وذلك أمر يسهل تفهمه - تكون في حقيقة الأمر قد أصبحت راعيهم وولي أمرهم. كثيراً ما يتم قذفُ الحس النقدي بعيداً ونبذهُ نبذاً مريحاً. أما أولئك المثقفون - مثل المختصين بالأدب والفلسفة والتاريخ - الذين تضم عهدتهم قيماً ومبادئ فقد قامت المؤسسة الجامعية الاميركية - بأريحيّتها، وجرمها الطوباوي، وبتنوعها اللافت - بإضعافهم. وتسيطر على أساليبهم لغة اصطلاحية <مختصة مدعية> منقّرة إلى حد لا يمكن تخيلهُ. وتحملهم مذاهبٌ تعبديةٌ من مثل ما بعد الحداثة، وتحليل الإنشاء، والتاريخانية الجديدة، والتقويفية، والتعاملية <البراغماتية> المستجدة، على أجنحتها الى ممالك الزرقة؛ ويقوم إحساسٌ مذهلٌ بانعدام الوزن إزاءً جاذبية <وخطورة> التاريخ والمسؤولية الفردية بتبديد اهتمامهم بالقضايا العامة وبالإنشاء العام. ونتيجة ذلك كله نمطٌ من التخبّط يثبّط الى أقصى الدرجات همّة مَنْ يعاينه، حتى فيما المجتمع ككلٌ ينساق على غير هدى ولا تماسك. وأما العنصرية، والفاقة، ومتالف البيئة وخرائبها، والمرض، وجهلٌ بالغ الانتشار مروّع، فتلك أشياء تُثْرِك لوسائل الإعلام، ولمرشُحٍ سياسيٍ غريبٍ أثناء حملة انتخابية.

## II - حدي السننّية والسلطة

لم يكن ذلك لأننا كنا نفتقر الى أمثلة مُذكّرة على ما أسماه تشومسكي إعادة تشكيل العقائدية، التي تشمل مكوناتها مفاهيمٍ عن الانتصاروية الغربية اليهوديحية،

\* - إزاء internalize، ان: ذُكِرُوا، اي دمجوا الامور (وهي هنا: "معايير الدولة...") في ذاتهم (وعن وعي هنا) بحيث أصبحت مبادئ هادية لهم. (الناشر)

والتخلف الطبيعي الكامن في العالم غير الغربي، ومخاطر مذاهب أجنبية شتى، وتفشي المؤامرات "المعادية للديمقراطية"، والاحتفاء بالأعمال، والمؤلفين، والأفكار الشرائعية الموقّنة واستردادها. وعكساً لذلك، فإنّ الثقافات الأخرى تعايُن أكثرَ فأكثرَ من منظورات علم الأمراض و/أو العلاج النفسي. وإنّ الكتب التي تظهر في لندن، وباريس، ونيويورك، حاملةً عناوين من مثل الشرط الإفريقي أو المازق العربي أو جمهورية الخوف أو مقزامنة الأعراض الاميريكية اللاتينية\* سُتستهلك - أياً كانت درجة دقّتها وجدديتها كدراسات بحثية وتأمّلات وتحليلات - في ما يسميه كنيث بيرك "أطر القبول" التي تتّسم شروطها بشذوذية تامة.

من جهة أولى، لم يُؤل أحدٌ ممن يعيشون في الفضاء العمومي السائد كبيرَ اهتمام بالعراق مجتمعاً، أو ثقافةً، أو تاريخاً حتى أب (اغسطس) عام ١٩٩١؛ وفجأة لم يعد ممكناً إيقافُ سبيل الكتب والبرامج التلفازية المعدة على الفور <عن العراق>. كان كتاب جمهورية الخوف، وهو نموذج لذلك، قد ظهر عام ١٩٨٩ ولم يلحظه أحد. وفي زمن تال، تحوّل مؤلف الكتاب الى شخصية يُحتفى بها، لا لأن كتابه يقدم إسهاماً دراسياً جاداً - فهو لا يتظاهر بذلك - بل لأن "الصورة الشخصية" المهووسة والوحيددة اللون التي يصوغها للعراق تسدّ الحاجة <الامبريالية> إلى تمثيل بلدٍ تمثيلاً لامؤسّناً، لي-تاريخياً، وإبليسياً كتجسيدٍ لهتلرٍ عربي. وهكذا، فإنّ يكون المرء لاغريبياً (وإنّ اللاصقات التشيينية ذاتها لتعبير أعراضٍ دالّ) هو أن يكون، بحكم الوجود، سيئاً الطالع من كل وجه تقريباً، قبل الحقائق، وأن يكون في أسوأ الحالات معتوهاً مصاباً بمسّ، وفي أحسنها تابعاً، مستهلكاً خاملاً يستطيع، كما يقول نيبال في مكانٍ ما، أن يستعمل الهاتف لكنّ لم يكن في وسعه أبداً أن يخترعه.

ومن جهة أخرى، فإنّ نزع السرية والغيبية عن جميع التركيبات الثقافية - سواء اكانت لدى "خا" أم لدى "هم" - هو حقيقة جديدة وضعها الباحثون، والنقاد، والفنانون أمام ابصارنا. نحن لا نستطيع اليوم، مثلاً، أن نتحدث عن التاريخ دون أن نفسح مكاناً في حديثنا عنه لأطروحة هيدن آيت في الميثاق تاريخ <ما وراء التاريخ>، ومؤداهما أنّ كل كتابة تاريخية من كتابة وتحمل لغة تصويرية ومجازات تمثيلية، إما في صيغة الاستعارة، أو المجاز المرسل والكنائية، أو التمثيل الترميزي <الليغوريا>، أو المفارقة اللاذعة. وإننا لنملك إدراكاً ناصعاً، من خلال أعمال لوكاش، وفردريك جيمسن، وفوكو، وديدا، وسارتر، وأورنو، و<الترك> بنيامين - لنذكر فقط بضعة من الأسماء البارزة - لعمليات التقنين والقوة التي تعيد بها الهيمنة الثقافية إنتاجَ نفسها، مكرهةً الشعرَ والروحَ على <تبني> الشكل السلعي و<خدمة> الإدارة.

غير أن الشرخ بين هؤلاء المنظرين الحواضرين الفعّالين وبين التجربة الامبريالية الجارية أو التاريخية هو، في الأغلب الأعم، شاسعٌ بحق. فلقد تمّ تجاهلُ إسهامات الامبراطورية في فنون الملاحظة، والوصف، وتشكيل ميادين المعرفة، والإنشاء النظري؛ لقد

\* - العناوين السابقة عناوين كتب حقيقية لا وهمية. ومنها اثنان يعنيان بالوضع العربي مباشرة: الأول هو المازق العربي (١٩٨١) للبناني فؤاد عمجي؛ والثاني هو جمهورية الخوف: القصة الموثوقة لعراق صدام (١٩٨٩) للكاتب العراقي كنعان مكيّة الذي كان يكتب باسم مستعار هو "سمير الخليل". (الناشر)



قامت هذه الاكتشافات النظرية الجديدة بتحفظ مغالٍ، وربما بشيء من الوسواس، بمكرورية رتيبة بإهمال نقاط التلاقي بين نتائج أبحاثها وبين الطاقات الحيوية التحريرية التي أطلقتها ثقافات المقاومة في العالم الثالث. وإنه لمن النادر أن نعرث على تطبيقات مباشرة <تُنقل> من المجال الأول إلى المجال الآخر، كما نجد حين يقوم ارنولد كرويات، في مثال وحيد معزول، بتسليط موارد النظرية مابعد البنيوية على تلك الصورة الشاسعة <الپانوراما> الحزينة التي أنتجتها الإبادة الجماعية والنسيان الثقافي والتي أخذت تُعرف الآن باسم "الأدب الأميركي الأصلي"، من أجل تأويل تشخصات القوة والتجربة الأصلية التي تنطوي عليها نصوصه<sup>(٢٨)</sup>.

إن بوسعنا، بل إن علينا، أن نتكهن، بالأسباب التي أدت إلى وجود ممارسة للخصر الذاتي لرأس المال النظري المناصر للحرية الذي أنتج في الغرب، والأسباب التي أدت في الوقت نفسه إلى جعل إمكانية نشوء ثقافة ذات مكونات تحريرية قوية، في البلدان التي كانت مستعمرة سابقاً، إمكانية معتمة إلى درجة نادر ما بلغتها من قبل.

لأقدم مثلاً: عام ١٩٨٥، طلبتُ مني جامعة وطنية في إحدى دول الخليج الفارسي أن أزورها لمدة أسبوع، ثم اكتشفتُ أن مهمتي كانت تقييم برنامج اللغة الانكليزية فيها وتقديم بعض التوصيات لتطويره. وقد صعقتني تماماً أن اكتشف أن الانكليزية، من وجهة عديدة خالصة، تجذب أكبر عدد من شباب الطلبة بين دوائر الجامعة كلها، لكنني أصيبتُ بخيبة منبئة حين وجدتُ أن المناهج كان مقسماً بالتساوي تقريباً بين ما أُسمي اللسانيات (أي النحو والبنى الصوتية) والأدب. وكانت مساقات الأدب، في تقديري، بالغة المحافظة والسُّننية، وهو نسقٌ متبَع في جامعات عربية أقدم وأكثر امتيازاً مثل جامعات القاهرة وعين شمس. إن العرب الشباب يقرؤون بإحساس طبع بالواجب <كلاً من> ميلتون، وشيكسبير، ووردزورث، وأوستن، وديكنز بالطريقة التي كانوا سيقارون بها السنسكريتية أو علم شعارات النبلاء في القرون الوسطى؛ لم يكن ثمة أدنى درجة من التأكيد على العلاقة بين الانكليزية والعمليات الاستعمارية التي أدت إلى إدخال اللغة وآدابها إلى العالم العربي. ولم أتبين أي اهتمام حقيقي، إلا في بعض المناقشات الخاصة مع بضعة من أعضاء هيئة التدريس، بالآداب الجديدة المكتوبة باللغة الانكليزية في الجزر الكاريبية، وأفريقيا، وآسيا. لقد كان <ذلك التعليم> ترافداً شاذاً ومنطوياً على مفارقة تاريخية: للصم <الاستظهار من غير فهم>، وللتعليم اللانقدي، وللنتائج الصدفية (بلغة الطف).

بيد أنني أدركتُ حقيقتين اثارتا اهتمامي كمفكر وناقد علماني <دنيوي>. إن سبب دراسة هذا العدد الكبير من الطلبة للإنكليزية، كما قال لي بصراحة أحد المدرسين المستائين بعض الشيء: هو أن كثيرين من الطلبة يودون في نهاية المطاف أن يعملوا لدى شركات الطيران، أو المصارف، حيث تمثل الانكليزية لغة التعامل المشتركة lingua franca. ولقد أدى ذلك إلى حصر اللغة الانكليزية نهائياً في حيز لغة تقنية سلخ عنها إهاب الخصائص التعبيرية والجمالية وعُرِّيت من أي بُعد نقدي أو أوع للذات. وهكذا فانت تتعلم الانكليزية من أجل أن تستخدم الحساب، وتستجيب للطلبات <أو الأوامر>، وترسل الرسائل الفورية <التلكسات>، وتقف رموز البيانات التجارية، وما إليها. ذلك كل ما في الأمر. وأما الشيء الآخر الذي اكتشفته، ولشد ما راعني الأمر، فهو أن الانكليزية وهي

على ما هي عليه كانت قائمة في ما بدا أنه قدزُ تغلي من الانبعاث الإسلامي. فحيثما وليتُ وجهي، كانت الشعارات الإسلامية المتعلقة بانتخابات مجلس إدارة الجامعة تملأ الجدران (وقد بلغني فيما بعد أن مختلف المرشحين الإسلاميين فازوا بأغلبية كبيرة، وإن لم تكن ساحقة). وفي مصر، عام ١٩٨٩، بعد أن القيتُ محاضرةً في قسم اللغة الانكليزية بجامعة القاهرة استغرقتُ ساعةً كاملة عن القومية، والاستقلال، والتحرير كعمارات ثقافية بديلةً للامبريالية، طُرح عليّ سؤالٌ حول "البديل الثيوقراطي" <الديني>. ولقد ظننتُ خطأً أن السائل كان يسألني عن "البديل السقراطي"، لكنني سرعان ما أُعدتُ إلى الصواب. كانت السائلة امرأةً شابةً فصيحة يغطي رأسها حجاب؛ وكنت قد اغفلتُ في اندفاعي الحماسي العلماني المضاد لرجال الدين ما يشغلها من هموم. (ومع ذلك فقد انطلقت بشجاعة لأشترُ هجومياً!)

وهكذا فإن استخدام الانكليزية ذاتها التي يستخدمها أناسٌ يطمحون إلى تحقيق إنجازات أدبية من طراز رفيع، والذين يتيحون للاستخدام النقدي للغة أن يأتز بإحداث فكفكة لاستعمار العقل - بعبارة نفوغي واثونفو - يوجد جنباً إلى جنب مع منجمعات جديدة مختلفة كل الاختلاف في تشخصاتٍ أقل استهواءً وجاذبية. وفي أماكن كانت الانكليزية فيها ذات يوم لغة الحاكم والإداري، فإنه ليس لها الآن إلا حضور منكمش: فهي إما لغة تقنية ذات خصائص وملامح أدواتية تماماً، أو لغة أجنبية لها علاقات ضمنية شتى بالعالم الأوسع الناطق بالانكليزية لكن حضورها يتنافس مع الواقع الصاعد بقوة باللغة دامغة للحمية الدينية المنظمة. فمادامت لغة الإسلام هي العربية، وهي لغة ذات منجمع أدبي مرموق وقوة مشيخية <كهنتوية> كبيرة، فإن الانكليزية غاصت إلى مستوى منخفض، واهن، ليس فيه ما يثير الاهتمام.

ومن أجل أن نقيس هذه الانضوائية الجديدة في عهدٍ اكتسبت فيه الانكليزية في سياقات أخرى بروزاً لافتاً ومنجمعاتٍ جديدةً شيقة عديدةً من الممارسات الأدبية والنقدية والفلسفية، فإنه يكفي أن نستدعي بإيجاز انصياغ العالم الإسلامي الصاعق للنواهي، والتحريمات، والتهديدات التي أطلقتها سلطات الإسلام المشيخية والدينية ضد سلمان رشدي بسبب روايته الآيات الشيطانية. وأنا لا أعني أن العالم الإسلامي بأكمله قد اذعن، بل أن وكالاته الرسمية والناطقين باسمه رفضوا بشكلٍ أعمى، أو رفضوا رفضاً قاطعاً أن ينخرطوا في <نقاش> مع كتاب لم تقراه الغالبية العظمى من الناس. (إن فتوى الخميني قد تجاوزت مجرد الرفض بكثير طبعاً، غير أن الموقف الإيراني كان معزولاً نسبياً). لقد كان الجرم الأكبر للرواية أنها عالجت الإسلام باللغة الانكليزية من أجل جمهور كان يُعتقد أنه في الأغلب غربي. لكن ما هو مكافئ في الأهمية أن عاملين اثنين وسما ردة فعل العالم الناطق بالانكليزية على الأحداث التي أحاطت بـ الآيات الشيطانية. كان العامل الأول هو الإجماع الكلي عملياً على الاستنكارات الحذرة والجبانة للإسلام، مجتدةً لخدمة قضيةٍ بدت لكتاب الحواضر ومثقفها امنةً العواقب ومصيبةً سياسياً في الوقت نفسه. أما عن الكتاب العديدين الذين كانوا قد قُتلوا، أو سُجنوا، أو مُبعوا في بلدان كانت إما حليفةً لأميركا (مثل المغرب والباكستان واسرائيل)

أو معاديةً لاميركا وإرهابيةً كما أُسميت (مثل ليبيا، وإيران، وسورية) فلم يُقل إلا أقلّ القليل. وكان العامل الثاني أنه، بعد أن نُطقتِ العباراتُ الطقوسية المؤيدة لرشدي والمنددة بالإسلام، لم يبق فيما يبدو كبيرُ اهتمام لا بالعالم الإسلامي ككل ولا بأوضاع التأليف والمؤلفين فيه. وكان الوضع جديراً بأن يُبدل فيه قدر أعظم من الطاقة والحماسة في الحوار مع أولئك الأشخاص من العالم الإسلامي ذوي المكانة الرفيعة ادبيّاً وفكريّاً (محموظ، ودرويش، ومنيف، وغيرهم) الذين دافعوا عن رشدي (وهاجموه) من أن لأن في ظروفٍ أشدّ قسوةً وامتحاناً بكثيرٍ من الظروف السائدة في غرينتش فيلج وهامستد.

ثمة عدد من النشورات العميقة الدلالة داخل المجتمعات والدول الجديدة التي توجد الآن جنباً إلى جنب مع، وجزئياً ضمن، مجموعة الانكليزية العالمية world-English group التي تسيطر عليها الولايات المتحدة، وهي مجموعة تضم أصواتاً لامتجانسة، ولغاتٍ رشتى، وأشكالاً هجينة تضيف على الكتابة الانكلوفونية هويتها المتميزة التي ماتزال هوية إشكالية. وبين هذه التشوهات ظهورُ تركيبٍ مُبتنى حادٌ إلى درجة مذهلة خلال العقود الأخيرة اسمه "الإسلام"؛ وبينها أيضاً "الشيوعية" و"اليابان" و"الغرب"، وكلُّ منها يملك أساليب في المماحكة، ويطارياتٍ من الإنشاء، وغزارةٌ مقلقةٌ من فرص الانتشار. وإذا نرسم خريطةً للمجالات الهائلة التي تسيطر عليها هذه التجريدات الجوهرائية العملاقة التي تشبه الشخصوصات الساخرة، فإننا نستطيع أن نقدّر ونفسّر بصورة أكثر كمالاً المكاسب المتواضعة التي حققتها فئاتٌ متعلمة أصغر ترتبط بوشائج القربى <الروحية> والتعاطف والتراحم، لا بعري المماحكة المتبلّدة الحسّ.

لم يكن إلا عدد ضئيل من الناس في أوج العهد البهيج لكفككة الاستعمار وللقوميات المبكرة في العالم الثالث يُراقبون أو يولون اهتماماً عميقاً للكيفية التي نمت بها بين صفوف المناهضين للاستعمار أصلاً نيةً نمت تربيئتها وتغذيئها بعناية إلى أن اكتسبت أبعاداً جامحة في ضخامتها. ولقد كانت لجميع تلك المناشدات القومية لإسلام نقي أو أصيل، أو لتمرکزية أفريقية، أو لرتوثة، أو لعروبة، استجاباتٌ قوية، دون أن يكون هناك وعيٌ كافٍ لكون هذه الأعرافيات أو الجواهر الروحية ستعود لاقتصاص ثمن باهظٍ من معتنقيها الناجحين. ولقد كان قانون أحد القلائل الذين علّقوا على الأخطار التي يمثلها وعيٌ قوميٌّ لم يُشدّب ولم يخضع للتثقيف، على حركة اجتماعية عظيمة كفككة الاستعمار. وما يقال هنا يصدق إلى حدٍ كبيرٍ على أخطار الوعي الديني غير المشدّب وغير الخاضع للتثقيف. وهكذا فقد فرّض ظهورُ شتى أنواع الأئمة، والعقائد، وأنظمة الحزب الواحد التي اتّخذت من الأخطار التي تهدد الأمن القومي ومن الحاجة إلى الدولة الثورية للقيطة برنامج عملٍ لها، طقماً جديداً من المشكلات على ميراث الامبريالية المرهق أصلاً.

لا يمكن تسمية دولٍ أو أنظمةٍ كثيرةٍ مستثناةٍ من المشاركة الفكرية أو التاريخية النشيطة في التشخيصات الجديدة العالمية مابعد الاستعمارية. وإنّ الأمن القومي والهوية الانفصالية هما كلمتا السر. وقد بدا السياسيون المنتصرون حديثاً، إضافةً إلى الأفراد المكرّزين - الحاكم، والأبطال والشهداء القوميون، والسلطات الدينية الراسخة - وكأنهم بحاجة إلى حدود وجوازات سفر قبل كل شيءٍ آخر. وقد تم بسرعةٍ استيعابٌ وتحويل ما كان ذات يومٍ التحريز الخلاق الخيلي لشعب من الشعوب - ما أسماه إيمي سيزار

"ابتكار أرواح جديدة" - والتخطيط الاستعماري الجريء لأقاليم روحية اغتصبها سادة مستعمرون، الى نظام عالمي من الحواجز، والخرائط، والحدود، وقوات الشرطة، والجمارك، واجهزة ضبط أسعار الصرف والتداولات المالية. ولقد قدّم بايزلُ ديفيدسن التعليق الأتبع، والأبلغ رثاء، على هذه الحالة المؤسسية في معرض تأملات تذكارية لإرث أمليكار كابرال\*. ويستخلص ديفيدسن، معدداً الأسئلة التي لم تُطرح ابداً عما سيحدث بعد التحرير، أنّ أزمة متفاقمة قد أفرزت امبرياليةً مستجدةً ونصبت حكماً ينتمون إلى البورجوازية الصغيرة بثبات على سدة الحكم. غير أنّ هذا النوع، كما يتابع ديفيدسن قائلاً، من

القومية الإصلاحية تتابع حفر قبرها بيدها. وكلما ازداد القبر عمقاً تناقص عدد الأشخاص القيايين القادرين على أن يُبقوا رؤوسهم مرتفعة فوق حافته. وعلى انغام الموسيقى الجنائزية التي يترنم بها بوقارٍ جماعي مهيب عشرات الخبراء الأجانب أو الذين سيكون لهم أن يصبحوا خبراء متقين <<fundist\*\*> لمهنة أو أخرى، يعيشون غالباً على رواتب أرحية (ومريحة). يتقدم موكب الجنائز. ثمة الحدود، والحدود مقدسة. أي شيء آخر، بعد كل حساب، يستطیع ان یضمن للنخب الحاكمة السلطة والامتيازات(٢٩)؛

وتمثل رواية تشينوا انتشيببي الأخيرة، تلالٌ نُمل السُّهوب، مسحاً يفرض نفسه بقوة لهذا المشهد الطبيعي الموهن المثبط للعزيمة.

ويتابع ديفيدسن ليعدّل قليلاً كتابة الوصف الذي قدّمه، فيشير إلى ما يسميه "الحل الذي يأتي به الناس أنفسهم لهذه القشرة المتصلبة المتقبّلة من العهد الاستعماري".

إنّ ما يراه الناس في هذا الموضوع يتجلى في هجراتهم التي لا تنقطع عبر الخطوط المرسومة على الخرائط، بقدر ما يتجلى في مشاريع التهريب التي يقومون بها. وهكذا فحتى فيما تزيد "أفريقيا طبوقسية" حدودها صلابة، وتضاعف أجهزة السيطرة على الحدود، وترعد وتزيد ضد تهريب البشر والبضائع، فإنّ ثمة أفريقيا أخرى في أفريقيا "الشعوب" تعمل بطريقة أخرى مغايرة تماماً(٣٠).

إنّ المعادل الثقافي لهذا المزيج الجسور، لكن المكلف في الغالب، من التهريب والهجرة مألوف، طبعاً، لنا؛ والمثال عليه هو هذه الفئة الجديدة من الكتاب الذين أشار اليهم حديثاً تيم برينان(٣١) في تحليله الحساس بكلمة "عوالمين" cosmopolitan. ولقد أصبح اجتياز الحدود، كما أصبحت حرمانات الهجرة ونشواتها الممتلئة موضوعاً رئيسية للكتابة والفن في عصر ما بعد الاستعمار.

ورغم أنّ بوسع المرء أن يقول إنّ هؤلاء الكتاب وتلك الموضوعات تشكل تشخّصاً ثقافياً جديداً، وأن يشير بإعجاب إلى إنجازات جمالية إقليمية على مدى العالم، فإنني لأؤمن بأن علينا أن ندرس هذا التشخيص من وجهة نظر أقلّ جانبيّة إلى حدّ ما لكنها، في رأيي، أكثر واقعية وتسييساً. وفي الوقت الذي ينبغي فيه أن نُعجَب بحقّ بمادّة عمل <سلمان> رشدي وإنجازاته، لننقل، كجزء من تشكّل هام دالّ ضمن الأدب الانكلوفوني،

\* - زعيم سياسي قومي (١٩٢١ - ١٩٧٣)، وسكرتير عام الحزب الإفريقي لاستقلال غينيا وكيب فردى. (الناشر)  
 \*\* - يحدد قاموس أكسفورد هذه الكلمة بأنها اسم من غربي أفريقيا، ونوع من الأعشاب له حبوب تُستعمل غذاءً، ويسمى القاموس "الرز الجائع" ولا يرد لها معنى آخر، ولم أجد إلا في قاموس أكسفورد الكبير. لكن السياق لا يسقّم بهذه التحديدات. وقد أخبرني صديقي انموند سيفونغو بأن قبائل أوغندية تستخدم هذه الكلمة للخبير في مهنة ما، بالطريقة التي تُستخدم بها كلمة "المعلم" في بعض اللغات المحكية العربية.  
 \*\*\* - وهي تعريب المترجم لـ configuration، وهو ما ينتج عن ترتيب أشياء أو أجزاء بعضها إلى بعض. (الناشر)

فإنّ علينا في الوقت نفسه ان نلاحظ أنّ هذا العمل مُثَقَّلٌ معوَّقٌ، ان عملاً ما كبير القيمة جمالياً قد يكون جزءاً من تشكّل مهذّب، أو قسري، أو مضادّ بعمق للدأب والفكر. لقد كان رشدي حتى قبل نشر الآيات الشيطانية عام ١٩٨٨ شخصية إشكالية بالنسبة للإنكليز بفضل مقالاته وبفضل رواياته السابقة؛ غير أنه، بالنسبة للكثيرين من الهنود والباكستانيين في انكلترا، لم يكن مؤلفاً مشهوراً يعتزّون به وحسب، بل كان أيضاً بطلاً منافحاً عن حقوق المهاجرين ونقادة صارماً للامبرياليين الذين يفرقهم الحنين >إلى الماضي الامبريالي<. اما بعد الفتوى فقد تغيّر مقامه تغيّراً بالغا وغدا لعنة ناقعة في نظر معجبيه السابقين. وان يكون رشدي قد استقرّ <عداوة> الأصولية الإسلامية - وهو الذي كان يوماً، عملياً، ممثلاً للإسلام الهندي - لهو أمر يشهد على الاتّصال الملحاح بين الفن والسياسة اتّصلاً قابلاً للانفجار.

ليس ثمة وثيقة من وثائق الحضارة إلا وهي في الوقت نفسه وثيقة من وثائق البربرية، قال فالتر بنيامين. وهذه الروابط القائمة هي المكان الذي يُعثر فيه على التقاطعات السياسية والثقافية الشائقة لزماننا الراهن. وهي تترك تأثيرها على عملنا النقدي الفردي والجماعي إلى درجة لا تقل عن <أثر> العمل الاستثنائي والطوباري الذي نشعر بارتياح اكبر إزاءه حين نقرا نصوصاً أدبية قيمة، ونناقشها، ونناملها.

لاكن أكثر تعيناً. ليس اللاجنون المشردون من أرضهم، المثقّبون، المُعزّضون للمضايقات باستمرار هم الوحيدون الذين يجتازون الحدود ويسعون الى التناقض في بيئات جديدة. بل إنّ من يفعل ذلك أيضاً هو النظام العملاق، الكلي الوجود، لوسائل الإعلام الجماهيرية، الذي ينسل عبر معظم الحواجز ويستقرّ في كل مكان تقريباً. وكنت قد قلت إنّ هربرت شيلر وأرماند ماتلارت جعلانا نعي هيمنة حفنة من الشركات المتعددة الجنسيات على إنتاج التمثيلات الصحفية وتوزيعها؛ وتصف دراسة شيلر الأحداث عهداً، الثقافة، ش ع م، كيف حدث أن كل جوانب الثقافة، لا إذاعة الأخبار فقط، قد تم غزوها أو احتواؤها من قِبَل حلقة صغيرة، لكنها في توسع متزايد أبداً، من الشركات الخاضعة للملكية الخاصة<sup>(٣٢)</sup>.

وإنّ لذلك عدداً من العقابيل. أولاً، لقد قام النظام الإعلامي العالمي في واقع الأمر بفعل ما تطمح مفاهيم الجماعة collectivity المثالية أو التي تلهمها العقائدية - المجتمعات المتخيّلة - إلى فعله. فحين نتحدث، مثلاً، أو نبحث في ما نسميه أدب الكومونولث أو الأدب العالمي <المكتسب> بالإنكليزية فإنّ جهودنا، في الحق، لا تعدو المستوى الافتراضي؛ وذلك أنّ مناقشة الواقعة السحرية في الرواية الكاريبية والافريقية، لنقل، قد تشير من طرف خفي أو ترسم في أفضل الحالات الخطوط العامة لمجال <مابعد حدائني> أو قومي يوحد بين هذه الأعمال. غير أننا نعرف أن الأعمال ومؤلفيها وقراءها ينتمون الى ظروف محلية ويُفصّح عنهم فيها؛ وهذه الظروف تبقى منفصلةً انفصلاً مفيداً حين نحلّل الشروط المتقابلة المتعارضة للتلقي في لندن أو نيويورك من جهة، وفي الأطراف من جهة أخرى. وبالمقارنة مع الطريقة التي تعمل بها وكالات الأخبار الغربية الأربع الكبرى، ومع النهج الذي يتبعه صحفيو التلفاز العالميون الناطقون بالإنكليزية في اختيار الصور البصرية من بقاع العالم كلها وفي تجميعها وفي إعادة إذاعتها، أو مع السبيل الذي به

تشقّ برامجٌ هوليوود من مثل بونافزا وأنا أحب لوسي طريقها حتى خلال الحرب الأهلية اللبنانية، فإنّ جهودنا النقدية ضئيلة وبدائية. ذلك أن الإعلاميات ليست شبكة عملية متكاملة تكاملاً كلياً فحسب، بل هي كذلك نهج من أنماج الإنصاح بالغ الكفاءة يحيك العالم ويحيله نسيجاً واحداً.

إنّ هذا النظام العالمي، الذي يُنتج الثقافة، والاقتصاد، والقوة السياسية جنباً إلى جنب مع معالمها العسكرية والسكانية ويُفصح عنها جميعها، ليمكّن ميراً مُأسساً لإنتاج صور عبر - قومية خارجة على المقياس تمارس الآن إعادة توجيه الإنشاء الاجتماعي والعملية الاجتماعية العالميين كليهما. خذ على سبيل المثال ظهور "الإرهاب" والأصولية مصطلحين مفتاحين في الـ ١٩٨٠ات. أولاً، لا يكاد يكون بوسعك أن تبدأ (في الفضاء العام الذي يشكله الإنشاء العالمي) في تحليل النزاعات السياسية بين السنة والشيعة، أو الأكراد والعراقيين، أو التاميل والسنهاليين، أو السيخ والهندوسيين - والقائمة طويلة - دون أن تضطر في نهاية المطاف للجوء إلى فُصُلات "الإرهاب" والأصولية" وإلى صورهما، التي اشتُقَّت كلياً من الشواغل والمصانع الفكرية في المراكز الحواضرية مثل واشنطن ولندن. وإنّها لصُورٌ مخيفة تفتقر إلى المحتوى التمييزي والتحديد، بيد أنها تدل على القوة والاستحسان الأخلاقيين لكل من يستخدمها، وعلى الاستدفاعية والتجريم الأخلاقيين لكل من تُشير إليه وتخصمه. ولقد قام هذان التقليصان العملاقان باستنفار الجيوش وتعبئتها كما استنفرا وعبأ المجتمعات المتبعثرة. وليس بالإمكان، في رأيي، فهمُ ردة فعل إيران الرسمية على رواية رشدي، أو الحماسة غير الرسمية له في المنجعات الإسلامية في الغرب، أو التعبير الخاص والعام عن السخط العنيف في الغرب ضد الفتوى، دون الإشارة إلى المنطق العام والإفصاحات وردود الفعل الجزئية الصغيرة التي أطلقها من عقالها النظام الطاغوي الذي مازلت أسعى إلى وصفه.

وهكذا يكون أنه في منجعات القراء المنفتحة والمعنية، مثلاً، بظهور أدب انكلوفوني أو فرانكوفوني في مرحلة ما بعد الاستعمار، لا توجّه التشخيصات المتبطنة وتتحكم بها الاكتناهاة الاستثنائية، أو الحدس المتعاطف والمثقف، أو القراءة التي تستند إلى اطلاع واسع، بل عمليات أكثر خشونة وأشد أدواتية هدفها تعبئة الموافقة والإقرار، consent، واجتثاث الانشقاق، dissent، وتشجيع حمية وطنية تكاد تكون عمياء بالمعنى الحرّفي. وبوسائل كهذه تُضمّن إمكانية حكم أعداد كبيرة من البشر تُقمع (أو تُخدر) طموحاتها إلى الديمقراطية والتعبير، وهي طموحات تملك طاقة التعويق والتعطيل، في مجتمعات الجماهير بما في ذلك، طبعاً، المجتمعات الغربية.

إنّ الخوف والرعب اللذين تولدتهما الصور المضخّمة بمقياس مفرط لـ "الإرهاب" والأصولية - ولتسمّها شخصاً خصوصاً لتخيل عالمي أو عبر- قومي مكون من شياطين أجنبي - ليسرّعان خضوع الفرد للمعايير المهيمنة في اللحظة الراهنة. ويصدق هذا على المجتمعات ما بعد الاستعمارية الجديدة، بقدر ما يصدق على الغرب عامةً والولايات المتحدة بشكل خاص. وهكذا فإن يعارض المرء الشذوذية والتطرف المتأصلين في الإرهاب والأصولية - والمثل الذي أقدمه لا ينطوي إلا على قدر ضئيل من المحاكاة الساخرة - يعني أيضاً تعضيد الاعتدال، والعقلانية، والمركزية التنفيذية لروحية جمعية <ethos> غامضة

التحديد "غربية" (او فيما عدا ذلك محلية ومفترضة بحمية وطنية). والمفارقة اللاذعة هي ان هذا المحرك الحيوي، بدلاً من ان يمنح الروحية الغربية الثقة بالنفس والشعور بـ "السوانية الطبيعية" الآمنة اللذين يرتبطان في اذهاننا بـ <امتلاك> الامتيازات والاستقامة، فإنه ينفذتنا\* بغضب وروح استدفاعية حقائنين يبدو من خلالها "الآخرون" في النهاية اعداء، عاقدى العزم على تدمير حضارتنا ونهجنا في الحياة.

إن ما قدمته لا يعدو ان يكون خطاطة <استكشاً> سريعة للكيفية التي تقوم بها هذه الانساق من السننية الإكراهية وتعظيم الذات بمزيد من التدعيم لقوة الإقرار غير المحص والمذهب غير القابل للتحدي. وإذ يُرْفَعُ ذاك الإقرارُ وهذا المذهبُ ببطء مع مرور الزمن وغير قدر كبير من التكرار، فإن ردّ الأعداء المخصوصين عليهما يأتي، للأسف، بنهاية مطابقة. وهكذا يقوم المسلمون، أو الأفارقة، أو الهنود، أو اليابانيون، بعباراتهم الجاهزة الخاصة، ومن داخل امكنتهم المحلية المهذبة، بمهاجمة الغرب، أو الأمريكة، أو الامبريالية بقدر من العناية بالتفاصيل، والتفريق النقدي، والتمييز، والامتياز لا يربو علي ما كان الغربُ قد أسبغه عليهم. والأمر ذاته ينطبق على الأميركيين، الذين تقاربُ الحمية الوطنية بالنسبة اليهم درجة الالهوية. وإن هذا في نهاية المطاف لمحرك حيوي عبثي لا عقلانية فيه. فإيّا كانت الأهداف التي تسعى اليها "حروب الحدود" فإن هذه الحروب مُفْقِرَةٌ موهبة. <إذ> ينبغي علي المرء <بموجبها> ان ينضم الى الفئة البدئية أو المكونة؛ او يقبل، باعتبارها آخر تابعاً ومنضوياً، مقاماً دونياً؛ او ينبغي عليه ان يحارب حتى الموت.

وإن هذه الحروب الحدودية لتعبير عن عمليات خلق الجواهر\*\* - أفرقة الافريقي، شرقنة الشرقي، غربنة الغربي، امركة الاميركي، لزمان غير محدود ودون ان يكون ثمة من بديل (إذ إن الجوهر الافريقي، والشرقي، والغربي لا يمكن إلا ان يظلّ جوهرأ) - وذلك نسق ما يزال يُثَقَّلُ محمولاً من عهد الامبريالية التقليدية وانظمتها. ما الذي يقاومه؟ ثمة مثل واضح يكشف عنه إيمانويل فالرُشتاين ويسميه الحركات المضادة للنظم، التي ظهرت كإحدى عقابيل الامبريالية التاريخية<sup>(33)</sup>. ويوجد في الآونة الأخيرة عدد كافٍ من هذه الحركات المتأخرة في مجيئها لمنح قوة العزيمة حتى لأشد المتشائمين تصلباً: الحركات الديمقراطية على ضفاف فائق الاشتراكية كلها، والانتفاضة الفلسطينية، وحركات شتى اجتماعية، وبيئية، وثقافية، عبر امريكا الشمالية والجنوبية، والحركة النسائية. ومع ذلك، فمن الصعب على هذه الحركات ان تولي اهتماماً للعالم فيما وراء حدودها الخاصة، او ان تمتلك المقدرة والحرية لإصدار التعميمات عليه. فإذا كنت تنتمي الى حركة معارضة فيلبينية، او فلسطينية، او برازيلية فإنّ عليك ان تتعامل مع المتطلبات الأخطوية والتنقلية <التكتيكية واللوجيستكية> للكفاح اليومي. ورغم ذلك فإنني لأعتقد ان جهوداً من هذا النمط تقوم بتطوير استعداد إنشائي مشترك، او - لأعبر عن الفكرة بلغة جغرافية أرضية - خريطة للعالم متبطنة، إن لم يكن نظرية عامة. وقد يكون بوسعنا ان نبدأ الآن بالحديث عن هذه الحالة المراوغة بعض الشيء من المعارضة، وعن استخطاياتها الآخذة بالبروغ، بوصفها إفصاحاً مضاداً عالمياً.

\* - اي الغربيين. (الناشر)

\*\* - إزاء essentializations، بما فيها - كما اسرنا أنفاً - من تقليص للإنسان او الفئة الاجتماعية إلى لبّ مزعوم ومقيّد. (الناشر)

ترى ما هو النمط الجديد أو الأكثر جدةً من السياسيات الفكرية والثقافية الذي تقتضيه هذه العالمية internationalism<sup>(٣٤)</sup>؛ وما هي التحولات والتشخصات المغيّرة الهامة التي ينبغي أن تطرأ على أفكارنا المحدّدة تحديداً تقليدياً ومتجذراً في التمرّكزية الأوروبية عن الكاتب، والمثقف، والناقد؛ إنَّ الانكليزية والفرنسية لغتان عالميتان، وإنَّ منطق الحدود والجواهر المتحارية منطق شمولي مكلّ، ولذلك ينبغي أن نبدأ بالإقرار بأن خريطة العالم ليست فيها فضاءات، أو جواهر، أو امتيازات مكرّزة إلهياً أو مذهبياً. ومع ذلك، فإنَّ بوسعنا أن نتحدث عن فضاء علماني دنيوي، وعن تواريخ مشكّلة مبتنّاة من قبل الإنسان ومتبادلة الاعتماد، قابلة في الأساس لأن تُعرّف، وإن لم يكن ذلك من خلال النظريات الجليلية الكبرى والتكليفية <التحويل إلى كليات> المنتظمة المطردة. عبر هذا الكتاب كله، مازلتُ أردد أن التجربة الانسانية منسوجة بدقة، ومكثفة، وقابلة لأن تُبلّغ إلى درجة تفنيها عن وكالات زاتاريخية أو زاتنوية\* لإصاقتها وإيضاحها. وأنا اتحدث عن طريقة لاعتبار عالمنا قابلاً بسلاسة للاكتناه والاستنتاج دون مفاتيح سحرية، أو معاذلات مصطلحية وأدوات خاصة، أو ممارسات، محجّبة.

نحن بحاجة إلى مُنسّق مختلفٍ وابتكاري للبحث في الإنسانيات. إنَّ بوسع الباحثين أن ينخرطوا صراحةً في سياسيات الحاضر ومشاغله - بعيون مفتوحة، وحيوية تحليلية صارمة، <حاملين> القيم الاجتماعية اللانقة بأولئك المعنيين لا ببقاء إقطاعية في حقل دراسي معين أو بقاء نقابة، ولا ببقاء هوية تحكّمية متلاعبة مثل "الهند" أو "أميركا"، بل بتحسين الحياة وتنميتها الخالية من الإكراه في مجتمع يكافح من أجل أن يحيا بين مجتمعات أخرى. ولا ينبغي على المرء أن يقلل من صعوبة أو قدر الحفريات الخلاقة المطلوبة في عمل من هذا النوع. إنَّ المرء لا يبحث عن جواهر فذة الأصالة، سعياً إلى ترميمها أو موضعيتها في مكان ذي شرف لا يرقى إليه التجريح. تعايُن دراسة التاريخ الهندي في دراسات منضوية، مثلاً، بوصفها سجلاً مستمراً بين الطبقات وبين نظمها المعرفية المتنازع عليها. وبالمثل، فإنَّ الانكليزية في نظر المسهمين في العمل ذي المجلدات الثلاثة الذي حرره رافائيل صامول <بعنوان> الوطنية، لا تُعطي أولوية على التاريخ، إلا بقدر ما تُسخر الحضارة الأتيكية <الأثينية> في <كتاب> مارتين برنال اثينا السوداء ببساطة لتعمل كأنموذج لي-تاريخي لحضارة متفوقة.

والفكرة التي تختفي وراء هذه الأعمال هي أنُّ نسخات التاريخ التي تكون سننية، وقومية ومؤسسية بطريقتي سلطوية تنزع بشكل رئيسي إلى أن تجمّد نسخات للتاريخ مؤقتة ومعرضة للتنازع في صيغة هويات رسمية. وهكذا فإنَّ النسخة الرسمية للتاريخ البريطاني المدفونة في - لنقل - المحافل التي أقيمت لنائب الملكة فيكتوريا الهندي عام ١٨٧٦ تتظاهر بأن الحكم البريطاني للهند كان ذا امتداد أسطوري تقريباً؛ وقد أدرجت تقاليد الخدمة، والإجلال، والخضوع، الهندية في هذه الاحتفالات من أجل خلق صورة لهوية عبرتاريخية لقارة بأكملها مضغوطة في قالب من الانصياع أمام صورة لبريطانيا تتمثل هويتها - وهي بدورها هوية مشكّلة - في أنها حكّمت ويجب أن تظل أبداً تُحكّم

\* - تعريب المترجم لـ extra-historical و extra-worldly. والاشيع في الكتابة المعاصرة: خارتاريخي وخاردنيوي (أي خارج عن التاريخ والعالم). (الناشر)



الأمواج والهند معاً<sup>(٣٥)</sup>. وفيما تحاول هذه النساخاتُ الرسميةُ للتاريخ أن تفعل ذلك من أجل السلطة الهوياتية (بمصطلحات أدورنيّة) - كالثقافة، والدولة، والفئة المفكّرة <الانتلجنسيا> السُنّية، والمؤسّسة - فإنّ الاكتناهااتِ المستريّةِ بأطراد، وانقشاعاتِ الوهم، والمنازعاتِ، الماثلة <جميعها> في الأعمالِ المبتكرة التي اقتبسناها، تُخضع هذه الهويات المركبة الهجينة لجدلية سلبية تقوم بحلّها الى مكونات مشكّلة مبتناة بطرق شتى. فأكثر أهمية بكثير من الهوية المستقرة التي يحافظ على رواجها في الإنشاء الرسمي هو القوة التساجلية لطريقة تأويلية تتكون مادتها من مسارات التجربة التاريخية، وهي مسارات متفاوتة لكنّها متواشجة ومتوافقة <متبادلة الاعتماد> ... ومتقاطعة فوق كل شيء.

نجد مثلاً فائق الجرأة لهذه القوة في تأويلات يجيء بها أكبرُ شاعر عربي معاصر، هو أدونيس - الاسم المستعار لعلي أحمد سعيد - للتراث الأدبي والثقافي العربي. فمنذ صدور الثابت والمتحول في ثلاثة مجلدات بين عامي ١٩٧٤ و ١٩٧٨، ما يزال أدونيس، وحيداً دون عون تقريباً، يتحدّى الاستمرار الملاحق لما يعتبره الموروث المتحرّج، المقيد بالتقاليد العربية - الإسلامية، العالق لا في الماضي وحسب بل في إعادات قراءة متصلة صارمة وسلطوية للماضي. يقول أدونيس إنّ الغرض من إعادات القراءة هذه هو منع العرب من مواجهة الحداثة مواجهةً حقة. ويربط أدونيس في كتابه عن الشعريات العربية <الشعرية العربية> بين القراءة الحرفية المتصلّبة الجامدة لشعر عربي عظيم، بالحكّام، فيما تجلو القراءة التخيلية الخلاقة أنه في قلب التراث العريق التليد <الكلاسيكي> - بما في ذلك القرآن نفسه - ثمة تيار احتجاجي رافض تخريبي يجابه السننية الظاهرية التي تعلنها وتتبناها السلطاتُ الزمنية. ويكشف أدونيس كيف أن حكم القانون <الشرعية> في المجتمع العربي يفصل السلطة عن التنقيد، والتقليد عن الابتكار، حاصراً التاريخ بذلك في مرزّمة <نظام ترميز> مضمّنية من السوابق التي تكرر الى ما لا نهاية. ويضع نقياً لهذا النظام قوى الحداثة النقدية التي تتحلّى بالقدرة على الحل والإذابة:

كانت السلطة، بتعبير آخر، تسمّي جميع الذين لا يفكرون وفقاً لثقافة الخلافة، بـ "أهل الإحداث"، نافياً عنهم بذلك انتماءهم الإسلامي. وفي هذا ما يوضح كيف أن عبارتي "الإحداث" و"المحدث"، اللتين وُصِفَ بهما الشعر الذي خرج على الأصول القديمة، تجنّبان من المعجم الديني. وفيه ما يوضح كيف أن الحديث الشعري بدأ للمؤسسة الساندة، كميث الخرج السياسي أو الفكري، خروجاً على ثقافة الخلافة، ونقياً للقديم النموذجي. ومن هنا نفهم كيف أنّ الشعر في الحياة العربية امتزج دائماً بالسياسي - الديني، ولا يزال يمتزج به حتى الآن<sup>(٣٦)</sup>.

ورغم أن عمل أدونيس ومشاركه في مجلة مواقف لا يكاد يكون معروفاً خارج العالم العربي، فإنه يمكن أن يعاين كجزء من تشخّص عالمي أكثر اتساعاً بكثير يضم كتاب يوم الحقل<sup>\*\*</sup> في أيرلنده، وجماعة دراسات منضوية في الهند، ومعظم الكتاب المنشقين في أوروبا الشرقية، وعدداً كبيراً من المثقفين والفنانين الكاريبيين الذين يمتد موروثهم إلى سي. إل. آر. جيمس (ولسن هاريس، جورج لامنغ، أريك وليمز، ديرك وولكوت، ادوارد بريثويت، في. إس. نيهال المبكر). وفي عُرّف جميع هذه الحركات وهؤلاء الأفراد، فإنّ الشعريات المستهلكة وصيغ الحمية الوطنية التي تحيل التاريخ الرسمي إلى مثل عليا يمكن

\* - اقتبست هنا نص أدونيس الأصلي في الشعرية العربية (دار الآداب، بيروت، ١٩٨٥، ص ٨٠ - ٨١)، بدلاً من ترجمة الترجمة الانكليزية التي يقتبسها المؤلف، وهي غير دقيقة في بعض المواضع.  
\*\* - راجع بعض اعلامهم في نهاية الجزء الثالث من الفصل الثالث. (الناشر)

ان تذاب وتحلُ جنباً إلى جنب مع إرثها من العبودية الفكرية والانتهاكات المضادة الاستدفاعية. وكما قال شيموس دين بالإشارة إلى الحالة الأيرلندية فإن أسطورة الأيرلندية، ومفهوم اللاواقعية الأيرلندية، والمفاهيم التي تحيط بالفصاحة الأيرلندية، كلها موضوعات سياسية سَمِنَ عليها الأدبُ إلى درجة متطرفة منذ اخترعتُ فكرة الشخصية القومية في القرن التاسع عشر<sup>(٣٧)</sup>. ومن هنا فإن المهمة التي تقع على عاتق المفكر الثقافي ليست قبول سياسيات الهوية كما تقدّم، بل ان يكشف كيف أن جميع التمثيلات مشكّلة مُبتناة، ويكشف أهدافَ تشكيلها، ومشكّلها، ومكوّناتها.

وهيات أن يكون ذلك سهلاً. فلقد زحفت استدفاعية مروعة إلى الصورة الرسمية التي تحملها أميركا عن نفسها، وخاصة في تمثيلاتها للماضي القومي. إن كل مجتمع وراث رسمي يزود\* عن نفسه ضدّ التدخلات في شؤون سردياته المكرّزة؛ ومع مرور الزمن تكتسب هذه السرديات ما يقارب المقام الفقهي الديني: بأنطال مؤسسين، وأفكار وقيم محفوفة بالإعزاز، وتمثيلات ترميزية ذات تأثير يستحيل تقديره على الحياة الثقافية والسياسية. ولقد تعرّض اثنان من هذه العناصر حديثاً للتحخيص والاستبار - هما أميركا كمجتمع ريادي، والحياة السياسية الأميركية كانعكاس مباشر للممارسات الديمقراطية - وكانت حصيلة ذلك ضجةٌ مثيرة فعلاً للانتباه. وفي كلتا الحالتين، بذل المثقفون أنفسهم قدراً جاداً وعلمانياً من الجهد الفكري، لكنه ليس كافياً لإطلاقاً، لتقبُّل وجهات النظر النقدية؛ ذلك أن المفكرين - مثلهم إلى حد ما مثل مقدّمي البرامج التلفازية الرئيسيين الذين يستدخلون معايير القوة والسلطة - قد استدخلوا معايير الهوية الذاتية الرسمية.

تاملُ مثلاً معرض أميركا كغرب الذي أقيم في "الصالة القومية للفن الأميركي" عام ١٩٩١؛ والصالة جزء من "المعهد السميثسوني" الذي تنفق عليه جزئياً الحكومة الاتحادية <الفيدرالية>. تبعاً للمعروضات، فإن فتح الغرب <الأمريكي> وإحتواءه لاحقاً ضمن الولايات المتحدة قد تم تحويلهما إلى سردية بطولية تحسينية\*\* قنعت أو رُمست\*\*\* أو ببساطة بترت الحقيقة المتعددة الوجوه لعملية الفتح ذاتها ولتدمير السكان الأميركيين الأصليين والبيئة الطبيعية معاً. وعلى سبيل المثال، فقد وُضعت صوراً للهنود الحمر في لوحات أميركية من القرن التاسع عشر - يبدو الهندي الأميركي فيها نبيلاً، مسربلاً بالكبرياء، تأملياً - بإزاء نص متصل على الجدار نفسه يصف إذلال الأميركي الأصليين وتحقيزهم على يد الرجل الأبيض. وقد أثارت هذه "التقويضات" حفيظة أعضاء الكونغرس، سواء أشاهدوا المعرض أم لم يشاهدوه؛ وراوا أن من غير المقبول أن يُعرض انحيازه اللاأميركي واللاوطني خصوصاً من قبل مؤسسة اتحادية. ولقد هاجم اساتذة جامعيين، وخبراء معلقون، وصحفيون، ما اعتبروه تلطيحاً خبيثاً لـ "فداة" الولايات المتحدة، وهي - بعبارة كاتب في الـ واشنطن پوست - "الأمّل والتفاؤل في تأسيسها، ووعود خيراتها الوفيرة، والجهود التي لا تني لحكومتها"<sup>(٣٨)</sup>. ولم يشذ عن هذه النظرة سوى استثناءات

\* - والإفراد في الأصل الإنكليزي. (الناشر)

\*\* - إزاء، meliorist، أي مؤمنة بأن العالم ينزع إلى التحسّن أو أن بمقدور الجهد البشري أن يُسهم في تحسينه. (الناشر)

\*\*\* - وهي الترجمة التي ارتاعا المرعّب لـ romanticized، أي: صوّت الأمور بطريقة رومانسيّة مثالية، ويُقال اليوم أيضاً: رنطقت. (الناشر)

قليلة من مثل روبرت هيوز الذي كتب في <مجلة> تايم (٣١ أيار ١٩٩١) قائلًا عن المعروضات الفنية إنها "أسطورة تأسيسية باللون والحجر".

أما أن يكون خليط غريب من الاختلاقات، والتاريخ، وتعظيم الذات قد دخل في تشكيل صورة الأصل القومي هذه، كما يدخل في جميع أمثاله من القصص، فأمرٌ حَكَمَ عليه إجماعٌ شبه رسمي بأنه غير لائق بأميركا. وإنما لمفارقة ضدية بحق أن الولايات المتحدة، وهي مجتمع من المهاجرين يتألف من ثقافات متعددة، تملك إنشاءً عمومياً أعظم خضوعاً للتفتيش الشرطي <البوليسي>، وأشدُّ حرصاً على أن يصوِّر البلادَ نقيّةً من الشوائب وأشدُّ تلاحماً وتوحداً حول سرديّة ضخمةٍ وتامةٍ الإحكام من الانتصار البري. إنَّ هذا الجهد المبذول للحفاظ على الأمور بسيطةً وخيرةً يفكُّ عرى الروابط بين أميركا وبين غيرها من المجتمعات والشعوب، معزِّزاً بذلك نابعها وعزوليتها الجُزرية.

ثمة حالة أخرى فائقة هي الخلافة التي أحاطتْ بفيلم أوليفر ستون JFK، وهو عمل ذو عيوب خطيرة صدر عام ١٩٩١. كانت المقدمة المنطقية التي انطلق منها الفيلم أن اغتيال كينيدي قد تم تدبيره في مؤامرة لأميركيين معارضين لرغبته في إنهاء حرب فيتنام. فلنسلّم جدلاً بأن الفيلم كان متفاوت المستويات ومشوشاً، ولنسلّم أيضاً بأن الدافع الرئيسي الذي حدا بستون لإنتاجه ربما كان تجارياً محضاً، <لكن السؤال يبقى>: لماذا رأى هذا العددُ الكبيرُ من الوسائط غير الرسمية للسلطة الثقافية - صحف مرموقة، ومؤرخو مؤسسات <خاصة>، وسياسيون - أن مهاجمة الفيلم قضية هامة؟ إنَّ الإنسان غير الأميركي لا يحتاج إلا إلى القليل القليل لكي يتقبل كنقطة انطلاق أن معظم الاغتيالات السياسية، إن لم تكن كلها، إنما هي مؤامرات؛ فكذا هو العالم. بيد أن جوقه من الحكماء الأميركيين تحتل هكتارات من المساحات الطباعية كي تتكرر أن المؤامرات تحدث في أميركا، لأنَّ "نا" نمثّل عالماً جديداً، وعالماً أفضل، وأكثر براعة. وفي الوقت نفسه ثمة أدلة وافرة على وجود مؤامرات ومحاولات اغتيال أميركية رسمية ضدَّ "الأبالسة الأجنبي" المكرزين كذلك (من مثل كاسترو، والقذافي، وصادق حسين، وغيرهم). لكن الربط بين هذا وذاك لا يتم، وتبقى الأمور التي تذكّر بذلك كله طي الكتمان.

ومن هذه النقاط ينبع طقم من المقتضيات الكبرى. فإذا كانت الهوية الرئيسية، الأكثر رسميةً، وقوةً، وقسراً، هي هوية الدولة بحدودها، وجماركها، وأحزابها وسلطاتها الحاكمة، وسردياتها وصورها الرسمية، وإذا كان المثقفون يعتبرون أن هذه الهوية بحاجة إلى نقد وتحليل مستمرين، فإنَّ ذلك ليقضي أن تكون هوياتٌ أخرى، مشكّلةً متبناةً بطريقة مماثلة، هي أيضاً بحاجة إلى تمحيص واستجواب مماثلين. إنَّ التعليم الذي تلقاه أولئك المهتمون بالأدب ودراسة الثقافة بيننا قد نُظِمَ بشكل رئيسي تحت تسميات متنوعة - الكاتب المبدع، العمل المكتفي بذاته والمستقل، الأدب القومي، الأجناس المنفصلة - اكتسبت حضوراً يكاد يكون من نمط الانشياء <التولّهُ بالأشياء والهوس بها>. ولا شك الآن أنه سيكون من الجنون أن نطرح منظومة أن الأعمال الفردية والكتّاب الأفراد لا وجود لهم، وأن الفرنسية، واليابانية، والعربية ليست لغات منفصلة، وأن ميلتون، وطاغور، وألجو كاربنتيير ليسوا إلا تنويعات مختلفة اختلافاً تافهاً فقط على الموضوعة نفسها. كما أنني لست أقول الآن إنَّ مقالة عن <رواية> ديكنز توقعات عظيمة، ورواية ديكنز توقعات عظيمة نفسها هما

شيء واحد. بيد أنني أقول فعلاً إنَّ "الهوية" لا تنطوي بالضرورة على ثبات، أو فداذة، أو شخصية غير قابلة للتقليص، أو على مقام امتياز، معطاة وجودياً ومحمّمة إلى ابد الأبد، كشيء كلّي وكامل في ذاته ومن ذاته. إنني لأفضّل أن أفسّر رواية ما كاختيار لنهج من انهاج الكتابة من بين عدد كبير من الأنهاج، والنشاط الكتابي كنهج اجتماعي معين بين انهاج عديدة، وفصلة "الأدب" كشيء مخلوق لخدمة أغراض دنيوية متنوعة بما في ذلك، بل ربما بشكل رئيسي، أغراض جمالاتية. وهكذا فإنَّ مَحْرَق التركيز في وجهات النظر التمحيصية والمزلزلة للمواقف الراسخة، التي يصدر عنها أولئك الكتاب الذين تعارض أعمالهم الدولَ والحدودَ معارضةً ناشطة هو، على سبيل المثال، الكيفية التي يبدأ بها عمل فني ما من حيث مر عمل، ويبدأ من وضع سياسي، أو اجتماعي، أو ثقافي، ويبدأ بنعد أمور معينة دون أخرى.

لقد تواشج التاريخ الحديث للدراسة الأدبية بتطور القومية الثقافية التي كان هدفها أولاً تمييزُ الموروث الشرائعي المكنون <القانون> القومي، ثم الحفاظ على بروزه وسلطته واستقلاليتِه الجمالاتية. حتى في تلك المناقشات التي تتعلق بالثقافة بشكل عام والتي بدأ انها تسمو فوق الفروقات القومية مراعاةً لمجال كوني، تمسك الدارسون بالتراتبيات والتفضيلات الأعراقية (بين الأوروبية منها وغير الأوروبية مثلاً). وإنَّ هذا لَيَصْدُقُ على ماثيو ارنولد بقدر ما يصدق على نقاد القرن العشرين الثقافيّين والفقهلغويين الذين أجلهم - أويرباخ، أدورنو، شبيترز، بلاكمر. فبالنسبة اليهم جميعاً، كانت ثقافتهم بمعنى ما هي الثقافة الوحيدة. وكانت الأخطار التي تهددها إلى حد بعيدٍ داخليةً - تتمثل بالنسبة للمحدثين منهم في الفاشية والشيوعية - وكان ما أعلوا من شأنه وتعلقوا به هو النزعة الإنسانية الطبوقسطية الأوروبية. أما الآن فلم يبق لا تلك الروحية الجمعية، ولا ذلك التدريب الصارم المطلوب من أجل غرس ذلك التعليم، ولا ذلك الانضباط الفائق الذي يقتضيه، رغم أن المرء لا يعدم أن يسمع من أن لأن نبرات الإعجاب والتلمذة الاسترجاعية؛ لكن ما من عمل نقدي يُنَجَزُ الآن يماثل نمط العمل الذي أنجز في <كتاب أويرباخ> محاكاة. وبدلاً من النزعة الانسانية البورجوازية الأوروبية، فإنَّ المقدمة <المنطقية> الأساسية اليوم هي ما تقدمه ترسبات القومية، بسلطاتها الاشتقاقية المختلفة، متحالفة مع نزعة احترافية تقسّم المادة إلى حقول، وفروع، وتخصصات، ومصادقات، وما شابه ذلك. أما مبدأ الاستقلالية الجمالاتية الذي أستطاع البقاء فقد انحلَّ إلى أشكالية <أو شكليّة> ترتبط بطريقة محترفة أو أخرى - البنيوية، التقويضية، إلخ.

إنَّ نظرة إلى بعض الحقول الجامعية الجديدة التي خلقت منذ الحرب العالمية الثانية، وخصوصاً كنتيجة للصراعات القومية غير الأوروبية، لتكشف عن تشكيل تضاريسي مختلف وطقم من المستلزمات مختلف. فمن جهة أولى، ينبغي على معظم دارسي الآداب غير الأوروبية اليوم، طلبةً ومدرسين، أن يأخذوا بالاعتبار منذ اللحظة الأولى سياسيات ما يدرسونه؛ فليس بوسع المرء أن يؤجّل مناقشة العبودية، والاستعمار، والعنصرية العرقية في أيّ اكتناهم جاداً للآداب الحديث الهندي، أو الإفريقي، أو الاميريكي اللاتيني أو الشمالي، أو العربي، أو الكاريبي، أو الكومنولثي. كما انه ليس من المسؤولية الفكرية في شيء أن يناقش المرء هذه الآداب دون إشارة إلى ظروفها الصراعية الحضارية إما في مجتمعات ما بعد الاستعمار أو كرعايا مهمشين و/أو مخضعين ومحصورين في نقاطٍ ثانوية الأهمية في

البرامج الدراسية في المراكز الحواضرية. كذلك لا يستطيع المرء أن يختبئ وراء ستار الوضعية والتجريبية ويطلب ارتجالاً أسلحة النظرية. ومن جهة أخرى، فإنه لخطأ أن يحتج المرء أن الآداب الأخرى غير الأوروبية، تلك التي تملك بوضوح أكبر وشائجً دنيويةً مع القوة والسياسة، يمكن أن تُدرس دراسة "محترمة" كما لو كانت في واقع الأمر على قدر من العلو، والاكتمالية الذاتية، والاستقلالية الجمالاتية، والإرواء، يضاهاى القدر الذي جعلت الآداب الغربية تتحلى به. إن مفهوم الجدل الأسود في قناع أبيض ليس أكثر عزةً أو قابلية للاستخدام في الدراسة الأدبية مما هو عليه في السياسة. وإن التقليد والمومة الساخرة لا يمضيان بالمرء شوطاً طويلاً.

التلوث ليس الكلمة السليمة للاستخدام في السياق الراهن، بيد أن مفهوماً ما للأدب بل للثقافة كلها كشيء هجين (بالمعنى المعقد المتشابك للكلمة عند هومي بابا) (٣٨) ومثقل بالمحمولات، أو متعلق ومتقاطع مع ما جرت العادة على اعتباره عناصر خارجية زائدة - هو ما يصدمني بوصفه الفكرة الجرمة للوقائع الثورية اليوم، التي تفعم فيها النزاعات الماثلة في العالم الدنيوي بطريقة مستفزة النصوص التي نقرأها ونكتبها معاً. لم يعد في طاقتنا اليوم أن نجازف بتبني تصورات للتاريخ تؤكد التطور الخطي أو التجاوز المتسامي الهيجلي، وأكثر مما نستطيع أن نقبل الافتراضات الجغرافية أو الإقليمية التي تخص بالمرکزية العالم الأطلسي وتخص الأقاليم غير الغربية بالهامشية الأطرافية الطُبعية <الخفئة> بل الجنوحية أيضاً. وإذا كان لتشخصات مثل "الأدب الأنكوفوني" أو "الأدب العالمي" أن يعنيا شيئاً على الإطلاق، فإنما ذلك لأنهما بمجرد وجودهما وفعليتهما اليوم يشهدان على وجود النزاعات والصراعات المستمرة التي بفضلها ظهرا إلى الوجود نصوصاً وغمرب تاريخية في أن واحد، ولأنهما أيضاً يتحديان بقوة الأساس القومي لتأليف الأدب ودراسته، والاستقلالية واللامبالاة المتعاليتين اللتين جرت العادة أن تعين بهما الآداب الحواضرية الغربية.

ما إن نقبل التشخص الفعلي للتجارب الأدبية متقاطعة بعضها عن بعض ومتبادلة الاعتماد، رغم وجود الحدود القومية والاستقلاليات الذاتية القومية المشرعة قسراً، حتى يتجلى التاريخ والجغرافيا متشخصين معدئين في خرائط جديدة، في كينونات جديدة وأقل ثباتاً بكثير، وفي أنماط جديدة من الروابط. عندها يتحول المنفى من كونه قدرَ بؤساء شبه منسيين، مشردين ونزلاء في بلدان <غريبة>، إلى شيء أقرب إلى المعيار، <إلى> تجربة لعبور الحدود وتخطيط أقاليم جديدة تحدياً للمنغلقات التقليدية الشرائعية المكنونة، أيًا كان قدر ما ينبغي أن يلقاه الخسران والأسى في المنفى من اعتراف وتدوين. إن الأنموذجات والأنماط التي تغيرت حديثاً تتزاحم مع أنموذجات وأنماط قديمة. ولا تبقى ثمة من حاجة بالقارئ أو المنتج للأدب - الذي يفقد هو بدوره أشكاله المترسخة ويتقبل الشهادات، والتفتيحات، والعلامات <الموسيقية> لتجربة ما بعد الاستعمار، بما في ذلك الحياة التحترضية، وسرديات العبيد، وأدب النساء، والسجون - لأن يظل مشدوداً إلى صورة للشاعر أو الباحث في عزلة، أمناء، متزناً، قومياً في الهوية، أو الطبقة، أو الجنس، أو المهنة، بل يغدو قادراً على أن يفكر ويعيش التجربة مع <جان> جنيه في فلسطين أو الجزائر، ومع الطيب صالح كرجل أسود في لندن، ومع جاميكا كنيكيد في العالم الأبيض، ومع رشدي في الهند وبريطانيا، وهلم جرأً.

علينا ان نوسّع الافاق التي تُطرح بإزائها الاسئلة المتعلقة بكيند نقرا ونكتب وماذا نقرا ونكتب، وإبزائها يُجاب على هذه الاسئلة. إن بيتنا الفقهلغوي - بتلخيص لملاحظة إبداءها إريك أويرباخ في إحدى مقالاته المتأخرة - هو العالم، لا الأمة ولا حتى الكاتب الفرد. ويعني ذلك ان علينا نحن طلبة الأدب المحترفين ان نأخذ بالحسبان عدداً من القضايا الصارمة القابضة هنا، مجازفين بأن نواجه بعدم الاستحسان وبالالتهم باننا نعاني من جنون العظمة. ذلك أنه في عصر الإعلاميات الجماهيرية وما اسميته صناعة الإقرار والمواقفة، سيكون من الپانغلوسية\* ان نتصور ان القراءة المتأنية لبضعة أعمال إبداعية تعتبر من وجهة نظر إنسانية، او احترافية، او جمالاتية، هامة دالة هي أكثر من نشاط خاص ليس له من النتائج العامة إلا أكثرها وهناً. إن النصوص أشياء پروتيوسية\*\* متحولة حياوية؛ وهي مرتبطة بظروف معينة وبالسياسة كبرى وصغرى، وذلك كله يتطلب الانتباه والنقد. ومن الطبيعي أنه ليس في وسع إنسان واحد ان يحسب حساب كل شيء، تماماً كما أنه ليس في وسع نظرية واحدة ان تشرح او تستوفي العلاقات ما بين النصوص والمجتمعات. غير ان قراءة النصوص وكتابتها ليستا أبداً نشاطين محايدين: بل ثمة مصالح، وقوى، وعواطف مشبوبة، وملذات ناتجة أياً كان العملُ جمالياً أو مسلياً. وإن الإعلاميات، والاقتصاد السياسي، والمؤسسات الجماهيرية - وإيجاز، الآثار المشفوفة للقوة الدنيوية وتأثير الدولة - هي جميعاً جزء مما نسميه الأدب. وكما ان من الصحيح أننا لانستطيع قراءة أدب ينتجه الرجال دون ان نقرا كذلك أدباً تنتجه النساء - فلقد بلغ تغيرُ هيئة الأدب درجة عالية - فإن من الصحيح أيضاً أننا لا نستطيع التعامل مع أدب الأطراف دون ان نُعنى بأدب المراكز الحواضرية.

وبدلاً من التحليل الجزئي الذي تقوم به مختلف المدارس القومية او المدارس النظرية بانتظام مطرد، فإنني لما أزل أقترح الخطوط الطباقية لتحليل كوني، تعانين فيه النصوص والمؤسسات الدنيوية بوصفها عاملة معاً، ويُقرأ فيه ديكنز وٹاكري - المؤلفان اللنديان - أيضاً ككاتبين تُفعم تجربتهما التاريخية بالمشروع الاستعماري في الهند وأستراليا الذي كانا على وعي تام به، والذي ينشك في أدب كومنولث أول بأداب <كومنولثات> أخرى\*\*\*. إن المشاريع الانفصالية او الأصلانية لتبدو لي منهكة مستنفدة؛ فلم بينة المعنى الجديد والموسّع للأدب لا يمكن ان يلحق بجوهر واحد فقط او بالفكرة الخفية لشيء واحد. غير أن هذا التحليل الكوني الطباقية ينبغي ان يتخذ أنموذجاً له لا السمفونية (كما فعلت مفاهيم سابقة للأدب المقارن) بل المجمع اللئي-نغمي\*\*\*\* (atonal ensemble): ينبغي ان نأخذ بالحسبان شتى أنواع الممارسات الفضائية او الجغرافية والبلاغية - نبرات معربة، وحدوداً، ومقيدات، وتدخلات، وإحتواءات، ونواهي - التي تميل كلها إلى إضاعة تضارسية معقدة ومتفاوتة <التشكيل>. إن التركيبية الحدسية التي ينجزها ناقد موهوب، من النمط الذي يتبرع به التفسير الاستتوالي او الفقهلغوي (ويتمثل نموذجه الأولي في دلثي) ما تزال ذات قيمة، غير أنها تصدمني بوصفها تذكيراً حاداً بزمن أكثر سجوناً وصفاً من زمننا الراهن.

\* - أي التفاضل المفرط، نسبة إلى بانغولوس وهو المعلم المتقاتل في كانديد لغولتير. (الناشر عن معجم وبستر).

\*\* - نسبة إلى پروتيوس، وهو إله بحر اغريقي قادر على اتخاذ اشكال متعددة. (الناشر)

\*\*\* - الجدير ذكره أن commonwealth تعني أي بلد أو دولة، ولكنها قد تعني تخصيصاً أستراليا، او مجموعة بلدان ذات حكم ذاتي تدين بالولاء لعرش واحد (كالعرش البريطاني مثلاً). (الناشر)

\*\*\*\* - وهو التكليف الموسيقي الذي لا ينتهي إلى أي مقام.

وذلك كله يعيدنا مرة أخرى الى مسألة السياسة. ليس ثمة من بلد مستثنى من المناظرة حول ما ينبغي أن يُقرأ، ويدرس، ويكتب. ولطالما حسدتُ المنظرين الأميركيين الذين يمثل الشك الجذري بالوضع الراهن أو الإجلال المحايي له، بالنسبة لهم، بدليلين حقيقيين. أما أنا فلا أراهما كذلك، ربما لأن تاريخي ووضعي الشخصيين لا يسمحان بمثل هذا الترف، أو التجرد، أو الاكتفاء. غير أنني رغم ذلك أؤمن بأن بعض الأدب جيد فعلاً، وبعضه سيئ، وإنني لأظل محافظاً كاشدُ المحافظين حين يصل الأمر الى <مسألة> التحسين المحتمل لحساسية المرء ووعيه بقراءة عمل عريق بدلاً من التحديق الى شاشة التلفاز، بتمرير المرء لعقله، إن لم يصل الأمر الى القيمة الخلاصية لقراءة كهذه. واحسب ان القضية تختصر نفسها الى مسألة غاية العمل الذي نمارسه في حياتنا اليومية العادية الرتيبة، الى ما نفعله كقراء وكتّاب، في وقت لا تجدي فيه الاحترافية والحمية الوطنية، من جهة، ولا ينفع فيه انتظارُ التغيير الرؤيوي الحشري المهول، من جهة أخرى. وأظل أعود - بتبسيطية ومثالية - الى مفهوم معارضة السيطرة القسرية ورفعها عن الكواهل، وتغيير الحاضر الراهن بمحاولة تخفيف بعض أعبائه بعقلانية وتحليلية، وموضعة الأعمال المنتجة في مختلف الآداب بإحالة بعضها على بعض وعلى إنهاج وجودها التاريخية. إن ما أقوله هو أن القراء والكتّاب هم الآن في الواقع، في الشخصيات وبفضل الشخصيات المتحولة التي تحدث من حولنا، مثقفون دنويون بكل ما يترتب على هذا الدور من مسؤوليات سجالاتية، وتعبيرية، وإحكامية، وأخلاقية.

أما فيما يخص المثقفين الأميركيين، فإن ما هو موضعُ رهان ومجازفةٍ لَهُوَ أكثر من ذلك بكثير. إن بلدنا ليصوغنا جميعاً، وإن لهذا البلد حضوراً كونياً ضخماً. وإن ثمة قضية خطيرة تصوغها، لنقل، معارضة عمل بول كنيدي - الذي يطرح منظومة أن جميع الامبراطوريات العظيمة تنحط لأنها تتجاوز حدود طاقاتها<sup>(٤٠)</sup> - بعمل جوزيف ناي، الذي يعيد في مقدمته الجديدة لـ <كتابه> لا بد أن تقود، تأكيد الدعوى الأميركية الامبريالية بأن أميركا هي الأولى في العالم، خصوصاً بعد حرب الخليج. وإن الشواهد لترجع كفة كنيدي، غير أن ناي من الذكاء بحيث أنه لا يمكن أن يعجز عن فهم أن المشكلة التي تواجه قوة الولايات المتحدة في القرن الواحد والعشرين لن تكون تحديات جديدة من أجل الهيمنة، بل التحديات الجديدة التي يفرضها التشابك وتبادل الاعتماد بين البلدان<sup>(٤١)</sup>. ومع ذلك فإن ناي يستخلص أن الولايات المتحدة تبقى أغنى القوى وأكبرها ومالكة أعظم المقدرات على صياغة المستقبل. وفي بلد ديمقراطي، فإن الخيارات هي خيارات الشعب<sup>(٤٢)</sup>. بيد أن السؤال الحقيقي هو: هل يملك "الشعب" منفذاً مباشراً الى السلطة؟ أم أن الأشكال التي تُقدم بها هذه السلطة منظمة ومعالجة <مصنعة> ثقافياً بطرق تقتضي تحليلاً مغايراً؟

وإن نتحدث عن التسليع <التسلعن> والتخصص الدائنين في هذا العالم هو، في تقديري، نقطة البدء لصياغة مثل هذا التحليل، خصوصاً لأن المذهب التعبدي الأميركي <الذي يقُدس> الخبرة والاحترافية، والذي يهيمن في الإنشاء الثقافي، ولأن التضخم في الرؤيا والإرادة قد بلغا حداً عالياً من التقدم. لقد ندر في تاريخ العالم من قبل أن يحدث اقتحامٌ مهول من القوة والأفكار من قبل ثقافةٍ لأخرى يعادل ما يحدث اليوم من اقتحام أميركا لبقية العالم (وإن ناي لعلى حق في هذا الخصوص) وسأعود الى هذه القضية بعد

قليل. لكن ما هو صحيح أيضاً هو أننا بشكل عام نادراً ما كنا متشظين الى هذه الدرجة، ومنتقّصين بهذه الحدة، ومقلّصين الى هذا الحد الكلي في إحساسنا بماهية هويتنا الحقيقية (في مقابل هويتنا المؤكّدة المثبتة). وإنّ اللوم في ذلك ليقع جزئياً على الانفجار العجائبي للمعرفة المتخصصة والانفصالية: التمركزية الافريقية، التمركزية الاوروبية، الاستغراب، الأنثوية، الماركسية، التقويفية، إلخ. إنّ المدارس لتشلّ وتوهن ما كان مصدر قوة وتشويق في التبصّرات النفاذة الأصلية. ولقد فسّح هذا بدوره المجال لظهور بلاغيات مكرّزة للمُرام الثقافي القومي، متجسّدة تجسّداً جيداً في وثائق مثل الدراسة التي أُعدت بتكليف من مؤسسة روكفلر: **الإنسانيات في الحياة الاميركية** (٤٣)، او - <كمثل آخر> احدث عهداً واشدّ تسييساً - في المجالات المتنوعة لوزير التعليم السابق (والمدير السابق للصندوق القومي للإنسانيات) وليم بنيت الذي يتحدث (في مقالته "من أجل أن نستعيد تراثاً") لا كمجرد موظف حكومي في إدارة ريغان بل كناطق مُعيّن ذاتياً باسم "الغرب"، كرئيس من نمط ما "للعالم الحر". وقد انضم اليه الّن بلوم واتباعه، وهم مثقفون يعتبرون ظهور النساء، والافارقة الاميركيين، والمثلجسيين، وسكان اميركا الاصلايين، في العالم الاكاديمي - وجميعهم يتحدثون بروح من التعددية الثقافية الاصلية وبمعرفة جديدة - تهديداً بربرياً لـ "الحضارة الغربية".

ما الذي تنبئنا به هذه الخطب العصماء عن "الحالة الراهنة للثقافة"؟ ببساطة، أنّ الإنسانيات مهمة، ومركزية، وتقليدية، وملهمة. يريد لنا بلوم أن نكتفي بقراءة حفنة من فلاسفة اليونان والتنوير تمشياً مع نظريته حول كون التعليم العالي في الولايات المتحدة مقصوراً على "النخبة". أما "تبيت" فإنه يتطرف الى حد القول إنّنا نستطيع أن "نتملك" الإنسانيات بـ "استعادة" تراثاتنا - وإنّ ضمانات الجمع والتبرعات الامتلاكية مهمة - وذلك من خلال حوالي عشرين نصاً رئيسياً. فإذا فرض على كلّ طالب اميركي أن يقرأ هوميروس، وشيكسبير، والكتاب المقدس، وجفرسن، فسيكون بوسعنا أن نحقق إحساساً كاملاً بالمُرام القومي. وما يتبطّن هذه الاستنساخات، التي تأتي وريثاً أدنى مرتبة لاستنهاضات ماثيو أرنولد لأهمية الثقافة، هو السلطة الاجتماعية للحميّة الوطنية، وتحصينات الهوية التي تمنحنا إياها ثقافتنا، بحيث نستطيع مجابهة العالم بتحد وثقة بالنفس؛ وبلغة إعلانات فرانسس فوكوياما الانتصاروية، فإنّ بوسعنا "نحن" الاميركيين أن نرى أنفسنا مُنجزين لنهاية التاريخ.

وإنّ هذا كله لتحدّيد باتر مغال لما تعلمناه عن الثقافة - عن إنتاجيتها، وتنوع مكوناتها، وطاقاتها النقدية التي كثيراً ما تكون متناقضة، وعن خصائصها الضدية جذرياً، وفوق كل شيء، عن دنويتها الثرية وتواطنها مع كِلا الفتح الامبريالي والتحرير. إنه ليقال لنا إنّ الدراسة الثقافية او الإنسانوية هي استنقاذ الموروث اليهوديحي او الغربي، منقى من الثقافة الاميركية الاصلائية (التي سعى التراث اليهوديحي في تجسّداته الاميركية المبكرة إلى ذبحها وتقطيع اوصالها) ومن مغامرات ذلك التراث في العالم غير الغربي.

ومع ذلك، فإنّ الحقول التعددثقافية multicultural قد وُجِدَتْ في واقع الامر ملاذاً مضافاً لها في المؤسسات الجامعية الاميركية المعاصرة، وإنّ هذه لحقيقة تاريخية ذات ابعاد فائقة الشأن. والى حد بعيد فإنّ وليم بنيت قد جعل من ذا هدفاً له ومرمى، كما فعل



دينش دسوزا، وروجر كيمبال، والفِرُّ كيرنان؛ فيما كنَّا قد ظننَّا انه كان دائماً تصوراً مشروعاً للجامعة الحديثة في رسالتها العلمانية (كما وصفها الفن غولندر) أن تكون مكاناً تتعايش فيه التعددية والتناقض مع المذهب الجامد المرسخ والمذهب الشرائعي المكنون. لكن هذا الآن يتم دحضه من قِبَل مذهبية جامدة محافظة جديدة تنصَّب "الإصابة السياسية" عدواً لها. وفرضية المحافظة المستجدة neo-conservatism هي أن الجامعة الاميركية - بالسماح للماركسية، والبنوية، والأنثوية، ودراسات العالم الثالث (والسماح قبل ذلك لجيل كامل من الباحثين اللاجنين) بولوج المنهاج التدريسي - قد قامت بتخريب أساس سلطتها المفترضة، وأنها الآن محكومة من قِبَل عصبة متآمرة بلانكية\*\* من الدعاة العقائديين اللامتسامحين الذين "يسيطرون" عليها.

ثمة مفارقة لازعة <في هذا الوضع> تتمثل في أن الممارسة المألوفة للجامعة هي أن تقبل بما تقوم به النظرية الثقافية من تخريبات، كي تحيِّدها - إلى حدٍّ ما - عن طريق تثبيتها في مقام التخصصات الجامعية الفرعية. وما نحن الآن نواجهه المُعْجَبَةُ الغريبة لدرِّسِين يقومون بتدريس نظريات تمت إزاحتها تماماً - والادق هو أن أقول: تمَّ خُلْعُها أو سلخها تماماً - من سياقاتها الطبيعية؛ ولقد كنتُ أسميتُ هذه الظاهرة في مكان آخر "النظرية المسافرة"<sup>(٤٤)</sup>. وهكذا فإن النظريات تدرِّس في دوائر جامعية مختلفة - بينها دوائر الأدب، والفلسفة، والتاريخ - من أجل جعل الطالب (أو الطالبة) يؤمن بأن في وسعه أن يصبح ماركسياً، أو أنثوياً، أو مركزياً أفريقياً، أو تقويضياً، بقدر من الجهد والالتزام لا يكاد يزيد على ما يتطلبه اختيارُ صنفٍ ما من قائمة للأطعمة. وثمة، علاوةً على هذا التففيه، مذهبٌ تتزايد قوته بانتظام، وهو مذهبٌ يتعبدُ الخبرة الاحترافية التي يشترط مغزاها العقائديُّ الرئيسيُّ أن تكون الالتزامات الاجتماعية، والسياسية، والمبنية على الطبقة منضويةً تحت الحقول الدراسية الاحترافية؛ فإذا كنت دارساً محترفاً للأدب أو ناقداً ثقافياً، فإنَّ جميع الوشائج بينك وبين العالم الحقيقي تكون منضوية وخاضعة لاحترافك في هذه الحقول. وبطريقة مماثلة، فإنك <بحسب هذا المذهب> تكون مسؤولاً لا أمام جمهور في منجمك أو مجتمعك بل أمام نقابتك المتحدة المؤلفة من أمثالك من الخبراء، وأمام دائرتك التخصصية، وأمام حقلك الدراسي... وتكون مسؤولاً عنها جميعاً كذلك. وبالروح ذاتها، ويقانون تقسيم العمل نفسه، يقوم أولئك الذين يمتهنون "الشؤون الخارجية" أو "الدراسات الإقليمية السلافية أو الشرق الأوسطية" بالاهتمام بهذه الأمور ويتعدون عن التدخل في شؤونك. وهكذا فإنَّ مقدرتك على أن تبيع خبراتك أو تسوقها أو تروِّجها أو تبغِّجها\*\*\* - من جامعة إلى أخرى، ومن ناشر إلى ناشر، ومن سوق إلى سوق - تكون موضعاً للحماية، وتكون قيمتها محفوظة، وتكون كفاءتك موضعَ تحسین وتقدم. ولقد كتب روبرت ماك كوغني دراسة شبيقة للطريقة التي تتم بها هذه العملية في الشؤون الدولية؛ وعنوان الدراسة يسرد لنا الحكاية كلها: الدراسات الدولية والمشروع الجامعي: فصل في انغلاقية المعرفة الاميركية<sup>(٤٥)</sup>.

• - راجع، لشرح هذا التعبير، مقدِّمة المترجم، المقطع ٢٤ - ٣. (الناشر)

•• - نسبة الى لوي اوغوست بلانكي، وهو اشتراكي فرنسي آمن بأن الدولة الاشتراكية لا تتحقق إلا بسيطرة العمال انفسهم على جهاز الدولة فوراً. (الناشر)

••• - وهي تعريب المترجم لـ to package، اي رزْمُ الشيء وتقديمه [لجمهور] بشكلٍ يستهويه. (الناشر)

لست هنا في معرض مناقشة جميع الممارسات الثقافية في المجتمع الأميركي المعاصر - هيهات أن يكون الأمر كذلك. لكنني أصف تشكلاً بالغ التأثير، له وقع حاسم على العلاقة، التي ورثتها الولايات المتحدة عن أوروبا في القرن العشرين، بين الثقافة والامبريالية. إن الخبرة في السياسة الخارجية لم تكن ذات يوم مريحة كما هي الآن - ومن هنا لم تكن مرةً معزولةً وفي منأى عن العبث العمومي بها أكثر مما هي اليوم. وهكذا فإن لدينا الآن، من جهة، الاستيعابات <أو الامتصاصات> التي تقوم بها المؤسسة الجامعية لذوي الخبرة بالمناطق الأجنبية (فإذا الخبراء في شؤون الهند وخدم ذو حق في التحدث عن الهند، والخبراء في شؤون أفريقيا وخدم ذو حق في التحدث عن أفريقيا)، ولدينا من جهة أخرى إعادة تأكيد هذه الاستيعابات <أو الامتصاصات> من قبل الإعلاميات والحكومة معاً. وتبرز هذه الأمور البطيئة والصامتة نسبياً إلى العيان بروزاً مذهلاً، وبمباغته وتأثير دامغ، خلال مراحل الأزمات الخارجية التي تتعرض لها الولايات المتحدة ومصالحها - على سبيل المثال: أزمة الرهائن في إيران، إسقاط طائرة الخطوط الجوية الكورية رقم ٠٠٧، قضية <السفينة> أشيلي لورو، وحروب ليبيا، وپاناما، والعراق. وفي حالات كهذه يُغزق الوعي العام إلى درجة الإشباع - كأنما عن طريق <افتح ياسمسم> مطاع دون مناقشة بقدر ما هو مرسوم حتى الجزئية الأخيرة - بتحليل الإعلاميات والتغطية المهولة. هكذا تُخصى التجربة. يقول أدورنو:

إن البتر الكلي للحرب عن طريق المعلومات، والدعاية، والتعليقات، - فيما المصورون يركبون في الدبابات المتقدمة ومراسلو الحرب يموتون موتاً بطولياً - والخلط المشوّش من التحكم التلاعي المتوّز بالراي العام ومن النشاط الغافل: كل ذلك تعبير آخر عن ذبول التجربة، عن الفراغ <المائل> بين الناس ومصيرهم، والذي يكمن مصيرهم الحقيقي. كأنما القالب الجصّي، المقوّى، المشيأ، للأحداث يحل محل الأحداث نفسها. يُصنّف الرجال إلى ممثلين <صامتين> ذوي أدوار ثانوية في شريط سينمائي وثائقي هائل.<sup>(٤٦)</sup>

سيكون من انعدام الحس بالمسؤولية أن يتغاضى المرء عن التأثيرات التي تمارسها تغطية الإعلاميات الكهروبية <الالكترونية> الأميركية للعالم غير الغربي - والإزاحات الناتجة عن ذلك في الثقافة المطبوعة - على وجهات نظر الأميركيين لذلك العالم، وعلى السياسة الخارجية تجاهه. وكنت قد عالجت هذه المسألة وطرحته منظومةً فيها عام ١٩٨١<sup>(٤٧)</sup> (وإنها لأكثر صدقاً اليوم)، وفحواها أن التأثير العمومي المحدود على أداء الإعلاميات، مضافاً إليه تطابق شبه كامل بين السياسات الحكومية السائدة <من جهة> والعقائدية التي تتحكم باختيار الأنباء وتقديمتها <من جهة ثانية> (وذلك جدولاً أهداف يضعه الخبراء المجازون يبدأ بيد مع مدراء الإعلاميات) يحافظان على أطراد المنظور الامبريالي الأميركي تجاه العالم غير الغربي وتناسقه. ونتيجةً لذلك فإن سياسة الولايات المتحدة تجد تعزيزاً لها في ثقافة مسيطرة لا تعارض معتقداتها الرئيسية: دَعْمُ الأنظمة الديكتاتورية وغير الشعبية، ودَعْمُ درجة من العنف تريبو بأضعاف مضاعفة على العنف الذي تمارسه التمردات الأصلانية ضد حلفاء أميركا، ودَعْمُ عداوة لا تتزعزع لشرعية القوميات الأصلانية.

إن التوافق بين مفهومات كهذه وبين رؤيا العالم التي تطرحها وتروّج لها الإعلاميات دقيقٌ تماماً. فتاريخ الثقافات الأخرى <بحسب هذه المفهومات وتلك الرؤيا معاً> لا وجود له إلى أن يتفجّر مصطلحاً مع الولايات المتحدة: ومعظم ما هو ذو شأن وتأثير في

المجتمعات الأجنبية يتم ضغطه في مادة تستغرق ثلاثين ثانية، وفي "لسعات صوتية" <sound-bites>\*، وفي السؤال عما إذا كانت هذه المجتمعات مع الولايات المتحدة، والحرية، والراسمالية، والديمقراطية أم ضدها. وإن معظم الأميركيين اليوم ليعرفون ويناقشون الرياضة بمهارة تفوق بكثير براعتهم في مناقشة سلوك حكومتهم في أفريقيا، والهند الصينية، وأميركا اللاتينية؛ وقد أظهر استطلاع للرأي قريب العهد أن ٨٩ بالمائة من طلبة المدارس الثانوية في السنة ما قبل الأخيرة من تخرجهم يعتقدون أن تورنتو تقع في إيطاليا. والخيار الذي يواجه المفسرين المحترفين لـ «الشعوب الأخرى» أو الخبراء في هذه الشعوب هو - كما توظره الإعلاميات - أن يُبْنوا الجمهور عما إذا كان ما يدور من أحداث امرأ "جيداً" بالنسبة لأميركا أم لا - كما لو كان ما هو "جيد" قابلاً لأن يُفصَح عنه في لسعات صوتية تستغرق خمس عشرة ثانية - ثم أن يوصوا باتباع سياسة محددة للعمل. إن كل معلق أو خبير هو وزير خارجية كامن لبضع دقائق.

إن استدخال المعايير المستخدمة في الإنشاء الثقافي، والقواعد التي ينبغي اتباعها حين تصاغ التصريحات، و"التاريخ" الذي يُجعل رسمياً في مقابل التاريخ الذي لا يُجعل كذلك: كل هذه طبعاً هي طرق لتقنين النقاش العمومي في جميع المجتمعات. أما الفرق هنا فيمكن في أن المقياس الملحمي للقوة الكونية للولايات المتحدة، وقوة الإجماع القومي الداخلي المقابلة التي خلقتها الإعلاميات الكهروبية، لا سابق لهما على الإطلاق. ولم يسبق أبداً أن وجد إجماع تصعب معارضته الى هذه الدرجة أو يسهل الاستسلام له منطقياً بصورة لاواعية. لقد رأى كونراد (بطله في قلب الظلام): كيرترز كأوروبي في الأدغال الأفريقية، ورأى (بطله في نوسترومو): غولد كغربي متنوّذ في جبال أميركا الجنوبية، قادرين على تحضير السكان الأصليين وعلى محوهم كلياً أيضاً؛ وإن القوة ذاتها، لكن على مستوى عالمي، لماثلة اليوم في الولايات المتحدة، رغم قوتها الاقتصادية الآخذة في التدهور.

لسوف يكون التحليل الذي اقدمه ناقصاً إن لم أذكر عنصرأ آخر هاماً. في حديثي عن التحكم والإجماع، ما زلت أستخدم كلمة "الهيمنة" عمداً، رغم ادعاء ناي المتصل بأن الولايات المتحدة لا تسعى الآن الى الهيمنة. ذلك أن القضية ليست قضية نظام من التكيف والانسحاق مفروض مباشرة في «مسألة» التطابق بين الإنشاء الثقافي المعاصر للولايات المتحدة وسياسة الولايات المتحدة في العالم المنضوي غير الغربي، بل «قضية» نظام من الضغوط والمقيدات عن طريقه يحتفظ الجسم الثقافي بأكمله بهويته، الامبريالية جوهرياً، وياتجاه مساره. ولذلك كان من الدقيق أن يقال إن ثقافة تيار رئيسي تملك درجة معينة من الانتظام، والتكامل، والمتكهنية مع مرور الزمن. ويمكن صياغة هذه الفكرة بالقول إن بوسع المرء أن يميز أنساقاً جديدة من السيطرة، باستعارة تعبير لفرديرك جيمسن في وصفه لما بعد الحداثة<sup>(٤٨)</sup> في الثقافة المعاصرة. وتقترب منظومة جيمسن بوصفه لثقافة الاستهلاك، التي تتمثل ملامحها المركزية في علاقة جديدة مع الماضي مبنية على المازجة pastiche والحنين، وفي اعتبارية جديدة انتقائية

\* - لا اعرف ترجمة شائعة لهذا المصطلح الجديد؛ لذلك استخدمت "رّمعات صوتية" املاً أن يتاح لها الانتشار. والـ bite (أو <byte> هي اصغر وحدة مستخدمة في الحساب «الكمبيوتر» وهي جزء من كلمة محاسبية، وتضم عادة ثمانية مكونات صفري كل منها يسمى "bit" يمثل الصفر أو الواحد في نظام العد الثنائي الحسابي. واقترح ترجمتها بـ "الرثيمة" وجمعها على "رثيمات". واود ان أشكر جمال ابو ديب على مقترحاته بهذا الخصوص من وجهة نظر المصطلح العلمي.

في المنتج الثقافي، وفي إعادة تنظيم الفضاء، وفي خصائص لرأس المال المتعدد الجنسيات. وينبغي أن نضيف الى هذا كله مقدرة الثقافة على الإدماج والاحتواء الخارقين، وهي مقدرة تمكّن أيّاً كان في الواقع من أن يقول أيّ شيء على الإطلاق، بيد أن كل شيء معالج <مصنّع> وموجه إما إلى التيار الرئيسي الطاغى أو إلى الهوامش.

يعني التهميش في الثقافة الاميركية نوعاً من الاقليمية <الطرفية>\* التي لا أهمية لها. كما يعني ضالة الشأن والاثر التي ترتبط بكل ما هو غير رئيسي، غير مركزي، غير مالك للقوة - وببإيجاز، فإنه يعني الارتباط بما يُعتبر (بكلمات تحسينية) أنهاجاً "بديلة"، ودولاً بديلة، وشعوباً وثقافات بديلة، ومسارح، وصحفاً، ومطابع بديلة، وفنانين، ودارسين بديلين، وأساليب بديلة، قد تصبح فيما بعد مركزية او على الأقل مطابقة للزّي الحديث. إن الصور الجديدة للمركزية centrality - المتصلة مباشرة بما أسماه سي. رايت ميلز: نخبة القوة - تقتلع وتُخلف عمليات الثقافة المطبوعة الأبطأ والانعكاسية والأقل فورية، بما في هذه الثقافة من ترميز مقنن للفصائل الماثلة والجامحة للطبقة التاريخية، والممتلكات الموروثة، والامتيازات التقليدية. والوجود التنفيذي مركزي في الثقافة الاميركية اليوم: الرئيس، والملق التلفزيوني، ومسؤول الشركات الموحدة، والنجم الإعلامي. إن المركزية هي الهوية؛ هي القوي، والهام، وما هو لنا". المركزية تحفظ التوازن بين الأطراف المتعارضة؛ وهي تنفع الافكار بتوازنات الاعتدال، والعقلانية، والتعاملية <البراغماتية>؛ إنها تحفظ <موقع> الوسط متماسكاً متضاماً.

والمركزية تولّد سرديات شبه رسمية تجيز وتستفز متواليات معينة من الأسباب والنتائج، فيما تمنع في الوقت نفسه سرديات مضادة من الانبثاق. وأكثر المتواليات مألوفة وشيوعاً هي المتوالية العريقة القائلة إن أميركا - وهي قوة من قوى الخير في العالم - تجابه بإطراد عقبات تنصبها المؤامرات الخارجية، الخبيثة وجودياً و"المعادية" لأميركا. وهكذا أفسدت المساعدة الاميركية لفييتنام وإيران من قبل الشيوعيين، من جهة، والإرهابيين الأصوليين من جهة أخرى، وهو ما أدى الى الإذلال والخيبة المريرة. وعلى العكس من ذلك، فلو ترك أثناء الحرب الباردة <امر> "المجاهدين" (المقاتلين من أجل الحرية) الأفغان الأشاوس، وحركة "التضامن" البولندية، و"الكونترا" النيكاراغويين، والمتمردين الانغوليين، والنظاميين السلفادوريين - الذين أيدناهم "نحن" جميعهم - لوسائلنا القويمة لكانوا انتصروا بمؤازرتنا، لكن الجهود المخربة للتحريين <الليبراليين> في الداخل وخبراء التضليل الإعلامي في الخارج قلّصت من قدرتنا على المساعدة. الى أن جاءت حرب الخليج، فاستطعنا "نحن" أخيراً أن نحرد أنفسنا من متزامنة الأعراض <syndrome> الفييتنامية".

تتعرض هذه التواريخ المعلقة <المكبّسة> الموجودة دون مستوى الوعي انعكاساً فائقاً في روايات إي. إل. دوكتورو، ودون دي ليلو، وروبرت ستون، وتخضع لتحليل لا يرحم من قبل صحفيين مثل الكزاندر كوكبيرن، وكريستوفر هيتشنز، وسيمور هيرش، وفي العمل الذي لا يعرف الراحة لنوعام تشومسكي. بيد أن تلك السرديات الرسمية ما تزال تملك القوة على

\* - إزاء provinciality (المترجم). ويقترح الناشر أن تمثل في ذهن القارئ معانٍ أخرى لهذه الكلمة ولاسيماً: الريفية، والبُعد عن المدنية والإرهاق.

تحريم التّساخات الأخرى البديلة للتاريخ ذاته وعلى تهميشها وتجرّيمها - في فييتنام، وإيران، والشرق الأوسط، وإفريقيا، وأميركا الوسطى، وأوروبا الشرقية. وإنّ تجربة عملية بسيطة لتوضيح ما أعنيه تمثّل ما يحدث حين تتاح لك الفرصة للتعبير عن تاريخ اشدّ تعقيداً وتشابكاً، وأقلّ ترابطاً في تواليه: إذ إنك في واقع الأمر تكون مجبراً على أن تعيد رواية "الحقائق" بطريقة تقتضي أن تبتكر لغة من نقطة الصفر، كما كانت الحال في الأمثلة المتعلقة بحرب الخليج التي ناقشتها سابقاً. لقد كان أصعب الأشياء قولاً أثناء حرب الخليج هو أن يقول المرء إنّ ثمة مجتمعات أجنبية في التاريخ وفي الوقت الراهن قد لا تكون وافقت على فرض القوة العسكرية والسياسية الغربية <عليها>، لا لأن ثمة شيئاً شريراً طبعياً في هذه القوة، بل لأن تلك المجتمعات شعرت بأن هذه القوة أجنبية. وإن يجازف المرء بقول حقيقة غير خلافية الى هذه الدرجة الظاهرة حول الطريقة التي تتصرّف بها جميع الثقافات في الواقع، لم يكن أقلّ من فعل من أفعال القصور والجنوح؛ أما الفرصة التي أتاحت لك لقول شيء باسم التعددية والإنصاف فقد قيّدت تقييداً حاداً وقُصرت على انفجارات من الحقائق عديمة الجدوى، وصمّت بأنها منطرفة أو غير ذات صلة بالموضوع. ومن دون سرديّة مقبولة تعتمد عليها، ومن دون إذن معرّزٍ مستديم بأن سُرد، فإنك لتشعر أنك محشور مطرود ومُصمّت.

استكمالاً لهذه الصورة الكالحة، دعني أضف بعض الملاحظات الختامية حول العالم الثالث. جليّ أننا لا نستطيع مناقشة العالم غير الغربي وكأنه معزول عما يحدث في الغرب من تطورات. إنّ خرائب الحروب الاستعمارية، والنزاعات المتبادلة بين القومية المتمردة والسيطرة الامبريالية المنحرفة، والحركات النزاعية الأصولية والأصلانية الجديدة التي غذاها اليأس والغضب، وامتداد النظام العالمي فوق العالم المتنامي - كل هذه الظروف مرتبطة مباشرة بوقائع حاصلة في الغرب. فمن جهة أولى، كما يقول إقبال أحمد في أفضل مسرد بين أيدينا لهذه الظروف، تثارّت في الدول الجديدة الطبقات الفلاحية وماقبل الرأسمالية التي كانت قد طغت خلال مرحلة الاستعمار التقليدي إلى طبقات جديدة، كثيراً ما تمت حَضْرَتُهَا فجأة، <طبقات> قلقةٍ مربوطة الى القوة الامتصاصية الاقتصادية والسياسية للغرب الحواضري. في باكستان ومصر، مثلاً، لا يقود الحركات الاصولية المثيرة للاختصاصات مثقفو الفلاحين او مثقفو الطبقة العاملة بل مهندسون وأطباء ومحامون تلقوا تعليمهم في الغرب. إن الاقلّيات الحاكمة تبرز مع التشويهاات الجديدة في البنى الجديدة للقوة<sup>(٤٩)</sup>. وتتوزع هذه المرَضيات، وما سببته من انقشاع الوهم والخيبة بالسلطة، على مدى المشور من الفاشية المستجدة الى <حكم> الطّعم والعُصَب السلالية، ولا تحتفظ سوى بضع من الدول بنظام فاعل نيابي وديمقراطي. ومن جهة أخرى، فإنّ أزمة العالم الثالث تقدم تحديات تُشعر بوجود مجال واسع لما يسميه أحمد "منطق الجسارة"<sup>(٥٠)</sup>. فإنّ تضطر الدول الحديثة الاستقلال الى التخلي عن معتقداتها التقليدية، فإنّها تدرك نسبية جميع المجتمعات، وأنظمة الاعتقاد، والممارسات الثقافية، كما تدرك ونقرّ الإمكانات القائمة طبعياً فيها جميعاً. وتولّد تجربة تحقيق الاستقلال "التقاؤل" - بزوغٌ وتفشي شعور بالأمل والقوة، وإيمان بأن ما هو قائم ليس محتمماً أن يكون قائماً، وأنّ بوسع البشر أن يُحسّنوا أحوالهم اذا حاولوا <وتولّد> [أيضاً]... العقلانية... وانتشار الافتراض المسبق بأن التخطيط، والتنظيم، واستخدام المعرفة العلمية ستؤدي كلها الى حل المشكلات الاجتماعية...<sup>(٥١)</sup>

\* - إزاء urbanized، أي تدينها، بمعنى خلّع الصفة المدنيّة عليها (الناشر).

إن هذا النسق الجديد الشامل من السيطرة، الذي تطور خلال مرحلة من مجتمعات الجُموع الغفيرة تقودها في الذروة ثقافةً ممرِكةً بقوةٍ واقتصاداً إدماجي معقداً، ليس مستقراً رغم كل قوته الظاهرية. إنه، كما قال عالم الاجتماع الحضري الفرنسي البارز بول فيريليو، نظامٌ حكم مبنيٌّ على السرعة، والاتصالات الفورية، وبعد المرمى والوصول، والطوارئ الدائمة، وفقدان الأمان الذي تنتجُه الأزمات المتراكمة التي يؤدي بعضها إلى الحرب. وفي مثل هذه الظروف يصبح الاحتلالُ السريع للفضاء الحقيقي والفضاء العمومي أيضاً - <أي> الاستعمار - الامتيازَ العسكري المركزي للدولة الحديثة، كما أظهرت الولايات المتحدة حين أرسلت جيشاً عرمرماً إلى الخليج العربي وجنّدت الإعلاميات للمؤازرة في تنفيذ العملية. ونقيضاً لذلك، يقترح فيريليو أن المشروع الحدائلي لتحرير الكلام la libération de la parole له ما يوازيه في تحرير الفضاءات الحرجة - كالمستشفيات، والجامعات، والمسارح، والمصانع، والكنائس، والأبنية الخالية؛ فالفعل الانتهاكي الأساسي في المجالين هو سكني ما هو لاسكون في العادة<sup>(٥٢)</sup>. ويقتبس فيريليو أمثلةً على ذلك حالة البشر الذين يمثل مقامهم الراهن عاقبةً من عواقب تفكيك الاستعمار (العمال المهاجرون، اللاجئون، العمال الضيوف) أو انزياحات كبيرة سكانية وسياسية (السود، المهاجرون، القرافصة\* <الذين يحتلون البيوت الخالية> في المدن، الطلبة، أحداث العصيان الشعبي المسلح، إلخ). وهذه كلها تشكل بديلاً حقيقياً لسلطة الدولة.

إذا كانت الـ ١٩٦٠ات تُتذكَّر اليوم بوصفها عَقْدَ المظاهرات الجماهيرية في أوروبا وأميركا (وعلى رأسها الانتفاضات الجامعية والمناهضة للحرب)، فلا شك أن الـ ١٩٨٠ات كانت عَقْدَ الانتفاضات الجماهيرية خارج الحواضر الغربية. إيران، الفيلبين، الأرجنتين، كوريا، الباكستان، الجزائر، الصين، جنوب أفريقيا، أوروبا الشرقية بأكملها عملياً، الأراضي الفلسطينية التي تحتلها إسرائيل: تلك بعض المواقع الأشد انطباعاً <في النفس> التي تحركت فيها الجموعُ، وكلُّ منها مزدهم بجماهير كانت إلى حد بعيد غير مسلحة، وقد تجاوزتُ بقدر بعيد نقطة القدرة على تحمل الحرمان المفروض، والطفيان، وتعنّت الحكومات التي حكمتها لزمَن مفرط الطول. وإن أكثر ما ينبض في الذاكرة شيئان: من جهة، ثراء الموارد التمردية، والرُمزية المذهلة للاحتجاجات نفسها (رماة الحجارة الفلسطينيين الشباب، مثلاً، أو الجماعات الراقصة الميَّاسة في جنوب أفريقيا، أو الألمان الشرقيون يطاؤون جدارَ برلين)... ومن جهة أخرى، وحشية الحكومات وحشيةً مفرزة، أو انهيارها ورحيلها المخزي.

إن هذه الاحتجاجات الجماهيرية، مع أخذ الفروق العقائدية العظيمة بينها بعين الاعتبار، قد شكَّلت جميعها تحدياً لأمر أساسي جداً في كل فن ونظرية للحكم، هو مبدأ الحَصْر confinement. من أجل أن يُحكَّم البشر ينبغي أن يُحصَوا، وتُفرض عليهم

\* - وقد وضعت هذه الكلمة لتكون لها صيغة متميزة فتصبح اسماً علماً تقريباً على زمن "قراطة"، ويكون مفرداً "قرفصيّ" لتدل على الذين يحتلون البيوت الخالية في المدن ويسكنونها دون مقابل، وقد شكلوا ظاهرة احتجاج كبيرة ضد التشرذم وسياسات تجارة العقارات واسمهم بالانكليزية "Squatters" أي "المقرفصون".

الضرائب، ويعلموا، وطبعاً أن يُحكّموا في أماكن مقنّنة (البيت، المدرسة، المستشفى، موقع العمل) يتمثل امتدادها الأقصى في أكثر أشكاله بساطةً وقسوةً في السجن أو مشفى الأمراض العقلية، كما يجادل ميشيل فوكو. صحيح أنه كان ثمة جانب مهرجاني <كرنفالي> للجموع المدوّمة في غزة أو مَيدَانَيْ وينسلاس وتيانانمن <في الصين الشعبية>، بيد أن عقابيل الانفلات المدعّم والوجود غير المستقر للجماهير لم تكن أقل احتدامية (أو تثبيطاً) بكثير في الـ ١٩٨٠ات مما كانت عليه من قبل. إن معاناة الفلسطينيين غير المحلولة لتفصح مباشرة عن قضية غير مدجّنة، وعن شعب متمرّد يدفع ثمناً عالياً جداً لمقاومته. وثمة أمثلة أخرى: اللاجئون وأهل القوارب، جوارب الأفاق الذين لا يعرفون راحة والمستضعفون المعرضون للخطر؛ والشعوب الجائعة في نصف الكرة الجنوبي؛ والذين بلا مأوى، أولئك المشردون لكن المصمّمون الذين يلاحقون، كمثّل رهط من <شخصيات> بارتليبي\*، المتسوّقين لعيد الميلاد في المدن الغربية. والمهاجرون غير المسجلين، والعمال الضيوف المتسكّلون الذين يوفّرون أيدي عاملة رخيصة وموسمية، في العادة. وبين القطبين من الجموع العارمة الحضرية الناقمة المتحدة وطوفانات البشر شبه المنسيين الذين لا يلقون من يُعنى بأمرهم، تبحث سلطات العالم الدنيوية والدينية عن انتهاج جديدة، أو مجدّدة، للحكم.

ولم يبدُ أيُّ منها أسهلّ منالاً، وأشدُّ جاذبيةً وراحةً من استنثارات التراث، والهوية القومية أو الدينية، والحمية الوطنية. ولأن هذه الاستنثارات <المناشدات> تُصنّم وتُنشر من قِبل نظام إعلامي مُنقَن يتوجه في خطابه الى ثقافات الجموع الغفيرة، فلقد كانت فعالة الى درجة صادمة، لكي لا أقول مخيفة. وحين قررت إدارة ريغان في ربيع عام ١٩٨٦ أن توجه ضربةً قاصمة لـ "الارهاب"، تم توقيت الغارة على ليبيا لتتزامن بدقة مع لحظة بداية نشرة الأخبار المسائية التي تذاق على مستوى اميركا كلها في فترة الأوج <الاذاعية>. ورداً على "اميركا تردّ الصاع صاعين" دوت في أرجاء العالم الإسلامي نداءات مرعبة <تجمّد الدم في العروق> تستثير "الإسلام"، وقد استنفّرت هي بدورها طوفاناً من الصور، والكتابات، والتموضعات التي أكدت قيمة تراث "نا" اليهودي (الغربي، التحرري، الديمقراطي) وشناعة تراثهم هم (الإسلامي، العائلثي، الخ)، وشره، ووحشيته، وافتقاره إلى النضج.

والغارة على ليبيا مليئة بالدلالات الكاشفة والعبر، لا بسبب الانعكاس المرآتي العجيب بين الطرفين فحسب، بل كذلك لأن كليهما جمعاً بين السلطة الحقانية والعنف الاقتصادي بطريقة لم تخضع للتححيص والتساؤل ثم تكاثر نسخها وتكرارها. إن هذا العصر لهو بحق عصر آيات الله، العصر الذي تقوم فيه كتيبة من الأوصياء (الخميني، البابا، مارغريت ثاتشر) بتبسيط وحماية مذهب أو آخر، وجوهر أو آخر، وعقيدة بدئية أو أخرى. وتشن أصولية ما هجوماً ناقعاً على الأصوليات الأخرى باسم سلامة العقل، والحرية، والخير. والمفارقة الضدية الغربية في هذا كله هي أن الحمية الدينية تبدو دائماً تقريباً وكأنها تعمي مفهومات المقدّس والإلهي، كأنما هذه المفهومات تعجز عن البقاء حية في المناخ الحامي الوطيس، الدنيوي الى حد بعيد، للمعارك الأصولية. لم يكن ليخطر لك أن

\* - رواية لهرمن ملفيل عنوانها هو اسم البطل الرئيسي فيها. وأنا مدين بهذا الكشف لأدوارد سعيد.

تستحضر طبيعة الله الرحمانية عندما استنفرك وعبّك الخميني (او في هذا الخصوص بالذات، صدّام البطل العربي ضد "الفرس" في اشبع حروب الـ ١٩٨٠ات): لقد خدمت وحاربت وتفجرت. وبصورة مشابهة، فقد طالب أبطال الحرب الباردة الضخام من مثل ريغان وناشر، بحقانية وقوة لا يضاهيهما سوى القليل من رجال الدين، بالخدمة المطيعة ضد امبراطورية الشر.

لم يُملا القضاء القائم بين خبطِ دياناتٍ او ثقافاتٍ اخرى وبين مديح النفس المحافظ محافظة عميقةً بالتحليل او النقاش المُشرِّفين. فمن اكداس ما طُبع من مادة حول رواية سلمان رشدي الآيات الشيطانية، لم تقم سوى نسبة ضئيلة بمناقشة الكتاب منه؛ واما اولئك الذين عارضوه وأوصوا بحرقه وموت مؤلفه فقد رفضوا أن يقرأوه، في حين أن الذين أيدوا حرّيته في الكتابة تركوا المسألة بحقانية ذاتية عند ذلك <الحد>. ولقد كان معظم ما قيل في المسألة الخلافية المشبوبة لـ "المعرفة" (نقيضاً للأمية) الثقافية في الولايات المتحدة واوربوا دار حول ما ينبغي أن يُقرأ - الكتب العشرون او الثلاثون الجوهرية - لا حول كبد ينبغي أن تُقرأ. وفي كثير من الجامعات الاميركية، كانت الاستجابة اليمينية المتواترة لمطالب الفئات الهامشية التي اكتسبت حديثاً قوةً جديدةً هي القول "هات لي" (مارسيل) بروست الافريقي (او الآسيوي او الأنثوي) أو "إذا عبثت بالموروث الشرائعي المكنون للادب الغربي فإنه يُحتمل أن تكون تسعى إلى تشجيع عودة تعدد الزوجات والعبودية". بيد أن هؤلاء الحكماء لم يتبرعوا بالإفصاح عما إذا كانت مثل هذه الغطرسة والموقف الشخصوصاتي <الكاريكاتوري> من العملية التاريخية يُفترض أن يمثلاً إنسانية ثقافتنا وأريحيها.

ولقد انضمت تأكيداتهم الجازمة إلى كتلة ضخمة من الإثباتات الثقافية الأخرى التي كان ملمحها البارز أنها صدرت عن خبراء ومحترفين. وفي الوقت نفسه، كما لوحظ مراراً على اليسار وعلى اليمين، اختفى المفكر العلماني العام. إن موت جان-بول سارتر، ورولان بارت، وأي. إف. ستون، وميشيل فوكو، وريموند وليمز، وسي. إل. آر. جيمس، في الـ ١٩٨٠ات ليشكل علامة اندثار نظام قديم؛ فلقد كان هؤلاء شخصيات معرفة وسلطة، منحهم تنوع اهتماماتهم ورحابتها عبر حقول <معرفة> عديدة ما هو أكثر بكثير من الكفاءة الاحترافية، أي، أسلوبياً فكرياً نقدياً. أما التقنيون المتخصصون <التكنوقراطيون>، كما يقول ليوتار في الشرط ما بعد الحداثي<sup>(٥٣)</sup>، فإنهم بالمقابل اكفاء لحل مشكلات محلية بالدرجة الأولى، لا طرح الأسئلة الكبيرة التي تصوغها السرديات الجليلة الكبرى للتحرر والتنوير، وثمة أيضاً خبراء السياسة المجازون بعناية بالغة الذين يخدمون مدراء الأمن الذين يوجهون الشؤون الدولية.

ومع الاستنفاد الفعلي للأنظمة الكبرى والنظريات الكلية (الحرب الباردة، تفاهم بريتون وودز، الاقتصاد السوفييتي والصيني الجماعيان، قومية العالم الثالث المناهضة للامبريالية)، ندخل مرحلة جديدة تمتاز باللايقينية الهائلة. وذلك ما مثله بقوة ميخائيل غورباتشيف قبل أن يخلفه ذلك الأقل لايقينية بكثير: بوريس يلتسين. فلقد عبّرت البريسترويكا والغلاسنوست <إعادة البناء، والانفتاح>، الكلمتان -المفتاحان المرتبطتان بإصلاحات غورباتشيف، عن عدم الرضى عن الماضي، وعبّرتا - في حد أقصى - عن



أمال مبهمة حول المستقبل، لكنهما لم تكونا نظريات ولا رؤى. وكشفت أسفاره القلقة بالتدرج خريطةً جديدةً للعالم، ومعظمه - الى حد يكاد يكون مخيفاً - متداخلاً متبادلاً الاعتماد، ومعظمه غير مخطَّط بعدُ فكرياً، وفلسفياً، وأعراقياً بل غير مخطَّط تخليقياً. جماهير غفيرة من البشر، أعظم عدداً وأمالاً من أيّ وقت مضى، تريد أن تاكل بشكل أفضل ويتواتر أكبر؛ وأعدادٌ كبيرة أيضاً تريد أن تتحرك، وتتحدث، وتغني، وتلبس. ولئن كانت الأنظمة القديمة عاجزةً عن الاستجابة لهذه المطالب، فإنّ الصور العملاقة التي أسرعَتْ في تشكيلها الإعلاميات والتي تستفز العنف المديبر والاستجنايبية المسعورة لن تجدي أيضاً. إنّ من الممكن الاعتماد على فعالية هذه الوسائل للحظة عابرة، غير أنها سرعان ما تفقد قدرتها على الاستنفار والتحريك. <إذ> ثمة تناقضات كثيرة جداً بين الخطط التقليدية والبواعث والدوافع الجامحة الكاسحة.

إنّ التواريخ والتراثات والجهود، القديمة المخترعة، من أجل الحكم تفسح المجال الآن لنظريات أجدّ وأكثر مرونةً واسترخاءً حول ما هو متفاوت وبالغ التوتر والحدة في اللحظة المعاصرة. في الغرب، استغلت ما بعد الحداثة ما يتسم به النظام الجديد من انعدام للوزن لِي - تاريخي، واستهلاكية، ومَعْجَبِيَّة. وترتبط معها في ذلك أفكارٌ أخرى مثل ما بعد الماركسية وما بعد البنوية، وهي متنوعات مما يصفه الفيلسوف الإيطالي جيانني فاتيمو بـ"الفكر الهزيل" لزمن "نهاية الحداثة". ورغم ذلك ففي العالم العربي والإسلامي ما يزال كثير من الفنانين والمفكرين مثل أدونيس، وإلياس خوري، وكمال أبو ديب، ومحمد أركون، وجمال بن شيخ معنيين بـ الحداثة ذاتها، وما يزالون بعيدين جداً عن أن يكونوا مستنقدين أو مُنْهَكِين، وما يزالون <يشكلون> تحدياً رئيسياً في ثقافة يسيطر عليها التراث والسُّنِّيَّة\*. وهذه هي الحال أيضاً في الكاريبي، وأوروبا الشرقية، وأميركا اللاتينية، وأفريقيا، وشبه القارة الهندية؛ وإنّ هذه الحركات لتتقاطع ثقافياً في فضاء عوالمنا <كوزموبوليتاني> ساحر ينفح بالحياة كتأب ذو شهرة عالمية مثل سلمان رشدي، وكارلوس فونتنس، وغابرييل غارسيا ماركيز، وميلان كونديرا، الذين يتدخلون بقوة لا كروائيين فقط بل كמעْلَقِين وكَتَّابِ مقالات أيضاً. وينضمُّ إلى مناظرتهم حول ما هو حديث أو ما بعد حديث السؤالُ القلق الملح: كيف ينبغي لنا أن نقوم بالتحديث، في أوضاع الغليان الزلزالي الذي يعانیه العالمُ اليوم وهو يتجه نحو نهاية القرن، أي، كيف لنا أن نحفظ الحياة عينها في حين أن المطالب اليومية المبتذلة للزمن الحاضر تهددُ بأن تبرزَ الحضورَ الإنساني وتسبِّقه؟

وإنّ وضع اليابان لأعراضٍ إلى درجة فائقة، كما يصفه المفكر الأميركي الياباني ماساو ميوشي. لاحظ، يقول ميوشي، أنه، كما يَعْرِفُ الجميعُ، تبعاً للدراسات التي تناولت "اللغز المحير للقوة اليابانية"، تفوق المصارفُ، والشركاتُ، ومؤسساتُ العقارات الكبرى اليابانية نظيراتها الأميركية (بل إنها لتقرِّمها أيضاً). وتربو أسعارُ العقارات في اليابان بأضعاف مضاعفة على مثيلاتها في الولايات المتحدة، التي كانت تُعتبر ذات يوم قلعة رأس المال <الضخم> عينها. إنّ المصارف العشرة الكبرى في العالم هي يابانية إلى حدِّ غالب،

\* - من المحتمل أن تُترجم هذه الجملة بشكل آخر هو التالي: "... ب الحداثة نفسها، التي ما تزال بعيدة جداً عن أن تكون مستنقذة أو مُنْهَكَة، وما تزال تشكل تحدياً رئيسياً...، وذلك أيضاً في ضوء شجب ادوارد سعيد في الجملة السابقة للفكر الهزيل لما بُدِّدَ كذا وكذا... (الناشر)

ومعظم ديون الولايات المتحدة الخارجية الهائلة هي في أيدي اليابان (وتايوان). ومع أن شيئاً من التشخيص المبكر لهذا <الوضع> قد حدث في الفترة الوجيزة لارتقاء الدول العربية المنتجة للنفط في الـ ١٩٧٠ات، فإن القوة الاقتصادية العالمية لليابان لا موازي لها، خصوصاً في كونها - كما يقول ميوشي - مقرونةً بغياب شبه كلي للقوة العالمية الثقافية. إن ثقافة اليابان اللفظية المعاصرة متقشفة، بل حتى مؤهنة - وتسيطر عليها برامجُ الأحاديث والمقابلات <الإعلامية>، وكتبُ الرسوم الساخرة، والمؤتمرات التي لا تنقطع، ومناقشات اللجان. ويشخص ميوشي إشكاليةً جديدةً للثقافة كمقتضى ملازم للموارد المالية المدوخة للبلد، وهي لتفاوت المطلق بين الجودة الكاملة والسيطرة الكونية في المجال الاقتصادي <من جهة>، والتقهقر والتبعية المؤهنة للغرب في الإنشاء الثقافي <من جهة ثانية> (٥٤).

تلح هذه الأمور كلها - من تفاصيل الحياة اليومية، إلى المدى المتنوع الضخم للقوى الكونية (بما فيها ما أُسْمِي "موت الطبيعة") - على الروح القلقة المعذبة، وليس ثمة إلا القليل مما يستطيع أن يخفف من وقع قوتها أو من الأزمان التي تخلقها. والمجالان الاثنان العامان اللذان يوجد اتفاقٌ عليهما في كل مكان تقريباً هما أن الحريات الشخصية ينبغي أن تُصان، وأن بيئة الكرة الأرضية ينبغي أن تُحمى ضد المزيد من التدهور. وتُوضَع الديمقراطية وحماية البيئة، اللتان توفر كل منهما سياقاً محلياً ومعتراكات عديدةً للنزال، ضد ساترةٍ خلفيةٍ كونية. وسواء أكان الأمر أمرَ الصراع بين القوميات أم أمرَ مشكلات موت الغابات أو التسخُن الكوني، فإن التفاعلات بين الهوية الفردية (متجسدة في نشاطات ثانوية مثل التدخين واستعمال علب الأيروسول) والإطار العام هي تفاعلات مباشرة إلى درجة هائلة، وتبدو الأعراف العريقة التي ظلت لدهور موضع احترام في الفن، والتاريخ، والفلسفة، ضعيفةً الملامة لتلك التفاعلات. ويبدو الكثير مما كان مثيراً جداً لعقود أربعة في الحداثة الغربية وعقابيلها - في، لنقل، استخطاطيات النظرية النقدية المحكّمة في التأويل، ووعي الذات في الأشكال الأدبية والموسيقية - اليوم تجردياً تقريباً مستلطفاً استلطاف القديم الطريف، وتمركزياً أوروبياً إلى درجة يائسة. أما ما هو أكثر جدارةً بالاعتماد عليه اليوم فهو التقارير من الجبهة الأمامية حيث تدور الصراعات بين الطغاة المحليين والمعارضات المثالية، والتمازجات الهجينة بين الواقعية والتوهم، والأوصاف الأثرية والخرائطية، والاكنتهاات في أشكال مزججة (المقالة، الفيديو أو الفيلم، الصورة، المذكرات، القصة، الحكيم المختزلة) لتجارب منفوية لا سكنى لها ولا دار.

إن المهمة الرئيسية، إذن، هي مطابقة الانزياحات والتشخصات الجديدة الاقتصادية والاجتماعية لعصرنا مع الحقائق المذهلة للاعتماد المتبادل الإنساني على مستوى العالم كله. ولئن كانت الأمثلة اليابانية، والأوروبية الشرقية، والإسلامية، والغربية، تعبر عن أي شيء، مشترك، فهو أننا بحاجة إلى وعي نقدي جديد، ولا يمكن تحقيق ذلك إلا بمواقف منقحة من التعليم. فإن نكتفي بحث الطلبة على الإلحاح على الهوية، والتاريخ، والتراث، والفضادة، الخاصة بكلّ منهم، قد يؤدي بهم مبدئياً إلى تسمية متطلباتهم الأساسية للديمقراطية وإلى <امتلاك> الحق في وجود إنساني مكفول لائق. بيد أننا بحاجة إلى أن نمضي قدماً لنموضع هذه الأمور كلها في جغرافيا من الهويات، والشعوب، والثقافات الأخرى ثم أن ندرس كيف تقاطعت دائماً، رغم الفروق بينها، وتداخلت جميعاً عبر التأثير

اللاتراتبي، والعبور، والإدماج، والاستعادة الى الذاكرة، والنسيان المتعمد... وعبر النزاع والصدام طبعاً. نحن لسنا على مقربة بأي مدى من "نهاية التاريخ"، غير اننا ما نزال نائنين عن أن نكون أنقياء من احتكار وجهات النظر والمواقف من التاريخ. وهذه المواقف لم تكن في الماضي ذات جدوى كبيرة - بالرغم من الصرخات التعبوية لسياسيات الهوية الانفصالية، والتعددية الثقافية، وإنشاءات الأقليات - وكلما أسرعنا في تعليم أنفسنا إيجاد بدائل لها، كان الأمر أفضل وكنا أكثر اماناً. فالحق اننا ممتزجون واحداً بالآخر بطرق لم تحلم بها معظم الأنظمة التربوية القومية. فان تطابق بين المعرفة في الفنون والعلوم وبين هذه الحقائق التكاملية هو، في اعتقادي، التحدي الفكري والثقافي الأسمى شأناً.

وينبغي الان ننتهي تنقيد القومية باستمرار، وهو تنقيد يُشتق من منظري التحرير المتنوعين الذين ناقشتمهم، ذلك اننا يجب الان نحكم على انفسنا بلعنة تكرار التجربة الامبريالية. كيف يتسنى لنا، في العلاقة المعاصرة التي أعيد تحديدها لكنها ما تزال رغم ذلك وثيقة جداً، بين الثقافة والامبريالية، وهي علاقة تسمح ببروز أشكال مقلقة من السيطرة، ان نصون ونعزز الطاقات المحررة التي أطلقها حركات المقاومة العظيمة المفككة للاستعمار والانتفاضات الجماهيرية في الـ ١٩٨٠ات؟ هل تستطيع هذه الطاقات ان تراوغ وتتفادى عمليات الحياة المعاصرة التي تولد التجانس، وتصد عن نفسها تدخلات المركزية الامبريالية الجديدة؟

"كل الاشياء المضادة، الاصلية، النادرة، الغريبة": جيرالد مانلي هوبكنز في "الجمال المرقط". والسؤال هو: أين؟ وأين أيضاً، قد نسال، يوجد مكان لتلك الرؤيا المتناغمة حتى الإدهاش للزمن متقاطعاً مع اللازمي السرمدي التي ترد في نهاية "غيدينغ الصغيرة"، وهي لحظة رآها البيوت مثل الكلمات في:

تبادل سلس بين القديم والجديد،

الكلمة الدارجة مضبوطة دونما ابتذال،

والكلمة الفصحى دقيقة لكن غير متحذقة،

التكوين المكتمل راقص معاً (٥٥)

إنّ المفهوم الذي يبلوره فيريليو هو السكنى المضادة: العيش كما يعيش المهاجرون في فضاءات لا تُسكن عادةً غير انها مع ذلك فضاءات عمومية. ويرد مفهوم مماثل في كتاب جيل دولوز وفليكس غاتاري **الفجود الألف** (المجلد الثاني من ضد اوديب). إنّ قدراً عظيماً من هذا الكتاب الهائل الثراء ليس سهل التناول، غير انني وجدته موحياً بشكل سري غامض. والفصل المعنون "رسالة" البدواة الرجل: آلة الحرب"، يبني على عمل فيريليو بتوسيع أفكاره حول الحركة والفضاء ليشكل دراسة بالغة الشذازة لآلة حرب جوابية للافاق. وتحتوي تلك الرسالة الأصلية استعارةً عن نمط منضبط من المتحركية الفكرية في عصر من المؤسساتية، والتفويج، والاستيعاب <الامتصاص>. يقول دولوز وغاتاري إنّ آلة الحرب يمكن ان تُستوعب وتُتمثل ضمن القوة العسكرية للدولة - لكن، لأنها جذرياً كيان منفصل، فإنه ليس ثمة ما يحتم ان تكون كذلك باكثير مما هو محتم ان توضع التهاويماً الرجل للروح في خدمة المؤسسات على الدوام. إنّ مصدر قوة آلة الحرب

\* - بالمعنى التاليفي للرسالة في العربية، كما في "رسالة القيان" للجاحظ، مثلاً.

لا يكمن فقط في حريرتها المترحلة بل أيضا في فنها المعدني metallurgical - الذي يقارنه دولوز وغاتاري بفن التأليف الموسيقي - الذي تُصنع بواسطته المواد، وتتصاغ -متجاوزة الأشكال المنفصلة: [وهذه المعدنية، مثل الموسيقى] تؤكد التطور المستمر للشكل ذاته، كما تؤكد، بما يتجاوز المواد المتباينة إفرادياً، على التنوع المستمر داخل المادة نفسها<sup>(٥٦)</sup>.  
الدقة، المحسوسة، الاستمرارية، الشكل - كل هذه تمتلك سمات الممارسات الرحل التي يصف فيريليو قوتها بأنها ليست عدوانية، بل انتهاكية<sup>(٥٧)</sup>.

إن بوسعنا أن نتصور هذه الحقيقة على الخريطة السياسية للعالم المعاصر. فليس ثمة من شك في أن إحدى الخصائص الأشد بؤساً لهذا العصر هي أنه أنتج عدداً أكبر من اللاجئين، والمهاجرين، والمشردين، والمنفيين، من أي وقت آخر في التاريخ، و«كان تشرُّدٌ معظمهم ملازماً لنزاعات مابعد استعمارية وامبريالية كبيرة، وعاقبةً عارضةً لها، وإن في ذلك ما فيه من المفارقة اللاذعة. فبإذ ولد الصراع من أجل الاستقلال دولاً جديدة وحدوداً جديدة، فإنه ولد أيضاً مشردين، ورحلاً، وجواري أفاق لا ديار لهم، لم تتمثلهم البنى البازغة للقوة المؤسساتية، مرفوضين من قِبل النظام المرسُخ بسبب تصلبهم وتمردهم العنيد. ويقدر ما يوجد هؤلاء البشر بين القديم والجديد، بين الامبراطورية القديمة والدولة الجديدة، فإن أوضاعهم تُفصح عن التوترات، وانعدام الحلول، والتناقضات في الأقاليم المتقاطعة التي تظهر على الخريطة الثقافية للامبريالية.

إلا أن ثمة فرقاً عظيماً بين المتحركة المتفائلة، والحيوية الفكرية، ومنطلق الجسارة، التي يصفها مختلف المنظرين الذين امتحنت من أعمالهم <من جهة>، وبين الخلخلات، والإهدار، والبؤس، والفظائع، الضخمة التي عانتها هجرات قرنتنا وحيواته المقطعة الأوصال. ومع ذلك، فليس من المبالغة في شيء أن يقال إن التحرر، كرسالة فكرية ولدت من <رحم> المقاومة والمعارضة لمحابس الامبريالية وخرائبها، قد انتقل الآن من المحركات الحيوية المستقرة، الراسخة، المدججة للثقافة الى طاقاتها التي لا دار لها، المزاحة من المركز، والمنفوية، وهي طاقات تجسيدها الأكمل اليوم هو المهاجر، وضميرها هو ضمير المفكر والفنان في المنفى: الشخصية السياسية <المائلة> بين المجالات، وبين الأشكال، وبين الديار، وبين اللغات. ومن هذا المنظور إذن، تكون الأشياء جميعاً بحق مضادة، أصيلة <مبتكرة>، نادرة، غريبة. ومن هذا المنظور أيضاً، فإن بوسع المرء أن يرى <التكوين الكامل راقصاً معاً رقصاً طباقياً> <كما في الطباق الموسيقي>. وفيما سيكون انعداماً للأمانة بانغلوسياً من أعلى المراتب أن يقال إن الأداءات البارة للمنفى المفكر وبؤس أحوال الإنسان المشرّد أمر واحد، فإنه يظل ممكناً، في اعتقادي، أن نعتبر المفكر أولاً مقطراً ومبلوراً ثم مفصلاً عن العضلات التي تشوهه الحداثة: ترحيل الجموع الغفيرة، والسجن، نقل السكان <الترانسفير>، والتشريد الجماعي، والهجرات الإجبارية.

إن الحياة الماضية للمهجرين، كما نعلم، ملغاة، يقول ادورنو في <كتابه> الأخلاق الصغرى\*\* <Minima Moralia> المعنون فرعياً تاملات في حياة مشوهة. لماذا؟ لأن كل ما هو غير مُشياً، لا يمكن أن يُحصى ويقاس، يتوقف عن الوجود<sup>(٥٨)</sup>، او، كما يقول

\* - سبقت الإشارة الى بانغلويس.

\*\* - بدلالة قربية من الدلالة التي يحملها مثلاً كتابا ابن المقفع الادب الصغير والادب الكبير.

بعد ذلك، يركن الى مجرد "خلفية". ورغم أن الجوانب الموهنة الشالّة لهذا المصير جلية، فإنّ فضائله أو إمكانياته جديرة بالاعتناء. وهكذا، فإنّ وعي المهجري - عقلٌ شتاءٌ، بعبارة والاس ستيفنز - يكتشف في هامشيته أن نظرة منكفئة عن المعبر المطروق، وكراهية للوحشية، ويحثّ عن تصورات جديدة لم يحتوها بُعدُ النسق العام، هي الأمل الأخير للفكر<sup>(٩٩)</sup>. والنسق العام عند أدورنو هو ما يسميه في مكان آخر "العالم الخاضع للإدارة" أو، بقدر ما تكون المسيطرات التي لا تقاوم في الثقافة هي المعنية، "صناعة الوعي/الوجدان". ثمة إذن لا مجرد الميزة السلبية للملجأ في شذازة المهجري، بل الفائدة الإيجابية لتحدي النظام، أيضاً، ولوصفه بلغة ليست في متناول أولئك الذين يكون النظام قد أخضعهم <وانتهى الأمر>:

في تراتبية فكرية تجعل كل امرئ على الدوام عرضة للاستجاب تكون للإستجابية وحدها قادرة على أن تسمى التراتبية مباشرة باسمها. إن مجال الدوران <والتوزيع>، الذي يحمل مياسمه المفكرون الخوارج، يفتح ملاذاً أخيراً للعقل يقوم العقل بمقايضته، في عين اللحظة التي لا يعود الملاذ فيها موجوداً. إن من يعرض للبيع شيئاً فذاً لا يريد احد أن يشتريه ليتملّ، حتى رغم إرادته، التحرر من المبادلة<sup>(١٠٠)</sup>.

إنّ هذه دونما شك فرصٌ من الحد الأدنى، مع أن أدورنو بعد بضع صفحات يوسّع إمكانية الحرية بوصف شكل من أشكال التعبير تنأى كمادته، وإبهاميته ومخاطلته - غياب الشفافية التامة لأصوله التكوينية المنطقية - عن النظام المسيطر، مفعلاً في "لاكفايته" قدراً ما من التحرير:

هذه اللاكفاية تماثل لاكفاية الحياة، التي تصف خطأ مهتزاً، منحرفاً، مخيباً للآمل بالمقارنة مع مقدماته المنطقية، لكنّه قادر رغم ذلك في هذا المسار الفعلي فقط - الذي هو دائماً أقل مما ينبغي أن يكون - وتحت شروط معينة للوجود، على أن يمثلّ خيطاً غير مفوّج<sup>(١٠١)</sup>.

إنه شديد الخصوصية، قد نقول عن هذا المستراح من التفويجية. ومع ذلك، فإن بوسعنا أن نكتشفه من جديد لا في أدورنو الذاتي بعناد، بل السلبي وحسب، وإنّما أيضاً في النبرات العمومية لفكر إسلامي مثل علي شريعتي، الذي كان قوة رئيسية في الأيام الأولى للثورة الإيرانية، حين مثّل هجومه على "الصراط الحق، المستقيم، هذا الطريق اللاحب الصقيل والمقدس" - السننية المنظمة - الوجه المقابل لانحرافات الهجرة الدائمة:

الإنسان، هذا الظاهرة الجديلة، مرغم على أن يكون دائماً في حركة... الإنسان، إذن، لا يستطيع أبداً أن ينال منوى للراحة نهائياً ويتخذ مسكناً له في الله... كم هي شائنة، إن، جميع المقاييس السوائية المثبتة. من يقدر أبداً أن يثبت مقياساً سوائياً؟ إن الإنسان "اختيار"، وصراع، وصيرورة دائمة. إنه هجرة لانتهائية، هجرة داخل ذاته، من الطين الى الله؛ إنه مهاجر داخل روحه<sup>(١٠٢)</sup>.

إنّ لدينا هنا طاقةً كامنةً أصيلة لثقافة بازغة غير إكراهية (رغم أنّ شريعتي يتحدث فقط عن "الإنسان <الذكر>" لا "الإنسان <الانثى>")؛ وهي ثقافة تشارك - في وعيها للعقبات المحسوسة والخطى المحسوسة، للضبط من غير ابتذال، وللدقة من غير حذلقه - في حس البدء، وهو حس يحدث في كل الجهود الجذرية الأصيلة للشروع من جديد<sup>(١٠٣)</sup> -

• - كذا في النص، وما اظن الإفراد هنا صحيحاً.

على سبيل المثال: في الشرعة الأولى للتجربة الانثوية في <كتاب> فرجينيا وولف غورقة خاصة بالمرءة، أو إعادة الرائدة لتكريز الزمن والشخصية، التي ولدت الاجيال المنقسمة في اطفال منتصف الليل، أو الكوننة اللافتة للتجربة الاميركية-الافريقية كما تبرز بتفصيل لامع في <روايتي> توني موريسون طفل القطران و محبوبة. اما الدفع أو التوتر فإنه يأتي من البيئة المحيطة - القوة الامبريالية التي سترغمك فيما عدا ذلك على التلاشي أو على أن تقبل نساخة ما منمنمة عن نفسك كمبدئاً يتم توزيعه ضمن منهاج لمادة دراسية ما. إن هذه ليست إنشاءات متفوقة سيّدة جديدة، وسرديات قوية جديدة، بل هي، كما في برنامج جون بيرغر، طريقة أخرى في الإخبار. حين تُستعمل الصور أو النصوص لجرد تأسيس الهوية والحضور - لتعطينا، مثلاً، صوراً تمثيلية فقط لـ المرأة، أو الـ هندي - فإنها تلج ما يسميه بيرغر نظاماً للتحكُّم. أما حين لا يتم إنكار صعوبة مراسها الملتبسة طبعياً، وبالتالي السلبية والمضادة للسردية، فإنها تسمح للذاتية غير المفوَّجة باكتساب وظيفة اجتماعية: إن الصور الهشة [صورالعائلة] محمولة في حالات كثيرة لصق القلب، أو موضوعاً إلى جانب السرير، لتستخدم للإشارة إلى ذلك الذي لا يملك الزمن التاريخي حق أن يدمره<sup>(١٤)</sup>.

ومن منظور آخر، فقد بزغت الطاقات الحيوية المنقوية، الهامشية، الذاتية، المهاجرة، للحياة الحديثة، التي تستخدمها الكفاحات التحريرية حين تكون هذه الطاقات من الصلابة والقوة بحيث تستعصي على الاختفاء، أيضاً في ما يسميه ايمانويل فالرشتاين "الحركات المعادية للنَّظْم". لتتذكر أن الملمح الرئيسي للتوسع الامبريالي تاريخياً كان التراكم، وهو عملية تسارعت خلال القرن العشرين. إن منظومة فالرشتاين هي أن التراكم الرأسمالي هو في العمق لاعقلاني؛ فمكاسبه الإضافية، الشَّرهة المولعة بالاكْتِسَاب، تستمر دون ضابط، رغم أن تكاليفه - في الحفاظ على تلك العملية، وفي دفع تكاليف الحروب لحمايتها، وفي شراء ولاء الأَطْر <الكادرات> الوسيطة، واستيعابها <داخل النظام>، وفي العيش في جو من الأزمة الدائمة - باهظة جداً، لا تسوِّغها المكاسب. وهكذا، يقول فالرشتاين، فإن البنية الفوقية [لقوة الدولة والثقافات القومية التي تدعم فكرة قوة الدولة] التي كوَّنت من أجل تأويل التدفق الحر لعوامل الإنتاج في الاقتصاد العالمي هي ذاتها المُسْتَنْبَت الحاضن للحركات القومية التي تعبئ القوى ضد المظالم القائمة طبعياً في النظام العالمي<sup>(١٥)</sup>. ويبرز أولئك البشر الذين أرغمهم النظام على أن يلعبوا أدواراً منضوية أو مكبَّلة ضمنه خصوصاً واعين يقومون بتعطيله، ويقدمون مطالب، ويطرحون حججاً تقفد النزوعات الحادة الكلياتية <الشمولية التوتاليتارية> للسوق العالمية. إذ ليس كل شيء قابلاً لأن يُشْتَرى ولاؤه.

كلُّ هذه الطاقات - المضادة الهجينة، الفاعلة في العديد من الميادين والأفراد واللحظات، توفر منجماً أو ثقافة يتكونان من إشارات وممارسات معادية للنَّظْم لا حصر لها، <تؤسس> لوجود إنساني جماعي (لا مذاهب ولا نظريات مكتملة) غير قائم على الإرغام أو السيطرة. ولقد كانت <هذه الطاقات> وقوداً للانتفاضات الـ ١٩٨٠ات، التي تحدثت عنها سابقاً. إن الصورة السلطوية، الإرغامية، للامبراطورية، التي تسللت وسيطرت على الكثير من إجراءات الإبتقان المتميز الفكري التي تحتل مكانة مركزية في الثقافة الحديثة، لتجد نقيضها في الانقطاعات القابلة للتجديد، التي تكاد تكون رياضية الروح، للمشوبات الفكرية والدينيوية -: الأجناس الخليفة، الجموع غير المتوقعة بين التقليد والجدة،

التجارب السياسية القائمة على منجمعات من الجهد والتأويل (بالمعنى الأوسع للكلمة) بدلاً من الطبقات أو شركات الملكية والمصادرة والقوة.

إنني لأجد نفسي أعود مرةً بعد مرة إلى مقطع شايح الجمال لهوغو أف سان فكتور، وهو راهبٌ ساكسوني عاش في القرن الثاني عشر:

ولذلك، فإنه لمصدرٌ فضيلةٍ عظيمةٍ للعقل المجرب أن يتعلم، شيئاً فشيئاً، أولاً أن يتغير\* في الأمور المرئية والزائلة، كي يكون قادراً بعد ذلك على أن يخلفها براه تماماً. إن المرء الذي يجد وطنه حلواً مايزال مبتدئاً غصناً؛ وأما مَنْ يكون له كلُّ شيءٍ مثل تروى بلده الأصلي فقد اشتد عوده؛ لكنَّ الكامل هو الذي يكون العالم كله بالنسبة له مكاناً اجنبياً. إن الروح البايغ قد ركَّز حبه على بقعة واحدة من العالم؛ والشخص القوي قد نشر حبه على الامتعة كلها؛ وأما الرجل الكامل فقد اطفأ شعله حبه<sup>(٦١)</sup>.

يقتبس إريك أويرباخ، الباحث الألماني العظيم الذي قضى سنوات الحرب العالمية الثانية منفيًا في تركيا، هذا المقطعَ نموذجاً لكلِّ الراغبين - من الرجال والنساء - في تجاوز مقيدات الحدود الامبريالية، أو القومية، أو الاقاليمية. عبر هذا الموقف وحده يستطيع المؤرخ، مثلاً، أن يشرع في فهم التجربة الإنسانية ومدوناتها المكتوبة بكل تنوعها وخصوصيتها؛ ولأفسيبقى المرء ملتزماً بالإقصاءات وردود الفعل المتحيزة أكثر مما هو ملتزم بالحرية السلبية للمعرفة الحقيقية. لكنَّ لاحظْ أن هوغو يُوضح مرتين أن الشخص "القوي" أو "الكامل" يحقق استقلاله وتجردَهُ بالعدل من خلال الالتصاقات والتعالقات، لا برفضها. إنَّ المنفى ليسَ مُستند إلى وجود موطن المرء الأصلي، وحبه له، ووجود وشائج حقيقية معه؛ والحقيقة الكونية للمنفى لا تكمن في أن المرء قد فقد ذلك الحب أو الموطن، بل في أن في كلِّ منهما طبعياً فقداناً غير متوقَّع وغير مستحب. تأمل التجارب، إذن، ركانها على اهبة أن تختفي: تُرى أي شيء فيها هو ذلك الذي يرسو بها ويجذرها في الواقع؟ ما الذي ستحفظه أنت منها، ما الذي ستختلج عنه، ما الذي ستستنفذه؟ ينبغي كي تجيب على أسئلة كهذه أن تتحلَّى بالاستقلالية والتجرد اللذين يتحلَّى بهما مَنْ كان وطنه حلواً، لكنَّ وضعه الفعلي يجعل استرداده تلك الحلاوة أمراً مستحيلًا، بل يزيد من استحالة أن يستمد الرضى من بدائل يوقرها الوهم أو المذهب الجامد، سواء اكانت مشتقة من اعتزاز المرء بموروثه <الخاص> أم من اليقينية حول من نكون نحن.

لا <يشكل> أحدُ اليوم شيئاً واحداً محضاً. إنَّ لاصقات، مثل هندي، أو امرأة، أو مسلم، أو أميركي ليست بأكثر من نقاط انطلاق سرعان ما تُخلف وراءنا إذا ما تمَّ اتباعها لحظة واحدة إلى <مجال> التجربة الفعلية. لقد عززت الامبريالية خليط الثقافات والهويات على مستوى كوني. غير أن أسوأ هباتها وأكثرها أساماً بالمفارقة الضدية هي أنها حملت الناس على الاعتقاد بأنهم بيض، أو سود، أو غربيون، أو شرقيون... فقط، أو بشكل رئيسي، أو بشكل حصري. لكنَّ كما أنَّ البشر يصنعون تاريخهم الخاص، فإنهم بالضبط أيضاً يصنعون ثقافتهم وهوياتهم الأعراقية. ليس بوسع أحد أن يُنكر الاستمراريات الملحة للتراث العريقة، والمسكن المعززة المتصلة، واللغات القومية، والجغرافيات الثقافية؛ لكن يبدو أن ليس ثمة من سبب سوى الخوف والتحيز حين يمضي المرء في الإلحاح على انفصالياتها وتمايزها، كأنما ذلك هو كلُّ ما تدور عليه الحياة

\* - يقرُّ الناشر بأنه لا يعرف ما هو معنى in.. to change about؛ والجملَة المعرَّبة هنا غامضة. (الناشر)

الانسانية. إنَّ البقاء <على قيد الحياة> في الواقع ليدور حول العلائق بين الأشياء؛  
وبعبارة اليوت فإنَّ الواقع لا يمكن أن يُحرَم من "الأصدقاء الأخرى [التي] تقطن الحديقة".  
إنه لأعظم نفعاً وإرواء - وأكثرُ صعوبةً - أن نفكر بمحسوسية وتعاطف، طباقياً، بالآخرين  
من أن نفكر بـ "انفسنا" فقط. بيد أن ذلك يعني أيضاً الا نحاول أن نُحكَم الآخرين، الأ  
نحاول أن نصنّفهم أو نضعهم في تراتبيات، ويعني فوق كل شيء، الأ نكرر باستمرار أن  
ثقافتنا" او بلاد "نا" هي الأولى (او أنها ليست الأولى، في هذا الخصوص). إنَّ أمام  
المفكّر لقدراً كافياً مما هو قيّم ليستغني به عن ذلك.



## كشاف مصطلحي

-١-

يضم هذا الكشاف عدداً من الكلمات والصيغ التي قد تبدو غير مألوفة للقارئ . ولكي يسهل استخدامه، يحسن بالقارئ حين يجد كلمة عربية في ترجمتي لا يتضح له ما تعنيه أن يعود إلى هذا الكشاف، باحثاً عن الكلمة أجدياً. هكذا سيجد مثلاً كلمة "شخصيات"، فإذا عاد إلى الكشاف سيجد معادلها الاجنبي المستخدم في الكتابة العربية والأصل الاجنبي لها.

تضاف إلى هذه المجموعة المختارة من المصطلحات والتعابير جميع الكلمات التي استخدمتها لترجمة كلمات اجنبية تستخدم في العربية بلفظها الاجنبي وحروف عربية، من مثل : المغناة <الاوربا>. ولم أجد حاجة إلى إعادة إدراجها جميعاً هنا، لأن معانيها واضحة في النص. وراجع أيضاً الكشاف المصطلحي الموجود في مقدمة ترجمتي لكتاب ادوارد سعيد الاستشراق.

disclaimer	استبراء إعلان متبرئ، تنصل	أخرىات	alterities
reconstructive	استبنائي	اسر	intriguing
adumbrations	استنارات ترميزية : تكهانات	أجاز	warrant
appeal	استتارة، استهواء، مناشدة،	الاجنبي الدون	wog
xenophobia	استجنابية، خوف للأجانب وكرهمهم	احتوائي تكاملي	integrative
incestous	استحرامي	أحجم بحلمٍ عن، تجمل عن	forbear from
deployment	استخدام القوة وتحريكها	أحفاد، من سلالة، ورثة، خلفاء	epigones
strategist	استخطاطي	اختيال	derangement
strategies	استخطاطيات	أخذ الأمر بدايةً: راجع "استبدته"	take it for granted
extrapolate	استخلص	أخطوطة	tactic
defensiveness	استدفاعية	أدنى مرتبة، دوني	inferior
atavistic	استسلافية	أنواق غرائبية	exotic tastes
orientalism	استشراق	إرادي متعمد، متصلب	willful
chauvinistic	استعلاني <شوفيني>	ارتحالنا، خروجنا <الرسولي>	(our) errand
exhaustiveness	استيفاء متقن	ارتياحي (أو المصابٌ بخيل الريبة)	paranoid
fantasy	استيهام	أرخنة (الماضي)	historicization
illusory	استيهامي خُلب	أرُخ وحدد اللحظة الزمنية	to date
inclusively	اشتمالياً، احتوائياً	أرض	to ground
most compelling	أشد فرضاً لنفسه	إرسالية <همة رسولية تبشيرية>، رسالة	mission
الإصابة السياسية: راجع «اللياقة السياسية»		إرهاص شعوري، حس داخلي استباقي	presentiment
millenarians	أصحاب اليقين الألفي	أريحية، سخاء	benevolence
أصل: راجع "أرض"		أساطيريات، روح اسطورية	mythos
territories	أصقاع، أراض (محتلة)	استنوالي	hermeneutical
provenance	أصل، منبع، معدن الشيء	استباقي تاريخياً	proleptic
أصلانية <نزعة>	nativism	استبَدّه	take it for granted

بالمعيار نفسه by the same token  
 بتعبير لا كياسة فيه to put the matter bluntly  
 بدقة الموسوس وأمانته scrupulously  
 برامج الاهداف agendas  
 بعد كل حساب after all  
 بعزيمة لا تحيد عن الهدف، باستغراق في  
 الهدف single-mindedly  
 بفظاظة brusquely  
 بل حتى رديعي and even deterrent  
 بل للأسف but alas  
 بل هي بالأحرى (أو في الأجدر) but are rather  
 بهذا المغزى to this effect  
 بؤس، شعور بالنبذ desolation  
 بوجه من القول so to speak  
 بوجه من الكلام as it were  
 بيت، وطن home

#### تاء

تأريض grounding  
 تأكيدات جازمة وأيمان مغلظة asseverations  
 تابع subaltern  
 تاريخانية historicism  
 تَبَارَى: راجع «صَنَادِم»  
 تبصرات نفاذة insights  
 تبعية dependency  
 تَبْلُجُ dawnning  
 تجسيد (أو تجسد) incarnation  
 تجمعات ملية congregations  
 تخبطُ floundering about  
 تخوف كايح inhibition  
 تراتبية hierarchy  
 التراث الشرائعي أو المكرس أو المكتون الغربي  
 Western canon  
 ترجيع رنان، ترنين resonance  
 تركيبية synthesis  
 تسميات rubrics  
 تَشَخُّصَات configurations  
 تشخصنات transfigurations  
 تَصَادَمَ play off  
 تَصَنَعُ take on  
 تضاريسية (بصيغة الاسمية لا النعتية) topos

أصلائي native  
 أصلي indigenous  
 أضغفَ compromise  
 إطار مشهدي setting  
 إطناب verbosity  
 أعاد الحق الى نصابه right the wrongs  
 إعادة تأهيل rehabilitation  
 أعراق تابعة محكومة subject races  
 أعراقي: راجع «سلالي»  
 أغوال monsters  
 اقتصارية، حصرية exclusivity  
 اقتضى enjoins  
 اقتناء العبيد holding slaves  
 إحام تجاوري juxtaposition  
 إقدام متهور impetuous arrivisme  
 إقطاعا estate  
 إقطاعية fiefdom  
 الأقوال الماثورة dicta (dictum)  
 اكتمالية، تكاملية integrity  
 أكثر إشاقة more interesting  
 التام، التَحَمَّ coalesce  
 التباسية وإرابة equivocation  
 الذين تروق لهم مهاجمة اليابان Japan- bashers  
 ألفوية millenarianism  
 الأميركيون والانكلين بلغة بعض مناطق اميركا  
 الجنوبية gringo  
 انتظامية مطردة، منتظمة systematic  
 انتماءات affiliations  
 أنزواني: راجع «مَنزَو»  
 أنسابية genealogical  
 انسياق: راجع «تَكْيُف»  
 انشياء، التعلق بالأشياء والوله بها fetishism  
 انضباط، تأديب discipline  
 انطباقية applicability  
 انكشاف، ظهور، تجلُ epiphany  
 الإنكليزية Englishness  
 انموذج model  
 أوْهَن، أضغفَ (موقفه) undermine

#### باء

بالتناوب by turns

جغراسي geo-political  
جمالية، جمالية aesthetic  
جملة إجمالية لا تُقدّم ولا تؤخّر tautology  
الجُنوسة (أو الفصيلة الجنسية) gender

### حاء

حتى لو كان لنا أن نُدخل في الاعتبار even if  
we were to allow  
حتموية deterministic  
حشرات هوام vermin  
حصرية exclusivist  
حفلات بيعة <أو ولاء> ومهرجانات  
jamborees and durbars  
حقّانيّ righteous  
حقول معرفية تفهية learned disciplines  
حقيقة بديهية، معطى مبديني axiom  
حكايا الكنية picaresque tales  
حكاية متّنية parable  
حكم الامصار الخاضعة dominion  
حكم الطغم والشلل oligarchies  
حل الغاز deciphering  
حواضري metropolitan

### خاء

خطانط <خطيطة> schemata  
خليطة cacophony

### دال

دراسات إقليمية area studies  
دعنا نقبل فرضاً let us allow that  
دلالة حقيقية، النقطة الدالة the whole point  
دليل (كما في معرض فني) catalogue  
دنيوي؛ علماني secular  
دهمانية <أو شغبوية> demagogic  
دوائر سكانية، دوائر مناصرين constituencies  
دوران حلزوني، لولبة gyration  
دون رفة هذب with a straight face  
دون مبالاة heedlessly  
دونما هودة implacably

تَطْوِط، تارجح مهلهلاً بين كذا وكذا waffle  
تعاصر coevalness  
تعالق engage with  
تعلمي، عملياني pragmatic  
تعريض للشبهة ومساس بالكرامة compromising  
تفاقم exacerbated  
تفوقية superiority  
تفويج (كما في تقسيم الجيش الى افواج) regimentation  
تقليدي classical  
تقويم محصّ close appreciation  
تكافلي symbiotic  
تكافؤ، مكانة لاقفة valence  
تكامليات integrities  
تكنية (مصدر كلّي) totalization  
تكهنٌ بالغيّب، علمٌ مُسبقٌ بالأمور prescience  
تكوين <أو تشكيل> تضاريسي topography  
تكيفٌ conformity  
تلابسُ المشاعر ambivalence  
تلوينية chromaticism  
تمجيد exaltation  
تَمَفْصَلٌ على hinge on  
تملكية proprietary  
تنقيد critique  
تَهَادَى courses through  
تهويمات divagations  
تواصل، اتصال communication  
تواطؤ complicity  
توجيه، إدارة الحكم governance  
توضعات متظاهرة posturings  
توليفة: راجع «تركيبية»  
توق اسيان wistfulness

### ذاء

ثابت، لامتغير، غير قابل للتغيير imutable  
ثغر لحامية عسكرية garrison town

### جيم

جاذبية تصويرية picturesauness  
جَارَ أَخْذُهَا بالاعتبار allowable  
جُرْدِيّ: راجع «متّلق»...

micropolitics سياسيات صغرى  
 concurrent (في) سياق متآين  
 sovereign سيّد، ذو سيادة

شمين  
 شخُوصة: راجع: «رسم»...  
 persona شخصية  
 involve شَبَكَ  
 eccentric شذّاذ  
 canonical شرائعي أو مكنون  
 was authorized شرعي، سُلْطَن، قُوَضُ  
 cliché شَعيرة مستهلكة (حين لا تكون لغوية)  
 شغبوية: راجع «دهمانيّة»  
 courses through شقّ مساره  
 concerns شواغل

صاد  
 withering صاعق <نقد>  
 validation صدقنة  
 I am struck يصدمني بشدة  
 edifice صنُوح، نصب  
 sonority صفاء صوتي  
 fetish صنّيمة  
 rectitude صواب، استقامة، صحة  
 images & imaginings صور ومتصورات  
 trope صيغة مجازية، مجاز

ضاد  
 offset ضاهي

طاء  
 oligarch <حاكم> طاغمة (قياساً على طاغية)  
 stamina طاقة الاحتمال  
 contrapuntal طباقّي  
 normalizing طَبِّعنة  
 inherent طَبِّعي  
 طبقة مُفَلَّقة: راجع «فنة متصلبة»  
 طَقْمَانِيّة: راجع «حكّم الطغم»  
 initiation rites طقوس الاستبداء

ذال  
 valid ذو سرّانية  
 sameness ذاتوية  
 eccentric ذو شذّانة  
 privileged ذو موقع امتيازي

راء  
 masterpiece رائعة (بالمعنى الاسمي)  
 gentleman الرجل المهذب  
 nomadic رُحَل  
 bland composure رزانة خالية من أي تعبير  
 رسالة <كما في رسالة القيان للجاحظ> treatise  
 رسم تخطيطي ساخر، شخوصة caricature  
 رعوية طويابوية idyllic  
 رقمة sound bite راجع ايضاً: لسعة صوتية  
 رمز encode  
 رنرن resonate  
 ركائز underpinnings  
 روح التآلف الجمعية، منجم community  
 روحية، روح القيم الجمعية ethos

زين  
 extra-literary زا-ادبي  
 niggers زنوج  
 négritude زَنُوجَة  
 quasi-scientific زَي-علمية

سين  
 archive سبجل المحفوظات  
 occult سِخْرية غيبوية  
 narrativization سنرئنة (المجتمع)  
 grand narratives السرديات الجليلة الكبرى  
 philistine سطحي، ضيق الافق، جاهل  
 apocalypse سيفر الرؤيا، رؤى حشرية  
 ethnic سلالي، اقوامي، أعراقى  
 ethnicity سلالية، اقوامية، أعراقية  
 lineament سمة مائزة  
 avail himself of سمَح لنفسه بالإفادة من  
 orthodox سننّية

فَرَضَ نَفْسَهُ بِقُوَّةٍ compelling  
فسوق، فجور depravity  
فضاء امبريالي، مَبْرُط imperium  
فطري، موجود بالولادة congenital  
فعالية efficacy  
فعلياً in effect  
فقيه لغة، محب للغة philolog  
فكفكة الاستعمار decolonization  
فواعل الحيوية، المحركات الحيوية dynamics  
فئة متصلة، طبقة مغلقة على نفسها caste  
«جديرة بذلك» في ذاتها in their own right  
في ما حدث الكفاية «بمعنى: بلغ السيل الزبي»  
enough is enough  
في هذا الخصوص for that matter  
فيما عدا ذلك otherwise  
فيوض emanations

#### قاف

قابل للبرهنة demonstrable  
قارِبَ approach  
قروي زَمَيْت village prig  
قُسُسٌ: راجع «مريدون»  
قفلة closure  
القيام بالعمل الأخير الحاسم take the final plunge  
قَيْدُ «القول» بشروط qualify

#### كاف

كاملٌ integrate  
كرب، اكتئاب، غم depression  
كَلَوِيَّةٌ «شمولية» totalistic  
كلي الاحتواء all-encompassing  
كَمَى، قَدَّرَ الكَمِيَّات quantify  
كوارثي cataclysmic

#### لام

لا يُنْكَرُ لا يُنْكَرُ irrefragable  
لاهو - صوفية theosophic  
لا ينقطع، متصل، مطرد unremittig  
لَجُوج importunate  
لسعة صوتية sound bite

#### عين

عاجلية، ملحاحية urgency  
عالم اصغر microcosm  
عاير، قاس معيار calibrate  
عبارة تلييفية أو تقليبية في تقرير ما تقرره  
understatement  
عَبَقَ بِـ suffused  
عَثْبِي liminal  
عتيق منسوخ outmoded  
العربسية «أو العريسة» arabesque  
عرضة للجدال subject to disputation  
عَرَضِي اشتراطي «مشروط بغيره» contingent  
عَرَضِيَّة اشتراطية contingency  
عرفانية روحية «غنوصية» gnosis  
عريق classic  
عصي التناول unwieldy  
عكرة impurity

يعلم نفسه بنفسه، ذاتي التعلّم autodidact  
علم الأصول والسمات العرقية «الأعراقيا» ethnology  
علم التاريخ historiography  
علم الأعراق الوصفي «عرقرافيا» ethnography  
على صيغة، على نهج «فلان» à la  
عنصري، عرقي racial  
عواصم كبرى، حواضر metropolis  
عوامية «نسبة إلى العوام» vulgar  
عويصة إسرارية esoteric

#### غين

غائي teleological  
غبطة، نعيم الهناء felicity  
غرائبيات، مدهشات exotica  
غرفة العلية «أو التخفية» attic room  
غير قابل للتجاوز insuperable  
غير ملائم، غير متناسب ill-suited  
غير منتظم، متناثر، متقطع sporadic  
غير واحدِي unmonolithic

#### فاء

فردوس Elysium  
فَرَشَ furnish

مخزون الماثورات الشعبية lore	لم تلق إلا ادنى درجات العناية little notice
المُدْهَشَات: راجع «غرائبيات»	was taken of the fact that
مَدِين beholden	لمحات خُلَاصِيَة apercus
مذهبية جامدة dogma	لَوَيْبَة: راجع «دوران...»
مربوحية profitability	لَي - سياسي apolitical
مَرْجَع أعلى «او ثقة» authority	لِيَاقَة، احتشام، آداب اجتماعية propriety
مُرْشِد رُوحِي guru	اللياقَة السياسيَة political correctness
مركب composite	ليس في طاقتي أن اتحمل I cannot afford this
مرمر، مقنن codified	ميم
مرمرات، تقنيات، نُظْمُ ترميز codes	المانوية «الثنوية» Manichean
مُرْوَكَب superimposed	ما ورا - تاريخية meta-historical
مُرِيد chela	مبتنيات constructs
مريدون: قسس «رتبة كنسية» acolytes	مَبْرُط «الفضاء الامبراطوري» imperium
مَسَاجَلَة خِلافِيَة controversy	مبين لذاته self-evident
مُسَاقَطَة، مُسَقَط، إسقاط projection	مُتَّائِن simultaneous
مستثير للانفعالات الحادة melodramatic	متهامة ارتياب، مجاهيل القراءة ومربياتها
مستحدثة، مستجدة «امبريالية» neo-imperialism	aporias
مسترخ relaxed	مُتَبَطَّن underlying
مستنبت plantation	مُتَخَلَّل جذري motif
مستوضعات deposits	مترسب residue
مستوهم fantasized	مترسب residuum
مَسْرَحَ نَفْسِه play itself out	متسلق «اجتماعيا»، طارئ غير تليد upstart
مسردة (كما في مكتبة) catalogue	متصلب intransigent
مشبوك، متعالق embroiled	متفاعمان inform each other
مُشْتَمَل، مدمج، مُحْتَجَن incompared	متفقه في العلم learned
مُشْتَرَب suffused	متفجرة «لغة» stilted
مشرعين legitimizing	متفجع «تَجَوُّلٌ» meandering
المشرقانية، الاستشراق Orientalism	متناقض، ضدي antinomian
مشروطية «او مؤقتة، انية» provisionality	متنام underdeveloped
مشكلات تلوح «مكفهرة» looming problems	متوهج مستعر flamboyant
مشؤوم المصير doomed	مُتَأَقَّف acculturated
مَشْهُد طبيعي ارضي landscape	مُتَر، مُعْن edifying
مصادقة: راجع «صدقته»	مُتَلْجِئِيَة، الرُغْبَة الجنسيَة في المثل جنسياً homosexuality
مطالب claims	مُجَارَظَ به ventured
مُضَمَّع: راجع «مُشْتَرَب»	مجد، قوى، exalt
مطالب لجوجة importunings	مُجْمَع ensemble
مطرود منطقي، كتابة مسترسلة discursive	محاصر embattled
معادل، مكافئ commensurate	مَحْرَقٌ، ركز تركيزاً محرقياً focus
معاصرة contemporaneity	مِحْساب computer
معامل القيمة parameter	مُخْتَلَقَات (او مفتريات) fictions

Europeanized مؤدَّب  
 compartmentalized مؤزَع على خانات منفصلة  
 alignments مَرُضَعَات واصطفافات  
 theme موضوعة  
 thematics موضوعيات  
 synthesizer مؤلف تركيبى

## نون

outlying نام، طرفى  
 inflections نبرات مُعْرِبة  
 combativeness نزعة صدامية  
 proclivity نزوع، ميل <خاصة إلى ما يسيء>  
 odalisques نساء الحريم ، جوار، إماء  
 نُسَاحَات، بمعنى صَيغ أو روايات مختلفة للنص  
 versions الواحد  
 reproductions نَسَخيات  
 pattern نَسق  
 systematics نظاميات  
 نعيم الهناء: راجع «غَيْطَة»  
 animate نَفِّح بالحياة  
 selfhood نَفُوسَة  
 catalyst نقطة تحفيز، مُحفِزة  
 nonentity نَكْرَة غير ذي شأن  
 mode نهج  
 epithets نواعت

## هاء

hybridity هجنة  
 clamour هجيج  
 hybrid هجين، مؤلَّد  
 hereeness هُنائِيَّة  
 identitarian هويَاتِيَّة

## واو

unitary واحديَّة  
 وَأَنَّ: راجع «ضاهى»  
 واسمات: راجع «تسميات»  
 self-conscious واع ذاته  
 وَجَدُ: راجع «توقى...»  
 وفير الإمكانيات واسع الحيلة resourceful

spectacle مَعْجَبِيَّة  
 terms معطيات  
 maelstrom معمة <لجة، خضم>  
 venturesomeness مُغامرية  
 conjuncture مُفْتَرِق  
 conjunctural مُفْتَرِقِي، تقاطعي  
 differentiated مفروق، متمايز  
 analogue مقايسة  
 approach مُقْتَرِب، مُقَارِبَة  
 regulated مُنظَّم  
 prestige مكانة امتيازية  
 uncanny/ly مُكْتَنَفُ بسحرية مرهبة  
 depressing مُكرب  
 sanctioned مَكْرَز، مجاز، مُقَرُّ  
 مكرس، مرصود بعهد، موقوف <كما في  
 the covenanted الوقف الشرعي>  
 routine مكرورية  
 totalising مُكَلِّ، مُكَلِّية  
 circuitous ملتف، غير مباشر، التقايفى  
 surrogate مُكَلِّف، مُناب  
 incumbent upon him مُلزِم له  
 autonomous يملك استقلالاً ذاتياً  
 polemics مباحكات  
 animadversions مناقدات  
 community مُنَجِّع  
 sleazy منحلّ خلقياً  
 engaged منخرط (أو ملتزم)  
 solitary منزو، انزوائى، متوحد  
 paradigm مُنَسَّق  
 منسوب إلى أحد الأبالسة السبعة في القرون  
 Mephistophelian الوسطى  
 منضو: راجع «تابع»  
 argument منظومة  
 insular مُنْغَلِق على نفسه، جُزُرِي  
 utilitarianism منفعية  
 footloose مُنْغَلِيت، طليق، مترحل  
 jingoistic مهلّل للحرب  
 wishy-washy مهلهل  
 vocation مهنة ذات رسالة  
 redoubtable مَهِيْب ومروِّع  
 impressive مَهِيْب بحق

## كشاف مصطلحي

- ٢ -

اقتصرتُ في هذا الكشاف على كلمات وعبارات ذات صعوبة خاصة في الترجمة، وليس لها معادلات مستقرة في العربية، وعلى مصطلحات اقترحتُ لها ترجمات جديدة، وغرضي تقديم عبارة أو كلمة عربية لمادة انكليزية تكون صالحة سياقياً وضمن جملة فعلية، لا إعطاء معادل قاموسي جامد. وقد رتبت الكلمات الانكليزية هنا ابجدياً تسهيلاً على القارئ.

asseverations تأكيدات جازمة وأيمان مغلظة

as well as كما بـ

atavistic استسلافية

authorise شرعن، أجاز

authority مرجع أعلى، مرجع ثقة

autodidacts يعلم نفسه بنفسه، ذاتي التعلم

autonomous يملك استقلالاً ذاتياً

avail himself of سمح لنفسه بالإفادة من

axiom حقيقة بديهية، معطى مبدي

### B

beholden (is) مدين

benevolence اريحية، سخاء

billeted فرَضَ

bland composure رزانة خالية من أي تعبير

brusquely بفظاظة

but alas بل للأسف

but are rather بل بالأحرى <أو في الأجرى>

by the same token بالمعيار نفسه

by turns بالتناوب

### C

cacophony خليطة

calibrate عاير

canonical شرائعي أو مكنون

caricature رسم تخطيطي ساخر، شخصية

cataclysmic كوارثي

catalogue دليل، كما في معرض فني

chauvinistic استعلائي <شوفيني>

chela مُريد

### A

a la على صيغة، على نهج، بأسلوب <فلان>

acculturated مُتأقّف

acolytes مریدون؛ قسس <رتبة كنسية>

adumbrations استتارات ترميزية؛ تكهّنات

aesthetic جماليّ، جمالاتي

after all بعد كل حساب

agendas برامج الأهداف

albeit وإن تكن

alignments مؤسّمعات واصطفافات

all-encompassing كلي الاحتواء

allowable يجوز أخذه بالاعتبار

alterities أخريات

ambivalence التضاد الشعوري، تلبس المشاعر

animadversions مناقدات

animate نفع بالحياة

aperçus لمحات خلاصية

appeal استتارة، استهواء، مناشدة

analogue مقاييس

antinomian متناقض، ضدي

applicability انطباقية

approach (n) مقاربة، مقارب

approach (v) قارب

apocalypse سفر الرؤيا، رؤيا حشرية

aporias متاهات ارتياب، مجاميل القراءة ومربياتها

arabesque العربية <أو العريسة>

archive سجل المحفوظات

area studies دراسات إقليمية

argument منظومة

as it were بوجه من الكلام



## D

date أرخ، حدّد اللحظة الزمنية  
dawning تبلّج  
deciphering حل الغاز  
decolonization فكفكة الاستعمار  
defensiveness استدفاعية  
demagogic دهمانية <أو شغبوية>  
demonstrable قابل للبرهنة  
dependency تبعية، اتكالية  
deployment استخدام القوة وتحريكها  
deposits مستوضعات  
deterministic حتموية  
dicta ( dictum) الأقوال الماثورة  
differentiated مفروق، متمايز  
disclaimer استبراء (أو إعلان متبرئ)، تنصل  
discursive مطرد منطقي، كتابة مسترسلة  
divagations تهويمات  
dogma مذهبيات جامدة  
dominion حكم، الأمصار (أو الاقطار) الخاضعة  
doomed مشؤوم المصير  
dynamics فواعل الحيوية، المحركات الحيوية

## E

eccentric شدّاذ، ذو شذاذة  
edifying مثر، مُقنّ  
efficacy فعالية  
Elysium فردوس  
emanations فيوض  
embattled محاصر  
embroiled متعالق، مشبوك  
encode رمّز  
engage with تعالق  
engaged منخرط (أو ملتزم)  
Englishness الانكليزية  
enjoins اقتضى  
enough is enough في ما حدث الكفاية  
<بمعنى بلغ السيل الزبي>  
ensemble مُجّمع  
epigones أحفاد، من سلالة، ورتة، خلفاء  
epiphany انكشاف، ظهور، تجلّ

chromaticism تلوينية  
circuitous ملتف، غير مباشر، التفافى  
claims مطالب  
clamour هجيج  
classic عريق  
classical تقليدي  
cliche شعيرة مستهلكة (حين لا تكون لغوية)  
close appreciation تقويم محصّ  
closure قفلة  
coalesce التام، التحم  
codes مرمّزات، تقنيات، نظم ترميز  
codified مرمّز، مقنّن  
coevalness تعاصر  
combativeness نزعة صدامية  
commensurate معادل، مكافئ  
community روح التآلف الجمعية، منجم  
compartmentalized موزع على خانات منفصلة  
compelling تفرض نفسها بقوة  
compromises أضعف  
compromising تعريض للشبهة ومساس بالكرامة  
computer محاسب  
concerns شواغل  
concurrent في سياق متآين، سياق من التآين  
configurations تشخصات  
conformity تكيف وانسحاق  
congregations تجمّعات ملية  
conjunctural مفترقي، تقاطعي  
conjunctures مفترقات  
constituencies دوائر سكانية، دوائر مناصرين  
constructs مبتنيات  
as construed by كما يتأوله  
contemporaneity معاصرة  
contingency عرّضية اشتراطية  
contingent عرّضي اشتراطى <مشروط بغيره>  
contrapuntal طباقى  
controversy مساجلة خلافية  
courses through شق مساره <جهادى>  
covenanted مكرّس، مرصود بعهد، موقوف  
<كما في الوقف الشرعى>  
critique تنقيد

geo-political جغراسي  
 gnosis عرفانية روحية <غنوصية>  
 governance توجيه، إدارة الحكم  
 grand narratives السرديات الجليلة الكبرى  
 gringo  
 الجنوبية الاميركيون والانكليز بلغة بعض مناطق اميركا الجنوبية  
 ground أرض، أصل  
 guru مرشد روحي  
 gyration دوران حلزوني، لولبة

## H

hereness هُنائيّة  
 hermeneutical استنوالي  
 hierarchy تراتبية  
 hinge on تفصل على  
 historicism تاريخانية  
 historicization أَرْخَنَة (الماضي)  
 historiography علم التاريخ  
 home بيت، وطن  
 homosexuality مثجنسية، الرغبة الجنسية في المثل جنسياً  
 hybrid هجين، مولّد  
 hybridity هجنة

## I

idyllic رعية طوباوية  
 ill-suited غير ملائم، غير متناسب  
 illusory استيهامي خَلْب  
 images & imaginings صور ومتصورات  
 immutable ثابت، لامتغير، غير قابل للتغيير  
 imperium مَبْرُط <الفضاء الامبراطوري>  
 impetuous arrivisme إقدام متهور  
 implacably دونما هوادة  
 importunings مطالب لجوجة  
 impressive مهيب بحق  
 impurity عكرة  
 incarnation تجسيد <او تجسّد>  
 incestous استحرامي  
 inclusively بصورة اشتمالية احتوائية  
 incorporated مشتمل، مدمج، مُحتَجَن  
 incumbent upon him ملزم له

epithets نواعت  
 equivocation التباسية وإرابة  
 errand ارتحال، خروج <رسولي>  
 esoteric عويصة إسرارية  
 estate إقطاعة  
 ethnic سلالي، اقوامي، اعراقي  
 ethnicity سلالية، اقوامية، اعراقية  
 ethnography علم الاعراق الوصفي <عرقرافيا>  
 ethnology علم الاصول والسمات العرقية <الاعراقيا>  
 ethos روحية، روح القيم الجمعية  
 Europeanized المُؤَوَّب  
 exacerbated تفاقم، ازداد تفاقمًا  
 exclusivist حصري  
 exclusivity حصرية، اقتصارية  
 exhaustiveness استيفاء متقن  
 exotica غرائبيات مدهشة  
 exotic tastes ادواق غرائبية  
 extra-literary زا - ادبي  
 extrapolate استخلص

## F

fantasized مستوهَم  
 fantasy استيهام  
 felicity غبطة، نعيم الهناء  
 fetish صنيمّة  
 fetishism انشياء، التعلق بالاشياء والوله بها  
 fictions مختلقات (او مفتريات)  
 fiefdom إقطاعية  
 flamboyant متوهج مستعر  
 focus مَحْرَق، ركن تركيزاً محرقياً  
 footloose منفلت، طليق، مترحل  
 forbear from أحجم بحلم عن، تجمل عن  
 for that matter في هذا الخصوص  
 function وظيفة ادائية

## G

garrison town ثغر لحامية عسكرية  
 gender الجنوسة (او الفصيلة الجنسية)  
 geneological انسابية  
 gentleman الرجل المهذب

## M

- maelstrom <معمة حجة، خضم>  
 Manichean مانوي <ثنوي>  
 masculine ethos روحية ذكورية  
 masterpiece الرائعة  
 meandering <تجوال> متمعج  
 melodramatic مستثير للانفعالات الحادة  
 Mephistophelian منسوب إلى احد الابالسة  
 السبعة في القرون الوسطى  
 meta-historical ما وراء - تاريخية  
 metropolis عواصم كبرى، حواضر  
 metropolitan حواضري  
 microcosm العالم الأصغر  
 micropolitics السياسيات الصغرى  
 millenarians اصحاب اليقين الالفى  
 millenarianism الفوية  
 mission <رسالية> او مهمة رسولية تبشيرية، رسالة  
 model نموذج  
 mode نهج  
 monolithic واحدي النظرة او المعتقد  
 more interesting اكثر إشافة  
 most compelling اشد فرضاً لنفسه  
 motif متخلل جذري <موتيف>  
 myths اساطيريات، روح اسطورية

## N

- narrativization سَرْدَنَة (المجتمع)  
 native اصلائي  
 nativism <نزعة> اصلائية  
 neo-imperialism امبريالية مستحدثة، مستجدة  
 nonentity نكرة غير ذي شأن  
 normalizing طبعنة

## O

- occult سحرية غيبوية  
 odalisques نساء الحريم، جوار، إماء  
 offset ضاهى، وازن  
 Orientalism المشرقانية، الاستشراق  
 oligarch <حاكم> طاغمة (قياساً على طاغية)  
 oligarchies حكم الطغم والشلل، الطغم الحاكمة، الطغماتية

- indigenous اهلي، اهلي  
 in effect فعلياً  
 inferior ادنى مرتبة، دوني  
 inflections نبرات معربة  
 inform افعم  
 inherent طبيعي  
 inhibition خوف كايح  
 initiation rites طقوس الاستبداء  
 insights تبصرات نفاذة  
 insignia واسمة مائزة  
 insular منغلق على نفسه، جُزري  
 integrate كامل  
 integrative احتوائية تكاملية  
 integrity اكتمالية، تكاملية  
 in their own right <في ذاتها> بذلك  
 intriguing أسر  
 involve يشبك  
 irrefragable لا يُدحض، لا يُنكر

## J

- jamborees and durbars حفلات بيعة  
 <ار ولاء> ومهرجانات  
 Japan-bashers الذين تروق لهم مهاجمة اليابان  
 jingoistic مهلل للحرب  
 juxtaposition إقحام تجاوري

## L

- landscape مشهد طبيعي أرضي  
 learned متفقه في العلم  
 learned disciplines حقول معرفية تفقهية  
 legitimizing مشرعين  
 let us allow that دعنا نقبل فرضاً  
 liminal عتبي  
 lineament سمة مائزة  
 little notice was taken of the fact that لم يلق إلا ادنى درجات العناية  
 looming problems <مكفهرة>  
 lore مخزون الماثورات الشعبية

## R

racial عرقي، عنصري  
reconstructive استبنائي  
redoubtable مهيب ومروع  
regimentation (كما في تقسيم الجيش إلى أفواج) تفريع  
regulated مُنظَّم، منظم  
relaxed مسترخ  
reproductions نُسَخِيَّات  
residue مترسَّب  
residuum مترسب  
resonance ترنين، ترنين  
resonate ترنزن  
resourceful وفير الإمكانيات واسع الحيلة  
right the wrongs أعاد الحق إلى نصابه  
righteous حقاني  
routine مكرورية  
rubrics تسميات، واسمات

## S

sanctioned مكرز، مُجاز، مُقرُّ  
schemata خُطاط <خطيطة>  
scrupulously بدقة الموسوس وأمانته  
secular دنيوي، علماني  
self-conscious واع لذاته  
self-evident مبين لذاته  
selfhood النُفُوسَة  
setting إطار مشهدي  
simultaneous متاين  
single-mindedly بعزيمة لا تحيد عن الهدف  
استغراق في الهدف  
sleazy منحل خلقياً  
sonority صفاء صوتي  
so to speak بوجه من القول  
sound bite لسة صوتية، رَقْمَة  
sovereign سيّد، ذو سيادة  
sporadic غير منتظم، متناثر، متقطع  
standard سواني  
stilted متقرُّ  
strategies استخطاطيات

orthodox سُنِّيَّة  
otherwise فيما عدا ذلك  
outmoded عتيق منسوخ

## P

parable حكاية مثلية  
paradigm مُنَسَّق  
parameter مُعامل القيمة  
paranoid ارتيابي (او المصاب بخبل الريبة)  
pattern نسق  
persona شَخِصَة  
philolog فقيه لغة، محب للغة  
picaresque tales حكايا الكدية  
picturesaueness الجاذبية التصويرية  
plantation مستنبت  
play itself out مسرح نفسه  
play off each other تصادما، تباريا مباراة حاسمة  
is poised استوضع، اتخذ وضعية متوازنة استعداداً ل:  
polemics مباحكات  
political correctness الإصابة السياسية  
(او اللياقة السياسية)  
posturings توضعات متظاهرة يتخذها المرء  
pragmatic تعاملتي، عملياني  
prescience تكهن بالغيب، علم مسبق بالأمور  
presentiment إرهاص شعوري، حس داخلي استباقي  
prestige مكانة امتيازية  
prevail over him كانت له الغلبة عليه  
priviliged ذو موقع امتيازي  
proclivity ميل <خاصة إلى ما يسيء>  
profitability مربوحيية  
projection مُساقطة، إسقاط  
proleptic استباقي تاريخياً  
provenance أصل، منبع، معدن الشيء  
provisionality مشروطية <أو مؤقتية، أنية>  
to put the matter bluntly فيه كياسة

## Q

qualify قَيَّد <القول> بشرط ما  
quantify كَمَّى، قَدَّر الكميات  
quasi-scientific زَيّ-علمية

underpinnings ركانز  
 understatement عبارة تلمظية أو تقليبية في تقرير ما تقرره  
 unmonolithic غير واحدة  
 unremitting متطرد، متصل، لا ينقطع، لا يني، لا يني، لا يني، لا يني  
 unwieldy عصي التناول  
 upstart متسلق <اجتماعياً>، طارئ غير تليد  
 urgency عاجلية، ملحاحية  
 usually and invidiously عادة وبطريقة بغيضة  
 utilitarianism المنفعة

## V

valence تكافؤ، مكانة لائقة  
 valid ذات سرمانية  
 validation صدقة، مصادقة  
 ventured مجازف بها  
 venturesomeness مغامرة  
 versions نسخات <بمعنى صيغ أو روايات  
 مختلفة للنص الواحد>  
 vocation مهنة ذات رسالة  
 vulgar عوامية <نسبة إلى العوام>

## W

waffle تتطويع، تتأرجح مهلهلة بين كذا وكذا  
 warrant يبيع  
 Western canon التراث الشرائعي أو المكرس  
 أو المكنون الغربي، القانون  
 Whole point (the) النقطة الدالة، الدلالة الحقيقية  
 willful إرادي متعمد، متصلب  
 wishy-washy مهلهل  
 wistfulness تَوَقُّ أسيان، وجد  
 with a straight face دون رقة هذب  
 withering <نقد> صاعق  
 wog الأجنبي الدون  
 work them out اشتغلها، صنعها، اكتشف  
 معناها وطريقة عملها

## X

xenophobia استجنابية، خوف الأجانب وكرهم

strategist استخطاطي  
 struck (I am) يصدمني بشدة  
 surrogate <أب> مُكَلَّف، مُناب  
 subaltern تابع، منضو  
 subject races أعراق تابعة محكومة  
 subject to disputation عرضة للجدال  
 superimposed مُرَوَّجَب  
 superiority تفوقية  
 symbiotic تكافلية  
 synthesis تركيبية، توليفة  
 synthesizer مؤلف تركيبية  
 systematic انتظامية مطردة، منتظمة  
 systematics نظاميات

## T

tactic أخطوطة  
 take it for granted أخذ الأمر بداهة  
 take the final plunge قام بالعمل الأخير الحاسم  
 tautology جملة لا تتقدم ولا تؤخر  
 teleological غائية  
 terms معطيات  
 territories اصقاع، أراض <محتلة>  
 thematics موضوعيات  
 theme موضوعة  
 theosophic لاهو - صوفية  
 topography تكوين <أو تشكيل> تضاريسي  
 topos تضاريسية <بصيفة الاسمية لا النعتية>  
 totalistic كلوية <شمولية>  
 totalising مكلية  
 to this effect بهذا المغزى  
 transfigurations تشخصينات  
 رسالة <كما في رسالة القيان> للناظر،  
 treatise

## U

uncanny / ly مكتنفٌ بسحرية مرهبة  
 underdeveloped متنام  
 underlying متبطن  
 undermine أضعف <موقفه>

<https://telegram.me/maktabatbaghdad>

# اشارات

في صفحات تالية، يجد القارئ الإشارات الكاملة بنصها الانكليزي . أما الإشارات المترجمة هنا فتقتصر على تلك التي ترد فيها عبارات أو كلمات ذات دلالة قد تفني القارئ العربي، دون ذكر أسماء المؤلفين وعناوين المراجع الواردة في الإشارات الأصلية (إلا في حالات قليلة تعرضها صياغة الجملة في سياق معين). وأرقام الإشارات هنا هي أرقامها في النص الأصلي . والإشارات التي أسقطت من هنا تقتصر على إيراد عناوين المراجع وتوثيق صدورها . ولإستخدام الاشارات العربية بشكل ناجح ، يحسن أن يقرأ القارئ الإشارة فإذا وجد فيها ما يريد متابعتها ومعرفة مصادره، ينتقل إليها في الإشارات بالانكليزية ويبحث عن رقمها في الفصل الذي تقع فيه، ثم يقرأ الإشارة الانكليزية ليجد المراجع المشار إليها هنا بـ (م م) ويقرأ الترجمة العربية لكل كلام آخر وارد بالانكليزية سوى أسماء المؤلفين والمراجع. فكل ما في الاشارات الانكليزية، عدا ذلك، مترجم هنا. وقد استخدمت في الإشارات الرمزين التاليين: را. = واجع؛ <م م> - المرجع اوالمراجع المذكورة في إشارة المؤلف في النص الانكليزي.

جميع الإشارات المترجمة هنا هي إشارات المؤلف. أما إشارات المترجم فقد وردت مستقلة على الصفحة التي تتعلق بها من نص الكتاب. وأرقام إشارات المؤلف داخل النص موضوعة بين قوسين، هكذا<sup>(١٩)</sup> مثلاً . إما إشارات المترجم فهي قليلة وترد أرقامها في متن النص على شكل نجوم صغيرة. (وهي أيضاً أشكال هوامش الناشر).

## المقدمة <أي مقدمة المؤلف>

- ٢ - بول كارتر<م م>. وكملحق لهيوز وكارتر را. <م م>.
- ٣ - جوزيف كونراد <م م>. والغريب أن إيان واطه أحد افضل نقاد كونراد، ليس لديه ما يقوله حول امبريالية الولايات المتحدة في <م م>. وتوجد تبصرات نفاذة موحية في العلاقة بين الجغرافية، والتجارة، والانضياء، <الانتتان والتعلق بالأشياء>، في <م م>.

## الفصل الاول

- ٧ - مثلاً، أندريه غوندر فرانك، <م م>.
- ١٦ - <م م>: وسميث يفتيس غاندي حول هذه النقطة.
- ٢١ - <م م>. أحد الاعمال القليلة جداً التي تعالج مناقضة بليك للامبريالية كتاب <م م>.
- ٢٦ - مقتبس في <م م>.
- ٢٨ - وهذه هي المرسلّة التي يرسلها كونر كروز اوبراين في <م م>.
- ٣٠ - من اجل ماكيند ، را. <م م>. ويكمن كونراد والجغرافيا الانتصاروية في قلب <م م>.
- ٣٣ - را. خصوصاً عمل فوكو المتأخر <م م>. ويقدم جيمس ميلر تأويلاً جديداً جريئاً يطرح مقولة أن عمل فوكو بأسره يدور حول الذات، وذاته هو خاصة. را. <م م>.
- ٤١ - <م م>. من اجل مناقشة لبعض هذه الاعمال، را. اسوارد و. سعيد إعادة النظر في الاستشراق، <م م>.
- ٤٨ - قانون الدفاع القومي للتعليم. وهو قانون سنّه الكونغرس الاميركي عام ١٩٥٨ أعطى تفويضاً بإنفاق ٢٩٥ مليون دولار للعلوم واللغات، التي اعتُبرت جميعاً ذات أهمية للأمن القومي. وكانت دوائر الادب المقارن بين الذي افادوا من هذا القانون.
- ٥٠ - <م م>. را. ، من اجل تطبيق غير مالوف لنظريات غرامشي حول "الجنوبية"، <م م>.

- ١١ - <م م>. من أجل مسرد ينزع السرية والفيبية عن العلاقة بين الثقافة الحديثة والخلاص، را. <م م>.
- ١٢ - كانت نظريات الاسلوب الامبريالي وتسويغاته - القديم ضد الحديث، الانكليزي ضد الفرنسي، وما الى ذلك - وفيرة جداً بعد ١٨٨٠. را. مثلاً مشهوراً في <م م>. وهناك عمل اقدم لكنه مفيد هو <م م>.
- ١٤ - <م م>. رغم ان هويسن يورط قوى اوروبية اخرى في انحرافات الامبريالية، فإن انكثرته تنتصب بارزة بينها.
- ٢٠ - <م م>. لكن من اجل حس ناصع بالتاثيرات التي تركتها هذه الاطروحة في المناقشات البحثية للامبراطورية، را. <م م>. ويشكل <م م> مصدراً جوهرياً لهذا الحقل الدراسي بأسره. وهو يورد مصنفين آخرين هما <م م>.
- ٢٢ - ثمة مسرد ممتاز لكيفية تأثير الثقافة الشعبية في العصر الرسمي للامبراطورية في <م م>. ومن اجل استغلال اكثر رهاقة للهوية القومية الانكليزية خلال الفترة نفسها، را. <م م>.
- ٢٤ - من اجل الهجوم على كونراد، را. <م م>. وبعض القضايا التي يثيرها انشيبني مناقشة بجودة في <م م>.
- ٢٨ - ثمة بضعة اسطر لرسكين مقتبسة ومناقشة في <م م>.
- ٣٠ - <م م>. من اجل نُساجة سابقة لهذا، را. مناقشة <م م>.
- ٣٤ - يناقش هذا مناقشة لا تُنسى في <م م>.
- ٣٦ - <م م>. وافضل مسرد للرواية يوجد في <م م>.
- ٤١ - <م م>، وهذا المقطع مقتبس في <م م>.
- ٥٥ - را. المسرد المتقن لهذه التيارات في علم الانسان المبكر في <م م>.
- ٥٦ - إلا في <م م>.
- ٦٠ - من اجل مناقشة لحدث فقري رئيسي في تاريخ العلاقة التراتبية بين الغرب واللاغرب، را. <م م>.
- ٦٢ - مقتبس في <م م>.
- ٦٦ - <م م>. ومن اجل دراسة للتصنيف، والتقنين والترميز، والجمع، والاستعراض، را. <م م>.
- ٧٢ - <م م>. وجورج نوروي جندي في سلاح الفرسان، خدم في الجزائر ويتخذ الصحافة مهنة له في باريس ويكتب (مع بعض المساعدة) حول الحياة في الجزائر. ولاحقاً، يتورط في فضائح مالية تصاحب فتح طنجة .
- ١٢٢ - <م م>. ويدرس عملية تحجيب مماثلة <م م>.
- ١٢٦ - من اجل عينة من هذا النوع من التفكير، را. <م م>.
- ١٣٠ - <م م>. من اجل تأمل مرهف لمشكلات اللون والقالب «الطبيقي» را. <م م>.
- ١٤١ - <م م>. ومن اجل كشف مكونات النظام وحلّ الغازه، را. <م م>.
- ١٥٦ - <م م>. من اجل توثيق وتدعيم هذا الزعم، ويور منح الشرعية والانتشاء "الموضوع" في الامبريالية، را. <م م>.
- ١٥٧ - <م م>. ومن اجل مثل اسبق في الهند، را. <م م>.
- ١٦١ - <م م>. وإضافة، وكامتداد لمقالة نوشلين، را. اطروحة الدكتوراه الشيقية اللافتة المقدمة لجامعة بوسطن <م م>.
- ١٦٤ - <م م> وعمل نيل عام جداً تحتاج تقريراته الى استكمال وتقيد بالعدد الكبير من الاعمال المفصلة حول النشاط التبشيري، را.، مثلاً، <م م>.



- ١٦٥ - مقتبس في < م > .
- ١٧٢ - من أجل تحديد "البداية" بهذه التقنية، را. < م > . و < م > من أجل تسأخة أكثر إحكاماً لنظرية المراحل الأربعة التي تقوم على الفلسفة والفكر الثقافي الأوروبيين.
- ١٧٤ - < م > وهناك مجلد مختلف شيق، مع انه يعالج شخصيات مماثلة، هو < م > .
- ١٧٧ - مقتبس في < م > .
- ١٧٩ - اناقش هذه المادة في علاقتها بنظريات الهوية القومية التي استتُرت وحُشدت لتستعمل في امبريالية اواخر القرن التاسع عشر، في < م > .
- ١٨٢ - من أجل حدث فقري صغير في التنافس الامبريالي مع انكتره، را. اللحة الفاتنة التي يقدمها البرت حوراني في < م > .
- ١٨٤ - < م > . ومن أجل دراسة فاتنة للطريقة التي استعمل بها علماء الاجتماع الفرنسيون ومهندسون التخطيط الحضري الجزائر مكاناً لإجراء تجاربهم وابعيدوا تخطيطه، را. < م > . وتناقش الاقسام المتأخرة من الكتاب تأثير هذه الخطط على المغرب، والهند الصينية، ومدغشقر. إلا ان الدراسة القطعية هي < م > .
- ١٩٤ - يصنع مايكل فالترز من كامو مثقفاً نموذجياً، بالضبط لانه كان معذباً ومتورداً ومعارضاً للعنف ولانه اصب امه. را. < م > .
- ١٩٧ - وأوبراين في اعماله المتأخرة، بأرائها المشابهة لهذه الآراء الى حد لانت والمختلفة عن لباب كتابه عن كامو، لا يخفي عداوه للشعوب الأدنى في "العالم الثالث". را. خلافه المسهب مع سعيد في < م > .
- ١٩٨ - < م > . وسلوك كامو الفعلي في الجزائر خلال الحرب الاستعمارية نفسها مؤرخ بأفضل صورة في < م > .
- ٢٠١ - < م > . من أجل قراءة ثاقبة لكامو في السياق الشما افريقي را. < م > .
- ٢٠٢ - مقتبس في < م > .
- ٢٠٨ - < م > . ثمة إعادة بناء رائمة وشخصية لهذه المرحلة في < م > .
- ٢١٢ - < م > . كانت حياة بوغور المهنية في اواخرها متميزة الى الدرجة نفسها: فقد قاد الجنود الذين اطلقوا النار على حشود المتمردين في ٢٣ شباط < فبراير > ١٨٤٨ وجازاه فلوير في < م > حيث يُقر بطن صورة المارشال المكروه عند اقتحام القصر الملكي يوم ٢٤ شباط ١٨٤٨.
- ٢١٥ - < م > من أجل مسرد اتم وأحدث لهذه المادة را. < م > خصوصاً القسم الاول، الذي يضم أربع مقالات عن فرنسا والجزائر في القرن التاسع عشر، إحداهما تتعلق بتوكيفل والإسلام.
- ٢٢٦ - < م > . حيث يلاحظ هذا الحذف الغريب ويفسر تفسيراً شيقاً قائماً على انه كان نتيجة لتركيبة لوتني النفسية وكرهه للانكليز. إلا ان العقابيل الشكلية لاختلاقيات لوتني لا تلاحظ. من أجل مسرد اتم ، را. الأطروحة غير المنشورة المقدمة لجامعة برنستون، < م > .

### الفصل الثالث

- ٢ - < م > . من أجل العلاقة بين جيد وكامو، را. < م > .
- ٣ - كما يستخدمها كريستوفر ميلرفي < م > : ثمة تنقيد عميق للفلسفة "الافريقانية" في < م > . ويعطي هوبنتننجي أولوية خاصة في تنقيده لعمل بلاسيد تيمبلز.
- ١٤ - < م > . ثمة ادبيات ضخمة حول فكلكة الاستعمار، بين ما يستحق الذكر منها < م > .
- ١٨ - مقتبس في < م > .
- ٢٠ - را. الصفحات النهائية من < م > . وبالمقابل، فإن ساره سوليري تقرأ العلاقة بين عزيز وفيلدنغ في إطار معطيات نفسية-جنسية. را. < م > .

- ٢٤ - مقتبس في <م> .
- ٢٨ - <م> . ورا . <م> حول الجو الغريب المعزول للحياة الاستعمارية .
- ٣١ - قتبس في <م> .
- ٣٣ - <م> . والحذف في الاصل .
- ٣٦ - <م> . ورا . ايضاً مسرد باري الحساس لتومبسن في <م> .
- ٣٨ - <م> . ويكتملة لاسلوب فانون البكر المشرب بالتحليل النفسي . را . <م> .
- ٤١ - <م> . حول غريول . را . الصفحات الممتازة عن حياته المهنية وإسهامه في <م> . ورا . ايضاً مسرد كلفورده لـ ليريس . إلا أن كلفورده في كلتا الحالتين ، لا يربط بين مؤلفيه وفكلكة الاستعمار ، وهي سياق سياسي عالمي موجود بشكل بارز لدى جيرارديه .
- ٤٢ - <م> . وكتاب فرانسيس فترزجورالذ الفائز بجائزة ، والصادر عام ١٩٧٢ ، حول الحرب الاميركية ضد فييتنام <م> مهدي الى سُس .
- ٤٩ - <م> . ورا . ايضاً كتابها اللات <م> .
- ٥٦ - <م> . ورا . كتاباً مرتبطاً به هو <م> .
- ٥٨ - <م> . وفي هذا المجال ثمة كتاب راند هو <م> .
- ٧٢ - <م> . ومن اجل منظورات تحرورية لعناية الأثوية والامبريالية ، را . ايضاً <م> .
- ٧٣ - <م> . ويقدم سمير أمين في <م> دراسة مرافقة فلسفية وعقائدية (لكنها للاسف مكتوبة بلغة متعاطلة مرعبة) ، وبالمقابل ، ثمة مسرد تحريبي - على مستوى عالمي ايضاً - في <م> .
- ٨١ - <م> . تحدث تمييزات أخرى للفضاء ، ذات عواقب بالنسبة للفن وتزجية الوقت باللهو ، في المشهد الطبيعي ومشروع إقامة روضة قومية . را . <م> . وفي مجال اخر ، قا . مع <م> .
- ٩٥ - <م> . قد يفاجم هذا المقطع أي امرئ كان قد تأثر يوماً بمقالة كونر كروز أوبراين <م> المنشورة في <م> . إن ذعاواها ومعلوماتها غير وافية ، خصوصاً حين تقارن بـ <م> . وتشير كلينفرد ايضاً الى مقطع نيرودا .
- ١٠٥ - مقتبس في <م> .
- ١٠٨ - من اجل مجموعة من كتاباتهم ، را . <م> . وتضم المجموعة بولن ، هيني ، دين ، كيرني ، وكيرد .
- ١٢٢ - ثمة مثل اخر ، يحله سي . إل . ار . جيسس تحليلاً لانعاً ، هو قضية ليرفورس ، التي استغلها تلاعبياً بت ، خدمة لقضية الإلقاء .
- ١٢٥ - را . <م> من اجل مسرد ممتاز للمتقنين الفييتناميين الشبان في باريس بين الحربين .
- ١٢٦ - وهذا موصوف وصفاً جيداً في <م> .
- ١٣٣ - <م> . ورا . ايضاً <م> الذي يحتوي على قدر لاق من المعلومات حول حياة انطونويس .
- ١٣٩ - <م> . ومن اجل تطور فكر غوماً لاحقاً ، را . <م> .
- ١٥١ - مقتبس في <م> .
- ١٥٦ - را . <م> . مة ثلاثة امثلة علي هذا المنهج في حالة من الفاعلية هي <م> .
- ١٥٧ - متجسدة في الملاحظة التالية لوزير الخارجية البريطاني اللورد بلفورده عام ١٩١٩ ، التي ظلت بشكل عام صادقة فيما يتعلق بالرأي العام الغربي التحريبي <اللبييرالي> :
- ذلك اننا في فلسطين لا نقترح ان نقوم حتى بشكليات استمزاز رغبات السكان الحاليين للبلاد ، مع ان اللجنة الاميركية تقوم الان بشكليات السؤال عن طبيعة هذه الرغبات . إن القوى الاربع العظمى ملتزمة بالصهيونية ، والصهيونية ، سواء اكانت خطأ أم صواباً ، حسنة أو سيئة ، متصلة في تراث عريقة الزمن ، وفي العماجات الراهنة ، وفي آمال المستقبل ، واعظم أهمية بكثير من رغبات واهواء الـ ٧٠٠٠٠٠٠ عربي الذين يقطنون الان تلك الارض القديمة . وفي رأيي ان هذا حق . مقتبس في <م> .

- ١٦٢ - رد الافغاني على ريفان منشود في <م م> .
- ١٧٥ - <م م> . حول موضوع 'إعادة إبخال الجنس البشري الى العالم' كما يعالجه فانون، را. المناقشة الحساسة التي يقدمها <م م> . وعن توجهات فانون حول الثقافة القومية، را. <م م> .
- ١٩٨ - ترد العبارة للمرة الاولى عند ميشيل فوكو في <م م> . فيما بعد تنتشر أفكار مرتبطة بهذا المفهوم عبر كتابه <م م> بأسره ، وفي مقابلات متعددة . وهي تؤثر على شانتال موفي وارنست لاكلو في <م م> . را. تنقيدي <المفهوم فوكو> في <م م> .
- ١٩٩ - اناقش هذه الإمكانية في <م م> .

#### الفصل الرابع

- ٢ - <م م> . كتاب ماير ، الذي يعالج إعادة إنتاج النظام القديم من القرن التاسع عشر الى اوائل القرن العشرين ، ينبغي ان يستكمل بعمل يفصل توريث النظام الاستعماري القديم، وامانة إدارته، من الامبراطورية البريطانية الى الولايات المتحدة، خلال الحرب العالمية الثانية؛ وليم روجر لويس في <م م> .
- ٣ - <م م> . من اجل نساخة اشد قتامة، وربما كانت اصدق ، للواقع نفسه، را. <م م> .
- ٦ - من اجل تاريخ مفيد لتصنيف العوالم الثلاثة، را. <م م> . را. ايضا كتاب بيتر وورسلي الذي اصبح الآن عريقاً <كلاسيكياً> <م م> .
- ٢١ - <م م> . هذه ثلاثة فقط من بين عدد من الكتب التي تدور حول هذا الموضوع لهؤلاء الكتاب.
- ٢٢ - ظهرت روايات منيف الخمس في سلسلة روائية بالعربية بين ١٩٨٤-١٩٨٨؛ ويظهر مجلدان منها في ترجمة الى الانكليزية ممتازة قام بها بيتر ثيرو، را. <م م> .
- ٢٦ - يناقش واحد من ابرز مؤرخي الفن الاسلامي، هو اولغ غرابار، مدينة بغداد كواحدة من الصروح التأسيسية الثلاثة للميراث الفني، را. <م م> .
- ٣٠ - <م م> . يضمُّ ديفيدسن ويطور هذه الموضوعة في تاملاته العميقة في <م م> .
- ٣٤ - يقدم جوناثن ربي مسرداً لهذا الموضوع الشديد التأثير في، را. <م م> .
- ٣٨ - <م م> . الهجومات الهازئة على المعرض لها تروياق ممتاز في المسردة <الكاتالوغ> الضخمة وبالبالغة التأثير فكرياً ، را. <م م> . وقد نشرت عينات من ردود فعل زوار المعرض في <م م> .
- ٣٩ - يكتنه هذا المفهوم برهافة فائقة هومي بابا في، <م م> .
- ٦٣ - يوصف هذا بإسهاب في كتابي <م م> .

<https://telegram.me/maktabatbaghdad>

# Notes

## INTRODUCTION

1. Robert Hughes, *The Fatal Shore: The Epic of Australia's Founding* (New York: Knopf, 1987), p. 586.
2. Paul Carter, *The Road to Botany Bay: An Exploration of Landscape and History* (New York: Knopf, 1988), pp. 202–60. As a supplement to Hughes and Carter, see Sneja Gunew, "Denaturalizing Cultural Nationalisms: Multicultural Readings of 'Australia,'" in *Nation and Narration*, ed. Homi K. Bhabha (London: Routledge, 1990), pp. 99–120.
3. Joseph Conrad, *Nostramo: A Tale of the Seaboard* (1904; rpt. Garden City: Doubleday, Page, 1925), p. 77. Strangely, Ian Watt, one of Conrad's best critics, has next to nothing to say about United States imperialism in *Nostramo*: see his *Conrad: "Nostramo"* (Cambridge: Cambridge University Press, 1988). Some suggestive insights into the relationship between geography, trade, and fetishism are found in David Simpson, *Fetishism and Imagination: Dickens, Melville, Conrad* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1982), pp. 93–116.
4. Lila Abu-Lughod, *Veiled Sentiments: Honor and Poetry in a Bedouin Society* (Berkeley: University of California Press, 1987); Leila Ahmed, *Women and Gender in Islam: Historical Roots of a Modern Debate* (New Haven: Yale University Press, 1992); Fedwa Malti-Douglas, *Woman's Body, Woman's World: Gender and Discourse in Arabo-Islamic Writing* (Princeton: Princeton University Press, 1991).
5. Sara Suleri, *The Rhetoric of English India* (Chicago: University of Chicago Press, 1992); Lisa Lowe, *Critical Terrains: French and British Orientalisms* (Ithaca: Cornell University Press, 1991).
6. Arthur M. Schlesinger, Jr., *The Disuniting of America: Reflections on a Multicultural Society* (New York: Whittle Communications, 1991).

## CHAPTER ONE

### OVERLAPPING TERRITORIES, INTERTWINED HISTORIES

1. T. S. Eliot, *Critical Essays* (London: Faber & Faber, 1932), pp. 14–15.
2. See Lyndall Gordon, *Eliot's Early Years* (Oxford and New York: Oxford University Press, 1977), pp. 49–54.
3. C. C. Eldridge, *England's Mission: The Imperial Idea in the Age of Gladstone and Disraeli, 1868–1880* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1974).
4. Patrick O'Brien, "The Costs and Benefits of British Imperialism," *Past and Present*, No. 120, 1988.

## Notes

5. Lance E. Davis and Robert A. Huttenback, *Mammon and the Pursuit of Empire: The Political Economy of British Imperialism, 1860-1920* (Cambridge: Cambridge University Press, 1986).
6. See William Roger Louis, ed., *Imperialism: The Robinson and Gallagher Controversy* (New York: New Viewpoints, 1976).
7. For example, André Gunder Frank, *Dependent Accumulation and Underdevelopment* (New York: Monthly Review, 1979), and Samir Amin, *L'Accumulation à l'échelle mondiale* (Paris: Anthropos, 1970).
8. O'Brien, "Costs and Benefits," pp. 180-81.
9. Harry Magdoff, *Imperialism: From the Colonial Age to the Present* (New York: Monthly Review, 1978), pp. 29 and 35.
10. William H. McNeill, *The Pursuit of Power: Technology, Armed Forces and Society Since 1000 A.D.* (Chicago: University of Chicago Press, 1983), pp. 260-61.
11. V. G. Kiernan, *Marxism and Imperialism* (New York: St. Martin's Press, 1974), p. 111.
12. Richard W. Van Alstyne, *The Rising American Empire* (New York: Norton, 1974), p. 1. See also Walter LaFeber, *The New Empire: An Interpretation of American Expansion* (Ithaca: Cornell University Press, 1963).
13. See Michael H. Hunt, *Ideology and U.S. Foreign Policy* (New Haven: Yale University Press, 1987).
14. Michael W. Doyle, *Empires* (Ithaca: Cornell University Press, 1986), p. 45.
15. David Landes, *The Unbound Prometheus: Technological Change and Industrial Development in Western Europe from 1750 to the Present* (Cambridge: Cambridge University Press, 1969), p. 37.
16. Tony Smith, *The Pattern of Imperialism: The United States, Great Britain, and the Late Industrializing World Since 1875* (Cambridge: Cambridge University Press, 1981), p. 52. Smith quotes Gandhi on this point.
17. Kiernan, *Marxism and Imperialism*, p. 111.
18. D. K. Fieldhouse, *The Colonial Empires: A Comparative Survey from the Eighteenth Century* (1965; rpt. Houndmills: Macmillan, 1991), p. 103.
19. Frantz Fanon, *The Wretched of the Earth*, trans. Constance Farrington (1961; rpt. New York: Grove, 1968), p. 101.
20. J. A. Hobson, *Imperialism: A Study* (1902; rpt. Ann Arbor: University of Michigan Press, 1972), p. 197.
21. *Selected Poetry and Prose of Blake*, ed. Northrop Frye (New York: Random House, 1953), p. 447. One of the few works to deal with Blake's anti-imperialism is David V. Erdman, *Blake: Prophet Against Empire* (New York: Dover, 1991).
22. Charles Dickens, *Dombey and Son* (1848; rpt. Harmondsworth: Penguin, 1970), p. 50.
23. Raymond Williams, "Introduction," in Dickens, *Dombey and Son*, pp. 11-12.
24. Martin Bernal, *Black Athena: The Afroasiatic Roots of Classical Civilization*, Vol. 1 (New Brunswick: Rutgers University Press, 1987), pp. 280-336.
25. Bernard S. Cohn, "Representing Authority in Victorian India," in Eric Hobsbawm and Terence Ranger, eds., *The Invention of Tradition* (Cambridge: Cambridge University Press, 1983), pp. 185-207.
26. Quoted in Philip D. Curtin, ed., *Imperialism* (New York: Walker, 1971), pp. 294-95.
27. Salman Rushdie, "Outside the Whale," in *Imaginary Homelands: Essays and Criticism, 1981-1991* (London: Viking/Granta, 1991), pp. 92, 101.
28. This is the message of Conor Cruise O'Brien's "Why the Wailing Ought to Stop," *The Observer*, June 3, 1984.
29. Joseph Conrad, "Heart of Darkness," in *Youth and Two Other Stories* (Garden City: Doubleday, Page, 1925), p. 82.
30. For Mackinder, see Neil Smith, *Uneven Development: Nature, Capital and the Production of Space* (Oxford: Blackwell, 1984), pp. 102-3. Conrad and triumphalist geography are at the

## Notes

heart of Felix Driver, "Geography's Empire: Histories of Geographical Knowledge," *Society and Space*, 1991.

31. Hannah Arendt, *The Origins of Totalitarianism* (1951; new ed. New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1973), p. 215. See also Fredric Jameson, *The Political Unconscious: Narrative as a Socially Symbolic Act* (Ithaca: Cornell University Press, 1981), pp. 206–81.

32. Jean-François Lyotard, *The Postmodern Condition: A Report on Knowledge*, trans. Geoff Bennington and Brian Massumi (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1984), p. 37.

33. See especially Foucault's late work, *The Care of the Self*, trans. Robert Hurley (New York: Pantheon, 1986). A bold new interpretation arguing that Foucault's entire oeuvre is about the self, and his in particular, is advanced in *The Passion of Michel Foucault* by James Miller (New York: Simon & Schuster, 1993).

34. See, for example, Gérard Chaliand, *Revolution in the Third World* (Harmondsworth: Penguin, 1978).

35. Rushdie, "Outside the Whale," pp. 100–101.

36. Ian Watt, *Conrad in the Nineteenth Century* (Berkeley: University of California Press, 1979), pp. 175–79.

37. Eric Hobsbawm, "Introduction," in Hobsbawm and Ranger, *Invention of Tradition*, p. 1.

38. Jean-Baptiste-Joseph Fourier, *Préface historique*, Vol. 1 of *Description de l'Égypte* (Paris: Imprimerie royale, 1809–1828), p. 1.

39. 'Abd al-Rahman al-Jabarti, *Aja'ib al-Asbar fi al-Tarajum wa al-Akbar*, Vol. 4 (Cairo: Lajnat al-Bayan al-'Arabi, 1958–1967), p. 284.

40. See Christopher Miller, *Blank Darkness: Africanist Discourse in French* (Chicago: University of Chicago Press, 1985), and Arnold Temu and Bonaventure Swai, *Historians and Africanist History: A Critique* (Westport: Lawrence Hill, 1981).

41. Johannes Fabian, *Time and the Other: How Anthropology Makes Its Object* (New York: Columbia University Press, 1983); Talal Asad, ed., *Anthropology and the Colonial Encounter* (London: Ithaca Press, 1975); Brian S. Turner, *Marx and the End of Orientalism* (London: Allen & Unwin, 1978). For a discussion of some of these works, see Edward W. Said, "Orientalism Reconsidered," *Race and Class* 27, No. 2 (Autumn 1985), 1–15.

42. Peter Gran, *The Islamic Roots of Capitalism: Egypt, 1760–1840* (Austin: University of Texas Press, 1979); Judith Tucker, *Women in Nineteenth Century Egypt* (Cairo: American University in Cairo Press, 1986); Hanna Batatu, *The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq* (Princeton: Princeton University Press, 1978); Syed Hussein Alatas, *The Myth of the Lazy Native: A Study of the Image of the Malays, Filipinos, and Javanese from the Sixteenth to the Twentieth Century and Its Function in the Ideology of Colonial Capitalism* (London: Frank Cass, 1977).

43. Gauri Viswanathan, *The Masks of Conquest: Literary Study and British Rule in India* (New York: Columbia University Press, 1989).

44. Francis Fergusson, *The Human Image in Dramatic Literature* (New York: Doubleday, Anchor, 1957) pp. 205–6.

45. Erich Auerbach, "Philology and *Weltliteratur*," trans. M. and E. W. Said, *Centennial Review* 13 (Winter 1969); see my discussion of this work in *The World, the Text, and the Critic* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1983), pp. 1–9.

46. George E. Woodberry, "Editorial" (1903), in *Comparative Literature: The Early Years. An Anthology of Essays*, eds. Hans Joachim Schulz and Phillip K. Rein (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1973), p. 211. See also Harry Levin, *Grounds for Comparison* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1972), pp. 57–130; Claudio Guillén, *Entre lo uno y lo diverso: Introducción a la literatura comparada* (Barcelona: Editorial Critica, 1985), pp. 54–121.

47. Erich Auerbach, *Mimesis: The Representation of Reality in Western Literature*, trans. Willard Trask (Princeton: Princeton University Press, 1953). See also Said, "Secular Criticism," in *The World, the Text, and the Critic*, pp. 31–53 and 148–49.

## Notes

48. The National Defense Education Act (NDEA). An act of the United States Congress passed in 1958, it authorized the expenditure of \$295 million for science and languages, both deemed important for national security. Departments of Comparative Literature were among the beneficiaries of this act.

49. Cited in Smith, *Uneven Development*, pp. 101-2.

50. Antonio Gramsci, "Some Aspects of the Southern Question," in *Selections from Political Writings, 1921-1926*, trans. and ed. Quintin Hoare (London: Lawrence & Wishart, 1978), p. 461. For an unusual application of Gramsci's theories about "Southernism," see Timothy Brennan, "Literary Criticism and the Southern Question," *Cultural Critique*, No. 11 (Winter 1988-89), 89-114.

51. John Stuart Mill, *Principles of Political Economy*, Vol. 3, ed. J. M. Robson (Toronto: University of Toronto Press, 1965), p. 693.

### CHAPTER TWO CONSOLIDATED VISION

1. Richard Slotkin, *Regeneration Through Violence: The Mythology of the American Frontier, 1600-1860* (Middletown: Wesleyan University Press, 1973); Patricia Nelson Limerick, *The Legacy of Conquest: The Unbroken Past of the American West* (New York: Norton, 1988); Michael Paul Rogin, *Fathers and Children: Andrew Jackson and the Subjugation of the American Indian* (New York: Knopf, 1975).

2. Bruce Robbins, *The Servant's Hand: English Fiction from Below* (New York: Columbia University Press, 1986).

3. Gareth Stedman Jones, *Outcast London: A Study in the Relationship Between the Classes in Victorian Society* (1971; rpt. New York: Pantheon, 1984).

4. Eric Wolf, *Europe and the People Without History* (Berkeley: University of California Press, 1982).

5. Martin Green, *Dreams of Adventure, Deeds of Empire* (New York: Basic Books, 1979); Molly Mahood, *The Colonial Encounter: A Reading of Six Novels* (London: Rex Collings, 1977); John A. McClure, *Kipling and Conrad: The Colonial Fiction* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1981); Patrick Brantlinger, *The Rule of Darkness: British Literature and Imperialism, 1830-1914* (Ithaca: Cornell University Press, 1988). See also John Barrell, *The Infection of Thomas de Quincey: A Psychopathology of Imperialism* (New Haven: Yale University Press, 1991).

6. William Appelmann Williams, *Empire as a Way of Life* (New York and Oxford: Oxford University Press, 1980), pp. 112-13.

7. Jonah Raskin, *The Mythology of Imperialism* (New York: Random House, 1971); Gordon K. Lewis, *Slavery, Imperialism, and Freedom: Studies in English Radical Thought* (New York: Monthly Review, 1978); V. G. Kiernan, *The Lords of Human Kind: Black Man, Yellow Man, and White Man in an Age of Empire* (1969; rpt. New York: Columbia University Press, 1986), and *Marxism and Imperialism* (New York: St. Martin's Press, 1974). A more recent work is Eric Cheyfitz, *The Poetics of Imperialism: Translation and Colonization from The Tempest to Tarzan* (New York: Oxford University Press, 1991). Benita Parry, *Conrad and Imperialism* (London: Macmillan, 1983), cogently discusses these and other works in the context provided by Conrad's fiction.

8. E. M. Forster, *Howards End* (New York: Knopf, 1921), p. 204.

9. Raymond Williams, *Politics and Letters: Interviews with New Left Review* (London: New Left, 1979), p. 118.

10. Williams's *Culture and Society, 1780-1950*, was published in 1958 (London: Chatto & Windus).



## Notes

11. Joseph Conrad, "Heart of Darkness," in *Youth and Two Other Stories* (Garden City: Doubleday, Page, 1925), pp. 50–51. For a demystifying account of the connection between modern culture and redemption, see Leo Bersani, *The Culture of Redemption* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1990).

12. Theories and justifications of imperial style—ancient versus modern, English versus French, and so on—were in plentiful supply after 1880. See as a celebrated example Evelyn Baring (Cromer), *Ancient and Modern Imperialism* (London: Murray, 1910). See also C. A. Bodelsen, *Studies in Mid-Victorian Imperialism* (New York: Howard Fertig, 1968), and Richard Faber, *The Vision and the Need: Late Victorian Imperialist Aims* (London: Faber & Faber, 1966). An earlier but still useful work is Klaus Knorr, *British Colonial Theories* (Toronto: University of Toronto Press, 1944).

13. Ian Watt, *The Rise of the Novel* (Berkeley: University of California Press, 1957); Lennard Davis, *Factual Fictions: The Origins of the English Novel* (New York: Columbia University Press, 1983); John Richetti, *Popular Fiction Before Richardson* (London: Oxford University Press, 1969); Michael McKeon, *The Origin of the English Novel, 1600–1740* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1987).

14. J. R. Seeley, *The Expansion of England* (1884; rpt. Chicago: University of Chicago Press, 1971), p. 12; J. A. Hobson, *Imperialism: A Study* (1902; rpt. Ann Arbor: University of Michigan Press, 1972), p. 15. Although Hobson implicates other European powers in the perversions of imperialism, England stands out.

15. Raymond Williams, *The Country and the City* (New York: Oxford University Press, 1973), pp. 165–82 and *passim*.

16. D.C.M. Platt, *Finance, Trade and Politics in British Foreign Policy, 1815–1914* (Oxford: Clarendon Press, 1968), p. 536.

17. *Ibid.*, p. 357.

18. Joseph Schumpeter, *Imperialism and Social Classes*, trans. Heinz Norden (New York: Augustus M. Kelley, 1951), p. 12.

19. Platt, *Finance, Trade and Politics*, p. 359.

20. Ronald Robinson and John Gallagher, with Alice Denny, *Africa and the Victorians: The Official Mind of Imperialism* (1961; new ed. London: Macmillan, 1981), p. 10. But for a vivid sense of what effects this thesis has had in scholarly discussion of empire, see William Roger Louis, ed., *Imperialism: The Robinson and Gallagher Controversy* (New York: Franklin Watts, 1976). An essential compilation for the whole field of study is Robin Winks, ed., *The Historiography of the British Empire—Commonwealth: Trends, Interpretations, and Resources* (Durham: Duke University Press, 1966). Two compilations mentioned by Winks (p. 6) are *Historians of India, Pakistan and Ceylon*, ed. Cyril H. Philips, and *Historians of South East Asia*, ed. D.G.E. Hall.

21. Fredric Jameson, *The Political Unconscious: Narrative as a Socially Symbolic Act* (Ithaca: Cornell University Press, 1981); David A. Miller, *The Novel and the Police* (Berkeley: University of California Press, 1988). See also Hugh Ridley, *Images of Imperial Rule* (London: Croom Helm, 1983).

22. In John MacKenzie, *Propaganda and Empire: The Manipulation of British Public Opinion, 1880–1960* (Manchester: Manchester University Press, 1984), there is an excellent account of how popular culture was effective in the official age of empire. See also MacKenzie, ed., *Imperialism and Popular Culture* (Manchester: Manchester University Press, 1986); for more subtle manipulations of the English national identity during the same period, see Robert Colls and Philip Dodd, eds., *Englishness: Politics and Culture, 1880–1920* (London: Croom Helm, 1987). See also Raphael Samuel, ed., *Patriotism: The Making and Unmaking of British National Identity*, 3 vols. (London: Routledge, 1989).

23. E. M. Forster, *A Passage to India* (1914; rpt. New York: Harcourt, Brace & World, 1952), p. 231.

## Notes

24. For the attack on Conrad, see Chinua Achebe, "An Image of Africa: Racism in Conrad's *Heart of Darkness*," in *Hopes and Impediments: Selected Essays* (New York: Doubleday, Anchor, 1989), pp. 1-20. Some of the issues raised by Achebe are well discussed by Brantlinger, *Rule of Darkness*, pp. 269-74.
25. Deirdre David, *Fictions of Revolution in Three Victorian Novels* (New York: Columbia University Press, 1984).
26. Georg Lukacs, *The Historical Novel*, trans. Hannah and Stanley Mitchell (London: Merlin Press, 1962), pp. 19-88.
27. *Ibid.*, pp. 30-63.
28. A few lines from Ruskin are quoted and commented on in R. Koebner and H. Schmidt, *Imperialism: The Story and Significance of a Political World, 1840-1866* (Cambridge: Cambridge University Press, 1964), p. 99.
29. V. G. Kiernan, *Marxism and Imperialism* (New York: St. Martin's Press, 1974), p. 100.
30. John Stuart Mill, *Disquisitions and Discussions*, Vol. 3 (London: Longmans, Green, Reader & Dyer, 1875), pp. 167-68. For an earlier version of this see the discussion by Nicholas Canny, "The Ideology of English Colonization: From Ireland to America," *William and Mary Quarterly* 30 (1973), 575-98.
31. Williams, *Country and the City*, p. 281.
32. Peter Hulme, *Colonial Encounters: Europe and the Native Caribbean, 1492-1797* (London: Methuen, 1986). See also his anthology with Neil L. Whitehead, *Wild Majesty: Encounters with Caribs from Columbus to the Present Day* (Oxford: Clarendon Press, 1992).
33. Hobson, *Imperialism*, p. 6.
34. This is most memorably discussed in C.L.R. James's *The Black Jacobins: Toussaint L'Ouverture and the San Domingo Revolution* (1938; rpt. New York: Vintage, 1963), especially Chapter 2, "The Owners." See also Robin Blackburn, *The Overthrow of Colonial Slavery, 1776-1848* (London: Verso, 1988), pp. 149-53.
35. Williams, *Country and the City*, p. 117.
36. Jane Austen, *Mansfield Park*, ed. Tony Tanner (1814; rpt. Harmondsworth: Penguin, 1966), p. 42. The best account of the novel is in Tony Tanner's *Jane Austen* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1986).
37. *Ibid.*, p. 54.
38. *Ibid.*, p. 206.
39. Warren Roberts, *Jane Austen and the French Revolution* (London: Macmillan, 1979), pp. 97-98. See also Avrom Fleishman, *A Reading of Mansfield Park: An Essay in Critical Synthesis* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1967), pp. 36-39 and *passim*.
40. Austen, *Mansfield Park*, pp. 375-76.
41. John Stuart Mill, *Principles of Political Economy*, Vol. 3, ed. J. M. Robson (Toronto: University of Toronto Press, 1965), p. 693. The passage is quoted in Sidney W. Mintz, *Sweetness and Power: The Place of Sugar in Modern History* (New York: Viking, 1985), p. 42.
42. Austen, *Mansfield Park*, p. 446.
43. *Ibid.*, p. 448.
44. *Ibid.*, p. 450.
45. *Ibid.*, p. 456.
46. John Gallagher, *The Decline, Revival and Fall of the British Empire* (Cambridge: Cambridge University Press, 1982), p. 76.
47. Austen, *Mansfield Park*, p. 308.
48. Lowell Joseph Ragatz, *The Fall of the Planter Class in the British Caribbean, 1763-1833: A Study in Social and Economic History* (1928; rpt. New York: Octagon, 1963), p. 27.
49. Eric Williams, *Capitalism and Slavery* (New York: Russell & Russell, 1961), p. 211. See

## Notes

also his *From Columbus to Castro: The History of the Caribbean, 1492-1969* (London: Deutsch, 1970), pp. 177-254.

50. Austen, *Mansfield Park*, p. 213.

51. Tzvetan Todorov, *Nous et les autres: La réflexion sur la diversité humaine* (Paris: Seuil, 1989).

52. Raoul Girardet, *L'Idée coloniale en France, 1871-1962* (Paris: La Table Ronde, 1972), pp. 7, 10-13.

53. Basil Davidson, *The African Past: Chronicles from Antiquity to Modern Times* (London: Longmans, 1964), pp. 36-37. See also Philip D. Curtin, *Image of Africa: British Ideas and Action, 1780-1850*, 2 vols. (Madison: University of Wisconsin Press, 1964); Bernard Smith, *European Vision and the South Pacific* (New Haven: Yale University Press, 1985).

54. Stephen Jay Gould, *The Mismeasure of Man* (New York: Norton, 1981); Nancy Stepan, *The Idea of Race in Science: Great Britain, 1800-1960* (London: Macmillan, 1982).

55. See the thorough account of these currents in early anthropology by George W. Stocking, *Victorian Anthropology* (New York: Free Press, 1987).

56. Excerpted in Philip D. Curtin, *Imperialism* (New York: Walker, 1971), pp. 158-59.

57. John Ruskin, "Inaugural Lecture" (1870), in *The Works of John Ruskin*, Vol. 20, ed. E. T. Cook and Alexander Weddenburn (London: George Allen, 1905), p. 41, n. 2.

58. *Ibid.*, pp. 41-43.

59. V. G. Kiernan, "Tennyson, King Arthur and Imperialism," in his *Poets, Politics and the People*, ed. Harvey J. Kaye (London: Verso, 1989), p. 134.

60. For a discussion of one major episode in the history of the hierarchical relationship between West and non-West, see E. W. Said, *Orientalism* (New York: Pantheon, 1978), pp. 48-92, and *passim*.

61. Hobson, *Imperialism*, pp. 199-200.

62. Cited in Hubert Deschamps, *Les Méthodes et les doctrines coloniales de la France du XVII<sup>e</sup> siècle à nos jours* (Paris: Armand Colin, 1953), pp. 126-27.

63. See Anna Davin, "Imperialism and Motherhood," in Samuel, ed., *Patriotism*, Vol. 1, pp. 203-35.

64. Michael Rosenthal, *The Character Factory: Baden-Powell's Boy Scouts and the Imperatives of Empire* (New York: Pantheon, 1986), especially pp. 131-60. See also H. John Field, *Toward a Programme of Imperial Life: The British Empire at the Turn of the Century* (Westport: Greenwood Press, 1982).

65. Johannes Fabian, *Time and the Other: How Anthropology Makes Its Object* (New York: Columbia University Press, 1983), pp. 25-69.

66. See Marianna Torgovnick, *Gone Primitive: Savage Intellectuals, Modern Lives* (Chicago: University of Chicago Press, 1990), and for the study of classification, codification, collecting, and exhibiting, James Clifford, *The Predicament of Culture: Twentieth Century Ethnography, Literature, and Art* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1988). Also Street, *Savage in Literature*, and Roy Harvey Pearce, *Savagism and Civilization: A Study of the Indian and the American Mind* (1953; rev. ed. Berkeley: University of California Press, 1988).

67. K. M. Panikkar, *Asia and Western Dominance* (1959; rpt. New York: Macmillan, 1969), and Michael Adas, *Machines as the Measure of Men: Science, Technology, and Ideologies of Western Dominance* (Ithaca: Cornell University Press, 1989). Also of interest is Daniel R. Headrick, *The Tools of Empire: Technology and European Imperialism in the Nineteenth Century* (New York: Oxford University Press, 1981).

68. Henri Brunschwig, *French Colonialism, 1871-1914: Myths and Realities*, trans. W. G. Brown (New York: Praeger, 1964), pp. 9-10.

69. See Brantlinger, *Rule of Darkness*; Suvendrini Perera, *Reaches of Empire: The English*

## Notes

*Novel from Edgeworth to Dickens* (New York: Columbia University Press, 1991); Christopher Miller, *Blank Darkness: Africanist Discourse in French* (Chicago: University of Chicago Press, 1985).

70. Quoted in Gauri Viswanathan, *The Masks of Conquest: Literary Study and British Rule in India* (New York: Columbia University Press, 1989), p. 132.

71. Alfred Crosby, *Ecological Imperialism: The Biological Expansion of Europe, 900-1900* (Cambridge: Cambridge University Press, 1986).

72. Guy de Maupassant, *Bel-Ami* (1885); Georges Duroy is a cavalryman who has served in Algeria and makes a career as a Parisian journalist who (with some assistance) writes about life in Algeria. Later he is involved in financial scandals that attend the conquest of Tangiers.

73. Johannes Fabian, *Language and Colonial Power: The Appropriation of Swahili in the Former Belgian Congo, 1880-1938* (Cambridge: Cambridge University Press, 1986); Ranajit Guha, *A Rule of Property for Bengal: An Essay on the Idea of Permanent Settlement* (Paris and The Hague: Mouton, 1963); Bernard S. Cohn, "Representing Authority in Victorian India," in Eric Hobsbawm and Terence Ranger, eds., *The Invention of Tradition* (Cambridge: Cambridge University Press, 1983), pp. 185-207, and his *An Anthropologist Among the Historians and Other Essays* (Delhi: Oxford University Press, 1990). Two related works are Richard G. Fox, *Lions of the Punjab: Culture in the Making* (Berkeley: University of California Press, 1985), and Douglas E. Haynes, *Rhetoric and Ritual in Colonial India: The Shaping of Public Culture in Surat City, 1852-1928* (Berkeley: University of California Press, 1991).

74. Fabian, *Language and Colonial Power*, p. 79.

75. Ronald Inden, *Imagining India* (London: Blackwell, 1990).

76. Timothy Mitchell, *Colonising Egypt* (Cambridge: Cambridge University Press, 1988).

77. Leila Kinney and Zeynep Çelik, "Ethnography and Exhibitionism at the Expositions Universelles," *Assemblages* 13 (December 1990), 35-59.

78. T. J. Clark, *The Painting of Modern Life: Paris in the Art of Manet and His Followers* (New York: Knopf, 1984), pp. 133-46; Malek Alloula, *The Colonial Harem*, trans. Myrna and Wlad Godzich (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1986); and see also Sarah Graham-Brown, *Images of Women: The Portrayal of Women in Photography of the Middle East, 1860-1950* (New York: Columbia University Press, 1988).

79. See, for example, Zeynep Çelik, *Displaying the Orient: Architecture of Islam at Nineteenth Century World's Fairs* (Berkeley: University of California Press, 1992), and Robert W. Rydell, *All the World's a Fair: Visions of Empire at American International Expositions, 1876-1916* (Chicago: University of Chicago Press, 1984).

80. Herbert Lindenberger, *Opera: The Extravagant Art* (Ithaca: Cornell University Press, 1984), pp. 170-80.

81. Antoine Goléa, *Gespräche mit Wieland Wagner* (Salzburg: SN Verlag, 1967), p. 58.

82. *Opera* 13, No. 1 (January 1962), 33. See also Geoffrey Skelton, *Wieland Wagner: The Positive Sceptic* (New York: St. Martin's Press, 1971), pp. 159 ff.

83. Joseph Kerman, *Opera as Drama* (New York: Knopf, 1956), p. 160.

84. Paul Robinson, *Opera and Ideas: From Mozart to Strauss* (New York: Harper & Row, 1985), p. 163.

85. *Ibid.*, p. 164.

86. *Verdi's "Aida": The History of an Opera in Letters and Documents*, trans. and collected by Hans Busch (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1978), p. 3.

87. *Ibid.*, pp. 4, 5.

88. *Ibid.*, p. 126.

89. *Ibid.*, p. 150.

90. *Ibid.*, p. 17.

## Notes

91. *Ibid.*, p. 50. See also Philip Gossett, "Verdi, Ghislanzoni, and *Aida*: The Uses of Convention," *Critical Inquiry* 1, No. 1 (1974), 291-334.
92. *Verdi's "Aida,"* p. 153.
93. *Ibid.*, p. 212.
94. *Ibid.*, p. 183.
95. Stephen Bann, *The Clothing of Cleo* (Cambridge: Cambridge University Press, 1984), pp. 93-111.
96. Raymond Schwab, *The Oriental Renaissance*, trans. Gene Patterson-Black and Victor Reinking (New York: Columbia University Press, 1984), p. 86. See also Said, *Orientalism*, pp. 80-88.
97. Martin Bernal, *Black Athena: The Afroasiatic Roots of Classical Civilization*, Vol. 1 (New Brunswick: Rutgers University Press, 1987), pp. 161-88.
98. Schwab, *Oriental Renaissance*, p. 25.
99. Jean Humbert, "A propos de l'égyptomanie dans l'oeuvre de Verdi: Attribution à Auguste Mariette d'un scénario anonyme de l'opéra *Aida*," *Revue de Musicologie* 62, No. 2 (1976), 229-55.
100. Kinney and Çelik, "Ethnography and Exhibitionism," p. 36.
101. Brian Fagan, *The Rape of the Nile* (New York: Scribner's, 1975), p. 278.
102. *Ibid.*, p. 276.
103. Kinney and Çelik, "Ethnography and Exhibitionism," p. 38.
104. *Verdi's "Aida,"* p. 444.
105. *Ibid.*, p. 186.
106. *Ibid.*, pp. 261-62.
107. *Opera*, 1986.
108. Skelton, *Wieland Wagner*, p. 160. See also Goléa, *Gespräche mit Wieland Wagner*, pp. 62-63.
109. *Verdi's "Aida,"* p. 138.
110. Muhammd Sabry, *Episode de la question d'Afrique: L'Empire égyptien sous Ismaïl et l'ingérence anglo-française (1863-1879)* (Paris: Geuthner, 1933), pp. 391 ff.
111. As in Roger Owen, *The Middle East and the World Economy, 1800-1914* (London: Methuen, 1981).
112. *Ibid.*, p. 122.
113. David Landes, *Bankers and Pasbas* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1958).
114. Sabry, p. 313.
115. *Ibid.*, p. 322.
116. Georges Douin, *Histoire du règne du Kbedive Ismaïl*, Vol. 2 (Rome: Royal Egyptian Geographic Society, 1934).
117. Landes, *Bankers and Pasbas*, p. 209.
118. Owen, *Middle East*, pp. 149-50.
119. *Ibid.*, p. 128.
120. Janet L. Abu-Lughod, *Cairo: 1001 Years of the City Victorious* (Princeton: Princeton University Press, 1971), p. 98.
121. *Ibid.*, p. 107.
122. Jacques Berque, *Egypt: Imperialism and Revolution*, trans. Jean Stewart (New York: Praeger, 1972), pp. 96-98.
123. Bernard Semmel, *Jamaican Blood and Victorian Conscience: The Governor Eyre Controversy* (Boston: Riverside Press, 1963), p. 179. A comparable occlusion is studied in Irfan Habib, "Studying a Colonial Economy—Without Perceiving Colonialism," *Modern Asian Studies* 19, No. 3 (1985), 355-81.

## Notes

124. Thomas Hodgkin, *Nationalism in Colonial Africa* (London: Muller, 1956), pp. 29–59.
125. See Adas, *Machines as the Measure of Men*, pp. 199–270.
126. As a sample of this sort of thinking, see J. B. Kelly, *Arabia, the Gulf and the West* (London: Weidenfeld & Nicolson, 1980).
127. Rosenthal, *Character Factory*, p. 52 and *passim*.
128. J. A. Mangan, *The Games Ethic and Imperialism: Aspects of the Diffusion of an Ideal* (Harmondsworth: Viking, 1986).
129. J.M.S. Tompkins, "Kipling's Later Tales: The Theme of Healing," *Modern Language Review* 45 (1950), 18–32.
130. Victor Turner, *Dramas, Fields, and Metaphors: Symbolic Action in Human Society* (Ithaca: Cornell University Press, 1974), pp. 258–59. For a subtle meditation on the problems of color and caste, see S. P. Mohanty, "Kipling's Children and the Colour Line," *Race and Class*, 31, No. 1 (1989), 21–40, also his "Us and Them: On the Philosophical Bases of Political Criticism," *Yale Journal of Criticism* 2, No. 2 (1989), 1–31.
131. Rudyard Kipling, *Kim* (1901; rpt. Garden City: Doubleday, Doran, 1941), p. 516.
132. *Ibid.*, pp. 516–17.
133. *Ibid.*, p. 517.
134. *Ibid.*, p. 523.
135. George Eliot, *Middlemarch*, ed. Bert G. Hornback (New York: Norton, 1977), p. 544.
136. Mark Kinkead-Weekes, "Vision in Kipling's Novels," in *Kipling's Mind and Art*, ed. Andrew Rutherford (London: Oliver & Boyd, 1964).
137. Edmund Wilson, "The Kipling that Nobody Read," *The Wound and the Bow* (New York: Oxford University Press, 1947), pp. 100–1, 103.
138. Kipling, *Kim*, p. 242.
139. *Ibid.*, p. 268.
140. *Ibid.*, p. 271.
141. Francis Hutchins, *The Illusion of Permanence: British Imperialism in India* (Princeton: Princeton University Press, 1967), p. 157. See also George Bearce, *British Attitudes Towards India, 1784–1858* (Oxford: Oxford University Press, 1961), and for the unravelling of the system, see B. R. Tomlinson, *The Political Economy of the Raj, 1914–1947: The Economics of Decolonization in India* (London: Macmillan, 1979).
142. Angus Wilson, *The Strange Ride of Rudyard Kipling* (London: Penguin, 1977), p. 43.
143. George Orwell, "Rudyard Kipling," in *A Collection of Essays* (New York: Doubleday, Anchor, 1954), pp. 133–35.
144. Michael Edwardes, *The Sabibs and the Lotus: The British in India* (London: Constable, 1988), p. 59.
145. See Edward W. Said, "Representing the Colonized: Anthropology's Interlocutors," *Critical Inquiry* 15, No. 2 (Winter 1989), 205–25. See also Lewis D. Wurgaft, *The Imperial Imagination: Magic and Myth in Kipling's India* (Middletown: Wesleyan University Press, 1983), pp. 54–78, and of course the work of Bernard S. Cohn, *Anthropologist Among the Historians*.
146. See Eric Stokes, *The English Utilitarians and India* (Oxford: Clarendon Press, 1959), and Bearce, *British Attitudes Towards India*, pp. 153–74. On Bentinck's educational reform, see Viswanathan, *Masks of Conquest*, pp. 44–47.
147. Noel Annan, "Kipling's Place in the History of Ideas," *Victorian Studies* 3, No. 4 (June 1960), 323.
148. See notes 11 and 12.
149. Geoffrey Moorhouse, *India Britannica* (London: Paladin, 1984), p. 103.
150. *Ibid.*, p. 102.
151. Georg Lukacs, *The Theory of the Novel*, trans. Anna Bostock (Cambridge, Mass.: MIT Press, 1971), pp. 35 ff.

## Notes

152. Kipling, *Kim*, p. 246.
153. *Ibid.*, p. 248.
154. Lukacs, *Theory of the Novel*, pp. 125–26.
155. Kipling, *Kim*, p. 466.
156. Frantz Fanon, *The Wretched of the Earth*, trans. Constance Farrington (1961; rpt. New York: Grove, 1968), p. 77. For substantiation of this claim, and the role of legitimizing and “objective” discourse in imperialism, see Fabiola Jara and Edmundo Magana, “Rules of Imperialist Method,” *Dialectical Anthropology* 7, No. 2 (September 1982), 115–36.
157. Robert Stafford, *Scientist of Empire: Sir Roderick Murchison, Scientific Exploration and Victorian Imperialism* (Cambridge: Cambridge University Press, 1989). For an earlier example, in India, see Marika Vicziany, “Imperialism, Botany and Statistics in Early Nineteenth-Century India: The Surveys of Francis Buchanan (1762–1829),” *Modern Asian Studies* 20, No. 4 (1986), 625–60.
158. Stafford, *Scientist of Empire*, p. 208.
159. J. Stengers, “King Leopold’s Imperialism,” in Roger Owen and Bob Sutcliffe, eds., *Studies in the Theory of Imperialism* (London: Longmans, 1972), p. 260. See also Neil Ascherson, *The King Incorporated: Leopold II in the Age of Trusts* (London: Allen & Unwin, 1963).
160. Achebe, *Hopes and Impediments*; see note 24.
161. Linda Nochlin, “The Imaginary Orient,” *Art in America* (May 1983), 118–31, 187–91. In addition, as an extension of Nochlin’s essay, see the remarkably interesting Boston University doctoral dissertation by Todd B. Porterfield, *Art in the Service of French Imperialism in the Near East, 1798–1848: Four Case Studies* (Ann Arbor: University Microfilms, 1991).
162. A. P. Thornton, *The Imperial Idea and Its Enemies: A Study in British Power* (1959; rev. ed. London: Macmillan, 1985); Bernard Porter, *Critics of Empire: British Radical Attitudes to Colonialism in Africa, 1895–1914* (London: Macmillan, 1968); Hobson, *Imperialism*. For France see Charles Robert Ageron, *L’Anticolonialisme en France de 1871 à 1914* (Paris: Presses Universitaires de France, 1973).
163. See Bodelsen, *Studies in Mid-Victorian Imperialism*, pp. 147–214.
164. Stephen Charles Neill, *Colonialism and Christian Missions* (London: Lutterworth, 1966). Neill’s is a very general work whose statements have to be supplemented and qualified by the large number of detailed works about missionary activity, for example, the work of Murray A. Rubinstein on China: “The Missionary as Observer and Iimagemaker: Samuel Wells Williams and the Chinese,” *American Studies* (Taipei) 10, No. 3 (September 1980), 31–44; and “The Northeastern Connection: American Board Missionaries and the Formation of American Opinion Toward China: 1830–1860,” *Bulletin of the Modern History* (Academica Sinica), Taiwan, July 1980.
165. See Bearce, *British Attitudes Towards India*, pp. 65–77, and Stokes, *English Utilitarians and India*.
166. Quoted in Syed Hussein Alatas, *The Myth of the Lazy Native: A Study of the Image of the Malays, Filipinos, and Javanese from the Sixteenth to the Twentieth Century and Its Function in the Ideology of Colonial Capitalism* (London: Frank Cass, 1977), p. 59.
167. *Ibid.*, p. 62.
168. *Ibid.*, p. 223.
169. Romila Thapar, “Ideology and the Interpretation of Early Indian History,” *Review* 5, No. 3 (Winter 1982), 390.
170. Karl Marx and Friedrich Engels, *On Colonialism: Articles from the New York Tribune and Other Writings* (New York: International, 1972), p. 156.
171. Katherine George, “The Civilized West Looks at Africa: 1400–1800. A Study in Ethnocentrism,” *Iris* 49, No. 155 (March 1958), 66, 69–70.
172. For the definition of “primitives” through this technique, see Torgovnick, *Gone*

## Notes

*Primitive*, pp. 3–41. See also Ronald L. Mees, *Social Science and the Ignoble Savage* (Cambridge: Cambridge University Press, 1976), for an elaborated version of the four-stage theory of the savage based on European philosophy and cultural thought.

173. Brunschwig, *French Colonialism*, p. 14.

174. Robert Delavigne and Charles André Julien, *Les Constructeurs de la France d'outre-mer* (Paris: Corea, 1946), p. 16. An interestingly different volume, although it deals with similar figures, is *African Proconsuls: European Governors in Africa*, eds. L. H. Gann and Peter Duignan (New York: Free Press, 1978). See also Mort Rosenblum, *Mission to Civilize: The French Way* (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1986).

175. Agnes Murphy, *The Ideology of French Imperialism, 1817–1881* (Washington: Catholic University of America Press, 1968), p. 46 and *passim*.

176. Raoul Girardet, *L'Idée coloniale en France, 1871–1962* (Paris: La Table Ronde, 1972), pp. 44–45. See also Stuart Michael Persell, *The French Colonial Lobby* (Stanford: Hoover Institution Press, 1983).

177. Quoted in Murphy, *Ideology of French Imperialism*, p. 25.

178. Raymond F. Betts, *Assimilation and Association in French Colonial Theory, 1840–1914* (New York: Columbia University Press, 1961), p. 88.

179. I discuss this material with regard to theories of national identity mobilized for use in late-nineteenth-century imperialism in “Nationalism, Human Rights, and Interpretation,” in *Freedom and Interpretation*, ed. Barbara Johnson (New York: Basic Books, 1992).

180. Betts, *Association and Assimilation*, p. 108.

181. *Ibid.*, p. 174.

182. Girardet, *L'Idée coloniale en France*, p. 48.

183. For one small episode in the imperial competition with England, see the fascinating glimpse afforded by Albert Hourani, “T. E. Lawrence and Louis Massignon,” in his *Islam in European Thought* (Cambridge: Cambridge University Press, 1991), pp. 116–28. See also Christopher M. Andrew and A. S. Kanya-Forstner, *The Climax of French Imperial Expansion, 1914–1924* (Stanford: Stanford University Press, 1981).

184. David Prochaska, *Making Algeria French: Colonialism in Bône, 1870–1920* (Cambridge: Cambridge University Press, 1990), p. 85. For a fascinating study of the way French social scientists and urban planners used Algeria as a place to experiment on, and to redesign, see Gwendolyn Wright, *The Politics of Design in French Colonial Urbanism* (Chicago: University of Chicago Press, 1991), pp. 66–84. Later sections of the book discuss the effect of these plans on Morocco, Indochina, and Madagascar. The definitive study, however, is Janet Abu-Lughod, *Rabat: Urban Apartheid in Morocco* (Princeton: Princeton University Press, 1980).

185. *Ibid.*, p. 124.

186. *Ibid.*, pp. 141–42.

187. *Ibid.*, p. 255.

188. *Ibid.*, p. 254.

189. *Ibid.*, p. 255.

190. *Ibid.*, p. 70.

191. Roland Barthes, *Le Degré zéro de l'écriture* (1953; rpt. Paris: Gonthier, 1964), p. 10.

192. Raymond Williams, *George Orwell* (New York: Viking, 1971), especially pp. 77–78.

193. Christopher Hitchens, *Prepared for the Worst* (New York: Hill & Wang, 1989), pp. 78–90.

194. Michael Walzer makes of Camus an exemplary intellectual, precisely because he was anguished and wavered and opposed terrorism and loved his mother: see Walzer, “Albert Camus’s Algerian War,” in *The Company of Critics: Social Criticism and Political Commitment in the Twentieth Century* (New York: Basic Books, 1988), pp. 136–52.

195. Conor Cruise O’Brien, *Albert Camus* (New York: Viking, 1970), p. 103.



## Notes

196. Joseph Conrad, *Lust Essays*, ed. Richard Curle (London: Dent, 1926), pp. 10-17.
197. The later O'Brien, with views noticeably like these and different from the gist of his book on Camus, has made no secret of his antipathy for the lesser peoples of the "Third World." See his extended disagreement with Said in *Salmagundi* 70-71 (Spring-Summer 1986), 65-81.
198. Herbert R. Lottman, *Albert Camus: A Biography* (New York: Doubleday, 1979). Camus's actual behavior in Algeria during the colonial war itself is best chronicled in Yves Carrière's *La Guerre d'Algérie II: Le Temps des léopards* (Paris: Fayard, 1969).
199. "Misère de la Kabylie" (1939), in Camus, *Essais* (Paris: Gallimard, 1965) pp. 905-38.
200. O'Brien, *Camus*, pp. 22-28.
201. Camus, *Exile and the Kingdom*, trans. Justin O'Brien (New York: Knopf, 1958), pp. 32-33. For a perspicacious reading of Camus in the North African context, see Barbara Harlow, "The Maghrib and *The Stranger*," *Alif* 3 (Spring 1983), 39-55.
202. Camus, *Essais*, p. 2039.
203. Quoted in Manuela Semidei, "De L'Empire à la décolonisation à travers les manuels scolaires," *Revue française de science politique* 16, No. 1 (February 1961), 85.
204. Camus, *Essais*, pp. 1012-13.
205. Semidei, "De L'Empire à la décolonisation," 75.
206. Jean-Paul Sartre, *Literary Essays*, trans. Annette Michelson (New York: Philosophical Library, 1957), p. 32.
207. Emir Abdel Qader, *Ecrits spirituels*, trans. Michel Chodkiewicz (Paris: Seuil, 1982).
208. Mostafa Lacheraf, *L'Algérie: Nation et société* (Paris: Maspéro, 1965). A wonderful fictional and personal reconstruction of the period is in Assia Djebar's novel *L'Amour, la fantasia* (Paris: Jean-Claude Lattès, 1985).
209. Quoted in Abdullah Laroui, *The History of the Magreb: An Interpretive Essay*, trans. Ralph Manheim (Princeton: Princeton University Press, 1977), p. 301.
210. Lacheraf, *L'Algérie*, p. 92.
211. *Ibid.*, p. 93.
212. Theodore Bugeaud, *Par l'Épée et par la bayonnette* (Paris: PUF, 1948). Bugeaud's later career was equally distinguished: he commanded the troops who fired on the insurgent crowds on February 23, 1848, and was repaid by Flaubert in *L'Éducation sentimentale*, where the unpopular marshal's portrait is pierced in the stomach during the storming of the Palais Royal, February 24, 1848.
213. Martine Astier Louth, *Littérature et colonialisme: L'Expansion coloniale vue dans la littérature romanesque française, 1877-1914* (Paris: Mouton, 1971).
214. Melvin Richter, "Tocqueville on Algeria," *Review of Politics* 25 (1963), 377.
215. *Ibid.*, 380. For a fuller and more recent account of this material, see Marwan R. Buheiry, *The Formation and Perception of the Modern Arab World*, ed. Lawrence I. Conrad (Princeton: Darwin Press, 1989), especially Part 1, "European Perceptions of the Orient," which has four essays on nineteenth-century France and Algeria, one of which concerns Tocqueville and Islam.
216. Laroui, *History of the Magreb*, p. 305.
217. See Alloula, *Colonial Harem*.
218. Fanny Colonna and Claude Haim Brahimi, "Du bon usage de la science coloniale," in *Le Mal de voir* (Paris: Union Générale d'éditions, 1976).
219. Albert Sarraut, *Grandeur et servitude coloniales* (Paris: Editions du Sagittaire, 1931), p. 113.
220. Georges Hardy, *La Politique coloniale et le partage du terre aux XIXe et XXe siècles* (Paris: Albin Michel, 1937), p. 441.
221. Camus, *Théâtre, Récits, Nouvelles* (Paris: Gallimard, 1962), p. 1210.

## Notes

84. *Ibid.*, p. 195.
85. Seamus Deane, *Celtic Revivals: Essays in Modern Irish Literature* (London: Faber & Faber, 1985), p. 38.
86. *Ibid.*, p. 49.
87. *Ibid.*
88. Wole Soyinka, *Myth, Literature and the African World* (Cambridge: Cambridge University Press, 1976), p. 127. See also Mudimbe, *Invention of Africa*, pp. 83-97.
89. *Ibid.*, pp. 129, 136.
90. Fanon, *Wretched of the Earth*, p. 203.
91. Césaire, *Collected Poetry*, p. 72.
92. *Ibid.*, pp. 76 and 77.
93. R. P. Blackmur, *Eleven Essays in the European Novel* (New York: Harcourt, Brace & World, 1964), p. 3.
94. Mahmoud Darwish, *The Music of Human Flesh*, trans. Denys Johnson-Davies (London: Heinemann, 1980), p. 18.
95. Pablo Neruda, *Memoirs*, trans. Hardie St. Martin (London: Penguin, 1977), p. 130. This passage may come as a surprise to anyone who had once been influenced by Conor Cruise O'Brien's essay "Passion and Cunning: An Essay on the Politics of W. B. Yeats," collected in his *Passion and Cunning* (London: Weidenfeld & Nicolson, 1988). Its claims and information are inadequate, especially when compared with Elizabeth Cullingford's *Yeats, Ireland and Fascism* (London: Macmillan, 1981); Cullingford also refers to the Neruda passage.
96. W. B. Yeats, *Collected Poems* (New York: Macmillan, 1959), p. 146.
97. Pablo Neruda, *Fully Empowered*, trans. Alastair Reid (New York: Farrar, Straus & Giroux, 1986), p. 131.
98. Yeats, *Collected Poetry*, p. 193.
99. Fanon, *Wretched of the Earth*, p. 59.
100. Gary Sick, *All Fall Down: America's Tragic Encounter with Iran* (New York: Random House, 1985).
101. Chinua Achebe, *Things Fall Apart* (1959; rpt. New York: Fawcett, 1969).
102. Lawrence J. McCaffrey, "Components of Irish Nationalism," in *Perspectives on Irish Nationalism*, eds. Thomas E. Hachey and Lawrence J. McCaffrey (Lexington: University of Kentucky Press, 1989), p. 16.
103. Yeats, *Collected Poetry*, p. 212.
104. *Ibid.*, p. 342.
105. Quoted in Hachey and McCaffrey, *Perspectives on Irish Nationalism*, p. 117.
106. *Ibid.*, p. 106.
107. See David Lloyd, *Nationalism and Minor Literature: James Clarence Mangan and the Emergence of Irish Cultural Nationalism* (Berkeley: University of California Press, 1987).
108. For a collection of some of their writings see *Ireland's Field Day* (London: Hutchinson, 1985). This collection includes Paulin, Heaney, Deane, Kearney, and Kiberd. See also W. J. McCormack, *The Battle of the Books* (Gigginstown, Ireland: Lilliput Press, 1986).
109. R. P. Blackmur, *A Primer of Ignorance*, ed. Joseph Frank (New York: Harcourt, Brace & World, 1967), pp. 21-37.
110. Joseph Leerssen, *Mere Irish and Fior-Ghaic: Studies in the Idea of Irish Nationality, Its Developments, and Literary Expression Prior to the Nineteenth Century* (Amsterdam and Philadelphia: Benjamins, 1986).
111. Fanon, *Wretched of the Earth*, p. 210.
112. *Ibid.*, p. 214.
113. Yeats, *Collected Poetry*, p. 343.

## Notes

114. R. P. Blackmur, *Language as Gesture. Essays in Poetry* (London: Allen & Unwin, 1954), p. 118.
115. *Ibid.*, p. 119.
116. Gordon K. Lewis, *Slavery, Imperialism, and Freedom* (New York: Monthly Review, 1978); and Robin Blackburn, *The Overthrow of Colonial Slavery, 1776-1848* (London: Verso, 1988).
117. Thomas Hodgkin, "Some African and Third World Theories of Imperialism," in *Studies in the Theory of Imperialism*, eds. Roger Owen and Bob Sutcliffe (London: Longman, 1977), p. 95.
118. Marcel Merle, ed., *L'Anticolonialisme Européen de Las Casas à Karl Marx* (Paris: Colin, 1969). Also Charles Robert Ageron, *L'Anticolonialisme en France de 1871 à 1914* (Paris: Presses Universitaires de France, 1973).
119. Harry Bracken, "Essence, Accident and Race," *Hermathena* 116 (Winter 1973), 81-96.
120. Gerard Leclerc, *Antibropologie et colonialisme: Essai sur l'histoire de l'africanisme* (Paris: Seuil, 1972).
121. J. A. Hobson, *Imperialism: A Study* (1902; rpt. Ann Arbor: University of Michigan Press, 1972), pp. 223-84.
122. Another example, caustically analyzed by C.L.R. James, is the case of Wilberforce, manipulated by Pitt, in the cause of abolition: *The Black Jacobins: Toussaint L'Ouverture and the San Domingo Revolution* (1938; rpt. New York: Vintage, 1963), pp. 53-54.
123. See Noam Chomsky, *American Power and the New Mandarins* (New York: Pantheon, 1969), pp. 221-366.
124. Girardet, *L'Idée coloniale en France*, p. 213.
125. See Hue-Tam Ho Tai, *Radicalism and the Origins of the Vietnamese Revolution* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1992), for an excellent account of young Vietnamese intellectuals in Paris between the wars.
126. This is well described in Janet G. Vaillant, *Black, French, and African: A Life of Léopold Sédar Senghor* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1990), pp. 87-146.
127. Raymond Williams, *Culture* (London: Fontana, 1981), pp. 83-5.
128. Ali Haroun, *La 7e Wilaya: La Guerre de FLN en France, 1954-1962* (Paris: Seuil, 1986).
129. Alatas, *Myth of the Lazy Native*, p. 56.
130. *Ibid.*, p. 96.
131. James, *Black Jacobins*, p. 198.
132. George Antonius, *The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement* (1938; rpt. Beirut: Librairie du Liban, 1969), pp. 305-6.
133. Albert Hourani, *The Emergence of the Modern Middle East* (Berkeley: University of California Press, 1981), pp. 193-234. See also the Georgetown University doctoral dissertation of Susan Silsby, *Antonius: Palestine, Zionism and British Imperialism, 1929-1939* (Ann Arbor: University Microfilms, 1986), which has an impressive amount of information on Antonius's life.
134. Paul Buhle, *C.L.R. James: The Artist as Revolutionary* (London: Verso, 1988), pp. 56-57.
135. "An Audience with C.L.R. James," *Third World Book Review* 1, No. 2 (1984), 7.
136. Antonius, *Arab Awakening*, p. 43.
137. Alatas, *Myth of the Lazy Native*, p. 152.
138. Ranajit Guha, *A Rule of Property for Bengal: An Essay on the Idea of Permanent Settlement* (Paris and The Hague: Mouton, 1963), p. 8.
139. Guha, "On Some Aspects of the Historiography of Colonial India," in *Subaltern Studies I* (Delhi: Oxford University Press, 1982), pp. 5, 7. For the later development of Guha's thought, see his "Dominance Without Hegemony and Its Historiography," *Subaltern Studies VI* (Delhi: Oxford University Press, 1986), pp. 210-309.
140. A. L. Tibawi, *A Modern History of History, Including Lebanon and Palestine* (London:

## Notes

41. *Ibid.*, pp. 159–72. On Griaule see the excellent pages on his career and contribution in James Clifford, *The Predicament of Culture: Twentieth Century Ethnography, Literature, and Art* (Cambridge, Mass: Harvard University Press, 1988), pp. 55–91; see also Clifford's account of Leiris, pp. 165–74. In both cases, however, Clifford does not connect his authors with decolonization, a global political context eminently present in Girardet.
42. André Malraux, *La Voie royale* (Paris: Grasset, 1930), p. 268.
43. Paul Mus, *Viet-Nam: Sociologie d'une guerre* (Paris: Seuil, 1952), pp. 134–35. Frances FitzGerald's prizewinning 1972 book on the American war against Vietnam, *Fire in the Lake*, is dedicated to Mus.
44. Davidson, *Africa in Modern History*, p. 155.
45. *Ibid.*, p. 156.
46. Fanon, *Black Skin, White Masks*, p. 220.
47. Philip D. Curtin, *The Image of Africa: British Ideas and Action, 1780–1850*, 2 vols. (Madison: University of Wisconsin Press, 1964).
48. Daniel Defert, "The Collection of the World: Accounts of Voyages from the Sixteenth to the Eighteenth Centuries," *Dialectical Anthropology* 7 (1982), 11–20.
49. Pratt, "Mapping Ideology." See also her remarkable *Imperial Eyes: Travel Writing and Transculturalization* (New York and London: Routledge, 1992).
50. James Joyce, *Ulysses* (1922; rpt. New York: Vintage, 1966), p. 212.
51. James Ngugi, *The River Between* (London: Heinemann, 1965), p. 1.
52. Tayeb Salih, *Season of Migration to the North*, trans. Denys Johnson-Davies (London: Heinemann, 1970), pp. 49–50.
53. Peter Hulme, *Colonial Encounters: Europe and the Native Caribbean, 1492–1797* (London: Methuen, 1986).
54. George Lamming, *The Pleasures of Exile* (London: Allison & Busby, 1984), p. 107.
55. *Ibid.*, p. 119.
56. Roberto Fernández Retamar, *Caliban and Other Essays*, trans. Edward Baker (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1989), p. 14. See as a corollary, Thomas Cartelli, "Prospero in Africa: *The Tempest* as Colonialist Text and Pretext," in *Shakespeare Reproduced: The Text in History and Ideology*, eds. Jean E. Howard and Marion F. O'Connor (London: Methuen, 1987), pp. 99–115.
57. Ngugi wa Thiongo, *Decolonising the Mind: The Politics of Language in African Literature* (London: James Curry, 1986).
58. Barbara Harlow, *Resistance Literature* (New York: Methuen, 1987), p. xvi. In this regard a pioneering work is Chinweizu, *The West and the Rest of Us: White Predators, Black Slaves and the African Elite* (New York: Random House, 1975).
59. Aimé Césaire, *The Collected Poetry*, eds. and trans. Clayton Eshleman and Annette Smith (Berkeley: University of California Press, 1983), p. 46.
60. Rabindranath Tagore, *Nationalism* (New York: Macmillan, 1917), p. 19 and *passim*.
61. W.E.B. Du Bois, *The Souls of Black Folk* (1903; rpt. New York: New American Library, 1969), pp. 44–45.
62. Tagore, *Nationalism*, p. 62.
63. Benedict Anderson, *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism* (London: New Left, 1983), p. 47.
64. *Ibid.*, p. 52.
65. *Ibid.*, p. 74.
66. Bill Ashcroft, Gareth Griffiths, and Helen Tiffin, *The Empire Writes Back: Theory and Practice in Post-Colonial Literatures* (London and New York: Routledge, 1989).
67. Eric Hobsbawm, *Nations and Nationalism Since 1780: Programme, Myth, Reality* (Cam-

## Notes

bridge: Cambridge University Press, 1990); Ernest Gellner, *Nations and Nationalism* (Ithaca: Cornell University Press, 1983).

68. Partha Chatterjee, *Nationalist Thought and the Colonial World: A Derivative Discourse?* (London: Zed, 1986), p. 79. See also Rajat K. Ray, "Three Interpretations of Indian Nationalism," in *Essays in Modern India*, ed. B. Q. Nanda (Delhi: Oxford University Press, 1980), pp. 1-41.

69. Chatterjee, *Nationalist Thought*, p. 100.

70. *Ibid.*, p. 161.

71. Davidson, *Africa in Modern History*, especially p. 204. See also *General History of Africa*, ed. A. Adu Boaher, Vol. 7, *Africa Under Colonial Domination, 1880-1935* (Berkeley, Paris, and London: University of California Press, UNESCO, James Currey, 1990), and *The Colonial Moment in Africa: Essays on the Movement of Minds and Materials, 1900-1940*, ed. Andrew Roberts (Cambridge: Cambridge University Press, 1990).

72. Kumari Jayawardena, *Feminism and Nationalism in the Third World* (London: Zed, 1986), especially pp. 43-56, 73-108, 137-54 and *passim*. For emancipatory perspectives on feminism and imperialism, see also Laura Nader, "Orientalism, Occidentalism and the Control of Women," *Cultural Dynamics* 2, No. 3 (1989), 323-55; Maria Mies, *Patriarchy and Accumulation on a World Scale: Women in the International Division of Labour* (London: Zed, 1986). See also Helen Callaway, *Gender, Culture and Empire: European Women in Colonial Nigeria* (Urbana: University of Illinois Press, 1987) and eds. Nupur Chandur and Margaret Strobel, *Western Women and Imperialism: Complicity and Resistance* (Bloomington: Indiana University Press, 1992).

73. Angus Calder, *Revolutionary Empire: The Rise of the English-Speaking Empires from the Eighteenth Century to the 1780's* (London: Cape, 1981), p. 14. A philosophical and ideological accompaniment is provided (alas, in a terrible jargon) by Samir Amin, *Eurocentrism*, trans. Russell Moore (New York: Monthly Review, 1989). By contrast, a liberationist account—also on a world scale—is in Jan Nederveen Pietersee, *Empire and Emancipation* (London: Pluto Press, 1991).

74. Calder, *Revolutionary Empire*, p. 36.

75. *Ibid.*, p. 650.

76. Eqbal Ahmad, "The Neo-Fascist State: Notes on the Pathology of Power in the Third World," *Arab Studies Quarterly* 3, No. 2 (Spring 1981), 170-80.

77. James Joyce, *A Portrait of the Artist as a Young Man* (1916; rpt. New York: Viking, 1964), p. 189.

78. Thomas Hodgkin, *Nationalism in Colonial Africa* (London: Muller, 1956), pp. 93-114.

79. Alfred Crosby, *Ecological Imperialism: The Biological Expansion of Europe, 900-1900* (Cambridge: Cambridge University Press, 1986), pp. 196-216.

80. Neil Smith, *Uneven Development: Nature, Capital, and the Production of Space* (Oxford: Blackwell, 1984), p. 102.

81. *Ibid.*, p. 146. Further differentiations of space, with consequences for art and leisure, occur in landscape and the project for national parks. See W.J.T. Mitchell, "Imperial Landscape," in *Landscape and Power*, ed. W.J.T. Mitchell (Chicago: University of Chicago Press, 1993), and Jane Carruthers, "Creating a National Park, 1910 to 1926," *Journal of South African Studies* 15, No. 2 (January 1989), 188-216. In a different sphere compare with Mark Bassin, "Inventing Siberia: Visions of the Russian East in the Early Nineteenth Century," *American Historical Review* 96, No. 3 (June 1991), 763-94.

82. Mahmoud Darwish, "A Lover from Palestine," in *Splinters of Bone*, trans. B. M. Bannani (Greenfield Center, N.Y.: Greenfield Review Press, 1974), p. 23.

83. Mary Hamer, "Putting Ireland on the Map," *Textual Practice* 3, No. 2 (Summer 1989), 184-201.

## Notes

222. *Ibid.*, p. 1211.
223. Seeley, *Expansion of England*, p. 16.
224. Albert O. Hirschman, *The Passions and the Interests: Political Arguments for Capitalism Before Its Triumph* (Princeton: Princeton University Press, 1977), pp. 132–33.
225. Seeley, *Expansion of England*, p. 193.
226. See Alec G. Hargreaves, *The Colonial Experience in French Fiction* (London: Macmillan, 1983), p. 31, where this strange elision is noted and explained interestingly as the result of Loti's peculiar psychology and Anglophobia. The formal consequences for Loti's fiction are not noted however. For a fuller account, see the unpublished Princeton University dissertation, Panivong Norindr, *Colonialism and Figures of the Exotic in the Work of Pierre Loti* (Ann Arbor: University Microfilms, 1990).
227. Benita Parry, *Delusions and Discoveries: Studies on India in the British Imagination, 1850–1930* (London: Allen Lane, 1972).

### CHAPTER THREE RESISTANCE AND OPPOSITION

1. André Gide, *L'Immoraliste* (Paris: Mercure de France, 1902), pp. 113–14.
2. Gide, *The Immoralist*, trans. Richard Howard (New York: Knopf, 1970), pp. 158–59. For the connection between Gide and Camus, see Mary Louise Pratt, "Mapping Ideology: Gide, Camus, and Algeria," *College Literature* 8 (1981), 158–74.
3. As used by Christopher Miller, *Blank Darkness: Africanist Discourse in French* (Chicago: University of Chicago Press, 1985); a profound philosophical critique of "Africanist" philosophy is found in Paulin J. Hountondji, *Sur la "philosophie africaine"* (Paris: Maspéro, 1976). Hountondji gives special priority in his critique to the work of Placide Tempels.
4. V. Y. Mudimbe, *The Invention of Africa: Gnosis, Philosophy, and the Order of Knowledge* (Bloomington: Indiana University Press, 1988).
5. Raymond Schwab, *The Oriental Renaissance*, trans. Gene Patterson-Black and Victor Reinking (New York: Columbia University Press, 1984).
6. Frantz Fanon, *The Wretched of the Earth*, trans. Constance Farrington (1961; rpt. New York: Grove, 1968), p. 314.
7. Basil Davidson, *Africa in Modern History: The Search for a New Society* (London: Allen Lane, 1978), pp. 178–80.
8. Jean-Paul Sartre, "Le Colonialisme est un système," in *Situations V: Colonialisme et néo-colonialisme* (Paris: Gallimard, 1964).
9. Sartre, "Preface" to Fanon, *Wretched of the Earth*, p. 7.
10. Davidson, *Africa in Modern History*, p. 200.
11. Fanon, *Wretched of the Earth*, p. 96.
12. *Ibid.*, p. 102.
13. Sartre, "Preface," p. 26.
14. Henri Grimal, *Decolonization: The British, French, Dutch and Belgian Empires, 1919–1963*, trans. Stephan de Vos (1965; rpt. London: Routledge & Kegan Paul, 1978), p. 9. There is a massive literature on decolonization of which some noteworthy titles are R. F. Holland, *European Decolonization, 1918–1981: An Introductory Survey* (London: Macmillan, 1985); Miles Kahler, *Decolonization in Britain and France: The Domestic Consequences of International Relations* (Princeton: Princeton University Press, 1984); Franz Ansprenger, *The Dissolution of the Colonial Empires* (1981; rpt. London: Routledge, 1989); A. N. Porter and A. J. Stockwell, Vol. 1, *British Imperial Policy and Decolonization, 1938–51*, and Vol. 2, *1951–64* (London: Macmillan, 1987, 1989); John Strachey, *The End of Empire* (London: Gollancz, 1959).

## Notes

15. Terence Ranger, "Connexions Between Primary Resistance Movements and Modern Mass Nationalisms in East and Central Africa," pts. 1 and 2, *Journal of African History* 9, No. 3 (1968), 439. See also Michael Crowder, ed., *West African Resistance: The Military Response to Colonial Occupation* (London: Hutchinson, 1971), and the later chapters (pp. 268 ff.) of S. C. Malik, ed., *Dissent, Protest and Reform in Indian Civilization* (Simla: Indian Institute of Advanced Study, 1977).
16. Michael Adas, *Prophets of Rebellion: Millenarian Protest Movements Against the European Colonial Order* (Chapel Hill: University of North Carolina, 1979). For another example, see Stephen Ellis, *The Rising of the Red Shawks: A Revolt in Madagascar, 1897-1899* (Cambridge: Cambridge University Press, 1985).
17. Ranger, "Connexions," p. 631.
18. Quoted in Afaf Luthi al-Sayyid, *Egypt and Cromer* (New York: Praeger, 1969), p. 68.
19. E. M. Forster, *A Passage to India* (1924; rpt. New York: Harcourt, Brace & World, 1952), p. 322.
20. See the final pages, 314-20, of Benita Parry, *Delusions and Discoveries: Studies on India in the British Imagination, 1880-1930* (London: Allen Lane, 1972). By contrast, in *The Rhetoric of English India* (Chicago: University of Chicago Press, 1992), Sara Suleri reads the relationship between Aziz and Fielding in psycho-sexual terms.
21. Forster, *Passage to India*, p. 86.
22. *Ibid.*, p. 136.
23. *Ibid.*, p. 164.
24. Quoted in Francis Hutchins, *The Illusion of Permanence: British Imperialism in India* (Princeton: Princeton University Press, 1967), p. 41.
25. Forster, *Passage to India*, p. 76.
26. Hutchins, *Illusion of Permanence*, p. 187.
27. In Syed Hussein Alatas, *The Myth of the Lazy Native: A Study of the Image of the Malays, Filipinos, and Javanese from the Sixteenth to the Twentieth Century and Its Function in the Ideology of Colonial Capitalism* (London: Frank Cass, 1977). See also James Scott, *Weapons of the Weak: Everyday Forms of Peasant Resistance* (New Haven: Yale University Press, 1985).
28. Sidney and Beatrice Webb, *Indian Diary* (Delhi: Oxford University Press, 1988), p. 98. On the oddly insulating atmosphere of colonial life, see Margaret MacMillan, *Women of the Raj* (London: Thames & Hudson, 1988).
29. Parry, *Delusions and Discoveries*, p. 274.
30. Forster, *Passage to India*, pp. 106-7.
31. Quoted in Anil Seal, *The Emergence of Indian Nationalism: Competition and Collaboration in the Later Nineteenth Century* (Cambridge: Cambridge University Press, 1971), p. 140.
32. *Ibid.*, p. 141.
33. *Ibid.*, p. 147. Ellipses in the original.
34. *Ibid.*, p. 191.
35. Edward Thompson, *The Other Side of the Medal* (1926; rpt. Westport: Greenwood Press, 1974), p. 26.
36. *Ibid.*, p. 126. See also Parry's sensitive account of Thompson in *Delusions and Discoveries*, pp. 164-202.
37. Fanon, *Wretched of the Earth*, p. 106.
38. Frantz Fanon, *Black Skin, White Masks*, trans. Charles Lam Markmann (1952; rpt. New York: Grove Press, 1967), p. 222. As a complement to Fanon's early, psychologizing style, see Ashis Nandy, *The Intimate Enemy: Loss and Recovery of Self Under Colonialism* (Delhi: Oxford University Press, 1983).
39. Raoul Girardet, *L'Idée coloniale en France, 1871-1962* (Paris: La Table Ronde, 1972), p. 136.
40. *Ibid.*, p. 148.

## Notes

Macmillan, 1969); Albert Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939* (Cambridge: Cambridge University Press, 1983); Hisham Sharabi, *Arab Intellectuals and the West: The Formative Years, 1877-1914* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1972); Bassam Tibi, *Arab Nationalism: A Critical Analysis*, trans. M. F. and Peter Sluglett (New York: St. Martin's Press, 1990); Mohammad Abed al-Jabry, *Naqd al-Aql al-'Arabi*, 2 vols. (Beirut: Dar al-Tali'ah, 1984, 1986).

141. A. A. Duri, *The Historical Formation of the Arab Nation: A Study in Identity and Consciousness*, trans. Lawrence I. Conrad (1984; London: Croom Helm, 1987).

142. Walter Rodney, "The African Revolution," in *C.L.R. James: His Life and Work*, ed. Paul Buhle (London: Allison & Busby, 1986), p. 35.

143. Guha, *Rule of Property for Bengal*, p. 38.

144. *Ibid.*, p. 62.

145. *Ibid.*, p. 145.

146. *Ibid.*, p. 92.

147. Eric Williams, *Capitalism and Slavery* (New York: Russell & Russell, 1961), p. 211.

148. Alatas, *Myth of the Lazy Native*, p. 200.

149. James, *Black Jacobins*, p. x.

150. *Ibid.*, p. 391.

151. Quoted in Silsby, *Antonius*, p. 184.

152. Tariq Ali, *The Nebrus and the Gandhis: An Indian Dynasty* (London: Pan, 1985).

153. Theodor Adorno, *Minima Moralia: Reflections from a Damaged Life*, trans. E.F.N. Jephcott (1951; trans. London: New Left, 1974), p. 102.

154. Conor Cruise O'Brien, "Why the Wailing Ought to Stop," *The Observer*, June 3, 1984.

155. Fanon, *Wretched of the Earth*, p. 77.

156. See S. P. Mohanty, "Us and Them: On the Philosophical Bases of Political Criticism," *Yale Journal of Criticism* 2, No. 2 (1989), 1-31. Three examples of such a method in action are Timothy Brennan, *Salman Rushdie and the Third World: Myths of the Nation* (New York: St. Martin's Press, 1989); Mary Layoun, *Travels of a Genre: The Modern Novel and Ideology* (Princeton: Princeton University Press, 1990); Rob Nixon, *London Calling: V. S. Naipaul, Postcolonial Mandarin* (New York: Oxford University Press, 1992).

157. Embodied in the following remark made by British Foreign Secretary Lord Balfour in 1919, which has remained generally true so far as Western liberal opinion has been concerned:

For in Palestine we do not propose even to go through the form of consulting the wishes of the present inhabitants of the country, though the American Commission has been going through the form of asking what they are. The four great powers are committed to Zionism and Zionism, be it right or wrong, good or bad, is rooted in age-long tradition, in present needs, in future hopes, of far profounder import than the desires and prejudices of the 700,000 Arabs who now inhabit that ancient land. In my opinion that is right.

Quoted in Christopher Sykes, *Crossroads to Israel, 1917-1948* (1965; rpt. Bloomington: Indiana University Press, 1973), p. 5.

158. Raphael Patai, *The Arab Mind* (New York: Scribner's, 1983); David Pryce-Jones, *The Closed Circle: An Interpretation of the Arabs* (New York: Harper & Row, 1989); Bernard K. Lewis, *The Political Language of Islam* (Chicago: University of Chicago Press, 1988); Patricia Crone and Michael Cook, *Hagarism: The Making of the Islamic World* (Cambridge: Cambridge University Press, 1977).

159. Ronald Robinson, "Non-European Foundations of European Imperialism: Sketch for a Theory of Collaboration," in Owen and Sutcliffe, *Studies in the Theory of Imperialism*, pp. 118, 120.



## Notes

160. Masao Miyoshi, *As We Saw Them: The First Japanese Embassy to the United States (1860)* (Berkeley: University of California Press, 1979); Ibrahim Abu-Lughod, *The Arab Rediscovery of Europe: A Study in Cultural Encounters* (Princeton: Princeton University Press, 1963).
161. Homi K. Bhabha, "Signs Taken for Wonders: Questions of Ambivalence and Authority Under a Tree Outside Delhi May 1817," *Critical Inquiry* 12, No. 1 (1985), 144-65.
162. Afghani's response to Renan is collected in Nikki R. Keddie, *An Islamic Response to Imperialism: Political and Religious Writings of Sayyid Jamal ad-Din "al-Afghani"* (1968; rpt. Berkeley: University of California Press, 1983), pp. 181-87.
163. Albert Hourani, "T. E. Lawrence and Louis Massignon," in *Islam in European Thought* (Cambridge: Cambridge University Press, 1991), pp. 116-28.
164. Yeats, *Collected Poetry*, p. 49.
165. Chatterjee, *Nationalist Thought*, p. 147.
166. *Ibid.*, p. 169.
167. V. S. Naipaul, *Among the Believers: An Islamic Journey* (New York: Alfred A. Knopf, 1981); and *Guerrillas* (New York: Alfred A. Knopf, 1975). Also his *India: A Wounded Civilization* (New York: Vintage, 1977) and *An Area of Darkness* (New York: Vintage, 1981).
168. Claude Liauzu, *Aux origines des tiers-mondismes: Colonisés et anti-colonialistes en France (1919-1939)* (Paris: L'Harmattan, 1982), p. 7.
169. V. S. Naipaul, *A Bend in the River* (New York: Knopf, 1979), p. 244.
170. Davidson, *Africa in Modern History*, p. 374.
171. Fanon, *Wretched of the Earth*, p. 88.
172. *Ibid.*, p. 51.
173. *Ibid.*, p. 47.
174. *Ibid.*, p. 204.
175. *Ibid.*, p. 106. On the subject of "re-introducing mankind into the world" as treated by Fanon, see the perceptive discussion by Patrick Taylor, *The Narrative of Liberation: Perspectives on Afro-Caribbean Literature, Popular Culture and Politics* (Ithaca: Cornell University Press, 1989), pp. 7-94. On Fanon's misgiving about national culture, see Irene Gendzier, *Frantz Fanon, a Biography* (1973; rpt. New York: Grove Press, 1985), pp. 224-30.
176. Georg Lukacs, *History and Class Consciousness: Studies in Marxist Dialectics*, trans. Rodney Livingstone (London: Merlin Press, 1971), p. 199.
177. Fanon, *Wretched of the Earth*, p. 52.
178. *Ibid.*, p. 51.
179. *Ibid.*, pp. 88, 93.
180. *Ibid.*, p. 93.
181. *Ibid.*, p. 94.
182. Albert Memmi, *The Colonizer and the Colonized* (1957; trans. New York: Orion Press, 1965).
183. Fanon, *Wretched of the Earth*, p. 107.
184. *Ibid.*, p. 124.
185. *Ibid.*, p. 125.
186. *Ibid.*, p. 131.
187. *Ibid.*, p. 148.
188. *Ibid.*, p. 159.
189. *Ibid.*, p. 203.
190. *Ibid.*, p. 247.
191. Amílcar Cabral, *Unity and Struggle: Speeches and Writings*, trans. Michael Wolfers (New York: Monthly Review, 1979), p. 143.
192. Michel Chodkiewicz, "Introduction," to Emir Abdel Kader, *Ecrits spirituels*, trans. Chodkiewicz (Paris: Seuil, 1982), pp. 20-22.

<https://telegram.me/maktabatbaghdad>



## Notes

31. Timothy Brennan, "Cosmopolitans and Celebrities," *Race and Class* 31, No. 1 (July–September 1989), 1–19.
32. In Herbert I. Schiller, *Culture, Inc.: The Corporate Takeover of Public Expression* (New York: Oxford University Press, 1989).
33. Immanuel Wallerstein, *Historical Capitalism* (London: Verso, 1983), p. 65 and *passim*. See also Giovanni Arrighi, Terence K. Hopkins, and Immanuel Wallerstein, *Antisystemic Movements* (London and New York: Verso, 1989).
34. A very compelling account of this is given by Jonathan Rée in "Internationality," *Radical Philosophy*, 60 (Spring 1992), 3–11.
35. Bernard S. Cohn, "Representing Authority in Victorian India," in *The Invention of Tradition*, eds. Eric Hobsbawm and Terence Ranger (Cambridge: Cambridge University Press, 1983), pp. 192–207.
36. Adonis, *An Introduction to Arab Poetics*, trans. Catherine Cobban (London: Saqi, 1990), p. 76.
37. Seamus Deane, "Heroic Styles: The Tradition of an Idea," in *Ireland's Field Day* (London: Hutchinson, 1985), p. 58.
38. Ken Ringle, *The Washington Post*, March 31, 1991. The caricatural attacks on the exhibition have an excellent antidote in the massive and intellectually compelling catalogue *The West as America: Reinterpreting Images of the Frontier, 1820–1970*, ed. William H. Truettner (Washington and London: Smithsonian Institution Press, 1991). A sampling of visitors' responses to the exhibition is reproduced in *American Art* 5, No. 2 (Summer 1991), 3–11.
39. This notion is explored with extraordinary subtlety in Homi K. Bhabha, "The Postcolonial Critic," *Arena* 96 (1991), 61–63, and "DissemiNation: Time, Narrative, and the Margins of the Modern Nation," *Nation and Narration*, ed. Homi K. Bhabha (London and New York: Routledge, 1990), pp. 291–322.
40. Paul Kennedy, *The Rise and Fall of the Great Powers: Economic Change and Military Conflict from 1500–2000* (New York: Random House, 1987).
41. Joseph S. Nye, Jr., *Bound to Lead: The Changing Nature of American Power* (1990; rev. ed. New York: Basic, 1991), p. 260.
42. *Ibid.*, p. 261.
43. *The Humanities in American Life: Report of the Commission on the Humanities* (Berkeley: University of California Press, 1980).
44. In Edward W. Said, *The World, the Text, and the Critic* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1983), pp. 226–47.
45. Robert A. McCaughey, *International Studies and Academic Enterprise: A Chapter in the Enclosure of American Learning* (New York: Columbia University Press, 1984).
46. Theodor Adorno, *Minima Moralia: Reflections from a Damaged Life*, trans. E.F.N. Jephcott (1951; trans. London: New Left, 1974), p. 55.
47. In Edward W. Said, *Covering Islam* (New York: Pantheon, 1981).
48. Fredric Jameson, "Postmodernism and Consumer Society," in *The Anti-Aesthetic: Essays on Postmodern Culture*, ed. Hal Foster (Port Townsend, Wash.: Bay Press, 1983), pp. 123–25.
49. Eqbal Ahmad, "The Neo-Fascist State: Notes on the Pathology of Power in the Third World," *Arab Studies Quarterly* 3, No. 2 (Spring 1981), 170–80.
50. Eqbal Ahmad, "From Potato Sack to Potato Mash: The Contemporary Crisis of the Third World," *Arab Studies Quarterly* 2, No. 3 (Summer 1980), 230–32.
51. *Ibid.*, p. 231.
52. Paul Virilio, *L'Insecurité du territoire* (Paris: Stock, 1976), p. 88 ff.
53. Jean-François Lyotard, *The Postmodern Condition: A Report on Knowledge*, trans. Geoff Bennington and Brian Massumi (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1984), pp. 37, 46.

## Notes

54. Masao Miyoshi, *Off Center: Power and Culture Relations Between Japan and the United States* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1991), pp. 623-24.
55. T. S. Eliot, "Little Gidding," in *Collected Poems, 1909-1962* (New York: Harcourt, Brace & World, 1963), pp. 207-8.
56. Gilles Deleuze and Félix Guattari, *Mille Plateaux* (Paris: Minuit, 1980), p. 511 (translation mine).
57. Virilio, *L'Insecurité du territoire*, p. 84.
58. Adorno, *Minima Moralia*, pp. 46-47.
59. *Ibid.*, pp. 67-68.
60. *Ibid.*, p. 68.
61. *Ibid.*, p. 81.
62. Ali Shariati, *On the Sociology of Islam: Lectures by Ali Shariati*, trans. Hamid Algar (Berkeley: Mizan Press, 1979), pp. 92-93.
63. This is described at length in my *Beginnings: Intention and Method* (1975; rpt. New York: Columbia University Press, 1985).
64. John Berger and Jean Mohr, *Another Way of Telling* (New York: Pantheon, 1982), p. 108.
65. Immanuel Wallerstein, "Crisis as Transition," in Samir Amin, Giovanni Arrighi, André Gunder Frank, and Immanuel Wallerstein, *Dynamics of Global Crisis* (New York: Monthly Review, 1982), p. 30.
66. Hugo of St. Victor, *Didascalicon*, trans. Jerome Taylor (New York: Columbia University Press, 1961), p. 101.

## Notes

193. Jalal Ali Ahmad, *Occidentosis: A Plague from the West*, trans. R. Campbell (1978; Berkeley: Mizan Press, 1984).
194. Wole Soyinka, "Triple Tropes of Trickery," *Transition*, No. 54 (1991), 178–83.
195. Anwar Abdel-Malek, "Le Project de civilisation: Positions," in *Les Conditions de l'indépendance nationale dans le monde moderne* (Paris: Editions Cujas, 1977) pp. 499–509.
196. Abdullah Laroui, *The Crisis of the Arab Intellectuals* (Berkeley: University of California Press, 1976), p. 100.
197. Chinua Achebe, *Hopes and Impediments: Selected Essays* (New York: Doubleday, Anchor, 1989), p. 76.
198. The phrase first turns up in Michel Foucault, *Discipline and Punish: The Birth of the Prison*, trans. Alan Sheridan (New York: Pantheon, 1977), p. 26. Later ideas related to this notion are throughout his *The History of Sexuality, Vol. 1*, trans. Robert Hurley (New York: Pantheon, 1978), and in various interviews. It influences Chantal Mouffe and Ernest Laclau, *Hegemony and Socialist Strategy: Towards a Radical Democratic Politics* (London: Verso, 1985). See my critique in "Foucault and the Imagination of Power," in *Foucault: A Critical Reader*, ed. David Hoy (London: Blackwell, 1986), pp. 149–55.
199. I discuss this possibility in "Michel Foucault, 1926–1984," in *After Foucault: Humanistic Knowledge, Postmodern Challenges*, ed. Jonathan Arac (New Brunswick: Rutgers University Press, 1988), pp. 8–9.
200. Jürgen Habermas, *Autonomy and Solidarity: Interviews*, ed. Peter Dews (London: Verso, 1986), p. 187.
201. James, *Black Jacobins*, p. 401.
202. *Ibid.*
203. *Ibid.*, p. 402.

## CHAPTER FOUR

### FREEDOM FROM DOMINATION IN THE FUTURE

1. Michael Barratt-Brown, *After Imperialism* (rev. ed. New York: Humanities, 1970), p. viii.
2. Arno J. Mayer, *The Persistence of the Old Regime: Europe to the Great War* (New York: Pantheon, 1981). Mayer's book, which deals with the reproduction of the old order from the nineteenth to the early twentieth century, should be supplemented by a work that details the passing on of the old colonial system, and trusteeship, from the British empire to the United States, during World War Two: William Roger Louis, *Imperialism at Bay: The United States and the Decolonization of the British Empire, 1941–1945* (London: Oxford University Press, 1977).
3. *North-South: A Program for Survival* (Cambridge, Mass.: MIT Press, 1980). For a bleaker, and perhaps truer, version of the same reality, see A. Sivanandan, "New Circuits of Imperialism," *Race and Class* 30, No. 4 (April–June 1989), 1–19.
4. Cheryl Payer, *The Debt Trap: The IMF and the Third World* (New York: Monthly Review, 1974).
5. *North-South*, p. 275.
6. For a useful history of the three worlds classification, see Carl E. Pletsch, "The Three Worlds, or the Division of Social Scientific Labor, circa 1950–1975," *Comparative Studies in Society and History* 23 (October 1981), 565–90. See also Peter Worsley's now classic *The Third World* (Chicago: University of Chicago Press, 1964).
7. Noam Chomsky, *Towards a New Cold War: Essays on the Current Crisis and How We Got There* (New York: Pantheon, 1982), pp. 84–85.
8. Ronald Steel, *Walter Lippmann and the American Century* (Boston: Little, Brown, 1980), p. 496.

## Notes

9. See Anders Stephanson, *Kennan and the Art of Foreign Policy* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1989), pp. 167, 173.
10. Richard J. Barnett, *The Roots of War* (New York: Atheneum, 1972), p. 21. See also Eqbal Ahmad, "Political Culture and Foreign Policy: Notes on American Interventions in the Third World," in *For Better or Worse: The American Influence in the World*, ed. Allen F. Davis (Westport: Greenwood Press, 1981), pp. 119-31.
11. V. G. Kiernan, *America: The New Imperialism: From White Settlement to World Hegemony* (London: Zed, 1978), p. 127.
12. Albert K. Weinberg, *Manifest Destiny: A Study of Nationalist Expansionism in American History* (Gloucester, Mass.: Smith, 1958). See also Reginald Horsman, *Race and Manifest Destiny: The Origin of American Racial Anglo-Saxonism* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1981).
13. Richard Slotkin, *Regeneration Through Violence: The Mythology of the American Frontier, 1600-1860* (Middletown: Wesleyan University Press, 1973), p. 557. See also its sequel, *The Fatal Environment: The Myth of the Frontier in the Age of Industrialization, 1800-1890* (Middletown: Wesleyan University Press, 1985).
14. C.L.R. James, *Mariners, Renegades and Castaways: The Story of Herman Melville and the World We Live In* (1953; new ed. London: Allison & Busby, 1985), p. 51 and *passim*. Also Kiernan, *America*, pp. 49-50.
15. See J. Michael Dash, *Haiti and the United States: National Stereotypes and the Literary Imagination* (London: Macmillan, 1988), pp. 9, 22-25 and *passim*.
16. Kiernan, *America*, p. 206.
17. *Ibid.*, p. 114.
18. Irene Gendzier, *Managing Political Change: Social Scientists and the Third World* (Boulder and London: Westview Press, 1985), especially pp. 40-41, 127-47.
19. *Many Voices, One World* (Paris: UNESCO, 1980).
20. Anthony Smith, *The Geopolitics of Information: How Western Culture Dominates the World* (New York: Oxford University Press, 1980), p. 176.
21. Herbert I. Schiller, *The Mind Managers* (Boston: Beacon Press, 1973) and *Mass Communications and American Empire* (Boston: Beacon Press, 1969); Armand Mattelart, *Transnationals and the Third World: The Struggle for Culture* (South Hadley, Mass.: Bergin & Garvey, 1983). These are only three works among several produced on the subject by these writers.
22. Munif's five novels in the series appeared in Arabic between 1984 and 88; two volumes have appeared in excellent English translations by Peter Theroux, *Cities of Salt* (New York: Vintage, 1989) and *The Trench* (New York: Pantheon, 1991).
23. James A. Field, Jr., *America and the Mediterranean World, 1776-1882* (Princeton: Princeton University Press, 1969), especially Chapters 3, 6, 8, and 11.
24. Richard W. Van Alstyne, *The Rising American Empire* (New York: Norton, 1974), p. 6.
25. Fouad Ajami, "The Summer of Arab Discontent," *Foreign Affairs* 69, No. 5 (Winter 1990-91), 1.
26. One of the leading historians of Islamic art, Oleg Grabar, discusses the city of Baghdad as one of three foundational monuments of the artistic heritage: *The Formation of Islamic Art* (1973; rev. ed. New Haven: Yale University Press, 1987), pp. 64-71.
27. Kiernan, *America*, pp. 262-63.
28. Arnold Krupat, *For Those Who Came After: A Study of Native American Autobiography* (Berkeley: University of California Press, 1985).
29. Basil Davidson, "On Revolutionary Nationalism: The Legacy of Cabral," *Race and Class* 27, No. 3 (Winter 1986), 43.
30. *Ibid.*, 44. Davidson amplifies and develops this theme in his deeply reflective *The Black Man's Burden: Africa and the Curse of the Nation-State* (New York: Times, 1992).

إدوارد سعيد

- ولد في القدس فلسطين
- أستاذ الأدب الإنكليزي والمقارن في جامعة كولومبيا نيويورك حتى تاريخ وفاته عام ٢٠٠٣.
- له أكثر من ثلاثة عشر كتاباً، أشهرها الاستشراق، والعالم والنص والناقد، ودايات، ومسألة فلسطين، والكتاب الذي بين أيديكم. وقد ساهم في تحرير عدد كبير من الكتب الأخرى، وفي كتابة مئات المقالات السياسية والأدبية في الدوريات الأميركية والبريطانية والعربية.
- يُعدُّ أبرز مدافع عن قضية فلسطين في الولايات المتحدة الأمريكية، ومن أبرز المعارضين المبدئيين والضلبيين لسياسة «السلطة الفلسطينية» منذ اتفاق أوسلو.
- وهو، بحق، من المثورين الطليعيين لحقول النقد الأدبي والإنسانيات والدراسات الإقليمية والأدب المقارن.

كمال أبو ديب

## مكتبة بغداد

- ولد في صافيتا، سوريا.
- أستاذ كرسي العربية في جامعة لندن. الى ما قبل زمن قصير
- له مؤلفات عدة بالإنكليزية والعربية، أشهرها: جدلية الخفاء والتجلي، ونظرية الصورة الشعرية عند عبد القاهر الجرجاني، وفي الشعرية: الرؤى المقنعة... وله أبحاث كثيرة بالعربية والإنكليزية في دوريات متعددة
- ترجم إلى العربية كتب الاستشراق لإدوارد سعيد وكتاب الفلسفة الشخصية عند خليل رامز سرقيس لإميل معلوف، ونقل إلى الإنكليزية مجلداً من النصوص المختارة من شعر أدونيس بعنوان مدارات الرغبة.

### هذا الكتاب

في هذا الكتاب، يبسط إدوارد سعيد جناحيه فوق عالم أعظم مدى ورحابة من العالم الذي غطاه مؤلفه السابق الاستشراق (١٩٧٨) ليكشف عن التواطؤ الكلي والتشابك الحميمي بين الإمبريالية والثقافة التي أنتجتها مجتمعاتها. ولكنه يتجاوز هذا ليكشف أبعاداً مقموعة للثورة ضد السيطرة الإمبريالية في جميع بقاع العالم غير الأوروبي، ويوجه نقده أيضاً إلى الاستعلائية المضادة الممثلة في القومية الشوفينية والأصولية ونظريات الصفاء العرقي أو الثقافي.

«هذا أعظم عمل أبدعه إدوارد سعيد. إنه نص يتجاوز عمله الكلاسيكي الاستشراق، ويأخذنا في زوابع لحظتنا الثقافية والسياسية الراهنة وعبرها».

كورنل وست

دار الآداب

ISBN: 978-9953-89-304-4



9 789953 893044

هاتف: ٠١ / ٨٦١١٣٣

٠١ / ٧٩٥١٣٥

ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

<https://telegram.me/maktabatbaghdad>